مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّلاثونَ

سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلّد الثّلاثون

سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسَ عَشَرَ

سُورَةُ الكَهفِ

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: 37 - 38]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

تكملةُ بعضِ مشاهدِ القصّةِ، بإبْطالِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ لمقالَةِ السّوءِ

بَعْدَ أن حَكى اللّٰهُ تعالى مقالَةَ الرَّجُلِ الكافِر، ودَعْواهُ اسْتِحْقاقَ العَطاءِ في الآخِرَةِ عَلى فرْضِ قيامِ السّاعةِ، وكانَتْ هذه المَقالَةُ في غايَةِ البُطلانِ؛ أَوْرَثَ ذلكَ سُؤالًا وهوَ: ما كانَ رَدُّ صاحبه المُؤْمِن عليْهِ؟ فجاءَ الجَوابُ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَاحِبُهُۥ﴾: (صحب) تدلُّ تصريفاتُها على مقارنَةِ شيءٍ ومقارَبَته[2]، ومِنْهُ الصّاحبُ، وهوَ المُلازِمُ، سواءٌ أكانَ إِنْسانًا أم حَيوانًا أم مَكانًا أم زَمانًا، مِنْ غيرِ فرْقٍ بَيْنَ أَنْ تكونَ مُصاحَبَتُه بالبَدَنِ - وهوَ الغالِبُ والأصلُ - أَوْ بالعِنايةِ والهِمَّةِ[3]، وقولُ اللّٰه سُبحانَه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المرادُ به الرَّجُلُ الذي كَثُرَت مُلازَمَتُه له، وقد ذهَبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ هذه الصُّحبةَ كانَتْ أُخوَّةً، فقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ أي: قالَ لَهُ أخوهُ، وفي الأُخوَّةِ مَعْنى المُصاحَبَةِ[4].

2) ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: (حور) تدلُّ تصريفاتُها على معانٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ وهي: اللَّوْنُ، والرُّجوعُ، ودورانُ شَيْءٍ، فمِنَ الأوَّلِ: حَوَرُ العَيْنِ، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 13.

شدَّةُ بياضِ العينِ في شدَّةِ سوادِها، ومِنَ الثّاني: الحَوْرُ وهو الرُّجوعُ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓ﴾ [الانشقاق: 14 - 15]، ومِنَ الثّالِثِ: المِحْوَرُ؛ وهي الخشبَةُ التي تدورُ فيها البكَرَةُ التي يُسْقى بها[1]، والمُحاورَةُ يَجوزُ أَن تكونَ مِنَ الأَصْلِ الثّاني؛ وهوَ الرُّجوعُ، وذلكَ لأَنَّ كلًّا مِنَ المُتَحاورَيْنِ يَرْجِعُ إلى كلامِ مُحاوِرِه بالجَوابِ[2]، ويَجوزُ أن يَكونَ مِنَ الأصلِ الثّالِثِ وهوَ الدَّورانُ؛ وذلكَ لأَنَّ الكلامَ يَدورُ بينَ المُتَحاوِرَيْنِ أَخْذًا ورَدًّا، ومِنْهُ قول اللّهُ تَعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، كما أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ من الأصل الأوَّلِ معنًى لا حِسًّا؛ لتلوُّنِ كلامِ المتحاورَينِ ما بينَ خبرٍ وإنشاءٍ وطلبٍ وغير ذلك.

3) ﴿نُّطْفَةٍ﴾: (نطف) تدورُ اشتقاقاتُها على قَطْرِ مائعٍ مِن وِعائِه بنَحْوِ الرَّشْحِ لوَهْيِه أَوِ انْدِفاعِه، ومِنْهُ قولُهُم: ليلَةٌ نَطوفٌ؛ إذا كانت قاطِرةً ماطِرةً إلى الصَّباحِ، ومِنْهُ النُّطْفَةُ والنُّطافَةُ؛ وهيَ القليلُ مِنَ الماءِ الباقي في القِرْبَةِ، ومِنْهُ سمّيَ المَنِيُّ نُطْفَةً[3]؛ وهوَ ماءُ الرَّجُلِ[4]، ويُطْلَقُ أيضًا على ماءِ المرأةِ أنَّهُ مَنِيٌّ، والمرادُ بـ ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: المَنِيُّ[5].

4) ﴿سَوَّىٰكَ﴾: (سوي) تدلُّ تصريفاتُها على استقامَةٍ واعتدالٍ بين شَيْئَيْنِ، ومِنْهُ قولُهُم: هَذا لا يُساوي كَذا؛ أَيْ: لا يُعادِلُهُ[6]، ومِنَ الاستقامَةِ قولُهُم: سوّى الشَّيءَ تَسْوِيَةً؛ إذا جعلَهُ سويًّا على الاستقامَةِ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: 29][7]؛ أي: هيَّأَهُنَّ وخلقَهُنَّ ودبَّرهنَّ وقوَّمَهُنَّ[8]، وقولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾؛ أي: عَدَلَكَ وكَمَّلَكَ إِنْسانًا ذَكَرًا بالِغًا مبلغَ الرِّجالِ[9].

5) ﴿رَجُلٗا﴾: الرَّجُلُ: الذَّكَرُ البالِغُ مِنْ بني آدَمَ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9]، ومِنْهُ أيضًا قولُ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حور).
(2) الرّاغب، المفردات: (حور).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نطف).
(4) الراغب، المفردات: (نطف).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 17.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 431.
(9) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 301.

سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾، ويُطْلَقُ أيضًا على ما يُقابِلُهُ مِنَ الجِنِّ، ومِنْهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجنّ: 6].

6) ﴿أَحَدٗا﴾: (وحد) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى الانْفِرادِ، ومِنْ ذلك: الوَحدة، يُقال: هو واحِدُ قَبيلَتِهِ؛ إذا لم يكُنْ فيهم نَظيرُه[1]، والأحَدُ فَرْعُ الواحِد؛ فالهَمزَةُ مُنْقَلِبَةٌ عنِ الواو[2]، ولفظُ (أحَد) إذا اسْتُعْمِلَ في النَّفْي؛ أفادَ اسْتِغْراقَ الجِنْسِ، مُتَناوِلًا القليلَ والكَثيرَ عَلى طريقِ الاجْتِماعِ والافْتِراقِ، كَقَوْلِهِم: ما في الدّار أحدٌ، أي: لا واحدٌ ولا اثْنانِ فصاعِدًا، لا مُجْتَمِعينَ ولا مُفْتَرِقين[3]، ومِنهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ فإنَّ فيه نفيًا مستغرقًا.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

المُنْعِمُ بأَجْناسِ النِّعَمِ - ومنها الخلقُ والتّسويَةُ - لا يَنْبَغي أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

قال الرَّجلُ المُؤْمِنُ لصاحِبِ الجَنَّتَين وهو يُخاطِبُهُ واعِظًا لَهُ مُذكِّرًا إيّاه بأصلِ خلقه مِن ترابٍ ثمَّ من ماءٍ مهين: كيفَ تَكْفُرُ باللّه الّذي خلقَ أباكَ آدمَ عليه السلام مِنْ تُرابٍ، ثُمَّ أَنْشَأَكَ مِن نُطْفَةِ رجُلٍ وامرأةٍ، ثُمَّ عَدَلَكَ بَشَرًا سويًّا رَجُلًا ذَكَرًا، أَكَفَرْتَ بمَنْ فعلَ بكَ هَذا أن يُعيدَكَ خَلْقًا جَديدًا بَعْدَما تَصيرُ رُفاتًا؟! أمّا أنا فلا أَكْفُرُ بِرَبّي، ولا أقولُ بمَقالَتِكَ الدّالَّةِ على كُفْرِكَ، وإنّما أقولُ: المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ هوَ اللّهُ رَبّي وحْدَهُ، ولا أُشْرِكُ معهُ في عِبادَتي لَهُ أحدًا غَيْرَهُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

دِلالَةُ الاسْتِئْنافِ في ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾:

الجُملَةُ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، مستأنفةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أحد).
(3) الراغب، المفردات: (أحد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 23، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.

استئنافًا بيانيًّا؛ وذلك لأنَّها واردَةٌ جوابًا عن سُؤالٍ يُفهَم مِنَ الجُملَةِ التي قَبْلَها وهيَ قولُه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾، فكأنَّه قيلَ: فما كانَ رَدُّ صاحبِه المُؤمِنِ؟ فجاء الجوابُ في هذه الآيَة: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، ولذا تُرِكَ العطفُ بَيْنَهُما، كَما هو شَأْنُ أُسْلوبِ المُحاوَرَةِ والمُجاوبة[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

الاهْتِمامُ بِمَضْمونِ الخِطابِ، في مَقامِ المُحاوَرَةِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على الفاعِلِ ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ اهْتِمامًا، أي: أنَّ هذا القولَ وجَّهَهُ لَهُ صاحِبُهُ المؤمِنُ لا لغيرِه، واختصاصُهُ صاحبَهُ بالكلامِ أمارةُ الاهتمامِ بمَضْمونِ الخِطابِ والمُحاوَرَة.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفاعِلِ ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ مُضافًا:

إخلاصُ النُّصْحِ في سياقِ الإنْكارِ، من بليغِ السّياقِ

جاءَ التَّعبيرُ عَنِ الفاعِلِ ﴿صَاحِبُهُۥ﴾ مُضافًا إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى صاحِبِ الجَنَّةِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذه المقالةَ ناشِئَةٌ عَنْ مَحْضِ نُصْحٍ لَهُ؛ لكَوْنِه صاحِبَهُ، وإن كانَ المُرادُ بها الإنكارَ عليْه فيما زَعَمَهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الحاليَّة:

الاهْتِمامُ بشَأْنِ الكَلامِ، والاعْتِناءُ بِهِ، مِن بيانِ هذا السّياقِ

جملَةُ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وفائِدَتُها: التَّنْبيهُ من أوَّلِ الأمرِ إلى أنَّ ما بَعْدَهُ مِنَ الكَلامِ المَسوقِ للمُحاوَرَةِ كلامٌ لَهُ أَهَمّيَّةٌ وشأْنٌ يُعْتَنى به[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالخَبَرِ فِعْلًا مُضارِعًا:

دَوامُ النُّصْحِ مِنْ شِيَمِ أَهْلِ الإيمانِ

جاءَتْ جُملَةُ الحالِ اسْميَّةً ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، ووَرَدَ الخَبَرُ فيها فِعْلًا مُضارِعًا ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، وذَلِكَ فيهِ إيماءٌ إلى دَوامِ نُصْحِ صاحِبِه لَهُ ومُحاوَرَتِه إيّاهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 60، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 321.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 222.

الغرضُ منَ التّعبير بالاسْتِفْهامِ في ﴿أَكَفَرْتَ﴾:

الجملَةُ: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ؛ إذِ الهَمزَةُ في أوَّلِها للاستفْهام، وهَذا الاستفهامُ لا يُرادُ به حقيقتُهُ؛ وهو طلَبُ العِلْم بشَيْءٍ لَم يكُنْ معلومًا من قَبْلُ، وإنَّما هوَ مستعمَلٌ في مَعْنى الإنْكارِ والتَّعَجُّب والتَّوبيخ، حيثُ أَشْرَكَ مَعَ اللّه تَعالى غَيْرَه[1].

المُشْرِكُ باللّه تعالى حَريٌّ بالإنْكارِ عليْه وتَوْبيخِهِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالفاعِلِ ضَميرَ خِطابٍ في ﴿أَكَفَرْتَ﴾:

في التَّعبيرِ بالفاعِلِ ضميرَ خِطابٍ ﴿أَكَفَرْتَ﴾ مِن جملة: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ تَخْصيصٌ لَهُ بخِطابِ الزَّجْرِ والتَّوبيخ، وذَلِكَ أَبْلَغُ في الرَّدِّ وأشَدُّ في التَّقْريع؛ لكَوْنِ ذَلِكَ واقِعًا عَلى جِهَةِ المواجَهة.

تخصيص الخِطابِ في التَّوْبيخِ، أَبْلَغُ في التَّقْريعِ والتّشنيع

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالموصول:

في التَّعبيرِ بالجارِّ والمَجْرورِ اسْمًا موصولًا في جملة: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ نِكاتٌ[2]: **إحداها**: الإشعارُ بعِلّيَّةِ ما في حيِّزِ صلةِ الموصولِ، والقصدُ مِن ذلك إنكارُ الكفر، والإيماءُ إلى دليلِ البعثِ الذي صَرَّح به القرآنُ الكريم في موضعٍ آخَرَ، وهو قولُ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5].

المُتَفَرِّدُ بالخَلْقِ، هوَ المُسْتَحِقُّ للعِبادَةِ

ثانيها: أَنَّ مضمونَ الصّلة من شأنه أن يَصرِفَ مَن يوقِنُ به عن الشِّرْكِ باللّه تَعالى، وذلك لأنّهم يُقِرّون بأَنَّ اللّه ﷻ هو الذي خَلَقَ النّاس، ومَن كانَ خالِقًا كانَ مُسْتَحِقًّا للعِبادَة.

ثالثها: أَنَّ مَن علِمَ بالخلق الأوّلِ من شَأْنه أن يصرِفَ العبدَ عن إنكارِ الخَلْقِ الثّاني، كما قال اللّه تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: 15].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 322.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 222، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 15/ 322.

رابعُها: أنَّ في مضمون الصِّلَةِ تعريضًا بجهلِ المخاطَبِ؛ لأنَّ إعادةَ الخلق أهونُ من بدئِه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿خَلَقَكَ﴾:

أعْظَمُ الجُحودِ، جَحْدُ حَقِّ اللهِ تَعالى في أُلوهيَّتِهِ

في التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿خَلَقَكَ﴾ في جملة: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾؛ دلالَةٌ عَلى تحقُّقِ خَلْقِ الله تعالى لَهُ وثبوتِ ذَلك، وذلكَ أشدُّ في الإنْكارِ عَلى المُخاطَب؛ لأنَّه قَدْ تحقَّقَ مِنْهُ الكفرُ مَعَ تحقُّقِ خَلْقِ الله تعالى لَهُ، وهَذا في غايَةِ الجُحودِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بضَميرِ الخِطابِ في ﴿خَلَقَكَ﴾:

تَوْجيهُ خِطابِ الزَّجْرِ، أبْلَغُ في التَّوْبيخِ وأَدْخَلُ في التَّقْريعِ

في التَّعبيرِ بالمفعولِ به ضميرَ خِطابٍ ﴿خَلَقَكَ﴾ من جملة: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ تَخْصيصٌ لَهُ بالخِطابِ؛ لأنّ المقامَ مقامُ زجْرٍ وتوبيخٍ، فالمَعنى: الذي خَلقكَ أيُّها الجاحدُ المَعْنيُّ بالخطاب، واعتنى بكَ هذه العنايةَ البالغَةَ في الإيجادِ؛ قبيحٌ مِنْكَ أن يصدُرَ مِنْكَ كُفْرٌ به وجحودٌ له، فكان التَّعبيرُ بالخطابِ أَبْلَغَ في التَّقريعِ؛ لكَوْنِ ذَلكَ واقعًا عَلى جِهَةِ المواجَهةِ والتَّخصيصِ.

مَعْنى ﴿مِن﴾ ودِلالَتُها في قَوْلِهِ: ﴿مِن تُرَابٍ﴾:

بيانُ أثَرِ حُروفِ المعاني في إيضاحِ المراد

﴿مِن﴾ الجارّةُ في جملة: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ ابتدائيَّةٌ[1]، أي: أنَّ اللّه ﷻ ابتدأ خَلْقَكَ بخَلقِ أبيكَ آدمَ عليه السلام مِنْ تُرابٍ، كما قال الله تَعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59].

الغرضُ من تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿تُرَابٍ﴾:

بَيانُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ في الخَلْقِ، مُنبئٌ بعظمةِ الخالق وإنعامِهِ

جيءَ بالمَجْرورِ اسْمًا منكَّرا في جملة: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾؛ لعَدَمِ المُقْتَضي لتَعْريفِ اللَّفْظِ بإحْدى طُرُقِ التَّعريفِ، ولأنَّ تعريفَهُ باللّامِ قَد يوهِمُ إرادَةَ العَهْدِ، وأنَّه من ترابٍ معهودٍ خاصٍّ، ثُمَّ إنَّ في تنكيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 322.

لَفْظِ ﴿تُرَابٍ﴾ نوعَ تحقيرٍ لهذه المادَّةِ، مُسْتَلْزِمٍ تعظيمَ هَذا الخَلْقِ من الخالقِ القادرِ العظيم؛ إذْ إنَّه سبحانه خلَقَ مِنْ هذه المادَّةِ اليَسيرَةِ رَجُلًا سويًّا، وهَذا أَظْهَرُ في إِبْرازِ القُدْرَةِ الإلَهيَّة.

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ ودِلالَتُها في السّياق:

بيانُ أَثَرِ حُروفِ المَعاني، في إبْرازِ لَطائِفِ المَعاني

في جملة: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، نجدُ حرفَ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدالَّ علَى التَّرتيبِ والتَّراخي، وفي إيرادِه إيماءٌ إلى الزَّمنِ المُمتَدِّ بينَ خلقِه من تُرابٍ وبينَ خَلْقِه من نُطْفَة؛ إذِ الخَلْقُ مِنَ التُّرابِ حاصِلٌ لآدمَ عليه السلام فقولُهُ: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: بالنَّظر إلى أَصْلِه، وهوَ آدمُ عليه السلام والخلقُ مِنَ النُّطْفَةِ حاصلٌ لذُرِّيَّتِه مِنْ بعدِه، ومِنْ جُملَةِ الذُّرّيَّة المخاطَبُ في هذه الآيةِ؛ وهوَ صاحِبُ الجَنَّتينِ، وبَيْنَهُما زمنٌ مُمتَدٌّ طويلٌ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ نَكِرَةً ﴿نُّطْفَةٍ﴾:

خَلْقُ الإنسان مِن ماءٍ مهين دليلٌ على عظمة الخالق المقتدر

في التَّعبيرِ بالمَجْرورِ اسْمًا منكَّرًا في جملة: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ دلالَةٌ على الإفرادِ، أي: خلقكَ اللَّهُ تعالى مِنْ نُطفةٍ واحدَةٍ، وفي تنكيرِ ﴿نُّطْفَةٍ﴾ إيماءٌ إلى مَعْنى التَّحقيرِ لهذه النُّطْفَة، ولِذا جاءَ التَّعبيرُ عنها في موضعٍ آخرَ مِنَ القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٢٠﴾ [المرسلات: 20]، وهذا التَّحقيرُ يَسْتَلْزِمُ تعظيمَ هذا الخَلْقِ؛ إذْ إنَّ اللَّهَ تعالى خلقَ مِنْ هذه المادَّةِ المَهينَةِ بشرًا سويًّا، وهذا أَبْيَنُ في الدّلالَةِ علَى القُدْرَةِ الإلهيَّة.

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ ودِلالَتُها في السّياق:

بَيْنَ النُّطْفَةِ وتَسْويَةِ العَبْدِ رَجُلًا مَراحِلُ وأَطْوارٌ

﴿ثُمَّ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ عَلى التَّرتيبِ والتَّراخي، وفي العَطْفِ به إيماءٌ إلى الوَقْتِ المُتَراخي بينَ خلقِه من نُطْفَةٍ وبينَ تَسْويَتِه رجلًا؛ إذْ بعدَ النُّطفةِ أطوارٌ من الخَلْقِ في بطنِ الأُمِّ، ثُمَّ بَعْدَ الولادَةِ مراحِلُ متعدِّدَةٌ إلى أن يصلَ العبدُ إلى الرُّجولَة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿سَوَّىٰكَ﴾:

بُلوغُ الرَّجُلِ الكافِرِ مَبْلَغًا عَظيمًا في الجُحودِ

في التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿سَوَّىٰكَ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ دلالَةٌ عَلى تحقُّق تَسْويَةِ اللّٰه سبحانه لَهُ وثبوتِ ذَلِك، وذلكَ أشدُّ في الإنْكارِ عَلى المُخاطَب؛ لأنَّه تحقّق مِنْهُ الكفرُ مَعَ تحقُّق هذه المِنَّةِ العظيمَةِ، وهي تسويَتُهُ رجلًا، وهَذا أبلغُ في الدّلالَةِ على جُحودِ هَذا الرَّجُلِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ به ضَميرَ خِطابٍ في ﴿سَوَّىٰكَ﴾:

بيانُ شَناعَةِ الكُفْرِ بالخالِقِ العَظيمِ

في التَّعبيرِ بالمفعولِ به ضميرَ خِطابٍ ﴿سَوَّىٰكَ﴾ من جملة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ تَخْصيصٌ لَهُ بالخِطاب؛ إذِ المَقامُ مقامُ توبيخٍ وزَجْرٍ، فالمَعنى: الذي خَلقكَ أيُّها الجاحدُ المَعْنيُّ بالخطابِ دونَ غيرك، واعتنى بكَ هذه العنايةَ البالغَةَ في الإيجادِ حتَّى صيَّرك رجلًا سويًّا؛ قبيحٌ مِنْكَ أن يقعَ مِنْكَ كُفْرٌ به وجحودٌ له، فكان التَّعبيرُ بالخطابِ أبْلَغَ في التَّقريعِ والتَّوبيخِ؛ لكَوْنِ ذَلكَ واقِعًا عَلى جِهَةِ التَّخصيصِ والمواجَهةِ.

مَوْقِعُ كَلِمَةِ ﴿رَجُلٗا﴾، وسِرُّ تَنْكيرِها:

بَيانُ العَظَمَةِ الرَّبّانيَّةِ، في خَلْقِ الإنْسانِ، وإيجادِ البشريّة

في اخْتيارِ التَّعْبيرِ بلَفْظِ ﴿رَجُلٗا﴾ مِنْ جملة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ إشارَةٌ إلى العَظَمَةِ الرَّبّانيَّة في الخَلْقِ؛ ووقعت موقع الحال، إذِ الرُّجولَةُ مُنْتَهى قوَّةِ الإنسانِ، وفي تَنْكيرِها تَقْويَةٌ لِهَذا المَعْنى؛ إذِ التَّنْكيرُ دالٌّ عَلى التَّعْظيم، أيْ: سَوّاكَ رَجُلًا ذا قَدْرٍ وكَرامَةٍ.

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مِمّا قَبْلَها:

بَيانُ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ في الله سُبْحانَهُ

لمّا أنكرَ الرَّجلُ المُؤمِنُ عَلى الكافِرِ اعتقادَهُ الفاسدَ؛ بيَّنَ اعتقادَهُ الصحَّيحَ فقال اللّٰه سبحانه حاكيًا مقالَتَهُ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، فكانَ خَبَرُه هَذا مُضادًّا لاعْتِقادِ صاحِبه، وللتَّغايُرِ البيِّن بَيْنَ الجُملَتَيْنِ وقَعَتْ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ مَوْقِعَها، وفي إيرادِ هذه الجُملَة مصدَّرةً بـ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ بعد الجملَةِ قَبْلَها إيماءٌ إلى أنَّ الكُفْرَ باللّٰه تعالى يُقابلُهُ الإيمانُ والتَّوحيدُ[1].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 61، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 264.

مَعْنى ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ ودِلالَتُها في السّياق:

مُفادُها التَّصريح بالاعْتِقادِ الحَقِّ، بَعْدَ إنْكارِ الاعْتِقادِ الباطِلِ

﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ حرفٌ دالٌّ على الاسْتِدْراك، وفي تَصْديرِ الجُملَةِ به في جملة: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى مُخالَفَةِ ما بَعْدَها لما قَبْلَها، وذَلِكَ لأنَّ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ تَقَعُ بينَ كَلامَيْنِ مُتَغايِرَيْنِ، كَقَوْلِهِم: زيدٌ حاضرٌ، لَكِنْ عَمرٌو مُسافِرٌ، فكأنَّ المَعْنى: أَكَفَرْتَ باللّه؟! لكنّي مؤمِنٌ موَحِّدٌ، فكانَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ مُغايَرَةٌ؛ وذلك لأنَّ الأولى تَضَمَّنَتْ إنْكارًا للاعْتِقادِ الباطِلِ، وفي التّاليَةِ تَصْريحٌ بالاعتِقادِ الحَقِّ[1].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيْه ضَميرَ تَكَلُّم:

بيانُ التَّصْريح بالمُخالَفَةِ، والمُبالَغَةِ في الإنْكارِ والمُعارَضَةِ

في التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيْه ضميرَ تكلُّمٍ في ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ من جملة: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مبالغةٌ في الإنْكارِ وتَصْريحٌ بالمُخالَفَة؛ فإنَّ ضَميرَ التَّكلُّم أعْرَفُ الضَّمائرِ عَلى الإطْلاقِ، فكانَ في التَّعْبيرِ به أظهرُ بَيانٍ في المُخالَفَة.

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بالمُسنَد إليه الثّاني ﴿هُوَ﴾ ضَميرَ غَيْبَةٍ:

اللهُ ﷻ أعْرَفُ المَعارِفِ

في التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ إليه ضَميرَ غَيْبَةٍ ﴿هُوَ﴾ مِنْ جملة: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ أعْرَفُ المَعارِف، فلا شَيْءَ أظْهَرُ مِنْهُ، فـ﴿هُوَ﴾ الظّاهِرُ أتَمَّ الظّهور فلا يَخْفى أصْلًا، بحَيْثُ إنَّ الضَّميرَ يَكْفي في الدّلالَةِ عليْه دونَ الافْتِقارِ إلى التَّصريح باسْمِه[2].

سِرُّ الإضافَةِ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ ﴿رَبِّي﴾:

بَيانُ عَظيمِ إحْسانِ الله تَعالى

في إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى ضَميرِ المُتَكَلِّمِ في جملة: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى عَظيمِ إحْسانِه إلَيْه، واخْتِصاص ذَلِكَ باللّه ﷻ، أيْ: أنَّهُ لَم يُحْسِنْ إلَيْه أحدٌ غيرُ اللّه تَعالى ولَم يَرْزُقْهُ أحدٌ غيرُه[3].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 464، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 61.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 61.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 61.

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾:

إِثْباتُ العُبودِيَّةِ للهِ تَعالى وحْدَهُ، ونَفْيُ الإِشْراكِ بِهِ

الواوُ في جملة: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها علَى قَوْلِه قبلُ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، ووجهُ الوَصْلِ بَيْنَ الجُملَتَيْن: أَنَّ بَيْنَهُما تَوسُّطًا بَيْنَ الكَمالَيْن، وذَلِكَ لاشْتراكِهِما في الخَبَرِيَّةِ، وبينَهُما مُناسَبَةٌ؛ إذِ الجملةُ الأولى فيها إِثْباتُ العُبوديَّةِ للّه تعالى وحْدَهُ، ولازِمُ ذلكَ تَرْكُ الإِشْراكِ به، والجُملَةُ الثّانيَةُ فيها تَصْريحٌ بهذا اللّازم، ولا يَضُرُّ المُخالَفَةُ بينَ الجُملَتَيْنِ في الاسْميَّةِ والفِعْلِيَّةِ؛ فإنَّ هذا ليسَ بلازِمٍ لِصحَّةِ العطفِ.

دِلالَةُ أَداةِ النَّفْيِ مع المضارع ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾:

نَفْيُ الإِشْراكِ بِاللهِ تَعالى مُسْتَمِرٌّ دائِمٌ

في إيثارِ التَّعْبيرِ القُرْآنيِّ بحَرْفِ النَّفْيِ ﴿وَلَآ﴾ معَ الفِعْلِ المُضارِعِ، في قَوْلِه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، دلالَةٌ عَلى اسْتِمرارِ انْتِفاءِ الشِّرْكِ مِنْهُ؛ وذلكَ مِنْ وجْهَيْن: **أَحَدُهما**: أَنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ دالٌّ على التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ بالقَرائِنِ، **والآخر**: أَنَّ (لا) النّافِيَةَ، إذا سُلِّطت عَلى الفِعْلِ المُضارِعِ؛ لَم تُقَيِّدْهُ بزَمَنٍ منَ الأَزْمانِ عَلى الصَّحيحِ، فهوَ نَفْيٌ مُسْتَغْرِقٌ[1].

سِرُّ تَقْديمِ ﴿بِرَبِّيٓ﴾، عَلى المَفْعولِ به ﴿أَحَدٗا﴾:

تَوْحيدُ الرُّبوبِيَّةِ، يَسْتَلْزِمُ تَوْحيدَ الأُلوهِيَّةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿بِرَبِّيٓ﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿أَحَدٗا﴾ مِنْ جملة: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ للعِنايَةِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّة، لكَوْنِها دليلًا على صِحَّةِ عدَمِ الإِشْراكِ باللّه تَعالى؛ إذْ كَوْنُه سبحانه مُتَفَرِّدًا بالرُّبوبيَّة يَسْتَلْزِمُ إِفْرادَهُ بالأُلوهيَّة والعُبوديَّة، وفي الاهْتِمامِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ إيماءٌ إِلى أَنَّ مُجانَبَةَ الشِّرْكِ هو مُقْتَضى إِحْسانِ اللّه تَعالى إِلى العِبادِ، وأَنَّ مُقارَفَةَ الشِّرْكِ مُخالِفٌ لهَذا الإِحْسانِ الإِلَهِيِّ.

الغَرَضُ مِنْ وضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في ﴿بِرَبِّيٓ﴾:

في جملة: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، وضعٌ للمُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 581.

إذ إنَّ مُقْتَضى الظّاهِر: (ولا أُشْرِكُ به أحدًا)، وذلكَ لتَقَدُّمِ ذِكْرِه صَريحًا في الجُملَةِ قَبْلَهُ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، والنُّكْتَةُ في ذَلِكَ تَكْرارُ التَّصريحِ بدَليلِ الأُلوهيَّةِ وهوَ الرُّبوبيَّةُ، والتَّذكيرُ بعُمومِ إحْسانِه سُبْحانَهُ إلى عِبادِه، والمَعْنى: لا أُشْرِكُ برَبّي الذي أَحْسَنَ إلَيَّ أحدًا، كما أنَّهُ لَم يُشارِكْهُ في إحْسانِه إلَيَّ أحدٌ[1].

عُمومُ إحْسانِ اللهِ تَعالى إلى العِبادِ، من معنى السّياقِ المستفادِ

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ المَفْعولِ به ﴿أَحَدًا﴾:

نَفْيُ الشِّرْكِ باللهِ تعالى نَفْيًا عامًّا

نُكِّرَ المَفْعولُ به ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾؛ لإفادَةِ العمومِ، وذلك لوقوعِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْيِ، وهَذا مِنَ الصّيَغِ المُفيدَةِ العُمومَ والاسْتِغْراقَ، والمَعْنى: لا أُشْرِكُ برَبّي أيَّ أحدٍ كانَ، لا مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبيًّا مُرْسَلًا، فضْلًا عَن غَيْرِهِما.

نُكْتَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَحَدًا﴾، دونَ (واحِدًا):

في إيثارِ النَّظْمِ القُرْآنيِّ بـ ﴿أَحَدًا﴾ دونَ (واحِدًا) مِن قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾؛ بيانٌ لكونِ الأحَدِ أبلغَ في النَّفْيِ مِنَ الواحِدِ، فكانَ لَفْظُ الأحَدِ أَنْسَبَ في سياقِ نَفْيِ الإشْراكِ باللّه تَعالى.

بَلاغَةُ التَّأْكيدِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

أَعْظَمُ المَطالِبِ الشَّرْعيَّةِ، تَوْحيدُ ربّ البريّة

في الآيَةِ الكَريمَةِ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ أربعَةُ مُؤَكِّداتٍ؛ وهيَ: الجُملَةُ الاسْميَّةُ في ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، وضميرُ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾، وتعريفُ طَرَفَي الإسْنادِ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ الدّالُّ عَلى قَصْرِ صِفَةِ الرُّبوبيَّةِ عَلى نَفْسِ المُتَكَلِّمِ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسْبَةِ لمُخاطَبِه، أَيْ: هو رَبّي دونَكَ؛ لَكَوْنِكَ تَعْبُدُ غيرَهُ، والقصرُ ضربٌ مِنَ التَّأكيدِ المُضاعَفِ، ثُم أكِّد مضمونُ الجُملَةِ بقَوْلِه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾[2]، وهذا الحَشْدُ للمُؤَكِّداتِ مُلائِمٌ لعَظَمَةِ ما تَضَمَّنَتْهُ الجُملَةُ مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 62.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 15/ 323.

اسْتِحْقاقِ اللّه تَعالى للعِبادَةِ، ونَفْيِ الإِشْراكِ بهِ، فإِنَّ ذلكَ مِنْ أَعْظَمِ المَطالِبِ الشَّرعيَّةِ، بَلْ هوَ أَعْظَمُها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُحاوَرَةُ والجِدالُ:

في الجِدالِ مَلْمَحُ الــشِّــدَّةِ، وفي الـحِـوارِ مَلْمَحُ الهُدوءِ

المُحاوَرةُ في اللُّغةِ: مُراجعَةُ الكلامِ، والجِدالُ: شِدَّةُ الخُصومَةِ واسْتِمرارُ مراجعَةِ الكلامِ، وحقيقَةُ الجِدال - كما قالَ الرّاغِبُ -: "المُفاوضَةُ عَلى سَبيلِ المُنازعَةِ والمُغالَبَة"[1].

ففي الجِدالِ مَلامحُ ثلاثَةٌ؛ وهيَ: الشِّدَّةُ، واستمرارُ مُراجعَةِ الكَلام، والقَصْدُ إِلى قَهْرِ الخَصْمِ وغَلَبتِه غالبًا.

أمّا المُحاورَةُ؛ فلَيْسَ فيها مَعْنى الشِّدَّة الذي في الجِدالِ، ولِذا غايَرَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ بينَ الجِدالِ والحِوارِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: 1]، فسَمّى كلامَ المَرْأَةِ جِدالًا؛ لأَنَّ المرأةَ ظَلَّتْ تُراجِعُ النَّبيَّ ﷺ الكلامَ مرّاتٍ عِدّةً، وهذا فيه ضَرْبٌ مِنَ الشِّدَّةِ، أمّا كَلامُهُما معًا فوصَفَهُ اللّهُ سُبحانه بالمُحاورَةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: 1]، مراعاةً لكَلامِ النَّبيِّ ﷺ[2].

فالجِدالُ فيه مَلْمَحُ الشِّدَّة، والحوارُ فيه ملمَحُ الهُدوء، ولذا عبَّر القرآنُ الكَريمُ بالحِوارِ في قَوْلِه سُبحانه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ لأَنَّ الذي أَنْكَرَهُ المُخاطَبُ أمرٌ في غايَةِ الظُّهورِ، فلَم يَحْتَجْ صاحِبُهُ المُؤْمِنُ إِلى كَثْرَةِ مُراجَعَةِ الكَلامِ معَهُ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جدل).

(2) محمّد محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 178، 181.

الأَحَدُ والواحِدُ:

الـواحِـدُ هـوَ المُنْفَرِدُ بالذّاتِ، في عَـدَمِ المِـثْـلِ والنَّظيرِ

ذهبَ بعضُ أَهْلِ العربيَّةِ إلى أنَّ الواحِدَ والأَحَدَ بمعنًى واحدٍ[1]، ومالَ آخرونَ إلى التَّفريقِ بينَهما، وحاصِلُ الفَرْقِ يرْجِعُ إلى أَوْجهٍ[2]:

أحدُها: أنَّ الأحدَ أخصُّ مِنَ الواحِدِ، فكلُّ أحدٍ واحدٌ، وليس كلُّ واحدٍ أحدًا.

ثانيها: أنَّ الأَحَدَ أقْوى في النَّفْيِ، وذلك لأنَّك إذا قُلْتَ: فلانٌ لا يُقاوِمُهُ واحدٌ؛ جاز أن يُقال: ولكِنْ يُقاوِمُهُ اثنانِ، بخلافِ الأحدِ؛ فإنَّك إذا قلتَ: فلانٌ لا يُقاوِمُه أحدٌ، لَم يَجُزْ أَنْ تقولَ: لكِنْ يُقاوِمُهُ اثنانِ.

ثالثُها: أنَّ الواحِدَ هوَ المُنْفَرِدُ بالذّات في عَدمِ المِثْلِ والنَّظيرِ، والأحدَ هو المُنْفَرِد بالمَعْنَى.

وذكرَ بعضُ أهلِ العِلْمِ **فرقًا آخرَ**، وهوَ أنَّ الواحد يُستعمَلُ في الإثباتِ، والأحدَ في النَّفْيِ[3]، وهذا الفرقُ فيه نظَرٌ، ويردُّه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1].

وفرَّق بينَهُما ثعلبٌ: بأنَّ الواحِدَ يَدْخُلُ في العَدَدِ، بخلافِ الأَحَدِ فإنَّهُ لا يَدْخُل فيه، إلّا أنَّ أبا حَيّان اعترضَ عليه بأنَّهُ يصحُّ أن يقالَ: أَحَدٌ وعِشْرونَ ونحوُهُ، فدَخَلَهُ العدَدُ[4].

---

(1) الخليل، العين: (وحد).

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 32/ 359 - 360، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 32/ 360.

(4) أبو حيان، البحر: 10/ 571، والقِنّوجي، فتح البيان: 15/ 447.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ [الكهف: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الرّبطُ بين الإقرار لله بالوحدانيّة، وتَصْريحِ الرَّجُلِ المؤْمِنِ بالتَّعْليم

لَمّا كانَ أهلُ الإيمانِ سائرينَ على طريقِ الأنبياءِ في إرادَةِ الخَيْرِ والإرْشادِ إلى سبيلِ النَّجاةِ، ومُجانَبَةِ الحِقْدِ عَلى أحَدٍ بشَرٍّ صَدَرَ مِنْهُ؛ قالَ الرَّجُلُ المؤمِنُ لصاحبِه مُصَرِّحًا بالتَّعليم بعدَ أَن أشارَ إليه بما ذَكَرَهُ عَن نَفْسِه مِمّا يجِبُ عليْه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُوَّةَ﴾: (قوي) تدورُ كثيرٌ مِن تصريفاتِها على الشِّدَّةِ وضِدِّ الضَّعْفِ، ومِنْهُ القوَّةُ، والقويُّ: ضدُّ الضَّعيف(2)، وتُستعمَلُ القوَّة في البَدنِ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصّلت: 15]، وفي القَلْبِ، كقولِه سُبحانَهُ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]، وتُستعمَلُ في المُعاوِنِ مِنْ خارجٍ، كقولِه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: 80]، وفي القُدْرَةِ الإلهيَّةِ، كقولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21](3)، والقوَّةُ في قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ عامَّةٌ، أَيْ: لا قوَّةَ لأحَدٍ عَلى شيءٍ إلّا باللّه، وهَذا يَقْتَضي تفويضَ القوَّةِ للّه سُبحانَهُ، أي: هوَ الذي لَهُ القوَّةُ مُطْلَقًا(4).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما شاءَ اللّهُ تَعالى كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ

جاءت وصيّة المؤمن للكافر تحضّه بعبارات التذكير بنِعَم المنعِم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (قوي).
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص: 72.

وتهزّ فيه إنابة الضمير اعترافًا بأنّ هذه الجَنَّة وكُلَّ ما فيها من خيراتٍ، إنّما حصل بمشيئة اللّه وفضله، وأنّ أمرها بيده، إن شاء تَرَكها عامرة، وإن شاء خَرّبها، وإقرارًا بأنّ ما قام فيها قائمٌ إلا بمعونة اللّه تعالى وتأييده؛ إذ لا يَقْوى أحدٌ في بَدَنِه ولا في مِلْكِ يَدِه أنْ يتحرّك فيها إلا بتوفيق اللّه تعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالةُ العَطفِ في مطلع الآية:

الإرشادُ إلى الإقرار، وعدمِ المُبالَغةِ في الإنْكارِ

الواوُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾ عاطفةٌ الجملَةَ بعدَهُ عَلى جُملةِ: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ منْ بابِ عطفِ الإنكارِ على الإنكارِ تقويةً لَهُ ومُبالغةً فيه؛ لأنَّ (لولا) إذا دخلتْ على الماضي أفادتْ معنَى الإنكار[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَوۡلَآ﴾ ودِلالَتُها:

الحَضُّ عَلى الاعْتِصامِ بحَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ وقوَّتِهِ

﴿وَلَوۡلَآ﴾ حرفٌ دالٌّ عَلى التَّحْضيضِ، بمَعْنى: (هلّا)، وفي قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ مُبالغَةٌ في الإنْكارِ، ففي ﴿وَلَوۡلَآ﴾ تحضيضٌ عَلى القَوْلِ، وتوبيخٌ على تركِهِ، أي: كانَ الشَّأْنُ أن تَقولَ: ما شاءَ اللّهُ لا قوّةَ إلّا باللّهِ، بدَلًا مِن قَوْلِك: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾[3].

مَعْنى الظَّرْفِ ﴿إِذۡ﴾، ودِلالَةُ تَقْديمِهِ:

الإقْرارُ للهِ بالمشيئة والقوّة، فوْرَ الدُّخولِ

﴿إِذۡ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بمَعْنى: وقْت، أي: هلّا قُلْتَ وقْتَ دُخولِك جنَّتكَ ورُؤْيَتِك هذه النِّعمَة: ما شاءَ اللّهُ لا قوَّة إلّا باللّه، وقُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿إِذۡ﴾ عَلى المُحَضَّضِ عليه؛ إذْ أصلُ الكَلامِ: (ولَوْلا قُلْتَ كذا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتك)،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 53.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 323.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 518، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 85، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 265، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 323.

وذلك لقَصْدِ الإيذانِ بتَحَتُّمِ القَوْلِ في آنِ الدُّخولِ مِنْ غيرِ مُهْلَةٍ، وإنَّما جازَ تَقْديمُ الظَّرْفِ وجَعْلُه فاصِلًا بينَ ﴿وَلَوۡلَآ﴾ وفِعْلِها؛ لتَوَسُّعِهِم في الظُّروف، والمَعْنى: هلّا قُلْتَ عِنْدَما دَخَلْتَها[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿دَخَلۡتَ﴾:

تأكيدُ مَعْنى التَّوْبيخ، بلفظ (لَولا) المُقْتَرِنَةِ بالفِعْلِ الماضي

عُبِّر بالفِعْلِ الماضي ﴿دَخَلۡتَ﴾ مِن قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ القولَ المذكور بعدُ - ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ - يُقال عِنْدَ تحقُّقِ الدّخولِ؛ لأنَّهُ أبلغُ في رؤية النِّعْمَةِ واستشعارِ المِنَّة، وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي أيضًا: تَقْويةٌ لمَعْنى التَّوبيخ المُسْتَفادِ مِنْ ﴿وَلَوۡلَآ﴾؛ إذِ الشَّأْنُ في ﴿وَلَوۡلَآ﴾ المُقْتَرِنَةِ بالفِعْلِ الماضي أَنْ تُفيدَ التَّوبيخَ، كَما في قَوْلِ اللّٰه ﷻ: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾[2] [النّور: 13].

الغرضُ منَ التّعبيرِ بالفاعلِ ضميرَ خطابٍ مع الفعل ﴿دَخَلۡتَ﴾:

خطابُ المواجَهةِ هو الأنسبُ لمقامِ التّقريعِ والتّوبيخ، وهو المُقابلُ لما حُكِيَ عن ذلك الرّجلِ في مقامِ الكُفرانِ بنعمةِ اللّٰه، بضميرِ التّكلّم، فجاء التّعبيرُ بضميرِ الخطابِ على أتمِّ ما يكونُ.

نُكتةُ وُرودِ المَفْعولِ به مُضافًا لضَميرِ الخِطابِ ﴿جَنَّتَكَ﴾:

إظْهارُ عَظيمِ المِنَّةِ، بما أولى اللّٰه المؤمنين من نعمةٍ بالجَنَّة

في التَّعبيرِ بالمَفعولِ به مضافًا إلى ضميرِ الخِطابِ ﴿جَنَّتَكَ﴾ مِن قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾ تَخْصيصٌ للجنَّة بهِ؛ لإِظْهارِ كَمالِ المِنَّة بها، ولازِمُ ذَلِكَ المُبالَغَةُ في تَحْضيضِه عَلى قولِ: ما شاءَ اللّٰهُ لا قوَّةَ إلا باللّٰه.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿قُلۡتَ﴾ مع ﴿وَلَوۡلَآ﴾:

المُبالَغةُ في التَّوْبيخ والتَّقْريع، من بيانِ السّياقِ الحكيم

في التَّعْبيرِ بـ: ﴿قُلۡتَ﴾ فِعْلًا ماضيًا مع ﴿وَلَوۡلَآ﴾ مِن قولِ اللّٰه سُبْحانَه: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ تَرْشيحٌ لمَعْنى التَّوبيخِ الذي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 265، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 5432.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 175.

دَلَّتْ عليْه ﴿وَلَوۡلَآ﴾؛ لأنَّ (لَوْلا) إذا اقْتَرَنت بالفِعْلِ الماضي أفادَتِ التَّوْبيخَ عادةً، فكانَ التَّعبيرُ بالماضي زيادةً في التَّقْريعِ والتَّوبيخ؛ إذِ التَّوْبيخُ يَكونُ عَلى أمرٍ حاصِلٍ غالبًا.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالفاعِلِ ضَميرَ خِطابٍ ﴿قُلۡتَ﴾:

تَخْصيصُ الخِطابِ بضمير الخطاب، من بليغ السّياق

في التَّعبيرِ بالفاعِلِ ضميرَ خِطابٍ ﴿قُلۡتَ﴾ من قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ تَخْصيصٌ لَهُ بالخِطاب، وأنّه المَعْنيُّ بهَذا القَوْلِ لا غَيْرُهُ؛ إذْ هيَ جَنَّتُه وحْدَهُ، فكَذلكَ القَوْلُ قَوْلُه وحْدَهُ عِنْدَ دُخولِها، والتّعبيرُ بضمير الخطاب، هو الأوقعُ في مقام التّقريع واللّوم.

مَعْنى ﴿مَا﴾ ودِلالَتُها:

ما شاءَ اللهُ تَعالى كانَ، وما لَم يَشَأْ لَم يَكُنْ

﴿مَا﴾ في قَوْلِه: ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ[1]:

أحدُهما: أَن تَكونَ ﴿مَا﴾ اسْمًا مَوْصولًا، وهيَ خبَرٌ لمُبْتَدَأ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: (هَذا ما شاءَ اللّهُ)، أوْ (هو ما شاءَ اللّه)، ويكونُ العائِدُ مَحْذوفًا، أي: هَذا ما شاءَهُ اللّه.

والآخَرُ: أَن تكونَ ﴿مَا﴾ شَرْطيَّةً، و﴿شَآءَ﴾: فِعْلُ الشَّرْطِ، وجوابُ الشَّرط محذوفٌ، وتَقْديرُهُ: ما شاءَ اللّهُ كان، ويكونُ في الجُملَةِ اكْتِفاءٌ عَلى الوَجْه، والمَعْنى: ما شاءَ اللّهُ كانَ، وما لَم يَشَأ لَم يَكُنْ.

ولا تَنافيَ بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ، ولا مانِعَ مِن أن يُحْمَلَ اللَّفْظُ عليْهِما معًا، ويكونُ التَّقديرُ: هَذا ما شاءَهُ اللّه، وما شاءَ اللّهُ كانَ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بالِاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تَعْظيمُ مَشيئَةِ اللهِ تعالى والدِّلالَةُ عَلى عُمومِ نُفوذِها

قَوْلُ اللّه تَعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، عُبِّرَ فيه بالفاعِلِ بالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾، تعظيمًا لهَذه المَشيئَة؛ إذْ إنَّ الاسْمَ الأَحْسَنَ هوَ الاسْمُ الجامِعُ لصِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمال، فإسْنادُ فِعْلِ المَشيئَةِ إليْه تَعْظيمٌ لَها وتَنْويهٌ بشَأْنِها، وإيماءٌ إلى نُفوذِ مَشيئَتِه سُبْحانَهُ في كُلِّ شيءٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 518.

مَوْقِعُ جُملَةِ القَصْرِ مِمّا قَبْلَها:

شدّة الاتصال بين القوّة والمشيئة

فُصِلَت جُملةُ القَصْرِ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ عَمّا قَبْلَها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لِوُقوعِها تَعْليلًا[1]، ومِنْ شَأْنِ التَّعليلِ فصْلُه عَمّا قَبْلَهُ، فلَمّا بيَّن أنَّ هَذا هوَ الذي شاءَهُ اللّهُ سبحانه أو أنَّ ما شاءَ اللّهُ كانَ؛ عَلَّل ذلكَ بأنَّه لا قوَّةَ إلّا باللّه تَعالى؛ إذِ الأُمورُ مُعَلَّقٌ وُجودُها عَلى مَشيئَتِه سُبْحانَهُ، فلا قوَّةَ عَلى تَحْصيلِها إلّا به سُبْحانَهُ.

دِلالَةُ القَصْرِ في ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

تَثْبيتُ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ في النُّفوسِ وتَرْسيخُهُ

جُملَةُ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ فيها أسلوبُ قصرٍ، وطَريقُهُ النَّفْيُ بـ ﴿لَا﴾ والاستِثْناءُ بـ ﴿إِلَّا﴾، وهوَ قَصْرُ صِفَةٍ عَلى مَوْصوفٍ قَصْرًا حقيقيًّا؛ إذْ لا قوَّةَ لأَحَدٍ أصلًا إلّا باللّه سُبحانَهُ، وقَد جاءَ هَذا القَصْرُ بأَقْوى طُرُقِ القَصْرِ تَأْكيدًا لهَذا المَعْنى وتَقْوِيَةً لَهُ وتَثْبيتًا لَهُ تَثْبيتًا بَليغًا في النُّفوسِ.

دلالةُ موقعِ جملة الشّرط ممّا قبلها:

ردُّ الأمرِ كلِّه لله، مبدأٌ مقرَّرٌ ثابتٌ عند المؤمن

جملة: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، فيها أنّ جُملةَ الشّرطِ ناتجةٌ ممّا مضَى مقرِّرةٌ للمعنى، مُبيِّنةٌ أنَّ الكلَّ بمشيئةِ اللّه، ولذا جاءت مَفصولةً؛ لما بينَهما من كمالِ الاتّصالِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِن﴾ في ﴿إِن تَرَنِ﴾:

عَدَمُ تَطَلُّعِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ، إلى تَحَقُّقِ ما ظَنَّهُ الرَّجُلُ الكافِرُ فيهِ

﴿إِن﴾ في قولِه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ شَرْطيَّةٌ، وتُسْتَعْمَلُ في الأصلِ للدّلالَةِ عَلى الشَّكِّ في وقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إذا) فإنَّها تُسْتَعْمَلُ فيما يُقْطَعُ به، وفي إيثارِ ﴿إِن﴾ في الآيَةِ الكَريمَةِ إشْعارٌ بعَدَمِ تَطَلُّعِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ إلى ما يَعْتَقِدُهُ صاحِبُهُ الكافِرُ فيه، وعدمِ اسْتِشْرافِه إلى تَحَقُّقِه مِمّا ظَنَّه فيه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 62.

المالُ هو محورُ نظرِ الكافر، في تحديدِ منازلِ القومِ

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَرَنِ﴾:

التّعبيرُ بالمضارِع، دلالةٌ على تجدُّدِ ظنِّ الكافرِ بالمؤمن، بناءً على قلّةِ مالِه، وبيانُ أنّ المالَ مِحورُ النّظرِ عنده، فهو يُجدّدُ رؤيتَه الفاسدةَ لمنزلةِ المؤمن.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَقَلَّ﴾، في السّياقِ الأكملِ:

مِنْ دَأْبِ أَهْلِ الكُفْرِ، احْتِقارُ أَهْلِ الإيمانِ

في التَّعْبيرِ بأَفْعَلِ التَّفضيلِ مِنْ لَفْظِ القِلَّة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ إيماءٌ إلى الاحْتِقارِ؛ لأنَّ القلَّةَ وإن كانَتْ في المَقاديرِ والكَمّيّاتِ إلّا أنَّها مُقارِنَةٌ للتَّحقيرِ غالِبًا، أَيْ: إنْ تَرَني أنا أَقلَّ مِنْكَ مالًا ووَلَدًا وتَحْتَقِرُني بسَبَبِ ذَلِكَ!

دِلالَةُ عَطْفِ الوَلَدِ عَلى المالِ:

عـادةُ النّاسِ افْتِخارُهُم بالمالِ والبَنينَ، نسبةً وعزوةً

في عَطْفِ الوَلَدِ على المالِ في قَوْلِ اللّه تَعالى حِكايَةً عَنِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ جَمعٌ بَيْنَ وجْهَي التَّفاخُرِ بَيْنَ النّاسِ، فإنَّهم يَفْتَخِرونَ عادَةً بالمالِ والبَنينَ، ويُقابِلُ ذلك احْتِقارُهُم غيرَهُم بِقِلَّتِهِما.

نُكتةُ علاقةِ ﴿أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ﴾ بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ﴾:

جاء القولُ المَحكيُّ عنِ المؤمن في مقابلةِ القولِ المَحكيِّ عنِ الكافر على أتمِّ وجْهٍ في المناسبةِ، كاشفًا عنِ اتّساقِ الحوارِ، ومناسبتِه معنًى وبنيةً؛ ليكونَ الرَّدُّ أوقعَ؛ فالتّناسُبُ في الأسلوب يَهدي إلى تناسُبِ الحوارِ واتّساقِه.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 40 - 41]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

لَمّا أقَرَّ الرَّجُلُ المُؤْمِنُ بعَجْزِه وافْتِقارِه إلى مولاهُ سبحانه في قولِه: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، في مقابِلِ ما أظهَرَهُ صاحبُه الكافِرُ مِنَ التَّقوّي والافْتِخارِ؛ بيَّنَ أنَّ من كان هذا حالهُ من إظهارِ الافتقارِ إلى اللّه تعالى حَريٌّ أن يُكْرِمَهُ اللّهُ ﷻ ويُبَدِّلَ حالَهُ إلى حالٍ أفضلَ، وحقيقٌ بمَنْ أَظْهَرَ الافتخارَ أن يُهْلِكَ اللّهُ تعالى ما افْتَخَرَ به ويُبيدَهُ[1].

> مـنِ اغتـنَـى طـغَـى، ومـن أظهرَ الافْتِخارَ، كـان حـريًّـا بالهَلاكِ والبَوارِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُسۡبَانٗا﴾: (حسب) تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[2]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[3]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ لَهُ ولآبائه، مَأْخوذٌ من الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدّون ذلك في مَناقِبِهم[4]، والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المُحاسبة، والمرادُ به: عَرْضُ كلِّ أعمالِ الشَّخص وتقويمُها[5]، والحُسْبانُ: المَرامي والصَّواعِقُ التي تَكونُ مِنَ السَّماء، ولِذا قالَ ابْنُ عَبّاسٍ في تَفْسيرِ قولِ اللّه تَعالى ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: نارًا مِنَ السَّماء[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حسب).
(6) الواحديّ، التفسير البسيط: 14/ 23.

2) ﴿صَعِيدًا﴾: (صعد) تدلُّ تصريفاتُها على ارتفاعٍ ومشقَّةٍ، ومنه: الصُّعود، وهو ضِدُّ الانْحِدار[1]، ويُطلقُ الصَّعيدُ على وجه الأرضِ، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، والصَّعيدُ: الأرضُ المُسْتَوِيَةُ، يُقالُ للحديقةِ إذا خَرِبَت وذَهَبَ شَجَرُها: صارَتْ صَعيدًا؛ أَيْ: أرْضًا مستويةً، ومنهُ قولُهُ سُبْحانَه: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[2].

3) ﴿زَلَقًا﴾: (زلق) تدلُّ اشتقاقاتُها على تزلُّجِ الشَّيءِ عَن مقامِه[3]، والمَزْلَقُ: المَكانُ الدَّحَضُ، والمَزْلَقَةُ: المَدْحضَةُ التي لا تَثْبُتُ عليها قَدَمٌ، والزَّلَقُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ معناه: أَرْضًا ملساءَ دحضًا ليسَ بها شَيْءٌ ولا نَباتَ فيها[4].

4) ﴿غَوْرًا﴾: (غور) تَدور كثيرٌ مِن تَصْريفاتِها على انْخِفاضٍ في الشَّيْءِ وانْحِطاطٍ[5]، ومِنْهُ قولُهُم: غارَ الماءُ غَوْرًا؛ إذا ذهَبَ في الأَرْضِ نُزولًا، والغَوْرُ: المُنْخَفِضُ مِنَ الأَرْضِ[6]، و﴿غَوْرًا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: ذاهِبًا في الأَرْضِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فَعَسى ربّي أن يَرزُقَني خيرًا مِن حَديقَتِكَ، ويَسْلبَكَ النِّعْمَةَ بسببِ كُفْرِك به، ويُرْسِلَ عَلى حَديقَتِك عذابًا مِنَ السَّماءِ، فتُصْبِحَ أرضًا مَلْساءَ جَرْداءَ لا تَثْبُتُ عليْها قدَمٌ، ولا يَنْبُتُ فيها نباتٌ، أو يَصيرَ ماؤُها الذي تُسْقى مِنْهُ ذاهبًا في الأرضِ، فلا تَسْتَطيعُ إِخْراجَهُ[8].

قُدْرَةُ الله ﷻ عَلى تَبْديلِ الأَحْوالِ وتَغْييرِها، ورِزْقِ مَن يشاءُ كما يشاءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صعد).
(2) الخليل، العين، (صعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلق).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (زلق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غور).
(6) الفيومي، المصباح المنير، (غور).
(7) النسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 302.
(8) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ﴾:

أَثَــرُ مَـعـانـي الحُروفِ في بَيانِ دَقائِقِ المَعاني في السّياق

الفاءُ في ﴿فَعَسَىٰ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ رابطَةٌ لجوابِ الشَّرْطِ؛ لاقْترانه بفِعْلِ الرَّجاء (عَسى)، وهو فِعْلٌ جامِدٌ، وما دَخَلَت علَيْه الفاءُ هو جوابُ الشَّرْط، والمَعْنى: إنْ تَرَني أَقَلَّ مِنْكَ، فأنا أتوقَّع من كرم اللّه تعالى أَنْ يَقْلِبَ الحالَ، فيُزيلَ ما بي مِنَ الفقْرِ فيَرْزُقَني جَنَّةً خيرًا مِنْ جنَّتك بسَبَبِ إيماني، ويَسْلِبَكَ نِعْمَته ويُخَرِّبَ جنَّتكَ بسَبَبِ كُفْرِك، وذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْم إلى أَنَّ مَدْخولَ الفاءِ ليسَ جوابَ شَرْطٍ، وإنَّما هو قائِمٌ مَقامَ جوابِ الشَّرْطِ، والمَعْنى: إنْ تَرَني أَقَلَّ مِنْكَ؛ فلا بَأْسَ، عَسى رَبّي أَن يُؤْتِيَني خَيْرًا مِنْ جَنَّتِك[1] والمَعْنَيانِ مُتَقارِبان.

مَعْنى ﴿فَعَسَىٰ﴾ ودِلالَةُ التَّعْبيرِ بها:

بيانُ دُعاءِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ لنَفْسِه بالخَيْرِ، وعَلى صاحِبِه الكافِرِ بالشَّرِّ

﴿فَعَسَىٰ﴾ في قَوْله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ دالَّةٌ عَلى الرَّجاء؛ وحَقيقَتُهُ: طلَبُ الأَمرِ القَريبِ الحُصولِ، والمُرادُ بها مَعَ الرَّجاءِ الدُّعاءُ لنَفْسِه بالخَيْرِ وعَلى صاحِبِه الكافِرِ بالسّوء[2] وهي دالَّةٌ على حُسنِ الإيمانِ القائم على الرَّجاءِ وتوقُّعِ الخيرِ لا القَطْعِ به.

سِرُّ إِضافَةِ اسْمِ ﴿فَعَسَىٰ﴾ إلى ياءِ المُتَكَلِّم:

مِـنْ آثـارِ اسْـمِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ إِحْسانُهُ إِلى العِبادِ

أُضيفَ اسمُ ﴿فَعَسَىٰ﴾ وهو ﴿رَبِّيٓ﴾ إلى ياءِ المُتَكَلِّم في قولِ اللّه ﷻ حكاية: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لما في ذَلِكَ مِنَ الدِّلالَةِ عَلى مَزيدِ العِنايَةِ الإلَهيَّة به، فإنَّ اسْمَ الرَّبِّ دالٌّ عَلى معانٍ، مِنْها: الإحسانُ، فكأنَّهُ قالَ: فعَسى الذي عَهِدْتُ مِنْهُ الإحسانَ إِلَيَّ في كُلِّ الأحوالِ أَنْ يُحسِنَ إِلَيَّ في هذه الحالِ أيضًا، فيُغَيِّرَ حالي مِنَ الفَقْرِ إِلى الغِنى، ويُحَوِّلَ حالَكَ مِنَ الغِنى إِلى الفَقْر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 324.

الغرضُ منَ التّعبير بخبرِ ﴿فَعَسَىٰ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا:

حُسنُ الظّنِّ باللهِ، يلائمُه التّعبيرُ بما يدلُّ على حدوث الخيرِ عاجلًا

في قولِه تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جاء الخبرُ مصدرًا مُؤوَّلًا، وما من ريبٍ أنّ التّعبيرَ بالفعل الّذي يُؤوَّلُ بالمصدرِ أوسعُ دلالةً وأنسبُ لحال الرَّجاء؛ لما في الفعل من لَحْظِ الزَّمنِ القريب في توقُّعِ الخير، وهو المعنى الذي يَغيبُ في حال التّعبير بالمصدر؛ لدلالتِه على الحَدَثِ دون الزَّمَن.

الغرضُ من تنكير ﴿خَيۡرٗا﴾، في السّياق المُحكم:

تنكيرُ ﴿خَيۡرٗا﴾ يُفيدُ التّكثيرَ، وهو يكشفُ عن حُسن ظنّ المُؤمن بربِّه، في مقابلِ سوءِ ظنِّ الكافرِ بالمُؤمنِ، فالمؤمنُ يرجو الخيرَ الكثيرَ منَ الله، في كلّ ظرفٍ وآنٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ مُضافًا لضَميرِ الخِطابِ ﴿مِّن جَنَّتِكَ﴾:

تَحْقيقُ مَعنى الخَيْريَّةِ المُؤَمَّلَةِ، مِمّا يُبرِزُه السّياقُ ويُجلّيه

جيءَ بالاسْمِ المَجْرورِ بـ ﴿مِّن﴾ مُضافًا إلى ضَميرِ الخِطابِ في قَوْلِ الله تَعالى حكايةً: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لتَحْقيقِ مَعْنى الخَيْريَّةِ التي يُؤَمِّلُ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ سبحانه إيّاها، والمَعْنى: هذه الجَنَّةُ التي لكَ وتَعْرِفُ حالَها وجَمالَها وتَدَّعي بقاءَها وعدَمَ فنائِها؛ سَيُؤْتيني اللهُ ﷻ خيرًا مِنْها.

دِلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِه: ﴿وَيُرۡسِلَ﴾:

دُخولُ فِعْلَيِ الإيتاءِ والإرْسالِ في حَيِّزِ الرَّجاءِ

الواوُ في ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ مِن قَوْلِ الله ﷻ حكايةً: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطفت الفعلَ على الفِعْلِ ﴿يُؤۡتِيَنِ﴾ مِنْ قولِ الله سُبحانَه: ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لقَصْدِ التَّشريكِ بَيْنَهُما في الحُكْمِ الإعْرابيِّ، فكِلاهُما مَدْخولٌ لـ ﴿أَن﴾، فالفِعْلانِ في حَيِّزِ الرَّجاءِ المُسْتَفادِ من ﴿فَعَسَىٰ﴾.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُرۡسِلَ﴾:

الإيماءُ إلى شِدَّةِ قُربِ العَذابِ، مُبالَغَةً في التَّهْديدِ

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَهُ حكايةً: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تَصْويرٌ للإرْسالِ حالًّا

وقتَ الكلامِ؛ ليكونَ أَرْدَعَ لَهُ، والظّاهِرُ عدمُ دِلالَتِه عَلى الاسْتِمرارِ؛ لأنَّ الفِعْلَ المُضارِعِ إنَّما يَدُلُّ عَلى الاسْتِمرارِ بالقَرائِن، ولا قَرينَةَ هَهُنا، بَلِ القَرينَةُ دالَّةٌ عَلى خِلافِه؛ إذْ إنَّ إرْسالَ الحُسْبانِ مِنَ السَّماءِ عَلى الجَنَّةِ إرْسالًا واحِدًا يُفْنيها ويُهْلِكُها أَظْهَرُ في بَيانِ قُدْرَةِ اللّه ﷻ عَلى الإهْلاك، فيَكونُ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ مُشيرًا إلى اسْتِحْضارِ الإرْسالِ حالًّا وقتَ التَّهديدِ؛ إظْهارًا لِشِدَّةِ قُرْبِه حَتّى كأنَّهُ مُقارِنٌ للكَلامِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى المَفْعولِ به:

الانْفِرادُ بالعَذابِ أَشَدُّ عَلى النُّفوسِ وأَنْكى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهَا﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿حُسْبَانًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى القَصْرِ والاخْتِصاصِ، أي: يُرْسِلَ عليْها لا عَلى غَيْرِها، وهَذا أَكْمَلُ في التَّهْديدِ؛ إذِ العَذابُ لَو عمَّ جَنَّته وغَيْرَها مِنَ الجِنانِ؛ لكانَ ذلِكَ أَدْعى إلى تَخْفيفِ مُصيبَتِه؛ لما جُبِلَت عليْه النُّفوس مِنَ التَّسَلّي عَنِ المَصائبِ العامَّةِ، بخِلافِ ما لَوِ انْفَرَد بالعَذابِ؛ فإنَّه يَكونُ أشدَّ وأَنْكى.

مَعْنى ﴿مِّنَ﴾ ودِلالَتُها في السّياقِ:

ابْتِداءُ العَذابِ مِنَ السَّماءِ، قَدَرٌ مِن اللّه مقدورٌ

﴿مِّنَ﴾ في جملة: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابْتِداءِ المَكانِ، أَيْ: إنَّ السَّماءَ هيَ مَبْدَأٌ لهَذا الحُسْبانِ والعذابِ، وفي تحديدِ مُبتدَأ العذابِ زيادةٌ في التّخويفِ؛ لأنّه مِن جهةٍ لا يَملِكُ مخلوقٌ دفعَها.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عَظَمَةُ الإهْلاكِ وإنفاذِ الوعيدِ، مَظهَرٌ للعظمةِ والبَطْشِ الشّديدِ

الجارُّ والمَجْرورُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مِنْ قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ حكايةً: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، في مَحَلِّ نَصْبٍ نعتٌ لـ ﴿حُسْبَانًا﴾، وفي التَّعْبيرِ بهَذا الجارِّ والمَجْرورِ، زِيادَةٌ في التَّهْديدِ؛ إذِ العادَةُ جارِيَةٌ بأنَّ الشَّيءَ النّازِلَ - إذا كانَ قويًّا شديدًا كالعذابِ - عَلى أحدٍ ما مِنْ فوقُ؛ دكَّهُ فسوّاهُ بالأَرْضِ أَوْ أَدْغَمَهُ فيها، فكانَ الإهْلاكُ به أَعْظَمَ وأشدَّ.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَتُصْبِحَ﴾:

الإيماءُ إلى سُرْعَةِ الإهْلاكِ الواقعة، على جَنَّةِ الكافِرِ اليانعة

الفاءُ في ﴿فَتُصْبِحَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه حكاية: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ عاطفةٌ الفعلَ بَعْدَها (تُصْبِحَ) على الفِعْلِ الذي قَبْلَها ﴿وَيُرْسِلَ﴾، وهيَ هُنا دالَّةٌ عَلى التَّرْتيبِ مَعَ التَّعْقيبِ - كَما هو الأَصْلُ فيها - وفي ذَلِكَ إيماءٌ إلى سُرْعَةِ إهْلاكِ اللّه تعالى لجَنَّةِ هَذا الرَّجُلِ الكافِرِ، بحَيْثُ لا تَكونُ ثَمَّ مُهْلَةٌ بينَ إرْسالِه العَذابَ علَيْها وبينَ صَيْرورَتِها صَعيدًا زَلَقًا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالإِصْباحِ:

التَّصْبيحُ بالعَذابِ، أَشَدُّ ما يَكونُ عَلى النُّفوسِ

عُبِّرَ بلَفْظِ الإِصْباحِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ في جملة: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ لكونِ التَّصبيحِ بالمُصيبةِ والعذابِ أَنْكى ما يَكونُ، فكانَ التَّعْبيرُ بها أَنْسَبَ لمَقامِ التَّهْديدِ والوعيدِ(1).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾:

المُبالَغَةُ في التَّهْديدِ والتَّخْويفِ، غايَةٌ لهذا السّياقِ المُنيفِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، للدّلالَةِ عَلى اسْتِمرارِ فنائِها وهَلاكِها بَعْدَ نَضارَتِها، وأنَّها لَن تَعودَ إلى سابِقِ عَهْدِها، وذلك أبلغُ في التَّخْويفِ والتَّنْكيل.

الغرضُ من التّعبير باسم (أصبح) ضميرًا مستترًا:

العذابُ الشّديدُ يمحو الظّهورَ، كما استتر الضّميرُ

الغرضُ من مجيءِ اسْمِ (أصبح) ضميرًا مستترًا، التّناسبُ مع التّهديدِ بالعذابِ، أي: إنَّ جنّتَك الّتي دعتْك للكُفران، ستُصبحُ غيبًا كهذا الضّمير.

الغرضُ من تَنْكيرِ ﴿صَعِيدًا﴾:

تَحَوُّلُ الجَنَّةِ مِنَ النَّضارَةِ إلى الحَقارَةِ

نُكِّرَ خبرُ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ وهوَ ﴿صَعِيدًا﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّحقير، وأنَّ هذه الجَنَّةَ بَعْدَ جمالِها ونَضارَتِها سَتَصيرُ أَمرًا حَقيرًا، وهوَ كونُها صعيدًا مُسْتَوِيةً لا نَباتَ فيها ولا شَجَرَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64.

سِرُّ وصْفِ الصَّعيدِ بلفظِ ﴿زَلَقًا﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ مآلِ الجَنَّةِ، إظهارًا للمرادِ في السّياق

وُصِفَ الصَّعيدُ بكَوْنِه زَلَقًا في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ تَأْكيدًا لوَصْفِ الصَّعيدِ، أي: صَعيدًا تَزِلُّ عَنْها الأَقْدامُ لمَلاسَتِها؛ إذِ التَّعْبيرُ بالزَّلَقِ هو كِنايَةٌ عَن كَوْنِه خاليًا مِن كُلِّ شَجَرٍ ونَباتٍ، وفي التَّعبيرِ بالصَّعيد أَيْضًا مُبالَغَةٌ في بَيانِ مآلِ هذه الجَنَّة؛ ببَيانِ أَنَّها تَصيرُ أَضَرَّ أرضٍ بَعْدَ أن كانَتْ أَنْفَعَ أرضٍ، ويُقَوّي ذلكَ التَّعْبيرُ عنِ المَفْعولِ بالمَصْدَرِ ﴿حُسۡبَانٗا﴾[1].

دِلالَةُ العَطْفِ بـ ﴿أَوۡ﴾ في السّياقِ:

هَلاكُ الجَنَّةِ الحاصِلُ، بالقَضاءِ الإلَهيِّ الماثِلِ

﴿أَوۡ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ حرفُ عَطْفٍ، عَطَفَ الفِعْلَ الذي بَعْدَها ﴿يُصۡبِحَ﴾ عَلى الفِعْلِ ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ من قولِه تَعالى: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا عَلى الفِعْلِ ﴿فَتُصۡبِحَ﴾ مِن قولِه: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾؛ لأنَّ غُؤورَ الماءِ لا يتَسَبَّب عَنِ الآفَةِ السَّماويَّةِ كالصَّواعِقِ، ويجوزُ أن يَكونَ فِعْلُ ﴿يُصۡبِحَ﴾ مَعْطوفًا عَلى ﴿فَتُصۡبِحَ﴾ إذا جُعِلَ الحُسبانُ هو القَضاءَ الإلَهيَّ، فحينَئذٍ يتسبَّب عَنْهُ إصْباحُ الجَنَّة صعيدًا زلَقًا، أَوْ إصْباحُ مائِها غائرًا[2]، و﴿أَوۡ﴾ في الآيَةِ بمَعْنى الواوِ[3]، والمَعْنى: تُصْبِحُ صَعيدًا زَلَقًا ويُصْبِحُ ماؤُها غَوْرًا، وهَذا أَبْلَغُ في التَّهديدِ والوَعيدِ؛ حَيْثُ هَدَّده بجَمعِ أَلْوانٍ مِنَ العَذابِ عَلى جَنَّتِه.

سِرُّ إضافَةِ الماءِ إلى ضَميرِ الجَنَّةِ:

تَخْصيصُ العَذابِ أَبْلَغُ في الزَّجْرِ، وأوفى بالأمرِ

أُضيفَ اسْمُ ﴿يُصۡبِحَ﴾ إلى الضَّميرِ العائِدِ إلى الجَنَّة، في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾، تَعْيينًا للماءِ المُرادِ صَيْرورَتُه ذاهِبًا في الأَرْضِ، وهوَ ماءُ جنَّتِه لا غيرُه مِنَ المِياهِ، وتخصيصُ

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 307، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 518، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 180.

(3) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 307.

العذابِ بمُتَعَلّقاتِ شَخْصٍ ما: أبلغُ في زَجْرِ ذلك الشَّخْصِ مِنْ تعميم العذابِ؛ إذ تعميمُهُ يُبْعِدُ عَنِ الشَّخْصِ الاعتبارَ، ويَحْمِلُهُ عَلى ضَرْبٍ مِنَ التَّسْلِيَةِ عَنْ مُصابِهِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿غَوۡرٗا﴾:

شِدَّةُ غُؤُورِ الماءِ وذَهابِهِ في الأرْضِ

جاء خبرُ ﴿يُصۡبِحَ﴾ بصيغةِ المَصْدَرِ ﴿غَوۡرٗا﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ عَلى سَبيلِ المُبالَغَةِ[1]، وذَلِكَ للتَّنْبيهِ عَلى شدَّةِ غُؤُورِهِ وذَهابِهِ في الأَرْضِ ذَهابًا لا يَتَأتّى مَعَهُ اسْتِخْراجُ شَيْءٍ مِنْهُ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ ﴿غَوۡرٗا﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ غُؤُورِ الماءِ وتَهْويلُهُ

نُكِّرَ لفظُ ﴿غَوۡرٗا﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ تعظيمًا وتهويلًا، إذِ المعنى المرادُ بالتَّنْكير: أَنْ يُصبحَ ماؤُها شَديدَ الذَّهاب في الأرضِ بحَيْثُ لا يُمكِنُ الوُصولُ إِلَيْه بحالٍ مِنَ الأَحْوالِ، وهو أَنْسَبُ لمَقامِ التَّهْديدِ.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾:

اليأسُ عاقبةٌ وخيمةٌ، لِمَن جحَدَ قدرةَ الله العظيمة

الفاءُ في ﴿فَلَن﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ حرفُ عَطْفٍ[2]، وهو دالٌّ عَلى التَّفْريعِ، أي: إنَّ عدمَ اسْتطاعَتِهِ طلبَ الماءِ مُفَرَّعٌ عَنْ كَوْنِهِ غائِرًا ذاهِبًا في الأَرْضِ.

دِلالَةُ النَّفْيِ بـ (لَنْ):

تأكيدُ تحقُّقِ النَّفْيِ في مقامِ التَّيْئيسِ أدعَى لبيانِ المرادِ

جاءَ نَفْيُ قُدْرَةِ صاحِبِ الجَنَّةِ عَلى طلبِ مائِها بـ ﴿فَلَن﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ زيادةً في تَحْقيقِ هذا النَّفْيِ[3] وتأكيدِهِ؛ إذ إنَّ (لَن) مَوْضوعةٌ لتَوْكيدِ النَّفْيِ لا لمُطْلَقِهِ على القولِ الرّاجحِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 180، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64.

(2) الدَّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 219.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 325.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾:

دَوامُ نَفْيِ القُدْرَةِ عَلى طَلَبِ الماءِ، إلّا بمرادِ الله وعونِه

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾؛ للدّلالَةِ عَلى الاسْتِمرارِ والدَّوام، والمُرادُ: دوامُ النَّفْي واسْتِمرارُه، أَيْ: لَن تَستَطيعَ للماءِ الغائِرِ طلبًا معَ تَطاوُلِ الأَزْمِنَةِ وامتدادِها.

سرُّ إضمارِ الفاعل ضميرَ خطابٍ:

بيانُ أنّ تغييبَ الاستطاعة، كتغييبِ الضّمير

في استِتارِ الضّميرِ الّذي هو فاعلُ ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾ إلماحةٌ إلى تغْييبِ قُدرتِه الفاعلةِ، تمامًا كما غُيِّبَ الضّميرُ، فالبناءُ التّركيبيُّ مناسبٌ للواقعِ.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

خَرابُ الجَنَّةِ المذكورةِ، مَنوطٌ بغُؤورِ مائِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على المَفعولِ به ﴿طَلَبٗا﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ لقَصْدِ الاهتمام، أي: أنَّ الماءَ الّذي تتعلَّقُ النُّفوسُ بِه، ولا تَصلُحُ الجنَّةُ إلّا بِه؛ لَنْ يتأتّى لك تَحْصيلُ شَيْءٍ مِنْهُ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ المَفْعولِ به ﴿طَلَبٗا﴾:

تَحْقيقُ العُمومِ، في نَفْيِ الاستطاعةِ بِحالٍ مِنَ الأَحْوالِ

جيءَ بالمَفْعول به ﴿طَلَبٗا﴾ مُنَكَّرًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ تحقيقًا للعُموم، لوُقوعِ النَّكِرَةِ في سياقِ النَّفْيِ، فيَكونُ المَعْنى: لَنْ تَستَطيعَ لَهُ أيَّ طلَبٍ بحالٍ مِنَ الأَحْوالِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ الطَّلَبِ:

نَفْيُ الطّلبِ، نفيٌ لوُجدانه من بابٍ أولى

عُبِّرَ بالطَّلَبِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾؛ لكونِه أَبْلَغَ في نَفْيِ تَحْصيلِ الماءِ؛ لأنَّ نَفْيَ طلَبِه نَفْيٌ لوُجْدانِه من بابِ أَوْلى، فكانَ المُرادُ بنَفْيِ الطَّلَبِ: نَفْيَ اسْتِطاعَةِ الوُصولِ إِلَيْهِ، وعُبِّرَ عَنْهُ بنَفْيِ الطَّلب إيماءً إلى أنَّهُ غيرُ مُمكنٍ، والعاقِلُ لا يَطْلُبُ مِثْلَهُ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 267.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ من أَصْحابِ المُعْجَماتِ[1].

وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعْلِه، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مُطاوِعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوِعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إِثْباتِ مَفْعوله مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يُنتقَلُ عنه بعد قضاء الأَرَبِ منهُ.

ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ.

الإيتاءُ في الاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ، يَرِدُ للشَّيْءِ الكَثيرِ والأَمرِ العَظيمِ

وأمّا في خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ للَفْظَتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا من جِهَتَيْنِ[3]:

إِحْداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلّا للشَّيْءِ الكَثير والعظيمِ الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ للشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ.

الأُخْرَى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ فهوَ مُطْلَقٌ.

الإرْسالُ والبَعْثُ:

البَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإرْسالِ

فَرَّقَ بَيْنَهُما جماعَةٌ، مِنْهُم أَبو هِلالٍ، فقالَ في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يَبْعَثَ الرَّجُلُ إِلَى الآخَرِ لحاجَةٍ تَخُصُّهُ دونَكَ ودونَ المَبْعوثِ إِلَيْهِ،

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح: (أتى).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

(3) محمّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27، 29.

كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إِلَى المَكْتَبِ، فتَقولُ: بَعَثْتُهُ، ولا تَقولُ: أَرْسَلْتُهُ؛ لأَنَّ الإِرْسالَ لا يَكونُ إلّا بِرِسالَةٍ وما يَجْري مَجْراها"[1].

وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلم بينَهُما مِن وجهٍ آخَرَ؛ وهوَ أَنَّ الإِرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البَعْثِ؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّ "الإِرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلوِّ"[2].

وفي تفسيرِ المنارِ: تقريرٌ للفرقِ مِن جِهة أُخرى؛ وهو أنّ البعث أبلغُ مِن الإرسالِ؛ "لأنّهُ يُفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشّيءِ المُهِمِّ، ولم يُذكر في القُرآنِ إلّا في بعثِ الموتى، وفي الرِّسالةِ العامّةِ؛ أي: بعثِ عِدّة مِن الرُّسُلِ، وفي بعثةِ نبيِّنا وموسى خاصّةً، وكذا في بعثِ نُقباءِ بني إسرائيل، وبعثِ من انتقم مِنهُم وعذّبهُم وسباهُم حين أفسدوا في الأرضِ"[3] وأظهرُ مِن هذا كُلِّه ما ذكرهُ ابنُ الزُّبيرِ الغرناطيُّ مِن أنّ الفِعل (أرسل) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِن البعثِ؛ "إذ لا يُقالُ: أرسل، إلّا فيما كان توجيهًا، فيه معنى الانتقالِ حقيقةً أو مجازًا، أمّا (بعث) فأوسعُ؛ فإنّهُ يقعُ بمعنى الإرسالِ، وبمعنى الإحياءِ، ومِنهُ: البعثُ الأُخراويُّ"[4]، وبِناءً عليهِ؛ فالبعثُ أكثرُ معاني مِن الإرسالِ، فيلتقيانِ في معنًى، وينفردُ البعثُ بمعنًى آخر، وإذا جُمِع بينهُما فالمرادُ بذلك التّنويعُ في العِبارةِ والتّفنُّنُ فيها.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/ 176.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/ 302.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.

(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 216.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

[الكهف: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الرّبطُ بين مضمون النُّصحِ، وتَخْييبُ الله تَعالى، ظَنَّ الرَّجُلِ الكافِرِ

لَمّا كانَ الرَّجلُ المُؤْمِنُ مَنْظورًا إليه بالرِّضا؛ اسْتجابَ اللّهُ تعالى لَهُ، أو حَقَّق لهُ ما توقَّعه؛ بأن خَيَّب اللّهُ ﷻ ظَنَّ الرَّجُلِ الكافرِ في دَوامِ جَنَّته، بأَنْ أَبادَها وأَهْلَكَها، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُحِيطَ﴾: أصلُ (حوط) يدلُّ على شيءٍ يُطيفُ بشيءٍ[2]، ومِنْهُ قولُهم: أَحاطَ القومُ بالبَلَدِ؛ إذا اسْتَداروا بجوانِبِه[3]، وأَحاطَ به الأمرُ؛ إذا أخذه مِن جميع جوانبِه، فلَم يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ[4]، ومِنْهُ اسمُ اللّه: المُحيط؛ مِن قولهم: أحاط فلانٌ بالشَّيءِ؛ إذا استولَى عليْهِ، وضمَّ جميعَ نواحيه حَتَّى لا يُمكِنُ يُمكِنَ فوتُهُ ولا التَّخَلُّصُ مِنْهُ، فاللّه محيطٌ بالأشياءِ كلِّها؛ لأنَّها تحتَ قُدرته، لا يُمكنُها الخُروجُ عَن إرادته فيها، ولا يَمتَنِعُ عليْه مِنْها شيءٌ[5]، والإحاطَةُ في قوله تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هيَ عُمومُ الهَلاكِ؛ بأَنْ لَم يَبْقَ مِن ثَمَرِ جَنَّتِه شَيْءٌ.

2) ﴿يُقَلِّبُ﴾: (قلب) تدلُّ على معنَيين كُلّيَّين؛ خالصِ شيءٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (حوط).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(5) أبو القاسم الزَّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 46.

وشريفه، وردّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ[1]، يُقال: قَلَبَ الشّيءَ وقلَّبه؛ إذا حَوَّله ظَهْرًا لبَطْنٍ[2]، وقلَّبَ الأُمورَ: بحثَها ونظرَ في عواقِبِها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البلاد: تصرَّفَ فيها كَيفَ شاءَ[3]، وتَقْليبُ الكَفَّيْنِ الواردُ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾، ضَرْبُ اليُمنى مُسْتَعْلِيَةً عَلى اليُسْرى، ثُمَّ عَكْسُ ذلكَ بضَرْبِ اليُسْرى مُسْتَعْلِيَةً عَلى اليُمنى، وهوَ كنايَةٌ عَنِ النَّدَم.

3) ﴿كَفَّيْهِ﴾: (كفّ) تَدُلُّ تَصريفاتُها عَلى قَبْضٍ وانْقِباضٍ، ومِنْ ذلِكَ: كَفُّ الإِنْسانِ، وتَثْنيَتُها: كَفّانِ، وسُمّيَتِ الكَفُّ كَفًّا؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيْءَ[4]، وحَقيقَةُ الكَفِّ عِنْدَ الإِنْسانِ: الرّاحةُ مَعَ الأصابعِ[5]، وهوَ المُرادُ بقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾.

4) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: (خوي) تَدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى الخُلوِّ والسُّقوطِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: خَوَتِ الدّارُ تَخْوي، أَيْ: باد أَهْلُها وهي قائمةٌ بلا عامرٍ[6]، وقَولهُم: خَوى النَّجْمُ؛ إذا سَقَطَ ولَم يَكُن عِنْدَ سُقوطِه مَطَرٌ[7]، والتَّخْوِيَةُ: تَرْكُ ما بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ خاليًا[8]، وقولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالِيَةٌ أَو ساقِطَةٌ عَلى سُقوفِها[9]، والمُرادُ: هَلاكُها.

5) ﴿عُرُوشِهَا﴾: (عرش) تدلُّ تصريفاتُها على ارْتِفاعٍ في شيءٍ، ومنهُ عَرْشُ البَيْتِ وعَريشُه؛ وهو سقفُهُ[10]؛ سُمّيَ بذَلِكَ لارْتِفاعِه، ومِنْهُ أَيْضًا: عَرْشُ البِئْرِ؛ وهو بناءٌ يُبْنى مِن خشَبٍ عَلى رَأْسِ البِئْرِ يَكونُ ظِلالًا[11]، وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أَيْ: سُقوفِها، وقَد سَقَطَ بَعْضُها عَلى بَعْضٍ، وأصلُ ذَلِكَ: أَنْ تَسْقُطَ السُّقوفُ، ثُمَّ تَسْقُطَ الحيطانُ عليْها[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كف).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (خوي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوي).
(8) الراغب، المفردات: (خوي).
(9) الجوهري، الصحاح: (خوي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرش).
(12) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عرش).

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بَيانُ نَدَمِ الرَّجُلِ الكافِرِ عَلى شِرْكِهِ، ولاتَ حينَ مَندمٍ

وأَحاطَ الهَلاكُ والجَوائِحُ بصنوفِ ثمارِ جنَّتِهِ، فأَصْبَحَ هذا الكافِرُ يُقَلِّبُ كَفَّيْه ظَهْرًا لبَطْنٍ تَلَهُّفًا وأسَفًا على ذَهابِ نَفَقَتِه التي أَنْفَقَ في جَنَّتِه، وهيَ خاليَةٌ مِن نَباتِها وبُيوتِها، ويتَمَنّى هذا الكافِرُ بعدَما أُصيبَ بجَنَّتِه أنَّه لم يَكُنْ أَشْرَكَ برَبِّه أحدًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَأُحِيطَ﴾:

ما حَلَّ بالرَّجُلِ الكافِرِ عِقابٌ عادلٌ لَهُ، عَلى كُفْرِه وشِرْكِهِ

الواوُ في قَوْلِه: ﴿وَأُحِيطَ﴾ عاطِفةٌ، وهَذا العَطْفُ إنَّما هو عَلى مقدَّرٍ، والمَعْنى: وقَعَ بَعْضُ ما توقَّعَهُ الرَّجلُ المُؤْمِنُ، وأُهْلِكَت أموالُ الرَّجُلِ الكافرِ، وحُذِفَ هذا مِنَ الكَلامِ لدِلالَةِ السِّباقِ والسّياقِ عليْهِ[2]، وجاءَ عطفُ هذه الآيَةِ - ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ - بالواوِ دونَ فاءِ التَّفْريعِ عَلى ما توقَّعهُ صاحِبُه المُؤْمِنُ؛ لأنَّه لَم يَتَعَلَّقِ الغَرَضُ في هَذا المَقامِ بالإِشارَةِ إلى ذَلكَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ، وإنَّما الأَهَمُّ الإيماءُ إلى أنَّ ذلكَ أَمرٌ حلَّ بالرَّجُلِ الكافِرِ عقابًا لَهُ عَلى كُفْرِه وشِرْكِه؛ ليَعْلَمَ السّامِعونَ أنَّ ذلكَ هو جزاءُ أمثالِه، ولَيْسَ مَخْصوصًا بتَوَقُّعِ رجُلٍ مُؤْمِنٍ ورَجائِه[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في الآيةِ:

بيانٌ لعُمومِ العَذابِ المُحيطِ بالجَنَّةِ وثَمَرِها

قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هو كِنايةٌ عَن عُمومِ العَذابِ والفَسادِ، وإِهْلاكِ الثَّمَرِ بالكُلّيَّة، وأصلُ هذا التَّعبيرِ مِنْ إحاطة العدوِّ؛ وهو استِدارَتُه بالشَّيْءِ من جَميعِ جَوانبِه، وذَلكَ لأنَّ العَدوَّ إذا أَحاطَ بشَيْءٍ فقَد مَلَكَه واستَوْلى عليْه، ثُمَّ استُعْمِلَ في كُلِّ هلاكٍ[4]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 27.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 326.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 519، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 465.

وذهَبَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ هو مِن بابِ الاسْتِعارَةِ التَّمثيليَّةِ؛ ووجْهُ ذلكَ: أنَّ فيه تَشْبيهًا لإهلاكِ الجَنَّتَيْنِ بما فيهما بإهْلاكِ قَوْمٍ أحاطَ بهم عَدوٌّ، وأوْقَعَ فيهم القَتْلَ فلَم يَنْجُ مِنْهُم أَحَدٌ[1] إلّا أنَّ حملَ الآيَةِ عَلى الكِنايَةِ أَظْهَرُ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿وَأُحِيطَ﴾، مَبْنيًّا للمَفْعولِ:

إهْلاكُ جَنَّةِ الكافِرِ، أمرٌ يسيرٌ عَلى الله تَعالى

بُنيَ الفِعْلُ ﴿وَأُحِيطَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ للمَفْعولِ؛ لِنِكاتٍ[3]:

إحْداها: كَوْنُ الفِكْرِ حاصِلًا بإحاطَةِ الهَلاكِ بقَطْعِ النَّظَرِ عَن فاعِلٍ مَخْصوصٍ.

ثانيها: الإيماءُ إلى سُهولَةِ هَذِه الإحاطَةِ، وأنَّه حاصلٌ بقَوْلِ اللّه تَعالى: كُنْ؛ فكانَ.

ثالثُها: الإشْعارُ بأنَّ فاعِلَهُ مُتَيَقَّنٌ؛ وهو العَذابُ الذي أَرْسَلَهُ اللّهُ سُبْحانَهُ، والمَعْنى: أحاطَ العَذابُ بجَنَّتِه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾:

بيانُ أنّ هَلاكَ الثَّمَرِ أشَدُّ في الفاجِعَةِ، وأعْظَمُ في المُصيبَةِ

في تَقْييدِ الإحاطَةِ بالثَّمرِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: وأُحيطَ بزَرْعِه أو نَخْلِه أو جَنَّتِه؛ لأنَّ الإحاطَةَ قد تكونُ بالشَّيْءِ، ثُمَّ يُثْمِرُ بَعْدَ ذَلِكَ، لَكِنَّ الإحاطَةَ في الآيَةِ جاءَتْ عَلى الثَّمَرِ ذاتِهِ؛ وهوَ قَريبُ الجَنْي سهلُ التَّناوُلِ، وذَلِكَ ممّا يَجْعَلُ الفاجِعَةَ أَشَدَّ، والمُصيبَةَ أَعْظَمَ؛ لأنَّ الثَّمَرَ هو الغايَةُ للزَّرْعِ والشَّجَرِ[4].

---

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 102.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 268.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 521.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8919.

صيَغ الجموع المراد بها التكثير والشمول

توجيهُ القراءاتِ في ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾:

قرأ عاصم وأبو جعفر ورَوْح بفتح الثاء والميم ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾، وقرأ أبو عمرو بضمّ الثاء، وإسكان الميم: ﴿بِثُمْرِهِۦ﴾، وقرأ الباقون بضمهما جميعا: ﴿بِثُمُرِهِۦ﴾[1]، فمن قرأ بفتح الثاء والميم جعله جمع (ثَمَرة)، كـ: (بقرة وبقر)، والثَّمَر ما يُجتنى من ذي الثمر، وحجة من قرأ بضمّ الثاء والميم أنّه جعل (ثُمُر) جَمع (ثِمار)، و(ثِمار) جمع (ثَمَر)، و(ثَمَر) جمع (ثَمَرة)، فهو جمعُ جمعِ الجمعِ، ويراد به التكثير.

ويجوز أن يكون (ثُمُر) المضموم جمع (ثَمَرة)، كـ: (بدنة وبُدُن)، و(خشبة وخُشُب)، فيكون جمعَ اسم مُفردٍ، ويجوز أن يكون (ثُمُر) المضموم اسمًا مفردًا لما يُجتنى كـ: (عُنُقٍ) وهذا نادر، قليل مثله في الكلام.

وأمّا قراءة إسكان الميم فللتخفيف، وأصلها الضمّ، فهو على أحد الثلاثة الأوجه المذكورة قبل هذا، وقال بعض أهل اللغة: (الثُّمر) بالإسكان: المال، و(الثَّمَر) بالفتح: المأكول، وقال بعض المفسرين: (الثُّمُر) بالضمّ: النَّخل والشجر بما فيها.

ولم يقصد البيان القرآني في سورة الكهف أن الثَّمَرة هَلَكت دون المُثْمِر، بل قصد هلاكَ المثمِر، وفي هلاكه هلاك ثمره، وذلك أبلغ في العقوبة، ويدلّ على أن الذي هلك المثمر قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: 42]، والنَّفقة أكثرُ ما تكون في المثْمِر حتى يبلغ إلى وجوب كون الثمرة فيه، وإخباره عنها أنّها بقيَتْ خاوية يدلّ على هلاك المثمِر، وحكي عن أبي عمرو أنه قال: (الثَّمَر، والثُّمُر): أنواع المال، ومن قرأ بالفتح إنما أخبر عن الثَّمَرةِ هلكت[2].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 310.

(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 59.

فبلاغة القراءات هنا هو شمولها؛ فقد يقول قائل: فلَرُبّما بَقيَ شيء من الثَّمَرِ لم يهلك! فأتت القراءات القرآنية متكاملةً لتُفيد أنه أحاط الدّمار والهلاك بالثّمر من كلّ جانب، ولم يَبْقَ فيها ثمر صالح مطلقًا، ولا ما يستوعبُ الثَّمَر، فجاءت جملةُ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ - بما فيها من قراءات - شاملةً لمكان الإحاطة وأنواعها، مستغرقةً لكلّ جزئيّة.

مَعْنَى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

إيضاحُ أنّ التَّحَسُّرَ يَعْظُمُ، إذا وقَعَ الأَمرُ فجْأَةً

الفاءُ في ﴿فَأَصْبَحَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دالَّةٌ عَلى السَّببيّةِ والعطفِ المُفيدِ للتّرتيبِ مع التّعقيبِ، فأفاد ذلك أنّ عذاب الاستئصالِ وقع سريعًا بآفة سماويّة مُباغِتة، وذلك أدخلُ في التّحسُّرِ؛ إذِ التّحسُّرُ يعظُمُ إذا وقع الأمرُ بغتةً[1].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في سياق الآيَةِ:

بديعُ التّصوير القُرآنيّ، لغمِّ الرّجُلِ الكافِرِ وهمِّه

قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ كِنايَةٌ عَن النَّدمِ والحَسْرَةِ؛ وذلكَ لأنَّ مَن عَظُمَت حَسْرَتُه واشْتَدَّ أَسَفُه يَضْرِبُ بإحْدى يَدَيْه عَلى الأُخْرى، ففي التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ تَصْويرٌ بَديعٌ لما اعْتَرى الرَّجلَ الكافرَ من غَمٍّ وهَمٍّ شَديدَيْنِ ونَدامَةٍ عَظيمَةٍ وحَسْرَةٍ شَديدةٍ[2]، وجوَّز بعضُ أَهْلِ العِلْم أَن يَكونَ لَفْظُ الكَفِّ في الآيَةِ مُرادًا به المِلكُ، عَلى طريقِ المَجازِ، والمَعْنى: أَصْبَحَ يُقَلِّبُ مِلْكَهُ، فلا يَرى فيه عِوَضًا عَمّا أَنْفَقَهُ فيها[3]، والأوَّلُ أظهَرُ وأَبْيَنُ وأرجحُ؛ لأنَّ المِلْكَ وإن كانَ يُعبَّرُ عَنْهُ باليَدِ مجازًا، إلّا أنَّه قَلَّ اسْتِعْمالُ لَفْظِ الكَفِّ فيه، ثُمَّ إنَّ تَثْنِيَةَ الكَفِّ تُبْعِدُ إِرادَةَ هَذا المَعْنى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 269، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4534.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 181، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 521.
(3) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 308.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

تَحقُّقُ الإهلاكِ، وبَيانُ إتْيانِه على حين غرّةٍ

في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، دلالَةٌ عَلى تَحقُّق هَذا الإصْباحِ وما حَصَلَ فيه مِن تَقْليبِ الكَفَّيْنِ نَدَمًا وتَحسُّرًا، وفي التَّعْبيرِ بالإصْباحِ إيماءٌ إلى أنَّ هَذا الإهْلاكَ جَرى ليلًا؛ لأنَّهُ وقْتُ غَفْلَةٍ، وهَذا هو الظّاهِرُ مِن لَفْظِ الإصْباحِ، ويُحْتَمَلُ أَن يَكونَ الفِعْلُ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ بمَعْنى: صارَ، فلا يَدُلُّ عَلى تَقْييدِ الخَبَرِ بوَقْتِ الصَّباحِ[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُقَلِّبُ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ للدّلالَةِ عَلى اسْتِمرارِ هَذا التَّقْليبِ، وهَذا مُفيدٌ اسْتِمرارَ حَسْرَتِه ودوامَ نَدَمِه.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالضّميرِ المُستَترِ مع الفعل:

الحسرةُ والنّدمُ غَطَّيا صاحبَ الجنَّةِ وغيّباهُ، كما يُغيّبُ الظّاهرُ بالإضمارِ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾، لطيفةٌ، حيث نَجِدُ فيه استتارَ الضّميرِ في الفعلَيْنِ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ و﴿يُقَلِّبُ﴾، وذلك دالٌّ على انْسِحاقِ صاحبِه بالحسرةِ والنّدمِ، حتّى غابَ عنِ الظّهورِ، وغطّتْهُ الحسرةُ، وغيّبَهُ النَّدمُ، إضافةً إلى أنّه محورُ القصّةِ وعِبرتُها، فهو معلومٌ في النّفسِ مُتعيّنٌ، فناسبَ ذلك استتارُه.

سِرُّ المُثَنَّى المُضافِ لضَميرِ الغَيْبَةِ ﴿كَفَّيۡهِ﴾:

تَقْليبُ الكَفَّيْنِ كِنايَةٌ عَنِ النَّدَمِ والتَّحسُّرِ

عُبِّرَ بالمَفْعولِ به ﴿كَفَّيۡهِ﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ بصيغةِ المثنّى؛ لأنَّ فِعْلَ النّادِمِ لا يَكونُ عادَةً إلّا بمَجْموعِ كفَّيْه، لا بأَحَدِهِما، وأُضيفَ ذَلِكَ اللَّفْظُ إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ الرّاجِعِ إلى الرَّجُلِ الكافِرِ؛ لتَحْقيقِ هَذا المَعْنى وتأكيدِه، وأنَّه يُقَلِّبُ كَفَّيْ نَفْسِه تَنَدُّمًا وتَحَسُّرًا.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 410، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 181.

مَعْنى الحَرْفِ ﴿عَلَىٰ﴾ ودِلالَتُهُ:

﴿عَلَىٰ﴾ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دالٌّ عَلى الاسْتِعْلاءِ، وفي ذَلك إيماءٌ إلى شِدَّةِ حَسْرَتِه وعِظَمِ نَدامَته حَتّى علَتْ وعمَّتْ جَميعَ ما أَنْفَقهُ مِن أَجْلِ جَنَّتِه.

بَيانُ عِظَمِ الحَسْرَةِ، وشِدَّةِ النَّدامَةِ في السّياقِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَآ﴾:

في التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَآ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ دلالَةٌ عَلى العُمومِ؛ إذِ الاسْمُ المَوْصولُ مِنْ أَلْفاظِ العُمومِ، والمَعْنى: أنَّه نَدِمَ عَلى جَميعِ ما أَنْفَقَهُ عَلى هذه الجَنَّةِ؛ إذْ لَم يَسْتَفِدْ مِن ذَلِك بشَيْءٍ؛ لهَلاكِه وفَسادِه قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ.

وصفُ نَدَمِه عَلى جَميعِ ما أَنْفَقَهُ عَلى جَنَّتِهِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿أَنفَقَ﴾:

عُبِّرَ عَنِ الإنفاقِ ماضيًا ﴿أَنفَقَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ للدِّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ هَذا الإنفاقِ، ويترتَّبُ عَلى هَذا التَّحَقُّقِ: تحَقُّقُ نَدامَته وحَسْرَته وشِدَّتُهُما.

إبْرازُ تَحَقُّقِ الحَسْرَةِ والنَّدامَةِ وشِدَّتِهما

سِرُّ التَّعبيرِ بحَرْفِ الجَرِّ (في) دونَ (عَلى):

عُبِّرَ بحَرْفِ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾ الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّةِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنفَقَ فِيهَا﴾ دون حَرْفِ الاسْتِعْلاءِ (عَلى)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (أَنْفَقَ عليْها)؛ للإيماءِ إلى شِدَّةِ هَذا الإنْفاقِ، ولازِمُ ذَلِكَ شِدَّةُ انْغماسِ الرَّجُلِ في التَّعَلُّقِ بجَنَّته.

شِدَّةُ انْغِماسِ الرَّجُلِ في التَّعَلُّقِ بجَنَّتِهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الحاليَّةِ اسميّةً:

في التَّعْبيرِ بجُملَةِ الحالِ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تنبيهٌ عَلى سَبَبِ حَسْرَةِ الرَّجُلِ الكافِرِ ونَدامَته؛ حيثُ إنَّه بالغَ في الإنْفاقِ عَلى جَنَّته، واشْتَدَّ تعَلُّقُه بها؛ وكانَ مآلُها أَن خَرِبَت وهَلَكَت، فلَم يَنْتَفِعْ بالذي أَنْفَقَهُ فيها، وانْقَطع حَبْلُ تَعَلّقه بها، وفي التَّعْبيرِ بجُملَةِ الحالِ اسْميَّةً دِلالَةٌ عَلى هَلاك هذه الجَنَّةِ هَلاكًا مُسْتَمِرًّا، مُقابَلَةً للرَّجُلِ

في إهْلاكِ الجَنَّةِ مُقابَلَةُ الرَّجُلِ الكافِرِ، بنَقيضِ دَعْواهُ

الكافرِ بنَقيضِ دَعْواهُ دَوامَ نَضارَتِها وعِمارَتِها في قَوْلِه قَبْلُ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالخَبَرِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ اسْمَ فاعِلٍ:

دَوامُ سُقوطِ سُقوفِها على قيعانِها

في التَّعْبيرِ بالخَبَرِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ اسْمَ فاعِلٍ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، إيماءٌ إلى دوام كَوْنها خاليَةً، وأَنَّ سُقوط سُقوفِها، أَمرٌ ثابتٌ ومُسْتَمِرٌّ لَها. "والمقصودُ أنّ الجنّةَ بجميعِ ما اشتملت عليه، صارت حُطامًا وهشيمًا تذروه الرّياحُ"[1].

سِرُّ التَّقْييدِ بـ ﴿عُرُوشِهَا﴾ دونَ غَيْرِها:

الجَمعُ بَيْنَ هَلاكِ الأَصْلِ وهَلاكِ الثَّمَرِ، مِنْ أَعْظَمِ الجَوائِحِ

في التَّقْييدِ بالعُروشِ في قَوْلِ اللّه تَعالى حكاية: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ جَمعٌ عَلى الرَّجُلِ الكافِرِ بَيْنَ هلاكِ الثَّمَرِ وهَلاكِ الأَصْلِ، وهو مِنْ أَعْظَمِ الجَوائِحِ، مُقابَلَةً لَهُ عَلى شِدَّةِ بَغْيِه وعَظيمِ كُفْرِه وكِبْرِه[2]، وتَخْصيصُ العُروشِ بالذِّكْرِ دونَ النَّخْلِ والزَّرْعِ؛ إمّا لكَوْنِها العُمدةَ وهُما مِنْ مُتَمِّماتِها، وإمّا لكَوْنِ ذِكْرِ هَلاكِها مُغْنِيًا عَن ذِكْرِ هَلاكِ الباقي؛ وذَلِكَ لأَنَّها إذا هَلَكَت وهيَ مُشَيَّدَةٌ بِعُروشِها؛ فهَلاكُ ما سِواها حاصِلٌ بطَريقِ الأَوْلَويَّةِ والأَحْرَويَّةِ، وإمّا لكَوْنِ الإنْفاقِ في عِمارَتِها أَكْثَرَ[3].

نُكْتَةُ الإضافَةِ في لفظ ﴿عُرُوشِهَا﴾:

رُؤْيَةُ هَلاكِ الجَنَّةِ عَلى وجْه التَّراكُمِ، أَبْلَغُ في الحَسْرَةِ

أُضيفَتِ العُروشُ إلى الضَّميرِ العائِدِ على الجَنَّةِ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ حكاية: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ للدِّلالَةِ عَلى هَلاكِ الجَنَّةِ وتَداعي بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، بحَيْثُ رَأى ذَلِكَ مُتَراكِمًا عَلى وجْه الفَسادِ، وهَذا أَبْلَغُ في حَسْرَتِه ونَدامَتِه، بخِلافِ ما لَو أُهْلِكَت جَنَّتُهُ بريحٍ نَقَلَتْ ذَلِكَ إلى مَحَلٍّ آخَرَ لا يَتَبيَّنُهُ ولا يَراهُ.

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 522.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 410.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.

دِلالَةُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ﴾:

بيانُ أُمنيَتِه بَعْدَ حَسْرَتِه، توصيفٌ لحاله المُزرية

الواوُ في ﴿وَيَقُولُ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ عاطفةٌ الفعلَ بَعْدَها (يَقولُ) عَلى الفِعْلِ قبلُ؛ وهو ﴿يُقَلِّبُ﴾، لدِقَّة توصيفِ حالِه التي وصَلَ إليها مِن النَّدَمِ والحسرة، حيثُ كان ذلك مِنه فعلًا وقولًا، ويجوزُ - على ضعف - أَن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والجُملَةُ بَعْدَها حالٌ ثانيةٌ، أي: وهو يقولُ: يا لَيْتَني لَم أُشْرِكْ برَبّي أحَدًا[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾:

بَيانُ شِدَّةِ نَدَمِ الرَّجُلِ الكافِرِ عَلى ما سَبَقَ مِنْهُ

في التَّعْبيرِ عَن مَقالَتِه بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيَقُولُ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ دلالَةٌ عَلى تَكَرُّرِ ذلِكَ القَوْلِ مِنْهُ؛ إيماءً إلى شِدَّةِ تَنَدُّمِه بَعْدَ حُلولِ العَذابِ عَلى ما فرَط مِنْهُ[2].

دِلالَةُ التّندّمِ والتّحسّرِ في السّياق:

تَذَكُّرُ الكافِرِ المَغرورِ، مَوْعِظَةَ المُؤمِنِ المبرورِ

في حكايةِ قَوْلِ الرَّجُلِ الكافِرِ: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾، بيانٌ لشِدَّةِ تَنَدُّمِه وتَحَسُّرِه؛ فكأنَّه تَذَكَّرَ مَوْعِظَةَ أَخيه وعَلِمَ أنَّه إنَّما أُتِيَ مِن جِهَةِ شِرْكِه باللّه تَعالى، فتَمَنّى لو لَم يَكُن مُشْرِكًا، فلَم يُصِبْهُ ما أَصابَهُ، وجَوَّزَ بَعضُ أَهْلِ العِلْمِ أَن تكونَ هذه المَقالَةُ مِنْهُ عَلى جِهَةِ التَّوبة مِنَ الشِّرْكِ والنَّدَمِ عَلى ما صَدَرَ مِنْهُ[3].

مَعْنَى (يا) ودِلالَتُها في قَوْلِه: ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾:

بيانُ نَدَمِ الرَّجُلِ الكافِرِ، عَلى إشراكِه الغابرِ

حرفُ النِّداءِ (يا) في قَوْلِ اللّه ﷻ حكايةً: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنى التَّلَهُّفِ، و(لَيْتَني): لَفْظُ تَمَنٍّ، والمُرادُ به التَّنَدُّمُ، وفي هَذا التَّركيبِ ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ تَنْزيلٌ للَفْظةِ (لَيتَ) مَنْزِلَةَ العاقِلِ، فكأنَّهُ يُخاطِبُ لفظةَ (لَيتَ)، ويقولُ: احْضُري؛ فهَذا أَوانُكِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 327.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.

فهو نظيرُ قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، فهو نَدَمٌ عَلى الإِشْراكِ فيما مَضى، وهو مُشْعِرٌ بأنَّه آمنَ باللّه تَعالى وحْدَهُ حينَئِذٍ[1].

سِرُّ اسْتِعْمالِ حَرْفِ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ دون (ما):

دِقَّةُ اخْتيارِ أَحْرُفِ المَعاني المُلائِمَةِ لسياقاتِها

أوثِرَ التَّعْبيرُ بحَرْفِ النَّفْيِ ﴿لَمْ﴾ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ حكاية: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾؛ لكَوْنِ هَذا الحَرْفِ يَقْلِبُ دِلالَةَ الفِعْلِ المُضارِعِ مِن الحاضِرِ إلى المُضيِّ، وهوَ أَنْسَبُ لَمعْنى التَّنَدُّمِ والتَّحَسُّرِ عَلى ما مَضى وفَرَطَ مِنْهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَمْ أُشْرِكْ﴾:

تَمنّي استعادةِ الزّمنِ الماضي، ليكونَ حاضرًا غيرُ مُمكنٍ

في قولِه تعالى حكاية: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾، ورَدَ التّعبيرُ بالمضارعِ صورةً؛ لتصويرِ حالِه التي هو عليها؛ مِن تَمَنّي استعادةِ الماضي المُنصرمِ وجعلِه حاضرًا مُمكنًا؛ لما في الحاضرِ والمُستقبَلِ من إمكانِ التَّدارُكِ وعدمِ الوقوعِ في الكفرِ والشِّركِ باللّه، ولكنْ هيهاتَ، ويَفوتُ هذا لو جاء النّفيُ بـ: (ما) وقيل: (ليتني ما أشركت).

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِرَبِّيٓ﴾:

تَفَرُّدُ اللّه ﷻ بالرُّبوبيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَفَرُّدَهُ بالأُلوهيَّةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿بِرَبِّيٓ﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾؛ للعِنايَةِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّة؛ لكَوْنها دليلًا على صِحَّةِ عدمِ الإِشْراكِ باللّه تَعالى؛ إذْ كَوْنُه سُبْحانَهُ مُتَفَرِّدًا بالرُّبوبيَّة يَسْتَلْزِمُ إفْرادَهُ بالأُلوهيَّة والعُبوديَّة، وفي الاهْتِمامِ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ إيماءٌ إلى أنَّ مُجانَبَةَ الشِّرْكِ هو مُقْتَضى إحْسانِ اللّه تَعالى إلى العِبادِ، وأنَّ مُقارَفَةَ الشِّرْكِ مُخالِفٌ لهَذا الإِحْسانِ الإلَهيِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

سرُّ إيثارِ حرفِ الجرّ الباءِ في ﴿بِرَبِّيٓ﴾ على (مع):

الباءُ للإلصاق، وإيثارُها على (مع)، هو الأبرُّ بسياقِ تَمَنّي المستحيلِ؛ لأنّه مُرتبطٌ باستعادة الماضي، والمعنى: أنّه يَتمنَّى لو عادَ به الزّمنُ؛ لئلّا يلصقَ اللّه بغيره في العبوديّة، فالتّعبيرُ بالباء براءةٌ تامّةٌ منَ الشّرك.

تَمنّي البراءةِ التّامّةِ مِنَ الشّرك لو عاد به الزّمنُ

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ المَفْعولِ به ﴿أَحَدٗا﴾:

نُكِّرَ المَفْعولُ به ﴿أَحَدٗا﴾ مِنْ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ لإفادَةِ العُموم، وذلك لوُقوعِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْي، وهَذا مِنَ الصّيَغِ المُفيدَةِ العُمومَ والاسْتِغْراقَ، والمَعْنى: يا لَيْتَني لم أُشْرِكْ برَبّي أيَّ أحدٍ كانَ، ولَمْ أُشْرِكْ به بأَيِّ نَوْعٍ مِن أَنْواعِ الشِّرْكِ.

تَعْميمُ نَفْيِ الشَّريكِ، غايةُ ما يَتمنّاه مَن تورَّطَ في الشّرك

نُكْتَةُ إيثارِ اسْتِعْمالِ ﴿أَحَدٗا﴾ عَلى (واحِدًا):

آثَرَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿أَحَدٗا﴾ دونَ (واحِدًا) مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾؛ لكونِ الأحَدِ أبلغَ في النَّفْيِ مِنَ الواحِدِ، فكانَ لَفْظُ الأحَدِ أَنْسَبَ في سياقِ عموم نَفْيِ الإِشْراكِ باللّه تَعالى.

الأحَدُ أَبْلَغُ في النَّفْيِ مِنَ الواحِدِ

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾

[الكهف: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

نـــدَمُ الـرَّجُـلِ الكافِرِ، في وقْتٍ لا يَنْفَعُهُ ندمٌ، ولا ينصرُه أحدٌ

لَمّا بَيَّن اللّهُ تعالى نَدمَ الرَّجُلِ الكافِرِ، وتَمَنّيَهُ لَو لَم يَكُن قَد أَشْرَكَ باللّه سُبْحانَهُ؛ بَيَّن أنَّ نَدَمَهُ وقَع حيثُ لَم يَنْفَعْهُ النَّدَمُ لاسْتِدْراك ما ضاعَ مِن جَنَّتِه، وأَنَّ ما وقَعَ عَلى جَنَّتِه مِنَ الهَلاكِ لا يُمكِنُ لَهُ رفعُهُ، ولَوْ تَولّى ذَلِكَ جَماعَةٌ كَبِيرَةٌ تَنْتَصِرُ لَهُ، فقالَ ﷻ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةٞ﴾: (فيأ) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى مَعْنى الرُّجوعِ، ومِنْهُ الفَيْءُ؛ وهو ما حَصَل للمُسْلمينَ مِن أموالِ الكُفّارِ مِن غَيْرِ قِتالٍ، سُمّيَ بذَلِكَ لأنّه كأنَّهُ كانَ في الأَصْلِ لَهُم، فرَجَعَ إِلَيْهِم، ويُقالُ للظِّلِّ الذي يكونُ بَعْدَ الزَّوالِ: فيْءٌ؛ لأَنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ جانِبِ الغَرْبِ إِلى جانِبِ الشَّرْقِ[1]، والفِئَةُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ يَفيئونَ إِلى الرَّئيسِ، أَي: يَرْجِعونَ إِلَيْهِ[2]، وعرَّفها الرّاغِبُ: بِأَنَّها الجماعَةُ المُتظاهِرَةُ التي يَرْجِعُ بَعْضُهم إِلى بَعْضٍ في التَّعاضُدِ[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، وقَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿مُنتَصِرًا﴾: تدورُ مادَّةُ (نصر) حول مَعْنى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيه زيادةُ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[4]، ومِنْهُ سمّيَ المطرُ

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (فيء).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فيء).

(3) الراغب، المفردات: (فيء).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصر).

نصرًا[1]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: الإعانةُ عليْه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغلَبَتِه[2]، والمُنْتَصِرُ: المُمتَنِعُ بنَفْسِه وقوَّتِه لدَفْعِ بَلاءٍ نازِلٍ عليْهِ، ومِنْهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يَمنَعُ أحَدٌ مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى، ولا أحدَ يَنصُرُ مِن دونِه

وَلَم تَكُن لَهُ جَماعَةٌ وعَشيرَةٌ مِمَّنِ افْتَخَر بهم يَمنَعونَهُ مِمّا نزلَ به مِنْ عِقابِ اللّه سُبحانَهُ، وما كانَ مُمتَنِعًا بنَفْسِه وقوَّتِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَمۡ تَكُن﴾:

بَيانُ مآلِ الرَّجُلِ الكافِرِ، ومآلِ جَنَّتِهِ

الواوُ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بَعْدَها عَلى جُملَةِ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، وبينَ الجُملَتَيْنِ تَوَسُّطٌ بينَ الكمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِهِما في الخَبَرِيَّة، وبينَهُما تَناسُبٌ في المَعْنى؛ إذْ كِلاهُما وارِدٌ في بَيانِ مآلِه ومآلِ جَنَّته.

تَنَوُّعُ القِراءاتِ، وأَثَرُهُ عَلى المَعْنى:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قُرئَ الفِعْلُ ﴿تَكُن﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ بوَجْهَيْن؛ أحَدُهما: بالياءِ على التَّذكير ﴿يَكُن﴾، وهي قراءَةُ حَمزَةَ والكِسائيِّ وخلَفٍ، والآخَرُ: بالتّاء عَلى التَّأْنيث ﴿تَكُن﴾، وهيَ قِراءَةُ باقي العَشرة[4]، فالتَّأْنيثُ فيه مُراعاةٌ للَفْظِ ﴿فِئَةٞ﴾، والتَّذْكير روعيَ فيه أنَّ التَّأْنيثَ غَيْرُ حَقيقيٍّ، وقَد فُصلَ بينَ الفِعْلِ والفاعِلِ بالجارِّ والمَجْرور ﴿لَّهُۥ﴾[5].

دِلالَةُ النَّفْيِ بـ ﴿وَلَمۡ﴾ في السِّياق:

تَحَقُّقُ نَفْيِ النُّصْرَةِ، بقلبِ المُضارعِ إلى الماضي

أوثِرَ التَّعْبيرُ بحَرْفِ النَّفْيِ ﴿وَلَمۡ﴾ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَمۡ

(1) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر).
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 311.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 466، ومحمّد سالم محَيْسِن، الهادي شرح طيبة النّشر: 3/ 13.

تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لكَوْنِ هَذا الحَرْفِ يَقْلِبُ دِلالَةَ الفِعْلِ المُضارِعِ إلى مَعْنى المُضيِّ، وذلكَ أدَلُّ عَلى مَعْنى تحقُّقِ هَذا النَّفْي.

سِرُّ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الكَوْنِ:

بيانُ أنّ إيقاعَ اللهِ تعالى الهَلاكَ بجَنَّةِ الرَّجُلِ الكافِرِ، من عدْلِ الله

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعْبيرَ بنَفْيِ الكَوْنِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، دونَ تَسْليطِ النَّفْيِ عَلى فِعْلِ النَّصرِ، بأَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَلَم تَنْصُرْهُ فِئَةٌ)؛ للدّلالَةِ عَلى أنَّ المُرادَ نفيُ قابليَّة النَّصرِ والقُدْرَة عليْه، فالمَعْنى: لَم تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ تَقْدِرُ عَلى نُصرَتِه، واللّهُ سبحانه قادِرٌ عَلى ذَلِكَ، أمّا لو جاءَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (وَلَم تَنْصُرْهُ فِئَةٌ مِن دونِ اللّه)؛ لأفادَ ذَلِكَ أنَّ الفِئَةَ لَم توقِعِ النَّصرَ، وأنَّ اللّهَ ﷻ هو الذي نَصرَهُ، والواقِعُ أنَّ اللّهَ تعالى لَم يَنْصُرْهُ، بَل أَوْقَعَ به عذابَهُ[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَّهُۥ﴾:

افْتِخارُ الرَّجُلِ الكافِرِ بعَشيرَتِه، لَم يَنْفَعْهُ شَيْئًا

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّهُۥ﴾ عَلى اسْمِ كانَ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للدّلالَةِ عَلى الاهْتِمامِ بالمَنْفيِّ عَنْهُ، لا للدّلالَةِ عَلى القَصرِ؛ لأنَّ إفادَةَ القَصرِ تَقْتَضي إثباتَ وُقوعِ النَّصرِ من دونِ اللّه تعالى لغَيْرِه مِنَ العِبادِ، ومَعْنى الآيَة: هَذا الرَّجُلُ الذي افْتَخَر بجَمعِه وعَشيرَتِهِ؛ لَم يَجِدْ شَيْئًا من ذَلِكَ ناصِرًا لَهُ ودافِعًا عَنْهُ عذابَ اللّه تَعالى.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ، باسْمِ كانَ نَكِرَةً مَوْصوفَةً:

بَيانُ عَظيمِ حَسْرَةِ المُشرك، وبَيانُ قُدْرَةِ الله ﷻ عليه

وَرَدَ اسْمُ كانَ نَكِرَةً في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لإفادَةِ عُمومِ النَّفْيِ؛ لأنَّها نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ، وهيَ مِمّا يُسْتَفادُ مِنْهُ العُمومُ، ووُصِفَت النَّكِرَةُ ﴿فِئَةٞ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 90.

بجُملَةِ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾، وهُما واقِعانِ في حَيِّزِ النَّفْيِ، فيُحْتَمَلُ أن يَكونَ هَذا النَّفْيُ مُنْسَحِبًا عَلى القَيْدِ فقَط، والمَعْنى: أنَّ له فئةً، ولَكِنْ لا تَقْدِرُ عَلى نَصْرِه، ويَجوزُ أن يَكونَ النَّفْيُ مُسَلَّطًا عَلى الفِئَةِ، وإذا انْتَفَتِ الفِئَةُ انْتَفى وصْفُها؛ والمَعْنى: لا فِئَةَ حاصِلَةٌ لَهُ، فلا نَصْرَ حاصِلٌ أصلًا[1]، والأوَّلُ أقْوى في إفادَةِ عظيمِ حَسْرَتِه وبيانِ قُدْرَةِ اللّه ﷻ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾:

إبرازُ عَجْزِ الخَلائِقِ عَنْ مُدافَعَةِ قَدَرِ الله تَعالى

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للدّلالَةِ عَلى الاسْتِمرارِ التَّجَدُّديِّ، والمرادُ: دوامُ هَذا النَّفْي لا نَفْيُ الدَّوامِ؛ إذِ المَقْصودُ مِنَ الآيَةِ بَيانُ انْتِفاءِ نَصْرِ أيِّ فِئَةٍ لَهُ انْتِفاءً مُسْتَمِرًّا؛ لعَجْزِهِم عَن مُدافَعَةِ قَدَرِ اللّه تَعالى بإهْلاكِ جَنَّةِ الرَّجُلِ الكافِرِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

انْفِرادُ الله تعالى بالقُدْرَةِ عَلى النَّصْرِ، الّذي لا يحقّقُه أحدٌ سواه

في التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بالقادِرِ عَلى الحَقيقَةِ بَعْدَ نَفْيِ القُدْرَةِ عَنِ الفِئَةِ، والمَعْنى: أنَّ اللّهَ ﷻ هو القادِرُ عَلى النَّصْرِ وحْدَهُ دونَ سِواهُ[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الاسْمُ الأعظمُ (اللّه)، أجْمَعُ الأسْماءِ الحُسْنى لمَعاني الجَلالِ والكَمالِ

في اخْتيارِ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى العَظَمَةِ؛ لأنَّ السّياقَ في بَيانِ قُدْرَةِ اللّه تعالى عَلى النَّصْرِ، والاسْمُ الأَحْسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾، أجْمَعُ الأَسْماءِ الحُسْنى لمعاني الجَلالِ والكَمالِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 181.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾:

نَفْيُ جَميعِ أَوْجُهِ الاستنصار، بأيِّ فئةٍ سوى العزيزِ الجبّارِ

الواوُ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ عاطفةٌ، وذلكَ أَنَّ بينَ الجُملَتَيْنِ تَوَسُّطًا بينَ الكَمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِ الجُملَتَيْنِ في الخَبَريَّةِ، وحسَّنَ الوصلَ اشْتِراكُهما في الاسْميَّةِ - إذا لَم نَعْتَدَّ بالفِعْلِ النّاسِخِ، وهو قول جماعةٍ مِنْ أهلِ العربيَّةِ - واتِّفاقُهما في فِعْلِ الكَوْنِ، وفي عَطْفِ هذه الجُملَةِ عَلى جُملَةِ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، نَفْيٌ للنُّصْرَةِ مِن جَميعِ أَوْجُهِها، فلَم يَنْتَصِرْ بنَفْسِه ولا بغَيْرِه.

دِلالَةُ النَّفْيِ بـ ﴿وَمَا﴾ في السّياق:

تَأْكيدُ نَفْيِ امتِناعِهِ بنَفْسِهِ، مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى

في إيثارِ النَّفْيِ بـ ﴿وَمَا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ تأكيدٌ لنَفْيِ امتِناعِه بنَفْسِه من عَذابِ اللّه سُبحانَهُ؛ وذلكَ لأنَّ في (ما) مَعْنى التَّأكيد، كَما قالَ سيبَوَيْه: "وإذا قالَ: (لقَدْ فعل)؛ فإنَّ نَفْيَهُ: (ما فعل)؛ لأنَّه كأَنَّه قالَ: (واللّه لَقَدْ فعل)، فقالَ: (واللّه ما فعل)"[1]، فهيَ آكَدُ في النَّفْيِ مِنْ (لَم)[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بفِعْلِ الكَوْنِ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

بيانُ عدمِ قُدْرَتِه عَلى الانْتِصارِ بنَفْسِهِ، مِنْ عَذابِ اللهِ وبأسِه

اخْتارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بنَفْيِ الكَوْنِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ للإيماءِ إلى أَنَّ هَذا شَأْنُهُ وطَبْعُه في الماضي، وهوَ مُسْتَمِرٌّ عَلى تِلْكَ الحالِ، فلا يَتَأَتّى لَهُ أَن يَنْتَصِرَ بنَفْسِه مِنْ عَذابِ اللّه تَعالى فيَدْفَعَهُ عَنْهُ.

الغرضُ من إضمارِ اسم ﴿كَانَ﴾:

التّعبيرُ بالضّميرِ لتعيُّنِه؛ لكونِه محورَ القصَّةِ ومَركزَ العِبرة، فلا حاجةَ لذِكْرِه، ولئلّا يظهرَ له ذِكرٌ مع ذكرِ النَّصر حتّى لو كان نفيًا.

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بخَبَرِ كانَ ﴿مُنتَصِرًا﴾، بصيغة اسْمِ الفاعِلِ:

عُبِّر عَن خَبَرِ كانَ ﴿مُنتَصِرًا﴾ اسمَ فاعلٍ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾؛ للدّلالَةِ عَلى ثبوتِ هَذا الوَصْفِ فيه ولُزومِه لَهُ، فعَدَمُ قدرةِ العَبْدِ على الامتِناعِ مِن عَذابِ اللّه تَعالى النّازِلِ به أمرٌ لازِمٌ لَهُ، لا يَنْفَكُّ عَنْهُ بحالٍ؛ لضَعْفِه وعَجْزِه أمامَ قوَّة اللّه سُبْحانَهُ وقُدْرَته.

ضَعْفُ العِبادِ وعَجْزُهُم أَمامَ قُدْرَةِ الله تَعالى وقوَّتِهِ

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربْطُ نفْيِ النّصر مِن سوى الله، بكونِه المَرْجوَّ لنَصْرِ أوْليائِه وإغْنائِهم

لمّا كانَ ما تقدَّمَ مِن ذِكْرِ مآلِ الرَّجُلِ الكافِرِ مُفيدًا أنَّ الأمرَ للّه تعالى وحْدَهُ، وأنَّه المَرْجوُّ وحْدَهُ لنَصْرِ أَوْليائه بَعْدَ ذِلَّتِهم، وإغْنائهم بَعْدَ فاقَتِهم، ولإذْلالِ أَعْدائه بَعْدَ عِزِّهم، وإفْقارِهم بَعْدَ غِناهُم؛ صرَّح بهَذا المَعْنى بَعْدُ، فقال ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: (ولي) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى القُرْبِ، ومِنْهُ: الوَلْيُ وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعْدَ ولْيٍ، أي: بَعْدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربُني، ومِنْهُ المَوْلى؛ وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنى القُرْبِ كما هوَ بيِّنٌ[2]، ومِن أسماءِ اللّه سُبحانَهُ: (الوَليُّ)، ومَعْناهُ النّاصِرُ، أَوْ هوَ المتوَلّي لأمورِ الخَلائقِ القائمُ بها[3]، والوِلايَةُ - بالكَسْرِ - في قولِ اللّه تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾، هيَ نَقيضُ العَداوَةِ؛ والمُرادُ بها: النُّصرةُ، والوَلايةُ - بالفتحِ -: اسْمٌ للمَصْدَرِ أَوْ هوَ اسْمٌ بمَعْنى السُّلْطانِ والمُلْكِ[4].

2) ﴿خَيْرٞ﴾: (خير) تدورُ تصريفاتُها عَلى مَعْنى العَطْفِ والمَيْلِ، ومِنْهُ الخَيْرُ؛ وهو ضدُّ الشَّرِّ، وسمّيَ بذلكَ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يميلُ إليه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 65.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.
(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 329.

ويعطِفُ على صاحبِه، والاستخارَةُ: سؤالُكَ خيرَ الأمرين لَكَ[1]، وغالِبُ ما في القُرآنِ الكَريم مِن لَفْظ (الخَيْر) يَرِدُ بمَعْنَيَيْنِ؛ أَحدُهما: مِنَ الخَيْرِ الذي هو نَقيضُ الشَّرِّ، والآخَرُ: يَرِدُ اسمَ تفضيلٍ، فهو خيرٌ بمَعْنى: أَخْيَر[2]، إلّا أنَّ هَمزَتَهُ تُحْذَفُ تخفيفًا؛ لكَثْرَةِ دَورانِه علَى الأَلْسِنَةِ، ومِنَ الثّاني قولُ اللّه ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

3) ﴿عُقْبًا﴾: (عقب) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْن؛ أحدُهما: تأخيرُ شَيْءٍ ومجيئُه بَعْدَ غَيْرِه، والآخرُ: ارتِفاعٌ وشِدَّةٌ وصُعوبةٌ[3]، ومِنَ الأوَّل قَوْلُهم: أَعْقَبَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ؛ إذا صارَ مكانَهُ؛ لأنَّه يَكونُ متأخِّرًا عَنْهُ[4]، ومِنْهُ سمّيت العقوبةُ بذلكَ؛ لأنَّها تَكونُ آخرًا بعد الذَّنْبِ[5]، و﴿عُقْبًا﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أيْ: عاقِبَةً، والمرادُ: آخِرَةُ الأَمرِ؛ وهيَ ما يَرْجوهُ المَرْءُ مِنْ سَعْيِه وعَمَلِه[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ولايةُ الله خَيْرٌ للمُنيبينَ، ثوابًا وعاقبةً، في العاجِلِ والآجِلِ

في مِثْلِ هذه الشَّدائِدِ تَكونُ الولايَةُ والنُّصْرَةُ للّه تعالى الحَقِّ، هو خَيْرٌ للمُنيبينَ في العاجِلِ والآجِلِ جَزاءً، وخَيْرٌ عاقِبَةً إذا صارَ إِلَيْه المُطيعُ لَهُ، العامِلُ بما أمَرَهُ اللّهُ سبحانه والمُنْتَهي عَمّا نَهاهُ اللّهُ ﷻ عَنْهُ[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّذْييلِ في هذه الآيةِ الكريمةِ:

بَيانُ ولايةِ الله لأَوْليائه مِنَ المُؤْمنينَ، عَلى أعدائه مِنَ الكافِرينَ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، تَذْييلٌ للجُمَلِ الّتي قَبْلَها؛ وذَلِكَ لما في هَذِه الجُملَة مِنَ العُمومِ الحاصِلِ مِنْ قَصْرِ الولايَةِ عَلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عقب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 330.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 29، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.

اللّه سُبْحانَهُ المُقْتَضي تَحْقيقَ جُمَلٍ متقدِّمَةٍ، كقولِه تَعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾، وقولِه ﷻ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾؛ وذلكَ لأنَّ مِن شَأْنِ الولايَةِ أَن تَبْعَثَ عَلى نَصْرِ المَوْلى، وأَن تُطْمِعَ المَوْلى في أنَّ وليَّهُ ناصِرُهُ[1]، فجُملَةُ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ مُقرِّرةٌ لما قَبْلَها؛ لما فيها مِن بَيانِ نَصْرِ اللّه تعالى أَوْلياءَهُ المُؤْمنينَ عَلى الكَفَرة، كَما نَصَرَ الرَّجُلَ المُؤْمِنَ عَلى صاحِبِه الكافِرِ[2].

بَيانُ الوِلايَةِ الكامِلَة، لقدرةِ اللّه الشّاملةِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿هُنَالِكَ﴾:

﴿هُنَالِكَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اسْمُ إشارَةٍ دالٌّ عَلى البَعيدِ؛ لاقْتِرانه بلامِ البُعْدِ، وفي التَّعبيرِ به إيماءٌ إلى أنَّ المرادَ بقَوْلِه: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في مِثْلِ هذه الشَّدائِدِ العَظيمَةِ[3]، وفيه تَنْبيهٌ عَلى أنَّ المرادَ بالولايَةِ: الولايَةُ الكامِلَةُ[4].

تَشْبيهُ تِلْكَ الحالِ بالمكانِ؛ لإحاطَتِها بصاحِبِها إحاطَةَ المكانِ بِهِ

سِرُّ الاسْتِعارَةِ في لفظ ﴿هُنَالِكَ﴾:

﴿هُنَالِكَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ اسْمُ إشارَةٍ للمَكانِ البَعيد، وهوَ مُسْتَعارٌ للإشارَةِ إلى الحالِ العَجيبَةِ، وذلِكَ بتَشْبيهِ تِلْكَ الحالِ بالمَكانِ؛ لإحاطَتِها بصاحِبِها، وتَشْبيهِ غرابَتِها بالبُعْدِ؛ لنُدْرَةِ حُصولِها، والمُرادُ: أنَّ مِثْلَ تِلْكَ الحالِ تُقْصَرُ فيه الولايَةُ عَلى اللّه سُبحانَهُ وحْدَهُ[5].

الولايةُ للّه تظهرُ أكثرَ في دفع الضُّرِّ، وحمايةِ أوليائِه من كلِّ خطرٍ

الغرضُ من تقديمِ ﴿هُنَالِكَ﴾ على ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾:

الغرضُ مِنَ التّقديمِ التّخصيصُ، أي: مِثْلُ هذه الحالاتِ خصوصًا تَظهَرُ فيها الولايةُ للّه؛ لأنَّ الولايةَ أظهَرُ في دَفْعِ الضُّرِّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 328.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 65.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4535.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 329.

الـولايـة لله سُبحانَه وحدَه، مَظهَرٌ لهَيْمَنَتِه على كونِه

دِلالَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ باللّامِ:

اللّام في ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ لامُ الجِنْسِ، أَيْ: أنَّ هَذا الجِنْسَ مُخْتَصٌّ بمَدْخولِ اللّامِ[1]، وذَلِك مُقْتَضٍ إفادَةَ القَصْرِ؛ لتَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْه واقْتِرانِ خبَرِه بلام الاخْتِصاص[2]، كالوارِدِ في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]، فيكونُ المَعْنى: الولايَةُ للّه وحدَهُ دونَ ما سواهُ.

التّكامُلُ الدّلاليُّ للـقِـراءاتِ القُرْآنيّةِ، وأثرُه في السّياقِ

تَوْجيهُ القِراءاتِ في لفظ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾:

قرأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ البَزّارُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ بكَسْرِ الواوِ ﴿ٱلْوِلَٰيَةُ﴾، وقرأ باقي العَشَرَةِ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بفَتْحِها[3]؛ فالفَتْحُ بمَعْنى المُلْكِ والسُّلْطانِ، أَي: السُّلْطانُ والقُدْرَةُ للّه سُبْحانَهُ، والكَسْرُ بمَعْنى النُّصْرَة، أي: النُّصْرَةُ للّه تَعالى وحْدَهُ[4]؛ لا ناصِرَ إلّا هو، والمَعْنَيانِ صحيحانِ مُتَكامِلانِ، فمن بلاغة القراءات هنا أنَّ هَذا الرَّجُلَ إنْ بَحَث عن سُلطة لتنصرَه فلا سلطة هنالك إلا للّه، وإن بحثَ عن ناصر لينصره فلا ناصر أيضًا هنالك إلا اللّه، فقُطِعت عنه بالقراءتين نُصْرة الغريب والقريب.

اللهُ هوَ الحَقُّ، ووَلايَتُهُ الحَقُّ

تَنَوُّعُ القِراءاتِ في لفظ ﴿ٱلْحَقِّۚ﴾:

﴿ٱلْحَقِّۚ﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ ورَدَ فيها قِراءَتان؛ إحداهُما: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بالرَّفْعِ، وهي قِراءَةُ أبي عَمرٍو والكِسائيِّ، والأخرى: ﴿ٱلْحَقِّۚ﴾ بالجَرِّ، وهي قِراءةُ الباقينَ[5]، فأمّا الرَّفْعُ؛ فعَلى كَوْنِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نَعْتًا للولايَةِ، أَيْ: الولايَةُ الحَقُّ للّه تعالى وحْدَهُ، لا يَسْتَحِقُّها غيرُه، وأمّا الجرُّ؛ فعَلى كَوْنِ ﴿ٱلْحَقِّۚ﴾ نَعْتًا للّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 329.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 270.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 277.
(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 418.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 311.

سُبْحانَه[1]، والقِراءَتانِ مُتَكامِلَتانِ؛ فاللّهُ سبحانه هو الحَقُّ، ووِلايَتُه هيَ الحَقُّ.

ونعتُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ - وهي مؤنّثة - بـ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ - وهو مذكّر - على تأويل معنى: السلطان والمُلك، فولاية اللّه جل ذكره لا يشوبها نقص ولا خلل، والذين قرؤوا بالخفض، جعلوه صفة للّه جلّ ذكره، وهو مصدر وصف به كما وصف بالعدل وبالسلام، وهما مصدران، والمعنى: ذو الحق وذو العدل وذو السلام[2].

دِلالَةُ وصْفِ (اللهِ) بِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

مِنْ أَقْبَحِ صوَرِ الجَهْلِ الرُّكونُ في الحقِّ إلى غيرِ الحقِّ

في وصْفِ اللّه سبحانه بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ في قِراءَةِ مَن جَرَّ[3] تَنْبيهٌ على أنَّ فزَعَهُم في مِثْلِ هذه النَّوازِلِ والمَصائِبِ إلَيْه - وحْدَهُ - ودليلٌ ظاهِرٌ وبُرْهانٌ قاطِعٌ عَلى أنَّه الحقُّ وما سِواهُ باطِلٌ، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بأنَّ الفَخْرَ بالعَرَضِ الزّائِلِ مِن أَقْبَحِ صوَرِ الجَهْلِ، وأنَّ أهلَ الإيمانِ لا يَعيبُهُم فقْرُهُم وضَعْفُهُم، وأنَّه يوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ فقْرُهُم غِنًى وضَعْفُهُم قوَّةً[4].

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مِمّا قَبْلَها ودِلالَتُهُ:

أَخْذُ الله تعالى بأَيْدي الأَبْرارِ، وأخذُه عَلى أَيْدي الأَشْرارِ

لَمّا أفادَ قَوْلُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّه ﷻ آخِذٌ بأَيْدي عِبادِه الأَبْرارِ، وعَلى أَيْدي عُصاتِه الأَشْرارِ؛ بيَّن أثَرَ ذَلِكَ ونَتيجَتَهُ، فقال تَعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[5].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾:

دَوامُ إِنْعامِ الله سُبْحانَهُ، مَظهَرٌ لِعُمومِ أَلطافِهِ

في التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ إيماءٌ إلى ثُبوتِ هذه الخَيْريَّةِ ودَوامِها واسْتِمرارِها؛ وأنَّ ثوابَ اللّه تَعالى لِعِبادِهِ المُنيبينَ في العاجِلِ والآجِلِ دائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، فاللّه ﷻ دائِمُ الإِنْعامِ علَيْهِم.

(1) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 419، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 523.
(2) مكي بن أبي طالب، الكشف: 2/ 63.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 311.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 66.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 66.

دِلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾:

في عَطْفِ ﴿وَخَيۡرٌ عُقُبٗا﴾ عَلى ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ قصدُ إِشْراكِ اللَّفْظَيْنِ في الحُكْمِ الإعرابيِّ؛ إِذْ كِلاهُما خَبَرٌ للضَّميرِ ﴿هُوَ﴾، وفي هَذا العَطْفِ: جَمعٌ بينَ جزاءِ الدُّنْيا وثوابِ الآخِرَة؛ فإِنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ أي: خَيْرٌ إثابَةً في الآخِرَةِ لِمَن آمنَ به والتَجَأَ إِلَيْهِ، وقولَهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَخَيۡرٌ عُقُبٗا﴾ أي: خيرٌ عاقِبَةً في الدُّنْيا لِمَن رَجاهُ وعَمِلَ لِوَجْهِه[1].

الجَمعُ بَيْنَ جزاءِ الدُّنْيا والآخِرَة

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ (فُعُل):

﴿عُقۡبٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَخَيۡرٌ عُقُبٗا﴾ قَرأها بِسُكونِ القافِ عاصِمٌ وحَمزَةُ وخَلَفٌ البَزّارُ، وقرَأ الباقونَ بضَمِّ القافِ[2]، وضَمُّ القافِ هو الأَصْلُ، وتَسْكينُها تَخْفيفٌ، عَلى ما هوَ القاعِدَةُ في كُلِّ لَفْظٍ عَلى وَزْنِ (فُعُل)، وفي التَّعبيرِ بصيغَةِ (فُعُلٍ) أو بالصّيغَةِ المُخَفَّفَةِ مِنْها (فُعْل) - وهيَ مِن صيَغِ جُموعِ الكَثْرَةِ - دِلالَةٌ عَلى المُبالَغَةِ وإِنْ لَم تَكُنْ هَهُنا مُرادًا بها الجَمعُ، والمَعْنى: وخَيْرٌ عاقِبَةً عَظيمَةً.

حُسنُ عاقِبَةِ الدُّنْيا لِمَنْ رَجا اللّه سُبْحانَهُ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الثَّوابُ والأَجْرُ والجَزاءُ:

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاءُ - على مَعْنَيَيْنِ، وهُما: الكِراءُ على العمَلِ، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ، ويُجْمَعُ بينَهُما بأَنَّ أجرةَ العامِلِ بمنزلَةِ الشَّيءِ الذي تُجبَرُ به حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[3]، وأمّا الثَّوابُ؛ فدالٌّ على العَوْدِ والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعودُ على الإِنْسانِ من جَزاءِ عَمَلِه[4].

الأَجْرُ أَخَصُّ مِنَ الثَّوابِ والجَزاءِ

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 16/ 379.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 216.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(4) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).

وأمّا الجَزاءُ؛ فأصلُهُ: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفايَةُ مِنَ المُقابلة إن خَيْرًا فخَيْرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[1].

والفَرْقُ بينَها[2]: أنَّ الثَّوابَ يُستعملُ في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ فهو المقابَلَةُ على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمَلُ إلّا في النَّفع دون الضّرِّ، ويتضمَّن مَعْنى المُعاوضة.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصِه بالخَيْرِ، بخلاف الثَّواب والجزاءِ، فهُما أعمُّ؛ لجَريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّوابُ أخصُّ مِنَ الأجر والجزاءِ من جهةِ أنَّهُ لا يُستعمَلُ في المنافِعِ المادّيَّة أوِ الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقعانِ على المنافِعِ الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخْرَويَّة.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جزا).

(2) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46، 48، ومحمّد ياس الدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164، 166.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربطُ الولايةِ وجزاءِ اللهِ، بسُرْعَةِ انْقِضاءِ الدُّنْيا، وفناءِ ما فيها

لَمّا أتَمَّ اللّهُ ﷻ المَثَل لدُنْياهُم الخاصَّةِ بهِم التي أَبْطَرَتْهُم، فكانَت سبَبَ شَقائِهم وهُم يَحْسِبونَ أنَّ ذلكَ عينُ سَعادَتِهم؛ ضَرَبَ مثلًا للدّارِ الدُّنْيا العامَّةِ لجَميعِ النّاسِ في قِلَّة مدَّتها وسُرْعَةِ انْقضائها، وأَنَّ مَن تَكَبَّر بها كانَ أَخَسَّ مِنْها؛ فقالَ تَعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾: ضَرْبُ المَثَلِ: هو اعتبارُ الشَّيْءِ بغَيْرِه وتَمثيلُهُ به، والضَّربُ: هو المِثالُ[2]؛ يُقالُ: هذه الأَشْياءُ عَلى هذا الضَّربِ، أي: عَلى هَذا المِثالِ[3] ويُطلَقُ الضَّرْبُ على الوَصْفِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[4] أي: صِفْ لَهُم مثلَ الحياةِ الدُّنيا.

2) ﴿مَّثَلَ﴾: (مثل) تَرْجِعُ تَصاريفُها إلى مُناظَرَة الشَّيْءِ للشَّيْءِ، ومِنْهُ: المَثيلُ بمعنى النَّظيرِ والشَّبيهِ، وقولُ العرَبِ: أَمثَلَ الأميرُ فلانًا؛ إذا قتلَهُ قِصاصًا، وذلكَ لأنَّه فعل به مِثْلَ ما كان فعلَه بمَنْ قَتَلَهُ، ومِنْهُ أيضًا: المَثَلُ المَضروبُ؛ لأنَّه يُذْكَرُ مورًّى به عَنْ شَبيهِه في المَعْنى[5] وأمّا المَثَلُ القرآنيُّ؛ فهو: "عِبارَةٌ عَن قولٍ في شيءٍ يُشْبِهُ قولًا في شيء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 65.
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ضرب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرب).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 402.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مثل).

آخَرَ، بَيْنَهُما مُشابهةٌ؛ لِيُبَيِّنَ أحدُهما الآخرَ ويُصَوِّرَهُ ... وعلى هذا الوجه ما ضَرَبَ اللّهُ تعالى مِنَ الأَمثالِ"[1].

3) ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾: (خلط) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى دُخولِ شَيْءٍ في أَثْناءِ آخَرَ أو في خَلَلِه عَلى وجْه الامتِزاج[2]، ومِنْهُ المُخالَطَةُ وهيَ الامتزاجُ، ويُسَمّى الشُّركاءُ خُلَطاءَ لِهَذا المَعْنى، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص: 24]، والاخْتِلاطُ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو أَن يَشْرَبَ النَّباتُ مِن ذَلِك الماء، فيظهَرَ فيه الرّيُّ والنّضارَةُ[3].

4) ﴿هَشِيمٗا﴾: (هشم) تدور تصريفاتُها عَلى تَفَتُّتِ جِرْمِ الشَّيءِ الجافِّ أَوِ الصُّلْبِ المُلْتَئِمِ الظّاهِرِ بضَغْطٍ أَوْ دَقٍّ[4]، وخصَّهُ الرّاغِبُ بكَسْرِ الشَّيْءِ الرِّخْو، كالنَّباتِ[5]، ومِنْ هَذا المَعْنى هَشْمُ الرّيحِ اليابِسَ مِنَ الشَّجَرِ، أي: تكسيرُها لَهُ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾[6].

5) ﴿تَذۡرُوهُ﴾: (ذرو) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى مَعْنَيَيْنِ كُلّيَّيْنِ؛ أَحدهما: إِشْرافُ شَيْءٍ عَلى آخَرَ وإِظْلالُه، والآخَر: تَساقُطُ الشَّيْءِ مُتَفَرِّقًا[7]، والذَّرْوُ: التَّفْريق، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾ [الذاريات: 1] وقولُ اللّه تعالى: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾، أي: تُفرِّقُهُ[8].

6) ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾: (قدر) تدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى ضِدِّ العَجْز، ومِنْهُ القُدْرَةُ في وصْفِ الإِنْسانِ؛ وهيَ: اسْمٌ للهَيْئَةِ التي بها يَتَمَكَّن من فِعْلِ أمرٍ ما، والقُدْرَةُ من صِفات اللّه تَعالى: نَفْيُ العَجْزِ[9] واسْمُ الفاعِلِ مِن قَدَر: قادِرٌ، والقَديرُ: فعيلٌ، يُؤتى به عَلى جِهَةِ المُبالَغَة، والمُقْتَدِرُ: مشتقٌّ مِنَ الفِعْلِ اقْتَدَرَ؛ وهوَ أَبْلَغُ الثّلاثة[10]، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾.

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلط).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 33.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هشم).
(5) الرّاغب، المفردات: (هشم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هشم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرو).
(8) أبو حيان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ص: 130.
(9) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(10) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (قدر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّمْثيلُ لفناءِ الدّنيا وانصرامِها، والتَّنويهُ بالقُدْرَةِ الإلَهيَّةِ وعَظَمَتِها

واضْرِبْ أيُّها الرَّسولُ للنّاسِ - خاصَّةً ذوي الكِبْرِ مِنْهُم - صِفَةَ الدُّنْيا التي اغْتَرّوا بها في بَهْجَتِها وسُرْعَةِ انْقِضائِها، فهيَ كَمَطَرٍ أَنْزَلَهُ اللّهُ تعالى مِنَ السَّماءِ، فخَرجَ به النَّباتُ بإِذْنِه سُبحانَهُ، وصارَ مُخْضرًّا، وما هوَ إلّا زَمَنٌ يَسيرٌ حتّى صارَ هَذا النَّباتُ يابِسًا مُتَكَسِّرًا تُطَيِّرُهُ الرّياحُ وتُفَرِّقُهُ في كُلِّ جِهَةٍ، وكانَ اللّهُ ﷻ ذا قُدْرَةٍ عَظيمَةٍ عَلى كُلِّ شَيْءٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾:

الانْغِماسُ في نَعيمِ الدُّنْيا يَحولُ دونَ النَّظَرِ في أدِلَّةِ الإسْلامِ

الواوُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اسْتِئنافيَّةٌ، والجُملَةُ بعدَها مُسْتَأْنفةٌ[2]، وذلكَ أنَّهُ لَمّا كانَ أَعْظَمَ حائلٍ بينَ المُشْركينَ وبَيْنَ النَّظَرِ في أدِلَّةِ الإسْلامِ انْغماسُهُم في الإقْبالِ عَلى الحَياةِ الدُّنْيا ونَعيمِها، وكانوا يَحْسبونَ هَذا العالَمَ غَيْرَ آيلٍ إلى الزَّوالِ؛ أمَرَ اللّهُ سبحانه رَسولَهُ ﷺ بأَنْ يَضْرِبَ لَهُم مَثَلَ هذه الحَياةِ الدُّنْيا التي غرَّهُم زخرُفُها[3].

الغرضُ منَ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾:

فعلُ الأمرِ ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ به إرشادُهُ ﷺ إلى إقناعِ الكافرينَ جَرْيًا على عاداتِهم في ضربِ الأمثالِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ ﴿لَهُم﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿مَّثَلَ﴾:

الرَّدُّ عَلى أَهْلِ الشِّرْكِ الموغِلينَ في نَعيمِ الدُّنْيا الخادعِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿لَهُم﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿مَّثَلَ﴾ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ لقَصْدِ الاهْتِمامِ بمَنْ ضُرِبَ المَثَلُ لأَجْلِهِم؛ ردًّا عَلى المُشْركينَ الموغلينَ في نَعيمِ الدُّنْيا؛ لإزالَةِ هَذا الحاجِزِ الذي مَنَعَهُم عَن تَدَبُّرِ أَدِلَّةِ الإسْلامِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 30، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 220.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 330.

دِلالَةُ أُسلوبِ التَّمثيلِ في السّياقِ:

الـدّلالَـةُ عَلى سُـرْعَـةِ زَوالِ الـدُّنْـيـا، بَـعْـدَ نَـضـارَتِـهـا وحُسْنِها

في المَقْصودِ بالمَثَلِ الوارِدِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قَوْلانِ[1]:

أَحَدُهما: أَنَّ اللّهَ سبحانه ضَرَبَهُ مَثَلًا للحَياةِ الدُّنْيا؛ لقَصْدِ الدّلالَةِ عَلى سُرْعَةِ زَوالِها بَعْدَ نَضارَتِها وحُسْنِها.

والآخَرُ: أنَّ اللّهَ ﷻ ضَرَبَهُ مَثَلًا لأَحْوالِ أَهْلِ الدُّنيا، وأَنَّ معَ كُلِّ نِعْمَةٍ نِقْمَةً، ومعَ كُلِّ فرْحَةٍ تَرْحَةً، والمَثَلُ مُحْتَمِلٌ للمَعْنَيَيْن، ولا تنافيَ بَيْنَهُما، فلا مانِعَ مِن حَملِ المَثَلِ عَلى المَقْصدَيْنِ معًا، وأَنَّهُ ضَرْبُ مَثَلٍ للدُّنيا وسُرْعَةِ انْقِضائِها، وضَرْبُ مَثَلٍ لأَهْلِها وتَغَيّرِ حالِهِم.

دِلالَةُ وصْفِ الحَياةِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

الحَـيـاةُ الدُّنْيا حَياةٌ ناقِصَةٌ غَيْرُ أَبَدِيَّةٍ

هَذا التَّعبيرُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يُطلَقُ عَلى مُدَّةِ بَقاءِ الأَنْواعِ الحيَّةِ عَلى الأَرْضِ، وبَقاءِ الأَرْضِ عَلى حالِها، ويُطلَقُ أَيْضًا عَلى مُدَّةِ حَياةِ الأَفْرادِ، أَيْ: حَياةِ كُلِّ أحدٍ، وفي وصْفِ الحَياةِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ مُدَّةَ هذه الحَياةِ قصيرةٌ غيرُ أبديَّةٍ؛ إِذْ هيَ دُنْيا غَيْرُ عُلْيا، أي: غيرُ كامِلَةٍ، وفي وصْفِها بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ كَذلك إِشارَةٌ إلى حُضورِها، لأَنَّ لَفظَ الدُّنيا يَرِد بمَعْنى: القَريبَة، فيَكونُ مَعْنى ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الحاضِرَةَ غَيْرَ المُنْتَظَرَة، وفي ذَلِكَ كِنايَةٌ عَن حُضورِها بالقُرْبِ، ووَصْفُها بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه احْترازٌ عنِ الحَياةِ الآخِرَةِ أيضًا[2].

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿كَمَآءٍ﴾:

الإشارَةُ إلى كَثْرَةِ الماءِ النّازِلِ مِنَ السَّماءِ

نُكِّر لفظُ ﴿كَمَآءٍ﴾ من قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّكْثير، أَيْ: كَماءٍ كَثيرٍ أَنْزَلناهُ مِنَ السَّماء، كَما يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قولُهُ بَعْدُ: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 309 - 310.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 330 - 331.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنَّ ذِكْرَ اخْتِلاطِ نباتِ الأرضِ على اتِّساعِ رُقْعَتِها بالماءِ إيماءٌ إلى كَثْرَةِ الماءِ النّازلِ مِنَ السَّماءِ[1].

سرُّ تَقْييدِ النّكرةِ بجملةٍ فعليّةٍ صفةً لها:

في قولِه تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، نلاحظُ إتباعَ النّكرةِ بجملةِ الصِّفةِ؛ تبْيينًا لقُدرةِ اللّه عزّ وعلا، وأنَّ الماءَ الّذي هو حياةُ كلِّ شيءٍ، لا يُمكنُ لأحدٍ امتلاكه، ولا التَّحكُّمُ فيه، ويؤيّدُهُ إسنادُ الإنزالِ إلى الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيم، وفي التَّعبيرِ بالإنزالِ بيانٌ لبُعْدِ جهةِ نزولِه، وهي لا تقعُ في مقدورِ مخلوقٍ، وفي ذلك طمأنةٌ لعبادِ اللّه المؤمنين، وتحذيرٌ للكافرين.

الماءُ ليس في مقدورِ مخلوقٍ، وإنّما هو مِنَ اللّه العظيم وحدَه

دِلالَةُ إسْنادِ الفِعْلِ (أَنْزَلَ) إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

أُسْنِدَ فِعْلُ الإنْزالِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ عَلى العَظَمَةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى عَظمَةِ هَذا الإنْزالِ، وعَظَمَةِ مُنْزِلِه ﷻ، أَيْ: أَنْزَلْنا هَذا الماءَ بِعَظَمَتِنا وقُدْرَتِنا الباهِرَةِ بَعْدَ يُبْسِ الأَرْضِ وجَفافِ ما فيها[2].

عَظَمَةُ إنْزالِ الماءِ، مُنبِئَةٌ بعَظَمَةِ مُنْزِلِه سُبْحانَهُ

مَعْنى ﴿مِنَ﴾ ودِلالَتُها في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حَرْفٌ دالٌّ عَلى الابْتِداءِ، أَيْ: إنَّ مُبْتَدَأَ إنْزالِ الماءِ حاصلٌ مِنَ السَّماء، وفي تَقْييدِ النُّزولِ بكَوْنِه مِنَ السَّماء تَنْبيهٌ عَلى قُدْرَةِ اللّه سبحانه الباهِرَةِ في إمساكِه في العُلوِّ، وإنْزالِه في وقْتِ الحاجَةِ عَلى الوَجْه الذي يَنْفَعُ العِبادَ[3].

جَلالَةُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ، في إمْساكِ الماءِ وإنْزالِه وقْتَ الحاجَةِ

مَعْنَى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾:

الفاءُ في ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 525.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 68.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 68.

الدّلالةُ على قِصَرِ مُدَّةِ نَضارَةِ النَّباتِ وخُضْرَتِهِ

﴿ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ على التَّرْتيبِ مَعَ التَّعقيبِ مِنْ غَيْرِ مُهْلة، وذلكَ دالٌّ عَلى قِصَرِ المُدَّة التي اسْتَمَرَّ فيها النَّباتُ نَضِرًا بَديعًا، ثُمَّ لَم يَلْبَثْ أَن صارَ هَشيمًا تَذْروهُ الرّياحُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾:

تَحْقيقُ صورَةِ المَثَلِ، وتَجْليةُ الصّورةِ في البيانِ

عُبِّرَ عَنِ الاخْتِلاطِ بصيغَةِ الفِعْلِ الماضي ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ هَذا الاختلاطِ، ويَلْزَمُ مِنْهُ تَحَقُّقُ صورَةِ المَثَل في أَذْهانِ السّامِعينَ.

دِلالَةُ الاتِّساعِ في قَوْلِه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الماءُ هوَ السَّبَبُ الأَساسُ في ظُهورِ النَّباتِ وبُلوغِهِ نَضارَتَهُ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه: اشْتَبَكَ بعضُه ببَعْضٍ لكَثْرَتِه وتَكاثُفِه بسَبَبِ كَثْرَةِ سَقْيِ الماءِ إيّاهُ، أو معناه: دَخَلَ الماءُ في نَباتِ الأَرْضِ حتّى رَوِيَ، وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أَن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيّ: فاخْتَلَط بنَباتِ الأَرْضِ؛ لأَنَّ الشّائِعَ في اسْتِعْمالِ اللُّغَةِ دُخولُ الباءِ عَلى الكَثيرِ غَيْرِ الطّارئ، وإِنْ صَدقَ على كُلٍّ مِنَ المُتَداخِلَيْنِ أنَّه مُخْتَلِطٌ بحسَبِ الوَضْعِ اللُّغَويِّ، إلّا أنَّه عُدِلَ عن مُقْتَضى الظّاهر إلى ما ورَدَ في الآيَةِ الكَريمَةِ عَلى سَبيلِ الاتِّساع لإرادَةِ المُبالَغَة في كَثْرَةِ الماءِ، حتّى كأَنَّ الماءَ هو الأَصْلُ الكَثيرُ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الماءَ هو السَّبب الأَساسُ في ظُهورِ هَذا النَّباتِ وفي بُلوغِه قوَّتَهُ ونضارتَهُ[2].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

المطلوبُ المرغوبُ، مُقدَّمٌ على الطّالبِ لبيانِ شوقِهِ إليه

في تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعلِ ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ تخصيصٌ يُصوِّرُ شوقَ النّباتِ إلى الماءِ، فهو سببُ حياتِه، وباعثُ روحِهِ، فقُدِّمَ لأنّه المطلوبُ، من باب تقديمِ المطلوبِ على الطّالب.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 526.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 271، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 525.

سرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التّخصيصُ بيانٌ لسببِ الإنعام، مِنَ المُنعِمِ العلّامِ

أُضيف النَّباتُ إلى الأرض تخصيصًا له بها، وبيانًا لعلاقةِ النَّباتِ بالأرض كأنَّه جزء منها، ولبيانِ تأثيرِ الأرض - بقدر اللّه - في النَّباتِ، فكلُّ نباتٍ تُعَدُّ الأرضُ أُمَّهُ.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

تَحَوُّلُ النَّباتِ بَعْدَ نَضارَتِه وزَهْوِه إلى هَشيمٍ

الفاءُ في ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ حرفُ عَطْفٍ، وهو دالٌّ على التَّرتيبِ مَعَ التَّعْقيبِ من دونِ مُهلةٍ، وفي ذلكَ إشْعارٌ بسُرْعَةِ زَوالِه وصَيْرورَتِه بتِلْكَ الصِّفة؛ وهي كونُه هَشيمًا، وذَهَب بَعْضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ الفاءَ فصيحةٌ؛ لكَوْنِها أَفْصَحَت عَن مقدَّرٍ، والتَّقْديرُ: (فزَها النَّباتُ ومَكَث مدَّةً على الوَجْه الحَسَنِ، فأَصْبَحَ بَعْدَ زَهْوِه ونَضارَتِه هَشيمًا)[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

بَيانُ ما يَؤولُ إِلَيْه النَّباتُ بَعْدَ النَّضارَة، مِنَ اليُبْسِ والتَّفَتُّتِ

عُبِّر بالفِعْلِ الماضي ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ من قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ للدّلالَةِ عَلى تَحَقُّق صَيْرورَةِ النَّبات عَلى هَذا الوَجْه، والفِعْلُ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ هَهُنا بمَعْنى: صارَ، ولا يُرادُ به تَقْييدُ الخَبَرِ بوَقْتِ الصَّباح، وذهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ إلى أنَّها تدلُّ على التَّقييدِ بوَقْتِ الصَّباح؛ إذِ الآفاتُ السَّماويَّةُ أَكْثَرُ ما تَنْزِلُ ليلًا، إلّا أنَّه تُعُقِّبَ ذلكَ بأنَّه ليس في الآيَةِ ما يَقْتَضي أنَّ صَيْرورَةَ النَّباتِ هَشيمًا كانَ بسَبَبِ آفَةٍ سَماويَّةٍ، وإنَّما المُرادُ بَيانُ ما يَؤولُ إِلَيْه النَّباتُ بَعْدَ النَّضارَةِ مِنَ اليُبْسِ والتَّفَتُّتِ[2].

الغرضُ من إضمارِ اسم ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

المُغيَّبُ بالتَّذْرية والهَشْم، غُيِّبَ مِنَ الظُّهور في القولِ تشاكُلًا

في التَّعبيرِ باسم ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ ضميرَ غَيْبَةٍ إلماعٌ إلى الخبر، الّذي أفاد تصريحًا، أنّه صار في مَضيعَةٍ، كأنْ لم يكن، فشاكَلَ الحالُ المقالَ بسَترِ الضّمير، كما غُيِّبَ في الواقع بالهَشْمِ والتَّذرية.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 271.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 185، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 271.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ (فَعيلٍ) في ﴿هَشِيمًا﴾:

الدَّلالَةُ عَلى شِدَّةِ الهَلاكِ الحالِّ بالنَّباتِ

﴿هَشِيمًا﴾ مِن قَوْلِ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ عَلى زِنَةِ فعيلٍ، وهو بمَعْنى مَفْعولٍ، أي: فأَصْبَحَ مَهْشومًا، بمَعْنى: صارَ مُحَطَّمًا مَكْسورًا مُفَتَّتًا[1]، وفي إيثارِ التَّعْبيرِ بصيغَةِ فعيلٍ إيماءٌ إلى شِدَّةِ الهَلاكِ الواقِعِ عَلى النَّباتِ.

سرُّ تقييدِ خبرِ ﴿فَأَصْبَحَ﴾، بجملةِ ﴿تَذْرُوهُ﴾:

في التَّعبيرِ بالجُملِ فوائدُ أغزرُ في المَحْوِ والذَّهابِ

تُفيدُ الجُمَلُ في الصِّفاتِ ما لا تُفيدُه المفرداتُ، فقد أفادَت الجملةُ وقوعَ الذَّرْوِ عليه، فكأنَّهُ خبرٌ بعدَ الخبر، ثمّ أُسندَ الذَّرْوُ إلى الرّياحِ؛ لبيانِ شدَّةِ الفاعلِ على المفعولِ به؛ الضّميرِ العائدِ على الخبر، وكلُّ ذلك يفوتُ لو قيل: فأصبح هشيمًا مَذْروًّا.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَذْرُوهُ﴾:

بَيانُ شِدَّةِ تَحطُّمِ النَّباتِ وتَفتُّتِهِ، كما يَتَحطَّمُ متاعُ الدُّنيا وزُخْرُفُها

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَذْرُوهُ﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تنبيهٌ عَلى اسْتِمرارِ تَلاعُبِ الرّياح بهِ، وفي ذلك دَلالَةٌ عَلى شِدَّةِ تَحَطُّمِ النَّباتِ وتَفَتُّتِه.

الغرضُ مِن التَّعبيرِ بالفاعلِ ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾:

تعريفُ المُسنَدِ إليه باللّامِ للجنس، كأنَّ الرّياحَ كلَّها اجتمعَتْ عليه وطوَّحَتْ به، فلم يبقَ منه شيءٌ مُجتمِعٌ، من بعدِما كان مُجتمعًا. فالتّعريفُ يفيدُ الاستغراقَ وإحاطةَ النّوعِ.

دلالة خَتْمِ الآيَةِ بالتّعبيرِ عن اقتدارِ الله:

التَّذْكيرُ بعظيمِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ، عَلى خَلْقِ الأَشْياءِ وأَضْدادِها

قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقْتَدِرًا﴾ جُملَةٌ اعْتِراضيَّةٌ في آخِرِ الكَلامِ، والمُرادُ بها التَّذْكيرُ بقُدْرَةِ اللّه ﷻ عَلى خَلْقِ الأَشْياءِ وأَضْدادِها، وجَعْلِ أوائِلِها تُفْضي إلى أَواخِرِها، وتَرْتيبِه أسْبابَ الفَناءِ عَلى أَسْبابِ البَقاءِ، وذَلِكَ اقْتِدارٌ باهِرٌ بَديعٌ، وقَد دُلَّ عَلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 331.

ذَلِكَ بأكْمَلِ وجْهٍ؛ وذَلِكَ بصيغَةِ العُمومِ في قَوْلِه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، وهوَ بهَذا التَّعْميمِ أَشْبَهُ بالتَّذييل[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الكَوْنِ ﴿وَكَانَ﴾:

اقْتِدارُ الله تعالى وصْفٌ مُلازِمٌ لَهُ أزَلًا وأبَدًا

في التَّعْبيرِ بفِعْلِ الكَوْنِ ﴿وَكَانَ﴾، مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقۡتَدِرًا﴾، إشارَةٌ إلى أنَّ اقتدارَ اللّه سُبْحانَهُ، حاصِلٌ في الأَزَلِ قَبْلَ وُجودِ الإنْسانِ، وهو دائِمٌ مُسْتَمِرٌّ إلى أَبَدِ الآبِدينَ[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾:

اسْمُ الجلالة، جامِعٌ لصِفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ

عُبِّرَ عن اسْمِ ﴿وَكَانَ﴾ بالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقۡتَدِرًا﴾؛ لكَوْنِه الاسْمَ الجامِعَ لصِفاتِ الجلالِ والكَمالِ والجمالِ، والاقْتِدارُ مِن حيثُ هو فرْدٌ مِن أفرادِ تِلْكَ الأَوْصافِ، وإنّما عُبِّرَ به لتربيةِ المَهابةِ في سياقِ التَّحذير.

إيثارُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ عَلى (قَدير):

الدِّلالَةُ عَلى كَمالِ القُدْرَةِ وتَمامِها

آثر البيانُ القُرآنيُّ التَّعْبيرَ بـ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقۡتَدِرًا﴾؛ لكَوْنِه يدلّ على تَمامِ القُدْرَةِ وكَمالِها؛ إذِ المُقْتَدِرُ هو القَويُّ القُدْرَةِ الكامِلُ فيها[3]، وذلكَ أنَّ القادِرَ: اسْمُ فاعِلٍ مِن قَدَرِ، والقَديرَ: فعيلٌ، يُؤتى به لقصْدِ المُبالَغَةِ في بيانِ القُدْرَةِ، وأمّا المُقْتَدِرُ؛ فمشتقٌّ مِنَ الفِعْلِ: اقْتَدَرَ؛ وهوَ أَبْلَغُ الثَّلاثَةِ؛ إذ زيادةُ المَبْنى تدلُّ على زيادة المَعْنى[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّياحُ والرِّيحُ:

الرِّياحُ جَمعٌ، والرِّيحُ: مُفْرَدٌ، وكِلاهُما وارِدٌ في القُرْآنِ الكَريم،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 520.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 225، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332.

(4) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (قدر).

الرّياحُ للرَّحْمَةِ، والرّيحُ للعَذابِ، في غالِبِ الاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ

والغالِبُ في الاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ: اسْتِعْمالُ الرّياحِ لإرادَةِ الرَّحْمَةِ والامتِنانِ، والرّيح لإرادَةِ العَذابِ، ووَجَّهَهُ ابْنُ عَطيَّةَ بأَنَّ "ريحَ العَذابِ شَديدَةٌ مُلْتَئِمَةُ الأَجْزاءِ، كَأَنَّها جِسْمٌ واحِدٌ، وريحَ الرَّحْمَةِ لَيِّنَةٌ مُتَقَطِّعَةٌ، فلِذَلِكَ هيَ رياحٌ"[1] هَذا مُقْتَضى اسْتِقْراءِ أساليبِ القُرْآنِ الكَريمِ، وهو شَيْءٌ مُطَّرِدٌ في القُرْآنِ إلّا في مَوْضِعِ سورَةِ يونُسَ، ولَعَلَّ أَقْدَمَ مَنْ أُثِرَ عَنْهُ هَذا التَّفريقُ هوَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﵁، فقَدْ قالَ: "كُلُّ شَيْءٍ في القُرْآنِ مِنَ الرّياحِ؛ فهيَ رَحْمَةٌ، وكُلُّ شَيْءٍ في القُرْآنِ مِنَ الرّيحِ؛ فهوَ عَذابٌ"[2].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 233.

(2) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: 1/ 275.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

تلك الدُّنيا سريعةُ الفناءِ، زُيّنت بالمالِ والبنين

بعد أن أوردَ النَّظمُ الجليلُ مثلًا ضربَه للنّاس؛ ليدلَّ على حقارةِ الدُّنيا، وسرعةِ زوالِها، وانقراضِها، وانقضائِها، وأنَّها مُشرفةٌ على الزَّوال والبَوار والفناءِ؛ لكيلا يَركنوا إليها، ولا يَجعلوها أكبرَ همِّهم ومُنتهَى آمالِهم؛ بيّنَ بعد ذلك أنَّ حقيقةَ المالِ والذُّرّيَّةِ ما هي إلّا زينةٌ سريعةُ الزّوال، فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾[1]، فبيَّن النَّظمُ الكريمُ ما كانوا يَفتخرون به من مُحسِّناتِ الدُّنيا بعد بيان حالِها بذلك المثَلِ، فالأموالُ والبنونَ التي يفخرُ بها المشركون هي مِن زينةِ هذه الحياةِ التي عَلِمتُم سرعةَ زوالِها وفنائِها، فلا ينبغي التَّفاخُرُ بها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْبَنُونَ﴾: (بنو) أصلٌ، وهو الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيْءِ، كابْنِ الإِنْسانِ وغَيْرِهِ[3]، والابنُ عند الجمهور أصله: بنو، حُذفت لامُه وعوِّض عنها همزةُ الوصلِ في أوَّله، كاسم، وابنةٍ مؤنثة، وكذلك بنتٌ، ويُجمع ابنٌ على أبناء تكسيرًا، ويُصحَّحُ، فيُرفعُ بالواو، ويُنصبُ، ويجرُّ بالياء (بنون وبنين)، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشعراء: 88]، وقيل: ابنٌ اشتقاقًا مِنَ البناء؛ لأنَّه بناءُ أبيه، أي: أصلٌ في

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 467، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 525 - 526.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).

وجوده، وقيل لكلِّ مَن كان يحصل من جهتِه: ابنٌ، ولملازمِ الشَّيء، نحو: هو ابنُ السَّبيل، وابنُ الحرب[1].

2) ﴿زِينَةُ﴾: (زين) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسينِه، فالزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْييناً، وأَزْيَنَتِ الأَرْضُ وازْدانَتْ؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[2]، وزَيَّنَهُ؛ إذا أظهرَ حُسْنَه، وقولُه: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16]، إشارةٌ إلى الزّينة التي تُدرك بالبصرِ، وإلى الزّينةِ المعقولةِ التي يَختصُّ بمعرفتها الخاصَّةُ، وتَزْيينُ اللّه للأشياءِ قد يكونُ بإبداعها مُزيَّنةً، وإيجادِها كذلك[3]، وتَزَيَّنَتِ الأَرضُ بالنَّباتِ، أَي: حَسُنَتْ، وبَهُجَتْ، والزّينةُ اسْمٌ جامِعٌ لكُلِّ شَيْءٍ يُتَزَيَّن به[4].

3) ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ﴾: (بقي) أَصْلٌ يدلُّ على الدَّوام[5]، والبَقاء: ثباتُ الشَّيء على حالِه الأولى، وهو يُضادُّ الفناءَ، ولكون ما في الآخرة دائمًا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: 60]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾، أي: ما يبقى ثوابُه للإنسان مِنَ الأعمال، وهي كلُّ عبادةٍ يُقصد بها وجهُ اللّه تعالى[6]، وبقاؤها يعني: بقاءَ فوائدِها، و"عوائدِها عند فناءِ كلِّ ما تطمحُ إليه النَّفسُ من حظوظِ الدُّنيا"[7].

4) ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ﴾: (صلح) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلَحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[8]، فالصَّلاحُ: ضِدُّ الفساد، وهما مُختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعالِ، وقوبِلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][9]، والمرادُ بالصّالحاتِ في الآية: الأعمالُ النّافعةُ، فعبَّرَ عنِ المنفعة بالصَّلاح؛ لأنَّ المنفعةَ مصلحةٌ[10].

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بنو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(3) الرّاغب، المفردات: (زين).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (زين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(6) الرّاغب، المفردات: (بقي).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 225.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(9) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(10) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 310.

5) ﴿أَمَلٗا﴾: (أمل) أَصْلٌ يدلُّ على التَّثَبُّت والانْتِظار، والأَمَلُ: الرَّجاءُ، فتَقولُ: أَمَّلْتُه أُؤَمِّلُه تَأْميلًا، وأَمَلْتُه آمُلُه أملًا، وهذا فيه بَعْضُ الانْتِظارِ[1]، والجَمعُ: آمالٌ، ويُقالُ: أَمَلَ خَيْرَه، وما أَطولَ إمِلَته! أَي: أَملَه، والتَّأَمُّلُ: التَّثَبُّت، وتأَمَّلْتُ الشَّيءَ، أَي: نَظَرْتُ إليه مُستَثْبِتًا لَهُ[2]، والأمل: ظنُّ البقاء، والطَّمعُ في زيادته[3]، والأَمَل: هو شيءٌ يُرجَى تحصيلُه في المستقبل، قال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ [الحجر: 3]، أي: الأملُ في تحصيل الدُّنيا هو الذي يُلهيهم، ويَشغلُهم عَنِ الإيمان باللّه ورسولِه[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾، أي: "وخيرٌ رجاءً؛ لأنَّ صاحبَها يأملُ في الدُّنيا ثوابَ اللّه، ونصيبَه في الآخرة، دون ذي المال والبنين العاري مِنَ الباقيات الصّالحاتِ، فإنَّه لا يَرجو ثوابًا"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ النَّظمُ الجليلُ أنَّ المالَ والبنين مِن زينة الحياةِ الدُّنيا؛ لإعانتِهما فيها، ووجودِ الشَّرفِ بهما، وليسا من أسباب الشَّرفِ الأُخرويِّ، أمّا الأعمالُ الصّالحة التي تبقى ثمراتُها الأخرويَّةُ مِنَ الاعتقاد، وحُسنِ الأخلاق والعباداتِ؛ فخيرٌ عندَ اللّه تعالى يومَ القيامة مِنَ المال والبنين في الجزاء والفائدةِ، وخيرٌ ممّا يتعلَّقُ بهما مِنَ الأمل[6].

الخيرُ كلُّ الخيرِ في الأعمالِ الصّالحةِ الباقيةِ دون الزّينةِ الزّائلةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ﴾:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾

زينةُ الحياةِ الدُّنيا زائلةٌ منقطعةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أمل).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمل).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 186.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 39.

استئنافيَّةٌ، جيءَ بها لبيان شأنِ ما كانوا يفتخِرون به من زينة الدُّنيا، كما قال الكافرُ لأخيه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]، بعد أن بيَّن شأنَ الحياة نفسِها بالمَثَلِ المضروب[1].

وفائدةُ ذلك الموعظةُ والعِبرةُ، بأنَّ النِّعمةَ التي لدى المشركين ما هي إلّا زينةٌ زائلةٌ[2]، فلمّا قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45]، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾؛ جيء بينهما ببيانِ شأنِ المالِ والبنين، وشأنِ الأعمال الصّالحةِ لمناسبةِ السّياقِ لهذه المَوعظةِ.

الغرضُ منَ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

مِن حقائقِ الدُّنيا الرّاسخةِ أنَّ الأموالَ والأبناءَ زينةٌ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ دلالةً على أنَّ مضمونَ الجملة حقيقةٌ ثابتةٌ، وتأكيدًا للمعنى، وتقويَةً للخبر، فلا يخفَى أنَّ المال والبنين مِن زينة الحياةِ الدُّنيا، فإنَّ في المال جمالًا ونفعًا، وفي البنين قوَّةً ودفعًا[3].

نُكْتَةُ تقديمِ المال على البنين:

الأموالُ هي الأصلُ في زينةِ الحياةِ الدُّنيا

قدَّم النَّظمُ الجليلُ ذِكرَ المالِ على البنين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ مع أنَّ الأبناء أعزُّ مِنَ المال عند غالبِ النّاس؛ وذلك لعَراقتِه في أمر الزّينة، وأصالتِه في ذلك، ولأنَّه يُحقِّقُ الزّينةَ بدونِهم من غير عكسٍ، فإنَّ مَن له بنونَ بغير مالٍ هو في أضيق حالٍ، وهو أبعدُ ما يكون عنِ الزّينة[4]، كما أنَّ الزّينةَ بالمال

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 225.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 526.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 527.

أظهرُ وأتمّ؛ لأنَّه يُمدُّ الآباءَ والأبناء في كلِّ حين، ولأنَّه العُمدةُ في بقاء النَّفس والأولادِ، كما أنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ(1).

نُكْتَةُ إفرادِ الخبرِ ﴿زِينَةُ﴾:

المالُ والبنونَ هما الزِّينةُ ذاتُها، والزِّينةُ وشيكةُ الزَّوالِ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ الزِّينة بالإفرادِ دونَ التَّثنيةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، فلم يقل: (المال والبنون زينتا الحياة)، فهي مسندةٌ إلى اثنين، فالظّاهرُ وجوبُ تثنيتِها؛ وذلك لأنَّها مصدرٌ يستوي فيه الواحدُ والجمع، والتَّعبيرُ بالمصدر يُفيدُ المبالغةَ، فكأنَّهما الزّينةُ ذاتُها؛ لتأكيدِ كوْنِ أنَّ ما يَفتخرون به منَ المال والبنين إنَّما هو شيءٌ يُتزيَّنُ به في الحياة الدُّنيا(2)، فهما ليسا بشيءٍ سوى الزّينةِ الزّائلةِ وشيكًا.

سِرُّ إضافةِ الزّينةِ إلى الحياة:

ما كان زائلًا فإنَّ ما يُضاف إليه زائلٌ معه

أضاف النَّظمُ الجليلُ الزّينةَ إلى الحياة الدُّنيا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ إشارةً إلى أنَّها لا تدومُ، فلا ينبغي الحرصُ عليها، فلمّا عُلِمَ أنَّ الحياةَ الدُّنيا تؤولُ إلى زوالٍ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف: 45]؛ عُلِمَ أنَّ ما كان زينةً لها سيزولُ مع زوالها، فلا ينبغي الاغترارُ به، والتَّهالكُ عليه، وفيه تمهيدٌ لبيانِ على أيِّ شيء ينبغي الاجتهادُ والعملُ، وهو الأعمالُ الصّالحةُ الباقيةُ المذكورةُ لاحقًا، وفي "إضافة الزّينةِ إلى الحياة الدُّنيا تحقيرٌ لشأنها، وتنفيرٌ عنها"(3)؛ لكون هذه الزّينةِ مختصَّةً بها، لا تتجاوزُها إلى غيرها على قِصر أمدِها، وقلَّةِ زادها(4).

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 154.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 225.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 239.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 39.

سِرُّ تقييدِ الحياةِ بصفةِ الدُّنيا:

قَرُبَتِ الدُّنيا وأوشكتْ على الزَّوالِ

وصفَ النَّظمُ الجليل الحياةَ بصفة الدُّنيا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على قُربِها وسرعةِ زوالِها، وللتهوين من شأنها، والتحقير لها، وتزهيد المؤمنين بتلك الزّينةِ التي لا تلبثُ أن تزولَ.

الإنسانُ مغترٌّ بأهواء الحياة الدُّنيا ومَلذّاتِها

ويَردُ تركيبُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ في القرآن الكريم عمومًا، وفي هذا الموضع خصوصًا عندما يريدُ البيان القرآني أنْ يُصوِّرَ استغراقَ الإنسانِ في هذه الحياة، وعدمَ عنايتِه بما بعدَها، واغترارَه بأهوائها وشهواتِها، وكأنَّها هي الحياةُ الأبديَّةُ(1).

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾:

مُقابلةُ الزّينةِ الزّائلةِ بما يُقابلُها ممّا لا يزولُ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(2)؛ إذ لمّا بيَّن تعالى أنَّ المالَ والبنين زينةٌ زائلةٌ؛ عطفَ عليه مقابلَه ممّا لا يزولُ، وهو الأعمالُ الصّالحةُ، فقد دأبَ النّاسُ على التَّفاخرِ بما هو في هذه الحياةِ الدُّنيا، ولكن ما هو أفضلُ من ذلك وأحقُّ أن يَسعى الإنسانُ إليه هي الأعمالُ الباقيةُ مِنَ الأقوال الطَّيّبةِ، والأعمالِ الحسنة، التي تبقى ثمارُها للإنسان؛ إذ يَنال بها صاحبُها في الآخرة الفوزَ بنعيم الجنَّة، أمّا المالُ والبنونَ؛ فزائلان(3).

سِرُّ التَّقييدِ بصفةِ الباقياتِ الصّالحاتِ:

مطلبُ العقلاءِ الأعمالُ الباقيةُ النّافعةُ التي لا يزولُ نفعُها

قيَّد النَّظمُ الجليل بصفتَي الباقياتِ الصّالحاتِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾، فهما صفتانِ لمحذوفٍ، أي: الأعمالُ الصّالحةُ الباقيةُ، أي: التي لا

---

(1) أبو عودة، التّطور الدّلاليّ بين لغة الشّعر الجاهليّ ولغة القرآن الكريم - دراسة دلاليّة مقارنة، ص: 349 - 350.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 199.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 527.

زوالَ لخيرها، وصفةُ الصّالحات تقومُ مقامَ الاسم، فلمّا كثُرَ لفظُ (العمل الصّالح)؛ صار لفظُ (الصّالح) بمنزلة الاسم الدّالِّ على عملٍ خيرٍ، كقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: 107][1]، وإنَّما وُصِفَ العملُ بكونه صالحًا لما فيه مِن منفعة؛ لأنَّ المنفعةَ مصلحةٌ[2]، و"ليُفرِّقَ بينها وبين الباقياتِ السَّيِّئات الَّتي يخلدون بها في النّار"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم التَّفضيل ﴿خَيۡرٌ﴾:

الأعمالُ الصّالحةُ خيرٌ مِن زينةِ الدُّنيا الزّائلةِ

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم التَّفضيل ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الأعمالَ الصّالحةَ الباقيةَ أفضلُ مِن زينة المالِ والبنين الزّائلة بزوال الدُّنيا، فالأعمالُ الصّالحةُ خيرٌ مِنَ الزّينة الفانية[4]، ولم يقل: (أفضل)؛ لأنَّ لفظَ الخيريَّة دالٌّ على الأفضليَّة فيما يُرغبُ فيه، ويُطلبُ لمنفعته.

سِرُّ التَّقييدِ بالظَّرف ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

في يومِ القيامةِ يحفظُ اللهُ تعالى للمؤمنين أعمالَهم

قيَّد النَّظمُ الجليل خيريَّةَ الأعمالِ الصّالحةِ بالظَّرف ﴿عِندَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ لبيانِ أنَّ ظهورَ تلك الأفضليَّةِ وآثارِها حاصلٌ يومَ القيامة؛ لأنَّ الإنسان أحوجُ ما يكونُ لما سعى في تحصيلِه أن يجدَه وقتَ حاجته، فكفى اللّهُ تعالى المؤمنين بأن حفظَ لهم تلك الأعمالَ إلى يوم يكونُ التَّفاضلُ فيه بما كَسَب الإنسانُ، وجَنَتْ يداه[5]، فقولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ "أي: في الآخرةِ، وهو بيانٌ لما يظهرُ فيه آثارُ خيريَّتها، بمنزلةِ إضافةِ الزّينةِ إلى الحياةِ الدُّنيا، لا لأفضليتها فيها مِنَ المال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 332 - 333.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 310.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8927.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 69.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 69 - 70.

والبنين مع مشاركةِ الكلِّ في الأصل؛ إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريَّة في الآخرة"[1].

سِرُّ إضافةِ الظَّرفِ إلى الرُّبوبيَّةِ:

المُنعِمُ على عبادِه المُحسِنُ إليهم لا يَضيعُ عندَه أجرُ عاملٍ

أضاف النَّظمُ الجليل الظَّرفَ إلى لفظ الرُّبوبيَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه تعالى المُحسنُ إلى عباده، فلا يضيعُ عنده أجرُ عاملٍ منهم، وفيه تأكيدٌ لتلك الخيريَّةِ، فالذي رجَّحَها، وفضَّلَها هو الرَّبُّ ﷻ، الذي يعلمُ عواقبَ الأمور، فيرشدُ عبادَه لمعالي الأعمال وأفضلِها، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ أفضليةَ الباقيات الصّالحات حاصلةٌ في كلا الدّارَين، وفي ذلك قال البقاعيُّ رحمه اللّه تعالى موجِزًا: "﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: الجليلِ المواهبِ، العالمِ بالعواقبِ، وخيرٌ مِنَ المال والبنين في العاجلِ والآجلِ"[2].

سِرُّ التَّقييدِ بالتَّمييز ﴿ثَوَابٗا﴾:

الدّارُ الآخرةُ ميزانُ الأعمالِ، ومعيارُ التَّفاضلِ بينَها

جعل النَّظمُ الجليل ﴿ثَوَابٗا﴾ تمييزًا لاسم التَّفضيلِ ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾؛ للدَّلالةِ على الأجر في الآخرة، فمعنى الثَّوابِ هو ما يرجعُ إلى الإنسان مِن جزاءِ أعمالِه[3]، وذلك لبيانِ أنَّ ميزانَ التَّفاضل إنَّما يكونُ في تلك الدّار، فهناك تظهرُ أفضليَّةُ الأعمالِ، وأنَّ الزّينةَ الفانيةَ لا تعودُ على صاحبها بمنفعةٍ، فالباقياتُ الصّالحات تعودُ على صاحبها بالخير والبركةِ، فمعنى قولِه تعالى: ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ "أنَّها دائمةٌ باقيةٌ وخيراتُ الدُّنيا مُنقرضةٌ فانيةٌ، والدّائمُ الباقي خيرٌ مِنَ المُنقرضِ المُنقضي"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 225.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 70.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثوب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 186.

دلالةُ تَكرارِ لفظة ﴿خَيۡرٌ﴾:

استقلالُ الموصوفِ بصفةِ الخيرِ أفضليَّةٌ مستحقَّةٌ على جهةِ الاستقلالِ

كرَّر النَّظمُ الجليل لفظَ الخير مرَّتين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾، وذلك لمزيد الاعتناءِ ببيان الخيْرَين، و"للإشعار باختلافِ حيْثيتَي الخيريَّةِ والمبالغةِ"[1]، فكلُّ حيثيَّةٍ مستقلَّةٌ بخيريَّةٍ، فالثَّوابُ على الأعمال الصّالحةِ أفضلُ مِن زينة الحياةِ الدُّنيا، كما أنَّ ما يأمَلُه، وما ينتظرُه المؤمنون في تلك الدّار هو كذلك خيرٌ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا، فتَكرارُ الخيرِ لاستقلال كلِّ لفظٍ بخيريَّةٍ تأكيدًا للأفضليَّةِ، أي: إنَّ نوعَ (الخيرَين) مختلفٌ، فالأوَّلُ عاجلٌ في الدُّنيا، والثّاني أملٌ ورجاءٌ في الآخرة[2].

سِرُّ التَّقييدِ بالتَّمييز ﴿أَمَلٗا﴾:

جزاءُ الأعمالِ الصّالحةِ وعدٌ إلهيٌّ محقَّقٌ، خيرٌ مِن آمالِ أهلِ الدُّنيا

ميَّز النَّظمُ الجليل خيريَّةَ الباقياتِ الصّالحات، بأنَّ تلك الخيريَّةَ كائنةٌ بالأمل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾؛ للدَّلالة على أفضليَّةِ ما ينتظره المؤمنُ من ربِّه في تلك الدّار، على ما يأملُه النّاسُ مِنَ المال والبنين في هذه الحياةِ؛ فإنَّ آمالَ الدُّنيا مشكوكٌ فيها، مقصورةٌ مدَّتُها، أمّا ثوابُ الأعمالِ الصّالحةِ فمقطوعٌ بحصولِها؛ لأنَّها وعدٌ مِنَ الجليل صادقِ الوعد، ومِن تلك الخيريَّةِ أنَّ منفعةَ الأعمال الصّالحةِ تحصلُ في الدُّنيا، كما أنَّها وعدٌ في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النّحل: 97][3]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾، أي: "خيرٌ رجاءً؛ لأنَّ صاحبَها يأملُ في الدُّنيا ثوابَ اللّه ونصيبَه في

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 39، 711.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4539.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 334.

الآخرة، دون ذي المالِ والبنين العاري مِنَ الباقياتِ الصّالحات، فإنَّه لا يَرجو ثوابًا"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزّينةُ والحليةُ:

الزِّينةُ اسمٌ شاملٌ لكلِّ ما يُتزيَّنُ به، والحليةُ الزّينةُ بالمَصوغاتِ

(زين) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيْءِ، والزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيينًا[2]، والزّينة اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَزَيَّن بِهِ، وتَزَيَّنَتِ الأَرضُ بالنَّباتِ، أَي: حَسُنَتْ، وبَهُجَتْ[3]، أمّا الحليَةُ؛ فمن (حَلَوَ)، وهو أصلٌ يدلُّ على تَحْسينِ الشَّيْءِ، والحُلْيُّ: حُليُّ المَرْأَةِ، وهو جَمعُ حَلْيٍ[4]، والحِليةُ: ما يُزيَّن به من مَصوغ الحجارة والمعدنيّات[5]، قال تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148]، قال اللّه تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: 31]، وقال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف: 18]، وقد آثرَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالزّينة دون الحِليةِ؛ لأنَّ المالَ والبنين ليسا مِنَ المَصوغات، وهما يَندرجان ضمنَ الزّينةِ، فهي أعمُّ وأشملُ؛ ولذلك ناسبتْ سياقَ الآيةِ الكريمةِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 186.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلو - حلى).

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد ذكرِ الزّينةِ والأعمالِ الباقيةِ، ذكرَ اليومَ الذي يُنتفَعُ بتلك الباقياتِ الصّالحاتِ

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الجليل ما يؤولُ إليه حالُ الدُّنيا مِن زوال زينتِها مِنَ المال والبنين؛ انتقلَ إلى الحديثِ عن أوائلِ أهوالِ يوم القيامة، ذلك اليومُ الذي تنفعُ فيه الأعمالُ الباقياتُ الصّالحات، وليس الأموال ولا الأولاد[1]، وبعد "أن بيَّن لهم تعرُّضَ ما هم فيه مِن نعيمٍ إلى الزَّوال على وجْه الموعظةِ؛ أعقبَه بالتَّذكيرِ بما بعدَ ذلك الزَّوالِ، بتصويرِ حالِ البعث وما يترقَّبُهم فيه مِنَ العقاب على كفرِهم به"[2]، والمقصودُ مِن إظهارِ أحوالِ القيامة بعدَ بيان خساسةِ الدُّنيا، الرَّدُّ على المشركين الذي افتَخروا على فقراءِ المسلمين بكثرة الأموالِ والأعوانِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُسَيِّرُ﴾: (سير) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ: سارَ يَسيرُ سَيْرًا[4]، والسَّيْرُ: الذَّهابُ والمضيُّ في الأرض، وتَسايَرَ عَنْهُ الغَضَبُ، أي: سارَ وزالَ، ويُقالُ: سارَ القومُ يَسيرون سَيْرًا ومَسيرًا؛ إذا امتَدَّ بهِمُ السَّيْرُ في جِهَةٍ تَوَجَّهوا لَها[5]، والتَّسْييرُ ضربان: أحدُهما: بالأمرِ والاختيارِ والإرادةِ مِنَ السّائر، نحو: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ [يونس: 22]، والثّاني: بالقهرِ والتَّسخير كتسخيرِ الجبالِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ [التّكوير: 3]، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النّبأ: 20][6]، والمرادُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 186، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 528.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 334.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 469.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سير).
(6) الرّاغب، المفردات: (سار).

بتسييرها: أنَّه يُسيِّرُها حتّى تنتقلَ عن مكانها، لما فيه من ظهور الآيةِ وعِظم الاعتبار، أو بأن يجعلَها هباءً منثورًا[1].

2) ﴿بَارِزَةً﴾: (برز) أَصْلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّه، يُقالُ: بَرَزَ الشَّيْءُ، فهو بارِزٌ[2]، وبَرَزَ: حصلَ في بَراز، نحو: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ تنبيهًا على أنَّهُ تبطُلُ فيها الأبنيةُ وسكّانُها[3]، والبَرازُ: المَكانُ الفضاء مِنَ الأَرض، البعيدُ الواسعُ، وإذا خَرَجَ الإنسان إلى ذَلِكَ المَوْضِعِ؛ قيلَ: قَدْ بَرَزَ يَبْرُزُ بُروزًا، أَي: خَرَجَ إلى البَرازِ، والبَرازُ: المَوْضِعُ الَّذي لَيْسَ به خَمَرٌ مِنْ شَجَرٍ ولا غَيْرِه[4]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ أنَّ الأرض "لا غارٌ فيها ولا صدعٌ ولا جبلٌ ولا نبتٌ ولا شجرٌ ولا ظِلٌّ"[5].

3) ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: (حشر) هو السّوقُ والبَعْثُ والانْبِعاثُ، والحَشْرُ: الجَمعُ مع سَوْقٍ، وكُلُّ جَمعٍ حَشْرٌ[6]، وحَشَرَهُم يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حَشْرًا: جَمَعَهُم، ومِنْهُ يَوْمُ المَحْشَرِ، والحَشْرُ: جَمعُ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ، والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القَوْمُ، وكَذلِكَ إذا حُشِروا إلى بَلَدٍ أَو مُعَسْكَرٍ أَو نَحْوِه[7]، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، أي: جمعْناهم، وقيل: الحشرُ: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عند الحرب وغيرِها[8]، والمعنى في الآية: جمعْناهم إلى الموقف[9].

4) ﴿نُغَادِرْ﴾: (غدر) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ الغَدْرُ: نَقْضُ العَهْدِ وتَرْكُ الوَفاءِ بِه[10]، والغَدْرُ: الإخلالُ بالشَّيء وتركُه، والغَدْرُ يقال لترك العهد، ومنه قيل: فلانٌ غادرٌ، وجمعُه: غَدَرَةٌ، وغَدّارٌ: كثير الغَدْر، والغَديرُ: الماء الذي يُغادِرُهُ السَّيلُ في مستنقعٍ ينتهي إليه، والغَديرَةُ: الشَّعْرُ الذي تُرك حتّى طال، وجمعُها غَدائِرُ، وغادَرَهُ: تركَه، قال

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برز).
(3) الرّاغب، المفردات: (برز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حشر).
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 726.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدر).

تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾، وقال: ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[1]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: (لم نترُكْ)[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بأهوالِ يومِ القيامةِ

يُذكِّرُ النَّظمُ الجليل العقلاءَ منَ النّاس، حاثًّا لهم على الاعتبارِ والاتِّعاظ، أنَّهم سيَرَوْن أهوالًا عظيمةً مِن أهوال يومِ القيامة في ذلك اليومِ، الذي نقتلعُ فيه الجبالَ من أماكنِها، ونذهبُ بها حيثُ شئنا، ونجعلُها هباءً منثورًا، فيرى كلُّ أحدٍ مِنَ الخلائقِ جوانبَ الأرض باديةً ظاهرةً للأعين، لا يسترُها شيءٌ مِن جبلٍ، أو شجرٍ، أو بنيانٍ، وكنّا قد حشرنا الخلائقَ جميعًا، بأن جمعْناهم في المكان المحدَّدِ لجمعِهم، دون أن نتركَ منهم أحدًا، بل أخرجْناهم جميعًا مِن قبورِهم لنحاسبَهم على أعمالِهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في مُفتتحِ الآيةِ:

عطفُ حالِ الآخرةِ على زوالِ نعمةِ الدُّنيا

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: 45]، والتَّقديرُ: (واضرب لهم مثلَ الحياةِ الدُّنيا، واذكرْ يومَ نُسيِّرُ الجبالَ)، فبعدَ أنْ بيَّن أنَّ ما هم فيه من نعيم بأنَّهُ يؤولُ إلى زوال؛ ذكر لهم ما بعدَ زوال تلك النِّعمةِ، مُصوِّرًا البعثَ وما ينتظرُهم فيه مِنَ العقاب على كفرِهم به[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

تصويرُ المشهدِ أبلغُ في بيانِ الأهوالِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله جلَّ شأنُه:

---

(1) الرّاغب، المفردات: (غدر).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 226.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 528 - 529، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 386.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 334.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ للدَّلالة على تصوير المشهدِ، واستجلابِ الصّورة، فيستحضر السّامعُ في ذهنه صورةَ تسْيِيرِ الجبال، وفي ذلك منَ التَّهويل ما يناسبُ مقامَ التَّرهيب والتَّذكيرِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارع عن حَدَثٍ في المستقبل أنسبُ للإخبار عنِ الحقيقةِ.

دلالةُ تقديمِ الظَّرفِ:

يــومُ حــسـابِ المجرمين مَهولٌ

قدَّم النَّظمُ الجليل الظَّرفَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ مُفتتِحًا الجملةَ به، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾، فهو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يُقدَّرُ بما يناسبُ مقامَ الوعيد، مثل: (يَرون أمرًا عظيمًا يومَ نسيِّرُ الجبالَ)، أو نحو ذلك ممّا تذهبُ إلى تقديره نفسُ السّامع، ويجوزُ أن يُقدَّرَ المحذوفُ متأخِّرًا عنِ الظَّرف، أي: ويومَ نسيِّرُ الجبالَ ترى أمرًا عظيمًا، ويكونُ غرضُ التَّقديم تهويلَ اليومِ وما فيه[1]، فالبَدءُ باليوم الذي ستقعُ فيه تلك الأهوالُ وعقابُ المجرمين فيه، تهويلٌ له وتفخيمٌ لشأنه، فاليومُ جامعٌ لكلِّ الأحداثِ التي تقع فيه، فابتداءُ الجملة باليوم يُهيِّئُ الذِّهنَ لاستقبال المذكور بعدَه مِنَ الأهوالِ والأحداثِ العظامِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في فعلِ التَّسْيير:

لا يقعُ حَدثٌ في الكون إلّا بإرادتِه تعالى وأمرِه

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابنُ عامر ﴿تُسَيَّرُ﴾ على البناء لما لم يُسمَّ فاعلُه، ورفع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ بإسناد ﴿تُسَيَّرُ﴾، اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ [التّكوير: 3] جريًا على سَنن الكبرياءِ، وإيذانًا بالاستغناء عنِ الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنِه، والباقون ﴿نُسَيِّرُ﴾ بإسناد فعْلِ التَّسيير إلى اللّه تعالى، ونصْبِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾؛ لكونه مفعولَ ﴿نُسَيِّرُ﴾، والمعنى: نحن نفعل بها ذلك؛ اعتبارًا بقوله: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 334.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 311، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 520، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 469، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 226.

دلالةُ العطْفِ في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾:

بروزُ الأرضِ ونسْفُ الجبالِ أهوالٌ عظامٌ من أهوالِ ذلك اليومِ العظيم

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾؛ لأنَّه بيانٌ لحالٍ ثانيةٍ مِن أحوالِ يوم القيامة وأهوالِه[1]، فتسْيير الجبالِ حالٌ مِن أحوال يوم القيامة، وبُروزُ الأرضِ مستويةً بحيث لا يُرى فيها عوجٌ حالٌ آخرُ يعقبُ تسْيير تلك الجبالِ، ونتيجةٌ له.

المرادُ بالخطاب في ﴿وَتَرَى﴾:

يرى الخلائقُ جميعًا حالَ المجْرمين في ذلك اليومِ

بنَى النَّظمُ الجليل الخطابَ في الآية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ خطابًا لكلِّ سامعٍ، فهو خطابٌ لغير معيَّن، والمعنى: ويرى الرّائي، وهو نظيرُ قوله الآتي: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[2]، فالمرادُ: تصويرُ ذلك اليوم العظيم لكلِّ أحدٍ من النّاس، وذلك المشهدُ في ذلك اليوم سيراه كلُّ حاضرٍ في الحشر.

الغرضُ من تنكير ﴿بَارِزَةً﴾:

البُروزُ حالٌ طارئةٌ على الأرضِ لا صفةٌ راسخةٌ فيها

عبَّرَ النَّظمُ الجليل عن بُروز الأرضِ بالتَّنكير دون التَّعريفِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ لأنَّها حالٌ، فالرُّؤية هنا بصريَّةٌ[3]، ولم يقل: (الأرضَ البارزةَ)؛ إذ لو عرَّفها؛ لكانت صفةً للأرض، وهذا يعني أنَّها متَّصفةٌ بذلك، والحالُ ليس كذلك، فهي قد برزت لخُلوِّها منَ الجبال والأشجار وغيرِها، بفعلِ يومِ القيامة وتسْييرِ الجبال، فلمّا جعلَها نكرةً؛ دلَّت على الحالِ والهيئة، أي: إنَّك تراها في حالةٍ قد آلت فيها إلى خلاءٍ، مستويةً لا يسترها جبلٌ ولا نباتٌ[4]، ويدلُّ التَّنكيرُ هاهنا على شدَّةِ البُروز.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 529.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 335.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 503.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 311.

دلالةُ الواو في ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾، وسِرُّ التَّعبير بالماضي:

وقوعُ الحشرِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ، حتّى كأنَّه حدثَ ومضى

بيَّن النَّظمُ الجليل حالَ الفاعل بالجملة الفعليَّةِ التي جاءت في موضع الحالِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي: وقد حشرناهم[1]، وهذه الحالُ تبيِّنُ صورةً ثالثةً من صوَرِ أهوالِ يوم القيامةِ، أي: يقع التَّسْييرُ في حالة حشرِهم[2]، وأجاز بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ أن تكونَ الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ معطوفةً على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ على تأويل الفعلِ الماضي بـ (نحشرهم) المضارع[3]، ولكنَّ النظمَ الجليل عدل عنِ التَّعبير بالفعل المضارعِ عن حدثٍ مستقبليٍّ، إلى التَّعبيرِ عنه بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، وقد سُبق بالفعلَين المضارعَين ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾؛ وذلك للدَّلالة على تحقُّقِ الحشْرِ المُتفرِّعِ على البعث[4]، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الحشرَ قد حدث قبل التَّسيير والبروز؛ ليُعاينوا تلك الأهوالَ العظيمةَ، كأنَّه قيل: وقد حشرناهم قبلَ ذلك[5].

في استحضارِ أهوالِ السّاعةِ عجبٌ وحسرةٌ

وخولِف بين التَّسيير والرُّؤية وبين الحشر، حيث جيء بهما مضارعَين، وجيء بالحشر ماضيًا، ليُشعرَ بصيغة المضارع بأنَّ المرادَ استحضارُ تلك الصّورةِ العجيبةِ الشَّأن في مشاهدة السّامع؛ ليتعجَّبَ لها، ولو قيل: (نحشرهم) على مقتضى الظّاهر؛ لفات المقصود[6]، وفي استحضارها حسرةٌ للمجرم الجاحدِ، وصدمةٌ بتحقُّقِ الوعد، وعجبٌ أيَّما عجبٍ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 200.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 187.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 335.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 226.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 726.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 490.

دلالةُ إسنادِ الفعْلِ للضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيمِ:

حشْرُ الخلائقِ جميعًا أمرٌ محفوفٌ بالعظائمِ

أسند النَّظمُ الجليل فعْلَ الحشرِ إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم في ذلك الحشرِ وما يتبعُه، من نشرِ صحائفَ وحسابٍ، أي: حشرنا "الخلائقَ بعظمتِنا قبلَ التَّسيير بتلك الصَّيحةِ، قهرًا إلى الموقفِ الذي تنكشفُ فيه المُخبَّآتُ، وتظهرُ الفضائحُ والمُغيَّباتُ، ويقعُ الحسابُ فيه على النَّقيرِ والقِطمير"[1]، وكلُّ هذا يُشيرُ إلى أنَّه حشرٌ عظيمٌ في ذاته، وعظيمٌ فيما يقعُ فيه وبعدَه.

إيثارُ لفظِ (الحشر):

في يومِ الحشرِ يجتمعُ الضّالُّ والمُضِلُّ مُجْبَرَين غيرَ مُختارَين

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ "عبَّرَ سبحانه بالفعلِ (حشر) للإشارةِ إلى جمعِهم غيرَ مُريدين، أو مُختارين، وأنَّهم جميعًا مُتلاقون، الضّالونَ والمُضِلّون، وأنَّهم بعد ذلك يُعرَضون على ربِّهم"[2].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ:

انتفاءُ تَرْكِ أحدٍ يومَ الحسابِ مُترتِّبٌ على الإخبارِ بجَمعِهم يومَ القيامة

عطفَ النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ على قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾[3]؛ إذ لمّا أثبتَ الحشرَ الدّالَّ على جمعِ النّاس جميعًا بما دلَّ عليه ضميرُ الغائب بصيغةِ الجمع؛ أتْبَعَه بنفي تَرْكِ واحدٍ منهم دونَ أن يُحشرَ، وجاء العطفُ بالفاء للدَّلالة على ترتُّبِ انتفاءِ التَّركِ على شمول الجمعِ لكلِّ أحدٍ؛ تأكيدًا وتقويةً لدلالة الحشْرِ على الشُّمول.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المَنفيِّ بـ﴿فَلَمۡ﴾:

عدمُ مغادرةِ أحدٍ منهم أمرٌ مقطوعٌ به مُؤكَّدٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم نفيَ الفعلِ المضارع بحرف النَّفي ﴿فَلَمۡ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾؛ لدلالتِه على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4540.
(3) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1312.

النَّفيِ والقلبِ، فهو يقلبُ زمانَ الفعل المضارع إلى الماضي، فيكونُ النَّفيُ بـ(لم) دالًّا على القطع باعتبارِ دلالته على الزَّمان الماضي، فلمّا عطفَه على الفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾؛ ناسبَ أن ينفيَ الزَّمنَ الماضي على جهة القطع؛ تقويةً للتَّأكيدِ المُتحصَّلِ عليه بالعطفِ.

الغرضُ مِن إسنادِ الفعلِ لضميرِ العَظَمةِ في ﴿نُغَادِرۡ﴾:

دِقّةُ الجمعِ ناشئةٌ مِن عَظَمةِ الجليلِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل عنِ المغادرة بالفعلِ المضارع بصيغة التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، أي: لم نُغادرْ منهم أحدًا بما لنا منَ العَظَمةِ[1]، بحيثُ لا يغيبُ أحدٌ عن ذلك المَحشَرِ؛ لعلْمِ اللّه تعالى بكلِّ واحدٍ مِنَ الخلائق، وهذا كلُّه يقتضي التَّعبيرَ بالعَظَمة.

الغرضُ مِن تقديمِ الجارِّ والمَجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به:

تقديمُ متعلَّقِ المُغادرةِ أدلُّ على الاهتمامِ به

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ منَ الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، دون أن يقولَ على أصل ترتيب الكلام: (فلم نغادر أحدًا منهم)؛ فإنَّ تقديمَ شبه الجملة المتضمِّنةِ ضميرَهم على المفعول به يدلُّ على الاهتمام بشأنِهم، بمعنى أنَّ المُغادرةَ التي سيقَ الحديثُ عنها متعلِّقةٌ بأبعاضِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به بلفظِ ﴿أَحَدٗا﴾ مُنكَّرًا:

الحشرُ عامٌّ لجميعِ البشرِ لا يغيبُ عنه أحدٌ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التَّنكيرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾؛ للدَّلالة على عموم النَّفيِ والاستغراقِ فيه، لوقوع النَّكرةِ في حيِّزِ النَّفي، فيَشملُ كلَّ أحدٍ منَ الأوَّلين والآخرين، دليلًا على سَعة علمِه وإحاطتِه بهم، ونفيًا لعجزِه عن ذلك[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المغادرة والتَّرك:

التَّركُ أصلُهُ التَّخْليَةُ عَنِ الشَّيْءِ[1]، وتَرْكُ الشَّيء: رَفْضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمنَ الأوَّل: ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖ﴾ [الكهف: 99]، ومنَ الثّاني: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه: تَرِكَةُ فلانٍ لما يُخلِّفه بعدَ موتِه، وقد يقال في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالة ما: تركتُه كذا، أو يجري مجرَى: جعلتُه كذا، نحو: تركتُ فلانًا وحيدًا[2].

> **الـتَّركُ مطلقٌ، والمغادرة أخصُّ منه، فهي تركٌ بإخلال**

أمّا المغادرةُ؛ ففيها دلالةٌ على التَّرك الذي يدلُّ على الإخلال؛ لذلك قيل لترك الوفاء، ونقضِ العهد غدرٌ[3]، فالغَدْرُ الإخلالُ بالشَّيء وتركُه[4].

فآثرَ في الآية التَّعبيرَ بالفعل ﴿نُغَادِرْ﴾ للدَّلالة على أنَّه لا يتركُ شيئًا يُسبِّبُ إخلالًا في تقييدِ الأعمال، فنفْيُ المغادرةِ دليلٌ على الإتقان.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).

(2) الرّاغب، المفردات: (ترك).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدر).

(4) الرّاغب، المفردات: (غدر).

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ [الكهف: 48]

لمّا جُمِعَ النّاسُ آن أوانُ عرْضِهم على الجليلِ لحسابِهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليل أنَّ العبادَ يُحشَرون إلى الموقف دون أن يُترك منهم أحدٌ؛ أعقبَ ذلك ببيانِ أنَّ الحشرَ كائنٌ للعرض على اللّٰه تعالى، وبيانِ كيفيَّة ذلك العرض[1]، فبعد أن ذكرتِ السّورةُ الكريمةُ الأحوالَ السّابقةَ مِن أهوالِ يوم القيامة؛ بيَّن النَّظمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ حالةً أخرى مِن تلك الأحوالِ، وهي حالةُ عَرْضِ العبادِ على اللّٰه تعالى بعد جمعِهم في الموقف[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُرِضُواْ﴾: (عرض) وهو العَرْضُ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ[3]، وعَرَضْتُ الكِتاب، وعَرَضْتُ الجُنْدَ عرْضَ العَيْنِ؛ إذا أَمرَرْتَهم عليك، ونَظَرْتَ ما حالُهم، وعَرَضْتُ عليه أَمرَ كذا، وعَرَضْتُ لَهُ الشَّيْءَ، أي: أظهرتُه لَهُ، وأَبْرَزْتُه إليه[4]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: إحضارُهم ليُرى حالُهم، وما سيَتَلقَّون مِن أمرِ اللّٰه تعالى[5].

2) ﴿صَفّٗا﴾: (صفف) هو استِواءٌ في الشَّيْءِ وتَساوٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ في المَقَرِّ، مِنْ ذلِكَ الصَّفُّ، يُقالُ: وقفا صَفًّا؛ إذا وقَفَ كُلُّ واحِدٍ إلَى جَنْبِ صاحِبِه، واصْطَفَّ القَوْمُ، وتَصافّوا، والأَصْلُ في ذلك

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 469، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 529.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.

الصَّفْصَفُ، وهو المُسْتَوي مِنَ الأَرْضِ[1]، والصَّفُّ: السَّطْرُ المُسْتَوي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ - معروفٌ، كالنّاس والأشجار، وجَمعُهُ: صُفوفٌ، وصَفَفْتُ القَوْمَ فاصْطَفّوا؛ إذا أَقمتَهم في الحَرْبِ صَفًّا[2]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ، أي: مُترتِّبين في المواقف، بحيثُ لا يَحْجُبُ بعضُهم بعضًا، كلٌّ في رُتبتِه[3].

3) ﴿مَّوۡعِدًا﴾: (وعد) أصلٌ يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُهُ أَعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذلِكَ بخَيْرٍ وشَرٍّ[4]، والمَوْعِدُ والميعادُ: يكونان مصدرًا واسمًا، قال تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ [طه: 58]، ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: 59][5]، والمَوْعِدُ: مَوْضِعُ التّواعُدِ، ويَكونُ وقْتًا للعِدةِ[6]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ، أي: "مكانًا ووقتًا نجمعُكم فيه هذا الجمعَ، فنُنجزُ ما وعدناكم به على ألسنةِ الرُّسلِ"[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

العَرْضُ للحسابِ والتَّوبيخِ على سوءِ الاعتقادِ

وأُحضِروا جميعًا إلى ربِّك مَصفوفين في صفٍّ واحدٍ، أو في صفوفٍ مُتعدِّدةٍ، ليَقضيَ فيهم سبحانَه بقضائه العادلِ، ونقولُ لمُنكري البعثِ والحسابِ بعد عرْضِهم علينا على سبيل التَّوبيخِ والتَّأنيبِ: لقد جئتُمونا - أيُّها المُكذِّبون - مجيئًا كائنًا كمجيئِكم عند خلْقِنا إيّاكم أوَّلَ مرَّةٍ، أي: حفاةً عُراةً لا مال معكم ولا ولد، بل زعمتُم - أيُّها المكذِّبون بالبعث - أن لن نجعلَ لكم زمانًا أو مكانًا نُجازيكم فيه على أعمالِكم، وأنكرتُم إنكارًا مصحوبًا بقسمِ أنَّنا لا نبعثُ مَن يموتُ[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صف).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صفف).
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 40.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(5) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وعد).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 72.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 529 - 530.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَعُرِضُواْ﴾:

ذِكْرُ أحوالِ يومِ القيامة حالًا بعد حالٍ

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ بالواو على الجملة في قوله تعالى: ﴿نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾[1]؛ لأنَّها حالٌ من أحوالِ يومِ القيامة وأهوالِها، فعَدَّدَتِ السّورةُ الأحوالَ التي ستكونُ يومَ القيامة تِباعًا، فبعدَ إزالة الجبالِ وإذهابِها، وتهيئةِ الموقف للحساب، وجمعِ العباد، كانت الغايةُ من ذلك هي عرضُهم على اللّه تعالى؛ لبدءِ حسابِهم وتطايُرِ الصُّحفِ.

دلالةُ بناءِ الفعلِ للمفعول ﴿وَعُرِضُواْ﴾:

العـرضُ للحسابِ جديرٌ بالخوفِ منه لذاتِه لا بالنَّظرِ لفاعلِه

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ العرضِ بالفعلِ المبنيِّ للمفعول في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ تفخيمًا لطريقة الكلام، فقد جرتِ العادةُ من كلامِ الكُبراء أن يُبنَى على المفعول تعظيمًا لشأن المحذوفِ، كما أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ الاهتمامَ مُنصبٌّ على المَخوف، وهو العرضُ للحساب لذاته لا لكونِه من معيَّنٍ[2].

التَّعبيرُ بالماضي في ﴿وَعُرِضُواْ﴾:

تنزيلُ مُؤكَّدِ الوقوعِ مُستقبلًا منزلةَ الواقعِ فعلًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، دونَ الفعلِ المضارع مع أنَّه حَدَثٌ مستقبليٌّ؛ وذلك للدَّلالة على تحقُّقِه وتأكيدِ وقوعِه، وهذا أنسبُ في مقام الوعظِ والتَّرهيبِ للاعتبارِ والتَّذكيرِ.

سرُّ التَّعبيرِ عن نائبِ فاعلٍ بضميرِ الجماعة:

الذين عُرِضوا على الحسابِ همُ الذين حُشِروا

أسندَ النَّظمُ الجليل فعلَ العرض إلى واو الجماعة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، والمرادُ بهم المحشورون المذكورون في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[3]، فأُضمِرَ

---

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1312.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 40.

للدَّلالة على أنَّ المرادَ بهم الذين جرى الحديثُ عنهم عند ذكر الحشرِ أنفسُهم، وتومئُ صيغةُ الجمع إلى أنَّ اللّه تعالى لا يُعجزُه حشرُهم، وعرضُهم على كثرتِهم واختلافِ أزمانهم.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿وَعُرِضُواْ﴾:

إحضارُهم ليَعلموا أنَّهم مُلاقو ما وعدَ ربُّهم

عرْضُ الشَّيء: إحضارُه ليرى حالَه وما يحتاجُه، ومنه عرضُ الجيش على الأمير ليرَى حالَهم وعِدَّتَهم، قال رسول اللّه ﷺ: "عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ"[1]، وهو هنا مُستعارٌ لإحضارهم؛ إذ يَعلمون أنَّهم سيتلقَّون ما يأمرُ اللّه به في شأنِهم[2].

معنَى حرفِ الاستعلاءِ، ودلالتُه المَجازيَّةُ:

أُظهِروا وبُرِّزوا كما يُعرضُ الجيشُ على الأميرِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الاستعلاءِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ للدَّلالة على إظهار أمرِهم وانكشافِ حالهم، فمعنى: عَرَضْتُ عليه أمرَ كذا، أي: أظهرتُه له، وأبْرزتُه إليه[3]، فالاستعلاءُ مَجازيٌّ مستعملٌ للدَّلالة على شِدَّة انكشافِ أمرِهم للّه تعالى، والمرادُ من ذلك: بيانُ شدَّةِ الأهوال في ذلك اليوم؛ لتأتيَ الموعظةُ في الآية على أتمِّ بيانٍ وحالٍ.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿رَبِّكَ﴾:

اللّهُ تعالى المُحسنُ على النّاسِ ببعثةِ الأنبياءِ هو الذي يُحاسبُهم

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّمير المخاطَبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، الذي يُرادُ به النَّبيُّ ﷺ؛ إشارةً إلى (أنَّ ربَّك الذي أحسن إليكَ بالنُّبوَّة، والذي لا تضيعُ عندَه الرُّتبُ ولا الفضائلُ، هو الذي سيحاسبُهم)، فتتضمَّنُ الإضافةُ التَّنويهَ بشأن النَّبيِّ ﷺ، دالَّةً على أنَّ عرضَ النّاس على اللّه تعالى للحسابِ وما فيه منَ التَّهديد يتضمَّنُ نصيبًا منَ الانتصارِ للنَّبيِّ ﷺ؛ إذ كذَّبوه حين أخبرَهم، وأنذرَهم بالبعث[4].

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3229)، ومسلم في صحيحه، برقم: (220).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (عرض).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الإضمار إلى الإظهار في ﴿رَبِّكَ﴾:

لطفُ المولَى بنبيِّه بعد تكذيبِ رسالتِه مِن رحمةِ الرَّبِّ الكريم

عدلَ النَّظمُ الجليل عنِ الإضمار في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، فلم يقل: (وعرضوا علينا)، فأَظْهرَ لفظَ الرُّبوبيَّة، والتَّعبيرُ بالاسم الظّاهر يقتضي الغيبةَ، فعدلَ عن صيغةِ التَّكلُّم في العبارة السّابقة: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ التفاتًا منَ التَّكلُّم إلى الغيبة؛ وذلك لأنَّ إظهارَ لفظِ الرُّبوبيَّة أدلُّ على تربية المهابةِ، وإظهارِ اللُّطفِ بالنَّبيِّ ﷺ[1].

في التَّهديدِ إظهارٌ للانتصارِ للنَّبيِّ ﷺ

وعدلَ عنِ الإضمار إلى التَّعريف بالإضافة أيضًا؛ لتَضَمُّنِ الإضافة تنويهًا بشأن المضافِ إليه، بأنَّ في هذا العرضِ وما فيه مِنَ التَّهديد نصيبًا مِنَ الانتصار للمخاطَب، وهو النَّبيُّ ﷺ؛ إذ أَعرَضوا عنه، وكذَّبوه حين أخبرَهم، وأنذرَهم بالبعث، ودعاهم إلى العملِ لذلك اليوم[2].

سرُّ التَّقييدِ بالحال ﴿صَفّٗا﴾:

يُساقُ المُجرمون إلى الموقفِ سَوْقَ الجُناةِ إلى القضاءِ

قيَّد النَّظمُ الجليل كيفيَّةَ عرْضهم على الله تعالى في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾، بأنَّها كائنةٌ على وفْقِ نظام ونَسقٍ يليقُ بالمقام الجليل، "أي: مُصطفّين مترتِّبين في المواقف، لا يَحْجُبُ بعضُهم بعضًا، كلٌّ في رُتبتِه"[3]، فهم ظاهرون مُصطفّون بحيثُ ترى جماعتَهم، كما ترَى كلَّ واحدٍ منهم، لا يَحجُبُ أحدٌ أحدًا، فعُرضوا بحالةٍ تشبهُ حالةَ عَرضِ الجندِ على السُّلطان[4]، وفائدةُ وصْفِ عرضِهم بتلك الحالة تُؤذِنُ بأنَّهم أُحْضِروا إلى الموقف كما يُحضَر الجناةُ، لا يخفى منهم أحدٌ، وذلك أوقعُ للرُّعب في قلوبِهم[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 40.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 304.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿صَفّٗا﴾:

الغايةُ مِن عرْضِ الجُندِ على السُّلطانِ إظهارُهم عندَه

قولُه: ﴿صَفّٗا﴾، أي: مُصطفّين، بمعنى أنَّ ﴿صَفّٗا﴾: حالٌ مِن الواو في: ﴿وَعُرِضُواْ﴾؛ فالمقصودُ من عَرْضِ الجُندِ على السُّلطان إظهارُهم عندَه، فجعل ﴿صَفّٗا﴾ ترشيحًا لاستعارة ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، كقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48](1)، ويجوزُ فيها الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ، شُبِّهتِ الهيئةُ المأخوذةُ مِن أمورٍ كثيرةٍ، وهي أهلُ الموقف وحشْرُهم، أي: جمعُهم وخطابُه تعالى لهم بالهيئةِ المُنتزعةِ من أمور عديدةٍ أخرى، وهي الجُندُ والسُّلطان، وعَرْضُهم عليه ليأمرَهم بأشياءَ، فذُكِرَ اللَّفْظُ الموضوعُ للمشبَّه به، وأُريدَ المشبَّه، ويحتملُ أن يكون اسْتعارَةً تبعيَّةً وحدَها، أو معَ الاسْتعارَةِ التَّمثيليَّةِ، فالمشبَّهُ: حشْرُهم، والمشبَّهُ به: عرْضُ الجُندِ للأمرِ(2).

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾:

مَن يُبعثُ بعدَ الموتِ يُشبِهُ الحاضرَ بعد غيبةٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ استعارَ المَجيءَ للبعث بعدَ الموت، أي: "بعثْناكم، وأَعَدْناكم كما خلقْناكم؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ معناه: بعثْناكم"(3)، فشَبّه مَن يُبعثُ مِنَ الموت بمَن يأتي بعد غيبةٍ، وحذفَ المُشبَّهَ به، وهو الميِّت الذي يُبعث، وصرَّح بالمشبَّه، وهو الذي يجيءُ، والجامعُ بينهما الحضورُ بعد غيبةٍ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ.

سرُّ العُدولِ عنِ التَّعبيرِ بالمستقبلِ إلى التَّعبيرِ بالماضي:

التَّرهيبُ بمآلِ الأمورِ يوقظُ الغافلَ مِن سوءِ ما ينتظرُه

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي دونَ المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾، مع أنَّه حَدَثٌ يقعُ في المستقبل؛ وذلك لتأكيدِ وقوعِه وتحقيقِه، وتنزيلِه منزلةَ الواقعِ بالفعل(4)، وهذا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 489.

(2) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 97.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 530.

الأسلوبُ أبلغُ في الوعظِ والتَّرهيبِ وإيقاعِ التَّأثير في روعِ النُّفوس؛ طلبًا لإيقاظِ الإيمان في قلوبِهم.

سرُّ التَّوكيدِ باللّام و(قد):

إصرارُهم على الإنكار يَستحقُّ التَّهديد، والتَّوكيد لتحقُّق مجيئهم

وتوكيدُ خبرِ مجيئِهم في قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ بـ(اللّام)، و(قد) توكيدٌ لتحقُّق مجيئِهم، وتهديدٌ لهم، وتغليظٌ، وتنديمٌ على إنكارهم البعثَ، وتكذيبِهم الإنذارَ بوقوعِه[1]، وفي التَّوكيدِ بـ (اللّام وقد) - أيضًا - إشارتان: الأولى: أنَّهم يَجيئون مُجرَّدين من كلِّ نسبٍ وحالٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، التي كانوا بها يَتفاخرون، مِن مال ونفر، وهيل وهيلمان وسُلطان، والثّانيةُ: إشارةٌ إلى قدرة اللّه الكاملةِ المُسيطرةِ، وأنَّه أعادهم كما بدأهم[2].

الغرَضُ منَ التَّشبيه في ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾:

بعثُ العبادِ إلى يومِ القيامة هيِّنٌ عند الله كخلْقِهم في أوَّلِ الحياةِ

شبَّه النَّظمُ الجليل إعادةَ الخلائقِ إلى الحياة مرَّةً ثانيةً في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ بخلْقِهم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فالعبارةُ التي دخلَ عليها حرفُ التَّشبيه ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ في موضع مصدرٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (جئتمونا مجيئًا مثلَ مجيئِكم في خلْقِكم أوَّلَ مرَّة)، فإعادةُ الخلائق للحياة وخَلْقُهم مرَّةً أخرى تُشبه الخلقَ الأوَّلَ، وعليه فإنَّ (ما) مصدريَّةٌ، والغرضُ من هذا التَّشبيه: التَّعريضُ بخطئِهم في إنكارهم البعثَ[3]، أي: ستعودون أحياءَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، كخلْقِكم أوَّلَ مرَّة[4].

معنَى ﴿بَلْ﴾ ودلالتُها في: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾:

الانتقالُ مِن حديثٍ عامٍّ إلى الحديثِ عن مُنكري البعثِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرفِ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾؛ للإيذان بأنَّ الحديثَ عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4541.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 336 - 337.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 71.

حشْرِ النّاسِ وعرضِهم قد تمَّ، وبدأ في كلامٍ آخرَ؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ عامٌّ في المؤمن والكافر، فلمّا شرعَ في كلامٍ خاصٍّ لأحدِ الفريقَين؛ أدخل ﴿بَلۡ﴾ ليُؤذِن بتحقيقِ ما سبقَ، وتوكيدِ ما يأتي بعدَه، فالخطابُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ خاصٌّ بمنكري البعثِ[1]، فالتَّعبيرُ بـ ﴿بَلۡ﴾ جاء للخروج من خبرٍ إلى خبر آخرَ، فدلَّتْ على الانتقالِ، لا على الإبطالِ[2].

الغرضُ مِن استعمالِ الخبرِ في التَّغليظ مَجازًا:

التَّغليظُ على مُنكري البعثِ حالَ وقوعِ البعثِ

خاطبَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ بحكايةِ ما زَعموا، والمرادُ من هذا الخبرِ التَّغليظُ عليهم بمقولتِهم تلك، فهو خطابٌ خاصٌّ لمنكري البعثِ، أي: إنَّكم ادَّعيتُم في الحياةِ الدُّنيا أن لن تُبعثوا، فالله تعالى وعدَهمُ البعثَ، ولكنَّهم كذَّبوا، ولم يُصدِّقوا[3]، فالمرادُ منَ الخبر: الدَّلالةُ المجازيَّةُ، وهي التَّقريعُ والتَّغليظُ عليهم، وليس أنَّه يُخبرُهم بأنَّهم كذَّبوا بالبعثِ فحسب، والمعنى: إنَّكم اعتقدتم أنَّ الله لا يبعثُكم بعد الموت أبدًا[4].

دلالةُ النَّفيِ في: ﴿أَلَّن﴾:

في حياتِهم الدُّنيا نَفَوا وجودَ البعثِ في المستقبلِ

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ النَّفيِ ﴿أَلَّن﴾ الدّالَّ على نفيِ المستقبل، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾؛ لأنَّ المرادَ حكايةُ الحالِ الماضيةِ، أي: إنَّكم في حياتكم الدُّنيا كنتُم قد نفيتُم أن يكون في المستقبل بعثٌ بعدَ الموت[5].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 41.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 41.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 337.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 92.

الغرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ به ﴿مَّوۡعِدٗا﴾:

التَّقديم للاهتمام، ونفيُ أن يكونَ لهم موعدٌ مقدَّمٌ يكشفُ عن غرورِهم

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾، دون أن يقول على أصل ترتيب الكلام: (لن نجعل موعدًا لكم)؛ للحفاظ على نسقِ الفاصلة، وحفظُ الفاصلة له أثرٌ بليغٌ في جعلِ النَّصِّ مُتناسقًا صوتيًّا، كما أنَّ في تقديم شبْه الجملةِ المُتضمِّنةِ ضميرَ المخاطَبين إشارةً إلى الاهتمام بهم، فأصلُ الكلام هو حكايةُ مقولتِهم التي قالوها في الدُّنيا؛ إذ قالوا: (لن يجعل لنا موعدًا)، فأعاد النَّظمُ الجليل حكايةَ قولهم مع تغيير الضَّمير ليكونَ مخاطَبًا، ودلالةُ ذلك التَّقديمِ الاهتمامُ بذكر مَن يُجْعَلُ الموعِدُ له أكثر من الاهتمام بذكر الوعد ذاتِه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾

[الكهف: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لمّا جُمعَ النّاسُ وعُرضوا، نُشرتِ الصُّحفُ وخابَ هنالك المُكذّبون

بعد أن ذكر النَّظمُ الجليل من أحوالِ يومِ القيامة تسْيِيرَ الجبال، وبُروزَ الأرض، وحشْرَ العباد وعرْضَهم على الله تعالى؛ بيّن ما يكونُ بعد العَرْضِ، وهو وضْعُ الصَّحائفِ، وكشفُ الأعمال، وبيانُ حالِ المُجرمين الذين كانوا يكفُرون بيومِ الحسابِ، وإذا بهم يَجدون ما عملوا حاضرًا مُسجَّلًا عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: (جرم) أصلُ الجَرْم: قطعُ الثَّمرةِ عنِ الشَّجر، ورجلٌ جارِمٌ، وقومٌ جِرامٌ، وثَمَرٌ جَريم، والجُرامَة: رديءُ التَّمر المَجْروم، وأَجْرَمَ: صار ذا جُرم، نحو: أثمرَ وألبنَ، واستعيرَ ذلك لكلِّ اكتسابٍ مكروهٍ، ولا يكادُ يقالُ في عامَّة كلامِهم للكيِّسِ المحمود[2]، وقيل أَصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أَهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لصاحِبِه[3]، يُقال: أَجْرَمَ الرَّجُلُ؛ إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَةً[4]، والجُرْم "لا يُطلقُ إلّا على الذَّنب الغليظِ، والمجرمون: هم الكافِرونَ"[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 530.
(2) الرّاغب، المفردات: (جرم).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 41.

2) ﴿مُشۡفِقِينَ﴾: (شفق) أَصلٌ يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ، وأَشْفَقْتُ مِنَ الأَمرِ؛ إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ[1]، والإِشْفاقُ: عنايةٌ مختلطةٌ بخوفٍ؛ لأَنَّ المُشْفِقَ يحبُّ المُشْفَقَ عليه، ويخافُ ما يَلحقُه، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء: 49][2]، والشَّفَقُ: الخَوْفُ، وهو أَيْضًا الشَّفَقة؛ بأَنْ يكونَ النّاصِحُ مِنْ بُلوغِ النُّصحِ خائفًا على المَنْصوح، تَقولُ: أَشْفَقْتُ عليْه أَنْ يَنالَه مَكْروهٌ، وأَشْفَق عليْه: حَذِرَ، وأَشْفَق مِنْهُ: جَزِعَ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور: 26]، أَيْ: كُنّا في أَهْلِنا خائِفينَ لِهَذا اليَوْمِ[3]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمة: أنَّهم خائِفون وجِلون مِن وضْعِ الكتابِ الذي لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً، وما يعقبُ ذلك مِنَ الافتضاحِ في ذلك اليوم أمامَ الخلائقِ[4].

3) ﴿أَحۡصَىٰهَاۚ﴾: (حصا/حصو) أصلٌ يدلُّ على العَدِّ والإِطاقَةِ، وأَحْصَيْتُ الشَّيْءَ: إذا عَدَدْتَهُ وأَطَقْتَهُ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المزّمّل: 20]، وقالَ تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: 6][5]، والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعدد، يقال: قد أحصيتُ كذا، وذلك من لفظ الحَصا، واستعمالُ ذلك فيه من حيثُ إنَّهم كانوا يَعتمدونَه بالعَدِّ، كاعتمادِنا فيه على الأصابع، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: 28]، أي: حصَّلَه، وأحاطَ به[6]، وأحصيتُ الشَّيء: عددتُه، وقولُهم: نحن أكثرُ منهم حَصًى، أي: عددًا[7]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمةِ: العَدُّ، أي: كانت أفعالُهم معدودةً مُفصَّلةً"[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبر النَّظمُ الجليل أنَّ صحائفَ العبادِ قد أُحضرت، ووُضعت في ميزانِهم، فيرى كلُّ أحدٍ في الموقف المُجرمين كافَّةً، خائفين مُشفقين لما رأوا في تلك الصُّحفِ من جرائمَ وذنوبٍ، فيقولون مُتحسّرين مُتفجِّعين عند معاينتِهم سوءَ أعمالهم المُقيَّدةِ في الكتاب: يا هلاكَنا أقبلْ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصوى).
(6) الرّاغب، المفردات: (حصا).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حصا).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.

فهذا أوانُ إقبالِكَ، ثمَّ يُبدونَ التَّعجُّبَ والدَّهشةَ مِن دِقَّة ما اشتملَ عليه الكتابُ، قائلين: أيُّ شيءٍ ثبتَ لهذا الكتاب؛ إذ لا يترك معصيَةً صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها علينا، وسجَّلَها في صحفِ أعمالنا، وقد نادَوا هلاكَهم عندما وجَدوا أعمالَهم مَسطورةً في الصَّحائفِ، وإذ يُجازيهمُ اللّهُ تعالى على تلك الأعمال، فإنَّه لا يظلمُ أحدًا مِنَ العِباد، وإنّما يُجازَى كلُّ واحدٍ منهم على قَدْر استحقاقِه[1]، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ.

عرضُ الأعمالِ وثُبورُ المجرمين من دقيقِ قيْدِ الكتابِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَوُضِعَ﴾:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾[2]؛ لاشتراكها في الحال، أي: وقد وُضِعَ الكتابُ، فهو حالٌ آخرُ يُعبِّرُ عنِ الأمورِ الهائلةِ التي ستقعُ في ذلك اليومِ[3].

كشفُ الصَّحائفِ بعد العرْضِ على الجليلِ مِن أهوالِ المَحشرِ العظيمةِ

سرُّ العُدولِ عنِ المستقبل إلى الماضي ﴿وَوُضِعَ﴾:

عدلَ النَّظمُ الجليل عنِ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع الدّالِّ على المستقبل إلى التَّعبيرِ بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، فأحداثُ يوم القيامة مُستقبليَّةٌ، وإنَّما عبَّرَ عنها بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِه وتأكيدِه[4]، فكأنَّه لشِدَّة حقيقتِه وتأكُّدِ وقوعِه في المستقبل، قد حدثَ ووقعَ وصار ماضيًا، وفي قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ أُوثِرَ الماضي ﴿وَوُضِعَ﴾ على المضارع (يوضع)؛ لأنَّ الآيةَ تتحدَّثُ عن مشهدٍ أُخرويٍّ من مشاهدِ القيامة، وسرُّها البلاغيُّ تأكيدُ تحقُّقِ وقوعِ الحَدَثِ[5].

نشرُ الصَّحائفِ حقيقةٌ مُؤكَّدةٌ واقعةٌ، ومشاهدُ الآخِرةِ في القرآنِ حتميَّةُ الوقوعِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 530 - 531.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 227.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 187.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 245.

دلالةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

نَشْرُ الصَّحائفِ أمرٌ عظيمٌ لذاتِه، لا بالنَّظرِ لكونِه مِن مُعيَّنٍ

بنى النَّظمُ الجليل الفعلَ للمفعول في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، دون أن يقول: (ووضعنا الكتاب)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ وضْعَهُ يقعُ "بأيسرِ أمرٍ، بعد العَرْضِ المُستعقِبِ للجمع بأدنَى إشارةٍ"[1]، كما أنَّ هولَ نَشْرِ تلك الصَّحائفِ بيِّنٌ لذاتِه لا بالنَّظر لكونِه من فاعل معيَّنٍ، فعَرْضُ الأعمال يكفي في إيقاع الهوْلِ، وبيانِ الأمرِ العظيم.

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ الكتابِ بالمُفْرِدِ المعرَّفِ:

كلُّ امرئٍ له كتابُه، يَلْقاه مَنشورًا حاويًا أعمالَه

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن نائبِ الفاعل ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ بصيغةِ الإفرادِ مع تعريفِه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّه أُريدَ من التَّعريف تعريفُ الجنس، فيشملُ جميعَ الكتبِ والصُّحفِ التي قُيِّدت فيها أعمالُ العباد في الحياة الدُّنيا[2]، فالمُرادُ مِنَ الكتاب الجنسُ، أي: وُضعتِ الكتبُ التي كُتبت فيها أعمالُ البشر؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم كتابًا، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: 13 - 14][3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَتَرَى﴾:

إشفاقُ المُجرمين مُترتِّبٌ على وضعِ الكتاب ونَشْرِه

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[4]؛ لأنَّ رؤيةَ المُجرمين في حالة الإشفاقِ إنَّما حصلتْ؛ لأنَّها مُترتِّبةٌ على وضعِ الكتابِ ونشْرِ الصُّحفِ، فتفرَّعَ على وضع الكتابِ بيانُ حالِهم عند وضْعِه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 72.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 530.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 337.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 202.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 337.

المرادُ بالمخاطَبِ المُضمَرِ في ﴿فَتَرَى﴾:

أصابَ الهَلَعُ المُجرمين فظهرَ خوفُهم لكلِّ أحدٍ في الموقفِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالفعلِ المضارع المسنَدِ إلى المخاطَب ﴿فَتَرَى﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، والمرادُ به كلُّ مخاطَب، أي: فترى أيُّها المُخاطَبُ[1]، فليس المرادُ أحدًا بعينِه مِنَ المخاطَبين، كما أنَّه لا يُرادُ به النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ رؤيتَهم في تلك الحالِ ليس خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ، بل هو ممّا يراهُ كلُّ أحدٍ، وفي جَعْلِ الخطاب عامًّا لكلِّ أحدٍ دليلٌ على شِدَّةِ إشفاقِهم مِنِ افتضاح أمرِهم، بحيثُ إنَّ كلَّ مَن في الموقف يرى ذلك الإشفاقَ والهلعَ.

الغرضُ مِن جَمع المجرمين وتعريفه باللّام:

كلُّ مُجرمٍ مُشفقٌ من هوْلِ المحشرِ ووضْعِ الكتابِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل عنِ المجرمين بالتَّعريف باللّام في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ للدَّلالة على جنسِ المُجرمين، فيَشْمَلُ كلَّ مجرم آثم مِنَ الكافرين، ومُنكري البعثِ، فيُرادُ به المجرمون قاطبةً، ويدخلُ فيه منكرو البعثِ دخولًا أوَّليًّا[2]، وقد جاء به بصيغة الجمعِ دون أن يقول: (فترى المجرمَ مشفقًا)؛ لأنَّ الخطابَ بُنيَ على الجمع، فعَبَّرَ بالجمع ليشملَ ذلك الوصفُ كلَّ واحدٍ منهم في حالةِ جمعِهم.

دلالةُ (من) ومعناها في ﴿مِمَّا﴾:

حلَّ بهم إشفاقٌ جديدٌ لرؤيتِهم أعمالَهم مُسجَّلةً في الكتابِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (مِن) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعليلِ، فكان إشفاقُهم بسبب رؤيتِهم ما في الكتاب، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ هناك إشفاقًا آخَرَ قد حلَّ بهم، وهو غيرُ الإشفاقِ المُتحصَّلِ مِنَ البعث ومعاينةِ صدْقِ الوعدِ بالبعث للحسابِ، فلمّا رأَوُا الكتابَ؛ اعتراهم إشفاقٌ آخَرُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 530.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 227.

مُتسبِّبٌ عن رؤيتِهم كلَّ أعمالهم مُسجَّلةً عليهم محفوظةً، فتيَقَّنوا ألّا فِرارَ ولا حجَّةَ تدافعُ عنهم.

معنَى (ما) ودلالتُها في ﴿مِمَّا﴾:

أُحصيَ في الكتاب كلُّ عملٍ، وإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل باسم الموصول (ما) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، وهو من ألفاظ العموم، فيُشيرُ إلى أنَّه قد أُحصيتْ عليهم جميعُ أعمالهم، حتّى ما لا يُعتدُّ بها في نظرهم، وتَستصغرُه نفوسُهم، كما أنَّ فيه دلالةً على الإبهامِ، ممّا يدلُّ على تفخيم شأنِ ما كُتب فيه وتهويلِه.

معنى حرفِ الوعاءِ (في):

احتوَى الكتابُ ما عمِلوه في حياتِهم لا يغادِرُ شيئًا منه

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ والظَّرفيَّةُ فيه حقيقيَّةٌ؛ للدَّلالة على أنَّه قد قُيِّدَ في الكتاب كلُّ ما عملوه، وكسبتْه أيديهم، فكان إشفاقُهم؛ لأنَّهم رأَوا أنَّ اللّه تعالى قد أحصَى عليهم أعمالَهم صغيرَها وكبيرَها في هذا الكتاب، فكانوا "مُشفقين ممّا فيه؛ لأنَّه أحصاه اللّهُ، ونَسوه"[1]، كما أنَّه يُشيرُ إلى نسخ أعمالِهم وتقْييدِها في هذا الكتاب، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29].

دَلالةُ الواو في ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

ساءَ حالُهم وعظُمَ خوفُهم حتّى أنطقَهم بدعوةِ الهلاكِ وتَمنّيه

عطفَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ على الحال في قوله تعالى: ﴿مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ لأنَّها في محلِّ نصبِ حالٌ[2]، أي: مُشفقين ممّا فيه وقائلينَ: يا ويلَتنا؛ لبيانِ أنَّ إشفاقَهم قد أنطقَهم بدعوة الثُّبورِ والهلاكِ، لشِدَّةِ ما هم فيه من خوفٍ ووجلٍ.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 312.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 202.

دَلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ الحال بالجملةِ الفعليَّةِ التي فعلُها مضارعٌ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ بتقديرِ قائلين؛ لأنَّه أرادَ تصويرَ حالِهم، واستحضارَ حالتِهم الفظيعةِ، كما أنَّه يدلُّ على أنَّهم يُكرِّرون قولَهم ذلك، ويُعيدونَه، وهذا هو شأنُ الخائفِ الفَزِع[1]، فهم لا يقولون ذلك مرَّةً واحدةً، بل يُجدِّدون القولَ، ويَستمرّون فيه؛ لأنَّ خوفَهم وإشفاقَهم دائمان مستمران.

إشفاقُهم دائمٌ، وتعبيرُهم عن هلعِهم مُستمرٌّ متجدِّدٌ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاعلِ ضميرَ جمعٍ:

أسندَ النَّظمُ الجليل فعلَ القولِ إلى ضميرِ الجمعِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُجرمين المُشفقين قد قالوا ذلك جميعًا، لم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، تعبيرًا عن شدَّةِ خوفِهم وإشفاقِهم، بحيثُ إنَّه أنطقَهم مُردِّدين مُطالِبين بالهلكةِ العامَّةِ.

أجمَعوا على دعوةِ الوِيلِ وطلبِ الهلاكِ

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ بأسلوبِ نداءِ الويلِ على سبيلِ المَجازِ:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل عن يأسِهم وشدَّةِ خوفِهم بأنَّهم نادَوا الويلَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾، والويلُ ممّا لا يُنادَى، فهو نداءٌ على سبيلِ المجازِ، وذلك "بتنزيلِ ما لا يُنادَى منزلةَ ما يُنادَى؛ لقصد حضورِه، كأنَّه يقول: هذا وقتُك فاحضري، ثمّ شاعَ ذلك، فصار لمجرَّدِ الغرضِ مِنَ النِّداء، وهو التَّوجُّعُ ونحوُه"[2]، ويُعبِّرُ هذا النِّداءُ عن هولِ ما حلَّ بهم، بحيثُ إنَّهم يُنادون ما لا يجيبُهم، ولا ينفعُهم، كما أنَّ فيه كنايةً على أنَّه "لا نديمَ لهم إذ ذاكَ إلّا الهلاكُ"[3]، فانقطعت بهم السُّبلُ، فراحوا يُنادون ما يُعبِّرُ عن توجُّعِهم وطلبِ الهلكةِ لأنفسِهم.

في دعاءِ الويلِ تفجُّعٌ وتوجُّعٌ مِن هوْلِ ما هم فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 338.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 72.

بَلاغةُ الاستعارةِ في نداءِ الويْلِ:

في نداءِ الويْلِ دعاءٌ للهلاكِ بالحضورِ وكأنَّه عاقلٌ

وحرفُ النِّداءِ لاختصاصِ المُنادَى بالإقبال، وهاهنا خصّوا الهلاكَ بالنِّداء، وأضافوا إلى أنفسِهم قائلين: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ على الاستعارة، فإنَّ الويل: الهلاكُ، فكأنَّهم دعَوا على أنفسِهم بحضورِ هلاكِهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30] بنداءِ الحسرةِ عليهم، كأنَّما قيل لها: تعالَي يا حسرة، فهذه من أحوالِك التي من حقّك أن تحضري فيها[1]، ومكنيَّةُ الاستعارةِ هاهنا تتمثَّلُ بتشبيه (الويلة)، أي: الهلاك، بمَن يعقلُ، وحُذِفَ المشبَّهُ به، ودُلَّ عليه بلازمِه، وهو النِّداءُ هنا، بوصْفِه من صفاتِ العقلاءِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الويل بصيغةِ التَّأنيثِ:

صيغةُ التَّأنيثِ في الويْلِ دليلٌ على شدَّتِه وغلظتِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ الويل بصيغةِ التَّأنيث في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ دون أن يقولوا: (يا ويلنا)؛ وذلك لما في تأنيث الويل من دلالةٍ على المبالغةِ في الاتِّصافِ بسوءِ الحالِ والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة: 31][3].

الغرضُ منَ التَّعبيرِ بالاستفهامِ ﴿مَالِ هَٰذَا﴾:

دَقَّ إحصاءُ الكتابِ حتّى أثارَ عُجبَ النّاظرين فيه

استعملَ النَّظمُ الجليل الاستفهامَ في: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ لغرضٍ مجازيٍّ، والمرادُ منه التَّعجُّبُ من شأنِ الكتابِ، وذلك لإحصائه كلَّ الأعمال والمعاصي، مع مقاديرِها وأوصافِها دونَ أن يُغادرَ منها شيئًا[4]، فـ (ما) اسمُ استفهام، يعني: أيَّ شيءٍ له، وفيها دلالةٌ على الإبهام والتَّنكير، فجاء بقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لوصف (ما)، وهو الشَّيءُ المستفهَمُ عنه، أي: أيُّ شيءٍ ثبتَ لهذا الكتاب[5]؟.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 491.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 338.

(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 41.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 338.

الغرَضُ مِنَ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القُرب ﴿هَٰذَا﴾ في جملة: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم عايَنوه عن قُربٍ، فكلُّ واحدٍ منهم له كتابُه الذي بين يديه، وكلُّ واحدٍ من أولئك المُجرمين سيُبدي تعجُّبَه من شأن كتابِه الذي أحصى كلَّ شيءٍ عملوه، كما أنَّ فيه إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: 13]، فالكتابُ بين أيديهم للتعجيل؛ لِعلْمِهم بسوءِ مصيرِهم، لما وجدوا فيه، وشاهدوه بأعينِهم.

كُلُّ إنسانٍ وكتابُه يومَ العرْضِ على الجليلِ مُقترنان

دَلالةُ التَّعبيرِ بالبدلِ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

أبدل النَّظمُ الجليل الكتابَ مِن اسم الإشارةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ للبيانِ، فإنَّ التَّعجُّبَ الذي أبْدَوه بالاستفهامِ مع الإشارة لما بين أيديهم كان وافيًا، ولكنَّهم بيَّنوا أنَّ مثارَ التَّعجُّبِ في المُشارِ إليه لاتِّصافِه بأنَّه كتابٌ، إشارةً إلى أنَّ ذلك التَّعجُّبَ بسببِ ما كُتب فيه وما أحصاه، فالبدلُ لبيانِ وجْه التَّعجُّبِ والاستفهامِ عنِ المُشارِ إليه.

مثارُ التَّعجُّبِ والهلعِ مِنَ المُشارِ إليه ما كُتِبَ فيه

سرُّ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليَّةِ الفعليَّةِ:

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ الكتابَ بالجملةِ الفعليَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ للدَّلالةِ على الحالِ، تحقيقًا لما في الاستفهامِ مِنَ التَّعجُّبِ، وأجازَ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ أن تكونَ الجملةُ استئنافيَّةً، سيقتْ للإجابة على سؤالٍ نشأ مِنَ التَّعجُّبِ بالاستفهامِ، كأنَّه قيل: ما شأنُ هذا الكتابِ يُتعجَّبُ منه؟ فقيل: إنَّه لا يغادِرُ سيئةً صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها[1].

شأنُ الكتابِ المُتعجَّبِ منه أنَّه يَستنسِخُ كلَّ شيءٍ في حياةِ الإنسان

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 227.

علَّةُ تنكيرِ الصَّغيرةِ، والكبيرةِ:

وردَ لفظا ﴿صَغِيرَةٗ﴾، و﴿كَبِيرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ نَكرتَين؛ لإفادة العموم، أي: كلُّ صغيرةٍ، وكلُّ كبيرةٍ من مُكتسباتِهم في الحياة الدُّنيا(1)؛ فلن يُهمَلَ ما اكتسَبوه صَغُرَ أم كبُرَ.

نُكْتَةُ تقديمِ الصَّغيرةِ على الكبيرةِ:

إحصاءُ الصَّغائرِ أكثرُ تعلُّقًا بشأن التَّعجُّبِ مِنَ الكتاب

قدَّم النَّظمُ الجليلُ لفظَ الصَّغيرة على الكبيرة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ للدَّلالة على أنَّ مثارَ تعجُّبِهم هو إثباتُ جميع الصَّغائرِ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الذي جرَّهم إلى الكبائرِ إنَّما هي تلك الصَّغائرُ، فذكروا لفظَ الكبائرِ بعد الصَّغائرِ - مع أنَّها مفهومةٌ من ذكر الصَّغائر؛ لأنَّ مَن أثبت الصَّغيرةَ لا بدَّ أنَّه لم يغفلْ عنِ الكبيرة - تأكيدًا لدِقَّة إحصاءِ الكتاب؛ لأنَّ المقامَ مقام توفية حقوق لا ظلم فيه، مع مافيه من التّهويل والتّعظيم والتَّفَجُّع(2).

مَن يجهلُ كمالَ قدرةِ الله حُقَّ له العَجبُ

والمُتبادرُ إلى الذِّهن أنَّ الشَّيءَ الصَّغير ممّا يخفَى على المُحصي، فلمّا وجدوا صحائفَ أعمالهم قد سُطِّرَ فيها صغائرُ أعمالِهم بَلْهَ كبائرِها؛ استولى عليهمُ العَجبُ لجهلِهم بكمال قُدرةِ اللّه تعالى(3).

سِرُّ عطْفِ الكبيرةِ على الصَّغيرةِ:

شمولُ الإحصاء للكبائرِ مع الصَّغائرِ محلُّ عجبٍ، ودليلُ عدْلٍ

وعُطفتِ (الكبيرة) على (الصغيرة) في قوله تعالى: ﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾؛ لإرادة التَّعميم في الإحصاء؛ لأنَّ التَّعميمَ أيضًا ممّا يثيرُ التَّعجُّبَ، فقد عجبوا من إحاطة كاتبِ الكتابِ ومُحصيه بجميع الأعمالِ(4)، وفيه إيماءٌ إلى عدالة الحسابِ، بمجازاة كلٍّ بما عملَ من خيرٍ، وارتكب من ذنبٍ، فلا صغيرةَ تُهمل، ولا كبيرةَ تُغفلُ.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 73.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.

بَلاغةُ الطِّباقِ بين الصَّغيرةِ والكبيرةِ:

مقتضى الحساب إحصاءُ دقائقِ الأعمالِ وجلائلِها

الجمعُ بين لفظَيْ: ﴿صَغِيرَةً﴾، و﴿كَبِيرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يندرجُ ضمنَ بابِ طباقِ الإيجاب، الذي يقتضيه مقامُ المحاسبة والعقابِ؛ للدَّلالة على الإحاطة بجميع الأعمال، وإحصائِها بدقَّةٍ متناهيةٍ فلا يُغادَرُ منها شيءٌ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الاستثناءِ:

أحصَى الأعمالَ حتّى لم يُغادِرْ منها صغيرًا ولا كبيرًا

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالاستثناء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ للدَّلالة على استثناء حالٍ من أحوالٍ كثيرة، أي: من جميع الأحوالِ الصَّغيرةِ والكبيرة، بمعنى أنَّه "لا يُبقي صغيرةً ولا كبيرةً في جميع أحوالِهما إلّا في حال إحصائِه إيّاها، أي: لا يغادِرُه غيرَ مُحصًى، فالاستثناءُ هنا من تأكيد الشَّيء بما يشبهُ ضدَّه؛ لأنَّه إذا أحصاه؛ فهو لم يغادرْه، فآلَ إلى معنى أنَّه لا يغادرُ شيئًا، وانتفت حقيقةُ الاستثناء"[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَحۡصَىٰهَاۚ﴾:

إحصاءُ الأعمالِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ الإحصاء بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ لما في الفعل الماضي من دلالةٍ على تحقُّقِ الحدثِ، وأنَّه قد وقعَ، وإشارةٍ إلى أنَّ الإحصاء قد وقع في الدُّنيا قبل يومِ العَرْض.

بَلاغةُ المَجازِ العقليِّ في ﴿أَحۡصَىٰهَاۚ﴾:

اللهُ تعالى هو مُحصي الصَّغائرِ والكبائرِ

في إسنادِ (أحصى) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ إلى ضمير الكتابِ مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه المكانيَّةُ؛ لأنَّ اللّه ﷻ هو فاعلُ الإحصاء الحقيقيِّ، والكتابُ مكانُه[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.

الدُّعاءُ بالهَلَكةِ والويلِ مُزامِنٌ لرؤيةِ الأعمالِ في الكتابِ

سِرُّ التَّعبيرِ بجملةِ الحالِ الفعليَّة:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالجملةِ الفعليَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ للدَّلالة على الحال، وصاحبُ الحال هو الضَّميرُ في الفعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾؛ لبيانِ أنَّهم قد قالوا تلك المقولةَ، ونادَوا بالويل والثُّبورِ حين عُرِضت عليهم أعمالُهم عند وضع ذلك الكتابِ[1]، أي: قد وجدوا ما عمِلوا حاضرًا مُسجَّلًا عليهم.

وإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ فإنَّها ثابتةٌ في الكتاب

الغرضُ مِنَ التَّعبير بـ﴿مَا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليل عن عملِهم الذي وجدوه مُسجَّلًا في الكتاب بـ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾، وهي صالحةٌ أن تكون اسمًا موصولًا، بمعنى: وجدوا الذي عملوه، أو أن تكونَ مصدريَّةً، بمعنى: وجدوا عملَهم[2]، فتكونَ دلالةُ الاسم الموصولِ أنَّهم وجدوا أعمالَهم على سبيل الإفراد عملًا فعملًا، ويكونَ المعنى لـ﴿مَا﴾ المصدريَّةِ أنَّهم وجدوا عملَهم كلَّه مقيَّدًا هناك، والمآلُ واحدٌ.

حضورُ الإحصاءِ، يوجِبُ الجزاءَ

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالمجازِ العقليِّ في ﴿حَاضِرٗاۗ﴾:

أسندَ النَّظمُ الجليل الحضورَ إلى العمل في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾، والعملُ لا يحضرُ، وإنَّما ذلك على طريقة المجازِ العقليِّ، فأُسنِدَ الحضورُ للأعمال، وإنَّما هو للإحصاءِ أوِ الجزاءِ، أي: وجدوا إحصاءَ ما عملوا حاضرًا في الكتاب، أو وجدوا جزاءَ ما عملوا عاجلًا في القيامة[3].

لمّا سُجِّلتِ الأعمالُ، وحَقَّ الجزاءُ؛ انتفى الظُّلمُ بإنزال العقابِ

دَلالةُ عطفِ الجملةِ: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ﴾:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾، فلمّا أفهمتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 201.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 313.

الجملةُ أنَّهم لم يجدوا إلّا ما عملوا دون أن يُزادَ فيه شيءٌ؛ عقَّبَ على ذلك بعلَّتِه وهو أنَّ اللّه تعالى لا يظلمُ أحدًا، فلا يُؤاخذُه بما لم يقترفْه، فلمّا حدَّد لهمُ الحلالَ والحرامَ، وبيَّن لهمُ الجزاءَ على كلٍّ؛ لم يكن ظالمًا إذا آخَذَ أحدًا بجريرتِه[1]، ففي هذا العطفِ تأكيدٌ وبيانٌ بليغٌ يقتضيه السّياقُ.

دلالةُ نفيِ الظُّلمِ بصيغة الفعلِ المضارعِ:

العــدلُ لـدى الجليلِ دائمٌ لا ينتقضُ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾؛ للدَّلالة على تجديد النَّفيِ واستمرارِه، لا نفي التَّجدُّد والدَّوام، "ليَعُمَّ نفيُ الظُّلم عنه سبحانه جميعَ الأزمنةِ"[2]، وفي ذلك تأكيدٌ لعدالة اللّه تعالى، وأنَّه لا يأتي زمنٌ يقع فيه ظلمٌ لعبدٍ من عباده، وأنَّ الظُّلمَ مُنتفٍ عنه ﷻ انتفاءً دائمًا لا ينتقضُ بحالٍ منَ الأحوال، وفي ذلك بشارةٌ إلى الخلقِ جميعًا أنَّ مصائرَهم إنَّما هي حاصلةٌ بما كسبتْ أيديهم.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الرَّبِّ المعرَّفِ بالإضافةِ:

المُحسنُ إلى النّاس أنّى يُتصوَّرُ منه الظُّلمُ

أسندَ النَّظمُ الجليل نفيَ الظُّلم للَفظِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضمير الخطابِ المرادِ به النَّبيُّ ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى الذي أحسن إلى عباده ببعثة خاتمِ الأنبياء ﷺ، لا يُتصوَّرُ منه الظُّلمُ بحالٍ منَ الأحوال، فهو مُنتفٍ انتفاءً منَ الأصل، فالذي يُحسنُ إلى عباده، ويُربّيهم لا يتأتّى منه الظُّلمُ، وفي ذلك تأكيدٌ لمضمون الجملةِ، فالتَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ أبلغُ في هذا السّياقِ منَ التَّعبير بلفظِ الجلالة.

تحقُّقُ وعْدِ اللّه تعالى تطييبٌ لنفس رسولِ اللّه ﷺ

وُجِّه الكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ إلى الرَّسول ﷺ في مقام التَّسليةِ له، والعزاءِ ممّا لقيَهُ مِن جحودِ قومه وعنادِهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.

فسيقت هذه المشاهدُ لتَطييبِ نفسه، وتبشيرِه بنصرِ الحقِّ، وأنَّ اللّه تعالى لهم بالمِرصاد؛ ولذلك آثرَ لفظَ (ربّ) على ما عداه من أسمائه الحُسنى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول به نكرةً ﴿أَحَدًا﴾:

الظُّلمُ منفيٌّ عنِ المولى تعالى نفيًا يستغرقُ جميعَ الخلائقِ

آثَر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن ﴿أَحَدًا﴾ بصيغةِ التَّنكير في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾؛ وذلك لما في التَّنكير من دلالةٍ على التَّعميم، ومجيءُ النَّكرة في سياق النَّفيِ يدلُّ على الاستغراق في النَّفي، فاللّه تعالى لا يظلمُ أحدًا مهما كان، وفي أيِّ حالٍ منَ الأحوال، نفيًا يَستغرقُ النّاسَ جميعًا: المُحسنَ منهم والمسيءَ.

الغرضُ مِنَ الختْمِ بالتَّذييل في الآية:

الاســـتـدلالُ بـعـدالـةِ الـلـه تــعــالـى عـلـى اســتــحــقــاقِ الجزاءِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ واقعةٌ في رأس الفاصلةِ وختامِ الآية، وقد أفادت معنَى التَّذييل؛ وذلك لأنَّها تتضمَّنُ الاستدلالَ على مضمون الجملةِ التي سبقتْها، كما أنَّ العمومَ فيها يشملُ مضمونَ الآية[2]، فصَلُحت للفصل، وكانت تذييلًا لذلك بنفي الظُّلمِ عنه ﷻ، عند قيامِ الحساب بعد وضعِ الكتاب ورؤيتِهم أعمالَهم فيه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإشفاق والخوف:

الإشفاقُ أخصُّ مــن مُــطــلــقِ الــخــوفِ، فهو خــوفٌ يَـشـوبُـه حذَرٌ

الخَوْفُ توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، كما أنَّ الرَّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ محبوبٍ عن أمارة مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفَ الأمنُ، ويُستعملُ ذلك في الأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّةِ[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 246.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 339.
(3) المفردات، مادّة (خوف).

أمّا الإشفاقُ؛ فيقال: أَشْفَقْتُ مِنَ الأَمرِ؛ إِذا رَقَقْتَ، وحاذَرْتَ[1]، والإِشْفاقُ: عنايةٌ مختلِطةٌ بخوف؛ لأنَّ المُشْفِق يُحبُّ المُشفَقَ عليه، ويخافُ ما يَلحقُه، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء: 49][2]، فعبَّرَ في الآية الكريمة بالإشفاق؛ لأنَّهم خائفون وجِلون من وضْعِ الكتاب، الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً، وما يعقبُ ذلك مِنَ الافتضاح في ذلك اليوم أمامَ الخلائقِ[3]، فهم حذِرون وجِلون مِنِ افتضاح أمرِهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفق).

(2) الرّاغب، المفردات: (شفق).

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ذِكرُ المعادِ والحسابِ يَحْسُنُ معه ذِكرُ المبدأِ وبيانُ أصلِ الضَّلالِ

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الجليل البعثَ ونشْرَ الصُّحف، وختمَ ذلك ببيان عدلِه تعالى ونفيِ الظُّلم عنه؛ أتبعَ ذلك بقصَّةِ بدءِ الخَلْق مُذكِّرًا بولايتِه تعالى الموجبةِ للإقبالِ عليه، وعداوةِ الشَّيطان الموجبةِ للإدبار عنه(1)، ومنَ المناسبةِ كذلك أنَّ النَّظمَ الكريم لمّا ذكر يومَ القيامة والحشرَ وإشفاقَ المجرمين من ذلك الكتاب؛ أتبعَه بذكرِ إبليسَ؛ لأنَّه هو الذي حملَهم على معاصيهم واتِّخاذِ شركاءَ مع اللّه تعالى(2)، وكذلك تناسبُ ما تقدَّمَ مِنَ الآيات التي ذمَّتِ افتخارَهم بأموالهم وجاهِهم، واحتقارَهم الفقراءَ مِنَ المسلمين، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28]، فكان إيرادُ قصَّةِ إبليسَ تمثيلًا لهم، فهذه القصَّةُ تذكيرٌ بأنَّ الشَّيطان هو أصلُ الضَّلال(3).

ومن وجوه مناسبةِ هذه الآية لما قبْلَها أيضًا "أنَّ الآياتِ السّابقة قد عرضتِ النّاسَ بين يدي اللّه يومَ القيامة، فإذا هم مؤمنون وكافرون؛ مؤمنون قد آمنوا باللّه، واستجابوا لدعوتِه على يدِ رُسله، وكافرون قد خرجوا عن أمر اللّه وعصَوا رُسلَه، وهنا صورةٌ في الملأ الأعلى، تُشبهُ هذه الصّورةَ التي وقعت في الأرض، صورةٌ للتَّمرُّدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 189.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 340.

والعصيان، ولدعوة من دعوات الإغواءِ والإفسادِ والفسوقِ عن أمر الله، إلى جانبِ الدَّعوة التي يحملُها رسلُ الله إلى النّاس بالهدى والإيمان"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفَسَقَ﴾: (فسق) وهو الخُروجُ عَنِ الطّاعَةِ، تَقولُ العَرَبُ: فسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِها؛ إذا خَرَجَتْ[2]، والفِسْق: العِصْيانُ والتَّرْكُ لأمر الله ﷻ والخُروجُ عَنْ طَريقِ الحَقِّ، وفسَق يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسْقًا وفُسوقًا[3]، وفَسَقَ فلانٌ: خرج عن حجرِ الشَّرع، وهو أعمُّ مِنَ الكفر، والفِسْقُ يقع بالقليل مِنَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يقال: الفاسِقُ لمِنِ التزم حُكمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فاسِقٌ، فلأنَّه أخلَّ بحُكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ، وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[4]، بمعنى أنَّه خرجَ عن طاعة الله تعالى[5].

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ[6]، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، والمَوْلَى، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ، وهو القُرْبُ، وكُلُّ مَنْ ولِيَ أَمرَ آخَرَ؛ فهو وليُّهُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ[7]، والقُرْبُ قُرْبٌ معنويٌّ، وهو الصَّداقةُ والنِّسب والحِلْفُ، والمرادُ به في الآية الكريمة: إشراكُهم في العبادة، فإنَّ عبادتَهم الآلِهَةَ هي اتِّخاذُهم أولياءَ من دون الله[8].

3) ﴿بَدَلٗا﴾: (بدل) أصلٌ يدلُّ على قيام الشَّيء مقامَ الشَّيء الذّاهب[9]، يقال: هذا بَدَلُ الشَّيء وبديلُه، وبِدْلُ الشَّيْءِ وبَدَلُه وبَديلُه: الخَلَفُ مِنْهُ، والإبدالُ والتَّبديلُ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، والأَصل في التَّبْديل تَغْييرُ الشَّيْءِ عَنْ حالِه، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 631.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسق)، عدد من المختصين، نضرة النّعيم: 11/ 5261.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح: (ولي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).

﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][1]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: استبدالُ طاعة اللّه تعالى وعبادتِه، بأن أطاعوا إبليسَ وذُرّيَّتَهُ[2].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

استكبارُ إبليسَ عن طاعةِ الله تعالى واتّباعِ المُشركين له

يُخبرُ النَّظمُ الجليل عن قصَّةِ عصيانِ إبليسَ واستكبارِه عن السُّجود لآدمَ، قائلًا: اذكرْ - أيُّها العاقلُ - للاعتبار والاتّعاظ وقتَ قولِنا للملائكة اسجُدوا لآدمَ، سجودَ تحيَّةٍ وتوقير، فامتثَلوا أمرَنا، وسجدوا جميعًا، إلّا إبليسَ فإنَّه أبى، واستكبرَ، وإنَّما لم يسجدْ؛ لأنَّه كان منَ الجنِّ، ولم يكن منَ الملائكة، فخرج بذلك عن طاعتِنا، فاستحقَّ لَعْنَتَنا وغضبَنا، ثمّ قال موبِّخًا ومُنكرًا على بني آدمَ: أبعْدَ أن ظهر لكم فسوقُ إبليس عن أمر ربِّه، تتَّخذونه وذرّيَّتَه الذين نهجوا نهجَه أولياءَ وأصفياءَ، فتطيعونَهم بدلَ طاعتي، وتستبدلونَهم بي، والحالُ أنَّهم لكم عدوٌّ، فكيف تصنعون هذا الصَّنيعَ، وتستبدلون بمن خلقَكم، وأنعمَ عليكم بجميعِ ما أنتم فيه منَ النِّعم بمن لم يكن لكم منه منفعةٌ قط، بل هو عدوٌّ لكم يترقَّبُ حصولَ ما يضرُّكم في كلِّ وقت؟ فكلُّ الذّم لهؤلاء الظّالمين الواضعين للشَّيءِ في غيرِ موضعِه، المُستبدلين بطاعةِ ربِّهم طاعةَ الشَّيطان، فبئسَ ذلك البدلُ الذي استبدلوه بدلًا عنِ اللّه سبحانه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَإِذۡ﴾:

جمعُ أوّلِ الخلقِ ونهايتِه للوعظِ والإرشادِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾؛ لأنَّ التَّقديرَ: واذكرْ إذ قلنا للملائكة، وأفادَ هذا العطفُ التَّفنُّنَ في

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 727.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 347، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 533، 535.

الوعظ، فكما وُعِظوا بأهوالِ يوم القيامة وآخرِ أيّام الدُّنيا، ذُكِّروا بأوَّلِ أيّامِها، وهو يومُ خلْقِ آدمَ، والغرضُ من هذا الوعظِ: التَّذكيرُ بعواقبِ الهوى والإعراضِ عنِ الصّالحات، وبمهالكِ الكِبْر والغُرور[1].

الغرضُ منَ الحذف في ﴿وَإِذۡ﴾:

إيـرادُ الـقـصَّـةِ يُغني عن ذكْرِ الأمرِ بحكايتِها

حذفَ النَّظمُ الجليل الفعلَ في مُفتتحِ الجملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، والتَّقديرُ: (واذكرْ إذ قلنا للملائكة)[2]، والغرضُ من هذا الحذفِ: الإيجازُ في التَّعبير، فما عُلِم منَ السّياق؛ أغنَى ظهورُ المعنى عن ذكرِه.

الغرضُ مِن إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ:

تعظيمُ القولِ بالأمرِ، تمهيدٌ لبيانِ فظاعةِ الاستكبارِ عنه

أسندَ النَّظمُ الجليل فعْلَ القول إلى ضميرِ الجمعِ الدّالِّ على التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، أي: قلنا ذلك بما لنا منَ العظمةِ[3]، فتعظيمُ الأمرِ بالسُّجود حكايةٌ لفخامة المقام، والمبالغةِ في إيجاب الفعلِ، وفيه تمهيدٌ لبيانِ فظاعة جنايةِ إبليسَ باستكبارِه على الأمر العظيمِ الصّادرِ منَ الإله العظيم.

دلالةُ فعلِ الأمرِ في ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾:

وجوبُ السُّجودِ لعلوِّ رُتبةِ الآمرِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بفعل الأمرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ للدَّلالة على وجوبِ السُّجود؛ وذلك لصدورِه ممَّن تجب طاعته لعلوِّ رُتبته، فالأمرُ الصّادرُ منَ اللّه تعالى دالٌّ على الوجوبِ ما لم تَرِدْ قرينةٌ صارفةٌ له عن ذلك، والمرادُ منَ السُّجودِ هنا التَّحيَّةُ أو الانقيادُ[4].

معنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِأٓدَمَ﴾:

تكريمُ آدمَ بجَعْلِ السُّجودِ لذاتِه

عدّى النَّظمُ الجليلُ فعلَ السُّجود باللّامِ الدّالَّةِ على التَّعليل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 340.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 507.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 75.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 305.

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّكليفَ بالسُّجود إنَّما كان لذاتِ آدم، وهو أصلُ دلالةِ اللّامِ التَّعليليَّة؛ إذا عُلِّقت بفعل السُّجودِ، كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾ [النّجم: 62]، وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ [فصلت: 37][1]، فلمّا كان المرادُ منَ السُّجود تكريمَ آدمَ وتحيَّتَهُ وبيانَ مكانته؛ كان الأمرُ بالسُّجود متعلِّقًا بذاتِه بأمرِ اللّه تعالى.

معنَى الفاءِ في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

المُبادرةُ بامتثالِ الأمـرِ مُقتضَى تمامِ العبوديَّةِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء الدّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾؛ إشارةً إلى سرعة الامتثالِ للأمر، فإنَّ الملائكةَ قد بادروا بالسُّجودِ حالَ صدورِ الأمر منَ اللّه تعالى وبلوغِه لهم، بلا تردُّدٍ أو تأخُّرٍ[2]، وفي بيانِ سرعةِ امتثالِ الملائكة للأمرِ تمهيدٌ لبيانِ مفارقةِ إبليسَ لهم، كما أنَّه يشيرُ إلى أنَّ الأصلَ في طاعة أمرِ اللّه تعالى أن يكون بالمبادرةِ بلا تسويفٍ أو تردُّدٍ.

نوعُ الاستثناءِ ودلالتُه ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

جنسُ إبليسَ مُغايرٌ لجنسِ الملائكةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بالاستثناء المنقطعِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لاستثناء إبليسَ منَ الضَّميرِ العائدِ على الملائكة في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، وإنَّما كان منقطعًا؛ لأنَّ إبليسَ لم يكن من جنسِ الملائكة، بدليل قولِه تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾، ولكنَّ اللّه تعالى قد منَّ عليه بأن جعل أحوالَه كأحوالِ النُّفوس الملكيَّة بتوفيقٍ غلبَ على جبلَّتِه؛ لتتأتّى معاشرتُه بهم، وسيره على سيرتهم، فساغ استثناءُ حالِه من أحوالِهم، في مظنَّةِ أن يكون مماثلًا لمن هو فيهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 422.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 533.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 423.

دَلالةُ الاستئنافِ بقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾:

الإخبارُ بكونه مِنَ الجنِّ يُبيِّنُ علَّةَ امتناعِه عنِ السُّجودِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا تعليليًّا، فكأنَّه سُئِلَ عن علَّةِ امتناعِه عنِ السُّجود التي أفادها استثناؤه منَ السّاجدين، فقيل: ما له لم يسجدْ؟ فقيل: لأنَّه كان منَ الجنِّ، فالجملةُ لبيانِ أنَّ سببَ امتناعه بأنَّه لم يكن منَ الملائكة، بل كان منَ الجنِّ[1]، والعصيانُ واردٌ في شأن الجنِّ دونَ الملائكةِ.

معنَى الفاءِ ودلالتُها ﴿فَفَسَقَ﴾:

علَّةُ الفسقِ كونُه من جنسٍ يَرِدُ عليه العصيانُ

أدخلَ النَّظمُ الجليلُ الفاءَ الدّالَّةَ على السَّببيَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على سبب فسقِه، فإنَّ علَّةَ ما قبلَها سببٌ في حدوث ما بعدَها، أي: إنَّما فسقَ لكونِه مِنَ الجنِّ، والتَّقديرُ: (إلّا إبليسَ امتنعَ ففَسَق)[2]، وفي جعْلِ الجنس علَّةً في الفسق تزكيةٌ للملائكة من إيقاعِ هذا الفسقِ، وفي الفاء هاهنا إشارةٌ إلى سرعة حصولِ الفسقِ من إبليسَ[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿فَفَسَقَ﴾:

عصيانُ إبليسَ مُشبَّهٌ بالخروجِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ

في لفظِ ﴿فَفَسَقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهَ فيها عصيانُ إبليسَ بالخروج الحسّيِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[4].

دَلالةُ حرفِ المجاوزة ﴿عَنْ﴾:

الخروجُ عنِ الأمرِ كلّيَّةً أبلغُ في بيانِ شدَّةِ المعصيةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿عَنْ﴾ الدّالِّ على المجاوزة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه ترك الأمرَ، وابتعدَ عنه[5]، وخرجَ من طاعةِ مولاه، فلم يقل: (عصى أمر ربّه)،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 75، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 346.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 507.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 341.

وآثرَ الفعلَ ﴿فَفَسَقَ﴾ الذي يتعلَّقُ بحرف الجرِّ ﴿عَنۡ﴾؛ للدَّلالة على خروجِه عنِ الطّاعة خروجًا كلّيًا، تهويلًا لشأن معصيتِه وتغليظًا لها.

سرُّ الإضافةِ ﴿أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾:

فخامةُ الأمرِ من فخامةِ مصدرِه

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الأمر إلى الرَّبِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أمرٌ بحيث يجبُ أن يُطاعَ لصدوره عنِ الرَّبِّ المُحسنِ لعباده، إيماءً إلى ما في الأمر من مصلحةٍ؛ لكونِه صادرًا منَ المولى الذي يَعطفُ على عبادِه بالإحسان والرِّعاية، كما أنَّه عبَّرَ بلفظِ الرُّبوبيَّة "المُنافيةِ للفسقِ، لبيانِ كمالِ قُبحِ ما فعلَه"[1].

علَّةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِۦٓۗ﴾:

أشنعُ العصيانِ معصيةُ الرَّبِّ الذي سبقَ منه الإحسانُ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ العائدِ على إبليسَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد عصَى أمرَ سيِّده ومالكه، المُحسنِ إليه بإبداعه، وغيرِ ذلك منِ اصطناعه[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى قبيح ما قام به، وفظاعةِ معصيتِه؛ إذ إنَّه قد عصَى أمرَ ربِّه الذي أحسنَ إليه، وهذا أشنعُ عصيانٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾:

أمرُ الله تعالى مَقرٌّ آمِنٌ، مَنْ يخرجْ عنه؛ فهو فاسقٌ

في لفظِ ﴿أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ من قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شُبِّهَ فيها ﴿أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ بالمَقرِّ الآمِن، وحُذفَ المُشبَّه به، ورُمِزَ له بلازم مِن لوازمه، وهو الفسقُ بمعنى الخروجِ؛ فزاد قولُه: ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ هذا الخروجَ قُبحًا وشناعةً[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 227.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 76.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.

الغرَضُ من أسلوبِ الاستفهامِ في ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾:

مِنَ العجبِ أن يُتَّخَذ العدوُّ وليًّا بدلًا عن المولى الرَّحيمِ والرَّبِّ الكريمِ

افتتحَ النَّظمُ الجليل الجملةَ بالاستفهام المجازيِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يغيبُ عنه العِلْمُ بالأشياء والعِلل، والغرضُ مِنَ الاستفهام إنَّما هو التَّوبيخُ والإنكارُ والتَّعجُّبُ؛ لأنَّه أدلُّ على تناهي الغضبِ، وأوجع في التَّبكيتِ[1]، أي: "أبعدَ ما ظهرَ منه مِنَ الفسقِ والعصيانِ تتَّخذونه وذرّيَّتَه أولياءَ من دوني، مع ثبوت عداوتِه لكم تتَّخذونَه وليًّا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾:

تجديدُ ولايةِ إبليسَ دليلُ غُلوِّهم بالكفرِ والعصيانِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ المضارع الدّالِّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم يتَّخذونَه وليًّا اتِّخاذًا دائمًا متجدِّدًا، وهذا يدلُّ على إخلاصِهم بعبوديَّتِهم لمعبودهم، وإيقاعِها على الدَّوام والاستمرارِ، وهذا يُفصِحُ عن شدَّةِ إصرارِهم على طاعتِه واتِّخاذِه وليًّا، فهُم لا يفارقون تلك الولايةَ، ولا ينْفكّون عنها مهما مرَّ الزَّمانُ.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾:

للباطلِ امتدادٌ، وللمُجرمين إصرارٌ على الاتِّباعِ

عطفَ النَّظمُ الجليل ذرّيَّةَ إبليسَ على المفعول به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾، أي: أفتتَّخذونَ إبليسَ، وتتَّخذون ذرّيَّتَه أولياءَ من دوني، فالمرادُ بالذُّرّيَّة الأتْباعُ[3]، وذلك للدَّلالة على أنَّ لإبليس أتباعًا يتَّبعونَه، وهذا يُشير أنَّ للباطل حزبًا وجماعةً تعملُ لنصرته، وهذا العطفُ يكشفُ أنَّ دعوةَ الباطلِ لا تتمثَّلُ في شخص إبليسَ فحسب، بل إنَّ للباطلِ امتدادًا واستمرارًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 76.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 190.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 347.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾:

تشنيعُ أتباعِ إبليسَ بانتسابِهم إليه

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ الذُّرّيَّة إلى الضَّميرِ العائدِ على إبليسَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ ذمًّا لتلك الذُّرّيَّةِ وتشنيعًا عليها؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على انتسابِ هؤلاء الأتباعِ إلى إبليسَ انتسابًا كانتساب الذُّرّيَّةِ لا ينفكُّ، فهم مُنتسبون إلى صاحب المعصيةِ الكُبرى الأولى، وإنَّما لحقَهمُ الذَّمُّ؛ لأنَّ المضافَ يكتسبُ منَ المضاف إليه الذَّمَّ أوِ المدحَ، على حسب نوعِ المضافِ إليه.

دَلالةُ تنكيرِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ **والتَّعبيرِ عنها بالجمع:**

كثرةُ الأصنامِ والآلهةِ المُهانةِ مُشاهدةٌ في الواقعِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ الأولياء بصيغة الجمع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أولياءُ كثيرون، وهذا يُطابق الواقعَ، فهو يشيرُ إلى كثرة الآلهةِ الَّتي اتَّخذها المشركون من دون اللّه تعالى، كما أشار التَّنكيرُ إلى تهوين شأنهم وتحقيرِهم، فهم ليسوا الأولياءَ الجديرين بالاتِّباع، بل هم أولياءُ اتُّخِذوا للولاية بلا استحقاقٍ.

سِرُّ تقييدِ الاتِّخاذِ بقوله: ﴿مِن دُونِي﴾:

عِلْمُ المشركين بتَدنّي كلِّ شيءٍ عن رُتبةِ الله تعالى دليلُ ضلالِ شركِهم

قَيَّدَ النَّظمُ الجليل الأولياءَ بشبه الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾؛ للدَّلالة على دونيَّة مرتبةِ أولئك الأولياء، وأنَّهم قاصرون عن رُتبة الولايةِ والإلَهيَّةِ، أي: تتَّخذونَهم أولياءَ تعبدونَهم، وهم مُباعدون لي[1]، فأفاد القيدُ المبالغةَ في ذمِّهم لاتِّخاذِهم أولياءَ مُتدنّين عن مقامِ الإلَهيَّة، وهم يعرفون الإلهَ الحقَّ الجديرَ بالعبادة.

سِرُّ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾:

قَيَّدَ النَّظمُ الجليل الاتِّخاذَ بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّةِ على الحال في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

اتّخاذُ العدوِّ وليًّا ضلالٌ لا يفعلُه العاقلُ الحصيفُ

﴿عَدُوٌّۚ﴾، أي: تتَّخذونَهم أولياءَ في حالة عدائِهم لكم، وأفاد هذا التَّقييدُ تأكيدَ الإنكارِ عنِ الاتِّخاذ والتَّغليظِ فيه، فإنَّ مضمونَ الجملة دالٌّ على منع وقوعِ الاتِّخاذ؛ لأنَّ العداءَ منافٍ للولاية[1]، فإنَّ اتِّخاذَ الوليِّ في حالة كونِه عدوًّا يُثيرُ الاستنكارَ الشَّديدَ، ومبعثُه مع إبليسَ: عصيانُه لربِّه، وعداوتُه لبني آدم، وهاتان الخِسَّتان منشأُ الإنكارِ[2].

الغرضُ من تقديمِ المجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾ على الخبرِ ﴿عَدُوٌّۚ﴾:

خصَّ إبليسُ وأتباعُه النّاسَ بالعَداءِ

قدَّم النَّظمُ الجليل شبْهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوٌّۚ﴾، وأصلُ التَّركيب: (وهم عدوٌّ لكم)؛ وإنَّما قدَّمَ شبْهَ الجملة لإفادة معنَى التَّخصيص، وذلك للمبالغة في شأن عدائِهم، أي: إنَّهم خَصّوكم بهذا العَداءِ، فحشَدوا كلَّ العداء المكنِ عليكم، وتفرَّغوا من كلِّ شيء إلّا مِنَ العَداءِ لكم.

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾:

الذَّمُّ يتَّجهُ للاتِّخاذِ والمتَّخَذِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ مستأنفةٌ، والغرضُ منَ الاستئناف إنشاءُ الذَّمِّ لإبليسَ وذرِّيَّته؛ لاتِّخاذهم أولياءَ من قِبَل المشركين، والمعنى: بئسَ البدلُ للمشركين الشَّيطانُ وذرِّيتُه[3]، فالاستئنافُ جيءَ به لإنشاء الذَّمِّ، ليكونَ ذلك نصًّا على سوء البدلِ المُتَّخَذِ منَ المشركين، لا على الاتِّخاذِ فحسبُ.

الغرضُ مِنَ الخَتْمِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

التَّعقيبُ بأسلوبِ الذَّمِّ يؤكِّدُ الذَّمَّ والإنكارَ على اتِّخاذِ إبليسَ وليًّا

عقَّب النَّظمُ الجليل بأسلوب الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾؛ إذ لمّا كان اتِّخاذُ العدوِّ وليًّا أجدرَ شيءٍ بالذَّمِّ؛ عقَّب عليه بهذه الجملة[4]، ولينصَّ على ذمِّ البدلِ المُتَّخَذِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

منَ المشركين، لا على الاتِّخاذ وحدَه، فهو مبالغةٌ في الذَّمِّ، فاتِّخاذُ وليٍّ مِن دون اللّه تعالى مذمومٌ، وكونُ الوليِّ المُتَّخَذِ هو العدوُّ الأكبرُ للنّاس؛ فإنَّه سيكون مذمومًا أشدَّ الذَّمِّ؛ فلذا جيء بالذَّمِّ بعد الإنكارِ على الاتِّخاذ والتَّوبيخِ عليه، وبعد بيانِ الحال ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ المُفصِحةِ عن شدَّة الضَّلالِ والبلاهةِ التي كان عليها المشركون؛ إذِ اتَّخذوا إبليسَ وذرّيَّتَه أولياءَ من دونِ اللّه تعالى، فكان المَجيءُ بهذا الأسلوب لتأكيدِ ذلك الذَّمِّ والتَّوبيخِ والإنكارِ.

الغرَضُ منَ التَّعبير بالإظهارِ دون الإضمارِ:

استحقاق الذَّمِّ للاتِّصافِ بالظُّلمِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الظّاهرِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ دون المُضمَرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾، فلم يقل: (بئس لكم بدلًا)؛ وذلك لتعليق الذَّمِّ بالوصفِ، وللتَّشهير بالمُخاطَبين لنسبتِهم إلى الظُّلم، ليكونَ الذَّمُّ لهم بهذه الصِّفة، وللإشارة إلى قُبحِ ما فعلوه لكونِه ظُلمًا ظاهرًا[1].

سِرُّ توسيطِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بين فعل الذَّمِّ وتمييزه:

الظُّلمُ أصلُ المَذمَّةِ، ومنشأُ السّوءِ

توسُّطُ الجارِّ والمجرور ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ بين فعلِ الذَّمِّ ﴿بِئۡسَ﴾، وبين تمييزه ﴿بَدَلٗا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الظُّلمَ هو منشأُ الذَّمِّ، ومبعثُ السّوء، وسبيلُ كلِّ مثلبةٍ[2].

بَلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

إسنادُ الذَّمِّ لصفةِ الظُّلمِ النّاتجِ عنِ الاتِّخاذ يَعمُّ مَن فعلهُ مُطلقًا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم الظّاهرِ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الدّالِّ على الغَيبةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾، دون الإضمارِ والجري على نسقِ الخطاب في الجملةِ السّابقةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾، التي تقتضي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 249.

أن يكونَ التَّعبيرُ: (بئس لكم بدلًا)؛ وذلك لتعميمِ الحُكم[1]، فليس الذَّمُّ متَّجهًا للمخاطَبين فحسبُ، بل هو استحقاقٌ لكلِّ مَنِ اتَّخذ إبليسَ وليًّا في كلِّ زمان.

فائدةُ التَّعبير بالتَّمييزِ ﴿بَدَلَا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالتَّمييز ﴿بَدَلَا﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلَا﴾؛ لتفسيرِ الفاعلِ المُضمر، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، أي: بئس البدلُ إبليسُ وذرّيتُه[2]، فأفاد التَّمييزُ الاستغناءَ عنِ المخصوص بالذَّمِّ، والتَّنبيهَ على أنَّ الذَّمَّ كائنٌ لوقوع الاستبدالِ، فالمجيءُ بالتَّمييز فيه بلاغةٌ للإيجاز في التَّعبيرِ.

التَّمييزُ طريقٌ للإيجازِ في التَّعبيرِ، إذ يُفسِّرُ المحذوفَ ويُبيِّنُ وجهَ الذَّمِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 508.

﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: 51]

إقامةُ الدَّليلِ على عظيمِ الظُّلمِ المُتحقِّقِ بالشِّركِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ النَّظمُ الجليل فِسقَ إبليسَ، ووبَّخ مَن يتَّخذُه وأتباعَه – مع عداوته – وليًّا من دون الله تعالى، يعبدونَه، ويطيعونَه ظُلمًا وكُفرًا؛ بيَّن أنَّهم لا يستحقّون تلك العبادةَ بحالٍ منَ الأحوال، فساقَ ما يدلُّ على كمال قُدرتِه وعجزِ إبليسَ وأتباعِه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ تعليلًا للذَّمِّ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ للدَّلالة على حقارتِهم ودُنوِّهم عن مقام الإلهيَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ[2]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المُشاهَدَة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقوله تعالى: ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ [النّمل: 49]، أي: ما حضرنا، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: 72]، أي: لا يحضرونَه بنفوسِهم ولا بهمِّهم وإرادتِهم، وقولُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الكهف: 51]، أي: ما جعلتُهم ممَّن اطَّلعوا ببصيرتِهم على خلقِها[3]، والمشاهدة: المعاينةُ، وشهده شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ[4]، والمرادُ به في الآية الكريمة: نفيُ كونِهم حاضرين لمشاهدة الخَلْقِ والمشاركةِ فيه، أوِ الإعانة عليه[5].

2) ﴿عَضُدٗا﴾: (عضد) أَصْلٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ مِنَ الأَعْضاءِ؛

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 535.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).

(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

يُسْتَعارُ في مَوْضِعِ القوَّةِ والمُعينِ[1]، والعَضُد: ما بين المِرفقِ إلى الكتف، ويقال: عَضَدْتُهُ: أخذتُ عَضُدَه وقوّيتُه، ويُستعارُ العَضُدُ للمُعين كاليد، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[2]، وعَضَدْتُه أَعْضُدُه بالضَّمِّ: أَعَنْتُه، واعْتَضَدْتُ بفلان، أي: استعنتُ به[3]، والعَضُدُ: القوَّةُ؛ لأَنَّ الإنسان إنَّما يَقْوى بعَضُدِه، فسُمّيَت القوَّةُ به، وقولُه تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: 35]، أَي: سَنُعينُك بأَخيك، وكُلُّ مُعين، فهو عَضُدٌ، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، عَضُدُ الرجلِ: أَنصارُه وأَعوانُه، والاعْتِضادُ: التَّقَوّي والاسْتِعانَةُ، وفُلانٌ يَعْضُدُ فُلانًا، أي: يُعينُه[4]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: أعوانًا في الخَلْقِ أو في شأنٍ من شؤوني[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يليقُ بالكمال الإلهيِّ اتِّخاذُ أهلِ الزَّيغِ أعوانًا

يُخبرُ اللّه تعالى بأنَّه لم يُشْهِد إبليسَ ولا ذرّيَّتَهُ خَلْقَ السَّماواتِ والأرض، ولا استعان بهم على خلقِهما، فلا يليقُ بالكمالِ الإلهيِّ أنْ يتَّخذَ أهلَ الإضلال أعوانًا، فيُشْرِكهم في الإنشاء، ولا أن يُشْهِد بعضهم على خَلْق بعضٍ، ولا أن يتَّخذَ المُضلّين مِنَ الشياطين وغيرِهم أعوانًا[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الموقعُ البيانيُّ للجملةِ في صدرِ الآية:

الاستدلالُ بالخلقِ على استحقاقِ العبادةِ نفيًا وإثباتًا

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ استئنافيَّةٌ جيءَ بها لبيانِ كمالِ علمِه وقدرته وتفرُّدِه بالخَلْق، وهو استئنافٌ تعليليٌّ مسوقٌ لبيانِ عدمِ استحقاقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضد).
(2) الرّاغب، المفردات: (عضد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (عضد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عضد).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 344، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 299.

إبليسَ وذريَّتِه الاتِّخاذَ المَذكورَ؛ فإنَّهم لمّا لم يكونوا حاضرين خَلْقَ السّماوات والأرض، فإنَّ ذلك يَعني أنَّهم ليسوا شركاءَ للّه تعالى في الخَلْقِ، وهذا يَدلُّ على انتفاءِ استحقاقِهم العبادةَ[1].

الغرضُ من نفيِ الإشهادِ في خلْقِ السَّماوات:

انتفاءُ المشاركةِ في الخَلْقِ أبلغُ دليلٍ على انتفاءِ استحقاقِ العبادةِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بنفيِ إشهادِ إبليسَ وذرِّيَّته خلْقَ السَّماوات والأرض في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على عدم حضورِهم ذلك الحدثَ العظيمَ، أي: ما أحضَرْتُهم[2]، والمرادُ به الكنايةُ عن إحضارٍ خاصٍّ، وهو الإحضارُ لأجل المشاركةِ والمعاونةِ في الخَلْق، فلمّا نفَى الشُّهودَ؛ اقتضى ذلك نفيَ الحضور، ومن ثَمَّ نفْيَ المشاركةِ في الخَلْق، فانتفتْ عنهم صفةُ الإلَهيَّةِ بالأَوْلى؛ إذ إنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرض سابقٌ على خلقِهم ووجودِهم، فالمرادُ من هذا الاستدلالِ نفيُ استحقاق الولايةِ والعبادةِ والإلَهيَّةِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

المُتفرِّدُ بالخَلْقِ هو الجديرُ بالعبادةِ حصْرًا

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ ﴿خَلۡقَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ للاستدلال به على انتفاءِ صفةِ الولايةِ عنهم، فالتَّعبيرُ بخلق السَّماوات والأرض يدلُّ على تفرُّدِ اللّه تعالى بالخَلْق والقدرةِ[4]، وهذه مُحاجَّةٌ للمشركين بأنَّ الإله والوليَّ الحقَّ هو الذي خلق الوجودَ مُتفرِّدًا، فأنّى يكونُ له شريكٌ؟ تعالى اللّه عمّا يَصِفون، وقد أضاف لفظَ الخلقِ إلى السَّماوات تأكيدًا لقوَّة الاستدلالِ؛ لأنَّ السَّماواتِ أعظمُ المخلوقاتِ، فأفاد ذلك قطعَ كلِّ جدالٍ، وذلك بإيرادِ ما لا يمكنُ دفعُه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 342 - 343.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 536.

والاعتراضُ عليه، فإنَّهم لا يجادلون في كوْنِ اللّه تعالى هو خالقَ السَّماوات والأرض على وجه التَّفرُّد، فالاستدلالُ بالخلق المضافِ إليهما هو غايةُ الاستدلال وأقواهُ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ذِكْرُ الأرضِ بعدَ السَّماواتِ تأكيدٌ للاستدلالِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الأرضَ على السَّماوات في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ تفخيمًا لشأن الأرض، إذ هي موطنُ الإنسان، فعَطْفُها على السَّماوات أشركَها في الاستدلال على تفرُّدِه تعالى بالخلقِ، بإيراد أعظمِ المخلوقات، ممّا يَنفي عنِ الشُّركاء الصِّفةَ التي تستوجبُ العبادةَ.

دلالةُ عطفِ خلقِ الأنفسِ على خلق السَّماواتِ والأرض:

انتفاءُ قُدرتِهم على الخلقِ، وإثباتُ كونِهم مخلوقين، دحضٌ لمزاعمِ المُشركين

عطفَ النَّظمُ الجليل الخَلْقَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ على الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إيغالًا في الاستدلالِ على انتفاءِ استحقاقِهمُ الولايةَ والعبادةَ مِن دون اللّه تعالى، فلمّا نفَى إشهادَهم خلْقَ السّماوات والأرض للدَّلالة على تفرُّدِ اللّه تعالى بخلْقِهما؛ عطفَ على ذلك انتفاءَ إشهادِهم خلْقَ أنفسِهم؛ تأكيدًا لانتفاء استحقاقِ الولايةِ عنهم، فهو يشيرُ إلى أنَّهم مخلوقون، فهم مثلُكم - أيُّها المُشركون - مخلوقون، كما أنتم مخلوقون، ولا يصحُّ في حُكم العقلاءِ أن يكون المخلوقُ شريكًا لخالقه أصلًا[1]، ولا أن يكونَ المخلوقُ عابدًا لمخلوقٍ مثله.

نُكْتةُ التَّرتيبِ في ذكرِ المخلوقاتِ:

مِن حُسْنِ إيرادِ الأشياءِ ترتيبُها وفْقَ نسقٍ كالأسبقيَّةِ

رتَّبَ النَّظمُ الجليلُ ذِكْرَ المخلوقاتِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾، فبدأ بخلْقِ السَّماوات والأرض، وخلقُهما سابق على خلق النّاس، فرتَّبَهما

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

بحسب رُتبةِ الخلْقِ بزمن الإيجادِ، فبدأ بالمخلوق أوّلًا، وختمَ بالمخلوق مُتأخِّرًا منَ المذكوراتِ[1].

تفرُّدُ اللّه تعالى بالخَلْقِ لا يُحوِجُه إلى مُعينٍ

دلالةُ عطفِ الجملة:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ مضمونِ الجملةِ الأولى منَ الدَّلالة على تفرُّدِ اللّه تعالى بالخلْقِ والقُدرةِ والعِلْم[3]، فلم يُشهدْهم اللّه تعالى الخلْقَ الأوّلَ، فخَلَقَه وحدَه تعالى، ولم يكن مُحتاجًا لمُعينٍ، فلمّا نفىَ إحضارَهم؛ نفَى الحاجةَ إليهم.

انتفاءُ الحاجةِ للمُعين أزليٌّ أبديٌّ

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ نفْيِ فعلِ الكوْنِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأسلوبِ نفْيِ الكوْنِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ دون أن يقول: (وما اتّخذتهم عضدًا)؛ للدَّلالة على تأكيدِ النَّفي، وكوْنِ المنفيِّ - وهو اتِّخاذُهم أعوانًا - لم يكن موجودًا في الأزلِ والأبدِ[4]، فاللّه تعالى لكمالِ قُدرته ليس بحاجةٍ لمُعينٍ في الخَلْق أو في شأن مِن شؤونِه تعالى، فانتفى الاتِّخاذُ انتفاءً منَ الأصل.

لا يُستعانُ بالمُضلِّ، ولا يُؤسَفُ على إعراضِ أحدٍ عن الإيمانِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالمفعولِ به مضافًا إلى المُضلّين:

أضاف النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿مُتَّخِذَ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ للدَّلالة على أنَّ المُضلَّ لا يُستعانُ به؛ لأنَّه مع عدم نفعِه يَضرُّ، وفي ذلك إرشادٌ للنّاس بالامتناعِ عنِ الاستعانة بالمُضلّين وأتباعِهم، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّه لا ينبغي أن يُؤسَفَ على فوات إسلامِ أحدٍ؛ وذلك لأنَّ اللّه تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 229.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 206.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 536.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77.

قد هدى مَن عَلِمَ فيه خيرًا، ومَن لم يهتدِ؛ فهو مضلٌّ لا نفعَ فيه لنصرة الدّين[1].

الغرَضُ من وضْعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ:

مـن اتَّـصـف بالضَّلال لا تصحُّ الاستعانةُ به

وضعَ النَّظمُ الجليلُ الاسمَ الظّاهرَ ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ بدلَ الضَّميرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾، فلم يقل: (وما كنت متَّخذهم عضدًا)؛ وذلك لبيانِ وصفِهم الحقيقيِّ[2]، ولذمِّهم بهذا الوصفِ، فإنَّه سجَّلَ عليهم صفةَ الضَّلال، إرشادًا للنّاس للانصرافِ عنهم، وتنبيهًا على أنَّ مَنِ اتَّصف بالضَّلال لا تصحُّ الاستعانةُ به، وإظهارُ الصِّفةِ يؤكِّدُ إنكارَ اتِّخاذهم أولياءَ في سابق الذِّكر في قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ بالتَّعبيرِ بالعضُد:

تـشـبـيـهُ المُـعـين بـالـعَـضُـدِ بجامعِ الإسنادِ والمعاونةِ

استعارَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ العَضُدِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ للدَّلالةِ على المُعين؛ إذ شبَّه المُعينَ بالعَضُد بجامعِ الإسنادِ والمعاونةِ، أي: ما اتَّخذتُ المُضلّين مُعينًا كما يُعينُ العَضُدُ اليدَ، فالعضُد اسمٌ جامدٌ استُعملَ للدَّلالة على الوصفِ[4]، والاستعارةُ أصليَّةٌ تصريحيَّةٌ؛ لأنَّ المشبَّهَ به مصرَّحٌ به، وهو اسمٌ جامدٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 77 - 78.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4544.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ٥٢﴾ [الكهف: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ضلالُ المُشركين في الدُّنيا تَعقبُه خيبةُ الخُذلانِ في الآخرة

بعد أن ذمَّ اللّهُ تعالى اتِّخاذَ إبليسَ وذريَّته أولياءَ من دون اللّه، وبيَّن انتفاءَ استحقاقِهم لصفة الإلَهيَّةِ بنفيِ اتِّخاذِهم عَضُدًا ومُعينًا في خلقِ السَّماوات والأرض؛ ذكرَ في هذه الآية الكريمةِ ما يُخاطَبُ به المشركون يومَ القيامة تقريعًا لهم وتوبيخًا على رؤوس الأشهاد[1]، فبعدَ ذكْرِ الشُّركاءِ أعقبتِ السّورةُ ذلك بذِكْرِ مشهدٍ من مشاهدِ يوم القيامة، يُكشَفُ فيه عن سوءِ المصيرِ الذي ينتظرُ المُشركين وأولياءَهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّوْبِقًا﴾: يُقالُ لكُلِّ شَيْءٍ حالَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ: مَوْبِقٌ[3]، ووَبق يَبِقُ وبوقًا: هلك، والمَوْبِقُ مَفْعِلٌ منه[4]، يُقالُ: أَوْبَقَتْ فُلانًا ذنوبُه، أَيْ: أَهْلَكَتْهُ، وقَوْلُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، أي: جَعَلْنا تَواصُلَهُم في الدُّنْيا مَوْبِقًا، أَيْ: مَهْلِكًا لَهُم في الآخِرَةِ، ومَوْبِقًا: حاجِزًا؛ وكُلُّ حاجِزٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فهو مَوْبِق[5]، وفُسِّر لفظ ﴿مَّوْبِقًا﴾ بمعانٍ أُخر، منها: العداوةُ التي هي في شدَّتِها هلاكٌ، ومنها: البينُ: الوصلُ أوِ المواصلةُ، أي: جعلنا مواصلتَهم في الدُّنيا هلاكًا في يوم القيامةِ، ومنها: البرزخُ البعيدُ، الذي يَهلكُ فيه السّاري لفرْطِ بُعْدِه[6]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ المَصدرُ، أي: هلاكًا، أوِ اسمُ المكان، أي: موضعُ هلاكٍ[7]،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 163.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وبق).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (وبق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وبق).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 728، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 474.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 79.

وهي جهنَّمُ، أي: جعلَ اللّه تعالى بين مكانِهم ومكانِ أصنامِهم فوّهاتِ جهنَّمَ[1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

فضْحُ الشُّركاءِ بإظهارِ ضعفِهم عنِ الإجابةِ والإغاثة

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا له: اذكُرْ - أيُّها الرَّسولُ - يومَ الجمعِ حين يقول اللّهُ تعالى للكافرين على سبيل التَّأنيبِ والزَّجر: نادوا الذين اتَّخذتُموهم أولياءَ في الحياةِ الدُّنيا من دوني، وزعمتُم جهلًا منكم أنَّهم شركائي، وأنَّهم ينفعونكم، ويَشفعون لكم في هذا الموقفِ العصيبِ، ادْعوهم ليَشفعوا لكم، ويُنقذوكم ممّا أنتم فيه، فدَعَوهم طلبًا للنَّجاة فلم يُغيثوهم، ولم يَجدوا منهم أدنى استجابةٍ، فضلًا عنِ النَّفعِ والعَونِ، وقد جعلنا بين المشركين وشركائِهم موضعًا للهلاك، وهو النّارُ تأكيدًا لانتفاء بلوغِ دعوتِهم، وحسْمًا لأطماعِهم مِن تحقُّقِ الشَّفاعة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَيَوۡمَ﴾:

ألوهيَّةُ جميعِ الأصنامِ باطلةٌ، كما بطلتْ عبوديَّةُ إبليسَ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، بتقدير: اذكُرْ، أي: واذكُرْ يومَ يقولُ: نادوا شركائي، أو هي معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والتَّقديرُ: (ما أشهدتُ شركاءَهم جميعًا، ولا تنفعُهم عبوديَّتُهم لشركائهم يومَ الحشر)، فهو انتقالٌ من إبطال عبادةِ إبليسَ وذُرّيَّته إلى إبطال إلَهيَّةِ جميعِ الآلهة، وبيانِ ما يَعتريهم منَ الخيبة واليأسِ يومئذٍ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 164، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 344.

بَلاغةُ الحذْفِ في ﴿وَيَوۡمَ﴾:

إيرادُ يومِ البعثِ يُرادُ منه التَّذكيرُ والوعظُ به

حذفَ النَّظمُ الجليلُ الفعلَ المتعلِّقَ بالظَّرفِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾، والتَّقديرُ: (اذكُرْ يومَ يقول الله ﷻ للمشركين توبيخًا لهم وتقريعًا: نادوا شركائي)[1]، ودَلَّ تقديرُ المحذوفِ على أنَّ التَّذكيرَ بهذا اليوم هو المقصودُ بإيراده، وإنَّما حُذِف اكتفاءً بظهورِ المعنى منَ السّياقِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَقُولُ﴾:

التَّأنيبُ بدعوةِ ما لا ينفعُ يقالُ لكلِّ أحدٍ منَ المُجرمين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ القولِ بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّدِ والدَّوام، مع صلاحِه للدَّلالة على الزَّمن الحاضرِ والمستقبلِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك القولَ حدثٌ مستقبليٌّ، كما أنَّه قولٌ متجدِّدٌ يقالُ على وجه التَّكرارِ لكلِّ قومٍ أشركوا بالله تعالى، فالتَّعبيرُ بالمضارع هو الصّالحُ لذلك البيانِ.

تَوجيهُ قراءةِ ﴿نَقُولُ﴾:

عِظَمُ المَقولِ من عَظَمةِ القائلِ

قرأ حمزةُ: ﴿نَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ بالنّون عطفًا على قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، وقرأ الباقون بالياء[2]، ولا يخفَى ما في صيغة التَّعظيمِ من تفخيمٍ للقول يناسبُ جلالَ القائلِ، وعِظَمَ المَقول، وعُلوَّ حجّيَّتِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿نَادُواْ﴾:

تبكيتُ المُشركين بطلبِ الإغاثةِ ممَّن لا يَقدرُ عليها

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بفعل النِّداءِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾، والمرادُ به الاستغاثةُ والدُّعاءُ، أي: استغيثوا بشركائِكم؛ لأنَّ مطلقَ النِّداء ليس مفيدًا ما لم يقترِنْ به الطَّلبُ والسُّؤالُ، والمرادُ أن يطلبوا منهم دفْعَ العذاب عنهم

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 347.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 311، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 474.

أو الشَّفاعةَ لهم[1]، وطلبُ ذلك منهم تبكيتٌ وإظهارٌ لفضيحتِهم بعبادتِهم ما لا ينفعُ ولا يضرُّ.

سِرُّ إضافةِ الشُّركاءِ إلى ضميرِ الجلالةِ:

توبيخُ المشركين بـإشـراكِ العاجزين بشأنِ الألوهيَّةِ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الشُّركاء إلى ضميرِ المتكلِّم العائدِ على اللّه تعالى في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾، وهي إضافةٌ ليست حقيقيَّةً؛ إذ ليس للّه تعالى شركاءُ، وإنَّما أضافَهمُ اللّه تعالى لنفسه جريًا على اعتقادِ المشركين بهم، فالمرادُ التَّهكُّمُ بهم، وتوبيخُهم[2]؛ لأنَّهم جعلوا الضَّعيفَ العاجزَ شريكًا للّه تعالى بالعبادة، فليس المرادُ أنَّ اللّه تعالى يُخبرُ أنَّهم شُركاؤه، ولكنْ ذلك على زعمهم[3]، ومسايرةٌ لهذا الزَّعم[4].

الغرضُ من وصفِ الشُّركاء بالموصولِ وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾:

تقييدُ الشُّركاءِ بالزَّعمِ في حيّزِ الصِّلةِ يَنفي الإقرارَ بكونِهم شركاءَ

وصفَ النَّظمُ الجليل الشُّركاءَ بالاسم الموصولِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ تقييدًا للشُّركاءِ بما في حيّزِ الصِّلةِ، وأفاد هذا القيدُ أنَّ الشُّركاءَ ليس إخبارًا منَ اللّه تعالى، بل إنَّما أطلقَ عليهم شركاءَ باعتبار زعْمِ المشركين، والتَّقديرُ: (زعمتُموهم شُركائي)[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (زعم):

الزَّعمُ تصريحٌ بكونِ مُعتقدِهم باطلًا منسوبًا للكذب

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الزَّعم في صلة الموصولِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الشُّركاءَ إنَّما كانوا شركاءَ بزعْمِ المُشركين ومعتقَدِهم، لا بواقعِ الحالِ والحقيقةِ، فلمّا وصفَهم بالشُّركاء نزولًا عند زعْمِهم؛ أعقبَه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 191.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 78، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 348.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 191.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 228، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 537.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 191.

بما يدلُّ على كذبهم في ذلك بالتَّعبير بفعل الزَّعمِ، الذي يدلُّ على أنَّ معتقدَهم باطلٌ[1].

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾:

قُطِّعت بهمُ السُّبلُ حتّى ظنّوا التَّهكُّمَ إباحةً، فبادَروا بالدُّعاءِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطفَ بالفاء الدّالَّة على التَّعقيب في قوله جلَّ شأنُه: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على سرعة استجابتِهم للدُّعاءِ، طمعًا منهم في الإجابة، فلمّا نادوهم؛ تبيَّن لهم خيبةُ طمعهم[2]، وسرعةُ مبادرتِهم بالدُّعاء تدلُّ على أنَّهم ظنّوا أنَّ اللّه تعالى قد منحَهمُ الإذنَ للحصول على النَّفع من شركائِهم، فبادَروا بالدُّعاءِ أملًا بالحصولِ على بُغيتِهم.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَمۡ﴾:

إجابةُ المُضطرِّ تَقتضي السُّرعةَ، وعدمُ وقوعِها يحقِّقُ الانتفاءَ عاجلًا

عطفَ النَّظمُ الجليلُ انتفاءَ الاستجابةِ لدعائِهم بالفاء الدّالَّة على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم علموا انتفاءَ الاستجابةِ بلا تَوانٍ، وأنَّ خيبتَهم لم تتأخَّرْ عن دعائِهم، وذلك أنَّ الملهوفَ الواقعَ في شدَّةٍ شديدُ التَّوقان للإجابةِ، ولمّا لم تتحقَّقْ؛ عبَّرَ عنها بالفاءِ نفيًا لحدوثِها عاجلًا، على ما يَقتضيه حالُ الدّاعي.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المَنفيّ بِ(لم):

استجابةُ الشُّركاءِ منفيَّةٌ نفيًا قاطعًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ المَنفيِّ بـ(لم) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الاستجابةِ عنهم انتفاءً قاطعًا، وذلك جاء "إعراضًا عنهم، واستهانةً بهم، واشتغالًا بأنفسِهم، فضلًا عن أن يُعينوهم"[3]، ودخولُ (لم) على الفعل المضارع يقلبُ الزَّمانَ إلى ماضٍ، فيكونُ المعنى: أنَّهم ما استَجابوا لهم، فالنَّفيُ بـ (لم) يدلُّ على النَّفيِ القاطعِ؛ لأنَّه يَنفي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 78.

تجدُّدَ وقوعِه في الزَّمن الماضي، أي: لم تقعْ منهمُ الاستجابةُ بعد وقوعِ الدُّعاءِ.

معنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لَهُمۡ﴾:

انـتـفـتِ الاستجابةُ نفيًا قـاطـعًـا، حتّى كـأنَّـهـم خُـصّـوا بالنَّفيِ

علَّق النَّظمُ الجليلُ فعلَ الاستجابةِ المَنفيَّ باللّام الجارَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ انتفاءَ الاستجابةِ وقعَ عليهم، وليس معناه أنَّهم يَستجيبون لغيرهم، بل هو تأكيدٌ لتعلُّقِ الفعل المنفيِّ بهم، فأخرجَه مخرجَ التَّخصيصِ للمبالغةِ في انتفاءِ وجودِ الاستجابةِ.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

اجـتـمـاعُ نـفـيِ الاستجابةِ مع بـروزِ الـحـائـلِ بينهم تـهـويـلٌ لشدَّةِ الموقفِ

صدَّر النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو الدّالَّةِ على الحالِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، أي: وقد جعلنا بينَهم مَوبقًا[1]، وأفادَ المجيءُ بهذا الحالِ هنا التَّمهيدَ لذكْرِ جهنَّمَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[2]، أي: إنَّ عدمَ الاستجابةِ كان في حالةٍ جعَل المَوبقَ بينهم، فيشيرُ الحالُ إلى شدَّةِ الموقف الذي هم فيه؛ إذ يَرون النّارَ وقدِ انقطعَ رجاؤهم باستجابةِ أوليائِهم.

الغرضُ من تقديمِ الظَّرفِ ﴿بَيۡنَهُم﴾ على المفعول به:

لمّا عظُمتْ ثقتُهم بـأولـيـائِـهـم؛ عـجَّـلَ بـذكْـرِ التَّفريقِ بينهم

قدَّمَ النَّظمُ الجليل شبْهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور على المفعولِ به في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾؛ لأنَّهم كانوا يَستبْعِدون أنْ يُحالَ بينهم وبين شركائِهم، فقدَّمَ ذكْرَ الظَّرفِ الدّالِّ على الفاصلِ بينهم[3]، كما أنَّ التَّقديمَ يدلُّ على أنَّ المقصودَ بهذا المَوبِقِ هم أنفسُهم، فقدَّم ذكرَهم اهتمامًا

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 78.

بهم، فهمُ المقصودون بجعل هذا المَوبق حائلًا، فتقديمُ المقصودِ بالحُكم على الحُكمِ نفسِه يشيرُ إلى قوَّة الاستحقاق، وشدَّةِ الاهتمامِ بإيقاع الحُكمِ عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مَّوۡبِقٗا﴾:

مكانُ الهلاكِ العظيمِ فصلٌ بينَ المُشركين وشُركائِهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ (مفعِل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، التي تحتملُ الدَّلالةَ على المكانِ والزَّمانِ والمصدرِ، والمرادُ بها هنا المكانُ أوِ المصدرُ، فالمصدرُ على تقدير: الهلاكِ، أي: جعلنا بينَهم هلاكًا، فيكونُ مبالغةً، كقولك: رجلٌ عدلٌ، والمكان، أي: موضعُ هلاكٍ[1]، والمكانُ المرادُ به جهنَّمُ، أي: حين دَعَوا آلهتَهم جعل اللّهُ تعالى بين مكانِهم ومكانِ أصنامِهم فوَّهاتِ جهنَّمَ[2].

بَلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿مَّوۡبِقٗا﴾:

العَداوةُ تَستلزمُ الهلاكَ

المَوبقُ العداوةُ التي هي في شدَّتِها هلاكٌ، أي: وضَعَ المُسبِّبَ موضعَ السَّببِ؛ لأنَّ العداوةَ تستلزمُ الهلاكَ، أو هو من باب المجازِ باعتبارِ ما يؤولُ إليه، كأنَّه قيل: أعلنّا بينهم عداوةً تجرُّهم وتُؤدّيهم إلى الهلاكِ والتَّلفِ، كقول عمرَ بنِ الخطّاب ﷺ: "ولا بُغضُك تلَفًا"[3]، أي: لا يكن بُغضُك بحيثُ يجرُّ على التَّلفِ والهلاكِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.
(3) البيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (6173) وتمامه: أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ قال: "يا أسلم، لا يكن حبُّكَ كلفًا، ولا بغضك تلفًا"، قال: قلتُ: وكيف ذاكَ؟ قال: "إذا أحببتَ، فلا تكلَف كما يَكْلَفُ الصَّبيُّ بالشَّيء يُحبُّه، وإذا أبغضتَ، فلا تُبغض بُغضًا تحبُّ أن تتلِف صاحبَك أو تهلك".
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 497.

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ [الكهف: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعدَ الخيبةِ مِنَ الأولياءِ الانفرادُ بسوءِ المصيرِ

لمّا أوردَ النَّظمُ الجليلُ ما للمشركين مع شركائِهم يومَ القيامة؛ ذكرَ هنا حالةَ المُجرمين عندما يَرون النّارَ[1]، أو بعد أنْ بيّنَ النَّظمُ خيبةَ المشركين مِن أوليائِهم؛ إذ دعَوْهم يومَ القيامة ليَشفعوا لهم، ويَصرفوا عنهمُ العذابَ، فلم يَستجيبوا لهم؛ بيّنَ في هذه الآية أنَّهم بعد فُقدانِهمُ الأملَ في شركائِهم، رأوا النّارَ، فعلِموا أنَّهم واقعون فيها، ولا صارفَ لهم عنها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾: (وقع) أَصْلٌ يَدُلُّ على سُقوطِ شَيْءٍ[2]، ومنه: وقع يقع وقعًا ووقوعًا، أي: سقط، ووقع القولُ والحُكم؛ إذا وجب، ومنه قوله تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 82] أي: إذا وجب القول عليهم؛ أخرجنا لهم دابة منَ الأرض، والوَقْعَةُ والواقعةُ: صَدمةُ الحرب أو الدّاهية والنّازلة من صروف الدَّهر، والواقعة: اسم مِن أسماء يوم القيامة، وإذا وقع قوم بقوم؛ قيل: واقعوهم، وأوقعوا بهم إيقاعًا، وواقعوهم في القتال مواقعة ووقاعًا، والوِقاعُ والمواقعة والإيقاع: كناية عن جِماع الرَّجلِ امرأَتَهُ[3]، ومواقعُ الغيم: مساقطُه[4]، والمرادُ به في الآية الكريمةِ: أنَّهم مُخالطون النّارَ، واقعون فيها[5]، فالمواقعةُ مشتقَّةٌ مِنَ الوقوع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 86، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 538.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقع).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقع).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ (وقع).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 192.

على وزن مفاعلة، أي: واقعون فيها وقوعَ الشَّيء الحاصلِ في موقع يتطلَّبُه، فكأنَّه يقعُ فيه[1].

2) ﴿مَصۡرِفٗا﴾: (صرف) أصل يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ: صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا؛ إذا رَجَّعْتَهُم، فرَجَعوا[2]، والصَّرف: ردُّ الشَّيء عن وجهه، يقال: صرفَه عن كذا؛ إذا عدلَ به عنه، ونحّاه، كقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146]، أي: سأنحّي، وأعدِلُ بهم عنها، ومعنى قوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ [الفرقان: 19]، أي: لا يقدرون أن يَصرفوا عن أنفسهم العذابَ، أو أن يَصرفوا أنفسَهم عنِ النّار، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾، أي: مَعدِلًا[3]، أي: لم يَقدِروا على الهربِ ولا على الرُّجوعِ عنها، فالمَصرفُ: المَعْدِلُ، وهو الموضعُ الذي يُصرَفُ إليه[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

رُؤيةُ النّارِ وانقطاعُ السُّبلِ والاستسلامُ لسوءِ المصيرِ

يخبر النَّظمُ الكريم أنَّ المجرمين يوم القيامة عندما يشاهدون النّارَ بأعينهم، يوقنون إثرَ ذلك أنَّهم مخالطوها وواقعون فيها؛ لسوء الأعمال التي قدَّموها، وانكشافِ الحقائق أمامَهم، ولم يجدوا عن النّار مَعْدِلًا ينصرفون به عنها إلى غيرها[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَرَءَا﴾:

بُرِّزتِ النّارُ وشُخِّصت حتّى رأوها بأعينِهم

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، أي: جعلنا المَوبقَ وهو النّارُ، ورآه المُجرمون[6]، فبعدَ جعْلِ المَوبقِ وشخوصِه، أكَّدَ ظهورَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 346.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 56.
(5) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 299.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 345.

وحيلولتَه، بأنَّهم رأوه، كما يشيرُ بالرُّؤية إلى شدَّةِ الموقفِ عليهم؛ إذِ انقطعَ رجاؤهم باستجابةِ الشُّركاءِ وقتَ ظهورِ الحائلِ بينَهم، وهي النّارُ التي رأوْها بأعينِهم.

علَّةُ وضْعِ الظّاهرِ مَوضعَ المُضمرِ:

اتِّصافُهم بالإجرامِ يزيدُ في ذمِّهم، ويُعَمِّمُ الاستحقاقَ لكلِّ مجرمٍ

وضعَ النَّظمُ الجليلُ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾، فلم يقل: (فرأَوُا النّارَ)؛ وذلك لتسجيلِ صفةِ الإجرامِ عليهم، كما أنَّه يتضمَّنُ المبالغةَ والزّيادةَ في ذمِّهم[1]، كما يشيرُ إلى أنَّ علَّةَ الحُكمِ مُتعلِّقةٌ بالوصْفِ لا بالذّات، فيدلُّ على أنَّ رؤيةَ النّارِ في هذا السّياقِ مُتحقِّقةٌ لكلِّ مُجرمٍ.

الغرَضُ من وضْعِ الظّاهرِ مُعرّفًا بـ(أل) موضعَ الإضمارِ:

لم يكنِ المَوبِقُ بينَهم غيرَ النّارِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ ﴿ٱلنَّارَ﴾ بصيغةِ التَّعريفِ بالألفِ واللّامِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها معهودةٌ، فهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ [الكهف: 52]، ويكونُ بذلك قد وضعَ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمر، فلم يقل: (وجعلنا بينهم موبقًا، ورأوها، ولم يجدوا عنها مصرفًا)؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ بالمَوبقِ النّارُ[2]، وفي ذكرها بالمَوبقِ أوَّلًا، ثمَّ بلفظِ النّارِ المعرَّفةِ بالألفِ واللّامِ دون الإضمارِ، تفخيمٌ لشأنِها وتهويلٌ لها.

دلالةُ الفاءِ ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾:

اليقينُ بالحلولِ في النّارِ مُترتِّبٌ على رؤيتِهم لها

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ بالفاء العاطفةِ[3]؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ يقينَهم بدخول النّارِ قد تحقَّقَ عقِبَ رُؤيتِهم إيّاها، فكانتِ المبادرةُ تعبِّرُ عن سرعةِ هلعِهم وخروجِهم من حالةِ الأملِ التي كانوا عليها عند دعوتِهم شركاءَهم.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 538.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 346.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 209.

الغرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بمفعولَيْ ظنَّ:

اليقينُ بدخولِ النّارِ مُتحصِّلٌ مُؤكَّدٌ رأيَ العين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ لسدِّ مسدِّ مفعولَي الفعل ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، تأكيدًا للعلْمِ المدلولِ عليه بـ(ظنَّ)، فمعنَى الظَّنِّ هنا: العلمُ واليقينُ، أي: تيقَّنوا، وهو قولُ جميعِ المُفسِّرين[1]، والظَّنُّ الذي تلحقُه (أنّ) المثقلةُ يدلُّ على اليقين، كقوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحاقّة: 20]، وقولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة: 28]، فناسبَ ذلك تأكيدُ مضمونِ الخطاب؛ لأنَّهم رأَوُا النّارَ رأيَ العين، وقدِ انقطعتِ السُّبلُ بينَهم وبين شركائِهم، فصار معلومًا لهم دخولُ النّارِ، وهذا يُعبِّرُ عن شدَّةِ الفاجعةِ التي حلَّت بهم في ذلك الوقتِ، حيثُ تأكَّدوا بأنَّ مصيرَهم قدِ انتهى إلى النّارِ فلا فِكاكَ.

سِرُّ إيثارِ لفْظِ الظَّنِّ دونَ العلْمِ أوِ اليقينِ:

يَتشبَّثُ الهالكُ بقَشَّةٍ للنَّجاةِ

عبَّرَ بالظَّنِّ دونَ العلْمِ واليقينِ في قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: "لأنَّهم إذ رأَوْا هولَها وشدَّتَها؛ كانوا يَظنّون، ولا يَستيْقنون؛ ليوجِدوا لأنفسِهم نافذةً، ولو كوَّةً لاحتمالِ النَّجاةِ"[2].

إيثارُ لفْظِ (المواقعة):

مُخالطةُ المُجرمين للنّارِ قويَّةٌ تامَّةٌ

معنَى ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: مخالطوها، فإنَّ مُخالطةَ الشَّيءِ لغيره؛ إذا كانت قويَّةً تامَّةً، يقالُ لها: مواقعة[3]، وذلك استحقاقُهم منَ الجزاء، ويناسبُ صورةَ عدمِ قُدرتِهم على إيجادِ مَعدِلٍ عنِ النّارِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾، فإنَّ مآلَ شدَّةِ المخالطةِ العجزُ عنِ الخلاص والفرارِ من عقابهم.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 55 - 56.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4546.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 475.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَمْ﴾:

أدخلَ النَّظمُ الجليلُ الواوَ الدّالَّةَ على الحال في مُفتتحِ الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: والحالُ أنَّهم لم يَجدوا عنِ النّار مَصرفًا[1]، ودلَّ التَّعبيرُ بذلك على حالِهم وقتَ تيقُّنِهم من دخولِها، فهم تَيقَّنوا من ذلك في حالة عدمِ الاستطاعةِ على إيجادِ مُنصَرَفٍ ولا مَعْدِلٍ عنِ النّار، وهذا يدلُّ على تأكيدِ يقينِهم، كما يُشيرُ إلى عجْزِهم بعد التَّحرّي عن إيجادِ ملاذٍ يَحتمون به، أو يَفِرّون إليه، وهذا تصويرٌ بليغٌ لشدَّةِ ما بهم مِن يأسٍ وهلَعٍ مِن سوءِ المصيرِ.

تحصَّلَ يقينُهم بحلولِها حالَ انتفاءِ الملاذِ والملجأِ عنها

دلالةُ نفيِ المضارعِ بـ(لم):

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ بـ(لم) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾؛ للدَّلالة على تأكُّدِ انتفاءِ وجودِ المَصرفِ والمَعدِلِ، فإنَّ (لم) تقلِبُ الزَّمنَ مِنَ المضارعِ إلى الماضي، فيكونُ النَّفيُ متَّجِهًا للماضي نفيًا قاطعًا بلا توفُّرِ احتمالِ انتقاضِه.

وجودُ المصرفِ عنِ النّارِ مُنتفٍ انتفاءً مؤكَّدًا لا احتمالَ لانتقاضِه

الغرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهَا﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجُملةِ مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿عَنْهَا﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ على المفعول به؛ لأنَّ المقصودَ بالسياقِ هو دونَ المصرفِ، فقُدِّمَ ذكرُ ما يتضمَّنُ ضميرَها على المَصرفِ اهتمامًا بشأنها؛ لأنَّ الغرَضَ مِنَ التَّحرّي عن مُصرفٍ هو الابتعادُ عنها، فالابتعادُ كان حاضرًا في ذهنِهم أكثرَ مِنَ المصرفِ نفسِه، كما أنَّ تأخيرَ المنصوبِ يحافظُ على نسقِ الفاصلةِ والخاتمةِ الصَّوتيةِ للآية الكريمة.

الابتعادُ عنِ النّارِ هو الشُّغلُ والغايةُ الأصلُ لهم

سرُّ التَّعبيرِ بالمفعولِ به بصيغةِ مَفْعِل ﴿مَصْرِفًا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عنِ المفعولِ به بصيغةِ اسمِ المكان على وزنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 86.

انتفتِ الأماكنُ لبروزِ الأرضِ واستوائِها، فلا مردَّ لهم عنِ النّارِ

(مَفعِل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بالمصرفِ المكانُ، فـ﴿مَصۡرِفًا﴾، اسمُ مكان[1]، فهم لم يقدروا على الهربِ ولا على الرُّجوعِ عنها، فلم يَجدوا مكانًا يَعدلون إليه[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصَّرفُ والتَّحوُّلُ:

الصَّرفُ رجوعٌ وتنحيةٌ عنِ المكانِ، والتَّحوُّلُ تحرُّكٌ وتغييرٌ للمكانِ بلا تغييرِ الحال

المَصرِف مِن (صرف)، وهو أصلٌ يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا؛ إذا رَجَّعْتَهُم، فرَجَعوا[3]، وقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146] أي: سأُنحّي، وأعدِلُ بهم عنها، يقال: صرفه عن كذا؛ إذا عَدَلَ به عنه، ونحّاه، وقوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفًا وَلَا نَصۡرًاۚ﴾ [الفرقان: 19]، أي: لا يقدرون أن يصرفوا عن أنفسِهم العذابَ، أو أن يَصرفوا أنفسَهم عنِ النّار، وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا﴾، أي: مَعْدِلًا[4]، أي: لم يَقْدروا على الهربِ ولا على الرُّجوعِ عنها، فالمَصرِف: المَعْدِلُ، وهو الموضعُ الذي يُصْرَفُ إليه[5].

أمّا التَّحَوُّل، فهو من الحَوْل، وأصلُه: تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيره، وحوَّلت الكتابَ، هو أن تنقلَ صورةَ ما فيه إلى غيره من غير إزالةِ الصّورةِ الأولى، وقولُه ﷻ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]، أي: تحوُّلًا[6]، وحالَ إلى مكانٍ آخرَ، أي: تحوَّلَ، وحالَ الشَّخصُ، أي: تحرَّك، وكذلك كلُّ مُتَحَوِّلٍ عن حالِه[7].

فالتَّحوُّلُ يدلُّ على مطلق التَّحرُّكِ وتغييرِ المَوضع، لكنْ بشرط

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 209.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 56.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 56.
(6) الرّاغب، المفردات: (حول).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حول).

عدم تغييرِ الحالة الأولى، أمّا المصرفُ؛ فهو المكانُ الذي يُرْجَعُ إليه، ويُنْصَرفُ إليه، ويُنَحَّى إليه أو عنه، ففي الجنَّة عبَّرَ بانتفاء إرادة الحِوَلِ، فقال: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: 108]، أي: لا يريد أهلُها التَّحوُّلَ عنها، وإن بقيت حالُهم مِنَ النَّعيم كما هي؛ إشارةً إلى عِظَمِ النَّعيم بالجنَّة لذاتِها، أمّا في النّار؛ فقال: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، للدَّلالة على مكانٍ يَفِرّون إليه، ويَتنَحَّون إليه.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

العلاقةُ بين اصطلاء المشركين بالنّار، والجدالِ في القرآن الَّذي حوى كلَّ شيء

لَمَّا تقدَّمتِ الآياتُ التي فيها مَقْنَعٌ للكفّار وغيرِهم بما دلَّت عليه من الحُجَجِ الباهرةِ، وضرْبِ اللّه تعالى الأمثالَ في ما تقدَّم من قولِه: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [الكهف: 32]، وقولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: 45]؛ عاد البيانُ الإلهيُّ إلى التَّنويه بهَدْي القرآن الَّذي ظهر فيه الحقُّ، فأشار في هذه الآية إلى أنَّ هذه الأمثالَ الَّتي قَرَعَتْ أسماعَهم هَديٌ من جملةِ هَدي القرآن، وأنَّها تكفيهم لو كانوا يقصدون الانتفاعَ بها، وتركوا الجدل فيها[1].

كذلك، فإنَّ الآيةَ السّابقةَ تقرِّرُ النِّهايةَ الأليمةَ لأولئك الَّذين أجرموا في الدّارِ الآخرةِ، والآيةُ الَّتي نحن بصددِها ترجعُ بالمُتلقِّينَ - ومنهم أولئك المجرمون - إلى الدّارِ الدُّنيا؛ حيث هم في فُسْحةٍ من أمرِهم، والدَّلائلُ تتكرَّرُ على أسماعِهم ليلَ نهارَ، فالقرآنُ يذكرُ لهم مآلَهُم، ويُذكِّرُهم بحالِهم؛ لينزجروا عن شِرْكِهم وكفرِهم، ويقارِنُ لهم أيضًا بينَ حالَيْنِ: حالِ المفاجأةِ الَّتي تحصلُ لهم عندما يرون النّار، وحالِ التَّصريفِ المذكورِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، أي: إنَّ التَّكرارَ والتَّبيينَ على وجوهٍ شتَّى مِنَ النَّظْمِ وصوَرِ المعاني وأنواعِ الدَّلائلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَّفۡنَا﴾: (صرف) يدور معنى الكلمة على ردِّ الشَّيء من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 346.

حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، ويُقالُ لحَدَثِ الدَّهْرِ: صَرْفٌ، والجَمعُ: صُروفٌ، وسُمّي بذَلِكَ؛ لأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بالنّاسِ، أيْ: يُقَلِّبُهُم، ويُرَدِّدُهُم من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمر، وتَصْريفُ الرّياح هو صرْفُها من حال إلى حال، ومن جهةٍ إلى جهةٍ، ومنه تصريفُ الأمور، وتصريفُ الآيات: هو الإتيانُ بها من جهاتٍ مِن إعذارٍ وإنذارٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ونحوِ ذلك، ثم يصير التَّصريفُ بمعنى التَّبْيين[1].

2) ﴿مَثَلٍ﴾: (مثل) يدور معنى الكلمة على انتصاب الشَّيءِ على سبيل المشابهَةِ، والمُمَثَّلُ: المُصوَّر على مثال غيره، يُقال: مَثُلَ الشَّيءُ، أي: انتصب وتصوَّر، والمِثْل يدلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ للشَّيْءِ، يُقال: هذا مِثْلُ هذا، أَيْ: نَظيرُهُ، والمَثَلُ المَضْروبُ مَأْخوذٌ من هَذا؛ لأنَّه يُذْكَرُ مورًّى به عَنْ مِثْلِه في المَعْنَى، فهو عبارة عن قول في شيء يُشبه قولًا في شيء آخرَ بينهما مشابهةٌ، ليُبيِّن أحدُهما الآخرَ، ويُصوِّرَهُ، والمَثَل: هو القول الغريبُ السائر في الآفاق الذي يُشبه مَضْرِبُه مَوْرِدَه، ويأتي على جهة التَّبيين، وعلى هذا الوجه ما ضرَبَهُ اللّه تعالى من الأمثال، والمَثَلُ أعمُّ من المشابهة والمشاكلة وغيرِها من الألفاظ المُتورِّدة على هذا المعنى؛ ولهذا، لمّا أراد اللّه تعالى نفيَ التَّشبيه من كلِّ وجهٍ؛ خصَّهُ بالذِّكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11][2].

3) ﴿جَدَلًا﴾: (جدل) يدور المعنى المحوريُّ للكلمة على امتداد الشَّيءِ الشديدِ الأثناءِ، بالتفاف بعضه على بعضٍ أو التفاف مثلِه عليه، كما في الحَبْل، ومنه جادَله: خاصمه في شدَّة ولَدَدٍ، فكأنَّ المُتجادلَيْن يَفتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وفيه معنى مراجعةِ الكلام وامتداده، فيُقال: جادل؛ إذا اشْتَدَّتْ خُصومَتُهُ، وخاصَمَ بما يَشْغَلُ عن ظُهورِ الحَقِّ ووُضوحِ الصَّوابِ، هَذا أَصْلُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ على لسانِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ في مُقابَلَةِ الأَدِلَّةِ لظُهورِ أَرْجَحِها، وهو مَحْمودٌ إنْ كانَ للْوُقوفِ على الحَقِّ، وإلّا فهو مَذْمومٌ[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِر اللّه تعالى عن القرآن وما فيه من الآياتِ والمعاني البيِّنة، فيقول ما معناه: ولقد

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مثل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (جدل).

مثَّلنا في هذا القرآن للنّاس من كلِّ مَثَلٍ، وبيّنّا لهم ما يحتاجون إليه، ووَضَّحنا لَهُمُ الأُمورَ، وفَصَّلْناها، ووعظناهم فيه من كلِّ عظةٍ، واحتجَجْنا عليهم فيه بكلِّ حُجَّةٍ كَيْلا يَضِلّوا عن الحَقِّ، ويَخْرُجوا عن طَريقِ الهُدَى، وليتذكَّروا، فيُنيبوا، ويعبدوا ربَّهم، ويوحِّدوه، ويعتبروا، فيتَّعِظوا، ومع هذا البيانِ وهذا الفُرْقانِ كان الإِنْسانُ كَثيرَ المُجادَلَةِ والمُخاصَمَةِ والمُعارَضَةِ للحَقِّ بالباطِلِ لا يُنيب إلى حقٍّ، ولا ينزجر لموعظةٍ، إلّا مَنْ هَدَى اللّه بصرَهُ لطَريقِ النَّجاةِ(1).

تنويعُ الأمثالِ في القرآن غايتُهُ تذكيرُ الإنسان مع أنَّه كثيرُ الجدل والتَّكرار

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾:

جاءتِ الجملةُ معطوفةً بالواو، لمناسبة الوَصْل بينها وبَين ما قبلها؛ فإنَّه تعالى لمّا ذكر أنَّ المجرمين استحقّوا بإجرامِهم عذابَ النّارِ؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بالقرآن، ولم يعملوا به، أيْ: إنَّهم أجرموا وكانوا عريقين في إجرامِهم، أقامَ تعالى الحجَّة عليهم في هذه الآية، أي: استحقّوا النّارَ بسببِ إجرامِهم، مع أنَّنا صرَّفنا في هذا القرآن لهم ولكلِّ النّاس من كلِّ مَثَلٍ يحتاجون إليه؛ لتتَّضحَ الدَّلائل والمعاني الَّتي قطعتْ بها جميعُ الحججِ(2)، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على الجُمَلِ السّابِقَةِ الَّتي ضُرِبَتْ فيها الأَمثالُ؛ وتكونُ مناسبةً للوصل بالواو؛ لأنَّه لَمّا كانَ لهم في ذَلِك مَقْنَعٌ، وما لَهُم مِنْهُ مَدْفَعٌ؛ عادَ إِلَى التَّنْويه بهَدْيِ القُرْآنِ عَوْدًا ناظِرًا إِلَى قَوْلِه: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ [الكهف: 27]، وقَوْلِه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29]، فأَشارَ إليهم بأَنَّ هَذِه الأَمثالَ الَّتي قَرَعَتْ أسماعَهُم هديٌ مِنْ جُملَةِ هَدْيِ القُرْآنِ

إقامةُ الحُجَّة على الكافرين بدلائلِ القرآنِ من الآيات والبراهين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 171.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.

الَّذي تَبَرَّموا مِنْهُ[1]، وبهذا يكونُ موقِعُ هذه الآيةِ جليلًا سخيًّا؛ إذْ ترجع إلى قدْرٍ كبيرٍ مِن الآياتِ قبلها، فيَقوى التَّماسكُ والتَّناسبُ بين أجزاءِ السّورة.

دلالةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

أسلوبُ التَّقريرِ والتّأكيد لزجر المُنكِرين للقرآن المجيد

لمّا كان المشركون مُنكرين أنَّ القرآن من عند اللّه، ويلزم منه أنَّهم مُنكرون لتصريف اللّه فيه من كلِّ مثلٍ؛ جاء الكلامُ على طريق الخبر الإنكاريِّ بتتابعِ التَّأكيد باللّام الموطِّئة للقَسَم مع الحرف (قد)، ومَوْرِدُ التَّأكيد هوَ الفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾ الدّالُّ على أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللّه ﷻ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

تأكيدُ أنَّ القرآنَ لا عِوَجَ فيه، وأنَّه حُجَّة على الخَلائق

آثَرَ التَّنزيلُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّصريفِ في قولِه: ﴿صَرَّفۡنَا﴾ معنًى وصيغةً؛ نظرًا إلى وصفِ (الكتابِ) في مطلعِ السّورةِ بأنَّه لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1]، "أيَ: شيئًا مِن عِوَجٍ؛ بل هوَ مستقيمٌ في جميع معانيه مِن غيرِ اختلافٍ أصلًا، هادٍ إلى كلِّ صوابٍ؛ لأنَّ العِوَجَ بالكَسْرِ: فقْدُ الاستقامةِ في المعاني، وبالفتح: فقدُها في الأعيان"[3]، ومعَ هذا التَّصريفِ الذي يقتضي كثرةَ المعاني - وهذه الكثرةُ دلالةُ صيغة فعَّلَ - يمكن حصولُ شيءٍ مِن عِوَجٍ، لكنَّ القرآنَ معَ هذا التَّصريفِ ومقتضاهُ مِن الكثرةِ لا عِوَجَ فيه، فالتَّعبيرُ بالتَّصريفِ راجعٌ إلى قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1]، وهو مِن تمامِه، ثم إذا قرَنَّا بينَ هذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ وما قبلَها؛ فهمنا أنَّ القرآنَ كان دليلًا وهاديًا قويًّا لهم ولغيرهم مِن النّاسِ، بما فيه مِن هذا التَّصريفِ الذي يكونُ معَه تمامُ الإبانةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 204.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 442.

عن المطلوبِ وكمالها، مع الاقتناعِ الحاصلِ نتيجة تنوُّعِ المعاني والاستدلالاتِ، ويكونُ حُجَّةً قويَّةً عليهم يومَ القيامةِ حين يرون النّار، فتأمَّلْ كيف تعلَّقَتِ الآيةُ بما قبلَها وبمطلعِ سورتِها مِن طريقِ جوهرِ معانيها، وهو معنى التَّصريف.

دلالةُ لفظ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ بين التَّصريح والكناية:

تصريفُ معاني القرآنِ من أسرارِ الإعجازِ وسموِّ البيان

لَمّا كان التَّصريفُ بمعنى صَرْفِ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ ومن جهةٍ إلى جهةٍ، ليفيد معنى التَّكرير؛ عُبِّرَ بـ﴿صَرَّفۡنَا﴾ للإشعار بعرض الأمر على وجوهٍ مختلفةٍ، حتّى يَظهَرَ ظهورًا تامًّا، فكان ﴿صَرَّفۡنَا﴾ بمعنى: (كرَّرنا في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ بأنواعِ العباراتِ والأساليب اللُّغويَّة مع تنوُّع المعاني، فتارةً بالحجج والدَّلائل، وتارةً بالعِبَرِ والأمثال، وتارةً بالقصصِ والأخبارِ)، وإنَّما يقع التَّكرير فيما يُعتنى بشأنه، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ما في القرآن مُهمٌّ ومُعتنًى به، ولمّا كان تصريفُ القولِ في آياتِ القرآن وتنوُّع وجوهه؛ يلزم منه التَّبْيينُ بمُخْتَلِفِ البَيانِ ومُتَنَوِّعِه؛ جاز أن يكون الكلامُ على طريق الكنايةِ، والمعنى: (لقد بيَّنّا في هذا القرآن بمختلف أنواعِ النَّظم ما يحتاجُهُ النّاس في دنياهم من العقائدِ والأحكام والمعاملاتِ، والمُحكَم، والمُتَشابه، والحدود، وغير ذلك)، وهكذا كان التَّصريف مِن أسرارِ الإعجاز، وهو أعلى درجات البلاغةِ وأسرارِها[1].

فائدةُ إسنادِ الفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾ إلى ضمير العَظَمَة:

تصريفُ الآياتِ والأمثالِ في القرآن، طريقٌ لإدراكِ عَظَمَتِهِ وحُجّيَّتِهِ

أفادَ إسنادُ الفعل إلى ضمير العَظَمة، أنَّ مثلَ هذا التَّصريفِ لا يكون إلّا من المَلِكِ الواحدِ الأحد، وأنَّه تصريفٌ عظيم يُعرَفُ به شأنُ القرآنِ وإعجازُه، وضميرُ العَظَمةِ يَرْشَحُ على التَّصريفِ معنى العظمةِ؛ لتعريفِ المجرمينَ المذكورينَ في الآيةِ السّابقةِ وغيرِهم

(1) البَغوي، معالم التنزيل: 5/ 95، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1127، وأبو حفص النَّسَفي، التّيسير في التفسير: 10/ 98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 109.

بأنَّهم ليس لهم حُجَّةٌ في غيابِ جلالِ اللّه وجمالِه مِن نفوسِهم، فإذا كانَ الشِّركُ وتوابِعُه قد غيَّبَ ذلك مِن فطرتِهم؛ فإنَّ في القرآنِ - الذي كان يُتْلَى عليهم في الدُّنيا - تلكَ العظمةَ الإلهيَّةَ الربَّانيَّةَ، وهي موجودةٌ وظاهرةٌ فيه بقوَّةٍ، ومِن شأنِها أنْ تطرُدَ مِنهم الشِّرْكَ والشَّريكَ، وتزجُرَهم عن ذلك كلِّه، وإذا كانَ مطلعُ السّورةِ مؤسِّسًا لوصفِ القرآنِ - بما يُفيدُ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ، وكانَ التَّصريفُ مِن تمامِ وصفِه بأنَّه لا عِوجَ فيه، وبأنَّه قيِّمٌ ومُهيمِنٌ على الكتبِ السّابقةِ، وهذا يقتضي تميُّزَه عنها بذلك التَّصريفِ وغيرِه - كانَ مِن البلاغةِ والتَّناسُبِ إسنادُه إلى ما هو نَصٌّ في العظمةِ، وهو الضَّميرُ (نا).

بلاغةُ الإيجازِ بحذف مفعولِ ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

بيانُ إفادةِ عموم التَّصريف، أو تأكيدُ لصوق الوصفِ بالقرآن الكريم

لمّا كان الفعلُ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ متعدّيًا في أصلِه؛ كان حذفُ المفعول لإفادة عموم المُصرَّف، والمعنى: صَرَّفنا المواعظَ فيه، وصرّفنا ضروبَ القولِ فيه من الأمثالِ والعِبَرِ...، ممّا يوجب الاعتبارَ به والتَّفكُّر فيه، وصرَّفنا القولَ على وجوهٍ كثيرةٍ من النَّظم فيه، فيأتي الكلام على الإثبات والنَّفي والأمر والنَّهي وغيرِها، وصرَّفنا هذه المعانيَ، وكرَّرناها بوجوه من التَّقرير، وقد يكون المرادُ بحذف المفعول تنزيلَ الفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾ منزلةَ الفعل اللّازم، فلم يُقدَّرْ له مفعولٌ، فيكون التَّصريف وصفًا لازمًا للقرآن بمعنى البيانِ، ويكون من دلائل إعجازِه، والتَّقدير: (ولقد جاء البيانُ منّا في هذا القرآن، ولا يأتي منّا إلّا البيانُ في القرآن)[1]، كما يُحتمل أنَّ المفعولَ قد حُذِف على كلٍّ؛ إمعانًا في توكيدِ أنَّ القرآنَ لا عوجَ فيه، وأنَّه قيِّمٌ، وإمعانًا في إقامةِ الحُجَّةِ على المجرمينَ ومَن في سِلْكِهم في الدُّنيا والآخرة، والوجهُ الثّاني أعمُّ مِن الوجه الأوَّلِ؛ فهو يفيدُه وزيادة، وإثباتُ الفعلِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 340، وأبو حفص النَّسَفيّ، التّيسير في التفسير: 10/ 98، والزمخشري، الكشاف: 2/ 669، والعُكْبَري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 823، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 52، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 256.

في نفسِه للفاعلِ - وهو اللّٰه (تعالى) - يلزمُ منه إثباتُه لكلامِه، وهو القرآنُ، أيْ: إنَّ من شأنِ القرآنِ التَّصريفَ المذكورَ، كأنَّ التَّصريفَ شاملٌ كلَّ معانيه، وهذا العمومُ يتشاكَلُ، ويتنادَى مع العموم في نفي العوجِ عن القرآنِ، ومعَه في إثباتِ عكسِه، مِن الاستقامةِ في جميعِ معانيه، وذلك في مطلع السّورة.

توجيهُ المُتشابه اللّفظيّ بين هذه الآية وآية الإسراء (89):

مجيءُ التَّقديم والتَّأخير كلٌّ على بابِه؛ ليكونَ لكلِّ لفظٍ موضعُهُ في البيان

في هذه السّورة تقدَّم قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ على قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، وورد في آية الإسراءِ تقديمُ قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ على قوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ فقال عزَّ من قائلٍ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]، والتَّقديمُ في آية الكهف هو على الأصلِ؛ لأنَّ ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بمنزلة المفعول للفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾، و﴿لِلنَّاسِ﴾ تعليلٌ بمنزلة المفعول لأجله، فجاء الكلامُ على مقتضى الظّاهر، ولمّا كانت آيةُ الإسراء في سياق التَّحدّي بمعجزة القرآن وقيام الحجَّةِ به؛ قدَّم ﴿لِلنَّاسِ﴾ الَّذي هو بمنزلة المفعولِ لأجله على ما هو بمنزلة المفعول؛ ليكون على خلاف مقتضى الظّاهر على عادةِ الكلام العربيِّ في تقديم ما حقُّهُ التَّأخير فيما تكون العنايةُ به أتمَّ وأهمَّ؛ لأَنَّ الكلامَ مَسوقٌ لتحدّيهم ولإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وأيضًا لو لم يقدِّم ﴿لِلنَّاسِ﴾ في آية الإسراء؛ لثَقُلَ التَّكرُّر فيما تقارَب من الألفاظ، فلو قيل: (ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلِّ مثلٍ، فأبى أكثرُ النّاس إلّا كفورًا)؛ لجاء لفظُ النّاس كأنَّه قد أُعيد متَّصِلًا، وهو ثقيلٌ في الكلام، فقدَّم المجرور؛ لينتظم الكلامُ، ويستحكم الفصلُ، فلا يُستثقل[1].

وقد يُناسبُ مطلعُ السّورةِ سببَ نزولِ بعضِ آياتها على الجملةِ، كما في سورةِ الكهفِ؛ فقد دارَ مطلعُها حولَ وصفِ الكتابِ الكريم، وتأسَّسَ

(1) الكرماني، أسرار التكرار: 2/ 311 - 312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 204.

على ذلكَ وجوهٌ مِنَ النَّظْمِ داخِلَ السّورةِ، ومنها تقديمُ ذِكْرِ القرآنِ على ذِكْرِ النّاسِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، يقول البقاعيُّ ﷺ: "ولمَّا كانَت هذه السّورةُ في وصفِ الكتابِ؛ فقد اقتَضَى الاهتمامُ به تقديمَهُ في قولِه تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾"[1]، فكأنَّ هذا التَّقديمَ يُلاحِظُ سببَ النُّزولِ المذكورَ؛ لمُلاحَظتِه مطلعَ السّورةِ، واللّه أعلم.

وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: 41] من دون ذِكْرِ النّاس، وجاء في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 89]، وكذلك في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾، فزيدَ في آية الإسراء وآية الكهف قَيْدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دونَ الآيَةِ [41] من الإسراء؛ لأَنَّ الآيتَيْنِ اللَّتيْنِ فيهما قيد ﴿لِلنَّاسِ﴾ وردتا في مَقامِ التَّحَدّي والإعجازِ، فكان النّاسُ مَقْصودينَ به قَصْدًا أَصْليًّا مُؤمِنُهُم وكافِرُهُم، ولهذا قال في الآيتَيْنِ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾؛ لأنَّ الكلامَ في سياق التَّحدّي والإعجاز، وأمّا آيةُ الإسراء الَّتي لم يَرِدْ فيها قَيْدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ فإنَّها في مَقامِ توبيخِ المشركينَ خاصَّةً القائلين: إنَّ الملائكة بناتُ اللّه - تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - فلمّا كانوا معلومين؛ انتفت الحاجةُ إلى ذِكْرِ قيد النّاس، فقد ورد كلٌّ من هذه الآيات على ما يناسبُ، ويلائمُ ما اتَّصلَ بِه[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في شبه الجملة: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾:

بيانُ أنَّ الإعجاز يقع في بعض القرآنِ كما يقع في كلِّهِ

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ التَّصريفَ في بعض القرآن، وليس بعامٍّ فيه، ولو قال: (ولقد صرَّفنا هذا القرآنَ)؛ لكان تصريفُ الآيات، وتكرارُ المعاني فيه، واردًا في كلِّ مواضعِ القرآن، كما أنَّه لمّا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.
(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار: 2/ 312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.

كانت الآيةُ في سياق التّحدّي وقيام الحجَّة؛ أفاد حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ الإعجاز يقع في بعضِه، كما يقع في كلِّه، وأنَّه عارضَهم في بعضِه، كما عارضَهم في جميع سورِه[1].

على أنَّ بعضَ المُفسِّرين جعلوا حرفَ الجر ﴿فِي﴾ صلةً في هذه الآية[2]، وحينئذٍ يكون التَّصريفُ واقعًا على القرآنِ كلِّه من حيثُ تنوُّعُ آياته وتنوُّعُ دلالاتِها مِن أمرٍ ونهيٍ وخبرٍ وإنشاءٍ ومواعظَ وأمثالٍ وغيرِ ذلك.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

بيانُ عجزِ البشر عن معارضةِ القرآن، وإقامةُ الحُجَّة على أهل الكفران

في قولِه تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أفاد اسمُ الإشارة (ذا) تمييزَ القرآن أكملَ تمييزٍ؛ لأنَّه في سياق بيانِ إعجازِه وظهور حجَّتِه، ولمّا كان اسمُ الإشارة (ذا) للقريب، ودلَّ على أنَّه بين أيديهم، وهو قريب منهم؛ آذَنَ بشدَّة عجزِهم، وفي مجيء اسم الإشارةِ للقريب معنى التَّعجيب من حالِ الكافرين؛ لأنَّهم لم ينتفعوا منه مع قربِه منهم، وقال تعالى: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ولم يَقُلْ: (في ذا القرآن) إشارةً إلى اشتمالِ القرآنِ على ما يلفتُ النّاسَ إليه بقوَّةٍ، ويُنبِّهُهُم إليه بشِدَّةٍ، أيْ: إلى هداياتِه وعظمتِه من مِثْل هذا التَّصريف.

دلالةُ كونِ لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بدلًا:

تضافرُ البدلِ والإشارة على الإيضاح والبيان

لمّا جاء لفظُ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بدلًا من اسم الإشارة؛ أفادَ الإيضاحَ والبيانَ، وذلك لما يدلُّ عليه مجموعُ البدلِ والمُبدَلِ منه مِن إيضاح المعنى وبيانه، والمعنى: صرَّفنا في هذا القرآن الَّذي بين أيديكم وليس في غيرِه؛ للإشعار بعظمةِ القرآن وخَصوصيَّتِه مِن بين سائر الكتب المُنزَّلة، فلَمَّا تظاهرَ سياقُ الآيةِ على تعظيم القرآنِ؛ رجوعًا إلى سياقِ مطلعِها الدّالِّ على ذلك؛ كانَ من شأنِه التَّشويقُ إليه، ونَظْمُ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بدلًا يؤدّي هذا التَّشويق.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 256، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 67.
(2) أشار ابن عرفة إلى قولٍ بأنّها زائدة، وضعّفه، يُنظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 67.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ على لفظِ (الكِتابِ):

لفظُ (القرآن) جامعٌ، ولفظُ (الكتاب) دالٌّ على الصِّحَّة والسَّلامة

لمّا كان تصريفُ القول والمواعظ والأمثال - الدّالَّةِ على اجتماع المعاني فيه - مِن أظهر مزايا إعجاز القرآن؛ اقتضى ذلك إيثارَ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هنا دون (الكِتاب)؛ لمناسبة لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الَّذي هو علمٌ على الكِتاب المُنزَّل على سيِّدنا مُحمَّد ﷺ للسّياق، ولِما تدلُّ عليه مادَّة لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ مِن جَمعِه للمعاني، وقد ذُكِرَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1] في صدر السّورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، وبيانُه أنَّ وصف الكتاب بأنَّه غيرُ ذي عوجٍ، وأنَّه قيّمٌ؛ يناسبه ذِكْر الكتاب؛ لملاءمةِ هذَيْن الوصفَيْن للَفظِ الكتاب، والمعنى: "أنَّه مُتَّصِفٌ بكمال أوصافِ الكتبِ مِن صحَّة المعاني والسَّلامة مِنَ الخطأ والاختلاف"[1]، كما عُبِّرَ عن كلام اللّه تعالى بالكتابِ في مطلع السّورةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]؛ نظرًا إلى ما سيأتي في السّورةِ من قصَصٍ مختلِفةٍ، ألَّفَ بينها سياقُ السّورةِ ومقصودُها الأعظمُ الَّذي يسري في أثنائِها، فهي مُتشابِهةٌ في هذا مُتجانِسةٌ مِن أجلِه.

دلالةُ (أل) في شبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تصريفُ الآياتِ للنّاس مِن دواعي التَّقريع في الأساس

(أل) في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾: جنسيَّةٌ، فيكون المُراد من النّاس العمومَ، فيشمل كلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ القُرْآنُ في سائِرِ العُصورِ المُستقبَلة، أي: الَّذينَ يَسمعونَ القرآنَ في أزمان ما بعدَ نُزولِ تلكَ الآيةِ، ويدخل في لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾ المُشركونَ دخولًا أوَّليًّا، كَما دَلَّت عليْه جُملَةُ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[2].

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾:

وحرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ جاء للتَّبعيض،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 246.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

فالقرآنُ الكريم بألفاظِه المُحكَمة المحصورةِ مُشتمِلٌ على أَبْعاضٍ مِنْ جميعِ أنواعِ المَثَلِ؛ فالمرادُ تبعيضُ المعاني[1].

سرُّ ذكرِ مُتعلّق فعل التَّصريف في السّياق المنيف:

القرآنُ جامعٌ للمعاني الَّتي يَنتفع منها النّاس في الدّارين

لمّا كان الكلامُ في سياق بيانِ إعجازِ القرآن، وظهورِ معانيه ووضوحِها؛ كان ذِكْرُ قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ أظهرَ في بيان الحُجَّة، فإنَّ العجزَ عن الإتيان بسورة من مثلِه أدخلُ في الإعجاز، وأَشَدُّ تَعجيزًا لمَن يَرومُ مُعارَضَتَهُ، فعَجزُهُم عَن مُعارَضَةِ سورَةٍ مِنَ القُرآنِ مَعَ كَثرَةِ أَغراضِه عَجزٌ بَيِّنٌ من جِهَتَيْنِ؛ لأَنَّهُم عَجَزوا عَنِ الإتيانِ بمِثْلِه، ولَو في بَعضِ الأغراضِ[2]، ولمّا كان حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ - الَّذي هو للتَّبعيض - داخلًا على لفظ العموم ﴿كُلِّ مَثَلٍۚ﴾؛ أفاد أنَّ القرآنَ مُشتملٌ على أبعاضٍ من جميعِ أنواعِ معاني الأمثال، وذهب بعضُهم إلى أنَّ العمومَ مُستفادٌ من قوله: ﴿كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ على سبيل المبالغة، والتَّقدير: (من كلِّ مَثَلٍ يحتاجه النّاس)[3]، ولا حاجةَ إليه؛ لأنَّ المقصودَ قد دلَّ عليه قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، أيْ: لأجل حاجة النّاس؛ ليفيدَ أنَّ القرآنَ جامعٌ للمعاني الَّتي ينتفع منها النّاس في الدُّنيا والآخرة.

فائدةُ إضافة لفظةِ ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَثَلٍۚ﴾:

كلُّ مَثَلٍ في القرآنِ الكريم يُؤتى، مشتملٌ على معانٍ شتّى

لمّا أضيفَ لفظُ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَثَلٍۚ﴾؛ كان أكثرَ عمومًا من أن يقول: (مِنَ الأمثال كلِّها)؛ لإفادةِ الإضافةِ التَّنصيصَ على استغراقِ كلِّ مثلٍ ممّا يحتاجه النّاس؛ حيث أُضيفت ﴿كُلِّ﴾ إلى نكرةٍ ﴿مَثَلٍۚ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَثَلٍ في القرآن مشتملٌ على معانٍ كثيرةٍ تنفعُ النّاسَ على كثرتِهم وتغايُرِهم، ولو قال: (من الأمثال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 205.

(3) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 225، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1257.

كلِّها)؛ لأفادت (كلّ) تأكيدَ جنسِ الأمثال لا النَّصَّ على استغراقِها، وهو خلافُ المقصود.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿مَثَلٖۚ﴾:

معاني القرآن في حُسنِها العجيبِ، كالمثَلِ المدهش الغريبِ

عُبِّرَ بلفظ ﴿مَثَلٖۚ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ؛ لأنَّه لمّا كان المثلُ يُضربُ لكلِّ أمرٍ عجيبٍ حسنِ المَوقِع، يجري في الكلام، ويسير في البلادِ، ويتضمَّن معنًى عامًّا؛ شُبِّهت به معاني القرآن؛ للإشعار بأنَّ معانيَ القرآن في غرابتِها وحُسنِها وعموم معناها وتأثيرِها في النَّفسِ كالمَثَلِ، والمعنى: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للنّاسِ من كلِّ نوعٍ من المعاني التي يحتاجها النّاس[1]، فلمّا كان المثلُ ممّا يفيد عمومَ المعنى وكلّيَّتَهُ، ويدلُّ على حسنِه وغرابته ولطافتِه؛ أفاد أنَّ القرآن مشتملٌ على معانٍ عامَّةٍ حسنةٍ لها تأثيرٌ في النُّفوسِ بحيث تشتمل على جميع ما يحتاجه النّاس من أمور الدُّنيا والآخرة.

وإذا كانت معاني القرآنِ كالأمثالِ؛ كانَتِ استعارةُ المَثَلِ هنا توكيدًا لمعنى أنَّ القرآنَ لا عِوَجَ فيه، وأنَّه قيِّمٌ، وكانَ الاحتجاجُ بذلك على المجرمين المذكورينَ في السِّباقِ القريبِ أظهرَ وأقوى وأبهرَ، والمعنى: "﴿مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، أيْ: حوَّلنا الكلامَ، وطرَقْناهُ في كلِّ وجهٍ مِن وجوه المعاني، وألْبَسْناهُ من العباراتِ الرائقةِ، والأساليبِ المتناسقةِ ما سارَ بها في غرابتِه كالمَثَلِ؛ يَقْبلُه كلُّ مَن يسمعُهُ، وتُضْرَبُ به آباطُ الإبلِ في سائرِ البلادِ بينَ العبادِ، فتُبَشَّرُ به قلوبُهم، وتَلْهَجُ به ألسنتُهُم"[2]، وإذا كانَ المُصرَّفُ المُكرَّرُ من معاني القرآنِ كالمَثَلِ؛ كانَ غيرُه من المعاني كالمثَلِ من باب أَوْلى.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 292، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 104، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 585، 12/ 108.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 481.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الانتفاعُ بالقرآن قائمٌ على فتح باب العمل وإغلاق باب الجدل

في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ جاءتِ الواوُ في مطلع الجملة حاليَّةً، وتقتضي جملة الحال محذوفًا، والمعنى: ولقد صرَّفنا في هذا القرآن من كلِّ مَثَلٍ، فلم ينفع فيهم تصريفُ الأمثال، وجادلوا بالباطلِ[1]، والحالُ أنَّ الإنسانَ لم ينْتَه عن الجدل في القرآن بعد هذا البيانِ الواضحِ الذي هو بيِّنٌ لكلِّ النّاس، ففي الحال معنى التَّعجيبِ ممَّن يُجادل في القرآن، ويُنكر أنَّه من عندِ اللّه تعالى، فمرَّةً يقول: إنَّه سِحر، وأخرى يقول: إنَّه شِعر، وثالثة يقول: أساطير الأولين.

دلالةُ ﴿وَكَانَ﴾ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

جدلُ الإنسانِ الكثير جِبلَّةٌ وفطرة لا فكاك له عنها

أفاد التَّعبيرُ بصيغة ﴿وَكَانَ﴾ أنَّ كثرةَ جدلِ الإنسانِ جِبلّيٌّ، لا ينفكُّ عنه، وأنَّه مستمرٌّ عليه[2]، وهذا لأنَّ المقصودَ بالإنسانِ الكافرُ العريقُ في الكفرِ، بدلالةِ التَّعبيرِ عن إجرامِهم بصيغةِ الاسم الدّالَّة على الثُّبوت والدَّوام في السِّباقِ القريب: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ [الكهف: 53]، "أي: العريقونَ في الإجرامِ"[3].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وفرادته في السّياق:

القرآنُ يُهذِّبُ طبائعَ المجادلين، ويسمو نهجُهُ بهم إلى علّيّين

(أل) هنا لتعريف الحقيقة، ولفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أوْسَعُ عُمومًا، من لَفْظِ (النّاسِ)[4]، فتُفيد العمومَ باعتبار أكثر أفراد الإنسان، أيْ: لاستغراق الأكثر، فيكونُ المُرادُ أكثرَ النّاس، أو يُحمل صدورُ الجدل من بعضِ النّاس على الكلِّ، ليكونَ من المَجاز المرسل[5].

وعُبِّرَ بالإنسانِ دونَ النّاس؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ إنسانٍ مطبوعٌ على

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 425، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 347.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 87، وإرشاد العقل السليم: 5/ 229.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 347.
(5) البَغوي، معالم التنزيل: 5/ 181، والشربيني، فتح الرحمن: 4/ 188، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 108.

الجدل، ويدخل فيه الكافر دخولًا أوّليًّا لجداله في القرآن الَّذي بُيِّنت آياتُه ومعانيه وحججه، فيكون جدالُه بالباطلِ؛ لقَوْله تَعالَى فيما يأتي: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، وفي لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ما يُفْهِمُ علَّةَ كونه أكثرَ شيء جدلًا، وهو ما نبَّهَ عَليه البقاعيُّ في قوله: "﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الّذي جُعِلَ خصيمًا، وهو آنَسُ بنفسِه جِبِلَّةً وطَبْعًا"[1].

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ﴾:

الإنسانُ أكثرُ شيء جَدَلًا وأكثر عنادًا وزللًا

لمّا أُضيف أفعلُ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى الاسم النَّكرة ﴿شَيۡءٖ﴾؛ أفاد عمومَ المفاضلة في الجدل، فيجري التَّفضيلُ على ظاهرِه، والتَّقدير: (وكان الإنسان أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منها الجدل)؛ لأنَّ ما لا يُتصوَّر منه الجدلُ لا يكون مُفضَّلًا عليه، فيكون تركيب ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ﴾ عامًّا قُصد به البعضُ ممَّن يتأتّى منه الجدلُ، فخُصَّ لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ بدلالة العقلِ، والمعنى: لو فُرِضَ أيُّ شيءٍ يأتي منه الجدلُ؛ لكان الإنسانُ أكثرَ منه جدلًا[2]، ففيه مبالغةٌ في المعنى، ويُحتمل أن يكون اسمُ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾ مسلوبَ المفاضلة، فليس المُرادُ أفضليَّتَهُ على غيره في كثرة الجدل، وتكون نكتةُ مجيءِ صيغة اسم التَّفضيل لقَصْدِ المُبالَغَةِ في شِدَّةِ جَدَلِ الإِنْسانِ وجُنوحِه إِلَى المُماراةِ والنِّزاعِ حَتَّى فيما تَرْكُ الجِدالِ في شَأْنه أَحْسَنُ، بحَيْثُ إِنَّ شِدَّةَ الوَصْفِ فيه تُشْبِهُ تَفَوُّقَهُ في الوَصْفِ على كُلِّ مَنْ يَعْرِضُ أَنَّهُ مَوْصوفٌ به[3].

دلالةُ التَّمييزِ في قولِه: ﴿جَدَلٗا﴾:

أثرُ رفْعِ الإبهامِ وتقرير المعنى بطريق الإجمالِ والتَّفصيل

لمّا كان التَّمييزُ رافعًا للإبهام، وكان مجيئُهُ مُؤذِنًا بتوخّي الإجمالِ والتَّفصيل؛ كان المعنى: وكان الإنسانُ أكثرَ الأشياء التي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 481.

(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 194، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 108.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 347.

يتأتَّى منها الجدلُ إن فصَّلتَها واحدًا بعد واحد[1]، كما أنَّ في مجيء التَّمييز تأكيدًا للمعنى وتقريرًا له في أذهانِ المخاطَبين بمجيء الكلام بطريقِ الإبهام ثم الإيضاح؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيل مُبهَمٌ، ثمَّ بُيِّنَ، ورُفِعَ إبهامُهُ بذِكْر التَّمييز، وإنَّما جُعِلَ الجدلُ الوارِدُ في مقطعِ الآيةِ تمييزًا، فيكونُ هو المقصودَ بالكثرةِ المُضافةِ إلى الإنسانِ في المعنى؛ ليُقابِلَ التَّصريفَ المذكورَ في صدرِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾؛ ليَظْهَرَ امتنانُ اللّٰه على هذا الإنسانِ بأنْ جعَل لـ: (مرضِه، جدالِه) دواءً مُناسبًا له، وليُبيِّنَ قُبْحَ هذا الإنسانِ وغرابةَ نفسِه وشذوذَ عقلِه وفكرِه في ترتيبِ الجدلِ على التصريفِ، فإنَّ في التصريفِ قوَّةً عظيمةً في الإبانةِ عن المطلوبِ، وفي الجدلِ شدَّةٌ وصلابةٌ في الرَّدِّ والإنكارِ، وما جرى في هذا الطريقِ من المعنى؛ لأنَّه مأخوذٌ مِنَ الجَدْلِ الذي هو الفَتْلُ، فرجَعَ آخِرُ الآيةِ على أوَّلها.

بلاغةُ الإخبارِ عن الذّات المتَّصفةِ بالجدلِ لا عن الجدالِ:

دأبُ ذاتِ الإنسان الجدالُ بإلحاحٍ بالألسنة الذَّرِبة الفصاح

نجد في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أنَّه لَمَّا كانَ الجدلُ صادرًا مِن هذا الإنسانِ، وقد صرَّفَ اللّٰهُ في هذا القرآنِ من كلِّ مثَلٍ، كانَ صدورُه منه آيةَ قَبولِ نفسِه للجدلِ، كأنَّها أرضٌ لنباتِ الجدلِ، لا يُزْرَعُ إلّا فيها، فقد صار الجدلُ من ديدنِها وطباعِها وعاداتِها؛ فالألصقُ بذلك أن يُخْبَرَ عن الإنسانِ بأنَّه أكثرُ شيءٍ جدلًا، وجدله أكثرُ من جدلِ كلِّ مَن يتأتَّى منه الجدلُ.

بلاغةُ التَّذييل في السّياق الجليل:

حججُ القرآنِ ظاهرةٌ جليَّةٌ، والمُكذِّبُ بها مكذِّبٌ لربِّ البريَّة

لمّا كانت الجملةُ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ على معنى العمومِ لما تضمَّنته من عمومِ لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ودلالة التَّركيب على كونِ الجدل عادةً وجِبِلَّةً للإنسانِ، وجاءت تأكيدًا لمفهومِ ما تقدَّمها؛ فإنَّ المُكذِّب بأنَّ القرآنَ من عندِ اللّٰه - وهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، والنَّسَفي، مدارك التنزيل: 2/ 306.

الذي تبيَّنت فيه الآياتُ والدلائل للنّاس من كلِّ شيءٍ - إنَّما يكذِّب جدلًا فيه، فلمّا كانت الجملةُ كذلك؛ كانت إطنابًا بالتَّذييل، وهي جارية مجرى المَثَلِ في استقلالِها بنفسِها في إفادة المُرادِ، وفي حكايتها والتَّمثيل بها.

دلالةُ الجدَل في الآية الكريمة:

الـجَدَلُ منه ما هو محمودٌ وما هـو مـشـؤومٌ مَذْمومٌ

لمّا جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، على معنى ذمِّ الجدلِ بدلالةِ السّياق؛ أفاد أنَّ المُرادَ بالجدل جدلُ خصومةٍ بالباطلِ، ومماراةٍ بمعاندة الحقِّ بعدَ ما تبيَّن[1]، ويحتمل أن يكون المُرادُ تأكيدَ أنَّ الجدل من خُلُقِ الإنسانِ وجِبِلَّته، فيكون العمومُ على وجهه، ليفيدَ أنَّ كُلَّ إِنْسانٍ في طَبْعِه الحِرْصُ على إِقْناعِ المُخالِفِ بأَحَقّيَّة مُعْتَقَده أَوْ عَمَلِه، وعلى الوجه الثّاني يكونُ مآلُ معنى الآيةِ وصْفَ الإنسانِ الكافرِ المجرمِ بالجدلِ المذموم؛ لأنَّ الجدلَ على الجملةِ شأنُ كلِّ إنسانٍ، أفلا يكون من وصفِ الكافرِ؛ فيكون مذمومًا؟.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدال والحِجاج والمِراء والحِوار:

الجدالُ المحمود هو القائم على الغرض السَّليم والدَّليل القويم

المقصودُ من الجدال الرُّجوعُ عن القول والاعتقاد بالمفاوضة، فهو على سبيل المنازعة والمغالبة من أحدِ الطَّرفَيْن للآخر، فإنَّ أصله من الجدل، وهو شدَّةُ الفتلِ، فكأنَّ المُتجادِليْن يفتل كلُّ واحد الآخرَ عن رأيه، بأنْ يلتفَّ كلٌّ على الآخرِ بإصرارٍ؛ ليثبتَ رأيَهُ، ويُبطِلَ كلامَ الآخر، وقد يكون محمودًا؛ إذا كان الغرض سليمًا، واتَّخذ أدلَّةً صحيحة، وقد يكون مذمومًا؛ إذا كان الغرضُ قبيحًا، وبُني على أدلَّةٍ كاذبةٍ أو واهيةٍ، وورد في القرآن على سبيل المدح، وعلى سبيل الذَّمِّ،

(1) البَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 200، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285.

وأمّا الحجاجُ؛ فالمقصود منه ظهورُ الحجَّةِ، وقد تكون داحضةً، وقد تكونُ مبيَّنةً واضحةً، وأمّا المراءُ؛ فهو مذمومٌ مُطلقًا؛ لأنَّه مخاصمةٌ في الحقِّ بعد ظهورهِ، وليس كذلك الجدالُ، وأمّا الحوارُ والمُحاوَرَةُ؛ فهو المُرادَّة في الكلام، ففيه معنى الاستدارةِ، ومنه التَّحاوُر[1]، ويُستعملُ كثيرًا في مقاماتٍ تنخفضُ فيه نبرةُ الخصومةِ بين الطَّرفَيْنِ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جدل)، (حجج)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

رَبْطُ جدالِ الإنسان وكفرانه قَدَرُ الله غالِبٌ لا رادَّ له في إمكانه

لمّا بيَّنَ اللّه تعالى إعراضَهُم عنِ القرآنِ وعن الإيمان؛ بيَّن سببَهُ وموجِبَهُ عندهم، فجاءت هذه الآيةُ الكريمة[1]، وأيضًا لَـمَّا أخبر اللّه ﷻ عن الذي تضمَّنَهُ القُرآنُ الكريمُ مِن الأمورِ المستوجبةِ للإيمان، وكان الظّاهر ألّا يمتنعَ أحدٌ من الإيمان به - وإن كان الإنسانُ مجبولًا على الجدَل المُفْرِط - لشدَّة ظهور آياتِ القرآنِ وبيانِها؛ فقد جاءت هذه الآيةُ الكريمة لبيان سببِ امتناعِهم عن الإيمان به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَ﴾: يدورُ الأصل (منع) على حَجْزِ ظاهرِ الشَّيء ما في باطنه حجزًا شديدًا، فلا يكون فيه مَنْفَذٌ إلى ما بداخله بحيث لا يخلصُ إليه، ومنعُ الشَّيء بمعنى تحجيره والحيلولة دون الوصولِ إليه مع إرادتِه والرَّغبة في تحصيلِهِ، ومنهُ منْعُ العطاء، ويُقال: رجلٌ منيعٌ، لا يُخْلَصُ إِلَيْه، ويُقال أيضًا: رجلٌ مَنوعٌ ومَنّاع؛ إذا كان بخيلًا ممسِكًا؛ لأنَّه لا يخلص إلى مالِه، فكأنَّه في حَجْرٍ، ويأتي المنعُ بمعنى الحجزِ دون الوصول إلى شيءٍ، وبمعنى الصَّدِّ عن الشَّيء، ويُقال: امتنعَ مِنَ الأمرِ بمعنى كَفَّ عنهُ.

2) ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: يدور معنى الهدى على تبيُّن الوجهةِ والكشف عنها، والهدايةُ هي دلالةٌ بلطف إلى طريق الرُّشد، ومنه: الهديَّةُ، وتُسمّى الإبلُ المتقدِّمة الهاديةَ؛ لأنَّها تكشف الطَّريق الصحيحَ لما بعدها،

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 12/ 87.

فتتبيَّن الوجهة مِن اتجاه أعناق الإبلِ الهادية، وهوادي الوحش هي متقدِّماتها الهادية لغيرها، وخصَّ ما كان بمعنى الدَّلالة بـ(هديتُ)، وما كان بمعنى الإعطاء بـ(أهديت)، واستعمالُ الهداية في قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23]، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: 4] على سبيل التَّهكُّم، والهدايةُ قد تكون بمعنى الدلالة إلى طريق الرُّشدِ والحقِّ، فتكونُ بمعنى البيان والدلالةِ إلى ما يوصل، وقد تكون بمعنى الاهتداءِ، فتكونُ بمعنى التَّوفيقِ والدلالة الموصلةِ، والهُدَى نقيضُ الضَّلال[1]، ولفظُ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ هنا بمعنى: بيانِ اللّه تعالى، فيشملُ القرآنَ والرَّسولَ ﷺ؛ لأنَّ كليهما دالٌّ إلى الحقِّ والإيمانِ باللّه[2].

3) ﴿سُنَّةُ﴾: السُّنَّةُ في أصل اللُّغة هي الطَّريقة، ويدور معنى الكلمة على جريان الشَّيءِ وإرسالِه في سهولةٍ، وإذا أُطلق لفظُ السُّنَّة على شيءٍ، فيُقصد به ما لا يختلف، ولا يتبدَّل، والسُّنَّة: السّيرة، حَميدَةً كانَتْ أَوْ ذَميمَةً؛ لأنَّها بمعنى الطَّريقة، والجَمعُ سُنَنٌ، و﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بمعنى: طريقةِ الأمم المكذِّبة رسلَها قبلَهم؛ وهي أنَّهم إذا لم يؤمنوا؛ عُذِّبوا، وهَلَكوا، أيْ: لا يؤمنون إلّا في ذلك، والإيمان لا ينفعهم في ذلك الوقت[3].

4) ﴿قُبُلًا﴾: القُبْل: هو إقبالك على الإِنْسان باستقبالِ وجهِه، كأنَّك لا تُريدُ غَيره، والقُبُلُ والقِبَلُ بمعنى: المقابلة والعيانِ[4]، وذهب بعض اللُّغويّين إلى أنَّ (قِبَلاً) بمعنى: المعاينةِ والمقابلة، و﴿قُبُلًا﴾ جمع: قبيلٍ، أي: جماعةً جماعةً، والمعنى: يأتيهم العذاب، وهم جماعاتٌ، أو بمعنى: الضَّرب والنَّوعِ؛ والمعنى: يأتيهم أصنافًا مِنَ العذاب، كلُّ صنفٍ منه غيرُ صاحبِه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخْبِرُ تعالَى عَنْ تَمَرُّدِ الكَفَرَةِ في قَديم الزَّمانِ وحَديثِه، وتَكْذيبِهم بالحَقِّ البَيِّنِ الظّاهِرِ مَعَ ما يُشاهِدونَ مِنَ الآياتِ والآثارِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ، وأنَّه ما منع هؤلاء المشركين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هدى).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49، والواحدي، الوجيز، ص: 665، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 201، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 92.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49، والماتُريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 186، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 58.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 268، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 60، والراغب، المفردات: (قبل).

من أن يؤمنوا بالله، حين جاءهم القرآنُ وهديُ رسول الله ﷺ، وأن يستغفروا ربَّهم بالتَّوبة عمّا فرَطَ منهم مِنَ الذُّنوب إلّا تعنُّتهم وعنادهم الذي جعلهم يطلبون أحدَ أمرَيْن: إمّا يطلبون عذابَ الاستئصالِ بنحوِ قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]، وإمّا أن يأتيَهم بأنواع من العذاب والبلاء في حالِ رؤيتِهم له - وهم في الدُّنيا - عيانًا[1].

اعتقادُ الكافرِ أنَّه مُصيبٌ في معوجِّ إيمانِهِ، يقتضي التَّأسُّف عليه في إبّانه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ تعدُّدِ الغرضِ مِنَ الخبرِ في الآية:

يدلُّ الخبرُ في هذه الآية على غرضَيْن؛ إذ يُفيد التَّعجيب من حالِ المشركين الذين لا يُقْدِمونَ على الإيمانِ إلّا عِنْدَ نُزولِ عَذابِ الاسْتِئْصالِ، فيَهْلَكون، أَوْ أَنْ يَتَواصَلَ أَنْواعُ العَذابِ والبَلاءِ حالَ بَقائِهِم في الحَياةِ الدُّنْيا، فكأنَّهم لا يُقْدِمونَ على الإيمانِ إلّا عندَ وقوعِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، والعاقِلُ لا يَرْضَى بحُصولِ هَذَيْنِ الأمرَيْنِ، فأفادَ أَنَّ حالَهُم شَبيهٌ بحالِ مَنْ علَّقَ العَمَلَ على هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ[2]، كما يُفيد التَّأسُّفَ عليهم والتَّنبيهَ على فساد حالهم؛ لأنَّ هذا المنعَ لم يكن بقصدٍ منهم أن يمتنعوا ليجيئَهم العذابُ؛ وإنَّما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنَّهم مصيبون، لكنَّ الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأنَّ حالهم تقتضي التأسُّف عليهم[3].

التَّعجيبُ مِن حالِ المشركين، والتَّأسُّفُ على كفرِهم وعنادِهم

بلاغةُ الوصلِ في الآية الكريمة:

جاءت الجملةُ بطريق الوصلِ بعطفِها على جُملَةِ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، والجهةُ الجامعة بين الجملتَيْن هي أنَّه لمّا صرَّفَ

الأَوْلَى بالمشركين المسارعةُ إلى الإيمان بعد ظهور الحُجج والأدلَّة عليه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 201، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 172، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 167.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/ 475، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 193.

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.

اللّه تعالى في القرآن للنّاس من كلّ مثلٍ، وكانت آياتُه بيّنةً واضحةً تتضمَّنُ الحجج والأدلّة على الإيمانِ باللّه وبرسولِه ﷺ؛ كان الأَوْلى بالمشركين أن يؤمنوا، فجاءت هذه الآيةُ لبيان أنَّهم لم يؤمنوا؛ بل فعلوا أكثر من هذا إذْ تمادوا في طغيانِهم، فطلبوا أن تأتيهم سنّة الأوّلين، أو يأتيهم أنواعُ العذاب عيانًا لكي يؤمنوا، ليكون على معنى الجدلِ، ففيها تقريرٌ كذلك لجملة ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، ويُلمح في الآية معنى السَّببيَّة والتَّفريع لجملة ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ بحَيْثُ لَوْ عُطِفَتْ عليْها بفاءِ التَّفْريعِ؛ لَكانَ ذَلِكَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ، لكنَّها عُطِفت بالواو اهتمامًا بمضمونِها وجعلِه كالمستقلِّ في ذاته؛ إذْ أُريدَ أَنْ يَكونَ حَقيقَةً مُقَرَّرَةً في النُّفوسِ[1].

إيثارُ لفظ ﴿مَنَعَ﴾ دونَ غيره من مرادفاته:

عبَّرَ السّياقُ الحكيم بلفظ المنعِ دون غيره من مرادفاتِه؛ للإيذان بشدَّة صدِّهم، فكأنَّهم وضعوا أنفسَهُم في جدار حصنٍ منيع محميٍّ كي لا يصلَ الإيمانُ إليهم، وللتَّنبيه على أنَّهم حجزوا غيرَهم عن الإيمانِ؛ ففي التَّعبيرِ بلفظ المنعِ إشعارٌ بشدَّةِ طغيانِهم وكمالِ عنادهم وتماديهم في كفرِهم؛ فإنَّ إسنادَ المنعِ إلى الفاعل: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾: إسنادٌ له إلى أنفسهِم؛ لأنَّهُ من اعتقاداتهم، ويدلُّ على رسوخِ هذا الفاعلِ في نفوسهم، وتمكُّنِه فيهم؛ وذلك أنَّ الإعراضَ عن القرآنِ الذي فيه التَّصريفُ للنّاسِ من كلِّ مَثَلٍ يستلزمُ ذلك.

مِن أشدِّ الكفرِ ألّا يكتفيَ الكافرُ بكفره، بل يصدُّ غيرَهُ عنِ الإيمانِ

نكتةُ استخدامِ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

(أل) هنا عهديَّةٌ، فيكون المرادُ بالنّاس كفّارَ عصر رسول اللّه ﷺ، الذين تولَّوا دفعَ القرآنِ وتكذيبه وتكذيبِ رسول اللّه ﷺ[2]، وعبَّرَ

نبذُ الإيمانِ مستمرٌّ في النّاس في كلِّ زمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.

بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للإشعار بأنَّ دَفْعَ الإيمانِ والامتناعَ منه مستمرٌّ في النّاس غيرُ منقطع، فيدخل في اللَّفظ كلُّ مَنْ لم يؤمن بالله ورسولِه ﷺ في الأزمان المستقبلة، كما أنَّه لمّا ذكر ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، ناسب أن يذكر لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للإيذان بأنَّ الهدى للنّاس جميعًا، وليس لفئةٍ معيَّنة.

سرُّ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ في السّياق:

العـدولُ عن الإضمارِ مؤكِّدٌ للخبرِ، ومُشعِرٌ باستقلاليَّة الجملة وعمومِها

لمّا كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وما مَنَعَهُم أَنْ يُؤْمِنوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدَى) لقرب ذِكْر النّاس في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾؛ كان العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار للإشعارِ باستقلاليَّة الجملةِ، وبأنَّها في مقام جملة التَّذييل في عمومِها وكلِّيَّتها، وبأنَّها أُخرِجت مخرجَ المَثَل في حكايته والتَّمثُّل به، لكثرة ما يقعُ مثلُ هذا الأمر من الكفّار وتواليه منهم، فتَكونُ فائِدَةً مُسْتَقِلَّةً تَسْتَأْهِلُ تَوَجُّهَ العُقولِ إلى وعْيِها لذاتِها لا لأنَّها فرْعٌ على غيرها[1].

وأظهَر التنزيلُ أيضًا؛ لتوكيدِ المعنى الذي جرى لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ فيه؛ لعظيمِ غرابتِه وشذوذِه، فإنَّ المتلقِّي مِن شأنه أن يستغربَ حالَ هؤلاء الناسِ، ويتعجَّبَ منه غايةَ العَجَبِ قائلًا: أهولاءِ الناس الذين لم يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، ويستغفروا ربَّهم، والذين لم يمنعهم مِن الإيمان والاستغفار إلّا اعتقادُ ما بعد ﴿إِلَّآ﴾ في الآيةِ؟ أهؤلاءِ هم الذين صرَّفَ الله لهم من كلِّ مثَلٍ؟ فلَمَّا أعادَ القرآنُ ذِكْرَهُم بالاسم المُظْهَرِ؛ كان كأنَّهُ قال: نعم، هؤلاء الناسُ هنا في هذه الآيةِ هم النّاسُ في الآيةِ السابقة، وفي الإظهارِ تودُّدٌ إليهم وترغيبٌ شديدٌ، كما أنَّ فيه إشعارًا بالتهديدِ والغضبِ والترهيب.

دلالةُ حذفِ الجارِّ (مِن) قبلِ: ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾:

لمّا كان التَّقديرُ: (وما مَنَعَ النّاسَ مِنْ أَنْ يُؤْمِنوا)؛ كان الكلامُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.

قبولُ الكُفر والشِّرك إشارةٌ إلى سَفَه المُحدَّثِ عنهُ

في الآية على حذف الجارِّ، فيكون منصوبًا بنزع الخافضِ[1]، ونكتةُ حذف الجارِّ وجريانُ الكلام على تعدّي الفعل ﴿مَنَعَ﴾ إلى مفعولَيْن بيانُ استغراق المنع حقيقةَ الإيمانِ وأنواعَهُ وما يوصلُ إليه، وهذا مؤسَّسٌ على أنَّ النَّفسَ المُنصرِفةَ عن الإيمان - من بعدِ التصريفِ المذكورِ في الآيةِ السابقةِ - مِن شأنِها أن يكونَ كفرُها بهذه الصِّفة، وفي حذف (مِن) إشارةٌ إلى سَفَه المُحدَّث عنهُ، بما فيه مِن قَبولِ الكُفر والشِّرك بشدَّةٍ، والذي صورتُهُ التَّعَدِّي بدون واسطةٍ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤَوَّل ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾:

مُطلقُ الإيمانِ يكفي في دفعِ عذابِ الاستئصالِ والنَّجاةِ من الوبال

عُبِّرَ بالمصدر المُؤَوَّلِ؛ للإشعار بأنَّ مُطلقَ الإيمانِ مِن غير أيِّ قيدٍ أو وصفٍ زائدٍ عليه يكفي في دفعِ العذابِ والنَّجاةِ منه، فإنَّ إخراجَ الإيمانِ في صورةِ المضارعِ يُفيدُ هذا، ولو عُبِّرَ بالاسم (الإيمان)؛ لأفاد وصفًا زائدًا، مِن الثَّباتِ عليه وكمالِه، وأيضًا في مجيءِ المصدرِ المُؤَوَّلِ توسُّلٌ إلى ذِكْر الفعلِ المضارع الذي يُفيد تجدُّدَ امتناعِهم عن الإيمان، وذمَّهم على تركِه[2]، فالمنعُ مِن تجدُّدِ الإيمانِ يلزمُ منه تجدُّدُ الامتناعِ عن الإيمانِ، وقد كان منهم ذلك مع التَّصريفِ مِن كلِّ مَثَلٍ للنّاسِ، وهذا خلافُ الأصلِ الذي هو تجدُّدُ الإيمانِ، والتَّرقِّي فيه؛ للوصولِ إلى درجاتِ الكمالِ، أي: وما منع الناسَ مِنَ التَّرقِّي في كمالاتِ الإيمانِ ومقاماتِه، وكذلك الاستغفارُ، وذلك التجدُّدُ الذي يترقَّى بهم في المذكورِ هو ما كان ينبغي أنْ يترتَّبَ على التصريفِ مِن كلِّ مثَلٍ في القرآنِ.

نكتةُ حذْفِ متعلَّقِ الفعل ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾:

أفادَ الحذفُ لزومَ وصفِ الإيمانِ وعمومَ المعنى

حُذِفَ متعلَّقُ الفعل في قولِه: ﴿يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ لإفادة طلبِ تحقُّقِهم بأصل الإيمانِ بأن يكون وصفًا ثابتًا لهم، ويُحتَمل أن يكونَ على معنى

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 296، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 88.

العموم، ليكون التَّقديرُ من أن يؤمنوا باللّه تعالى وبالرَّسول وبالقرآن، وبكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وهذا الوجهُ الثاني هو الأبلغُ والأعلى في نورِ السياقِ القريبِ؛ فإنَّ اللّه صرَّفَ في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مثَلٍ، وهذا التَّصريفُ يقتضي العمومَ؛ لاشتمالِ المُصَرَّفِ على معاني التَّوحيد والنُّبوَّة والسَّمعيّات والغيبيّات إلى آخِرِ ما صُرِّفَ في الذِّكْرِ الحكيم، وحَذْفُ المُتعلَّقِ ليس للعموم فحسب، وإنَّما ليترتَّبَ عليه أن يَلْحَظَ المُتلقِّي التَّنادي والتَّشاكُل بينَ هذا الحذفِ والمحذوفِ، وبينَ معنى التصريفِ المذكورِ في الآيةِ السّابقة.

دلالةُ التَّعبيرِ بظرف الزَّمان ﴿إِذۡ﴾:

لا عُذرَ لمَن كفر بعد ورودِ الهُدى وورودِ الخبر

لَمَّا كانَ النَّصُّ على ظرفِ الزَّمانِ الَّذي جاء فيه الهُدى لأهل الكفرِ والشِّركِ دالًّا على تعظيمِه، وكان مجيءُ الهُدى مُضْفيًا عليه معنى التَّعظيمِ أيضًا، وكانَ هذا الظَّرفُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿يُؤۡمِنُوٓاْ﴾؛ دلَّ على تعظيمِ حصولِ الإيمانِ في زمانِه، فمجيءُ الهُدى سببٌ عظيمٌ في حصولِ الإيمانِ، ويكونُ في ذلك ترغيبٌ شديدٌ في أن يكونَ منهم ذلك الإيمانُ حينَ مجيءِ الهُدى ووصولِه إليهم مِن غيرِ مُهلةٍ.

سرُّ تعدّي الفعل ﴿جَآءَهُمُ﴾ إلى المفعول بنفسه:

لا حجَّةَ للكافرين في الكفران بعد سطوعِ الهُدى بالإيقان

لمّا قالَ تعالى: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ قُدِّمَ المفعول على الفاعل، فتعدّى الفعلُ إلى المفعول بنفسِه، ولو أُخِّرَ المفعولُ؛ لقيل: (إذ جاء الهدى إليهم)، فأفاد تقديمُ المفعول أمرَيْن: إنجازَ الغرض من التَّقديم، وتعدّيَ الفعل بنفسِه، فأمّا تقديمُ المفعول؛ فلإفادة عدمِ تأخُّرِ الهُدى عنهم، وسرعة مجيئه إليهم، وأنَّه أنعمَ عليهم بالاهتمام بهم؛ إذ جاءهم الهدى، وأمّا تعدّي فعلِ المجيء بنفسِه؛ فلإفادة أنَّ الهُدى - الذي هو بمعنى البيان والدَّلالة على الرُّشد - قد استوعبَهم، وأحاط بهم، فهو بين أيديهم، وقد حضّوا عليه؛ للتَّنبيه على أنَّه لا حجَّةَ لهم في الامتناع من الإيمانِ بعد أن جاءهمُ الهُدى، ولو قيل: (إذ جاء

الهدى إليهم)؛ لاحتُمِلَ أن يكونَ الهُدى قد وصلَ إلى موضعٍ قريبٍ منهم، ولم يحصلوا عليه.

نكتةُ إيثارِ لفظِ (الإتيان) على (المجيء):

تنبيهٌ على سهولة حلولِ العذابِ بهم، وعظمة الهُدى الواردِ مِنَ الله

عُبِّر بلفظ الإتيانِ في قولِه: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾؛ للإشعار بسهولةِ إتيانِ العذاب، وأنَّه يَحِلُّ بهم، ويعتَريهم إنْ لم يؤمنوا، ويستغفروا ربَّهم، وأنَّ سُنَّةَ الأوَّلين نافذةٌ فيهم لا محالة، وعُبِّرَ بالمجيء في قولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ مجيءَ الهدى أمرٌ عظيم، فهو مجيء ذو شأنٍ وخطَرٍ؛ لغلبة حُجَّةِ القرآنِ العظيم، وإلزامِه مَن يُخاطبُهم بالدَّليل[1]، فكان ينبغي الانتفاعُ منه، والتَّمسُّك به.

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾:

القرآنُ ذو برهانٍ مقنِعٍ؛ لما فيه مِن التَّصريفِ في كلِّ مثَلٍ مبدع

في التَّعبيرِ بالمجيء مجازٌ لغويٌّ، والأصل: إذْ نزل إليهم الهُدى، فلمّا استُعير له المجيء - على سبيلِ الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة؛ لأنَّها في الفعل - قيل: ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، والغرضُ الذي له كانت الاستعارة هو القوَّةُ، فنزولُ القرآنِ نزولُ قوَّةٍ، والدَّاعي له مِن السّياقِ هو ما ذُكِرَ بشأنِه في سياقِ السِّباقِ القريبِ مِن أنَّ اللهَ قد صرَّفَ فيه للناسِ مِن كلِّ مَثَلٍ، فهو إذًا ذو حُجَّةٍ غالبةٍ قاهرةٍ ودليلٍ عليٍّ باهرٍ، فهو مُلْزِمٌ القومَ وغيرَهُم بما يقولُ بالبرهانِ الجليِّ المُقْنِعِ لا محالةَ.

فائدة (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

بيانُ أنَّ الهدى مرتبطٌ بالقرآنِ العظيم، وهدى الرَّسولِ الكريم

لمّا كان ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ هنا بمعنى الدَّلالةِ إلى طريق الحقِّ وبيان طريق الرُّشد؛ كانت (ال) جنسيَّة لتُفيد الاستغراق، فيكون اللَّفظ مستغرقًا كلَّ معاني الهدى، والظّاهر أن يكون المرادُ مِنَ الهُدى: القرآنَ، أو الرَّسولَ محمَّدًا ﷺ، أو كليهما[2]؛ لأنَّهما نِعمَ الهُدى، وهما أقربُ إلى

(1) محمود حمدان، الإتيانُ والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 58، 60.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/ 385، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.

المخاطَبين، ويدخل فيه كلُّ ما كان بيانًا وطريقًا للإيمانِ باللّه تعالى مِنَ الأدلَّة العقليَّة وغيرها مِنَ الكُتُبِ الإِلَهيَّةِ غيرِ المُحرَّفةِ وأَقْوالِ الأَنْبياءِ الصّحيحةِ كُلِّها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ للمبالغةِ في المعنى مفيدٌ في البيان

عُبِّرَ بصيغة المصدر ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ عن اسم الفاعل الهادي، والمُراد به القرآنُ الهادي إلى الإيمان بما فيه من المعاني البيّنة الظّاهرة، ولإعجازِه المبين الذي جاء بلسان الرّسول محمَّدٍ ﷺ، أو المرادُ به الرَّسولُ الدّاعي إلى الإيمانِ، ونكتةُ العدول إلى المصدر هي المبالغة في المعنى، فهو في نفسِه هدًى، وهو هادٍ للنّاسِ إلى طريق الحقِّ، وهذا الإبلاغُ بالتَّعبيرِ بالمصدر، لا يضيفُ شيئًا إلى معنى المصدر بالنِّسبة للقرآن، وإنَّما يُصَوِّرُ حقيقةَ معناه في القرآنِ، كأنَّ القرآنَ تجسَّدَ من الهدى، وبُني منه، وفي السّياق القريب ما يدلُّ على ذلك، وما يتأسَّسُ عليه ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، فإذا كان في القرآن ذلك التَّصريفُ؛ أفلا يكونُ هدًى؟.

دلالةُ عطفِ جملة ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ﴾:

الإيمانُ يقتضي الاستغفارَ، ودوامَ التَّوبة إلى العزيزِ الغفّار

لمّا عُطِفَ الاستغفارُ على الإيمان؛ كان من قبيلِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ لإفادة التَّعميم، وفيه إشعارٌ بعليَّة المعطوف عليه للمعطوف، فالإيمان سببٌ للاستغفار؛ ليفيد العطفُ العنايةَ بالاستغفار والاهتمامَ به، فكأنَّ الاستغفارَ قد طُلِبَ مَرَّتَيْن، أي: مَرَّةً تلميحًا؛ لأنَّه ملحوظٌ في ضمن ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾، وأخرى تصريحًا بمجيئه معطوفًا، وفيه كذلك تَلْقينٌ للمُكذِّبين الكافرين "بأَنْ يُبادِروا بالإِقْلاعِ عن الكُفْرِ، وأَنْ يَتوبوا إلى اللّه من تَكْذيبِ النَّبيِّ ﷺ ومُكابَرَتِه"[2]، ولَمَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 349.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

كان مِن صفاتِ التوحيد والإيمان في السورة الحفظُ والوقايةُ، كما يحفظُ الكهفُ مَن فيه؛ ولذلك وُصِف القرآنُ في مطلع السورةِ بأنَّهُ قَيِّمٌ، فهو مُهيمنٌ على غيره من الكُتُب، ومُقيم لغيره، ومُقوِّمٌ لأمور معاش العباد ومعادهم؛ استخرَجَ التَّنزيلُ الحكيمُ مِنَ الإيمان ما يُحقِّقُ حفظَ العبادِ، ويُبّقيهم في دائرة الإيمان بعد أن يُرجِعَهم إليها، ويَرجعوا هم إليها، ألا وهو الاستغفارُ، فتأمَّلْ هذا؛ فإنَّهُ مِنَ الدَّقائق.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾:

تجدُّدُ الاستغفارِ مانعٌ مِنَ العذاب والهلاك

عبَّرَ الذِّكْرُ الحكيم بصيغة المضارع للإشعار بوجوبِ استمرارِ استغفارِهم بعد إيمانِهم وتجدُّدِه حالًا فحالًا، ولِلتَّنبيه على أنَّ الاستغفارَ يمنعُ الهلاكَ والاستئصالَ، وفيه أيضًا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم دُعوا إلى التَّرقِّي في مقامات الاستغفار وكمالاته بتجديده واستمرارِه، ولو قيل: (واستغفارَ رَبِّهم)؛ لَمَا كان ذلكَ.

فائدةُ حذفِ متعلِّق الفعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾:

بيانُ أنَّ كلَّ أعمال الكافرين ذنوبٌ في حاجة إلى استغفار

لمّا حُذف متعلِّقُ الفعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾، فلم يُذكر نوعُ العمل الَّذي يستغفرون ربَّهم منه؛ أفاد الحذفُ طلبَ الاستغفار من جميعِ أعمالِهم، فكأنَّ كلَّ أعمالِهم ذنوبٌ تحتاج إلى استغفار بسبب عدم إيمانِهم باللّه وبرسولِه محمَّدٍ ﷺ، فالحذفُ للعموم، وهذا العمومُ يتشاكلُ مع التَّصريفِ المذكورِ في الآية السابقة؛ فقد كثُرت سبلُ الإبانة عن المطلوب المُراد منهم بهذا التصريفِ، فعومِلوا معاملةَ مَن كلُّ أعمالِهم ذنوبٌ وآثامٌ، وهذا العمومُ يستتبعه تعظيمُ الإيمان باللّه ورسوله، والإيمانُ بالقرآن إيمانٌ بهما.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿رَبَّهُمۡ﴾:

الاستغفارُ مخصوصٌ بالله المُنعِم على النَّاس دون سواه

عُبِّر بالرُّبوبيَّة للإشعار بأنَّ الاستغفارَ مستَحَقٌّ للّه تعالى وحدَهُ؛ لأنَّه المحسنُ إليهم، فيكون الاستغفارُ استغفارَ مذنبٍ لربٍّ مُنعِمٍ عليهم بأنواعِ النِّعَم المدبِّر لأمرِهم القائم بشؤونِهم، فيُضفي على

النَّفس النَّدمَ على المعصية ومحبَّة اللّه تعالى المُنْعِم على العبد مع ارتكابِه للمعصيةِ، وفي التَّعبير بالرَّبِّ تودُّدٌ إليهم وتقريبٌ لهم؛ لأنَّ مِن عناصرِ سياقِ الآيةِ الامتنانَ بالنِّعم، والتَّعبيرُ بالرَّب يستحضرُ النِّعمَ والإحسانَ بها، وفي الآية السابقة على هذه امتنانٌ عليهم بالتصريفِ في القرآنِ مِن كلِّ مثَلٍ، فكأنَّ المعنى في نورِ السباق القريب: ويستغفروا ربَّهم المحسنَ إليهم بأن صرَّفَ لهم في القرآنِ مِن كلِّ مثَلٍ، واللّهُ أعلمُ.

بلاغةُ الالتفات من المتُكلِّم إلى صيغة الغائب:

الـدَّعـوةُ إلى الاعتبار بشواهدِ التّاريخ وأحوال الأمم السّابقةِ

عَدَلَ الذِّكْر الحكيم في الآية عن التَّعبير بصيغة ضمير المُتكلِّم بنون العظمة الَّذي وردَ في الآية السّابقة في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، إلى ضميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾، فلمّا انتقلَ الخطابُ من التَّكلُّم إلى الغيبة، دون أن يُقال: (ويسْتَغْفروني)؛ كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السّامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، كما أنَّه لمّا كانت الآيةُ على معنى أن تكون مستقلَّة في ذاتِها؛ إذْ أُريد أَنْ يَكونَ معناها حَقيقَةً مُقَرَّرَةً في نفوس المخاطَبين - كما تقدَّم في عنوانِ بلاغة الوصلِ في الآية، ومنه العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، كما تقدَّمَ أيضًا - جاء الخطابُ بصيغة الغيبة تقريرًا لاستقلالِ المعنى وتثبيتًا له، فكأنَّ الجملة في حُكم جملة التَّذييل في عمومِها وكلّيَّتها، لتكون الجملة "قياسًا تَمثيليًّا بشَواهِدِ التّاريخ، وأَحْوالِ تَلَقّي الأُمَم دَعَواتِ رُسُلِهِم"[1]، وجاءَتْ صيغةُ الخطاب أيضًا؛ لأنَّها المطابقةُ لحالهم مِن انصرافهم عن الإيمان والقرآنِ والرَّسولِ؛ ففيها نوعُ غضبٍ إلهيٍّ عليهم، وفي هذا مِن التَّرهيبِ مِن تركِ الاستغفارِ ما فيه، وطلبُ الاستغفارِ منهم فيه تودُّدٌ لهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.

وتقريبٌ لهم، فلهذا كان في صيغة الخطابِ نوعُ غضبٍ، ولم يكن فيه كلُّ غضبٍ، أيْ: لم يكن فيه الغضب القويُّ البالغُ الَّذي يصِلُ إلى حدِّ السَّخَطِ.

دلالةُ ﴿وَمَا﴾ و﴿إِلَّآ﴾ في الآية الكريمة:

الإصرارُ على الكفران مُؤذِنٌ بالعذاب والهلاكِ والهوان

لمّا كان القصرُ بـ(ما) و(إلّا) يُسلك مع مخاطَب مرتكبٍ للخطأ، ويصرُّ عليه[1]؛ أفاد التَّعبير بأسلوب النَّفي والاستثناء في الآية أنَّ المشركين المكذِّبين كانوا يُنكرون أن يكونَ شركُهم باللّه، وعدم إيمانِهم بالقرآن، وبالرَّسول محمَّد ﷺ سببًا في أن يأتيَهُم العذاب الَّذي سنَّه اللّه تعالى على الأمم الماضية المكذِّبة لرُسلها، أو في أن يعتريَهُم العذاب عيانًا بأصنافِه وأنواعِه، وكانوا يُصرّون على هذا الإنكار بتماديهم في شركِهم وطغيانِهم، فجاء الحصرُ بهذا الأسلوبِ؛ للإيذانِ بأنَّهم مُخطِئون في اعتقادِهم وفي إصرارِهم على خطئهم.

بلاغةُ مجيءِ الكلام على طريق الاستثناء المُفَرَّغ:

التَّهديدُ والوعيد المخيف لونٌ من الزَّجر والتَّعنيف

جاء الكلام على طريق الاستثناء المُفرَّغ، فإنَّ قوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ فاعلُ ﴿مَنَعَ﴾، وفائدته الاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ، بمعنى: أنَّه ما منعهم أيُّ مانعٍ من الإيمان والاستغفار ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾، فالكلامُ على التَّهديد والوعيد والتَّأسُّف كما تقدَّم.

بلاغةُ إسنادِ المَنعِ إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾:

التَّكذيبُ بكتاب اللـه ورسـولـه الصّادق جزاؤهُ العذابُ الماحق السّاحق

يُحتمل أن يكونَ إسنادُ الفعل ﴿مَنَعَ﴾ إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ على تقدير حذف مضافٍ، ليكون تقديرُ الكلام: (ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنوا؛ إِذْ جاءَهُمُ الهُدى، ويَسْتَغْفِروا رَبَّهُمْ إلّا طلبُ أن تأتيَهُم سنَّة الأولين)، أو (إلّا انتظار أن تأتيهم سنَّة الأوَّلين)، فالكلامُ على حذفِ المضاف وإقامة المُضاف إليه مقامَه[2]، ونكتتُه

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 230.

بيانُ أنَّهم بسبب شدَّةِ طغيانِهم وعظيم كفرِهم بتكذيبِهم بالقرآن واستهزائِهم بالرَّسول ﷺ ليس لهم إلّا العذابُ، ليكونَ الكلامُ على سبيل المبالغة في التَّهديدِ والوعيد، لعلَّهم يخافون، فيؤمنوا، ويستغفروا، وفيه كنايةٌ عن أنَّهم كانوا يعتقدون عَدمَ صِدقِ الأَنبياءِ فيما وُعدوا به من العذابِ، كما قال حِكايَةً عن بَعْضِهِم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: 32][1]، كما يُحتمل أن يكون على معنى الوعيد والتهديد لهم بالعذاب، كأنَّه قال: إنَّهم لا يؤمنون إلى أن يأتيهم العذابُ، فحينئذٍ يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانُهم، كما تقول في الشاهد لعدوك: ما تريد إلّا أن أقتلَكَ، ولا شكَّ أنَّه لا يريد ذلك، كأنَّ المعنى: إنَّما يمتنعون من الإيمان لأعذِّبهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر المُؤوَّل: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾:

الإمعانُ في الكفر والتَّكذيب يُفضي إلى استعجال العذاب القريب

عبَّر بصيغة المصدر المُؤوَّل للإشعار بأنَّ الإتيانَ المذكور ليس له أيُّ وصفٍ يُقيِّده، أيْ: إنَّ الذي منعهم من الإيمان والاستغفار طلبُهم أو انتظارُهم مطلقَ إتيانِ العذاب؛ إمعانًا في كفرِهم وطغيانِهم، فكأنَّهم كانوا يطلبون، أو ينتظرون أيَّ عذابٍ يأتيهم تكذيبًا للرَّسول ﷺ وللقرآن، كما أنَّ في مجيء المصدر المُؤوَّل توسُّلًا إلى ذِكْر الفعل المضارع الذي يفيد تجدُّد إتيانِ سنَّة الأوَّلين لكلِّ كافرٍ ممتنع عن الإيمانِ، ويصدُّ عنه، وهذا فيه من الترهيب ما فيه، كأنَّه إنباءٌ بحصولِ الإتيان المذكور لهم وقت التلقّي.

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ في ورود ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ في الكهف دون الإسراءِ:

اختيارُ اللَّفظِ المناسبِ للمقامِ المناسِبِ من بلاغة القرآنِ الكريم

جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، وفي سورة الكهف: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.

(2) أبو المُظفَّر الرّازيّ، مباحث في التفسير، ص: 208.

رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فوردَ في سورة الكهف: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾، ولم يَرِد في سورة الإسراء.

وتوجيهه: أنَّ آية الإسراء تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]، فبالغ العُتاة من قريشٍ في شنيع اقتراحاتهم، وتوغَّلوا في مطالبهم المُفصحة باليأس من فلاحهم، فحصل من جملة حالهم بُعدُهم عن الإنابة إلى الإيمان، فلم يكن ذِكْرُ الاستغفار ليناسب هنا؛ لأنَّه إنَّما يكون ممّا لا يبلغ الكفر من المعاصي، هذا الغالب في وروده وفي الإفصاح به، فلمّا كان الواردُ في آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغُ مبلغَ الوارد في آية الإسراء في الإفصاح بتردّيهم وطغيانِهم؛ ورد فيه ذِكْرُ الاستغفار، ألا ترى أنَّ قوله تعالى قبل آية الكهف: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[1].

توجيهُ المتُشابه اللَّفظيِّ باختصاص سورة الإسراء بردِّ الشُّبهات:

استحضارُ سياق (الكهف) للكتب السّابقةِ وجزاء مُنكِريها

قالَ اللّه تعالى هنا: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، والدّاعي لما اختُصَّتْ به سورةُ الإسراء أنَّ سياقَه مبنيٌّ على إيراد أقوالِ أهل الكفرِ وأسئلتِهم من قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: 85]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ .... قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 90 - 93]، ثم قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، فكان من البلاغةِ والتَّناسب أن يكون

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/ 333.

المانعُ على وتيرةِ ما قبلَه، وجاريًا على نسقِه ليلتئمَ معه؛ لأنَّ ما قبلَه يُنْتِجُ إنكارَهُم أنْ يكون اللّه قد بعث بشرًا رسولًا، وأنَّه لو أراد أن يُرسل رسولًا؛ لأرسلَ ملَكًا، فقد طلبوا من رسولنا ﷺ أمورًا خارقة للعادة؛ ليظهرَ بها بأنَّه غيرُ عاديٍّ، فيؤمنوا بِهِ، مع أنَّ القرآنَ الذي هو معجزتُهم فيه ذلك، وقد أبصروه بأنفسِهم وذوائقِهم البيانيَّة.

واختُصَّتْ سورةُ الكهف بما اختُصَّتْ بِهِ؛ لأنَّ مَطْلَعَها تأسَّسَ على استحضارِ الكُتُبِ السّابقةِ، بالتَّعبيرِ عن كلام اللّه بالكتاب، وبوصفِه بأنَّه قيِّمٌ، وفي ذِكْرِ: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ استحضارٌ قويٌّ لهم أيضًا، ولأنَّ مطلعَ السورة فيه وصفٌ للقرآنِ الكريم: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: 2]، فكان هذا من الخطوطِ المعنويَّةِ الَّتي تجري في باقي آيِ السورةِ، ومن الإنذارِ بالبأس الشَّديد ذِكْرُ معنى: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾، ثمَّ إنَّ السّورةَ بُنِيَت على ذِكْرِ جملةٍ من القصصِ، والقصصُ يستحضرُ ذكرَ الأوَّلين الصّالحين والظّالحين، ومن ثَمَّ كان مِن المناسب لذلك على الجملة ذِكرُ ما اختُصَّتِ السّورةُ به، وفارقَت به الإسراء، وفي اللَّحاقِ القريب، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾، وذِكْرُ المرسلين يستدعي ذِكْرَ أُمَمِهم وأقوامِهم، فكان المناسبُ لذلك ذِكْرَ هذا المعنى.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

أُضيفَ لفظ ﴿سُنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّها سنَّةُ اللّه فيهم، ولأنَّها جاريَةٌ عليهم[1]، فكأنَّهم اخْتُصّوا بها، ويحتمل أن تكون الإضافةُ من إِضافةِ المَصْدَرِ إلى فاعِلِه، أَي: السُّنَّةُ الَّتي سَنَّها الأَوَّلونَ[2]، وعلى

التَّنديدُ بانتظارِ الهلاكِ والاستئصال، كما كان حال الأوَّلين في المآل

(1) أبو حفص النَّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 10/ 99.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

معنى السَّببية، أيْ: تَسَبَّبَ الأوّلونَ في سَنِّها، بما اقترفوا مِن سيئات وآثامٍ، أعلاها الكفرُ باللّه والشِّرك به ﷻ مع قيام الأدلَّة الواضحة لهم على بطلانِ ذلك، وثبوتِ حقِّيَّة عكسِهِ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

عـادةُ اللـه في الأوَّلـين من المكذِّبين للرُّسل أن يذيقَهم سوءَ العذاب

لمّا كان المُرادُ من ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادةَ اللّه المألوفة في الأوّلين الَّذين كذَّبوا رسلَهم؛ كان المُراد لازمَهُ، وهو العذاب، بحيث إذا ذُكر لفظ ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ينتقل منه إلى لازمِه، وهو عذابُ اللّه في الأوَّلين، وبلاغةُ الكناية كامنةٌ في زيادة التَّخويف الحاصلة بذِكْر المُكنَّى به دون التصريحِ بالمُكنَّى عنه مباشرة.

فائدةُ مجيءِ ﴿أَوْ﴾ في السّياق المحكم:

تهديدُ الكافرين بتنويعِ عذابِ الله عليهم مِن مقاصدِ التَّركيبِ

لمّا كانت كلمةُ ﴿أَوْ﴾ لأحدِ الشَّيئَيْن على معنى التَّقسيم بمعنى تهديد المخاطَبين بأحد الأمرَيْن المفضي إلى الإبهام على المخاطَب، وكان المُرادُ من قوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ العذابَ المعهود الَّذي سنَّهُ اللّه تعالى في الأمم السّابقة، والَّذي كان أنواعًا من العذابِ، ففيه إبهامٌ في نوعِ العذاب وطريقته، وكان المُرادُ من قوله: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾: العذابَ غيرَ المعهودِ الَّذي يقع فجأةً؛ دلَّت ﴿أَوۡ﴾ على المغايرة بين العذابَيْن، فظهرت فائدةُ التَّقسيم، ولا تكرارَ في ذِكْر العذاب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ الكريمة:

أعـذارُ الكافرين المـانـعـةُ من الإيمان إلى زوالٍ وبطلان

لمّا ذكر اللّه تعالى أنَّ المشركين بين حالَيْن؛ فإمّا أن تأتيَهُم سُنَّة الأوَّلين، وإمّا أن يأتيَهُمُ العذاب في الدُّنيا أصنافًا؛ أفاد بطريق اللّازم أنَّهُ ليس لهم أيُّ مانعٍ يمنعهم مِنَ الإيمان ومن الاستغفار والتَّوبة لمّا جاءهم الهُدى، فالأعذارُ زائلةٌ، فلِمَ لم يُقْدِموا على الإيمان[2]؟ وينتقل من هذا اللّازم إلى لازمٍ آخرَ، هو الإخبارُ بأنَّهم

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 12/ 457.

مُسترسِلون في كُفرِهم وطغيانِهم وعُدوانِهم وظلمهم، وفي هذه الكناية تحذيرٌ وتهديدٌ لهم، وحثٌّ على المبادرة إلى الإيمانِ، وإلى الاستغفار من الكفر.

بلاغةُ المجازِ العقليّ في إسْنادِ مَنْعِهِم مِنَ الإيمان:

التَّعجيبُ من طغيانِ الكافرين الَّذي تجاوز حدودَ العقل

في الآية مجازٌ عقليٌّ بإسناد المنع إلى الفاعل الذي هو سببُهُ، والأصلُ أن يُسندَ إلى ما هو سببٌ في استحقاق سُنَّة الأوَّلين وهذا العذاب، وفي إسنادِ المَنْع إلى المذكورِ بيانُ تمكُّنِ مستوجباتِ سُنَّة الأوَّلين والعذاب ورسوخِها فيهم، وإحاطتِها بهم، واستغراقِهم فيها، وذلك شأنُ الذي يُعْرِضُ عن القرآنِ، وقد صرَّفَ اللهُ فيه للنّاس مِن كلِّ مَثَلٍ.

دلالةُ إيثارِ خَتْمِ الآيةِ بلفظ ﴿قُبُلٗا﴾:

معاينةُ العذابِ وتنوُّعُهُ نوعٌ من العذاب

انتصبَ لفظُ ﴿قُبُلٗا﴾ على الحال، ولمّا كان ﴿قُبُلٗا﴾ مُفرَدًا في اللَّفظ، جمعًا في المعنى لكونِه اسمَ جنسٍ؛ صحَّ أن يقع حالًا من ضمير الجمع في ﴿يَأۡتِيَهُمُ﴾ ومن لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾، فعلى تقدير مجيئِه حالًا من ضمير الجمعِ يكونُ المعنى: أو يأتيهم العذاب معاينين له، وعلى تقدير مجيئِه حالًا من لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ يكون المعنى: أو يأتيهم العذاب معاينًا لهم أو للنّاس، وعلى تقديرِ أن يكونَ ﴿قُبُلٗا﴾ بمعنى: الأصناف؛ فالمعنى: أو يأتيهم العذاب حالَ كونِه أصنافًا وأنواعًا[1]، وخُتِمت به الآيةُ، ولم يُقدَّم على الفاعل مثلًا؛ للإشعار بنهاية أمرِهم، وهم يعاينون العذاب، أو: والعذاب يعاينهم؛ كما عاينوا الحقَّ بالتصريفِ المذكورِ في الآيةِ السابقة؛ فقد تأخَّر: ﴿قُبُلٗا﴾ إلى أن يكون موقعُهُ في آخِرِ الآية؛ ليُشكِّلَ مع التصريفِ المذكورِ في صدر الآية السابقة مشهدًا كُلّيًّا، طرفاهُ العامَّانِ الدُّنيا والآخرة، وطرفاه الخاصّان: عرْضُ القرآن المُصرَّف فيه للنّاس من كلِّ مثلٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 195، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 109.

عليهم، ونهايتُهم الأليمة المُمسِكةُ بالطَّرفِ الأوَّلِ إمساكًا قويًّا، وقد ترتَّبَ على مراعاة ذلك الغرضِ المعنوي ميزةُ موافقةِ فاصلة الآية: ﴿قُبُلًا﴾ لفاصلة ما قبلها: ﴿جَدَلًا﴾.

تنوُّعُ الصِّيغ وفقَ القراءات، مفيدٌ في تنوُّع الدّلالات

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظ ﴿قُبُلًا﴾:

قَرَأَ ابْنُ كثيرٍ وأَبو عَمرٍو ونافعٌ وابْنُ عامر ويعقوب: ﴿قِبَلًا﴾؛ بكَسْر القاف وفتح الباء، وقَرَأَ عاصِم وحَمزَة والكسائي وخلف العاشر وأبو جعفر: ﴿قُبُلًا﴾ بضَمِّ القاف والباء[1]، فمَن قرأ: ﴿قِبَلًا﴾؛ فهو من المقابلة، والمَعنى: (أو يَأْتِيهم مقابلًا ومعاينةً)، ومَنْ قرأ: ﴿قُبُلًا﴾؛ فهوَ جمع: قَبيل، والمَعْنى: (يأتيهم العَذاب ضُروبًا وأنواعًا)، كما يحتمل ﴿قُبُلًا﴾ أن يكون بمعنى المعاينة كذلك[2].

وهاتانِ القراءتانِ تُناديانِ على معنى قولِه سبحانه وبحمده في السياقِ القريب: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾، وتُلاحِظانِه، وتُؤسِّسانِ عليه، فإنَّ المُحدَّثَ عنهم قد عايَنوا الحقَّ المطلوبَ منهم الإيمانُ به، وأبصروه، وشاهدوهُ بقوة؛ لأنَّه كائنٌ في القرآنِ الذي صرَّفَ اللّٰه فيه للنّاسِ من كلِّ مثَلٍ، فللمعنى الواحدِ أكثرُ من صورةٍ من صوَرِ المعاني، وبهذا التَّصريفِ قد واجَهَ القرآنُ عقولَهم وقلوبَهم ونفسيَّاتِهم على تنوُّعها وتعدُّدها وتغايرها، فقد نوَّعَ لهم المعاني والأدلَّة، وضرَب لهم الأمثالَ المختلِفةَ، ثم انصرفوا عن القرآنِ الذي تلك صفتُه، وهاتيكَ حالتُه، فكان الجزاءُ من جنسِ العملِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنعُ صدٌّ عن الموجود، والصدُّ حيلولةٌ دون الوصول إلى المطلوب

المنع والصَّدُّ:

المَنْع يكون عن إيجاد الفِعْل، بمعنى: أنَّ الشَّيء يكون موجودًا،

(1) ابن الجَزَريّ، النّشْر: 2/ 311.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 269، وابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 393، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 380، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285.

ويُمنع منه، ولهذا ذُكِرَ المنع من الإيمان بعد أن جاءهم الهُدى، وأمّا الصَّدُّ؛ فهو اعتراضٌ بشيءٍ قويٍّ للحيلولة دون الوصول إلى المطلوب، فيصرفُ المُقبلَ، ويردُّه، كما أنَّ المنع يكونُ لِمَنْ له قصدٌ، ولِمَنْ ليس له قصدٌ، وأمّا الصَّدُّ؛ فهو المَنْعُ عن قصد الشَّيء خاصَّةً، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعون النّاسَ عن قصدِه، وفي المنع يُقال: مَنَعَ الحائطَ عن الميل، ولا يُقال: صدَّهُ عن الميل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ له، ويقولون: صدَّني عن لقائِك، أيّ: عن قصدِ لقائك[1]، فالمنعُ أقوى من الصَّدِّ، وهو المناسبُ لحالِ أولئك المجرمينَ الذين رفضوا الإيمان مع أنَّ اللّه قد صرَّفَ في هذا القرآن للنّاس مِن كلِّ مَثَلٍ، فهم أسوأُ نموذجٍ بشري من أهل الكفر والشِّرك.

السُّنَّة والطَّريقة والعادة:

السُّنَّة انتهاجُ مثالٍ سابق، والطَّريقة السّيرة، والعادة تكرير باطّراد

السُّنَّة تكون على مثالٍ سابق وصورةٍ معلومةٍ، بحيث يكون على تسويةٍ خاصَّةٍ وهيئةٍ يتميَّز بها الشَّيء من بين غيره، ويُعْرَف، وأصل السُّنَّة الصّورة، ومنه يُقال: سُنَّة الوجه، أيّ: صورتُه، وسُنَّة القمرِ، أيّ: صورتُه، وأمّا الطريقة؛ فهي السّيرة والمذهب والحال، وفيها معنى الامتداد؛ لأنّها بمعنى السَّبيل، ولا يُشترط في الطَّريقة أن يكون لها مثالٌ سبق، وأمّا العادة؛ فهي بمعنى تكرير الشَّيء وتجدُّده حتّى يُداوَمَ عليه، فالعادة اسمٌ للمداومة على الفعل[2].

المقابلة والمواجهة:

المقابلةُ كونُ أحدِ الشَّيئَيْن مقابلًا للآخر، والمواجهة مقابلةُ الوجه للوجه

المقابلةُ أن يُقْبِلَ بعضُهم على بعضٍ، بحيث يكون أحدُ الشَّيئَيْن مقابلًا للآخر، ويتَّجه إليه في حالةٍ معيَّنةٍ، فيلزم منه أن يُعاين أحدُهما الآخرَ، ويُشاهدَهُ حقيقةً أو حُكمًا، والقُبُلُ: هو مقدَّمُ الشَّيء

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 311.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 226، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سنن)، و(طرق).

الَّذي يُتَّجَهُ إليه منه لملاقاتِه أو النَّفاذ فيه، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا﴾، للإشعار بأنَّ العذابَ يأتي إليهم لملاقاتِهم عيانًا، ولينفذ فيهم، فيستأصلهم، وأمّا المواجهةُ؛ فهي بمعنى مقابلة الوجه للوجه، وفيها معنى الوجاهةِ والحظوة، ومنه: فلانٌ وجْهُ القومِ، أيْ: عينُهم ورأسُهم ونحو ذلك[1].

(1) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قبل)، و(وجه).

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكهف: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبلَها:

وظيفةُ الرُّسل التَّبشيرُ والإنذار وليس إرسالَ العذاب ولا المجادلةَ الباطلةَ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى في الآية السّابقة عن إتيان العذابِ للكافرين؛ بيَّن أنَّ ذلك ليس من وظيفة الرَّسولِ، إنَّما هو إلى اللّه وحده؛ لأنَّه تعالى أَرسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ بالثَّوابِ على الطّاعَةِ ومُنْذِرينَ بالعِقابِ على المَعْصيَةِ لكَيْ يُؤْمِنوا طَوْعًا لا كرهًا[1].

وأيضًا: بَعْدَ أَنْ أَشارَ إلى جِدالِهم في هُدَى القُرْآنِ بما مَهَّدَ لَهُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، وأَشارَ إلى أَنَّ الجِدالَ فيه مُجَرَّدُ مُكابَرَةٍ وعِنادٍ، وأنَّه لا يحُفُّ بالقرآن ما يمنع من الإيمان به، كما لم يحفَّ بالهدى الَّذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أَعْقَبَ ذَلِكَ بأَنَّ وظيفَةَ الرُّسُلِ التَّبْليغُ بالبشارة والنِّذارة لا التَّصدّي للمجادلة؛ لأَنَّها مُجادَلَةٌ لَم يُقْصَدْ منها الاسترشاد، بل الغايةُ منها إِبْطالُ الحقِّ[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾: يدلّ الأصل (جدل) على اسْتِحْكام الشَّيْءِ بقوَّةٍ وشدَّةٍ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، ومنه الجَدْوَلُ: وهو نَهْرٌ صَغيرٌ مُمتَدٌّ، وماؤُهُ أَقْوَى في اجْتِماعِ أَجْزائِه مِنَ المُنْبَطِحِ السّائِحِ، وغُلامٌ جادِلٌ؛ إذا اشْتَدَّ، والأَجْدَلُ: الصَّقْرُ، سُمّيَ بذَلِكَ لقوَّتِه، والجِدالُ: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ومُراجَعَةِ الكَلامِ، وأصلُ الجدال مِن: جَدَلْتُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476، والبقاعي، نظم الدرر: 4/ 482.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 346.

الحبلَ، أيْ: أحكمتُ فتْلَهُ، فكأنَّ المتجادِليْنَ يَفتلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه في شدَّة، وذهب بعضُهم إلى أنَّ أصل الجدال الصِّراعُ وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة، وهي الأرضُ الصُّلبة[1]، والفعل في الآية الكريمة يشير إلى المنازعة والمغالبة لإثناء المؤمنين عن إيمانهم.

2) ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾: الأصل (دحض) يدلّ على انزلاق الجسم بثقله كلِّه لزَلَقِ مَقرِّه وانحداره، ويدلُّ الدَّحضُ على زَوالٍ وزَلَقٍ، يُقالُ: دَحَضَتْ رِجْلُهُ: زَلِقَتْ، وزالَتْ عن مَوْضِعِ تَخَطّيها، ومِنْهُ: دَحَضَتِ الشَّمسُ، أيْ: زالَتْ عن موضعِها، ويُقال: مكانٌ دَحضٌ، أيْ: منزلٌ مزلق لا يثبت فيه قدمٌ ولا حافرٌ، ودَحَضَتْ حُجَّةُ فُلانٍ؛ إذا لَم تَثْبُتْ[2]، ومعنى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، أيْ: ليُزيلوا به الحقَّ، ويُبطلوه[3].

3) ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾: (أخذ) يدلّ على تحصيل الشَّيء في حوزةٍ بقوَّةٍ، وذلك بالتناول تارةً، وتارةً بالقهر والغلبة، ويُعبَّرُ عن الأسير بالأَخيذِ والمأخوذ؛ لأنَّهُ يُؤخذ بقوَّةٍ وإحكام، ومنهُ الإِخاذَةُ، وهي الأرضُ التي يَأْخُذُها الرَّجلُ، فيحوزُها لنفسِه، ويتَّخِذُها، ويُحْييها، وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ الأخذ بالعذاب وما في معناه؛ فهو من التَّحصيلِ في حوزةٍ والقبضِ بقوَّةٍ، كقوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجْر: 73]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النِّساء: 153]، و﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ بمعنى: أخذوا لأنفسهم بقوَّةٍ، وتَمَسَّكوا باتِّخاذ آيات الله هزوًا[4].

4) ﴿هُزُوٗا﴾: (هزأ) أصلٌ يدلّ على تحرُّكٍ أو تحريكٍ قويٍّ؛ بسبب الخفَّة، كما في تحريك الراحلة والإسراع، ومنه: هزَأْتُ الرّاحلةَ؛ إذا حرَّكتها، وأصل هذا من استخفاف المُستهزِئ بالمُستَهزَأ به وذهاب قيمته عندَهُ، ويدلُّ الهَزْءُ على مَزْحٍ في خفية، ففيه معنى السُّخرية، وقد يُقال لما هو كالمَزْح، فممّا قُصِدَ به المَزْحُ قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ [المائدة: 58]، وكلُّ ما وردَ في القرآن من مادَّة (هزأ)؛ فهو بمعنى السُّخرية مع استخفاف قدْرِ المستهزَأِ به، ويُعدَّى الفعل بالباء، فيُقال: هَزِئتُ بك، واستهزأْتُ بك، ولا يُقال: هَزِئْتُ منك[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دحض).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 220، وابن الهائم، التّبيان في غريب القرآن، ص: 285.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هزأ) و(هزؤ).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنَّ البشارة لأهلِ الإيمان، وأنَّ النِّذارة لأهل الكفر والطُّغيان

يقول عزَّ ذِكْرُهُ: وما نرسل رسلنا إلّا ليبشِّروا أهلَ الإيمان باللّه وبرسولِه بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهلَ الكفرِ والتَّكذيب عظيمَ عقابِه، وأليم عذابه، فينتهوا عَنِ الشِّرك باللّه، وينزجروا عن الكفر به ومعاصيه، ويُخاصم الذين كذَّبوا باللّه ورسوله بالباطل، ليُبطلوا به الحقَّ، ويُزيلوه، ويذهبوا به، واتَّخذوا حُجَجَهُ الَّتي احتجَّ بها عليهم، وكتابه الذي أنزلَهُ إليهم، والنُّذُرَ التي أنذرهم بها سخريًّا يسخرون بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية الكريمة:

المجازاةُ على الكفرِ بعد البلاغ راجعٌ إلى الله تعالى

جاءتِ الجملةُ بطريق الوصل؛ لأنَّ المقامَ على معنى إشراكِها مع الجملة الَّتي سبقتها ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ في الجهة الجامعة، وبيانُهُ أنَّه لمّا أخبرَ في الآية السابقة بأنَّ المشركين امتنعوا من الإيمان مع أنَّ الهدى جاءهم؛ عطفَ على ما أخبرَ به هذه الآية؛ ليلفت خاطرَهم إلى أنَّ الرَّسول الذي جاءهم - سواء أكان هو الهدى أم أنَّه جاء بالهدى - ليس له أن يُدخل الإيمانَ في قلوبهم، وليس عليه هذا الأمرُ، فليس على الرُّسل إلّا أن يكونوا مُبشِّرين ومُنذرين، وأمّا المجازاة على الامتناع عن الإيمان بعد بشارة الرُّسل وإنذارهم للنّاس؛ فهو إلى اللّه تعالى، فهذه الآية تنفي أيَّ تقصيرٍ يمكن أن يتَّهمَ الرسلَ به الضعفاءُ مِن أهل الكفر والشِّرك والمعصية، فهي مِن تمام ما قبلَها؛ لأنَّ صدرَ ما قبلها فيه ذِكْرُ المنعِ مِنَ الإيمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بنون العظمةِ: ﴿نُرۡسِلُ﴾:

علوُّ قدْرِ المرسلين بسبب إرسال الله تعالى لهم

عُبِّرَ في الفعل المضارع بنون العظمة؛ للإشعار بأنَّ إرسالَ الرُّسلِ من أمرِ الإله الواحد الأحد؛ إذ لا عظيمَ غيرُهُ، وفيه تنبيهٌ إلى علوِّ قدرِهم ورفعةِ منزلتِهم ووجوبِ الامتثال لأمرِهم والكفِّ عن نواهيهم،

وهذه النّونُ مؤسَّسةٌ على ما بين المُرْسِل ﷻ والمرسلين، من جناس الاشتقاق الذي يدلُّ على مدى قُرب الرُّسلِ منه ﷻ، ومَن كان قريبًا مِن العظيم؛ كان عظيمًا، فلهذا أُريد تعظيمُهم، فعُبِّر بنون العظمة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿نُرۡسِلُ﴾:

كلُّ ما يقوله الرَّسولُ المبلِّغ هو بأمر الله تعالى

عُبِّرَ بصيغة المضارعِ المفيدِ استمرارَ إرسال الرُّسل وتجدُّدَهُ للإيذانِ بأنَّ كلَّ ما يقوله الرَّسول محمَّدٌ ﷺ، هو بأمر اللّه تعالى وحده ومن تكليفه له، فهو الموحي إليه، وأنَّه ﷺ مُرسلٌ بهِ، فالآيةُ نزلت، والقرآنُ لا يزال يتنزَّلُ.

بديعُ الجناس في: ﴿نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

لا أحدَ أكرمُ على الله من رسله المصطفين الأخيار

جاءَ الكلامُ على طريق جناس الاشتقاقِ بين الفعلِ ﴿نُرۡسِلُ﴾ واسم المفعولِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، للإشعار بقَدْرِ المرسلين العظيمِ، ورفعةِ منزلتِهم بين البشرِ، فهم قد أُرسلوا من قِبَلِ اللّه الملك الواحدِ الأحدِ، وفي هذا عظيمُ ترغيبٍ في التَّسليم لهم والإيمان بهم.

فائدةُ مجيءِ الوصف في: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

كلُّ ما يقوله المرسلون فمِنَ الله، فالائتمارُ بأمرِهم ائتمارٌ بأمره

لمّا كان قولُه: ﴿نُرۡسِلُ﴾ يُفيد أنَّهم مرسلون بما يدلُّ عليه لفظُ الفعل؛ كان ذِكْر ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في مقام التَّصريح بما كُنّيَ عنه، لتقرير وصفِ كونهم مرسلين من عندِ اللّه تعالى، وليصحَّ الاستثناء من أعمِّ أحوالِهم، فيفيد أنَّ كلَّ ما يقولونه هو بمقتضى إرسالِ اللّه لهم، فيجبُ الائتمارُ بأمرِهم، وفي ذِكْرِهم بهذه الصِّفة مواجهةٌ وَرَدٌّ لأهل الكفر الذين سألوا نبيَّنا ﷺ عن قصَّةِ أصحابِ الكهف وغيرِها من القصص؛ لمحض التَّعنُّتِ والتَّكذيبِ بأنَّ محمَّدًا ﷺ ليس إلّا رسولٌ يكونُ منه التَّبشيرُ والإنذارُ.

فائدة (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

يُفيد (أل) الاستغراقَ ليشملَ اللَّفظُ جميعَ المرسلين، ويدخل فيه

سيّدنا محمّدٌ ﷺ دخولًا أوّليًّا بدلالة السّياق الكريم، وفي هذا إقناعٌ لأهل الكفر والشِّرك بالمطلوب مِن ناحيةٍ، وتسليةٌ له ﷺ من ناحية أخرى، عمّا يواجهه من صعوبات الدَّعوة وأعباء الرِّسالة.

احتواء اللّفظ لسيّد المرسلين تسريةٌ عنه في أزمته مع المجادلين

دلالةُ العدولِ عن لفظِ (الرُّسُل) إلى ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، عبَّر الذِّكر الحكيم بصيغة اسم المفعول، للعلم بفاعل الإرسال من الفعل ﴿نُرْسِلُ﴾، وكان ظاهر السّياق يقتضي أن يُقال: (وما نرسل الرُّسل...)، لكن عُدِلَ عن لفظ (الرُّسُل) إلى ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ للإشعار بالمِنّة على المخاطَبين؛ لأنَّ التّقدير، بمعنى: المُرسَلين إليكم.

إرسالُ المرسلين إلى النّاس مِنَّةٌ من الله عليهم وإيناس

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستثناء المفرَّغ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، أفاد التَّعبيرُ بالاستثناء المفرَّغ فيه أنَّ الاستثناء من أعمِّ عامٍّ الأحوالِ، ويُفيد أمرَيْنِ: أحدهما أنَّ المعنى: ما نرسل المرسلين في أيِّ حالٍ يكونون عليه من الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم مُبشِّرين ومُنذِرين، والثّاني: أنَّ نفيَ كلِّ الأحوال والاقتصار على هذَيْن الحالَيْن هو باعتبار كونِهم مُرسَلين، وإلّا فلَهم أحوالٌ أخرى كالمَشْيِ والأكل والشُّرب وغيرها من أحوالِ البشر.

الاقتصارُ على البشارة والنِّذارة، هو باعتبار وصف الإرسالِ

براعةُ القصرِ في سياق الآيةِ الكريمة:

لمّا كان الَّذين كفروا مُنكرين لإرسال المرسلين، ومُنكرين لكونِهم مبشِّرين ومنذرين، وكانوا يُصرّون على تكذيبهم؛ عبَّرَ بأسلوب النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾؛ للإيذان بأنَّهم مُخطئون في اعتقادِهم وفي عملِهم، وأنَّهم باستهزائِهم وجدالِهم بالباطلِ مُصِرّون على هذا الخطأ.

استهزاءُ الكافرين بالمُرسلين ضلالٌ وخطأ مستبين

دلالةُ الحالِ في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾:

لمّا كان الاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ بمعنى نفي جميعِ الأحوال

ثباتُ وصفِ البشارة والنِّذارة للمرسلين

عن المرسلين سوى حالِ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ كان المعنى على ثبوت وصفِ الحالِ، بمعنى: أنَّ الحال في الوصفَيْن لازمةٌ غيرُ مُنتقِلةٍ.

فائدةُ العطفِ في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾:

اقترانُ البشارة والنِّذارة لكلِّ رسولٍ تكامل وتوازن في المهمَّة

لَمّا كان العطفُ على معنى التَّشريك في الحكم؛ فقد أفاد أنَّ كلَّ رسولٍ أرسلهُ اللّٰه تعالى لم ينفكَّ عن هذَيْن الوصفَيْن، بمعنى اقترانِهما به، وذِكْرُ الوصفَيْن على الجملة راجعٌ إلى ذِكْرِ البشارة والنِّذارة في مطلع السورة الذي يتأسَّسُ عليه باقي آيِ السورةِ، قال تعالى: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ [الكهف: 2].

سرُّ ترتيبِ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾ وعكسِه في مطلع السّورة:

تبشيرُ الرُّسلِ النّاسَ ترغيبٌ في الطّاعة والامتثالِ لأمرِ الله

لَمّا تقدَّم وصفُ البشارة على وصف النِّذارة؛ أشعرَ أنَّ الغالبَ على وصف المرسلين هنا هو البشارة، وأنَّها السابقةُ في الوصف وفي الغرض الذي أُرسلوا من أجلِه على الجملة؛ ترغيبًا في طاعتِهم والامتثال لأمرِهم، فإنَّ التَّبشير إخبارٌ، فيه سرورٌ، والإنذار إخبارٌ، فيه تخويفٌ[1]، لكنَّ هذا الترتيبَ عكسُ ترتيب ذِكْرِ البشارة والنِّذارة في مطلع السّورة في قوله سبحانه: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الكهف: 2] على النَّحو الَّذي أشرنا إليه، ومقصودها كما قرَّره البقاعيُّ هو وصفُ الكتابِ بأنَّه قَيِّمٌ؛ لكونِه زاجرًا عنِ الشريكِ[2]، فسورةُ الكهفِ سورةُ الزَّجرِ عن الكُفْرِ والشِّرْك؛ بدليل إعادة ذِكْرِ النِّذارة، وأنَّها للذين قالوا: اتَّخذ اللّٰه ولدًا، قال سبحانه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ [الكهف: 4]، فدرءُ المَفْسَدَةِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ المصلحةِ هنا، فالأنسبُ بكون السورة كذلك تقديم النِّذارة

(1) الرّاغب، المُفردات: (نذر).
(2) البقاعي، نظْمُ الدُّرر: 4/ 441.

على البشارة، والسياقُ القريبُ هنا سياقُ ذِكرِ امتناعِ أهل الكفر عن الإيمان، فهو سياقُ ذِكْرِ الموانعِ مِن الإيمان، وقد يكونُ المانعُ - فرضًا - مِن قِبَلِ المرسلينِ بتقصيرهم في أداء الرسالة وتبليغِها بطريقةٍ تُنفِّرُ الناس منهم ومنها، فدُفِعَ توهُّمُ هذا بتقديم البشارةِ على النِّذارةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يبدؤون أوَّل ما يبدؤون بما يُبشِّرُ، ويُرغِّبُ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾:

المُبشِّراتُ أكثرُ من النُّذِراتِ

عبَّر الذِّكْرُ الحكيم بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ للإيذان بثبات حال وصف التَّبشير والإنذارِ للمرسلين ولزومِه لهم؛ فلا حُجَّةَ لمن امتنع عن الإيمانِ والاستغفار، وأفادت صيغةُ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ تكثيرَ الفعل والمبالغةَ فيه بسبب التَّضعيف في الصّيغة؛ لأنَّه من (بشَّرَ).

فائدةُ حذفِ مفعول اسم الفاعل:

عِلمُ النّاس لِمَنْ تكونُ البشارةُ له والنِّذارةُ حجَّةٌ عليهم

حُذِف مفعول ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، والتَّقدير: (مُبشِّرين المؤمنين ومُنذرين الكافرين)؛ للإيجاز، وللإيذان بأنَّ المخاطَبين يعلمون مِن سياق الآيات لَمن تكون البشارة، ولِمَن تكون النِّذارة، فقد ورد عقب الحذف قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فالحُجَّة قائمةٌ عليهم، فكان ذِكْرُ المفعول عَبَثًا، واعتمادًا على ما في مطلع السورةِ مِن ذكرِ أنَّ التَّبشيرَ للمؤمنين، المُفْهِم أنَّ النِّذارة تكون للكافرين، وهذا من وجوه الرَّبط بين ما هنا وبين مطلعِ السورةِ الكريمة.

بديعُ الطِّباق في: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾:

تنبيهُ النّاس إلى فضلِ المرسلين في التَّرغيب والتَّرهيب

جاء اللَّفظان على طريق الطِّباق؛ للإيذانِ بأنَّ المرسلين مع قومِهم الذين أُرسلوا إليهم على حالَيْن، فهم بين كونهم مبشِّرين وكونهم منذرين، لا ينفكّون عن هذَيْن الحالَيْن، وفيه تنبيهٌ إلى فضل المرسلين على النّاس؛ إذ يرغِّبونهم بطاعة اللّه لأجل النَّعيم المقيم، ويرهِّبونهم من معصيتِه تحذيرًا من العذاب الأليم، والطِّباقُ حاصلٌ

بذِكْرِ الطَّرفيْنِ معًا، فلو حُذف أحدهما؛ لم يكن، وإنَّما ذُكِرا جميعًا لبيان وظيفةِ الرُّسل؛ دفعًا لتوهُّم أيِّ تقصيرٍ قد يتَّكِئُ عليه أهلُ الكفر في امتناعهم عن الإيمان والاستغفار.

فائدةُ الواو في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾:

لا معنى لاقتراح خـوارقِ الآيـات بعد ظهورِ باهر المعجزات

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ على قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، وكِلتا الجملتَيْن مُرتبطتان بجُملَتي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، وتَرتيبُ هَذِه الجُمَلِ في الذِّكرِ جارٍ على مراعاة أنَّ كُلَّ واحِدَة مِنْها ناشئٌ مَعْناها على مَعْنَى الَّتي قَبْلَها، فلمّا قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ أفاد المعنى: أنَّنا أَرْسَلْنا الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ بما فيه مَقْنَعٌ لطالِبِ الهُدَى، ولم نُرسِلْهم؛ ليُجادَلوا، ولا ليُتمنَّى عليْهِمُ الِاقْتِراحاتُ، ولا ليُقترح عليهم الآيات بعد ظهور المعجزات، ويُعاملوا بما لا يليق بشأنهم، ولَكِنَّ الَّذينَ كَفَروا جادَلوهُم بالباطِلِ؛ لإِزالَةِ الحَقِّ لا لقَصْدٍ آخَرَ(1).

وتحتمل الواوُ أن تكون حاليَّة، ليكون مجيءُ الحال لغرض التَّعجيب من حال الذين كفروا؛ إذ يرسل اللّهُ المرسَلين مُبشِّرين ومُنذرين، والحالُ أنَّ الذين كفروا يجادلونهم بالباطل؛ ليدحضوا الحقَّ الذي جاء به المرسلون، بدلًا من إكرامِهم واتِّباعِهم وطاعتِهم فيما أُرسلوا به.

ولَمَّا كان إرسالُ الرُّسلِ مُبشرين ومُنذرين دالًّا على مجيئهم بدلائلَ ومعجزاتٍ وآياتٍ تدلُّ على صدقِ نبوّاتهم ورسالتهم، وكانَ من عادة أهل الباطلِ جدالُهم فيها أو في بعضِها؛ لا لشيءٍ فيها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 149، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

وإنَّما لشيء فيهم أنفسِهم؛ قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فعطفَه على ما قبلَه؛ لأنَّه من تمام خبرِ قصَّة الرُّسلِ، وطوي ذِكْرُ مجيء الرُّسل بذلكَ، قال أبو السُّعود: "﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: باقتراح الآيات بعد ظهورِ المعجزات، والسُّؤالِ عن قصة أصحابِ الكهفِ ونحوِها تعنُّتًا"[1].

سببُ إيثارِ المضارع ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾:

مـجـادلـةُ الـكـافـريـن بالباطل عادةٌ متجدِّدةٌ لا تنقطع

أفاد التَّعبيرُ بالفعل المضارع استمرارَ جدال الذين كفروا بالباطلِ وتجدُّدَهُ؛ كلَّما رأوا الحقَّ، وسمعوه، مع أنَّ اللّٰه تعالى أرسل المرسلين مبشِّرين ومنذرين، وليس من أجلِ الجدال وتلبية الاقتراحات، ففي التَّعبير بصيغة المضارعِ تعجيبٌ من حالِهم، وفي إيثارِ التَّعبير بصيغة المضارع استحضارٌ لصورةِ المجادلة، ليفيد تقبيحَ حالِهم وتوبيخَهم، وإذا كان الجدالُ في شأن الآيات والدلائلِ، ولم تكن لتكون لهم مرَّة واحدة، بل كانت تأتيهم شيئًا فشيئًا، فكان جدالهُم متقطِّعًا شيئًا فشيئًا بحسب مجيء الآيات والدلائل؛ نُظِمَ الجدالُ فعلًا مضارعًا، قال البقاعيُّ مُنبِّهًا إلى هذا: "﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أيْ: يُجدِّدون الجدالَ، كلَّما أتاهم أمرٌ من قِبَلِنا"[2]، وأيضًا عبَّر بالمضارع المفيد للتَّجدُّد والاستمرار؛ نظرًا إلى غرضهم من الجدال ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، فإنَّ ذلك الهدف يتطلَّبُ منهم تكرارَ الجدال، وحصولَهُ على الاستمرار.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشـارةُ إلى أصالة الَّذين كفروا في الجدال بالباطل لإدحاض الحقِّ

لمّا كان التَّعبيرُ بالاسم الموصول لإحضارِه في ذهن السّامعين بوساطة ذِكْرِ جملة الصِّلة الَّتي تكون معلومةَ الانتساب إلى مشار إليه عند المخاطَبين؛ دلَّ على أنَّ المخاطَبين كانوا يعلمون أنَّ الَّذين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 509.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 12/ 89.

كفروا هم الَّذين يجادلون بالباطل، أو على أنَّ كونهم الَّذين كفروا في حُكم الأمر المعلومِ للمخاطَب، والَّذي إذا عرفَه؛ لم يُنكِرْهُ، وفي الصِّلة تعليلٌ في المعنى لإسناد الجدال إليهم، فإنَّ مَن يُعْرَف بهذه الصِّلة، ويُشهَر بها حقيقةً أو حكمًا؛ حقيقٌ بأن يكون منه ذلك الجدالُ بصفته الَّتي تدلُّ عليها صيغةُ المضارع، وفي التَّعبير بها أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه ليس كلُّ جدالٍ يجادلُهُ غيرُ المسلمين هو من الجدالِ المذمومِ والباطلِ، ولكنَّ المقصود من الذَّمِّ ما يكون جدالًا في قضايا الإيمان والكفر، وفي التَّعبير بصلة الموصول إهانةٌ لهم بنسبتِهم إلى الكفر، وإهانةُ كلِّ مَنْ يجادل بالباطلِ[1]، ولمّا جاء بصيغة الفعل الماضي؛ دلَّ على القطعِ بوقوع كفرِهم والجزم باتِّصافِهم به.

فائدةُ حذفِ المُجادَلِ فيه في السّياق:

مـجـادلـةُ الـكـافـريـن في القرآن ومبلِّغه مـن الـجـدالِ بالباطل

في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حُذِفَ المجادلُ لإفادة العموم، بمعنى: أنَّ كلَّ الذي جادل فيه الذين كفروا بسبب كفرهم هو جدالٌ بالباطل، فيدخل فيه مجادلتُهم في القرآن، كقولهم: إنَّه شِعرٌ أو سِحر أو أساطير الأولين، وفي الرَّسول ﷺ، كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، وقولهم: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: 24]، ووصْفُهم رسولَ اللَّه ﷺ بأنَّه ساحرٌ أو كاهن أو شاعر، وفي اقتراحِهم الآياتِ - كما قال أبو السّعود - تعنُّتٌ منهم بعد ظهور المعجزات، والعمومُ هنا يُشاكلُ العمومَ في ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، وفي الحذفِ إنكارٌ عليهم، فالمعنى: جدالُهم، فإنَّ شيئًا ممّا جادلوا فيه لا مجال للجدال فيه؛ إذا أنصفوا أنفسهم وعقولهم، وإذا أنصفوا رسلهم، وعدمُ تسلُّط الجدال على شيء منها قد صوَّر ذلك المعنى، وأنتجَه، فالحذفُ عجيبُ الأمر شبيهٌ بالسِّحرِ.

---

(1) التّفتازانيّ، المُطوّل، ص: 221.

الإيجازُ في حذف متعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

لمّا حُذِفَ متعلِّقُ الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ ولم يُقيِّده بالكُفر باللّه مثلًا؛ أَشعَرَ بأنَّ الكفرَ صار وصفًا ثابتًا لهم، فلا يأتي منهم إلّا ما يُمليه عليهم كفرهم، ومنه الجدالُ بالباطل ليدحضوا به الحقَّ، ويحتمل أن يكون حذفُ المتعلِّق لإفادة العموم، بمعنى: كفروا باللّه تعالى وبالقرآن وبالرَّسول ﷺ، وبكلِّ ما هو حقٌّ يجب الإيمانُ به، وعلى كلٍّ فيظهرُ لنا بحذف المتعلِّق قوَّةُ سببيَّةِ كفرهم في جدالهم.

مَن كفرَ بالرَّسول أو بالقرآن فقد كفر بالله تعالى

بيانُ متعلَّق قولِه: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

يتعلَّق الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بالفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، بمعنى: أنَّ جدالَهم بالباطل، ويمتنعُ تعلُّقه بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّه سيكون بتقدير: كفروا بالباطل، والحالُ أنَّهم كفروا باللّه تعالى، وبالحقِّ الذي يقصدون إدحاضَهُ وإزالتَهُ، ويُشعر مجيء الكلام على مقتضى الظّاهر بتأخير الجارِّ والمجرور؛ ليكونَ لفظ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مقترنًا في اللّفظ بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾: أنَّ كفرَهم باطلٌ، ولا يأتي منه إلّا الباطل، وهذه فائدةُ المجاورةِ؛ فذِكْرُ الباطل بجوارِ الكفر تمكينٌ لقبحه والتَّنفير منه؛ إذ هو سببُ الجدالِ.

الكفرُ باطلٌ، وما أُسِّسَ على باطل فهو باطل

فائدةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

تحتمل الباءُ أن تكون للمُلابَسة، بمعنى: أنَّ مجادلتَهم ملتبسةٌ بالباطل غيرُ منفكَّةٍ عنه، أيْ: إنَّ كفرَهم هو الذي جعل جدالَهم ملتبسًا بالباطل ليدحضوا الحقَّ، كما تحتمل أن تكون للاستعانة، بمعنى: أنَّهم يستعينون بالباطل في جدالِهم لإدحاضِ الحقِّ، أي: ليس لهم لإدحاض الحقِّ إلا الاستعانةُ بالباطل، والمعنى: يجادلونَ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات ليعُجِّزوا الرُّسل، أو للتَّشكيك في القرآن، ويكون ذلك سببًا لإدحاضِ الرِّسالة[1].

الكافرون يستعينون لإدحاض الحقِّ بالباطلِ بشتّى الحيلِ والوسائل

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 196.

الجدالُ بالباطل مذمومٌ، والجدالُ بالحقِّ محمودٌ

فائدةُ التَّقييد بقولِه: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

يُحتَمل أن يكون تقييدُ الإسناد بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ لبيان الواقع، بمعنى: أنَّ الذين كفروا لا يجادلون إلّا بالباطل، والذي يدلُّ عليه ما تقدَّم من دلالة صلة الموصول على بيان سببِ الحكم، بمعنى: أنَّ كُفْرَهم هو الذي يجعلهم يجادلون، فيكون مجيءُ القيد على سبيل الذَّمِّ، كما يحتمل أن يكون التَّقييدُ بالجارِّ والمجرور لبيان المذموم من الجدال، فإنَّ الجدال هنا عامٌّ يشمل الباطلَ وغيره؛ لأنَّ المُرادَ به هنا المعنى اللُّغويُّ، ويكون مجيءُ الجارِّ والمجرور للاحتراز عن الجدال بالحقِّ الذي يكون ممدوحًا[1]، وفي ذِكْرِ الباطل تهيئةٌ لذِكْر الحقِّ في الجملة التَّعليليَّة لجملة الجدال الَّتي مقطعُها الباطلُ؛ فيترتَّب على ذلك صورةٌ للصِّراعِ الكائن بينهما، وتلك الصّورة الكليَّة من أساسيّات قصة الرُّسلِ، فلهذا وغيرِه ذُكِرَ الباطلُ، ثمَّ إنَّ إثباتَ الجدالِ لهم يعني: إثباتَ نوعِ رجاحةِ عقلٍ وفكرٍ واستنباطٍ، وما جرى في هذا الطَّريقِ من المعنى؛ لما يتبعُه من التَّشكيكِ والأَخْذِ والرَّدِّ والاستدلالِ إلى آخرِه، كأنَّ هذا الجدالَ يُقابِلونَ به التَّصريفَ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، فدحَضَ القرآنُ ذلك بالتَّقييد بـ ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فهم يسعون بجدالهم إلى غايةٍ باطلةٍ؛ إذا كانت الباء في: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ للمُلابَسة، وهم يستعينون في جدالهم بالباطل؛ إذا كانت الباء للاستعانة، وعلى كلٍّ، فذلك ينتفي معه كلُّ رجاحةِ عقل وإعمال فكرٍ ونحوِ ذلك.

حِرْصُ الكافرين على إبطالِ الحقِّ وسعيُهم له واضحٌ في السّياق

فائدةُ اللّام في قوله: ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾:

لمّا كانت اللّامُ في قوله ﷻ: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، هي لام التَّعليل؛ فقد أفادت أنَّ قصدَ الكافرين بجدالِهم هو أن يُزيلوا الحقَّ، ويُبطلوه، فتُفيد لام التَّعليل حرصَهم على إبطال الحقِّ وسعيهم إليه.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 285.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾:

أفادتْ صيغةُ المضارع استمرارَ الذين كفروا في إرادتِهم إدحاضَ الحقِّ وسعيهم له، وتجدُّد هذا الفعلِ منهم؛ كلَّما رأوا الحقَّ، وصيغة المضارع هنا تشاكلُ صيغته: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، فتلك العلَّةُ دحضُ الحقِّ بالباطلِ حاضرةٌ معهم ومُتجدِّدةٌ مع تجدُّد كلِّ جدال، مع تجدُّد إتيانهِم بآية أو بدليل ونحو ذلك، ولَمَّا كان دحضُ الحقِّ ثقيلًا عظيمًا؛ لثقل الحقِّ وعِظَمِه في ذاته؛ كان مِن حالهم أنْ يُجدِّدوا الأسبابَ الَّتي بها يكونُ هذا الدَّحضُ، والمذكورُ منها هنا هو الجدالُ، وهو منظومٌ فعلًا مضارعًا؛ فلوحِظَ في نظمِ الدَّحضِ، فخرج في صورة الفعل المضارع، فكانت صيغتُه تمكينًا لدلالة صيغة: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾.

تجدُّدُ سعي الكافرين لإدحاضِ الحقِّ كلَّما رأوه متناميًا

براعةُ إسنادِ الإدحاضِ إلى الكافرين:

لم يُسنَدِ الإدحاض إلى الجدال، فلم يقُلِ الذِّكر الحكيم: (ليدحض الحقَّ)، فيعود الضَّمير على المصدر المفهوم من الفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾، بمعنى: ليدحض الجدالُ الحقَّ، بل قال: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، فيعود ضمير الجمع على الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم بذواتِهم يُريدون إزالةَ الحقِّ على سبيل المبالغة في سعيِهم لإزالة الحقِّ وإبطالِه، أيْ: إنَّهم يفعلون كلَّ ما تستطيعه ذواتُهم لإدحاضِ الحقِّ، وهذا يعني: أنَّ نفوسَهم تنطوي على رفضٍ شديدٍ للحقِّ، وقَبولٍ شديدٍ للكفر والباطل، وهذا تمهيد وتوطئةٌ قويَّة لمجيء قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ لفظًا ومعنًى ونَظْمًا.

الكافرون يفعلون كلَّ ما في وسعهم لإدحاضِ الحقِّ

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾:

جاء لفظ ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فشبَّه إرادةَ إبطالِ الحقِّ الذي جاء به المرسلون وإزالته عن موضعِه الذي استقرَّ فيه، وثبت، بإدحاض القَدَم؛ لأَنَّ الرِّجْلَ إِذا زَلَقَتْ؛ زالَتْ عَنْ مَوْضِعِ تَخَطّيها، فذكَر المُشبَّه به، وأُريد المُشبَّه، فهو

الإشعارُ بقُبح تآمر الكفَّار على إدحاض الحقِّ

من تشبيه المعقول بالمحسوس، وفيه إشعارٌ بقُبحِ كلامِهم ووساختِه؛ لأنَّ الزَّلقَ أكثرُ ما يكون في الوحلِ المُستَكرهِ، وفي الاستعارة مزيدُ بيانٍ لقصدِهم القبيح ولِشدَّة مكرِهم وسعيِهم في إبطال ما جاء به المرسَلون، وجعلِ باطلِهم موضِعَ الحقِّ، ويدخل في المعنى ما كان يُجادلُ به كفّارُ مكَّةَ بالباطلِ دخولًا أوَّليًّا[1].

فائدةُ الباء في: ﴿بِهِ﴾:

تنوُّعُ معنى (الباء) من فصيح البيان

في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ تحتمل الباء أن تكون للاستعانة، فكأنَّ جدالَهم آلةٌ يستعينون به لقصد إدحاضِ الحقِّ وإزالتِه، كما تحتمل أن تكون سببيَّةً، والمعنى: ليدحضوا بسبب جدالِهم الحقَّ، أيْ: إنَّ جدالَهم بقصد إدحاضِ الحقِّ، وليس بسبب إحقاقِه وإثباتِه.

دلالةُ مرجعِ الضَّمير ﴿بِهِ﴾ وتقديمه على المفعول:

الجدالُ بالباطل نوعٌ من أساليب إدحاضِ الحقِّ

يعود الضَّميرُ في قولِه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ على المصدر المفهوم من الفعل ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾ بما اتَّصف به، والتَّقديرُ: (ليدحضوا بجدالِهم بالباطلِ الحقَّ).

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾ للإيذان بعنايتِهم بجدالِهم واهتمامِهم به على سبيل تمسُّكِهم به لقصد إزالةِ الحقِّ وإبطالِه، وليس في التَّقديم معنى التَّخصيص؛ لأنَّهم لم يكتفوا بالجدال بالباطل؛ بل قاتلوا رسولَ اللّه ﷺ بقصد إدحاض الحقِّ كذلك، وفيه أنَّهم لم يجدوا في الحقِّ مجالًا لنقده، أو نقضه واتهامه والتشكيك فيه، وما جرى في هذا الطريق من المعنى، فلم ينظروا إلى الحقِّ فضلًا عن أن يحتفلوا بالنَّظر فيه؛ وإنَّما كان نظرهم في جدالهم نظامًا وأسلوبًا واستدلالًا وغير ذلك، وكان احتفالُهم مقصورًا على ذلك.

---

(1) الزّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دحض)، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110، والآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾:

(أل) هنا جنسيَّةٌ لتُفيد استغراق كلِّ أنواع الحقِّ الذي جاءهم، فيشمل رسالةَ سيّدنا محمَّد ﷺ، ويدخل فيه القرآنُ الكريم دخولًا أوّليًّا، ولمّا جاءت جملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ معطوفةً على ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ دلَّ على أنَّ الحقَّ مع المرسلين، وأنَّ تبشيرهم وإنذارَهم حقٌّ، وهذا مِن دلالة المجاورة.

الجدالُ في الحقِّ باطلٌ، ولا يجوز الجدالُ في الحقِّ

بلاغةُ الكنايةِ في سياق الآية المحكمةِ:

نجد في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّه لمّا كانت غايةُ الكافرين من الجدال هي إدحاض الحقِّ وإبطاله؛ أفاد بلازمِه أنَّ جدال المسلمين يكون لإظهار الحقِّ لا لإدحاضِه، وهو محمودٌ، ولهذا ذمَّ اللّه تعالى جدال الكافرين، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، وحثَّ على أن يكونَ جدال أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن، فقال تعالى في العنكبوت: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، فلا تدافع في آيات الجدال[1]، وإنَّما لم يُنَصَّ على جدالِ أهل الإيمان لإظهار الحقِّ؛ لأنَّه يكون نتيجةَ الصَّدِّ عن سبيلِ اللّه الحقِّ بالجدال فيه بالباطلِ لدحضه.

جدالُ المسلمين لإظهار الحقِّ، وجدالُ الكافرين لإدحاضِه

بديعُ الطِّباق بين ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ و﴿ٱلۡحَقَّۖ﴾:

عبَّر بطريق طباقِ الإيجاب بين لفظَي الباطل والحقِّ لإظهار الفرق بينهما، فالحقُّ هو الثّابت الذي لا يُسوَّغ إنكارُهُ ولا إبطالُه، وهو مأخوذٌ مِن: حقَّ الشَّيءُ يحِقُّ؛ إذا ثبت ووجب، ونقيضه الباطل، وفي الطّباق إيذانٌ بأنَّ الحقَّ الذي يُرسَلُ به المرسلون نقيضُ الباطلِ الذي يُجادل به الكافرون، فالحقُّ والباطل لا يجتمعان أبدًا، وهذا

الحقُّ والباطلُ ضدّان لا يجتمعان أبدًا

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 317.

الطِّباقُ هو نتاجُ النَّظْم؛ فمجيءُ الباطل في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ كان لسبب يقتضيه السِّياقُ، وعُبِّرَ بالحقِّ؛ لأنَّه المقابلُ للباطل؛ لتتكوَّنَ للصِّراعِ البشري العَقَديِّ صورةٌ كلية، وفي التعبير به إيماءٌ إلى نتيجة هذا الصِّراع، وهو بقاء الحقِّ بما فيه من معنى الثبات والوجوب.

بلاغةُ الوَصْلِ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

الاستهزاءُ بآيات اللهِ أقبحُ من المجادلة بالباطلِ

عُطفت هذه الجملةُ على جملة ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ للإيذانِ بأنَّهم ما قَصَدوا من المجادَلَةِ الاهتداءَ بما جاءهم، ولكنْ أَرادوا إِدحاضَ الحقِّ واتِّخاذَ آياتِ اللّه وما أُنذروا هزوًا[1]، أو يكون العطفُ على معنى التَّرقّي في قُبح عملِهم وقولِهم، أيْ: لم يكتفوا بالجدال بالباطل، بل زادوا عليه اتِّخاذَ آيات اللّه وما أنذروا هزوًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

أهميَّةُ مراعاةِ المعنى والمقامِ في مجيء الفعل ماضيًا أو مضارعًا

تقدَّمَ أنَّ الذِّكر الحكيم قد عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ﴾؛ لإفادة استمرارِ حالِهم في جدالِهم بالباطل وتجدُّده، وفيه إشعارٌ ببقاء الحقِّ ودوام ظهوره، ولمّا كان اتِّخاذُ الاستهزاء أمرًا واحدًا يكون مرَّةً واحدةً، فإذا تكرَّر؛ تكرَّر بجملته، وكان المُرادُ بيانَ أنَّ اتِّخاذهم آياتِ اللّه وما أنذروا هزوًا أمرٌ مقطوعٌ به؛ عُبِّرَ عنه بصيغة الماضي، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الاتخاذ:

إفادةُ قوَّةِ الجدال بآيات الله وما أُنذروا به

لمّا كان الاتِّخاذُ بمعنى تحصيلِ الشَّيءِ بقوَّةٍ وتمكُّنٍ منه؛ أفاد التَّعبير بـ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أنَّهم كانوا في غاية الاستهزاء بآيات اللّه وما أُنذروا به، وأنَّ استهزاءهم كان بقوَّة، وأنَّهم كانوا حريصين عليه غيرَ راغبين في تركه، وهذا مؤسَّسٌ على علَّة الجدال: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، فهذا الدَّحضُ يلزم منه أن يكون جدالُ أهلِ الكفرِ قويًّا، واستهزاؤهم قويًّا.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 353.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 90.

دلالةُ قولِه: ﴿ءَايَٰتِي﴾ وفائدة الإضافةِ فيها:

لا تكونُ الآيةُ خارقةً ومدهشة إلّا إذا كانت من الله دون سواه

أفاد التَّعبيرُ بـ﴿ءَايَٰتِي﴾ عمومَ آيات اللّه تعالى، فيشمل كلَّ آيات القرآن، وعلامات الرَّسول ﷺ قولًا وفعلًا[1]، وتُفيد إضافة (آياتِ) إلى ضمير ياء المتكلِّم اختصاصَ الآيات به ﷻ، لتفيدَ الإضافةُ تشريفَ الآيات وتعظيمَها، فهي آياتُ الإله الواحد الأحدِ، كما تُؤْذِن الإضافة بأنَّ تعظيم آياتِ اللّه تعظيمٌ له ﷻ، وهذه الإضافةُ تدلُّ على ظهورِ الألوهية والرُّبوبية جلالًا وجمالًا في الآيات، فكيف يكون منهم أدنى استهزاء بها، فضلًا عن أن يكون منهم استهزاءٌ قويٌّ بها؟ إنَّ في الإضافة إنكارًا بالغًا لذلك، وتشهيرًا بقبحهم، وتعريفًا بظلام قلوبهم وتعطيل عقولهم وعمَى أبصارهم وبصائرهم.

دلالةُ عرض الخبرِ في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾:

بيانُ أنَّ شدَّةُ الوعيد مزجاةٌ لَمَنْ يتَّخذُ آياتِ الله هزوًا

لمّا كانت إضافةُ الآيات إليه سبحانه على معنى تشريفِها ورفعةِ منزلتِها وعلوِّ شأنِها؛ أفادت أنَّ الإيمانَ بها هو من الإيمان باللّه تعالى، لكنَّهم بدلًا من أن يؤمنوا بها، ويُقدِّروها، ويُعظِّموها، اتَّخذوها هزوًا، فجاء الكلامُ على طريقة الخبر ليدلَّ على الوعيدِ والتَّهديدِ لمَن يتَّخذُ آياتِ اللّه هزوًا[2].

فائدةُ العطف في: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾:

تعظيمُ الاستهزاء بآياتِ الإنذارِ، ومنها الاستهزاءُ بعذابِ النّار

العطفُ في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ للاهتمام به، فيكون الكلامُ على الإطنابِ، والمعنى: اتَّخذوا آياتِ اللّه كلَّها وبخاصَّةٍ آيات الإنذار هزوًا، أيّ: كان ينبغي عليهم أن يتَّعظوا بها لا أنْ يستهزئوا بها، فكان عطفُ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ على ﴿ءَايَٰتِي﴾ أَبْلَغ في الدَّلالَةِ على تَوَغُّلِ كُفْرِهِم وحَماقَةِ عُقولِهِم[3].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 525، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/ 729، والعُكْبَري، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 852، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 353.

وعطفُ بعض جزئيات الكلِّ على الكلِّ تنبيهٌ على كون المعطوف أعظمَ جزئياتِ الكلِّ في السياقِ، والسورةُ مؤسَّسةٌ على الاحتفال بهذا الإنذارِ؛ لأنَّهُ تعالى ذَكَرَ في مطلعها أنَّ القرآنَ يُنذر الذين قالوا: اتخذ اللّٰه ولدًا، مِن بعد أن ذكَر النِّذارة والبشارة مُسنَدتَيْن إلى الكتابِ، واختصاصُ ما أنذروا به مِن الآيات بالذِّكْرِ؛ لبيان أنَّ آيات الإنذار كانت تستثيرُهم، وتُخوِّفُ جِبِلَّاتِهم، وتُزلْزِلُ أركانهم، فيُخفون ذلك، ويُظهرون الاستهزاءَ، ولبيان أنَّهم قومٌ قسَتْ قلوبُهم، وغابَ منها جلالُ اللّٰه كما غابَ منها جمالُهُ حين رتَّبوا على التَّصريفِ في القرآنِ مِن كلِّ مثَلٍ، وعلى إتيان الرُّسُل بالآيات المُبشِّرة: الجدالَ، وعدمَ الإيمان، وترْكَ الاستغفار.

دلالةُ ﴿وَمَآ﴾:

تـنـوُّعُ الـدَّلالـة يُـفـيـد سـعـة المعنى وتنوُّعَهُ

الظّاهر أنَّ ﴿وَمَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ موصولة بمَعْنَى (الَّذي)، والعائِدَ مَحْذوفٌ، والتَّقدير: (واتَّخذوا آياتي والَّذي أنذروا به أو أنذروه هزوًا)، ليفيد أنَّ سبب استهزائِهم بها، هو كونُها آياتِ إنذارٍ لهم، وذلك تعجيبٌ لحماقتِهم، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ ﴿وَمَآ﴾ مَصْدَريَّةً، والتَّقدير: (واتّخذوا آياتي وإنذارهم هزوًا)[1]، ليُفيد مبالغتَهم في استهزائِهم؛ إذ استهزؤوا بعين الإنذار الذي يستلزم استهزاءَهم بالمنذَرين به، وهذا مؤسَّسٌ على الاستعارة في قوله تعالى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾، ومآلُ الوجهَيْن واحدٌ، إلّا أنَّ الثّاني أعمُّ وأبلغ مِن الأوَّل، وهو الأبرُّ بالاستعارة المذكورة.

نكتةُ التَّعبير بما لم يُسمَّ فاعله في ﴿أُنذِرُواْ﴾:

بيانُ أنَّ استهزاءَ الـكـافـريـن بـالإنـذار هـو استهزاء بالمرُسَل

عبَّرَ بصيغة البناءِ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّ الفاعل معروفٌ، أيْ: وما أنذرهم المرسلون به، لتقدُّم الإشارة إليه في قوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾، فكان الغرضُ ذِكْر المُخيف، وهو الذي أُنذِروا بهِ، أو

(1) البغويُّ، معالم التّنزيل: 3/ 201.

إنذارهم[1]؛ لأنَّ الرَّسول ليس إلّا مُبشِّرًا ومُنذِرًا، فلا مدخل له في التَّخويف، فكان استهزاءُ الأقوام الكافرين بالرُّسل أنفسِهم في الحقيقة استهزاءً للإنذار وما أنذروا به.

معنى حذفِ الجارِّ والمجرور في: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾:

الاستهزاءُ بالقرآن استهزاءٌ برسولِ الله وبعذابه في الدّارين

لمّا كان الظّاهر أنْ تكونَ ﴿وَمَآ﴾ اسمًا موصولًا؛ كان حذفُ العائد على خلاف مقتضى الظّاهر، والأصل: (وما أُنْذِروا به)، ونكتته ظهورُ المُراد بقرينة السّياق، والإشعارُ بعموم استهزائِهم وسخريَّتِهم لكلِّ ما أُنذروا به، والمُراد استهزاؤُهم بالقرآن وبجميع ما أنذرهم به الرسول، ويدخل فيه استهزاؤهم بالعذاب في الدنيا والآخرة دخولًا أوَّليًّا[2]، وفي الحذف أيضًا إشارةٌ إلى حقارة مدلوله وضآلته وصغره في أبصارهِم وبصائرهم، فقد هانَ عليهم، وضعُفَ عندَهم، وحقُر، فيكونُ الحذفُ على هذا تمهيدًا قويًّا لذِكْر المفعولِ الثاني الذي تتمُّ به الفائدةُ، وهو قوله: ﴿هُزُوٗا﴾.

فائدةُ الوصف بالمصدر ﴿هُزُوٗا﴾:

بيانُ اتِّخاذهم ما أنذروا به هزوًا وسخرية

لمّا كان لفظُ ﴿هُزُوٗا﴾ مفعولًا ثانيًا؛ كان على تقدير الوصف للمفعول الأوَّلِ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾، فالتَّقديرُ: (واتّخذوا ما أنذروا هزوًا)؛ بدلالة العطفِ بالواو، ولمّا كان ﴿هُزُوٗا﴾ مصدرًا؛ أفاد المبالغةَ في الوصف، فكأنَّهم اتَّخذوا ما أُنذروا عينَ الهزوِ، أو المعنى على تقدير مُضافٍ قبل المصدر، أي: اتَّخذوا ما أُنذروا موضعَ استهزاءٍ[3]، والحملُ على الوصفِ بالمصدر في المعنى دون تقدير مضاف هو الأبلغُ في تصوير حال المُحدَّثِ عنهم الذين قصدوا، وسعوا بأنفسهم إلى هدم الحقِّ ودحضه على ما يفهمه قولُه: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾،

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 12/ 90.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 110.

دون (ليدحض به الحقَّ) على أنَّ الفاعلَ ضميرُ المصدرِ المفهوم مِن الفعل (يجادل).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسالُ حملُ رسالةٍ إلى المُرسَل إليه، والبعثُ إرسال لرسالة أو غيرها

الإرسالُ يقتضي حملَ رسالةٍ أو خبرٍ إلى المُرسَل إليه، مع تُؤدةٍ في الإرسالِ وسهولةٍ ولطفٍ فيه، والإرسالُ يُشعر أنَّ المرسِلَ مُنْعِمٌ على المُرسَل إليه؛ لأنَّ الإرسالَ يقابل الإمساكَ، وأمّا البعثُ؛ فإنَّه يجوز أن يكون المبعوث لأمر يخصُّه دون المبعوث إليه، فلا يُشترط فيه أن يكون لإرسال رسالةٍ إلى المبعوث إليه، كما أنَّ البعثَ فيه تهييجٌ وإثارة للشَّيءِ مع توجيهه، ومنه: بَعَثْتُ البعيرَ أثرتَه وسيَّرتَه، ويُقال: بعثُ الموتى، ولا يُقال: إرسالُ الموتى، فالبعثُ يُستعمل فيما يكون فيه حركةٌ وإثارةٌ[1].

الإنذار والتَّخويف:

الإنْذارُ تحذيرٌ من مكروه متوقَّع، والتَّخويفُ إعلام بالخطر والضَّرر

الإنْذار تخويفٌ من مكروه سيقع مع إعْلام مَوضِع المَخافة والتَّحذير منه، من ذلك قَوْلُك: نذرتُ بالشَّيْءِ؛ إذا عَلِمتَهُ، فاستعددتَ له، فإذا خوَّف الإِنْسانُ غيرَه، وأعلَمَهُ موردَ المَخافةِ وحذَّره منه، فقد أنذره، وإن لم يُعلمهُ ذَلِك؛ فلا يُقال: أنذره، والنَّذر ما يجعله الإنسان على نفسِه؛ إذا سلم ما يخافه، كما أنَّ الإنذارَ فيه إحْسانٌ من المُنْذِر لتحذير المُنْذَر وإعلامِه بموضع المخافة، وكلَّما كانت المخافةُ أَشدَّ؛ كانت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ النّاس منه بإنذاره لهم عقابَ اللّه تعالى، وقد وُصف الرُّسل بالمُنذِرين، ولم يوصَفوا بالمُخوِّفين، فالتَّخويف توقُّع مكروهٍ في المستقبل من غيرِ إعلامٍ بموضع المخافة ولا التَّحذير منه، كما

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بعث)، و(رسل).

أنَّ التَّخويف فيه إرعابٌ، والإنذار فيه تحذيرٌ، وضدُّ الخوف الأمنُ، وضدُّ الإنذار التَّبشيرُ[1].

الدَّحْض والدَّفع:

الدَّحْضُ هو إزالة ما فيه ضرر واستبداله، والدَّفعُ صرفُ الشَّيْء قبل وُروده

الدَّحض هو إزالة ما فيه ثِقَلٌ من موضع، وقد يُقصد أن يكون مكانه شيءٌ آخر، فعُبِّر في الآية الكريمة ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ عن قصدِهم إزالة الحقِّ ووضع الباطل مكانه بالدَّحض لقوَّة الحقِّ وثباتِه، وأمّا الدَّفع؛ فهو صرفُ الشَّيْء قبل الوُرود، والرَّدُّ هو دفع الشَّيء وإرجاعٌ إلى خلف بعد أن كان مُسترسلًا[2]، ولا يناسب هنا ذِكْر الدَّفع ولا الرَّدِّ لانتفاء مناسبتهما للمقام؛ لأنَّ الحقَّ واردٌ، وقد ثبت بإرسال المُرسَلين، والذين كفروا يُريدون إزالةَ الحقِّ وجعْلَ الباطلِ مكانه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242، والراغب، المفردات: (نذر).

(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دحض)، (دفع)، (ردد)، والكفوي، الكليّات، ص: 450.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربْطُ جدالِ أهلِ الكفر واستهزائهم بظلمِ المرءِ نفسَهُ بالجحودِ والكنود

لّما حكى اللّه تعالى عن الكفّار جدالَهم بالباطلِ واستهزاءَهم، وكان حالهم في جدالِهم حالَ مَنْ جاءه الهدى، فأعرض عنه؛ فكانوا بذلك أظلمَ الظّالمين؛ وصفهم بما يوجب الخزي والخذلان، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لّما بَيَّنَ حالَهُم مِنْ مُجادَلَةِ الرُّسُلِ لسوءِ نيَّةٍ، ومِن استِهْزائِهم بالإِنْذارِ، وعَرَّضَ بحَماقَتِهم؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بأَنَّهُ أَشَدُّ الظُّلْمِ؛ ذَلِك لأَنَّهُ ظُلْمُ المَرْءِ نَفْسَهُ، وهوَ أَعْجَبُ الظُّلْمِ، فالَّذينَ ذُكِّروا ما هُم في غَفْلَةٍ عَنْهُ تَذْكيرًا بواسِطَةِ آياتِ اللّه، فأعرضوا عَنِ التَّأَمُّلِ فيها مَعَ أَنَّها تُنْذِرُهُم بسوءِ العاقِبَةِ، وشَأْنُ العاقِلِ - إذا سَمِعَ مِثْلَ ذَلِكَ - أَنْ يَتَأَهَّبَ للتَّأَمُّلِ وأَخْذِ الحَذَرِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُكِّرَ﴾: الذِّكر خلافُ النِّسيان، وهو هيئةٌ للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة باعتبار استحضارِه، والذِّكر يُستعملُ بقصدِ ذِكْر اللِّسان أو اللِّسان والقلب كما في ذِكْر اللّه تعالى، ويُستعمل بمعنى الذِّكْر عن نسيانٍ، أو لإدامة الحفظ وعدم النِّسيان، والتَّذكرة ما يُتذكَّر به الشَّيء، وكثير من صيغ (التَّذكير)

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476، والبقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 354.

و(التَّذكُّر) تصلح لما هو ضدُّ النِّسيان ولمعنى الوعظ، وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجر[1]، ومعنى ﴿ذُكِّرَ﴾ في الآية: وُعظ.

2) ﴿فَأَعْرَضَ﴾: (عرض) أصل يدلّ على اتِّساع ما يواجه النّاظرَ من الشَّيءِ الكثيف بحيث يكون مُنتصِبًا مانعًا، فمن ذلك العارضُ، وهو السَّحابُ، وعُرْض الشَّيءِ: ناحيتُه، وإذا تعدّى الفعل إلى المفعول بنفسِه، فقيل: عرضتُ كذا؛ فمعناه أبرزتَهُ وأظهرتَهُ، وإذا عُدّي الفعل بـ(عَنْ)؛ فقيل: أَعْرَضَ عنّي؛ فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ، بمعنى: أنَّه انحرفَ عنه، وولّاه عُرْضه، أيّ: أخذَ جانِبًا غيْرَ الجانِبِ الّذي هوَ فيهِ، فالإعراضُ هو أن تولّيَ الشَّيء عرضك، أَيْ: جانِبك، ولا تُقبل عليه، بقصدِ عدم الالتفات إليه، ويلزمه عدم المبالاةِ به[2]، ومعنى ﴿فَأَعْرَضَ﴾: تهاوَنَ، واستخفَّ بها.

3) ﴿أَكِنَّةً﴾: الكِنُّ: ما يُحفظ فيه الشَّيء، يُقال: كَنَنْتُ الشَّيءَ كَنًّا: جعلتَه في كِنٍّ، ويدور المعنى المحوريُّ للكلمة على السَّتْر في تجوُّفٍ متينٍ يستُر أو يَحْمي، وكَنَنْتُ الشيءَ: سترتَهُ وصُنْتَه من نحو الشمس، أيْ: جعلتَهُ في كِنٍّ، وخُصَّ (كَنَنْتُ) بما يُستَرُ ببيت أو ثوب...، وغير ذلك من الأجسام، وأَكْنَنْتُ بما يُستَر في النَّفس، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ [البقرة: 235]، والأكنَّةُ: جمعُ كِنانٍ، والمعنى في الآية: جعلنا على قلوبهم أغطيةً عن أن يفهموا القرآنَ، ويعوه، فلا يصل إليها القرآنُ، ولا يفهموه، ولفظ ﴿أَكِنَّةً﴾ على المجاز.

4) ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: (فقه) أصل يدلّ على الوصول إلى حقيقةِ باطنِ الشَّيء لاشتقاقِ اللَّفظ من الشَّقِّ والفتْحِ، والفِقْهُ: العلمُ بالشَّيء وفهمُهُ فهمًا عميقًا مستوعبًا، والفقهُ ينصبُّ أصلًا على معاني الكلام، ويُقال: فقِهَ الكلامَ؛ كأنَّما غاصَ في داخلِه، فأدرك دقائقَهُ وخفاياه، والفقه أخصُّ من العلم؛ لأنَّه - أيِ: الفقه - بمعنى التَّوصُّل إلى علمٍ غائبٍ بعلم شاهد، ومعنى ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ في الآية الكريمة: يعلمون كُنهَهُ ومقصوده.

5) ﴿وَقْرًاۖ﴾: (وقر) أصل يدلّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ، ومنهُ الوَقْرُ (بفتح الواو): الثِّقَلُ في سماعِ الأُذُنِ، وقيل: الوقرُ أن يَذْهَبَ السَّمعُ كُلُّهُ، والثِّقَلُ أَخَفُّ مِنْ ذَلِكَ، والوِقْرُ بكسر الواو: الحِملُ للحمار والبغل، ويُقالُ: نَخلَةٌ موَقَّرَةٌ وموقِرٌ، أَيْ: ذاتُ حَملٍ كَثيرٍ، واسْتَوْقَرَ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (ذكر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (عرض).

إذا حَمَلَ حِملًا ثَقيلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾ [الذاريات: 2]، أي: السحاب تحمل الماءَ، كما تحمل ذوات الأربع الوِقْر، ولمّا كانت الدابَّةُ التي تحمل حملًا ثقيلًا تسكنُ؛ قيل: وقَّر الدّابَّةَ؛ إذا سَكَّنَها، ومن الثقل الذاتي المادي يأتي الثقل المعنويُّ، فالوَقارُ: الحِلْمُ والرَّزانَةُ والسُّكون، ومن هنا دلَّ الوقار على العِظَم المعنوي، والتَّوْقيرُ: التَّعْظيمُ والتَّرْزينُ[1]، و﴿وَقۡرٗاۖ﴾ في الآية بمعنى: الثِّقَل في السَّمع[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أحدَ أظلم ممَّن ترك الحقَّ بعد علمه به، فأعرض ولم يهتدِ

يخبر اللّه تعالى أنَّه لا أحدَ أظلم ممَّن ذُكِّرَ بآيات ربِّه ووُعِظَ بها؛ ليستدلَّ بها على سبيل الرشاد، فتَوَلَّى عنها، وتَرَكَها، ونسي ما عمل من الذُّنوب المهلكة، فلم يتُب، إنّا جعلنا على قلوب هؤلاء الذين يُعرِضون عن آيات اللّه - إذا ذكِّروا بها - أغطيةً؛ لئلّا يفهموا ما ذكِّروا به منها، وفي آذانهم ثقلًا؛ لئلّا يسمعوه سماعَ انتفاع، وإنْ تَدْعُ - يا مُحَمَّد - هؤلاء المُعرِضين عن آيات اللّه عند التَّذكير بها إلى الإيمان باللّه، فلن يستقيموا إذًا أبدًا على الحقِّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه؛ لأنَّ اللّه قد طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجهُ عطفِ الآية على ما قبلها:

الاشـتراكُ في وصف أهلِ الكفر وموقفهم من الآيات والإيمان بها

في قوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ عُطِفت الآية على ما قبلها بالواو، وجاءَت في عقبها؛ لما بينهما من تواصُلٍ وتضامٍّ، فممَّا يجمعُ بينهما الحديثُ عن أهل الكفر والشِّرك، وموقفِهم من آياتِ اللّه ومَن جاءَهُم بها، وهو النبيُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (وقر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 52، وابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 52، والبَغَويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 210.

محمَّدٌ، ولهذا كان بينهما التوسُّطُ بين الكمالَيْن فتعاطفا، ومِن وجوه التواصُلِ بينهما: أنَّ أهل الكفر في الآية السابقة اتخذوا الآياتِ، وما أُنذروا هزوًا، وفي هذه الآية أعرضوا عن الآياتِ، وموقفُهم مِنَ الآياتِ فيهما غيرُ مُرْضٍ للعاقل، فكيف يُرضي ربَّهم ﷻ؟ وإذا كانوا في الآية السابقة يجادلون بالباطل، فهم هنا قد نسوا ما قدَّمت أيديهم، والجدالُ سابقٌ على هذا الذي هو متأخِّر عن الجدالِ، كذلك يتأخَّرُ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾، وفي هذا بيانٌ أنَّهم قومٌ لا يُرْجَى منهم إيمانٌ أبدًا، فكان هذا مقطع الحديثِ عنهم، ومُنبئًا بانتقال السّورةِ إلى حديثٍ آخَرَ، ففي الآيتَيْنِ ترقٍّ في وصفهم، فالثّانيةُ من تمام الأولى.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي في السّياق:

لا يوجدُ أظلمُ ممَّن ذُكِّر بآيات الله فأعرض عنها

في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، عبَّرَ عن الإنكار على إعراضِ الكافرين عن آيات ربِّهم بطريق الاستفهام المجازيِّ، ليكون أبلغَ في الإنكارِ، ليفيد وقوعَ إعراضِهم والإنكارَ عليه، والتَّعجُّبَ من إعراضِهم، وتوبيخَهم عليه، والتَّنديدَ بهم، وليفيد الكلامُ النَّفيَ وتقرير هذا النَّفي[1]، بمعنى: لا أحدَ أظلمُ ممّن ذُكِّرَ بآيات الله، فأعرض عنها[2]، ولم يَقُل ﷻ: (لا أحد أظلم...)، وإنَّما قال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؛ لأنَّ المُنْكَرَ في حالة مِن الفظاعة والشناعة بحيث كأنَّ الأصلَ والظّاهرَ فيه ألّا يوجَد، فلا يكون معروفًا معلومًا، بل كان مِن شأنه أن يُسأل عنه؛ فلهذا عُبِّر بالاستفهام مع ضميمة إفادتِه معانيَ أخرى يرشِّحُها السياقُ.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 155، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4550.

(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 196، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

تساوي المكذّبين والمفترين على الله ورسوله في كونهم أكثرَ ظلمًا

براعةُ التَّعبيرِ باسم التَّفضيل في ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

لمّا عبَّر هنا بـ(أفعل) التَّفضيل ﴿أَظۡلَمُ﴾، وكان مفهومُ (أفعل) التَّفضيل يفيد مشاركةَ طرفَيْن أو أطراف في وصف، وأنَّ أحدهما زائدٌ على الآخر في ذلك الوصف؛ كان ينبغي ألّا يتكرَّر هذا التَّعبيرُ في القرآن في الظّاهر؛ لما يُفيده الوصفُ بـ(أفعل) التَّفضيل أنَّه لا أحدَ أظلمُ من عبدٍ ذُكِّرَ بآياتِ اللّه، وبُيِّن له الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، فهو أظلمُ من المُعرض الذي لم تأتِه آياتُ اللّه، ولم يُذكَّر بها، ولمّا جاء في آيات أخرى التَّعبيرُ بـ﴿أَظۡلَمُ﴾ في معانٍ أخرى، يُفهم منها خلاف هذا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ [البقرة: 140]؛ كان التَّعبيرُ بـ(أفعل) التَّفضيل على معنى نفي الزّيادة في الظُّلم، فنفيُ الأفضليَّةِ لا يستلزم نفيَ المساواة، فيقتضي مساواتهم في أعظم الظُّلم وأشدِّه.

ولمّا كانت الآياتُ التي ورد فيها هذا التَّعبيرُ في سياق تكذيب آياتِ اللّه والافتراء على اللّه سبحانه وفي الكفّار عمومًا؛ أفادتِ التَّساوي في كون صاحبه قد ظَلَم ظلمًا لا أحدَ أظلمُ منه، وهو التَّكذيب بآيات اللّه والافتراء عليه سبحانه، وأنَّه قد صارَ في منزلةِ أعظمِ الظُّلم وأشدِّه، ويُحتمل أن يُقال: إنَّ (أفعل) التَّفضيل مقصورٌ على الموضع الذي ورد فيه على سبيل المبالغة والتَّهويل، والمعنى في الآية: لا أحدَ أظلمُ منه في مقام الإعراضِ عن آيات اللّه والاستهانةِ بها(1).

لا ظلمَ أعظمُ من ذنبِ الكُفرِ، فليس بعد الكفر ذنبٌ

سببُ إيثارِ حذْفِ تمييز ﴿أَظۡلَمُ﴾:

لمّا كان الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ﴾ أن يذكر تمييزَ (أفعل) التَّفضيل مفسِّرًا الإبهام الذي فيه؛ كان في حذف التَّمييز المفسِّر للأظلميَّة إيذانٌ بالعموم، فالمعنى:

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 2/ 77 - 78، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/ 405.

ومَنْ أظلمُ كُفرًا ممَّنْ تَردُ عليْه الآياتُ والبَيِّناتُ، فيُعْرِضُ عَنْها، ويَنْسَى ما قَدَّمَتْ يَداهُ[1]، وأيضًا: ومَنْ أظلم نفسًا، أيْ: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه ممَّنْ لم يتَّعظ بآياتِ ربِّه، ولم يقبلها[2]، فلمّا كفرَ؛ ظلمَ نفسَهُ، وأيضًا: ومَنْ أظلم ذنبًا ممَّن أذنبَ بإعراضِه عن آياتِ اللّه، ونسي ما قدَّمت يداه؛ ليفيد أنَّه قد حملَ الأظلمَ في ذنبِه، ولا ذنبَ أعظمُ من ذنبِ الكفرِ، وهذا الحذفُ يُقَوِّي داعيَ التعبيرِ بالاستفهام.

بلاغةُ لازمِ فائدة الخبر في ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

ليس مَنْ آمن باللّه واتَّعظ بآياته كمَنْ أعرض ونسي

في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ يدلُّ الخبرُ بلازمِ فائدتِه على نفي المساواة عندَ اللّه تعالى بين مَنْ يؤمن بآياتِ ربِّه، ويتَّعظ بها، ومَنْ يُعرض عنها، ويَنسى ما عملَ من الذُّنوب والمعاصي، ونفيُ التسويةِ يكونُ في العملِ والجزاءِ والتقديرِ والمكانةِ عندَ اللّه ﷻ، وفي أحوالِ النفسِ والقلبِ، وما جرى في هذا الطريق.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

كلُّ مَن أعرض عن الدّين فهو مِن الظّالمين

في قوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، يفيد الاسمُ الموصولُ العمومَ، فلا يُراد به شخصٌ مُعيَّنٌ، ويدخل فيه المُشْرِكون من العَرَبِ - الَّذينَ ذُكِّروا بالقُرْآنِ، فأَعْرَضوا عَنْهُ - دخولًا أوَّليًّا[3].

وقد أفاد التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في هذه الآية أنَّ الحُكمَ بالأظلميَّة مبنيٌّ على إعراضِ الكافرِ عن القرآن، ونسيان ما قدَّمت يداه، وأنَّ مَنْ يفعل هذا هو أظلمُ من كلِّ ظالم، وفيه إشعارٌ بأنَّ ظُلْمَ مَنْ يجادل في الآيات، ويتَّخذها هزوًا خارجٌ عن الحدِّ[4]، وأفاد

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 187، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 299.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 354.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 230، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 286.

أنَّ هذا الظالمَ لا حُجَّةَ له ولا عذرَ له يوم القيامة في طلب النَّجاة من النّار؛ لأنَّ مضمون الصِّلة: ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ قد عُرِف وعُلِم وشُهِروا به، وأفاد عظيمَ قبحه وشناعته؛ لكون مضمون الصلة: ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ كذلك.

بلاغةُ الاستعارة في ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾:

في قوله جلَّ ذِكره: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، استُعير لفظ ﴿ذُكِّرَ﴾ لمعنى التَّبليغِ بقوَّةٍ، وليس لأصلِ معنى التَّبليغ فحسب؛ لأنَّ السّياق للامتنان، ومِن معاني السّياقِ التَّصريفُ المذكورُ في الآية، وسرُّ هذه الاستعارة: الإشعار بأنَّ تبليغ آياتِ الله لوضوحِه وقوَّة ظهوره كان ينبغي أن يكون حاضرًا في الأذهانِ، وأن تكون أذهانهم على ذُكْرٍ بها؛ لوجوب الإيمانِ والعمل به، وفي التَّذكير معنى التَّبليغِ بقوَّةٍ، وزيادة وهي معنى التَّذكير، ومِن مزايا الاستعارة: الإيجازُ، فإنَّ ﴿ذُكِّرَ﴾ أوجزُ مِن (بُلِّغَ بقوَّةٍ) ونحوِ ذلك.

مِن مزايا هذا السّياق الإيجازُ، وهو أجلى في الدّلالة والبيان

سببُ مجيءِ ﴿ذُكِّرَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

في مجيءِ الفعل بصيغة المبني للمفعول ﴿ذُكِّرَ﴾ إيجازٌ بحذف الفاعل، والغرض من حذفِه بيانُ أنَّ النَّظرَ إلى الحدث نفسه - وهو التَّذكير - دون الاحتياج إلى النصِّ على الفاعل - وهم الرُّسل - فالحذفُ أفاد أنَّ مناطَ الإيمان هو الآياتُ المُذَكَّرُ بها، لا المُذَكِّرُ بها؛ لأنَّها من شدَّة وضوحها في نفسها بحيث تدلُّ على المطلوب؛ إذا تُليَت مِن أيِّ أحدٍ، فلا عذر لهم في الكفر والإعراض عنها، كما أنَّ في الحذف تكثيرًا في المعنى؛ لأنَّه لو ذُكِرَ الفاعلُ؛ لكان قُبحُ الإعراض مقصورًا على تذكير الرُّسل، فلمّا حُذِفَ الفاعل؛ أفاد العموم ليشمل كلَّ مَنْ ذُكِّرَ بآيات الله إلى يوم القيامة.

كلُّ مَنْ ذُكِّرَ بآيات الله ثمَّ أعرضَ عنها مُستقبَلًا داخلٌ في الأظلميَّة

دلالةُ التَّعبير ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ دون (بالقرآن):

الظّاهر أنَّ المُرادَ بـ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ القرآنُ؛ وذلك لمجيء الضَّمير

آياتُ القرآن كثيرةٌ ومتنوّعة، وتمتاز بكونها باهرةً وواضحة

مفردًا في قوله: ﴿يَفۡقَهُوهُ﴾[1]، ونكتةُ التَّعبير بالآيات دون القرآنِ هو الإشعارُ بكثرةِ الآيات والحُجج التي ذُكِّرَ بها وتنوُّعها، وأنَّها علاماتٌ عظيمةٌ باهرةٌ واضحةٌ، ففيه توبيخٌ وتقريعٌ وتقريرٌ لأظلميَّتِه؛ لإعراضِه عن الآياتِ الكثيرة.

بلاغةُ استعمال لفظ الآيات في السياق:

إعراضُ القومِ عن الآيات أفضى إلى عدم الانتفاع بها

في اصطفاءِ لفظ الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ - من حيثُ هو جمعٌ لفظًا ومعنًى، دونَ التَّعبير بالقرآنِ المُفرَدِ لفظًا - دلالةٌ على أنَّهم بُلِّغوا، وذُكِّروا على جهةِ التَّفصيلِ والتكريرِ، لا على جهةِ الإجمالِ والإيجاز، وفي هذا مِن تقرير ظلمِهم الفاحش ما فيه، وهذا كلُّه يعني: أنَّ هذا الجمعَ: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ - من حيثُ هو جمعٌ - ناظرٌ إلى قولِه تعالى في سياق السباق: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، وممّا يؤيِّدُ هذا: أنَّ التذكيرَ بالآياتِ في قوله تعالى: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، يعني: أنَّهم خوطِبوا بها أكثرَ مِن مرَّةٍ، وعلى أكثرَ من وجهٍ مِن وجوه النَّظْم، فيكونُ هذا التذكيرُ راجعًا إلى التَّصريف في القرآن للناس من كل مَثَلٍ.

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾:

التَّعجيبُ ممَّن يُعرض عن آيات المُحسِن إليه بأنواعِ النِّعم

لمّا أُضيفتِ الآياتُ إلى عنوان الرُّبوبية؛ أفادتِ الإضافةُ قبحَ إعراضِ مَن ذُكِّر بهذه الآيات والتَّعجيب من حالِه؛ لما في لفظ (الرَّبِّ) من معنى المُنْعِم والمُحسِن والمُدبِّر له، أيْ: كيف يعرضُ عن آيات ربِّه المُحسن إليه بها بدلًا من أن يشكرَهُ بالإيمانِ به وبرسولِه الذي جاء بهذه الآيات[2]، ففي التَّعبير بلفظ الرُّبوبية إنكارٌ خفيٌّ على المُحدَّثِ عنه بعدم انتفاعِه بالآياتِ، وإعراضه عنها.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 729، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 385.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387.

المبادرةُ إلى الإعراض عن آياتِ الله حماقةٌ وقلَّةُ عقلٍ

دلالةُ الفاء في قولِه: ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾:

لمّا كانت الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب؛ فقد أفادت في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ مبادرةَ المذكورين إلى الإعراض عن آيات ربِّهم وإسراعِهم فيه دون تروٍّ أو تفكيرٍ، وأنَّهم لَم يَتْرُكوا لأَنْفُسِهِم مُهْلَةَ النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ؛ للإنباء بحماقتِهم وقلَّة عقولِهم، كما أنَّ الفاء في حُكم الدّاخلة على جملة ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾؛ لأنَّها معطوفةٌ لتفيد الفاءُ التَّعقيب في الجملتَيْن، بمعنى أنَّهم بادروا إلى الإعراض وإلى التَّشاغل عمّا اقترفته أيديهم[1]، أيْ: إنَّهم رتَّبوا شيئًا (المعطوف) على شيء (المعطوف عليه) لا يترتَّبُ عليه في الأصلِ والظاهرِ بسرعةٍ، وهذا يعني سرعةَ رفضِهم للحقِّ وقبولِهم للباطلِ، وهذه حالةٌ عجيبة.

ما يمنعُ مِنَ النَّظرِ في الآياتِ البيِّناتِ إلّا التَّعنُّتُ والعنادُ

بلاغةُ ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ بين الكنايةِ والاستعارة:

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم بالإعراض عن آيات اللّه كنايةً عن تركها وعدم تدبُّرها، ويفيد بلازمِه كذلك عدمَ مبالاتِه بها، ليُؤْذِن أنَّه لم يؤمن بها، فلمّا عُرضت عليه آياتُ اللّه، ولم يؤمن بها، ولم يكترث لها؛ استحقَّ اسم المُعرِضِ عنها، فعدَلَ إلى الكناية؛ لاقترانِ الدَّعوى بدليلِ صدقِها[2]، ففي الكناية إيجازٌ بليغ، حيث أومأَتْ إلى معنى عَرْضِ الآياتِ عليه، كأنَّه يُشاهدُها بعينَيْهِ، ومع ذلك انصرفَ عنها.

ويحتمل أن يكونَ الكلامُ على الاستعارة بتشبيه عدم انتفاعِهم بآيات اللّه تعالى بالإعراض عنها تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، لإيضاح المعنى وبيانِه[3]، ويستوي في عدم انتفاعِهم بها كونُهم عرفوها، ونظروا فيها، وكونُهم لم يكن منهم ذلك، والحَملُ على الكناية أبلغُ وأنسبُ بجزالةِ التنزيلِ الكريم؛ لأنَّه أوسعُ من الحَمل على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 354.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 286.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

الاستعارة؛ لأنَّ عدمَ الانتفاع حاصلٌ على القول بالكناية، والإعراضُ الحِسّيُّ قد حصَل من أهل الكفر، وكذلك التركُ والابتعادُ، ولكن بعد معرفة الآياتِ؛ لأنَّ هذا هو الأبرُّ بسياقِ الجدالِ في آيات اللّه بالباطلِ، فكيف يكونُ جدالٌ منهم في شيءٍ لم يعرفوه؟

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ و﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾:

لكلِّ كلمةٍ في القرآن مع أختها مقامٌ، ولكلِّ حرفٍ معنى دلالةٌ

قال اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، فجاءت الفاء دالّة على التعقيب، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22]، فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ [السجدة: 22] الدّالَّة على التّراخي؛ لأنَّ الكلام في آية الكهفِ في الأحياء من الكفار الذين يُستدعون إلى الهدى، فإنَّهم ذُكِّروا، فأعرضوا عقيب ما ذُكِّروا، وجاء التَّعبيرُ في السجدة على التَّراخي؛ لأنَّ الكلامَ فيها جاء في سياق وصف الكفار بعد موافاتهم يومَ القيامة، فإنَّهم ذُكِّروا مرَّةً بعد أخرى مدَّة عمرهم بآيات ربِّهم، وتطاول الأمرُ بزجرهم ووعظِهم، ثمَّ خُتِمَ ذلك بترك القبول وبالإعراض؛ فماتوا، ولم يؤمنوا، فكان هذا قولًا يُقال فيهم عند الانتقام منهم؛ وكان للفاء مكانُها ولـ(ثمَّ) مكانها[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَسِيَ﴾:

أكبرُ الظُّلم نسيانُ الكافر ما قدَّمت يداه من أعمال الكفرِ

عطفتِ الواوُ هذه الجملةَ على جملة ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾؛ لأنَّهما خبريَّتان لفظًا ومعنًى، ولا محلَّ لهما من الإعراب، وأفاد العطفُ بالواو التَّشريكَ في الحُكم، بمعنى أنَّ سببَ أظلميَّةِ الظّالم هو إعراضُه عن آياتِ اللّه، ونسيانُه ما قدَّمت يداه، وقدَّم الإعراضَ على النِّسيان للإشعار بسببيَّة المعطوف عليه للمعطوف، فمَنْ أعرض عن آيات ربِّه، ولم يكترثْ لها، ولم يتذكَّرْها؛ نسيَ ما قدَّمت يداه من أعمال الكفر.

(1) الإسكافي، دُرَّة التنزيل: 1/ 876، والقنّوجيّ، فتح البيان: 8/ 72.

بلاغةُ النِّسيان هنا في الكناية ثمَّ الاستعارة:

التَّصويرُ البيانيُّ منفسحٌ لأجمل المعاني

عُبِّرَ بالنِّسيان في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾؛ كنايةً عن التَّشاغُلِ والتَّغافُلِ عَنْ كُفْرِه المُتَقَدِّم، وعدم تذكُّرِه حين يُذكَّر[1]، وبلاغةُ الاستعارةِ كامنةٌ في تصوير قوةِ إثباتِ المعنى المُستعار له في نفوسِ المُحدَّث عنهم.

بديعُ الطِّباق بين ﴿ذُكِّرَ﴾ وبين ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ﴾:

الأرجحيَّة بين الإعراض والنِّسيان جَمعٌ بين المعنى والمقصد

لمّا كان لفظُ ﴿ذُكِّرَ﴾ فيه معنى الدَّعوة إلى الإقبال إلى الآيات؛ لدلالة الآياتِ على كونِها علاماتٍ ظاهرةً واضحةً عجيبةً، فكان حقيقًا بهم أن يقابلوا التَّذكيرَ بالإقبال لا بالإعراضِ والنِّسيان، فحسُنَتِ المقابلةُ بالفعلَيْن للإشعار بقُبْحِ فِعلِهم وخطأِ عملِهم، وهذا النَّوع من الطِّباق من أبرعِ فنون البديع لمجيء فعلٍ واحدٍ يدلُّ بظاهره على معنًى، وبلازمِه على معنًى آخرَ، فقابله بفعلين، وإنَّما أدَّى إلى هذا الطِّباق الرّائع تصويرُ حال المحدَّثِ عنهم، فهو نتاجُ المعنى والمقصد.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في: ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾:

أكثرُ الشَّرِّ يكون بكسبِ اليدِ

في قولِه عزَّ شأنه: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ عبَّرَ القرآنُ الكريم باليدِ عن النَّفس؛ لأنَّ المُرادَ ما قدَّمت نفسُه، فذكرَ اليدَ على طريق المجازِ المرسل؛ لأنَّها آلةٌ لعامَّة أعمالِهم الجُرميَّةِ والتَّكسُّبِ فيها، أو يكون من ذِكر الجزءِ وإرادة الكلِّ، وذكرُ اليد دون غيرِها من الأعضاء؛ لأنَّ لها مزيدَ اختصاص من بين أجزاء الجسم، فإنَّ أكثرَ الشرِّ يكون بها[2]، والحملُ على هذا المجازِ بعلاقةِ الآليةِ أبلغُ وأعلى؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ لهم كسبًا قويًّا عظيمًا فيما قدَّموا لأنفسِهم مِنَ الذُّنوب والآثام، أليسوا أهلَ جدالٍ في الآيات بالباطل؟ ألم يَقُلِ

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 476.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

اللّهُ فيهم في السّياق القريب: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾؟ فإنَّهم يريدون تغييبَهُ بالكليَّةِ جملةً ودفعةً واحدةً.

سببُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته في ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾:

يُسْتَعْمَلُ تركيب (ما قَدَّمَتْ يَداهُ) في القُرآنِ، في العَمَلِ السَّيِّئ، فصارَ مَثَلًا

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم بـ﴿مَا﴾ دون (الذي)؛ لعموم الأولى، وفي ذلك إشعارٌ بقبحِ كلِّ ما قدَّمت يداه، وقُبْحِ ذِكْرِ تفصيلِه وأنواعِه، فالزَّجرُ والتخويف بها أعظمُ، وفي مجيء صلةِ الموصول إيذانٌ بعلمِ المخاطَبين بما قدَّمت يدا الظّالم؛ لأنَّ صلةَ الموصول معلومةُ الانتساب إلى مشارٍ إليه، وأكثرُ ما يُستعملُ مثل هذا التَّركيبِ في القرآنِ في العمل السَّيئ؛ فصارَ جاريًا مَجْرَى المَثَلِ(1).

فائدةُ تأنيثِ اليَدَيْن في: ﴿قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾:

المعصيةُ حقيرةٌ ضعيفةٌ في نفسها، وإنْ قُدِّمَتْ بقوَّةٍ منهم

لَمَّا كانتِ اليدُ جزءَ الإنسانِ، فلا تتَّصفُ بذُكورة ولا بأُنوثة؛ جاز تأنيثُها وتذكيرُها، وكانت تُستعمل في لغة العرب مؤنَّثةً كثيرًا، فكان تأنيثُها هنا على الاختيارِ لغَرَضٍ بلاغيٍّ، وهو ضعفُ ما أنتجَتْهُ أيدي أهل الكُفْرِ والشِّرك في نفسه وحقارتِه وبُطلانه، وما جرى في هذا الطَّريقِ من المعنى، مع أنَّهم قدَّموا ذلك بقوَّةٍ منهم على ما يُفْهِمُهُ اصطفاءُ التَّعبيرِ باليدِ، والتَّقابلُ بينَ هذَيْن يبرزُ لك حقيقةَ أوَّلِ أمرِهم ومآله.

بلاغةُ الاستئنافِ في: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾:

لا يُعرِضُ وينسى إلّا من طبعَ اللهُ على قلبِه

جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا لتكونَ جوابًا عن سؤال سببِ إعراضِهم ونسيانِهم ما قدَّمت أيديهم مع ظهورِ الآياتِ وبيانِ حججها وأدلَّتها؛ فجاء الجوابُ في هذه الجملةِ لتفيد ﴿إِنَّا﴾ ربْطَ الجملةِ بما قبلها على معنى التَّعليل لما قبلها(2)، بمعنى: أنَّهم أعرضوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 355.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 730، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 230.

عن آياتِ اللّه، ونسوا ما قدَّمت أيديهم؛ لأنَّه تعالى طبعَ على قلوبهم، ويحتمل أن يكونَ التَّعليلُ لبيان سببِ مداومتِهم على الإعراض عن آياتِ اللّه وعدم الاكتراث بأعمالِهم، أيّ: إنَّهم لمّا أعرضوا عنِ الإيمان؛ طبع اللّه على قلوبِهم، فما كانت الآياتُ لتنفعَهم؛ فيكون من جزاء الإصرارِ على الكفر والتَّكذيب(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بنون العظمةِ في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾:

تجلّي عَظَمَةِ العِقابِ والتَّأديبِ في جعل الأكنَّةِ على القلوب

يدلُّ سياقُ العَظَمةِ - في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ - على أنَّه ﷻ لا يدعُ شيئًا من الخير يصل إلى قلوبِ هؤلاء المُكذِّبين، وأنَّ هذا الفعلَ لا يقدر عليه إلّا الإلهُ الواحد الأحد، فلَمَّا لم يعملوا بمُقتَضَى التَّصريف المُسنَدِ إلى صيغة العظمة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ من الإيمانِ؛ رأوا تلك العظمةَ في سياقِ التَّأديبِ والعقابِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.

فائدةُ حذف حرفِ النّون في قولِه: ﴿إِنَّا﴾:

الدَّلالةُ على كمال اقتدارِ اللّه ﷻ على الجَعْلِ المذكورِ

يجوزُ كونُ المحذوف النّونَ الثّانية مِن ﴿إِنَّا﴾، وفي كونِه نونَ: (نا) دلالةٌ على كمال اقتدارِ اللّه ﷻ على الجَعْلِ المذكورِ مِن بابِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرّوم: 27]، مع العلم بأنَّ كلَّ الأشياءِ في التعلُّق بقدرتِه على حدٍّ سواءٍ، وفي الحذف حينئذٍ مِنَ التَّرهيب ما فيه، ويجوزُ كونُ الحذفِ مطلقَ حذفٍ مِن غير تحديدٍ لأحدهما مُشاكِلًا للفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ للتَّناسُبِ بين العِلَّةِ والمعلولِ؛ إذ جملةُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾... تعليلٌ لما قبلَها، والوجهانِ لا يتعاندانِ، وقد أحدثَ الحذفُ - كائنًا ما كان المحذوفُ - تآلُفًا نغميًّا بين: ﴿إِنَّا﴾ و﴿جَعَلْنَا﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية الكريمة:

عُدِلَ عن أسلوب الغيبةِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ - بخلاف:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

أفادَ العدولُ عن الغيبة إلى التَّكلُّم انصرافَ الخالقِ عن الخَلْقِ

(بآياتنا) - إلى التَّكلُّم بصيغة نون العظمة في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ استدرارًا لأذهان المخاطَبين وتنبيهًا لهم لاستمرارِ إصغائِهم، وأفاد العدولُ عن الغيبة إلى التَّكلُّم بنونِ العظمةِ الإيذانَ بقوَّة تغليف الأكنَّةِ لقلوبِهم والطَّبع عليها، وبانصرافِ الخالقِ عن الخَلْقِ غضبًا عليهم، فلَمَّا عاقبَهُم أوّلًا، فانصرف عنهم بأسلوب الغيبة في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ﴾؛ استدعاهُم مقامُ التَّكلُّمِ ليُنْصِتوا مرَّةً ثانيةً إلى اللهِ ربِّهم، ففي إجراءِ الكلامِ على طريقة التَّكلُّم نوعُ تقريبٍ لهم وإقبالٍ عليهم ورحمةٍ بهم معَ ما هم فيه مِن حالٍ لا يُرْجَى معَها اهتداءٌ؛ ولهذا كانت صيغةُ التكلُّم تمهيدًا قويًّا لطيفًا لمجيءِ آيةِ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في لفظ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ بعد الإفرادِ:

الإفضاءُ إلى عمى البصيرة يمنعه من الهدى وإن أطلنا تذكيره

لمّا كان الاسمُ الموصول (مَنْ) مُفرَدًا في لفظِه وجمعًا في معناه؛ لأنَّه لا يُقصَدُ به شخصٌ معيَّنٌ؛ حُمِلَ إفرادُ الضَّمير في: ﴿ذُكِّرَ﴾ و﴿رَبِّهِۦ﴾، و﴿فَأَعْرَضَ﴾، و﴿وَنَسِيَ﴾، و﴿يَدَاهُۚ﴾ على لفظ (مَنْ)؛ لأنَّ التَّعبيرَ بصيغة الإفراد إيذانٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ من المشركين والمكذِّبين في مكَّة في وقت نزول القرآن قد ذُكِّرَ بآيات ربِّه، فليس لأحدٍ حجَّةٌ في الإعراض والنِّسيان، وهذا ألصقُ بسياقِ إثباتِ الظُّلم البالغ لهم، والحكم عليهم به بالتحقيق والقطع مع التَّعجيب منه، وإنكارِه وتفظيعِه، وحُمل على جمعِه في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾، و﴿ءَاذَانِهِمْ﴾، و﴿تَدْعُهُمْ﴾، و﴿يَهْتَدُوٓاْ﴾ على معناه[1] رجوعًا إلى أسلوب الجمعِ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾، ولأنَّه أنصُّ على ذمِّ كلِّ واحدٍ ممَّن ذُكِّر، فأعرض عن آيات ربِّه، ونسي ما قدَّمت يداه[2]، ولأنَّ الجمعَ ألصقُ بصيغة العظمة في:

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 730.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 483، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 387.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾، فالقدرة على إعماءِ البصر والبصيرة مع الجماعة أعلى منها مع الواحد.

دلالةُ الفعلِ ﴿جَعَلۡنَا﴾:

اختلافُ المعنى لاختلاف دلالةِ الفعل

يحتمل الفعلُ ﴿جَعَلۡنَا﴾ أن يكونَ بمعنى: (أنشأنا)، أو (خلقنا)، فيكون ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ و﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ حالًا قُدِّم للاهتمامِ وللتَّخصيص، بمعنى: جعلنا الأكنَّةَ على قلوبِهم، وليس على قلوب غيرِهم، وجعلنا الوقرَ في آذانِهم، وليس في آذانِ غيرِهم، وفي التَّقديم معنى التأكيد كذلك، ويحتمل أن يكون الفعلُ بمعنى: (صيَّرنا)، فيكون ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ و﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ في موضعِ المفعولِ الثاني، وقُدِّمَ للاهتمام وللتَّخصيص كذلك.

فائدةُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾:

إفادةُ تمكُّنِ الأكنَّة من قلوبِ الكفّار، فلا يفقهون ولا يهتدون

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ - في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾ - أفاد تمكُّنَ الأغطية من قلوبِ الكفّار المعاندين واستعلاءَها، فلا يستطيعون إزالتَها ولا دفعَها، فصارت الأَكِنَّةُ حجابًا قويًّا على قلوبهم، فلا يصلُ إليها نفعُ الآياتِ، مهما كانت واضحةً بيِّنةً.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَكِنَّةً﴾:

وجودُ الأكنَّةِ على القلوب حجابٌ عن الفقه والسَّمع والهداية

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أفاد التَّنكيرُ - في نور سياق صيغة التعظيم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ - تعظيمَ الأكنَّةِ وتفخيمها وتكثيرها، أيّ: هي أكنَّةٌ عظيمة كثيرةٌ ساترة غلَّفت قلوبَهم لئلّا يفقهوا القرآن الكريم، وينتفعوا منه، وذلك جزاءٌ لكفرِهم وعنادهم وأعمالِهم القبيحة.

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿أَكِنَّةً﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، بتشبيه الموانعِ من الإيمانِ بالأغطيةِ الحاجبةِ لقلوبِهم عن التَّأثُّر

إذا انطمسَ القلبُ لا تنفعُهُ موعظةٌ، ولا يجديه تذكيرٌ

بالقرآن والإيمان بهِ، فهي لا تعي شيئًا من آياتِ القرآن، "وَذَلِكَ لما يَتَغَشّاها مِنْ خِذْلانِ اللهِ إيّاهُم عَنْ فهْمِ ما يُتْلَى عليْهِم"[1]، ويحتمل أن يكونَ بالاستعارة التَّمثيليَّة على ما سيأتي.

بلاغةُ حذفِ (من) قبل جملةِ ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾:

بيانُ أثرِ المحذوف في توجيه الإعرابِ والدَّلالة

لَمّا كان قولُهُ: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ كان المعنى على تقدير: (جعلنا على قلوبِهم أكنَّةً كراهة أن يفقهوه)، أو (لئلّا يفقهوه)، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ الكِنَّ إنَّما جُعِلَ على القلب لئلّا يفقهوه، ويحتمل أن يكون التَّقديرُ: (من أن يفقهوه)؛ لتَضَمين ﴿أَكِنَّةً﴾ مَعْنَى الحائلِ أَوِ المانِعِ، وحَذفُ حرف الجرِّ (مِنْ) في مثل هذا السّياق كثيرٌ[2].

غرضُ تعدّي ﴿جَعَلۡنَا﴾ في سياق الآية:

ملمحُ جعلِ الأكنَّةِ على القلوب سببٌ في غيابِ فقه الآياتِ

وفي تعدِّي الجَعْلِ إليه مِن غيرِ واسطةِ مضافٍ أو حرفِ معنًى مشاكلةٌ للإعراضِ السَّريعِ عن الآياتِ المفهومِ منَ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، وإذا كانت جملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾...، تعليلًا لما قبلها؛ كان المعنى الَّذي جرت فيه الفاءُ مُؤسَّسًا على معنى هذه الجملة التَّعليليَّة، وهذا التَّعَدِّي يدلُّ على عظيم تسبُّب تلك الأكنَّةِ في غيابِ فقه الآياتِ؛ فلهذا أعرضوا بسرعةٍ، وإنَّما كان هذا التَّعدِّي؛ لأنَّهم بالغوا في الاستهزاء بآيات اللّه وما أُنْذِروا، على ما يفهمه التَّعبيرُ بالمصدر في قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾.

دلالةُ المصدر المُؤوَّل ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾:

حثُّ المؤمنين على فقه القرآنِ والانتفاعِ به

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّل أنَّ اللّه تعالى جعل على قلوبِهم أكنَّةً وفي آذانِهم وقرًا كراهةَ أن يفقهوا القرآن، من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخر مصاحبٍ له، فلا ينظر إلى تقييد المصدر بقلَّةٍ ولا كثرةٍ،

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 14/ 609.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 307، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 516.

ففي التَّعبير بالمصدر المُؤَوَّل تحصينٌ للكلامِ من الإشكال في الفهم بأن يتوهَّمَ تقييد المصدر بقيدٍ ما، وتخليصٌ له من شوائب الإجمالِ في الوصفِ؛ لأنَّ المصدرَ المُؤَوَّل لا يأتي معه وصفٌ أصلًا، وفيه أنَّ مَنْ فقِهَ القرآنَ، وانتفع به؛ فهو من أهل الإيمانِ والهدى على الجملة، وإذا كانت الأَكِنَّةُ سببًا عظيمًا في الإبعاد بينهم وبين فقه الآيات؛ كان المضارع مُصوِّرًا ذلك، فكأنَّهم كلَّما جدَّدوا سبيلًا لهذا الفِقْهِ؛ منعتهم الأكِنَّةُ، فالمضارعُ تفصيلٌ وتحقيقٌ لدلالةِ تعدّي الجَعْلِ إلى المصدر المُؤَوَّل من غير واسطة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير المفرد المُذَكَّر في ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾:

مرادُ اللهِ أن يُفقَهَ القرآنُ لينتفعَ به الإنسانُ

في كون الضَّميرِ مفردًا راجعًا إلى القرآن يُشعر بأهميَّة أن يُفقَهَ القرآنُ كلُّه، والتَّنبيهُ إلى أنَّ مَن طبعَ اللّه على قلوبِهم لا يفقهون أيَّ آيةٍ من القرآن؛ لأنَّ القرآن وحدةٌ واحدةٌ من حيث المجموعُ.

وإذا كان الضَّمير عائدًا على لفظِ ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ - وهو جمعٌ - دلَّ على أنَّ المرادَ من الآيات آياتُ القرآن[1]، فيكون الضَّمير عائدًا على المعنى الَّذي يجمع الآياتِ، وهو القرآنُ، ونكتة العدول إلى ضمير المفرد هي الإشعارُ بأهميَّة أن يُفقَهَ القرآنُ كله، والتَّنبيهُ إلى أنَّ مَنْ طبعَ اللّه على قلوبِهم لا يفقهون أيَّ آيةٍ من القرآن؛ لأنَّ القرآن وحدةٌ واحدةٌ من حيثُ المجموعُ.

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ و﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾:

مناسبةُ كلِّ لفظٍ في القرآن لسياقِه ومقامِه مفيدٌ في الإبانة عن المراد

قال اللّه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الأنعام: 25]، ومثلُها تمامًا في الإسراء [الآية 46]، وفي سورة الكهف: ﴿جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾؛ فقُيِّدَ الفعل في هذه الآياتِ بـ﴿عَلَىٰ﴾، وقال في سورة فُصِّلت: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729.

﴿تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فُصِّلت: 5]، فقُيِّدَ الفعلُ بـ﴿فِيٓ﴾ [فُصِّلت: 5]، وتوجيهُهُ: أنَّه لمّا كان الأمرُ بطريق الجَعْل، وكان جَعْلُ الأكنَّة منسوبًا إلى اللّه تعالى في سورة الأنعام والإسراء والكهف؛ كان معنى الاستعلاء والقهر وقوَّة التَّغطيةِ أنسَبَ؛ لأنَّه يُفيد أنَّه تعالى لا يَدَعُ شيئًا مِنَ الخير يصل إليها - كما تقدَّم - فجاء بـ﴿عَلَىٰٓ﴾.

ولمّا كان ما في سورة فصِّلت حكايةً عن مقالهم - وليس هو في قوَّة جعل اللّه تعالى - كان معنى الاحتواء أقربَ، فجاء بـ﴿فِيٓ﴾ [فُصِّلت: 5]، كما أنَّ الَّذي في سورة فصِّلت جاء على نمط واحدٍ في جعل القلوب والآذان مستقرَّ الأكنَّةِ والوقر[1]، قال البقاعيُّ: "ولَمَّا كان السّياقُ في (الكهف) للعظمة؛ كان الأنسبُ له أداةَ الاستعلاءِ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾، وعبَّروا هنا بالظَّرفِ إبعادًا لأنْ يسمعوا"[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾:

استماعُ الحقِّ للقرآن يكون بالانتفاعِ بآياتِه والتَّأثُّر بها

عبَّرَ الذِّكرُ الحكيم عن عدم تأثُّر الكافرين عندَ سماع القرآنِ بقولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، وهو على تقدير: وجعلنا في آذانهم وقرًا على طريقةِ الاستعارة التَّمثيليَّة المركَّبة؛ لأنَّ الكفرةَ يسمعون الآيات سماعًا تامًّا، ولكن لمّا كان ذلك لا يؤثِّر فيهم إلّا كما يؤثِّر في الَّذي في أذنِه وقرٌ، فلا يسمع؛ شُبِّهوا به، ونكتةُ التَّعبير بالاستعارة توبيخُهم على عدم تأثُّرهم وانتفاعِهم بالقرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ استماعَ القرآن حقَّ استماعه يكون بالانتفاعِ بآياتِه والتَّأثُّر بها[3]، ويُحتمل أن يكون قد شُبِّهت حالهم في الإعراض عن الحقِّ بحال مَن وضع على قلبه حُجبًا تمنعُ الهدى أن يصلَ إليها، وحال مَنْ وضع على أذنه ثقلًا، فلا يسمعه، وجرى ذلك مجرى الأمثالِ في القرآن الكريم[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 349.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 551.

(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 524.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

تقديمُ الأهمِّ والأولى بالعناية في الذِّكر والكلام من فصيح البيان

مناسبةُ تقديم (القلوب) على (الآذان):

قُدِّم ذِكرُ جعل الأكنَّةِ على القلوب في قوله ﷻ: ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ على قوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ لأنَّ القلبَ محلُّ الفهم، والأُذنَ آلةٌ له، فقوي انسدادُ طريقِ فهمِ القرآنِ عليهم، فقدَّم الأهمَّ والأَوْلَى بالعناية[1] من هذه الجهةِ.

القلبُ محلُّ الفهمِ، والأُذن آلةٌ لتوصيلِ البَلاغ إليه

نكتةُ جمعِ (الأكنَّة) وإفرادِ (الوَقْر):

لمّا كانت القلوبُ محلَّ الفهم؛ ناسبَ ذِكْرُ الأكنَّة بصيغة الجمع مبالغةً في الطبعِ عليها، ولمّا كانت الأُذن آلةً من آلاتِ فهْمِ القلب؛ ناسبها إفرادُ الوَقْرِ، كما أنَّ الوقرَ في الأصل مصدرٌ، والمصدرُ لا يُجمع، ولمَّا كانت القلوبُ تتفاوتُ في قبول المعاني؛ كانت الأكنَّةُ على أقدارها، فلكلِّ قلب أكنَّتُهُ، والجمع: ﴿أَكِنَّةً﴾ يُصوِّرُ ذلك، ولمَّا كان التفاوتُ بين الناسِ في السَّمعِ قليلًا ونادرًا بحيثُ لا يكادُ يُعْتَدُّ به؛ كانَ الثِّقلُ الكائنُ في كلِّ أذنٍ يكادُ يكونُ على مستوًى واحدٍ، وإفرادُهُ ﴿وَقْرًا﴾ هو المُصوِّرُ ذلك.

السّياقُ تأييسٌ من هدايتهم وتسليةٌ وتسرية عن نبيِّه إليهم

فائدةُ الوَصْل في قولِه: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾:

جملةُ الشَّرط بمنزلة النَّتيجة لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فهي متفرِّعةٌ عليها، ولكِنَّها لَم تُعْطَفْ بالفاءِ؛ لأَنَّ المَقْصودَ جَعْلُ ذَلِكَ في الإِخْبارِ المُسْتَقِلِّ[2]، لتكون بمنزلة الجملةِ المستقلَّة؛ لعمومِها وكُلِّيَّتِها، وهذا إبلاغٌ في التَّأييس من هدايتهم، وفي تسليته ﷺ والتَّسرية عنه؛ لأنَّ العطفَ بالواو يعني: أنَّهم لن يهتدوا أبدًا إذا دُعوا إلى الهُدى من غير أنْ يجعل اللّهُ على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وقرًا.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 111.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 356، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4551.

بلاغةُ التَّعبير بأداة الشَّرط (إنْ):

عُبِّرَ بـ(إنْ) في قولِه: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾ دون (إذا)؛ للإبلاغِ في بيان عدمِ انتفاعِهم بالقرآن والهُدى؛ توكيدًا لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، فإذا أنت دعوتَهم؛ فلن يستجيبوا، فإذًا دعوتك إيّاهم إلى الهدى تكونُ قليلةً، أو ينبغي أن تكون قليلةً، فلا تتحسَّر عليهم، وما أنت عليهم بمسيطرٍ، وهذا ما يُستفاد من (إن) التي الأصل فيها أن تُستعمل في الشَّرط غير المقطوعِ بوقوعه، أو المشكوك في وقوعه، ونحوِ ذلك، وهذا قريبٌ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وقوله سبحانه: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: 22]، وبالجملة: فالتَّعبيرُ بـ(إنْ) هنا على أصلها، على التأويلِ السّابقِ بيانُه، ويجوز أن تكون: (إنْ) على طريقة الفرضِ، والتَّقدير: (إذا فُرِضَ أن دعوتَهم إلى الهُدى، وبمجرَّد أن تدعوهم إلى الهُدى؛ فلن يهتدوا إذًا أبدًا).

> إذا كانت على قلوبهم أكنَّةٌ وفي آذانهم وقرٌ؛ فلا معنى لدعوتهم إلى الهدى

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تَدۡعُهُمۡ﴾:

يفيدُ التَّعبيرُ بصيغة المضارع - في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾ - أنَّهم لن يهتدوا؛ كلَّما تكرَّر دعاؤك لهم إلى الهدى، أيْ: في كلِّ وقتٍ، وهذا إبلاغٌ في عدم انتفاعِهم بالقرآن.

> إذا قست قلوبُ المدعوّين؛ لم تجد الهداية سبيلًا للتَّمكين

نكتةُ تقييدِ الفعل بقولِه: ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ﴾؛ عُلِمَ أنَّ رسولَ الله لا يدعوهم إلّا إلى الهدى، فكان ذِكْرُ الجارِّ والمجرور في مقامِ التَّصريحِ بما علمَ ضمنًا؛ لتوبيخِ الكافرين وتقبيحِ فِعلِهم، فالتَّصريح به أبلغُ في تقرير عدم انتفاعهم بالقرآنِ؛ انسجامًا مع قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، كما أفاد ذِكْرُ القيدِ أنَّ الجزاءَ هو انتفاءُ اهتدائِهم على التَّأبيدِ.

> دعوةُ النّاس إلى الهُدى منهجُ رسولِ الله على المدى

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ في السّياق:

بيانُ الهُدى في القرآنِ وفي سنَّة سيِّد عدنان

يُحتمل أن يكون المرادُ من قوله تعالى: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ القرآنَ الكريم، فيكون متَّسقًا مع ذكرِ الآيات، ويُحتمل أن يكون المُرادُ كلَّ ما يكون هدًى ليشمل القرآنَ وهديَه ﷺ، وهو أشملُ وأعمُّ وأقرب إلى دلالة السّياق.

فائدةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

التَّعنُّت في الإعراضِ سببُ ما في القلب من أمراض

لمّا جاءتِ الفاء في جواب الشَّرط وجزائِه؛ دلَّت على أنَّهم يبادرون إلى عدم الاهتداء؛ كلَّما تجدَّدتْ دعوتُك لهم، فلا يتفكَّرون، ولا يتدبَّرون؛ بل يسارعون إلى الإعراضِ، وهذا ذمٌّ وتوبيخٌ لهم.

نكتةُ مجيء الجزاءِ بصيغة ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

اليأسُ من إيمان قومٍ لا يستدعي تَرْكَ دعوتِهم إلى الهدى

جيء بالفعل ﴿يَهۡتَدُوٓاْ﴾ الدّالِّ بصيغتِه على قَبولِ اكتساب الهدايةِ؛ ليفيد نفيه بـ﴿فَلَن﴾ المبالغةَ في اليأس من اهتدائِهم؛ لأنَّ النَّفي بها أقوى ما يكونُ؛ لكونِه في المستقبل، وزادَه مبالغةً تأكيدُهُ بـ﴿أَبَدٗا﴾ كما يأتي، واليأسُ من إيمان قوم لا يستدعي ترْكَ الدَّعوةِ إلى الهدى وإنَّما يوجبُ دعوةَ غيرهم، والاستمساكَ بمَنْ آمنوا، واهتدوا.

بديعُ جناس الاشتقاقِ في: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾، ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ﴾:

بيانُ توبيخِ من صَدَّ قلبُهُ عن الهدى، فعاند وما اهتدى

أفاد جِناسُ الاشتقاقِ التَّنبيهَ إلى أنَّهم لم يهتدوا بالهدى الذي تدعوهم إليه، فاكتُفي بالجِناس عن ذِكْر متعلِّق الفعل ﴿يَهۡتَدُوٓاْ﴾، ليفيدَ الإيجازَ في الكلام مع تمام المعنى، وفي هذا الجناسِ عظيمُ توبيخٍ وذمٍّ لهم؛ لأنَّ: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي دُعوا إليه مِن شأنه أن يوصِّل إلى الاهتداءِ المَنفيِّ عنهم؛ لأنَّه مصدرُ هذا الاهتداءِ، فهو واديه والبحرُ الَّذي تحلُّ فيه سفينتُه.

نكتةُ التَّعبير بحرفِ الجزاء ﴿إِذٗا﴾:

لمّا كان ﴿إِذٗا﴾ حرفَ جزاءٍ وجوابٍ للشرط؛ دلَّ على الإبلاغ في انتفاء اهتدائِهم بدعوة الرَّسول، بمعنى: أنَّهم جعلوا ما يجب أن

المسارعةُ إلى الإعراضِ عن الهُدى أمارةُ الطَّبع على القلب

يكون سببَ وجود الاهتداء سببًا في انتفائه، أيْ: جزاء ما هم عليه من الكُفْرِ والطَّبع على القلوب والوَقْر في الآذان، هو عدم الاهتداء[1]، ودلَّ التَّعبير بالشَّرط والجزاء على سؤالٍ مطويٍّ دالٍّ على كمال عنايةِ رسولِ اللّه ﷺ بإسلامهم؛ فكان كأنَّه قال: ما لي لا أدعوهم إلى الهدى والقرآن؟ أو لمَ لن يهتدوا بعد أن دعوتُهم؟ فقيل: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾، أيْ: لأنَّهم على تلك الحالة من الطبع على القلوب[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَبَدًا﴾:

نفيُ الهدايةِ على التَّأبيد لا يقطع بها إلّا العليم المجيد

في قوله تعالى: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ تقْييدُ انتفاء اهتدائِهم بالأَبَديَّة، للمُبالَغَةِ في انتفاءِ هِدايَتِهِم في المستقبل، أيْ: فلن يكون منهم اهتداءٌ أَلبتَّةَ مدَّةَ التَّكليف[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإعراض والتّولّي:

الإعـراضُ لفْتُ الوجه عن الشَّيء، والتَّولّي الصُّدود عن الذَّوات والأجسام

حقيقةُ الإعراض لفْتُ الوجه عن الشَّيء؛ لأنَّه مُشتقٌّ من العارض وهو الخَدُّ، ولأنَّ الكارِه للشَّيء يصرف وجهَهُ عنه، ويُستَعمل الإعراضُ في الالتفات عن الذَّواتِ والمعاني، فمثال الإعراضِ بالذّاتِ عن الذّات قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النّجم: 29]، ومثالُ الإعراضِ بالقلب وانصرافه عن المعنى قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، وأمّا التَّولّي؛ فلا يُستعمل إلّا في التَّولّي عن الذَّوات والأجسام، كما هو سياق الآيات التي جاء فيها معنى (التَّولّي عن)؛ لأنَّه بمعنى الإقبالِ والاتّجاه إلى الشَّيء، فإذا عُدّي بـ(عن)؛ كان بمعنى الانصرافِ إلى اتّجاه الإدبار غالبًا، وما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 730.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 230.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 195، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 230.

جاء في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20] هو على الأصلِ في التَّولّي عن الجسم، ويفيد بكنايته ترْكَ الإصغاء والائتمار، فلمّا ذكرَ الآيات في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ ناسبَ أن يذكرَ الإعراض دون التَّولّي، فقال: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[1]، وقال الكَفَويُّ: "والتَّولّي: قد يكون لحاجَةٍ تَدْعو إلى الانْصِراف مع ثُبوت العقدِ، والإعراض: الانْصِراف عن الشَّيْء بالقَلْب، قالَ بَعضُهم: المُعرِضُ والمُتوَلّي يَشْتَرِكانِ في ترك السلوك، إلّا أَن المعرض أَسْوَأُ حالًا؛ لأَنَّ المُتَوَلِّي مَتى نَدم؛ سهُل عليْه الرُّجوع، والمعرضُ يحْتاج إلى طلبِ جَديد"[2]، وعليه فإنَّ الإعراضَ يُستعملُ في الالتفات عن الذّواتِ والمعاني، بينما يكون التَّولّي عن الأشياء الماديَّة الملموسة.

الأكِنَّةُ والأغطية:

الأَكِــنَّــةُ ما يُـحـفـظ فـيـها الشَّيءُ، ويُستر، والأغـطـيـة ما يُـغـطَّـى بـهـا، وتُـجـعـل فـوق الشَّيء

الكنُّ ما يُحفظ فيه الشَّيءُ، ويدلُّ على السَّتْر في تجوُّفٍ متينٍ يستُر، كالذي تحت الأغطية، والكِنانةُ التي هي جعبةُ الحرب غيرُ المشقوقة، فخُصَّ كَنَنْتُ بما يسترُ ببيتٍ أو ثوب، وغير ذلك من الأجسام، والكِنانُ: هو الغطاء الذي يكنُّ فيه الشَّيء، وجمع كنانٍ: أَكِنَّةٌ، وأمّا الغطاءُ؛ فهو ما يُغطّى به، ويُجعل فوق الشَّيء، فالكنان أخصُّ مِنَ الغطاء؛ لأنَّه لا يُطلق إلّا على ما يكون فيه الشَّيءُ مِنَ الأجسام ساترًا له بقوَّةٍ وحفظٍ متينٍ، بحيث يُغطّيه بأكمله[3]، ولم يَرِدْ لفظُ الأَكِنَّة في القرآن إلّا جمعًا، كما لم يَرِدْ لفظُ الغطاء إلّا مفردًا.

(1) الرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (عرض)، (ولي).

(2) الكفوي، الكلّيّات، ص: 28.

(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (كنَّ)، (غطا).

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ [الكهف: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الرَّبطُ بينَ الإعراض وعدم الهداية، وبيانُ رحمة الله وإمهاله للمشركين

لمّا كان الإعراضُ عن آيات اللّه ونسيان معاصي الكفر وعدم الاهتداء مقتضيًا لأخذِهم وتعجيل العذاب لهم؛ عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، ووجهُ العطفِ إظهارُ غاية الامتنان بتقديمِ بساطِ المغفرة والرحمةِ، وساحةِ التَّقريبِ والتَّودُّدِ من أجلِ إرضاء سيدنا رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ في أمَّته أمَّةِ الدَّعوة، على ما يُبيّنهُ خطابُه في صدر الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾، ولّما رماهم بقوارع التَّهديد والوعيد؛ عَطَفَ على ذلك التَّعريض بالتَّذكير بالمَغفرة لعلَّهم يتفكَّرون في مرضاته، ثُمَّ التَّذكير بأنَّه يشمل الخلق برحمته حين الوعيد، فيُؤَخِّرُ ما توعَّدهم به إلى حَدٍّ معلوم؛ إمهالًا للنّاسِ لعلَّهم يَرْجِعونَ عن ضلالهم، ويتدبَّرونَ فيما هُم فيه من نِعَمِ اللّه تعالى، فلعلَّهم يشكرونَ، ليكون عطفُ الآية على عادة القرآن في تعقيب التَّرهيب للترغيب وبالعكس[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾: (أخذ) أصل يدلّ على حوز الشَّيْء وتحصيله بقوَّة، وأخذه بذنبِه، وآخَذَه: تمكَّنَ منه فعاقبَهُ، والمُؤاخذةُ بمعنى المُجازاة والمُقابلة لما أُخِذَ من النِّعَم، فلم يُقابَلْ بالشُّكر؛ فتأتي صيغة المؤاخذة للمحاسبةِ والمعاقبةِ، وهي نيلُ العقوبة لما فيها من معنى القبضِ بقوَّة[2]، و﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ في الآية بمعنى: يُعاقبهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 356.
(2) الرّاغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (أخذ).
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 17/ 185.

2) ﴿لَعَجَّلَ﴾: العجلةُ خلافُ البطءِ، وأصل العجلة ما استُعجِل به من طعام، فقُدِّم قبل إِدْراك الغَداء، والعُجالَةُ: ما يُعَجَّلُ أكلُه، ويدور المعنى المحوريُّ للَّفظ على طلب الشَّيء وتحرّيه قبل أوانه، فيُقال: أَعْجَلَتِ الناقةُ، أيْ: أَلْقَتْ ولَدَها لغيْرِ تَمام، والاستعجالُ والإعجال والتَّعجُّل بمعنى: الاستحثاثِ وطلب العجلة والتَّسرُّع في الأمر، ويُقال: عَجِلَهُ، أَيْ: سَبَقَهُ، وعاجَلَهُ بذَنْبِهِ؛ إذا أَخَذَهُ به، ولَم يُمهِلْهُ، والعجلةُ مذمومةٌ في عامَّة القرآن، ومعنى ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾: بادَرَهُم بالعقوبة من غيرِ إمهال[1].

3) ﴿مَوْئِلًا﴾: أصلُ الكلمة (وأل)، والوَأْلُ والموئل: الملجأ، والمَوْئل: الموضع الذي يستقرُّ فيه ماءُ السيل، ويدور المعنى المحوريُّ للكلمة على تجمُّعٍ والتجاءٍ إلى مَقَرٍّ حافظ آمن، يُقالُ: اسْتَوْأَلَتِ الإبلُ: اجْتَمَعَتْ، والموئل هو المَنْجَى، وهو الملجأُ في المعنى؛ لأنَّ المَنْجى ملجأٌ، يُقال: وأَلَ الرَّجلُ يَئِل؛ إذا نجا، ووَأَلَ إليه؛ إذا لجأ إليه لينجو[2]، والفرقُ بينَ المعنيَيْن بالتَّعدّي بحرف الجرِّ، فإذا قيلَ: وأَلَ الرَّجل إلى كذا؛ كان بمعنى: لجأ، وإلّا كان بمعنى: نجا، ومعنى ﴿مَوْئِلًا﴾: منجًى، وقيل: مَلْجَأً[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللّه تعالى رسولَهُ سيّدنا محمَّدًا ﷺ، فيقول: وربُّك - يا محمَّدُ ﷺ - السّاترُ على ذنوب عباده بعفوه؛ إذا تابوا منها، ذو الرَّحمة بهم، ولو أخذ هؤلاء الكافرين بما كسبوا من المعاصي - التي منها مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن الآيات، وعدمُ مبالاتهم

لو أراد اللهُ أن يعذِّبَ النّاسَ بالمعاصي؛ لعجَّلَ أخذَ عباده بالنَّواصي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وأل).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 269، وابن الهائم، التبيان، ص: 219.

بعمل السَّيِّئات - لعجَّل لهم العذابَ في الدُّنيا، لكنَّه برحمته وعفوه لم يُعجِّل لهم ذلك، ولكنْ لهم موعدٌ يوم القيامة، ولن يجدوا من دون الموعد الذي جعلته ميقاتًا لعذابهم، ملجأً يلجؤون إليه من العذاب، ومنجًى ينجون معه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ في الآية الكريمةِ:

مَـنْ صفتُهُ الغفرانُ والرَّحمةُ لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ بل بالحلم

لمّا أخبر اللّهُ تعالى عن الذين ذُكِّروا بآيات اللّه، فأعرضوا عنها أنّهم لن يهتدوا أبدًا، وكان ذلك مظنَّةَ أنَّ يعاجلهم اللّه بالعقوبة والعذاب؛ عطف عليه هذه الآيةَ بالواو، فإنَّ مَن صفتُه الغفرانُ والرَّحمة لا يُعاجِل بالعقوبة[2]، وسببُ ذلك هو إرضاءُ رسولِ اللّه محمَّد ﷺ في أُمَّتِه، فالإبقاءُ عليهم يقتضي عدمَ مُعاجلتِهم بالعقوبة، ولأنَّ السّورةَ تأسَّسَتْ على ذِكْرِه ﷺ بأشرفِ وصفٍ على الإطلاقِ، وهو أُمُّ الأوصافِ الشريفة الممدوحةِ التي اختُصَّ بها، وهو الوصفُ بالعبوديةِ للّه ﷻ.

بلاغةُ الالتفاتِ في السّياقِ المحكم:

آيـةُ التَّذييلِ تجري مجرى الأمثال في حكايتِها والتَّمثيل بها

قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾، كان الظّاهر أن يكونَ الكلام بصيغة التَّكلُّم؛ لمجيء الآية عقب قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾؛ لأنَّهما حديثٌ عن حُكم اللّه سبحانه فيهم، لكنَّه جاء بطريق الالتفات وتلوين الخطاب من التَّكلُّم إلى الغيبة، فجاء الاسم الظّاهر ﴿وَرَبُّكَ﴾ في مقام الإضمار، فخولِفَ مُقْتَضَى الظّاهِر؛ لتَكونَ الجُملَةُ مُستقلَّةً بنَفسِها، فيكون لها حُكمُ جملة التَّذييل، فتسيرُ مَسرى الأَمثالِ والحِكَم[3]، ووَرَد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 52.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 85.

على طريقة الغيبة أيضًا؛ ليتهيَّأ للتَّنزيل الكريم إضافةُ الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ، فهو غيبةٌ مِن جهة التعبير بـ(الرَّبِّ)، وهو خطابٌ من جهة إضافته إلى كافِ الخطاب المقصودِ بها نبيُّنا ﷺ؛ لأنَّ للسياقِ مقصدًا وراءَ هذه الإضافة على ما سيأتي.

علَّةُ إيثار لفظ (الرَّبِّ) على (الإله):

عدمُ معاجلةِ المذنبين بالعذابِ إحسانٌ من الحليم الوهّابِ

أوثِرَ ذِكْرُ عنوان الرُّبوبيَّة لا الألوهية للإيذانِ بعناية الله تعالى بصلاح المَربوب وإحسانِه له، وعدمُ معاجلة أصحاب الذُّنوب بالعذاب إحسانٌ لهم وإنعامٌ عليهم، وإنَّما أظهرَ تعالى لأهلِ الجدال بالباطل الإحسانَ مِن بعد الإساءة منهم لمقام نبيِّهم ﷺ، فالمضافُ إليه سببٌ في حضورِ المُضاف واصطفائه.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

إمهالُ الكافرين وتأخيرُ عذابهم مراعاةٌ لمقام الرَّسول عنده

الإضافةُ هنا على معنى الاختصاص - في مقام إساءة المُحدَّث عنهم في سباق الآية وفي سياقها - بمعنى تشريف النَّبي ﷺ والتَّنويه بشأنِه، وفي الإضافة إلى ضمير المخاطَب العائد إلى الرَّسول إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يمهل الكافرين، ويؤخِّر عنهم العذابَ لمقام رسولِه عندَهُ وتكريمًا له، وقريبٌ منه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، وما استُنْتِجَ مِن الإضافة غيرُ مقيَّدٍ بوجوده ﷺ فيهم وفي أُمَّته جسدًا، وإنَّما هو مُقيَّدٌ بوجوده فيهم وفي أُمَّته خطابًا، وخطابُ القرآنِ دائمٌ مستمرٌّ إلى أن يبطُل التَّكليف، وتقومَ الساعة.

نكتةُ التَّرتيب بين (الغفران) و(الرَّحمة):

ترغيبُ الكفّار بالمبادرة إلى الاستغفار؛ لأنَّ اللهَ غفّارٌ

قُدِّم الوصفُ بالمغفرة على الرَّحمة في قوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾؛ لأنَّه أهمُّ بحسب الحال؛ إذِ المقام مقامُ بيانِ تأخير العقوبة عنهم، بعد استيجابهم لها، فيكون ترغيبًا في المبادرة إلى الاستغفار

من الكُفر وجميع الذُّنوب، ولأنَّ التَّخلية قبل التَّحلية[1]، ولأنَّه الأبرُّ بسياقِ الحديث عن العصاة أهلِ الكفر والجدال بالباطل.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الله ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾:

الإمهالُ في العذاب نوعٌ من المغفرةِ بلا ارتيابٍ

عُبِّر بوصف ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ بصيغة (فَعول) بمعنى المبالغة في الغفرانِ؛ للتَّنبيه على كثرة ذنوبِهم، وللإيذانِ بأنَّه تعالى واسعُ المغفرةِ، إذْ يَغْفِرُ لَمَنْ لا يُحْصى مِنَ النّاسِ، ويَغْفِرُ ذُنوبًا لا تُحْصَى إنْ جاءَهُ عَبدُهُ تائِبًا مُقلعًا مُنْكَسِرًا، وإن كانَ كافرًا مُعرضًا، على أَنَّ إمهالَهُ الكُفّارَ والعُصاةَ هوَ أَيْضًا مِنْ أَثَرِ المَغْفِرَةِ إذْ هوَ مَغْفِرَةٌ مُؤَقَّتَةٌ[2].

سرُّ العدولِ عن (الرّحيمِ) إلى ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾:

لا يقالُ لأحدٍ (ذو الرّحمةِ) إلّا إذا كان عظيمَ الرَّحمة كثيرَها

عدَلَ الذِّكرُ الحكيم عن وصف اللّه تعالى بـ(الرَّحيم) إلَى ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾؛ لأَنَّ ﴿ذُو﴾ كَلِمَةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى الوَصْفِ بالأَجْناسِ، ومعناها: صاحبٌ، وهيَ تُشْعِرُ بقوَّةٍ أَوْ وفْرَةِ ما تُضافُ إِلَيْهِ، والمَقْصودُ مِن اصطفاءِ الوَصْفِ بـ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ هُنا التَّمهيدُ لَمَعْنَى الإمهالِ الَّذي في قَوْلِه: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، أَيْ: فلا يقولنَّ أحدٌ: لماذا لَم يعذِّبْ هَؤُلاءِ المُكَذِّبينَ، أَيْ: إنَّهُ لرَحْمَتِه أَمهَلَهُم إعْذارًا لَهُم[3]، أو يُقال: عدَل عن الوصف بالمبالغة في الرَّحمة؛ لأنَّ المذكورَ بعد الوصفَيْن ﴿ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ عدمُ مؤاخذتِهم بما كسبوه مِنَ الإثم الجسيم، وهو مغفرةٌ عظيمةٌ لِمَنْ آمن منهم بعد ذلك، ورحمةٌ لترك التَّعجيل بالعذاب.

عِلَّةُ إيثار ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ في السّياق:

رحمةُ الله صفةٌ مِن صفاته العليا المتميِّزة بالبقاء والخلود

ولم يأتِ بصيغة المبالغة في الرَّحمة؛ لأنَّ بعضَهم لم يؤمنوا، فعوقبوا في بدرٍ أو يوم القيامة، فلمّا تمَّت المغفرةُ في حقِّ مَنْ آمن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 231، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 46.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 357.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/ 86.

مِنهم، ولم يُرد إتمام الرَّحمة في حقِّ مَنْ لم يؤمنوا، حيث ترك تعجيلَ العذابِ لهم فقط، ولم يهتدوا إلى الإيمان، بولِغَ في المغفرة دون الرَّحمة[1]، ولأنَّ الرَّحمة فعلٌ وإيجادٌ، ولا يدخل تحت الوجود إلّا ما يتناهى[2]، فظهر الفرقُ بين المغفرة والرَّحمة.

بلاغةُ القصرِ الحقيقيِّ في الوصف بالمغفرة:

رحمةُ غيرِ الله تعالى بالنِّسبة لرحمته تعالى نـازلـةٌ منـزلـة العَدَمِ

نجد في قولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ تَعْريفَ المُسْنَدَيْن باللّام، في قوله: ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾، وبالإضافة إلى اسم الجنس المعرَّف بـ(ال) المفيد للاستغراق، في قولِه: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾، وهذا مُقْتَضٍ تَخْصيصَهُما بالمُسْنَدِ إليْهِ، أَيْ: قَصْرُ المغفرة والرَّحمة على اللّه، وهوَ قصرٌ حقيقيٌّ في الوصف بالمغفرة، وادِّعائيٌّ في الوصف بـ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾؛ باعْتِبارِ أَنَّ رحمةَ غَيْرِ اللّه تَعالَى لَمّا كانَت ناقصةً، وكانت في الأصل مُستمدَّةً من رحمة اللّه تعالى؛ نُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ العَدَمِ، ولمّا كانت الجملةُ مُضمَّنةً خَبَرَيْنِ للمبتدأ؛ كان المعنى على القصر: وربُّك الغفور لا غيرُه، وربُّك ذو الرَّحمة لا غيره.

علَّةُ فصل ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾:

فـي تـأجـيـل الـعـذابِ رَحْـمَـةٌ بالنّاسِ لتداركِ الأمـرِ وإعـادَةِ النَّظَرِ

لمّا أفاد وصفُ المغفرة والرَّحمة تَرْكَ المعاجلة؛ ذَكَرَ الدَّليل عليه، فقال تعالى: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾؛ لتكون جملةُ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ المفصولةُ استشهادًا على كونه تعالى غفورًا رحيمًا بإمهال قريش مع إفراطهم في الكفرِ والإعراض وعداوةِ رسول اللّه ﷺ، أيْ: إنَّهُم فيما كَسَبوهُ مِنَ الشِّرْك والعِناد أَحْرياءُ بتَعْجيلِ العُقوبَةِ، لَكِنِ اللّه يُمهِلُهُم إِلَى أَمَدٍ مَعْلوم مُقَدَّرٍ، وفي ذَلِكَ التَّأْجيلِ رَحْمَةٌ بالنّاسِ بتَمكينِ بَعْضِهِم مِنْ مُهْلَةِ التَّدارُكِ وإِعادَةِ النَّظَرِ، وفيه اسْتِبْقاؤُهُم على حالِهِم زَمَنًا[3]، فما قبل هذه

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 113.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 510.
(3) الزمخشري، الكشاف: البيضاوي، أنوار التنزيل: أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 195.

الجملةِ مُستَدَلٌّ عليهِ، وهي دليلُه، وقد جاء على طريقة الاستئنافِ البيانيِّ، فلهذا غابتِ الواوُ؛ لأنَّ النفس اليَقِظةَ تتساءلُ من بعد تلقِّيها قولَه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾، وتشتاق، وتتطلَّع إلى معرفته، كأنَّها سائلةٌ عنه، فأُجيبت، فقيل لها: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾ دونَ غيرِها:

مقابلةُ النِّعم بالكفرِ دونَ الشُّكر تقتضي المؤاخذةَ بالعذاب

عُبِّرَ بلفظ المؤاخذة للتَّنبيه على أنَّه تعالى لو يُؤاخذُهم؛ فإنَّ عقابَهُ يكون بقوَّة، كما أنَّ التَّعبير بالمؤاخذةِ يُفيد أنَّها على سبيلِ المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم؛ فلم يقابلوه بالشُّكر، بل قابلوه بالكفر، كما أنَّه لمّا كان لفظُ المؤاخذةِ ينبئُ عن شدَّة الأخذِ بسرعة؛ آذنَ بأنَّ نفي المؤاخذة المستفادَ من أداة الشَّرط ﴿لَوۡ﴾ متعلِّقٌ بوصف السرعة في العذابِ، كما ينبئُ عنه الجزاء في قولِه: ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، ولهذا قال: ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾، ولم يَقُلْ: يُعذِّبهم، أو يعاقبهم في هذا السّياق[1].

نكتةُ العدولِ إلى المضارع ﴿يُؤَاخِذُهُم﴾:

رحمةُ الخالقِ أوسعُ من ذنوب الخلائقِ وهو يمهلُ ولا يهمل

لمّا كان الأصلُ في التَّعبير بـ﴿لَوۡ﴾، أن يكون فِعلا الشَّرط والجزاء ماضيَيْن؛ لأنَّ ﴿لَوۡ﴾ تفيد انتفاءَ تعجيل عذابِهم؛ لانتفاء تعلُّق إرادة اللّه بمؤاخذتِهم على سبيل القطعِ؛ لَزِمَ أن يكون التَّعبيرُ بصيغة المستقبل على خلاف مقتضى الظّاهر، وأن يُنزَّلَ المستقبلُ منزلةَ الماضي، لصدوره عمَّن لا خلاف في إخبارِه، ونكتةُ مجيء الفعل بصيغة المستقبل القصدُ إلى أنَّ انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب عدم إرادة المؤاخذة فيما مضى وقتًا فوقتًا واستمرارِها حالًا فحالًا، فإنَّ المضارعَ الواقعَ موقعَ الماضي يُفيد استمرارَ انتفاءِ الفعل فيما

(1) الراغب، المفردات: (أخذ)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 321.

مضى، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المضارع تصويرًا لحال عدم مؤاخذتِهم بما كسبوا من الأعمال السيِّئة والقبيحةِ، واستحضارًا للحالةِ وحكايةً لها[1].

فائدةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾:

عدلُ الله يقتضي أن يُجازى المسيءُ بما اكتسبَ والمحسنُ بما كَسَبَ

الباءُ سببيَّةٌ، والمعنى: بسببِ ما كسبوه من المعاصي[2]، ولا يغيب معنى الإلصاقِ منها، واستحضارُه هنا يفيد قوَّةَ مباشرتِهم المعصيةَ، وتعمُّدهم لها، فيظهرُ الامتنانُ والإحسان باستحضار قوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالاسم الموصول (ما):

بيانُ عمومِ الحُكم وعِظَمِ ما كسبوا كمًّا وكيفًا

عَبَّرَ القرآنُ الكريم بـ(ما) دون (الذي) في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا، ليفيد تعميمَ الحُكم على كلِّ ما كسبوا، وفي (ما) مِن الإبهام ما ليس في (الذي)، وهو هنا تنبيهٌ على عِظَمِ ما كسبوا وتهويل شأنه؛ لأنَّهُ انصرافٌ عن الحقِّ بعد ما تبيَّنَ، وقد صرَّفَ اللّٰه في القرآن للنّاس من كلِّ مَثَلٍ، وقد ظهر فيما جاءهم به الرسول وصفُ الهُدَى، وقد ذُكِّروا مِرارًا وتكرارًا، فما كسبوه كثيرٌ كمًّا، وعظيمٌ كيفًا، والإبهام في (ما) هو الذي يُصوِّر ذلك.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿كَسَبُوا۟﴾:

تبكيتُ الكافرين بانقلاب ما كانوا يظنّونَهُ خيرًا لهم إلى شرٍّ محضٍ

لمّا كان الكسبُ يُقال لما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ أو خيرٍ، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال؛ كان إطلاقُ لفظ ﴿كَسَبُوا۟﴾ على ما اقترفوه من الذُّنوب - وأقبحها الكفر والإعراض عن آياتِ اللّٰه بعد تذكيرهم بها - استعارةً تهكُّميَّةً بالضديَّة، ونكتة التَّهكُّم الإشعارُ بأنَّ ما كانوا يظنّونه خيرًا لهم هو شرٌّ لهم، فانقلبَ الأمرُ

(1) العُكبري، التبيان: 2/ 853، والسَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 246 - 247، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم: 5/ 231، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 113.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 73.

عليهم توبيخًا لهم وتبكيتًا، كما أنَّ في التَّعبير بـ﴿كَسَبُواْ﴾ دونَ صيغة (اكتسبوا) إشعارًا بأنَّهم كانوا يسارعون إلى فعل الذُّنوب، ولم يكونوا يتكلَّفون فيها، تنبيهًا على رغبتِهم وموافقةِ أهوائِهم لها، وفي التَّهكُّم بهذه الاستعارة - أيضًا - تنبيهٌ لطيف على أنَّ الكسبَ الحقيقيَّ هو ما كان ينبغي أن يترتَّبَ على ما ذُكِّروا به مِن آيات يظهر فيها سيما الإحسان الرَّبّاني والهدى الإلهي، وما صُرِّفَ لهم في القرآن مِن كلِّ مثَلٍ، فهو تأنيبٌ شديد؛ لِمَن يراجع نفسَهُ، فيرجعُ إلى الحق.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿كَسَبُواْ﴾:

الكفرُ بالله والجدلُ بالباطل أعظمُ المعاصي وأبشعها

في قوله عزَّ جانبُهُ: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ حُذِفَ مفعولُ الفعل المتعدّي ﴿كَسَبُواْ﴾، والتقدير: (بما كسبوه)؛ لإفادة تقريرِ العموم، وكأنَّهم لم يكسبوا في عملِهم إلّا المعاصي، ويدخل في العمومِ ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربِّهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا من الموبقات دخولًا أوَّليًّا[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَعَجَّلَ﴾:

من عظيم قَدَرِ الله تأخيرُ عذاب الكفّار لعلمه وحكمته

عبَّرَ بلفظِ التَّعجيل للإشارة إلى أنَّهم استحقّوا العذابَ العظيم ونزول العذاب عليهم، بمعنى: أنَّ العذابَ كان ينبغي أن ينزلَ عليهم في أوَّل وقتٍ يستحقّونه على معنى المبادرةِ بالعذاب، لكنَّهم أُخِّروا إلى موعدٍ؛ لعلَّهم يرجعون عن الكفر، أو لأنَّ اللّه تعالى عَلِم أنَّه سيولد منهم مَن يُؤمن، ويُطيع[2]، وهذا يرشِّح على كفرهم وجدالهم بالباطل، ودحض الحق، واتِّخاذ الآيات وما أنذِروا هزوًا، والإعراض عنها، إلى آخر ما تلاه السياقُ مِن معنى التَّهويل والتعظيم، فقد كان منهم كلُّ عظيمٍ في بابه من شأنه أن يستوجبَ العذابَ على وجه السُّرعة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 231.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 114.

كلُّ مَن يفعلُ فعلَ الكافرين المُعرِضين حَريٌّ بتعجيل العذابِ له

فائدةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على المفعول:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾؛ لإفادة التَّخصيص الإضافيِّ بمعنى تخصيصِ إرادةِ تعجيل العذاب لهم دون غيرِهم؛ تعظيمًا لقبح إعراضِهم عن آياتِ اللّٰه تعالى، ووراء هذا التخصيصِ مِن المعنى أنَّ كلَّ مَن يفعل فِعْلَهم؛ فإنَّه حَريٌّ بتعجيل العذابِ له، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرور تأكيدًا لاستحقاقِهم تعجيلَ العذاب، وأنَّهم أَوْلَى به من غيرِهم، ففي التَّقديم إشعارٌ بعلّيَّة صفة الذّات في: ﴿لَهُمُ﴾ لتعجيل العذاب، وهؤلاء القومُ هم مدارُ الحديثِ في السياقِ، والحاضرُ في كلِّ عناصرِه، فهم أَوْلَى بالتقديمِ.

تنوُّع معنى (ال) بين العهديَّة والجنسيَّة مفيدٌ لتنويع الدَّلالة

فائدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ تحتمل (ال) أن تكون للعهدِ بمعنى العذاب المعهود لِمَنْ يُجادل بالباطل ليدحَضَ به الحقَّ، ويُكذِّب بآيات ربِّهِ، ويُعرِض عنها، كما تحتمل أن تكون للجنس، بمعنى العذابِ الذي يجتمع فيه كلُّ ما يوصفُ بأنَّه عذابٌ، فتُفيد (ال) المبالغةَ في نوعِ العذاب، والأوَّلُ هو الأبلغُ والأعلى في نورِ سياق الإمهال مِن أجل إرضاء الرسول ﷺ، فإنَّه تعالى لو شاء تعجيلَ العذاب لهم؛ لكان قد عذَّبهم بالمعهود لمِثْلِهم كُفرًا وشركًا وجُرْمًا إرضاءً لنبيِّه ﷺ.

تأخيرُ العذابِ لا يعني الإفلاتَ منهُ

دلالةُ حرفِ الإضرابِ ﴿بَل﴾:

﴿بَل﴾ في قوله: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ للإضراب الإبطالي عن مَضْمونِ جَوابِ ﴿لَوۡ﴾؛ لأنَّه لمّا قال تعالى: ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ قد يُتوهَّم أنَّهم ليسوا بمُعذَّبين، وأنَّهم مُفْلِتونَ من العَذابِ حين يَرَوْنَ أَنَّهُ تَأَخَّرَ مُدَّةً طَويلَةً، فجاءت ﴿بَل﴾ لإبطالِ التَّوهُّم المذكور، والمعنى: لَم يُعَجِّلْ لَهُمُ العَذابَ؛ بل يُمهلهم إِذْ لَهُم مَوْعِدٌ للْعَذابِ مُتَأَخِّرٌ[1]، وتحتمل ﴿بَل﴾ أن تكونَ عاطفةً لما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 357.

بعدها على جملةٍ مُقدَّرةٍ دلَّ عليها السّياق، كأنَّه قيل: لكنَّهم ليسوا بمؤاخذين بغتةً ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، ولا ينفكُّ عنها معنى الإضراب[1].

سرُّ التَّقديم في قوله: ﴿لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾:

تحديدُ موعدِ العذاب لهم بقدر الله المقدورِ حكمة ورحمة

قُدِّم المسندُ على المسندِ إليه للتَّنبيه على أنَّ الجار والمجرور خبرٌ لا نعتٌ، ولو أُخِّرَ لالتبسَ بالنَّعتِ، كما أنَّ في التَّقديم تخصيصًا لموعدِ العذاب لهم، بمعنى: أنَّه قد خُصِّصَ لهم موعدٌ لعذابهم، فلا يجاوزونه، وهؤلاء القومُ هم مدارُ الحديثِ في السياقِ، والحاضرُ في كلِّ عناصرِه، فهم أَوْلَى بالتقديمِ، فقيل: ﴿لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾، وفي التقديم أيضًا إنباءٌ بأنَّ ما يَسْتوجِبُ تعجيلَ العذابِ لهم ما زالوا يتَّصفون به في وقت الخطابِ بالإمهالِ: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، وهذا تحقيقٌ لمضمون قولِه تعالى: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، فالامتنانُ به أظهرُ، ومكانةُ رسولِ اللّه به أبهرُ.

دلالةُ لفظِ ﴿مَّوۡعِدٞ﴾ في السّياق:

لا مفرَّ للكافرِ من عذاب الدُّنيا المقدورِ، ولا عذاب الآخرة المسطور

يحتمل لفظُ ﴿مَّوۡعِدٞ﴾ أن يكونَ مصدرًا، والمعنى: لهم موعدٌ قد ثبت عليهم، ويحتمل أن يكون اسمَ زمانٍ، والمعنى: لهم وقتٌ ثابتٌ، وهو يوم القيامةِ أو يوم بدرٍ، ويحتمل أن يكون اسم مكان، والمعنى: لهم مكانٌ، وهو موضعُ بدرٍ أو جهنَّم، لن يجدوا من دونِه ملجأً[2].

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿مَّوۡعِدٞ﴾:

لا أعظمَ ولا أشنعَ من هول العذاب عند الإياب

في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، يُفيد تنكيرُ ﴿مَّوۡعِدٞ﴾ تعظيمَ الموعد وتفخيمه وتهويله، فهو موعدٌ ليس كأيِّ موعدٍ بقرينة سياق الإمهال.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 231.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 12/ 517، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 114.

مـوعـدُ الله الأعظم لا منجى منه ولا منأى عنه

موقعُ جملة ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾:

جاءت الجملة ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ نعتًا للمُسنَد إليه ﴿مَّوۡعِدٞ﴾، لإفادة أنَّ هذا الموعدَ موصوفٌ بأنَّه لن يجدوا من دونه ملجأً ولا منجًى؛ فأفادت جملة النَّعتِ بيانَ حالِهم في ذلك الوقت أو في ذلك الموضع.

تـأخُّرُ العذابِ مدَّةً طويلةً يسرُّ ولا يغرُّ

نكتةُ النَّفي بـ﴿لَّن﴾ في سياق الآية:

في قوله سبحانه: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، أفاد النَّفي بـ﴿لَّن﴾ تأكيدَ الرَّدِّ على ما كانوا يتوهَّمونه من أنَّهم قد يفلتون مِنَ العذاب لمّا رأوا تأخُّره عليهم مدَّة طويلةً، وهذا التأكيدُ مُقتضَى الإمهالِ، ومُقتضَى عدمِ تعجيلِ العذابِ لهم إرضاءً وإكرامًا لنبيّنا ﷺ لئلّا يَغْتَرُّوا.

الإشـارة إلى أنَّ الموئـلَ بمنزلة ضـالَّـة لـهـم مرتبط مجيئُها بالعذاب

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَجِدُواْ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿يَجِدُواْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ أنَّهم يسعون في الحصول على ملجأ يظفرون به للنَّجاة من العذاب؛ لأنَّ مادة (وجد) تُستعمل في هذا المعنى، يُقال: أَوجدَهُ اللّهُ مطلوبَهُ، أيْ: أَظفَرَهُ به[1]، لكنَّهم لن يجدوا من دونِه منجًى ولا ملجأً، فإذا كانت مادة (وجد) تُستعمل في الحصولِ على ضالَّةِ الإنسانِ، فيُقال: وجد ضالَّتَهُ[2]: فإنَّها هنا تومِئُ إلى أنَّ الموئل المذكورَ بمنزلة ضالَّةٍ لهم، لكنَّهم لن يجدوها، وأنَّهم سيظلون في تلك الحسرة التي يكونون فيها يوم أن يأتيهم العذابُ، وما بحثوا عن هذه الضالَّةِ، وما فكَّروا في هذا الموئل إلّا لما هم فيه مِن عذاب شديد وأليم.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ على المفعول لإفادة

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وجد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وجد).

موئلُ الكافرين العذابُ، ولا ملجأَ مِنَ الله سواه

التَّخصيص، بمعنى: لن يجدوا أيَّ موئِلٍ سوى العذاب، وفي التَّقديم إشعارٌ بالتصاقِ العذابِ بهم، والتصاقهم به التصاقًا شديدًا، وببُعد الموئل عنهم بُعدًا شديدًا، وهذا تحقيقٌ لمضمون الجملة: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

مَنْ يكون ملجَؤُهُ العذابَ لا يرى وجهًا للخلاص

في قوله سبحانه: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ يُحتمل عودُ الضَّمير إلى لفظ ﴿مَّوۡعِدٞ﴾[1]، والتَّقدير: (لن يجدوا من دون الموعدِ موئلًا)، ويُحتمل أن يعودَ الضَّميرُ إلى ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾، وهو الأَوْلى والأبلغ، وإنْ لزم تقدير محذوف، وهو (في الموعدِ)، لربط جملة النَّعت بمنعوتِها، وإنَّما كان الأبلغُ عودَ الضَّمير إلى ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾؛ لدلالته على أنَّهم لا ملجأ لهم ولا منجى منه، فإنَّ مَنْ يكون ملجَؤُهُ العذابَ؛ كيف يرى وجهَ الخلاص؟ كما يُحتمل عودُ الضمير إلى لفظ ﴿وَرَبُّكَ﴾، وهو الظّاهر، ويلزم حذف الجارِّ والمجرور كذلك، والتَّقدير: (لن يجدوا من دون ربِّك ملجأً يقدر على دفعِ العذاب عنهم)، فإنَّه تعالى هو القادرُ على خلاصِهم، لكنَّه سبحانه لا يدفع عنهم العذابَ لكفرِهم[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿مَوۡئِلٗا﴾:

ليس للكافرين منجًى من العذابِ سوى العذابِ

في قوله عزَّ شأنه: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ عَبَّر الذِّكرُ الحكيم بـ﴿مَوۡئِلٗا﴾؛ تهكُّمًا بهم، وللتَّنبيه على أنَّهم وإن اجتمعوا بحثًا عن مكانٍ يُنجيهم أو يلجؤون إليه؛ فليس لهم من دونِ العذاب ملجأ أو منجًى، وليس لهم مآلٌ ومكانٌ يرجعون إليه سوى العذاب، وفيه إشعارٌ بأنَّهم سيبحثون عن ملجأٍ يلجؤون إليه؛ لهَوْلِ الأمرِ، ولكنَّهم لن يجدوا سوى العذابِ ملجأً لهم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 195.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 114، والقنّوجي، فتح البيان: 8/ 73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 357.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المؤاخذة والمحاسبة:

المؤاخذة هي الأخذ بقوَّةٍ وشدَّةٍ، وفيها معنى المجازاة على الفعل، ولمّا اشتُهر اللَّفظُ بالمجازاة على العقوبة؛ أفاد تخصيصه بالمجازاة على الذُّنوب والمعاقبة عليها، وأمّا (يحاسب)؛ فهو من (الحَسْب)، بمعنى: العَدِّ والإِحْصاءِ، والمحاسبة عَرْضُ كلِّ أعمال الشخص وتقويمها؛ فلا تفيد المحاسبة عقابًا ولا ثوابًا، بل هي عدٌّ وإحصاءٌ[1]، فظهر كونُ المؤاخذة هي الأنسب بالسّياقِ القرآني.

المؤاخذةُ الأخذُ بقوَّةٍ وشدَّةٍ، والمحاسبة عَرْضُ أعمال الشَّخص وتقويمها

الكسب والعمل:

الكسْبُ هو الفِعْل العائِد على فاعِله بنفعٍ أو ضرٍّ، وهو يعتقد أنَّ الذي يكسِبُهُ من فعلِه فيه نفع أو ضرٌّ، وإن كان اعتقادُهُ مخالفًا للواقِع بأن يتوهَّمَ أنَّه نافع، وهو ضارٌّ، وقالَ بَعضهم: الكسْبُ ما وقَعَ بمراسٍ وعلاجٍ، وقالَ آخَرونَ: الكسْبُ ما فُعِل بجارحة؛ ولِهَذا لا يوصف اللّهُ بأَنَّهُ مكتسبٌ، وأمّا العمل؛ فهو إيجاد الأثَرِ في الشَّيْءِ، يُقال: فُلانٌ يعْمَلُ الطّينَ خزفًا، ويعْمل الخوصَ زنبيلًا، والأديمَ سقاءً، ولا يُقال: يفعل ذَلِك؛ لأَنَّ فِعْلَ ذَلِك الشَّيْءِ هوَ إيجادُهُ، وقد لا يكون العامل عملًا يعلم وجه النَّفعِ فيه أو الضُّرِّ، بل يكون جاهلًا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٤﴾ [الأنعام: 54]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١٩﴾ [النحل: 119][2]، والألصقُ بحالِ أهلِ الكفر الذين يجادلون في آيات اللّه بالباطل هو الكسبُ.

الكسْبُ فِعْلٌ يعود على صاحبه بنفعٍ أو ضرر، والعمل إيجادُ الأثر في الشَّيْء

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ)، (حسب).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134، 137.

العجلةُ تقديمُ الشَّيء قبلَ أوانِهِ، والسُّرعة تقديم الشَّيء في إبّانه دون إبطاءٍ به

العجلة والسرعة:

العجلةُ: هي التَّقدُّم بالشَّيء قبل وقته - وهي خلاف الحِكمة - والسُّرعة: تقديم الشَّيء في أقرب أوقاته - وهي من الحكمة - ويشهد للأوَّل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: 114]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النَّحل: 1]، ويشهد للثّاني قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، ومنه قوله تعالى: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: 11]، وقال أبو هلال العسكري في الفرق بين العجلة والسُّرعة: "السرعة: التَّقَدُّم في ما يَنْبَغي أَن يتَقَدَّم فيهِ، وهي محمودةٌ، ونقيضها مَذْمومٌ، وهوَ الإبطاءُ، والعجلة: التَّقَدُّم في ما لا يَنْبَغي أَن يتَقَدَّم فيهِ، وهي مذمومةٌ، ونقيضها مَحْمودٌ، وهوَ الأناةُ، فأَمّا قَوْله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: 84]؛ فإِنَّ ذَلِك بمَعْنى: أسرعتُ[1].

الموئلُ حمايةٌ وحِرْزٌ يتَّسم بالأمان على خلاف الملجأِ، فقد لا يتَّسم به

الموئل والملجأ:

الموئلُ هو الحِرْزُ الَّذي يكون فيه الأمانُ والاستقرار، وأمّا الملجأُ؛ فهو الحصنُ الذي قد يكون أمانًا لِمَنْ فيه، وقد لا يكون كذلك، فهو الحصنُ الذي يلوذ به المُلجَأ، ويدخُله اضطرارًا[2].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 204.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لجأ).

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ٥٩﴾ [الكهف: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بيانُ سُنَّةِ الله تعالى في الأممِ الماضيةِ بعد ذِكرِ إمهالِه لمَن عصاه

لمّا توعَّد اللّه تعالى الكافرين؛ أعقبَ ذلك بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾؛ فذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها مِنَ العذابِ ما توعَّد هؤلاء بمثلِه، للإشارة إلى أنَّ هذه هي سنَّتُهُ في القرون الماضية والأمم الخالية، ليكون عِبرةً لهم، وشاهدًا على صدق الوعدِ[1].

وأيضًا بعد أنْ أُزيلَ غُرورُهُم بتأَخُّرِ العَذاب، وأُبطل ظنُّهم الإفْلاتَ مِنْهُ ببَيانِ أنَّ ذَلِكَ إمهالٌ مِنْ أَثَرِ رَحْمَةِ اللّه بخَلْقِه، ضَرَبَ لَهُمُ المَثَلَ في ذَلِكَ بحالِ أَهْلِ القُرى السّالِفينَ الَّذينَ أَخَّرَ عَنْهُمُ العَذابَ مُدَّةً، ثُمَّ لم ينجوا منه بالآخرة؛ فجاءت هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾: (هلك) أصل يدلّ على الكَسرِ والسُّقوطِ والإتلاف، ومنه الهَلاكُ، أي: السُّقوطُ، ولِذَلِكَ يُقالُ للْمَيِّت: هَلَكَ، والهَلَكُ: الشَّيْءُ الَّذي يَهْوي، ويسقُط، والأَرْضُ الهَلَكينُ: الجَدْبَةُ، فكأنَّها سقطت من اعتبارها أرضًا لعدم إنباتِها، وهَلَكَةُ النَّبات: جفوفُهُ بعد خُضرَتِه، والهَلَكُ: جيفَةُ الشَّيْءِ الهالِك، وأهلكَ المالَ: أنفقَهُ، وقد استعمل القرآن لفظَ الهَلاك في الموت المعتاد، وفي إنفاقِ المال إنفاقًا لا بتدمير وفي الإفناء والعذاب[3]،

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526، والبقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هلك).

و﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ إمّا مصدرٌ بمعنى الإهلاك؛ وإمّا اسمُ زمان بمعنى وقتِ الإهلاك[1].

2) ﴿مَّوۡعِدٗا﴾: الوَعْدُ يكون في الخير والشَّرِّ، يُقال: وَعَدْتُه بنفعٍ وضرٍّ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوَعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، يُقال منه: أَوْعَدْتُهُ، وأصل الكلمة من قولِهم: أرضٌ واعدة؛ إذا رُجي خَيْرُها من المطَر والأَعْشاب، وقد وعَدَتْ: رُجي خَيْرُها، ويوم واعدٌ: أوَّلُه يَعِدُ بحَرٍّ أو بَرْد، وسَحابٌ واعدٌ كأنَّه يَعِد بالمطر، وفرسٌ واعِدٌ: يَعِدُك جَريًا بعد جَرْيٍ، والمَوْعِد يأتي مصدرًا واسمي زمانٍ ومكانٍ[2]، والسّياق يُحدِّد المعنى، وهو هنا بمعنى الوقت والأجل[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سنَّةُ اللهِ في إهلاكِ الأممِ أنَّهم إذا ظَلَموا أُهلكوا

يُخبرُ اللّه تعالى عن سنَّتِه في إهلاك الظّالمين، فذكرَ أنَّ تلك القرى من قَوْم نوحٍ وعادٍ وثَمودَ وقَوْم لوطٍ وغيرهم أهلكنا أهلها لمّا ظلموا؛ فكفروا باللّه وآياته، وجعلنا لهلاكِهم وقتًا وأجلًا حين بلغوه؛ جاءهم عذابٌ؛ فأهلكناهم به، فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك - يا مُحمَّد - الذين لا يؤمنون بك أبدًا موعدًا، إذا جاءهم ذلك الموعد؛ أهلكناهم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

مُقايَسَةُ حالِ الظّالمين بمَنْ سبقهم من الظَّلمة المهلكين

أفادتِ الواوُ الوصل بين الجملتَيْن لتكون هذه الجملة معطوفةً على جملة ﴿لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، والجهة الجامعة بينهما إيعادُ الكافرين من أهل مكَّة بأنَّ لهم مثلًا فيمن قبلهم من

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 65.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 53، والبَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 202.

أهل القرى الظّالمة، فإن أصرّوا على ظلمهم؛ فسيُصيبهم ما أصاب أهلَ القرى من قبلِهم، والمعنى: وتلك القرى أهلكناهم بالفعل حين ظلَمِهم، لكن لا في أوَّله، بل أمهلناهم إلى حين تناهيه وبلوغه الغايةَ، فليحذر هؤلاء مِثْلَ ذلك[1]، فـ(إمَّا) حينئذٍ ظرفٌ استُعمل للتعليل، ولا يُراد به الوقتُ المُعيَّن الذي عملوا فيه الظلم[2]، فوجهُ الاتصالِ بينَ هذه الآيةِ وما عُطفت عليه هو الإمهالُ، ويجوز أن يكون معنى: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: أوَّلَ ما ظلموا[3]، ويكون قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ تحقيقًا له، بزيادة تقرير المخالفة به لمّا سبق في الآية السابقة على هذه، ووجهُ المخالفة: أنَّ المُحدَّث عنهم في الآية السابقة أُمهلوا، فكان موعدُ مهلكهم متأخِّرًا عن وقت ظلمهم، وأهلُ تلك القرى لم يُمهَلوا، بل أوخِذوا بما كسبوا، وكان موعدُ مهلكهم عقبَ ظلمهم، ويُؤيِّدُ هذا الفَهْمَ عندي التَّعبيرُ عن أهل القرى بالقرى على طريقة المجاز المرسل؛ للإشعارِ بعذابِ الاستئصالِ لبعض الأقوام السابقين، فإن صحَّ هذا الوجهُ مِنَ الاتِّصال بين المتعاطفين؛ كان مِن اللَّطائف.

بلاغةُ ردِّ العَجزِ على الصَّدْرِ في الآيَةِ:

التَّناسبُ بين الثُّنائيَّاتِ في البيانِ القرآنيِّ مِن وجوه إعجازه

إذا كانت هذه الآيةُ مقطعَ الحديث عن القوم المذكورين مِن أهل الكفر والشِّرك؛ فإنَّها راجعةٌ إلى الآية الثّانية مِن فصلِها في السّورة، وهي آيةُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾، فهي ترجع إلى قوله تعالى فيها: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فتلك القرى هنا هي قرى هؤلاء الأوَّلين، وهذا مِن وُجوه الرَّبطِ بين مَطْلَع الفصلِ القرآني ومقطَعِه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 485.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 511.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 485.

نكتةُ الإشارةِ للبعيد في قولِه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

سُنَّة الله تعالى في إهلاك الظّالمين ضاربةٌ في البُعْدِ، متجدِّدة في العهد

في قولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، عبَّرَ القرآن الكريمُ باسم الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾ لإحضار المُشار إليه - وهي القرى - في أذهان المخاطَبين، فتكون القُرى مقدَّرةً في أذهانِهم وُمنزَّلةً عندهم منزلةَ المحسوس؛ لأنَّ العربَ كانوا يعرفون ديار عادٍ وثمودَ ومدينَ، ويسمعون بقوم لوطٍ وقوم فرعونَ، فكانَتْ كالحاضِرَةِ حينَ الإشارَةِ[1]، ففي التَّعبير باسم الإشارة تمييزُ المقصود أكملَ تمييزٍ وتعيينٌ له، وجاء اسم الإشارة للبعيد لإهانتِهم، ولمزيد تخويفهم، وللإشعار بأنَّ سنَّتَهُ تعالى في إهلاك الظّالمين ضاربةٌ في البُعد، وأنَّها مستمِرَّةٌ منذ زمنٍ بعيد.

علَّةُ إيثار لفظ ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

ذِكْرُ آثار القوم الَّذين هلكوا أدلُّ على المقصود في الاعتبار

لمّا كان المقصودُ من الإهلاك هم القوم الذين ظلموا وكفروا وكذَّبوا رسلَهُم، كان التَّعبير بالقُرى - وهي الأبنية - على خلاف مقتضى الظّاهر، وفائدته الاعتبارُ بأمثالِهم وأضرابِهم من القوم السّابقين بما بقي من آثارِهم، فكان ذِكْرُ آثار القومِ الذين هلكوا - وهي بيوتُهم ومواضعُ سُكناهم - أبلغَ من ذِكْر القوم وأدلَّ على المقصود، وهذا على طريقة المجاز المرسل مِن ذِكْر المحلِّ وإرادة الحال[2] بقرينة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمع في قولِه: ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

إنَّ الله تعالى لا يُعجزُهُ إهلاكُ أيَّةِ قريةٍ يمارس أهلُها الظُّلمَ

لمّا كان اسمُ الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾ للمُفرَد والجمع بحسب ما يُشار إليه؛ كان مجيءُ ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ صفةً لاسم الإشارة بصيغة الجمع؛ للإشعار بكثرة القرى التي أهلكها اللّه تعالى لمّا ظلموا، ففيه وعيدٌ شديدٌ لأهل مكَّة ومَنْ يظلم ظلمهم، بأنَّه تعالى لا يُعجزه إهلاكُ أيِّ بلدٍ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 358.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 114، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 288.

يَظلم، وهذا تعليقٌ على الإمهال بأنَّه سينقطعُ بإنزالِ العذابِ بهم في موعدٍ لن يجدوا مِن دونه موئلًا، ولَمَّا كان إحداثُ التَّناسُبِ والترابُطِ بين مكوِّناتِ البيان القرآني مِن وجوه بلاغته وإعجازه؛ عُبِّرَ بالجمع ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ ليرجع الكلامُ بها إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهذا ظاهرٌ، وإلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾؛ لأنَّ ذِكْرَ المرسلين وبشارتَهم ونذارتَهم يستدعي في الذهن أقوامَهم الطائعين والعاصين، وقولُه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ يدخلُ في العاصينَ.

دلالةُ تقديم ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ على ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

التَّذكيرُ بالعذاب من آلاء الرَّحمن، فكيف بالإبلاغ فيه؟

قولُه: ﴿وَتِلۡكَ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾: بَدَلٌ منه، أو عطف بيان، وقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾: خبرُهُ، وهذا النَّظمُ يُفيدُ التَّشويقَ لمعرفة خبرِ تلك القرى، فالنَّفس متطلِّعة إليه، فإذا ما تلقَّتْهُ على هذه الحال تمكَّنَ فيها فضْلَ تمكُّنٍ، وهذا إحسانٌ إلى قوم رسول الله محمد ﷺ بالإبلاغِ في إيقاظِهم وتحذيرهم وترهيبهم وتذكيرهم، ينضافُ إلى الإحسان بالإمهال المذكور في الآية السابقة، وأصلُ الإحسان بالإيقاظ والتَّذكير والتَّرهيب حاصلٌ بالمعنى الظّاهر للكلام.

سرُّ العدول عن (عذّبناهم) إلى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

الإهلاكُ يفيد أمرًا واحدًا هو الاستئصالُ، وأمّا العذاب؛ فهو أنواعٌ شتّى

عُبِّرَ بالإهلاك دون العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ الإهلاكَ يُفيد أمرًا واحدًا، وهو الاستئصال والفناء، وهو المناسبُ هنا، وأمّا العذاب؛ فهو أنواع، ويدلُّ على الإيجاع والأذى، وقد ينتهي العذابُ بالكشف عن المُعذَّب ورفعِه عنه، فكان التَّعبيرُ بـ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أنسبَ للمقام وأقضى لحقِّ البلاغة؛ لأنَّه تأسَّسَ عليه ما ذُكِرَ من قبلُ من الفرق بين أهل هذه القرى والمُحدَّث عنهم في الآية السابقة، من جهة الإمهال لهؤلاء، والأخذ بالعذاب عَقِبَ حصولِ الظُّلم من أهل تلك القرى.

دلالةُ إسنادِ الفعل في ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

لا يقدرُ على الإهلاكِ إلّا الله تعالى مسيِّرُ الأفلاك

في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ عَبَّر الذِّكر الحكيم بضمير العظمة (نا)؛ للإشعار بهول الإهلاك، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا المَلِكُ الواحدُ الأحدُ، وصيغةُ العَظَمَةِ هي الأنسبُ بالجمع في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، مِن جهة أنَّه لا يقدر على ذلك إلّا العظيم سبحانه، ومِن جهة تعدُّد فاعلي الهلاك مِن الملائكة المأمورين مِن قِبَلِ اللّه بذلك، ثم لَمَّا كان العذابُ هنا عَقِبَ حصولِ الظُّلم منهم - على أنَّ معنى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: أهلكناهم أوَّلَ ما ظلموا - كان الجلالُ الإلهيُّ هو الظاهرَ لهم والظاهرَ عليهم؛ فعُبِّرَ بما هو نَصٌّ في العظمة، فقيل: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وأمَّا قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾؛ فهو على نسق: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، فهو مِن مقولٍ واحدٍ، وهو اللّه تعالى، كأنَّه قيل: وأقولُ: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، فكان لجمال اللّه حضورٌ كما لجلاله حضورٌ؛ فلهذا كان الإمهالُ.

نكتةُ عَوْدِ الضَّميرِ مجموعًا في: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

إهلاكُ القُرى بإهلاكِ أهلِها وعمارتُها بعمارةِ أهلِها فيها

كان الظّاهر أن يُقال: (أهلكناها) ليعود الضَّميرُ على ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، لكنَّه لمّا جاء الضَّميرُ لجمع العقلاء (هُم)؛ أفاد أنَّ الإهلاكَ لأهل القرى، وهو المقصود في الاعتبار؛ لأنَّ القرى لا تُهلكُ إلّا بهلاك أهلها، وإلّا فما داموا فيها؛ فهي عامرةٌ بهم، وتقديرُ الكلام: (وأهل تلك القرى أهلكناهم)، وهذا مِن تبرُّجِ الدلالةِ، وهو بالغ الحدِّ الأعلى في الذِّكر الحكيم.

فائدةُ مجيءِ المسند جملةً فعليَّة:

تحقيقُ إهلاكِ الله للمُهْلَكين دونَ تخصيصِ الإهلاكِ بهم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ المُسنَدُ الخبر ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ جملةً فعليَّة للمُسنَد إليه ﴿وَتِلۡكَ﴾؛ لإفادة تقوّي الحُكْم وتحقيقِهِ، فالمُراد تحقيقُ إهلاكِ اللّه لهم دون تخصيصِ الإهلاك

بهم، فهذا التَّعبيرُ أبلغَ من أن يُقال: (وأهلكنا تلك القرى)، لتضمُّنِه تأكيدَ الحكم وتقويته.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ في ثنايا السّياق المحكم:

الظُّلم نتيجتُهُ الإهلاكُ، والظُّلم مرتعُهُ وخيمٌ

في قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ عَبَّر الخطاب القرآني بـ﴿لَمَّا﴾ دون غيرِها من الألفاظ التي تدلُّ على الوقت، وذلك لما تفيده ﴿لَمَّا﴾ هنا من دلالتِها على الوقت الممتدِّ من ابتداء الظُّلم إلى آخرِه وعلى التَّعليل، فيحصل بها مقصدُ الإمهال، ففي التَّعبير بها إيذانٌ بأنَّ إهلاكَهم بسبب ظلمِهم، وليس المرادُ أنَّ إهلاكَهم كانَ وقتَ ظلمِهم، فإنَّ ظلمهم متقدِّمٌ على إنذارِهم، وإنذارُهم مُتقدِّمٌ على إهلاكِهم[1]، وفيه تَحۡذيرٌ من الظُّلۡم إذۡ نَتيجَتُهُ الإهۡلاكُ، ويجوز أن تكون بمعنى الوقت المُعيَّن الذي عملوا فيه الظُّلم، وقد مرَّ بيانُ نكتةِ القول به.

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿ظَلَمُواْ﴾:

مَن أشركَ بالله تعالى، فقد ظلَمَ نفسَهُ وأهلَهُ

حُذفَ المفعول في قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ إمّا لتعميم الظُّلم، بمعنى: أنَّهم ظلموا أنفسَهم وأهلَهم بكفرِهم، وظلموا كلَّ مَن كان معهم، للإشعار بأنَّ الشِّركَ باللّه والكفرَ به سبحانه أشدُّ أنواع الظُّلم وأبلغُه، أو لتنزيل الفعلِ منزلةَ اللّازم[2]، ليفيد أنَّ الظُّلمَ قد صار سجيَّةً لهم، بمعنى: لا يأتي منهم إلّا الظُّلم، ومَن كان منه الكفر والشِّرك؛ كان كذلك، فمآلُ الوجهَيۡن واحدٌ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تحذيرُ الظّالمين بعدم الاغترارِ بتأخير العذاب عنهم

أفادتِ الواوُ عطفَ جملة ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم﴾ على جملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾؛ لتفيدَ الإخبارَ عن المُسنَد إليه بجملتَيۡن، فلمّا أخبر عنهم بإهلاكِهم؛ أخبر عنهم بأنَّه تعالى جعل لهلاكِهم وقتًا مُعيَّنًا

(1) ابن مالك، شرح الكافية: 3/ 1644، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 195، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 231.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 231.

لا محيدَ عنه، ليتنبَّهَ أهلُ مكَّةَ والظّالمون لذلك، ولا يغترّوا بتأخُّر العذاب عنهم، والمُرادُ: (إنّا أهلكناهم، ومَعَ ذَلِكَ لَم نَدَعْ أَنْ نَضْرِبَ لهلاكهم وقْتًا ليَكونوا إلَى التَّوْبَةِ أَقْرَبَ)، وفيه إشعارٌ بامتدادِ زمن ظلمِهم، فإنَّ ضرْبَ الموعدِ لهلاكِهم يفيد أنَّهم قد ظلموا، ثمَّ استحقّوا الإهلاكَ، فضُرِبَ موعدٌ لهُ، ثمَّ استمرّوا في ظلمِهم حتَّى جاء وقت الإهلاكِ، فأُهلكوا، وقد يُفيدُ تحقيقَ ما يُفْهَم مِن قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، بمعنى: أوَّلَ ما ظلموا؛ لأنَّهُ يلفت إلى قوله من قبل: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

اختيارُ اللّفظ الأنسبِ للدَّلالة على المرادِ من بليغ البيان

عبَّرَ الخطابُ القرآنيُّ الكريم - في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ - بلفظ الجعْلِ دون غيره من المفردات، وذلك للإشعار بعِظَم ضرب الموعدِ للإهلاكِ والتَّعجيب منه.

دلالةُ الإسناد في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

عظمةُ الجعلِ وإعجازه في كونه حاصلًا من الله تعالى

عُبِّرَ بضمير العظمة (نا) - في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ - للإشعار بعِظَم الجعْلِ المذكور، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا الملكُ الإله الواحد الأحد، أيْ: جعلنا لمهلِكهم موعدًا بما لنا من العظمة، ولأنَّ الجلالَ هو المُسيطِرُ على موقف الغضب والعذاب.

دلالةُ صيغة (مَهْلِك):

إهلاكُ الله عظيمٌ وجسيمٌ، يجسِّدُهُ هلاكُ الأمم المهلكة

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾، صيغةُ (مَفْعِل) للمصدر، والمعنى: (وجعلنا لإهلاكِهم موعدًا)، وعُبِّرَ بالمصدر الميمي دون المصدر الصَّريح للمبالغة في قوَّة الإهلاكِ وتأكيده؛ "لأَنَّ المَصْدَرَ الميميَّ أَبْلَغُ مِنْ جِهَةِ زيادَةِ المَبْنى"[1]، وهو الأنسبُ بمعنى الإهلاك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 344.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾:

الاختصاص بالمهلك قدرُ الله المقدور

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾، لمّا كانت الإضافةُ هنا على معنى اللّام لتُفيد الاختصاص؛ كانت الإضافةُ من إضافة المصدر إلى مفعولِه.

بديعُ جناسِ الاشتقاق في ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾:

الّذين أهلكَهم الله هم الذين ضربَ موعدًا لمهلكهم لا يُخلف

في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ جاء اللَّفظان ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ على جناس الاشتقاق، للإشعار بأنَّ الذين أهلكهم اللّٰه تعالى هم الذين ضربَ اللّٰه لهم موعدًا لمهلكِهم، كما أنَّ في التَّعبير بالجناس مزيدَ تخويفٍ للظالمين وتحذيرٍ لهم من ظلمِهم؛ لأنَّه بقوله: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ يتجدَّد معنى الهلاك والإهلاك، ويتكرَّر، وهذا إبلاغٌ في الترهيب، وأصلُ معنى الترهيب والتخويف حاصلٌ بظاهر معنى الكلام.

دلالةُ تقديم ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ على ﴿مَّوۡعِدٗا﴾:

توقيتُ موعد الإهلاك وعيدٌ حقٌّ لا يُخلف

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ على المفعول ﴿مَّوۡعِدٗا﴾ لإفادة الاختصاص على معنى القصر الإضافي للاهتمام بشأنِ إهلاكِهم، بمعنى أنَّه تعالى جعل لمهلكِهم، وليس لشيءٍ آخر الموعدَ المقرَّر لا يتقدَّمون عليه، ولا يتأخَّرون عنه، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلة، وفي التقديم دلالةٌ على الغضب الإلهيِّ، فإنَّ إهلاكهم صار حكمًا ومقصدًا.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾:

تعدُّد القراءات مزيدُ بيانٍ لحلول العذابِ بالظّالمين

قرأ حَفْصٌ عن عاصم بفَتْحِ الميم وكَسْرِ اللّام، أيْ: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾، وقرأ شُعْبَة عن عاصم بفَتْحِ الميم واللّام الَّتي بَعْدَ الهاءِ، أي: ﴿لِمَهۡلَكِهِم﴾، وقرَأَ الباقونَ بضَمِّ الميم وفَتْحِ اللّام، أي: ﴿لِمُهۡلَكِهِم﴾، فمَن قرأ: ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾؛ فالمعنى: لإهْلاكِنا إيّاهم، وتكون الإضافة من إضافة المصدر لمفعولِه؛ لأنَّه مصدر (أهلك)، ومَن قرأ:

﴿لِمَهْلَكِهِم﴾؛ فمعناه: لهلاكِهم، وتكونُ الإضافةُ من إضافة المصدر لفاعلِه؛ لأنَّه مصدرٌ (هلك يَهْلِكُ)، أو يكون المُهلَكُ اسمَ زمان، أيْ: جعلنا لوقتِ إهلاكِهم موعدًا مُعيَّنًا، ومَن قرأ: ﴿لِمُهْلَكِهِم﴾؛ فبمعنى: لإهلاكِهم[1]، وفي تعدُّد القراءات إبلاغٌ في بيان حلول العذاب بالظّالمين؛ لأنَّه آخِرُ هذا الفصلِ القرآنيِّ في السّورة؛ ليقابل الإبلاغَ في سببِ نجاتهم ممّا هو كامنٌ في معجزة نبيِّهم، وهو التَّصريف للنّاس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ، فيلتقي المقطعُ بالمطلع أحسنَ التقاءٍ وأتمَّهُ، وليقابل هذا الإبلاغُ بوجوه القراءات عظيمَ إحسان اللّه إليهم بإمهالهم إكرامًا لنبيِّهم ﷺ؛ لينتبهوا لهذا الإكرامِ والإحسان، ولئلّا يغترّوا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاك والقتل:

الإهلاكُ إبطالُ الشَّيْءِ وإتلافه وفناؤه، والقتل أخصُّ من الإهلاكِ

الإهلاكُ يكون بنَقْضِ البنيةِ الحيوانيَّةِ وإبْطالِ الحاسَّة، ويُفيد فسادَ المهلَكِ، ولا يُستعمل إلّا في سياقِ الذَّمِّ، ويُعبَّر بالهلاكِ عن بُطلانِ الشَّيْءِ من العالم وعدمه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناءً المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88] ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، وأمّا القتلُ؛ فهو نقضُ البنية الحيوانيَّة، ولا يقتضي ذمًّا، ولا يُقال له: قَتْلٌ في أكثر الحال إلّا إذا كان من فعل آدميٍّ، فالقتل أخصُّ من الإهلاكِ، ولكلِّ لفظٍ استعمالُه وسياقُه، والمناسبُ لأحوال الأقوام أهل تلك القرى هو ذلك الإهلاكُ؛ لأنَّ عذابَهُم لم يكن بالقتل فقط، وهم قد ذُكِروا في سياقِ المَقيس عليه ظلمًا كفرًا وشركًا وعقابًا.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 114، والبَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 202، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 477، وابن الجزري، النّشر: 2/ 311.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربطُ خبرِ القرى المهلَكةِ بقصَّة موسى والخضر عندَ مجمعِ البحرين

بعدَ أن ذكَرَ اللّه سُبحانَه قَصَصَ المُشركين الذين افتَخَروا على فُقَراءِ المؤمنينَ بكَثرةِ الأموالِ والأنصارِ، وامتَنَعوا عن حضورِ مجلِسِ النبيِّ ﷺ؛ لئلّا يشتَرِكوا معهم في مجلسٍ واحدٍ؛ قفَّى على ذلك بذِكْرِ قِصَّةِ موسى عليه السلام مع الخَضِر؛ ليبيِّنَ بها أنَّ موسى مع كونِه نبيًّا صادِقًا أرسَلَه اللّهُ إلى بني إسرائيلَ بشيرًا ونذيرًا، وهو كليمُ اللّه، فأُمِرَ أن يذهَبَ إلى الخَضِرِ ليتعَلَّمَ منه ما لم يعلَمْهُ، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ التَّواضُعَ خيرٌ من التكبُّرِ، وأنَّه من خُلُقِ المرسلين(1)، وأيضًا لمّا قدَّم الكلامَ على البعثِ، واستدلَّ عليه بابتداءِ الخلقِ، ثمَّ ذكر بعضَ أحوالِه، ثمَّ عقَّبَه بما ضرب لذلك وغيرِه من الأمثالِ، وصرَّفَ من وجوه الاستدلالِ، وختمَ ذلك بأنَّه يُمهل عند المساءَةِ؛ عقَّبَ ذلك بأنَّه كذلك يفعلُ عند المَسرَّةِ، فلكلِّ شيءٍ عنده كتابٌ، وكلُّ قضاءٍ بقدَرٍ وحسابٍ، فذكرَ قصَّةَ موسى مع الخضر عليهما السلام وما اتَّفقَ له في طلبِه(2)، ومِن وجوه التَّناسب بين هذه القصَّة والآية التي قبلها مباشرةً، والتي فيها بيانُ أنَّ لكلِّ أمة موعدًا: تذكيرُ ما في هذه القصة من موعد الملاقاة، مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة(3).

وأيضًا فإنَّه لَمّا جَرى ذِكرُ قصَّةِ خَلْقِ آدمَ وأمرِ اللّه الملائكةَ بالسُّجودِ له، وما عَرَضَ للشَّيطانِ مِنَ الكِبْرِ والاعتِزازِ بعُنصُرِه؛ جهلًا بأسبابِ الفضائلِ، ومُكابَرةً في الاعْتِرافِ بها، وحسَدًا في

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 477، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 174.
(2) البقاعي، نظْم الدُّرر: 12/ 95.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 512.

الشَّرفِ والفَضْلِ، فضرَب بذلك مَثلًا لأهلِ الضَّلال عَبيدِ الهَوى والكِبْرِ والحسَدِ؛ أعقَب تلك القِصَّةَ بقِصَّةٍ هي مَثلٌ في ضِدِّها؛ لأنَّ تَطلُّبَ ذي الفضلِ والكمالِ للازديادِ منهما وسَعْيَه للظَّفرِ بمَن يُبلِّغُه الزّيادةَ مِن الكَمالِ؛ اعترافًا للفاضلِ بفَضيلتِه، وفي ذلك إبداءُ المقابَلةِ بين الخلقَيْن، وإقامةُ الحُجَّةِ على المماثَلةِ والمخالَفةِ بين الفريقَيْن: المؤمنين والكافِرين، وفي خلالِ ذلك تَعليمٌ وتنويهٌ بشَأنِ العِلم والهُدى، وتربيةٌ للمتَّقين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِفَتَىٰهُ﴾: (فتي) أصل يدلّ على مفارقة الحيِّ طورَ طفولته أو حداثته بالغًا طورَ شبابه، فيدلُّ الفتى على الطَّراوةِ والجِدَّة، ولهذا يُقال: (الفتى) للطَّريِّ من الإبل وللطَّريِّ من الشَّباب؛ لتميُّزه بطراءة الشباب وحماسه ونقاء فطرته قبل قساوة الحياة والتجارب، والفتى والفتاة: العبدُ والأَمَةُ، وأصل ذلك من استخدام صغارِ السن لخفَّتهم وقوَّتهم؛ فاستُعمل لهؤلاء تلطُّفًا، والفتى: الشّابُّ الصالح للخدمة والمعاشرة المؤاخذُ على تصرُّفاته[2].

2) ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾: أصل (برح) يدلُّ على زوال الشَّيء عن موضعِه مع شدَّةٍ وقوَّةٍ، فيُقال: بَرِحَ يَبْرَحُ بَراحًا؛ إذا زالَ مِنْ مَوْضِعِه، ويُقال: لا أبرحُ أَفْعَلُ ذَلِكَ في مَعْنَى لا أزالُ، وخصَّ تركيب (لا أبرحُ) أو ما في معناه من دخول حرفِ النَّفي على مادَّة (برح) بالإثبات، كقولهم: لا أزال؛ لأنَّ (برح) و(زال) اقتضيا معنى النَّفي، و(لا) للنَّفي، والنَّفيان يحصل من اجتماعهما إثباتٌ؛ لأنَّ نفيَ النَّفي إثباتٌ[3].

3) ﴿أَبۡلُغَ﴾: (بلغ) أصل يدلّ على الانتهاء إلى أقصى المقصدِ والمنتهى ووصول الشَّيء إلى غايةٍ، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المُقدَّرة، وربَّما يُعبَّر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه، فيُقال: بلغَ المكانَ؛ إذا وصلَ إليه، وبَلَغَتِ الثِّمارُ: أَدْرَكَتْ، ونَضِجَتْ، ومنه ما يفيد الوصول إلى زمن أو مستوًى عمريٍّ مُعيَّن، كقولِهم: بلغ الغلامُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 358 - 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (برح).
(4) الراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بلغ).

4) ﴿مَجۡمَعَ﴾: (جمع) أصل يدلّ على ضمِّ الشَّيءِ بتقريب بعضِه من بعضٍ، أي: بتضامِّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا أو تلاحمًا أو تراكمًا، يُقال: جَمَعْتُهُ، فاجْتَمَعَ، والجُمْعُ: الكفُّ المقبوضة، والمَجْمَعُ بفَتْحِ الميم وكَسْرِها - مِثْلُ: المَطْلَعِ والمِطْلَعِ - يُطْلَقُ على الجَمعِ وعلى مَوْضِعِ الاجْتِماعِ[1].

5) ﴿أَمۡضِيَ﴾: (مضي) أصل يدلّ على نَفاذِ شيءٍ ومُروره بغلظ أو قوَّة في أثناء شيءٍ كما يمضي السيفُ، أَيْ: ينفذ في جسم الضَّريبةِ، وتصريفُ الكلمة: مَضَى يَمضي مُضيًّا، والمَضاءُ: النَّفاذُ في الأمرِ، ومَضَى في الأرضِ بمعنى: نَفَذَ، وذهب، وسارَ[2].

6) ﴿حُقُبٗا﴾: يدلُّ الحقب على الحَبْسِ، يُقالُ: حَقِبَ العامُ؛ إذا احْتَبَسَ مَطَرُهُ، وحَقِبَ البَعيرُ؛ إذا احْتَبَسَ بَوْلُهُ، والحقيبةُ: الوعاءُ الذي يُجعل فيه الزّادُ أو الأشياء، والأصل أن تكون الحقيبةُ في مؤخَّرِ الرَّحلِ، والحِقبَةُ بكسرِ الحاء وضمِّها، وتُجمعُ حِقبَةٌ على حِقَبٍ كَقِرْبَة وقِرَب وحُقبَة على حُقَب كَغُرْفَة وغُرَف، والحِقبة بالكسر أو الضَّمِّ الدَّهرُ، وقيل: الحِقبَةُ ثمانون عامًا، وقيل: أكثر، والصحيح أنَّها مدَّةٌ طويلةٌ من الزمان مبهمةٌ، وذلك لما يَجْتَمِعُ في الحقبةِ مِنَ السِّنين والشُّهور[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحثُّ على الرِّحلةِ في طلبِ العلمِ، ولو كان في السَّفرِ نصبٌ ورهقٌ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ يُخبر عن نبيِّه موسى عليه السلام، وعن شدَّة رغبته في الخير وطلبِ العلم مُبيِّنًا قصَّتَهُ مع الخضرِ عليه السلام، فيقول: واذكُرْ -

(1) الراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مضى).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حقب).

يا مُحمَّدُ ﷺ - حينَ قال موسى لخادِمه يوشَعَ بنِ نون: لا أزالُ أتابعُ السَّيرَ حتى أصِلَ إلى مُلتقى البَحرين، أو أسيرَ زمنًا طويلًا حتَّى أجدَ العبدَ الصّالحَ الذي أخبرَني اللّهُ بعِلمِه وفَضلِه؛ لأتعلَّمَ منه ما ليس عندي مِن العِلم(1).

وقد جاء في الحديث ما يوضِّح معنى الآياتِ، فعَنِ ابْنِ عبّاسٍ أنَّه تَمارَى هو والحُرُّ بنُ قَيْسِ بنِ حِصْنٍ الفَزاريُّ في صاحِبِ موسَى، قالَ ابنُ عبّاسٍ: هو خَضِرٌ، فمَرَّ بهما أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، فدَعاهُ ابنُ عبّاسٍ فقالَ: إنّي تَمارَيْتُ أنا وصاحِبي هذا في صاحِبِ موسَى، الذي سَأَلَ موسَى السَّبيلَ إلى لُقيِّه، هلْ سَمِعْتَ النبيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قالَ: نَعَم، سَمِعْتُ رَسولَ اللّه ﷺ يقولُ: بيْنَما موسَى في مَلَأٍ مِن بَني إسْرائيلَ جاءَهُ رَجُلٌ، فقالَ: هلْ تَعْلَمُ أحَدًا أعْلَمَ مِنْكَ؟ قالَ موسَى: لا، فأوْحَى اللّه ﷻ إلى موسَى: بَلَى، عَبْدُنا خَضِرٌ، فسَأَلَ موسَى السَّبيلَ إلَيْه، فجَعل اللّه له الحوتَ آيَةً، وقيلَ له: إذا فقَدْتَ الحوتَ؛ فارْجِعْ، فإنَّكَ سَتَلْقاهُ، وكانَ يَتَّبِعُ أثَرَ الحوتِ في البَحْرِ، فقالَ لموسَى فتاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: 63]، قالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، فوَجَدا خَضِرًا، فكانَ مِن شَأْنِهِما الذي قَصَّ اللّهُ ﷻ في كِتابِه(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾:

في قصَّةِ موسى عِبرةٌ للمخاطَبين وحِكمةٌ للمبلِّغين

جاءت جملة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ معطوفةً على جملة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الكهف: 50] من عَطْفِ القِصّةِ على القِصّةِ، والتَّقْديرُ: (واذْكُرْ إذْ قالَ موسَى لفَتاهُ)، أَيِ: اذْكُرْ ذَلِكَ الزَّمَنَ، وما جرَى فيه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 308.
(2) البخاريّ، صحيح البخاريّ، رقم الحديث: (74).

أو اذكر قصَّةَ موسى في ذلك الزَّمن، وناسَبَها تَقْديرُ فِعْلِ (اذْكُرْ)؛ لأَنَّ في هَذِه القِصَّةِ مَوْعِظَةً وذِكْرَى للمخاطَبين جميعًا، كَما في قِصَّة خَلْقِ آدمَ[1].

دلالةُ تصدير الآية بـ﴿وَإِذۡ﴾:

ما بعدَ (إِذْ) فيه شأنٌ عظيمٌ وخبرٌ جسيم

صُدِّرَ الكلامُ بظرف الزَّمان ﴿وَإِذۡ﴾؛ ليفيد أنَّ الخبرَ الذي يُذكرُ بعده له شأنٌ عظيمٌ فخمٌ، وأنَّه ينبغي الإصغاءُ إليه؛ لأنَّ فيه عبرةً لمن اعتبر، ووجهُ التعظيم والتفخيم بـ(إِذْ) النَّصُّ عليه، ولمّا اقترن (إِذْ) بالقول؛ دلَّ على أنَّ شأنَ القصَّة في المقاولة والمحاورة.

دلالةُ قولِه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾:

جوازُ تصريح المسافرِ لطلب العلم بمطلبِه إذا اقتضت المصلحةُ

قد يُقال: لمَ قال موسى قولَه لفتاه؟ ولمَ أخبرَه بوجهتِه، والفتى ليس له إلّا التَّسليم والمتابعةُ؟ وجوابُه أَنَّ المَصلحةَ في الإخبارِ بمَطلَبِه، وأين يُريدُه لإعدادِ العدَّةِ وتهيئةِ الأمرِ، وإتيانِ الأمرِ على بصيرةٍ، وتوطين فتاه على السَّفرِ ومشقَّتِه، ولإظهارِ شَرَفِ هذه العبادةِ الجَليلةِ[2].

بلاغةُ التَّعبير بقولِه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾:

دلالةُ (لا أَبْرَحُ) بين معنى (لا أزالُ) أو (لا أزول)

لمّا كان ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ فعلًا ناقصًا بمعنى (لا أزالُ)، وفيه معنى المداومة وعدم الفتور؛ كان المعنى: لا أزالُ أسيرُ مداومًا على سيري، أو لا أتركُ السَّيرَ مداومًا عليه من غيرِ فتور حتى أبلغَ مجمعَ البحرين أو أمضيَ حقبًا، فيكون موسى عليه السلام قد قال هذا القولَ، وهو يبتغي بين البحرين، ويسير متَّجهًا إليه، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ بمعنى: لا أزول، فيكون الفعل تامًّا، ويكون استعارةً لمعنى عدم المفارقة، أي: لا أَتْرُكُ، أَوْ لا أَكُفُّ عَنِ السَّيْرِ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ، فيكون المُرادُ: لا أزولُ عن حالي وشأني في السَّير، ليفيدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 359.

(2) السّعديّ، تفسير السّعديّ، ص: 482.

مداومة حالِه على السَّير ولزومه وطلبه، أي: لا أتركه ولا أُفارقه، فكأنَّه ليس له شأنٌ سوى السيرِ حتَّى يبلغ مجمعَ البحرين، أو يمضي في سيرِه زمنًا طويلًا[1].

بلاغةُ حذف خبرِ ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾:

التَّنويهُ بشأنِ بذلِ الجُهدِ في السَّفرِ للتَّعلُّم

إذا كان ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ فعلًا ناقصًا - وهو الظّاهر عند جمهور المُفسّرين - فيُحتمل أن يكون الخبر: (أسيرُ) محذوفًا؛ للإيذانِ بعموم الخبر الدّالِّ على معنى السَّير والسَّفر وبذلِ الجُهد لتحصيل المُرادِ، كما أنَّ قرينةَ الحال والسّياق معًا يدلّان على الخبر، أمّا قرينة الحال؛ فلأنَّها كانت حالَ سفر، وأمّا قرينة سياق الكلام؛ فلأنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غايةٌ مضروبةٌ تستدعي ما هي غاية له، اعتمادًا على قرينة الحال؛ إذ كان ذلك عند التوجُّه إلى السفر واتِّكالًا على ما يعقبه من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾، إذ الغاية لا بدَّ لها من مغيًّا، والمناسب لها هنا السَّيرُ، فالظّاهر أن يكون المعنى: لا أبرحُ أسيرُ حتَّى أبلغَ مجمعَ البحرين، وجوَّز بعض النُّحاة والمُفسِّرين أن يكون أصلُهُ: لا يبرح مسيري ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ على أن يكونَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ هو الخبر، فحُذِف المضاف (مسير)، وأُقيم المُضافُ إليه مقامه؛ فانقلب الضَّمير وهو الياء من البروز والجرِّ إلى الرفع والاستتار، وانقلب الفعلُ من الغيبة إلى التَّكلُّم، فصار ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾[2].

سببُ إيثار التَّعبيرِ بلفظ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾:

من حُسنِ الأدبِ التلطُّفُ مع الخَدَم

لَمّا كانَ الخَدَمُ أَكْثَرَ ما يَكونونَ فِتْيانًا؛ قيلَ لِلْخادِمِ: فتًى، على جِهَةِ حُسْنِ الأَدَبِ والتَّلطُّف[3]، وأوثر لفظ (الفتى) لما يدلُّ عليه اللَّفظ من معنى القوَّة والطَّراوة، وأنَّه كانَ شابًّا صالحًا للخدمة والمعاشرة، وأنَّه كان يُؤاخذُ على تصرُّفاته.

(1) يحيى بن سلّام، التصاريف، ص: 317، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1261.
(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 731، والعُكبَري، التبيان: 2/ 854، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 286.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 527، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 198.

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾:

الإضافةُ هنا على معنى اللّام لتُفيد الاختصاص، للإشارة إلى أنَّ الفتى كان يتبعه ويخدمه ويأخذ منه العلم[1]، ففتاه كان يتعلَّمُ منه عليه السلام آدابَ طالب العلم حين عزم موسى عليه السلام على طلب العلمِ على يدَي الخضرِ.

خدمةُ العلمِ محمودةٌ، وهي من أجلِّ ما أمر الله به

فائدةُ تقديم ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ على مقول القول:

تقديمُ الجارِّ والمجرور للاعتناء بالمقول له، وهو الفتى الذي يرافقُ موسى عليه السلام وتشريفه، والاهتمام به وتخصيصُهُ بتلك المقالة دون غيره[2]، كما أنَّه لو أُخِّرَ الجارُّ والمجرور عن مقول القول؛ لضعف النَّظم، وانقطعت الفاصلةُ، كما هو ظاهرٌ في الكلامِ، وفي التقديمِ إشعارٌ بإقبال موسى عليه السلام على فتاه وأنسه به، وهذا أسمى ما يكون بين المعلِّم والطالب، والخادمِ والمخدوم، وهذا مِن هدايات القرآنِ العظيمِ.

في التَّقديمِ إشعارٌ بإقبال موسى عليه السلام على فتاه وأُنسه به

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَآ﴾ في السّياق الحكيم:

يدلُّ النَّفيُ بـ﴿لَآ﴾ على أَنَّهُ حين قال قولَه لفتاه، كانَ قد ابتدأ سيرَهُ عازمًا على أن تكونَ نِهايَةُ سيره البُلوغَ إِلَى مَكان مجمع البحرين، كما أفادت ﴿لَآ﴾ نفيَ المستقبل المتطاول[3]؛ إشعارًا بعزمِ موسى عليه السلام القاطع على بلوغ غايتِه، وأنَّه لا يشتغلُ بشيءٍ دون بلوغِ مجمع البحرين.

عزْمُ موسى عليه السلام على بلوغ غايتِه في لقاء الخضرِ وصحبتِه

تلوينُ الخطابِ في الإخبار عن قول موسى:

جاء الكلامُ على طريق الالتفات بتلوين الخطاب من الغيبةِ في قولِه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾؛ فجاءت الأفعال ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ و﴿أَبۡلُغَ﴾ و﴿أَمۡضِيَ﴾ بصيغة المتكلِّم؛ إشعارًا بأنَّه هو المقصود بالتَّعلُّم من

موسى عليه السلام هو المقصود بالتَّعلُّم، وليس فتاهُ سوى شخصيَّة مساعدة

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 154، والزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 299، والواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 67.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 114.

(3) السّامرائيّ، معاني النحو: 3/ 361.

العبد الصّالح، وأنَّه هو الذي يقومُ بالمهمَّة والصُّحبةِ؛ لأنَّ هذا هو مدارُ القصَّةِ أصلًا، وما شأنُ فتاه إلّا المتابعةُ والتَّسليمُ.

فائدةُ الحرفِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في السّياق:

ديدنُ المتعلِّمِ البحثُ والتَّفتيشُ حتَّى يصلَ إلى المعلِّم الرَّبانيِّ

عُبِّرَ بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دون (إلى)، فلم يَقُلْ: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾؛ لما تفيدُه ﴿حَتَّىٰٓ﴾ من انقضاء السَّير شيئًا فشيئًا، إيذانًا بالبحثِ والتَّفتيشِ عن مجمع البحرين، وأنَّه لم يكن يعلمُ موضعه تمامًا، وفي التَّعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ إشعارٌ بأنَّ سيرَهُ طويلٌ مُتقطِّعٌ، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: 62]، فالتعبيرُ بها تمكينٌ لشَغَفه بالعِلْم وحرصه العظيم عليه.

سببُ إيثارِ التَّعبير بـ﴿أَبۡلُغَ﴾ دون (أَصِل):

طالبُ العلمِ لا يتوانى عن الوصولِ إلى أقصى مقصدِه لبلوغِ غايتِه

عُبِّرَ بلفظ ﴿أَبۡلُغَ﴾ إيذانًا بأنَّه عليه السلام كان عازمًا على الوصول إلى أقصى المقصد وتحصيل الغاية وتمامِها، فالعلمُ كان غايتَهُ، وتحت هذا المعنى عظمةُ العلم في بصره وبصيرتِه، وشديدُ حرصِه على تحصيلِه، ثم بلوغُ مجمع البحرينِ؛ لبلوغ العِلْم على يدي الخَضِر، ففي التَّعبير به إشعارٌ لطيفٌ بأنَّ نبيَّ اللّه موسى عليه السلام استشعر أنَّ فيه نقصًا، وعَلِم يقينًا أنَّه ليس أعلمَ البشر، فسعَى لتكميل نفسِه وبلوغِها الكمالَ في باب العلم.

سببُ إيثارِ لفظ ﴿مَجۡمَعَ﴾ دون (مُلْتقى):

المجمعُ يدلُّ على الكثرة والتَّجانس، والملتقى يدلُّ على المقابلةِ

عُبِّرَ باسم المكان ﴿مَجۡمَعَ﴾ لما يشعر به لفظ الجمع من معنى الكثرة ومعنى التَّجانس بين البحرين، ولا يدلُّ لفظُ الالتقاء على هذا المعنى المناسب للسّياق؛ لأنَّ اللِّقاء مقابلةُ الشَّيء، وقد يكون على وجه المصادفة(1)، فالتَّعبيرُ به يصوِّرُ في لُطْفٍ موقِعَ الخضر المعلم في بصيرة موسى عليه السلام ونفسِه وقلبِه، كأنَّهما شيءٌ واحدٌ.

(1) الراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (لقي).

فائدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾:

المكانُ يشمل موضعَ التقاء البحرين، وما يقرب منه من السّاحل

في قولِه: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ جاءتِ الإضافة على معنى اللّام لتُفيد الاختصاص والتَّعيين، بمعنى: أنَّه ﷺ كان يقصد السَّير في سفرِه إلى مكانٍ مُعيَّن، ولمّا كان ﴿مَجۡمَعَ﴾ اسمَ مكانٍ؛ كان المرادُ مكانَ جمعِ البحرين، فيشمل عينَ موضعِ التقاء البحرين وما يقرب منه من السّاحل، كما يدلُّ عليه سياق الكلامِ، وما أنسبَ التَّوقيتَ بمجمعِ بحرَي الماءِ بمجمعِ بحرَي العلم! أي: موسى ﷺ والعبد الصّالح[1].

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ﴾:

التَّرديدُ بين غايتَيْن من مقاصد حرف المعنى في السّياق

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ الظّاهرُ أنَّ ﴿أَوۡ﴾ هي العاطفة على معنى التَّرديد في حصول الشَّيئَيْن، فعُطِفَ ﴿أَمۡضِيَ﴾ على ﴿أَبۡلُغَ﴾ بـ﴿أَوۡ﴾؛ فصارَ المَعْطوفُ إحْدَى غايَتَيْنِ للْإِقْلاعِ عَنِ السَّيْرِ، أَيْ: إمّا أَنْ أَبْلُغَ المَكانَ، أَوْ أَمضيَ زَمَنًا طَويلًا.

جوازُ مجيءِ ﴿أَوۡ﴾ بمعنى (إلّا أنْ):

لم يكنْ لموسى مقصدٌ سوى صُحبةِ الخضر والنَّهل من علمه اللَّدني

أجاز بعض النَّحاة والمفسِّرين أن تكون ﴿أَوۡ﴾ بمعنى: (إلّا أنْ)، وتقديرُ قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، أيْ: لا أبرح أسير إلّا أن أمضي زمانًا، أتيقَّن معه فوات المَجْمَع، والاستثناءُ حينئذٍ مُفرَّغٌ من أعمِّ الاحوال؛ ليفيد أنْ ليس له مقصدٌ سوى بلوغِ مجمعِ البحرَيْن، وأنَّه سيداوم سيرَهُ، ويستطيل فيه حتَّى حصول المقصود، وهذا يُنْتِجُ حرصَهُ الشديد على تحصيل العلم وعظيم حبِّه له، ولا تُقدَّر ﴿أَوۡ﴾ بـ(إلى أنْ)؛ لأنَّه يقتضي جزم موسى ﷺ ببلوغ المجمع بعدَ سيرِه حقبًا، وهذا المعنى ليس بمرادٍ[2].

فائدةُ العطف بـ﴿أَوۡ﴾ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ ذُكِرَ المعطوف عليه الذي هو

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 96.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 286، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 200.

المقصود في الكلامِ، ثم عُطِفَ عليه أمرٌ آخر فيه مشقَّة واستحالةٌ في العُرْف، ليفيد حرصه على تحصيل المعطوف عليه، والمعنى: لا أزالُ أسير حتى يقع إمّا بلوغُ المجمع، أو مُضي الحُقُب.

بيانُ شدَّة حرصِ موسى عليه السلام على التَّعلُّم

سرُّ التَّعبير بالمُضيّ دون الذَّهاب أو السَّير:

أفاد التَّعبير بلفظ: ﴿أَمۡضِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أنَّ سَيرَهُ عليه السلام كان سيرَ نفاذٍ وقوَّة؛ إشعارًا بأهميَّة حصول المقصود، وإدراك الطَّلب، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ حصولَ مطلوبِه ليس سهلًا، فيحتاج إلى توطين النَّفس على طولِ السَّفر وشدَّة التَّعب ومكابدة الصَّبر.

التَّعلُّم يحتاجُ إلى توطين النَّفس على السَّفر والتَّعب والمصابرة

بلاغةُ المجازِ في جملة: ﴿أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾:

عبَّرَ بالحُقُبِ مجازًا في قولِه تعالى: ﴿أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، والمُرادُ به لازمهُ، وهو الزمان الطَّويل، والمعنى: أو أسير سيرًا نافذًا زمانًا طويلًا، ففي المجازِ إيجازٌ[1]، وعبَّرَ بالحقب دون غيره من الألفاظ الدّالَّةِ على الزَّمن الطويل؛ للإيذانِ بعزمِه على مُضيِّه في بلوغِ مجمع البحرين للقاء العبدِ الصالح الخضر، وإن سارَ حِقبَةً بعد حقبَةٍ، كما أنَّ التَّعبير بالحقب فيه إشعارٌ بأنَّه يُداوم على المُضيِّ في سيرِه وسفرِه مع تنوُّع أحوالِه وظروفِه، وإنْ بَعُدَتِ المسافةُ؛ لأنَّ الحِقبَةَ تفيدُ أنَّها ظرفٌ لأعمالٍ ولأمورٍ تجري فيها، فهي مأخوذةٌ من الحقيبةِ كما تقدَّمَ.

الحثُّ على اغتنامِ لقاءِ العُلَماءِ، وإنْ بَعُدت أقطارُهم

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾:

لمّا كان السَّيرُ حُقُبًا لا يقصد منه استيعابُ الحقبِ بالسَّير؛ لأنَّه ليس له فائدةٌ في نفسه كما أنَّه خارجٌ عن العادةِ، ولَمّا كانَ موسَى لا يُخامِرُهُ الشَّكُّ في وُجودِ مَكانٍ هوَ مجمعٌ للبحرين وإلفاءِ طِلْبَتِه عِنْدَهُ؛ لأَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ بوَحيٍ مِنَ اللهِ تعالَى؛ تَعَيَّنَ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ

طالبُ العِلمِ يتحمَّلُ المتاعبَ في الطَّلبِ من غير ملالٍ وكلالٍ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 751، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 117.

بجملة حَرْفِ التَّرْدِيدِ كنايةً عن عزمِ موسى عليه السلام الجازم وتصميمِه على لقاء العبد الصّالح وشوقه ورغبتِه في التَّعلُّم منه، وأنَّه لا يشتغل بشيءٍ حتَّى يبلغ مجمعَ البحرين، فكأنَّ موسى عليه السلام وطَّنَ نفسَه على تحمُّلِ التَّعبِ الشَّديدِ إلى أنْ يلقاه، وفيه تنبيهٌ على شرف العِلم، وأنَّ طالبَ العِلم يحقُّ له أنْ يسافرَ، ويتحمَّلَ المتاعب في الطلبِ من غير ملالٍ وكلالٍ، كما أنَّه أرادَ شَحْذَ عَزيمَةِ فتاهُ ليُساويَهُ في صِحَّةِ العَزْمِ حَتَّى يَكونا على عزم مُتَّحد[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتى والغلام:

الفتى الطَّرِيُّ من الشَّباب الصّالح للخدمة، والغلام البالغ الرُّشد والتَّمييز

الغلامُ: الطّارُّ الشارِبِ، وطَرَّ شاربُه، أيْ: طَلَعَ وظهر، واغْتَلَمَ الغُلامُ؛ إذا بلغ حدَّ الشَّهوة، وذهب بعض اللُّغويّين إلى أنَّ الولد غلامٌ من ولادته إلى أن يحتلم، ولا شكَّ أنَّ هذا من باب التَّفاؤل، فأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامُه، أيْ: بلوغه حالةَ الرغبةِ في الأنثى[2]، وقد لا يكون الغلامُ صالحًا للخدمةِ، ولا يكون مؤهَّلًا لها، وأمّا الفتى؛ فهو الطَّريُّ من الشَّباب، القويُّ الصّالح للخدمة والمعاشرة، المؤاخذُ على تصرُّفاته، وقد جعل اللّه تَعالَى صاحبَ موسَى عليه السلام الَّذي صَحِبَهُ في البَحْرِ فتاه، فقالَ تَعالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾؛ لأنه كانَ يَخْدِمُهُ في سَفَرِه، ودَليلُهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: 62][3]، فكان استعمالُ لفظِ الفتى في صحبة السَّفر - الَّتي تحتاج إلى الخدمة واللُّطفِ فيها، وإلى الجلدِ والقوَّة - هو المناسب للمقام.

(أبرح) و(أزال):

يدلُّ الفعل (زال) على تَنَحّي المزالِ عن مَكانِهِ، ومفارقته له

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 445، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 365.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلم).
(3) الزجّاج، معاني القرآن: 3/ 299، وابن منظور، لسان العرب: (فتا).

جانحًا عنه، فيَقولونَ: زالَ الشَّيءُ زَوالًا، وزالَتِ الشَّمسُ عن كَبِدِ السَّماءِ تَزولُ، ويُقالُ: أَزَلْتُهُ عَنِ المَكانِ، والزَّوالُ يُقال في أمرٍ قد كان ثابتًا قبلُ، ويدلُّ الزَّوال على الذَّهاب والاسْتِحالة والاضْمِحْلال، وقوله: (لا يزال) يُفيد كثرةَ الحركة في السَّير وقلَّة المسافة التي يقطعها، ومنه الزَّوّال: وهو الَّذي يتحرَّك في مَشْيه كَثيرًا وما يَقْطَعُهُ مِنَ المَسافَةِ قَليلٌ، وأمّا (أبرح)؛ فيُقال في أمرٍ قد بدأ عمله، ويدلُّ على زوال الشَّيء عن موضعه بقوَّةٍ[1]، وقوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ يدلُّ على كثرة الحركة وكثرةِ المسافة التي يقطعها، فكان التَّعبيرُ بـ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ هو المناسبَ للمقام.

لفظُ (أبرح) يدلُّ على زوال الشَّيء، و(الزَّوال) يدلُّ على الذَّهاب والاضْمِحْلال

(أبلغ) و(أَصِل):

البلوغُ هو الوصول إلى غاية المقصودِ ونهايته، والتَّمكُّن منه بأحسن صورةٍ وأدلِّها، ولفظ (بلَغَ) يُقال في أمرٍ قد بدأ عملُه، ويدلُّ على زوال الشَّيء عن موضعِه بقوَّةٍ، فالفعل (وصل) يدلُّ على الوصول إلى الهدف، ولا يشعر بتحقيق الغاية ولا التمكُّن منها.

البلوغُ الوصول إلى المنتهى، ووصل يدلُّ على الوصول للهدف

المُضيُّ والسّير والذّهاب:

السَّيرُ: يدلُّ على امتدادٍ في الجري والذَّهاب، ويكون في ليلٍ أو نهارٍ، ولا يدلُّ على نفاذٍ في السَّير ولا قوَّةٍ فيه، كما هو لفظ (مضى) المناسب لتعلُّقه بالحُقُبِ الدّال على طول زمن السَّير وقوَّته، وأمّا الذَّهابُ؛ فهو سيرٌ وانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ، فيقتضي ذِكْرَ غايةِ الذَّهاب[2]، ولمّا كان المُرادُ بيانَ مُضيِّ موسى عليه السلام في سَفَره ونفاذِه فيه على معنى عزمِه على مداومة السَّفرِ حتَّى يبلغَ مجمعَ البحرين؛ فقد عُبِّرَ بـ﴿أَمۡضِيَ﴾ دون غيرِه، فهو المناسب لمقامِ الكلام ومقصدِه.

المضيُّ نفاذٌ في السَّير، وقوَّة على مواصلته، وهو المناسب للسّياق

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زول).
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذهب)، و(سير).

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الحثِّ على السَّفر دون مَلَلٍ ولا كَلَلٍ، وتسرُّبِ الحوت عند نسيانه

لمّا أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام في قولِه لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾؛ أعقبَهُ بذِكْرِ مسيرِهما وبلوغِهما المقصدَ، وهو مجمعُ البحرين، فهذا تتابُعٌ في سرد مشاهد القصَّةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُوتَهُمَا﴾: يدلُّ معنى الحوت على الاضْطِرابِ والرَّوَغانِ، فالحوتُ هو السَّمَكُ العظيمُ، وسُمّي حوتًا لعظم جِرمِه، وهو مشهور باللَّقْم، ويؤدّي إلى عِظَمِ الجِرْم، والحوتُ مُضْطَرِبٌ أبَدًا غَيْرُ مُسْتَقِرٍّ، فيُؤْخَذُ منه معنى المراوغةِ والدَّوران، والعَرَبُ تَقولُ: حاوَتَني فُلانٌ، أيْ: راوَغَني مراوغةَ الحوت، وحاتَ الطائرُ على الشَّيْءِ يَحوتُ، أي: حامَ حَوْلَه، ويُطلق الحوتُ على الأسماكِ عامَّةً، ووجهُ إطلاقِه عليها هو التَّشبيه به في الحركة الخفيفة المُتعرِّجة دائمًا[1].

2) ﴿سَرَبٗا﴾: (سرب) يدلُّ أصلُ الكلمة على ذهابٍ في حدورٍ وجريانٍ بسرعةٍ واتِّساعٍ، وأصله من السَّرَب، وهو المَكانُ المُنْحَدِرُ؛ فالفعل سرَبَ مشتقٌّ من الاسم الجامد، والسّارِبُ: الذّاهِبُ في الأَرْضِ في أيِّ طريقٍ كانَ، ويُقالُ: سَرَبَ الدَّمع: سال، ومنه: سَرَبَ الماء من السِّقاء، وانْسَرَبَتِ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها، والسَّرَبُ: النَّفق الذي يُدخَل فيه، فيسلكُ منه إلى موضعٍ آخر، ولهذا عُبِّرَ عن السَّرب بأنَّه المسلكُ في خفية، والسَّرابُ: هو اللّامع في المفازة كالماء، وذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حوت).

لانسرابه في مَرْأى العين(1)، ولفظ ﴿سَرَبًا﴾ في الآية بمعنى: مسلك وطريق يجري فيه، أيّ: غاص في البحر، ونفذَ فيه ممتدًّا كالسّالكِ في نفقٍ(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

فلمّا وصَل موسَى ﵇ وفتاه إلى مُلتقى البَحرَيْنِ نَسيا حوتَهما الذي جعله اللّهُ عَلامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانه فيه، فشقَّ الحوتُ طَريقَهُ في البَحرِ مسلكًا ونفقًا ظاهِرًا في الماءِ.

صاحِبُ الحاجَةِ يجِبُ أن يتعهَّدها بنفسه ولا يتَّكل على غيره فينسى

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾:

تفيدُ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، بمعنى: أنَّ بلوغَ موسى ﵇ وفتاه مجمعَ البحرين كان مُرتَّبًا على سيرهما ومضيِّهما إليه، ولمّا كان السَّفرُ طويلًا - كما يدلُّ عليه السّياق - كان التَّعقيب بحسبِه، وفيه كلامٌ مطويٌّ للإيجاز، والتَّقدير: (فمضيا في سيرهما يمشيان، فلمّا بلغا مجمعَ بينهما)، فتكون الفاءُ هي الفصيحةَ(3) الَّتي تُفصحُ عن كلامٍ مَطويٍّ معلومٍ من السّياق.

متابعةُ السَّفر في طلب العِلم، فعلٌ شريفٌ ومحمودٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾:

عَبَّرَ الذِّكْرُ الحكيم بـ﴿فَلَمَّا﴾ دون غيرِها مِنَ الألفاظ التي تدلُّ على الوقت، لما تفيده (لَمّا) هنا من دلالتِها على امتدادِ مضيِّهما في السَّير وعدم انقطاعِهما عنه، كما تؤذِن (لَمّا) بأنَّ وقت نسيانِهما الحوتَ - وهوَ الموضع المُؤَقَّت لهُما بتلكَ العلامَةِ، فلا يزيدا تَعَبًا في المَشْيِ - كان في وقت بلوغهما المَجْمع، وفي التَّعبير بـ(لَمّا) تنبيهٌ لسرٍّ

تحصيلُ العِلم النّافع لا يأتي من غير تعبٍ ولا نصبٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرب).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 269، وابن الهائم، التبيان في غريب القرآن، ص: 220.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 200، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 232، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 365.

قضاء اللّه تعالى؛ إذ أشعر بأنَّ بلوغَهما المَجْمَعَ كان سببًا لنسيانِهما الحوتَ، ليطول سيرُهُما حتَّى يصيبَهما الجوع والتَّعب، ثمَّ يرجعانِ إلى الموضع الذي نسيا فيه الحوتَ، فتحصيلُ العلم النّافع لا يأتي من غير تعبٍ ونصبٍ، والتَّعبيرُ بـ(لَمّا) في نورِ ذلك كلِّه؛ يتناسب تمامَ التَّناسبِ مع مضمون قوله تعالى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

نكتةُ إسنادِ الفعل ﴿بَلَغَا﴾ إلى ألفِ الاثنَيْن:

إخبارُ موسى عن سفره طلبًا للصُّحبةِ ليس مجرَّدَ إخبار

لَمّا قال تعالى: ﴿بَلَغَا﴾ بإسناد الفعل إلى ألف الاثنَيْن؛ دلَّ على أنَّ قولَ موسى عليه السلام لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ لم يكن إخبارَ إعلامٍ عن مُضيِّه في سفرِه فقط، بل كان يتضمَّنُ إخبارًا على معنى طلبِ الصُّحبةِ في السَّفر وخدمتِه فيه، وهذا يؤكِّدُ دلالةَ علاقةِ الخادم بالمخدوم والطالب بالمعلِّم، وهي الدلالة المستفادةُ مِن تقديم: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ على مقول القول.

بلاغةُ مجيءِ الكلام على خلاف الظّاهر في الآية:

بيانُ أهميَّةِ إيثارِ الإظهار على الإضمارِ في حصولِ المقصدِ

في قوله تعالى: ﴿بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾، كان الظّاهر أن يُقال: (فلمّا بلغاه)؛ ليعود الضَّمير على قولِه: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، فلمّا قال تعالى: ﴿بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾؛ كان من قبيلِ وضع المُظهَرِ موضع المُضْمَرِ؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، ونكتتُهُ بيانُ أهميَّة المجمع؛ إذ هو المكان الذي يكون فيه العبدُ الصّالح، وبه تقع صحبةُ موسى عليه السلام للعبدِ الصّالح الَّذي أمره اللّه برفقتِه، وهذا ينطوي على عظمة العلم والمعلِّم في بصيرة طالب العلم موسى عليه السلام.

سرُّ الإضافة في ﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ بدلًا من (البحرين):

تنوُّع معنى لفظ البَيْنِ في الآية المحكمة

لم يَقُلْ هنا: (مجمع البحرين)، كما قال في الآية السّابقة؛ فأضاف ﴿مَجۡمَعَ﴾ إلى لفظ البين، وكَأَنَّهُ إشارَةٌ إلَى قَوْلِ موسَى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، أَيْ: فحقَّقَ اللّه تعالى ما قالَهُ، ليكون

لفظُ البَيْنِ اسمَ مكانٍ لما يتوسَّط بينَ شيئَيْن، وتكون الإضافةُ بمعنى (في)، والمُراد: (فلمّا بلغا مجمعًا في وسطِ البحرين)، فيكون مجيءُ الإضافة كالتَّفصيل لبيانِ المكان الَّذي نسيا فيه حوتَهما، فيكون قد أصابَ الموضعَ عينَهُ، ويحتمل ألّا يكون المُرادُ من لفظ البَيْن ما يكون للتَّوسُّط بين الشَّيئَيْن، فيكون حينئذٍ مِنَ الأضداد، فيحتمل حينئذٍ أن يكونَ بمعنى الوصل، والتَّقدير: (فلمّا بلغا مجمعَ وصلِ البحرين)، أيِ: التقائِهما، كما أجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكون لفظُ البَيْن بمعنى: الافتراقِ، والتَّقديرُ: (فلمّا بلغا مجمعَ البحرين المُفترقين)[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿نَسِيَا﴾:

نهايةُ البَراعةِ في الإسنادِ إلى ضميرِ التَّثنية مع تعدُّدِ المعنى

معنى نِسْيانِهما الحوتَ أَنَّهُما نَسيا أن يأخذاهُ معهما، وتركاهُ، وفارقاه، وهذا إبلاغٌ في تقرير نسيانِ أخذِهِ، وأُسنِدَ النِّسيانُ إليهما معًا، كما يُقال: حملَ القومُ كذا من الزّاد؛ وإنَّما حملَهُ أحدُهم، فكذلك قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ أو يُقال: إنَّه أضافَ النِّسيانَ إليهما؛ لأنَّهما تركاه جميعًا في المجمعِ، وفارقاه، وإن كان الفتى هو الذي نسيَهُ دون موسى، فقد نسي موسى أن يستخبِرَهُ عنه، وقد كان منهما جميعًا النِّسيانُ، من الفتى: الإخبارُ عنه، وأن يذكرَ لموسى ما رأى منه ووقوعَهُ في البحر، ومن موسى: التَّعرُّفُ على حاله ومتابعة أمرِه، فيكون نسيانُ الحوتِ قدرًا مشتركًا بينهما، وإن تنوَّعَ بالإضافةِ إلى كلٍّ منهما، ففي النَّظم كمالُ إيجازٍ ونهايةُ براعةٍ بذِكْرِ لفظٍ واحدٍ مُتعدِّدِ المعنى بحسبِ ما يُضافُ المعنى إليه[2]، ويُحتمل أن يكونَ معنى النِّسيان أنَّهما نسيا أَنْ يُراقِبا حالَهُ وتفقُّد أمره، فإِسْنادُ النِّسْيانِ إِلَيْهِما حَقيقَةٌ؛ لأَنَّه لمّا كان فتى موسى هوَ الموكَل بحِفْظِ

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 479، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 286، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 445، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 365.

(2) الماتُريديُّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 191، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 286، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 120.

الحوتِ؛ توجَّب عليْه مُراقَبَتُهُ، أو أن يقدِّمَهُ لموسى عند بلوغهما مجمعَ البحرين، إلّا أَنَّ موسَى هوَ القاصِدُ لهَذا العَمَلِ، فكانَ يَهُمُّهُ تَعَهُّدُهُ ومُراقَبَتُهُ والسُّؤال عن حالِه، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ صاحِبَ العَمَلِ أوِ الحاجَةِ - إذا وكَلَهُ إلَى غَيْرِه - لا يَنْبَغي لَهُ تَرْكُ تَعَهُّدِه(1).

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱتَّخَذَ﴾:

تُفيد الفاءُ التَّرتيب والتَّعقيبَ، بمعنى: أنَّ نسيانَهما الحوتَ عندَ مجمع البحرين كانَ سببًا في اتِّخاذ الحوتِ سبيلَهُ في البحر سرَبًا، وأنَّ اتِّخاذَه طريقًا في البحر كان عقبَ نسيانِهما له من غيرِ مهلةٍ، ليُفيدَ فقدانهما له، وهي الإشارةُ الَّتي كان موسى ينتظرُها لمعرفة موضع اجتماعِه بالعبدِ الصّالح الخضرِ، وفي التَّعبير هنا بالفاء وفي الآيَة الثّالِثَة في قولِه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ [الكهف: 63] بالواو مناسبةٌ لطيفةٌ، فإنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ والعطفِ، فكانَ اتِّخاذُ الحوت للسبيلِ عقيبَ النسيان، فذُكِرَ بالفاءِ، وفي الآيَة الأخرَى لمّا حيل بَينهما بقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ [الكهف: 63]؛ زالَ معنى التَّعقيب، وبَقي العَطفُ المُجَرَّد، وحرفُهُ الواوُ(2).

إفـادةُ التَّرتيب والتَّعقيب وهو ما يعني فقدانَ الحوتِ بعد نسيانه

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ وضميرُهُ العائد:

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ عُبِّرَ بلفظ ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ للإشعار بقوَّة تحصيل الحوت لسبيلِه في البحر وتمسُّكه به، وكأنَّه يقبضُ على سبيلِه في البحر بإحكام، ويعود الضَّميرُ على لفظ الحوتِ في قولِه: ﴿حُوتَهُمَا﴾، أيْ: فاتَّخذ الحوتُ سبيلَهُ في البحر، وهو ما يعني: أنَّ الحوتَ مأمورٌ بالانسراب في البحر، تنفيذًا لأمرِ اللّه تعالى، ففي ذلك علامةٌ على مكان لقاء موسى بالخَضِر.

معجزةُ الله تتأتّى بقدرةِ الله وتوفيقه لكلِّ الأجناسِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 732، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366.

(2) أبو القاسم الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 170.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿سَبِيلَهُۥ﴾:

سبيلُ الله ميسورةٌ متاحة لفعل مراده في كونه

عُبِّرَ في الآية الكريمة بالسَّبيلِ للإشعار بسهولةِ اتِّخاذ الحوتِ طريقَهُ في البحر وامتدادِه فيه، فالسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سهولةٌ[1]، ففيه تعليلٌ في المعنى للاتِّخاذ في قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ﴾، فقد هيَّأَ له هذا الاتِّخاذَ.

فائدةُ الإضافة في قولِه: ﴿سَبِيلَهُۥ﴾:

الحوتُ يعرف متى يسير، وإلى أين يكونُ مسيرُهُ وسربه

الإضافةُ هنا على معنى اللّام الَّتي للاختصاص، بمعنى: أنَّ سبيل الحوت المختصَّ به هو البحر، وهذه الإضافةُ تعليلٌ في المعنى للاتِّخاذ أيضًا فوقَ التَّعليلِ بالسَّبيلِ؛ لأنَّ أُلفة هذا السَّبيلِ تُمكِّنُه مِنَ الاتِّخاذ، وتمكِّنُه منه بسرعةٍ وسهولةٍ.

فائدةُ التَّقييد: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وتقديمِه على ﴿سَرَبٗا﴾:

تنوُّعُ فوائدِ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق المذكور

لمّا كان الجارُّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ حالًا، وكان يحتمل أن يكون حالًا من المفعول الثّاني ﴿سَرَبٗا﴾ ليبيِّن هيئة السَّربِ؛ كان تقديمُهُ على ﴿سَرَبٗا﴾ للتَّخصيص، بمعنى: أنَّ السَّرب كان في البحر، وليس في غيرِه، كما أفاد تقديمُ الحال على ﴿سَرَبٗا﴾ التَّنبيهَ على أنَّهما قد فقداه عند مجمعِ البحرين، وهو المكانُ المؤقَّت لاجتماعِ موسى مع الخضرِ، ويحتمل أن يكونَ ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ حالًا من المفعول الأوَّل ﴿سَبِيلَهُۥ﴾، ليبيِّن هيئةَ السَّبيل الذي اتَّخذه الحوتُ سربًا، أيِ: اتَّخذ سبيلَه حالَ كونِه في البحر، وليس في غيرِه[2]، وحينئذٍ فلا تقديم له على صاحبِه، وعلى كلٍّ: فقد ترتَّبَ - على كونِه مُقدَّمًا على ﴿سَرَبٗا﴾ على الوجه الأول، وعلى كونه حالًا من المفعول الأوَّل على الوجه الثاني - توافقَ فاصلة الآية مع فاصلة ما قبلها، وهذه ميزةٌ بلاغيَّة، وليست علَّةً بلاغية.

---

(1) الراغب، المفردات: (سبل).

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 286.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿سَرَبٗا﴾:

براعةُ التَّصوير في السّياق، تزيده ألقًا وجمالًا

لّما كان السَّرب هو النَّفق الذي يُدخلُ فيه، فيُسلك منه إلى موضعٍ، وكان السَّرب مُقيَّدًا بالحال ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ على أحد قولَيْن في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ دلَّ على أنَّ ما اتَّخذه الحوتُ في طريقِه في البحر مُشبَّهٌ به، والمعنى: اتَّخذ الحوت طريقَه في البحر، وكأنَّ الماءَ ارتفع بعضُه، فصار كالطّاق عليه، أيْ: كالقنطرةِ، ليكونَ كالنَّفق في مسلكِه، وذهابِه انحدارًا في البحر، فيكون التَّقديرُ: واتَّخذ سبيلَهُ في البحر كالسَّربِ في التَّخفّي وسرعةِ السَّير والتَّصرُّف في البحر، فحُذِفت أداة التَّشبيه ليكونَ الكلامُ من التَّشبيه البليغ[1]، إبلاغًا في تطابق طَرَفَي التَّشبيه تصويرًا لما كان من هذه الحالةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّبيل والطَّريق:

السَّبيل اسمٌ يقع على ما يقع عليه الطَّريقُ، وعلى ما لا يقع عليه

السَّبيلُ يقتضي السُّهولةَ، والطَّريقُ لا يقتضي السُّهولة، وقد يُفرَّق بينهما بأنَّ السَّبيلَ أغلبُ وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسمُ الطَّريق يُرادُ به الخيرُ إلّا مُقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلِّصُهُ لذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][2]، كما يختلفُ الاستعمالُ في التَّعبير بكلٍّ منهما، فالسَّبيلُ اسمٌ يقع على ما يقعُ عليه الطريق وعلى ما لا يقع عليه الطريق، تقول: سبيلُ الله وطريق الله، وتقول: سبيلك أن تفعلَ كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعلَ به، فهو أعمُّ منه.

السَّرب والنَّفق:

السَّربُ: هو الذَّهاب في حدورٍ، فيقتضي السَّعةَ في الطَّريق، فإذا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 121، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 366.

(2) الراغب، المفردات: (سبل)، والكفوي، الكُلّيّات، ص: 512.

الـسَّـربُ ذهـاب الـشَّيءِ في الماء بحدور وسرعةٍ، والـنَّـفقُ ذهابُهُ بهلاكه

كان السَّربُ في البحر؛ فيكون ذهاب الشَّيءِ فيه بحدور وسرعةٍ بحيث يكون كالقنطرةِ، وليس طاقًا تامًّا، وأمّا النَّفقُ فهو الطَّريق النّافذ الضَّيق كالطّاق، ولا يصحُّ التَّعبيرُ في الآية إلّا بقولِه: ﴿سَرَبٗا﴾ لدلالتِه على الذَّهاب في البحر حدورًا؛ لاتِّساع البحر، وكأنَّ الماء على الحوتِ كالقنطرة؛ ليكونَ مختفيًا عن النَّظر، كما أنَّ التَّعبير بلفظ (نفق) لا يناسب سَعةَ البحرِ، ويوهم بموتِ الحوت في البحر؛ لأنَّه يُقال: نَفَقتِ الدّابَّةُ؛ إذا ماتَتْ[1]، والإيهامُ بموتِ الحوتِ مخالفٌ لمقتضى دلالةِ الفعل ﴿فَٱتَّخَذَ﴾، ولمقصد الكلامِ ودلالةِ السّياق عمومًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نفق).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ٦٣﴾ [الكهف: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

ربطُ نسيان الحوت ومعاناة النّصب بتحديد مجمع البحرين للقاء الخضِر المرْتَقب

بعد أنْ بلغَ موسى عليه السلام وفتاه مجمعَ البحريْن، وأويا إلى الصّخرةِ، واتّخذَ الحوتُ سبيله في البحرِ سربًا دونَ علم من موسى، وظنَّ موسى عليه السلام أنّ المطلوبَ أمامه، أو أنّ المُرادَ مجمَعٌ آخر؛ سار مع فتاه حتى جاوزا مجمعَ البحريْن، فأُلقيَ على موسى التعبُ والجوعُ بعد المجاوزةِ ليتذكّر الحوتَ، ويرجعَ إلى مطلبه، وهذا قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾[1]، إذنْ: هي تتمّةُ رحلةِ البحثِ عن الخَضِر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَاوَزَا﴾: أصلُ (جوز) يدلُّ على قطع الشّيء، وجُزْتُ المَوْضِعَ: سلكته وسِرْتُ فيه، وأَجَزْتُه: خَلّفْتُه وقَطَعْتُه[2]، وجاوزتُ الموضعَ جوازًا بمعنى جُزْته، والاجْتيازُ: السُّلوك[3]، وجازَ بالموضع: سلكَه وتركَه خلْفَه، وسارَ فيه وقطَعَه[4]، وجاوزه: تعدّاه، يُقال: جزتُ البلدَ؛ أيْ: تعدّيته، فجاوز بمعنى: تجاوز[5]، ومعنى ﴿جَاوَزَا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيْ: سلكا وسارا، وتعدّيا وخَلّفا وراءَهما المَكانَ الذي سَيَلْتَقيان فيه مع العَبدِ الصّالِح[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح: (جوز).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (جوز).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جوز).
(5) السّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 358.
(6) أبو حفص النَّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 10/ 108، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4556.

2) ﴿غَدَآءَنَا﴾: أصلُ (غدو) يدلّ على زمانٍ؛ ومنه الغُدوَةُ: البُكْرَة ما بين صلاةِ الغداةِ وطلوعِ الشمسِ، والغَداةُ: الضّحْوَةُ، والغَداءُ: الطَّعامُ بعَيْنِه، وهوَ خِلافُ العَشاء، والغَداءُ: طَعامُ الغُدْوَةِ؛ سُمّيَ بذَلِكَ لأَنَّهُ يُؤكَلُ في ذلك الزَّمانِ[1]، ومعنى ﴿غَدَآءَنَا﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: طعامُ النّهار، ويُؤكلُ في أولِ النّهار، والمُرادُ به هنا: الحوت[2].

3) ﴿لَقِينَا﴾: أصلُ (لقي) يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ وتقابلهما، وكلُّ شيءٍ اسْتَقْبَلَ شَيْئًا أو صادَفَهُ فقد لقيَه من الأَشياء كُلِّها[3]، وكلُّ (لَقيَ) و(التَقى) هي بمعنى المقابلة والوجود القويّ؛ أيْ: يستقبله ويلقاه ويجدُه[4]، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشّيءِ ومصادفته معًا، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحسّ وبالبصرِ وبالبصيرة[5]، والمُراد بـ ﴿لَقِينَا﴾ في الآية: وجَدْنا[6].

4) ﴿نَصَبًا﴾: أصلُ (نصب) يدلّ على إقامَةِ شَيْءٍ وإهْدافٍ في اسْتِواءٍ، والنَّصَبُ: العَناءُ، مأخوذٌ من الانتصاب، ومَعناهُ أَنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يُعْيِيَ[7]، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ والمشقّة، ونَصَبَه المرضُ: أتعبَه وأوجعَه، والنُّصْبُ أيضًا: الشّرُّ والدّاءُ والبلاء[8]، والمُراد بالنّصَب في الآية: التّعبُ والمشقّة والجوع، والإعياءُ من الجهدِ المبذولِ في السّفر[9].

5) ﴿أَوَيْنَآ﴾: (أوي) أصلان؛ أحدهما: التّجمّع، والثّاني: الإشفاق، وأوى إلى كذا: انضمَّ إليه، والمأوى: المنزلُ، ومكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأْوي إليه لَيْلًا أو نَهارًا[10]، وأويتُ إلى منزلي: عُدتُ[11]، وأوى إلى البيت: نزلَ فيه واتَّخذه مأوىً له، وأوَى إلى المكان: لجأَ إليه[12]، ومأوى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غدو).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 174.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (لقى).
(5) الرّاغب، المُفردات: (لقي).
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 4/ 37.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(8) الفيروزابادي، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (نصب).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 174، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4556.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أوى).
(11) ابن سيدَه، المُحْكَم: (أوي).
(12) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أوي).

الرّجلِ: منزله الذي يميلُ إليه ويُقيمُ فيه(1)، ومعنى ﴿أَوَيۡنَآ﴾: التجأنا إلى الصّخرةِ، وأقمنا عندها(2).

6) ﴿ٱلصَّخۡرَةِ﴾: الصخرةُ في اللّغة هي الحجرةُ العظيمةُ الصّلبة(3)، والمُرادُ بالصّخرةِ في الآية: صخرةٌ معهودةٌ لهما، إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانت في مجمعِ البحريْن(4).

7) ﴿عَجَبٗا﴾: أصلُ (عجب) يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ للشَّيْءِ، وأَمرٌ عَجيبٌ: إذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ، وشيءٌ مُعْجِبٌ؛ أي: حَسَنٌ(5)، والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عليك لقِلَّةِ اعْتيادِه(6)، والعَجبُ والتعجّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسان عند الجهلِ بسببِ الشّيء، أو إذا خرجَ بها المتعجَّبُ منه عن نظائره، فالعَجبُ هو الشيءُ الذي لم يُعرفْ سببه، ولم يُعهدْ مثله(7)، ومعنى ﴿عَجَبٗا﴾ في الآية: التّعجُّب ممّا حدثَ من الحوت(8).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

انسرابُ الحوتِ بمجمعِ البحريْن سربًا أضحى لموسى وفتاه آيةً عجبًا

تجاوز موسى عليه السلام وفتاهُ المكانَ المقصودَ من مجمعِ البحريْن، وسارا بقيّة يومهما وليلتهما؛ حتى إذا كان الغدُ وارتفعَ النهارُ أحسَّ موسى بالجوعِ، حينئذٍ قال لفتاه: أحضِرْ طعامَنا؛ أيْ: ما نتغذَّى به - وهو الحوتُ كما يُنبئُ عنه الجوابُ - لقد لقينا تعبًا شديدًا من هذا السَّفر، فقال له فتاه: أرأيتَ حين مكَثْنا عند الصَّخرةِ بمجمعِ البحريْن فإنّي نَسيتُ أنْ أخبركَ بما حدثَ من الحوت، إنّه حييَ

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 233، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 174.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (صخر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 547، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 3/ 30.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 550، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 177.

واضطربَ وشقَّ طريقَه الذي سلَكَه في البَحرِ نفقًا ظاهرًا في الماءِ، لا يَلتَئِمُ بعده في البَحرِ، وما أنسانيَ ذِكْرَه إلا الشَّيطانُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾:

بروز الدّلالة في السّياق من خلال معنى الحرف المُساق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ عاطفةٌ[2]، وجملة ﴿فَلَمَّا﴾ معطوفة على محذوف، والتّقدير: (فذهبا يمشيان حتّى جاوزا مجمعَ البحريْن، فلمّا جاوزا قال لفتاه)[3]، وحقّها إفادةُ التّرتيبِ والتّعقيبِ[4]، وقد تكون الفاء هنا للتَّفريعِ، وقد تكون هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصحُ عن كلامٍ مقدَّر، وتقديرها: أيْ فسارا حتّى إذا جاوزا[5].

دلالةُ ﴿فَلَمَّا﴾ على الحينيّة الشّرطيّة:

الإشارةُ إلى أوان شعور موسى وفتاه بالنّصَبِ الّذي لَقياه

﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ حينيّة شرطيّة غير جازمة مُتعلّقة بالجواب ﴿قَالَ﴾؛ أيْ: (قال لفتاه حين جاوزا)، وقد أتى معنى الشّرط فيها للدّلالة على الزّمنِ الماضي بما يفيدُ تحقّقَ وقوعِ هذا الحَدَثِ بطرفيْه؛ لأنّ الآيةَ نزلتْ بعده.

ويكون في تقييد الجملة الخبريّة: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ بظرفِ المجاوزة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ دلالةٌ على أنّ شعورَ موسى وفتاه بالنّصَبِ والجوع كان من سفرهم الكائنِ بعد مجاوزةِ مَجْمَعَ البحريْن.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿جَاوَزَا﴾ عن مغبَّة المُجاوَزَة:

انتقاء الألفاظ في المباني يتناسبُ مع دقّة السّياق في المعاني

عبّر البيانُ القرآنيّ بمُفرَدَة ﴿جَاوَزَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ دون غيرها، فلم يَقُلْ مثلًا: (مَرّا) أو

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 176.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 628.

(3) الهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 450.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 365.

(مضيا) أو (ذهبا)؛ لأنّها تشتملُ على جميع معانيها وزيادة تناسبُ المقام والسّياق، وهي الدّلالةُ على قطعِ الشّيء وتركه خلفه، يُقال: جزتُ البلدَ؛ أيْ: تعدّيتَه[1]، وتجاوزَ الموضعَ: سلكه وتركه خلفه[2]، فالمجاوزةُ: البُعدُ عن المكانِ عقبَ المرورِ فيه[3]، وهذا كان حال موسى والفتى؛ فقد مَرّا في المكانِ، وسلكاه وتركاه خلفهما، وبَعُدا عنه مسيرةَ يوم وليلة كما ثبتَ في الحديث، وهذا يدلّ عليه السّياق بقوله: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾.

نكتة حذف مفعول ﴿جَاوَزَا﴾ في السّياق:

الحذفُ أبلغُ في البيان وآثَـرُ في الإشارة والتّبيان

حذَفَ البيانُ الإلهيّ مفعولَ الفعل ﴿جَاوَزَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ اختصارًا؛ للعلم به؛ إذ سَبَقَ ذِكْرُه في الآية السّابقة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: 61]، والمعنى: فلما جاوزا مجمعَ البحريْن[4].

نكتة فصل جملة ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ عن سابقتها:

طلبُ موسى الغداءَ للشّعور بالنّصَبِ مُناطٌ بمجاوزةِ المكان المُرْتَقَب

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ عن الجملةِ التي قبلها ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، ولم يربطهما بعاطفٍ على نحو: (وقال لفتاه)؛ لما بين الجُملتيْن من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملة الثّانية ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ جاءتْ جوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾ بما تحمله من معنى الشرط، ولكونها مُتعلّقًا لـ ﴿فَلَمَّا﴾ بما تحمله من معنى الظّرفيّة الزّمانيّة، ولم تدخلِ الفاءُ الرّابطةُ لجواب الشرطِ على الجملة؛ لأنّ من شرطِ (لمّا) ألّا تدخلَ الفاءُ على جوابها[5].

سرّ استعمال اللّام في قوله ﴿لِفَتَىٰهُ﴾:

قولُ موسى لفتاه تكليفٌ بإحضارِ الغداء الّذي حملاه

اللّامُ في قوله: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ لامُ التّبليغ، "وهي الجارّةُ لاسمِ

(1) السّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 358.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جوز).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 79.
(4) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 300، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366.
(5) المُوْزعيّ، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 191.

السّامع لقولٍ أو ما في معناه"(1)، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطبِ بالقول؛ أيْ: بلّغ موسى فتاهُ بأنْ يأتيَ بغدائهما.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ دون المرادفات سواه:

مَن هيّأ الله له خدمةَ السّعيدِ فهو سعيدٌ

الفتى في اللّغة: الذَّكَرُ الشّاب، والأنثى: فتاةٌ، وهو مستعملٌ مجازًا في التّابعِ والخادمِ والمملوك(2)، وفي المُراد بفتى موسى قولان: إمّا أنّه كان معه يخدمه، أو أنّه ابن أخته، وهو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب، لزمه ليتعلَّم منه(3)، وسرّ تسميته بالفتى، يرجع إلى أنّه قامَ مقامَ الخادم، وهذا المعنى استعمله القرآن في التعبير عن العبد بـ(فتى)(4)، فقد قال تعالى: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ [يوسف: 30]، وقال ﷺ: "ولا يقلْ أحدكم: عبدي أَمَتي، وليقلْ: فتايَ وفتاتي وغلامي"(5)، ولأنّه لّما كان الخَدَمَةُ أكثرَ ما يكونون فتيانًا في مقتبل العمر قيلَ للخادم فتىً على جهةِ حسنِ الأدب(6)، وإشارةً إلى مدحِ الشّباب، فالشَّبابُ باكورةُ الحياة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: "ما بعثَ اللّه نبيًّا من الأنبياء إلا شابًّا، ولا أوتيَ العلمَ عالمٌ إلا وهو شابٌّ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء: 60]"(7).

أو لأنّ مرافق موسى عليه السلام كان ملازمًا له، يأخذُ عنه العلم، ويخدمه(8).

ولم يعبّر بـ(الصّاحب)؛ لما في التعبيرِ بالصّحبة من إيهامٍ بأنّه

---

(1) السّيوطي، الإتقان: 2/ 266.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 359.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 238، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 11.

(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 238، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 11.

(5) صحيح البخاريّ، كتاب: العِتق، باب: كراهية التّطاول على الرقيق وقوله: عبدي أو أَمَتي، الحديث رقم: (2552).

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 11.

(7) الثّعالبيّ، اللّطائف والظّرائف، ص: 251.

(8) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 154، والواحديّ، التفسير الوسيط: 3/ 156، والخطيب البغدادي، الفقيه والمُتفقِّه: 2/ 197.

في مقامِ موسى ﷺ، إذ أصلُ (صحب) في اللّغة: "يدلُّ على مُقارنةِ شيءٍ ومقاربتِهِ"[1].

نكتةُ الضَّمير في لفظ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ مُبينةٌ عن دلالته ومُؤدّاه:

في إضافةِ الفتى لموسى ﷺ تَجِلَّةٌ للفتى وإكرامٌ

الضَّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يرجع إلى موسى ﷺ، وإضافةُ الفتى إلى ضميرِ موسى على معنى الاختصاص، كما يُقال: غلامه[2]، وفائدةُ إضافته إلى موسى تشريفٌ للفتى، وهذا يشيرُ إلى أنّ مصاحبةَ الصالحين شرفٌ؛ حيث تكرَّر ذِكرُ الفتى وإضافته إلى نبيّ اللّه موسى ﷺ ببركةِ مصاحبته وملازمته له.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ءَاتِنَا﴾ عوضًا عن لفظ (أعطنا):

التّعبيرُ بالإيتاءِ أنسبُ لمُؤدّاه وأوفى بالتّعبير عن حالِ موسى وفتاه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾؛ لكونه أنسبَ للسّياق والمقام؛ إذ إنّ المأمورَ هو فتى موسى ﷺ، وأمرُ موسى له بإيتاءِ الغداء هو أمرٌ فيه قوّةٌ ووجوبٌ، ولا يتوقّف على قبولٍ من الفتى، وهذا يناسبه لفظُ الإيتاء، بخلافِ الإعطاء؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، ممّا يجعل فعلَ الإيتاء أقوى[3]، ولأنّه ليس في الإيتاء تفضُّلٌ من الفتى، بل هو أمرٌ يجبُ تنفيذه، بخِلافِ الإعْطاءِ فإنَّه لا يكونُ إلّا بمحْضِ التَّفَضّلِ[4]، ولأنّ السّياقَ في الآيةِ هو طلبُ إحضارِ الطّعام لا طلب تملُّكه؛ فموسى لا يحتاجُ إلى التّملُّك الذي يفيده الإعطاء؛ فالطعامُ ملكه، والإحضارُ من معاني الإيتاء[5]، بخلافِ الإعطاءِ فإنّه يدلّ في أبرزِ معانيه على المناوَلةِ والتّملّك[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 359.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 85.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).

كما أنّ في التعبيرِ بالإيتاءِ إلماحٌ إلى معنى السرعة في تنفيذِ الأمر، وهذا من معاني الإيتاء، يُقال: والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرِ والسُّرْعةُ[1]، وهذا يتناسبُ مع طلبِ السُّرعةِ في إحضارِ الطَّعامِ لما أصابهم من نَصَبٍ دلّ عليه قوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

مرجع الضّمائر في ﴿ءَاتِنَا﴾ و﴿غَدَآءَنَا﴾ و﴿لَقِينَا﴾:

علوُّ أدبِ موسى عليه السلام ومعاناتُه في تحصيلِ العلمِ المُرام

مرجعُ الضّمير في ﴿ءَاتِنَا﴾ و﴿غَدَآءَنَا﴾ و﴿لَقِينَا﴾ هو موسى عليه السلام وفتاه، رغم أنّ العادةَ أنْ ينوبَ الأستاذُ المتبوعُ عن الطّالبِ التابعِ في الحديث، لكنّ البيانَ القرآنيّ جاءَ بصيغة الجمع؛ للدّلالة على عُلوِّ أدبِ موسى عليه السلام وتواضعه ورحمته؛ إذ جعلَ فتاه رفيقًا له وشريكًا في الطعامِ والشعورِ بالتعبِ والجهدِ المبذولِ في هذه الرحلة؛ لا مجردَ خادمٍ أو تلميذٍ، وفي هذا استحبابُ إطعامِ الإنسانِ خادمَه من مأكله، وأكلِهما جميعًا، وملاطفتِه وحسنِ معاملتِه[2].

ولو عبّر بقوله: (آتني) أو (لقيت) أو (سفري)؛ لذهبتْ هذه المعاني، ولأشارَ إلى شيءٍ من الاستعلاءِ على الفتى، بما لا يتناسبُ مع مقامِ النّبوّة والرَّحمة.

وفي هذا التّعبير إلماحٌ بأنّه في طريقِ البحثِ عن المعرفةِ والعِلْمِ والحقِّ يتساوَى الجميعُ في الجهدِ والتّعب.

دلالة اللّام و(قد) في قوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾:

فـي أسـلـوب التّوكيدِ إشارةٌ إلـى الـنّـصَـب المُرهِق الشّديد

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا﴾ جوابٌ لقسم محذوفٍ تقديره: (واللّه قد لقينا من سفرنا هذا نصبًا)، يفيدُ توكيدَ ما أصابهما من تعبٍ شديدٍ بعد مجاوزتهما الصّخرة الّتي أويا إليها.

و(قد) حرفُ تحقيقٍ وتوكيد[3]؛ أيْ: أكّد موسى معاناته من التّعبِ بعد هذا السّفرِ، فكان طلبه للطّعامِ رجاء أن يُخفّف من هذا التّعب.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أتو).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 5/ 483.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 629.

وهذا التّوكيدُ بالقسمِ و(قد) يشيرُ إلى أنّ ما أصابَ موسى وفتاه من التّعب بسببِ السّير بعد مجاوزة الصّخرة كان تعبًا شديدًا، وإلى أنّه مُتحيّر من ذلك؛ إذْ لم يَلقَ هذا النّصَبَ سابقًا.

دلالة جملة التّعبير عن النَّصَب وما فيها من بيان عجب:

ليس في الخبر اعتراضٌ على القَدَرِ ما لم يُصاحبْه الضَجَر

جاءتْ جملة ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ في مَحلِّ التَّعليلِ للأمرِ بإيتاءِ الغَداءِ؛ إمّا باعتبارِ أنَّ النَّصَبَ إنَّما يَعتري بسببَ الضَّعفِ النّاشئِ عن الجوعِ، وإمّا باعتبارِ ما في أثْناءِ التَّغدّي من استراحةٍ ما[1].

وفي هذا الإخبارِ دليلٌ على جوازِ أن يُخبر الإنسانُ بما يجده من الألمِ والمرضِ والتّعبِ والمشقّة، وأنّ ذلك لا يقدحُ في الرّضا والتّسليم للقضاء، هذا إذا لم يصدرْ ذلك عن ضَجَرٍ ولا سخطٍ ولا شكوى[2].

والحِكمةُ في حُصولِ الجوعِ والتَّعَبِ له حين جاوز المكان الموعود: أن يَطلُبَ الغداءَ فيَذكُرَ الحوتَ، فيرجِعَ إلى حيثُ يجتَمِعُ بمرادِه[3].

دلالة الجارّ ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن سَفَرِنَا﴾:

بدايةُ الشّعور بالنّصَبِ إشارةٌ إلى أوان اللّقاء المُرتَقَب

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ ابتدائيّة؛ والمعنى: لقد لقينا من ابتداءِ سفرنا الكائنِ بعدَ مجاوزةِ الصّخرة نصَبًا، وفي هذا إيماءٌ منه إلى اقترابِ الوصولِ إلى المطلوب؛ إذ لم يشعرا بالتّعبِ إلّا في هذا السّفرِ القريبِ الّذي سافراه في هذا اليوم خاصّة، وهذا المعنى لم يظهر فيما لو جاءت العبارة: (لقد لقينا نصبًا).

سرُّ الإشارة باللّفظ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالّ على معنى القُرب:

وقوعُ النّصَبِ من السّفرِ المذكور بعد مجاوزةِ المكان المأثور

استعمل النظم الكريم اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 233.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 191، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 322.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 316، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 5/ 187، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 298.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ إشارة إلى السَّفَرِ القريب الكائِنِ منهما بعدَ مجاوزةِ المكانِ المذكورِ الذي عيَّنه اللّه لهما؛ للإشارةِ إلى أنَّهما لم يَجِدا النَّصَبَ قَبلَه[1]، وفي الحديث قال ﷺ: "ولم يجِدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوَزا المكانَ الذي أمَرَ اللّه به"[2].

دلالة (النَّصَب) على الإرهاق، وسرُّ التّعبير به في السّياق:

انتقاءُ اللّفظ الأنسب للتّعبير مسلَكٌ في الفصاحة أثير

المُرادُ بالنَّصَب في قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾: التَعَبُ والعَناءُ والوَهَنُ[3]، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ به دون غيره كالتَّعب؛ لأنّ النَّصَبَ أنسبُ للسّياقِ الذي دلّ على أنّه نصَبٌ بسببِ السّفر؛ وأنّه سيرٌ مستمرٌّ يومًا وليلة كما ثبتَ في السُنّة، وهذا يتناسبُ مع معنى النّصب في اللغة، فأصلُ (نصب) يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ؛ وكأنّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتى يُعيي[4]، قال الزّمخشريّ: "النَّصَبُ التَّعبُ والمشقّة التي تصيبُ المُنتصبَ للأمرِ المزاولَ له"[5]، ولهذا قيل في معنى النّصَبِ أنّه تعبٌ في البدنِ خاصّةً[6]، أو: تعبٌ من شدّة حرٍّ أو بردٍ[7] أو جوعٍ، وكلّ هذا يتحقّق في السفر، فكان التعبيرُ بالنّصَب أدلَّ على المعنى المُراد، وأكثرَ تصويرًا لحالهم؛ وكأنّهم ما يزالون مُنتصبين حتى تعبوا وجاعوا، ولهذا طلبَ الطعام.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿لَقِينَا﴾ على الدّلالة المُبِنة:

في التّعبيرِ باللُّقيا تصويرٌ للنَّصَبِ وإبرازٌ للعناء والوَصَب

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ اللُّقيا في قوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 732، والشّوكاني، فتح القدير: 3/ 353.
(2) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: 60]، الحديث رقم: (4448)، واللّفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: من فضائل الخَضِر عليه السلام، الحديث رقم: (2380).
(3) الماوَرْدي، النُّكَتُ والعيون: 3/ 323.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب)، والرّاغب، المُفردات، ص: 807.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 614.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 34.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.

﴿هَٰذَا نَصَبًا﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقلْ مثلًا: (لقد وجدنا) أو (لقد نزل بنا)؛ لأنّ لفظ اللُّقيا وما يحمله من معانٍ أنسبُ للسّياق، إذ أصلُ (لقي) يدلُّ على تَوافي شَيئَين وتقابلهما، ولَقيتُه لَقْوَةً؛ أَي: مَرَّةً واحِدَةً[1]، والمعنى المحوري لها: تحصيلُ المقابلةِ مواجهةً أو تماسًّا؛ أي: بقوّة، واللقاءُ: استقبالُ الشخص قريبًا منه[2]، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشّيءِ ومصادفته معًا[3]، فكلّ هذه المعاني تتناسبُ مع السّياقِ الذي يُصوّر حالةَ موسى عليه السلام وفتاه وما لقياه من النّصب في سفرهما، وكأنّ النَّصَبَ إنسانٌ مختارٌ لهما؛ طلبهم واستقبلهم وقابلهم وجهًا لوجهٍ، وصادفهم وفاجأهم[4]، وكان قريبًا منهم إلى درجةِ التّماسِّ والاتّصالِ والمواجهةِ بقوّة، فشعرا فجأةً بالتّعبِ الشّديد، وهذا الشّعور كان مرّةً واحدة، وذلك من سفرهما وهو سيرهما يومًا وليلة بعد مجاوزة الصخرة، وهذا ما جعلَ موسى عليه السلام مُتحيّرًا من ذلك؛ إذ لم يلقَ هذا النّصبَ سابقًا.

سرُّ الفصل لجملة ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ في السّياق المُحْكَم:

جــوابُ الفتـى لمــوسى عليه السلام مـزدانٌ باللّباقة والاحترام

فَصلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ عن الّتي قبلها: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾؛ لكونها على طريقةِ المُحاوَرات؛ أي إنَّ قولَ الفتى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾ هو جوابٌ على قولِ موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، وهي طريقةٌ مُتّبعةٌ في القرآنِ في حكايةِ المحاورات، وهي طريقةٌ عربيّةٌ، وإنّما حذفوا العاطفَ في أمثالِه كراهيةَ تكريرِ العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ، فطَرَدوا البابَ فحذَفوا العاطِفَ في الجميعِ، وهو كثيرٌ في التنزيل[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).

(2) جبل، المعنى الاشتقاقيّ المُؤصّل: (لقي).

(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 745.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4556.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 401.

سرُّ التّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾:

ما حدث في الزّمن الماضي ولم يتكرّرْ فِعْلُهُ من الفصيح المعُبّر

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل الماضي: ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾؛ لأنّ هذا القولَ حكايةٌ عن الزمنِ الماضي؛ إذ هو قد وقَعَ وحدَثَ، ومتى صدرَ القولُ منَ المُتكلّم فقد أصبحَ في الزّمنِ الماضي، وخاصةً أنّ هذا القول: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ لم يتكرّرْ من الفتى، ولأنّ صيغةَ الفعلِ الماضي تناسبُ السّياقَ الذي جاء الحوار فيه كلّه بصيغةِ الفعلِ الماضي: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: 60]، ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا﴾، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾.

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾:

استفهامُ التّعجيب يُشيرُ إلى حصولِ الأمرِ العجيب

همزةُ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ همزة استفهام وتعجّبٍ، ومُرادُ الفتى بالاستفهام تَعجيبُ موسى عليه السلام ممّا اعْترى الفتى هُناك مِن النِّسيانِ، مع كَونِ ما شاهَدَه من العَظائمِ الَّتي لا تَكادُ تُنْسى[1]، وهي عودةُ الحياة إلى الحوت، وقفزُه في البحر؛ أيْ: قال الفتى لموسى عليه السلام: أرأيتَ ما دهاني في وقتِ أنْ أوينا ولجأنا إلى الصخرةِ التي عند مَجْمعِ البحريْن؟[2].

ويحتمل أن يكون الاستفهام بمعنى التَّقرير، وظاهره: أعلمتَ، ومعناه: اعلم أنّه كان كذا[3]، أو أن يكون بمعنى الأمرِ بجامع الطّلَبِ[4]، والمعنى: انتبه فإنّي نسيتُ الحوتَ، أو: اسمعْ وتفهّم فإنّي نسيتُ الحوتَ[5]، أو: أخبرني ما دهاني[6].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ دون لفظ (أَعَلِمتَ):

التّعبيرُ بالرّؤية ثراءٌ في المعنى ومُلاءَمَةٌ للسّياق

عبّر البيانُ الحكيمُ بالرُّؤية في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ﴾ دونَ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 233.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 287، والبِقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 97، وطنطاوي، الوسيط: 8/ 549.

(3) أبو حفص النَّسَفي، التّيسير في التفسير: 10/ 109.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 57.

(5) الواحِديّ، التفسير البسيط: 14/ 76.

(6) الزّمخشري، الكشّاف: 2/ 733.

العلم، فلم يَقُلْ (أعلمتَ إذ أوينا)؛ لاتّساع دلالةِ الرّؤية إذْ تأتي بمعنى الرّؤية البصريّة، وتأتي بمعنى العِلْم، فالرّؤيةُ: إدراكُ المَرئيّ بحاسّةِ البصرِ، أو بالفكرِ، وبالعقل[1]، كما أنّ الرؤيةَ تأتي بمعنى التّعجُّب[2]، وهذه المعاني أنسبُ للسّياقِ وأدلُّ على المُراد؛ فالسّياقُ سياقُ تعجُّبٍ من الفتى لمّا رأى ما حصلَ من الحوت، وهو مبنيٌّ على الرّؤية البصريّة؛ أي: تعجّب بسببِ ما رآه لا ما عَلِمَه، فقد شاهدَ هذا بعينه، والرُّؤْيَة لا تكون إلّا للمَوْجود[3]، والمُشارُ إليه هنا وقائع ظاهرة حدثتْ معهما وليستْ معدومة.

كذلك فإنَّ التعبير بلفظ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ قد أعطى ثراءً في المعنى؛ إذ أفادَ الرؤية البصرية مع التعجّبِ بالنسبةِ للفتى، وأفادَ في الوقتِ ذاته الرؤية العلميّة بالنسبةِ لموسى عليه السلام، "كأنّه قيل: بصرتَه وشاهدتَ حالَه العجيبةَ، أو أعرفتَها أخبرني عنها"[4]، ولذا فمن المُفسّرين مَن فسّره بأبَصرْتَه؛ أيْ: بصرتَ حالنا إذْ أوينا؟[5]، أو بأخبرني[6] أو أعلمتَ، أو بمعنى (أمّا)، بدليل دخولِ الفاء بعدها، والمعنى: أمّا إذ أوينا إلى الصخرةِ فالأمر كذا وكذا[7] أو: تنبّه فإنّي نسيتُ الحوت، أو اسمعْ وتفهّم فإنّي نسيتُ الحوت[8]، ووجهُ المجاز في هذه المعاني أنّه لّما كان الإبصارُ به طريقًا إلى إحاطته علمًا وإلى صحّةِ الإخبارِ عنه استُعمِلَت الصيغة التي لطلبِ الإبصارِ في طلبِ الخبر[9].

وتنوّعُ هذه المعاني وثراؤها في التعبير بهذا اللّفظ دونَ غيره ممّا يُسهمُ في إبرازِ صورةٍ في المخيّلة لهذا الحدثِ العجيب.

معنى ﴿إِذۡ﴾ في قوله ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ﴾:

تُفيدُ ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ الظّرفيّة، فهو ظرفٌ لما مضى

---

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 374، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116.
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 320.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 94.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 75.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 117.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 733.
(7) الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 75.
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 76.
(9) الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 75.

ما حصل للحوت من فقدانٍ توطئةٌ لتعجّبِ الفتى من النّسيان

من الزّمان بمعنى (حين) مُتعلّقٌ بمعمولِ أرأيت المحذوف[1]، والمعنى: أرأيتَ ما دهاني حين أوينا، أو الوقت الذي أوينا، وهذا فيه تحديدٌ من الفتى لزمانِ فقدانِ الحوتِ وما حصلَ له من أمرٍ عجيبٍ، بما يشيرُ إلى تأثّرِ الفتى بهذا الحدث، ودقّةِ ملاحظته له، ورغمَ ذلك نسيهُ بما يومئ بشدّة تعجّبه.

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿أَوَيۡنَآ﴾ دون الفعل (ذَهَبْنا):

ما حصلَ للفتى يوشع من فوتٍ يُبرّرُ عدمَ انتباه موسى لانسراب الحوت

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الإيواء في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يَقُل مثلًا: (إذْ ذهبنا إلى الصّخرة)؛ لأنّ لفظَ الإيواء وما يحمله من معانٍ أنسبُ للسّياق؛ إذ من معاني الإيواء الضَّمّ والتّجمّع، والمأوى: هو المنزلُ، والمكانُ الذي يأوي إليه[2]، وأوَى إلى المكان: لجأَ إليه[3]، ومأوى الرّجلِ: منزلُه الّذي يميلُ إليه ويُقيمُ فيه[4]، وهذا كلّه يتناسبُ مع السّياقِ والمقام؛ إذ إنّ موسى وفتاه نزلا عندَ الصّخرةِ وأقاما وباتا ليلتهما عندها بقصدِ الرّاحة، ممّا يشيرُ إلى سببيّةِ عدمِ انتباه موسى عليه السلام لما حصلَ مع الحوت، وهذا لا يضمنه استعمالُ لفظِ الذّهابِ الذي يدلّ في أصله على المُضي والمرورِ والسير[5]، والانتقالِ من مكانٍ إلى آخر[6].

دلالة الحرف ﴿إِلَى﴾ في قوله ﴿إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾:

الانتهاءُ بالالتجاءِ إلى المكان المطلوب إشارةٌ إلى بدايةِ حصولِ المرغوبِ

﴿إِلَى﴾ حرفُ جرّ، ومعناه: انتهاءُ الغايةِ الزّمانيّة والمكانيّة، لإفادةِ معنى الانتهاء في الالتجاءِ والإقامةِ إلى الصّخرة، وهذا يدلُّ على كونها مكانًا تحقّقتْ فيه أسبابُ الرّاحةِ، بما يُمهّد لإمكانيّةِ ما

(1) الهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 451.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أوى).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أوي).
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيدَه، المُحكَم: (ذهب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذهب).

حصلَ عندها من الأمرِ العجيبِ بفقدانِ الحوتِ، والمعنى: أرأيتَ إذِ انتهينا في الالتجاءِ والإقامةِ إلى الصّخرة.

سرُّ التّعريف بـ(أل) في لفظ ﴿ٱلصَّخۡرَةِ﴾:

استحضار صورةِ الصّخرةِ الّتي أَوَيا إليها مشهدٌ أساسيٌّ في القصّة

(أل) التَّعريف في ﴿ٱلصَّخۡرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ؛ لأنَّها صخرةٌ معهودةٌ لموسى وفتاه، إذ أَوَيا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانتْ في مَجْمع البحريْن، وقيل: إنّ موضعها دون نهرٍ يُقال له: نهرُ الزّيت؛ لكثرةِ ما عنده من شجرِ الزيتون[1].

علّةُ إضافةِ الإيواء إلى الصّخرة دون مَجْمَعِ البحرَيْن:

بيانٌ لتعيينِ مَحلّ الحادثةِ وتأكيدٌ لبسط الاعتذار

ذَكَرَ الفتى الإيواءَ إلى الصّخرةِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ مع أنَّ المذكورَ فيما سبَقَ مرَّتَيْن بُلوغُ مجمَعِ البحرَيْن؛ لزيادةِ تَعْيينِ مَحلِّ الحادثةِ؛ فإنَّ المَجمَعَ محلٌّ متَّسِعٌ لا يُمكِنُ تحقيقُ المُرادِ المذكورِ بنِسْبةِ الحادثةِ إليه، ولِتَمهيدِ العُذرِ؛ فإنَّ الإواءَ إليها، والنَّومَ عِندَها ممّا يُؤدّي إلى النِّسيانِ عادةً[2].

معنى الفاء في قوله تعالى ﴿فَإِنِّي﴾:

تعليلُ الدّهشةِ المعترية وجوابُ السّؤال المُكتنف

فاءُ ﴿فَإِنِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ إمّا أنْ تكونَ لتعليلِ الدّهشةِ التي اعترتهما ممّا نابهما[3]؛ أيْ: بسببِ أنّي نسيتُ أنْ أذكرَ لكَ أمره[4]، أو أنْ تكونَ جوابًا لـ ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ على تضمين ﴿أَرَءَيۡتَ﴾ معنى (أمّا أو تنبّه)، والمعنى: أمّا إذ أوينا إلى الصخرةِ فإنّي نسيتُ الحوتَ، أو: تنبّه إذ أوينا[5].

دلالة التّوكيد في قوله ﴿فَإِنِّي﴾ على لسان الفتى المَعْنيّ:

في التّعبير بـ(إنّ) مضافةً إلى الفتى في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 233.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 629.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 98.
(5) أبو حيّان، التّذييل والتّكميل في شرح كتاب التّسهيل: 6/ 99.

﴿ٱلۡحُوتَ﴾، وكذلك في الجملة الاسميّة، وتكرار ذِكْر المُسند إليه تأكيدٌ للتَّعجيب، وتربيةٌ لاستِعْظام المَنسيِّ[1]؛ أيْ: أكّد الفتى تعجّبه من نسيانِ ذِكْرِ أمرِ الحوتِ لموسى عليه السلام، وكذلك أكّدَ أنّ النسيانَ وقعَ منه، بخلافِ الآية السّابقة حيث نُسبَ النّسيانُ إلى موسى عليه السلام وفتاه في قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف: 61].

بيانُ تأكيد التَّعجيب والإشارةُ إلى استِعْظامِ المَنسيِّ العجيب

نكتةُ إيقاعِ النِّسيانِ على الحوتِ دون سواه:

أوقعَ البيانُ القرآنيُّ النِّسيانَ على اسْمِ الحوتِ في قوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، دونَ ضميرِ الغَداءِ في قوله: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ مع أنَّه المأمورُ بإتيانه؛ وذلك للتَّنبيه من أوَّلِ الأمرِ على أنَّه ليس من قَبيلِ نِسيانِ المُسافِرِ زادَه في المنزِلِ، وأنَّ ما شاهَدَه ليس مِن قَبيلِ الأحوالِ المُتعلِّقة بالغَداءِ من حيث هو غَداءٌ وطَعامٌ، بل من حيث هو حوتٌ كَسائرِ الحيتانِ، مع زيادةٍ، أي: نَسيتُ أنْ أَذكُرَ لك أمرَه، وما شاهَدتُ منه مِن الأمورِ العَجيبةِ[2].

الحـوتُ من عطاء الله وصُنعه، ونسيانُه بسببِ خوارقِ أمره

بالإضافةِ إلى أنّ فيه إشعارًا بأنَّ الغداءَ الذي طلبه موسى عليه السلام من الفتى هو ذلك الحوتُ الذي فقداه[3].

دلالة النّسيان في قوله ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ﴾:

النّسيانُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، يحتمل عدة معان منها: أي: نسيتُ حفظه وافتقاده، فانفلتَ في البحر[4]، وهو نسيانُ التّركِ والذّهولِ، فما كان يحسبُ أنّه سيتّخذُ طريقه إلى البحرِ بطريقٍ عجبًا[5]، أو يكون نسيته بمعنى فقدتُه[6]؛ بأنْ يكون النّسيانُ

ما سُمّي الإنسان إلّا لنسيانه، ولا القلبُ إلّا لأنّه يتقلّب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 233.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 233.
(3) طنطاوي، الوسيط: 8/ 550.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4556.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 287.

مجازًا عن الفَقدِ بعلاقةِ السّببيّة؛ إذ النّسيانُ سببُ الفقد[1]، ويحتمل أنه بريد بالنسيان أنه نسي ذِكْرَه، بأنْ يقصَّ على موسى عليه السلام ما حدثَ للحوتِ[2]؛ أيْ: في الآية إضمارٌ معناه: نسيتُ أنْ أذكرَ لكَ أمرَ الحوت[3]، والنّسيانُ هنا على حقيقته[4].

دلالةُ التّعريفِ بـ(ال) في لفظ ﴿ٱلۡحُوتَ﴾:

استحضارُ صورة الحوتِ الّذي حمله كما يُحمل التّابوت

(ال) التّعريف في ﴿ٱلۡحُوتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذِكْريٌّ؛ لأنَّه سبقَ ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف: 61][5]؛ أيْ: نسيتُ الحوتَ الذي حملناه في المِكْتَلِ الذي أمرَ اللّهُ موسى باستصحابه معه، وجعلَ اللّهُ فقدَه أمارةً على المكانِ الذي فيه الخَضِرُ[6].

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡحُوتَ﴾:

الحوتُ زادٌ لموسى وفتاه، وأمارةٌ على تَحقُّق مُرادِ الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالحوت في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾؛ تناسبًا مع عِظَم الوظيفةِ المُكلّف بها، وهي عودته إلى البحرِ ليكونَ أمارةً لموسى على لقاءِ العبدِ الصّالح؛ إذْ أصلُ كلمةِ الحوتِ في اللّغة الاضطرابُ والرَّوَغانُ، والحوتُ هو العَظيمُ من السَّمَكِ والمُضْطَرِبُ أَبَدًا غَيْرُ المُسْتَقِرِّ[7]، ولأنّه أكثرُ أنواعِ السّمكِ احتمالًا للحياةِ خارج الماء، ويمكثُ أطولَ مُدّة دون أنْ يتعفّن، وليكونَ زادًا لهما يتزوّدان به في رحلتهما التي لا يعلمان مُدّتها كما قال: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60][8].

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 123.

(2) الواحديّ، الوجيز في التّفسير، ص: 667، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 287، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 202، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 98.

(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 5/ 187.

(4) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 123.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 366.

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوت).

(8) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 648.

معنى الواو في قوله ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، تحتمل وُجوهًا:

الأوّل: عاطفةٌ، والمعطوف عليه جملة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، والمعنى المشترك بينهما أنّ كليهما نسيانٌ وقعَ من فتى سيدنا موسى عليه السلام، لكنّ الأوّلَ نسيَ الحوتَ؛ أيْ: نسيَ حفظه وافتقاده فانفلتَ في البحر، والنّسيانُ الثّاني أنّه نسيَ ذِكْرَ إخبارِ موسى عن الحوتِ؛ أيْ: هو نسيانٌ آخر غير النّسيانِ الأوّل، فهو نسيانُ تذكّر[1].

الثّاني: اعتراضيّةٌ، والجملةُ معترضةٌ بين المعطوف ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، والمعطوفِ عليه ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾[2]، وقد قُدّمت على المعطوف؛ للاعْتِناءِ بالاعْتِذار[3]، "ولبيانِ ما يجري مجرى السّبب في وقوعِ النّسيانِ منه"[4].

الثّالث: حاليّة، والمعنى: (والحال في ذلك أنّي نسيتُ الحوت).

دلالة ﴿وَمَآ﴾ على النّفي في قوله ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾:

﴿وَمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ نافيةٌ غير عاملة، وفيها معنى التّأكيد، فالفتى يؤكّد أنّ نسيانه للحوتِ لم يكن إلّا بفعلِ الشّيطان ووسوسته.

سِرُّ نسبةِ فعل النِّسيان إلى الشّيطانِ لا إلى الإنسان:

نسبَ الفتى النِّسيانَ إلى الشّيطانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾؛ لبيانِ ما يجري مجرى السّبب في وقوع النّسيان منه[5]، وهذا من بابِ إضافةِ الشَّرِّ وأسبابه إلى الشّيطانِ

في العطفِ بيانٌ لتنوّعِ النّسيانِ، وفي الاعتراضِ اعْتِذارٌ عنه

نسيانُ الحوتِ وفوتُه كان بفعلِ الشّيطانِ وزيغه

بيانٌ لزيادة التّعجيب، وعذرٌ للفتى في ذلك الفَقْد العجيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 733، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 203، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 629.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 233.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 550.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 550.

على وجه التّسويلِ والتّزيين، وإنْ كان الكلُّ بقضاءِ اللّه وقَدَرِه[1]، ولبيانِ زيادةِ التّعجيبِ من هذا النّسيان[2]؛ إذِ الأصلُ في مثلِ هذا الأمرِ العجيبِ ألّا يُنسى، وفي هذا اعتذارٌ من الفتى عن نسيانه بشَغْلِ الشّيطانِ له بوساوسه[3].

بلاغةُ القَصْرِ في جملة: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

دأبُ الشّيطانِ أن يُنسيَ الإنسانَ ما يُقرّبه إلى الرّحمن

قصر النَّظم الكريم صفة النّسيان في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ على الشّيطان دون غيره، فهو قصْرُ صفةٍ على موصوف، وهو قصرٌ إضافيٌّ، ووجهُ حصرِ إسنادِ هذا الإنْساءِ إلى الشَّيطان أنّ ما حصلَ له من نِسيانِ أَنْ يُخبرَ موسى بتلك الحادثةِ هو نِسيانٌ ليس من شأنه أَنْ يقعَ في زمنٍ قريبٍ مع شدَّةِ الاهتمامِ بالأمرِ المَنْسيِّ، وشدَّةِ عنايته بإخبارِ نبيِّه به، ومع كونِ المنسيِّ أُعجوبَةً شَأْنُها ألّا تُنسى، وكونه أَمارَةً لَهُما على الطِّلْبَةِ الَّتي تَناهَضا مِنْ أَجْلِها[4]، يَتَعَيَّنُ أنَّ الشَّيطانَ ألهاهُ بأشياء عن أنْ يتذكّرَ ذلك الحادثَ العجيب؛ لأنَّ الشّيطانَ يسوءه التقاء هذيْن العبديْن الصّالحين، وما له من الأثرِ في بثّ العلومِ الصّالحة، فهو يصرفُ عنها ولو بتأخيرِ وقوعها طمعًا في حدوثِ العوائق[5].

فائدة التعبير بالمصدر المؤوّل وتأخيره:

إفـادةُ العـهدِ الذِّهنيّ تعبيرٌ عـن أفاعيلِ الشّيطانِ الغَويِّ

المصدرُ المؤوّل ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ في موضعِ نصبٍ على البَدَلِ من الهاء في ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾، وهو بدلُ الاشتمال؛ لاشتمالِ الذِّكرِ على الهاء في المعنى؛ أيْ: وما أنساني ذِكْرَهُ إلا الشّيطان، والضّميرُ للحوت[6]، وفي

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 5.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 98.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 287.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 733.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 733، والمُنتَجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 303.

استعمالِ المصدرِ المؤوّل إطنابٌ وتوكيدٌ يُسهمان في رسمِ صورةٍ لكيدِ الشّيطانِ وتربّصه بالفتى حتى ينسى إخبارَ موسى ﵇.

وأمّا حكمةُ تأخيرِ المصدرِ المُؤوَّل وتقديمِ ذِكْرِ الشيطانِ عليه فتكمنُ في الاعتناءِ ببيانِ سببِ هذا النّسيان، وهو وسوسةُ الشّيطان، وبيانُ سرعةِ تبرئةِ نفسه والاعتذارُ عن نسيانه بشغلِ الشّيطانِ له بوساوسه[1].

علّة التّعبير بالواو العاطفة في جملة ﴿وَٱتَّخَذَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالواو العاطفة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ لأنّها عَطْفٌ على جملة ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾[2]، وهي بَقيَّةُ كلامِ فتى موسى، للتّعجّبِ ممّا حدثَ من الحوتِ، حيث عادتْ إليه الحياةُ بقدرةِ اللّه تعالى، واتّخذَ طريقه في البحرِ بتلك الصورةِ العجيبة[3] بعد أنْ كانَ ميّتًا زمنًا طويلًا[4].

معجزةُ انسرابِ الحوتِ تأكيدٌ لعظمةِ ذي العِزّة والجبروتِ

وعبّر هنا بالواو دون الفاء كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ [الكهف: 61]؛ لأنّ الحالَ هنا لا يقتضي التعقيب والفوريّة؛ فقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ لم يأتِ عَقِبَ المعطوفِ عليه، وهو قوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾؛ إذ المقامُ مقامُ إخبارٍ بما حصل، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ [الكهف: 61]؛ فقد أتى بالفاءِ دون الواو؛ لأنّ اتخاذَ الحوتِ طريقًا في البحرِ سربًا كان عقبَ غفلةِ موسى وفتاه عنه.

موقع لفظ ﴿عَجَبًا﴾ ودلالته في السّياق:

جاء قوله: ﴿عَجَبًا﴾ منصوبًا على أنّه ثاني مفعولَي ﴿وَٱتَّخَذَ﴾، والظّرفُ ﴿فِى﴾ حالٌ من أوّلهما أو ثانيهما، والتّقدير: (واتّخذَ الحوتُ سبيله في البحرِ سبيلًا عجبًا)[5]، أو جاء على أنّه مصدر

كانَ مسلكُ الحوتِ في البحرِ سَرَبًا، ولموسى وفتاهُ حَيرةً وعَجَبًا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 629.
(3) طنطاوي، الوسيط: 8/ 550.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(5) المُنتَجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 303، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 233.

بدلًا من فعله(1)، بأنْ قال ﴿عَجَبٗا﴾ في آخر كلامه؛ أيْ: أَعْجَبُ له عَجَبًا، والمقصودُ منه تعجّب الفتى من تلك الحالةِ العجيبةِ التي رآها، ثم من نسيانه لها(2)، وهي بذلك جُملَةٌ مُستَأنَفَةٌ من حكايةِ قول الفتى؛ أيْ: قد تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾.

أو على أنه صفة لمصدرٍ محذوفٍ، كأنَّه قيل: (واتّخذ سبيله في البحر اتخاذًا عجبًا)، ووجهُ كونه عجبًا انقلابُه من المِكْتَلِ وصيرورتُه حيًّا، وإلقاءُ نفسِه في البحر(3)، وهذا من كلامِ فتى موسى عليه السلام.

وقيل: إنّ ﴿عَجَبٗا﴾ من قول موسى عليه السلام؛ أيْ: عجبتُ عجبًا من سَرَبِ الحوتِ وأثره في البحر؛ إذْ صارَ كالطّاق(4)، وقيل: عجبًا من نسيانك هذا الأمرَ العجيبَ أنْ تذكُرَه لي(5)، وعلى هذيْن القوليْن يكون الوقفُ على ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ كافيًا(6).

قال ابن زيد: "أيُّ شيءٍ أعجبُ من حوتٍ يُؤْكَلُ منه جهرًا، ثمّ صار حيًّا بعدما أُكل بعضه؟"(7)، ثمّ صارَ طريقه في البحرِ كالطّاق(8).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجواز والمرور:

الجَـواز قطعُ الشّيءِ وسلوكُه وتركُه خلفَه، والمرورُ هو مُضيٌّ وذهابٌ

يتقاربُ لفظا (الجواز) و(المرور)، وقد يُستعملُ أحدهما بمعنى الآخر، إلا أنّهما يفترقان ببعض الملامح المميّزة لكلٍّ منهما، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ (جوز) يدلّ على قطعِ الشّيء، وجُزْتُ المَوْضِعَ: سلكتَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 367.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 480.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 480.
(4) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 300.
(5) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التفسير: 10/ 109.
(6) الدّانيّ، المُكتَفى في الوقف والابتدا، ص: 125.
(7) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 187.
(8) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير: 10/ 109.

وسِرْتَ فيهِ، وأَجَزْتُهُ: خَلّفْتَهُ وقَطَعْتَهُ[1]، وجاوزه: تعدّاه، يُقال: جُزتُ البلدَ؛ أيْ: تعدّيته[2]، وجازَ وأجاز وتجاوز الموضع: سلَكَه وتَرَكَه خَلْفَه، وسارَ فيه وقَطَعَه، واجتازَ الطَّريقَ: قطعَها وسلَكَها[3].

وأصلُ (مرَّ) يدلُّ على مُضيِّ شَيْءٍ[4]، والمرورُ: المُضيُّ والاجتيازُ، ومَرَّ يمرّ مرورًا: جازَ وذهبَ ومضى، كاسْتَمَرَّ، وقيل معناه: جاءَ وذهب[5].

إذن: يتميَّزُ لفظُ الجوازِ بمعنى قطعِ المكانِ وسلوكِه وتركِه خلفَه، بينما يتميّزُ لفظُ المرورِ بالمُضيِّ والذّهابِ والاستمرارِ في المُضيِّ، ولا يدلّ على قطعِ الشّيءِ وتركه خلفه.

وكأنّ المرورَ بالمكان يكون أوّلًا ثم تكون مجاوزته؛ أيْ: المجاوزة: البعدُ عن المكانِ عقبَ المرور فيه[6].

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ يكونُ واجبًا أو تفضّلًا، والإعطاءُ يدلّ على التّملّكِ ويكونُ بمحْضِ التّفَضّلِ فحسب

لا يكادُ اللّغويّون يفرّقون بين الإيتاءِ والإعطاءِ؛ إذ يُعرِّفون الإيتاءَ بالإعطاءِ، ويستعملون أحدهما مكان الآخر، إلا أنّه عندَ إمعانِ النّظرِ في معانيهما، واستعمالِ القرآنِ لهما يتبيّن بعض الفروق الدّقيقة بين اللّفظيْن، وإيضاحُ ذلك من خلال الآتي:

أصلُ الإيتاءِ يدلّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإِصْحابِه وطاعَتِه، والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرِ والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإِعْطاءُ[7]، واشتُهرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ، وأصلهُ الإحْضارُ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (جوز).
(2) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 358.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جوز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مرر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 79.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أتو).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

وأصلُ الإعطاءِ يدلّ على أخذٍ ومناولةٍ، والعَطْوُ: التّناولُ باليد، والمعاطاةُ: المناولةُ، والتّعاطي: تناولُ ما ليس لهُ بحقّ، يُقال: فلانٌ يتعاطى ظلمَ فلانٍ[1].

ومن الفروق بين الإيتاء والإعطاء:

الإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيّة؛ إذْ أصلهُ التّناول، وفيه دليلٌ على التّملّك، بينما الإيتاءُ يكونُ في الأشياءِ الماديّة والمعنويّة.

الإيتاءُ قد يكونُ واجبًا، وقد يكونُ تَفَضّلًا، بخِلافِ الإعْطاءِ؛ فإنَّه لا يكونُ إلّا بمحْضِ التَّفَضّلِ[2].

الإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، وإنّما يُقال: أتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مُطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الذي لا مطاوعَ له[3]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة، مثل (المُلك) و(الحكمة) و(السّبع المثاني) و(القرآن العظيم).

وقيل: الإعطاءُ أَقْوَى من الإيتاءِ، ولذا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ؛ ليكونَ ذلك بسُهولَةٍ من غيرِ تَطَلّعٍ إلى ما يَدْفَعه، والكَوْثَرُ لَمّا كانَ عَظيمًا شأْنُه غير داخِلٍ في حيطَةِ قدْرَةٍ بَشَرِيَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ فيه[4].

الإيتاءُ في أَكثر مواضع القُرْآن فيما لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسّبع المثاني، والمُلك الَّذي لا يُؤْتى إِلّا لذي قوَّة، والإعطاءُ: فيما ينْتَقل منه بعد قَضاء الحاجة منه كإعطاء كلّ شَيْء خلقه لتكرّر حُدوث ذلك باعْتِبار الموجودات، وإِعْطاء الكَوْثَر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه[5].

ونخلصُ إلى أنَّ الإيتاءَ يكون مع الأشياءِ الماديّة والمعنويّة، ولا يدلّ على التملّك، وغالبًا يكون للشّيء العظيم، وفيه قوّةٌ فلا يتوقّف على قبول، وقد يكون واجبًا، وقد يكون تفضّلًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 85.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(5) الكَفَويّ، الكُليّات، ص: 212.

الغداء والطَّعام:

الغَداءُ هو طَعامُ الغُدْوَةِ خاصّةً، والطَّعامُ عامٌّ جامعٌ لكُلِّ ما يُؤكل وفي أيّ وقتٍ

بين لفظي الغداءِ والطعامِ عمومٌ وخصوص؛ فالطعامُ لفظٌ عامٌّ لكلّ ما يُؤكَل غير محدّدٍ بزمن، أمّا الغداءُ فهو طعامٌ خاصٌّ مُحدّدٌ في زمنِ الغدوة، ويتّضح ذلك من خلال الرّجوع إلى المعنى اللّغويّ لكلٍّ منهما:

الغداءُ أصله من (غدو)، ويدلّ على زمان، ومنه الغُدْوَةُ: البُكْرَةُ ما بين صلاةِ الغداةِ وطلوعِ الشمسِ، والغَداةُ: الضّحْوَةُ، والغَداءُ: الطَّعامُ بعَيْنِه، وهوَ خِلافُ العَشاء، والغَداءُ: طَعامُ الغُدْوَة، سُمّيَ بذَلِكَ لأَنَّه يُؤْكَلُ في ذَلِكَ الزَّمانِ[1].

والطَّعامُ أصله من (طعم)، وهو تَذَوُّق الشَّيْءِ[2]، والطَّعامُ: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُؤكَل، وما به قِوامُ البَدَنِ، وهو عامٌّ في كلِّ ما يُقْتات، وكلُّ ما يَسُدُّ جوعًا فهو طَعام[3].

النَّصَبُ والتَّعَبُ:

النَّصَبُ تعبٌ حاصلٌ من عملٍ أو بذلِ جهد، والتَّعبُ العناءُ والإعياءُ الشّديد

يوجد تقاربٌ دلالي كبير بين لفظي (النَّصب) و(التَّعَب)؛ إذْ يشتركان في معنى الإعياء والمَشقّة، كما أنّ اللُّغويّين عرّفوا النَّصَبَ بالتَّعب، ورغم هذا التّقارب الدّلالي الكبير بين اللّفظيْن إلّا أنّ لكلٍّ منهما ما يُميِّزه، ويتّضح ذلك من خلال الآتي:

أصلُ النَّصبِ يدلُّ على إقامَةِ شَيْءٍ وإهْدافٍ في اسْتِواءٍ، والنَّصَبُ: العَناءُ، مأخوذ من الانتصاب، ومَعْناهُ أَنَّ الإِنْسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حتَّى يُعْيِيَ[4]؛ أيْ: كأنّما أُقيمَ في عملٍ شديد حتَّى تعب، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ والمشقّة، ونَصَبَه المرض: أتعبه وأوجعه، والنُّصْبُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غدو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعم).

(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (طعم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).

أيضًا: الشَّرُّ والدّاءُ والبلاء[1]، والنَّصَبُ: "التّعبُ والمشقّة الّتي تُصيبُ المنتصبَ للأمرِ المزاولِ له"[2].

وأصلُ التَّعَب هو الإعياء[3]، والتَّعبُ: ضدُّ الرّاحة، وهو شدّةُ العَناءِ، يُقال: أتعبَ فلانٌ نفسَه في عملٍ يُمارسه إذا أنصبها فيما حمّلها وأعملها فيه[4]، وتعِبَ الشَّخصُ: كَلَّ وأصابته مَشَقّة، وأتعبه السَّيرُ الطَّويلُ: أجهَده وأرهقه[5].

إذن، يتميّزُ لفظُ النّصبِ بمعنى الانتصاب؛ فهو تعبٌ يُصيبُ المُنتَصِبَ للأمر المُزاولِ له[6]، وهذا يشيرُ إلى أنّ ما أصابَ الإنسانَ من تعبٍ وإعياءٍ ومشقَّة هو تعبٌ حاصلٌ من عملٍ أو بذلِ جهد، وكأنّما أُقيمَ في عملٍ شديدٍ حتَّى تعب، ولهذا قيل في معاني النَّصَب: إنّه تعبُ البدنِ خاصّةً[7]، أو تعبٌ من شدّة حرٍّ أو بردٍ[8]، أو الجوعِ، أو المرض، بينما لفظُ التَّعَب ليس فيه إشارةٌ إلى سببِ التّعبِ، فهو أعمّ من النَّصَب؛ إذ هو ضدّ الراحة؛ ومعناه: الإعياءُ الشديد والعناء.

---

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (نصب).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 614.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تعب).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تعب).

(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جوز).

(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 614.

(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 34.

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ما حصلَ من فقْدِ الحوتِ هو الملمح المرغوب والعلامة على المطلوب

لَمّا ذَكَرَ الفتى لموسى عليه السلام ما حصلَ من أمرِ الحوتِ ونسيانِ إخباره، وزادَ التّعجيب من هذا النسيانِ بالاعتراضِ بين الإخبارِ به مُجْمَلًا، وبين تفصيلِ أمرِ الحوتِ بإيقاعِ النسيانِ على الشيطان، أجابَ موسى عليه السلام مُنبِّهًا بأنّ ما حصلَ من أمرِ الحوتِ وفقده هو العلامةُ التي أخبره اللّهُ بها، والّتي كانوا يطلبونها للقاءِ الخَضِرِ عليه السلام، فقال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبۡغِۚ﴾: (بغي) أصلان: أحدهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنسٌ من الفسادِ، فمن الأول: بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغيه: إذا طَلَبْتَهُ، والبُغْيَةُ: الحاجَةُ، ومن الثّاني: قولهم: "بغى الجرحُ" إذا ترامى إلى فسادٍ، والبغيُ: الظّلمُ[1]، وابْتغى الشَّيْءَ: أَرادَهُ وطَلَبه[2]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه، يُقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتُ أكثرَ ما يجبُ[3]، ومعنى ﴿نَبۡغِۚ﴾ في الآية؛ أيْ: نطلبُ من حاجتنا من الظَّفرِ بذلك العبدِ الصّالحِ في المكانِ الذي يُفقدُ فيه الحوت؛ لكونه أمارةً للفوزِ بالمَرام[4].

2) ﴿قَصَصٗا﴾: (قصص) أصلٌ صحيح يدلّ على تتبّع الشّيء، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ إذا تتبّعتَه[5]، والقَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (بغى).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 136.
(4) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 368، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 287.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).

والقصُّ فعلُ القاصّ إذا قصَّ القصصَ، وذلك لاتّباعه خبرًا بعد خبرٍ، وسَوقَه الكلام سَوقًا[1]، ومعنى ﴿قَصَصٗا﴾: يقصّان قصصًا؛ أيْ: يتّبعان آثار مشيهما وسيرهما اتّباعًا، ويقفوان أثرهما كي لا يُخطئا الطريقَ الأوّل، حتى أتيا الصخرة[2].

المَعنى الإجماليُّ:

ظهورُ العلامة المطلوبة يُزيل النَّصَبَ ويُقرّبُ الباحث من الطّلب

قال موسى لفتاه: ما حصَلَ مِن أمرِ الحوتِ وفَقدِه بهذه الطريقةِ العجيبةِ، هو ما كنّا نَطلُبُه؛ فإنَّه علامةٌ لي على مكانٍ لقائي بالعبدِ الصّالحِ، فرجَعا في الطّريقِ الّذي كانا قطعاه ناكصيْن على أدبارهما يتتبَّعانِ آثارَ مَشيِهما الّتي كانا سلكاها حتّى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ الّتي فقَدا الحوتَ عندها[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلها:

حوارٌ قرآنيٌّ جاءَ فيه قولُ موسى جوابًا على قولِ فتاه

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ عن التي قبلها؛ لأنّها جاءتْ جوابًا عن كلامِ الفتى، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾[4] على طريقةِ المُحاوَراتِ التي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكراره بتكرارِ أفعالِ القول، أو جاءتْ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ مُقدّرٍ لبيانِ ما صدرَ من موسى بعده[5]، كأنّه قيل: فما قال موسى حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾[6].

سرُّ الإشارة بما يدلّ على البُعد بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

علامةُ لقاءِ الخَضِرِ فقدُ الحوتِ وقصُّ الأثرِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ استعملَ البيانُ القرآنيُّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 175، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 287، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 62.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 368.
(5) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 125.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 12/ 104.

اسمَ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يُشارُ به إلى البعيد، والمُشارُ إليه إمّا: فقْد الحوتِ وانْسرابه في البحر، أو المكان الذي فُقدَ فيه الحوت[1]، وهو المكانُ الذي يوجدُ فيه الخَضِر، والإشارةُ بالبعيدِ إمّا على حقيقتها؛ لبُعدِ المُشارِ إليه، أو للتّفخيم؛ أيْ: تفخيم العلامةِ التي كانتْ للقاءِ سيدنا موسى عليه السلام بالخَضِر، وتفخيمُ أمرِ الحوتِ، وهو فقْدُه على هذا الوجه المَذْكور من خروجه من المِكْتَلِ وحياته بعد كونه مشويًّا أو مأكولًا منه، وسبيله في البحرِ سربًا، ولذلك فسّره البقاعيُّ بقوله: "أي: الأمرُ العظيمُ من فقْدِ الحوت"[2].

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾:

عنايةُ موسى وفتاه بالبُغيةِ والاهتمام بها والتّفخيم لها

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ موصولة بمعنى (الذي)؛ أيْ: ذلك الذي كنّا نطلبُ على الاسْتمرار، وهو أمرُ فقدِ الحوت؛ لأنّه أمارةٌ على المطلوب؛ أي: لقاءُ الخَضِرِ عليه السلام[3]، وفي الحديث: أنَّ موسَى قال: "أَيْ رَبِّ؛ كيفَ لي بِهِ؟ فقيلَ له: احْمِلْ حوتًا في مِكْتَلٍ، فحَيْثُ تَفْقِدُ الحوتَ فهو ثَمَّ"[4].

وفي التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته ﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ دون الاسمِ الظّاهر - إذْ لم يقل: (ذلك بغيتنا) - إيماءٌ إلى عنايتهما بهذه البُغيةِ والاهتمامِ بها والتّفخيمِ لحالها.

دلالة الفعل الماضي ﴿كُنَّا﴾ متّصلًا بضمير الجمع:

طلبُهما للأمارةِ المرجوّة مستمرٌّ في الحالَيْنِ الماضيةِ والحاضرة

عبّر القرآنُ الكريمُ بفعلِ الكون ماضيًا مجموعًا ﴿كُنَّا﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنّهما كانا ثابتَيْن على طلبِ أمرِ الحوتِ وفقدانه؛ إذ الجملةُ الاسميّةُ تفيدُ الدّوامَ والثّبوت، كما

(1) أبو حفص النّسَفي، التيسير: 10/ 110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 104.
(3) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 125.
(4) مسلم، صحيح مسلم: حديث رقم: (2380).

أنّ الجمعَ بين الماضي في ﴿كُنَّا﴾ والمستقبل في ﴿نَبۡغِۚ﴾ يدلُّ على أنّ طلبهما لهذه العلامةِ التي توصلهما للمطلوب (لقاء الخَضِر) مستمرٌ في جميعِ أحوالهما الماضية والحاضرة.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿نَبۡغِۚ﴾ بين إثباتِ الياء وحذفها:

اكتمالُ البُغية هو الغاية، وما يوصِّل إليه وسيلة موصلة للدّراية

الياء ﴿نَبۡغِۚ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ محذوفة من الخطّ، وتعددت فيها القراءات، إلا أن المقصود هو اعتبار حذف الياء رسمًا مع أنها أصلية لام الفعل[1]، لأنّه لم يكنْ فقدانُ الحوتِ هو المُبتَغى والغاية والهدف الرئيس، بل هو "وسيلةُ المُبْتَغَى، وإنَّما المُبْتَغَى هو لقاءُ العبدِ الصالحِ في المكان الذي يُفقد فيه الحوت"[2]، فلمّا كانتِ البُغيةُ لم تكتمل؛ - لأنّه لم يرَ الشّخص الذي يبحثُ عنه بعد، وإنّما وصلَ للمكان - ناسبَ نقصانُ تمام الحرفِ نقصانَ تمام الغايةِ فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾، بينما جاءتْ على الأصلِ مثبتةً في سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]؛ لبيانِ أنّ ذلك هو غايةُ ما يريدونه ويطلبونه، فالطعامُ الذي أحضروه من مصر هو المُرادُ لذاته، فهم جاؤوا للامتلاءِ فأعطاهم الميرَة، وأرجعَ إليهم أموالهم، فكان هذا أكثرَ ممّا يبغون، فناسبَ كمالُ تمامِ الحرفِ كمالَ تمامِ الغاية[3].

إضافةً إلى أنَّ حذفها في قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ جاءَ تخفيفًا، والعربُ يميلون إلى التّخفيف[4]، وفيها أيضًا إلماحٌ إلى حرصِ موسى والفتى على لقاءِ الخَضِر وسرعتهما في ذلك، فلسرعتهما

(1) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف بحذف الياء في الحالين، وأثبتها ابن كثير ويعقوب في الحالين، وأثبتها وصلا دون الوقف الباقون، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 316.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 368.
(3) السّنديّ، الفتوحات الرّبانيّة في الفوائد التّفسيريّة والبيانيّة: 3/ 46، والسّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 6/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 368.

في الرّجعةِ فكأنّه اختلسَ الياء ولم يُشبعها؛ أي: اختصرَ وأسرعَ في الكلام، فلم ينطقْ بالياء، والسياقُ يُؤكّد ذلك بفاءِ التّعقيب، وبفعلِ الارتدادِ الذي يُفيدُ السرعة؛ إذ هو مُطاوِعُ الرَّدِّ، وكَأَنَّ رادًّا رَدَّهُما: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾.

سرُّ استعمال الفاء في قوله تعالى ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾:

ارتدادُ موسى وفتاه الفوريُّ على آثارهما لحرصِهما على لقاءِ الخَضِر

فاءُ ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ عاطفةٌ، وتُفيد: التّعقيب والفوريّة، وفي هذا دلالةٌ على حرصِ موسى عليه السلام وفتاه على لقاءِ العبدِ الصّالحِ، وسرعتهما في الوصولِ إلى مكانِ اللقاءِ ناكصيْن على أدبارهما مُتتبّعيْن لآثارِ سيرِهما.

دلالةُ التّعبير بالارتداد دون سواه:

مباشرةُ الارتدادِ حرصٌ على لقاءِ الخَضِر في الميعاد

عبّر البيانُ القرآنيُّ بفعلِ الارتداد في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ دون غيره، فلم يَقُلْ مثلًا: (فرجعا على آثارهما)؛ لكون معنى الارتداد أنسبَ للمقام والسّياق؛ فالردُّ لغةً: رجْعُ الشيءِ وصرفه بذاته، أو بحالةٍ من أحواله[1]، والارتدادُ: الرجوعُ في الطريق الذي جاءَ منه[2]، والرّدُّ: ما كانَ عِمادًا للشَّيْءِ يَدْفَعُهُ ويَرُدُّه[3]، وهو أيضًا صدُّ استرسالِ ما يمتدّ أو ينتشر[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع حالِ موسى وفتاه وشدّةِ حرصِهما على لقاءِ الخَضِر، كما دلّ عليه السّياق في قوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]، وخاصّة بعدما تأخّرا عن ذلك بسببِ إنساءِ الشيطانِ للفتى، فالتّعبيرُ بالارتداد، وكأنَّ رادًّا رَدَّهُما، وإنّما رَدَّتْهُما إرادَتُهُما ورغبتهما في لقاءِ الخَضِر[5]، كما أنّ معنى الصّدّ والدّفع المُستفاد من

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدةُ الحُفّاظ: 2/ 83.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ردد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 368.

الارتدادِ يشيرُ إلى سرعةِ رجوعهما، لا مُطلَقِ الرجوع، ويؤكّده أيضًا التعبيرُ بفاءِ التعقيبِ التي تدلّ على الفوريّةِ والسرعة، وكذلك التعبيرُ بلفظِ الارتداد يتناسبُ مع ما جاء بعده من السياق وأكّده فقال: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾؛ إذ معنى الارتداد: الرجوعُ في الطريقِ الذي جاء منه، بينما معنى الرجوع: العودُ إلى مكانِ البدء، ولا يُشترط فيه الرجوع من ذاتِ الطريقِ الذي جاء منه، وموسى ﵇ والفتى لم يرجعا إلى مكانِ البدء؛ وإنّما إلى الصّخرةِ؛ وهي مكانُ فقدِ الحوتِ ولقاءِ الخَضِر، فكان التّعبيرُ بالارتدادِ أنسبَ من التّعبير بالرّجوع.

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تتبُّعُ الآثارِ إشارةٌ إلى حرصهما على لقاء الخَضِر

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ الذي يُفيدُ الاستعلاءَ والتَّمكُّنَ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾؛ إشارةً إلى الدِّقّةِ في طلبِ الآثارِ الّتي توصلهما إلى الخَضِر وحرصهما على ذلك.

المُرادُ بالأثر في قوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾:

قـفـوُ الأثـر من العادات الأصيلة عند قُدامى البشر

الأثرُ في اللّغة هو بَقيَّةُ الشّيْءِ، أو ما بَقيَ مِنْ رَسْمِ الشَّيْءِ[1]، والمُرادُ بالأثر في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، هو آثارُ مشيهما الباقية على الطّريق ومكان سيرهما، ويُؤكّده قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾؛ إذ معناه: رجعا في الطّريقِ الّذي جاءا منه، وكذلك قوله: ﴿قَصَصًا﴾؛ ومعناه تتبّع الأثر، فهما ارتدّا يتتبّعان آثار سيرهما، حتّى يصلا إلى المكانِ الّذي فُقِدَ فيه الحوت.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿قَصَصًا﴾ في ثنايا السّياق:

تعدُّدُ إعرابِ اللّفظ مُعْرِبٌ عن المعنى ومبيّنٌ لأغراضه

إعرابُ ﴿قَصَصًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ على أوجه منها: مصدرُ فعلٍ محذوف؛ أيْ: فرجعا في السّبيلِ الّذي

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أثر).

سلكاه يقصّان الأثرَ قصصًا[1]، والقصصُ: اتّباع الأثر، كأنّه قيل: يتّبعان آثارهما اتّباعًا، أو مصدر ﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ على المعنى[2]؛ لأنَّ معنى ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾: اقتصّا آثارَ أقدامهما، أو أن يكون في موضعِ الحال؛ أيْ: فارتدّا مُقتصّين[3]، كقولك: أتيتُه مَشيًا؛ أيْ: ماشيًا.

وفي هذا التّنوّع الإعرابيّ لـ ﴿قَصَصٗا﴾ إشارةٌ إلى شدّةِ حرصِ موسى وفتاه على لقاءِ الخَضِر باتّباعِ الآثارِ ذاتها للوصولِ إليه بأقربِ طريق.

وهذا هو ذاته سرّ التعبير بمادة (قصّ)؛ الّتي هي أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تتبّعِ الشّيء، من ذلك قولهم: اقْتَصَصتُ الأثر، إذا تتبّعته[4]، والقَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتغاء والطّلب:

الابتغاءُ مجاوزةٌ واجتهادٌ في الطّلبِ، والطّلبُ مُحاولةُ وجدانِ الشّيءِ وأخذه

يتقاربُ لفظا (الابتغاء) و(الطَّلب)؛ وذلك لأنّ أصلَ (طلب) في اللّغةِ يدلّ على ابتغاءِ الشيء، وأحدُ معاني الابتغاء هو الطَّلب، ولكن مع هذا التّقارب الكبير، يوجد ما يتميّز به كلٌّ منهما عن الآخر، وبيان ذلك:

الابتغاءُ في أصله يدلّ على الطّلب، بَغَيْتُ الشّيء وابتغيتُه: طلبتَه، وأَبْغَيْتُكَ الشَّيْءَ: إذا أَعَنْتُكَ على طَلَبِه، والبُغْيَةُ والبِغْيَةُ الحاجَةُ[5]، وبغى الرّجلُ الخيرَ والشَّرّ، وابْتغى الشَّيْءَ: أَرادَهُ وطَلَبه[6]، والبَغْي: طَلَبُ تَجاوُزِ الاقْتِصادِ فيما يُتحرَّى؛ تَجاوَزه، أَم لم يَتَجاوَزه، وبغيتَ الشيء: إذا طلبتَ أكثر ما يجب، والابتغاءُ خُصّ بالاجتهادِ في

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 300، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/ 248.
(2) العُكْبَري، التبيان: 2/ 855، وقد قدّمه على الوجهيْن الآخريْن.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 396، والعُكْبَري، التبيان: 2/ 855.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قص).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (بغى).

الطلب[1]، والابتغاءُ صيغةُ افتعالٍ تدلُّ على شدّةِ الطّلب والمحاولة والتّحرّي، والاجتهادِ في الطّلب.

والطّلبُ في أصله يدلّ على ابتغاءِ الشيء[2]، ومُحاولة وجدانه وأخذه[3]، والطَّلَبُ: الفحصُ عن وجودِ الشيء عينًا كان أو معنى[4].

إذن، يتميّز الابتغاءُ بمعنى المجاوزة والاجتهاد في الطلب، ويكون محمودًا ومذمومًا، بينما يتميّز الطّلبُ بالمحاولة، والفحص عن وجودِ الشيءِ وأخذه.

كما أنّ الابتغاءَ فِعلُهُ من أفعال المُطاوعة؛ تقول: بَغَيْتُهُ فانْبَغَى[5]، بينما الطلبُ فعلُهُ ليس من أفعالِ المطاوعة، والفعلُ الذي له مُطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الذي لا مُطاوعَ له.

الارتداد والرَّجوع:

الارتـداد رجـوعٌ وصرفٌ بعارضٍ، والرّجـوعُ العودُ إلى ما كـانَ منه البدء

استعمل أهل اللغة إحدى الكلمتَين موضعَ الأخرى لقُربِ معناهما[6]، فقيل: أصلُ ردّ: رجع، والارتدادُ: الرجوع[7]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 62] الرّد كالرجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28][8]، وأصلُ رَجَعَ: يَدُلُّ على رَدٍّ[9]، ورَجْعُ الجوابِ: رَدُّه، ورجعتُ الكلام: رَدَدْتُه[10].

وقد فرّق العسكريّ بين الرّجع والرّد، فذكر أنّه يجوز أَنْ ترجعه من غير كراهة له، ولا يجوز أن تردّه إلّا إذا كرهتَ حاله، ولهذا يُسمّى البهرج ردًّا، ولم يسمَّ رجعًا[11].

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (بغى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلب).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (طلب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (طلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجَوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رد).
(8) الرّاغب، المُفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(10) الخليل، العين، والفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (رجع).
(11) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

فالرّدُّ يمتاز بأنّ فيه إشارةً إلى شيءٍ خارج عن إرادةِ الشّخص الذي ارتّدّ، وكأنّ أحدًا قطعَ عليه استرساله، وصرفه عن وجهته فينعكس اتجاهه، ويرجع بذاته أو بحالٍ من أحواله إلى الموضع الذي ابتدأ منه، وكأنّ المُرتدّ لم يُكملْ طريقه إلى غايته؛ بل عرضَ له ما جعله يرتدّ من حيث أتى، وعلى نفسِ الطريق الذي جاء منه.

بينما يتميّز الرجوع بأنّ فيه معنى الانصراف والعودة بإرادةِ الشخص إلى مكانِ البدءِ، ولا يُشترطُ فيه أنْ يعودَ من نفسِ الطريق الذي جاء منه.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 65 - 66]

العلاقة بين الجدّ في طلب العبدِ الصّالح واللّقاءِ العلميّ الّذي خلّده القرآنُ

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

بعد أنْ ذكرَ البيانُ القرآنيُّ سرعةَ ارتدادهما وتتبّع آثارهما حرصًا وشوقًا للقاءِ الخَضِر ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، أعقبهُ بذِكْرِ مشهدِ اللقاءِ، ومبادرةِ موسى عليه السلام بطلبِ اتّباعِ الخَضِرِ والتعلّم منه فقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبۡدٗا﴾: أصلُ (عبد) يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسلوكُ المُذَلَّلُ[1]، والعَبدُ: الإنسان حُرًّا كان أَو رَقيقًا، وأصلُ العُبوديَّةِ الخضوعُ والذُّلُّ، والعِبادةُ: الطّاعةُ، والتَعَبُّدُ: التَنَسُّكُ[2]، والعِبادَةُ أبلغُ منها، لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى، والعبدُ يُقال على أربعة أضرب: الأوّل: عبد بحُكم الشّارعِ؛ وهو الإنسان الذي يَصحّ بيعُه وابتياعُه، والثّاني: عَبْدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا للّه، والثّالث: عَبْدٌ بالعِبادَةِ والخدمة، والرّابع: ما هو عبد للدُّنيا وأعراضها الفانية[3]، والمُرادُ بالعَبْدِ في الآية: عبدًا من عباد اللّه، وهو الخَضِر عليه السلام كما دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة[4].

2) ﴿رَحۡمَةٗ﴾: أصلُ (رحم) يدلّ على الرّقةِ والعطفِ والرّأفةِ[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 542.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 175، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

والرَّحْمَةُ في بني آدَمَ: رِقَّةُ القَلْبِ وعَطْفُهُ، ورَحْمَةُ اللّه: عَطْفُه وإحسانه ورِزْقُهُ، والرَّحْمَةُ: المَغْفِرَةُ[1]، والرَّحْمَةُ رِقّةٌ تقتضي الإحسان إلى المَرْحوم، وإذا وُصفَ به الباري فليس يُراد به إلّا الإحسان المجرّد دون الرِّقّة، وعلى هذا روي أنّ الرَّحْمَةَ من اللّه إنعامٌ وإفضال[2]، واستُعملت الرّحمة في القرآن على عدّة أوجه منها: الجَنّة، والإسلام، والإيمان، والنّبوّة، والقرآن، والرّزق[3]، والمُراد بالرّحمة هنا: الوحي والنّبوّة[4]، وقيل: الولاية[5].

3) ﴿لَّدُنَّا﴾: لدن بمعنى: لَدَى، وهما ظَرْفا مَكانٍ بمَعْنَى (عِنْدَ)؛ إلّا أنَّهما لا يُسْتَعْمَلانِ إلّا في الحاضِرِ، يُقالُ: "لَدُنهُ مالٌ" إذا كانَ حاضِرًا[6]، و(لَدُنْ) أخصّ من (عند)، لأنّ (لدن) يدلّ على ابتداءِ نهاية؛ أي: يوضعُ موضع نهاية الفعل[7]، ومعنى ﴿لَّدُنَّا﴾: عندنا[8].

4) ﴿رُشْدَا﴾: أصلُ (رشد) يدلّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغيِّ[9]، ونقيضُ الضّلال، وأَرْشَدَه اللّهُ إلى الأمر: هداهُ، واسْتَرْشَدَه: طلبَ منه الرُّشْد، والرُّشْدُ: هو صلاحُ الأمرِ وكونه على الوجه الصحيح، وهو استقامةٌ على الطّريقِ الحقّ مع تصلّبٍ فيه[10]، وقيل: الرُّشد والرَّشَد والرَّشاد: الهدايةُ والاستقامة[11]، والمقصود بـ﴿رُشْدَا﴾ في الآية: عِلمًا ذا رُشدٍ أرشُدُ به في ديني[12]؛ أيّ: علمًا ذا هدىً وإصابة خير[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى ذِكْره: وجدَ موسى وفتاه بعد البحثِ وتقصّي الأثر الخَضِر؛ وهو عبد من خواصّ عبادِ اللّه تعالى آتاهُ اللّهُ الوحيَ والنّبوَّة، وأعطاهُ علمًا يختصّ باللّه ولا يُعْلَمُ إلا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).

(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 347.

(3) ابن الجوزي، نزهة الأعيُن النّواظِر، ص: 333.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 126، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 234.

(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 288.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (لدن).

(7) الرّاغب، المفردات: (لدن).

(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 62.

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).

(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).

(11) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 2/ 93.

(12) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 733.

(13) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 48.

مشهدُ لقاء موسى والخَضِر يُصوِّرُ سموَّ الأدب في التّواضع عند الطّلَب

بتوفيقه، وهو من علمِ الغيب، فبادرَ موسى بطلبِ متابعةِ الخَضِر قائلًا له: هل تأذن لي في مصاحبتكَ واتّباعكَ بشرطِ أنْ تُعلّمني من العلم الذي علمكَ اللّهُ إيّاه، وهو علمُ هدايةٍ ورشادٍ إلى الحقِّ، أسترشدُ به في حياتي، وأصيبُ به الخيرَ في ديني؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة استعمال (الفاء) في قوله ﴿فَوَجَدَا﴾:

الاهتداءُ إلى مصدر العلم هو غاية التّوفيق لصوابِ الطّريق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ هي فاءُ العطفِ التي تفيدُ التّعقيبَ والترتيب؛ أي إنّه عقبَ الوصولِ إلى الصّخرةِ، وجدا عبدًا من عبادنا[2]، بما يُشيرُ إلى سرعةِ الرّجوعِ والبحثِ عن العبدِ الصالح، والرّغبةِ بلقائه بأسرعِ وقت، وهي الفاءُ الفصيحة مُنبئةٌ عن المَحْذوف وهو (حتى أتيا الصّخرة)[3]، بما يُركّز على المشهدِ البارزِ في القصّة - وهو مشهدُ اللقاءِ - ويومئُ بسرعته.

دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿فَوَجَدَا﴾:

لقاءٌ علميٌّ بين موسى والخَضِر تحقّقَ وأنتج أينعَ الثّمرِ

أتى التَّعبيرُ القرآنيُّ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾؛ ليدلَّ على أنّ اللقاءَ العلمي بين موسى والخضر قد تحقّقَ وحدثَ في الماضي فأنتج وأينع الثمر، إذ هو في سياقِ قصّةٍ حدثتْ ومضتْ، ولم تتكرّرْ.

فائدة التّعبير بصيغة المُثنّى في قوله ﴿فَوَجَدَا﴾:

في رحلةِ الحقّ لا أحد يُهضمُ له حقٌّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الفعلِ الماضي بصيغةِ المُثنَّى في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾؛ أيْ: جعلَ سبحانه إيجادَ الخَضِرِ لكلٍّ من موسى وفتاه، مع أنّ مقصودَ اللّقاءِ هو موسى عليه السلام لا الفتى[4].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 287، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 552.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4558.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 126.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4558.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿عَبۡدٗا﴾ دون مرادفاته:

العبوديّة صفةُ تشريفٍ وتفخيمٍ ورفعٍ للمقام عظيم

ذكرَ البيانُ القرآني الخَضِر في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ بوصفِ العبوديّة للّه، فلم يقل مثلًا: (فوجدا بشرًا أو إنسانًا أو رجلًا)؛ وذلك تقريبًا لمنزلته، وتنويهًا وتنبيهًا على علَّة تخصيصه بالرّحمة والعلم اللّدنّيّ، وبأنْ يكون مُعلّمًا لموسى ﷺ، ولِما في هذا الوصفِ من رفعةِ قدره وتفخيم شأنه وتكريمه؛ لأنّه ربطَه بالعبوديّة للّه تعالى، وهي أسمى المراتبِ للبشر؛ إذ هي الصّفةُ التي ذَكَرها اللّه لخيارِ خلقه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ [الصّافات: 171].

سرُّ التَّنكير في لفظ ﴿عَبۡدٗا﴾ في السّياق:

الوصفُ بلفظ العبد من أشرف الأوصاف لنسبته إلى عَليّ الألطاف

التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ للتّفخيم؛ أيْ: تفخيمُ شأنِ العبدِ الصالحِ الذي لُقّبَ بالخَضِر؛ لمعجزةٍ أكرمه اللّهُ بها، فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ قال: "إنَّما سُمّي الخَضِر، أنّه جلس على فَرْوَةٍ بيضاء؛ فإذا هي تهتزّ من خلفه خضراء"[1]، والمُرادُ بقوله: فروة بيضاء: الأرض اليابسة، وقوله: فإذا هي تهتزّ من خلفه خضراء؛ أيْ: أنبتتْ وخرجَ منها الزرعُ بمجرّد جلوسه عليها، ممّا يدلّ على علوِّ شأنه، كيف لا وهو في أرجحِ أقوالِ المُفسّرين أنّه من الأنبياء، قال القرطبي: "هو نبيٌّ عند الجمهور؛ لأنّ النّبيّ لا يتعلّم ممّن هو دونه، ولأنّ الحُكمَ بالباطنِ لا يطّلعُ عليه إلا الأنبياء"، ولقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾، والرحمة هي الوحي والنّبوَّة، وقال الإمام النّوويُّ رحمه اللّه تعالى: "والذي عليه الأكثرون أنّه كان نبيًّا"، وقال: "والقولُ بولايته خلافُ المختار"[2].

(1) البخاريُّ، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: حديث الخَضِر مع موسى ﷺ، الحديث رقم: (3221).

(2) النوويّ، بستان العارفين، ص: 60.

وعدَلَ عن الإضافةِ إلى التّنكيرِ والصّفة، فلم يَقُل: (فوجدا عبدنا)؛ وإنّما قال: ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾؛ لأنّه لم يسبِقْ ما يقتضي تعريفه، وللإشارةِ إلى أنَّ هذا الحالَ الغريبَ العظيمَ الذي ذُكرَ من قصّته ما هو إلّا من أحوالِ عبادٍ كثيرين للّه تعالى، وما منهم إلّا لهُ مقامٌ معلوم، فكان وصفه بأنّه من عبادِ اللّه تشريفًا له[1].

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ بين البيانيّةِ والتّبعيضيّة في السّياق:

مَـن كـان من العبادِ؛ نالَ في سعيه المُرادَ

حرف الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ بيانيّةٌ؛ لبيانِ المقصودِ بهذا العبد؛ إذِ الخلقُ كلّهم عِبادُ اللّه، لكنَّ بعضَ هذه العبودية بالتّسخيرِ وبعضها بالاختيار[2]، والمقصود هنا هو جليلُ الشّأنِ ومن جملةِ خواصّ الخواصّ[3]؛ فقد خصّه اللّهُ بالنّبوّة، وبعلمٍ من علوم الغيب، أو تبعيضيّة؛ أيْ: عبدًا من بعضِ عبادنا الذين اصطفيناهم وخصصناهم بالنّبوّة والعِلمِ اللّدنّيّ.

سرُّ الإضافة في المُركّب الإضافيّ ﴿عِبَادِنَآ﴾:

العـبـوديّـة مضافةٌ إلى الله تـعـالى إضـافـةَ تـشـريـفٍ لا إضافة تعريف

الإضافةُ في ﴿عِبَادِنَآ﴾ إلى اللّه ﷻ في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ هي للتّشريفِ والتّكريم والاختصاص[4]؛ أيْ: عبدًا جليلَ الشّأنِ ممّن اختُصَّ بنا وشُرِّفَ بالإضافةِ إلينا، فالإضافةُ إضافةُ تشريفٍ؛ لا إضافة تعريفٍ؛ لأنَّ وصفَ العبوديّة للّه مُتحقّقٌ لسائرِ المخلوقات، فلا تفيدُ إضافته تعريفًا[5].

نكتة التّعبير بـ ﴿عِبَادِنَآ﴾ دون (عبيدنا):

الـتـعـبـيرُ عـن الـخـضـر بالعبوديّة إظهارٌ لـكـرامـتـه عند المعبود

يُجمعُ لفظ (عبد) على: (عبيد) و(عباد)، وكان يمكن أنْ يُعبِّر البيانُ القرآنيُّ بـ (عبيدنا) في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 369.
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 543.
(3) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 407.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 203، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 234.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 12.

﴿عِبَادِنَآ﴾؛ لكن جاء استعمال البيان القرآني بلفظ ﴿عِبَادِنَآ﴾؛ لأنّه جرى في استعمالِ العرب أنْ تُجمعَ كلمةُ (عبد) الذي هو مُسترَقٌّ على (عبيد)، والعبدُ الذي هو عابدٌ على (عباد)[1]، وفي هذا التّعبير إظهارٌ لكرامةِ الخَضِر ومكانته في مقام العبادة للّه، فالعبوديّةُ: إظهارُ التّذلّل، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غايةُ التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال[2]، فأرادَ اللّهُ سبحانه أنْ يُكرّمَ الخَضِرَ؛ فآثر التّعبير بـ﴿عِبَادِنَآ﴾، ليدلّ على كثرةِ عبادته للّه وغايةِ خضوعه.

التّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾:

إيتاءُ الرّحمةِ مُتحقّقٌ للخضِر بما يجعله مرحومًا وراحمًا

استعملَ القرآنُ لفظَ (الإيتاء) بصيغةِ الماضي ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، مع أنّ عطاءَ النّبوّة والرّحمة العامّة مستمرٌّ للخَضِر؛ ليُدلّلَ على أنّ إيتاءَ الخَضِرِ للنّبوّة والرّحمة العامّة قد تمّ وانتهى، وأنّه لا رجعةَ فيه ولا تبديلَ ولا تغيير.

وهذا فيه زيادةُ اطمئنانٍ لموسى ﵇ بأنّه سيُسلّمُ لرجلٍ معصوم آتاه اللّهُ النّبوّة والرحمة، وهو مُتحقّقٌ بها، والمعنى: "أيْ: صارَ مرحومًا من قبلنا بتلكَ الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، فيكون الخَضِرُ بتلك الرحمة مرحومًا، ويكون بها راحمًا على عبادنا"[3].

بلاغة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة في ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾:

الرّحمةُ من العظيم لا تكونُ إلّا عظيمة

الضّمير (نا) في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يرجعُ إلى اللّه سبحانه، وقد جاءَ بصيغةِ الجمع ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أيْ: آتيناه بعظمتنا؛ ليُشعرَ بعظمةِ اللّه، ويُفيدَ التّأكيدَ على أهميّة المضمون، وهو عطاءُ الرّحمة، وبيان عظمته وهي النّبوّة؛ فعطاءُ العظيمِ لا يكون إلا عظيمًا.

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 543.
(2) الراغب، المُفردات، ص: 542.
(3) القُشيْريّ، لطائف الإشارات: 2/ 407.

المُراد بلفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ وغرض تنكيرها:

من فضلِ اللهِ على العبدِ الصّالح اختصاصُه برحمةِ اللهِ المُغدَقة

المُرادُ بالرحمة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ الوحيُ والنّبوّةُ كما يُشعِرُ به تنكيرُ الرّحمة لتعظيمها واختصاصها بجنابِ الكبرياء، ولكون الرّحمةِ جاءتْ في القرآن في مواضع عديدة بمعنى النّبوّة، منها: قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: 32]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ [القصص: 86].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ وسرُّ الإضافة في قوله ﴿عِندِنَا﴾:

في العنديَّة الإلهيّة قربُ تشريفٍ وتعظيمٍ بالانتسابِ إلى الله العظيم

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ ابتدائيّةٌ، و(عند) في حقيقته اسم مكان قريب، ويُستعملُ مجازًا في اختصاصِ المُضافِ إليه بموصوفها، والمعنى: آتيناه رحمةً صدرتْ من مكان القُرْب؛ أي: الشّرفِ، وهو قُربُ تشريفٍ بالانتسابِ إلى الله، وذلك أنّ ما أوتيه من الولايةِ أو النّبوّة رحمةٌ عزيزة، فكأنّها ممّا يُدّخر عند الله في مكان القُرْبِ التّشريفيّ من الله، فلا يُعطى إلا للمُصطَفيْن[1]؛ أي إنّها رحمةٌ ممّا لم يجرِ على قوانينِ العادات، غير أنّه ليس بمستغربٍ عند أهلِ الاصطفاء، وهذا يتوافقُ مع عادةِ القرآنِ في استعمالِ الرّحمةِ مع العنديّة ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾؛ إذ هي خاصّة لا يستعملها إلّا مع المؤمنين، كما في هذه الآية، وفي قوله كذلك في حقّ نوح عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28]، وقوله في حقّ أيوب: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 84]، بخلاف قوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [يس: 44]؛ فهي عامّة يستعملها مع المؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.

﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾ [يس: 43 - 44]، وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [فصلت: 50].

وفي إضافة (عند) لضميرِ العظمة (نا) ﴿عِندِنَا﴾ إفادةُ تعظيمِ هذه الرحمةِ الصادرةِ من العظيم سبحانه.

سرُّ العطف بالواو في جملة ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾:

صفاتُ العبدِ الصّالحِ العالِمِ الّذي يستحقُّ الاتّباع

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ على قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾؛ لأنّه عطاءٌ آخر خصَّ اللّهُ به الخَضِرَ عليه السلام، فقد آتاه اللّهُ الرّحمةَ (النّبوّة) وعلّمه علمَ الغيوب، وفي هذا العطفِ مزيدُ تشريفٍ وتكريم له، حيث أوتي العلمَ إضافةً إلى النّبوّة؛ فاستحقَّ بذلك أنْ يكون مُعلِّمًا، وأنْ يطلبَ منه موسى عليه السلام أنْ يتّبعهُ ليتعلّمَ من هذا العلم الذي علّمه اللّه إيّاه.

بلاغة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة في ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾:

إسنادُ علمِ الخَضِرِ إلى عظمةِ اللهِ مُشْعرٌ بعظمةِ العِلْمِ

الضّمير (نا) الذي جاءَ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ يرجعُ إلى اللّه تعالى؛ ليُشعرَ بعظمةِ اللّه؛ أيَ: علّمناه بعظمتنا، بما يُفيد التّأكيدَ على أهميّةِ هذا المضمون؛ وهو اختصاصُ الخَضِرِ بعلمٍ غيبيٍّ لا يعلمه موسى، كما يُفيد المبالغةَ في التّنبيه والاهتمام بهذا العلمِ وتعظيمه؛ إذ هو من العظيم سبحانه، وهذا فيه تعليلٌ لاتّباعِ موسى له وتعلّمه منه، وطمئنةٌ لموسى حتى يُسلّمَ له مهما رأى من غرائبَ تخالفُ ظاهرَ الشّرع.

معنى ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ في سياق الآية الكريمة:

ما أُعطيه الخَضِرُ من العلم اللّدنّي لا يُعطى إلّا للمصطفين الأخيار

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ ابتدائيةٌ، و(لدن) حقيقته اسمُ مكانٍ قريب، ويُستعملُ مجازًا في اختصاصِ المُضافِ إليه بموصوفها، وإلّا فالظرفيّةُ الحقيقيةُ مستحيلةٌ في جانب الباري تعالى[1].

(1) السّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 20.

والمعنى: علّمناه علمًا صدرَ من مكانِ القُرْب؛ أيِ: الشرف؛ وهو قربُ تشريفٍ بالانتسابِ إلى اللّه، وذلك أنّ ما أُعطيه من العلمِ اللّدنّي علمٌ عزيز، فكأنّه ممّا يُدّخر عند اللّه في مكانِ القُرب التّشريفيّ من اللّه فلا يُعطى إلّا للمُصطَفيْن، إذ هو الإعلامُ بطريقِ الوحي[1].

وقد وردتْ كلمةُ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ في القرآن في سبعَ عشرة آية؛ كلّها جاءتْ في سياقِ الرّحمة، واللّين، والهبةِ، والإيتاءِ، والعطاءِ الخاصّ.

سرّ (عند) مع الرّحمة و(لدن) مع العلم في الآية:

العلمُ اللّدنّي أشرفُ الأشياءِ أتى معه بالظّرفِ الأخصِّ تنبيهًا على شَرَفِه

(عند) و(لدن) كلاهما حقيقته اسم مكان قريب، ويدلّ استعمالهما في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، على قُربِ تشريفٍ للخَضِرِ بالانتسابِ إلى اللّه، ولكنْ في استعمالِ (عند) مع إيتاءِ الرّحمة و(لدن) مع إعطاءِ العلم حِكَمٌ؛ منها: أنّ (لدن) أقربُ من (عند)، تقول: عندي إبلٌ؛ لكن لا تقول: لدُنّي إبلٌ، فالفرقُ بين (عند) و(لدن) هو في مسافة القُرب من المُتكلِّم، كما أنّ (لدن) يستدعي حضورًا[2]، "وقال بعضهم: إنّ (عند) في لسان العرب لما ظهر، و(لدن) لما بطن، فيكون المُرادُ بالرحمة ما ظهر من كراماته، وبالعلم الباطن الخَفيِّ المعلوم قطعًا بأنّه خاصٌ"[3]، ولهذا لَمّا كان العلمُ المقصودُ هنا هو علمٌ لَدُنّيٌ غيبيٌّ خاصٌّ باللّه تعالى، وقد اختصّ به العبدَ الصالح دون موسى؛ إذْ أوحاه إليه وعلَّمه إيّاه، عبَّر معه بـ (لدن)، ولَمّا كان العلمُ هذا أشرفَ الأشياءِ؛ أتى معه بالظّرفِ الأخصّ تنبيهًا على شَرَفِه[4]، ولهذه الخصوصيّة ذاتها قدّمه على المفعول به في الآية ﴿عِلۡمٗا﴾ خلافًا لأصلِ نظم الجملة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 20.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 633.
(4) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 20.

بينما الرحمة في الآية سواء أكانت بمعنى النبوّة أم الرحمة العامة؛ فإنّها ليستْ خاصّةً بالخَضِر، بل يدخل فيها موسى وغيره من الأنبياء أو البشر.

ومن حِكَم المخالفة أيضًا بين ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ وبين ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ التّفنّن تفاديًا من إعادةِ الكلمة[1].

سرّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ على المفعول به ﴿عِلۡمٗا﴾:

في التّقديمِ بيانٌ لاختصاصِ هذا العلمِ باللهِ؛ فلا يتيسّر إلّا لمَن منحهُ إيّاه

قدّم البيانُ الإلهيّ الجارّ والمجرور ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، والمعنى: وعلّمناه من لدُنّا لا من لدن غيرنا علمًا خاصًّا، لا يتيسّر إلا لِمَن نريدُ تيسيره ومنحه له[2]؛ أيْ: علمًا "ممّا يختصّ بنا، ولا يُعلم بواسطة معلّم من أهلِ الظّاهر"[3]، ولمناسبةِ معنى (لدن) في اللّغة التي تفيدُ زيادةَ القُربِ، والمقصودُ هنا: القرب المعنويّ، ولزيادةِ تنبيه موسى للاهتمام بما يحمله الخَضِرُ من هذا العلم.

المُراد بالعلم وغرض تنكيره في قوله ﴿عِلۡمٗا﴾:

العلم اللّدنيُّ لا يدرك كُنهَهُ إلّا مَن فتح الله به عليه

العلمُ من لَدُن اللّه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ هو الإعلامُ بطريقِ الوحي، وهو العلمُ الخاصّ الذي لا يُعْلَمُ إلّا من جهته ﷻ؛ أيْ: علمُ الإخبارِ بالغيوبِ وأسرارِ العلوم الخفيّة، فقد ورد في الحديث عن ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنهما أنّ رسول اللّه ﷺ قال: "إنّ الخَضِرَ عليه السلام قال: يا موسى إنّي على علم من علم اللّه تعالى علّمَنيه لا تَعلمه أنت، وأنت على علمٍ من علم اللّه تعالى علّمَكه اللّهُ سبحانه لا أعلمُه"[4]، وأفاد تنكيرُ لفظة العلم هنا تعظيمَه وتفخيمَه؛ لأنّه علمٌ لَدُنّيٌّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 551.

(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 1114، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 529.

(4) البخاريُّ، صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف: 60]، رقم 4448.

التّأكيدُ على عِظمِ العِلمِ الّذي وهبه الله للخَضِر واختصه به

فائدةُ الجناس في ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ و﴿عِلۡمٗا﴾:

بين اللّفظيْن ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ و﴿عِلۡمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذْ يرجعُ اللّفظان إلى جَذرٍ لغويٍّ واحدٍ هو (علم)، إلّا أنّ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ الماضي، و﴿عِلۡمٗا﴾ أتى اسمًا، ممّا يعطي جمالية في السمعِ، ويُحقّقُ عذوبةً وترنّما يحملُ السامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخه في الذّهن، ويؤكّد على أهمّيّةِ العلمِ الذي وهبه اللّه للخَضِر واختصه به، وأنّه علمٌ عظيم؛ إذ هو العلم اللّدنّيّ.

تكامل النّبوّة والرّحمة ضروريٌّ لإبراز العِلم من لدن الله لصفوة البشر

سرُّ تقديم (الرّحمة) على (العلم):

قدّم البيانُ القرآنيُّ الرّحمة على العِلم في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، ولم يَقُل: (علّمناه من لَدُنّا علمًا وآتيناه رحمةً من عندنا)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو الرّحمة؛ إذ لا قيمةَ للعلم بدون الرحمة؛ لأنّه سيكونُ وبالًا على صاحبه وعلى الآخرين، ولأنّ أحدَ أسبابِ طلبِ العلم هو رحمةُ الإنسانِ بنفسه من أنْ يتركها فريسةً للجهلِ والشّيطانِ، ورحمته بالآخرين من أنْ يتركهم للجهلِ والضّعف.

واحتراسًا لما يأتي من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾، وقتْل الخَضِر للغلام يوهمُ اتّصافه بالغلظةِ والجفاءِ وعدمِ الرحمة، فاحترسَ من ذلك بأنّه متّصف بكمالِ الرحمة، وما فعلَ ذلك إلا بأمرٍ من اللّه، إمّا بوحيٍ إنْ كان نبيًّا على لسان المَلَك، أو بأنّها أمرٌ من اللّه تعالى إنْ كان وليًا[1].

وأيضًا إذا كان المقصودُ بالرحمة التي أُتيها النبوّة ففي تقديمها إشارةٌ إلى أنّ النّبوّة اصطفاءٌ من اللّه وليستْ كسبيّةً نتيجةَ العلم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 95.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: 113].

سرُّ التّعبير بالإيتاءِ مع الرَّحمة، وبالعلم مع العلم:

النبوّةُ اصطفاءٌ ومحضُ تفضُّلٍ مـن اللـهِ، والـعـلـمُ تعلّم ومِراس

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالإيتاء في جانب الرَّحمة فقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾، وبالعلم في جانب العلم فقال: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾؛ لأنّ النّبوّة - على تفسير الرّحمة بها - اصطفاءٌ من الله وليستْ كسبيّةً نتيجةَ العلم، ولا يدَ للبشرِ فيها، وإنّما هي محضُ تفضّلٍ من الله سبحانه، ولا تتوقّفُ على قبولِ النّبيّ لها، وهذا يناسبُ لفظ الإيتاء لغة؛ فإنّه لا مُطاوع له، فهو لا يتوقّف على قبول[1]، بينما العلمُ يناسبه لفظُ التعلّم؛ لأنّ العلمَ يحتاجُ إلى مُعلِّم، وله مطاوع، يُقال: علّمتُه فتعلّم، ويحتاجُ إلى سعيٍ وتعلُّم، ولذلك حضّ الشارعُ على العلمِ؛ ولم يحضّ على النّبوّة، قال ﷺ: "وإنّما العلم بالتّعلّم"[2].

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾:

الاسـتـئـنـافُ البـيـانيّ يحملُ طـلـب مـوسى اتّباعَ الخَضِر

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لما بينهما من شبه كمال اتّصال؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشَأ من السّياقِ؛ وذلك أنّه بعد أنِ ارتدَّ موسى والفتى على آثارهما قصصًا، ووجدا العبد الصالح كأنَّه قيل: فماذا جَرى بينَهما مِن الكلامِ؟ فقيل: قال له موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾[3].

ولكونِ الآيةِ جارية على طريقةِ المُحاوَراتِ، وهي ابتداءُ محاورة[4]؛ أيّ إنَّ قولَ موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ ابتداءُ حوارٍ مع الخَضِر عليه السلام، الذي أجابه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، ولذا لم يعطفْ

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(2) أخرجه البخاري مُعلّقًا بصيغة الجزم قبل حديث (68) كتاب: العلم، باب: العلم قبل القول والعمل.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.

بالفاءِ أو الواو؛ كراهيةَ تكريرِ العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ(1).

إيجاز الحذف في جملة ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾:

قيمة جماليّة سرد القصّة بالتّركيز على المَشاهِدِ البارزة فيها

في الكلامِ محذوفٌ تقديرُه: (فلَمّا التَقيا وتَراجَعا الكلامَ) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾(2)، وهذا الحذفُ للإيجازِ الذي تتميّزُ به القصّةُ القرآنية في عدمِ ذِكْرِ التّفصيلات إلا لفائدة؛ وذلك للتركيزِ على المشاهدِ البارزةِ في القصّة، وترك ما بينهما من فجواتٍ تدلُّ عليها روابطُ بدهية؛ ليُفْسَحَ المجالُ للخيالِ حتى يملأها بما يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة كانتْ ستضعفُ لو شُغلَ الذّهنُ بعرضِ تلك الفجوات(3).

فائدة التّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾:

القولُ حدث في الزّمن الماضي ولم يتكرّرْ

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ فعلَ القولِ المُتضمّنِ طلبَ الاتّباعِ قد وقَعَ من موسى؛ إذ هو حكايةٌ عن أحداثٍ مضتْ، وللإشارةِ إلى أنّ هذا القول ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ لم يتكرّر من موسى، ولمناسبةِ صيغة الفعلِ الماضي التي تكرّرت في السياق: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ﴾.

معنى اللّام ومرجع الضّمير في قوله ﴿لَهُۥ﴾:

في اللّامِ تبليغُ موسى للخَضِرِ بإرادةِ اتّباعه طلبًا لعلمِهِ

اللامُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ لامُ التّبليغ، لكونها جارّة لاسم السامع، وهي هنا ضميرٌ يعودُ على العبدِ الصالح، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطبِ بالقول؛ أيْ: بلّغ موسى الخَضِر بأنَّهُ يريد اتّباعه ليتعلّم منه ممّا عُلِّم رُشدًا.

وفي التّعبيرِ بالضميرِ وعدمِ التّصريح باسم العبد الصالح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 401.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 205.

(3) البغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.

اختصارٌ في الكلام؛ إذ قد سبقَ ذِكْره في الآية السابقة ﴿عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾؛ وتفخيمٌ لشأنِ الخَضِر.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في السّياق:

اهتمام موسى بالعبدِ الصّالحِ لأنّه سيتّبعه ليتعلّم منه

قدّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على الفاعل، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (قال موسى له)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم (وهو العبد الصالح)؛ إذ التركيزُ في سياقِ الكلام عليه؛ لأنَّه سيكون معلّمًا لرسولٍ من أولي العزم، ولإفادةِ الاختصاص؛ أيْ: خَصَّ موسى الخَضِرَ دون غيره بطلبِ اتّباعه للتعلّم منه.

المُراد بالاستفهام من قوله ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾:

الاستفهامُ بيانُ إرادةِ الاتّباعِ في أبلغِ أدبٍ ولطفٍ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ مُستعمَلٌ في العَرْضِ؛ بقَرينةِ أنَّه استِفْهامٌ عن عمَلِ نفسِ المُستفهِم[1]، وهو بذلك سؤالُ تلطّفٍ، لا على وجه الإلزام والإجبارِ، وإنّما استئذانٌ منه في اتّباعه له على وجه التعلّم[2]، وهكذا ينبغي أنْ يكون سؤالُ المُتعلّم من العالم[3]، وفيه دلالةٌ على مبالغةٍ عظيمةٍ في تواضعِ موسى عليه السلام؛ إذ إنّه استأذنَ في إثباتِ التّبعيّةِ للخَضِر؛ فكأنّه قال: هل تأذنُ لي أنْ أجعلَ نفسي تبعًا لك؟[4]، ولم يُرِدْ أنْ يظهرَ بمظهرِ المقحم لنفسه المتهجّم بها[5]، وهذا هو اللائقُ به؛ لأنَّ كلَّ من كانتْ إحاطته بالعلوم أكثرَ كان علْمُه بما فيها من البهجة والسّعادة أكثر، فكان طلبه لها أشدّ، وكان تعظيمه لأربابِ العلمِ أكملَ وأشدّ[6]، وإذا كان هذا حالَ موسى عليه السلام - وهو من أولي العزم الذي كلّمه اللّه جل جلاله من غير واسطةٍ وخصّه بالمعجزات القاهرة الباهرة - فكيف يكون حالُ عمومِ الناس؟!

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 234.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 94.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4559.
(6) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 484.

بلاغة استعمال لفظ الاتِّباع في ﴿أَتَّبِعُكَ﴾:

المتعلّمُ تبعٌ للعالِم وإنْ تفاوتتِ المراتب

عبّر البيانُ القرآنيّ بالفعل ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، ولم يَقُلْ: (هل أصحبك)، وإنْ كان الاتِّباع هنا مجازًا في المصاحبة[1]؛ لمناسبة لفظ الاتّباع للسّياق والمقام؛ إذ أصلُ مادّة (تبع) في اللّغة التُّلُوُّ والقَفْوُ[2]، وتَبِعَ القومَ: مشى خلفهم، وتَبِعَ فلانًا: لحقه، أو تلاه، وسارَ في إثْرِه واقتفاهُ[3]، وهذا يناسبُ سياقَ الآيات التي وعدَ فيها موسى أنْ يتّبِعَ الخَضِرَ ولا يعصي له أمرًا، قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾، ويناسبُ المقام؛ فالرّحلةُ كلُّها بما تضمّنته من حرصِ موسى على لقاءِ الخَضِر ولو سار أزمنة كثيرة، ومن بحثه وجهده وتعبه وسرعةِ ارتداده لَمّا ظهرتْ له أمارةُ اللقاءِ هي رحلةٌ متابعةٍ من موسى للخَضِر طلبًا لعلمه؛ لأنّ "مَن يتعلّم من آخر علمًا فإنّه يتّبعه حيث يذهب هو في حوائجه، لا يُؤمر بالمقامِ حيث يُقيم المتعلّم"[4].

ولِما في هذا التّعبير من مراعاةٍ للُّطفِ والأدبِ والتّواضعِ من موسى عليه السلام؛ بأنْ جعلَ نفسه تبعًا للخَضِر[5]، ومن دلالةٍ على شدّةِ حرصِ موسى على التّعلّم، أو المبالغة في الاتّباع والاجتهاد؛ لأنّ المتابعة عبارةٌ عن الإتيانِ بمثْلِ فعْل الغيرِ لمجرّد كونه آتيًا به، والمعنى: أتّبعكَ اتّباعًا بليغًا حيث توجّهتَ[6]، وهذا يدلُّ على أنّ المُتعلّمَ يجبُ عليه في أوّل الأمرِ التّسليم للمُعلّم وترك المنازعةِ والاعتراض[7]، وعلى هذا فالاتّباع مَجازٌ عن الطّاعة على سبيل الاستعارة التّصريحيّة بجامع الملازمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، ومعجم اللغة العربية المعاصرة: (تبع).
(4) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 195.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 107.
(7) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.

معنى حرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في السّياق:

إبرازُ رغبةِ موسى في التّمكّنِ من اتّباعِ الخَضِرِ للتّعلّم

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ مُستعمَلَةٌ في معنى الاشْتِراط؛ لأنَّهُ استِعلاءٌ مَجازيٌّ، جعل الاتِّباع كأنَّه مُستعمَلٌ فوقَ التَّعليم؛ لشِدَّةِ المقارَنةِ بينَهما، فصيغَةُ: أَفْعَلُ كذا على كذا، من صيَغِ الالتزام والتَّعاقُدِ[1]، وهذا يدلّ على أهميّة المتابعة وإلزام النفس بها؛ إذ بدونها لا يُستفاد من العلم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنّ حقّ المعلّم على المتعلّم اتّباعُه والاقتداءُ به[2]، ويُؤخذُ من الآيةِ جوازُ التعاقد على تعليمِ القرآن والعلم، وفيه أنّه التزامٌ يجبُ الوفاء به[3].

نكتةُ تقديمِ إثبات الاتّباع على طلب التّعليم:

أهميّة المتابعةِ المُنيفة لمَن أرادَ أنْ يترقّى في درجات العلم الشّريفة

قدّم البيانُ القرآنيُّ إثباتَ الاتّباع على طلبِ التّعليم في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾، ولم يَقُلْ: (هل تُعلّمني على أنْ أتبعك؟)؛ أي بدأ موسى بطلبِ أنْ يكون تبعًا للخَضِرِ أوّلًا، ثم طلبَ ثانيًا أنْ يُعلّمه[4]، لأنّ المتابعةَ هي من مُقدّماتِ السلوكِ في طريقِ العلمِ، وأحدِ أسبابِ تحصيله، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهميّة المتابعةِ والملازمةِ والثّباتِ لمَن أرادَ أنْ يترقّى في درجاتِ العلم.

سِرُّ مجيء ﴿أَن﴾ في قوله ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾:

إذا كان الغرضُ من المتابعةِ العلمَ وحده كان النّفع حاصلًا وأكيدًا

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ حرفٌ مصدريٌ يُفيدُ التّوكيدَ؛ والمصدرُ المُؤوّل في محلّ جرٍ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾، تقديره: "تعليمي"، والمعنى: هل أتّبعك على شرطِ تعليمي ممّا عُلمتَ رشدًا؟ أيْ: ليس له غرضٌ آخر غيرَ طلبِ العِلْم، وفي هذا دلالةٌ على صدقِ طلبه وإخلاصه فيه؛ فإنّه لم يطلبْ في تلك المتابعةِ شيئًا سوى التعليم، كأنّه قال: لا أطلبُ منك على هذه المتابعةِ المالَ والجاهَ، ولا غرضَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 370.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 370.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 484.

لي إلا طلب العلم[1]، وكذلك للإشارةِ إلى تواضعِ موسى في طلبه؛ بأنّ طلبَ مجرّد حدوثِ العِلْم لا أنْ يأخذَ عينَ عِلْمه؛ لأنّ الأصلَ في مصدر ﴿أَن﴾ أنْ يكونَ لإرادةِ مجرّد الحدثِ وهو التعلّم هنا، وليس حدثًا مخصوصًا كما يُفيدُ مصدر (ما).

معنى ﴿مِمَّا﴾ وبيان تركيبها في السّياق:

طَلَبُ موسى الأخذَ عن الخَضِر مُشعِرٌ بالتّواضعِ والتّلطّفِ في السّؤال

تركيبُ ﴿مِمَّا﴾ هو: مِنْ ما، و(من) إمّا ابتدائيّةٌ[2]؛ والمعنى: تُعلّمني من المعلوم ذي الرّشدِ الذي علَّمكه اللّهُ، أو: للتّبعيض؛ والمعنى: أنّ موسى عليه السلام طلبَ من الخَضِر تعليمَه بعضَ ما علّمه اللّه، وهذا مُشعرٌ بالتّواضع؛ كأنّه يقول له: لا أطلبُ منكَ أنْ تجعلني مُساويًا لك في العلم، ولذا لم يَقُلْ: (على أنْ تُعلّمن ما عُلِّمت)؛ بل أطلبُ منك أنْ تُعطيني جزءًا من أجزاءِ علمكَ، كما يطلبُ الفقير من الغنيِّ أنْ يدفعَ إليه جزءًا من أجزاءِ ماله[3].

وفيها كذلك زيادةُ تلطّفِ موسى عليه السلام في سؤاله بالإشارةِ إلى أنَّه لا يطلبُ جميعَ ما عنده ليطولَ عليه الزمان؛ بل طلب جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه[4].

وأمّا (ما) فهي اسم موصول بمعنى (الذي)، يدلّ على العلم الذي علّمه اللّهُ للخَضِرِ وخصّه به، وفي هذا دلالةٌ على أنّ موسى طلبَ منه أنْ يعامله بمثلِ ما عامله اللّه به، وأنْ يكونَ إنعامه عليه عند هذا التّعليم شبيهًا بإنعامِ اللّه تعالى على الخَضِر في هذا التعليم[5]، كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 484، والصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالَيْن، ص: 1115.

(2) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 128.

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.

(4) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 108.

(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.

سرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِمَّا﴾ على ﴿رُشۡدٗا﴾:

الاهتمامُ بالعِلْمِ الّذي خُصَّ به الخَضِرُ وتفخيمُ شأنه

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿مِمَّا﴾ على المفعولِ الثاني ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾، ولم يَقُلْ: (تعلمن رشدًا ممّا عُلِّمت)؛ لمزيدِ اهتمامِ موسى بهذا العِلْم الذي علَّمه اللّه للخَضِرِ والعنايةِ به، وتفخيم شأنه؛ لأنّ موسى عليه السلام حريصٌ على هذا العِلْم، ويعلمُ أنّه سيكونُ رُشدًا.

سرُّ بناء الفعل ﴿عُلِّمۡتَ﴾ للمفعول:

من كمالِ أدبِ موسى نسبةُ العِلْمِ إلى صاحبِ العلمِ المُطْلَق

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿عُلِّمۡتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾، ولم يَقُلْ: (مِمّا عَلِمتَ)؛ لأنّ الفاعل معلومٌ وهو اللّه سبحانه[1]؛ إذ لا أحدَ يملكُ هذا العِلم إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: 65]، وهذا يشيرُ إلى سهولةِ كلّ أمرٍ على اللّه جل جلاله[2]، ولأنّ المجهول في اللفظِ معلومٌ في الحقيقة، فقد سبق قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[3]، كما أنّ في هذا التعبير زيادةُ أدبٍ مع اللّه سبحانه، باعترافِ وإقرارِ موسى عليه السلام بأنّ اللّهَ هو صاحبُ هذا العِلْم الغيبيّ، وأنَّه هو الذي علّمه للخَضِر[4]، فأدبُ موسى عليه السلام مع مَنْ يتعلّم منه لم يُنْسه أدبه مع اللّه سبحانه.

المُراد بـ ﴿رُشۡدٗا﴾ وإعرابها:

في تعدّدِ إعرابِ اللّفظ ثراءٌ في المعنى وتلوّنٌ في الدّلالة

يحتمل أنْ يكون الرُّشْدُ راجعًا إلى الخَضِرِ؛ والمعنى: أيْ: ممّا عَلَّمَكَ اللّهُ وأرشدك به، أو أنْ يرجع ذلك إلى موسى، ويكون المعنى على أنْ تُعَلّمني وتُرشدني ممّا عُلِّمتَ[5].

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 108.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 108.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4559.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.

وإعرابُ ﴿رُشۡدٗا﴾: إمّا مفعولٌ به لـ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، أو علةٌ لـ (أتّبعُك)؛ أيِّ: مفعولٌ لأجله؛ أيِّ: لأجلِ الرّشاد، أو مصدرٌ بإضمارِ فعله في موضعِ نصبٍ على الحال(1).

وهذا العِلمُ الذي سألَ موسى تعلّمه هو من العلم النافعِ الذي لا يتعلّق بالتشريع للأمّة الإسرائيليّة، فإنّ موسى مُستغنٍ في علم التشريع عن الازديادِ إلّا من وحي اللّه إليه مباشرة، واللّه أرسله لذلك، وإنّما رامَ موسى أن يعلم شيئًا من العلم الذي خصَّ اللّه به الخَضِر؛ لأنَّ الازديادَ من العلوم النافعةِ هو مِنَ الخير، وهذا العلمُ الذي أوتيه الخَضِرُ هو علمُ سياسةٍ خاصَّةٍ غيرِ عامَّةٍ تتعلّق بمُعَيَّنين لجلبِ مصلحةٍ أو دفعِ مفسدةٍ بحسبِ ما تهيّئه الحوادثُ والأكوان، لا بحَسَبِ ما يُناسِبُ المصلحة العامَّةَ والتّشريع(2).

سرّ التّعبير والتّنكير للفظ ﴿رُشۡدٗا﴾:

العِلمُ المطلوب هو علمُ الهدايةِ إلى الطّريقِ الأَسَدِّ لا مطلق الهداية

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿رُشۡدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ دون غيره، فلم يَقُلْ مثلًا: (مما عُلِّمتَ علمًا أو هُدىً)؛ لكونه أوسعَ دلالةً من الهُدَى؛ فهو ليس مُجرّدَ هدايةٍ؛ إنّما هو هدايةٌ واستقامة(3)، وثباتٌ على الطّريقِ الحقِّ مع تصلّبٍ فيه(4)، يُقال: الرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد: الهدايةُ والاستقامة؛ أيِّ: فالرّشدُ هدايةٌ إلى الطريقِ الأَسَدِّ الصحيحِ الصائبِ الأَقْصَد، لا مطلق الهداية إلى طريقٍ ما، أمّا الهداية في أصلها فهي الدلالةُ المطلقة(5).

ولكونه أنسبَ للمقام؛ سواء لحالِ موسى عليه السلام؛ فهو لم يطلبْ مجرّدَ البيانِ والدّلالة على الحقِّ، الذي هو معنى الهداية في اللغة(6)؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 234، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 631.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 371.
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 2/ 93.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (رشد).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدى).

وإنمّا طلبَ إصابةَ عينِ الصواب، والصَّلاحَ في الأمر، وكونه على الوجه الصحيح، والاستقامةَ على الطريقِ الحقِّ، وهذه هي المعاني اللّغويّة للرّشد[1]، أو سواء للعلمِ الذي سيتعلّمه؛ وهو العلم اللّدنّيّ المُختصّ بعلمِ حقائق الأشياء وبواطنها.

وجاء التعبيرِ بلفظ ﴿رُشۡدٗا﴾ نكرة ليشمل العلمَ وثمرته ومقصده الصحيح، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ العلمَ النافعَ هو العلمُ المُرشِد إلى الخير؛ فكلّ علم يكون فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطرقِ الخير، وتحذيرٌ عن طريقِ الشّرِّ أو وسيلة لذلك؛ فإنّه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإمّا أنْ يكونَ ضارًّا، أو ليس فيه فائدة[2]؛ أيّ لو لم يحصلْ له في العلم الهداية والإرشاد لكان في الغواية والضلال[3]، وأفاد تنكير الرُّشدِ التّعظيمَ والتّفخيمَ لشأنه.

توجيهُ القراءات الواردة في قوله ﴿رُشۡدٗا﴾:

التّسكينُ لمناسبةِ السّياقِ القريب، والفتحُ إلحاقًا بالنّظير

قرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿رَشَدٗا﴾ بفتح الرّاء والشّين، والباقون ﴿رُشۡدٗا﴾ بضم الرّاء وتسكين الشّين[4]، وجمهور أهلِ اللّغة على أنّهما لغتان في معنىً واحد، كالبُخْلِ والبَخَلِ، والسُّقْمِ والسَّقَمِ[5]، والرُّشْد والرَّشَد: خلافُ الغَيِّ، ونقيضُ الضّلال[6].

قال ابن الجزري: "ويرى الإمامُ أبو عمرو ابن العلاء أنّ الرُّشْد بالضّمّ هو الصلاحُ، والرَّشَد بالفتح هو العِلْم، وموسى عليه السلام إنَّما طَلَبَ منَ الخَضِر عليه السلام العِلْمَ، وهذا في غايَة الحُسن، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النساء: 6]كيفَ أُجْمِعَ على ضمّه؟

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد) وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (رشد).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 484.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.
(4) ابن الجزري، النّشر، تح: سويد: 4/ 2441.
(5) ابن جُزَيّ، التسهيل: 1/ 471.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).

وقوله ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10] و﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكهف: 24] كيف أجمع على فتحه؟" ويرى ابن الجَزَريّ أنّ قراءة الفتح ﴿رَشَدًا﴾ جاءت لمناسبةِ رؤوسِ الآي وموازنتها لما قَبْلُ ولما بَعْدُ، نحو: ﴿عَجَبًا﴾، ﴿عَدَدًا﴾، ﴿أَحَدًا﴾، ﴿سَرَبًا﴾، ﴿سَبَبًا﴾، وأنّ قراءةَ ضمّ الرّاء وتسكين الشّين ﴿رُشْدًا﴾ جاءت لمناسبةِ ما وقعَ قبلها وبعدها من: ﴿عِلْمًا﴾، ﴿صَبْرًا﴾، ﴿خُبْرًا﴾، ﴿أَمْرًا﴾: أيْ: مَن سكّنَ فلِمناسبةِ السّياق، ومَن فتحَ فإلحاقًا بالنّظير[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العبد والرّجل:

كلُّ رجلٍ هو عبدٌ من عبادِ الله، وليس كلُّ عبدٍ رجلًا

هناك فرقٌ بين العبدِ والرّجل؛ إذ بينهما عمومٌ وخصوص، فالعبدُ عامّ والرّجل خاصٌّ، فكلُّ رجلٍ هو عبدٌ من عباد الله، ولكن ليس كلُّ عبدٍ رجلًا، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ (عبد) يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[2]، وعَرّف اللغويّون العبدَ بأنّه الإنسان، حُرًّا كان أو رَقيقًا، يُذهَبُ بذلك إلى أنّه مَرْبوبٌ لباريه ﷻ، والعبدُ يُطلقُ أيضًا على المملوك، وهو خلافُ الحُرّ، والجمعُ (عبيد)، وأصلُ العُبوديَّةِ الخضوعُ والذّلُّ[3].

والرَّجُلُ خلافُ المرأة، وهو مختصٌّ بالذَّكَرِ من بني آدم[4]، ولا يُسمَّى الإنسانُ رجلًا إلّا إذا احتلم وشَبَّ[5]، وقد يكونُ الرَّجُلُ صِفَة، يَعْني به الشِّدَّةَ والكَمال[6]، وقيل: إنّه اسْمٌ مَأخوذٌ من القوَّة، ولهذا يُقال في مدحِ الإنسان إنّه رجلٌ[7].

(1) ابن الجزري، النّشر، تح: سويد: 4/ 2442.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رجل).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 41.
(6) ابن سيدَه، المُحكَم: (رجل).
(7) ابن الجَوْزيّ، نزهة الأعيُنِ النّواظر، ص: 326.

الرّحمةُ والشَّفقة:

يتقارب لفظا (الرّحمة) و(الشّفقة) في دلالتهما اللّغويّة؛ إذ يشتركان في معنى الرّقّة، وقد يُستعمل أحدهما موضع الآخر، ومع هذا التقارب فإنّ لكلِّ لفظٍ ما يُميِّزه، ويتّضح ذلك من خلال الآتي:

الرَّحمَةُ عَطْفٌ ورأفةٌ وإحسانٌ ومَغفِرَة، والشَّفقةُ رِقَّةٌ وعنايةٌ ونُصْحٌ مع خوفٍ وحُبٍّ

أصلُ (رحم) يدلّ على الرّقةِ والعطفِ والرأفةِ[1]، والرَّحْمَةُ في بَني آدَمَ رِقَّةُ القَلْبِ وعَطْفُهُ، ورَحْمَةُ اللّه عَطْفُه وإِحسانه ورِزْقُه، والرَّحْمَةُ المَغْفِرَةُ[2].

وأصلُ (شفق) يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ[3]، والشَّفقةُ: رِقَّة مِنْ نُصْحٍ أَوْ حُبّ يؤدّي إِلَى خَوْفٍ، تَقولُ: أَنا مُشْفِق عليْكَ أَيْ أَخاف، وأَشْفَقَ عليْهِ: حَذِرَ، وأَشْفَقَ مِنْهُ: جَزِع[4]، وليَ عليه شفقة: أي رحمة ورقّة وخوف من حلولِ المكروه به مع نصحٍ[5]، فالإشفاقُ عِنايَةٌ مخْتَلِطَةٌ بخَوْفٍ؛ لأَنَّ المُشْفِقَ يُحبُّ المُشْفَقَ عليه، ويخافُ ما يلحقه[6].

إذن، تتميّزُ الرحمةُ بمعنى الرقّة والعطف والرأفة والإحسان والإنعام والمغفرة للمرحوم، بينما تتميّز الشفقةُ بمعنى الرقَّة والعناية المختلطة بالخوف والنصح، ودافعه حبّ المُشْفِقِ للمُشْفَقِ عليه.

الرّشد والهدى:

يوجدُ تقاربٌ كبير بين لفظي (الرّشد) و(الهدى)، ويُستعمل أحدُهما استعمالَ الآخر[7]، ويُعرّف أحدهما بالآخر، ومع هذا التقارب توجد بعض الملامح الدلاليّة التي يتميّز بها كلٌّ منهما عن الآخر، وذلك على النحو الآتي:

الرّشدُ صلاحُ الأمرِ والهدايةُ إلى الطّريقِ المستقيم، والهدى بيانٌ ودلالةٌ بلطفٍ على المطلوب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شفق).
(6) الراغب، المفردات: (شفق).
(7) الراغب، المفردات، ص: 354.

الرّشد: أصلُ (رشد) يدلّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغَيِّ[1]، وهو نقيضُ الضّلال، وأَرْشَدَه اللّهُ إلى الأمر: هداهُ، والرُشْد هو صلاحُ الأمرِ وكونه على الوجه الصحيح، وهو استقامةٌ على الطريق الحقّ مع تصلُّبٍ فيه[2]، فهو إصابةُ الصّواب[3]، وقيل: الرُّشد والرَّشد والرّشاد: الهدايةُ والاستقامة[4].

والهدى خِلافُ الضَّلالَةِ، وأصله هو التَّقَدُّمُ للْإِرْشادِ[5]، والهدايةُ: الرّشادُ والدّلالةُ بلطفٍ إلى ما يوصلُ إلى المطلوب، وهَداهُ الطريقَ: أرشدَه وعرّفه، وهَداهُ لهُ: دلّه عليه وبيّنه له، فالهُدى: البيان[6]، والهدى والهداية في اللّغة واحد، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريقِ الاختيار، إمّا في الأمور الدُّنيويّة، أو الأُخرويّة[7].

إذن، يتميّزُ الرّشدُ بمعنى الصّلاح والدّلالة والهداية إلى الطريقِ الحقِّ مع تصلُّبٍ فيه، فالرّشد: إصابةُ الخير، ولا يكون إلّا إلى الشّيءِ المحبوب، بينما تتميّز الهداية: بمعنى الإرشاد والبيان، والدّلالة بلطفٍ إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغايةِ المَرجوّة.

والحاصلُ أنَّ الرُّشد أخصُّ من الهُدى، فالرّشدُ هدايةٌ إلى الطريق الأَسَدِّ الصحيح الصائبِ الأقصد، لا مطلقَ الهداية إلى طريقٍ ما، أمّا الهداية في أصلها؛ فهي الدلالةُ المُطلَقة[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (رشد).
(4) السّمين الحلبيّ، عُمدةُ الحُفّاظ: 2/ 93.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (هدى).
(7) الراغب، المُفردات، ص: 839.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (رشد).

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 67 - 68]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

الرّبطُ بين التماسِ موسى الاتباعَ والتّعلّمَ وتأكيد الخَضِر على صعوبة المسار

مع شدّةِ حرصِ سيدنا موسى عليه السلام على اللقاء بالخضر، وكلّ هذا التلطّف والتواضع الذي أظهره، وأنواعِ الأدبِ التي عبّر بها في قوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ فاجأه الخَضِرُ ممتحنًا عزمه وإصراره على المصاحبة والمتابعة، وعدم النفور والمنازعة، ومعتذرًا له عن ذلك؛ فقال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَبۡرٗا﴾: أصلُ (صبر): الحَبْسُ، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي على ذلك الأَمرِ؛ أَيْ: حَبَسْتَها[2]، والصَّبر: حَبْسُ النَّفْسِ عِنْدَ الجزَعِ[3]، والصَّبْرُ: الحبسُ والكفُّ والإمساكُ في ضيق[4]، وصَبَرَ صبرًا: تجلّد ولم يجزعْ وانتظرَ في هدوءٍ واطمئنان، وصبّر نفسه: حَبسها وضبطها[5]، ومعنى ﴿صَبۡرٗا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ.

2) ﴿خُبۡرٗا﴾: أصلُ (خبر): العلمُ بالشّيء، تَقولُ: لي بفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، واللّهُ تعالى الخبير؛ أي: العالمُ بكلّ شيء[6]، وخَبُرْتُ بالأَمر؛ أَيْ: عَلِمتَهُ، وخَبَرْتُ الأَمرَ أَخْبُرُهُ إِذا عَرَفْتَهُ على حَقيقَتِه[7]، والخُبْرُ: العلمُ بالأشياء المعلومة من جهةِ الخَبَر، وقيل الخِبْرَة: المعرفة ببواطنِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 373.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صبر).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (صبر).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (صبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خبر).

الأمر[1]، وقيل: الخُبْر، بالضَّمّ: العِلْمُ بالباطِن الخَفيِّ، لاحْتياج العِلْم به للاخْتبار، والخِبْرَةُ: العِلْمُ بالظّاهر والباطنِ، وقيلَ: بالخَفايا الباطِنَةِ ويَلْزَمُها معرِفةُ الأُمورِ الظّاهرة[2]، ومعنى ﴿خُبۡرٗا﴾ في الآية: عِلْمًا[3] من أمورٍ ستراها إنْ صحبتني، ظواهرها مناكيرُ، وبواطنها لم يُحطْ بها خبرك[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

امتحانُ الخَضِرِ عزمَ موسى في المتابعةِ، وتأكيد عدمِ استطاعته الصّبرَ عليها

يقول تعالى ذِكْرُه: قال العبدُ الصّالح لموسى: إنّك لن تطيقَ الصّبرَ معي، وذلك أنّي أعملُ بباطنِ علم علَّمنيه اللّه، ولا عِلمَ لك إلّا بظاهرٍ من الأمور، فلن تصبر على ما ترى من الأفعال، وكيف تصبرُ يا موسى على ما لا علمَ لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنتَ إنّما تحكمُ على صوابِ المُصيبِ وخطأ المُخطئ بالظّاهر الذي عندك، وبمبلغِ علمكَ، وأفعالي تقعُ بغيرِ دليلٍ ظاهرٍ لرأي عينكَ على صوابها؛ لأنّها تبتدئ لأسبابٍ تحدثُ آجلةً غير عاجلة، لا علمَ لك بالحادث عنها؛ لأنّها غيبٌ، ولا تحيطُ بعلم الغيبِ خبرًا؛ أيْ: عِلْمًا[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ عن سابقتها:

استئنافٌ بيانيٌّ يحملُ جوابًا مُؤكّدًا بعدمِ استطاعةِ موسى الصّبر

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ عن قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾؛ لكونها على طريقةِ المُحاوَراتِ، أيْ إنَّ قولَ الخَضِر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ﴾ جاء جوابًا على قولِ موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾[6]؛

(1) الراغب، المُفردات، ص: 273.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (خبر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372.
(4) القاسميّ، محاسن التأويل: 7/ 48.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 71.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 108.

أيْ فصَلَ الجوابَ، ولم يأتِ بالعاطف كراهيةَ تكريره بتكريرِ أفعال القول، أو لكونها استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ نشأ مِن الآية السّابقة، مفادُهُ: فماذا أجابَ الخَضِر على سؤال موسى؟ فقيل: قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

سرُّ التَّوكيدِ بـ﴿إِنَّكَ﴾، وبـ﴿لَن﴾ في السّياق:

جـوابُ الخَضِر لـموسى جـوابٌ جـازمٌ لما ألهمه الله من معرفة طبعه

أكّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ صبرِ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ بحرف (إنّ) وبِحَرْفِ (لَنْ)، وغرضُ هذا التّأكيدِ تحقيقُ مضمونها بعدم صبرِ موسى بسببِ تَوَقُّعِ ضيقِ ذَرْعِه عن قبولِ ما يُبديه الخَضِر له، ولِأنَّهُ علمَ أنّه ستصدرُ منه أفعالٌ ظاهرها المُنكرُ وباطنها المعروف، ولمّا كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم اللّهُ لإجراءِ الأحكام على الظاهرِ؛ علمَ الخَضِرُ أنّ موسى سيُنكرُ ما يُشاهده من تصرّفاتِ الخَضِر لاختلافِ المَشْرَبيْن؛ لأنّ الأنبياءَ لا يُقرّون المُنكرَ، وهذه فائدةُ الإضافة إلى موسى عليه السلام[1].

وفائدةُ هذه التّأكيدات تحذيرُ الخَضِرِ لموسى وتنبيهُه على ما يستقبله منه حتى يُقْدِمَ على متابعته على بصيرةٍ وعلى غيرِ اغترارٍ، وليس المقصودُ منه الإخبار، فمناطُ التأكيدات في جملة ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ إنّما هو تحقيقُ خطورةِ أعماله وغرابتها في المتعارفِ بحيث لا تتحمّل، ولو كان خبرًا على أصله لم يقبلْ فيه المراجعة، ولم يُجبْه موسى بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾[2].

ويُستنبطُ من هذا أصلٌ من أصولِ التّعليم، وهو أنْ يُنبِّه المُعلّمُ المتعَلّمَ بعوارضِ موضوعات العلوم المُلَقَّنَة؛ لا سيما إذا كانَتْ في معالجتها مَشَقّة[3]، وفيه أيضًا أنّ العالمَ إنْ رأى في التّغليظِ على المُتعلّم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372.

ما يُفيده نفعًا وإرشادًا إلى الخير؛ كان عليه ذِكْرُه، فإنّ السكوتَ عنه يوقعُ المتعلّم في الغرورِ والنّخوة، وذلك يمنعهُ من التّعلّم[1].

معنى حرف ﴿لَن﴾ في السّياق المُحكَم:

في (لـن) نفيُ حُصولِ الصّبرِ من موسى على آكَدِ وجْهٍ

﴿لَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ حرفُ نفيٍ لنفي المستقبلِ القريب والبعيد معًا، والمعنى: نفى الخَضِرُ استطاعةَ موسى الصبرَ معه على سبيلِ التأكيد[2]؛ أيْ إنّه لو تَجشَّم أنْ يَصبِرَ لم يَستطِعْ ذلك، وقد أفادتْ ﴿لَن﴾ مع ﴿إِنَّكَ﴾ وعموم الصبرِ المنفيَّ نفْيَ حُصولِ الصَّبرِ منه في المستقبَلِ على آكَدِ وجْهٍ[3].

سِرُّ التّعبيرِ بقوله ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ﴾:

التّعبيرُ بالاستطاعةِ أنسبُ للمقامِ والسّياق

الاستطاعةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ جاءتْ منفيّةً، والمعنى: إنّك لن تطيقَ أنْ تصبرَ على ما تراه من علمي؛ لأنّ الظواهرَ التي هي علمك لا توافق ذلك[4]، ولن تستطيعَ الصُّحبةَ والانقياد لما آمُرُ به في هذه الرِّحلة العلميّة.

ولذا فإنّ استعمالَ لفظِ الاستطاعة أنسبُ للمقامِ وللسّياق الذي صرّح به موسى في قوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ لأنّ أصلَ (طوع) يَدُلُّ على الإِصْحابِ والاِنْقيادِ[5]؛ أيْ إنّ الاِسْتِطاعَةَ انطباعُ الجوارحِ للفعل، وكذلك التهيّؤ لتنفيذِ الفعلِ بإرادةِ المختارِ من غيرِ عائق[6]، وهذا يناسبُ قولَ موسى - بعدَ نفي الاستطاعةِ عنه من الخَضِر - ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾، وليستْ مجرّد الطّاقة أو القدرة على الفعل.

(1) البِقاعي، نظم الدّرر: 12/ 109.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير: 7/ 205.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 299.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(6) الكَفَوي، الكُلّيّات: 1/ 108.

سرُّ التّعبيرِ بالمعيَّة في قوله ﴿مَعِيَ﴾:

نفاذُ صبرِ موسى مُقيّدٌ بصحبةِ الخَضِرِ لا بغيره لما يراه من غرائبه

قيّد البيانُ القرآنيُّ صبْرَ موسى عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ بالمعيَّة ﴿مَعِيَ﴾ وهي "ظرفُ مكانٍ مُتعلّق بحالٍ من الفاعل في ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾"[1]؛ أيْ لم يقلْ لموسى: (إنّك لن تستطيع صبرًا)؛ للدّلالة على أنّ نفاذَ صبرِ موسى مُقيَّدٌ بصحبةِ الخَضِرِ؛ أيْ: سينفذُ صبره ما دام في صحبته مهما حاولَ الصبر؛ لما سيجدُ من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره، فانتفاءُ الصبرِ على أعماله أجدر، ولو لم يُقيّد نفيُ الصبرِ عنده بالمعيّة لكان قدحًا في عصمةِ موسى؛ لأنّ الصبر من أهمّ سماتِ الأنبياء.

المُراد بالصَّبر في قوله ﴿صَبۡرٗا﴾، وسرّ التّعبير به:

مشاهدةُ ما لا يتحمّله الإدراكُ يحتاجُ إلى كلِّ معاني الصّبر

يَحْتَمِلُ المُرادُ بالصَّبر في قولِه تعالى: ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ أوجهًا: صَبْرًا عن السُّؤالِ، وصَبْرًا عن الإنْكار[2]، وصبرًا على ما يثيرُ ضَجَرَهُ من تعبٍ في المتابعةِ، وصبرًا على مشاهدةِ ما لا يتحمّلهُ إدراكه، وصبرًا على ترقّبِ بيانِ الأسبابِ والعللِ والمقاصد[3]، ولكنّه لا يشملُ صبرَ موسى بعد تذكيره بالعهدِ والشرطِ الذي التزمَ به، لتذكّره ثناءَ اللّه على الخَضِرِ بأنّه لا يفعل باطلًا[4].

سرُّ تنكير لفظ ﴿صَبۡرٗا﴾ في السّياق:

عِظَمُ الأمرِ الغريبِ يستدعي عِظَمَ الصّبرِ عليه

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿صَبۡرٗا﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾؛ لإفادة عموم الصَّبرِ؛ لوُقوعِ ﴿صَبۡرٗا﴾ نَكِرةً في سياقِ النَّفيِ؛ أيْ: نفى عنه أيَّ صبرٍ قبل تذكيره بعهده والتزامه، سواءٌ صبرُ السؤال، أو صبرُ الإنكار لغريبِ ما سيراه، وهذا العمومُ المُستفاد من

(1) ابن آجُرّوم، مشكل إعراب القرآن: 3/ 18.

(2) الماوَرْدي، النُّكَت والعيون: 3/ 326.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372 - 373.

(4) البِقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 112.

التنكير يزيدُ تأكيدَ نفيِ استطاعةِ الصبر في المستقبل[1]، يعني لو تكلّف أنْ يصبرَ لم يستطع ذلك.

وكذلك لإفادةِ التعظيم؛ أيْ: لن تستطيعَ الصبرَ العظيمَ البليغ الذي أريده منك على ما ستراهُ من أمورٍ تخالفُ ظاهرَ شريعتك التي أُمرتَ بها[2].

عدمُ صبرِ موسى على ما لا يُعلمُ حقيقته حالٌ ملازمةٌ له

معنى الواو في قوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ حاليةٌ، وجملة ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾، في موضع الحال من اسم (إنَّ)، أو من ضميرِ تستطيع؛ لأنَّ شأنَ هذه الجملة ألّا تُعطف على التي قبلها؛ لأنّ بينهما كمالَ الاتصال؛ إذِ الثّانية كالعلّةِ للأولى[3]، والصبرُ الثاني هو الأول، والمعنى: إنّك لا تستطيع الصبرَ الذي أريده لأنّكَ لا تعرفُ فعلي على ما هو عليه فتراه فاسدًا[4].

وإنّما أوثرَ مجيئها في صورة الجملة الحاليّة دون أنْ تُفصلَ عن الجملةِ الأولى فتقع علّةً مع أنّ التعليل هو المُراد؛ للتّنبيه على أنّ مضمونها علّةٌ ملازمةٌ لمضمون التي قبلها؛ إذ هي حالٌ من المُسنَدِ إليه في الجملة قبلها[5].

أو تكون الواو عاطفة[6]، وجملة ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾[7]، إذْ كلاهما مقولُ القولِ للخَضِرِ إلّا أنّ الصّبر الثاني ليس هو الأول؛ فالأوّل هو الصَّبر الأخصّ؛ أيِ البليغ الذي يريده الخَضِر من موسى، والجملةُ نفي له، والثاني هو مطلقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 108.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 516.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 372.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 109.
(7) الخرّاط، المُجتَبى: 2/ 654.

الصبر، والجملةُ تعجيبٌ من مُطلقِ الصبر على أمرٍ ظاهرُهُ مُنْكَرٌ، وأنت لا تعلم باطنه[1].

المُراد بالاستفهام الوارد في قوله: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ﴾:

إنكارُ الصّبرِ والتّعجّبُ منه على ما لا تُعلَمُ حقيقته اعتذارٌ لصاحبه

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ﴾ استفهامٌ تعجّبيٌّ[2]؛ أيْ: لَمّا كان المقامُ صعبًا جدًّا - لأنّه بالنسبةِ إلى أوامرِ الله تعالى - فقد بيّنه على وجهٍ أبلغَ من نفيِ الأخصّ، وهو الصّبرُ البليغُ بالتّعجيبِ من مُطلَقِ الصّبر معتذرًا عن موسى في الإنكار، وعن نفسه في الفعل، بأنّ ذلك بالنّسبةِ إلى الظّاهرِ والباطن[3]، أو استفهامٌ إنكاريٌّ في معنى النّفي؛ أيْ: وأنتَ لا تصبرُ على ما لم تُحطْ به خبرًا[4].

التّعبير بالفعل ﴿تَصۡبِرُ﴾ بصيغة المضارع:

استمرارُ صبرِ موسى على ما لم يُحطْ به خبرًا التماسٌ للعُذْرِ له

عبّر القرآنُ بالفعل المضارع ﴿تَصۡبِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ عدمِ استطاعةِ الصبر الذي يريده الخَضِر، ففي تعجّبِ الخَضِرِ من استمرارِ صبرِ موسى عليه السلام التماسُ العُذْرِ له، إذ كيف يمكنُ لموسى أنْ يستمرّ في الصبرِ على ما لم يُحطْ به خبرًا، وعبَّر بالمضارع كذلك لأنّ الكلامَ عن شيءٍ سيحدثُ في المستقبل؛ إذ رحلتهما لم تبدأ بعد، والمعنى: وكيف ستصبرُ في المستقبل على ما سترى من أفعالي وأنتَ لا تحيطُ بها علمًا؟

معنى حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في السّياق:

في الاستعلاءِ المجازيّ تصويرٌ لحالِ موسى في عدمِ تمكّنه من الصّبر

أفاد حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ الاستعلاءَ المجازي؛ بمعنى التّمكّن من تعلّق نفي صبرِ موسى عليه السلام بمدخول ﴿عَلَىٰ﴾؛ وهو العلومُ الخفيّةُ التي لم يُحطْ بها موسى خُبرًا، ولكون ﴿عَلَىٰ﴾ يناسبُ الصبر في الآية الذي هو علوٌّ

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 109.

(2) الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالَيْن، ص: 1115.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 109.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 372.

وترفّعٌ عن الضَّعف، ويناسبُ مدخول ﴿عَلَىٰ﴾ العلومَ الباطنةَ الخفيّة؛ إذ شأنها كبيرٌ وعالٍ.

فائدة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

في الموصوليّةِ إيماءٌ بعلّةِ عدمِ صبرِ موسى واعتذارٌ له

في التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته ﴿لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ تركيزٌ على الصِّلة؛ لأنّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصول عندما تكون صلته هي التي عليها مدارُ الحكم، وبالتالي تكون فائدةُ التعبيرِ بالاسم الموصول وصلته هي الإيماءُ بعلّةِ عدمِ صبرِ موسى، وهي عدمُ إحاطة معرفته بوجه هذه الأعمال التي سيقومُ بها الخَضِر؛ لاتِّصالها بمعرفة العواقبِ التي لا يحيطُ بها علمًا إلا مَن علَّمه اللّه إيّاها[1]، وفي هذا اعتذارٌ من الخَضِرِ لموسى والتماسُ العذر له.

وكذلك قصدُ الإبهامِ الذي يتناسبُ مع أمورٍ خفيّةِ المَدارِ مُنْكَرةِ الظواهرِ سيقومُ بها الخَضِر، وفيه كذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنِ هذا المبهم وتشويقٌ لمعرفته، وتنبيهٌ على تعميمه؛ لأنّ ﴿مَا﴾ من ألفاظ العموم؛ أيْ إنّها تشمل كلّ الأعمال الخفيّة في مقاصدها وعواقبها والمُنْكَرة في ظواهرها.

بلاغة استعمال لفظ الإحاطة: ﴿مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾:

التماسُ العُذْرِ لموسى لعدمِ إحاطته بعلمِ الغيب

الإحاطةُ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ مجازٌ في التَّمكُّنِ من المعلومة، تشبيهًا لقوّة تَمَكُّنِ الاتّصاف بتَمَكُّنِ الجسم المحيط بما أحاط به[2]، إذْ معنى أحاطَ به علمه مجازٌ عن كُلّ مَنْ بَلَغَ أَقْصى شَيءٍ، وأَحْصى عِلْمَهُ، ويُقالُ: عَلِمَهُ عِلْمَ إحاطَة، إذا عَلِمَه من جَميع وُجوهه ولم يَفُتْه مِنْها شَيْءٌ، وأَحَطْتُ به عِلْمًا؛ أَيْ: أَحْدَقَ عِلْمي به من جَميع جِهاتِه[3].

(1) أبو حفص النّسَفي، التيسير في التّفسير: 10/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 372.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).

وفي هذا التعبير اعترافٌ من الخَضِرِ بعلم موسى عليه السلام، إذْ لم يَقُلْ له: (وكيف تصبر على ما لم تعلم)، ولكنّ علْمَ موسى لم يكن علمَ إحاطةٍ؛ فلم يعلم علومَ الغيب، فاللّهُ وحده سبحانه الذي يحيطُ علمُهُ بكلّ شيء، وفي هذا مظهرٌ من مظاهرِ أدبِ المُعلِّم (الخَضِر) مع المُتعلِّم (موسى عليه السلام)؛ حيث التمسَ له العذرَ إنِ اعترضَ عليه، بأنّه لم يُمكَّنْ من العلمِ الذي مُكّن منه الخَضِرُ، ولم يطّلع على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطّلع عليها الخَضِرُ، ولذلك قال له كما ورد في الحديث: "إنّك لن تستطيع معي صبرًا يا موسى، إنّي على علم من علمِ اللّه علّمنيه لا تعلمه أنتَ، وأنتَ على علمٍ علّمكه لا أعلمه"[1].

دلالةُ الباءِ بين الإلصاقِ والتّوكيدِ في قوله: ﴿بِهِۦ﴾:

توكيد عدم إحاطةِ موسى بالبواطنِ الّتي بادر إلى فعلها الخَضِر

(الباء) في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ للإلصاق، والمعنى: ما لم تُحطْ إحاطةً علمية ملتصقةً بباطنه الخفيّ من جميع جهاته؛ لأنّها ممّا اختصني اللّه به، وقد تكون للتّوكيد؛ أيّ توكيد عدم إحاطةِ موسى ببواطنِ أعمالِ الخَضِر؛ والمعنى: ما لم تُحطه خبرًا.

مرجع الضّمير في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

في عودِ الضّمير على ما يحملُ إبهامًا زيادةُ تشويقٍ وتنبيهٌ من إنكاره

مرجع ضمير ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ هو الاسم الموصول ﴿مَا﴾ وصلته ﴿لَمۡ تُحِطۡ﴾؛ أيّ: كيف تصبر على الذي لم تُحط به علمًا؟ وهو ما لم يعلمه موسى "من أمرٍ ظاهرُهُ مُنكرٌ"[2].

وفي عود الضّمير (الهاء) إلى اسم موصول فيه إبهامٌ يتناسبُ مع ما يدل عليه من الأمور الخفية في مقاصدها المنكرة في عواقبها، وزيادةُ تشويقٍ لمعرفةِ هذا المُبهَم، وتنبيهٌ للحذرِ من المُسارَعة في إنكاره.

---

(1) البخاري، صحيح البخاريّ، كتاب: العلم، باب: ما يُستحب للعالم إذا سُئل: أيُّ الناس أعلمُ؟ فيَكِل العِلْمَ إلى الله، رقم، ص: 122.

(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 668.

معنى لفظ ﴿خُبۡرٗا﴾ وسرُّ تنكيره:

التّعبيرُ بما هو أنسبُ لمقام اختبارِ صبرٍ وتعليمٍ لخفايا الأمور

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿خُبۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ دون غيره، فلم يَقُلْ: (عِلْمًا)؛ لأنّها أشملُ؛ فهي ليستْ مجرّدَ معرفةٍ وإدراكِ المعلوم، بل هي العلمُ بكُنْه المعلوماتِ على حقائقها؛ ففيها معنىً زائِدٌ على العِلْم، يُقال: خبرتُ الشَّيْءَ إذا عرفتَه على حَقيقَته[1]، وهذا العِلمُ بالخفايا الباطنةِ يستلزمُ معرفة الأمور الظّاهرة[2]، ولأنّها أنسبُ للمقام؛ فقد كان عِلْمُ الخَضِرِ معرفةَ بواطن قدْ أوحيتْ إليه لا تُعطي ظواهرَ الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علمُ موسى عليه السلام علمَ الأحكام والفتيا بظاهر أقوالِ النّاس وأفعالهم[3]؛ أيْ لن يستطيعَ أنْ يصل إليها موسى إلّا عن طريقِ إخبارِ الخَضِر له، وقد أفاد تنكيرُ ﴿خُبۡرٗا﴾ هنا التّعميمَ ليشمل الكثير والقليل من الأخبار، وفي هذا نفيٌ للعِلْم بالكُلّيّة عن موسى عليه السلام بما سيجري من أحداث.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستطاعة والقدرة والطّاقة:

الاستطاعةُ انطباعُ الجوارح للفعل، والقدرةُ أعمُّ، والطّاقة استفراغُ الوسع في المقْدور

رغم التّقارب الدّلالي بين ألفاظِ الاستطاعةِ والقدرةِ والطّاقةِ، وتعريفِ كلٍّ منها بالآخر في المعاجم اللّغويّة؛ إلّا أنّ لكلِ لفظٍ من هذه الألفاظ ما يتميّز به، فأصلُ (طوع) يَدُلُّ على الإِصحابِ والانقيادِ[4]، وأصلُ (قدر) يَدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايَتِه[5]، وأصلُ (طوق) يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، فكُلُّ ما اسْتَدارَ بشَيْءٍ فهو طَوْقٌ[6]، والطّاقةُ: اسمٌ لمقدارِ ما يمكن للإنسان أنْ يفعله بمشَقّة[7].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خبر).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 529.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوق).
(7) الراغب، المُفردات، ص: 532.

فالاسْتِطاعةُ القُدْرَةُ على الشَّيْءِ[1]، وضدّها العجز، وهي أخصُّ من القُدرة[2]، فهي للإنسان خاصَّةً، والإطاقة عامَّةً، فقد يكون الشّخص مستطيعًا من وجهٍ، وعاجزًا من وجهٍ آخر في الوقتِ نفسه، وليستِ القدرة كذلك.

والطّاقَة غايَة مقدرَةِ القادِر واستفراغِ وُسْعه في المَقْدور، يُقال: هذا طاقتي؛ أَي: قدر إمكاني، ولا يُقال للّه تَعالى: مطيقٌ لذلك، فالفرّق بين القُدْرَة والاستطاعة: أَنّ الاِسْتِطاعَة انطباعُ الجوارح للفعل، من قَوْلك: طاعتْ جوارحه للْفِعْل؛ أَي: انقادت لَهُ، والقدرةُ: هي ما أوجب كون القادرِ عليه قادرًا، ولذلك لا يوصفُ اللّه تعالى بأنّه مُستطيع، ويوصفُ بأنّه قادر، والاستطاعةُ أخصّ من القدرة، فكلُّ مُستطيعٍ قادرٌ؛ وليس كلُّ قادرٍ بمُستَطيع؛ لأنّ الاستطاعةَ: اسمٌ لمعانٍ يتمكّن بها الفاعل ممّا يريده من إحداثِ الفعل، وهي أربعة أشياء: إرادته للفعل، وقدرته على الفعل بحيث لا يكون له مانع منه، وعلمه بالفعل، وتهيّؤ ما يتوقّف عليه الفعل[3].

الخُبْرُ والعِلْمُ:

الخُبْرُ هو العِلْمُ بالباطِنِ الخَفيِّ، والعِلْمُ هو معرفَةُ وإدراكُ المَعْلوم

هناك تقاربٌ بين لفظي ﴿خُبۡرٗا﴾ و﴿عِلۡمٗا﴾، فقد عُرّف الخُبْرُ بأنّه العلمُ بالشيء[4]، ولكنّ العلماء فرّقوا بين الخبرِ والعلم؛ فذكروا أنّ الخبرَ هو العلم بكُنْه المعلوماتِ على حقائقها، ففيه معنىً زائد على العلم، يُقال: خبرتُ الشَّيءَ إذا عرفتَه على حَقيقَته[5]، "كأنّك تغلْغلْتَ في باطنه حتى عرفته"[6]، وقيل الخُبْر: العِلْمُ بالباطِن الخَفيِّ، لاحتياج العِلم به للاختبار، وقيل الخُبْرُ: العلم بالأشياء

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (طوع).

(2) الراغب، المُفردات، ص: 531.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47 - 48.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).

(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.

(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (خبر).

المعلومة من جهة الخَبَر[1]، والخبيرُ في صفاته تعالى بمعنى: العالم ببواطن الأمور وظواهرها، وبما كان منها وما يكون، والعالم بأخبار مخلوقاته لا يعزبُ عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض[2].

أمّا العِلْمُ فقيل هو معرفَة المَعْلوم، وقيل هو اعْتِقاد المَعْلوم على ما هو به[3]، وقيل: هو إدراكُ الشيء بحقيقته، والعلمُ ضربان: أحدهما: إدراكُ ذاتِ الشيء، والثّاني: الحُكمُ على الشيءِ بوجودِ شيء هو موجود له، أو نفيُ شيءٍ هو منفيّ عنه؛ فالأوّل: هو المُتعدّي إلى مفعول واحد، والثّاني: المُتعدّي إلى مفعولَيْن[4].

إذن؛ الخُبْرُ أخصّ من العلم، فهو العِلْمُ بالباطِن الخَفيِّ، الذي يحتاجُ للاخْتبار، وكأنّه يحتاج لأنْ يتغلغلَ في باطنه حتّى يعرفه، بينما العلم هو إدراكُ الشيء ومعرفته على حقيقته وما هو عليه، وهو معرفة المعلوم، فكأنّ العلمَ بالشّيء أسهلُ من خبره به.

---

(1) الراغب، المُفردات، ص: 273.
(2) السّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 485.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 451.
(4) الراغب، المُفرَدات، ص: 580.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ٦٩﴾

[الكهف: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

عَزْمُ موسى على الصَّبرِ والطّاعة بعد إفصاحِ الخَضِر عن صعوبة ذلك

بعد أنْ ذكر البيانُ القرآنيُّ تأكيدَ الخَضِرِ لموسى بعدم صبره وتعليلَ ذلك بأنّه سيرى أمورًا عجيبة ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾؛ أعقبَ بتأكيدِ موسى للخَضِر بأنّه سيجدهُ صابرًا، ولنْ يعصي له أمرًا؛ لثقته بعصمته فقال: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَابِرٗا﴾: أصلُ (صبر) من الحَبْسِ، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي على ذلك الأَمرِ؛ أَيْ: حبَسْتَها[1]، والصَّبر حَبْسُ النَّفْسِ عند الجزَع، فهو نقيض الجَزَع[2]، والصَّبْرُ: الحبس والكفُّ والإمساك في ضيق، وصَبَرَ صبرًا: تجلّد ولم يجزع، وانتظرَ في هدوءٍ واطمئنان، ويُقال: صَبر على الأَمرِ: احتمله ولم يجزع، وصبرَ عنهُ: حبسَ نَفسه عنه، وصبّر نَفسه: حَبسها وضبطها[3].

2) ﴿أَعۡصِي﴾: (عصو، عصي) أَصْلانِ مُتَبايِنانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما على التَّجَمُّعِ، ويدُلُّ الآخَرُ على الفُرْقَةِ، ومن الأصل الثاني: العِصْيانُ والمَعْصيَةُ، يُقالُ: عَصَى، وهوَ عاصٍ، والجَمعُ: عصاةٌ وعاصون، والعاصي: الفَصيلُ إِذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها[4]، والعِصْيانُ: ضِدُّ الطّاعَةِ، والعِصْيان: الامتِناع عن الانقياد، وعصاهُ مَعْصيّةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صبر).
(3) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصوى).

وعصيانًا: خرجَ من طاعَته وخالف أمره فهوَ عاصٍ[1]، والمُراد بـ﴿وَلَآ أَعۡصِي﴾؛ أيّ: لا أخالفُكَ فيما تأمرني[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

اعتزامُ موسى الصَّبر والطّاعة والاستعانة بالمشيئةِ وبذل الوعد بذلك

يقول عزّ ذِكْره مُخبرًا عن قولِ موسى للخَضِر بعد أن أخبرَه الخَضِرُ بأنّه لا يطيق الصّبرَ معه على ما سيرى من الأفعال التي لا علمَ له بوجوه صوابها: سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللّه صابِرًا على ما أرى منك، وإنْ كان خلافًا لما هو عندي صوابٌ، وأنتهي إلى ما تأمرني[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ﴾ عمّا قبلها:

الاستئناف البيانيّ لإظهار تأكيد موسى لوعدِه بالصَّبر على ما سيراه

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ﴾ عن التي قبلها؛ لكونها جاءتْ على طريقةِ المُحاوَراتِ التي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكراره بتكرارِ أفعال القول، أو لكونها جاءتِ استئنافًا بيانيًا مَبْنِيًّا على سؤالٍ مقدّرٍ نشَأ عن الآيتَيْن السابقتَيْن: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾؛ وذلك أنّه بعد تأكيدِ الخَضِرِ بعدمِ استطاعة موسى الصبر، وتعليله لذلك بأنّه سيرى أمورًا عجيبة يُنْكِرها الشّرع، كأنَّه قيل: فماذا كان جوابُ موسى؟ فقيل: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾[4].

التّعبير بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾:

حكاية قولٍ حدثَ في الزّمن الماضي ولم يتكرّر بسبب المُضيّ

عبّر البيانُ الإلهيّ بالماضي ﴿قَالَ﴾ في قوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ القولِ من موسى قد وقعَ وتحقّق؛ لأنّ الماضي يدلّ على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التكلّم، وهي حكايةُ

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (عصا).
(2) البَغويّ، معالم التنزيل: 3/ 206.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 71.
(4) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 107.

قصّةٍ حدثتْ وانتهتْ ولم تتكرّر، ولأنّ صيغةَ الفعل الماضي تناسبُ السياق الذي جاء الحوار فيه كلّه بصيغة الفعل الماضي.

في تأكيدِ موسى لصبره وطاعته زيادةُ تطمينٍ للخَضِرِ بحُسنِ المتابعة

بيان أنّ صيغة التّكلّم مناسبة لسياقِ المعاهدةِ والالتزام

الوعدُ بالاستمرارِ على الصّبرِ والطاعةِ إغراءٌ في قَبولِ المتابعة

معنى السِّين في قوله ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

السّين في ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ لتأكيد ما يقع في المستقبلِ من التزام موسى الصَّبر على المتابعة والطّاعة وعدمِ العصيان؛ أي إنّي منفذٌ ما طَلَبْتَ؛ وذلك لأنّ السين تفيدُ الوعدَ بحصولِ الفعل، فدخولها على الفعلِ مُقتضٍ لتوكيده وتثبيتِ معناه[1].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ موسى أتى بنهايةِ التّواضعِ لمَنْ هو أعلمُ منه في أمورٍ لا يعلمها، وفيه إرشادٌ لما ينبغي في طلبِ العلم[2].

نكتة إثبات ياء المتكلّم في ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ و﴿وَلَآ أَعۡصِي﴾:

أثبتَ البيانُ القرآنيُّ ياءَ المتكلّم في ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ و﴿وَلَآ أَعۡصِي﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾، رغم أنّه حذفها في قول: ﴿نَبۡغِۚ﴾ و﴿تُعَلِّمَنِ﴾ - على قراءة الحذف فيما تقدم - ؛ لأنّ الموطنَ هنا موطنُ معاهدةٍ، وينبغي فيه أنْ يظْهَرَ موسى بشخصيتِه الكاملةِ، وكأنّه قال له: هذا شخصي كاملًا أُعاهدك على هذا، وللسَّببِ ذاتِه لم يُخفّف المدُّ بالفتحةِ في جوابِ الخَضِر في ﴿ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ و﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾؛ فالسياقُ سياقُ اشتراطٍ وعهد[3].

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيّ بصيغة المضارع ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ للدّلالةِ على وعدِ موسى باستمرارِ

(1) المَوزعيّ، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 117.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 109.
(3) الكُبيْسي، لمسات بيانية: 7/ 67.

صبره على غريبِ ما سيراهُ من الخَضِر، واستمرارِ عدمِ مخالفته لأوامره، ولإفادةِ تصويرِ وجودِ الصبرِ من موسى عليه السلام.

وآثر مادّة (وجد)؛ ليدلَّ على حصولِ صبْرٍ ظاهرٍ محسوسٍ لرفيقه ومتبوعِه[1]، إذ معنى (وجد) في الأَصْل: إِصابَةُ الشَّيْء والإحساسُ به بعد أَنْ لم يكن ذلك[2]؛ أي الصبرُ سيكون موجودًا مُشاهَدًا يلحظُه الخَضِر؛ والمعنى: ستجدني بالفحصِ والتجربةِ والاختبارِ والمصاحبة والمعايشة والمعاينة صابرًا، وهذا أبلغُ في ثبوتِ الصَّبر فيما لو قال: (سأصبر)، الذي هو مجرّدُ وعدٍ بالصَّبر.

مرجع ضمير الفعل ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ في السّياق:

تواضع موسى وتفخيمُ شأنِ الخَضِر يُبرز حالة موسى النّفسيّة

في فعل ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ ضميران: **أحدهما**: ضمير متكلّم متّصل؛ وهو الياء في محلّ نصب مفعول به أوّل، ويرجع إلى موسى عليه السلام، **والثّاني**: ضمير مخاطب مستتر تقديره أنت في محلِّ رفع فاعل، ويرجع إلى الخَضِر عليه السلام[3]، ويُفسِّرُ هذيْن الضميريْن ويُزيلُ إبهامَهما وجودُ صاحبيْهما في وقتِ الكلام الذي هو حوارٌ بين موسى والخَضِر؛ أيْ قد تقدّم مرجعُ الضميريْن تقدُّمًا لفظيًّا، وغرضُ التعبيرِ بالضميريْن في الفعل ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ هو الاختصارُ، والإشارةُ بضمير المُتكلّم المُتّصل (الياء) إلى تواضعِ موسى بإضمار التّصريح باسمه في سياقِ طلبِ التّعلُّم، فلم يُقَلْ: (ستجد موسى صابرًا)، وبضميرِ المُخاطَب المُستَتِر (أنت) إلى تفخيمِ شأنِ العبدِ الصالحِ العالم الذي لشهرته كأنّه يدلُّ على نفسه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 372.
(2) ابن الجَوْزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 615.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 632.

دلالة الاستثناء في قوله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

تعليقُ الصَّبرِ على مشيئةِ الله تفويضٌ للأمرِ إليه

علّق البيانُ القرآني - على لسان موسى - الصّبرَ على مشيئةِ اللّه في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ لكونها سُنّة الأنبياء والأولياء في مواعيدهم[1]، وللتّأكيدِ على الاتّصافِ بالصبرِ والطاعةِ للمُعلّم والتّواضعِ وعدم الاعتزازِ بالنفسِ والإعجابِ بها؛ أي: "قوّى تأكيده بالتّبرُّك بذِكْرِ اللّه تعالى"[2]، ولطلبِ التّوفيقِ من اللّه والاستعانةِ به على هذا الاتّصاف[3]؛ رجاءَ تسهيلِ اللّه له والنّفع به[4]؛ لأنّ الخَضِرَ نفى عن موسى الاستطاعةَ على وجه التأكيد بحرف (إنّ) وبحرف (لَنْ)، ولأنّ موسى يعلمُ من نفسه أنّه لا يصبرُ على ما لا يراه عِلْمًا، وما لم يُؤمن به حقيقةً[5]، ولأنَّه يعلمُ بشدّةِ الأمرِ وصعوبته[6]، وأنّ الحميّةَ التي تأخذُ المُصلحَ عند مشاهدةِ الفسادِ شيءٌ لا يُطاق، هذا مع علمه أنّ النّبيّ المعصومَ الذي أمره اللّه بالمُسافَرة إليه واتّباعه واقتباسِ العلمِ منه بريٌّ من أنْ يباشرَ ما فيه غميزة في الدين[7].

وفيه كذلك مناسبةٌ للمقام؛ بسبب أنَّ موسى عندما سُئل عن أعلمِ الناسِ لم يَردّ العلم إليه تعالى؛ فأوحى إليه: إنّ لي عبدًا بمَجْمعِ البحريْن هو أعلمُ منك[8]، فالتزمَ التعليقَ على المشيئة أدبًا مع اللّه بعد أنْ تعلّم الدرسَ، ولِما ورد في السّورة ذاتها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23 - 24]

(1) الجُرجانيّ، درج الدُّرر: 3/ 1156.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 110.
(3) الهَرَريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 444.
(4) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 110.
(5) الكتّاني، تفسير القرآن الكريم: 13/ 6.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 205.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 734.
(8) البخاريُّ، صحيح البخاري، كتاب: العِلْم، باب: ما يُستحب للعالِم إذا سُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فيكِلَ العِلْم إلى الله، رقم، ص: 122.

الذي نزل بسببِ عدمِ تعليقِ النبيّ ﷺ جوابه على مشيئة اللّه عندما سُئل الإجابةَ عن أصحابِ الكهفِ وذي القرنيْن والرّوح.

دلالة الموقع الإعرابيّ للفظ ﴿صَابِرٗا﴾:

الإخبار بالصّبرِ عن السّؤالِ والصّبرِ عن الإنكارِ مُفيدٌ في البيان

الموقعُ الإعرابيّ لـ﴿صَابِرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ مفعول به ثانٍ لـ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، وما بين المفعوليْن اعتراضٌ[1]، والمعنى: سوف تجدني صابرًا إنْ شاء اللّه على ما أرى منك؛ أيْ: أصبرُ عن السّؤال؛ فلا أسألُ عنه، وقيل: أصبرُ عن الإنكارِ؛ فلا أنكره عليك[2].

سرُّ استعمال اسم الفاعل ﴿صَابِرٗا﴾ دون الفعل:

لا علمَ للمُتعلّم إلّا بالثّبات على الصّبرِ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ اسم الفاعل ﴿صَابِرٗا﴾ دون الفعل (سأصبر) في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ للدّلالة على ثباتِ موسى على الصَّبر، واستمرارِ هذا الصبر منه؛ لأنّ الفعلَ يفيدُ التقييد بزمنٍ معيَّن، بخلافِ اسم الفاعل فإنّه يدلّ على حدثٍ ثابتٍ غير محدّدٍ بزمن، والمعنى: ستجدُ ما طلبتَ - وهو الصّبر - قائمًا، على أنّه وصفٌ مستمرٌّ[3]، ولكونِ ﴿صَابِرٗا﴾ أعمَّ مراتبِ الصبرِ الخمس وهي: (الصّابِر)، و(المُصْطَبِر)، و(المُتَصَبِّر)، و(الصَّبور)، و(الصَّبّار)[4]، فكان التّعبيرُ باسم الفاعل (صابرًا) أبلغَ وآكدَ في الوعد بالصبرِ؛ لما فيه من معنى الثّبات والاستمرار على الصبر.

سرُّ تقديم المشيئة على الصَّبر:

تقديمُ مشيئةِ المولى على فعلِ البشرِ أدبُ الأنبياءِ والصّالحين

قدَّمَ موسى عليه السلام المشيئةَ على الصَّبرِ في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ اهتمامًا من موسى بكلمةِ التبرّكِ وتأدّبًا مع خالقه

(1) المُنتَجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 306.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 98، والمُنتَجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 306.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4560.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (صبر).

ﷺ[1]، وكذلك لتحسينِ الكلام؛ إذ إنَّه لو أخَّرَ التعليقَ بالمشيئة بأنْ قال: (ستجدني صابرًا إنْ شاء الله) لم يكنْ بذاكَ الحُسْن؛ ولعدم حُسن موقعِ الاعتراض، فإنّه من تحاسينِ الكلام[2]، ولأنّ موسى عليه السلام علمَ من نفسه أنّه لا يكاد يصبرُ على ما لا يراه عِلمًا، وما لم يؤمنْ به حقيقةً، فابتدأ بالاستثناءِ قبلَ المُستثنى منه[3]؛ استعانةً به سبحانه على الصبرِ وعدم المخالفة[4].

معنى (الواو) في ﴿وَلَآ أَعۡصِي﴾:

الصّبرُ الكاملُ يقتضي الاتّسامَ بأكملِ أحوالِ طالبِ العلم الهُمام

الواو في ﴿وَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ عاطفةٌ[5]، والمعطوف عليه جملة ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، وهي منصوبةُ المحلِّ بالقول[6]، والمعنى: ستجدني إنْ شاءَ اللّهُ صابرًا ولا أعصي لك إنْ شاء اللّه أمرًا، والشّرطُ مع الجزاء المحذوف معترضٌ بين المفعولَيْن[7].

أو يكون المعطوف عليه الاسم المشتقّ ﴿صَابِرٗا﴾ لكونه في معناه[8]، فيؤوّل الفعلُ بمصدر، وتكون بذلك الجملة في محلّ نصب؛ أيْ: ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ[9].

وفي هذا العطفِ زيادةُ تأكيدٍ لوعدِ موسى عليه السلام بالصبرِ والتزام ما يقتضيه هذا الصبر الكامل من طاعة الآمرِ فيما يأمره به[10]، ولبيانِ التّمكّن في كلّ من الوصفيْن[11]، وتواضعُ آخرَ منه بعد تمنّعٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 373، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4560.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 9/ 518.
(3) المنتصر الكتّاني، تفسير القرآن العظيم: 13/ 6.
(4) طنطاوي، الوسيط: 8/ 554.
(5) وقيل إنها استئنافيّة وهو قولٌ فيه بُعْدٌ، انظر: ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 533.
(6) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 533.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 518.
(8) كقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: 19]، أيْ: وقابضات.
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 734.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 373.
(11) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 110.

كان من الخَضِر[1]، ودلالةٌ على أنَّ أهمَّ ما يتّسمُ به طالبُ العلمِ مع الصَّبرِ الطاعةُ للمعلّم[2].

سرُّ النَّفي بـ﴿وَلَآ﴾ دون (لن):

موسى يناسبهُ نفيُ المخالفةِ ظرفيًّا لا على سبيلِ التّأبيد

عبّر البيانُ القرآنيُّ في نفيِ مخالفةِ موسى عليه السلام لأوامرِ الخَضِر بأداة النّفي ﴿وَلَآ﴾ دون (لن) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ لكون التّعبير بـ ﴿وَلَآ﴾ أنسبَ مع حاله، وما عُرف به من حميّة مع ما يخالفُ شريعةَ اللّه سبحانه، ممّا جعله يستعينُ على الوعدِ بالصبرِ بمشيئة اللّه سبحانه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾؛ إذ إنَّ (لا) لا تفيدُ النفي على جهةِ التَّأبيد الَّذي تُفيده (لن).

ولكون التَّعبير بها كذلك أنسبَ مع السّياقِ الَّذي نفى فيه الخَضِر استطاعةَ موسى على الصبرِ بصيغة التَّأبيد: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

معنى اللّام في ﴿لَكَ﴾، ومرجع الضَّمير فيها:

الطاعةُ المُطلقةُ لَمَن اختصّه اللهُ بالعلمِ اللّدنّي المُلْهَم

لام ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ للاختصاص؛ أيْ: للخَضِرِ خاصّةً؛ أيْ: هذا التّسليمُ المُطلَقُ، وهذه الموافقةُ والطاعةُ في كلّ ما تأمرُ به دون أيّ مخالفة لما تفعله مهما كان غريبًا مخالفًا الشريعة في ظاهره هو مختصٌّ بكَ وحدكَ؛ لعلمي بأنَّكَ معصومٌ قد آتاكَ اللّهُ رحمةً وعلمًا.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكَ﴾:

تقديمٌ فيه اهْتِمامٌ وعِنايَةٌ بالخَضِرِ وبطاعتِهِ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبه الجملة ﴿لَكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾، ولم يَقُلْ: (ولا أعصي أمرًا لك)؛ للاهتمامِ والعنايةِ بالمُقدَّم ورفعةِ شأنه، وهو الخَضِرُ عليه السلام، وفي هذا إشارةٌ إلى شدّةِ تواضعِ موسى عليه السلام وأدبه مع الخَضِر، وهو كليمُ اللّه ورسولٌ

---

(1) أبو حفص النَّسَفي، التيسير في التفسير: 10/ 114.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 373.

من أولي العزم، وإلى ضرورةِ احترامِ المعلّم وتوقيره والاهتمام به، وكذلك فيه زيادةُ تطمينٍ للخضرِ وإغراءٌ بقبولِ متابعة موسى له، وأيضًا مراعاةً للفاصلةِ القرآنيَّة، بما يُحقّق إحكامَ اللَّفظ.

سرُّ التّعبير بالأمر في قوله ﴿أَمۡرٗا﴾:

وعـدٌ من موسى بتسليمٍ يشملُ كلَّ أحواله الظّاهرة والباطنة

عبَّر البيانُ القرآنيّ بلفظ الأمر دون الحُكم في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ لكون لفظِ الأمرِ أنسبَ للمقام؛ وهو وعدُ موسى بالتسليمِ الكاملِ لكلّ ما سيفعله الخَضِر، أو يقوله، أو يأمر به، أو يُكلّف موسى به في هذه الرحلة، وليس فقط لما يحكمُ به؛ كما أنّ المقامَ هنا ليس مقامَ إصدارِ أحكامٍ من الخَضِرِ يمنعُ بها ظلمًا أو فسادًا[1]؛ وإنّما مقام أفعالٍ يقومُ بها أو يقولها ليُحقّق بها الخير.

والتعبير بـ﴿أَمۡرٗا﴾ أنسبُ للسّياقِ الّذي صرّح فيه بعدمِ العصيانِ، فقال: ﴿وَلَآ أَعۡصِي﴾، وتاركُ المأمور به عاصٍ، والعاصي يستحقُّ العقاب والطرد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: 23][2].

سرُّ تنكير قوله ﴿أَمۡرٗا﴾:

وعـدُ موسى بعدمِ المخالفةِ دليلٌ على تواضعه وانسلاكه مع أهل الهدى

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿أَمۡرٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ لإفادةِ العُموم؛ لوُقوعِ ﴿أَمۡرٗا﴾ نَكرةً في سياقِ النَّفي؛ أيْ: نفى موسى عن نفسه أيَّ مخالفةٍ لأوامرِ الخَضِر، والمعنى: لا أعصي لك أيَّ أمرٍ تأمرُ به، أو تطلبه مني، وهذا يدلُّ على تواضع موسى عليه السلام، وشدّةِ رغبته في متابعةِ الخَضِر، وطاعته لأمرِ ربّه رغم أنّه كليمُ اللّه ونبيُّ زمانه، ورسولٌ من أولي العَزْم، ويدلُّ كذلك على ثقةِ موسى بعصمةِ الخَضِر؛ لأنّ الإنسانَ لا يعصي مَنْ يثقُ بعصمته؛ وقد أخبره اللّهُ بأنّه آتى الخَضِر علمًا وأمرَه باتّباعه.

---

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 248.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 534.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمر والحُكم:

الأمرُ هو الشّأنُ والحالُ وطلبُ الفعلِ، والحكمُ هو الفصل والقضاءُ بالعدل

يتقارب لفظا (الأمر) و(الحُكم) في دلالتهما اللغوية، وكثيرًا ما يُستعمل أحدهما بمعنى الآخر، يقول الفَراهي: "وأمّا الحُكمُ بمعنى الأمرِ فكثيرٌ"[1]، وكثيرًا ما يأتي الأمرُ بمعنى الحُكْم[2]، ولكن مع هذا التّقارب هناك ملامح دلالية تُميّز كلًّا منهما، وذلك على النحو الآتي:

الأَمرُ الواحِدُ من الأُمورِ، ويأتي بمعنى الحادثة، والشَّأن، والحال والقضاء والقَدَر، والأمرُ ضدّ النّهي من قولك: افعلْ كذا؛ أي الأَمرُ: المصدر من الفعل (أمر)[3]، وأَمَرْتُه: إذا كلّفتَه أنْ يفعل شيئًا[4].

وأصلُ الحُكم هو المنع، وأوّلُ ذلك الحُكْم هو المنعُ من الظُّلم ومن الفسادِ، والحكمةُ لأنّها تمنعُ من الجهل[5]، وحَكَمَ: منعَ منعًا لإصلاح، والحُكْمُ بالشيء: أنْ تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرك أم لم تُلزِمه[6]، ومن معاني الحُكْمِ: العِلْمُ والفِقْهُ والقضاء بالعدل والقوّة[7].

والحاصل: يتميّزُ لفظُ (الأمر) بأنّه ضدّ النّهي، فهو طلبُ الفعلِ والتّكليفِ به، ويأتي بمعنى الشّأن والحال، بينما يتميّز لفظُ (الحُكم) بمعنى المنع للإصلاحِ، والقضاء بالعدل.

---

(1) الفَراهي، مفردات القرآن، ص: 180.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 41 - 42.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (أمر).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 88، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 39.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(6) الراغب، المُفردات، ص: 248.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

الرّبطُ بين تأكيد موسى على الصَّبر البليغِ وبيان الخَضِرِ لحدودِ هذا الصَّبر وشروطه

في مناسبة الآية لما قبلها وجهان:

الأوّل: بعد تمنُّعٍ كان من الخَضِر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ أتبعَ ذلك بتحكُّم عليه من وجهٍ آخرَ، فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾[1].

الثّاني: بعدَ أنْ أكّدَ موسى للخَضِرِ وعْدَه بالصبرِ وعدم المخالفة، وتمكّنه في كلٍ من هذيْن الوصفيْن بقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾؛ أخذَ العبدُ الصالحُ يُبيّن لموسى حدودَ الصبرِ، وأنّه صبرٌ على الامتناعِ عن السؤالِ عن سببِ الفعل مع غرابة الفعل في ذاته، وهذه طاقةٌ عاليةٌ في الصبر، فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحۡدِثَ﴾: أصلُ (حدث) هو كون الشَّيْءِ لم يكن، يُقالُ: حَدَثَ أَمرٌ بعد أَنْ لم يكن، والحديثُ من هذا لأَنَّهُ كَلامٌ يَحْدُثُ مِنْهُ الشَّيْءُ بعد الشَّيْءِ[3]، والحديثُ نقيضُ القَديم، وأَحْدَثَه: ابْتَدَأَهُ وابْتَدَعَهُ، ولم يكنْ قبلُ[4]، وحدثَ الأمرُ: وقعَ، وأحدثَه اللّه: أوقعه

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 10/ 114.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدث).

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حدث).

وأظهره[1]، وإِحداثُ الشيء: إيجادُه، والمُحدَث: ما أوجدَ بعد أنْ لم يكن[2].

ومعنى ﴿أُحۡدِثَ﴾: أُنشئَ وأُبرزَ[3]؛ أيّ: لا تكنْ أنتَ البادئَ بالسؤال، فلا تستخبرني عمّا تراه مني، بل اصبرْ حتى أكونَ أنا المبتدئَ لتعليمك إيّاه وإخبارك به[4].

2) ﴿ذِكۡرٗا﴾: الذِّكْرُ: الحفظُ للشيءِ[5]، وذَكَرْتُ الشَّيْءَ: خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ[6]، والذِّكْرُ والذِّكْرى (بالكَسْرِ): نَقيضُ النِّسْيانِ، والذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأَظهرتَه[7]، والمُراد بـ﴿ذِكۡرٗا﴾: أيْ: ذكرُ اللسانِ[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

جعلَ الخضرُ الاختيارَ إليه مع شرْط عدم المبادرة بالسّؤال مهما كان نوعه

قال الخَضِرُ لموسى على سبيلِ التأكيد والتوثيق: يا موسى إنْ رافقتني وصاحبتني الآن فلا تسألني عن شيء أعملُهُ ممّا تستنكره، فإنّي قد أعلمتُكَ أنّي أعملُ العملَ على الغيبِ الذي لا تحيطُ به علمًا حتى أُحدث أنا لكَ ممّا ترى من الأفعال التي أفعلُها وتستنكرها ذكرًا أُبيّن لك به شأنها، وأبتدئُكَ الخَبرَ عنها[9].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

شرطُ الصّحبةِ قبلَ بَدْءِ الرِّحلة من أمانة الاصطحاب

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ عن التي قبلها؛

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حدث).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 222، والسمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 379.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 485، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 379.
(5) الخليل، العين: (ذكر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 71.

إمّا لأنّها جاءتْ جوابًا عن وعد سيدنا موسى ﷺ بالصبرِ وعدمِ المخالفةِ في قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾، على طريقةِ المُحاوَراتِ التي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكرارِه بتكرارِ أفعالِ القولِ، أو لكونها استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ مُقدَّرٍ نشَأ عنها من السّياقِ؛ أيّ ممّا قبلها، وذلك أنّه بعد أنْ أكّدَ موسى وعده بالصبرِ وعدمِ المخالفة بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ كأنَّه قيل: فماذا كانَ جوابُ الخَضِرِ؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾[1].

معنى الفاء في جملة ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾:

التـزامُ موسى ﷺ الصّبرَ والطّاعة شرطٌ للتّعلُّم والأدب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ تفريعٌ على وعْدِ موسى إيّاهُ بأنَّه سيَجِدُهُ صابرًا، ففَرَّعَ على ذلك نهيَه عن السّؤالِ عن شيءٍ مِمّا يشاهدُه من تصرفاتِه حتّى يُبَيِّنَهُ له من تلقاءِ نفسه[2].

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

بين حريّة الاختيارِ والإلزامِ بالمختارِ يُتحصّلُ العلم

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن جوابِ الخَضِرِ النهائي بالجملة الشّرطيّة التي من شأنها أنْ تتعلّق بالمستقبل، وبحرفِ الشرطِ ﴿فَإِنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾، ولم يَقُلْ: (اتَّبِعني)، فلم يأمره بالاتّباع؛ بل خلّى بينه وبين ما يريد، وهذا من تأدُّبِ الخَضِرِ مع موسى ﷺ؛ ليجعلَ لموسى حريّةَ الاختيارِ في الاتّباع؛ فإنَّها أنفعُ للتّابعِ، إلّا أنّه حرصًا على الإلزامِ والإفادةِ بعد قَبولٍ سبقتهُ حريّةُ واختيارٌ شَرَطَ الخَضِرُ على موسى شرطًا فقال: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾[3].

دلالة التّعبير بـ (إن) دون (إذا):

عدمُ تيقّنِ الخَضِرِ من قبولِ موسى الشّرط والالتزام به علّة للسّياق الشّرطيّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الجملة الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾، بحرفِ الشّرط (إنْ) دون (إذا)؛ لكونها أنسبَ

(1) الهَرَري، تفسير حدائق الروح والريحان: 16/ 445.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 373.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 534.

للسياقِ الذي يؤكّدُ فيه الخَضِر عدمَ صبرِ موسى على صُحبته، وما سيصدرُ منه من أفعالٍ لا يعلمُ حقيقتها، ولحالِ موسى وما كان يتّصفُ به من حميَّة، جعلته يعلّق صبره بمشيئة اللّه استعانةً به ليسهلَ عليه الأمر، فهذا كلّه يناسبه استعمال (إنْ) دون (إذا)؛ لأنّ الأصلَ في استعمال (إنْ) أنْ تدخل على المشكوك فيه، أو النادر، أو المستحيل بخلاف (إذا) التي تدخلُ على ما تيقّن وقوعه أو رجَح، فدلّ استعمال (إنْ) على عدم تيقّنِ الخَضِرِ من قبولِ موسى الشرط والالتزام به.

سرُّ استعمال الفعل ﴿ٱتَّبَعۡتَنِي﴾:

من شرطِ صُحبةِ الخَضِرِ اتّباعُه دون منازعةٍ ولا اعتراض

عبّر البيانُ القرآنيّ بالفعل ﴿ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ ولم يَقُلْ: (فإنْ صحبتني)؛ لمناسبة السياق؛ فإنَّ موسى قد سألَ الاتّباع في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾؛ فناسبَ أن يكونَ جوابُ الخَضِر من جنسِ السؤال فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾، ولِما فيه من التأكيدِ على شدّةِ حرصِ الخَضِرِ على تحقيقِ المبالغةِ في الاتّباع من موسى، والطاعةِ وعدمِ المخالفة والتّسليم، وترك المنازعة والاعتراض[1]؛ لأنّ المتابعةَ عبارةٌ عن الإتيانِ بمثْلِ فعْل الغيرِ لمجرّد كونه آتيًا به، والمعنى: تتّبعني اتّباعًا بليغًا حيث توجّهتُ.

معنى الفاء في ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾:

النّهيُ عن السّؤالِ أمرٌ يقتضيه الاتّباعُ

فاءُ ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ رابطةٌ لجوابِ (إنْ) الشّرطيّة وهو (لا تسألني)، وقد أفادتْ أنّ الخَضِرَ لم يَنْهَ موسى عن السؤالِ نهيًا مطلقًا في صورته المحضة، بلْ علَّقه على اتّباعه فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾؛ ليُبيّن أنّ هذا النَّهيَ عن السؤال هو أمرٌ يقتضيه الاتّباع، وفي هذا تأكيدٌ على موسى للالتزامِ بما نُهي عنه.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 483.

غرضُ النَّهي في قوله ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾:

دلالةُ النهي في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ النصحُ والإرشادُ لما يقتضي دوامَ الصُّحبة[1]؛ لأنّ النهيَ فيها يتضمّنُ النّصحَ والإرشاد من غيرِ إجبارٍ ولا إلزام، وكذلك يتضمّن التحذيرَ من مخالفةِ شرطِ المُتابعةِ ودوامِ الصُّحبةِ؛ وهو عدمُ السؤالِ والاعتراضِ، وإلّا تعيَّنَ الفِراق والإعراض؛ لأنّ السّؤالَ مظنّةُ الاعتراضِ المانعِ للاستفادة.

نهيُ النّصحِ والإرشادِ يُحقّقُ دوامَ الصّحبةِ ويحمي من الفراقِ والإعراض

سرُّ التّعبير بالسّؤال في ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ السُّؤال في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يَقُلْ مثلًا: (فلا تعترض) أو (لا تطلب معرفة شيء)؛ لأنّ النَّهي عن السّؤال أوسعُ دلالةً وأخصرُ لفظًا وأبلغُ في المُراد، وهو تحقيقُ التسليم المُطلَق؛ إذ إنّ النَّهي عن السّؤال يشملُ عدمَ الاعتراضِ من باب أَوْلى، يقول أبو السعود: "لا تُفاتحني بالسؤالِ عن حكمته، فضلًا عن المناقشة والاعتراض"[2]، أمّا لو قال فلا تعترضْ؛ فإنّه لا يشملُ الاستفهامَ عن الفعلِ والاستخبارَ عن سببه وعلّته وحكمته؛ والسُّؤالُ: اسْتِدْعاءُ معرفةٍ، أَو ما يُؤَدّي إلى المعرفة، وقد يكونُ للاسْتِعلامِ، وقد يكونُ للتَبْكيتِ[3].

السؤالُ أبلغُ وأوجزُ في تحقيقِ المرادِ وهو كمالُ عدمِ الاعتراض

توجيهُ القراءات الواردة في الفعل ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾:

قرأَ نافعٌ وابن عامر وأبو جعفر: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلَنِّي﴾ بفتح اللام وتشديد النّون على أنّه مضارعُ (سَأَلَ) المهموز مقترنًا بنونِ التَّوكيد الخفيفة المُدغمة في نونِ الوقاية، وبإثباتِ ياء المتكلم وقفًا ووصلًا إلا ابن ذكوان عن ابن عامر فقد حَذَفَ ياء المتكلّم نُطقًا بخلف عنه:

تحقيقُ حصولِ أكملِ أحوالِ المتعلّمِ مع المعلّمِ في قراءةِ التّشديد

(1) أبو العباس القرطبي، المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: 6/ 203، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 18.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 235.

(3) الراغب، المُفردات، ص: 438، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 2/ 160.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلَنِّيْ﴾، وقرأ الباقون: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي﴾ بسكون اللام وتخفيف النون، وأثبتوا ياء المتكلّم[1].

وكلتا القراءتيْن بمعنًى واحد[2]؛ إلا أنّ قراءةَ التشديد أفادتْ تأكيدَ النّهي عن السّؤال بحرف التوكيد (نون التوكيد)؛ تحقيقًا لحصولِ أكملِ أحوالِ المتعلّم مع المعلّم؛ لأنَّ السّؤالَ قد يُصادفُ وقتَ اشتغالِ المسؤول بإكمالِ عمله فتضيق له نفسه، فربما كان الجوابُ عنه بدون شَرَه نفْسٍ، وربما خالطه بعضُ القلقِ فيكون الجوابُ غيرَ شاف، فأرادَ الخَضِرُ أنْ يتولّى هو بيانَ أعماله في الإبّان الذي يراه مناسبًا؛ ليكون البيانُ أبسطَ والإقبالُ أبهجَ، فيزيدَ الاتصالُ بين القرينيْن[3].

البيانُ لبُعد أعمالِ الخَضِر عن مألوفِ موسى والتّأكيدُ على ضرورة صبره

معنى حرف الجرّ ﴿عَن﴾ في السّياق:

حرفُ الجرّ ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ متعلقٌ بـ ﴿تَسۡـَٔلۡنِي﴾، والسُّؤالُ إذا كان بمعنى الاستخبار وطلبِ المعرفة تعدّى بـ﴿عَن﴾، ومعناهُ المجاوزةُ والبعدُ والمفارقةُ؛ لأنّ السّائل إنّما يسأل عن شيءٍ بَعُدَ عنه، وتجاوزَ إدراكه، فـ﴿عَن﴾ تُعبّر عن هذا البُعْدِ الحاصلِ ما بين السّائل والسّؤال، وفي هذا إشارةٌ من الخَضرِ إلى بُعْد ما سيقومُ به من أشياء عمّا يتوقّعه موسى ويقبله؛ زيادةً في التأكيدِ على موسى بالصبرِ والطاعةِ.

عدمُ الاستعجالِ بالسّؤالِ عن أيّ شيءٍ شرطٌ لصحبةِ الخَضِر

سرُّ التّنكير في لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾:

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ لكون لفظةِ ﴿شَيۡءٍ﴾ نكرةً في سياقِ النهي، والمعنى: لا تسألني عن أيّ شيءٍ أقوله أو أفعله ولو استقبحته

(1) ابن زَنْجَلَة، حجة القراءات: 1/ 423، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 311، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 485.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.

أو استنكرتَه حتى أُبيِّنه لكَ من تلقاءِ نفسي[1]، وكذلك لإفادةِ التّقليل؛ والمعنى: لا تسألني عن أيّ شَيْءٍ مهما كان قليلًا، والنّهيُ عن الشّيء القليلِ يقتضي النّهي عن الشّيء الكثير بطريقِ الأَوْلى.

معنى الحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياق الآية:

ابتداءُ الخَضِرِ بالبيانِ غايةٌ تستدعي الصّبرَ والانصياعَ من موسى

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ حرفُ غاية، تقديره: فلا تسألني إلى إحداثي لك منه، أي ابتداءُ الخَضِرِ بالبيانِ لما يستغربه موسى هو غايةٌ مضروبةٌ تستدعي غاية تؤدّي إليها، وهي صبرُ موسى على عدمِ السؤال وطاعته للخضر، والمعنى: فلا تبتدئني بالسؤالِ عن شيءٍ أنكرتَه منّي ولم تعلم وجهَ صحّته حتّى أبتدئك ببيانه[2].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿أُحۡدِثَ﴾ دون غيره:

أفعالُ الخَضِرِ تحتاجُ إلى بيانٍ وتعليلٍ لا يملكه إلّا الخَضِر

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿أُحۡدِثَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ دون غيره من الألفاظ لاتّساع دلالته؛ إذ إنّه يشتمل على معانٍ كثيرة؛ منها: الابتداءُ والابتداعُ لشيء جديد لم يكن، والوقوعُ، والإظهارُ، والإبرازُ، والإيجادُ، والإنشاءُ، والبيانُ، بما يدلُّ على بيانِ وإبرازِ شأن ما لم يُحطْ به موسى خُبرًا بشكلٍ ظاهرٍ واضحٍ مُعلّلٍ لم يُسبقْ إليه، ولا يمكن الوصول إليه بأسبابِ التّعلُّم، بما يُحقّق إيجازًا في اللفظِ وثراءً في المعنى، ويفيدُ التّنبيهَ لموسى بأنّه مهما اجتهدَ في معرفةِ حِكَم أفعالِ الخَضِر فلن يقفَ عليها، ويفيدُ أنّه لا يملكُ الإخبارَ عنه وإحداثه أحدٌ غير الخَضِر، وفي هذا حثٌّ على التسليمِ المُطلقِ للخَضِرِ وعدم المعارضة والمنازعة.

معنى اللّام في ﴿لَكَ﴾ ومرجع الضّمير فيها:

التّعليمُ والتّبيينُ في هذه الرّحلةِ لموسى خاصّةً دونَ غيره

لام ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ للاختصاصِ؛

---

(1) الكتّاني، تفسير القرآن الكريم: 13/ 6.

(2) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 131.

فتبيينُ الخضِرِ لوجه صوابِ الأفعالِ التي سيقومُ بها سيكونُ خاصًّا بموسى ﷺ دونَ غيره[1].

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكَ﴾:

الاهتمام والعناية بالخضر وبطاعته من بيان السّياق

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبه الجملة ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾، للاهتمامِ والعنايةِ بالمُقدَّم ورفعةِ شأنه، وفي هذا إشارةٌ إلى ضرورةِ الاحترامِ المتبادَل بين المعلّم وتلميذه، وتوقير المعلّم والاهتمام به، وكذلك فيه زيادةُ تطمينٍ للخَضِرِ وإغراءٌ بقبولِ متابعة موسى له، وأيضًا مراعاةً للفاصلةِ القرآنيَّة.

معنى (من) وعود الضَّمير في قوله ﴿مِنۡهُ﴾:

بيانُ عللِ أفعالِ الخَضِر وتوجيهاتِها وحِكَمِها

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ بيانيّةٌ؛ أي: لبيانِ ما أُبهم قبلها ﴿شَيۡءٍ﴾؛ أيّ: بيانُ ما يراه موسى من أفعالِ الخَضِرِ التي لا علمَ له بوجوه صوابها، ويكون بذلك الضمير (الهاء) في (منه) يعود إلى ﴿شَيۡءٍ﴾؛ أيّ: لا تسألني عن شيء تشاهده حتى أبتدئَ أنا بكشفِ غوامضه وبيان حكمته، وأبتدئك الخبرَ عنه.

المُراد بلفظ ﴿ذِكۡرٗا﴾ وسرُّ التّعبير به:

تطمينُ موسى بأنّه سيُبَيّن له ما خفي عنه بصريح البيان

المُرادُ بالذّكر في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ ذكرُ اللسان، والمعنى: حتى أُبرزَ وأُبيّنَ العللَ والتوجيهات وأكشِفَ لك الغوامض التي رأيتها[2]، ففيه تطمينٌ لموسى بأنّ الخَضِرَ سيُبيّن له حكمةَ أفعاله الغريبة بأصرحِ ما يكون، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ من آدابِ المُتعلّم أمام المعلّم والتابعِ للمتبوع ألا يبادره بالسؤال حتى يُبيّن هو ما عنده[3].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحداثُ والإنشاءُ:

الإحداثُ ابتداءُ الشّيءِ وإيجاده وإظهاره، والإنشاءُ إيجادُ الشّيءِ وتربيته

يتقاربُ لفظا (الإحداث) و(الإنشاء) إلى درجةِ الترادفِ، ولا يكادُ يُفرَّق بينهما، إذ يشتركان في معنى ابتداء الشّيء وإيجاده بعد أنْ لم يكن، ومع هذا التقارب الكبير توجد بعض الملامح الدقيقة التي تُميِّز كلَّ لفظٍ عن الآخر، وإيضاحُ ذلك من خلال الآتي:

أصلُ (حدث) هو كَوْنُ الشَّيْءِ لم يكن، يُقالُ: حَدَثَ أَمرٌ بَعْدَ أَنْ لَم يَكُنْ، والحديثُ مِنْ هَذا؛ لأَنَّهُ كَلامٌ يَحْدُثُ مِنْهُ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ[1]، والحَديثُ: نَقيضُ القَديم، وأَحْدَثَه: ابْتَدَأَهُ وابْتَدَعَهُ، ولم يكنْ قبلُ[2]، وحَدَثَ الأمرُ: وقعَ، وأحدثه اللّه: أوقعه وأظهره[3]، وإحْداث الشيء: إيجاده، والمُحدَثُ: ما أوجدَ بعد أنْ لم يكن[4].

والإنشاءُ في أصله يدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ، والنَّشْءُ والنَّشَأُ أَحْداثُ النّاسِ[5]، والإِنْشاءُ الابتداءُ، وأَنشَأَ فُلانٌ حَديثًا: ابتدَأَ حَديثًا ورَفَعَه[6]، والإنشاءُ ابتداءُ الخَلْقِ، وكلّ مَن ابتدأ خلقَ شيءٍ واخترعه فقد أنشأه، والنّشأةُ: إحداثُ الشّيءِ وتربيته، والإنْشاءُ إيجادُ الشّيءِ وتربيتُهُ[7].

إذن؛ يتميّز لفظُ الإحداثِ بمعنى الابتداء والإيجاد ووقوع الشيء بعد الشيء وإظهاره، بينما يتميّزُ لفظُ الإنشاءِ بمعنى الابتداء والارتفاع، فهو ابتداءُ الشيء وإيجاده وتربيته، فالنُّشوءُ يشملُ الوجودَ ومرحلةَ النّمو إلى قُربِ تمام القوّة[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدث).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (حدث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (حدث).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 222، والسَّمين الحلبي، عُمْدة الحُفّاظ: 1/ 379.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).
(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 807، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: 4/ 175.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (نشأ).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد أنْ تَمَّ بينهُما الاتِّفاقُ كانت بدايَةُ الانطلاقِ في السّفينة المُخرَّقة

بعد أنِ اتَّفقَ موسى والخَضِر عليهما السلام بعد المحاورة التي كانت بينهما، ووُضعتِ الشُّروط المناسبة على ألّا يَسألَ موسى عليه السلام عن شيءٍ حتى يسمعَ استيضاحَه من الخَضِرِ، أعقبَ البيانُ القرآنيُّ ذلك بأنّهما انطلقا إلى السّاحلِ يطلبان سفينةً يركبان فيها فقال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنطَلَقَا﴾: أصلُ (طلق) يَدُلُّ على التَّخْلِيَةِ والإِرْسالِ، يُقالُ: انْطَلَقَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ انْطِلاقًا[2]؛ أيْ: ذهب، والانْطِلاقُ: سُرعَةُ الذَّهابِ، وطَلُق الرَّجلُ، بالضَّمِّ طَلاقةً: فهوَ طَلْقٌ؛ أيْ: مُسْتَبْشِرٌ مُنْبَسِطُ الوَجْهِ مُتَهَلِّله[3]، وانطلقَ في الكلام: تدفّقَ في الحديث، وانطلقَ لسانُه: تكلّمَ من غير تعثُّر[4]، ومعنى ﴿فَٱنطَلَقَا﴾: سارا مُنطلقَيْن فرحيْن بهذه الصحبة[5].

2) ﴿خَرَقَهَاۖ﴾: أصل (خرق) هو مَزْقُ الشَّيْءِ وجَوْبُهُ، والخَرْقُ: نَقيضُ الرِّفْقِ[6]، الخَرَق: الفُرجة، والخَرْقُ: الشَّقُّ في الحائِطِ والثَّوْبِ وغيره، وخرقَ الأَرض يخرِقها: قَطَعَها حَتَّى بَلَغَ أَقْصاها[7]، والمُراد بالخَرْق في الآية: النَّقبُ والثَّقبُ والشَّقُّ، ضدّ الالتئام[8].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلق).
(3) ابن سيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب: (طلق).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طلق).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خرق).
(8) السّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفّاظ: 1/ 498، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.

3) ﴿إِمۡرٗا﴾: الإمر: الأمرُ العظيمُ الشنيعُ، وقيل: المُنْكَرُ العَجيبُ، وأَمِرَ الشَّيءُ إذا اشتدَّ، وأَمِرَ الشَّيْءُ؛ أَيْ: كَثُرَ وتزايدَ وعظُمَ، والأمارةُ: العلامةُ، وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾؛ أَيْ: شيئًا داهيًا مُنكرًا عجبًا[1]، والمعنى: لقد جئتَ شيئًا عظيمًا مُنكَرًا عجبًا[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

خرقُ السَّفينة واستغراب موسى منه باعتباره مُنكرًا وعجيبًا

يقول تعالى ذِكْره: فانطلقَ موسى والعبد الصّالح العالم يسيران يطلبان سفينةً يركبانها، حتى إذا أصاباها ركبا في السفينة، فلمّا ركباها خرقَ العالمُ السفينة، فقال له موسى: أخرقتَها بعد ما لَجَجنا في البحر؛ لتُغرِقَ أَهلَها، لقد جئتَ شيئًا عظيمًا، وفعلتَ فعلًا مُنْكرًا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ وبلاغةُ العطفِ:

سرعة الانطلاقِ في رحلةِ العِلمِ وبيان الشروعِ فيها بخوارق مُستغرَبة

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ على ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّها عاطفة؛ وتفيد ثلاثة أمور: التَّرتيب والتَّعقيب؛ أيْ أنَّهما عقبَ أخذِ هذه المواثيق انطلقا فور ذلك الاتِّفاق[4]، والسَّببيَّة؛ أي إنّ انطلاقَهما كان بسببِ اتفاقِهما على شروطٍ ومواثيقَ التزما بها[5]؛ أيْ "لَمّا تشارطا وتراضيا على الشّرط سبَّبَ قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾"[6].

الثّاني: أنّها فصيحة، لكونها أَفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديرُهُ: إذا عرفْتَ ما تَقاوَلا، وأردْتَ بيانَ حالِهما بعد ذلك فأقولُ لك: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (أمر).
(2) البَغوي، معالم التنزيل: 3/ 206، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 735.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 72.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 132.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 110.
(7) الهَرَري، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 454.

الثّالث: استئنافيّةٌ؛ والجملة مستأنفةٌ مسوقةٌ للشّروعِ في الأمور الثلاثة التي خفيتْ بواطنها عن موسى وبدتْ له ظواهرها مُستنكَرَة[1]؛ أيْ للشروع في محطّة جديدة من هذه القصّة.

سِّر التّعبير بقوله ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ دون (فانْطَلَقوا):

في الاسْتغناءِ عن ذِكْرِ التّابِعِ تركيزٌ على حالِ المتبوعِ مع الخَضِر

جاء النّصُّ القرآنيُّ بصيغةِ المُثنّى ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ الذي يدلّ على موسى والخَضِر فقط، ولم يأتِ بصيغةِ الجمعِ مع أنَّ فتى موسى قد صحِبهما بدليلِ ما جاء في الحديث: "مرَّت بهم سفينةٌ فكلَّموهم أنْ يَحمِلوهم فعرفوا الخَضِرَ فحمَلوه بغير نَوْل"[2]، فجاء بواو الجماعة ليدُلَّ على أنّهم كانوا جماعة[3]؛ وذلك للاقتصار على ذِكْرِ المتبوعِ دونَ التّابعِ[4]، على اعتبارِ أنّ التّابع تابع[5]؛ لأنّ غرض القصّة هو ما حدثَ بين موسى والخَضِرِ، وذِكرُ ما كان بينهما، وأمّا فتى موسى معه فهو تَبَعٌ.

ويحتملُ أنْ يكونَ فتى موسى (يُوشَعُ) تأخَّر عنهما، وأنَّ موسى صَرَفه ورَدَّه إلى بَني إسرائيلَ؛ لأنَّ المذكورَ انطلاقُ اثنَيْنِ[6].

نكتة استعمال ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾:

بَيانُ غايةِ انْطلاقِهما بركوْبِ السَّفينةِ المذكورة

جاءتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾ ابتدائيَّة؛ أي ابتدأ بعدها بجملة مُستأنَفةٍ، وهي كذلك حرفٌ لانتهاء الغاية كـ(إلى) جاءتْ للدّلالةِ على المستقبلِ بإفادةِ غاية الانطلاق؛ أيْ: فانطلقا إلى أنْ ركبا في السَّفينة؛ أيْ: جعلا ركوبهما السّفينة

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 7.

(2) صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: 60]، رقم الحديث: (4725).

(3) حقي، روح البيان: 5/ 277.

(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 554.

(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 328، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 206.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 206، وحقي، روح البيان: 5/ 277، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 554.

غايةً لانطلاقهما، وفي الكلام إيجازٌ دلَّ عليه قوله: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾، وتقدير الكلام: انطلقا حتى استأجرا سفينةً فركباها فلمّا ركبا في السَّفينة خرقها[1].

سرُّ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

تغليبُ الظَّرفيَّةِ مفيدٌ لتحديد المطلوب وبيانه

عبَّر النَّص القرآنيّ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن)، في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾؛ إمّا لأنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرف للزَّمان الماضي هنا، وليستْ مُتضمِّنةً معنى الشَّرط، فآذن ذلك بأنَّ الخَضِرَ أخذَ في خرقِ السَّفينة وقت ركوبهما، فدل ذلك على أنّ الركوبَ فيها كان لأجلِ خرقها؛ لأنّ الشيءَ المقصود يُبادرُ به قاصده، فهو قد دبّره وارْتآه من قبل[2]، وبهذا يظهرُ لنا أنّ القرآن لم يستعملْ (إنْ)؛ لكون (إنْ) تأتي للشّرطيَّة، وليس فيها معنى الظّرفيَّة، بخلاف ﴿إِذَا﴾ فقد تأتي في معنى الشرط، وقد لا تأتي بمعنى الشّرط، وإنّما للظّرفيَّة الزّمانيَّة.

أو أنْ تكون ﴿إِذَا﴾ شرطيّة[3]، وبهذا يكون استعمالُ ﴿إِذَا﴾ التي تختصُّ بدخولها على المُتيَقّن والمظنون والكثيرِ الوقوع، دون (إنْ) التي تُستعملُ في المشكوكِ والموهوم النّادر[4] أنسبَ للمقام؛ إذ إنّ خرقَ الخَضِر للسفينة أمرٌ مُشاهَدٌ مُتيقَّنٌ.

دلالة التَّعبير بفعل الرُّكوب ومجيئه ماضيًا:

تحقُّقُ الدُّخولِ في السَّفينةِ والاسْتقرارِ فيها من بيان السّياق

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفعل ﴿رَكِبَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ لأنَّ معنى الرُّكوب العلوُّ على شيءٍ[5] له حركة، إمّا إراديّةٌ كالحيوان، أو قسريةٌ كالسَّفينة والعجلة ونحوهما، فإذا استُعملَ في الأوّل توفّرَ له حظُّ الأصل، فيُقال: ركبتُ الفَرَس،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 736، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 7.
(4) السيوطي، الإتقان: 2/ 178.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركب).

وعليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النّحل: 8]، وإن استُعملَ في الثّاني يلوّح بمحليَّة المفعول بكلمة ﴿فِي﴾، فيُقال: ركبتُ في السَّفينة، وظاهره أنّ الركوبَ ها هنا حقيقيٌّ، وصرّح بعضهم بأنّه ليس بحقيقيٍّ[1]، أو ضُمّنَ الرّكوبُ معنى الدُّخول؛ لأنَّه ركوبٌ مَجازيٌّ، وإنَّما هو جلوسٌ واستقرار، فلا يُقال: ركِبَ السّفينة[2].

وعلى كلا المعنيَيْن للرّكوب يكون البيانُ القرآنيّ قد آثرَ لفظ الرّكوب لمناسبةِ المقام؛ وهو الركوب على سفينةٍ لها حركة، بخلاف ما لو عبّر بالدّخول.

وجاء فعل ﴿رَكِبَا﴾ بصيغة الماضي دون المضارع؛ للدّلالة على تحقّقِ وقوعه؛ أيّ وقوع فعل الرّكوب منهما باعتبارِ أنّ الّذي يقصّ القصّة، وينقلُ الوقائع إنَّما هو القرآن، حيث يقصُّ أحداثها التي مضتْ وانقضتْ.

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

المبالغةُ في الدّلالةِ على الاستقرارِ والتّمكُّنِ من السّفينة

عدّى القرآن الكريم فعل الركوب في قوله تعالى: ﴿رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ بحرف الجرّ ﴿فِي﴾، فلم يَقُلْ (ركبا السفينة)؛ إمّا لأنّه ضمّن الرُّكوبَ معنى الدخول، فهو ركوبٌ مجازيٌّ[3]؛ إذْ هو جلوسٌ واستقرار، فلا يُقال: ركِبَ السفينة[4]، أو لأنّه - عند مَن عدّ الركوبَ حقيقيًّا - أرادَ إفادةَ المبالغةِ في الدّلالة على الاستعلاءِ والاستقرارِ والتّمكُّن بالعدول عن حرف الاستعلاء (على) إلى حرف الوعاء ﴿فِي﴾؛ لأنّ حرفَ الوعاء أقعدُ وأمكنُ من حرف الاستعلاء الذي قد يُشعر بالاستعلاءِ من غير تمكّنٍ واستقرارٍ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 73.

وأمّا ﴿فِي﴾ فتُشعر ها هنا بالاستقرارِ والتّمكّن، ومن حقّ ما يكون مستقِرًا فيه مُتمكّنًا أنْ يكون مُستعليًا له، فلمّا كانت تؤذنُ بالمعنيَيْن جميعًا آثَرَها وعدلَ إليها(1).

سرُّ التَّعريف بـ (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾:

(أل) التّعريف في ﴿ٱلسَّفِينَةِ﴾ للعهد الذهني الذي أشارَ إليه السّياق بذِكْر مَجْمَع البحريْن، وأنَّ انطلاقَهما كان لطلبِ سفينة، فكانتْ لذلك كأنّها مُستحضرةٌ في الذِّهن(2)، لأنّ قوله: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79] يدلُّ على أنّها معروفةٌ عند الخَضِر.

زيادةُ الاستغرابِ والإنكارِ من موسى لفعلِ الخَضِرِ الصّادم

وفي كونها عهديَّةً زيادةُ استغرابٍ وإنكارٍ من موسى عليه السلام لما فعلهُ الخَضِرُ بسفينةٍ معلومةٍ لديه، فقد أكرمه أصحابُها بالركوب من غير نولٍ لكونهم يعرفونه كما ورد في الحديث: "فعرفوا الخَضِرَ؛ فحملوه بغير نول"(3).

ويرى بعض المُفسّرين أنّ اللّامَ هنا لتعريفِ الجنس؛ إذ لم يتقدّم عهدٌ في سفينةٍ مخصوصة(4).

حقيقةُ الخرقِ وسرُّ التّعبير بالفعل ﴿خَرَقَهَا﴾:

خَرْقٌ في ظاهرِه فسادٌ وفي باطنِه حمايةٌ وصلاحٌ

حقيقةُ الخرقِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ يظهر أنَّه خرقٌ لم يضر السفينة؛ ولذلك لم يَغرقْ من أهلها أحدٌ(5)، وتحقّقَ المقصودُ من خلال هذا الخرق؛ وهو صرفُ الملكِ عن السَّفينةِ لوجودِ عيبٍ فيها.

ولهذا عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿خَرَقَهَا﴾ دون غيره، فلم يَقُل:

(1) المؤيد بالله العَلَويّ، الطِّراز: 2/ 32.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 111.
(3) جزء من حديث رواه البخاري، رقم: (4725).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 315.
(5) تفسير ابن عرفة: 3/ 96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.

(أفسدها)؛ لأنّ أصلَ الخرقِ هو مَزقُ الشّيءِ وجَوبُهُ[1]، وهو فعلٌ يؤدّي إلى الفساد غالبًا، ولا يعني تحقّقَ الفساد، بل قد يكون عينَ الإصلاحِ، بينما الفسادُ أصله نَقيضُ الصَّلاحِ، والفسادُ: خروجُ الشيءِ عن حالِ استقامته وكونه مُنْتَفعًا به، وذهابُ نفعه المقصود منه؛ أيّ: تلفه وهلاكه[2]، كما أنّ الخرقَ نَقيضُ الرِّفْقِ[3]، وهذه المعاني للخرقِ تتناسبُ مع حالِ موسى والخَضِر؛ إذ إنّ ما ظهرَ لموسى هو خرقٌ بدون رفقٍ، وظاهرهُ يؤدّي إلى الفسادِ بما سيؤولُ من حدوث إغراقِ أهلِ السفينة، ولهذا أنكر فِعْلَ الخَضِر قائلًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، كما أنّ لفظَ الخرقِ أنسبُ مع حالِ الخَضِر؛ فهو في ظاهره خرقٌ، وفي حقيقته عين الإصلاح؛ إذ لم يُفسد السفينة ويتلفها ويُخرجها عن الانتفاعِ بها؛ وإنّما حماها من غصبِ الملك الظالم.

مُسارعة موسى لإنكارِ خَرقِ السَّفينةِ يقتضيه ظاهرُ الشَّريعة

سرُّ الفصلِ في قوله: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا﴾:

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ جملة: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ عمّا قبلها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا﴾ ولم يربطْ بينهما؛ لأنَّ الجملةَ الثّانية جاءتِ استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ مُقدّر نشَأ عنها ممّا قبلها؛ وذلك أنّه بعد أنْ خرقَ الخَضِرُ السفينةَ كأنَّه قيل: فماذا كان تصرُّفُ موسى؟ فقيل: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؛ أيّ أنكرَ فعلَ الخَضِرِ لما في ظاهرِه من الفسادِ بإتلافِ المالِ المُفضي إلى فسادٍ أكبر منه بإهلاكِ النُّفوس[4].

الإنكارُ المُعلّل من موسى للعدوان على الأبرياء مبرّرٌ ظاهرًا

دلالةُ الاسْتفهامِ في قوله تعالى ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾:

جاء حرفُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾ للإنكارِ على الرَّجل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (فسد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرق).
(4) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 111.

الصّالح لما قامَ به من خرقِ السفينة[1]، ومحلُّ الإنكارِ هو العلّة بقوله: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾؛ لأنَّ العلَّةَ ملازمةٌ للفعلِ المستَفهَم عنه، ولذلك تَوَجَّهَ أنْ يُغَيِّرَ موسى عليه السلام هذا المُنكرَ في ظاهرِ الأمر؛ لأنّه عدوانٌ ظاهر على الأبرياء، لا مبرِّر له، ولا عُذرَ لمُرتكِبِه[2].

دلالةُ اللّام في قوله ﴿لِتُغۡرِقَ﴾:

بين بيانِ عاقبةِ خَرقِ السّفينة وتعليلِ إنكارِ موسى

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ لامُ العاقبة والصَّيرورة؛ أيّ: أخرقتها لتؤدّيَ عاقبةُ هذا الأمرِ إلى غرقِ أهلها؛ بناءً على أنَّ موسى عليه السلام حسَّن الظنَّ بالخَضِر[3]؛ لأنَّ موسى عَلِم أنَّ الخضِرَ لم يقْصِدْ إغراقَ أهلِ السّفينة[4]؛ لأنَّه لو أرادَ أنْ يُغرقَ أهلها لكان أوَّل مَن سيغرق هو وموسى، أو هي لامُ التّعليل[5]؛ لكونه الأنسبَ لمقامِ الإنكار[6].

معنى اللّام و(قد) في قوله ﴿لَقَدۡ﴾:

توالي المؤكِّداتِ مبالغةٌ في إنكار موسى على الخَضِر

لام ﴿لَقَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا﴾ هي الموطِّئة لجواب قَسم مُقدَّرٍ، والتَّقدير: (واللّه لقدْ جئتَ شيئًا إمرًا)، وهي لامٌ تفيد التّوكيد، ويجوزُ أنْ تكونَ لامَ الابتداء، وهي لامٌ تفيد تأكيد القَسَم، ويكثُر دخولها في صدرِ الكلام، فلذلك قيل لها: لام الابتداء[7]، وفائدةُ اللّام على الوجهيْن تأكيدُ كلام سيدنا موسى واعتراضه على خرقِ السَّفينة[8].

و(قد) حرفٌ أفاد التّأكيد للمُخبَر به؛ لأنّها إذا سَبقتِ الماضي قرّبته من الحال وجعلته أقربَ للتَّحقيق[9]، إذن توالي المُؤكّدات

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 16/ 446.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 654.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 316.
(4) القُشَيْري، لطائف الإشارات: 2/ 409، والقونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 132.
(5) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 535.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 316.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 396.
(8) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/ 186، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.
(9) المُرادي، الجَنى الداني، ص: 255.

(القَسَم ولامه، أو لام الابتداء، وحرف قد) أفادتِ المبالغةَ من موسى عليه السلام في إنكاره على الخَضِر.

دلالة اصطفاء لفظ المجيء في سياق الآية:

التَّعبيرُ بالمَجيء أنسبُ لما وقع من الخَضِر

عبَّر النَّصُّ القرآني بالمجيء في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا﴾، ولم يُعبّر بالإتيان مثلًا؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وأَشْمَلُ من الإتيان، فهو تمامُ الإتيان، ويُعبّرُ بالمجيء كذلك عن القصدِ بالأمرِ والتدبير[1]، ويكونُ في الشَّيء الّذي فيه صعوبة وشدَّة للوصول إليه، بخلافِ التَّعبيرِ بالإتيان الذي هو مجيءٌ بسهولة[2]، وكذلك المجيءُ يُقال باعتبارِ الحصولِ[3]، وهذه المعاني تتناسبُ مع لفظ ﴿إِمْرًا﴾ الذي وردَ في الآية، وهو الشيءُ العظيمُ الشَّنيعُ العجيب، يُقال: أَمِرَ الأَمرُ؛ أيْ: كَبُرَ وكَثُرَ؛ كقولهم: استفحل الأمر[4]، وتتناسبُ أيضًا مع المقام؛ إذِ الخرقُ قد حصلَ من الخَضِرِ وانتهى، والإنكارُ من موسى على الخَضِر؛ لأنّه كان عن قصدٍ وتدبيرٍ، ولم يكنْ خطأً، كما أنّ حروفَ فعل ﴿جِئْتَ﴾ تتناسبُ في مخارجها وصفاتها مع الفعلِ العظيم، وحالِ موسى وما أصابه من انفعالٍ وحمية.

دلالة فعل المجيء ماضيًا في ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾:

أتى بفعل ﴿جِئْتَ﴾ بصيغة الماضي دون المضارع؛ للدِّلالة على تحقّقِ وقوعهِ؛ أيْ: وقوع فعل المجيء بالشَّيء العظيم؛ وهو الخرق[5]، فما كان من الخَضِرِ من خرقٍ للسفينةِ يستوجبُ أنْ يكون فعلًا عظيمًا لأنّه يؤدي إلى إغراقِ أهلها، فناسبَ هذا إنكار موسى عليه؛ إذ إنّ موسى لن يعاتبه على شيء لم يتحقّق منه، وكذلك ناسبَ الفعل

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 1/ 361.
(2) الراغب، المُفردات، ص: 60.
(3) الراغب، المُفردات، ص: 212.
(4) الراغب، المُفردات، ص: 89 - 90.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 228.

الماضي ما سبقه من حرف (قد)؛ لأنَّ الفعل الماضي بعد (قد) يفيدُ تحقُّقَ الوقوع، ويُقَرِّبُ الماضي من الحال[1].

كما أنّ التعبير بالفعل الماضي هو عادةُ القرآن الكريم؛ إذ لم يردْ لفظ (المجيء) في القرآن إلا بصيغة الماضي.

معنى لفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾ وسرُّ تنكيره:

في التّنكير تهويلٌ وتشنيعٌ بخرقِ السّفينةِ المُستَنْكَر

الأصلُ في لفظ (شيء) أنّه اسمُ جنسٍ يعمُّ ما يُطْلَقُ عليه[2]، ويمكن أنْ يُقال عنه: هو الّذي يصحّ أنْ يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنه، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم، وقد يُطلق عند البعض على الموجودِ فقط[3]، وأمّا السِّرُّ والغرضُ في تنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾ أنّه جاء على خلاف الأصلِ في كلمةِ (شيء) الَّتي تأتي غالبًا للتّقليل، إذ قَصدَ به هنا التهويلَ والتَّعظيمَ لهذا الفعلِ الَّذي قامَ به الخَضِرُ؛ تشنيعًا لهذا الفعل، وهو خرق السَّفينة، وكأنّه لا يمكنُ حصره، ولا يمكنُ وصف مقدارِ المنكرِ الذي قامَ به الخَضِر.

توجيه القراءات في قوله: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾:

تنوّعُ الخطابِ بين شدّةٍ وحُسنِ ظنٍّ في القراءتيْن

وردَ في قوله تعالى: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ قراءاتان متواترتان: في كلمة ﴿لِتُغرِق﴾ بالتّاء والياء، وفي كلمة: ﴿أَهْلَهَا﴾ برفعِ اللّامِ ونصبها، فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ويعقوب وأبو جعفر ﴿لِتُغْرِق﴾ بالتّاء، و﴿أَهْلَهَا﴾ نصبًا، وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿لِيَغْرَق﴾ بالياء مفتوحةً، و﴿أَهْلُهَا﴾ برفع اللّام على أنَّها فاعل (يَغرَق)[4].

أمّا قراءة ﴿لِتُغرِق﴾ على الخطاب فقد نَسَبَ موسى عليه السلام الإغراقَ إلى الخَضِر عليه السلام، فانتقل موسى من الاستفهامِ إلى الاتّهام، فنسبَ

(1) المُرادي، الجَنى الدّاني، ص: 255.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 54.
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 471.
(4) ابن مجاهد، السبعة، ص: 395، وابن الجَزَري، النّشر: 2/ 313.

إليه قصدَ إغراقِ أهلها، وأمّا على قراءة ﴿لِيَغْرَقَ﴾؛ فقد أسندَ فعلَ الغرق للأهل، وجعلَ الغرقَ نتيجةً للخرقِ الَّذي حدثَ في السَّفينة، فتكون اللّام للعاقبة، وتكون التُّهمة للخَضِرِ بالتَّسبُّبِ وليس بالمباشرة، وفيها حسنُ ظنٍّ بالخَضِرِ عليه السلام[1].

معنى ﴿إِمْرًا﴾ وسرُّ التَّعبير بها:

في التَّعبير بـ(إمرًا)، بيانٌ لاستعظام موسى عليه السلام فعل الخَضِرِ ونَكارَتِه واسْتِفْحالِه

معنى ﴿إِمْرًا﴾ في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: شيئًا عظيمًا شنيعًا عَجَبًا مُنكَرًا[2]، وهذا يتناسبُ مع إنكارِ موسى عليه السلام لما رآه من فعلِ الخَضِرِ وخرقه للسفينة، وخاصّة أنّ أصحابَ السفينةِ قد حملوهما بغير نولٍ، فكان خرقها مقابلةً للإحسانِ بضدّه، وهذا لا يمكنُ أنْ يسكتَ عنه موسى وهو نبيٌّ من أولي العزم، ومقامُ الأنبياء في تغيير المنكرِ مقام شدّة وصلاح.

إضافةً إلى ذلك فإنّه لو عبّر بأحدِ المعاني السابقة (عجبًا) أو (شنيعًا) أو (عظيمًا) أو (منكرًا) لاقتصرَ عليه، ولَما شملَ المعاني الأخرى التي تضمَّنها لفظ ﴿إِمْرًا﴾، ولما تحقّقت فيه المناسبة المذكورة للسياق.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الانطلاق والذهاب:

الذهابُ هو المُضيُّ والمرور، والانطلاقُ هو سرعةُ الذّهاب والمرور مع الاندفاع

بين لفظي (الانطلاق) و(الذهاب) تقاربٌ دلالي، إذ يُعرَّفُ الانطلاقُ بالذهاب، ومع هذا التَّقارب هناك ما يتميّز به كلّ لفظٍ عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ (طلق) يَدُلُّ على التَّخْلِيَةِ والإِرْسالِ[3]، والانْطِلاقُ سُرعَةُ الذَّهابِ[4]، وانطلقَ في الكلام: تدفّقَ في الحديث من غير تعثُّر[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8960.

(2) الماوَردي، النُّكَت والعيون: 3/ 327.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلق).

(4) ابن سيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب: (طلق).

(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طلق).

وانْطلقَ الظَّبيُ: مرَّ سَريعًا لا يلوي على شَيْءٍ[1]، والانطلاقُ الاندفاعُ بقوَّةٍ ابتعادًا أو انبساطًا[2].

وأصلُ الذهاب، المُضيُّ والمرورُ والسّير[3]، والذّهابُ الانتقالُ من مكانٍ إلى آخر[4]، وذهبَ الشّخص: انصرفَ، وغادرَ المكان، وسارَ ومضى، وذهبَ الطيبون، ماتوا، وذهبَ الأثرُ: زالَ[5].

إذن، يتميّز لفظُ الانطلاقِ بالتخليةِ والإرسالِ والسرعةِ، والتدفّقِ والاندفاعِ بقوّة، بينما يتميّزُ لفظ الذّهابِ بمعنى المضي والسيرِ والمرورِ، والانصرافِ والمغادرةِ والانتقالِ والزّوال، فالانطلاقُ هو سُرعَةُ الذَّهابِ والمرورُ السريعُ مع الاندفاع.

الخرق والفساد:

الخـرقُ فعلٌ يؤدّي إلى الفسادِ، والفسادُ خروجُ الشّيءِ عن حالِ الاستقامة والصلاح

يوجدُ تقاربٌ بين لفظي (الخرق)، (الفساد) من جهة أنّ الخرقَ فعلٌ يؤدّي إلى فساد، ولكن لكلِّ لفظٍ منهما ملامح تميّزه عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ الخرقِ هو مَزْقُ الشَّيْءِ وجَوْبُه، والخَرْقُ نَقيضُ الرِّفْق[6]، والخَرْقُ أيضًا، القطعُ، والفُرجة، والشّقُّ في الحائِطِ والثَّوْبِ وغيره[7]، والخرقُ قطعُ الشّيء على سبيلِ الفسادِ من غيرِ تدبّر ولا تفكّرٍ، ويُعبّرُ بذلك عن الحمقِ وقلّةِ الحِلمِ وعدمِ القناعة، والخرقُ: النّقبُ والثّقبُ والشّقُّ، وهو ضدّ الالتئام[8].

والفسادُ نَقيضُ الصَّلاحِ، وفَسَدَ الشيءُ، بَطَلَ واضْمَحَلّ، ويكون

(1) المعجم الوسيط: (طلق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (طلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُحكَم: (ذهب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (ذهب).
(5) المعجم الوسيط، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طلق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خرق).
(8) السمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 498.

بمعنَى تَغيَّر[1]، والفَسادُ خروجُ الشيءِ عن الاعتدالِ قليلًا كان الخروجُ أو كثيرًا، ويكون في الأعيان والمعاني[2]، وفسادُ الشيء خروجُه عن حالِ استقامته وكونه مُنتفَعًا به، وذهابُ نفعه المقصود منه[3].

إذن، يتميّز الخرقُ بمعنى المزقِ والشقِّ والقطعِ والثقبِ والنقبِ، ويرتبطُ فعلُ الخرقِ مع قصدِ الفساد، بينما يتميّز لفظُ الفسادِ بمعنى البطلان والتّلفِ والتّغيُّر، وخروجُ الشيءِ عن كونه مُنْتَفَعًا به؛ أي: غير صالحٍ للانتفاع.

الإمرُ والنُّكْرُ والصَّعْبُ:

الإمــرُ الــشّيءُ الــشّــنــيــعُ العجيب، والنُّكْرُ الأمــرُ الــخــارجُ عــن المــألــوفِ، والصّعبُ الأمرُ المُمتنعُ

تتداخلُ معاني هذه الألفاظ وتتقارب، وقد يُعرّفُ أحدها بالآخر، ويُستعملُ أحدها موضعَ الآخر، كما أنّ جميعها فيها معنى الشدّة، وبالمقابل فإنّ لكلّ لفظ من هذه الألفاظ ما يتميّز به عن غيره، وإيضاح ذلك:

الإمر: الأمرُ العظيمُ الشنيعُ، وقيل: المُنْكَرُ العَجيبُ، وأَمِرَ الشَّيءُ إذا اشتدَّ وكَثُرَ، وتزايدَ وعظُمَ، والأمارةُ: العلامةُ، وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾؛ أيْ: شيئًا عظيمًا داهيًا مُنكرًا عجبًا[4]، من قولهم: أَمِرَ الأَمرُ؛ أيْ: كَبُرَ وكَثُرَ؛ كقولهم: استفحلَ الأمر[5].

والنُّكْرُ في أصله يدلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ وأنكَرَهُ: لم يقبَلْه قلبُه، ولم يعترفْ به لسانُهُ، فالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، والأَمرُ الصَّعبُ الشَّديدُ[6]، ونَكُرَ الأمرُ: صعُبَ واشتدّ، وقبُحَ وكرهته النَّفس وصارَ مُنكرًا[7]، والمُنْكَرُ مِنَ الأَمر: خِلافُ المَعروفِ، وكلُّ ما قَبَّحَهُ الشَّرعُ وحَرَّمَهُ وكرِهَهُ فهو مُنكَرٌ[8].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(2) الراغب، المفردات، ص: 636، والسمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 3/ 229.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (فسد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (أمر).
(5) الراغب، المُفردات، ص: 89 - 90.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (نكر).

والصعبُ: خِلافُ السهلِ، والأَمرُ الصَّعبُ نَقيضُ الذَّلول، وصَعُبَ الشيءُ: اشتدّ[1]، والصَّعْبُ: العَسِرُ والأَبيُّ المُمتَنِعُ، ويُقال: عَقَبةٌ صَعْبة إِذا كانت شاقَّة[2]، وصعَّبَ الأمرَ: جعله صعبًا وعسيرًا، ومسألةٌ صَعْبة: مُعقّدة[3].

إذن، يتميّز لفظُ (الإمر): بأنّه الأمرُ العظيمُ الشَّنيعُ العجيبُ الذي اشتدّ واستفحلَ وكثرَ وعظمَ؛ فكان واضحًا ظاهرًا في شناعته، والذي يأمرُ الناسُ بعضهم بعضًا بعدمِ فعله.

ويتميّز لفظ النُّكْر بأنّه الأمرُ الصعبُ الشديدُ الخارجُ عن المألوف والمعروف، والذي اشتدّ قُبْحُه فتُنكرهُ العقولُ والفِطْرةُ والشَّرائع، وتنفرُ منه النفوسُ، ولا يقبله القلبُ ولا يعترفُ به اللسان.

ويتميّز لفظُ الصّعبِ بأنّه الأمرُ المُمتنعُ الشديدُ العسيرُ الشاقّ الذي لا سهولةَ فيه، وأشدُّ هذه الألفاظ هو النُكرُ؛ إذ هو أشدُّ من الإمرِ، والإمرُ أشدُّ من الصّعبِ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صعب).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (صعب).

(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صعب).

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٧٢﴾ [الكهف: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد اندفاع موسى بالإنكار أعقبَه الخَضِرُ بالاستنكار

بعد أنْ خالفَ موسى ﷺ الشرطَ الّذي اشترطه العبدُ الصالح ناسيًا أمامَ صدمةِ التجربةِ العمليّة لتصرّفات الخَضِر، واندفعَ مُنكِرًا عليه بقوله: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ واجهَهُ العبدُ الصالحُ مستنكرًا منه ذلك في لُطفٍ يذُكّرُه بما كان قد قاله منذ البداية: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكيرٌ وعتابٌ من العبدِ الصّالح الأوّاب

قال الخَضِرُ لموسى: لَمّا أنكرَ عليه خرقَ السفينةِ في صبرٍ ولطفٍ يُذكّره بما كان قد قاله منذ البداية: ألم أُخبِرْك بأنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتّباعي؛ لما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ قَبيحٌ؟! وأنَّك لن تَصبِرَ عن سؤالي عن أفعالي؛ لأنَّك لم تُحِطْ بها خُبْرًا ولا تعرف الحكمةَ من ورائها(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ﴾:

لـومُ الخَضِر وعتابُه لموسى عَلى اعتراضِهِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ﴾ عن التي قبلها على طريقةِ المُحاوَراتِ التي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكراره بتكرارِ أفعالِ القول؛ لأنّها جاءتْ جوابًا من الخَضِرِ على كلام موسى واعتراضه؛ وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾.

أو أنّها قد جاءتِ استئنافًا بيانيًا مبنيًّا على سؤالٍ نشأ من الآية

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 73، والنّحّاس، معاني القرآن: 4/ 270، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 183، وطنطاوي، الوسيط: 8/ 555.

السابقة، مفادُهُ: فما قالَ الخَضِر لموسى عند اعتراضه؟ فقيل: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

دلالة الاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾:

تذكيرٌ وتعريضٌ باللَّومِ على عَدمِ وفاءِ موسى بما التَزم به

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ استفهامُ تَقريرٍ وتعريضٍ باللّوم على عَدمِ الوَفاءِ بما التَزم به؛ أيْ: أتُقِرُّ أنّي قُلْتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صَبرًا؟[1]، ويتضمّنُ تذكيرًا لما قاله الخَضِرُ من قبلُ، وتحقيقًا لمضمونه مُتضمّنًا للإنكارِ على عدمِ الوفاء[2].

ولكن في هذا اللوم تلطّف؛ إذْ لم يواجهه بالقولِ؛ فلم يَقُلْ (لك) كما في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ [الكهف: 75] الذي جاءَ بعد إنكارِ موسى على الخَضِرِ مرّة أخرى، فقد زادَ فيه اللوم.

فائدة الجناس في ﴿قَالَ﴾ و﴿أَقُلْ﴾:

بيان الجماليّة في السّمع والتّأكيد على أهميّةِ المقَول

بين اللّفظيْن ﴿قَالَ﴾ و﴿أَقُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يجمعُ ﴿قَالَ﴾ و﴿أَقُلْ﴾ جذرٌ لغويٌّ واحدٌ هو (قول)، إلا أنّ ﴿قَالَ﴾ أتى بصيغةِ الفعل الماضي، و﴿أَقُلْ﴾ أتى بصيغةِ الفعلِ المضارع، ممّا يُعطي جماليةً في السمعِ، بما يحملُ السامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا ويساعدُ على ترسّخه في الذّهن، ويؤكِّدُ على أهميّةِ المقولِ الذي يقوله الخَضِر، وهو تذكيرُ موسى وإقراره بما سبقَ من هذا القول: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ مع العتبِ عليه، وتنبيهه من عدمِ الصبرِ في المرّاتِ القادمة، وذلك بسبب تكرّر الجَذْرَ.

وكذلك مادّة القول تدلُّ على النّطق، بما يشيرُ إلى أنّ الخَضِرَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 235.

أرادَ أنْ يُنبّه موسى إلى أنّه حذره من عدم صبره معه بكلِّ وضوحٍ؛ وهو قوله في الآية قبلها: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

سرُّ تكرار التّوكيد ﴿إِنَّكَ﴾ مع الإضافة إلى ضمير الخطاب:

في تكرارِ عينِ الكلامِ المؤكّدِ مبالغةٌ في التّوكيدِ

أفادَت إعادةُ التّركيب القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ - المتضمّنة عدّة مؤكّدات، وهي: حرفُ (إنّ) الذي يفيدُ التأكيد، والجملةُ الاسميّة التي تَدُلُّ على ثباتِ وقوّةِ الحُكْمِ بعدم صبر موسى وبَقائِه، وحرفُ (لَنْ) الذي يفيدُ تأكيد النفي، وعمومَ الصبرِ المنفي ﴿صَبۡرٗا﴾ - المبالغةَ في تحقيقِ مضمونِ الجملةِ الخبريّة، وهو نَفْيُ حصولِ الصّبرِ من موسى في المستقبلِ على آكَدِ وجْهٍ؛ بتحذيرِ موسى وتنبيهه من عدمِ الصبر، وببيانٍ لخطورةِ أعمالِ الخَضِرِ وغرابتها في المتعارف بحيث لا تُحتمل، وذلك حتى يستمرَّ موسى في متابعةِ وصحبةِ الخَضِرِ إنْ شاء على بصيرةٍ وعلى غيرِ اغترارٍ، وهذا التأكيدُ بسببِ ما وقعَ من موسى من مخالفةٍ للشرطِ، ومن إنكاره بالقول في أوّل فعلٍ قامَ به الخَضِرُ.

وفي الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبِ ﴿إِنَّكَ﴾ اهتمامٌ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتماس العذر له بأنّه من الأنبياءِ الذين أقامهم اللّهُ لإجراءِ الأحكام على الظاهرِ، ومن الطبيعي أنْ يُنكرَ ما سيشاهده من تصرّفاتِ الخَضِرِ؛ لاختلافِ المَشربَيْن؛ لأنّ الأنبياءَ لا يُقرّون المنكرَ.

معنى النّفي بـ ﴿لَن﴾ في السّياق:

استطاعةُ صبرِ موسى في صحبةِ الخَضِرِ منفيّةٌ بشكلٍ مؤكَّدٍ

﴿لَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ حرفٌ لنفي المستقبلِ القريبِ والبعيد معًا، وقد تأكَّدَ النفيُ في هذه الآية عمليًّا بعدمِ قدرةِ موسى على الصبرِ لَمّا رأى خرقَ السفينةِ من الخَضِرِ، والمعنى: قد تأكَّد قولي السابق بأنّ استطاعتكَ الصبرَ البليغَ في أوّلِ الأمرِ وآخره معي منفيةٌ بشكلٍ مؤكّد.

سرّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ﴾:

عدمُ استطاعةِ الصَّبرِ في معيّة الخَضِرِ أمرٌ مستمرٌّ

دلّتْ تاءُ الاستفعالِ في الفعل المضارع ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ على نفي الصبرِ البليغ الذي في نفسِ الخَضِرِ بسكوتِ موسى ﷺ في أوّل الأمر وآخره، وإلا فقد حصلَ من موسى ما يُطلقُ عليه صبرٌ بكفّه عن الخَضِر بعد تذكيره العهد بينهما[1].

ودلّتْ صيغةُ المضارع في ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾ على أنّ عدمَ استطاعةِ موسى الصبرَ البليغَ خلال صحبته مع الخَضِر أمرٌ مستمرٌّ، ولو عُبّر بصيغة الماضي بأنْ قيل: (إنّك ما استطعتَ معيَ صبرًا) لَما أفادَ تجدّدَ واستمرارَ عدم صبره.

دلالةُ المُراد بالمعيّة في ﴿مَعِيَ﴾ وتقديمها:

عدمُ اسْتِطاعةِ موسى الصَّبْرَ مقيّدٌ بمعيّته مع الخَضِر

﴿مَعِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾، وقد قيّد البيانُ القرآني به استِطاعَةَ الصَّبْرِ المَنفيَّة بالتي تَكونُ في صُحْبَةِ الخَضِر؛ لأنَّ موسى يَرى أُموراً عَجيبَةً لا يُدرِكُ تَأويلَها[2].

وقد قدّمها البيانُ القرآنيُّ فلم يَقُلْ: (لن تستطيع صبرًا معي)؛ اهتمامًا بهذه المعيّة وما سيكون فيها، وأنّها ليستْ كأيّ صُحبة؛ ليكونَ موسى على حَذَرٍ وانتباهٍ أكثرَ على ما يستقبلهُ من الخَضِرِ في صحبته حتى يستمرَّ في متابعته إنْ شاء على بصيرةٍ وعلى غيرِ اغترارٍ.

سرُّ تنكير لفظ ﴿صَبۡرٗا﴾:

الصّبرُ المطلوبُ من موسى هو الصبرُ البليغُ

نكّرَ القرآنُ لفظَ ﴿صَبۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾؛ لإفادةِ عُموم الصَّبرِ الذي يكون أوّلًا لا آخرًا؛ أي: بعد تذكيره بالعهد والشرط الذي قُطعَ على موسى، وبعد تذكّر موسى ثناءَ الله على الخَضِرِ وأنّه معصومٌ لا يفعلُ باطلًا؛ وذلك

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 112.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

لوُقوعِ ﴿صَبۡرًا﴾ نَكِرةً في سياقِ النَّفي، وكذلك لإفادةِ تعظيمِ هذا الصبرِ وتفخيمه؛ أيْ: لن تستطيعَ معي الصّبرَ العظيمَ البليغَ الّذي في نفسِ الخَضِرِ بالسّكوتِ في أوّلِ الأمرِ وآخره، لا في آخره فقط، كما حصلَ مع موسى بكفّه عن الخَضِرِ لمّا ذكّره العهدَ بينهما[1].

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 112.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٧٣﴾

[الكهف: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد التذكيرِ والإقرارِ سارعَ موسى في الاعتذارِ

بعد أنْ واجهَ الخَضِرُ موسى مستنكرًا منه مخالفته للشرطِ بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ سارعَ موسى معتذرًا للخَضِر بالنسيانِ لما التزمَه؛ بسببِ ما غَشي ذِهنَه مِن مُشاهدةِ ما يُنكِرُه، فقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤَاخِذْنِي﴾: أُخِذَ فلانٌ بذَنْبِه؛ أَيْ: حُبِسَ وجوزيَ عليه وعوقِب به، وآخَذَه بذَنْبِه مُؤاخذةً: عاقَبَه[1]، وآخذَ الرَّجلَ مُؤاخذةً: عاتبه ولامَه وعابَه، ولا تؤاخذني: كلمةُ اعتذار[2]، ومعنى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي﴾: اعتذارٌ من موسى للخَضِرِ على نسيانِه، وتركه وصيته[3].

2) ﴿تُرْهِقْنِي﴾: (رهق) أصل يدلّ على غِشْيان الشَّيْءِ الشَّيْءَ، ويُقال: رَهِقَه ما يكرَهُ؛ أَيْ: غَشيَهُ ذلك، وأَرْهقَه عُسْرًا: أَيْ: كَلَّفه إيّاه، وتقول: أَرْهَقَني فُلان إثمًا حتّى رَهِقْته؛ أَيْ: حَمَّلَني إثمًا حتّى حَمَلَته له[4]، ورَهِقَهُ الأمر: غشيه بقهر، والإرهاقُ: أَنْ تحملَ الإنسان على ما لا يطيقه[5]، والمُراد بـ ﴿تُرْهِقْنِي﴾: أيْ لا تكلّفني ولا تحمّلني ما لا أطيق[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أخذ).
(3) البيضاوي، معالم التنزيل: 3/ 288.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهق).
(5) الرّاغب، المُفردات، ص: 367، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 101.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 89، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 235.

3) ﴿عُسۡرٗا﴾: (عسر) أصل يدلّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ، فالعُسْرُ: نَقيضُ اليُسْرِ، والإقْلالُ أيضًا عُسْرَةٌ؛ لأَنَّ الأَمرَ ضَيِّقٌ عليه شَديدٌ[1]، والعُسْر من الإعْسار وهو الضّيقُ، وتعسَّرَ الأَمرُ، واستَعسَرَ: اشتَدَّ والتَوَى وصار عسيرًا[2].

ومعنى ﴿عُسۡرٗا﴾ في الآية موافق للمعنى اللغويّ؛ أيَ: عاملني باليُسر وخُذني بالرفق، ولا تشتد عليّ وتضيّق عليّ الأمر[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اعتذار موسى ورجاؤه قبولَ العُذْرِ بالصّبر وتركِ الجدال

قال موسى للخَضِر مُعتَذِرًا: لا تؤاخِذْني بسببِ نسياني لوصيّتكَ في تركِ السؤال والاعتراضِ حتى يكونَ لي منكَ البيانُ، ولا تُضَيِّقْ عليَّ أمري معك، وتُشدِّدْ عليَّ وتكلّفني من أمري مشقّةً في صُحبتي لك، ويسِّرها عليّ بالإغضاءِ وتركِ المناقشة[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل جملة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي﴾ عمّا قبلها:

استئنافُ موسى طلبَ عدمِ المؤاخذةِ مع إقراره بالمخالفة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ عن التي قبلها على طريقةِ المُحاوَراتِ التي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهية تكراره بتكرارِ أفعالِ القول، أو لأنّها جاءتِ استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ نشَأ من قول الخَضِر لموسى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، مفادُهُ: فما قال موسى للخَضِر؟ فقيل: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسر).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عسر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 8/ 555، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 654.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 74، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 235، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 555.

(5) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 107.

سرّ مفهوم النَّهي في قوله ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي﴾:

طلب التَعطُّف والتماسُ عدمِ المؤاخذةِ بالنّسيان

النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعطُّفِ والتماسِ عدمِ المؤاخذةِ؛ لأنَّه قد يُؤَاخِذُه على النِّسيانِ مُؤاخذةَ مَن لا يَصلُحُ للمُصاحبةِ؛ لما يَنشأ عن النِّسيانِ من خطَرٍ؛ فالحَزامَةُ الاحترازُ من صُحبةِ مَن يَطرَأُ عليه النِّسيانُ[1]، ولأنّ الكاملَ قد يُؤاخذُ بالنسيانِ، وهي مؤاخذةٌ بقلّةِ التّحفّظ التي أدّتْ إليه، وإلا فالمؤاخذةُ بالنسيانِ نفسه لا تصحّ لأنّه غيرُ مقدور[2].

نكتة إيثار التّعبير بالمُؤاخذة مضافة إلى ياء المتكلّم في ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي﴾:

بيان المبالغة في اعتذارِ موسى بما يناسب مقام نبوّته

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن اعتذارِ موسى من الخَضِر بالمؤاخَذة مضافةً إلى ياءِ المتكلّم في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولم يبْنِ على الاعتذارِ بالنسيان؛ ليكونَ اعتذاره على أبلغِ وجهٍ؛ كأنَّ نسيانَه أمرٌ مُحقّقٌ عند الخَضرِ عليه السلام لا يحتاجُ أنْ يُفيده إيّاه استقلالًا، وإنَّما يلتمسُ منه تركَ المؤاخذة به[3].

كما أنّ في التّعبيرِ بالمؤاخذة مُبالَغةً في طلبِ الاعتذارِ وعدمِ المعاتبةِ واللّوم؛ إذِ المؤاخذةُ مُفاعَلةٌ من الأخذِ؛ ولكنّها هنا من جانبٍ واحدٍ فأفادتِ المبالغة؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ [النّحل: 61][4].

كذلك فإنّ التعبيرَ بالمؤاخَذة دون المعاقبة، مع أنّ اللفظيْن متقاربان في المعنى؛ أيْ: لم يَقُلْ مثلًا (فلا تُعاقبني بما نسيت)؛ لكونِ المُؤاخذةِ أنسبَ لحالِ نبيّ الله موسى وحالِ الخَضِرِ عليهما السلام؛ إذِ المعاقبةُ أشدُّ من المؤاخذة، وهي مختصّة بالعذاب، يُقال: عاقَبَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 317.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 317، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

على ذنبه: جزاه سوءًا بما صنع[1]، بخلافِ المؤاخذةِ فهي أخفُّ من المعاقبة، وقد تقتصرُ على المعاتبةِ واللّومِ والاعتذار.

دلالة الباء في قوله ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾:

النّسيانُ يرفعُ المؤاخذةَ ويُسقطُ التّبعةَ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ سببيّةٌ مُتعلّقةٌ بالفعل ﴿تُؤَاخِذْنِي﴾؛ أيْ: لا تؤاخذني بسببِ نسياني وصيَّتك[2]، والنّسيانُ وإنْ لم يكنْ سببًا قريبًا للمؤاخذةِ - بل السبب القريب لها هو تركُ العملِ بالوصيّةِ - فهو سببٌ بعيدٌ؛ لأنَّه لولاه لم يكنِ التّرك، وجوّز أنْ تكون الباءُ مُتعلِّقةً بمعنى النّهي، فيكون النّسيانُ سببًا للنّهي عن المؤاخذة بتركِ العملِ بالوصيّة[3].

دلالة ﴿بِمَا﴾ في قوله ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾:

الاعتذارُ بنسيانِ الوصيّةِ يدلّ على النّبل والتّواضع

يحتمل أن يكون معنى ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾: المصدريّة؛ أَيْ: لا تُؤاخِذْني بنسياني وصيّتكَ في تركِ السؤالِ عن شيءٍ حتى تُحدثَ لي منه ذكرًا، أو موصولة، والعائدُ محذوفٌ؛ أيْ: لا تُؤاخِذْني بالذي نسيته، "وهو قول الخَضِر: ﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾"[4]، أو أن تكون نكرة موصوفة بمعنى شيء؛ أيْ: لا تُؤاخِذْني بشيءٍ نسيته[5]، وفي هذا تقليلٌ لشأنِ الأمرِ الذي نسيه بسببِ قوّة ما دهَشَهُ من فِعْل الخَضِر، بما يُرغبّه بعدمِ مؤاخذته به.

وقد عبّر البيانُ القرآنيُّ بـ(ما) دون (أنْ)؛ لكون (أنْ) لا تكون إلّا مصدريّة، وأمّا (ما) فقد تؤدّي (ما) أكثرَ من معنى أحيانًا، كما في الآية هنا؛ إذ إنّها مصدريّة أو موصولة أو موصوفة، ولكون الأصل

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 515.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 317.
(4) الهَرَري، حدائق الروح والريحان: 16/ 447.
(5) الهَرَري، حدائق الروح والريحان: 16/ 456.

في مصدرِ (ما) أن يكون مخصوصًا، وفي مصدر (أنْ) أنْ يكونَ لإرادة مجرّدِ الحدث؛ فالمقصودُ به نسيانٌ مخصوصٌ وهو العهدُ الذي بينهما، ولو قال: (بأنْ نسيت) لاحتملَ المعنى أنّه آخَذَه بمجرّد النسيان؛ أي: آخَذَه لمجرّد حصولِ النسيان عنده[1].

دلالة النّسيان في قوله ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾:

نسيانُ موسى للعهدِ كان لشدّةِ غضبِه ممّا رآه من فعلِ الخَضِر

في المُراد بالنّسيان في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ثلاثة أقوال[2]:

أحدها: أنّه على حقيقته؛ أيْ: لَمّا رأى موسى فعلَ الخَضِرِ المؤدّي إلى إهلاكِ الأموالِ والأنفسِ نسي وعده لشدّةِ غضبِه، ويؤيّده قوله ﷺ: "كانت الأولى من موسى نسيانًا"[3]، وهو القول الراجح[4]، ولذا لم يذكرِ ابن عاشور غيره[5].

الثّاني: أنّه لم ينسَ، ولكنّه من المعاريض، وهو مرويٌّ عن ابن عباس؛ لأنّه إنّما رأى العهد في أنْ يسألَ، لا في إنكارِ هذا الفعل، فلمّا عاتبه الخَضِر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾، قال: لا تؤاخذني بما نسيت؛ أي: في الماضي، ولم يَقُل: إنّي نسيتُ وصيّتك.

الثّالث: أنَّ النسيانَ بمعنى التَرك، وأطلقه عليه؛ لأنّ النسيانَ سببٌ للتّركِ؛ إذ هو من ثمراته؛ أيْ: لا تؤاخذني بما تركته ممّا عاهدتكَ عليه، فإنّ المرّة الواحدة معفوّ عنها، ولا سيما إذا كان لها سببٌ ظاهر.

بلاغة استعمال الفعل ﴿تُرْهِقْنِي﴾ مادّةً وصيغةً:

موسى يرجو الخَضِرَ ألّا يكلّفَه بما يعسرُ ولا يُطاق

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿تُرْهِقْنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) السّامرّائي، معاني النحو: 3/ 161.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 73، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 735، والقَسطلّاني، إرشاد السّاري: 7/ 219.
(3) البخاري، الجامع الصّحيح: حديث رقم: (6672).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 207.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 376.

﴿تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾؛ دون الغشيان، لكون الإرهاقِ أشدَّ على النّفس من الغشيان؛ إذ إنّه يشملُ الغشيان وزيادة؛ فالإرهاقُ هو غشيانٌ بقهرٍ؛ أيْ: مع كلفةٍ ومشقّةٍ لا راحةَ فيها[1]، وتحمّل ما لا يطيق[2]، وتكون نتيجتُه التعبَ، كما أنّ من معانيه العَجَلَةَ والتَّأْخيرَ[3]، وهذا يناسبُ المقامَ هنا؛ فكأنّ موسى بعدما نسيَ ما ألزمَ به نفسه - من شدّة ما رآه فوقعَ في المخالفة - التمسَ بتعبيره ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي﴾ من الخَضِرِ ألّا يَعجلَ عليه، بل يصبر، قال الفرّاء: "﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي﴾: لا تُعجلني"[4]، وألّا يتأخّر عليه ببيانِ ما يفعلهُ من غرائب، ولذلك تنوّعتْ معاني ﴿تُرۡهِقۡنِي﴾ تنوّعَ تكاملٍ عند المفسّرين[5].

وأمّا التّعبير بصيغة المضارع، لأنّ طلبه ورجاءه هو للمستقبل، ولِما سيجري معهم في تتمّة الرحلة، ولإفادةِ استمرارِ رجائه في ألّا يكلّفه ما فيه مشقّة عليه، وألّا يحمّله بما سيفعله ما لا يطيق.

دلالة ﴿مِنۡ﴾ بين الابتدائيّة والبيانيّة في السّياق:

المرافقة تقتضي اليُسر وتنأى عن العسر

يحتمل معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ أنْ تكون ابْتِدائيَّةً؛ أيْ: لا تجعلْ نسياني مُنْشِئًا لإرهاقي عسرًا، أو أنْ تكون بَيانيَّةً، ويكون المُراد بأمرِه شَأْنَهُ معه؛ أيْ: لا تجعلْ شأني إرهاقك إيّاي عسرًا[6].

المُراد بالأمر في قوله ﴿أَمۡرِي﴾:

رجاءُ موسى من الخَضِرِ عدم التشديد عليه كثيرًا لأنّه سأل عن سبب فعله

يحتملُ أنْ يكون المُرادُ بالأمر ﴿أَمۡرِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ النسيان؛ أيْ: نسيانُ موسى العهد الذي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصّل: (رهق).
(2) الراغب، المُفردات، ص: 367، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 101.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهق).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 155.
(5) الماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 328.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377.

أخذه عليه الخَضِر، وهذا إذا كانتْ ﴿مِنۡ﴾ ابتدائيّة؛ أيْ: لا تجعلْ نسياني مُنْشِئًا لإرهاقي عسرًا، أو أنْ يكون معنى الأمر: الشَّأن؛ أيْ: شَأْنُ موسى مع الخَضِر، إذا كانت ﴿مِنۡ﴾ بيانية؛ أيْ: لا تجعل شأني إرهاقك إيّاي عسرًا[1].

المُراد بلفظ ﴿عُسۡرٗا﴾ وسرّ تنكيره:

معنى العُسْر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ هو الصعوبةُ والشّدّةُ، وهو نقيض اليُسر، والمعنى: عامِلْني باليُسر ولا تُعسّر عليّ، وخُذني برفق، ولا تشتدّ عليّ وتُضيّق عليّ الأمر[2].

موسى لا يخشى الشدّة والصّلابة؛ وإنّما يخشى الصّعوبةَ والتّضييق

وقد عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ العُسر دون الشّدة في الآية مع أنّ اللّفظيْن متقاربان في المعنى؛ لكون لفظ العسر هو الأنسبُ للمقام؛ لأنّ موسى لا يطلبُ من الخَضِرِ لينًا ورخاوة وعدمَ قوّةٍ، وإنّما يطلبُ عدمَ الصعوبةِ والتّضييق، ويُراد بتنكير العسر التّعميم على معنى: لا ترهقني أيّ عسرٍ لا أطيقه، وقد يُراد به التّعظيم؛ أيْ: عُسرًا عظيمًا لا أحتمله.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي﴾:

النِّسيانُ لا يقتضي المؤاخذةَ ولا يتعلّقُ به حُكمٌ

أفادتِ الجملةُ الخبريّة: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ أمورًا منها: أنّه ينبغي للإنسانِ أنْ يأخُذَ من أخلاقِ النّاسِ ومُعامَلاتِهم العَفوَ منها، وما سَمَحَت به أنفُسُهم، ولا ينبغي له أنْ يُكلِّفَهم ما لا يُطيقون، أو يَشُقَّ عليهم ويُرهِقَهم؛ فإنَّ هذا مَدعاةٌ إلى النُّفورِ منه والسَّآمةِ[3]، وأفادتْ أيضًا أنَّ النّاسيَ غيرُ مُؤاخَذٍ بنِسيانِه؛ لا في حقِّ اللّهِ، ولا في حُقوقِ العِبادِ[4]، وقيامَ العُذْرِ بالمَرَّة الواحدةِ[5]، وأنّه ينبغي للإنسانِ أنْ يقبلَ عُذرَ المعتذرِ إذا كان مُقلًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377، وطنطاويّ، الوسيط: 8/ 555، والخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 654.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 482.

(4) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 482.

(5) ابن حجر، فتح الباري: 8/ 422.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المؤاخذة والمعاقبة:

المـؤاخـذةُ هي المعاتبةُ واللّومُ، والمعاقبةُ المجازاة والعذابُ

يتقارب لفظا (المؤاخذة) و(المعاقبة) في معناهما؛ إذْ يشتركان في أنّ الفاعلَ استحقّهما على ما صدرَ منه من ذنبٍ أو خطأ، ولكن لكلٍّ منهما ملامح دلاليّة تُميّزه عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

المؤاخذةُ: العقابُ، يُقال: آخَذَه بذَنْبِه مُؤاخذةً: عاقَبَهُ، وأُخِذَ فلانٌ بذَنْبِهِ؛ أيْ: حُبِسَ وجوزيَ عليه وعوقِب به[1]، وآخذَ الرَّجلَ مُؤاخذةً: عاتبه ولامَه، ولا تؤاخذني: كلمةُ اعتذار[2].

والمعاقبة من (عقب)؛ وأصلهُ يَدُلُّ على ارْتِفاع وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ، وسُمّيَتْ عُقوبَةً لأَنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ، والمُعاقِبُ الَّذي أَدْرَكَ ثَأْرَهُ[3]، والعقابُ والعقوبةُ والمعاقبةُ تختصُّ بالعذابِ[4]، وعاقَبَه على ذنبه: جزاه سوءًا بما صنع[5].

إذن: المؤاخذةُ أخفُّ من المعاقبة، فالمؤاخذةُ قد تقتصرُ على المُعاتَبَةِ أو اللَّوم، وقد تكونُ اعتذارًا، أمّا العقابُ فهو أشدُّ ومختصٌّ بالعذابِ، وهو مجازاةُ فاعله سوءًا بما صنع.

الإرهاق والغَشيان:

الإرهاقُ غشيانٌ مع كُلفةٍ ومشقّةٍ وتحمُّلٍ، والغشيانُ تغطيةٌ بكثيفٍ مع المباشرة والمخالطةِ

رغم التّقارب الدلالي بين لفظي (الرّهق) و(الغشيان)؛ إذ يعرّف الرّهقُ بالغشيان، إلّا أنّه يوجَد ما يتميّز به كلّ منهما عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ الإرهاق: غشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، والرَّهَقُ أَيْضًا: العَجَلَةُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(4) الراغب، المفردات، ص: 575.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).

والتَّأْخير[1]، وأَرْهقَه عُسْرًا؛ أَيْ: كَلَّفه إياه[2]، والمُرَهَّقُ الَّذي يَغْشاهُ السُّؤّالُ والضّيفان[3]، ورَهِقَهُ الأمر: غشيه بقهرٍ، والإِرهاقُ: أَنْ تحملَ الإِنسانَ على ما لا يطيقه[4]، والإرهاقُ: تكليفٌ بمشقّةٍ لا راحةَ فيها[5].

وأصلُ الغشيان: تَغْطِيَةُ شَيْءٍ بشَيْءٍ، والغِشاءُ: الغطاءُ، والغشاوةُ: ما غَشيَ القَلْبَ من الطَّبَع، وغُشي عليه: أُغْمِيَ[6]، وغَشيَ فُلانًا يَغْشاهُ: إذا أَتاهُ وجاءَهُ، وغاشية الرّجُل: من ينتابُهُ من زوّاره وأصدقائه[7]، وغشيَه الموجُ: غطّاه وحواه وعمّه وشمله، وغشيَ الأمرَ: لابسه وباشره[8].

إذن يتميّز لفظُ الإرهاقِ بأنّه غشيانٌ مع كُلْفةٍ ومشقّةٍ وتحمّلِ ما لا يطاق، وتكون نتيجته التعب، بينما يتميّز لفظُ الغشيان بأنّه تغطيةٌ بكثيفٍ يعمّه، مع المباشرة والمخالطة الشديدة؛ فالإرهاقُ أشدّ على النّفسِ من الغشيان.

العسر والشدَّة:

العسرُ ضيقٌ وصعوبةٌ مع إقلالٍ وعدم يُسرٍ، والشّدّةُ قوّةٌ وصلابةٌ مع إحكام وعدم لينٍ

يتقارب لفظا (العُسْر) و(الشِّدَّة) فكثيرًا ما يُستعمل أحدهما موضعَ الآخر، ويُعرَّفُ أحدهما بالآخر، إذ يشتركان في معنى الصعوبة، إلّا أنَّنا عند إمعانِ النّظرِ في معانيهما اللغوية نجد ما يُميّز كلّ لفظٍ عن الآخر، وذلك على النحو الآتي:

أصلُ العُسرِ يدلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ، فالعُسْرُ نَقيضُ اليُسْرِ، والإِقْلالُ أَيْضًا عُسْرَةٌ؛ لأَنَّ الأَمرَ ضَيِّقٌ عليه شَديدٌ[9]، والعُسْر من الإعْسار وهو الضّيقُ، وتعسَّر الأمرُ واسْتَعْسَرَ اشْتَدَّ، والْتَوَى، وصارَ عَسيرًا[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهق).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهق).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيدَه، المُحْكَم: (رهق).
(4) الراغب، المُفردات، ص: 367، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 101.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (رهق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور: (غشى).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (غشو).
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (عسر).

وأصل الشّدّة يدلّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ[1]، والشِّدَّةُ: القوّةُ والجلادةُ والصلابةُ، وهي نَقيضُ اللّينِ، والشِّدَّة: النّجدة، وثباتُ القلبِ، واشْتَدَّ: أَسْرَعَ وعَدا، وكلُّ ما أُحْكِمَ وأوثقَ فقد شُدَّ، والشِّدَّة: المجاعة وصُعوبَةُ الزَّمَنِ، والشِّدَّة من مكارِه الدَّهْر، وشِدَّة العيْش: شَظَفُه[2].

إذن؛ العسرُ ضدّ اليسرِ، والشدةُ ضدّ اللينِ والرخاوةِ، ويتميّز لفظُ العسرِ بمعنى الضيق والصعوبة والقلّة، بينما يتميّز لفظُ الشدّةِ بمعنى القوّة والصلابة، والجلادة والإحكام والإيثاق.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدّ).

(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بعد أن اعتذر موسى عليه السلام من الخَضِر عن اعتراضه على خرق السَّفينة، وقبول الخَضِر لاعتذاره، وبعد نزولهما من السَّفينة وسلامتها من الغرقِ والغصْبِ، انطلقا إلى أنْ وجدا غلامًا لم يبلغ الحُلُم[1].

بعد قبولِ الاعتذارِ تابَعَ المتَصاحبانِ رحلتَهما وقتلَ الخَضِرُ الغلامَ لحِكمةٍ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غُلَٰمٗا﴾: أصلُ (غلم) يَدُلُّ على حَداثةٍ وهَيَجِ شَهْوَةٍ، من ذلك: الغُلامُ: هو الطّارُّ الشّارِبِ[2]، وقيلَ: هو من حين يولَدُ إلى أن يَشِبَّ، ويُطْلَق أيضًا على الكَهْلِ[3]، والغُلامُ الابنُ الصَّغيرُ، ويُطلَقُ الغُلامُ على الرَّجُلِ مَجازًا[4]، أو الصّبيِ حين يولدُ إلى أنْ يَشِبَّ، أو حين يقاربُ سنَّ البلوغِ[5]، وقيل: الولدُ غلامٌ من ولادته إلى أنْ يحتلم، وأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامه؛ أيْ: بلوغه حالةَ الرَّغبة في الأنثى[6]، ومعنى ﴿غُلَٰمٗا﴾ في الآية: صغيرًا لم يبلغ حدّ التّكليف[7]، وقيل: كان بالغًا شابًّا[8].

2) ﴿نَفۡسٗا﴾: النَّفْسُ: الرّوحُ، من قَوْلِكَ: خَرَجَتْ نَفْسُ فُلانٍ؛ أَيْ: روحُه، والنَّفْسُ: جملةُ الشيءِ وحقيقته، تَقولُ: قَتَلَ فلانٌ نَفْسَه؛

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غلم).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غلم).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (غلم).
(7) الواحديّ، التفسير البسيط: 14/ 91.
(8) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 532.

أَيْ: أَوْقَعَ الإِهْلاكَ بذاتِه، وسُمّيت النفْس نفْسًا لتولّدِ النّفس منها واتّصاله بها، ويُطلق النَّفْس على الدَّم، وسُمّيَ الدَّمُ نَفْسًا؛ لأَنَّ النَّفْس تَخْرُجُ بخُروجِه[1]، والنَّفْسُ: الجَسَدُ، والنَّفْسُ: عَيْنُ الشَّيْءِ وكُنْهُه وجَوْهَرُه[2]، والمُرادُ بـ ﴿نَفْسَا﴾: يمكن أنْ تكون هي ذات الغلام وحقيقته وروحه وجسده.

3) ﴿زَكِيَّةَۢ﴾: أصلُ (زكى) يدلُّ على نَماءٍ وزيادةٍ، وأصلُ الزكاة يرجعُ إلى النَّماءِ والطَّهارَة[3] والبَركةِ والمَدح، والزَّكاةُ: الصلاحُ، والزَّكاةُ: صفوةُ الشَّيْءِ، وأَرضٌ زَكِيَّةٌ: طيِّبةٌ سَمينَةٌ[4]، والزَّكاةُ: النّموّ الحاصل عن بركة اللّه تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة[5]، ومعنى ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ في الآية؛ أيْ: طاهرة بريئة من الذنوب[6].

4) ﴿نُّكۡرٗا﴾: أصلُ (نكر) يدلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إِلَيْها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ وأَنْكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَنطِقْ به لسانُهُ، فالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، والنَّكْراءُ: الأَمرُ الصَّعْبُ الشَّديدُ[7]، والإِنْكارُ: الجُحودُ، والنُّكْرُ والنَّكْراءُ: المُنْكَرُ، والمُنْكَرُ من الأَمر: خِلافُ المَعْروفِ، وكلُّ ما قَبَّحَهُ الشَّرْعُ وحَرَّمَهُ وكَرِهَهُ فهو مُنْكَرٌ[8]، ونَكُرَ الأمرُ: صعُبَ واشتدّ، وقبُحَ وكرهته النَّفس وصار مُنْكرًا[9].

ومعنى ﴿نُّكۡرٗا﴾ في الآية؛ أيْ: فظيعًا عظيمًا مُنكرًا لا يُعرف[10].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

خرجَ موسى مع الخَضِر من السَّفينةِ يمشيان، فأَبصرا غلامًا؛

قتْلُ الغلامِ في ظاهره فعلٌ تُنكرُه العقولُ وتُحرّمه الشّرائع والنّقولُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(2) الزّبيدي، تاج العروس: (نفس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زكى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (زكا).
(5) الرّاغب، المُفردات، ص: 380.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 91، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 236.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (نكر).
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 92، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 179، وطنطاوي، الوسيط: 8/ 556.

فقتله الخَضِرُ، فأنكرَ موسى إنكارًا أشدّ من الأوّل، وبادرَ فقال: كيف قتلتَ نفسًا صغيرةً لم تَعْمَلِ الخُبثَ ولا حملتْ إثمًا بعد بغيرِ مستندٍ لقتله؟! لقد فعلتَ أمرًا مُنكرًا عظيمًا، فالعقولُ تُنكرهُ، والنُّفوس تنفرُ منه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في جملة ﴿فَٱنطَلَقَا﴾:

في العطفِ تفريعٌ وتعقيبٌ، وفيه سببيّةٌ وإفصاحٌ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ عاطفةٌ؛ تفيد التَّعقيبَ؛ أيْ أنَّهما عقبَ قبولِ الاعتذارِ انطلقا[2]، وتُفيدُ التفريعَ؛ أيْ: يتفرّعُ عن قبولِ الاعتذارِ متابعةُ الرّحلة بالانطلاق[3]، والسّببيَّة؛ أيْ إنّه بسببِ قبولِ اعتذارِ الخَضِرِ والاتفاقِ على متابعةِ المسير[4]، وقد تكونُ فصيحةً؛ إمّا أفصحتْ عن محذوفٍ عُطفَ عليه الانطلاق، تقديره: "فقَبِلَ عُذرَه فخرجا من السّفينة فانطلقا"[5]، أو أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّر، هو المعطوف عليه، تقديره: إذا عرفتَ ما تقاولا، وأردتَ بيانَ حالِهما بعد ذلك فأقولُ لك: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾[6].

سرّ التّعبيرِ بلفظ ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ دون غيره:

بيانُ حرصِ كلٍّ مِنَ المعلِّمِ والمُتعلِّمِ على إكمالِ الرِّحْلةِ

عبّر البيانُ القرآني بقوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ دون غيرها من الألفاظ؛ فلم يَقُلْ مثلًا: (فذهبا) أو (فمضيا) أو (فسارا)، لكون لفظ الانطلاقِ أنسبَ للسّياق؛ إذ أصلُ الانطلاق يَدُلُّ على التَّخْلِيَةِ والإرسالِ[7]، والانطلاقُ: سُرعَةُ الذَّهابِ[8]، وانْطلقَ الظَّبيُ: مرَّ سَريعًا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 183، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 179.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377.
(4) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 132.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 318، والقونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 134.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 16/ 456.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلق).
(8) ابن سيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طلق).

لا يلوي على شَيء[1]، والانطلاقُ: الاندفاعُ بقوّة ابتعادًا أو انبساطًا[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع حرصِ موسى والخَضِر على استمرارِ الرحلة العلمية، والاستفادةِ والإفادةِ منها بأكبر قدرٍ ممكنٍ، فهما ذهبا مُسرعيْن مُندفعيْن بقوّة لإكمالِ رحلتهما، مما يُشعر القارئ والمتابع للقصّة أنَّ كلًّا من موسى والخَضِر عليهما السلام فرحا باستمرار هذه الصُّحبة، وأنّ الخَضِر قد قبل اعتذار موسى قبولًا كاملًا[3].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياق الآية الكريمة:

بيانُ استمرارِ انطلاقهما إلى أَنْ لقيا الغلامَ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ يحتملُ أنْ تكون بمعنى الفاء، والتقدير: (فانطلقا فإذا لقيا)، ويحتملُ أنْ تكون بمعنى (إلى)، والتقدير: (فانطلقا إلى أنْ لقيا)[4].

والأقربُ هنا أنْ تكونَ لانتهاءِ الغاية كـ (إلى)؛ لأنّ الحدثَ استغرقَ زمنًا، ولم يكن فوريًّا؛ إذْ في الكلام إيجازٌ، دلّ عليه قوله: ﴿إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾، وتقدير الكلام: انطلقا يمشيان بالساحل حتّى لقيا غلامًا فقتله، وهي غاية انطلاقهما معًا[5].

التّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

إلماح السّياق إلى سرعةِ قتلِ الغلامِ وتأكّد موته

عبَّر القرآن بـ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا﴾؛ إمّا لأنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للزّمانِ الماضي هنا، وليستْ متضمِّنةً معنى الشَّرط، ليؤذنَ ذلك بأنَّ الخَضِر أخذَ في قتلِ الغلامِ وقت التقى به، بما يشيرُ إلى أنّ لقيا الغلام كان لأجلِ قتله، ويؤكّد ذلك تقديم الظرف ﴿إِذَا﴾ على عامله اهتمامًا به، وجاءت الفاء في ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ التي تفيدُ التعقيبَ لتأكّد المبادرة المفهومة من تقديمِ الظرف، فكانت المبادرةُ بقتلِ

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (طلق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (طلق).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4561.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 470.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374، 377.

الغلامِ عند لقائه أسرع من المبادرة بخرقِ السفينة حين ركوبها[1]، وبهذا يظهرُ لنا أنّ القرآنَ لم يستعملْ (إن)؛ لكونها تأتي للشّرطيَّة، وليس فيها معنى الظّرفيَّة، بخلاف ﴿إِذَا﴾.

أو أنْ تكون ﴿إِذَا﴾ شرطيّة، والتقدير: (حتى إذا لقيا غلامًا فقتله قالَ أَقَتَلْتَ)؛ أيْ: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ من جملةِ الشرطِ معطوفًا عليه، والجواب: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ﴾[2]، وبهذا يكونُ استعمال ﴿إِذَا﴾ - التي تختصُّ بدخولها على المتيَقَّن والمظنون والكثير الوقوع، دون (إنْ) التي تُستعمل في المشكوكِ والموهومِ النّادر[3] - أنسبَ للمقام؛ إذ إنّ قتلَ الغلام أمرٌ مُشاهَدٌ مُتيقَّنٌ.

ويمكن أنْ يُقال كذلك إنّ ﴿إِذَا﴾ سبقها حرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وهي لا تدخلُ على حرفٍ مثلها، بل تدخلُ على جملةٍ اسميّة أو فعلية، فلو جاءَ بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف (إن) لاستلزمَ ذلك أنْ تدخلَ على حرف، وهذا لا يصحّ.

دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿لَقِيَا﴾:

لقاءُ الخَضِرِ وموسى بالغلامِ لمرّةٍ واحدةٍ أعقبها القتل

استعملَ البيانُ القرآنيّ الفعل ﴿لَقِيَا﴾ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾؛ لأنَّ اللِّقاءَ قد حدثَ وتمَّ وانتهى، ولم تكن الغاية تصويرَ حدَثِ اللقاء واستمراره؛ وإنّما إفادة أنَّ مقابلتهما للغلام كانت مرّةً واحدة؛ إذ أعقبه القتل، كما أنّ التعبيرَ بالماضي يتناسبُ مع السياق الذي استعملَ الأفعالَ بصيغةِ الماضي: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾، ﴿قَالَ﴾، ﴿جِئۡتَ﴾، إذِ الأفعالُ كلّها حكايةٌ عن أحداثٍ وقعتْ وتحقّقتْ ومضت.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375، 377.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 736، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 289، والبِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 112، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 8.
(3) السّيوطي، الإتقان: 2/ 178.

تاكيدُ مبادرة الخضِر بقتل الغلامِ فورَ لقائه تنفيذًا لأمر الله الحكيم

دلالة الفاء في قوله ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ أفادتِ التَّعقيبَ والتَّرتيبَ والفوريَّة؛ أيْ إنّ القتلَ ترتّبَ على لُقّيا الغلام، وجاء عقبَه فورًا، وفي ذلك تأكيدٌ لمبادرةِ الخَضِر - قتل الغلامِ فورَ لقائه دون تراخٍ - التي أفادها تقديمُ الظرف ﴿إِذَا﴾ على عامله.

وبهذا يكون دخولُ الفاء على كلمة ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ دون كلمة ﴿خَرَقَهَاۖ﴾ في الآية السّابقة قد أفادَ أنَّ المبادرة إلى القتلِ كانتْ أسرعَ من المبادرةِ بخرقِ السَّفينة حين ركوبها[1].

وحتى على رأي مَن قال بأنّ ﴿إِذَا﴾ شرطيّة، فإنَّ الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ عاطفةٌ على فعلِ الشرط، تفيدُ التعقيب؛ أيْ: "فقتله حين لَقيه"[2] "من غير تروٍّ واستكشافِ حالٍ"[3].

عودُ الضّمير في الجملة اختصارٌ مفهومٌ من السّياق

مرجع الضَّمير في قوله ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾:

(هاء) فعل ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ ترجعُ إلى الغلام؛ لأنَّه أقربُ مذكور، وهذا ظاهرٌ في الاتّصال بين الجملتَيْن بحرفِ الفاء، وفي التعبيرِ بالضمير وعدم التصريح بلفظِ الغلامِ اختصارٌ في الكلام؛ إذ قد سبقَ ذِكْره في الآية، وإشارةٌ إلى سرعةِ الإخبارِ عن قتلِ الخَضِرِ للغلام، بما يومئُ ببيانِ سرعةِ اعتراضِ موسى بقوله: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ﴾.

العلاقة بين شدّةِ اعتراض موسى وردّةِ فعله الفوريّة

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ القرآنُ الكريم جملة ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ عن الجملة التي قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لما بين الجملتَيْن من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 377.

(2) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 112.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 288، والقونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 135، وعلى هذا الرأي يكون جواب الشرط: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ﴾.

كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثانية جاءتْ جوابَ شرطٍ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾؛ أيْ: جعلَ البيانُ الإلهيُّ اعتراضَ موسى جزاءً؛ لأنَّ القتلَ أقبحُ من خرقِ السفينة والاعتراضَ عليه أدخَلُ، فكان جديرًا بأنْ يُجعَل عمدَة الكلام[1]، وذلك عند مَنْ عدّ ﴿إِذَا﴾ شرطيَّة، أو لما بين الجملتين من شبه كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤالٍ مُقدّرٍ نشَأ من السّياقِ؛ وذلك أنّه بعد قتلِ الخَضِر الغلامَ كأنَّه قيل: ماذا فعل موسى لمّا رأى قتل الخضر للغلام؟ فقيل: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ﴾.

المُراد بالاستفهام في قوله ﴿أَقَتَلۡتَ﴾:

السّياق بين استخبارٍ عن المقصدِ وإنكارٍ لفعل القتلِ

يحتملُ معنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾ أنْ يكونَ استخبارًا أو إنكارًا؛ فأمّا استفهامُ الاستخبارِ فهو سؤالُ بحثٍ عن مقصدِ الخَضِر من قتل الغلام، وذلك لعلم موسى عليه السلام أنَّ الخَضِرَ لا يتعدّى في حقوقِ اللّٰه تعالى ولا يتجاوزها، وأمّا استفهامُ الإنكارِ فهو إنكارٌ من موسى على الخَضِرِ لقتله الغلام، ويؤيّده قولُ موسى بعدها مباشرة: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾[2].

سرُّ المغايرة بين لفظي ﴿غُلَٰمٗا﴾ و﴿نَفۡسٗا﴾:

الجمعُ بين زيادةِ التعجّبِ من القتلِ، وزيادةِ المبالغةِ في إنكاره

عبّر القرآن في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾ بلفظِ الغلام، بينما عبّر بلفظِ النفسِ في قوله: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾؛ لمناسبةِ كلِّ لفظٍ منهما لسياقه القريبِ الوارد فيه، فأمّا سياقُ ذِكرِ الغلام فهو سياقُ حدوثِ القتلِ، سواءٌ بما يدلّ على زيادةِ تعجّبٍ من موسى واشمئزازِ نفسه من قتلِ غلامٍ صغيرٍ، ورفضه رفضًا كاملًا، أو بما يكون فيه إيماءٌ إلى استحقاقِ الغلام ذلك وتبرير للخَضِر من هذا الفعل؛ إذِ الغلامُ في اللغة مَن ظهرتْ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 289.
(2) الماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 329.

عليه علاماتُ الغلومة[1]، وهي أنْ يغلبَ عليه الشّبقُ والميلُ إلى النساء، ولهذا إنَّما جازَ قتله لأنَّه كان بالغًا عاصيًا، وقد كان شابًّا بلغَ سنَّ التَّكليف ويقطع الطريق[2]، ويؤيّد ذلك قول موسى: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾، وأمّا سياقُ ذِكْرِ النفسِ فهو سياقُ الإنكارِ على القتل، ولذا عُبّر بما فيه زيادة مبالغة في إنكارِ القتلِ وبيانِ فظاعته؛ ولقصدِ التفنّنِ في أسلوبِ الكلام؛ إذ لَمّا أتى بلفظِ الغلام أتبعهُ بلفظِ النَّفْس التي معناها في الآيةِ ذات الغلام وحقيقته، وتحقيقِ الجناسِ اللفظي التامّ المماثل بين لفظتيّ ﴿نَفۡسَا﴾ و﴿نَفۡسٖ﴾؛ لكونهما اتّفقا في نوعِ الحروفِ وشكلها وعددها وترتيبها، وهما من نوعٍ واحد؛ إذ كلاهما اسمان، ولو قال: (أقتلتَ غلامًا بغيرِ نفس) لَما تحقّقَ هذا الجناس.

سرُّ التّعبير بكلمة ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ دون غيرها:

انتقاءُ اللّفظ يُفيد اتّساع الدّلالة وشمول المعنى المُستفاد

عبّر البيانُ القرآنيُّ بكلمة ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسَا زَكِيَّةَۢ﴾ لاتّساع دلالتها؛ إذ أصلُ (زكى) في اللغة يدلُّ على نَماءٍ وزيادةٍ، وكذلك يأتي بمعنى الطَّهارة والنَّقاء، ويعتبرُ ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة[3]، ولذلك ذَكَرَ المُفسِّرون في معناها أقوالًا؛ منها: أنّها التّائبة والطّاهرة من الذنوب[4]، والنّامية الزّائدة، والمسلمة، والتي لم يَحِلّ دمها، والتي لم تعمل الخطايا[5]، ولو عبّر البيانُ القرآنيُّ بأحدِ هذه المعاني لَما شملَ بقيّة المعاني، وأمّا صيغتها؛ فهي على وزن (فعيل)، وهي صفةٌ مُشبّهةٌ من صيغ المُبالَغَة التي تُفيدُ الثبوت والدوام.

توجيه القراءات الواردة في قوله ﴿زَكِيَّةَۢ﴾:

إظهارُ براءةِ النَّفسِ في طَهارتها ونمائها من البيان المفيد

في قوله تعالى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسَا زَكِيَّةَۢ﴾ قراءتان متوترتان[6]؛ إذ

(1) الراغب، المُفردات، ص: 613.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 22.
(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 115، والرّاغب، المفردات، ص: 818.
(4) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 113، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 74.
(5) الماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 330.
(6) الدّاني، التيسير، ص: 144، وابن الجزري، النشر: 3/ 313.

قرأ حمزةُ وابنُ عامر وعاصمٌ والكسائيُّ ورَوْح عن يعقوب ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ بغيرِ أَلِفٍ مع تشديدِ الياء على وزنِ صفةٍ مُشبَّهةٍ بالفاعل، وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرٍو ورُوَيس عن يعقوب: ﴿زَاكِيَةَۢ﴾ بإثباتِ الألف وتخفيف الياء على وزن (فاعل)، وهما لغتان: ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ و﴿زَاكِيَةَۢ﴾؛ مثل: (قَسيّة) و(قاسيَة)[1].

وفي التّعبيرِ بكلا القراءتيْن توكيدٌ، سواء أكان التّعبير بالصّفة المشبهة ﴿زَكِيَّةَۢ﴾ التي هي من صيغِ المبالغة، وتُفيدُ الثبوت والدوام، أم التعبير باسمِ الفاعل الذي يدلّ على حدثٍ ثابتٍ غير محدّدٍ بزمن، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ في الثبوتِ والدّوامِ والاستمرارِ لا مجرّد الحدوث.

وأكثرُ المفسّرين على أنّ هاتيْن القراءتيْن بمعنىً واحد[2]، يقول الطّبريّ: "وذلك هو الصواب عندي؛ لأنّي لم أجد فرقًا بينهما في شيءٍ من كلام العرب"[3]، والمعنى هو: إمّا التّائبة، أو الطّاهرة من الذنوب[4]، أو النّامية الزّائدة، أو المسلمة، أو التي لم يحلّ دمها، أو التي لم تعمل الخطايا.

ومنهم مَن قال: إنَّ بين (الزّاكية) و(الزّكيّة) فرقًا؛ وهو أنّ (الزّاكية) في البدن، و(الزَّكية) في الدّين، أو أنَّ (الزَّكيَّة) أشدُّ مبالغةً من (الزّاكية)، أو أنّ (الزّاكية) الَّتي لم تُذنب، و(الزَّكيَّة) الَّتي أذنبتْ ثمَّ تابتْ فغفر لها[5].

معنى حرف الجرّ الباء في شبه الجملة ﴿بِغَيۡرِ﴾:

قتلُ الخضرِ للغلامِ بلا سببٍ علةٌ لشدّةِ إنكارِ موسى

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 115.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 115.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 75.
(4) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 113.
(5) الماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 330.

السّببيّة؛ لأنّها دخلتْ على سببِ الفعل[1]، وهي مُتعلّقةٌ بالفعل ﴿أَقَتَلْتَ﴾، والتقدير: (قتلتَه بلا سببٍ)، ويجوز أنْ تتعلّق بمحذوف؛ أيْ: قتلتَ قتلًا بغير نفسٍ[2].

فائدة ذِكر القيد ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾:

في القتل بغير سببٍ حجّةٌ قويةٌ لإنكارِ موسى على الخَضِرِ

جاءَ البيانُ القرآني بقيد ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ ليكونَ سببَ إنكارٍ من موسى للخَضِرِ بأنّ القتلَ كان بغيرِ سببٍ مشروعٍ؛ أيّ أنّ هذه النّفس "لم تقتلْ نفسًا فيُقتصّ منها"[3]، وهذا يدلُّ على أنَّه كان بالغًا، حتى إذا قتلَ قتيلًا أمكنَ قتلُه به، إلا أنْ يكون شرعُهم لا يشترطُ البلوغ، وكونه بالغًا رجّحه كثير من المُفسِّرين، وأوَّلهم ابن عباس رضي الله عنهما، وورَدَ عنه وعن أُبّي رضي الله عنه قراءة تفسيرية: (وأمّا الغلامُ فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين)[4].

فائدة مجيء (اللّام) و(قد) في ﴿لَّقَدْ﴾:

المبالغةُ في إنكارِ الفعلِ الشّنيعِ المُستنكَرِ مقصدٌ في السّياق

﴿لَّقَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ تتضمّن اللّام، وهي الموطِّئة لجوابِ قَسَمٍ مُقدَّر، والتَّقدير: (واللهِ لقدْ جئتَ شيئًا نُكْرًا)، والقَسَمُ واللّامُ أفادتا التّوكيد لكلامِ موسى واعتراضه على قتل الغلام[5].

كما تتضمّن ﴿لَّقَدْ﴾ حرف التحقيق (قد) الذي يُقرّب الماضي من الحال ويجعله أقربَ للتَّحقيق، بما يفيدُ هنا تأكيدَ المخبَر به[6]، وهو مجيء الخَضِرِ بالفعلِ الشنيع المنكر.

إذن في توالي المُؤكّدات (القَسَم ولامه)، و(قد) مبالغةٌ من موسى عليه السلام في إنكاره على الخَضِرِ هذا الفعل الشنيع المنكر؛ وهو قتل الغلام.

(1) السيوطي، الإتقان: 2/ 216.
(2) العُكْبَريّ، التبيان: 2/ 856، وابن عادل، اللُّباب: 12/ 538.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 736.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 113، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 22.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/ 186، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.
(6) المُرادي، الجَنى الدّاني، ص: 255.

دلالة التّعبير بالمجيء ﴿جِئۡتَ﴾ ماضيًا:

التّعبيرُ بالمجيءِ ماضيًا أنسبُ للمقامِ والسياقِ وأدلُّ على المبالغةِ في الإنكار

عبَّر النَّصُّ القرآني بالمجيء في قوله: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ كما في الآية السابقة عند خرقِ السفينة؛ والسرّ في التعبير بالمجيء في الموضعيْن واحدٌ، وهو كونه أعمَّ وأَشْمَلَ من الإتيان؛ إذ هو تمامُ الإتيان، وأنسبَ للمقامِ والسياق؛ إذِ المجيءُ يكون في الشَّيء الّذي فيه صعوبة وشدَّة وقصدٌ وتدبير، وهو مقامُ قيام الخَضِر لفعلٍ لا ترضاه العقولُ والفِطَر السليمة، وقيامُ موسى بالإنكارِ بكلامٍ أشدّ من الأوّل عندما خُرقتِ السّفينة.

وأكّدَ موسى ذلك الإنكارَ باستخدام صيغة الماضي ﴿جِئۡتَ﴾ التي تفيدُ التَحقُّقَ والوقوع؛ أيّ: لقد وقعَ منك هذا الشَّيء العظيم[1]، وناسبَ ذلك أنْ سُبق بحرفِ (قد) الذي يفيدُ التحقيق؛ إذ سبقَ الفعل الماضي، بما يفيدُ زيادة المبالغةِ في الإنكار، كما ناسبَ التعبير بالماضي معنى المجيء الذي هو الحصول والتحقّق، ووافق عادةَ القرآنِ التي لم يَرِدْ لفظ المجيء في القرآن إلا ماشيًا بما يُفيدُ الحدوثَ الفعليَّ وتحقّق الوقوع.

معنى ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وسِرُّ تنكيره:

الأمرُ النُكْرُ مهولٌ وشنيعٌ لا يمكنُ حصرُ فظاعته

الأصلُ في لفظ (شيء) أنّه اسمُ جنسٍ يعمُّ ما يُطْلَقُ عليه[2]، وهو الّذي يصحّ أن يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنه، ومعناه في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾: مجيئًا نُكْرًا، إنْ أريدَ به المصدر، أو: جئتَ أمرًا مُنكرًا، إن أُريدَ به المفعول به[3].

وأمّا سرُّ تنكيره في الآية فلإفادةِ التهويل والتَّعظيم لهذا الفعلِ الشنيع الَّذي قامَ به الخَضِرُ من قتلِ نفسٍ زكيّةٍ بغيرِ نفس، وكأنّه نُكْرٌ لا يمكنُ حصره، ولا يمكنُ وصف مقدارِ فظاعته.

(1) المُرادي، الجنى الدّاني، ص: 255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 54.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 538.

سرُّ التَّعبير بقوله ﴿نُّكۡرٗا﴾:

التّعبيرُ بلفظِ النُّكْرِ مناسبٌ لما تُنكرهُ العقولُ والشّرائع

عبّر البيانُ الإلهيّ بلفظ ﴿نُّكۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ دون غيره؛ لمناسبته السياق الذي يتحدّث عن فعلِ القتلِ لنفسٍ زكيّةٍ بغيرِ نفسٍ ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ و﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾، وهو فعلٌ على خلافِ ما يعرفه ويتوقّعه موسى من الخَضِر، والخارجُ عن كلِّ مألوفٍ ومعروف، وهو فعلٌ تكرههُ النفسُ وتنفرُ منه، ولا يقبله القلبُ ولا يعترفُ به اللسان، وهو أمرٌ داهيةٌ وصعبٌ وشديدٌ[1]، إذ كلُّ ما قَبَّحهُ الشَّرعُ وحَرَّمَهُ وكَرِهَهُ فهو مُنكَرٌ[2]، فكلُّ هذه المعاني للفظ النُّكر تتناسب مع هذا الفعل الشنيع وهو القتل، وكذلك يتناسبُ مع حالِ موسى عليه السلام؛ وهو نبيٌّ من أولي العزم، ومقامُ الأنبياء مقامُ شِدّةٍ وصراحةٍ في تغيير المُنكر.

وكذلك لأنّه فعلٌ شنيعٌ تحقّقَ بشكلٍ مباشرٍ ولا سبيلَ إلى تداركِ الحياةِ معه، إذ قد أُزهقتْ روحُ الغلام وانتهى الأمر، بينما الخرْق في سياق قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾، وإن كان فعلًا شنيعًا لكنّه ليس في شناعةِ القتل؛ فهو إضرارٌ غيرُ مباشر، ولا يلزمُ منه الغرق؛ إذ قد يتحقّق الغرَق وقد لا يتحقّق؛ إذ يمكن سدُّ الخرْق[3]، ولذلك قيل: النُّكر أشدُّ من الإمرِ، والمعنى: لقد جئتَ شيئًا أنكرَ من الأوَّل وأشدَّ في فظاعته واستنكارِ العقول له[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (نكر).
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 487، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 208 - 209، والبِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 92، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 179، وطنطاوي، الوسيط: 8/ 556.

الجُزءُ السَّادِسَ عشَرَ

﴿۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 75 - 76]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

العَلاقةُ بين قتْلِ الغُلامِ، وحِوارِ موسَى مع الخضرِ، وتذكيرِه بوعْدِه

هاتان الآيتان تَحكيان جُزءًا من قصَّة موسى عليه السلام مع العبدِ الصّالحِ، وما دارَ مِنَ الحوارِ بينَهما بعد أن قتلَ الغلامَ، وكان العبدُ الصّالحُ قد أخذَ عليه العهْدَ المرَّةَ السّابقةَ - حين اعترضَ على خرْقِ السَّفينةِ - ألّا يُراجِعَه، وألّا يسألَه عن حكمةِ ما يفعلُ، حتى يُظهِرَ هو له عن ذلك في حينِه، لكنَّ موسى عليه السلام، لم يُطق صبرًا عن سؤالِه عن حكمةِ ما يفعلُ مرَّةً بعد مرَّةٍ، فبادرَه لمَّا قتل الغلامَ، بأن قال له: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]، وهو سؤالٌ استنكاريٌّ، مملوءٌ بالغضبِ، مشحونٌ بالرَّفض، لتلك الفَعلةِ الشَّنيعةِ، المتعلِّقةِ بقتل نفسٍ، قدَّر موسى أنَّها بريئةٌ، وكان الجوابُ صارمًا وواضحًا، لا غبارَ عليه، ولا لَبْس فيه، حيث أجابه العبدُ الصّالحُ: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ [الكهف: 72] فعاود موسى عليه السلام الاعتذارَ قائلًا: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾، وهو في ذلك قد بلغَ المَدى، وانتهى إلى المرَّةِ المُتاحة الأخيرة، حيث لا عذرَ له بعد ذلك؛ لأنَّ نسيانَ الالتزام، يُعذرُ صاحبُه مرَّةً، ولكنَّه لايُعذرُ؛ إذا كثُر نسيانُه، وتلاحقَ عدمُ التزامِه، وقد سبق تنبيهُه سَلفًا، فلا مندوحةَ من تنفيذِ ما ذكرَ، وقد أعذرَ من أنذرَ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأَلۡتُكَ﴾: السُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤدّي إلى

المعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المال، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللِّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة أوِ الإشارة، واستدعاءُ المال جوابُه على اليد، واللِّسانُ خليفةٌ لها إمّا بوعدٍ أو بردٍّ، إن قيل: كيف يصحُّ أن يقال: السُّؤالُ يكونُ للمعرفة، ومعلومٌ أنَّ اللّه تعالى يَسْأَلُ عباده نحوَ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 116]؟ قيل: إنَّ ذلك سُؤالٌ لتعريف القومِ، وتبْكيتِهم لا لتعريفِ اللّه تعالى، فإنَّه علّامُ الغيوب[1]، ثمَّ السُّؤالُ إن كان للتَّعرُّف؛ تعدّى لاثنين ثانيهما بنفسِه تارةً، وبحرف الجرِّ أخرى، وهو حرفُ (عن)، وتنوبُ عنها الباءُ نحو: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: 59][2]، والسُّؤالُ في الآية، هو سؤالُ الاستعلام والاستكشافِ وطلبِ المعرفة.

2) ﴿تُصَٰحِبْنِى﴾: أصلُ (صحب) يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شَيْءٍ ومُقارَبَتِه، مِنْ ذَلِكَ الصّاحِبُ، والجَمْعُ: الصَّحْبُ، وكُلُّ شَيْءٍ لاءَمَ شَيْئًا؛ فقَدِ اسْتَصْحَبَهُ[3]، والصّاحِبُ: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، أو بالعنايةِ والهمَّة[4]، والأَصحابُ: جماعةُ الصَّحْب، والصِّحابةُ مصدرُ قولِك: صاحَبَكَ اللّهُ، وأَحْسَنَ صِحابتَكَ[5]، ولا فرقَ بين أن تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبدن - وهو الأصلُ والأكثرُ - أو بالرّوح والقلب، ويكون ذلك مجازًا، وفي حديث النَّبيِّ ﷺ: الَّذي تَرويه قَيْلَةُ أنَّه قال لها: "أَيُغْلَبُ أُحَيْدُكُم أَنْ يُصاحِبَ صوَيْحِبَهُ في الدُّنْيا مَعْروفًا، فإذا حالَ بَيْنَهُ وبَيْنَه ما هوَ به أَوْلَى؛ اسْتَرْجَعَ، ثُمَّ قالَ: رَبِّ أُسْني ما أَمضَيْتَ، وأَعِنّي على ما أَبْقَيْتَ"[6]، وأُسْني بمعنى: عوِّضني، ومنه: "لا تُصاحِبْ إلّا مُؤْمِنًا، ولا يَأْكُلْ طَعامَكَ إلّا تَقيٌّ"[7]، ومعنى ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾، أي: فارقْني، فلا تكن لي مُصاحبًا[8] ولا ملازمًا.

3) ﴿لَّدُنِّى﴾: (لَدُنْ) ظرفٌ لأوَّل غاية زمانٍ أو مكانٍ، فهو متردِّدٌ بين ظرفَين، وتقول:

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سأل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(4) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(5) الخليل، العين: (صحب).
(6) الحديث ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة: 4/ 391 - 393 في ترجمة قَيلةَ، وعزاه للطّبراني وابن منده، يُنظر: الخطّابيّ، غريب الحديث: 1/ 341.
(7) الحديث رواه أبو داود، الحديث رقم: (4832)، والترمذي، الحديث رقم: (2395)، بإسناد لا بأس بِه.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 76.

وقَفوا له من لَدُن كذا إلى المسجدِ، ونحو ذلك، إذا اتَّصَلَ ما بين الشَّيئَين، وكذلك في الزَّمان: من لَدُن طُلوعِ الشَّمس إلى غُروبها، أي: من حين[1]، ويضافُ إلى الزَّمان، ومنه قولُ الشّاعر:

سَقَى الرَّعيدَةَ في ظُهيري *** مِنْ لَدُنِ الظُّهْرِ إلى العُصيرِ

بخلافِ (عندَ)، فهي أخصُّ من (لديّ)، والفرقُ بينهما أيضًا: أنَّ (عندَ) لا يَستدعي حُضورًا، و(لدن) يَستدعيه، تقول: عندي مالٌ، وإن كان غائبًا من مجلسِك، ولا تقولُ: (لديَّ) إلّا وهو بمجلسِك[2].

4) ﴿عُذۡرٗا﴾: العُذْرُ: اسمٌ، يقال: عذرتُه بما صنع عَذْرًا ومَعْذِرة، وعَذَّرْتُه من فلانٍ، أي: لُمتُ فلانًا، ولم أَلُمْهُ[3]، والعُذْرُ مَعروفٌ، وهو رَوْمُ الإنْسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليه بكَلام[4]، وعُرِّف العُذْرُ أيضًا بأنَّه: تَحرّي الإنسانِ ما يَمحو به ذنوبَه، ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ، وذلك على ثلاثةِ أضرُبٍ: إمّا أن يقولَ: لم أفعل، أو يقولَ: فعلتُ لأجل كذا، فيذكر ما يُخرجُه عن كونه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ، ولا أعود، ونحوَ ذلك منَ المقال، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ، وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[5]، واعتذر رجلٌ إلى إبراهيمَ النَّخعيِّ، فقال له: قد عذرتُك غيرَ معتذرٍ، إنَّ المعاذيرَ يشوبُها الكذبُ، وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾ [القيامة: 14 - 15]، أي: ولو جادل عنها[6]، ومعنى: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾: أعذرتَ فيما بيني وبينك حيث أخبرتَني أنّي لا أستطيع معك صبرًا[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال العبدُ الصّالحُ لموسى عليه السلام بعدَ أن راجعَه في سبب قتْلِ الغلامِ: إنَّني قلتُ لك: إنَّك لن تستطيعَ الصَّبرَ على مُصاحبتي، ولن تستطيعَ صبرًا على السُّكوتِ عن سُؤالي، لخفاءِ

(1) الخليل، العين: (لدن).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لدن).
(3) الخليل، العين: (عذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذر).
(5) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عذر).
(7) الواحدي، الوجيز، ص: 669.

حكمةِ ما أفعلُ، وعدمِ معرفتِك حكمتَهُ، مع أنَّني لا أفعلُه إلّا بإذنٍ من ربّي، فأجابه موسى عليه السلام قائلًا: "إنْ سألتُك عن شيءٍ بعد هذه المرَّةِ فلا تصاحِبْني؛ لأنَّك قد بلغتَ الغايةَ الّتي تُعذرُ بها في فراقي"[1].

تذكيرُ موسى بشرطِ المُصاحبةِ، ووعْدِه للخَضرِ، بتركِ الكلامِ، وفاءً بالالتزامِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصْلِ جملةِ ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل﴾:

السِّرُّ في فصلِ قولِه تعالى: ﴿۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ﴾ عنِ الجملة قبلَه، هو ما بينهما من (شبْه كمال اتِّصالٍ)، لكونِ الحوارِ لا يزال قائمًا بين موسى عليه السلام والعبدِ الصّالح، فكأنَّه قيل: وما الَّذي قاله العبدُ الصّالحُ لموسى عليه السلام بعد أن عارضه بقوله: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]؟ فكان الجوابُ: ﴿۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

اسْتظهارُ الخَضرِ تأكيدَ التَّذكيرِ، بالشَّرطِ الأوَّلِ المذكورِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿قَالَ﴾:

عبَّر بالفعلِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ لكونِ المقولِ قد وقعَ بالفعل، وأنَّ الحوارَ بينهما كان موصولًا لم ينْتهِ، بل إنَّه لا يزالُ قائمًا.

بيانُ تحقُّقِ وقوعِ القولِ في سياقِ المَقولِ

دَلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ﴾:

قولُه: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ﴾؟ استفهامٌ تقريريٌّ إنكاريٌّ[2]، يحملُ لونًا مِنَ الانفعال وزيادةِ اللَّوم على موسى عليه السلام من قِبَل العبدِ الصّالح؛ إذ عاد إلى الاعتراضِ على فعلِه بعد أن لامَ عليه فيما مضى، بقوله: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ [الكهف: 72] بعد اعتراضِه على خرقِه السَّفينةَ، وسرُّ الانفعالِ هو كونُه عليه السلام، لم يُطِق الصَّبرَ للمرَّة الثّانية حتّى يُفسِّر له العبدُ الصّالح سرَّ فعاله في حينِه، كما كانا على هذا قد تعاهدا.

تَكرارُ القولِ على المأمورِ، إشارةٌ إلى المُخالفةِ والاعتراضِ

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 437.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 5، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4564.

فنُّ الجِناسِ في ﴿قَالَ﴾ و﴿أَقُل﴾:

في هذا اللّونِ مِنَ البديعِ، تجميلٌ للجُملةِ بديعٌ

بين قوله: ﴿قَالَ﴾ و﴿أَقُل﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وهو لونٌ من ألوان البديعِ، في قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾، وفي ذلك استقراءٌ للكلام الَّذي كان منَ الخَضر لموسى ، وهو تنصيصٌ على أنَّه قيلَ فعلًا، وأنَّه تذكيرٌ جديدٌ، بقولٍ أكيدٍ.

دَلالةُ اللّامِ وسرُّ زيادةِ شبْه الجُملةِ ﴿لَّكَ﴾:

تـمحـيـض الخطابِ ابتداءً لموسى الكليم، لا لغيرِه

اللّام في ﴿لَّكَ﴾ هي لامُ التَّبليغِ الَّتي دخلت على ضميرِ المُخاطَبِ، وهو السّامعُ للكلام "لِزيادَةِ تَقَوّي الكَلامِ وتَبْليغِه إلى السّامِعِ"[1]، "ونُكتَةُ زيادةِ ﴿لَّكَ﴾ هو - كما قال الزَّمخشريُّ - زيادةُ المكافحةِ بالعتابِ، على رفضِ الوصيَّةِ، والوسْم بقلَّة الصَّبرِ عندَ الكَرَّة الثّانيةِ، كما لو أتى إنسانٌ بما نهيتَه عنه، فلمتَه، وعنَّفتَه، ثمَّ أتى به مرَّةً أخرى، فإنَّك تزيدُ في تعنيفِه"[2].

دَلالةُ مرجعِ ضميرِ الخطابِ ﴿لَّكَ﴾ في السّياقِ:

من تكرَّرَ خطؤُه وتـردَّدَ؛ ثبت لَومُه وتأكَّدَ

ضميرُ الخطابِ في قوله: ﴿لَّكَ﴾ يعودُ إلى المخاطَب وهو موسى ، إذ لا مخاطَبَ هنا غيرُه، والإشارةُ هنا، "لزيادة المكافحة بالعتابِ على رفض الوصيَّة، وقلَّةِ التَّثبُّتِ والصَّبرِ، لمّا تكرَّرَ منه الاشمئزازُ والاستنكارُ، ولم يَرعَوِ بالتَّذكيرِ، حتّى زادَ في النَّكيرِ، في المرَّة الثّانيةِ"[3].

سرُّ مجيءِ التَّوكيدِ ﴿لَّكَ﴾ مُضافًا إلى صاحبِه:

مـزيـدُ الـلَّـومِ والـعـتـابِ، ضـرورةٌ لتأكيدِ مَلْمحِ الخطابِ

وقعَ التَّأكيدُ هنا باللّام الدّاخلةِ على الضَّمير ﴿لَّكَ﴾ إضافةً إلى تأكيدِ الكلام بـ ﴿إِنَّكَ﴾ ثمَّ ﴿لَن﴾ النّافية؛ لأنَّها لم تكنِ المرَّةَ الأولى الَّتي تخلَّفَ فيها عنِ الالتزام بما تعاهدا عليه مِنَ الصَّمت وعدمِ السُّؤال، ولذا لم يؤكَّدْ بها ما وقع من لوْمٍ سابقٍ، في قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 5.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 236.

﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ [الكهف: 72]؛ لأنَّها كانتِ المرَّةَ الأولى، فكان التَّجاوزُ عنها والمسامحةُ فيها مقبولًا، بخلاف هذه، فهي الثّانيةُ، ولذا استدعتْ تعليةً للَّوم والإنكار، وكأنَّه يُذكِّره بهذه الزِّيادة ﴿لَّكَ﴾ بأنَّ الخطاب كان له، لا لغيره على طريقة: إنَّني لم أتوجَّهْ بهذا الكلام سابقًا لأحدٍ سواك، فلِمَ تجاهلْتَه؟ "وفي ذلك فضلُ توكيدٍ للَّومِ"[1].

معنَى النَّفيِ بالأداةِ ﴿لَن﴾ في السّياقِ:

التَّحذيرُ وحدَه لا يَردعُ، والطَّبعُ يَغلبُ التَّطبُّعَ

﴿لَن﴾ أداةُ نفيٍ تدخلُ على المضارع، لنفْيِ الاستقبال، وهي تدلُّ على أنَّ العبدَ الصّالحَ كان واثقًا في أنَّه عليه السلام، لن يطيقَ صبرًا عن عدمِ السُّؤالِ عمّا يراه، ممّا ظاهرُه مخالفٌ للشَّرعِ والعقلِ، من خرقِ السَّفينةِ، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ﴾:

التَّعبيرُ بما يُفيدُ الاستمرارَ، بيانٌ للحالِ المُستمرَّةِ دونَ غيارٍ

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ﴾، يفيدُ تجدُّدَ عدمِ الاستطاعة، من قِبَله عليه السلام، بالإحجام عن عدمِ السُّؤال، والاستمرارِ على هذا، وهو ما كان، ومعنى عدمِ الاستطاعةِ، في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، أي: لا تقدرُ أن تصبرَ على ما ترى من أحوالي وأفعالي الَّتي لم تُحطْ بها خُبرًا[2].

دَلالةُ ﴿مَعِيَ﴾ في السّياقِ الحكيم:

نفْيُ استطاعةِ صبرِه عليه السلام، لا يَعني أنَّه فاقدٌ للصَّبرِ مُطلقًا

قولُه: ﴿مَعِيَ﴾ ظَرْفٌ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿تَسۡتَطِيعَ﴾، على معنى: أنَّ اسْتِطاعَةَ الصَّبْرِ المَنْفيَّةَ، هي الَّتي تَكونُ في صُحْبَتِه، فهي مقيَّدةٌ بذلك، وليست مطلقة؛ لأنَّهُ سيرَى أُمورًا عَجيبَةً لا يُدْرِكُ تَأْويلَها، وتَكرارُ المخاطبةِ في الثّاني، بنفسِ العبارةِ السّابقةِ، المُتعلِّقةِ بنفْيِ الاستطاعة عنه، إنَّما سيقتْ بلفظِها ومعناها، لما يعلمُ من حالِ موسى عليه السلام وطبعِه،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4564.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4432.

ومن رسالتِه الإبلاغيَّةِ ودورِه؛ لأنَّ مهمَّة الرَّسولِ، هي الحرصُ على صيانةِ الأحكامِ، وحمايتِها من أهواءِ الأنامِ.

نُكتةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿صَبۡرٗا﴾ في السّياقِ:

إفادةُ السّياقِ للعمومِ، مَلْمحٌ مِنَ البيانِ مفهومٌ

تنكيرُ كلمةِ ﴿صَبۡرٗا﴾، يدلُّ على العموم، أي: نفي وقوعِ كلِّ ما يُسمّى صبرًا، وإن كان ضئيلًا، فهذا ما تُفيدُه النَّكرةُ الواقعةُ في سياق النَّفيِ، وكان العبدُ الصّالح قدِ التمسَ له عذرًا في عدم صبرِه على ما يراه مُخالفًا، بقوله له قبلُ: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 68].

سِرُّ فصلِ جملةِ: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ﴾ عمّا سبقَها:

تقديرُ السُّؤالِ للجوابِ الآتي، مِنَ البيانِ الفصيحِ المواتي

وفصلَ قولَه: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ﴾؛ لأنَّ الجملةَ واقعةٌ جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ: فماذا قال موسى عليه السلام للعبدِ الصّالح بعد توجيه اللَّومِ المؤكَّدِ له، في المرَّة الثّانية، فأجاب: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

اختيارُ ما يُفيدُ تغليبَ الشَّكِّ في حصولِ الفعلِ

وعبَّرَ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ﴾؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن عازمًا على السُّؤال، وأيضًا لم يقطعْ له بأنَّه لن يسألَ، لما عرفَ من حاله أنَّه لم يُطقِ الصَّبرَ عن عدمِ السُّؤال في الحالَتَين الماضيتَين، فعبَّر بـ﴿إِن﴾، لما ترجَّحَ في عزمِه من عدم السُّؤال، دون أن يقطعَ به، وأيضًا حتّى لا يقطعَ الرَّجاءَ في صبر العبدِ الصّالح على صحبتِه وتسامحِه إن وقع منه السُّؤالُ مرَّةً ثالثةً.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿إِن سَأَلۡتُكَ﴾:

عزْمُ موسى إلزامَ نفسِه بعدمِ الانسياقِ

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي ﴿سَأَلۡتُكَ﴾، على أنَّه كان عازمًا على عدم السُّؤالِ، فإن وقعَ منه؛ فسيكونُ مغلوبًا عليه، فالتَّعبيرُ بالفعلِ الماضي دلَّ على عدم رغبتِه بأن يُقدِمَ على السُّؤال.

معنَى الحرفِ ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن شَيۡءِۭ﴾:

المرادُ بالسُّؤالِ الاستفهامُ والاستعلامُ أثناء الكلامِ

﴿عَن﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على المجاوزةِ، وقد عُدّي به الفعلُ سأل، لإفادتِه معنى الاستفهامِ والاستعلامِ، لا معنى الطَّلبِ، فـ(سأل) تفيدُ معنى طلبِ الشَّيء، إذا لم تتعدَّ بحرف جرٍّ، كأن تقولَ: سألتُك كذا، مالًا كان أو غيرَه؛ إذا طلبتَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ [الممتحنة: 10]، وقد تتعدّى حينئذٍ بحرف الجرِّ (من)، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النّساء: 32][1].

تَنكيرُ لفظِ ﴿شَيۡءِۭ﴾ في سياق الآيةِ:

العزمُ على عدم السُّؤالِ، وصولٌ بأحداثِ القصَّةِ إلى الاكتمالِ

نكَّرَ لفظَ ﴿شَيۡءِۭ﴾ للتَّقليل، أي: إن سألتُك عن أيِّ شيء، حتّى لو كان قليلًا، فأنت في حلٍّ من صُحبتي، ولا شكَّ أنَّ موسى عليه السلام قد اعتزم بيقينٍ وصرامةٍ، ألّا يسألَه عن شيءٍ بعد هذه المسألةِ، وفيه محضُ اعتراضٍ مشوبٍ بالإنكارِ، ممّا يُلمحُ إلى أنَّ نذْرَ موسى عدمَ سؤالِ الخَضر، سوف يطالُ كلَّ ما من شأنه السُّؤالُ عنه، ولو كان قليلًا، وهو ما عبَّرَ عنه بلفظ ﴿شَيۡءِۭ﴾.

المرادُ بالبَعديَّة، ومرجعُ الضَّميرِ فيها:

تَكرارُ الخطأ فيما فيه يُذكَّرُ، مِنَ الفعلِ المُستقبَحِ المُستَنكَرِ

قولُه تعالى: ﴿بَعۡدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرَّةِ[2]، أو بعدَ هذه القصَّةِ أوِ المسألةِ[3]، والضَّميرُ يعودُ إلى مفهوم القولِ، وهو المنكَرَةُ الَّتي أنكرَها على العبدِ الصّالح؛ إذ رماها بأنَّها نُكُرٌ، تستنكرُه العقولُ والأفهامُ[4].

مفهومُ الفاءِ في قوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾:

جوابُ الشَّرطِ مُبينٌ للحلِّ، مباشرةً بعد وقوعِ الزَّللِ

الفاء واقعةٌ في جواب ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ، وهي عاطفةٌ على محذوفٍ تقديرُه: خالفتَ اتِّفاقي معك، فلا تصاحبْني، وبالجملةِ رتَّبَ جزاءَ سؤاله، لو تكرَّر منه ثالثةً، أي: لو لم ألتزم وبادرتُك بالسُّؤال المرَّةَ

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 236.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 209.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4565.

القادمةَ؛ فليكن جزائي ألّا تُصاحبَني، لعدم التزامي معك بما عاهدتُك عليه.

المرادُ مِنَ النَّهي في سياق الآيةِ:

السّياقُ خطابٌ للخضر على قاعدةِ (قد أعذرَ من أنذرَ)

المرادُ مِنَ النَّهيِ على ما يظهرُ، إعذارُه؛ إن أراد الفراقَ، ما لو سأله المرَّةَ الثّالثةَ، وهو يقتضي مدْحَه بهذه الطَّريقة، من حيث إنَّه احتملَه مرَّتين، أوَّلًا وثانيًا، مع قُربِ المدَّة[1] فله كاملُ الحقِّ في الفراق إن أرادَه، مع عدم رغبتِه عليه السلام في ذلك.

وممّا يرجِّحُ كونَ هذا هو المراد، أنَّه أوقع جملةَ ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِي﴾ موقعَ الجزاء، ولا يكونُ الفراقُ جزاءً إلّا إذا كان مُؤثِّرًا على المفارق غيرَ مرغوبٍ.

وبه يظهرُ أنَّه لا وجْهَ لمن رأى أنَّه قال له ذلك؛ لأنَّه عليه السلام، كان عازمًا على فراقِه، ولذلك أوقعَ الثّالثةَ[2]، ويُضعِفُه أيضًا أنَّه عليه السلام وكَل حقَّ المفارقةِ إليه، فأسندَه إليه، ولو كان عازمًا على فراقه - كما قيل - لوكَلَه إلى نفسِه، فقال: (فَلا أَصْحَبُكَ).

سِرُّ استعمالِ ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِي﴾:

لا تكونُ الصُّحبةُ الكريمةُ، إلّا بعد المُلازَمةِ الحميمةِ

سرُّ استعمالِ المصاحبةِ دون غيرها، كالاتِّباع مثلًا ونحوه؛ لأنَّه كان قد لازمَه وقتًا يسمحُ بأن تُسمّى العلاقةُ بينهما صحبةً، لكن لمّا التقاه في البداية، كان قد أطلقَ على هذه العلاقةِ اتِّباعًا، فقال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]، وأجابه هو بقوله: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]، فلم يكن يصلُحُ أن يُطلقَ عليها صحبةً، وهي لم تبدأ.

مفهوم المفاعلة في ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِي﴾:

وسرُّ التَّعبير بالمفاعلةِ هنا، هو كونُ كلٍّ منهما مصاحبًا للآخرِ،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 173.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 96.

اعتبارُ كلٍّ منهما مصاحِبًا للآخرِ، من فصيحِ الإبانةِ عن الدَّلالةِ

أو أن يكونَ ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، بمعنى: (لا تَصْحَبْني)، وبهذا اللفظ ورد في رواية عن يعقوب من القراء العشرة[1]، فتكونَ المفاعلةُ بمعنى المُفردِ، من صحب، والمعنى واحدٌ[2].

معنَى الحرفِ ﴿قَدۡ﴾ في السّياقِ:

الوعدُ بتحقُّقِ الفعلِ من طرفٍ، إنصافٌ للطَّرفِ الآخرِ

﴿قَدۡ﴾ حرفُ تحقيقٍ، ودخولُها على الفعلِ الماضي ﴿بَلَغۡتَ﴾، مؤكِّدٌ لتحقُّقِ وقوعِ الفعلِ، "ولذا قال: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ في مفارقتِك لي، يريدُ أنَّك قد أعذرتَ حيث خالفتُك ثلاثَ مرّاتٍ، وهذا كلامُ نادمٍ شديدِ النَّدامةِ، اضطرَّهُ الحالُ إلى الاعترافِ، وسلوكِ سبيلِ الإنصافِ"[3]، فتعبيرُهُ بحرفِ التَّحقيقِ، إقرارٌ منه لمخاطَبِه، بأنَّه معذورٌ في إنهاءِ الصُّحبةِ، وصرمِ الرُّفقةِ حالَ تكرُّرِ النِّسيانِ في أيِّ آنٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَلَغۡتَ﴾:

البلوغُ هُنا مُرادٌ به بلوغُ المُنتهَى منهُ لا المُشارفةُ

التَّعبيرُ بالبلوغ هنا، مرادٌ به وصولُه منتهى العذرِ وأقصاه[4]، وليس مجرَّدَ المشارفةِ عليه، فإنَّه يردُ بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ [البقرة: 231][5].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿بَلَغۡتَ﴾:

صورةُ التَّخييلِ العجيبِ، تُبرزُ المعنَى في ثوبٍ قشيبٍ

قال ابنُ عاشور: ومَعْنَى ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾: قَدْ وصَلْتَ مِنْ جِهَتي إلَى العُذْرِ، فاسْتُعيرَ بَلَغْتَ لِمَعْنَى (تَحَتَّمَ وتَعَيَّنَ) لِوُجودِ أسْبابِه بتَشْبيهِ العُذْرِ في قَطْعِ الصُّحْبَةِ بمَكانٍ يَنْتَهي إلَيْه السّائرُ على طَريقَةِ المَكْنيَّةِ، وأثْبَتَ لَهُ البُلوغَ تَخْييلًا، أوِ اسْتَعارَ البُلوغَ لتَعَيُّنِ حُصولِ الشَّيْءِ بعدَ المُماطلةِ[6].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 313.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 487.
(3) القنوجيُّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 8/ 88.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 123.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 6.

إفادةُ الحرفِ الجارِّ ﴿مِن﴾ في الآيةِ:

كلُّ آتٍ من لدُنِ اللهِ، فهو نفعٌ لمن تلقّاه

﴿مِن﴾ لابتداءِ الغاية، وهو معناها الأصيلُ الَّذي لا يكادُ يفارقُها، وحيث إنَّ العذرَ كان من لدُنِ موسى، لعدم التزامِه بالشَّرط، فإنَّه "عدلَ إلى المبادرةِ باشتراطِ ما تطمئنُّ إليه نفسُ صاحبِه، بأنَّه إن عاد للسُّؤال الَّذي لا يَبتغيه صاحبُه، فقد جعلَ له ألّا يُصاحبَه بعدَه"[1].

معنَى لفظِ ﴿لَّدُنِّي﴾، وسرُّ إضافتِها:

(لـدُن) ملازمةٌ للإضافة، وهي واردةٌ في الآية للاختصاصِ

(لَدُنْ) اسْمٌ لمبدأ الغايَة زمانيَّةً كانَت أو مكانيَّةً[2]، وهي أخصُّ من (عند)؛ لأنَّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لدُنِ طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضعُ لدُن موضعَ نهاية الفعل، قال بعضهم: (لَدُنْ) أبلغُ من (عندَ) وأخصُّ[3].

والإضافةُ من شأنها أن تلازمَ (لدُن)، وهي هنا في قوله: ﴿لَّدُنِّي﴾ مفيدةٌ للاختصاص، حيث إنَّ كلًّا من (عند) و(لدن)، يُستعملان مجازًا في اختصاص المضافِ إليه بموصوفِهما[4].

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ ﴿لَّدُنِّي﴾:

اختلافُ الملفوظِ لـدى الـقـرّاءِ، سُـمـوٌّ بالمعاني ورقاءٌ

قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وابنُ عامر، وحمزةُ، والكسائيُّ وحفص وخلف العاشر ويعقوب: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ مثقَّلًا، وقرأ نافع وأبو جعفر: ﴿مِن لَّدُنِي﴾ بضم الدّال مع تخفيف النّون، وقرأ شعبة بتخفيف النون مع إشمام سكون الدال أو اختلاس ضمتها[5].

والحجَّةُ لمن شدَّد: أنَّ الأصلَ عنده (لدنْ) بسكون النّون، ومن شأن ياءِ الإضافة أن يُكسرَ ما قبلها، فزادوا على النّون نونًا ليسلمَ لهمُ السُّكونُ، فالتقى نونان، فأُدغمت إحداهما في الأخرى، ثمَّ أُضيفت إليها الياء، فصارت ﴿لَّدُنِّي﴾.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 6.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 550.

(3) الرّاغب، المفردات: (لدن).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 369.

(5) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/ 160، وابن الجزري، النشر: 2/ 313.

والحجَّةُ لمن خفَّف هكذا ﴿لَّدُنِى﴾: أنَّه حذف إحدى النّونين تخفيفًا، كما قرأ: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 80]، و﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ [الزّمر: 64]، بنون واحدةٍ غيرِ مثقَّلة(1).

نُكتةُ تقديمِ قوله: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾:

خصوصيَّةُ التَّلقّي والاتِّباعِ، أهَّلتْ موسى للفهمِ والانتفاعِ

أفادَ التَّقديمُ لشبه الجملةِ هنا: التَّخصيصَ، بمعنى: أنَّ موسى عليه السلام، قدِ استنفد فُرَصه كاملةً مع العبدِ الصّالح، فقال له: إنَّك قدِ استفرغتَ وُسْعك معي، أنا على وجه الخصوصِ، وعنِ النَّبيِّ ﷺ قال: "رحمَ اللّهُ أخي موسى استحيا، فقال ذلك، لو لبث مع صاحبِه؛ لأبصرَ أعجبَ الأعاجيبِ"(2).

دَلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عُذۡرٗا﴾ في الآية:

التَّعميمُ والإطلاقُ من فصيح البيانِ في السّياقِ

ونكَّرَ ﴿عُذۡرٗا﴾ للتَّعميم، أي: بلغتَ منّي كلَّ عذر، بحيث لم يبقَ لدَيَّ شيءٌ منه، فقال: "إن سألتك عن شيء بعدها، أي: بعد هذه القصَّةِ، أو بعد هذه المسألةِ، فلا تصاحبْني، أي: فأوقعِ الفراقَ بيني وبينَك"(3).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصبر والبأسُ:

الصَّبرُ أعمُّ مِنَ البأس، وأنسبُ تعبيرًا في الآيةِ الكريمةِ

الصَّبْرُ: حبسُ النَّفس على ما يَقتضيه العقلُ والشَّرعُ، أو عمّا يقتضيان حبْسَها عنه، فالصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، وربَّما خولفَ بين أسمائه بحسب اختلافِ مواقعِه، فإن كان حبسُ النَّفس لمصيبةٍ؛ سُمّي صبرًا لا غيرَ، ويُضادُّهُ الجزعُ، وإن كان في محاربةٍ، سُمّي شجاعةً، ويُضادُّه الجبنُ، وإن كان في نائبةٍ مُضجرةٍ؛ سُمّي رحبَ الصَّدر، ويُضادُّه

(1) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 288.

(2) بدر الدّين العينيّ، عمدة القاري شرح صحيح البخاريّ: 2/ 193، والقسطلانيّ، إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ: 1/ 217.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 209.

الضَّجرُ، وإن كان في إمساكِ الكلام؛ سُمّي كتمانًا، ويُضادُّه المذلُ، وقد سمّى الله تعالى كلَّ ذلك صبرًا[1].

والبَأْسُ والبُؤْسُ والبَأْساءُ: الشِّدَّةُ والمكروه، إلّا أنَّ البؤسَ في الفقر والحرب أكثرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكاية، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾ [النّساء: 84]، وقولِه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وقولِه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177][2].

وهذه الآية الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ تحمُّلَ البأس، هو من جنسِ الصَّبر، فيكونُ الصَّبرُ أعمَّ.

ومن هنا يُعلمُ أنَّ التَّعبير بالصَّبر أنسبُ للمقام؛ لأنَّ ما تحمَّله موسى عليه السلام، لم يكن من جنس المكروه الَّذي يُعبَّر عنه بالبأس، بل هو صبرٌ على تعلُّم ما ينفعُ، وعلى الوقوفِ على الحكمة من أفعال العبدِ الصّالح الَّذي آتاه الله من لدُنه علمًا.

الصُّحبةُ والملازمةُ:

الصُّحبةُ كثرةُ المُلازَمةِ بين آدميِّين، والملازَمةُ قد تكونُ مع جماد، وتمتدُّ حتّى النِّهايةِ

الصّاحبُ الملازمُ إنْسانًا كانَ أَو حَيَوانًا أَو مَكانًا أَو زَمانًا، ولا يُفرَّقُ بَين أَن تكون مصاحبتُه بالبدنِ، وهو الأَصْلُ والأَكْثَرُ، أَو بالعناية والهمَّة، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الصُّحْبَة، وهي وإِن كانَت تعمُّ القَليل والكثيرَ، لَكِنَّ العُرفَ خصَّصها لمن كثرت ملازمتُه، وطالت صحبتُه، فلا يُقال في العُرف إلّا لمن كثرت ملازمتُه[3].

كما أَنَّ الصُّحْبَةَ تُفيد انْتِفاع أحد الصّاحبين بالآخرِ، ولهذا يُسْتَعْمَلُ في الآدميّين خاصَّةً، فيُقال: صحب زيدٌ عمرًا، وصَحبَه عَمرو، ولا يُقال: صحب النَّجْمُ النَّجْمَ، أَوِ الكَوْنُ الكَوْنَ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (صبر).
(2) الراغب، المفردات: (بؤس).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 558.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 284.

والملازمةُ من لَزِمَ، وهو يَدُلُّ على مُصاحَبَةِ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ دائمًا، يُقالُ: لَزِمَهُ الشَّيْءُ يَلْزَمُهُ[1]، ولا تقتصرُ الملازمةُ على كونها بين آدميٍّ وآدميٍّ، بل حتّى بينه وبين جمادٍ، كما يقال: لزم الرَّجل بيتَه، أي: طال مكثُه فيه، قال الكفويّ: معنى اللُّزوم للشَّيْء عدمُ المُفارقَة عنهُ، يُقال: لزم فلان بَيتَه؛ إذا لم يُفارِقهُ، ولم يوجَدْ في غيره[2].

ومن ثَمَّ يظهرُ جليًّا الفرقُ بين الصُّحبة والملازمةِ، وإن كان بينهما مشتركٌ، وتظهرُ معه مناسبةُ التَّعبير بالصُّحبة دون الملازمةِ في الآية.

فالصُّحبةُ تكونُ بين آدميَّيْن ينتفعُ كلٌّ منهما بالآخر، ولا تعني الملازمةَ إلى النِّهاية، كما تحتمل ذلك كلمةُ الملازمةِ، فقد يلازمُ الإنسانُ بيتَه أو مكانَه حتّى نهايتِه.

العذر والحجة:

العُذْرُ هو رَوْمُ الإنْسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليْه بكلامٍ، يُقالُ مِنْهُ: عَذَرْتُهُ فأَنا أَعْذِرُهُ عَذْرًا، والاِسْمُ العُذْرُ[3]، ومن معانيه الأصيلة: أن يتحرَّى الإنْسانُ ما يمحو به ذنوبَه، بأن يَقول: لم أَفعلهُ، أو فعلتُ لأجل كَذا، أو فعلتَ ولا أَعود، وهذا الثّالِثُ هو التَّوْبَةُ، فكلُّ تَوْبَةٍ عذرٌ بلا عكسٍ[4].

العذرُ أضعفُ منَ الحجَّةِ، وفقدُه يعني فقْدَها، والتَّعبيرُ به أنسبُ للمقامِ

والحُجَّةُ هي منَ الأدلَّة القويَّة، وعُرِّفت بأنَّها: الدَّلالةُ المبيِّنةُ للمَحجَّةِ، أي: المقصدُ المستقيمُ الَّذي يقتضي صحَّةَ أحدِ النَّقيضَين، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: 149].

وبذلك يظهرُ الفرقُ بين الحُجَّةِ الَّتي هي دليلٌ قويٌّ، يَركنُ إليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لزم).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 795.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذر).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 644.

من يحتجُّ به، وبين العذرِ الَّذي قد يتهاوَى إلى مستوَى الكذبِ والاختلاق، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94].

وإنَّما كان التَّعبيرُ بالعذر هنا أنسبَ، لما يحملُه من إعذارٍ للعبدِ الصّالح، وإبراءٍ له منَ التَّسرُّع في التَّخلّي عن مصاحبةِ نبيِّ اللّه موسى ﵇؛ إذِ المعنى: إنَّك تَحمَّلْتني بحيث لم تترك لي شيئًا ضئيلًا، ممّا يمكنُ أن يُعتذرَ به، فلئن فقدَ العذرَ - وهو أضعفُ - فقَدْ فقَدَ الحُجَّةَ، وهي الأقوى من بابٍ أوْلى.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ
لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ
سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ [الكهف: 77 - 78]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

لحظةُ الافتراقِ، بعد مرّاتِ الانطلاقِ

بعدما وقعَ من حوارٍ بين موسى عليه السلام والعبدِ الصّالح، حول قتْلِ الغلام، ثمَّ سؤالِه عليه السلام مُعترضًا ومنكِرًا، ثمَّ اعتذارِه مرَّة أخرى عَقبَ تذكيرِ العبدِ الصّالح له بما تعاهدا عليه مِنَ الصَّبر، وعدمِ السُّؤال، بعد ذلك واصلا سيرَهُما وانطلاقَهما؛ لينتقلا إلى عجيبةٍ جديدةٍ، وحوارٍ جديدٍ، قدِ انتهى بإعلان الفراقِ بينهما، وتأويلِ كلِّ ما وقع من أمورٍ والبدءِ في بيان حكمتِه، ومُفادُ ما قال له العبدُ الصّالح: "هذا التَّعرُّضُ منك مرارًا لما أفعلُ، سببُ الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمةِ هذه التَّصرُّفات الَّتي خفيَ عليك أمرُها، ولم تستطعْ صبرًا على ما خفيَ، حتّى تعرفَ حقيقتَه وسرَّه"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾: (طعم) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ في تَذَوُّقِ الشَّيْءِ، يُقالُ: طَعِمتُ الشَّيْءَ طَعْمًا، ثُمَّ يُحْمَلُ على بابِ الطَّعام اسْتِعارَةً ما لَيْسَ مِنْ بابِ التَّذَوُّقِ، فيُقالُ: اسْتَطْعَمَني فُلانٌ الحَديثَ؛ إذا أَرادَكَ على أَنْ تُحَدِّثَهُ(2)، والطَّعم بالفتح: ما يؤدّيه الذَّوق، يقال: طَعْمُهُ مُرٌّ، والطَّعْمُ أيضًا: ما يُشْتَهى منه، يقال: ليس له طَعْمٌ، وما فلانٌ بذي

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعم).

طَعْم، إذا كانَ غَثًّا، والطُّعْمُ بالضمِّ: الطَّعامُ[1]، وقد خصَّه بعضُ أهل اللُّغة بالبُرِّ خاصَّةً[2]، ومعنى ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾، أي: طلبا طعامًا.

2) ﴿فَأَبَوْاْ﴾: أصلُ (أبي) يَدُلُّ على الامتِناعِ، يقال: أَبَيْتُ الشَّيْءَ آباهُ، وقَوْمٌ أَبِيّونَ وأُباةٌ[3].

وقيل: الإِباءُ: شدَّةُ الامتناع، فهو أخصُّ من مُطلقِ الإباء؛ إذ كلُّ إباءٍ امتناعٌ من غيرِ عكسٍ، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: 34] و﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 8]، ومنه: رجل أَبيٌّ: ممتنعٌ من تحمُّلِ الضَّيم[4]، ومعنى ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: امتنعوا امتناعًا شديدًا عن ضيافتهما.

3) ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾: أصلُ (ضيف) الميلُ، يقال: ضِفْتُ إلى كذا، وأَضَفْتُ كذا إلى كذا، وضافَتِ الشَّمسُ للغروب، وتَضَيَّفَتْ، وضافَ السَّهمُ عنِ الهدف، وتَضَيَّفَ، والضَّيْفُ: من مال إليك نازلًا بك، وأصل الضَّيْفِ مصدرٌ، ولذلك استوى فيه الواحدُ والجمعُ في عامَّة كلامِهم، كما قال تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51] وقد يجمعُ، فيقال: أَضْيافٌ، وضُيوفٌ، وضيفانٌ[5]، ومعنى ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي: كان لهما عليهم حقُّ الضّيافة والإكرام، لكنَّهمُ امتنعوا حتى عن أصلِ الإطعام، ممّا يدلُّ على كمال دناءتِهم وشدَّةِ شكيمتِهم[6].

4) ﴿جِدَارًا﴾: (جدر) أَصْلانِ، الأَوَّلُ: الجِدارُ، وهو الحائِطُ، وجَمعُهُ جُدُرٌ وجُدْرانٌ، والثّاني: ظُهورُ الشَّيْءِ، نَباتًا وغَيْرَهُ[7]، والجدار: الحائط، إلّا أنَّ الحائطَ يُقال اعتبارًا بالإحاطة بالمكان، والجدارَ يقالُ اعتبارًا بالنُّتوِّ والارتفاع، وجمعُه جُدُر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، وقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[8].

5) ﴿يَنقَضَّ﴾: أصلُ (نَقض) يَدُلُّ على نَكْثِ شَيْءٍ، ورُبَّما دَلَّ على مَعَنًى مِنَ المَعاني على جِنْسٍ مِنَ الصَّوْتِ، فيُقالُ لصَوْتِ المَفاصِلِ: نَقيضُها[9]، والنَّقْضُ: انْتِثارُ العَقْدِ مِنَ البِناءِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (طعم).
(2) الرّاغب، المفردات: (طعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أبي).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضيف).
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدر).
(8) الرّاغب، المفردات: (جدر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقض).

والحَبْلِ، والعِقْدِ، وهو ضِدُّ الإِبْرام، يقال: نَقَضْتُ البناءَ والحَبْلَ والعِقْدَ، وقد انْتَقَضَ انْتِقاضًا، والنِّقْضُ المَنْقوضُ، وذلك في الشِّعْر أكثرُ، والنَّقْضُ كَذلِكَ، وذلك في البِناء أكثرُ[1]، ومعنى ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: يكادُ أن يسقطَ[2].

6) ﴿بِتَأْوِيلِ﴾: أصل (أول) يدلُّ على ابْتِداء الأَمرِ وعلى انْتِهائِه[3]، و(تأويل) من الأَوْل، أي: الرُّجوعُ إلى الأصل، ومنه: المَوْئِلُ للموضع الذي يُرجعُ إليه، وذلك هو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]، وفي الفعل كقولِ الشاعر:

وللنَّوَى قبلَ يوم البَيْن تأويلُ[4]

ومعنى ﴿بِتَأْوِيلِ﴾، أي: بحقيقة الأَمرِ وأصلِه فيما جرى من أفعال.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لحظةُ الفراقِ، بسببِ تكرُّرِ العجلةِ في السُّؤالِ، مع الوعْدِ بكشفِ حكمةِ جميعِ الأفعالِ

واصلَ موسى عليه السلام والعبدُ الصّالح السَّيرَ، حتّى وصلا بعد جُهدٍ ولأْواءٍ، نفدَ فيها ما كان معهما من طعام إلى قريةٍ، فطلبا من أهلها طعامًا على سبيل البيعِ والشّراء، أو على سبيل الضّيافة، وهو حقٌّ يوجبُه العُرفُ للأضياف، لكنَّ أهلَ القرية امتنَعوا بشدَّةٍ عن إطعامِهما، "فوجدا فيها جدارًا مائلًا يكادُ يسقطُ، فنقضَه العبدُ الصّالح، وبناه حتّى أقامَه، قال موسى: لو شئتَ طلبَ أجرٍ على النَّقض والبناء؛ لفعلتَ، قال العبدُ الصّالح: هذا التَّعرضُ منك مرارًا لما أفعلُ، سببُ الفراق بيني وبينك، وسأخبرُك بحكمةِ هذه التَّصرُّفاتِ الَّتي خفيَ عليك أمرُها، ولم تستطعْ صبرًا على ما خفيَ، حتّى تعرفَ حقيقتَه وسرَّه"[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نقض).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) الرّاغب، المفردات: (آل).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ في الآية:

تنوُّعُ تأويلِ حرفِ المعنى، مُبينٌ عن الدّلالةِ

الفاء مفيدةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب، أي: أنّهما إنَّهما عقَّبا حوارَهما بالانطلاق، كما كان في المرَّتين السّابقتَين، وقيل: الفاء فصيحةٌ، أي: أنّها إنَّها عاطفةٌ ما بعدها على محذوفٍ قبلَها، قد أفصحتْ عنه، والتَّقديرُ: (جدِّدا الوصيَّةَ، واستقرَّ الأمرُ على ذلك، فانطلقا يَطلبان موضعَ استراحةٍ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ﴾ الآية)[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿فَٱنطَلَقَا﴾:

الانطلاقُ إلى غايةٍ مقصودةٍ، ديدنُ الأنبياءِ الرّاشدين

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، على تحقُّقِ وقوعِ هذا الانطلاق منهما، والمعنى: أنَّهما "سارا منطلقَين إلى الغايةِ الَّتي أرادها موسى مِنَ العبدِ الصّالح؛ لأنَّ اللّه آتاه رحمةً من عنده، وعلَّمه من لدُنه علمًا"[2].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في السّياقِ الكريم:

التَّعبيرُ عن منتهَى ما وصلا إليه، في آخرِ الرِّحلةِ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ[3]، وحرفُ غاية وجرٍّ، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر: 5]، والمعنى: أنَّهما انطلقا "حَتَّى إذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ - هي أنطاكيَّةُ أو أيلةُ - اسْتَطْعَما أَهْلَها من شدَّة جوعِهما واحتياجِهما إلى الطَّعام، فأَبَوْا"[4]، وذلك توصيفٌ لجزءٍ مِنَ المشهد المشوِّقِ الَّذي اختُتِمت به القصَّةُ.

سِرُّ ورودِ ﴿إِذَآ﴾ في السّياقِ المحكم:

إفادةُ (إذا) تحقُّقَ الوقوعِ، على سبيلِ الدَّلالةِ المجازيَّةِ لها

﴿إِذَآ﴾: ظَرْفٌ للزَّمانِ الماضي هُنا، ولَيْسَتْ مُتَضَمِّنَةً مَعْنَى الشَّرْطِ[5]، فلا تحتاجُ إلى جواب، مع أنَّ أصلَها الدَّلالةُ على المستقبل، ومِنَ المواضع الَّتي جاءت فيها دالَّةً على الماضي أيضًا، قولُه تعالى:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4565.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 374، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 228.
(4) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 487.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 375.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90]، وكأنَّها في هذه الحالة تدلُّ على ما تدلُّ عليه (إذْ) الَّتي تدخلُ على الماضي، فتفيدُ تحقُّقَ الوقوع، و(إذا) و(إذْ) قد تقع كلٌّ منهما موقعَ الآخر، فتدلُّ على ما تدلُّ عليه الأخرى، من ماضٍ أوِ استقبالٍ.

قال ابنُ مالك: وقد يراد بها - أي: بـ(إذا) - المضيُّ، فتقعُ موقعَ إذ، كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التّوبة: 91 - 92]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: 11]، ومن ذلك قول الشّاعر:

حَلَلْتُ بها وِتْري وأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتي***إذا ما تَناسَى ذَحْلَهُ كُلُّ غَيْهَبِ[1]

وهذه الدَّلالةُ مجازيَّةٌ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإتيان دونَ المجيءِ أوِ الوصول:

الإتيانُ معبِّرٌ عنِ الوصول بسهولةٍ وقصدٍ

عبَّرَ بالإتيان دون المجيء؛ إشارةً إلى سهولة وصولِهما إلى هذه القرية، وأيضًا لتحقُّقِ القصدِ، فهما كانا قاصدَين أهلَ هذه القرية تحديدًا، لما سيترتَّبُ على هذا الإتيان من عجائبَ، "فالإتيان قد يقالُ باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصول"[3]، وكذلك أيضًا لم يقل: (وصلا إلى أهل قرية)؛ إشارةً إلى نفس السَّبب، وهو أنَّ إتيانَهما لها كان على قصدٍ[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

التَّعبيرُ بالقريةِ هنا، مُشعرٌ بالذَّمِّ والتَّعريضِ بأهلِها

عبَّر عنها هنا بالقريةِ دونَ المدينة؛ لأنَّه أدلُّ على الذَّمِّ، وذلك أنَّ مادَّةَ (قرا)، تدور على الجمع الَّذي يلزمُه الإمساكُ[5]، وظاهرُ

(1) ابن مالك، شرح التّسهيل: 2/ 212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 271.
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (جاء).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 113.

السّياق أنَّهم "كانوا أهلَ قرية لئامًا، وقيل: شرُّ القُرى التي لا يضافُ فيها الضَّيفُ، ولا يُعرفُ لابن السَّبيل حقُّه"(1).

دَلالةُ السّينِ في الفعلِ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾:

ورودُ صيغةِ الفعلِ بما يُناسبُ السّياقَ، من فصيحِ البيانِ

السّينُ للطَّلب، والمعنى: طلبا طعامًا من أهلها؛ لما بهما من جوع، وحيث لا يوجدُ بديلٌ عن هذا الطَّلب، فالأليقُ أن يكونا "طلبا الطَّعامَ منهم، إمّا لعدم وجود ما يشتريان به الطَّعامَ، أو لعدم الطَّعام المُشترَى في السّوق، أو غيرِ ذلك"(2)، وإلّا فإنَّ أهلَ الشَّرف لا يطلُبون، "وَفي الآيَةِ دَليلٌ على إباحَةِ طَلَبِ الطَّعام، لعابِرِ السَّبيلِ؛ لأَنَّهُ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا، وحكاهُ القُرْآنُ، ولَم يَرِدْ ما يَنْسَخُهُ"(3).

دَلالةُ موقعِ جملةِ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾:

طباعُ السّوءِ غلّابةٌ، ولا فِكاكَ من تداعياتِها في السُّلوكِ

الجملةُ في محلِّ جرٍّ صفةٌ لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾(4)، وفي وصف القرية بهذه الجملةِ، إشارةٌ إلى "أنَّ لها مدخلًا في لؤم أهلها"(5)، "والأمُ القُرى الَّذين لا يُقْرون الضَّيفَ، ولا يُطعمون ابنَ السَّبيل الَّذي يكونُ في مكان قدِ انقطع عنه زادُه، وإن كان غنيًّا في مكانه، فأجابوهما عنِ الاستطعام بالامتناع"(6)، وهو ما يدلُّ على سوء الطِّباعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾:

اضطرارُ الضَّيفِ إلى الاستطعامِ، دليلٌ على أنَّ القومَ لئامٌ

قال السّيوطيُّ في بيانه: لو قال: (اسْتَطْعَماها) لم يصحَّ؛ لأنَّهما لم يستطعما القريةَ، أو (اسْتَطْعَماهُم) فكذلك؛ لأنَّ جملة ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾ صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾ النَّكرةِ لا لـ﴿أَهْلَ﴾، فلا بدَّ أن يكون فيها ضميرٌ يعودُ إليها، ولا يمكنُ إلّا مع التَّصريح بالظّاهر(7).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 7.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 113.

(6) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4566.

(7) السيوطي، الإتقان: 3/ 248.

وضْعُ المُظْهرِ موضعَ المُضمرِ في لفظِ ﴿أَهۡلَهَا﴾:

إباءُ أهلِ القرية عنِ الضّيافةِ، أسْوءُ خُلقٍ وأكبرُ آفةٍ

أظهرَ، ولم يُضمرْ، في قوله: ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾، فلم يقل: (اسْتَطْعَماهُم)، ولعلَّ العدولَ فيه عن (اسْتَطْعَماهُم)، على أن يكون صفةً لأهل، لزيادة تشنيعِهم على سوء صنيعِهم، فإنَّ الإباءَ مِنَ الضّيافة، وهم أهلُها القاطِنون بها، أقبحُ وأشنعُ[1].

وقيل: كُرِّرَ لفظُ ﴿أَهۡلَهَا﴾، وأقيمَ الظّاهرُ مقامَ المُضمر للتَّوكيد، كقول الشّاعر:

لا أرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ***نغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

وقيل: التَّكرار للتَّأسيسِ، وذلك أنَّ الأهلَ المَأْتيّين، ليسوا جميعَ الأهل، إنَّما همُ البعضُ؛ إذ لا يمكن أنْ يأتيا جميعَ الأهلِ في العادة في وقتٍ واحد، فلمّا ذَكَرَ الاستطعامَ؛ ذكره بالنِّسبة إلى جميع الأهل، كأنَّهما تَتَبَّعا الأهلَ واحدًا واحدًا، فلو قيل: استطْعَماهم؛ لاحتمل أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ذلك البعضِ المأتيِّ دونَ غيرِه، فكرَّر الأهلَ لذلك[2].

إيثارُ لفظِ ﴿فَأَبَوۡاْ﴾ على لفظِ (امتنعوا) هنا:

وآثرَ التَّعبيرَ بالإباء دون المنع، مع أنَّه منه؛ لدلالةِ كلمةِ الإباء على المنع الشَّديدِ وليس أيَّ منعٍ[3]، فالإباءُ أخصُّ مِنَ المنعِ، وأدلُّ على المعنَى المُستفادِ.

سِرُّ ورودِ التَّعبيرِ ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بصيغة التفعيل:

التَّفعيلُ للتَّكثير، تنبيهًا لحقِّ الضّيافةِ، في قريةٍ منعَ أهلُها أصلَ الضّيافةِ

يحتملُ أن يكون التَّفعيلُ في قوله: ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾ للتَّكثير، على معنى: أنَّ من حقِّهما أن يُبالَغَ في ضيافتهما وإكرامِهما، وليس فقط أن يُضافا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 113.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 28.

وقيل: أضافه، وضيَّفه بمعنًى واحدٍ، مثل: مَيَّله وأماله[1]، يعني: التَّفعيل والإفعال هنا بمعنًى واحدٍ؛ إذ لا معنى للتَّكثير هنا[2]، أي: لأنَّهم امتنعوا عن أصل الإطعامِ، أفيُعاتبون على منع الضّيافةِ المخصوصةِ؟

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الضّيافة) دونَ (الإطعام):

التَّعبيرُ بالإضافة كنايةٌ عَنِ الإطعام، وفي الحقيقةِ هي أخصُّ منه

الإضافَةُ أخصُّ منَ الإطعام؛ لأنَّها إطعامٌ في المنزل على وجه الإكرام، قيل: هذه حَقيقَةُ الكَلام، ثمَّ شاعَ كنايةً عنِ الإطعام وبه يوفّى حقُّ الكرم، أي: الإضافَةُ هنا، بمعنى: الإطعام بدليلِ مجيء قوله: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، مكانَ (أنْ يُطْعِموهُما)، مع أنَّه المسؤولُ، وإلّا فالإباءُ عن إضافَتهما، لا يستلزمُ الإباءَ عنِ الإطعام؛ إذِ الإباءُ عنِ الأخصِّ لا يستلزمُ الإباءَ عنِ الأعمِّ، مع أنَّ المُرادَ إباؤهم منَ الإطعام، سواءٌ كان في المنزل أم لا.

ولعلَّ التَّعْبيرَ به للإشارَةِ إلَى أنَّهما يَستحقّان أن يضيِّفوهما، وأن يُطعموهما في منازلهم على وجه الاحترام والإكرام، مع أنَّ هَؤُلاء القومَ أعرضوا عن إطعامِهم، ولو في غير منازِلهم، وفيه بيانُ كمالِ دناءتِهم، وشدَّةِ شكيمتِهم[3].

سِرُّ ورودِ الفاءِ في جملةِ ﴿فَوَجَدَا﴾:

ما أراد اللهُ إظهارَه، أحاطَه بعنايتِه، وقيَّضَ له من يَصونُه

الفاء عاطفةٌ ومفيدةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب، ففي التَّعبيرِ بها دلالةٌ على أنَّهما وجدا هذا الجدارَ سريعًا، وهذه قدرةُ اللهِ قَدْ أطلعتِ الرَّجلَ الصّالح، على ذلك الجدارِ المعيَّنِ الَّذي سيكونُ ترميمُه سببًا في حفظ حقوقِ اليتيمَين، وما وجَّهتْه القدرةُ، هدايةً وتوفيقًا، سيكونُ الاهتداءُ به يقينًا، وتنفيذُ المهمَّة المتعلّقة به ميسورًا.

---

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 139.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَوَجَدَا﴾ دونَ غيره:

الَّذي يظهرُ أنَّه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿فَوَجَدَا﴾، دون غيره كـ (رأيا - وأبصرا)؛ لأنَّ كلًّا منَ الرُّؤية والإبصار، إنَّما يكونان لما تقعُ عليه الحاسَّةُ سواءٌ كان مقصودًا، أم غيرَ مقصود، أمّا التَّعبيرُ بـ ﴿فَوَجَدَا﴾؛ فمُشعرٌ بأنَّ الموجودَ كان مقصودًا بالذّات، كما يقال: فلانٌ وجد ضالَّتَه، أو دابَّتَه، فإنَّ وُجدانَها كان مسبوقًا ببحثٍ عنها بالذّات، ومعنى هذا أنَّهما سارا على هُدًى وقصدٍ إلى هذا الجدار، وليس أنَّهما أبصراه، فأقامَه العبدُ الصّالح، بل قصداه، فأقامَه.

التَّعبيرُ بِ(وجدا)، مُشعرٌ بأنَّ الموجودَ، كان مقصودًا بالذّاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ دونَ (وجدا فيهم):

وإنَّما قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أي: في القرية، ولم يقل: فيهم، إيذانًا بأنَّ المرادَ وصفُ القرية بسوءِ الطَّبعِ[1]، قال ابنُ عبّاس: "هي (إنطاكيَّةُ)"[2]، فطلبا طعامًا، وكان أهلُها لئامًا، لا يُطعمون جائعًا، ولا يَستضيفون ضيفًا، فامتنَعوا عن إضافتِهما أو إطعامِهما.

مِنَ المكانِ ما يُحيطُه الله بحفظِه، ليحفظَ به ما يريدُ حفظَه

نُكتةُ مجيءِ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ وتقديمِهما:

وفائدةُ التَّعبيرِ بشبْه الجملةِ ﴿فِيهَا﴾ النَّصُّ على كون هذا الجدارِ، كان في هذه القريةِ المذمومةِ دون غيرها، ولذا قدَّمَه على المفعولِ ﴿جِدَارًا﴾ لإفادةِ الاختصاص، والمعنى: أنَّهما وجدا في القرية حائطًا مائلًا، يوشكُ أن يقعَ، وأنَّ وجودَه لم يكن مُلفتًا للنَّظر، وكأنَّه كان مفقودًا في أبصار المارّين به، فوجدَه فقط من كلَّفَه اللّه بترميمِه وإقامتِه، حتّى لا ينكشفَ السِّرُّ المخبوءُ في القريةِ المعيَّنةِ.

التَّقديمُ تخصيصٌ ذو غايةٍ دلاليَّةٍ مُفيدةٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الجدار) دون غيرِه كالحائطِ:

أوثرَ التَّعبيرُ بالجدارِ دونَ الحائط؛ لأنَّ الحائطَ يقالُ اعتبارًا

الجدارُ يقال لما ارتفعَ، وهو أنسبُ للانقضاضِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 116.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 357.

بالإحاطة بالمكان، والجدارَ يقالُ اعتبارًا بالنُّتوِّ والارتفاع[1] والانقضاضُ متعلِّقٌ بالارتفاع، لا بالإحاطةِ.

بَلاغةُ السّياقِ بين الاستعارةِ والمجازِ العقليِّ:

التَّصويرُ البيانيُّ من بليغ التَّعبيرِ وروائعِه

مفهومُ الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ﴾ مجازٌ، وفيه احتمالان:

الأوَّل: الاستعارةُ التَّصريحيَّةُ التَّبعيَّةُ: فيكونُ قد شبَّهَ مُشارفة الجدار للانقضاض بالإرادةِ بجامع المَيلانِ، ثمَّ اسْتُعيرَت الإرادةُ للمُشارفة، اسْتعارَةً تبعيَّةً تصريحيَّةً، بتَشْبيه قُرْبِ انْقِضاضِه بإرادَةِ مَنْ يَعْقِلُ فِعْلَ شَيْءٍ، فهو يوشِكُ أَنْ يَفْعلهُ حَيْثُ أَرادَهُ، والقرينةُ المانعةُ اخْتصاصُ الإرادة، بذوي القوَّةِ الحيوانيَّةِ والبشريَّةِ[2].

والثّاني: المجازُ العقليُّ: وتحقُّقُه في إسنادِ الإرادةِ إلى الجدارِ، فهو مجازٌ في الإسنادِ.

معنَى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾:

المَيـدانُ إشـرافٌ علـى السُّـقوطِ، دون سـقـوطٍ فعليٍّ ناجزٍ

﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ مصدريَّةٌ، وهي والفعلُ بعدها مصدرٌ مؤوَّلٌ، أي: يريدُ انقضاضًا، أي: إنَّ المصدرَ المؤوَّلَ هو مفعولُ الإرادة[3]، والجدارُ المذكورُ بناءٌ مرتفعٌ، يُريدُ أَنْ يَنْقَضَّ، أي: ينهدمُ ويسقطُ، والتَّركيزُ في الجملة على عمليَّة الانقضاضِ المحتملة بقرينة التَّهالكِ والقدمِ.

دَلالةُ الفعلَين المضارعَين ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿يَنقَضَّ﴾:

إفـادةُ الحـالِ والاستقبالِ في الاستعمالِ

التَّعبيرُ بالمضارع في الفعلَين، للدَّلالة على قُرب حصولِ هذا الانقضاضِ، في المستقبلِ القريبِ، مع حصول الإرادةِ في الحالِ، وكأنَّه لمشارفتِه الانقضاضَ، تمَّ تصويرُ الحال على أنَّه إرادةٌ ومحاولةٌ منَ الجدار، لأجل حصولِه، وقد مضَى أنَّ ذلك على سبيل المجازِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جدر).

(2) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 8.

(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 533.

دَلالةُ الفاءِ على السَّببيَّةِ في السّياق:

إقامةُ الجدارِ مرتبطةٌ بكونِه آيلًا للسُّقوطِ

قولُه: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، الفاءُ هنا مفيدةٌ للسَّببية، "لِما فُهِمَ من قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أنَّ الجدار منحرفٌ، قال: فأقامَهُ"(1)، أي: أقامَه بسبب انحرافِه المعبَّرِ عنه مجازًا، بـ ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾:

التَّعبيرُ باللَّفظِ الأثيرِ في البيانِ، أولى مِنَ التَّعبيرِ بغيرِه

وإنَّما عبَّرَ بـ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ دون غيره، كـ (بناه)؛ لأنَّ إقامةَ الشَّيء جعْلُهُ مُستقيمًا على أكمل وجهٍ، كما هو السِّرُّ في التَّعبيرِ عن أداءِ الصَّلاة بإقامتِها، لا بأدائِها، في عادة القرآنِ الكريم في ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 277].

سِرُّ فصْلِ جملةِ: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ﴾:

تضمَّنَ التَّركيبُ معنَى السُّؤالِ عن عدمِ أخْذِ الأجرة

سِرُّ الفصلِ بين الجملةِ هذه وما قبلَها: هو ما بينَهما من شبْه كمالِ الاتِّصال، وهو قولٌ محمَّلٌ باللَّوم، والسُّؤالُ عن سبب عدم أخذ الأجرِ، قال ابنُ عاشورٍ: "وَهَذا اللَّوْمُ يَتَضَمَّنُ سُؤالًا، عَنْ سَبَبِ تَرْكِ المُشارَطَةِ على إِقامَةِ الجِدارِ، عِنْدَ الحاجَةِ إلى الأَجْرِ، ولَيْسَ هو لَوْمًا على مُجَرَّدِ إِقامَتِه مَجّانًا؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الخَيْرِ، وهو غَيْرُ مَلومٍ"(2).

معنَى الحرفِ ﴿لَوۡ﴾ في السّياقِ:

احتسابُ الفعلِ للهِ، أولى من أخْذِ الأجرةِ عليه

قولُه تعالى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ﴾، ﴿لَوۡ﴾ حرفُ شرطٍ غيرُ جازم، ويقالُ له: حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، أي: امتناعُ وقوعِ الجزاء؛ لامتناعِ وقوعِ الشَّرط، وقد كان للحرف ﴿لَوۡ﴾ دورٌ في بيان المقصودِ منَ السّياق، حيث إنَّ "هذا قولُ موسى عليه السلام، لمّا رأى لُؤْمَ القوم وخِسَّتَهم، فقد طلبنا منهمُ الطَّعامَ، فلم يُطْعمونا، بل لم يقدِّموا لنا مجرَّدَ المأوى، فكيف نعملُ لهم، مثلَ هذا العمل دون أجرةٍ؟ وحيث إنَّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 9.

الخَضرَ لم يشأ أخْذَ الأجرة، فلم يقعْ هذا الفعلُ المحتملُ بلو، وامتنعَ أَخْذُها لامتناعِ مشيئةِ مَنْ يطلبُها.

المرادُ بالمشيئةِ في: ﴿لَوۡ شِئۡتَ﴾:

المشيئةُ تكونُ لما لا يتراخَى وقتُه مِنَ الأفعالِ

أي: لو أردتَ في حينه - قبلَ أن تقومَ بما فعلتَ - تحصيلَ الأجرِ أوِ المشارطةِ عليه؛ لكان لك هذا، فآثرَ التَّعبيرَ بالمشيئةِ دونَ الإرادة؛ لأنَّ "الإرادَة تكونُ لما لا يتراخى وقتُه، ولِما يتراخى، والمشيئة تكونُ لما لم يتراخَ، والشّاهدُ أنَّك تقول: فعلتُ كذا شاءَ أو أَبى، فيقابلُ بها إباه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل"(1).

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

إذا وقع فعلُ المشيئةِ في حيِّزِ الشَّرطِ فإنَّ مفعولَهُ يُحذفُ إيجازًا، وتقديرُ الكلامِ هنا: لو شئتَ أن تَتَّخِذَ شيئًا؛ لاتَّخذتَ عليه أجرًا.

سِرُّ استخدامِ اللّامِ في الفعلِ ﴿لَتَّخَذۡتَ﴾:

جوابُ الشَّرطِ مُبينٌ للمعنَى في سياقِه المفيدِ

اللّامُ في قوله: ﴿لَتَّخَذۡتَ﴾ هي الواقعةُ في جواب ﴿لَوۡ﴾، حيث إنَّ جوابَها فعلٌ ماضٍ مُثبتٌ، والأكثرُ فيه أن تلزمَه اللّامُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ دون الحصولِ وغيرِه:

الاتِّخاذُ حَوزُ الشَّيءِ في الأثناء بلا تأخيرٍ

وآثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ دونَ الحصول؛ لما فيه من معنى المجازاةِ والمقابلةِ، لما قاما به من إقامة الجدارِ المائلِ، فالاتِّخاذُ دالٌّ على هذا، ولأجل معنى المقابلةِ الظّاهرِ في التَّعبيرِ بالأخذ، نرى القرآنَ الكريم يُؤثرُ التَّعبيرَ به للدَّلالةِ على الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ [النّحل: 61]، "فتخصيصُ لفظِ المؤاخذةِ تنبيهٌ على معنى المُجازاةِ والمقابلةِ، لما أخذوه مِنَ النِّعم فلم يُقابِلوه بالشُّكرِ"(2).

وأمّا الحصولُ؛ فلا يتضمَّنُ معنى الجزاءِ والمقابلةِ الظّاهرَين في

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

لفظ الأخذِ؛ إذ هو يعني: جَمعَ الشَّيْءِ[1]، وأيضًا ما بَقيَ وثَبَتَ وذَهَبَ ما سِواهُ من حِسابٍ أو عَمَلٍ[2]، وليس شرطًا أن يكونَ ذلك المجموعُ أجرًا أو جزاءً، كذلك من تجلّياتِ إيثارِ لفظِ الاتِّخاذِ أنَّه يعني: حَوْزَ الشَّيء في الأثناء، ضمًّا أو قبضًا على غِلَظٍ مادّيٍّ أو معنويٍّ، كبدءِ السِّمَن في البعير[3]، وهو بذلك يعضِّدُ ما أفاده لفظُ المشيئة، من أخذ الأجرِ في حينه بلا تأخيرٍ، لضمان الحصولِ عليه، وخصوصًا من هؤلاء القومِ الَّذين أبوا أن يُضيِّفوهما.

سِرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ (على):

أثرُ الحرفِ في بيانِ التَّعليلِ والاستعلاءِ

عبَّرَ بحرف الجرِّ (على)، لما فيه من معنى السَّببيَّةِ والتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185][4]، ولِما فيه من معنى الاستعلاءِ الَّذي جسَّده التَّفضُّلُ عليهم، بإقامة الجدارِ المائلِ.

نُكتةُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ وتقديمِه:

تقديمُ الضَّميرِ، يُفيدُ الاختصاصَ في السّياقِ

الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ يعودُ إلى ما قام به من عملٍ، وهو إقامةُ الجدارِ المائلِ، أي: لو شئتَ؛ طلبتَ على عملك جُعلًا[5]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول ﴿أَجۡرٗا﴾ إفادةُ الاختصاص، ولبيان أنَّ هذا الأجرَ كان بسببِ ما قام به من عملٍ، لا غير.

دَلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَجۡرٗا﴾ في السّياقِ:

وفي تنكير الأجر إشارةٌ إلى أنَّه أجرٌ كبيرٌ مُستحقٌّ، وإلى أهمّيَّته في وقت كانا فيه أحوجَ ما يكونان إليه.

دَلالةُ ورودِ جملةِ الأجرِ والمشيئةِ:

تخريجُ الجملةِ على الكنايةِ أوِ المجازِ، من بليغِ الفهمِ والاستعمالِ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾، مضى أنَّ هذه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصل).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (أخذ).
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 477.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 740.

الجملةَ متضمِّنةٌ سؤالًا وجَّهه موسى عليه السلام للعبدِ الصّالح؛ بسبب تركِ أخذِ الأجرةِ على العملِ، وظاهرُه ليس بمرادٍ؛ إذ لا فائدَة في الإخْبارِ بفعله، فهو إمّا (مجاز أو كناية) عن ذلك السُّؤالِ أو إنشاءٌ له[1].

توجيهُ القراءةِ في قوله: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾:

أهميَّةُ القراءةِ في بيان المرادِ منَ السّياقِ

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَتَخِذْتَ﴾ بفتح التّاءِ وكسرِ الخاءِ، مِنْ: تَخِذَ يَتْخَذُ كتَعِبَ ويتعَبُ، والباقون: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾، بهمزةِ الوصلِ وتشديدِ التّاءِ وفتحِ الخاءِ مِنَ الاتِّخاذ[2].

واختُلِفَ: هل هما مِنَ الأَخْذ، والتّاءُ بدلٌ مِنَ الهمزة، ثمَّ تُحْذَفُ التّاءُ الأولى، فيُقال: تَخِذَ، كتَقيَ مِن اتَّقى نحو قول الشّاعر:

زيادَتُنا نُعْمانُ لا تَقْطَعَنَّها *** تَقِ اللّهَ فينا والكِتابَ الّذي تَتْلو

أم هما مِنْ: (تَخِذَ)، والتّاءُ أصيلةٌ، ووزنُهما فعِل وافْتَعَل - قولان - والفِعْلُ هنا على القراءتَين متعدٍّ لواحدٍ؛ لأنَّه بمعنى الكسبِ[3].

دَلالةُ الاستئنافِ البيانيِّ (شبْه كمالِ الاتِّصال):

الـفـراقُ مَلمحٌ لاكتمالِ المهمّةِ، وشرحٌ لأسبابِ الأحداثِ المُلمَّةِ

هذه الجملةُ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾ هي العهدُ بها هو نفسُ العهد، بكلِّ جُملِ المحاوراتِ والمقاولات، حيث تكونُ محمولةً على كونِها أجوبةً لأسئلةٍ مقدَّرةٍ، أي: فماذا قال العبدُ الصّالح، بعد أن قال له موسى عليه السلام: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾.

سِرُّ استعمالِ اسمِ إشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

يُشارُ بالقريبِ لمن عهدُه قريبٌ، أو حضورُه في الذِّهنِ ماثلٌ

﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ للقريب، ولعلَّ سرَّ إيثارِ التَّعبيرِ به، هو قربُ العهد بالمُشارِ إليه، وهو الوقتُ أوِ السُّؤال، ولمّا كان ذلك سببَ الفراق أو محلَّه،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 142.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/314.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 535، والفارسيّ، الحجّة للقراء السّبعة: 5/ 163، وابن خالويه، الحجَّة في القراءات السّبع: 2/ 68.

سمّاه به مبالغةً[1]، وقيل: المُشار إليه الشَّرطُ الواقعُ بينهما، أي: هذا الإعراضُ سببُ الفراق بيني وبينك على حسب ما سبقَ من ميعادِه[2]، وقيل: الإشارةُ إلى الفراق الموعودِ بقوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، فإنَّه صوَّرَه في الذِّهن، فأشار إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، كأنَّه مُشاهَدٌ محسوسٌ، لحضوره في الذِّهن وتمييزِه على سبيل الاستعارة[3]، وذلك كما يقول المُصنِّفون: (هذا كتاب)، قبل تأليفِه، و(هذا أخوك) لتصوُّرِه وحضورِه في ذهنِه[4].

إذا تعذَّرَ الاتِّفاقُ، فلا مندوحةَ مِنَ الفراقِ

دَلالةُ الفراقِ في هذا السّياقِ:

المرادُ بالفراق بينهما، هو فراقُ الصُّحبة المفهومُ من قبلُ، عند تَكرارِ الإخلال بالشُّروط، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾: "تُعدُّ دُستورًا مِنَ الحقِّ ﷻ، ودليلًا على أنَّ هذين المذهبَين لا يلتقيان، فيظلُّ كلٌّ منهما له طريقُه: المرتاضُ له طريقُه، وغيرُ المرتاض له طريقُه، ولا ينبغي أن يعترض أحدُهما على الآخر، بل يلزمُ أدبَهُ في حدود ما علَّمه اللّه"[5].

إذا اختلفتِ الاتِّجاهاتُ؛ افترقتِ الوِجهاتُ

سرُّ إضافةِ الفراقِ إلى الظَّرفِ مجازًا:

إضافةُ المصدر إلى الظَّرف اتِّساعٌ[6]، أي: على المَجاز للمُبالَغَة؛ لأنَّ (بين) هنا بمعنى الوصْلِ، وافتراقُ الوصلِ أبلغُ[7]، وقيل: هو مِنْ إضافةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَة، وأَصْلُهُ: فِراقٌ بَيْني، أَيْ: حاصِلٌ بَيْنَنا[8].

من تعجَّلَ في الجوابِ؛ أُغلقَ عليه البابُ

نُكتةُ الفراقِ على السُّؤالِ الثّالثِ دون سابِقَيْه:

وقد ترتَّبَ الفراقُ على السُّؤال الثّالثِ دون السّابقَين عليه؛ "لأنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 117.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 97، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 211.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 143.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 126.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 14/ 8966.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 237.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 144.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.

السّابقَين ظاهرُهما منكرٌ، فكان معذورًا في السُّؤالِ بخلاف هذا، فإنَّه لا يُنكرُ الإحسانُ للمُسيء، بل يُحمَدُ"[1]، إضافةً إلى أنَّه ﷺ هو الَّذي فتح البابَ، ومهَّد الطَّريقَ لهذا الفراق، حالَ توجُّهِه بالسُّؤال الثّالثِ بقوله: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾.

معنَى البَيْن في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾:

ارتهانُ الفراقِ البينيِّ على الاشتراطِ بدايةً، ونقضُ الالتزام نهايةً

والبينُ الصَّلاحُ الَّذي يكون بين المُصطحِبَين ونحوِهما، وذلك مستعارٌ فيه منَ الظَّرفيَّة، ويُستعمل استعمالَ الأسماء[2]، وقوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾، بعد أن كان البينانِ بيّنًا واحدًا، لاتِّصالهما، فلا بيّنَ، فهو في الحقيقة فوقَ ما كان متَّصلًا من بينهما، أو فراقُ التَّقاولِ الَّذي كان بينهما، أي: الفراقُ الَّذي سببُه السُّؤال"[3].

نُكتةُ تَكرارِ البينيَّة في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾:

التَّكرارُ المفيدُ، غايتُه التَّوكيدُ

وكرَّرَ لفظَ (بين) عُدولًا عنِ الجمع بينهما، بلفظِ (بيننا) للتَّأكيد[4]، ومثلُ هذا قولُك: أخزى اللّه الكاذبَ مِنّي ومِنْكَ، فذكْرُ بيني وبينك ثانيةً توْكيدٌ، وهذا لا يكونُ إلّا بالواو، ولا يجوز: (هذا فراق بيني فبيْنِكَ)؛ لأنَّ معنى الواو الاجتماعُ، ومعنى الفاء أن يأتي الثّاني في إثْرِ الأوَّل[5]، وقيل: سببُ التَّكرير التَّوصُّلُ للعطف على الضَّمير المجرور[6].

بَلاغةُ إجراءِ الحذفِ على الاحتباكِ:

إثباتُ الفراقِ في السّياقِ بأبلغِ بيانٍ وأدقِّه

وقد يتنزَّلُ الحذفُ على طريقة الاحتباكِ، والأمرُ فيه أظهرُ، كما يذكر البقاعيُّ، وتقديرُه: (فراق بيني وبينك، كما أخبرت، وفراق بينك من بيني كما شرطت)، وقد أثبتت هذه العبارة الفراق على

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 126.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 211.
(3) البقاعيّ نظم الدّرر: 12/ 117.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 534، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 211.
(5) الزجّاج، معاني القرآن: 3/ 304.
(6) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 446.

أبلغِ وجهٍ، وذلك أنَّه إذا وقع فراقٌ بيني من بينك، بحائلٍ يحولُ بينهما، فقد وقع منك بطريق الأولى[1].

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ عن سابقِها:

انقطاعُ الكلامِ السّابقِ، هو سرُّ الفصلِ عنِ اللّاحقِ

وفصلَ بين هذه الجملة والَّتي قبلها لانقطاعِ الكلامِ، ثمَّ استئنافِ كلامٍ جديدٍ، فـ"السّين في قوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، مفرِّقةٌ بين المحاورتَين والصُّحبتَين، ومُؤْذنة بأنَّ الأولى قدِ انقطعت"[2]، وقيل: الجملةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، واقعةٌ جوابًا لسُؤالٍ يَهْجِسُ في خاطِرِ موسَى عليه السلام، عَنْ أَسْبابِ الأَفْعالِ الَّتي فعلها الخَضِرُ عليه السلام، وسَأَلَهُ عَنْها موسَى، فإنَّهُ قَدْ وعَدَهُ أَنْ يُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا، مِمّا يَفْعَلُهُ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ دونَ غيرِه:

النَّبأُ خبرٌ ذو فائدةٍ، يحصلُ به علْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ سائدةٌ

أوثرَ التَّعبيرُ بالإنباء دونَ غيرِه، كالإعلام والإخبار، لما يتضمَّنُه معنى النَّبأِ من عِظم الخبر، فالنَّبأُ هو الخبرُ العظيمُ أمرُه، الجسيمُ تأثيرُه، قال الرّاغبُ: النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصل: نَبَأٌ، حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ[4].

دَلالةُ الباءِ في شبْه الجملةِ ﴿بِتَأْوِيلِ﴾:

إذا عُرفَ السَّببُ؛ بطلَ العجبُ

الباءُ في قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ للإلصاقِ أو للتَّعدية، ومعناها مع مجرورها: "﴿بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بترجيع ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، لمُخالفتِه عندك الحكمةَ إلى الحكمة، وهو أنَّ عند تعارضِ الضَّررَين، يجبُ ارتكابُ الأدنى، لدفع الأقوى، بشرطِ التَّحقُّقِ"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 117.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 534.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.

(4) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 118.

حين جُلّيَ التَّأويلُ، استبانَ موسى فحوَى ما فعلَ وما قيلَ

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿بِتَأۡوِيلِ﴾:

التَّأويلُ: تَفْسيرٌ لشَيْءٍ غَيْرِ واضِحٍ، فكأنَّه لعدمِ وضوحِه، يحتاجُ إلى جهدٍ في سبيلِ بيانِه، وإيضاحِ المقصودِ منه، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأَوْلِ وهو الرُّجوعُ، وقد شَبَّهَ تَحْصيلَ المَعْنَى على تَكَلُّفٍ بالرُّجوعِ إلى المَكانِ، بَعْدَ السَّيْرِ إليه[1]، وفحوَى الإنباءِ بالتَّأويل، إخبارُك بتَأْويلِ الأمورِ الَّتي قد أنكرتَ عليها، واعترضتَ مُفتتحًا مستعجلًا، بحيث لَم تَسْتَطِعْ عليْه صَبْرًا، حتّى أحدِّثك، وأَبينك سرائرَها[2].

التَّعريضُ بلوْمِ موسَى عليه السلام، لعدمِ صبْرِه على البيانِ

دَلالةُ ﴿مَا﴾ الموصولةِ في السّياقِ:

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي صِلَةِ المَوْصولِ مِنْ قَوْلِه: ﴿مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾، دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما، تَعْريضٌ باللَّوْمِ على الاسْتِعْجالِ وعَدَمِ الصَّبْرِ إلى أَنْ يَأْتيَهُ، حَسْبَما وعَدَهُ بقوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70][3]، ويجوزُ أن يقال: إنَّ ذلك لاستثارةِ مزيدِ توجُّهه وإقبالِه، لتلقّي ما يُلقَى إليه[4].

قلبُ نفْيِ المضارعِ إلى الزَّمنِ الماضي للإبانةِ عنِ المرادِ

سِرُّ ورودِ النَّفيِ في جملةِ: ﴿مَا لَمۡ تَسۡتَطِع﴾:

دخولُ ﴿لَمۡ﴾ النّافيةِ الجازمةِ على المضارع ﴿تَسۡتَطِع﴾، أحالت معنى المضارع إلى الزَّمنِ الماضي، أي: سأخبرُك بتأويل كلِّ ما مضى، وأظهرُ لك حكمتَه، ممّا سألتَ عنه، ولم تكن صابرًا، حتّى أبيِّنَه لك كما تعاهدْنا.

التَّقديمُ مفيدٌ في استكناهِ الدَّلالةِ، ومراعاةِ الفاصلةِ الفاصلةَ

نُكتةُ ورودِ شبه الجملة ﴿عَّلَيۡهِ﴾، وتقديمِها:

في قولِه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾، قدَّمَ شبْهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10.

(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 488.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 10، 11، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 331، 332.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 331، 332.

الجملةِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على المفعولِ ﴿صَبۡرًا﴾؛ لأنَّ ذلك أدعَى للاهتمام[1]، ولمراعاة الفاصلة[2].

تنكيرُ لفظِ ﴿صَبۡرًا﴾ في السّياق:

نكَّر ﴿صَبۡرًا﴾ لإفادة العموم؛ لكونه نكرةً، وقعت في سياق النَّفي، فتفيدُ العمومَ، والمعنى: لم تُطقْ كلَّ ما يُسمّى ﴿صَبۡرًا﴾، قليلًا كان أو كثيرًا، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾، "أي: بما لم تصبرْ على ظاهرِه، وبعاقبتِه، وهو خلاصُ السَّفينة مِنَ اليد العاديةِ، وخلاصُ أبويِّ الغلام من شرِّه، مع الفوزِ بالبدل الأحسنِ، واستخراجِ اليتيمَين للكنز"[3].

الصَّبرُ مفتاحُ ما يُرجّى، وغايةُ ما يُؤمَّلُ

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإتيانُ والمجيءُ:

قد فُرِّقَ بينَهما بأنَّ (جاء) يقالُ في الجواهر والأعيانِ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يقالُ في المعاني والأزمان، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1][4].

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصولِ

وقال الرّاغبُ: "والمجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، وأمّا الإتيانُ، فقد يقالُ باعتبار القصْدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول"[5].

الإطعامُ والضّيافةُ:

أصلُ الضَّيْفِ الميلُ، يقال: ضِفْتُ إلى كذا، وأَضَفْتُ كذا إلى كذا، وضافَتِ الشَّمسُ للغروب، وتَضَيَّفَتْ، وضافَ السَّهمُ عنِ الهدف، وتَضَيَّفَ، والضَّيْفُ: من مال إليك نازلًا بك[6]، والضّيافةُ أخصُّ منَ الإطعام؛ لأنَّ

الضّيافةُ أخصُّ مِنَ الإطعامِ، فكلُّ ضيافةٍ إطعامٌ، وليس كلُّ إطعامٍ ضيافةً

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4568.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 144.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 51.

(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

(5) الراغب، المفردات: (جاء)، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80 وما بعدها.

(6) الراغب، المفردات: (ضيف).

الإطعامَ يتحقَّقُ، بأقلِّ ما يُسمّى إطعامًا، ولو باللُّقمةِ، أمّا الضّيافةُ؛ فلها أصولُها، ولها خصوصيَّتُها وآدابُها، وعلى هذا فالنِّسبةُ بينهما، هي العمومُ والخصوصُ المطلقُ، فكلُّ ضيافةٍ إطعامٌ، وليس كلُّ إطعامٍ ضيافةً.

الإباءُ والمنعُ:

كلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً

الإباءُ هو امتناعٌ باخْتيارٍ، وأبى الشَّيْءَ، لم يرضَه، وأَبى عليْهِ، امتنع، وهو غيرُ الاستكبارِ.

وكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً، فإنَّ الإباء شدَّةُ الامتِناع، وإباءُ الشَّكيمة مثلٌ فيه، ويُقال: أَبى على فلان، وتأبّى عليْهِ؛ إذا امتنع[1].

الانقضاضُ والسُّقوطُ:

التَّعبيرُ بالسُّقوطِ، أقوَى مِنَ التَّعبيرِ بالانقضاضِ

الانقضاضُ هو من قولهم: انْقَضَّ الحائطُ: وقع[2]، والمعنى المحوريُّ للَّفظِ: اختراقُ صُلْبٍ أو كَسْرُه تفتيتًا أو نحوه، وانقضَّ الجِدارُ: تَصدَّع، ولم يَقَعْ بعد[3]، وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، يُفهم منه أنَّه كان مائلًا، ولم يقع بعدُ، ولذلك أمكن تقويمُه وإقامتُه، ربَّما بإصلاح أسبابِ الاعوجاج فيه، وقيل: معناه يريدُ أن يتفتَّتَ كالحصى[4].

والسُّقوطُ: طرحُ الشَّيء، إمّا من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ، كسقوط الإنسانِ مِنَ السَّطح[5]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: 25]، وعلى هذا فالتَّعبيرُ بالسُّقوط أقوَى مِنَ التَّعبير بالانقضاضِ؛ لأَنَّ السُّقوطَ يكونُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ، بحيث لا يمكن تداركُه، ولذا عبَّر بالانقضاض دون السُّقوطِ.

(1) الراغب، المفردات: (أبى)، والكفوي، الكليات، ص: 28.
(2) الرّاغب، المفردات: (قض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قضض).
(4) السّمين الحلبي: الدّر المصون: 7/ 533.
(5) الرّاغب، المفردات: (سقط).

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 79 - 81]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

أوانُ الكشْفِ عن حقائقِ الوقائعِ، تفصيلًا بعدَ إجمالٍ

بعد أن حان وقتُ الفراق، أكَّدَ العبدُ الصّالح، أن يُنبِئَ نبيَّ اللّه موسى، بالحكمةِ الخفيَّةِ وراءَ كلِّ تصرُّفٍ تصرَّفَه، حيث قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، ثمَّ راح يُفصِّلُ كلَّ حالةٍ منَ الحالات الثَّلاثِ على حدةٍ، مرتِّبًا إيّاها حسبَ ترتيبها في الوقوع، فبدأ بشرح حكمةِ تصرُّفِه بخرق السَّفينة، ثمَّ ثنَّى بالغلام، ثمَّ ثلَّثَ بالجدار، فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ جمعُ مسكين، والمسكينُ: الفقيرُ، وقد يكونُ بمعنى الذِّلَّة والضَّعف، يقال: تَسَكَّنَ الرَّجلُ، وتَمَسْكَنَ، كما قالوا: تَمَدْرَعَ وتَمَنْدَلَ، منَ المَدرعة والمنديلِ على تَمَفْعل، وهو شاذٌّ، وقياسُه تَسَكَّنَ وتَدَرَّعَ وتَنَدَّلَ، مثل تَشَجَّعَ، وتَحَلَّمَ، وكان يونسُ يقول: المسكينُ أشدُّ حالًا منَ الفقير، قال: وقلت لأعرابيٍّ: أفقيرٌ أنتَ؟ فقال: لا واللّه، بل مِسْكينٌ[1]، وهنالك من يقدِّمُ الفقيرَ على المسكين، فقيل: المِسْكينُ هو الذي لا شيءَ له، وهو أبلغُ منَ الفقيرِ[2]، وقيل في حدِّهِ: كلُّ من احْتاجَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات: (سكن).

إِلَى كلِّ شَيْءٍ؛ فهوَ مِسْكينٌ[1]، ولا شكَّ أنَّ الفقيرَ والمسكينَ، تجمعُهما الحاجةُ، وسيأتي في الفروقِ المعجميَّةِ تفصيلٌ للفرق بينهما.

2) ﴿أَعِيبَهَا﴾: العَيْبُ والعابُ: الأمرُ الَّذي يصيرُ به الشَّيء عَيْبَةً، أي: مقرًّا للنَّقص، وعِبْتُهُ: جعلتُه مَعيبًا، إمّا بالفعل، كما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وإمّا بالقول، وذلك إذا ذممتَه، نحو قولك: عِبْتُ فلانًا[2]، والعَيْب والعَيْبَةُ والعابُ بمعنًى واحدٍ[3]، ومعنى ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، أي: أصنعَ ما يعيبُها في الظّاهرِ دون أن يكونَ له تأثيرٌ على عملها.

3) ﴿وَرَآءَهُم﴾: كلمةُ (وراء) تُستخدم ظرفَ زمان، كما أنَّها تُستخدم ظرفَ مكانٍ، وفي كليهما قد تدلُّ على معنى الخلْفِ أو معنى الأمام، وهي منَ الأضداد[4]، وقيل: هو بمعنى الخلْفِ فقط، ودلالتُه على الأمام مجازٌ، وسيأتي تفصيلٌ لذلك في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ، وقال الكفويُّ: كلُّ (وَراء) في القُرْآن، فهو أَمام إلّا قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 7]، وقولُه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24] أَي: ما سوى ذَلِك[5].

4) ﴿غَصْبًا﴾: الغصبُ: أخذُ الشَّيء ظلمًا، تقول: غَصَبَه منه، وغَصَبَه عليه، بمعنًى، والاغتصابُ مثلُه، والشَّيءُ غَصْبٌ ومغصوب[6].

5) ﴿فَخَشِينَآ﴾: أصلُ (خشي) يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليْه المَجازُ[7]، يخافون ربَّهم ويعظِّمونه؛ إذِ الخشيةُ، وإن كانت تعودُ في معناها إلى الذُّعر والخوف، لكنَّها في واقعِها هي أشدُّ، وأخصُّها، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ للمخشي، كأثرٍ للعلم بمقامِه العظيم، كخشيةِ اللّه ﷻ[8]، ومعناها في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾: فعلمنا أنَّه يُرهقُهما، أو كرهنا[9].

6) ﴿طُغْيَٰنًا﴾: أصلُ (طغى) مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، يُقالُ: هوَ طاغٍ، وطَغَى السَّيْلُ؛ إذا جاءَ بماءٍ كَثيرٍ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُريدُ - واللّه أَعْلَمُ -

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 803.
(2) الرّاغب، المفردات: (عيب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (عيب).
(4) الجوهري، الصحاح: (ورى).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 918.
(6) الجوهري، الصحاح: (غصب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (خشي).
(8) الراغب: المفردات، وابن فارس: مقاييس اللغة، والسمين الحلبي: عمدة الحفاظ: (خشي)، وابن الهائم: التبيان، ص: 82.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85.

خُروجَهُ عَنِ المِقْدارِ، وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أَمواجُهُ، قالَ الخَليلُ: "الطُّغْيانُ والطُّغْوانُ لُغَةٌ، والفِعْلُ مِنْهُ: طَغَيْتُ وطَغَوْتُ[1] طَغوانًا وطُغْيانًا، وأَطْغاهُ كذا: حملَه على الطُّغْيانِ، وذلك تجاوزُ الحدِّ في العصيان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النازعات: 17]، وقولِه تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾[2]، ومعناه هنا: العصيانُ والاستكبارُ على اللّه[3].

7) ﴿زَكَوٰةً﴾: أصلُ (زكى) يَدُلُّ على نَماءٍ وزيادَةٍ، ويُقالُ: الطَّهارَةُ زَكاةُ المالِ، قالَ بَعْضُهُم: سُمّيَتْ بذَلِكَ؛ لأنَّها مِمّا يُرَجّى به زَكاءُ المالِ، وهوَ زيادَتُهُ ونَماؤُهُ، وقالَ بَعْضُهُم: سُمّيَتْ زَكاةً؛ لأنَّها طَهارَةٌ[4]، قال الكفويُّ: كلُّ ما في القُرْآن من زَكاة؛ فهوَ المال، إلّا قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: 13]، فإنَّ المُرادَ الطُّهرةُ[5]، وقد تجاوزَ الكفويُّ هذه الآيةَ التي معنا: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، فإنَّها منه أيضًا، فهي بمعنى الطُّهر، وليس بمعنى المالِ.

8) ﴿رُحْمًا﴾: أصلُ (رحم)، يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إذا رَقَّ لَهُ، وتَعَطَّفَ عليْهِ، والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بمَعْنًى، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ، ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذا؛ لأَنَّ مِنْها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ، ويُرَقُّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ[6]، والرَّحْمَةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحوم، وقد تُستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدةِ، وتارةً في الإحسان المجرَّدِ عنِ الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّه فلانًا، وإذا وُصفَ به الباري، فليس يرادُ به إلّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[7]، ومعنى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أبرُّ بوالديه وأوصلُ للرَّحم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى).
(2) الراغب، المفردات: (طغى).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(5) الكفويّ الكليات، ص: 485.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(7) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(8) الواحديّ، الوجيز، ص: 670.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ارتكابُ أخفِّ الضَّررَين مطلوبٌ، ما لم يكن مِن ارتكابِ أحدِهما بدٌّ

بدأ العبدُ الصّالح الكشفَ عن حكمةِ جميعِ ما بدرَ منه من أفعالٍ، لم يستوعبْها موسى عليه السلام، لعدمِ وقوفِه على حكمتِها، فبدأ بالكشفِ عن حكمةِ خرقِ السَّفينةِ، وهو أوَّلُ فعلٍ وقعَ منه، فبيَّن له أنَّ السَّفينةَ كانت مملوكةً لمساكينَ يتوسَّلون جلبَ الرِّزق منَ البحر، وكان هنالك ملكٌ ظالمٌ يغتصبُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ، ويصادرُها لنفسه، فأردتُ أن أُحدثَ عيبًا ظاهريًّا يصدُّ الملكَ الظّالمَ عن أخذِها، ولا يؤثِّرُ على جوهرِ عمل السَّفينةِ، حيث كان الملكُ قريبًا منهم، خلفَهم أو أمامَهم، وهذا ما حدثَ، وكان سببًا في احتفاظ المساكين بسفينتِهم، يَتكسَّبون رزقَهم مِنَ العملِ فيها، ثمَّ ثنَّى العبدُ الصّالح ببيانِ حكمةِ قتلِ الغلام، فكشفَ لموسى عليه السلام أنَّ هذا الغلامَ، كان له أبوانِ صالحانِ، وقد أعلمَه اللّه بأنَّ هذا الولدَ لو عاش، فسيكونُ سببًا في إضلال والدَيه الصّالحين، وكفْرِهما باللّه، وقد أمرَه اللّه بقتلِه، لينجو الوالدان بصلاحِهما، وينجو الغلامُ بموته، قبلَ التَّكليفِ، مع الطَّمع والرَّجاءِ في اللّه أن يبدِّلَ الوالدين بغلامٍ صالحٍ طاهرٍ منَ الذُّنوب، يكونُ بارًّا بهما رحيمًا، واصلًا لرحمِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشرِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

استخدامُ (أمّا) للتَّفصيل، وبيانِ ما يحتاجُ إلى بيانٍ

وقولُه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ شروعٌ في وفاءِ ما وعدَ الخضرُ به موسى، على سبيل اللَّف والنَّشرِ المرتَّب، بأن يُبيِّنَ له على وجه التَّرتيبِ حقيقةَ ما رآه في الأمور الثَّلاثةِ، وقد كان وعَدَه بذلك، فقال: سأُنبِّئك، قبل مُفارقتي لك بتفسيرِ ما خفيَ عليك مِنَ الأمور الثَّلاثةِ وبيانِها الَّتي لم تستطع عليها صبرًا؛ لأنَّك لم يكن عندَك ما عندي مِنَ العلْمِ بأسرارِها الباطنةِ الَّتي أطلعني اللّه تعالى عليها[1].

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 558.

دلالةُ (أل) العهديَّةِ في لفظِ ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾:

ربَّما كان في الضَّررِ العاجلِ حكمةٌ آجلةٌ

التَّعريفُ في ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾ للعهد، فالمقصودُ السَّفينةُ التي خرقَها، ويملكُها هؤلاء المساكين الَّذين يعملون في البحرِ، فيقول: "أمّا السَّفينةُ الَّتي خرقتُها، فهي لضعفاءَ مُحتاجين يعملون بها في البحرِ لتحصيلِ رزقِهم، فأردتُ أن أُحدثَ بها عيبًا يُزهِّدُ فيها؛ لأنَّ خلْفهم ملكًا يغتصبُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ"[1].

مفهومُ الفاءِ في قوله: ﴿فَكَانَتْ﴾:

بيانُ أنَّ السَّفينةَ مملوكةٌ لمساكينَ، دأبُهم الارتزاقُ منها

الفاءُ واقعةٌ في جواب ﴿أَمَّا﴾ لما فيها من معنى الشَّرط، وهي عاطفةٌ على محذوفٍ قبلَها، تقديرُه: إن رغبتَ في معرفة حقيقةِ ما جرى لها؛ إنَّها كانت لأناس مُحتاجين، لا يملكون ما يكْفيهم، ويسدُّ حاجتهم، يعملون في البحر عليها سعيًا وراءَ الرِّزق[2]، وقد أفادَ فعلُ الكينونةِ أنَّ الوصفَ لهذه السَّفينةِ كان دأبًا لها، تُعرفُ به، وكان وجودُها صحيحةً سيعرِّضُها لخطرِ الاستيلاءِ عليها.

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾:

مِنَ الأمثالِ الماتعةِ رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٌ

اللّامُ في ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ هي لامُ الاختصاص[3]، وقد جاءت في إطار شرحِ الأسبابِ الَّتي حملتْه على خرقِ السَّفينةِ، فقال: إنَّه إنَّما قام بخرقها، ليُحدثَ فيها عيبًا؛ لأنَّهم كانوا سيمرّون في طريقِهم على ملكٍ ظالمٍ، يأخذ كلَّ سفينةٍ حسنةِ المنظر غصبًا"[4].

سِرُّ الوصْفِ بقوله: ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾:

لفظُ (المساكين)، إبرازٌ لحاجتِهم إلى الإشفاقِ عليهم

يبدو أنَّ علَّةَ النَّصِّ على الوصفِ ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ هدفُه تصويرُ مدَى حاجتِهم الماسَّةِ إلى هذه السَّفينة وإبرازِه؛ لأنَّه لا عملَ لهم

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 302.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 145.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2219.

إلّا من خلالِها، وهذا يَستدعي الإشفاقَ عليهم وليس الإضرارَ بهم، وعليه فلن يكونَ خرقُه لسفينتِهم إلّا مدفوعًا بتحقيقِ مصلحةٍ لهم في ذلك، ويطلقُ (المسكين) على كلِّ منْ أذلَّه شيءٌ، ولو كان له مالٌ كثيرٌ، وهذا غيرُ المسكين المَذْكور في مصرف الزَّكاة[1]، "واحتجَّ بهذه الآية على أنَّ المسكين هو الَّذي له بُلغةٌ مِنَ العيش، كالسَّفينة لهؤلاء، وأنَّه أصلحُ حالًا مِنَ الفقير"[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

عبَّرَ بالمضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ممارستَهم للعملِ في البحر، هي سبيلُهم في جلبِ الرِّزق، وأنَّهم وقْتَ خرقِ السَّفينة، كانوا أيضًا مُستمرّين على هذا.

نُكتةُ الحرفِ الجارِّ في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

إبرازُ الحيّزِ الَّذي يعملُ فيه المساكين

﴿فِي﴾ مفيدةٌ للظَّرفيَّة، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ عملَهم في البحر، كان يستغرقُ جلَّ أوقاتِهم، وأنَّه مصدرُ رزقِهم.

سرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

رزقُ العبادِ مخبوءٌ في البَرِّ والبحرِ

التَّعريفُ في البحرِ للعهدِ، مرادٌ به بحرٌ بعينِه، يعرفُه كلاهما، والمعنى: أنَّ مجالَ عملِهم البحرُ، يَعملون فيه بنقْلِ الرُّكابِ أوِ البضائعِ، أوِ الصَّيد، أو خلافِه[3].

دلالةُ الفاءِ على السَّببيَّةِ في جملةِ ﴿فَأَرَدتُّ﴾:

إرادةُ العبدِ الصّالحِ، من إرادةِ الله تعالى

الفاءُ عاطفةٌ مفيدةٌ بأنَّ هذه الإرادةَ مرتَّبةٌ على كون السَّفينةِ لمساكين يتعيَّشون منها، فهي للسَّببيةِ[4]، والجملةُ بعدَها مسبَّبةٌ عن كونِها لمساكينَ ضعفاءَ، ولِما سيأتي من خشيةِ أن يغتصبَها الملكُ الظّالمُ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 212.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8967.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتهما على تفسير البيضاوي: 12/ 145.

ورودُ ﴿أَنْ﴾ في سياقِ قولِهِ: ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾:

إبرازُ الحدثِ بالمصدرِ دون شائبةِ إشكالٍ

﴿أَنْ﴾: حرفٌ مصدريٌّ يدخلُ على الفعل فيُتأوَّلُ معه بمصدرٍ، ومِنَ الفوائدِ الَّتي تُؤدِّيها ﴿أَنْ﴾ في هذه الحالة: "أنَّها تدلُّ على مجرَّد معنى الحدثِ، دون احتمالِ معنًى زائدٍ عليه، ففيها تحصينٌ للمعنى مِنَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائبِ الاحتمالِ"[1].

سرُّ استعمالِ ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾ دونَ (فأعبتها):

الدَّلالةُ على الحالِ، وأنَّ العيبَ عرضٌ، غيرُ مقصودٍ لذاتِه

السِّرُّ هنا يعودُ إلى ما يميِّزُ المصدرَ المؤَوَّلَ من حيثُ دلالتُه على الزَّمن، فإنَّه يتَّضحُ من طبيعة الفعلِ الَّذي دخلت عليه ﴿أَنْ﴾، وهي هنا داخلةٌ على المضارع، لتنصَّ على قصْدِ الحالِ، وهو يفيدُ أنَّ مسألةَ الإعابةِ، لم تكن مقصودةً لذاتها، وإنَّما هي أمرٌ طارئٌ آنيٌّ تمَّ اللُّجوءُ إليه لتحقيقِ غرضٍ مؤقَّتٍ، وهو النَّجاةُ من ظلْم الملكِ وطمعه في السُّفن السَّليمةِ، كما أنَّ هذا التَّعبيرَ أيضًا ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مُشعرٌ بأنَّ هذا العيبَ لم يكن عيبًا مؤثِّرًا في جوهر عملِ السَّفينةِ، وأنَّه عيبٌ ظاهريٌّ يمكنُ تلافيه بعد تحقيقِ الغرضِ من وجوده، فغايتُه "تفويتُ منفعتِها بذلك ساعةً من نهارٍ، وتكليفُ أهلِها لوحًا يسدّونَها به، وهو أخفُّ ضررًا من تفويتِهم منفعتَها أخذًا ورأسًا، بأخْذِ الملكِ لها"[2].

سِرُّ تقديمِ المسبَّبِ على السَّببِ:

الجمعُ بين المسكنةِ وخوفِ ظلمِ الملكِ وغضبِه، غرَضٌ للسّياقِ مفيدٌ

قال الزَّمخشريُّ: فإن قلتَ: قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مسبَّبٌ عن خوف الغصبِ عليها، فكان حقُّه أن يتأخَّرَ عنِ السَّببِ، فلمَ قدَّمَ عليه؟ قلتُ: النّيَّةُ به التَّأخيرُ، وإنَّما قدَّمَ للعناية، ولأنَّ خوفَ الغصْبِ ليس هو السَّببَ وحدَه، ولكن مع كونِها للمساكين[3]، أي: إنَّ السَّببَ هو مجموعُ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 161.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 741.

الأمرَين معًا: خوفُ الغصبِ ومسكنةُ المُلّاك، لكنَّه رتَّبه على أقوى الجزأين وأدْعاهما، وعقَّبه بالآخر على سبيل التَّقييد والتَّتميم[1]، أي: تقييدُ مسكنتِهم بمقارنة غصبِ الملك؛ لأنَّها لا تكون وحدها سببًا، والتَّتميمُ بذكرِ الجُزءِ الأخيرِ منَ السَّبب لتتمَّ سببيَّتُه[2].

على أنَّ صاحبَ الانتصافِ - وأيَّدَه الطِّيبيُّ - يرى أنَّ مُقتضَى النَّظم جَعل السَّببَ هو كونُها للمساكين، ثُم بيَّن مناسبةَ هذا السَّببِ بذكْرِ عادةِ الملك في غصْبِ السُّفنِ الصَّحيحة، وهذا هو التَّرتيبُ: أن يُرتِّبَ الحكمَ على سبب، ثُمَّ يوضِّحَ المناسبةَ فيما بعدُ، فلا يحتاج إلى جعْلِه مُتقدِّمًا[3].

سرُّ إسنادِ العبدِ الصّالح العيْبَ إلى نفسِه:

مــراعــاةُ حسنِ الأدب، طريقٌ إلى نيلِ القُربِ في أعلى الرُّتَبِ

في قولِه تعالى على لسان العبدِ الصّالح: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أسندَ العبدُ الصّالحُ العيبَ إلى نفسِه، ولم ينسبْه إلى اللّه تعالى مع أنَّه آمرُه بذلك، من باب مراعاةِ حُسنِ الأدبِ مع ربِّه، بألّا يُسنِدَ إليه فعلَ العيبِ[4].

المرادُ بلفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾، ومرجعُ الضَّميرِ فيها:

تــردُّدُ الــدَّلالــةِ بين ظرفَيِ الزَّمانِ والمكــانِ، وبــينَ المعنى وضدِّه في ظرفِ المكانِ

كلمةُ (وراء) تُستخدمُ ظرفَ زمان، كما أنَّها تُستخدم ظرفَ مكان، وفي كليْهما قد تدلُّ على معنى الخلْفِ أو معنى الأمام، فهي من ألفاظِ الأضدادِ المحتملةِ للأمام والخلْف عند بعضِ أهلِ اللُّغة، وهو ممّا عارضَه الفرّاءُ، مُجيزًا أن يكونَ هذا في المواقيتِ والزَّمانِ، لا في المكان"، ولا يَجوزُ أن تَقولَ لرجل وراءك: (هوَ بين يديك)، ولا لرجل هوَ بين يديك: (هوَ وراءك)، إنَّما يَجوزُ ذَلِكَ في المواقيت مِنَ الأيّام واللَّيالي والدَّهرِ أن تَقولَ: وراءك بَردٌ شديدٌ: وبين يديك بَرْدٌ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 290، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 533.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 127.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 533، 534.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 212، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 119.

شديدٌ؛ لأنَّك أنت وراءه، فجازَ؛ لأنَّه شيء يأتي، فكأنَّه إذا لحقَك صارَ من ورائِك، وكأنَّك إذا بلغتَه؛ صار بين يدَيك، فلذلك جاز الوجهان"[1]، ودلالةُ كلمةِ (وراء) على الخلْفِ هو الشّائعُ فيها، وهو المرجِّحُ عند بعض العلماء في هذه الآية[2]، ومن دلالتها على الأمامِ قولُ الشّاعر:

أليْسَ ورائي أَنْ أَدِبَّ على العَصا *** فيَأْمَنَ أعْدائي، ويَسْأَمَني أَهْلي

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: 16]، أي: بين يدَيه[3].

وقيل: إنَّ إطلاقَه على معنى الأمام، هو من باب الاتِّساعِ والمجازِ؛ لأنَّها جهةٌ مقابلةٌ لجهة، فكانت كلُّ واحدة منَ الجهتين وراء الأخرى؛ إذا لم يردْ معنى المواجهة[4].

بلاغةُ تأويلِ لفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾ على الكنايةِ والاستعارةِ:

أهميَّةُ تأويلِ اللّفظِ، ودورُه في سياقِ البيانِ

"ولعلَّه عبَّرَ بلفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾، كنايةً عنِ الإحاطة بنفوذ الأمر في كلِّ وجهةٍ وارتْهُم وواروها"[5]، وهذا من بلاغة التَّعبير به، ويحتملُ أن يكونَ لفظُ (الوَراء) مُستعارًا "لحالِ تَعَقُّبِ شَيْءٍ شَيْئًا، وحالِ مُلازمَةِ طَلَبِ شَيْءٍ شَيْئًا بحَقٍّ، وحالِ الشَّيْءِ الَّذي سَيَأْتي قريبًا، كُلُّ ذَلِكَ تَشْبيهٌ بالكائِنِ خَلْفَ شَيْءٍ لا يَلْبَثُ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ في [الجاثية: 10]"[6].

سرُّ تقديمِ الظَّرفِ على اسمِ كان في السّياقِ:

يلزمُ الحذرَ من كان وراءَه الخطرُ

قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قدَّم الظَّرفَ ﴿وَرَآءَهُم﴾ على ﴿مَّلِكٌ﴾، للفتِ النَّظرِ إلى الخطر الَّذي كان مُحدقًا بهم، مُشارفًا

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 157.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 157، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 305، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 353.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 537.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 214 ونسب إلى أبي علي الفارسيّ، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 11.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 11.

لهم، وقد فصل الظَّرفُ والمضافُ إليه بين (كان) ومعمولِها (اسمها)، لإزجاء الاهتمام بالظَّرفِ؛ لأنَّه "كانَ وراءَهُم مَلِكٌ ظالمٌ، من دأبِه أن يتعقَّب السُّفنَ الصّالحةَ الصَّحيحةَ، ويَستولي عليها، ويأخذَها اغتصابًا وقسرًا من أصحابها[1].

دَلالةُ حذْفِ صفةِ لفْظِ ﴿مَّلِكٌ﴾:

مَـنِ اشتهرَ بالكُفرِ، جاءت أفعالُه مُتناسبةً مع كُفره

يُقدَّرُ وصفٌ محذوفٌ لكلمةِ ﴿مَّلِكٌ﴾، يُفهمُ منَ السّياقِ، وهو (كافر)[2] أو (ظالم)، وقد "كان مرورُهم على ذلك الملكِ الظّالمِ، فكلُّ سفينةٍ صالحةٍ، تمرُّ عليه ما فيها عيبٌ، غصبَها وأخذَها ظلمًا، فأردت أن أخرقَها، ليكونَ فيها عيبٌ، فتسْلَمَ من ذلك الظّالمِ"[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡخُذُ﴾ دونَ غيرِه:

لا يَغتصبُ أملاكَ النّاسِ عنوةً، إلّا ظالمٌ كفورٌ

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡخُذُ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ الملك ومواصلتِه غصْبَ كلِّ السُّفنِ الصّالحةِ، وضمَّها إلى حوزتِه، وأوثر التَّعبيرُ بالأخذ دونَ غيره، لما فيه من دلالةٍ على القهرِ والغصْبِ[4]، ويُمكنُ أن يكونَ في الأخذِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيث عبَّرَ بالأخذِ عنِ الغصبِ أوِ السَّرقةِ بجامعِ ذهابِ حقِّهم فيها.

معنَى لفظِ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

دَلالةُ صيغةِ العمومِ، مُؤثِّرةٌ في البيانِ النّاصعِ المفهومِ

كلمةُ ﴿كُلَّ﴾ إحدى صيَغِ العموم، والمعنى: أنَّه لا يدعُ سفينةً صالحةً دون أن يأخذَها، وهذا الاكتساحُ لكلِّ ما يجري في البحرِ من سُفنٍ دليلٌ على عظمة أسطولِ الملك، وضخامةِ قوَّتِه، وأنَّ المعتادَ ألّا تُفلتَ منه سفينةٌ صالحةٌ.

موقع لفْظِ ﴿غَصۡبٗا﴾ الإعرابيِّ:

آفـةُ الغصبِ التّسلُّطُ على الرِّقابِ، بلا مسوِّغاتٍ ولا أسبابٍ

في قولِه: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾، نجدُ لفظَ ﴿غَصۡبٗا﴾ له ثلاثة

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 559.
(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 447.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 482.
(4) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

أوجهٍ إعرابيَّةٍ: أحدُها: أنَّه مصدرٌ مؤكَّدٌ من معنى الفعل، كأنَّه قيل: يغصبُ كلَّ سفينةٍ غصبًا، والثّاني: أنَّه في موضع الحالِ منَ المنويِّ في ﴿يَأۡخُذُ﴾، والثّالثُ: أنَّه مفعول لأجله[1].

دَلالةُ الواوِ العاطفةِ في جملة: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾:

يكونُ الولدُ نعمةً عندَ الصَّلاحِ، وفتنةً عندَ العقوقِ

الواو عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على جملة ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾، والمعنى: أنَّ الغلامَ بعقوقِه وسوءِ فعْله، سوف يكون له ضررٌ على أبويه في عاجل الأمر، وهو بالعطف قد جمع هذا المعنى المسوِّغ لهلاكه، بالتسويغ الَّذي قدَّمه لخرق السَّفينةِ، وكلاهما استغربَه موسى، واحتاجَ إلى تسويغٍ مقنعٍ ليفهمَ سرَّ ذلك التَّصرُّفِ الَّذي لا يعقلُه إلّا من أوحى اللّه له به.

سرُّ عطْفِ جملةِ ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ على سابقتِها:

السِّرُّ في عطفِ هذه الجملةِ على سابقتِها، هو كونُها الثانيةَ في ترتيب الوقوعِ، وكذا في الحاجة إلى تبْيينِ الحكمةِ منها، على طريقة (اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ). فهي انتقالٌ إلى بيانِ سرِّ قتلِ الغلامِ، بعدَ بيانِ سرِّ خرقِ السَّفينة.

معنَى الفاءِ في جملةِ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾:

الأبوَّةُ والإيمانُ، سببان للبرِّ لا للعُقوقِ

الفاء واقعةٌ في جواب ﴿وَأَمَّا﴾، لما فيه من معنى الشَّرطِ مع التَّفصيل، وهي دالَّةٌ على محذوف تقديرُه: إن سألتَ عن حقيقة ما أصابَه؛ فقد كان أبواه مؤمنَين، وقرأ ابنُ عبّاس: (وأمّا الغلام؛ فكان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين)[2]، والرَّبطُ بين وصفِ الأبوين، وما وقع من قتل الغلام، هو تدبيرٌ إلهيٌّ، مُفاده علمُ ما سيكون عليه حالُ الأبوين، لو بقي ابنُهما حيًّا، فعاجلَتْه القُدرة، حمايةً لأبويه من سوء المصيرِ، باعتبار ذلك التَّقديرِ.

---

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 315.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 8/ 91.

سرُّ التَّعبيرِ بالأبوَّة دونَ الوالدين:

إيثارُ لفظِ الأبوَّة، مُشعرٌ بالرِّعايةِ والتَّربيةِ والكفالةِ الحانيةِ

عبَّر بلفظ الأبِ إيثارًا له على لفظ الوالد؛ لأنَّ الغرضَ ليس فقط تقريرَ نسبةِ الولَديَّة، وأنَّ هذا الأبَ كان سببًا في وجود غلامه، ولكنْ لوحظَ فيه معنى التَّربيةِ والبذلِ، الَّتي هي من خصائصِ الأبوَّة ومظاهرِها، ولذلك يُطلقُ على كلِّ مُنعِم، كما أُطلقَ على النَّبيِّ ﷺ: (أبو المؤمنين)، وكذلك على الجدِّ والعمِّ والمعلِّم، بهذا الملحظِ الَّذي ذكرناه.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ (الإيمان) على (الإسلام) هنا:

النَّصُّ على الإيمانِ، يُدرجُ فيه معنَى الإسلامِ، فهو آثرُ وأبلغُ

النَّصُّ على الإيمان يشملُ معه الإسلامَ، فالمعنى (مسلمون ومؤمنون)؛ لأنَّ الأعلى يشملُ الأدنى، ولأنَّ لفظَ الإيمان والإسلام حالَ انفرادِ كلٍّ منهما بالذِّكر، فإنَّه يشملُ الآخرَ معه، فهما كما قيل: إذا تفرَّقا؛ اجتمعا، وإذا اجتمعا؛ تفرَّقا.

ثمّ إنَّ النَّصَّ على الإيمان أيضًا، أنسبُ لمقابلتِه بكلمةِ الكفر، في قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾، والتَّعبيرُ بالإيمان، وإن كان شأنًا قلبيًّا، لكنَّه هنا محفوفٌ بإعلام اللهِ العبدَ الصّالحَ، بما في قلب الأبوَين، كما أعلمَه خصوصًا أمرَ الغلام، وأنَّه قد طُبع على الكفرِ، وأنَّه لو كبرَ؛ لأوغلَ فيه، ولأرهقَ والدَيه طُغيانًا وكفرًا، ولذا قتلَه، فهذا أيضا أمرٌ مخصوصٌ بالعبدِ الصّالح[1]؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ الطِّفل لا تكليفَ عليه ولا مؤاخذةَ.

نُكتةُ عدمِ التَّصريحِ بكفرِ الغلامِ:

قد يبرزُ المعنى غيرُ المُصرَّحِ به، في السِّياقِ بالتَّلميحِ إليه

ويُلحظُ أنَّه "لم يصرِّحْ بكفرانه أو بكفره، إشعارًا بعدم الحاجةِ إلى الذِّكر لظهوره"[2]؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ يدلُّ عليه، والمعنى: "علِمنا ممّا علَّمَنا اللهُ، أنَّه سيكونُ منه شرٌّ كبيرٌ؛ فبسببِ ذلك خشيْنا أن يكون منه

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 448.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 238.

إرهاقٌ نفسيٌّ وماديٌّ لهما، ويطغى عليهما، ويكفرُ، فيكونَ سُبَّةً لهما، ومصدرَ إيذاء"[1].

دَلالةُ الفاء ومرجعُ الضَّمير في ﴿فَخَشِينَآ﴾:

الضَّميرُ عائدٌ إلى العبدِ الصّالح، وحملُه على الحكايةِ عنِ الله تعالى استعارةٌ

الفاء في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ عاطفةٌ للجملة على ما قبلها، ومترتِّبةٌ عليها ترتُّبَ المسبَّب على السَّبب، والضَّميرُ في ﴿فَخَشِينَآ﴾ هو للعبدِ الصالح؛ لأنَّه المتكلِّم "في قَوْلِه: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وقَوْلِه: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، فهُما عائِدانِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ الواحِدِ، بِإِظْهارِ أَنَّهُ مُشارِكٌ لِغَيْرِه في الفِعْلِ، وهذا الاسْتِعْمالُ يَكونُ مِنَ التَّواضُعِ لا مِنَ التَّعاظُمِ؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقامُ الإِعْلامِ بِأَنَّ الله أَطْلَعَهُ على ذَلِكَ، وأَمَرَهُ، فناسَبَهُ التَّواضُعُ، فقالَ: ﴿فَخَشِينَآ﴾ - ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولَم يقل مثلَه عِنْدَ ما قالَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾؛ لأَنَّ سَبَبَ الإِعابَةِ إِدْراكُهُ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بحالِ تِلْكَ الأَصْقاعِ"[2].

وقيل: هو حكايةٌ لقول اللّه تعالى، أي: فكرهنا، وعليه يكونُ الكلامُ محمولًا على الاستعارة بجعْلِه على ظنِّ المخلوقين، والمخاطَبين، لو علموا حالَه؛ لوقعت منهم خشيةُ الرَّهق للوالدين، وهذا كما هو القولُ في: (لعلَّ وعسى)، فإنَّ جميع ما في هذا كلِّه من ترجٍّ وتوقُّعٍ وخوفٍ وخشيةٍ، إنَّما هو بحسبِكم أيُّها المخاطَبون[3].

سرُّ ﴿أَن﴾ في جملةِ ﴿أَن يُرۡهِقَهُمَا﴾:

الجملةُ المؤوَّلةُ مع الفعلِ بمصدرٍ، تفيدُ تعيينَ سببِ الفعلِ

السِّرُّ هنا يعودُ إلى ما يميِّزُ المصدرَ المؤوَّلَ، من حيثُ دلالتُه على الزَّمن، فإنَّه يتَّضحُ من طبيعة الفعل الَّذي دخلت عليه ﴿أَن﴾، وهي هنا داخلةٌ على المضارع، لتنصَّ على قصد الحالِ، وهو يفيدُ أنَّ قتلَ هذا الغلام، لم يكن إلّا للسَّببِ المذكورِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4569.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 13.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 536، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 215.

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُرۡهِقَهُمَا﴾:

إفادةُ الاستقبال، خرقٌ لحجابِ المستقبلِ الغيبيِّ المستورِ

أمّا التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُرۡهِقَهُمَا﴾؛ فلِما يفيدُه المضارع من معنَى الاستقبال، أي: سيرهقُهما طغيانًا وكفرًا، لو تُرك حتّى يكبرَ، وأمّا إيثارُ (رهق) كمادَّةٍ؛ فلِخصوصِ ما تتضمَّنُه الكلمةُ من معنى الغشيةِ بإرهاق، فمعناه: "غِشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ"[1]، ويقال: رَهِقَهُ الأمر: غشيَه بقهرٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ [يونس: 27][2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾:

تنكيرُ (طغيانًا) و(كفرًا) من التَّهويلِ لشأن الغلامِ مُستقبلًا

وفي التَّعبير بقوله: ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ و﴿وَكُفۡرٗا﴾ بصيغة التَّنكير دلالةٌ على تهويل شأنِهما، فالمعنى "أي: تجاوزًا في الظُّلم والكفرِ، وإفراطًا فيهما"[3]، إضافةً إلى ما تُضيفه المادَّةُ من معنى مجاوزةِ الحدِّ والغلوِّ في المخالفة والعصيان والكبْرِ، و"الطُّغيان هو: تجاوزُ الحدِّ في عدم الاكتراثِ بحقِّ الآخر والكبرِ، وكذلك الكفر، وفي مادَّتِه ما يدلُّ على تغطية النِّعم وسَترِها[4].

سِرُّ عطْفِ قولِه: ﴿وَكُفۡرٗا﴾ على ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾:

زيادةُ التَّفظيع، ملمحٌ في التَّخويفِ والتَّبشيعِ مبينٌ عنِ المرادِ

وعطفَ ﴿وَكُفۡرٗا﴾ على ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ جمعًا بينهما، وربَّما على سبيل التَّدرُّج، بأن يبدأَ التَّأثيرُ بالطُّغيان، ثمَّ يتصاعدَ إلى الكفر، وقيل: الجمع بينهما لزيادة التَّفظيع، وإلّا كان يكفي ذكرُ الكفر[5]، وقدِ استدلَّ به من قال: إنَّ الغلام "كان بالغًا كافرًا؛ إذ لو لم يكن كافرًا؛ لم يلحق والدَيه منه الطُّغيانُ والكفر، وعلى قول من يقول: إنَّه كان صغيرًا، فيحصل قتلُه؛ لأنَّه علمَ أنَّه لو بلغَ كان كافرًا، واللّٰه أعلمُ بذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك السَّبب - الَّذي قتلَه - حاجةٌ، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهق).

(2) الرّاغب، المفردات: (رهق).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 120.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 36.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 333.

أنَّه كان صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنَّه أخبر أنَّه إنَّما قتلَه بأمرِ اللّه لا من تلقاء نفسِه[1].

معنَى حرفِ (الفاء) في جملةِ: ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾:

الفاء للسَّببيَّة، أي: سببيَّة الخشيةِ للإرادة المذكورة[2]، والمعنى: (فأردنا بقتله أن يرزقهما اللّه ولدًا صالحًا خيرًا من ذلك الكافر، وأقربَ برًّا ورحمةً بوالدَيه).

معـرفةُ اللـه بالمصائرِ، أعلى حكمةً وإحاطةً بالعواقبِ

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾ دون (أردت):

"الجمعُ في قَوْلِه: ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾ كالجمع في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾، فهُما عائِدانِ إلَى المُتَكَلِّم الواحِد، بإظْهارِ أنَّهُ مُشارِكٌ لغَيْرِه في الفِعْل، وهذا الاسْتِعْمالُ يَكونُ مِنَ التَّواضُعِ لا مِنَ التَّعاظُم؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ الإعْلام بأَنَّ اللّه أَطْلَعَهُ على ذَلِكَ، وأَمَرَهُ، فناسَبَهُ التَّواضُعُ، فقالَ: ﴿فَخَشِينَآ﴾، ﴿فَأَرَدۡنَآ﴾، ولَم يقل مثلَه عِنْد ما قالَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾؛ لأَنَّ سَبَبَ الإعابَةِ إدْراكُهُ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بحالِ تِلْكَ الأَصْقاعِ"[3].

المغايرةُ للتَّفنُّنِ لا للاشتراكِ في الضَّميرِ

ويمكنُ أن تكون هذه المغايرةُ، بين الإفراد والجمع من باب التَّفنُّن - مطابقةً للحال - بأن يكون أفردَ أوَّلًا؛ لأنَّ مرتبة الإفرادِ مقدَّمةٌ على غيرها، ثمَّ أتى بضمير العظمةِ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِه في معرفة الحكم، إذ لا يُقْدِمُ على ذلك القتلِ إلّا من هو كذلك، بخلاف التَّعييب، أو أن يكونَ من باب قول خواصِّ الملك: أمرْنا بكذا، يَعنون أمرَ الملك العظيم[4].

التَّعبيرُ بالفعل ﴿أَن يُبۡدِلَهُمَا﴾ دون غيره:

التَّبديلُ لا يحتاجُ إلى المعاوضةِ، وقد يكونُ تبديلًا بما هو أفضلُ

عبَّر بفعل التَّبديل دون غيره، كالعِوضِ مثلًا؛ لأنَّ التَّبديل قد لا يحتاجُ إلى المعاوضةِ، فهو جعْلُ شيء مكانَ آخرَ، أمّا العِوض؛ فهو

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 200.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 335، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4569.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 13.

(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 129.

أن يصير لك الثّاني بإعطاء الأوَّل، وليس كذلك التَّبديلُ على كلِّ حالٍ، فقد يكون بعوض، وقد لا يكونُ، بأن يكون مجرَّدَ تغيير وإن لم يأتِ ببدله، فالتَّبديلُ على هذا أعمُّ من العوض[1]، والمعاوضةُ تقتضي المماثلةَ بين المتعاوضَين في المقدار، كما في البيع والشَّراء، أمّا التَّبديلُ؛ فمن تَجَلّياته في الكتاب العزيز حسبَ ورودِ مادَّته، فإنَّه يُستعملُ كثيرًا في التَّبديل بما هو أفضلُ وأحسنُ، أو بالحسن مطلقًا مكانَ السَّيّئ مطلقًا، ومنه هذه الآية: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55]، وقولُه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95]، وقولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70].

سرُّ إسنادِ فعلِ التَّبديلِ إلى الرَّبِّ:

التَّعويضُ عن الولد، حقٌّ مُستقلٌّ لله، فلا يُسندُ لأحدٍ غيره

أسندَ فعلَ التَّبديلِ إلى اللّه تعالى وحده؛ لأنَّه لمّا كان التَّعويضُ عن هذا الولد للّه وحدَه، فلا جرمَ أسندَ الفعلَ إليه، فقال: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾[2].

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾:

إبدالُ الله تعالى، مكرَّسٌ لما هو أحسنُ وأرقَى

قولُه: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ فيه قراءتان، فقد قرأ نافعٌ وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الباء، وتشديد الدّال: ﴿أَن يُبَدِّلَهُمَا﴾ مِنْ (بَدَّلَ)، والباقون بسكونِ الباءِ وتخفيفِ الدّالِ ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، مِنْ (أَبْدَلَ)[3]، وقراءةُ التَّشديد فيها معنى المبالغةِ في تحقيق فعل الإبدال منّة من اللّه تعالى للأبوين ورحمة بهما، وقيل: هما لغتان بمعنًى واحدٍ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبية، مضافةً إلى ضمير الأبوَين:

إيثارُ اللَّفظِ الأكثرِ دلالةً على المرادِ، من فصيحِ البيانِ المُستفادِ

وسرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّةِ في هذا السّياق، وإضافتِه إلى ضمير

---

(1) الرّاغب، المفردات: (بدل).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 121، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 129.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 314.

(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/ 539.

الوالدَين؛ للدَّلالةِ على إنعام الله على الوالدين، "وإرادةِ وصولِ الخير إليهما"[1]، بقتل هذا الغلامِ الَّذي كان سيرهقُهما طغيانًا وكفرًا؛ فالرُّبوبيَّةُ فيها معاني الرِّعايةِ والعنايةِ والتَّربيةِ والحفظ، وفي إضافته هذا اللَّفظَ إلى ضميرهما، تشريفٌ آخرُ لهما.

المرادُ بالخيريَّةِ في لفظِ ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ﴾:

كلمةُ (خير) تأتي للتَّفضيل، وقد لا يكونُ مرادًا هنا

كلمةُ (خير) تأتي للتَّفضيل، حين يشترِكُ اثنان في فضيلةٍ، غيرَ أنَّ أحدَهما أرجحُ من الآخر فيها، لكنَّها ليست على بابها منَ التَّفضيل؛ لأنَّه لا خيرَ فيه ولا زكاةَ[2].

ويجوزُ أن تكون على بابها منَ المفاضلة، وذلك من جهة كونه كان ظاهرَ الزَّكاءِ في الحال، وأمّا في المآلِ، فلو عاش؛ كان خبيثًا ظاهرَ الخبثِ[3].

سرُّ الوصْفِ بالزَّكاة في قولِه: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾:

وسرُّ الوصفِ بالزَّكاة، في قوله: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾؛ لما في معناه منَ الدَّلالة على الطَّهارةِ والنَّماءِ؛[4] ولذا قالوا في تفسير ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾، أي: طهارةً منَ الذُّنوب والأخلاقِ الرَّديئةِ، وقيل: خيرًا منه دينًا، وهو تفسيرٌ باللّازم[5].

معنَى (من) في قولِه: ﴿مِّنۡهُ﴾:

ما عند الله خيرٌ وأبقَى، لمن رضي بعطاء الله واتّقَى

أفادت (من) هنا معنَى الابتداء، أي: رزقٌ يبدأ من عنده، "ولمّا كانت الدُّنيا فانيةً، لا بقاءَ لها، وقد ثبتَ في علمِه تعالى أنَّ هذا الولدَ سيكونُ فتنةً لأبوَيْه، وسيجلبُ عليهما المعاصيَ، والسَّيِّئات، وسيجرُّهما إلى العذاب؛ كانت الرَّحمةُ الكاملةُ في أخْذِه، بدلَ أنْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 238، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 334.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 149.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 121.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 334.

يتمتَّعا به في الدُّنيا الفانية، ويَشقيا به في الآخرة الباقية"[1]، فما عند الله خيرٌ منه.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُ﴾:

غرضُ التَّقديمِ الاهتمامُ، وما يترتَّبُ عليه في المعتادِ

قدَّمَ شبهَ الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾ على الجُملتَين بعده للاهتمام؛ إبرازًا لنعمة التَّبديل المرجوَّةِ إكرامًا للوالدين، وتعويضًا لهما بمن هو خيرٌ وأزكى، وأبرُّ بهما، وأطوعُ لهما.

سرُّ عطْفِ قولِه: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ على سابقِه:

بقاءُ هذه الجملةِ على معنَى التَّفضيل دونَ سابقتِها

عطفَ جملةَ ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾، على جملة ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾، بالواو للجمع بين معنيَيهما جزاءً للأبوين، ولئن كانتِ الجملةُ السّابقة ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾ خارجةً عن نطاق المفاضلةِ، فإنَّ جملةَ ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ محمولةٌ على التَّفضيلِ، "ولا ضيْرَ في حمل أحدِ أفعلِ التَّفْضيلَين على التَّفْضيل دون الآخرِ عند قيام القرينةِ، ولا خللَ في حسنِ النَّظمِ"[2].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿زَكَوٰةٗ﴾ و﴿رُحۡمٗا﴾:

إفادةُ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، من تثمينِ العطاءِ الرَّبانيِّ الكريمِ

في قولِه تعالى: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾، أفادَ التَّنكيرُ هنا التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، والمعنى: "خيرًا منه طهارةً، وأقربَ رحمةً، أي: أدنى إلى الرَّحمةِ والبرِّ، من هذا الَّذي يرهقُهما طغيانًا وكفرًا، وأقربَ رُحمًا، أي: أوصلَ لرحمِه، وأحْفظَ لحقِّ الأبوَّة"[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسكين والفقير:

الفقيرُ والمسكينُ يتعاقبانِ، وإذا انفرد أحدُهما بالذِّكر؛ شملَ معه معنَى الآخرِ

لا شكَّ أنَّ كلًّا منَ الفقير والمسكين يجمعُهما مشتركٌ، وهو الحاجةُ، غيرَ أنَّ العلماء مختلفون حولَ أيُّهما أكثرُ حاجةً منَ الآخر؟ فبعضُهم يعُدُّ الفقيرَ، وبعضُهم يعُدُّ المسكينَ، وهذا الخلافُ واردٌ عند

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 14/ 8972.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 149.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4570.

ورود اللَّفظَين معًا في سياق واحد، وإلّا فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يكفي في الدَّلالة على كلَيْهما عند انفرادِه، أي: بأن يشملَ الفقيرُ المسكينَ أيضًا عند انفرادِه، كما يشمل المسكينُ الفقيرَ معه عند انفرادِه، فالخلاف فيه أشبهُ بالخلافِ بين الإيمان والإسلام، فإذا اجتمعا؛ افترقا، وإذا افترقا؛ اجتمعا، وممّا حُكيَ في الفرق بينَهما، ما قاله أبو هلالِ العسكريُّ في الفروقِ: الفَقيرُ: الَّذي لا يسأَل، والمسكينُ: الَّذي يسأَلُ، ومثلُه عَن ابْن عَبّاس والحسن وجابِر ابن زيد ومُجاهد - وهو قَول أبي حنيفَة - وهذا يدلُّ على أَنَّه رأى المِسْكين أضعفَ حالًا وأبلغَ في جهَة الفقر، ويدلُّ عليه قَوْلُه تعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، فوصفهم بالفقر، وأخبر مَعَ ذَلِك عَنْهُم بالتَّعفُّف حَتَّى يَحْسبَهُم الجاهلُ بحالهم أَغْنياءَ منَ التَّعفُّف، ولا يَحْسبُهُم أَغنياءَ إلّا ولَهُم ظاهر جميلٌ، وعليْهِم بزَّةٌ حَسَنَة، وقيل لأعرابي: أفقيرٌ أَنْت؟ فقالَ: بل مِسْكين، وأنْشد:

أمّا الفَقيرُ الَّذي كانَتْ حَلوبتُهُ *** وفقَ العيالِ فلَم يُترَكْ لَهُ سَبَدُ

فَجعل للْفَقير حلوبةً، والمِسْكين الَّذي لا شَيْء لَهُ، فأَمّا قَوْله تَعالَى: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ فأثْبت لَهُم مُلك سفينة، وسَمّاهُم مَساكين، وهذا منَ الأدلَّة الَّتي استدلَّ بها العلماءُ على أنَّ المسكينَ أحسنُ حالًا منَ الفقير، فإنَّهُ رويَ أَنَّهم كانوا أجراءَ فيها، ونسبها إِلَيْهم لتصرُّفِهم فيها(1)، لكنَّ ظاهرَ القرآن يُشعرُ بأنَّهم كانوا مالكيها، بدلالة لامِ الاختصاص والملك: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾.

التَّعبيرُ بالعيْبِ أنسبُ، لعدمِ خروجِها عن حدِّ الاعتدال الذي يَعنيه لفظُ الفسادِ

العيبُ والفسادُ:

العيبُ هو الأمرُ الَّذي يصيرُ به الشَّيءُ عَيْبَةً، أي: مقرًّا للنَّقص،

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 177.

يقال: عِبْتُه جعلتُه مَعيبًا، إمّا بالفعل، كما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وإمّا بالقول، وذلك إذا ذممتَه، نحو قولك: عِبْتُ فلانًا[1].

والفَسادُ خروجُ الشَّيء عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا[2]، مَأْخوذٌ من (فسد اللَّحم)؛ إذا أنتنَ، ولم يُمكنِ الانْتِفاعُ بهِ[3].

وبهذا يظهرُ أنَّ التَّعبيرَ بالعيبِ أنسبُ؛ لأنَّه قصدَ به التَّعبيرَ عن منقصةٍ توقعُ عيبًا ظاهريًّا، لكنَّها لا تُخرجُ السَّفينةَ عن حدِّ الاعتدالِ.

الغصبُ والسَّرقةُ:

الغَصْبُ أخذُ الشَّيء ظلمًا وقهرًا[4]، والسَّرقةُ هي أَخذُ مالٍ مُعْتَبرٍ من حرزِ أجنبيٍّ لا شُبْهَة فيه خُفْيَةً، وهو قاصدٌ للْحِفْظ، في نَومه أو غيبتِه[5].

الغصبُ ما يؤخذُ عنوةً، ويكونُ ظاهرًا، والمغصوبُ ليس في حرزٍ، والسَّرقةُ ضدُّه

وبهذا يظهرُ الفرقُ بين الغصبِ والسَّرقةِ؛ في كوْنِ الغصبِ لا يؤخذُ فيه المغصوبُ خفيةً ولا من حرزٍ، كما هي السَّرقة، ومِن ثَمَّ يكونُ التَّعبيرُ بالغصبِ أولى؛ لكونِ أخذِ السُّفنِ الصّالحةِ من قِبَل الملكِ، كان عنوةً وظلمًا.

الإيمان والإسلام:

الإسلام لُغَةً: الانقيادُ المُتَعَلِّقُ بالجوارح، كَما في قَوْله تَعالَى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، والإيمان هو الاعْتِرافُ مع الاعْتِقاد بالقَلْبِ والوَفاء بالفِعْلِ.

عند الانفرادِ كلاهُما بمعنَى الآخرِ، وعند الاجتماعِ الإسلامُ ظاهرُ الأعمالِ، والإيمانُ المعتقدُ

وممّا وردَ مُشعرًا بوحدة المعنى بينهما قَوْلُه تَعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذّاريات: 35 - 36] فالمُناسبُ أن يُراد بالمُؤْمِنينَ المُسلمونَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عيب).
(2) الراغب، المفردات: (فسد).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 692.
(4) الرّاغب، المفردات: (غصب).
(5) الكفويّ، الكليات، ص: : 514.

قال الكفويُّ: واعْلَم أَن مُخْتارَ جُمهورِ الحَنَفيَّة والمعتزلة وبَعضِ أهلِ الحَديث أَنَّ الإيمان والإسْلامَ متَّحدان، وعند أبي الحسنِ الأَشْعَريِّ أَنَّهُما مُتباينان، وغايَة بها يُمكن في الجَواب أَنَّ التَّغايُرَ بَين مفهومَي الإيمان والإسْلام، لا ما صدق عليه المُؤمن والمُسلم؛ إِذْ لا يَصحُّ في الشَّرْع أَن يُحكمَ على واحِدٍ بأَنَّهُ مُؤمن، ولَيْسَ بمُسلم ولا بالعَكْسِ[1].

والحاصل أنَّ النَّصَّ على الإيمان يشملُ معه الإسلامَ، فالمعنى (مسلمون ومؤمنون)؛ لأنَّ الأعلى يشملُ الأدنى، ولأنَّ لفظَ الإيمان والإسلام، حالَ انفراد كلٍّ منهما بالذِّكر، فإنَّه يشملُ الآخرَ معه، فهما كما قيل: إذا افترقا؛ اجتمعا، وإذا اجتمعا؛ افترقا.

(1) الكفويّ، الكليات، ص: : 112.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: 82]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

الكشفُ عن حكمةِ إقامةِ الجدارِ، بعدَ الكشفِ عن حكمةِ خرقِ السَّفينةِ وقتْلِ الغلامِ

بعد أنِ انتهت رحلةُ العبدِ الصّالح وموسى عليه السلام، وراح العبدُ الصّالح يكشفُ لموسى عليه السلام، أسرارَ الأحداث الّتي مرَّت بهما، ولماذا تصرَّفَ في كلِّ حدثٍ منها بما قد يبدو ظاهرُه خلافَ الحكمةِ والشَّرعِ، وكانتِ الآياتُ الماضيةُ كاشفةً عن حكمةِ خرقِ السَّفينةِ وقتلِ الغلامِ، وصلَ به المقامُ إلى تبْيينِ سرِّ بناءِ الجدار، وإقامتِه في قرية لم تكرِّم ضيافتَهُما، وأبت إطعامَهما، بعد أنِ استطعَمَا أهلَها، وكانتِ الأجوبةُ مرتَّبةً حسبَ الوقائع، وحسبَ ترتيبِ ذكرِها في النَّصِّ الكريمِ على طريقةِ (اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ)، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿لِغُلَٰمَيْنِ﴾: أصلُ (غلم) يدلُّ على حَداثةٍ وهَيْجِ شَهْوَةٍ، مِنْ ذَلكَ الغُلامُ، هو الطّارُّ الشّارِب، وهو بَيِّنُ الغُلوميَّةِ والغُلومَةِ، والجَمعُ غِلْمَةٌ وغِلْمانٌ، واغْتَلَمَ الغُلامُ: إذا بلغَ حدَّ الغلومة، ولمّا كان من بلغ هذا الحدَّ كثيرًا ما يغلبُ عليه الشَّبقُ، قيل للشَّبق: غِلْمَةٌ، ومِنْ بابِه: اغْتَلَمَ الفَحْلُ غُلْمَةً: هاجَ مِنْ شَهْوَةِ الضِّراب، والغَيْلَمُ: الجاريَةُ الحَدَثَةُ، والغَيْلَمُ: الشّابُّ[1]، والمرادُ بغلامَين هنا، أي: إنَّهما شارفا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غلم).

البلوغَ، أو كانا في بدايتِه، "يُقال للصَّبيّ من حين يولدُ إلى أن يبلغ غُلامٌ، وجمعُه غلْمان، وأغيلمةٌ تَصْغيرٌ، وتقول العَرَب أَيْضًا للرَّجل المستجمعِ قوَّةً: غُلامٌ، واليفعُ الَّذي قارب البلوغ، ويُقال للَّذي أدْرك البلوغ"[1]، ويكونُ وصفُ اليُتم على الثّانية (مجازًا مرسلًا)، باعتبارِ ما كان، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 2].

2) ﴿كَنزٌ﴾: أصل (كنز) يدلُّ على تَجَمُّعٍ في شَيْءٍ، وهو مأخوذ من: كَنَزْتُ التَّمرَ في الوعاء، والكَنْزُ: جعلُ المال بعضَه على بعض وحفظُه[2]، والكَنْزُ: المالُ المدفون[3]، وزمنُ الكِناز: وقتُ ما يُكْنَزُ فيه التَّمر، ويقال: ناقةٌ كِنازٌ، أي: مُكْتَنِزَةُ اللَّحم، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: 34]، أي: يدَّخرونها، وقولُه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ [هود: 12]، أي: مالٌ عظيمٌ[4]، وكذلك هو المقصودُ به في قوله: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾.

3) ﴿أَشُدَّهُمَا﴾: أصلُ (شدَّ) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ، وفُروعُه تَرْجِعُ إليه، مِنْ ذَلِكَ: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا أَشُدُّهُ[5]، قال الكفويُّ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [القصص: 14]: هو مُنْتَهى اشتدادِ جِسْمه وقوَّته، وهو سنُّ الوُقوف ما بَين الثَّلاثينَ والأَرْبَعينَ، فإنَّ العقل يكملُ حينَئِذٍ[6]، والَّذي يظهرُ أنَّ بلوغَ الشَّدِّ درجاتٌ ومراحلُ، فله بدايةٌ، وله منتهى، وأنَّ الأشدَّ في قوله: ﴿يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، هو بدايةُ القوَّة، وأمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: 14]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]؛ فإنَّ المرادَ به بلوغُ منتهى الأشدِّ، وهو الأنسبُ لوقت النُّبوَّة ووقتِ النُّضج الكاملِ للعقل، فيكونُ الأشدُّ على هذا هو: "مفهومٌ كلّيٌّ مُشكّك يختلفُ باخْتلاف المحلِّ"[7].

4) ﴿تَسۡطِع﴾: أصلُ (طوع) يدلُّ على انقياد، يقال: فلانٌ طَوْعُ يديك، أي: منقادٌ لك، وفرسٌ طَوْعُ العنان؛ إذا كانَ سلسًا، والاستِطاعةُ: الإطاقَةُ، وربَّما قالوا: اسْطاعَ يَسْطيعُ، يَحذفون التّاءَ استثقالًا لها مع الطّاء، ويكرهون إدغامَ التّاء فيها، فتُحرَّك السّينُ، وهي لا

(1) عيّاض بن موسى، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: (غلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كنز).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كنز).
(4) الرّاغب، المفردات: (كنز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 121.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 151.

تُحرَّك أبدًا[1]، قال الرّاغبُ: الاستطاعةُ عند المحقِّقين: اسمٌ للمعاني الّتي بها يتمكَّنُ الإنسان ممّا يريدُه من إحداث الفعل، وهي أربعةُ أشياء: بنيةٌ مخصوصةٌ للفاعل، وتصوُّرٌ للفعل، ومادَّةٌ قابلةٌ لتأثيره، وآلةٌ إن كان الفعلُ آليًّا، كالكتابة، فإنَّ الكاتبَ يحتاجُ إلى هذه الأربعة في إيجاده للكتابة[2]، وقد قال عمرو بنُ معدي كرب:

إذا لَم تَستَطِعْ شَيْئًا فدَعْهُ *** وجاوِزْهُ إلَى ما تَستَطيعُ[3]

وعلى هذا، فـ ﴿تَسْطِع﴾ أصلُه (تستطع)، فحذفَ التّاء تخفيفًا، لقُرْبِها مِنْ مَخْرَجِ الطّاء، وسيأتي مزيدُ كلامٍ عن تعليل حذفِ التّاء منها هنا في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حكمةُ بناءِ الجدارِ المائلِ، في القريةِ المُمتنعةِ عنِ الإكرامِ والإطعامِ، وقصَّةِ ذي القرنَين

ثمّ ثلَّث العبدُ الصّالح بالكشفِ عن حكمةِ بناءِ الجدارِ المائلِ الَّذي أوشكَ على السُّقوط، وهو عملٌ خيِّرٌ في قوم غيرِ خيِّرين، حسبَ تصوُّرِ موسى ﷺ، فبيَّن له أنَّ هذا الجدارَ المائلَ، كان ملكًا لغلامين يتيمَين، وقد دفنَ أبوهما تحتَه كنزًا حتّى يكبرا؛ ليَستعينا به بعدَ اللّه تعالى، على تكاليفِ الحياة، ثقةً من أبيهما في أنَّ اللّه سيوفِّقُهما لاستخراجه، وسيُعينُهما عليه، فلمّا مال الجدارُ الَّذي وُضع تحته الكنزُ، وشارف على السُّقوط، نقضْتُه ثمَّ بنيتُه، حتّى يظلَّ مُختبئًا عن أنظار أهلِ المدينة، إلى أن يأذن اللّه باستخراجه عند بلوغِهما الأشدَّ واستطاعتِهما الاعتمادَ على النَّفس، وذلك الَّذي أنبأتُك به، هو التَّفسيرُ الحقُّ، وهو الحكمةُ الكامنةُ، وراءَ كلِّ فعل رأيتَه، ولم تستطع صبرًا عن عدمِ السُّؤال عنه، حتّى أكشفَ لك ذلك في حينِه، كما تعاهدْنا في أوَّلِ اللقاء، ثمَّ انتقلتِ الآياتُ إلى بيان قصَّةٍ جديدةٍ، وهي قصَّةُ ذي

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (طوع).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طوع).
(3) البغدادي، خزانة الأدب: 8/ 185، والأصفهانيّ، الأغاني: 15/ 207، 225.

القرنَين، حيث سألَ اليهودُ أوِ المشركون بإيعازٍ مِنَ اليهود رسولَ اللّه ﷺ عن خبرِه، سؤالَ تحدٍّ وتعجيزٍ، فلقَّنه اللّه تعالى الجوابَ، بأن أنزلَ عليه آياتٍ، فيها المهمُّ من خبر ذي القرنَين الَّذي يذكِّرُهم بسيرة هذا العبدِ الصّالح، فلعلَّهم أن يَنتفعوا بسيرتِه، ويَقتدوا به في الصَّلاح.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ عطْفِ هذه الجملةِ على سابقتِها:

قصَّةُ موسى والخَضر، حلقاتٌ مكوَّنةٌ من مشاهدَ مترابطةٍ

عطفَ هذه الجملةَ على سابقتِها، لتتمَّة بيان الحكمةِ فيها، كما بيَّنه فيما سبقَها، فهذا دورُها وترتيبُها وقوعًا وبيانًا، فيبادرُ الرَّجلُ الصّالحُ من غير تأخيرٍ، "بل إنَّه سرعان ما يكشفُ له وجهَ الحقيقةِ سافرًا، وإذا موسى يجدُ هذه الكلماتِ تنفذُ إلى أعماقِه، فتنزلُ على قلبه بردًا وسلامًا، وتدفعُ سفينتَه في ريحٍ رخاءٍ إلى شاطئ الطُّمأنينةِ والسَّلامة"[1].

سرُّ التَّعريف بـ(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡجِدَارُ﴾:

أهمّيَّةُ الجدارِ في مواراتِه لمالِ اليتيمَين، وشرفِ ذكْرِه في القرآن المبين

(أل) في ﴿ٱلۡجِدَارُ﴾ للعهد[2]، والمعهودُ هو الجدارُ المقصودُ الَّذي وجداه في القريةِ يريد أن ينقضَّ، فأقامه، "وذكروا أنَّ اليتيمَين كانا غيرَ عالمَين بالكنز، ولهما وصيٌّ يعلمُ به، لكنَّه كان غائبًا، والجدارُ قد شارف، فلو سقط لضاعَ، فلذا أقامَه"[3].

معنَى الفاء في جملةِ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ﴾:

دَلالةُ اشتراكِ الغلامَين في ملكيَّةِ الكنزِ

قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ﴾، الفاءُ واقعةٌ في جواب الشَّرط في ﴿وَأَمَّا﴾؛ إذ إنَّها للشَّرط والتَّفصيل، ومُفادُ المعنى هنا، قولُ الرَّجل الصّالح: "وَأمّا الجِدارُ الَّذي سوَّيته، فكانَ لغُلامَين

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 665.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 238.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 337.

يَتيمَيْنِ هما أصرمُ وصريمُ ابنا كاشحٍ"[1]، علْمًا بأنَّ اسمَيْهما لم تردْ بهما الآية، ولا صحَّ بهما الحديثُ، ولكنَّها أقوالُ المؤرِّخين، ونقولاتُ بعض المفسِّرين، غيرَ أنَّ العبرةَ في المواقف والأحداثِ، وليست في أسماء أبطالِ القصَّةِ؛ إذ يكفي الوصْفُ عنِ الاسم.

سِرُّ إدراجِ فعْلِ الكينونةِ (كانَ) ماضيًا:

التَّعبيرُ بـ (كان)، يـفـيـدُ تـحـقُّـقَ الوقوعِ

عبَّرَ بفعلِ الكينونةِ ماضيًا، لتحقُّقِ حصولِ المُخبرِ عنه، وهو كونُ أبي الغلامَين صالحًا، "قيل: إنَّهما حُفظا لصلاح أبيهما السّابعِ، قال محمَّد بنُ المنكدر: إنَّ اللّه تعالى يحفظُ عبدَه المؤمنَ في ولدِه وولدِ ولده"[2].

دَلالةُ معنَى (اللّام) في شبْه الجملةِ ﴿لِغُلَٰمَيۡنِ﴾:

تأكيدُ الحيازةِ للغلامَين بالملكيَّة، فاللّامُ للاختصاصِ والمُلكِ، أي: كان هذا الجدارُ ملكًا ﴿لِغُلَٰمَيۡنِ﴾ خاصًّا بهما.

سرُّ الوصفِ باليُتم هنا:

وصفُ الغلامين بـالـيُـتـم، إبــرازٌ لحاجتِهما إلى الحُنوِّ والشَّفقةِ

عبَّرَ باليُتم وصفًا للغلامَين؛ لإبراز حالِهما مِنَ الضَّعف والحاجةِ، الذي يحتِّمُ وجوبَ تقديم المعونةِ لهما والشَّفقةِ عليهما، فكان ما كان من أمرِ الجدار، وذلك كما وصَفَ أصحابَ السَّفينة بالمساكين لنفسِ الغرض، كما أنَّ فيه دلالةً على صغرِهما[3]؛ ردًّا لقولِ من رأى أنَّهما كان شابَّين كبيرَين، والرّاجحُ أنَّ الغلامَين "كانا صغيرَين، كما يدلُّ على ذلك وصفُهما باليُتم، فإنَّه لا يُتْمَ بعد البلوغ إلّا أن تكون آفة في العقل أو النَّفس، واللَّفظُ يُطلقُ على ظاهر، ما لم يقم دليلٌ يوجبُ تحويلَه عنِ الحقيقة إلى المجازِ، وإطلاقُ اليُتم على البالغِ مجازٌ"[4].

(1) محمّدالجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/ 658.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 215.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4570.

نُكتةُ ورودِ حرْفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ في السّياقِ:

في إيرادِ ﴿فِى﴾ الظَّرفيَّةِ بقوله: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، نصَّ على أنَّهما من أهل هذه المدينةِ المعبِّرِ عنها سابقًا بالقرية، وأنَّهما مُقيمان فيها.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ دونَ القريةِ:

التَّسميةُ بالقريةِ أو بالمدينةِ، يخضعُ للاعتبارِ ولضوابطِ السّياقِ

وذلك أنَّ التَّعبيرَ بالقريةِ أوَّلًا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ كان أليقَ؛ لأنَّها مشتقَّةٌ من معنى الجمعِ، فكان أليقَ بالذَّمِّ في ترك الضّيافةِ؛ لإشعارِه ببُخلهم حالةَ الاجتماع، وبمحبَّتِهم للجمعِ والإمساك، وكانتِ المدينة بمعنى الإقامةِ، فكان التَّعبيرُ بها في قوله: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ألْيقَ، للإشارة به إلى أنَّ النّاسَ يُقيمون فيها، فينهدمُ الجدارُ، وهم مُقيمون فيأخذون الكنزَ[1]، أو لعلَّه عبَّرَ عنها هنا بالمدينة، لإظهار نوعِ اعتدادٍ بها، باعتدادِ ما فيها منَ اليَتيمَين، وأبيهما الصّالحِ[2].

نُكتةُ عطْفِ فعْلِ الكينونةِ على نظيره السّابقِ بالواو:

المضامينُ الخبريَّةُ تُجمعُ وتشتركُ بينها في الدَّلالةِ

العطفُ بالواو في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ هو من عطْفِ الجُمل، فقد عطفَ هذه الجملةَ على جملة ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، ومثلُها كذلك جملةُ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، فإنَّها معطوفةٌ على جملةِ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾، وهدفُ هذا العطفِ هو الجمعُ بين هذه المضامين الخبريَّةِ الَّتي تعزِّزُ موقفَ العبدِ الصّالح من إقامةِ الجدارِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَحْتَهُۥ﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفِ قصْدٌ لهذه الظَّرفيَّةِ

عبَّرَ بقوله: ﴿تَحْتَهُۥ كَنزٌ﴾ لقصْدِ الظَّرفيَّة، ببيانِ أنَّ أباهما كان قاصدًا أن يحفظَ الكنزَ لولدَيه أسفلَ الجدار، ثقةً منه لصلاحه في أنَّ اللّٰه تعالى سيُهيِّئُ لولدَيه منَ السُّبلِ ما يعينُهم على الحصول عليه، وهو ما كان.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 122.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 238.

دَلالةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿كَنزٌ﴾ في السّياقِ:

سَوْقُ التَّنكيرِ لإفادةِ التَّكثيرِ

في ذكرِ كلمة ﴿كَنزٌ﴾ وتنكيرها إشعارٌ بكونِه عظيمًا مهمًّا، له قيمةٌ، فقد قيلَ: كانَ مالًا جَسيمًا كَما يُفيدُهُ اسْمُ الكَنْزِ؛ إِذْ هو المالُ المَجْموعُ، فربَّما كان ذهبًا أو فضَّةً[1].

ورودُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُمَا﴾:

تحديدُ الملكِ والاختصاصِ، بصاحبَي الملكيَّةِ

اللّامُ الجارَّةُ مفيدةٌ للملكِ والاختصاصِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ هذا المال كان مملوكًا لهما بوسيلةٍ من وسائلِ التَّملُّك، كأن يكون إرثًا لهما[2].

تَكرارُ فعْلِ الكينونةِ معطوفًا على سابِقين بالواو:

عواملُ الحفاظِ على المالِ بإقامةِ الجدارِ المائلِ

كرَّرَ فعلَ (كان) معطوفًا بالواو، لقصْدِ الجمع والإشراك، بين هذه الجمل الخبريَّةِ ومضامينِها، وأنَّها مجتمعةٌ، كانت من أسباب إقامةِ الجدار المائلِ، للغلامَين بأمر اللّه.

إيثارُ التَّعبيرِ بالأبوَّة دونَ لفظِ والدِهما:

مقامُ الأبوَّة أليقُ بالسّياقِ، وأنسبُ للمقامِ هنا

في إيثار التَّعبيرِ بالأب دون الوالدِ مُلاءمةٌ للسّياق وللمقام؛ لأنَّ مقامَ الأبوَّةِ يقتضي الشَّفقةَ والحنوَّ والرِّعاية، وليس المقصودُ مجرَّدَ النِّسبة، فكم من والدٍ ليس بأبٍ، لكونِه لا يرعى أبناءَه، ولا يقومُ بمسؤوليَّتِه تجاهَهم، "والظّاهرُ أنَّ أباهما هو الأقربُ إليهما الَّذي ولدَهما"[3]، خلافًا لمِن ابتعدَ به إلى الأب السّابعِ أوِ العاشرِ، وهو ما لا يساعدُه ظاهرُ السّياقِ.

فائدةُ الوصْفِ بالصَّلاحِ للأبِ:

فائدةُ النَّصِّ على صلاحِ الأبِ؛ المفيدِ للأبناءِ من أكثرَ من جهةٍ

منها أنَّ الأبناء يكتسبون من سلوك آبائِهم، ويتلقَّون عنهم ما ينفعُهم أو يضرُّهم، تبعًا لحالِ الأب مِنَ الصَّلاح وعدمِه، فكان

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 360، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 215.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 150.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 216.

النَّصُّ على صلاح أبيهما، إشعارًا بأنَّهما على الدَّرب سائران، ومنها أنَّ من إكرام الأب الصّالح ومكافأته، إكرامَ صغاره، وتسخيرَ من يقومُ على رعايتِهم، كما أشار القرآنُ الكريم إلى ذلك، بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النّساء: 9].

معنَى الفاءِ في جملةِ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾:

في صلاحِ الآباءِ، وقايةٌ للأبناءِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَرَادَ﴾ للسَّببية؛ إذ صلاحُ الأب سببٌ لتلك الإرادة[1]، وفي الآية دلالةٌ على أنَّ صلاحَ الآباء، يفيدُ العنايةَ بالأبناء، وأنَّه يُدَّخر لهم ذلك الصَّلاحُ، فينفعُهم في المُلمّات، ويُرزقون به في الأزمات.

نُكتةُ نسبةِ الإرادةِ إلى الرَّبِّ هنا دونَ ما سبقَ:

الكرامةُ منَ الله للوالدين ظاهرةٌ في قصَّة الجدارِ واليتيمَين

وقد أَسْنَدَ الإرادَةَ في قِصَّةِ الجدارِ إلى اللّه تَعالَى دونَ القِصَّتَيْنِ السّابِقتَيْنِ؛ لأَنَّ العَمَلَ فيهما كانَ مِنْ شَأْنِه أَنْ يَسْعَى إِلَيْه كُلُّ مَنْ يَقِفُ على سِرِّه؛ لأَنَّ فيهما دَفْعَ فسادٍ عَنِ النّاسِ، بخِلافِ قِصَّةِ الجدارِ فتِلْكَ كَرامَةٌ مِنَ اللّه لأَبي الغُلامَيْنِ[2].

وقيل: إنَّما أسندَ الإرادةَ في الثّالثة إلى اللّه تعالى؛ لأنَّها في أمرٍ مُستأنفٍ في الزَّمنِ الطَّويلِ غيْبٍ مِنَ الغيوب، فحسُنَ إفادةُ هذا الموضعِ بذكرِ اللّه تعالى[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالربِّ، وإضافتِه إلى ضميرِ المخاطَبِ:

التَّعبيرُ بالرَّبِّ هنا أنسبُ لدلالتِه على الإنعامِ والإكرامِ

عبَّر بالرَّبِّ دون الإله، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾؛ لكونِه أنسبَ وأليَقَ بالمقام، وذلك لما فيه من دلالةٍ على الإنعامِ الظّاهرِ على الولدَين اليتيمَين، وإكرامِ أبيهما الصّالحِ الَّذي فارقَهما يتيمَين، وفي إضافته إلى ضميرِ موسى عليه السلام تشريفٌ ما بعدَه تشريفٌ، وفي قوله: ﴿رَبُّكَ﴾

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 14.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 537، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 60.

دون (ربّهما) لطيفةٌ عجيبةٌ، فقد أَضافَ الرَّبَّ إِلَى ضَميرِ موسَى ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ[1]، ومن هنا "ففي إضافةِ الرَّبِّ إلى ضمير موسى ﷺ دون ضميرِهما، تنبيهٌ له على تحتُّم كمالِ الانقياد والاستسلامِ لإرادته سبحانه، ووجوبِ الاحترازِ عنِ المناقشة، فيما وقع بحسبِهما الَّتي يُشمُّ منها طلبُ ما يحصلُ به تربيَةُ البدن وتدبيرُه"[2].

دَلالةُ بلوغِ الأشدِّ في الآية:

يحصلُ الأشدُّ مع بلوغِ الحلمِ، وتوفُّرِ العلمِ وكمالِ الرَّأيِ والرُّشدِ

ولعلَّ ما في الآية هو منَ المُشارفة، أو من حصول البدايةِ، وليس بلوغَ المنتهَى، لوصفِهما بـ ﴿لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ﴾، ففيه دلالةٌ على عدم بلوغِهما الحلمَ بعدُ، وأنَّهما كان على مشارفِه، أو أنَّهما كانا في بداية زوالِ اسمِ اليُتم عنهما، ولقصرِ الوقت بين الوصفِ باليُتم، وحصولِ البلوغ، عبَّر بوصفِ اليُتم (مجازًا مرسلًا)، باعتبار ما كان، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 2]، ولهذا قيل: المرادُ ببلوغ الأشدِّ هنا، حصولُ "الحلم وكمالِ الرَّأي"[3]، وهذا قد يحصلُ مع بداية بلوغِ الحلم مع توفُّرِ العلم وكمالِ الرَّأي والرُّشد، ويؤيِّدُه قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6] حيث علَّقَ دفعَ أموالِ اليتامى إليهم على حصول هذين القيدَين: بلوغِ الحلم، وإيناسِ الرُّشدِ.

وعلى هذا فالأشدُّ هنا خلافُ الأشدِّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: 14]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، فإنَّ المرادَ به بلوغُ منتهى الأشدِّ، وهو الأنسبُ لوقت النُّبوَّةِ ووقتِ النُّضج الكامل للعقل، فيكونُ الأشدُّ على هذا هو: "مفهومٌ كلّيٌّ مُشكِّك يختلفُ باخْتلاف المحلِّ"[4].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 150، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 360.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 336.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 291.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 151.

العُدولُ إلى ﴿أَن يَبۡلُغَآ﴾ عِوضًا عن (بلوغ):

أوثرَ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَبۡلُغَآ﴾ الَّذي دخلت عليه ﴿أَن﴾ المصدريَّةُ، فأحالتْه مصدرًا مؤوَّلًا، دون التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريح (بلوغ أشدِّهما) لما في المصدر المؤوَّلِ من دلالةٍ على الزَّمن، ولمّا كان من دلالة الفعل المضارع قصدُ الاستقبال؛ كان التَّعبيرُ به أولى وأدلَّ على المراد، من حيث إنَّهما - فيما يظهرُ - كانا صغيرَين مُشارِفَين لبلوغ الأشدِّ.

إيثارُ المصدرِ المؤوَّلِ لدلالتِه على الزَّمنِ

عطْفُ جملةِ ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا﴾:

عطْفُ جملةِ ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا﴾ على جملةِ ﴿يَبۡلُغَآ﴾ بالواو للإشراكِ بينهما، فكأنَّ كلًّا منهما مرهونٌ بوجود الآخرِ، والمعنى على لسان العبدِ الصّالح، في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾، أي: من تحت الجدار، ولولا أنّي أقمتُه؛ لانقضَّ، وخرجَ الكنزُ من تحتِه، قبْلَ اقتدارِهما على حفظ المالِ وتنميَتِه، وضاعَ[1].

استخراجُ الكنزِ بعدَ بلوغِ الأشدِّ، توفيقٌ منَ الله، واتِّخاذٌ للأسبابِ

سِرُّ العُدولِ عن (ويُخْرِجا) إلى ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا﴾:

زيدتِ السّينُ والتّاءُ ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا﴾ على (يخرجا)، إمّا لتقويةِ الفعل، أو للدَّلالةِ على الطَّلبِ، فـ "استخراجُ الكنز - معناه - طلبُ إخراجِه، والعملُ على ذلك منهما أو من غيرِهما، ممَّن له صلةٌ بهما، فالسّينُ والتّاءُ للطَّلب"[2].

يُؤثرُ الفعلُ بالصّيغةِ الأكثرِ مناسبةً للمطلوبِ في السّياقِ

دَلالةُ وضعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ في لفظِ ﴿كَنزَهُمَا﴾:

كان المقتضَى في التَّعبير أن يقال: (أنْ يَسْتَخْرِجاهُ)، نظرًا لقربِ ذكرِ الكنز، في قوله: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾، لكنَّه أظهرَه في مقام إضمارٍ؛ اعتدادًا به، وإبرازًا لنعمةِ اللّه على الغلامَين، وإكرامًا لأبيهما الصّالحِ.

خيرُ ما يورِّثُ الأبناءُ الصَّلاحَ، فهو الأبقى والأكملُ

نُكتةُ موقعِ ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ الإعرابيِّ:

قولُه: ﴿رَحۡمَةٗ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ إعرابيَّة: **الأوَّل**: وهو أوضحُها:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 239.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4571.

أنَّه مفعولٌ لهنَّ، والعاملُ فيه الفعلُ ﴿فَأَرَادَ﴾[1]، **والثّاني**: أَنْ يكونَ في موضعِ الحالِ مِنَ الفاعل، أي: أراد ذلك راحمًا، وهي حالٌ لازمةٌ.

والثّالث: أَنْ ينتصِبَ انتصابَ المصدرِ، على أنَّ معنى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ﴾، أي: (فَرَحِمَهما)[2].

مَن حمَتْهُ رعايةُ الله، لم يُضيّعْ ما يُخافُ عليه أن يُضاعَ

سِرُّ إعادةِ ذكْرِ الرَّبِّ مُظهَرًا:

أعيد لفظُ الرَّبِّ مُظهرًا، وكان المُقتضَى أن يُضمرَ، لقوله قبْلَه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لمزيدِ التَّلطُّفِ والتَّلذُّذِ بذكر اسمِه سبحانه[3]، ولإبراز كونِه المُنعِمَ على كلِّ حالٍ.

دَلالةُ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾:

(مِن) الابتدائيَّةُ تُرسّي المعنَى في الجُملةِ البليغةِ

﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ ابتدائيّةٌ، وقولُه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، أبلغُ من: (رَحْمَةَ رَبِّك)، وإن كان أطنبَ[4]، وفي قَوْلِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ تَصْريحٌ بما يُزيلُ إِنْكارَ موسَى عليْه تَصَرُّفاتِه هذه، بأَنَّها رَحْمَةٌ ومَصْلَحَةٌ، فلا إِنْكارَ فيها بَعْدَ مَعْرِفَةِ تَأْويلِها[5].

معنَى الواو ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ﴾:

ما فعلَه الخَضرُ مِنَ التَّكليفِ، كان تنفيذًا للأمرِ الإلهيِّ الشَّريفِ

أمّا الواو؛ فإمّا أن تكون عاطفةً على ما سبقَ، أو أن تكونَ واوَ الحال[6]. ﴿وَمَا﴾ نافيةٌ، والمعنى: وما فعلتُ ما فعلتُ من خرقِ السَّفينةِ، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار، بإرادة منّي، ولكنْ بإرادة اللهِ وأمرِه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ﴾:

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل، لما يدلُّ عليه مِنَ العموم، فهو منَ الألفاظِ

(1) الخطيب وآخران، التَّفصيل في إعراب التَّنزيل: 16/ 22.
(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 540.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 152.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 152.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 14.
(6) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 22.

الجامعةِ، وهو أعمُّ منَ العمل، فيشملُ كلَّ تصرُّفٍ تصرَّفَه فيما نصَّت عليه السّورةُ.

كلمةُ (فعل) أعمُّ في الدَّلالة من غيرها، فكانت أنسبَ تعبيرًا هنا

كما أنَّ لفظَ الفعلِ يُطلقُ على ما يمرُّ سريعًا، وينقضي، ولا يكونُ له أثرٌ، أمّا العملُ؛ فيقال لما يكون له أثرٌ[1]، وما قام به العبدُ الصّالح هو من ذلك النَّوعِ الَّذي لا يصلحُ أن يكونَ حكمًا شرعيًّا ثابتًا، بحيث يجوزُ تكرارُ عمله، ولكنَّه من ذلك النَّوعِ الَّذي لا يتكرَّرُ، فهو مجرَّدُ حدثٍ فريدٍ في التّاريخ، قد شاء اللّه ﷻ أن يمكِّن منه بعضَ خواصِّه، لأسبابٍ خاصَّةٍ ببعض الخواصِّ أيضًا.

فائدة التقييد بشبه الجملة ﴿عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾:

وقولُه: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ يوحي "بِأَنَّهُ فعلها عَنْ وحْيٍ مِنَ اللّه؛ لأَنَّهُ لَمّا قالَ: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾؛ عَلِمَ موسَى أَنَّ ذَلِكَ بِأَمرٍ مِنَ اللّه تَعالَى؛ لأَنَّ النَّبيَّ إِنَّما يَتَصَرَّفُ عَنِ اجْتِهادٍ أَوْ عَنْ وحْيٍ، فلَمّا نَفى أَنْ يَكونَ فِعْلُهُ ذَلِكَ عَنْ أَمرِ نَفْسِهِ؛ تَعَيَّنَ أَنَّهُ عَنْ أَمرِ اللّه تَعالَى، وإِنَّما أوثِرَ نَفْيُ كَوْنِ فِعْلِه عَنْ أَمرِ نَفْسِه على أَنْ يَقولَ: وفَعَلْتُهُ عَنْ أَمرِ رَبّي، تَكْمِلَةً لِكَشْفِ حَيْرَةِ موسَى وإِنْكارِهِ؛ لأَنَّهُ لَمّا أَنْكَرَ عليْه فعَلاته الثَّلاثَ؛ كانَ يُؤَيِّدُ إِنْكارَهُ بما يَقْتَضي أَنَّهُ تَصَرَّفَ عَنْ خَطَأٍ"[2].

المرادُ بالأمرِ مضافًا إليه في لفظِ ﴿أَمۡرِيۚ﴾:

الأمرُ المرادُ، هو الرَّأيُ والاجتهادُ

المرادُ بالأمر هنا الرَّأيُ والاجتهادُ، أي: ما فعلتُه عن رأيي واجتهادي[3]، فالأمرُ هنا واحدُ الأمور - كما يقول الخفاجيُّ - والمرادُ به الرَّأيُ، لا أنَّه بمعنى الرَّأي، وظاهرُ كلامِ الرّاغب أنَّ الأمرَ يُطلق على الرَّأي[4].

(1) أبو حيّان، المقابسات، ص: 280، والرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 15.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 337.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 130.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عبَّرَ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ إشارةً إلى ما ذكرَ منَ العواقبِ المنظومةِ في سِلك البيانِ، وما فيه من معنى البُعدِ، للإيذان ببُعدِ درجتِه في الفخامة[1].

الإشارةُ للبُعدِ للدَّلالةِ على عِظمِ هذه الأعمالِ في المكانةِ والفخامةِ

بَلاغةُ فذلكةِ الجملةِ لما قبلها:

وَجُملَةُ ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾، فذَلَكَةٌ للجُمَلِ الَّتي قَبْلَها ابْتِداءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾، فالإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المَذْكورِ في الكَلامِ السّابِقِ، وهو تَلْخيصٌ للمَقْصودِ كَحَوْصَلَةِ المُدَرِّسِ في آخِرِ دَرْسِهِ[2].

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ، من فصيحِ البيانِ في هذا المجالِ

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿تَأۡوِيلُ﴾ دونَ (إخبار):

عبَّرَ بالتَّأويل دونَ الإخبار؛ لأنَّه أطلعَه على حقيقة سرِّ كلِّ فعلةٍ من الأفعال، وليس مجرَّدَ إحاطةٍ مجملةٍ، فالمرادُ بالتَّأويل: إرجاعُ الأمر إلى حقيقتِه، وتفسيرُ ما أشكلَ منه[3].

لا يُتاحُ التَّأويلُ إلّا لمن فتحَ الله بصيرتَه، وعلَّمَه التَّأويلَ

معنَى ﴿مَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَمۡ تَسۡطِع﴾، ﴿مَا﴾: اسمٌ موصولٌ، والتَّعبيرُ بها دون (الَّذي) لكونِها أعمَّ في الدَّلالةِ وأخصرَ.

فائدةُ ذكرِ ﴿لَمۡ﴾ النّافية:

دخولُ ﴿لَمۡ﴾ النّافيةِ الجازمةِ، على المضارع ﴿تَسۡطِع﴾، أحالتْ معنى المضارعِ إلى الزَّمن الماضي، أي: ذلك تأويلُ كلِّ ما مضى، ووقعَ من أفعالٍ، لم تُطقْ وقتَها الصَّبرَ على عدم السُّؤالِ عن حكمتِها، حتّى أبيِّنَها لك، كما تعاهدْنا، وقد أظهرتُ لك الآنَ حكمتَها.

أثرُ تحويلِ الفعلِ المضارعِ إلى الماضي في جملة (لَم تَسطِعْ)

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 337.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 15.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8974.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَسۡطِع﴾ محذوف التّاء:

أثرُ حذفِ الحرفِ منَ الفعل، في التَّخفيفِ والتَّفنُّنِ

دلَّ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَسۡطِع﴾ محذوفِ التّاء دون سابقِه، حيث عبر: ﴿تَسۡتَطِع﴾ فحذفَ التّاء هنا تخفيفًا، لقُرْبِها مِنْ مَخْرَجِ الطّاء، وأيضًا للتَّفنُّنِ تَجَنُّبًا لإعادَةِ لَفظٍ بعَيْنِه مع وُجودِ مُرادِفِه، وابْتُدِئَ بأَشْهَرِهما اسْتِعْمالًا، وجيءَ بالثّانيةِ بالفِعْلِ المُخَفَّف؛ لأَنَّ التَّخْفيفَ أَوْلى به؛ لأَنَّهُ إذا كَرَّرَ تَسْتَطِعْ؛ يَحْصُلُ مِنْ تَكْريرِه ثِقَلٌ، فناسبَ تخفيفُ الأخير منه[1].

وقيل: حَذفَ تاءَ الاستطاعة هنا لصيرورةِ ذلك - بعد كشف الغطاءِ - في حيّزِ ما يُحملُ[2]، أي: فلا يُحتاجُ إلى ما يدلُّ على تكلُّف عدمِ الاستطاعةِ، وهو ما يتحقَّقُ بوجود التّاء؛ لأنَّ زيادةَ المبنى، تدلُّ على زيادة المعنى.

إيثارُ حرفِ الاستعلاءِ (على) في السّياقِ:

حرفُ الاستعلاءِ (على) فيه معنًى السَّببيَّةِ

عبَّرَ بحرف الجرِّ (على)، لما فيه من معنى السَّببيَّةِ والتَّعليلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185][3].

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَّلَيۡهِ﴾ في السّياقِ:

وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَّلَيۡهِ﴾ على المفعول ﴿صَبۡرٗا﴾، للاهتمامِ ولإفادة الاختصاصِ، ولرعاية الفواصلِ.

تَنكيرُ لفظِ ﴿صَبۡرٗا﴾ في السّياقِ المُحكمِ:

النَّكرةُ في سياقِ النَّفيِ تفيدُ العمومَ، ولها أثرٌ في الدَّلالةِ معلومٌ

تنكيرُ كلمةِ ﴿صَبۡرٗا﴾، يدلُّ على العموم، أيْ: نفي وقوعِ كلِّ ما يُسمّى صبرًا، وإن كان ضئيلًا، فهذا ما تفيدُه النَّكرةُ الواقعةُ في سياق النَّفيِ، وكان العبدُ الصّالح قدِ التمس له عذرًا في عدم صبْرِه على ما يراه مُخالفًا، بقوله له قبلُ: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨﴾ [الكهف: 68].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 154، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 16/ 15.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 123.

(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 477.

سِرُّ تَكرارِ الصَّبر في القصَّة كلِّها:

بـيـانُ أهـمّـيَّـةِ الصَّبر عمومًا، وفي تلقّي العلم خصوصًا

تكرَّرَ في الآيات ورودُ لفظِ الصَّبر، لتعدُّدِ المواطن المناسبةِ لذكره، ولبيان أهمّيَّةِ الصَّبرِ في حياة الإنسان عامَّةً، فهو مفتاحُ كلِّ خير، وأهمّيَّتُه في تلقّي العلم خاصَّةً، بالصَّبرِ على تلقّيه ممَّن اختصَّه الله تعالى بالعلمِ النّافع.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغلامُ والرّجلُ:

يـقـالُ غـلامٌ إلى وقـت الـبُـلـوغِ، ويـقـالُ رجـلٌ لمن وُصـفَ بـالـشِّـدَّةِ والفُتوَّةِ والقوَّةِ

كلٌّ مِنَ الغلام والرَّجلِ يختصّان بالذُّكور من بني الإنسان، مع فروقٍ بينَهما تبعًا للمرحلة العُمريَّة وقوَّةِ التَّحمُّل والاستقلالِ بالمسؤوليَّة في ضوء ما يأتي:

أمّا الغلام؛ فيقال: اغْتَلَمَ الغُلامُ: إذا بلغ حدَّ الغلومة، أي: حدَّ الرَّغبةِ في الأنثى طلبًا للنِّكاح، ولمّا كان مَن بلغ هذا الحدَّ كثيرًا ما يغلبُ عليه الشَّبقُ؛ قيل للشَّبقِ: غِلْمَةٌ[1].

وقيل: يقعُ اسمُ الغُلام على الصَّبيّ، من حين يولدُ على اخْتِلاف حالاته، إلى أَن يبلغَ، وحدَّ بعضُهم نهايتَه ببلوغ عشرِ سنواتٍ[2].

وقيل: هو الطّارُّ الشّارِبِ، يقال: طَرَّ شاربُه، أي: طَلَعَ وظهرَ، وقد يُطلقُ على الطِّفل على سبيل التَّفاؤل، وعلى الكهل، ومنه قولُ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة:

شَفاها مِنَ الدّاءِ العُضالِ الَّذي بها *** غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقاها

تسميةً بما كان عليه قبْلَ الكُهولة[3].

وأمّا الرَّجلُ؛ فإنَّه يفيدُ معنى القوَّةِ على الأعمال، ولهذا يقالُ

(1) الرّاغب، المفردات: (غلم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: 3/ 1604.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 672.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 108.

في مدح الإنسان: إنَّه رَجُلٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34]؛ ولذا قالوا: "هذا أَرْجَلُ الرَّجُلين، أي: أشدُّهما"(1).

وعلى هذا، فالغلام أقصى حدٍّ يبلغُه، هو وقتُ البلوغ، وظهورُ الشّارب، والرَّجلُ يقال باعتبار الشِّدَّةِ والفتوَّة، وتحمُّلِ المسؤوليَّة والقوَّةِ على الأعمال.

المدينة والقرية:

القرْيَة هي الأَبْنِيَة الَّتي تجمعُ النّاسَ، من قَوْلهم: قريتُ الماء في الحَوْض؛ إذا جمعتُه، وعبَّرَ في السّورة الكريمةِ بالقرية دونَ المدينة؛ لمّا كان المقامُ مقامَ ذمٍّ، فقال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وذلك أنَّ مادَّةَ (قرا)، تدورُ على الجمعِ الَّذي يلزمُه الإمساكُ(2)، ولمّا كان المقامُ غيرَ ذلك، وإنَّما هو مجرَّدُ الإخبار، عن سبب إقامة الجدار؛ عبَّر عنها بالمدينة، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾، فالمدينةُ بمعنى الإقامةِ، فكان التَّعبيرُ بها أليقَ، للإشارة به إلى أنَّ النّاسَ يُقيمون فيها، فينهدمُ الجدارُ، وهم مقيمون فيأخذون الكنزَ(3).

القريةُ تقالُ باعتبارِ الاجتماعِ، والمدينةُ تقالُ باعتبارِ الإقامةِ

وعلى ذلك فلا منافاةَ، بين التَّسميةِ بالقرية، ثمَّ تسميتِها بالمدينة؛ لأنَّ كلًّا منهما أنسبُ في آيته، بحسبِ الاعتبارِ، وبحسبِ السّياقِ.

(تحت) و(دون):

دون: نقيضُ فوق "(أي: إنَّها بمعنى تحت)، وهذه التَّحتيَّةُ هي أصلُها، والمعنى المحوريُّ: كَوْنُ الشَّيء منخفضًا في أسفلِ شيء، وقدِ استُعملت في مجاز ذلك، مثل: ثوبٌ دونٌ: رَديء، ورجل دونٌ: ليس

لفظُ (تحت) ظرفُ مكانٍ يدلُّ على خصوصِ السُّفلِ المقابلِ للفوقِ، ولفظُ (دون) قد يقالُ باعتبارِ الدّونيةِ وسُفلِ المنزلةِ والمكانةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/ 767.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 113.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 122.

بلاحقٍ، أي: خسيس[1]، وعلى هذا فالدّونُ قد يطلقُ على السُّفل في المنزلةِ، للدَّلالة على الوضاعةِ والخِسَّة.

وأمّا تَحۡتُ؛ فإنَّه يقالُ أيضًا مقابلًا لفوق، كما قال تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: 66]، وقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الحجّ: 23][2]، فهي على هذا ظرفُ مكانٍ، ولذلك أوثرَ التَّعبيرُ به في قوله: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾، ولم يقل: (وكانَ دونَهُ كَنْزٌ لَهُما)، فلن يُؤدّيَ نفسَ المعنى الَّذي أدّاه لفظُ (تحت) هنا، وذلك أنَّ لفظَ (تحت)، ظرفُ مكانٍ، يدلُّ على خصوص السُّفلِ المقابلِ للفوق، ولفظُ (دون) قد يقالُ باعتبار سُفلِ المنزلةِ والمكانة، لا المكانِ.

الأب والوالد:

الـوالـدُ يـقالُ باعتبار النِّسبةِ فـي الـولادةِ، والأبُ يقـال باعتبارِ الشَّفقةِ والحُنوِّ والرِّعايةِ

الوالدُ يقالُ باعتبار النِّسبةِ في الولادة، ولا يعبِّرُ عنِ الرِّعاية والتَّربيةِ بخلاف لفظِ الأب، فإنَّه يدلُّ على الرِّعايةِ والاهتمام والمسؤوليَّة، وفي إيثار التَّعبيرِ بالأب دونَ الوالدِ في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾، ملاءمةً للسّياقِ وللمقام؛ لأنَّ مقامَ الأبوَّة، يَقتضي الشَّفقةَ والحُنوَّ والرِّعاية، وليس المقصودُ مجرَّدَ النِّسبة، فكم من والدٍ ليس بأبٍ لكونِهِ لا يرعى أبناءَه، ولا يقومُ بمسؤوليَّته تجاهَهم.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: 2/ 684.

(2) الراغب، المفردات: (تحت).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 83 - 85]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بين ملامحِ رحلةِ موسى للعلمِ، ورحلةِ ذي القرنَين للجهادِ

لمّا فرغ من هذه القصَّةِ - قصَّةِ موسى عليه السلام والعبدِ الصّالح - الَّتي حاصلُها أنَّها طوافٌ في الأرض لطلب العلم، عقَّبَها بقصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطلب الجهادِ، وقدَّمَ الأولى إشارةً إلى عُلوِّ درجةِ العلم؛ لأنَّه أساسُ كلِّ سعادةٍ، وقوامُ كلِّ أمر، ثمَّ ثنّى بقصَّةِ ذي القرنين، فقال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكۡرًا﴾: الذِّكرُ بالكَسْرِ له مَعْنيانِ: أَحدُهما: التَّلَفُّظ بالشَّيء، والثّاني: إِحْضارُه في الذِّهْن بحَيْثُ لا يغيبُ عنهُ، وهو ضدُّ النِّسْيان، والذُّكر، بالضَّمِّ: للمعنى الثّاني لا غيرُ[2]، فيقال: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خلاف نَسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بضَمِّ الذّالِ، أَيْ: لا تَنْسَهُ[3]، ومعنى ﴿ذِكۡرًا﴾، في قوله: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾، أي: ما فيه تذكيرٌ واتِّعاظٌ، ويصلحُ للتِّلاوة من أخبار ذي القرنَين[4].

2) ﴿مَكَّنَّا﴾: أصلُ (مكن) رسوخ الشيء مُتجمعًا من دِقاقٍ في باطن يلتئم عليه[5]، وهو الرسوخ في باطن، قال عز وجل: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 128.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مكن).

﴿ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ [التّكوير: 20]، أي: مُتمكّن ذي قَدْرٍ ومنزلةٍ[1]، و"مَكَّنَهُ اللّه مِنَ الشّيء، وأمكَنَهُ منه، بمعنًى، واسْتَمكَنَ الرّجل مِنَ الشّيء، وتمكّن منه، بمعنًى"[2]، ومَكّنتُه مِنَ الشَّيءِ تمكينًا: جعلت له عليه سُلطانًا وقدرةً، فتمكَّن منه، واستمكن منه: قدرَ عليه، وله مُكنةٌ؛ أي: قوّةٌ وشدّةٌ[3]، فالتّمكينُ في الآية معناه: جَعْلُ الشَّيءِ مُتمكِّنًا، أَيْ: راسخًا، وهو تمثيلٌ لقوَّةِ التَّصرُّفِ[4].

3) ﴿سَبَبٗا﴾: السَّببِ الحَبْلُ الَّذي يُصعد به النَّخلُ، وسُمّي كلُّ ما يُتوصَّل به إلى شيء سَبَبًا[5]، ومنه: البابُ والطَّريقُ، يُقال: مالي إليك سَبَبٌ، أيْ: طَريقٌ، وأَسْبابُ السَّماواتِ: أَبْوابُها، والجَمعُ: أسبابٌ[6]، وأُطلِقَ السَّببُ في الآيةِ على ما يُتوسَّلُ به إلى الشَّيءِ من عِلْمٍ أو مَقْدِرَةٍ أو آلاتِ التَّسخيرِ على وجه الاستِعارةِ؛ وهو هنا مُرادٌ به معنًى مجازيٌّ وهو الطَّريقُ والمسلكُ؛ لأنَّ الطَّريقَ وسيلةٌ إلى المكانِ المقصودِ[7].

المَعنى الإِجْماليُّ:

المرادُ بالسُّؤال والسّائلين

السُّؤالُ كان عن خبرِ ذي القرنين، والسّائلون الَّذين يعودُ إليهم ضميرُ الفاعلين في "﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾، عائدٌ على كفار قريشٍ أو على اليهودِ، والمشهورُ أنَّ السّائلين قريشٌ حين دسَّتها اليهودُ على سؤاله عن الرّوح، والرَّجلِ الطّوّافِ، وفتيةٍ ذهبوا في الدَّهرِ ليقعَ امتحانُه بذلك"[8].

مَن أخذَ بما يُتاحُ له مِن أسبابٍ؛ ظفرَ ببلوغِ المُرادِ

ووَهَبَ اللّه تعالى ذلك العبدَ الصّالحَ المعروفَ بـ ﴿ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ [الكهف: 83]، تَأييدَه وتوفيقَه، وأمدَّه بأسبابِ السّيادة الّتي تُمكّنُه من

(1) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (مكن).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (مكن).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (مكن).
(5) العين، الخليل، والراغب، المفردات: (سبب).
(6) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سبب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 24.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 218.

تصريف شؤونِ البلاد، وترتيبِ أحوالِ العباد، على وفقِ شريعة اللّه ﷻ فيهم، ومِن ذلك سَعَةُ العلم، وحُسنُ التّدبير، والحكمةُ في التَّصرُّف، وتدريبُ الجنود، واختيارُ القوّاد[1]، و"سُخِّر له السَّحابُ، ومُدَّتْ له الأسبابُ، وبُسطَ له في النّور، فكان اللّيلُ والنّهارُ عليه سواء"[2]، وقد أخذَ ذو القرنَيْن بتلك الأسباب كلِّها، كما ينبغي؛ فكان له ما أراد اللّه ﷻ منه، ولم يُقصِّرْ في شيءٍ من ذلك.

إيجازٌ للتَّعريفِ بذي القرنين

ذو القرنين عبدٌ صالحٌ حكمَ الدُّنيا، وقد توجَّهَ المشركون بإيعازٍ مِنَ اليهود إلى النَّبيِّ ﷺ سائلين إيّاه عنه، أو أنَّ اليهود أنفسَهم، هم الَّذين سألوه، كما أخرج الطَّبريُّ[3]، "واختُلف في نبوَّته بعد الاتِّفاق على إسلامه وولايته، فقيل: كان نبيًّا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 84]، وظاهرٌ أنَّه مُتناولٌ للتَّمكين في الدّين، وكمالُه بالنُّبوَّة"[4].

والقرآنُ الكريمُ، لم يُفصِّل لنا القولَ عن ذي القرنين، فيما يختصُّ بشخصيَّته، وإنَّما بيَّن لنا خبرَه الَّذي يفيدُ في أخذ العبرةِ ممّا فعلَ، وقام به.

ومجملُ ما تذكره الآيات عن ذي القرنين وقصَّته أَنَّهُ كانَ مَلِكًا صالِحًا عادِلًا، وأَنَّهُ كانَ مُلْهَمًا مِنَ اللّه، وأَنَّ مُلْكَهُ شَمِلَ أَقْطارًا شاسِعَةً، وأَنَّهُ بَلَغَ في فُتوحِه مِنْ جِهَةِ المَغْرِبِ، مَكانًا كانَ مَجْهولًا، وهوَ عَيْنٌ حَمِئَةٌ، وأَنَّهُ بَلَغَ بلادَ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ، وأَنَّها كانَتْ في جِهَةٍ ممّا شَمِلَهُ مُلْكُهُ غَيْرِ الجِهَتَيْنِ الشَّرْقيَّةِ والغَرْبيَّة، فكانَتْ وسَطًا بَيْنَهُما، كَما يَقْتَضيه اسْتِقْراءُ مَبْلَغِ أَسْبابِه، وأَنَّهُ أَقامَ سَدًّا يَحولُ بَيْنَ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ وبَيْنَ قَوْمٍ آخَرينَ، وأَنَّ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ هَؤُلاءِ كانوا عائِثينَ في الأَرْضِ فسادًا، وأَنَّهُم كانوا يُفْسِدونَ بلادَ قَوْمٍ موالينَ لِهَذا المَلِكِ، وأَنَّهُ

(1) مجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 6/ 918.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 48.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 92.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 240.

كانَ مَعَهُ قَوْمٌ أَهْلُ صِناعَةٍ مُتْقَنَةٍ في الحَديدِ والبِناءِ، وأَنَّ خَبَرَهُ خَفيٌّ دَقيقٌ لا يَعْلَمُهُ إلّا الأَحْبارُ عِلْمًا إِجْماليًّا، كَما دَلَّ عليْه سَبَبُ النُّزولِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾:

قيل: إنَّها عطفت جملةَ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ على جملة: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: 56](2).

وقيل: الواو استئنافيَّةٌ(3)، وما بعدها قصَّةٌ مستأنفةٌ جديدةٌ مبنيَّةٌ على سؤالٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ ﷺ عن ذي القرنين.

دَلالةُ الفعلِ المضارع ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾:

الدَّلالةُ على إصرارِهم على السُّؤالِ وتكرُّرِه حتّى ورودِ الجوابِ

التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، يفيدُ تَكرُّرَ السُّؤالِ وتردُّدَه على ألسنة السّائلين، و"استمرارُهم على ذلك إلى ورودِ الجواب"(4)، وهذا ما حصل؛ لأنَّ هذا السُّؤالَ كان ضمنَ عدَّةِ أسئلةٍ للتَّحدّي وجَّهتها قريشٌ للنَّبيِّ ﷺ، بإيعازٍ منَ اليهود، وقيل: إنَّ اليهودَ هم الَّذين توجَّهوا به(5).

ولا مانعَ مِن احتمال اشتراكِ الفريقَين في ذلك، كما تُشعرُ به صيغةُ المضارع الدّالَّةُ على التَّكرار والتَّجدُّد.

سِرُّ تصديرِ الآية بهذا الإخبار: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن﴾:

تبكيتٌ للسّائلين على عدمِ سؤالِهم عن قصَّةِ موسى والعبدِ الصّالح

صُدِّرتِ الآيةُ بالإخبار عن سؤال السّائلين منَ اليهود والمشركين؛ إشارةً إلى أنَّهم لم يسألوا عنِ الَّتي قبْلَها على ما فيها مِنَ العجائب واللَّطائف، والأسرارِ والمعارفِ، تبكيتًا لليهود خاصَّة في إغفال الأمرِ بالسُّؤال عنها، إن كان مقصودُهم الحقَّ، وإن لم يكن مقصودًا لهم؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 20.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 128.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 16/ 24.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 239.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 92.

كانوا بالتَّبكيت أجدرَ، أو تكونُ معطوفةً على مسألتِهم الأولى، وهي الرّوحُ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85]، وصدَّرها بالإخبار بالسُّؤال تنبيهًا على ذلك لطولِ الفصلِ، إشارةً إلى أنَّ ذلك كلَّه مرتبطٌ بجوابِهم ارتباطَ الدُّرِّ بالسِّلك[1].

بَلاغةُ الحذْفِ في السُّؤالِ المُبْرزِ في السّياقِ:

حذفُ المضافِ إيجازًا، لدلالةِ المقامِ عليه

في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، حذفٌ للمضاف إيجازًا، لدلالة المقامِ عليه، والتَّقديرُ: (وَيَسْأَلونَكَ عَنْ خبر ذي القَرْنَيْن)[2]، ويكونُ المعنى أيضًا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، أي: عنِ الرُّجل الصّالحِ المجاهدِ، الَّذي طاف الأرضَ لطلب الجهادِ[3].

سِرُّ فصْلِ جملةِ ﴿قُلْ﴾ عمّا سبقَ:

سرُّ فصلِ الجملةِ عمّا قبلها، هو كونُها جوابًا عنِ السُّؤال المطروح، أو كونُها جوابًا عن سؤالٍ آخرَ مقدَّرٍ نشأ عنِ السُّؤال المطروح، فكأنَّه قيل: فبأيِّ شيءٍ أجابهم الرَّسولُ ﷺ؟

أو أن يكونَ السُّؤالُ متوجِّهًا منه صلّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، بأن يقولَ: فبماذا أُجيبهم؟ قال: ﴿قُلْ﴾[4]، فيكون الاستئنافُ البيانيُّ، هو سرُّ الفصل، فيتحقَّقَ بينَهما شبْهُ كمال الاتِّصال.

دَلالةُ السّين في: ﴿سَأَتْلُواْ﴾:

دورُ حرفِ التَّنفيس في تمحيضِ المضارع للاستقبالِ

السّين حرفُ تنفيسٍ واستقبالٍ، وتكونُ للمستقبل القريب، أي: إنَّها بدخولِها على المضارع تمحِّضُه للاستقبال وتخلِّصُه مِن احتمال الحال، ومن فوائدِ التَّعبير بها هنا الدَّلالةُ على تَحْقيقِ الوَعْدِ، كَما دلَّت عليه أختُها (سوف) في قَوْلِه تَعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: 98][5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 18.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 128.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 129.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.

التَّعبيرُ بالتِّلاوةِ في ﴿سَأَتۡلُواْ﴾ دون الإخبار وغيره:

الـتِّـلاوةُ تعني التَّتابعَ، والقراءة الخاصَّة

التِّلاوةُ تفيدُ التَّتابعَ والقراءةَ، فكأنَّه وعدَهم بأنَّه يسردُ لهم المهمَّ من قصَّتِه، دون انقطاعٍ، وهو واضحٌ في طريقة هذه القصَّةِ في سورة الكهف، حيث سردتِ الأحداثَ المهمَّةَ فيها، المُشتملةَ على العبرةِ بحرف الرَّبطِ والتَّرتيبِ (ثمّ).

وقيل: جُعِل خبرُ ذي القرنينِ تِلاوةً وذِكرًا، للإشارةِ إلى أنّ المُهِمّ من أخبارِه ما فيه تذكيرٌ، وما يصلُحُ لأن يكون تِلاوةً، حسب شأنِ القُرآنِ، فإنّهُ يُتلى لأجلِ الذِّكرِ، ولا يُساقُ مساق القصصِ[1].

دَلالةُ المرادِ بشبْه الجملةِ ﴿عَلَيۡكُم﴾:

قولُه: ﴿عَلَيۡكُم﴾، أي: على آذانِكم ومسامعِكم، (فلعلَّ ما أتلوه عليكم من خبرِه الصّالح، ينفذُ إلى قلوبكم)، وقد أمره اللّٰه أن يقول: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾، "أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يُتذكَّرُ فيه، ويكونُ عبرةً، وأمّا ما سوى ذلك من أحوالِه؛ فلم يتْلُه عليهم"[2].

مرجعُ الضَّميرَين في ﴿عَلَيۡكُم﴾ و﴿مِّنۡهُ﴾:

مـا أبـرزَه الله جوابًا للسّائلين، فهو حقُّ اليقين

كافُ الخطابِ في ﴿عَلَيۡكُم﴾ مقصودٌ بها السّائلون مِنَ اليهود والمُشركين، والضَّميرُ الغائبُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ مرادٌ به ذو القرنين، أي: خبرُه وحكايتُه، والنَّصُّ مُفادُه: "يسألك - يا أشرفَ الخلق - أهلُ مكَّةَ عن خبر ذي القرنين... كان عبدًا صالحًا ملَّكه اللّٰه الأرضَ، وأعطاه العلمَ والحكمةَ، وألبسَه الهيبةَ"[3].

معنَى (من) في شبْه الجملةِ ﴿مِّنۡهُ﴾:

ما ذُكِرَ من أخبارِ ذي القرنين، نزرٌ يسيرٌ من دلائلِ التَّمكينِ

وفي التَّعبير به تنبيهٌ على أنَّ المذكورَ هنا ليس كلَّ أحوالِ ذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 485.

(3) محمّد بن عمر نوويّ الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/ 659.

القرنين، وليست كلَّ أخباره[1]، بل بعضُها الَّذي وقعَ عليه اختيارُ القرآن لكونِه الأهمَّ ذكرًا بالنِّسبة للمخاطَبين.

دَلالةُ تقديمِ المجروراتِ على المفعول ﴿ذِكۡرًا﴾:

يكونُ التَّقديمُ للعنايةِ والاهتمامِ، مفيدًا في البيان

قدَّم قولَه: ﴿عَلَيۡكُم﴾ تنبيهًا للسّامعين وقصْدًا لهم، لأجل حثِّهم على الاعتناءِ بخبرِه الَّذي أبرزَه سؤالُهم عنه، وقدَّم ﴿مِّنۡهُ﴾ اهتمامًا بالمخبَر عنه، وهو المسؤولُ عنه، أي: ذو القرنين، لما في الإخبار عنه من عظاتٍ كثيرةٍ، عبَّرت عنها الأحداثُ الَّتي مرَّت به، وكيف أنَّه تصرَّف فيها بحكمةٍ محفوفةٍ برعايةٍ ربّانيَّة، فكان تقديمُه على ﴿ذِكۡرًا﴾ أنسبَ لاتِّساقِه مع السّياق قبْلَه، أو كما عبَّرَ القونويُّ: "لمناسبةِ ما قبْلَه أشدَّ مناسبةٍ"[2].

معنَى ﴿ذِكۡرًا﴾ وسرُّ ورودِه منكَّرًا:

قصَّةُ ذي القرنين، تبقَى على المدَى مثالًا للعدلِ والتَّقوَى

الذِّكرُ يكونُ بالقلب أو باللِّسان[3] أو بهما معًا، ومعناه هنا: قولًا تتَّعظُ منه قلوبُكم، وتحفظُه إن أرادت، ويسهلُ ترديدُه بألسنتِكم، وتتلذَّذُ به أسماعُكم؛ لأنَّه من بيانِ القرآن، ونكّره للتّقليل؛ لأنّ أحوال ذي القرنين وأخبارُه كثيرةٌ، وأنّهم إنّما يُهِمُّهُم بعضُ أحوالِه المُفيدةِ ذِكرًا وعِظةً، ولِذلِك لم يقُل في قِصّةِ أهلِ الكهفِ: (نحنُ نقُصُّ عليك مِن نبئِهِم)؛ لأنّ قِصّتهُم مُنحصِرةٌ فيما ذكر، وأحوالُ ذي القرنينِ غيرُ مُنحصِرة فيما ذكر هُنا[4].

سرُّ فصلِ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾:

شدّةُ ارتباطِ معنى الجملةِ بالسّؤالِ السّابقِ يُغني عن الرّابطِ اللّفظيّ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه جوابُ السّؤالِ الواردِ في الآية السّابقة، على هذه الآية مباشرة: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾ [الكهف: 83]، فقد أرسلَ علماءُ اليهودِ إلى الرّسول ﷺ بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 157.

(3) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.

السّؤال - ضمنَ أسئلةٍ أخرى، يختبرون صدقَ نبوّته بها - فسألوه عن قصّة ذي القرنَيْن، وأخباره الّتي لا يعلمُها حينئذٍ إلّا قليلٌ، ففُصلت جملةُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾؛ لشدّة ارتباطِها الذّاتيّ بسؤالِهم، واتّصالِها من ذات نفسِها بدون حاجةٍ إلى رابطٍ لفظيٍّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ) مضافةً إلى ضميرِ التّعظيم (نا):

بيانُ تأكيدِ الخبرِ لفخامتِه، وإن لم يوجدْ منكِرٌ له

لَمّا كان خبرُ التَّمكينِ لذي القرنَيْن في الأرض - كلِّ الأرض - أينما توجّهَ منها خبرًا عجيبًا كان المناسبُ أن يُؤكَّدَ، وإن لم يُنكرْه اليهودُ الّذين طلبوا خبرَه منَ الرّسول ﷺ، ففي التّوكيد احتشادٌ لصدق الخبرِ مِن أوّلِ الأمر، وزادَ التّأكيدَ قدرًا بالضّمير الدّال على التّعظيم، فالواقعُ مِنَ العظيم عظيمٌ، و"القضيّةُ في نفسها ممّا يُهتمُّ به، وإن لم يكن هناك منكرٌ"[1]، وإسنادُ الفعلِ الماضي (مكَّنَ) إلى ضمير العظمة (نا) يُضفي على هذا التَّمكين القوّةَ، ويَمنحُه الجلالَ، ويَسندُه بالتّوفيق، حيثُ مَكَّن له مُلكًا ذا عزوةٍ وسلطانٍ، يُفرض به حكمُه، ويُبسطُ به سلطانُه، ويُتاح له به العمرانُ، بما سُخِّر له من أسبابٍ خارقةٍ كانت مضربَ المَثَل، ومناطَ الخشيةِ والرّهبةِ من كلّ الدّولِ، ولا تكونُ كذلك إلّا إذا كانت قوّةً منَ اللّه الأجلِّ، وهي القوّةُ القاهرةُ الغالبةُ، الّتي يُبرزها التّوكيدُ، ويُجلّيها ضميرُ عظمةِ اللّه المجيدِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿مَكَّنَّا﴾:

جاءت صياغةُ الفعلِ ﴿مَكَّنَّا﴾ ماضيًا موافَقةً لزمن هذا الفعلِ أيّامَ ذي القرنَيْن؛ وفيه إلماحةٌ إلى تحقُّق التّمكينِ وحصولِه.

دلالةُ تعديَةِ فعلِ التّمكين باللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

تعديةُ الفعل ﴿مَكَّنَّا﴾ باللّام يُشرِبُه معنَى الفعلِ (وهبنا)، والفعلِ (ملّكنا)؛ فهو مضمَّنٌ إذَن معنَى أفعالٍ أخرى يدلُّ عليها

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: 1/ 74.

حرفُ التّعديةِ (اللّام)؛ وبهذا يتحقّقُ ثراءُ الدّلالاتِ مع وجازةِ التّركيب، ذلك أنّ "حقَّ فعلِ ﴿مَكَّنَّا﴾ التّعديةُ بنفسه، فيقال: مكَّنّاه في الأرض - كقوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: 6]، فاللّام في قوله: ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتّوكيد كاللّام في قولهم: شكرتُ له ونصحتُ له، والجمعُ بينهما تفنُّنٌ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: 6]، فمعنَى التَّمكينِ في الأرض: إعطاءُ المَقدرةِ على التّصرّف"(1).

عودُ الضّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾ ودلالتُه:

الضّميرُ ﴿لَهُۥ﴾ في الفعلِ ﴿مَكَّنَّا﴾، يعودُ إلى ﴿ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، الّذي سبق ذكرُه، في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، وفيه ربطٌ لأحداث القصّةِ بعمودِها الّذي تدور عليه أحداثُها.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

القائدُ الصّالحُ دعوتُه لله، وفتحُه البلدانَ على منهجِ الله تعالى

النّظمُ الكريمُ يقيّدُ فعلَ التّمكين له بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وبذلك يتآزرُ القيدُ بحرف الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾ أتمَّ التّآزُر مع معنَى التّمكين؛ لما يَكمُنُ في الجارّ ﴿فِي﴾ مِنَ الدّلالة على التّمكّنِ والرّسوخِ داخلَ الأرض، وذلك قائلٌ بثباتِ خُطا ﴿ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، في سبيل نشرِ الدّعوةِ وفتحِ البلدان، على منهجِ اللّه ﷻ.

المُرادُ بلفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وسرُّ تعريفِها:

تطويفُ ذي القرنيْن في ما وطأتْه قدمُه ووسِعَه عمرُه منَ الأرض

معنَى تمليكِ الأرض: تمكينُ الأرض له جملةً يصنعُ فيها ما يشاء، وهذا لم يخصَّ له ناحيةً منها دون ناحيةٍ، بل بسطَ له التّمكينَ في أرجاء الأرض برمَّتِها، دون تحديدٍ لمكانٍ منها، على نحو قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ [القصص: 57]، وكقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 26]: وهو ها هنا خصَّ مكانًا لهم دون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.

مكانٍ، وأمّا في ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فذكرَ التّمكينَ له في الأرض، ولم يخُصَّ ناحيةً منها دون ناحية[1]، وقد جاء في سيرة ابنِ هشام أنّه "كان من خبرِ ذي القرنيْن، أنّه أوتيَ ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرُه، فمُدّت له الأسبابُ حتّى انتهى منَ البلاد، إلى مشارقِ الأرض ومغاربِها، لا يَطأُ أرضًا إلّا سُلِّط على أهلِها، حتّى انْتهى مِنَ المشرق والمغربِ، إلى ما ليس وراءه شيءٌ من الخلْقِ"[2]، وعلى ذلك فالأرضُ هنا هي كلُّ ما وطأتْه قدمُه ووسِعَه عمرُه منها، وقال ابنُ عاشور: "المرادُ بالأرض: أرضٌ معينةٌ، وهي أرض مُلْكِه"[3]، وعليه فاللّامُ للعهد.

سرُّ التّعبيرِ بالضَّمير في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دونَ سواه:

بيانُ أنّ الله تعالى إذا أعطَى أدهشَ بعطائِه المُغْدَقِ

في جملة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ ضميرُ الفاعل، وضميرُ المفعول الأوّل؛ الضّميرُ الأوّل ضميرُ العظمة (نا)، ويرجعُ إلى الضّمير المنفصل ﴿إِنَّا﴾ في أوّل الآية الكريمة، والضّميرُ الثّاني (الهاء) يعودُ إلى ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ المذكورِ في الآية السّابقة آيةِ السّؤال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، وضميرُ العظمةِ يمنحُ إيتاءَه ﷺ ذا القرنيْن ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ بركةً، وفخامةً، وعظمةً، وجلالًا؛ لأنّ المُعطي هو الغنيُّ الكريمُ، الّذي إذا أعطَى أدهشَ بعطائه، وعطاؤُه ذا القرنيْن هنا أنموذجٌ يَكشفُ حجمَ العطاء الّذي بلغَ بذي القرنيْن مغربَ الشّمس ومطلعَها، وأتاح له حُكمَ البلاد، وترتيبَ حياةِ العباد، إلخ.

معنَى حرفِ الجرّ ﴿مِن﴾ ودلالتُه في السّياق:

الله تعالى يمنحُ أولياءَه من شتّى مَناحي الحياةِ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ﴾ "بيانيّةٌ، والمبيَّنُ ﴿سَبَبًا﴾، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: مِن أسبابِ كلِّ شيءٍ، والمُرادُ بذلك الأسبابُ العاديّةُ ... وجوِّز أن تكونَ ﴿مِن﴾ تعليليّةً؛ فلا تقديرَ"[4]، ومعنى إيتائه؛ أيْ: من كلِّ شيءٍ يحتاجُ إليه في الوصول إلى ما يريدُ تحقيقَه، أو يبتغي

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 204.
(2) ابن هشام، سيرة ابن هشام: 1/ 270.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 24.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 352.

حيازتَه، من مُكْنةِ المُلك، والسّيطرةِ على مختلف الأصقاع، وفتح ما توصلُه إليه قدرتُه من شتّى البقاعِ، وذلك باتّخاذِه الأسبابَ؛ لبلوغ المغربِ والمشرق، وما بين السّدَّيْن، كما أشار القرآن المبينُ.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾، وإضافتها إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

بيانُ أهمّيّةِ لفظِ العمومِ بدلالةِ الخُصوص

"قولُه: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عمومٌ معناه الخُصوصُ، في كلِّ ما يمكنُ أن يعلَمَه ويحتاجَ إليه، وثَمَّ لا محالةَ أشياءُ، لم يُؤْتَ منها سببًا يعلَمُها به"[1]، "أي: من أسبابِ كلّ شيءٍ أراده من أغراضِه ومقاصدِه في ملكِه، سَبَبًا وطريقًا موصلًا إليه، والسّببُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى المقصود، مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ"[2]، و"كلِّ شيءٍ يستعينُ به الملوك، من فتح المدائنِ، وقهرِ الأعداء"[3].

أوتيَ ذو القرنيْن كلَّ ما عليه قوامُ الحياة ونظامُها

و"ليس المرادُ بقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ العمومَ والشّمولَ لجميع الأشياء، وإنّما المرادُ به كلُّ شيءٍ يصلحُ به أمرُه، ويقومُ عليه سلطانُه، ومثلُ هذا قولُه تعالى على لسان الهدهدِ عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النّمل: 23]، ومثلُه قولُه تعالى على لسان سليمانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ [النّمل: 16]؛ فالمرادُ بـ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ في الموضعَين: ما يصلحُ عليه الأمرُ، ويتمُّ به نظامُ الحياة في المستوَى الطّيّبِ الكريم"[4].

سرُّ التّقييد بالمفعول به ﴿سَبَبًا﴾ مُنكّرًا مُفردًا:

الأسبابُ وسائلُ تيسيرٍ لِمَن يأخذُ بها، ويعالجُ المطلوبَ وفقَها

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ في المفعول باسم ﴿سَبَبًا﴾؛ لأنّه اللّفظُ الأشملُ استيعابًا لكلِّ وسيلةٍ يحتاجُها القائدُ، في سبيل تحقيقِ فتوحاتِه، مِنَ العلم، والمالِ، والآلاتِ، والقوّةِ، والعَتادِ، وغيرِها، فقد يسَّر اللّه تعالى لذي القرنيْن ما لم يُتِح لمَلِكٍ غيرِه، ممّا عبَّرَ عنه ابنُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 538.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 743.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 48.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 702.

كثير بتمكّنِه من طُرُقِ فتحِ الأقاليم وكسْرِ شوكةِ الأعداء، ودحْرِ أهلِ الشّرك والفسادِ، بكلِّ مُتاحٍ منَ القوّة في العدّةِ والعَتاد، ذلك أنّه قد أوتيَ مِن كلِّ شيءٍ، ممّا يَحتاجُ إليه مثلُه، ممّا يكون سببًا لبلوغ المُرادِ[1]، و"في تنكير ﴿سَبَبًا﴾ ما يُغني عن وصْفِه، إذ إنَّ هذا التّنكيرَ يحملُ في كيانِه - مع هذا الأسلوبِ الّذي عليه النَّظمُ القرآنيُّ - تنويهًا به، ورَفعًا لقدرِه، واستعلاءً بمكانتِه بين الأسباب المُتداخلةِ معه في الوصول إلى الغاية المتّجَه إليها"[2]، وفي هذا التّنكير أيضًا غُنيةٌ عنِ التّعبير بالجمعِ، واكتفاءٌ بالعموم السّابقِ ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَأَتۡبَعَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ "فصيحةٌ، والتّقديرُ: (فأراد بلوغَ المغرب فاتَّبع سَبَبًا يوصلُه إليه)"[3]؛ فالفاءُ بذلك عنصرُ إيجازٍ بليغٍ؛ تَطوي جملةً كاملةً، وتدلُّ عليها.

سرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿فَأَتۡبَعَ﴾:

الأخذُ بأسبابِ الله تعالى بكلّ دقّةٍ سببٌ للفوزِ والفلاحِ

في التّعبير بمادّة الاتّباعِ تأكيدٌ على أنّ ذا القرنَيْن قد أخذَ بالأسباب الّتي منحَه اللّه تعالى إيّاها بكلِّ دقّةٍ وإحكام، وأنّه لم يَصدرْ في شيءٍ من فتوحاتِه عن غير تقديرٍ لكلِّ خطوةٍ يَخطوها، بل "اتّبع طريقًا وأسلوبًا، مِن شأنه إنجاحُ غَزْوِه للأقطار الغربيّةِ، وقد أشارتِ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، إلى أنّ معاليَ الأمور لا تُنالُ إلّا باستعمال الأسبابِ الموصِّلةِ إليها، وأنّ المَجْدَ لا ينالُه القاعدون الخاملون"[4]، لقدِ اتّسم ذو القرنَيْن بالحزم والصّرامة، في الانتفاع بما آتاه اللّه منَ الأسباب، حيث خالفَ عمومَ مَن لا يَنتفعُ بها، فاختطّ لنفسه منهجًا موسومًا بالجدِّ والعزم، منوطًا بالهمَّةِ العاليةِ، والإرادةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 190.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 703.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 352.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 918.

الفارعةِ، وبذلك مكّنَه اللّه من بسط سلطانِه، والجولانِ في أصقاع الأرض، فاشتهر أمرُه في كلّ زمان، وانتشر ذِكْرُه في كلّ مكان[1].

دلالةُ تنوّعِ القراءاتِ في ﴿فَأَتْبَعَ﴾:

قُرئَ الفعلُ ﴿فَأَتْبَعَ﴾ على وجهَيْن: الأوّل ﴿فَٱتَّبَعَ﴾ بهمزة وصل وبشدِّ التّاء على وزن (افْتَعَل)، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب، والثّاني بهمزة قطع وسكون التاء على وزن (أَفْعَلَ)، وهي قراءة الكوفيين وابن عامر[2]، فأمّا ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بقطع الألف فهي للمُجِدّ المُسرِع الحثيث الطّلب، ومعناه: لَحِق، كقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175][3]، وأمّا ﴿فَٱتَّبَعَ﴾ فإنّما يتضمّنُ معنى الاقتفاء، دون قرائن الجدّ والإسراع والحثّ[4].

واتّبعَ الغريبَ - بالوصل - معناه: اتّبع الأثر، وإن لم يلحق، وبالقطع معناه: أدرك، تقول العرب: اتَّبعتَه إذا أتْبعتَه، الأوّل بالوصل[5].

ويظهر التفريق عند الاستقراء والنظر في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾ [الصّافات: 10]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: 90]، [طه: 78]، وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175][6].

مَنِ استفادَ مِنَ الأسبابِ الفائقةِ؛ تحقّقت له الأمجادُ السّامقةُ

بلاغةُ التَّكرارِ في قوله: ﴿سَبَبًا﴾:

تَكرارُ النّظم الكريمِ لفظَ ﴿سَبَبًا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، بعد تقدُّم ذكرِه في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، وكلاهما نكرةٌ يدلُّ على أنّهما مختلفان؛ إذِ الثّاني قريبُ الصّراحةِ في إرادة الطّريقِ الموصّلِ إلى مغرب الشّمس، بينما الأوّلُ يدلُّ على وسائلِ التّمكين التي منحَها اللّه تعالى ذا القرنَيْن، و"لمّا

الأخذ بالأسباب وتعليقُ النّتائج بمانحِها، يحقّقُ خيرَ النّعم ودوامَها

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص: 126.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 314.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 164.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 538.
(5) الكرماني، غرائب التفسير: 1/ 677.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 538.

أريدَ بـ ﴿سَبَبًا﴾ الثاني معنًى غير ما أُريد بالأوّل حسُن إظهارُ اسمِه؛ تنبيهًا على اختلاف المعنيَيْن؛ أيْ: فاتَّبع طريقًا للسَّير، وكان سيرُه للغزو كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التلاوة والإخبار:

التَّـلاوةُ تعني التَّـتـابـعَ، والقراءةُ بعِبرةٍ وتذكيرٍ، والخبرُ هـو مـطـلـقُ الإعـلامِ دون انتقاءٍ

التِّلاوةُ تفيدُ التّتابع والقراءة، بما يُحقِّقُ الاتِّعاظ والاعتبار، قال ابنُ عاشور: جُعِل خبرُ ذي القرنين تِلاوةً وذِكرًا، للإشارةِ إلى أنّ المُهمّ من أخبارِه، ما فيه تذكيرٌ، وما يصلُحُ لأن يكون تِلاوةً، حسب شأنِ القُرآنِ، فإنّهُ يُتلى لأجلِ الذِّكرِ، ولا يُساقُ مساق القصصِ[2].

وأمّا الخُبرُ؛ فهو العلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخبر، وخبرتُهُ خُبرًا وخِبرةً، وأخبرتُ: أعلمتُ بما حصل لي من الخبرِ[3].

وبهذا يظهرُ الفرقُ بين الخبر والتِّلاوةِ، فالإعلامُ بالخبر، لا يقتضي الانتقاء والتّمحيص الّذي يفيدُه لفظُ التِّلاوة، فتكونُ التِّلاوةُ بالخبرِ المهمِّ الّذي يشتملُ على التّذكيرِ والاعتبارِ.

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ الإيصالُ إلـى المستفيدِ، والإعطاءُ الإنالةُ باليد

الإيتاءُ: "آتى يُؤاتي إيتاءً وآتاهُ إيتاءً؛ أيْ: أَعطاه ... وآتاه الشَّيءَ؛ أيْ: أَعطاه إيّاه، وفي التَّنزيلِ العزيز: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: 23]، أراد وأوتيَتْ من كلِّ شيءٍ شيئًا"[4]، فـ"الإيتاءُ الإعطاءُ، تقولُ آتى يُؤتي إيتاءً"[5].

الإعطاءُ: "الإعطاء إنالةٌ باليَدِ"[6]، "واستعطَى وتعطى: سألَ العَطاءَ، ورجلٌ مِعطاءٌ: كثيرُ الإعطاء، وامرأةٌ مِعطاءٌ، ومِفعالٌ يَستوي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 23.
(3) الرّاغب، المفردات: (خبر).
(4) ابن منظور، لسان العرب (أتى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة (أتى).
(6) ابن منظور، لسان العرب (عطو.

فيه المذكّرُ والمؤنث"[1]، قال الفاضل النّيسابوريّ: في الإعطاء دليلُ التّملّك دون الإيتاء[2]، والإيتاءُ: أقوَى مِنَ الإعطاء، إذ لا مُطاوع له، والإعطاء: فيما يُنتقل منه بعد قضاء الحاجة منه[3]، والإعطاء هو اتِّصالُ الشَّيء إلى الآخِذ له، ألا ترى أنَّك تُعْطي زيدًا المال ليَرُدّهُ إلى عَمرو، وتُعطيه ليتّجر لك به...، وقد كثر استِعمالُ الإعطاء حَتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمليك، فيُقال: أعطاهُ مالًا إذا ملَّكه إيّاه[4].

وقيل: الإيتاءُ هو الإعطاء[5]؛ لكنَّ الإيتاءَ يعني الإعطاءَ وزيادة، وهي: توصيلُ المُعطَى إلى المُعطَى له؛ وتمليكُه إيّاه، وثباتُه عنده، وعدمُ انتقاله عنه؛ والإيتاءُ أصلُه الإحضارُ[6].

السّببُ والوسيلةُ:

السّببُ الأداةُ الموصّلةُ، والوسيلةُ القُرْبى

"السَّببُ: الحَبلُ، والسَّببُ: كُلُّ ما تَسبَّبْتَ به من رَحم أو يدٍ أو دَينٍ، وكلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلّا سَبَبَ النَّبيّ صلَّى اللّٰه عليه وآله وسَلَّم ونَسَبَه، والإسلامُ أقوى سَبَبٍ ونَسَبٍ؛ لأنَّ المُسلمَ إذا تَقَرَّبَ إلى أخيه المُسلِم، ليس بينهما نَسَبٌ"[7]، و"الوَسيلةُ: ما يُتقرَّبُ به إلى الغير، والجَمعُ الوُسُلُ والوَسائِلُ، والتَّوْسيلُ والتَّوَسُّلُ واحِدٌ، وفي حَديثِ الأذان: "اللّهمَّ آتِ مُحَمَّدًا الوَسيلَةَ"[8]؛ وهي في الأَصل ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشَّيءِ، ويُتَقرَّبُ به، والمُرادُ به في الحَديث: القُرْبُ مِنَ اللّٰه تعالى، وقيلَ: هي الشّفاعةُ يَوْمَ القيامَةِ، وقيلَ: هي مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنازِل الجَنَّةِ"[9].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح (عطو).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(4) العسكريّ، معجم الفروق، ص: 167.
(5) البَندنيجيّ، التقفية في اللغة، باب الألف المدودة، ص: 75.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/ 194.
(7) الخليل، العين (سبب).
(8) أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: (615).
(9) ابن منظور، لسان العرب (وسل).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

قصّةُ ذي القرنَيْن سياقٌ تتلاحقُ فيه الأحداثُ في مشهدٍ مُتماسكٍ بديعٍ

مناسبةُ هذه الآياتِ الكريماتِ لما قبْلَها أنّها بيانٌ لأولَى غزوات ذي القرنيْن، في سبيل اللّه تعالى بعد أن بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ، أنّ اللّه تعالى قد مكّن له الأسبابَ الموصّلةَ إلى تحقيقِ هدفِه، بما يسّرَ له منَ الأسبابِ، وما أعْطاه مِن مُكْنةٍ على الغِلابِ، فأخبر تعالى أنّه مَكّن له في الأرض بالمُلك والسّلطانِ، وأعطاه من كلّ شيءٍ يُعينُه على فتوحاتِه في الأرض، وقد بلغَ المشارقَ والمغاربَ لنشر العدلِ الغامرِ، وبذلِ الخيرِ الآسرِ، واستثمارِ الفُرصِ المُتاحةِ؛ لبثِّ منهجِ اللّه، واغتنامِ ما أباحَه اللّه وأعطاه جلَّ في عُلاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡرِبَ﴾: (غرب) أصل يدلّ على البُعْدِ، فالغُربة: البُعْدُ عن الوطنِ، يُقالُ: غَرَبَتِ الدّارُ، أي: ابتعدت، ومنه غُروبُ الشّمسِ، كَأَنَّهُ بُعْدُها عن وجه الأرضِ، وشأوٌ مُغَرَّبٌ، أَيْ بَعيدٌ، ويُقالُ: اغْرُبْ عَنّي أي تباعَدْ[1]، والمَغرِبُ في الأَصل: مَوْضِعُ الغُروبِ ثُمَّ استُعْمِل في المصدرِ والزَّمانِ، وقياسُه الفتحُ، ولكن استُعمِل بالكسرِ كالمشرِق والمَسجِد[2]، والمُرادُ به في الآية: مكانُ مَغْرِبِ الشّمسِ من حيثُ يلوحُ الغُروبُ.

2) ﴿حَمِئَةٖ﴾: الحَمأَةُ والحَمَأُ: الطّينُ الأَسود المُنتن، ويُسَمَّى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غرب).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (غرب).

الطين الذي نبث من النّهر: الحَمأَة[1]، يُقال حَمِئَ الماءُ حَمأً وحَمَأً خالَطَتْهُ الحَمأَةُ فكَدِرَ وتَغَيرت رائِحَتُهُ[2]، وكذلك: حَمِئَتِ الركيَّةُ فهيَ تَحْمأُ حَمَأً إذا صارَت ذات حَمأٍ، وأَحْمَأْتُها أَنا إحْماءً إذا نقيتُها من حَمَأتِها، وعينٌ حمئة: ذات حَمأَة[3]، والمقصودُ بالحمأ في الآية: الطّينُ إذا اشتدَّ سوادُه وكُرِهَتْ رائحتُهُ.

3) ﴿تُعَذِّبَ﴾: (عذب) أصل يدلّ على العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذاباً؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِن الرُّجوعِ للْجَريمَةِ[4]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بعَذْبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[5]، والعَذابُ أيضًا: الإيلام والإيجاع الشَّديدِ، وقد قيل: إنَّ أَصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أَعْذَبَ إذا أَزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ فصيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بحَذْفِ الهَمزَةِ[6]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

4) ﴿حُسْنًا﴾: (حسن): أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[7]، والحَسَنُ: نعتٌ لما حَسُنَ، تَقول: حَسُنَ الشَّيءُ حُسْنًا[8]، والإحْسانُ: الإتْيانُ بما هو حَسَنٌ، يُقال: أَحْسَنَ فُلانٌ، يُحْسِنُ، إحساناً، أي: أَتَى بشَيْءٍ حَسَنٍ، والحَسَنُ أيضًا: ما كانَ مَحبوبًا عندَ المُعامَلِ به ولَم يَكُنْ لازِمًا لفاعِلِه، وأَعلاهُ ما كانَ في جانِبِ اللّه تعالى، ودونَ ذَلِكَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللّه بالنَّوافِلِ[9]، والمقصودُ بالحُسْنِ في الآية: مبالغةٌ في الإحسانِ، وفيها تلقينٌ لاختيارِ أَحدِ الأمرينِ المُخيَّرِ بينهما[10].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

معنى الآياتِ الكريماتِ أنّ ذا القرنَيْن سار بجيشِه حتّى بلغ مغربَ الشّمس، وأنّه وجدَ الشّمسَ حين تغيبُ كأنّها تغيبُ في عينٍ مسودّةٍ، بحيث تغربُ في البحر في عينٍ من طينٍ

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حمأ - حمو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حمو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمأ).
(4) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/ 10.
(5) الراغب، المفردات: (عذب).
(6) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 258.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(8) الخليل، العين: (حسن).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 255.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 27.

أولياءُ الله ﷻ لهم عندَه كراماتٌ ظاهرةٌ، وعطاءاتٌ باهرةٌ

أسودَ، وهذا توصيفٌ لمدَى بلوغ ذي القرنيْن، بما يُجلّي المكانَ بوضوحٍ ونصاعةٍ تجعلُ قرائنَ التّحديد للجهةِ المقصودةِ مُبرزةً لها بدقّةٍ، كما وجدَ في جهة مغيبِ الشّمس قومًا كافرين، ففوّض الله تعالى إليه الحُكمَ فيهم: إمّا بالعقوبة لَمن يصرُّ على كفرِه، ولا يقبلُ الإيمانَ بالله تعالى، وإمّا أن يَرفقَ بهم، ويُحسنَ إليهم، "بأن يأمرَ بتعليمِهم طريقَ الهدى والرّشاد، ويُبصرَّهم بأحكام الشّرائعِ والقوانين"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآيةِ الكريمةِ:

القصصُ القرآنيُّ سياقٌ مُتماسكٌ، كأنّه بنيانٌ مرصوصٌ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيّةٌ استئنافيّةٌ، وسرُّ الاستئناف في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ عمّا قبله، أنّها جاءت استئنافًا بيانيًّا، إذ إنّ إتّباعَ سببٍ مبهم، يثيرُ في النّفس سؤالًا يقول: وإلى أين توجّه ووصلَ؟ فجاءتِ الإفادةُ بأنّه توجّه نحوَ الغروب، ورأى هناك مغربَ الشّمس، و"كأنّه أراد وطلبَ أن يَعرف أين تغربُ؟ حيث قال: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾"(2).

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها في الآيةِ الكريمةِ:

القائدُ الفذُّ يأخذُ منَ البلدانِ بالنّواصي حتّى يبلغَ الأقاصيَ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، "حرفُ غايةٍ وجرٍّ"(3)، يُصرّحُ بمبتدأ انتهاءِ الغايةِ التي أمَّها ذو القرنيْن، وأنّها في هذا الموضع، وأنّه "ما زال يسيرُ في البلاد ويفتحُها، حتّى بلغ أقصَى عمارةِ الأرض، ورأى هناك ماءً عظيمًا كدرًا"(4)، وذلك "ناحيةَ المغرب، وهو مغربُ الأرض، وأمّا الوصولُ إلى مغرب الشّمس منَ السّماء فمتعذّر"(5)، ولعلّه كان يريدُ أن ينتهيَ إلى آخرِ ما يمكنُ لأحدٍ

---

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2226.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 205.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 22.

(4) الكرمانيّ، لباب التفاسير، ص: 1294.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 191.

الوصولُ إليه، "بحيث لا يتمكّنُ أحدٌ من مجاوزتِه، ووقفَ على حافّة البحر المحيطِ الغربيِّ"(1). فالتّعبيرُ هنا بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ يوحي بأنّه لم يوقفْه شيءٌ، حتّى بلغ أقاصيَ الأرض، وذلك مظهرٌ من مظاهر التّمكين الّتي هيّأ اللّه لذي القرنيْن أسبابَها، ومعلومٌ أنّ مَن أيّدتْه قدرةُ اللّه العليا، فإنّه واصلٌ لا محالةَ للمُبتَغَى، وإن طالت به المسافةُ، وشقَّ عليه الوصولُ إلى المأمولِ، ذلك أنّ اللّه سوف يُذلّلُ له الصّعابَ، ويَطوي له الأرضَ طيًّا، حتّى يبلغَ منها ما لم يبلغْه غيرُه، بمعجزةِ اللّه الخارقةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

آثرَ النّظمُ الكريمُ تقييدَ بلوغِ ذي القرنيْن مغربَ الشّمس، بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن)، مراعاةً لمعنى القطعِ ببلوغِه ذلك المكانَ المترامِيَ، من كوكب الأرضِ، ممّا يؤكّدُ قوّةَ عزيمةِ ذي القرنيْن، وحرصَه على إكمالِ مهمّةِ الدّعوةِ إلى اللّه تعالى إلى أقاصي الأرضِ.

مــن صفـاتِ القـائدِ الموفَّقِ إكـمـالُ المهـامّ بحسَب الأسبابِ المتاحةِ

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾ في جملة الشّرط: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ يُقرِّرُ تَحقُّقَ هذا الشّرط، وأنّ ذا القرنيْن قد جدَّ في الأمر، وتجاسَرَ عليه، حتَّى انتهى فِعْلًا إلى هذه النّقطة منَ الأرض، وهي الّتي لا مطمَحَ في تجاوُزِها لأحدٍ، حتّى ذلك الزّمانِ، وأنّه قد "﴿بَلَغَ﴾ موضعًا منَ المغرب، لم يبق بعدَه شيءٌ منَ العُمران"(2)، وممّا يدعَمُ هذه الدّلالةَ ويؤازرُها إيثارُ التّقييد بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾، وقد آثرَ النّظمُ مادّةَ البلوغ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ دون غيرِها، ممّا يقاربُها في الدّلالة ليُؤكّد غائيَّةَ الوِجهة، وأنّ بلوغَ هذه النّقطة منَ الأرض كانت منتهى غايةِ بلوغِه، أمّا مادّةُ الوصول - مثلًا - فلا تُعطي هذه الدّلالةَ المقصودةَ لسياق الأحداثِ.

الدّاعيةُ المتُفاني يـطـمـحُ إلى إيصال دعوتِه إلى أقصَى غايةٍ تُتاحُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 242.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 176.

سرُّ التّقييدِ بالظّرفِ مضافًا إلى الشّمس:

المرادُ بمغرب الشّمس نهايةُ العُمران المُبَصرِ بالعيانِ

قولُه تعالى: ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، هو "مكانُ مغربِ الشّمس، من حيث يَلوحُ الغُروب من جهاتِ المعمورِ من طريق غزوته أو مملكتِه، وذلك حيثُ يلوحُ أنّه لا أرضَ وراءَه، بحيث يبدو الأفقُ من جهةٍ مُستبحرةٍ، إذ ليس للشّمس مغربٌ حقيقيٌّ إلّا فيما يلوحُ للتّخيّل، والأشبهُ أن يكون ذو القرنَيْن قد بلغَ بحرَ الخَزَر، وهو بُحيرةُ قزوينَ؛ فإنّها غربَ بلادِ الصّين"[1]، فـ "المرادُ بمطلع الشّمس ومغربِها ابتداءُ العِمارة وانتهاؤها"[2]، لا مغربُها ومطلعُها حقيقةً.

سرُّ تعريفِ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ بـ(أل):

مَنْ علت هِمّتُه في الهدايةِ؛ بلغَ من مطمحِه أعظمَ غايةٍ

التّعريفُ في ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ للعهدِ الذّهنيّ، أي: ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ المعروفةُ المعهودةُ لديكم يا محمّد؛ فالذّكرُ الحكيمُ يوجّهُ أنظارَ الأمّة إلى مطمحِ أهلِ الهمم في الدّعوة إلى اللّه تعالى وفتحِ البلاد وهدايةِ العباد، والأخذِ بحُجَزِهم إلى اللّه تعالى.

سرُّ تقديمِ ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ على مطلعِها:

البدءُ بالأقربِ في الدّعوة رعايةٌ لحقِّ الجوارِ

لعلّ قصْدَ بلوغِ المغربِ ابتداءً؛ لأنّه أقربُ إليه، وقد أشار صاحبُ (زهرة التّفاسير) إلى أنّ اتّجاهَ ذي القرنَيْن في سيره إلى غرب بلادِه ابتداءً، بسببِ أنّها الأقاليمُ الّتي تُصاقبُه، ومعلومٌ أنّ الحاكمَ العادلَ يؤمِّن أرضَه من جيرانِه أوّلًا، ثمّ يتّجهُ إلى ما بعدَها شيئًا فشيئًا، حتّى يصلَ إلى أقصى ما تُتيحُه له إمكانياتُه وقوّتُه، وهو ما فعلَه، هذا الملكُ البصيرُ بأصول الدّعوةِ، ومتطلّباتِ الواقعِ، واستراتيجيّات الحروب[3]، وقيل: لمراعاةِ الحركةِ الشّمسيّة، وليس ذلك لكوْنِ جهة المغربِ، أفضلَ من جهة المشرقِ - كما زعمَه بعضُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 25.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 340.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4579.

المغاربة - فإنّه - كما قال السّيوطيّ: لا قطْعَ بتفضيل إحدى الجهتَين على الأخرى لتعارضِ الأدلّة"[1].

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾:

القائدُ الحصيفُ مَنْ يتفقَّدُ أحوالَ مَن حوْلَه وما حوْلَه

التّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾، مع إيثار مادّةِ الوُجدان يُلمحُ إلى وعيِ ذي القرنيْن، وتفقُّدِه أحوالَ جميعِ مَن حولَه وما حولَه، ومعنى ﴿وَجَدَهَا﴾؛ أي: "فيما يُحسّ بحاسّة لمسه، كما أحسّه بحاسّة بصره، من حيث إنّه متّصلٌ بما وصلَ إليه بيده، لا حائلَ بينه وبينه"[2]، و"هذا الّذي رآه أمرٌ ناشئٌ في وُجدانه وخيالِه، وليس من الحقائق الواقعة، فما أجملَ تعبيرَ القرآن بقوله: ﴿وَجَدَهَا﴾! وما أحْراه بالإجلالِ والاعتبارِ!"[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَغۡرُبُ﴾:

تجدّدُ غروبِ الشّمسِ آيةٌ من آياتِ الله العُظْمَى

التّعبيرُ عن غروبِ الشّمس بصيغةِ المضارعة، في قوله تعالى: ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾، مطابقٌ تمامَ المُطابَقةِ لحركة الشّمسِ المتجدِّدةِ، يومًا بعد يوم، حيث يتجدّدُ طلوعُها كلَّ صباح، ويتجدّدُ غروبُها كلَّ مساء، وقد رأى ذو القرنيْن تلك الآيةَ الرّبانيّةَ في مُلكِه، وتبصّرَها وتدبّرَها، بقرينة الفعلِ ﴿وَجَدَهَا﴾.

بلاغةُ الجناسِ بين ﴿مَغۡرِبَ﴾ و﴿تَغۡرُبُ﴾:

الغروبُ يُؤذنُ بالشّروقِ بقانون اطّرادِ دورانِ الأرض

بين كلمتَيْ: ﴿مَغۡرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، و﴿تَغۡرُبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ فاللّفظتان مختلفتان في الدّلالةِ مع أنّهما تعودان إلى جَذرٍ لغويٍّ واحدٍ، وذلك يُدخلهما تحت عُنصر إثراء المعاني تحت ظل واحد، وهذا هو الّذي استنبطَه إمامُ البلاغيّين، حيث

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 352.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 130.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 919.

يقول: "كأنّه يخدعُك عنِ الفائدة وقد أعطاها، ويوهمُك كأنّه لم يَزِدْك، وقد أحسنَ الزّيادةَ ووفّاها"[1].

دلالةُ حرفِ الجرّ ﴿فِي﴾ في الآية:

احتواءُ العينِ الحمئةِ للشّمسِ حالَ غروبِها

يفيدُ حرفُ ﴿فِي﴾ في جملةِ ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ الظّرفيّةَ، فهي فعلًا نزلتْ وغابتْ وغربتْ في هذه العينِ، فيما يرى الرّائي، وهكذا كلُّ راءٍ يرى الشّمسَ تغرُبُ فيما ينتهي إليه بصرُه لحظةَ نزولِها، فعبّرَ بحرف الوعاءِ، أو" أنّ ﴿فِي﴾ هنا بمنزلة (عند)، كأنّها مُسامتةٌ[2] منَ الأرض فيما يرى الرّائي لـ ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، وقال بعضُهم: قولُه: ﴿فِي عَيْنٍ﴾، إنّما المرادُ أنّ ذا القرنيْن كان فيها، أي هي آخرُ الأرض ... وظاهرُ هذه الأقوال تخيّلٌ"[3].

سرُّ التّعبير بـ﴿عَيْنٍ﴾ في السّياق:

الرّائي للبحرِ يظنُّ أنّ الشّمسَ تغربُ في الماءِ

وذلك عند قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، فيوردُ بعضُ المفسّرين أنّ وُجدانَ الشّمسِ في ناحيّة المغربِ تتراءى، وكأنّها تغربُ في الماء؛ لأنّ مطمحَ بصرِ الرّائي، معلّقٌ بالماء وحدَه، فيرى الشّمسَ، وكأنّها تغيبُ فيه، نظرًا لمحدوديّة الرّؤيةِ عندَ الإنسان، والّتي لا يُجاوزُ فيها الرّائي الأفقَ المندرجَ في مجال الإبصارِ أمامَه، فيُدركُ ما يُتاحُ لبصره، ولذلك فإنّ واقعَ المرئيّاتِ منَ الموجودات، أنّ رؤيتَها تتحدّدُ بما يكونُ في مرأى العين، بحيث يرى راكبُ البحر غروبَ الشّمس في الماءِ، ومن في الصّحراءِ أوِ الجبالِ أوِ البيوتاتِ يراها كأنّها تغيبُ في تلك المرئياتِ، والواقعُ العلميُّ المحسوسُ خلافُ ذلك[4]، وذو القرنيْن بلغ ساحلَ المحيط فوجد الشّمسَ كأنّها تغربُ في عينٍ حمئةٍ، ولم يكن في مجال بصرِه إلّا الماءُ المنبسطُ، فقال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾،

(1) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 8.
(2) "سامَتَهُ مسامتة بمعنى قابلَه ووازاه"، الفيّومي، المصباح المنير: 1/ 287.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 539.
(4) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1297.

ولم يَقُلْ: كانت تغربُ[1]؛ لأنّ وصفَ غروبِها في العينِ الحمئةِ مُتعلِّقٌ ببصرِه لا بحقيقةِ غروبِ الشّمس، وفقَ قانونِها الفَلكيِّ المألوفِ.

سرُّ وصْفِ العين بـ﴿حَمِئَةٖ﴾:

الجانبُ الغربيُّ يحيطُ به البحرُ، وهو موضعٌ شديدُ الحرارة

في مفردةِ ﴿حَمِئَةٖ﴾ مطابقةٌ دقيقةٌ لتصوُّرِ ذي القرنيْن تلكَ البُقعةَ منَ البحر حينئذٍ؛ أي: إنّ منطقةَ مغيبِ الشّمس، وبُقعتَها المحيطةَ بقُرْصِها حينَ الغروبِ، فـ "كأنّها تغربُ في عينٍ وهْدةٍ مُظلمةٍ، وإن لم تكن كذلك في الحقيقةِ"[2]، وفي وصفِ ﴿عَيۡنٍ﴾ بـ ﴿حَمِئَةٖ﴾ "إشارةٌ إلى أنّ الجانبَ الغربيَّ منَ الأرض قد أحاطَ به البحرُ، وهو موضعٌ شديدُ السُّخونةِ"[3]، ولعلّ ذا القرنيْن قد بلغ بحرَ الخَزَر، وهو بحيرةُ قزوينَ، وهي واقعةٌ غرب بلادِ الصّين[4].

سرُّ تَكرارِ الفعل (وَجَد):

القائدُ الجادُّ مَن يضبطُ الأمورَ على وفقِ شرعِ العزيزِ الغفورِ

تَكرارُ الفعل (وَجَد): في جملة: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾، يقرّرُ يقَظةَ ذي القرنيْن إلى تفاصيلِ ما يجري في تلك البقاعِ من أحداثٍ، وذلك يدعمُ صدْقَه في ضبط الأمور، على وفقِ شرع اللّه تعالى، الّذي كان يحكمُ به، ويعملُ على إقرارِه هناك.

دلالةُ عوْدِ الضَّميرِ في ﴿عِندَهَا﴾:

تحديدُ الوصولِ لأقصى المكانِ، بيانٌ للجهدِ المبذولِ في ذلك الزّمانِ

"الضّميرُ في قوله ﴿عِندَهَا﴾ ... فيه قولان: الأوّل: أنّه عائدٌ إلى ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ ويكونُ التّأنيثُ للشّمس؛ لأنّ الإنسانَ لمّا تخيّل أنّ الشّمسَ تغربُ هناك، كان سكانُ هذا الموضعِ كأنّهم سكنوا بالقُربِ منَ الشّمس، والقولُ الثّاني: أن يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى العينِ الحاميةِ"[5]، "أي: ووجدَ ذو القرنيْن في طرفِ الأرض من

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 291.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.
(4) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 16/ 25.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.

ناحية المغربِ قومًا عند العين الّتي تخيّلَها، وتخيّلَ أَنّ الشّمسَ تغربُ فيها"[1].

الغرضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗاۖ﴾:

المقصودُ بـ ﴿قَوۡمٗاۖ﴾؛ أي: "أُمَّةً مِنَ الأُمَم، ذَكَروا أَنَّها كانَت أُمَّةً عَظيمَةً من بني آدمَ"[2]، "قال ابنُ جريجٍ: مدينةٌ لها اثنا عشرَ ألفَ بابٍ، يقالُ إنّها الجاسوسُ واسمُها بالسّريانية (حريحسا) سكَنَها قومٌ من نسل ثمود"[3]، أو أنّ "تنكيرَ ﴿قَوۡمٗاۖ﴾ يُؤذِنُ بأنَّهم أمّةٌ غيرُ معروفةٍ ولا مألوفةٍ حالةُ عقائدِهم وسيرتِهم"[4]، وقد يترجمُ تنكيرُ ﴿قَوۡمٗاۖ﴾ ضحالةَ حالِهم، وأنّهم "عراةٌ مِنَ الثّياب، لباسُهم جلودُ الصّيد وطعامُهم ما لَفَظ البحرُ"[5].

التّنكيرُ يتناغمُ مع التّركيبِ المُنيفِ لإبرازِ الغرضِ اللّطيفِ

دلالةُ الاستئناف بقولِه: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

"جملةُ ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لما أشعرَ به تنكيرُ ﴿قَوۡمٗاۖ﴾، من إثارة سؤالٍ عن حالهم وعمّا لاقاه بهم ذو القرنيْن"[6]، و"هذا القولُ له إن كان نبيًّا فهو وحيٌ، وإن كان وليًّا فهو إلهامٌ"[7]، فـ "أوصى اللّه تعالى إليه، أو ألهمَه اللّه تعالى"[8] إيّاه، "واستدلَّ بعضُ النّاس على أنّ ذا القرنيْن نبيٌّ، بقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾"[9].

القولُ منَ الله لذي القرنيْن إمّا وحيٌ أو إلهامٌ

دلالةُ الإسنادِ إلى ضمير العظمةِ في ﴿قُلۡنَا﴾:

ضميرُ العظمةِ المتَّصلُ في جملة ﴿قُلۡنَا﴾، يرجعُ إلى ضمير العظمةِ المنفصلِ في مطلعِ الآية السّابقة: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾،

خطابُ الله عبادَه بضمير الجمع تأكيدٌ لعظمةِ الخطابِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 919.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 193.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 176.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 26.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 317.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 26.
(7) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 5/ 532.
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 360.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 539.

كما يرجعُ إليه ضميرُ العظمةِ في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، وهو اللّه ﷻ إذ يقُصُّ على رسوله سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولأنّه العظيمُ - جلَّ، وتقدّست أسماؤه - أُسنِدتِ الأفعالُ ﴿قُلْنَا﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ إلى ضمير العظمَةِ المستحقِّ له دونَ سواه.

الغرضُ منَ التّعبيرِ بالنّداءِ في قوله: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾:

من مفاخرِ العبدِ أن يناديَه الله تعالى باسْمِه أو وصْفِه

نداءُ ذي القرنَيْن، في جملة: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، يحملُ شاراتِ التّشريفِ وأماراتِ التّكريم؛ لأنّه أوّلًا: صادرٌ منَ الملك الأعلى ﷻ، وثانيًا: لأنّه جاء بأداة نداءِ البعيدِ (يا) برغم قُرْبِه من ربّه ﷻ الّذي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، كشفًا عن بُعد مكانتِه عند ربّه ﷻ ومدى حفاوةِ ربّه تعالى به.

دلالة النداء باللقب في ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾:

الإشادةُ بالصّفةِ بيانٌ لتميّزِها ورفعةِ قدرِ المتّصفِ بها

المرادُ بنداء ذي القرنَيْن: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ الإشادةُ بتلك الصِّفَةِ من صفاتِه، الّتي تمدحُ جهادَه واجتهادَه في الطّاعة: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، ولم يُنادِه باسْمه الصّريح، لفواتِ تلك الإشادةِ حينئذٍ، ومعلومٌ أنّ نداءَ الشّخص بصفةٍ من صفاتِه الطّيّبةِ يزيدُه سعادةً، ويُضفي عليه البهاءَ.

دلالةُ التّخيير في قوله: ﴿إِمَّآ﴾ و﴿وَإِمَّآ﴾:

الإلماحُ إلى قدرة ذي القرنيْن على اختيارِ أصلحِ الخيارَيْن

معنى ﴿إِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ تفيدُ التّخييرَ، فقد "خُيِّرَ بين أن يُعذّبَهم بالقتل، إنْ أصرّوا على أمرهم، وبيْن أن يتّخذَ فيهم حسنًا بإكرامِهم، وتعليم الشّرائع إن آمنوا، أوِ التّعذيبِ بالقتل واتّخاذِ الحُسن بالأسر؛ لأنّه بالنّظر إلى القتلِ إحسانٌ"(1)، ودلالةُ التّخيير كاشفةٌ عن قدرته على اختيارِ ما يحقّقُ المصلحةَ، لذا جاء الاختيارُ بعده دالًّا على حكمتِه وعلوِّ ديانتِه.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 317.

دلالةُ استعمالِ ﴿أَن﴾ المصدريّةِ في السّياق:

إظهارُ ما يتّسمُ به ذو القرنيْن من كفاءةٍ واقتدارٍ

تدلُّ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ على معنى المصدريّةِ؛ وفي ذلك "مبالغةٌ بجعل المصدرِ صفةً للأمر، والمرادُ دعوتُهم إلى الحقّ وتعليمُهم الشّرائعَ"[1]، والمصدريّةُ هنا تتآزرُ مع التّخييرِ المطلقِ، الّذي منحه اللّه تعالى ذا القرنيْن؛ بناءً على علمِه ﷻ منه قوَّةَ العقيدةِ وصفاءَها، ونورَ العقل وكمالَه، وعُلوَّ الهمّة وتمامَها.

بلاغةُ المَجازِ المُرسلِ في ﴿تُعَذِّبَ﴾:

الأمورُ بالعواقبِ، والتّعبيرُ في التّخييرِ بالمسبَّبِ عنِ السّببِ

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه المسبَّبيَّةُ؛ حيث ذُكر المسبَّبُ مباشرةً - وهو هنا التّعذيبُ - عن سببِه - وهو رفْضُ الإيمان -، والمعنى: إمّا أن تجازي الكافر بالعذاب، والمحسن بالإحسان، فعبّرَ في التّخيير بالمسبَّبِ عنِ السّببِ[2]، ووراء ذلك تلويحٌ بالعواقبِ لأنّها الأبقى؛ إذِ الأمورُ بنتائجِها، كما قالوا: "مَنْ طلب الرّاحةَ ما يُعقِبُ تعبًا"[3]، فالعواقِبُ ثمارٌ تدومُ، بخلاف الأعمالِ الّتي هي أسبابُها.

سرُّ الفعل ﴿تُعَذِّبَ﴾ مُسْنَدًا إلى ذي القرنيْن:

من تكريم اللّه تعالى للعبدِ تفويضُه في بعضِ اختصاصاته

العذابُ المقصودُ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ "يعني: أن تَقتُلَ"[4]، "يريد: إمّا أن تقتلَهم إنْ أبَوا ما تدعوهم إليه، وإمّا أنْ تأسرَهم، فتعلِّمَهم الهديَ، وتبصِّرَهم الرّشادَ، قال قتادة: قضَى فيهم بقضاء اللّه تعالى وكان عالمًا بالسّياسةِ"[5]، على أنّ العذابَ - بمعناه المطلقِ - منِ اختصاصاتِ الخالقِ العظيمِ ﷻ، فتفويضُه ﷻ ذا القرنيْن فيه من عظيم تكريمِه ﷻ لهذا العبدِ المبارَكِ.

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 364.
(2) التّوحيديّ، البحر المحيط: 7/ 222.
(3) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 28.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 360.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 165.

لطيفةُ تقديمِ خيارِ التّعذيبِ على الإحسان:

صُدّر التّخييرُ لذي القرنيْن، بتقديم خيارِ "التّعذيب؛ لأنّه الّذي يَستحقّونَه في الحال لكفرِهم"(1)، كذلك فيه تهديدٌ لهم؛ لعلّهم يَحذرون العقابَ الّذي قد يصلُ إلى القتل، و"دلّ ذلك أيضًا على أنّ أحوالَهم، كانت في فساد من كفرٍ، وفسادِ عملٍ"(2)، والكفرُ أكبرُ ذنبٍ يَحملُه الإنسانُ على كاهلِه في حياتِه؛ لأنّه مواجهةُ المُنعم بأعظم العطاءِ، بنُكرانِ الجميل، والتّأبّي على عبادته، والانصياعِ لأوامره وهدايته، ولهذا وجدنا القرآنَ الكريمَ يُشدّدُ في التّشنيع على الكفَرةِ، ويبشّعُ اعتقادَهم وأفعالَهم كلّما ذُكروا في السّياقِ المُحكَم.

مِنَ النّاس مَن يُجْدي معه التّرهيبُ أبلغَ ممّا يُجدي معه التّرغيبُ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَتَّخِذَ﴾:

في إيثار صيغةِ المضارعة ﴿تَتَّخِذَ﴾ مناغاةٌ لإيثار صيغةِ الاسم ﴿حُسۡنٗا﴾؛ ذلك أنّ في هذه المضارعة، دعوةً لذي القرنيْن، أن يُجدِّد فيهم حُسنًا بعد حسن، وألّا يَمَلَّ مِن اعتمادِ منهجِ الرّفقِ الرّفيق بخلْقِ اللّه تعالى كلّما اقتضَى الأمرُ، ويَدْعمُ عطاءَ المضارعة اصطفاءُ مادّة ﴿تَتَّخِذَ﴾؛ إذِ الاتّخاذُ "أخذُ الشّيءِ لأمرٍ يستمرُّ فيه"(3).

أحسنُ الحسنِ ما كان تجديدًا بعدَ تجديدٍ

سِرُّ تقديمِ ﴿فِيهِمۡ﴾ على المفعولِ ﴿حُسۡنٗا﴾:

في تقديم القيْدِ ﴿فِيهِمۡ﴾، عنايةٌ بهم، ودعوةٌ إلى الرّفق في الدّعوة، والصّبرِ عليهم حتّى يبيّنَ لهمُ الحقَّ؛ فذلك أدْعى أن يتّبعوه، فليس من مبادئِ الدّين التّعجيلُ بالعقوبةِ، يقول تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النّساء: 147]، والضّميرُ في القيدِ بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِمۡ﴾ يعودُ إلى الفريق الّذي يُصرُّ على كفره، من أولئك القومِ الّذين فوَّضَ اللّه تعالى الحُكمَ فيهم إلى ذي القرنيْن.

من قيَمِ القرآنِ الكريمِ، الدّعوةُ إلى الرّفقِ في الدّعوة

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 355.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 26.

(3) العسكريّ، معجم الفروق، ص: 29.

سرُّ التّعبيرِ بجملة ﴿أَن تَتَّخِذَ﴾ مع المصدرِ ﴿حُسۡنٗا﴾:

التّعبيرُ بالمصدرِ يَهدي للخيارِ الأحسنِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ صياغةَ ﴿أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ دونَ (أنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِم) - مثلًا - "مبالغةً في الإحسانِ إليهم؛ حتّى جعلَ كأنّه اتّخذ فيهم نفسَ الحُسن، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83]، وفي هذه المبالغةِ تلقينٌ لاختيارِ أحدِ الأمرين المخيَّرِ بينهما"[1]، وعبّرَ بالمصدر ﴿حُسۡنٗا﴾ دون الفعل (تُحْسِنُ)؛ لما هو معلومٌ، من إفادة الاسمِ الثّبوتَ والدّوامَ؛ فكأنّ هذا التّركيبَ: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ يُلمحُ إليه، بأنّ اتّخاذَ الحُسنِ أولى، ومن قيمِ الدّين الحقِّ: "ما كانَ الرِّفْقُ في شَيْءٍ إلّا زانَهُ"[2].

لطيفةُ تنكيرِ ﴿حُسۡنٗا﴾ ومعناها في السّياق:

تكريمُ المحسنِ ومعاقبةُ المُسيءِ متروكٌ للحاكمِ العادلِ

في تنكيرِ ﴿حُسۡنٗا﴾ تنبيهٌ إلى أنّ حجْمَ ما أُمِرَ أن يَتّخذَه فيهم منَ الحُسن متروكٌ إلى تقديرِه في آحادِهم؛ فالمؤمنون يَستأهلون ﴿حُسۡنٗا﴾ عظيمًا، وتنكيرُ ﴿حُسۡنٗا﴾ يفيدُه، ولا يمنعُ منه، والكافرون يترفّقُ بهم، غير أنّه لا يَغمُرهم بحُسنٍ غمرَه المؤمنين؛ فحسنُه فيهم بحسب أصولِ الدّعوةِ، فهو حسنٌ محدودٌ بحدودٍ، ومعنَى ﴿حُسۡنٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾، "أي: أمرًا ذا حُسْن على حذف المضافِ، أو على طريقةِ إطلاقِ المصدر على موصوفه مبالغةً، وذلك بالدّعوةِ إلى الإسلام والإرشادِ إلى الشّرائع"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَمِئَة والحامية:

الحمِئةُ الطّينُ المخصوصُ، والحارّةُ المُلتهبةُ

الحَمِئَة منَ الحَمَأ، وهو الطّينُ الأسودُ المُنْتِنُ، وفي التّنزيل: ﴿مِّنۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 26.
(2) ابن حنبل، مسند أحمد: 21/ 167، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، برقم (13531).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 242.

﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٦﴾ [الحجر: 26]"[1]، أمّا الحاميةَ فهي الحارّةُ، قال تعالى: ﴿فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ "أي: حارّةٍ، وقُرئ: ﴿حَمِئَةٍ﴾، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التّوبة: 35]"[2].

(1) الخليل، العين: (حمو).

(2) الرّاغب، المفردات: (حمى).

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الكهف: 87 - 89]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبلَها:

القائدُ الحكيمُ هو الّذي يَنظرُ في أمرِ النّاسِ ويُكافئُ كُلًّا بما يَستحقُّ

لمّا فوّضَ الله تعالى ذا القرنيْن في أمر هؤلاء القوم الكافرين، الّذين وجدَهم عند مغربِ الشّمس، توقّع منهم ذو القرنيْن أن يَصيروا إزاءَ دعوتِه فريقيْن: كافرًا ومؤمنًا؛ فتهيّأ لأنْ يتَّخذَ فيهم رأيًا حكيمًا وسَطًا سديدًا؛ مُعلنًا أنّه مَن غلبت عليه الشّقوةُ، وظلمَ نفسَه، وجاهرَ بالكفر والعصيانِ للخالق الدّيانِ؛ فسَيُنفّذُ فيه الحكمُ في الدّنيا، وفقَ ما تنصُّ عليه الشّريعةُ في ذلك العصر، وحين يرجعُ إلى ربِّه فيحاسبُه حسابًا عسيرًا، ويعذّبُه عذابًا شديدًا، وقد جاءت هذه الآياتُ الكريماتُ؛ لتُبيّنَه على التّفصيل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّكْرًا﴾: أصلُ (نكر) يدلُّ على خلافِ المعرفةِ الّتي يَسكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشّيءَ وأَنْكَرَهُ: لم يَقبلْه قلْبُه ولم يَعترفْ به لسانُهُ[1]، والنُّكْرُ: نعتٌ للأَمرِ الشَّديد[2]، وقد نَكُرَ الأمرُ بالضَّم، أي صَعُبَ واشتدَّ[3]، والنَّكراءُ: الأمرُ الصَّعبُ الشَّديدُ[4]، والنُّكْرُ في الآيةِ معناه: ما يُنكرُه الرَّأيُ من فظاعةِ كيفيَّتِه إنكارًا شديدًا[5].

2) ﴿يُسْرًا﴾: أصلُ الكلِمَة (يسر) وهو يَدُلُّ على انْفِتاحِ شَيْءٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (نكر).
(3) الجوهري، الصحاح: (نكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 335.

وخِفَّتِه، فاليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ والمَشَقَّة[1]، والتَّيسيرُ: التَّسْهيل، يُقال: يَسَّرَ الأَمرَ: إذا سَهَّلَهُ ولَم يُعَسِّرْهُ، سواء على نَفْسِه أم على غَيْرِه، وهو مَأْخوذٌ مِنَ اليُسْرِ، أي: السَّهل، ومَعناه: اللّينُ والانْقيادُ، وقَدْ يَسَّرَه اللّه لليُسرى، أَي: وفَّقَه لَها[2]، والمُرادُ بالقولِ اليُسْرِ: الكلامُ الحَسَنُ، وُصِفَ باليُسْرِ المعنويِّ لكونِه لا يَثقلُ سماعُهُ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ذو القرنيْن يُعاقبُ المُخطئَ، ويُكرّمُ المُصيبَ، ويتّخذُ الأسبابَ لهدايةِ النّاس

معنَى الآياتِ الكريماتِ: قال ذو القرنيْن في بيان موقفِه من تفويضِ اللّه تعالى له في شأن هؤلاء القوم: "أمّا من ظلمَ نفسَه، ببقائِه على الكفر والعصيانِ، فسوف نعذّبُه بالقتل، ثمّ يعيدُه اللّه تعالى بالبعث، فيردُّه إلى حسابه وجزائِه، فيعذّبُه على كفره وعصيانِه، عذابًا منكرًا فظيعًا"[4]، وأمّا من قبل دعوةَ الحقّ فآمنَ باللّه تعالى وعملَ ما تَقتضيه منَ الصّالحات، فله المكافأةُ الطّيبةُ الحسنةُ من ربّه ﷻ، وهي جنّةُ الخُلدِ في الآخرة، كما أنّنا سنُكافئُه هنا في الدّنيا بالقول اليسيرِ، والتّكاليفِ الخفيفةِ، الّتي لا تشُقُّ عليه، ثمّ توجّهَ ذو القرنيْن إلى مطلعِ الشّمس ليفتحَ البلادَ ويَهدي إلى اللّه تعالى العبادَ، سالكًا "طريقًا آخرَ غيرَ الطّريقِ الأولى، وهي الّتي رجعَ بها منَ المغرب، وسار فيها إلى المشرق"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في جملة: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾:

تحديدُ الوجهة ابتداءً منهجٌ سديدٌ لإنجازِ المهامِّ الكُبرى

جملةُ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ "مستأنَفةٌ"[6] استئنافًا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 27.

(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 920.

(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 365.

(6) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

بيانيًّا؛ إذِ الجملةُ السّابقةُ تُثيرُ في ذهن المتلقّي سؤالًا يقول: وماذا اختارَ ذو القرنيْن من هذين الخيارَيْن اللّذَين أتاحَهما له ربُّه ﷻ؟ فجاءت جملةُ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾.

دلالةُ ﴿أَمَّا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

توضيحُ أسُسِ العدالةِ من ضروراتِها المُلْزِمةِ

﴿أَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، "حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ"[1]، واستخدامُ الشّرطِ والتّفصيلِ، دلالةٌ على فقه الحُكمِ والإدارةِ، في تعليق الجزاءِ على الشّرط، تحقيقًا للعدلِ، وتفصيلِ القواعدِ المحقّقةِ لذلك، والقاضيةِ بأنّ "مَنْ ظَلَمَ وتولّى وأبى وأصرَّ على ما عليه منَ الكفرِ والهوى، فسَوف نُعَذِّبُهُ أو نقتلُه حدًّا، بعد عرضِ الإسلام ولم يقبلْ، في دار الدّنيا، ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّه في يوم الجزاء، فيُعَذِّبُهُ عَذابًا نُكْرًا شديدًا، مجهولًا غيرَ متعارَفٍ بين أهل الدّنيا شدّتُه وفظاعتُه"[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بالموصولِ: ﴿مَن﴾:

العنايةُ بالأعمالِ لا بالأشخاصِ، من مقاصدِ أسلوبِ القرآنِ

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ اسمُ موصولٌ[3]، وسرُّ التّعبيرِ به اقتضاءُ جملةِ صلةٍ كاشفةٍ عنِ استحقاقِ التّعذيب، فليستِ العنايةُ بالأشخاص، لكنّ العنايةَ بالأعمالِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ظَلَمَ﴾:

لا عقوبةَ إلّا بعدَ التّحقّقِ من ارتكابِ الجُرمِ

مِن شاراتِ التّعبيرِ عنِ الظلم بصيغة الماضي - مع أنّه ما زال لم يحدثْ لحظةَ قولِ ذي القرنيْن ذلك - أنّ ذا القرنيْن لن يأخذَ أحدًا منهم بالظِّنّةِ، وأنّه لن يُنزل بأحدٍ منهمُ العقوبةَ إلّا بعد القطْعِ بكفرِه، والتأكّدِ من رفضِه الإيمانَ الّذي يعرضُه عليهم، ويدعوهم إليه، وهو ما يَهدي إليه التّعبيرُ بالماضي، والتّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ الوقوع، أي: من تحقَّقَ ظلمُه، ومن تحقَّقَ إيمانُه.

---

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) النخجواني: الفواتح الإلهية: 1/ 488.
(3) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾:

إيقاع العقوبة تحافظ على استتبابِ الأمورِ

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، "رابطةٌ للجوابِ"[1]، وفيها إشارةٌ إلى أنّ العقوبةَ لن تتخلّفَ، ولن تتأخّرَ عمّن يرفضُ الإيمانَ، ويُصرُّ على الكفر الّذي هو عليه، بل ستقعُ عليه العقوبةُ، فورَ التّأكُّدِ من ذلك، وأنّ ذا القرنَيْن "بالنّسبة للظّالمين يعذّبُ، ويقتصُّ، ويُرهبُ النّفوسَ المنحرفةَ، حتّى تعودَ إلى رشدِها، وتقفُ عند حدودِها"[2]، وإلّا فالقتلُ الزُّؤامُ، هو مصيرُها المحتومُ، جزاءً وِفاقًا.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾ في السّياق:

القائدُ الموفَّقُ يجمعُ بين الحكمةِ في المعاملةِ والصّرامةِ في إقامةِ الدّين

يدلُّ التّعبيرُ بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، على أنّ ذا القرنَيْن قائدٌ حكيمٌ، لا تستخفُّه ظواهرُ الأمور، بل يَستبطنُ بواطنَها، ويصدرُ في أحكامه عن رَشادٍ، وعليه فقد "أتى بحرف التّنفيسِ في ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، لما يتخلّلُ بين إظهارِه - أي: الكافر - كفرَه وبين تعذيبه، من دعائِه إلى الإيمان، وتأبّيه عنه، فهو لا يُعاجلُهم بالقتل على ظُلْمِهم، بل يدعوهم، ويُذكِّرُهم، فإنْ رجعوا وإلّا فالقتلُ"[3]، "هذا هو جزاءُ المُسيءِ في قانون العدلِ الّذي سنَّه ذو القرنَيْن لنفسِه، لا يُفلتُ المُسيءَ، وكذلك لا يُنقصُ المُحسنَ من جزاءٍ حسنٍ"[4].

دلالةُ الفاعلِ ضميرَ جمعٍ في: ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾:

العظيم في نفسه يقيم للآخرين اعتبارهم، ويعلم أن الإقصاء أوّل طريق للتكبر

النون للجمع، للتعظيم على عادة الملوكِ في قولهم: نحن فعلْنا[5]، وإنّما يكونُ المعنى: ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ : أي: (أنا ومَن معي - في الدّنيا - بالقتلِ)"[6]، ففي جمع الفاعلِ في ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، دلالة

---

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 572.
(3) التّوحيديّ، البحر المحيط: 7/ 222.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4580.
(5) التّوحيديّ، البحر المحيط: 7/ 222.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 292.

على امتلاك الزمام والقيادة، مع إبداء أنّه هو وأعوانه على نفس رجل واحد.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾:

كلُّ ظلمٍ جديدٍ يواجَهُ بعذابٍ جديدٍ يناسبُه ويوازيه

التّعبيرُ بالمضارع دالٌّ على التّجدّدِ والحدوثِ؛ لبيان قوّةِ مواجهةِ الظّلم، باستحضار صورة العقوبة ماثلة عند تجدّد كل كفران، وفيه تبشيعٌ للظّلم، ويمكنُ أن يكونَ التّعذيبُ بمعنَى القتل، أي: سوف "نقتلُه إذا لم يرجعْ عنِ الشّرك"[1] فيكونُ التّعبيرُ به مجازًا.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في سياقِ الآيةِ:

مَن يُصرُّ على الكفرِ يطالُه العذابُ في الدّنيا والآخرةِ

اصطفاءُ حرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدالّة على التراخي الرتبي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ يحملُ تهديدًا كبيرًا، لمَن يُصِرُّ على كفرِه بعد دعوتِه إلى الإيمان؛ ويُلمِحُ إلى تطاوُلِ العذابِ عليه، وإلى شدّةِ معاناةِ هذا الّذي يظلمُ نفسَه بالإصرارِ على الكفرِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يُرَدُّ﴾:

المضارعةُ تَستحضِرُ بين يدَي المخاطَبِ الحدثَ كأنّه يراه

التّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يُرَدُّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ﴾، تستحضِرُ بين يدَيه ذلك الحدثَ الجللَ، فكأنّه يُشاهدُ نفسَه، وهو يُرَدُّ إلى ربّه ﷻ لتلقّي العذابِ الأكبرِ ﴿عَذَابًا نُّكۡرًا﴾، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

مُنتهَى غايةِ العبادِ في المَعادِ، المصيرُ إلى نعيمِ اللهِ تعالى أو عذابِه

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، على أنَّ انتهاءَ رحلتِه في هذه الحياة الدّنيا، إنّما هو إلى مُستقرِّه الأخيرِ، إمّا إلى الجنان للمؤمنين، وإمّا إلى النّيران للكافرين، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾ [النّجم: 42]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق: 8].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 165.

سرُّ اختيارِ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

رحمةُ الله تعالى لا تُحجَبُ عن عبادِه في الدّنيا، ولو كانوا كفّارًا

في التَّعرُّض لوصفِ الرّبوبيّةِ في قول ذي القرنَيْن عن مصير الكافرِ: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾، تنبيهٌ إلى أنّ رحمةَ الله تعالى لائحةٌ لعباده، لا تُحجَبُ عنهم أبدًا، ما داموا في هذه الحياة ولو كانوا كفّارًا، والموفَّقُ من تعرّضَ لها، وتشبّثَ بها، والحدُّ الأدنى من ذلك الإيمانُ والرّضا به ﷻ ربًّا رازقًا، وإلهًا، معبودًا واحدًا.

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾:

فرصةُ التّوبةِ للكافرِ إلى الموتِ، وبعدَها يكونُ العذابُ لزامًا

الفاءُ الدّاخلةُ على الفعل، في قول ذي القرنَيْن: ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ عاطفةٌ[1] للعذابِ على الرّدّ، فلا يعود للكافر فرصة سانحة للتوبة بعد أن قضى عليه الأجل، فحين تحينُ لحظةُ الرّدّ، فلم يبقَ مجالٌ؛ لأنّ العذابَ النُّكرَ حينئذٍ سيكونُ مباشرًا، وستُطوَى الفرصةُ إلى غير رجعةٍ.

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾:

من شأن صيغةِ المضارعةِ في الفعل ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ أنّها تَستحضرُ صورةَ العذاب وهوْلَه؛ ليَحذرَه النّاسُ قبْلَ حلولِه، فيُؤمنوا بالله تعالى، كما أنّها تصرّحُ بأنّه سيكونُ متجدّدًا على الكافرِ تَجدُّدًا مُستمرًّا، لا يَخبو ولا ينقطعُ أبدًا.

مَرجعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾:

شأنُ الضّمائرِ تركيزُ العبارةِ ما دامت مراجعُها مأمونةَ اللّبْس

يرجعُ ضميرُ الفاعلِ في قوله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾ ﷻ ويرجعُ ضميرُ المفعول فيه إلى ﴿مَن ظَلَمَ﴾، ومن شأنِ هذه الضّمائرِ ضغطُ العبارة وتركيزُ الكلام؛ ما دامت مراجعُها واضحةً، مأمونةَ التّداخُلِ واللَّبْس كما هنا.

سرُّ تقْييدِ المفعولِ المطلقِ بالوصفِ:

جاءت كلمة ﴿عَذَابٗا﴾ في جملة: ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ مفعولًا

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 23.

العذابُ في الدّنيا درجاتٌ، أشدُّها نَكارةً القتلُ

مطلقًا مبيّنًا لنوع العذابِ بالوصف: ﴿نُّكۡرٗا﴾[1]، وفي ذلك مزيدُ تهديد ووعيدٍ؛ مِن شأنه ترهيبُ الكافرين مِنَ الإصرار على الكفرِ، ودفعُهم إلى حياضِ الإيمان؛ رحمةً بهم لا حاجةً إليهم، والتنكير في وصف العذاب بـ ﴿نُّكۡرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾، تجعلُه عذابًا مرهوبًا محذورًا؛ إذ يجهلُ النّاسُ مخاطرَه، لجهلِهم به، ونُكرانِهم إيّاه.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾:

القائدُ الفطِنُ مَن يسبقُ فكرُه وتوقُّعُه حُلولَ الأحداثِ

الواوُ في قول ذي القرنَيْن: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ حرفُ "عطفٍ على ﴿أَمَّا﴾ السّابقةِ"[2]؛ سيقت مع الجملة الّتي بعدَها، لتتْميم القسمَين المحتملَيْن من هؤلاء الكفّار، حيث سبق ذكرُ القسم الأوّلِ ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، وجيءَ هنا بالقسم الثّاني: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾.

سرُّ تَكرارِ (أمّا) في قوله: ﴿أَمَّا﴾، ﴿وَأَمَّا﴾:

بيانُ أنّ من ظلَمَ عُذّبَ، ومن عملَ صالحًا أُنعِمَ عليه

تكرّرت (أمّا) مرّتيْن في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وذلك لتفصيل أحكامِه المُستقبليّةِ، في كلا الفريقَين المحتملَين - إزاءَ دعوتِه المرتَقبَةِ لهؤلاء الكفّارِ إلى الإيمان باللّه.

دلالةُ التعبير بالاسم الموصول: ﴿مَنۡ﴾:

كلُّ مقدّمةٍ تُنبئُ عن نتيجتِها الحتميّةِ

﴿مَنۡ﴾ في قول اللّه تعالى - حكايةً لمقولةِ ذي القرنيْن -: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾: اسمٌ موصولٌ[3]، يجمعُ تحتَه الذين يَخرجون من كُفرِهم مِن هؤلاء الكافرين الّذين أَوْكلَ اللّه تعالى القضاءَ فيهم إلى عبدِه الصّالحِ ذي القرنيْن، ويَعتنقون دعوتَه، ويُؤمنون باللّه تعالى، وفي التّعبيرِ بالموصولِ اقتضاء جملةٍ، تبيّن سببُ الثّواب وتحصيلُه، وفي

---

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

ذلك إيماءٌ إلى أنّ خبرَه سيكونُ من جنس: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾.

دلالةُ عطفِ العملِ الصّالحِ على الإيمان:

العملُ كمالُ الإيمانِ، والإيمانُ ما وقرَ في القلبِ وصدّقه العملُ

(الواو) في كلمة: ﴿وَعَمِلَ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ حرفُ عطف[1]، حيث: عطفَ العملَ الصّالحَ على الإيمانِ، وضمَّه إليه، لأنّه دليلُ صدْقِه، واطّرادُ جمعِ العملِ الصّالحِ إلى الإيمان باللّه ﷻ في الذّكرِ الحكيم، يُلِحُّ على العبدِ أن يدعمَ إيمانَه، بالأعمالِ الصّالحاتِ ما بقيَ في الحياة.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَلَهُۥ﴾:

مبنَى الدّينِ على فوْريّةِ المكافأةِ المُسعِدةِ، بخلافِ المُعاقبةِ المُؤلمةِ

(الفاء) في قولِ ذي القرنيْن: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ رابطةٌ للجواب[2]، وهي بإزاء (الفاء) هناك في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، وهي هنا قائلةٌ بتَرَتُّبِ الجزاءِ على الشّرط مع الفوريّةِ العاجلةِ، بخلافِها هناك فقد حيلَ بينها وبين فوريّتِها بحرفِ التّنفيسِ ﴿فَسَوۡفَ﴾ في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ - وقد سبقَ كشْفُ سرِّه في مظنّته -، وذلك يتناغمُ مع مبدأ الدّينِ الحقِّ في فوريّة المكافأةِ الطّيّبة، بخلاف المعاقبةِ المُؤلمة، وقد ورد أنّ ملكَ اليمين "أميرٌ على ملكِ اليسار، يمنعُه من كتابة السّيئاتِ إلى ثلاثِ ساعات، لعلّه يرجعُ إلى الطّاعات"[3].

دلالةُ القيدِ باللّامِ في ﴿فَلَهُۥ﴾ وسرُّ تقديمِها:

شرفُ الإيمانِ وبركاتُ العملِ الصّالحِ ترفعانِ أصحابَهما

اللّام في قول ذي القرنيْن: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾، تُقرّرُ اختصاصَ ﴿مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ بذلك دونَ ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ولم يؤمن، وفي ذلك تكريمٌ للمؤمنين، ورعايةٌ لشرف الإيمانِ فيهم؛ فإنّ صفاءَ

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(3) القاري، مرقاة المفاتيح: 2/ 600.

الإيمان، وطُهرَ العقيدة كرّمَهم، والعملَ الصّالحَ رفعَهم، والضّميرُ في ﴿فَلَهُۥ﴾، في قول ذي القرنيْن: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، يعودُ إلى الموصولِ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، فمَنِ استجمعَ الإيمانَ والعملَ الصّالحَ، حُقَّ له أن يُختَصَّ بالحُسنى - أي: الجنّة[1] - في الآخرة، وبالقولِ اليسيرِ والتّكاليفِ الخفيفةِ في الدّنيا.

سرُّ التّقييدِ بالتّمييز ﴿جَزَآءً﴾، وتقديمِه وتنكيره:

الجزاءُ هنا تمييزٌ منصوبٌ[2]، والتنكير للتعظيم، وقدّمَ لتأكيد قَبولِ العملِ، وتعظيمًا للأخذِ بالأسباب، فالحُسنَى للمؤمن أعظمُ جزاءٍ يُوَفّاه.

أثرُ تنوّعِ القراءاتِ في ﴿جَزَآءً﴾:

للمؤمنِ أفضلُ الجزاءِ عندَ ربّه، يومَ الجزاءِ الأكبرِ

وردت في كلمة ﴿جَزَآءً﴾ قراءتان: بالرّفع بلا تنوين ﴿جَزَآءُ﴾، وبالنّصب مع التّنوين؛ فقد قَرَأَ يَعْقوبُ وحَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وحَفْصٌ بالنَّصبِ والتَّنْوينِ وكَسْرِه للسّاكِنَيْن، وقَرَأَ الباقونَ بالرَّفْعِ مِنْ غَيْرِ تَنْوينٍ[3]، وبناءً على كلٍّ توَجَّهُ كلمةُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ توجيهًا خاصًّا، فمن رفع ﴿جَزَآءُ﴾ جعلَه مُبْتَدأً و﴿فَلَهُۥ﴾ الخَبَرُ، وتَقْديرُه: (فَلَهُ جَزاءُ الخلالِ الحسنى)، فـ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في مَوضِعِ خفضٍ بإضافَة ﴿جَزَآءُ﴾ إِلَيْها، وقيل هيَ - أي: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ - في مَوضِعِ رفعٍ على البَدَل من ﴿جَزَآءُ﴾ وحُذِف التَّنْوينُ لالتقاء السّاكنَين و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على هَذا: الجنَّةُ، كَأَنَّهُ قالَ: فلهُ الجنَّةُ، ومن نصبَ ﴿جَزَآءً﴾ ونوّنه جعل ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مُبْتَدأً، و﴿فَلَهُۥ﴾ الخَبَرَ، ونصبَ ﴿جَزَآءً﴾ على التَّمييز، وقيل على المصدر، والّذي أحدثَ هذا الثّراءَ التّصرُّفُ القرآنيُّ الكريمُ بتقديم ﴿جَزَآءً﴾ على ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ولو أُخِّر فقيل - في غير

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 165.

(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 315.

القرآن الكريم -: (فله الحُسْنَى جزاءً) لذهب هذا الثّراءُ، ولَبَقيَتْ دلالةٌ واحدةٌ.

سرُّ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وتأخيره:

الإيمانُ والعملُ الصّالح جزاؤه كمالُ الحُسنَى

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي مجمعُ الخيراتِ؛ وقد جاء المُسنَدُ إليه مُعرّفًا، لبيان معنَى الكاملةِ، والمعنى: فله الحسنَى الكاملةُ، فكأن اللّامَ للكمال، وقُدِّم المُسندُ لكمال العنايةِ به.

دلالةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَسَنَقُولُ﴾:

المؤمنُ يُجازَى الجنّةَ في الآخرة، ويَحيا مكرَّمًا في الدّنيا

الواو في قوله: ﴿وَسَنَقُولُ﴾ "عاطفةٌ"[1]، جمعَ به ذو القرنيْن لَمَن تاب مِن كفره وآمن باللّه تعالى بين مُكافأتَين: أُخرويّةٍ، تختصُّ باللّه تعالى وهي: ﴿جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ودُنيويّةٍ، يُسديها إليهم ذو القرنيْن، وهي ﴿وَسَنَقُولُ﴾ ... ﴿يُسۡرًا﴾، ولعلّ في ذلك إشارةً إلى أنّ المؤمنَ يحيا مكرَّمًا في الدّنيا، كما أنّه موعودُ الحسنى - وهي: الجنّةُ[2] - في الأخرى.

سرُّ اقترانِ الفعل المضارع ﴿وَسَنَقُولُ﴾ بالسّين:

الدّاعيةُ الأمينُ يُكرّرُ العرضَ الحسنَ، ويَصبرُ على البلاءِ والفتنِ

ويدلُّ المضارع في ﴿وَسَنَقُولُ﴾ في قول ذي القرنيْن: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرًا﴾ على التّجدّدِ المستمرِّ، أي: أنّ ذلك سيكونُ ديْدنَ ذي القرنيْن، مع المؤمنين من هؤلاء النّفر، وأنّه سيجدّدُ لهمُ التّوجيهاتِ والتّعليماتِ بالأسلوبِ الهادئِ، وسيكونُ تكليفُه إيّاهم بالتّكاليفِ اليسيرةِ.

وحرف الاستقبال فيه دلالة على أنّ ذا القرنين القائد الرحيم سيُديمُ لفريق المؤمنين الوُدَّ، وسيُفيضُ عليهم التّقديرَ والعفو، وأنّ قولَه اليُسرَ لهم لن ينقطع، بل سيأخذُهم بالرّفق على الدّوام، ما داموا مؤمنين على الدّوام.

---

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 165.

سرُّ التّعبيرِ هنا بالسّين وفي سابقِه بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾:

على القائدِ النّاجحِ أن يُقدِّرَ لكلِّ حالةٍ ظرفَها

جاء النّظمُ الكريمُ بـ (السّين) هنا بإزاءِ ﴿فَسَوۡفَ﴾ هناك في أسلوبِ دعوتِه لفريق الكافرين، الذين قال فيهم: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، ويقولُ في فريق المؤمنين هنا: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾، وفي ذلك مَلمحُ عدلٍ وإنصافٍ في إمهال المخالف حتى يرتدع قبل أن تحلّ به العقوبة، وفي تعجيل الحسنى للمحسنين.

لطيفةٌ في المُخالفةِ بين مُكافأتَين:

مكافأةُ الله تعالى عظيمةٌ، ومكافأةُ المخلوقِ محدودةٌ

جاءت مكافأةُ اللّه تعالى لـ ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ في قول ذي القرنيّن، مكافأةً عينيّةً، وفي صيغةِ جملةٍ اسميّةٍ: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾، بينما جاءت حكايةُ معنَى مكافأةِ ذي القرنيّن ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ قوليّةً، وفي صيغةِ فعلٍ مضارعٍ: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ﴾؛ فأظهرَ كرمَ اللّه تعالى في مكافأة المؤمنين وأنّها الحسنَى أي: الجنّة[1] و"لمّا ذكر ذو القرنيّن ما أعدّ اللّه تعالى لـ ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ مِن الحسنَى جزاءً - لم يناسبِ أن يذكرَ جزاءَه بالفعل، بلِ اقتصرَ على القول أدبًا مع اللّه تعالى وإن كان يعلمُ أنّه يُحسنُ إليه فعلًا وقولًا"[2].

دلالةُ التّعبيرِ بضمير الجمعِ مُسنَدًا إليه: ﴿وَسَنَقُولُ﴾:

القائدُ الموفّقُ مَن يعملُ مع جيشِه بروحِ الفريقِ المتكاملِ

نون المضارعةِ القائلةُ بجَمع فاعلِ الفعل ﴿وَسَنَقُولُ﴾، في كلام ذي القرنيّن: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ - تشيرُ إلى أنّ ذا القرنيّن كان قائدًا يعملُ مع قوّادِه وجيشِه - بالتّعبيرِ العصريّ - بروحِ الفريقِ الواحدِ، وبروح المؤسّسةِ المتكاملةِ، الّتي تصدرُ في قراراتها عن إجماعٍ، وأنّه لم يكن قائدًا يَستبدُّ بالقرار، دون إشراكِ أهلِ الاختصاصِ فيه.

سرُّ ورودِ اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ وعوْدِ الضّمير:

قولُه تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾، جاءتِ (اللّام) في

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 165.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 222.

الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ تكْرمةً للمؤمنين، ومكافأةً من ذي القرنَيْن، وهكذا القائدُ النّاجحُ يُكرّمُ المحسنَ كما يعاقبُ المخطئَ، واقتصارُ الجزاءِ على مَن أحسن إنصافٌ؛ لأنّ تساويَ المُحسن والمُسيءِ في المُجازاة سوف يُجرّئ المُسيئين على فعل ما يخالفُ، دون خشيةِ عقوبةٍ، بل سوف يفعلون ما يسوءُ، فعلًا مُتجدّدًا باطّرادٍ، طمعًا في الجزاء غيرِ المُستحقّ، ناهيك عن إحباطِ المُحسنين، وخيبةِ أملِهم، حين يُساوَوْن بمَن لا يستحقُّ، فيَشعرون بالحسرةِ، واختلالِ ميزانِ التّقييم.

القائدُ النّاجحُ يُكرِّمُ المحسنَ كما يعاقبُ المُخطئَ

دلالةُ التّعبيرِ بحرف ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾:

يدلّ التّعبيرُ بحرف ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ على التّبعيض، أي: إنّ بعضَ أوامرنا لهؤلاء المؤمنين ستكونُ رفيقةً، تناسبُ جميلَ إيمانِهم، وأنّها ستتّسمُ بالرّحمةِ، وستقتصرُ على اليسير منَ التّكاليف.

من صفاتِ القائدِ الموفَّقِ أن يُعاملَ المؤمنين برفقٍ

دلالةُ التّعبيرِ بالأمر في: ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾:

المقصودُ بالأمر في قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ ما نأمرُ به النّاسَ ونكلّفُهم به، "أي: لا نأمرُه بالصّعبِ الشّاقّ، ولكنْ بالسّهلِ المتيسّرِ منَ الزّكاة والخَراجِ وغيرِ ذلك"[1]، وسرُّ التّعبير بالأمر وإضافتِه إلى المتكلّم - ذي القرنَيْن - هو بيانُ الجدّيّةِ في القيادةِ، وأنّ لها أمرًا ونهيًا، لا يجوزُ التّهاونُ فيه؛ حتّى وإن كان على سبيل اليُسْرِ الّذي يَحبو به المؤمنين، وإلّا فشلتِ القيادةُ، وذلك ما لا يكونُ من قائدٍ في قامةِ ذي القرنَيْن، الّذي بلغ مغربَ الشّمس ومطلعَها.

للقيادةِ النّاجحةِ أمرٌ ونهيٌ يجبُ أن يكونا نافِذَين لضمانِ نجاحِها

الغرضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿يُسۡرٗا﴾:

قولُه ﴿يُسۡرٗا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: (قولًا)، والغرضُ منَ التّنكير تعظيمُ شأنِ القولِ الميسورِ، فاليُسرُ كلُّه خيرٌ،

اللّائقُ بالمؤمنين من أميرِهم لينُ الكلامِ ويُسرُ التّكاليفِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 745.

ومعنى يسرًا، أي: سهلًا مُتيسّرًا، لا عنتَ فيه ولا رهقَ ولا مشقّةَ، ويكونُ القولُ يسرًا إذا كان جميلًا، وقال بعضُ المفسّرين: "وقيل المعنى: وسنُعلّمُه نحن في الدّنيا ما تيسّرَ له تعليمُه، ممّا يقرّبُه إلى اللّه سبحانه، ونلينُ له منَ القول"(1).

دلالةُ العطفِ بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

من منهجِ القائدِ النّاجحِ التّريّثُ بعدَ الفتحِ لترتيب أوضاعِ البلادِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ "بيانٌ لما فعلَه ذو القرنين، بعد أن بلغ مغربَ الشّمس، أي: وبعد أن بلغ مغربَ الشّمس، ونال مقصدَه، كرَّ راجعًا مِن جهةِ غروبِ الشّمس إلى جهةِ شروقِها"(2)، وذلك يقتضي "أنّه أقام فيهم مُدَّةً ضربَ فيها على يدِ الظّالم، ونصرَ المظلومَ، وأقام العدلَ، ودعا إلى اللّه تعالى"(3).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَتۡبَعَ﴾:

متابعةُ الأسبابِ وتحقّقُ وقوعِها إيذانٌ بالخيرِ

عبّرَ بالماضي ﴿أَتۡبَعَ﴾ دلالةً على الدّأبِ المُتتابعِ، المُتحقّقِ في الأخذ بالأسباب، وهو من إحسانِ التّوكّلِ على اللّه، المُؤْذِنِ بحصول الخير، وهو في هذه المرّة قد قفلَ راجعًا من مغربِ الشّمس إلى مطلعِها، وفي ذلك إشارةٌ إلى جدّيّته في الدّعوة والفتح، فهو لا يفرغُ من جهة حتّى يتبعَ السّببَ الأوّلَ سببًا آخرَ، ينتهي به إلى مرادِه المرغوبِ، وهدفِه المنشودِ؛ ليُحقّقَ به نشْرَ الدّين، وبسْطَ العدلِ، ومرادَ اللّه تعالى.

دلالةُ التّكرارِ في قوله: ﴿أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾:

القائدُ المنتصرُ كلّما فرغَ من فتحِ قُطرٍ، توجّهَ لفتحِ غيرِه

يدلُّ تَكرارُ جملةِ ﴿أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ على علوِّ همّةِ ذي القرنيْن، في باب الجهادِ في سبيل اللّه تعالى وأنّه كلّما فرغَ من فتح قُطرٍ من أقطارِ الأرض، توجّهَ نحوَ قطرٍ آخرَ، دون توانٍ، "بلاغًا لحاجتِه"(4)، فبعدَ أن فرغ من فتحِ القُطرِ الّذي هو ناحيةُ مغربِ الشّمس "سار إلى

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4459.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 572.
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 436.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 206.

مطلعِها، وكان كلّما مرَّ بأمّةٍ قهرَهم، وغلبَهم، ودعاهم إلى اللّه ﷻ، فإن أطاعوه وإلّا أذلّهُم، وأرغمَ آنافَهم، واستباحَ أموالَهم وأمتعتَهم، واستخدمَ مِن كلّ أمّةٍ ما يستعينُ به مع جيوشه، على أهل الإقليم المُتاخمِ لهم"(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَذابُ والهلاكُ:

العـذابُ إيـلامٌ وأذًى، والهلاكُ فـقْـدٌ وفسـادٌ وموتٌ

"الهلاكُ على ثلاثة أوجُهٍ: افتقادُ الشّيءِ عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: 29]، وهَلاكُ الشّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205]، ويُقال: هَلَكَ الطّعامُ، والثّالثُ: الموتُ، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]"(2)، و"العَذابُ: هو الإيجاعُ الشّديدُ، وقد عَذَّبَهُ تَعْذيبًا: أكثرَ حبْسَه في العَذابِ، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النّمل: 21] "(3)، فاستخدمَ النّظمُ الكريمُ الأنسبَ هنا وهو العذابُ؛ لأنَّ المُستهدفَ هو هدايتُهم وليس إهلاكَهم.

الرّدُّ والرّجعُ:

الـرّجـعُ ردٌّ من غـير كـراهـةٍ، والـرّدُّ عكـسُ ذلك

تقول: ردَّه إلى منزله، وردَّ إليه جوابًا: أي: رجعَ، والارتدادُ: الرّجوع، ومنه المرتدُّ، واستردّه الشّيءَ: سألَه أن يردَّه عليه(4)، والرّجعُ العَوْدُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ [الطّارق: 11]، قال الفرّاءُ: تبتدئُ بالمطر، ثم ترجعُ به كلَّ عام، وقال غيرُه: ذاتُ الرّجع؛ أي: ذاتُ المطر؛ لأنّه يجيء ويرجعُ ويتكرّرُ(5)، والرّجعُ يذكرُ"أنّه يجوز أن تُرجعَه من غير كراهةٍ له، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 193.
(2) الراغب، المفردات: (هلك).
(3) الراغب، المفردات: (عذب).
(4) الخليل، العين: (ردّ)، والجوهريّ، الصّحاح: (ردد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رجع).

﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 83]، ولا يجوز أن تردَّه إلّا إذا كرهت حالَه ... هذا أصلُه، ثمّ ربّما استُعملت إحدى الكلمتيْن موضعَ الأخرى لقُرْب معناهما"[1]، فالرّجعُ يكونُ من غير الكراهة، والرّدّ يكونُ مع الكراهةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ۝٩٠ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ۝٩١ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢﴾ [الكهف: 90 - 92]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

قصّةُ ذي القرنيْن سياقٌ متماسكٌ يُفضي بعضُه إلى بعضٍ

مناسبةُ الآياتِ الكريماتِ لما قبلها أنّ اللّه تعالى "لمّا بين أوّلًا أنّه - أي ذا القرنيْن - قَصدَ أقربَ الأماكنِ المسكونةِ مِن مغربِ الشّمسِ - أتبعَه ببيانِ أنّه قصَدَ أقربَ الأماكن المسكونةِ من مطلعِ الشّمس، فبيّن اللّه تعالى أنَّ ذا القرنيْن وجد الشّمسَ: ﴿تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾"(1) ... إلخ، وقد وجدَ هنالك أمّةً بدائيّةً، ليس لها بيوتاتٌ تكنُّ أفرادَها، ولا شجرٌ يُظلّلُهم، فكانوا يَتوقّون من حرّ الشّمسِ في سراديبَ في الجبال، ويخرجون ليلًا للارتزاقِ، وصيْدِ ما يأكلون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾: الأصلُ (طلع) يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا(2)، وطَلَعَ القمرُ وغيرُه طُلوعاً فهوَ طالِعٌ، ووقتُ طلوعِه المَطْلِعُ، ومَوْضِعُ طلوعه المَطْلَعُ، ويجوزُ مطلِعُ ومطلَعُ فيهما جَميعًا، وكلُّ بادٍ لَك من عُلوٍّ فقد طَلَعَ عليْك(3)، والطِّلاعُ: ما طَلَعَت عليه الشَّمسُ مِنَ الأرْضِ(4)، والمقصودُ بمَطلعِ الشَّمس: مكانُ طُلوعِها من جهةِ المَشرِقِ، والمرادُ: بلوغُ ذي القرنيْن مشرقَ الشّمس، وهو نهايةُ ما وصلَ إليه العَمارُ، في ذلك الزّمان.

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 497.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (طلع).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (طلع).

2) ﴿سِتۡرٗا﴾: أَصْلُ السَّترِ: التَّغْطِيَةُ، يُقال: سَتَرَ الإِناءَ، أيْ: غطّاهُ، وشَيْءٌ مَسْتورٌ، أيْ: مُغَطًّى غَيْرُ مَكْشوفٍ(1)، والسِّتْرُ والسُّتْرَةُ: ما يُستترُ به(2)، والسِّتارة: ما سترَكَ من شمسٍ وغيرِها(3)، السَّتْرُ: الإِخْفاءُ والإِضْمارُ، يُقال: سَتَرَ الشَّيْءَ، يَسْتُرُه، سَتْراً، أيْ: أَخْفاهُ، وضِدُّهُ: الإِظْهارُ والإِبْرازُ والكَشْفُ(4)، والمُرادُ بالسِّترِ في الآية: ما يَستُرُ الجَسَدَ.

3) ﴿أَحَطۡنَا﴾: أصلُ (حيط) يدلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بالشَّيْءِ(5)، ومنه الحائطُ: الجدارُ الَّذي يَحوطُ بالمكان، والإحاطَةُ تُقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام، نحو: أَحَطْتُ بمكانِ كذا، أو تُستَعمَلُ في الحفظ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، وتُستعملُ في المنع، نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66](6)، والإحاطَةُ بالشَّيءِ: الكَوْنُ حَولَهُ كالحائِطِ، ويُكنَّى بها عَنِ التَّمكُّنِ مِنَ الشَّيءِ بحَيْثُ لا يَفوتُ منه(7)، والثّاني: في العِلْم، نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطّلاق: 12](8)، والإحاطةُ بالخَبَرِ هنا، كنايةٌ عن كونِ المعلوم عظيمًا بحَيثُ لا يُحيطُ به عِلْمًا إلّا علّامُ الغيوب(9).

4) ﴿خُبۡرٗا﴾: أَصْلُ الخُبْرِ: العِلْمُ بالشَّيءِ، والإخبارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ، يُقالُ: خَبَرَ الشَّيءَ يَخْبُرُهُ خَبْرًا أَيْ عَلِمَهُ، ولي بفلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ أَيْ عِلْمٌ ومعرفةٌ، واللّه تعالى الخبيرُ أَيْ العالِمُ بكلِّ شَيءٍ، ويُطلَقُ الخَبَرُ على كلِّ ما يُنقَلُ ويُتَحَدَّثُ به(10)، والمقصودُ بالخُبْرِ في الآيةِ: العِلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخَبَرِ(11).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا فرغَ ذو القرنَيْن من ترتيب أحوالِ القوم الّذين فوَّضه اللّه تعالى فيهم جهةَ مغربِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ستر).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ستر).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (ستر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيط).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 171.
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيط).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.
(10) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(11) الراغب، المفردات: (خبر).

الشّمس سلكَ طريقًا إلى مطلع الشّمس، حتّى وصل إلى آخر البلادِ، من جهة مطلعِ الشّمس، ووجد هناك قومًا بُداةً، لا بيوتَ لهم تَقيهم لفْحَ الشّمسِ حين تطلعُ عليهم.. "لم يَرتقوا صناعيًّا، حتّى يَصنعوا لأنفسِهم ثيابًا، تَسترُهم، وتَحميهم من أشعّةِ الشّمس، أو مساكنَ تُؤويهم من حرارتِها"[1]، "فأرضُهم لا تحملُ البناءَ؛ فإذا طلعتِ الشّمس تغوَّروا في المياه، فإذا غربتْ خرجوا يَتراعون كما ترعَى البهائمُ ... وإذا طلعتِ الشّمسُ دخلوا في أسرابٍ، حتّى إذا زالتِ الشّمسُ خرجوا إلى حروثِهم ومعايشِهم"[2].

ذو القرنيْن عندَ مطلعِ الشّمس يُنبئُ بأنّ وجودَ القائدِ الموفَّقِ يحلُّ المُشكلاتِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

فُصل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، عن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، لما بينهما من شبْه كمالِ الاتّصال؛ أي: الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنّ جملةَ ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ تثيرُ في الذِّهن سؤالًا، وتشوِّقُه - قطعًا - إلى معرفة التّالي من أحداثِ هذه القصّةِ الفريدةِ في بابِها منَ الجهادِ في سبيل اللّه تعالى وفتحِ البلدان من أقصى المعمورةِ إلى أقصاها.

القَصصُ القرآنيُّ متلاحمُ النّظمِ وثيقُ العُرَى

سرُّ ورودِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ "حرفُ غايةٍ"[3]؛ يفصحُ عن غايةِ ذي القرنيْن، في مسيرِه إلى وجهته مجاهدًا في سبيل اللّه ﷻ وأنّه لم يكن ليقنعَ بأقلَّ من بلوغ ذلك المبلغ، وقد آتاه اللّه تعالى هذه الأسبابِ كلَّها، وتلك همّةٌ عاليةٌ، يمكنُ القولُ بأنّها منقطعةُ النّظيرِ، ولذلك نالَ شرفَ الذّكرِ، والإشادةِ في الذِّكر الحكيم.

علوُّ همّةِ القائدِ يأبَى له إلّا بلوغَ النّهاياتِ الحميدةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 920.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 194.
(3) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ) في السّياق:

القائدُ الجادُّ يُهمُّ بالأعمالِ فيُمضيها على وجهِها الأكملِ

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، ﴿إِذَا﴾ "ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمن يتضمّنُ معنَى الشّرط"(1)، والتّقييدُ بها هنا يقطعُ بأنّ مدخولَها ﴿بَلَغَ﴾ قد تحقّقَ، وأنّ ذا القرنيْن كان صادقَ العزمِ، جادَّ العزيمةِ على بلوغِ مطلعِ الشّمس، كما كان جادًّا حتى تحقّق له بلوغُ مغربِها، وأنّه قد "سار منَ المغرب نحوَ المشرق، حيث ظَنَّ الشَّمسَ تطلعُ منه، وقيل: حتى لم يبقَ بينَه وبين مطلعِ الشّمس أحدٌ"(2).

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿بَلَغَ﴾ في سياقِ الآية:

القائدُ المُظفَّرُ لا يوقِفُه شيءٌ حتّى يصلَ إلى مُرادِه

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، التّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾، في جملة الشّرطِ يُقرِّرُ تَحقُّقَ الشّرط، وأنّ ذا القرنيْن قد جدّ في الأمر حتّى انتهى فعلًا إلى هذه النّقطة منَ الأرض، وهي الّتي لا مطمحَ في تجاوُزِها لأحدٍ حتّى ذلك الزّمانِ، وممّا يدعمُ هذه الدّلالةَ ويؤازرُها إيثارُ التّقييدِ بأداةِ الشّرط ﴿إِذَا﴾ كما هنا.

سرُّ التّقييدِ بالظَّرفِ ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾:

هِمّةُ القائدِ المظفَّرِ بلوغُ غاياتِ الكمالِ الأكبرِ

المقصودُ بـ ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ هنا "أدنى الأرضِ من مطلعِ الشّمس"(3)، و"جهةُ المشرقِ من سلطانِه ومملكتِه، بلغَ جهةً قاصيةً منَ الشّرق، حيث يَخالَ أن لا عُمرانَ وراءَها، فالمطلعُ مكانُ الطّلوع، والظّاهرُ أنّه بلغَ ساحلَ بحرِ اليابان، في حدود منشوريا أو كوريا شرقًا"(4)، والتّقييدُ بالظّرفِ احتياطٌ من خُطورِ أيّ احتمالٍ بقصورِ هِمَّته دونَ بلوغِ غاياتِ الكمال؛ وأنّ غايتَه الّتي أمَّها سواءٌ من جهة المغربِ، أوِ المطلعِ لا غايةَ وراءَها لمريدٍ حتّى عصرِه.

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1299.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 541.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

بيانُ أنّ الهمّةَ العاليةَ طموحُها عالٍ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ للعهدِ الذّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ المعروفةُ المعهودةُ لديكم يا محمّدُ؛ فالذّكرُ الحكيمُ يوجّه أنظارَ الأمّة إلى مطمحِ أهلِ الهممِ في الدّعوة إلى اللّه تعالى، وفتحِ البلاد وهدايةِ العباد، والأخذِ بحُجَزِهم إلى اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿وَجَدَهَا﴾:

التّحقّقُ طريقٌ لتحقيقِ المصلحةِ وسدٌّ للذّريعةِ

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ﴾، يقرّرُ أنّ مرادَ ذي القرنيْن قد تحقّقَ فعلًا، بعد أن قصدَ إليه قصْدًا، ومُفادُ المشهدِ أنّ ذا القرنيْن أخذَ طريقًا نحوَ المشرق من جهة الجنوبِ، حَتَّى إذا بَلَغَ موضعَ طلوعِ الشّمس من معمورةِ الأرض؛ وجَدَها تَطْلُعُ على قَوْمٍ همُ الزّنجُ، لَم نَجْعَلْ لهم من دونِ الشّمس سِتْرًا منَ اللّباس فهم عُراةٌ أبدًا، فإذا طلعتِ الشّمسُ دخلوا الأسرابَ أوِ البحرَ، فإذا ارتفعَ النّهارُ خرجوا إلى معايِشهم"[1]، وكونُه وجدَها تطلعُ على القوم المذكورين، فقد كان طلوعُها ظاهرةً فلكيّةً معتادةً، والقومُ الموجودون في ذلك المكان وجدَهم ذو القرنيْن لأوّل مرّة، فاكتشف حالتَهم وصفاتِهم كما ذُكرت في السّياقِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَطۡلُعُ﴾:

تجدّدُ المشاهدِ واستحضارُها بيانٌ لقصصِ السّابقين

في التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَطۡلُعُ﴾ استحضارٌ لمشهدِ طلوعِ الشّمس، كأنّ السّامعَ يُبصرُه، وهذا يمنحُ الأسلوبَ حيويّةً وحُضورًا، وإلى ذلك تقولُ المضارعةُ بتكرارِ طلوعِ الشّمس، وتجدُّدِه يومًا بعد يوم، كما هناك في مضارعة ﴿تَغۡرُبُ﴾.

بلاغةُ الجناسِ الاشتقاقيِّ بين ﴿مَطۡلِعَ﴾ و﴿تَطۡلُعُ﴾:

بينَ ﴿مَطۡلِعَ﴾ و﴿تَطۡلُعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/ 660.

تنوّعُ الصّيغ الاشتقاقيّةِ مفيدٌ في الدّلالةِ البيانيّةِ

﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ حيث تتّفقُ الكلمتان في أصلِهما، وتختلفان في معناهما، فالأولى اسمُ مكانِ الطلّوع، والثّانيةُ الفعلُ المضارعُ منه.

غَرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٖ﴾:

في تنكيرِ القرآن كلمةَ ﴿قَوۡمٖ﴾، ثمّ وصفِهم بجملةِ ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ في الآيات اللاحقة، دليلٌ على أنّ المقصودَ هو التماسُ العِبرة بالإبهام، لا ذكرَ خصوصِ القوم.

سرُّ التّقديمِ على المفعولِ به في الآية:

الإنسانُ هو المقصودُ بالرّعاية والعناية، والله مُسخِّرٌ له كونَه

قوله تعالى: ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾، وفيه قَدّمَ النّظمُ الكريمُ القيدّيْن ﴿لَّهُم﴾، ﴿مِّن دُونِهَا﴾ على المفعولِ به ﴿سِتۡرٗا﴾، لتَعَلُّقِ الأمر بشأنِ هؤلاء القوم، لا بشأن السّترِ الواقي المُفْتَقَد، وفي التّقديم معنَى القصرِ، أي: أنّهم هم بخاصّةٍ مَن سكنوا قُطْرًا مكشوفًا لأشعّة الشّمس، وهم بخاصّةٍ من لم يجعلِ اللّه تعالى لهم سِترًا.

معنَى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن دُونِهَا﴾:

بيانُ صعوبةِ حالِ القوم بكوْنِ حالِهم منبئًا عن مقالِهم

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِهَا﴾ ابتدائيةٌ، فبدايةُ أشعّةِ الشّمس لحظةَ مطلعِها وسطوعِها يكونُ عليهم، وهذا تصويرٌ دقيقٌ لصعوبة وضْعِهم؛ ولا شكّ أنّ ذا القرنيْن لم يدعْهُم دون حلٍّ لمشكلتِهم هذه؛ لأنّه أوتيَ من كلّ شيءٍ سببًا، وحملَ على عاتقِه خدمةَ العبادِ.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرف ﴿دُونِهَا﴾:

انتفاءُ السّترِ مِنَ الشّمس يلزمُ منه شدّةُ الاصطلاءِ بلهيبِها

لفظُ ﴿دُونِهَا﴾ منَ الدّنوّ، أي: القُرب، وسرُّ التّعبير بالظّرف ﴿دُونِهَا﴾، هنا تصويرٌ لبداوتِهم وتعرّضِهم الشّديدِ للشّمس، وما يلزمُ من شدّة حرِّها، ولسْعِها ولفحِها إيّاهم.

غرضُ تنكيرِ ﴿سِتۡرٗا﴾:

في تنكيرِ ﴿سِتۡرٗا﴾ في: ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ تقليلٌ يفيدُ

انعدامَ كلِّ ساترٍ يمكنُ أن يَستترَ به هؤلاء من حرّ الشّمسِ، فلا يوجدُ بينهم وبين الشّمس أيُّ سترٍ حقيرًا كان أو ضعيفًا.

بلاغةُ الكنايةِ في عدمِ جعلِ السّترِ من دونِها:

القائدُ الجادُّ يَستعملُه الله تعالى في خدمة البلادِ والعبادِ

في جملة ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾، كنايةٌ عن شدّةِ المأساةِ الّتي كان يكابدُها هؤلاء القومُ، وأنّ اللّه تعالى مَنَّ عليهم بمجيءِ ذي القرنيْن إليهم، وبمعالجتِه أحوالَهم، وهي تُفهَمُ بطريق اللّزومِ؛ لأنّه قائدٌ استعمله اللّه تعالى في خدمة البلادِ وراحة العبادِ.

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيّ لجملةِ التّشبيه ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾:

كافُ التّشبيه إشارةٌ وجيزةٌ إلى ترابطِ المعاني المتُغازرة

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ منحَ الأسلوبَ ثراءً دلاليًّا ثرًّا؛ فقالوا: "الكافُ للتّشبيه، والمشبّهُ به شيءٌ تضمّنَه الكلامُ السّابقُ، بلفظِه أو معناه، والكافُ ومجرورها يجوزُ أن يكونَ شِبهَ جملة وقع صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، يدلُّ عليه السّياقُ، أي: تشبيهًا مماثلًا لما سمعت"[1].

ويجوز أن يكون: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ "خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمرُ ذي القرنيْن ذلك، والمشارُ إليه - أي المشبّه - ما وُصفَ به قبلُ مِن بلوغ المغربِ والمشرقِ، وما فعلَه، وفائدةُ ذلك تعظيمُه، وتعظيمُ أمره.

أو أمرُه فيهم كأمرِه في أهل المغرب مِنَ التّخيير والاختيارِ، ويجوزُ أن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ ﴿وَجَدَهَا﴾، أي: وجدها تطلعُ وُجدانًا كوُجدانِها تغربُ في عين حمئةٍ.

أو صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ ﴿نَجۡعَل﴾، أي: لم نجعل لهم سترًا جَعْلًا كائنًا كالجَعْلِ الّذي لكم فيما تفضّلنا به عليكم مِنَ الألبسة الفاخرةِ، والأبنيةِ العاليةِ، وفيه أنّه لا يتبادرُ إلى الفهمِ، أو صفةَ ﴿سِتۡرٗا﴾، والمعنَى عليه كسابقِه، وفيه ما فيه.

أو صفةَ ﴿قَوۡمٖ﴾ أي: على قوم مثلِ ذلك القبيلِ الّذي تغرب عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.

الشّمسُ في الكفر، والحكم أو معمول ﴿بَلَغَ﴾ أي: بلغ مغربَها كما بلغ مطلعَها"[1]، وعلى الوجوه كلِّها فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، الآية، وجملة ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، الآية[2].

بلاغةُ التّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾:

تتميمُ القصّةِ وتذْييلُها تأكيدٌ لمضمونِها

التّشبيهُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ تشبيهٌ ثريُّ الدّلالاتِ على وجازتِه، وهو يفيدُ تعظيمَ الأمر، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ما لاقاه ذو القرنيْن معلومٌ للّه تعالى، فهو العليمُ بمعاناتِه ومصابرتِه، وفيه أيضًا إشارةٌ لمّاحَةٌ إلى تعظيم السّببِ الّذي اتّبعه حتّى بلغَ المقصدَ، ممّا يظهرُ جليًّا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، والإخبارُ بالإحاطة بما حدثَ في المسار، وما يملكُه من أسبابٍ، أظهرُ منَ التّهويل، كما فيه تلميحٌ إلى الخُبْر بحُسن التّلقّي وجودةِ العمل، إحاطةً بحاله وما أنيطَ به من واجباتٍ وأعباءَ، وما يمتلكُه من قدراتٍ وكفاءةٍ، تجعله مُتحمّلًا أثقالَ التّغييرِ والعدل والإصلاحِ، ولا ريبَ أنّ علمَ ذلك والإحاطةَ به، لا يكونُ إلّا منَ المحيطِ بكلّ شيءٍ علمًا، ويحتملُ اعتبارُه تذييلًا لبعض مشاهدِ القصّةِ، لتأكيدِ أنّ أمرَه في أهل مطلعِ الشّمس، كحالِه في أهل مغربِها[3].

تنوّعُ معنَى الواو في قوله: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا﴾:

علمُ الله محيطٌ بكلّ شيءٍ لا يعزب عنه شيءٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا﴾ إمّا أن تكون حاليّةً، فـ "الجملة حالٌ منَ الضّمير المرفوعِ في ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ﴾"[4]، ويمكنُ أن تكونَ استئنافيّةً، فيكونُ "استأنف فقال: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا﴾، أي: بما عنده

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 541.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 30.

علمًا"[1]، أو "هو صلةُ قوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾ [الكهف: 83]، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، أي: عن علْمٍ سأتلو عليكم"[2].

وجملةُ: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا﴾ "بيانٌ لشمولِ علْمِ اللّه تعالى بأحوال ذي القرنيْن الظّاهرةِ والباطنةِ، ولأحوال غيرِه، أي: كذلك كان شأنُ ذي القرنيْن، وقد أحطنا إحاطةً تامّةً وعلمنا علمًا لا يَعزُب عنه شيءٌ، بما كان لدى ذي القرنيْن من جنودٍ وقوّةٍ وآلاتٍ ... وغيرِ ذلك من أسباب الملكِ والسّلطانِ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالحرفِ ﴿وَقَدْ﴾ في الآية:

كلُّ شيءٍ تحت سلطانِ إحاطةِ اللهِ تعالى وخُبْرِه

التّعبيرُ بحرفِ التّحقيق ﴿وَقَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، يناسبُ مقتضياتِ التّعبيرِ بالإحاطةِ في: ﴿أَحَطْنَا﴾، وعمقِ الخبرةِ في: ﴿خُبْرًا﴾، ويُؤنِسُ النّفوسَ، ويقرّرُ فيها اليقينَ بهما؛ فإنّه ربّما انحرفَ فهمُ السّامع مُغاليًا في أمر ذي القرنيْن؛ فتجيءُ ﴿وَقَدْ﴾ لتُحَقِّقَ في نفسِه وقوعَ ذي القرنيْن تحت سلطانِ اللّه تعالى، وإحاطتِه بعلمِه وخُبرِه.

دلالةُ التّعبيرِ بجملة ﴿أَحَطْنَا﴾:

اللهُ تعالى محيطٌ بكلّ شيءٍ خُبرًا

التّعبيرُ بالإحاطة، في قوله تعالى: ﴿أَحَطْنَا﴾، تعبيرٌ مصوِّرٌ؛ يقيمُ في النّفس صورةَ شيءٍ يحيطُ بأشياءَ، لا يخرجُ عنه منها شيءٌ، ومعناه: "لم يَخْفَ علينا شيءٌ منها"[4]؛ أي: ممّا لدى ذي القرنيْن "مِنَ الجيوش والعدّةِ"[5] وغيرِهما، ودلالةُ أحاطَ أنسبُ من غيرِها في هذا السّياق، لبيان تميّزِه على أهل كلِّ زمانه في بقاع الأرضِ، بما حباه اللّه.

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 7/ 207.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 572.
(4) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1300.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 166.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ التّعظيم في ﴿أَحَطۡنَا﴾:

لا يُحيطُ بعلْمِ البواطنِ والظّواهرِ إلّا الله العليمُ القاهرُ

ضميرُ العظمة - (نا) الفاعلين - في قوله تعالى: ﴿أَحَطۡنَا﴾ يختصُّ بالمتكلّم هنا ﷻ والتّعبيرُ به مناسبٌ لطبيعة الإحاطةِ الّتي لا تكونُ إلّا لعلّام الغيوب ﷻ لأنّ ما لدى قائدٍ عالَميٍّ مثلِ ذي القرنيْن، من ظواهرِ الأمور وبواطنِها، لا يمكنُ أن يحيطَ به إلّا العظيمُ ﷻ.

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا لَدَيۡهِ﴾:

إحاطةُ الله تعالى خُبْرًا بكلّ شيءٍ، لا يخلو منها زمانٌ ولا مكانٌ

الباء في قوله تعالى: ﴿أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ تفيدُ معنَى التّعدية، وكذلك تفيدُ معنَى الإلصاقِ؛ أي: أنّ إحاطةَ علم اللّه تعالى وخُبْرِه مطّلِعةٌ على ما عند ذي القرنيْن من إمكاناتٍ، ملتصقةٌ به لا بعيدةٌ عنه، مصاحبةٌ له؛ فلا تنفكُّ عنه، ولا يغيبُ عنه لحظةً من زمانٍ ولا مسحةً من مكانٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿بِمَا﴾ في السّياق:

ملمحُ الإيجازِ واستيعابِ جميعِ أفرادِ المتحدَّثِ عنه

جاءت ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ اسمًا موصولاً في محلّ جرّ بحرف الجرّ[1]، ووجْهُ إيثارِها أنّها عنصرُ إيجازٍ، وضغْطٍ لأفراد المقصودِ تحتها، واستيعابِه فيها؛ فهي تستوعبُ جميعَ "ما عنده من عظمةِ الملك من جندٍ وقوّةٍ وثروةٍ"[2]، والتّعبيرُ بها مناسبٌ، لبيان الإحاطةِ الإلهيّةِ؛ لأنّها أعمُّ الموصولات وأدخلُها في الإبهام.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿خُبۡرٗا﴾:

فخامةُ المعلومِ يناسبُ إحاطةَ اللّه بكلّ مجهولٍ ومعلومٍ

تنكيرُ ﴿خُبۡرٗا﴾ يلفتُ إلى فخامتِه وعظمتِه، لأنّه متعلّقٌ باللّه ﷻ فلا بدّ من تفرّدِه وتميُّزِه عمّا يَخبُرُه المخلوقون من أنواع الخبراتِ، فعلْمُه يتعلّقُ "بظواهرِه وخفاياه، والمرادُ أنّ كثرةَ ذلك بلغت مبلغًا لا يُحيطُ به إلّا عِلْمُ اللّطيفِ الخبيرِ"[3]، و﴿خُبۡرٗا﴾ "نُصِبَ على المصدر؛

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 292.

لأنّ في ﴿أَحَطۡنَا﴾ معنَى خَبِرْنا خبرًا"[1]، أي: لم نجعلْ لهم شيئًا يُظلّهُم من سقفٍ ولا لباسٍ[2]، وفي العلمِ والإحاطةِ بالخبر كنايةٌ عن كونِ المعلوم عظيمًا، بحيث لا يحيطُ به علمًا إلّا علّامُ الغيوب[3].

سرُّ العطفِ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، وفيه ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي، وهي تنبئُ بأنّ ذا القرنيْن لم يبرحِ القومَ الّذين وجدَهم في جهة مغربِ الشّمس، حتّى حلّ مشكلاتِهم، وأصلحَ أحوالَهم، وأنّ ذلك استغرقَ وقتًا غيرَ قليل؛ لما في ﴿ثُمَّ﴾ منَ التّراخي الزّمنيّ.

دلالةُ التّكرارِ في قوله: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾:

تَكرارُ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، يُلِحُّ على أنّ مسيرَ ذي القرنيْن، كان مُتجدّدًا أبدًا، وأنّ ثانيَ أسبابِه غيرُ أوّلِها، وأنّ ثالثَها غيرُ ثانيها، وفي ذلك كنايةٌ عن وفرةِ همّتِه في اكتشافِ بلادٍ جديدةٍ؛ حيث يمرُّ في كلّ طريقٍ، لأوّل مرّةٍ، فيرى ما لم يكن يرى في الطُّرق السّابقةِ؛ فيُصلحُ ما يَلقاه فاسدًا، ويُرتّبُ أحوالَ البلاد الّتي يَكتشفُها حديثًا، كلّما استحدثَ طريقًا.

ذو القرنَيْن عالي الهِمّةِ حسنُ القصدِ مُخلصٌ في دعوتِه

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السِّتْرُ والحِجابُ:

إنّ "الحجابَ هو المانِع والممنوعُ بِه، والسّترُ هو المستورُ بِه، ويجوزُ أن يُقال حجابُ الشَّيء ما قَصدُه سترُه، ألَا ترى أَنَّك لا تَقول لمن منع غَيرَه منَ الدُّخول من غير قَصْدِ المَنع لَهُ: إِنَّه حجبه؟ وإنَّما يُقال: حجبَه إذا قصدَ مَنْعَه، ولا تقول احتَجَبتُ بالبَيْتِ إلّا إذا قصدتَ منعَ غَيرك عَن مشاهدتِك، أَلا ترى أنَّك إذا جَلَست في البَيْت، ولم تقصدْ

لفظُ السّترِ أبلغُ، وهو لا يمنَعُ منَ الدُّخولِ على المستورِ، والحجابُ يمنَعُ ذلك

(1) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1300.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 309.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.

ذَلِك لم تقل إنَّك قدِ احتججت؟ وفرقٌ آخرُ أَنَّ السّتْرَ لا يمنَعُ منَ الدُّخول على المستورِ والحجابُ يمنَعُ"[1]، والغطاءُ مادّيٌّ محسوسٌ، بينما الحجابُ يحملُ المعنَى الماديَّ والمعنويَّ كليهما، فالمرءُ يسترُ ما يكون من فسادٍ أو تشويه، ويسترُ رأسَه حتّى لا تصيبَه الشّمسُ أو يُبلّلَه المطرُ، وقد يسترُ عنِ النّاس عيوبَه، ويطلبُ منَ اللّه أن يشملَه بسترِه، والحجابُ: اسمُ ما حجبتَ به بين شيئَيْن، وكلُّ شيءٍ منعَ شيئًا فقد حجبَه، كما تحجبُ الأمُّ الإخوةَ عن فريضتِها[2].

الخُبْرُ والعِلْمُ:

"الخُبر: لخِبرَة المعرفةِ ببواطن الأمرِ"[3]، و"الخَبَر هو العلمُ بكُنْه المعلوماتِ على حقائقِها، ففيه معنًى زائدٌ على العلمِ ... وخبُرت الشَّيْءَ إذا عرفت حَقيقَة خَبره، وأَنا خابر وخبير من قَوْلك: خبرتُ الشَّيْء إذا عَرفته؛ مُبالغَةً مثلَ عليم وقديرٍ ثمَّ كثرَ حَتَّى اسْتُعْمل في معرفَة كُنْهِه وحَقيقَته"[4]، و"العِلْمُ: اليَقينُ، يُقالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاءَ بمَعْنَى المَعْرِفَةِ أَيْضًا"[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 288.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/ 97.
(3) الراغب، المفردات: (خبر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.
(5) الفيومي، المصباح المنير: (علم).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف: 93 - 94]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

مواصلةُ المهمّةِ بين السّدّيْن بعد نجاحِ المهمّةِ في مغربِ الشّمسِ ومطلعِها

تقُصُّ الآياتُ الكريماتُ هنا، الحدثَ الثّالثَ منَ الأحداثِ الكبرى، الّتي قام بها ذو القرنيْن، حين آتاه اللّه تعالى من كلّ شيءٍ سببًا، ومكَّن له في الأرض بالمال والجنودِ والعتادِ، فبعد أن قصَّتْ خبرَه مع القوم القاطنين، جهةَ مغربِ الشّمس، ثمّ خبرَه مع أهل مشرقِ الشّمسِ، تنتقلُ الآياتُ الكريماتُ هنا إلى قصِّ خبرِه مع القوم القاطنين وراءَ السَّدَّيْن، ويُعانون منِ اعتداءاتِ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم قومٌ لا يكادون يَفقهون قولًا، مع عُجمةٍ في اللّسان، ورُعبٍ منَ العُدوان، وانعدامِ فطنةٍ واقيةٍ، أو تجربةٍ راقيةٍ، فطلبوا من ذي القرنيْن أن يبنيَ لهم سدًّا، يمنعُ عنهمُ السّطوَ، ويَحميهم منَ الغزو، الّذي يزاولُه قومُ يأجوجَ ومأجوجَ، على بلاد التّركِ، فيأتون على الأخضرِ واليابسِ، ويُهلكون الحرثَ والنّسلَ، من أجل ذلك هبّوا لتأمينِ بلادِهم بذلك السّدِّ الواعدِ، لتوسُّمِهم في قوّة ذي القرنيْن ومُكْنته، ما لا تَستطيعُه هممُ الملوك سواه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾: أصلُ (سدّ) يدلُّ على رَدْمِ شيءٍ ومُلاءمتِه، من ذلكَ سددتُ الثُّلْمَةَ سدًّا، وكلّ حاجزٍ بينَ الشَّيئَينِ سدٌّ[1]، والسَّدُّ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدّ).

إغلاقُ الخَلَلِ ورَدْمُ الثَّلْم، والاسْمُ السُّدُّ[1]، والسَّدُّ والسُّدُّ: الجَبَلُ والحاجِزُ، وقيل: السُّدُّ: ما كان خِلقةً، والسَّدُّ: ما كان صَنعةً، والسِّدادُ: ما يُسَدُّ به الثّلمةُ والثّغرُ[2]، والمُرادُ بالسَّدّين في الآية: الجَبَلانِ، وسُمّيَ الجَبَلُ سدًّا؛ لأنَّه سدَّ فجًّا مِنَ الأرضِ[3].

2) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أصلُ (فقه) يَدُلُّ على إدْراكِ الشَّيْءِ والعِلْم بهِ[4]، وأَصْله الفَتْحُ والشَقُّ، ومنه سُمِّيَ العِلْمُ فِقهاً؛ لأنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأمرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ ليَكْتَشِفَ ما فيه[5]، ويأتي الفِقْهُ بمعنى الفَهْم[6]، يُقال: فقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فهِمتُهُ، والفِقْهُ أيضًا: الإدْراكُ والعِلْمُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: فقُهَ الرَّجُلُ، فقاهَةً وفِقْهاً، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعلَّمَ[7]، ثمَّ خُصَّ به عِلْمُ الدّينِ لشَرَفِه على جَميعِ العُلومِ[8]، والمقصودُ بالفِقْه في الآية: الفَهمُ، أي: لا يفهمونَ قولَ غيرِهم[9].

3) ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾: يأجوج ومأجوج - بالهمز: من أَجَّت النّار تئجُّ: إذا سمعتَ صوتَ لهبها، أو منَ الماءِ الأُجاج، وهو الشَّديدُ الملوحة المُحرقُ من ملوحته، وقيل إنَّ اشتقاقَهما من الأجِّ وهو سرعةُ العدوّ، وقيل: من الأجَّة بالتَّشديد، وهي الاختلاطُ والاضطرابُ، وهما غيرُ مصروفَين، وقيل: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان[10]، وهما قبيلتان من بني آدم كثيرتا العدَد من ولدِ يافثَ بن نوحٍ عليه السلام، يخرجان في زمن عيسى عليه السلام آخرَ الزَّمان ويُفسدان في الأرض حتى يُهلكَهما اللّه تعالى[11].

4) ﴿خَرْجًا﴾: أصلُ (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيْءِ، ومنه الخُراجُ بالجَسَدِ[12]، والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخْرَجُ منَ المال في السَّنة بقَدْرٍ معلوم؛ لأنَّهُ مالٌ يُخرِجُهُ المُعطي[13]،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سدَّ - سدد).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدد).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 572.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فقه).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (فقه).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (فقه).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 23.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (أج - أجج).
(11) العتيبي، القيامة الصغرى، ص: 272، والفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص: 236.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(13) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

قالَ الزَّجّاجُ: الخَراجُ الفيءُ، والخَرْجُ الضَّريبةُ والجِزيةُ[1]، والمُراد بها في الآية: المالُ الَّذي يُدفَعُ للمَلِكِ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

طلبُ سدٍّ يُرسّيه ذو القرنَيْن ليَمنعَهم منَ الغاراتِ والغزوِ

سلك ذو القرنَيْن طريقًا آخرَ انتهى به وبجيشه إلى بلادٍ بين جبلَين، ويسكنُ تلك البلادَ أقوامٌ لا تكادُ تُعْرَف لغتُهم إلّا بصعوبةٍ، وقد جاوروا يأجوجَ ومأجوجَ، وهم قومٌ مفسدون في الأرض، وعلى جانبٍ منَ الفوضَى والبِدائيّةِ[3]، فطلبَ القومُ الّذين هم دون السّدّين، من ذي القرنَيْن، وهو ملكٌ عظيمٌ دان له المشرقُ والمغربُ، أن يبنيَ لهم سدًّا، مقابلَ عطاءٍ يقدّمونَه له، بحيث يكونُ حاجزًا بينهم وبين هؤلاء الغُزاةِ، الّذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون[4]، والسّورُ المحيطُ بالعمران، كان ذا فعاليّةٍ معتبرةٍ في الحماية وصدِّ العدوان عنِ الأوطان، وخصوصًا في ذلك الزّمان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية عن سابقِها:

القَصصُ القرآنيُّ وثيقُ الأركانِ متلاحمُ البُنيانِ

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ لما بينهما من شِبه كمالِ الاتّصال؛ أي الاستئنافِ البيانيّ؛ لأنَّ جملةَ ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ تثيرُ في الذّهن سؤالًا، وتُشوّقُ - قطعًا - إلى معرفةِ التّالي من أحداث هذه القصّةِ الفريدةِ في بابها، منَ الجهادِ في سبيل اللّه تعالى، وفتحِ البلدان من أقصى المعمورةِ إلى أقصاها.

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾:

علوُّ الهمّةِ في القائدِ يأبى له إلّا بلوغَ النّهاياتِ الحميدةِ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ "حرف

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 310.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 34.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 2/ 437.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 923.

غايةٍ"[1]؛ يُفصحُ عن غايةِ ذي القرنَيْن في مسيره إلى وجهتِه الجديدةِ، كان يبتغي الخيرَ بإصلاح أحوالِ البلاد والعبادِ، فما يكونُ لقائدٍ مثلِه أن يَقنعَ باليسيرِ منَ الأعمال، وقد آتاه اللّه تعالى هذه الأسبابَ المُعينةَ، وتلك همّةٌ عاليةٌ قلّ نظيرُها؛ ولذلك نالَ شرفَ الذّكر والإشادةِ بإنجازاتِه في الكتابِ الخالد - القرآنِ الكريمِ - .

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

القائدُ المظفّرُ يُحصّنُ رعيّتَه منَ الأعداء مهما كانتِ الكُلْفةُ

تقييدُ بلوغِ ذي القرنيْن بـ ﴿إِذَا﴾ يقطعُ بأنّ مدخولَها ﴿بَلَغَ﴾ تحقّقَ فعلًا، وأنّه كان صادقَ العزم، جادَّ العزيمةِ، في تطوافِه بحثًا عن مظلومين أو منكوبين ليُنقذَهم، وقد حقّقَ اللّه تعالى له ما أراد؛ فوجد قومًا مظلومين منَ القبيلتيْن الظّالمتيْن ﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ فحصّنَهم منهم بحاجزٍ منيعٍ، ويوحي التّقييدُ بـ(إن) بافتراضِ بلوغِه بين السَّدَّيْن، لا القطعِ به؛ لذلك كان المقامُ لـ ﴿إِذَا﴾ دونَها.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

القائدُ المُؤيَّدُ منَ الله تعالى يَمضي إلى سبيله لا يَعوقُه شيءٌ

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾، في جملة الشّرطِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، يُقرِّرُ تَحقُّقَ بلوغِ ذي القرنيْن وجهتَه الجديدةَ، وأنّه قد وصل فعلًا إلى هذا الموقع، وممّا يدعمُ هذه الدّلالةَ ويُؤازرُها، إيثارُ تقييدِ بلوغِه بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ كما سبق بيانُ ذلك.

إيثارُ التّعبيرِ بالبلوغ دونَ مرادفاتِه:

الزّعيمُ الموفّقُ يتحسّسُ أحوالَ رعيّتِه فيُساعدُهم ويُعينُهم

إيثارُ مادّةِ البلوغِ في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ دون غيرِها، ممّا يقاربُها في الدّلالة يوحي بأنّه قد ترامَى إلى علم ذي القرنيْن أمرُ هؤلاء المظلومين، فأراد إجارتَهم منَ القوم الظّالمين ﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾، وأنّ بلوغَ هذه البلاد كانت حينئذٍ غايةً له، أمّا مادّةُ الوصولِ - مثلًا - فلا تعطي هذه الدّلالةَ المقصودةَ لسياق الأحداثِ؛ إذ ليس فيها سوى مطلقِ الوصول، بغضِّ النّظرِ عنِ الغاية.

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

سرُّ التّعبيرِ بالظَّرف ﴿بَيۡنَ﴾ في السّياق:

تدلُّ ﴿بَيۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، على التّحديدِ الدّقيقِ لنقطةِ الوصولِ، والمقصودُ تلك النّقطةُ، أو ذلك الموضعُ الفاصلُ بين الجبلَين المقصودَين.

التّحديدُ الدّقيقُ لنقطةِ البلوغِ يكشفُ عنِ الإصرارِ على تحقّقِ الغاية

دلالة (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ في السّياق:

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، يمكنُ أن تكون اللّامُ للعهد، في لفظ ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، وهو ممّا يوحي بشُهْرتِهما في زمانِ ذي القرنيَن، أو بأنّه يعرفُهما بطريقةٍ ما، ويمكنُ أن تكونَ "لتعريف الجنس، أي بين سدَّين معيّنَين، أي: اتَّبع طريقًا آخرَ في غزوةٍ، حتى بلغ بين جبلَين معلومَين"[1]، و"موضعُ السّدّين في ناحية الشّمالِ، وقيل: جبلانِ بين أرمينيّة وأذربيجان، وقيل: هذا المكانُ في مقطعِ أرضِ التّرك"[2].

السّدّانِ كانا مشهورَيْن معروفَيْن آنئذٍ

سرُّ التّعبيرِ بالوجود دونَ غيرِه:

التّعبيرُ بكلمة ﴿وَجَدَ﴾، يوحي بأنّه كان مهمومًا بالبحثِ عن شيءٍ ووجده، وأنّه ما كان يتوجّهُ نحو جهةٍ ما، كيفما اتّفقَ له ولجيشه، بل كان يتّخذُ من كلِّ مكانٍ يؤمُّه وجهةً مقصودةً، متحرّيًا تحقيقَ غايةٍ شريفةٍ، من دعوةٍ إلى اللّه تعالى أو تنظيمٍ لحياةِ الرّعيّة، أو غيرِ ذلك.

القائدُ النّاجحُ يَعقدُ لكلّ مهمّةٍ نيّتَه، ويَمنحُها كاملَ همَّتِه

معنَى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ لابتداءِ الغاية، أي أنّه وجد بدايةً من هذا الموضعِ - أي خلْفَ السّدَّيْن - قومًا لهم لغةٌ غريبةٌ؛ ليس منَ اليسيرِ فهمُهم ولا إفهامُهم، أي وجد بدايةً ﴿مِن﴾ الجهة الخلفيّةِ للسّدَّيْن إلى ما لا يعلمُ منتهاه لا هو ولا القومُ.

الكشفُ عنِ ابتداء الحصولِ على الغايةِ المقصودةِ توفيقٌ منَ الله

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 31.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 498.

إيثارُ التّعبيرِ بـ ﴿دُونِهِمَا﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِمَا﴾:

مراتبُ الإنسانِ في الاحتياجِ إلى الإصلاحِ مُتفاوتةٌ

"دون: ظرفُ مكانٍ ملازمٌ للظّرفيّةِ الحقيقيّةِ أوِ المجازيّةِ"[1]، و"هو نقيضُ (فوْق)، نحوَ (هو دونَه)، أي: أحطُّ منه رُتبةً، أو منزلةً، أو مكانًا"[2]، وهذا يعني أنّ القومَ المُستجيرين بذي القرنَيْن من يأجوج ومأجوج، كانوا في وادٍ أحطَّ منهما؛ فكان هبوطُ أولئك الظّالمين عليهم يدمّرُ ممتلكاتِهم، ويُهلك كثيرًا منهم.

سرُّ ورودِ ﴿قَوۡمٗا﴾ مؤخّرًا:

أئمّةُ الهُدى يَعتنون بالأحوالِ السّيّئةِ لإصلاحِ الفسادِ

الغرضُ من تأخير ﴿قَوۡمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا﴾ هو توفيرُ العنايةِ على وصْفِهم الكاشفِ عن شدّةِ حاجتِهم، ولذا أخّرَهم، وقدّم تحديدَ مكانِهم، ورُتبتِهم المُتدنّيةِ، وذلك كلُّه لتوفيرِ العنايةِ على بيانِ حاجتِهم للإصلاحِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ مَنفيًّا في قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾:

نفْيُ مقاربةِ الفعلِ أبلغُ من نفْيِ الفعلِ

﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ نافيةٌ[3]، وفي فعلِ المقاربةِ المنفيّ ﴿يَكَادُونَ﴾ قولان: **القول الأوّل**: أنّ إثباتَه نفيٌ، ونفيَه إثباتٌ، فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، لا يدلُّ على أنّهم لا يَفهمون شيئًا، بل يدلُّ على أنّهم قد يَفهمون على مشقّةٍ وصعوبةٍ، **والقولُ الثّاني**: أنّ (كاد) معناه المقارَبةُ، وعلى هذا القولِ فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، أي: لا يعلمون، وليس لهم قُرْبٌ مِن أن يَفقهوا.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَكَادُونَ﴾:

صعوبةُ فقهِ القولِ دالّةٌ على مشقّةِ المُهمّةِ

التّعبيرُ بنفْيِ المضارع ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾، دقيقٌ في تصويرِ صعوبةِ

---

(1) التّوحيديّ، البحر المحيط: 1/ 165.

(2) الغلايينيّ، جامع الدروس العربية، ص: 3/ 64.

(3) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 232.

التّفاهمِ معهم، وأنّ هذا وذاك لا يتحقّقُ "إلّا بجهدٍ ومشقّةٍ من إشارة ونحوِها"[1]، وذلك "لغرابةِ لُغتِهم، وقِلَّة فِطنتِهم"[2].

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ دون غيرِه:

الفقهُ والتّفقيهُ غايةُ اللّغاتِ المُفهمةِ للبلاغِ بين النّاسِ

سرُّ التّعبيرِ بالفقه دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ هو أنّ الفقهَ والتّفقيهَ غايةُ اللّغاتِ؛ فليس الشّأنُ أنّ لهم لغةً، وإنّما الشّأنُ أن يفقَه عنهم غيرُهم، أو أن يَفقهوا هم عن غيرِهم، وهذا من عطاءِ التّعبيرِ بالفقه، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، وإذا كان الفِقهُ "هو التّوصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخصُّ منَ العلم، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: 78]"[3]... وهذا لا يَنفي إمكانَ الفهم عنهم وإفهامِهم، وبخاصّةٍ من قِبَل عبدٍ ربّاني مَنْفوحٍ بأسباب التّمكينِ مِن ربّه ﷻ مثلِ ذي القرنيْن، وقد قيل: "إنّ فهْمَ ذي القرنيْن لكلامِهم من جملةِ الأسبابِ الّتي أعطاه اللّه إيّاه"[4]، "ويجوزُ أن يكونَ المعنى أنّهم قومٌ مُتوغّلون في البداوةِ والبلاهةِ، فلا يَفهمون ما يقصدُه من يخاطبُهم"[5]، وكلُّ ذلك ممّا يبيّنُ مشقّةَ المهمّةِ.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ الجمعِ في: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

حينما يَتساوَى القومُ في عدمِ الفقهِ؛ تزدادُ مهمّةُ الدّاعيةِ صُعوبةً

فاعلُ الفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ "جُمِعَ كما جُمِعَ ﴿خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الحجّ: 19]"[6]؛ وفيه دلالةٌ على اجتماعِهم في وصْفِ عدمِ الفقه، وكلُّ ذلك ممّا يتآزرُ في بيان صعوبةِ المهمّةِ.

دلالةُ تنوّعِ القراءاتِ في الفعلِ: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

مَن لم يفقهْ في ذاتِه، لا يستطيعُ أن يُفقِهَ غيرَه

قُرِئَ هذا الفِعلُ بضمّ الياءِ وكسرِ القافِ: ﴿يُفۡقِهُونَ﴾، وهي

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 319.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 244.
(3) الراغب، المفردات: (فقه).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 368.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 31.
(6) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1303.

قراءة حمزة والكسائي وخلف، يعني: أنّ كلامَهم لا يَفهمُه أحدٌ غيرُهم، وقرأ باقي العشرة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بالنّصب، يعني: أنّهم لا يَفقهون قولَ غيرِهم[1]، قال ابنُ عبّاس: لا يَفهمون كلامَ أحدٍ، ولا يَفهم النّاسُ كلامَهم[2]؛ فـ "مَن ضَمَّ (الياء) قدَّر حَذْفَ مفعولٍ، تقديرُه: لا يُفقهون أحدًا قولًا، ولا حذْفَ مع فتح الياء"[3].

"وكلتا القراءتَين على معنًى سواء، في أنّ القومَ ما زالوا في درجة متأخّرةٍ منَ الإنسانيّة، وأنّهم وإنِ ارتفعوا قليلًا عن هؤلاء القومِ الّذين صادفَهم عند مطلعِ الشّمس، إلّا أنّهم ما زالوا في مرحلة الصِّبا، لا يَحتملون تبعاتِ التّكاليف، ولهذا كان موقفُه منهم موقفًا وسطًا، فلم يَدعُهم إلى الإيمان باللّه؛ لأنّهم دونَ مستوى هذه الدّعوةِ، ولم يتركْهم وشأنَهم بل أخذَهم بشيءٍ منَ الوقاية والرّعايةِ، حتّى يَرشدوا ويَبلغوا مبلغَ الرّجال، وهم على وشكِ أن يبلغوه، فأقامَ لهم هذا السّدَّ الّذي يَحميهم من عواصفِ الشّرِّ الّتي تهبُّ عليهم من جيرانِهم: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾"[4].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْلًا﴾ في السّياق:

ممّا يَشقُّ على أئمّةِ الهُدى قلّةُ الفقه بالحقائقِ

جاء ﴿قَوْلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، مفعولًا منكّرًا ليدلَّ على تجريدِهم من فقه أغلبِ الكلام، ولتأكيدِ أنّ فقهَهم قليلٌ جدًا، ولا يُجاوزُ حيّزَ ﴿يَكَادُونَ﴾، و﴿قَوْلًا﴾؛ لذلك لم ينصَّ على مثلِ ما قدّرَه بعضُ العلماء، حيث يقولُ: "أي لا يَفْقَهونَ كلامًا غيرَ كلامِهم، ولسانًا غيرَ لسانِهم"[5].

سرُّ فصلِ جملةِ: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾:

فُصلتْ جملةُ: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ عن سابقَتِها، لأنّها "استئنافٌ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/315، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 166.
(3) الإبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 4/ 271.
(4) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 706.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.

للمحاورةِ، وجملُ حكايةِ القولِ في المحاوراتِ لا تقترنُ بحرف العطفِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] الآية، فعلى أوّلِ الاحتمالَين في معنى ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾، أنّهم لا يُدركون ما يُطلبُ منهم مِن طاعةٍ ونظامٍ، ومع ذلك يُعربون عمّا في نفوسهم منَ الأغراض، مثلَ إعرابِ الأطفالِ، وعلى الاحتمال الثّاني أنّهم أمكنَهم أن يُفهمَ مرادُهم بعْدَ لأيٍ"[1].

من توفيقِ الله للدّاعي إلى سبيلِه التّعجيلُ بظهورِ التّأثيرِ

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

الضّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ عائد على هؤلاء القوم[2]، الّذين مِن دون السَّدَّيْن[3]، ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، أي: "قال مترجمُهم[4]، أو "أن يكون فهم ذي القرنَيْن كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم من جملة ما آتاه اللّه تعالى من الأسباب"[5]، وقد جاء التّعبير بضمير الجمع تعظيمًا لأثر ذي القرنَيْن، فبعدما كانوا جميعًا لا يكادون يفقهون قولًا، صاروا يستجيبون.

توفيقُ الله جعلَهم جميعًا يَفقهون ويُجيبون

سرُّ النِّداء في جملة: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

نداءُ القوم ذا القرنَيْن المحكيُّ في قوله تعالى: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، "نداءُ المستغيثين المُضطرّين، ونداؤهم إيّاه بلقبِ ذي القرنَيْن، يدلُّ على أنّه مشهورٌ بمعنى ذلك اللّقبِ بين الأمم المُتاخمةِ لبلاده"[6]، ونداؤُهم ذا القرنَيْن بأداةِ البعيدِ (يا) إنزالٌ له منزلتَه الّتي يَستحقُّها؛ لأنّه القائدُ المظفّرُ، وقد يكونُ نبيًّا إلى ذلك، وكأنّهم من خلال (يا) يقولون له: يا صاحبَ المكانةِ العاليةِ، والرُّتبةِ الرّفيعةِ

من سيماءِ العظماءِ أنّهم يَتواضعون للدّهماءِ والضّعفاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 32.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 225.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 293.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 244.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 32.

نلتمسُ إليك كذا وكذا؛ وذلك أدْعى لإجابتِهم إلى طلبِهم، وقد كان - وزيادةٌ، ونداؤهم إيّاه بوصْفِه ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، مباشرةً بلا تقديمِ ألقابِ التّمجيد - تواضعٌ يُعرفُ به العظماءُ، حين يَتواضعون، ويَتودّدون للضّعفاء.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾:

تأكيدُ المطالبِ إعلانٌ عن شدّةِ الرّغبةِ من الطّالبِ

دعمُ المطلبِ بعناصرَ توكيدٍ، لاستمالةِ المخاطَبِ - ذا القرنيْن - إلى تنفيذِ رغبتِهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ﴾، فبنَوا على ﴿إِنَّ﴾، وختَموا السّببَ بالاسم ﴿مُفْسِدُونَ﴾، وقد ساق القومُ كلامًا طويلًا بين يدي المطلبِ الّذي فرَّعوه على تلك المقدَّماتِ؛ فقالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، وهم بذلك يَتودّدون إلى ذي القرنيْن؛ فيَعرِضون عليه أجرًا.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ بين ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾:

حينما يَصدرُ الفسادُ من أخلاطٍ يكونُ عريضًا

لفظُ ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾، اسمٌ وضعَه القرآنُ حاكيًا به معناه، في لغة تلك الأمّةِ المناسبَ لحال مجتمعِهم، فاشتقَّ لهما من مادّة الأجِّ، وهو الخلطُ، إذ قد علمتَ أنّ تلك الأمّةَ كانت أخلاطًا من أصنافٍ"[1]، وقد قيل: هما أعجميان لا اشتقاقَ لهما، ومُنِعا منَ الصّرف للعلميَّة والعُجْمة، وقيل: بل هما عربيّان، واختلفوا في اشتقاقِهما؛ فقيل: اشتقاقُهما مِنْ أجيجِ النّارِ؛ وهو التهابُها وشِدَّةُ تَوَقُّدِها، وقيل: من الأَجَّة؛ وهو الاختلاطُ أو شدةُ الحَرِّ، وقيل: من الأجِّ؛ وهو سُرْعةُ العَدْوِ؛ وقيل: من الأُجاج، وهو الماءُ المِلْحُ الزُّعاقُ، واحتملَ البعضُ أن يكونَ مأجوجُ مِنْ ماج يموج؛ أي: اضطرب؛ ومنه المَوجُ فوزنُه مَفعول والأصل: مَوْجوج، وفي هذا الأخير نظرٌ[2]، وأيًّا كان أصلُ اشتقاقه؛ فهو لفظٌ عربيٌّ فصيحٌ لوروده في القرآن الكريم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 545.

وانسيابِه على ألسُنِ الفصحاءِ دون إشكالٍ، وفي جناس الاشتقاقِ فيه، حكايةٌ للحالِ وتناسبٌ مع المقصودِ من بيان فسادِهم وتأكيدِه، حيث تجمعُهم مصلحةٌ واحدةٌ؛ وهي الإفسادُ.

سرُّ عطْفِ ﴿وَمَأْجُوجَ﴾ على ﴿يَأْجُوجَ﴾:

مُراوحةُ هذا الاسمِ، بين عطْفِ طرفَيْه، أو كونِه مركّبًا تركيبًا مَزجيًّا

"يحتملُ أنّ الواو الواقعةَ بين الاسمَين حرفُ عطف؛ فتكونُ أمّةً ذاتَ شعبيْن، وهمُ المغولُ وبعضُ أصنافِ التّتار، وهذا هو المناسبُ لأصل رسمِ الكلمة، ولا سيّما على القول بأنّهما اسمان عربيّان"[(1)]، و"كان الاسمُ العامُّ الّذي يجمعُ القبيلتَين (ماجوج) ثمّ انقسمتِ الأمّةُ فسُمّيت فروعُها بأسماءَ خاصّةٍ، فمنها (ماجوج) و(ياجوج) و(تتر) ثمّ (التّركمان) ثمّ (التّرك)، ويحتملُ أنّ الواو المذكورةَ ليست عاطفةً، ولكنّها جاءت في صورة العاطفةِ، فيكونُ اللّفظُ كلمةً واحدةً، مركَّبةً تركيبًا مزجيًّا، فيتكوّنُ اسمًا لأمّة وهمُ المغولُ"[(2)].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُفْسِدُونَ﴾ في الآية:

الفسادُ أعمُّ مفرداتِ التّخريبِ، والتّعبيرُ عن كلِّ فعْلٍ مُريبٍ

لفظُ الفسادِ أعمُّ الألفاظِ الدّالّةِ على تخريب البلادِ، وإهدارِ مصالح العبادِ، وقد ردّده القرآنُ الكريم، في مقامات الذمّ كثيرًا، وهذا المقامُ أحدُ تلك المقاماتِ، لذلك بلغَ بالعلماء أن يُفسّروا إفسادَ يأجوجَ ومأجوجَ بمعان منها: إفسادُهم: أي أكلُهم بني آدمَ، وقالت فرقةٌ: إفسادُهم: إنّما عندهم توقّعًا، أيْ: سيُفسدون، فطلبوا وجهَ التّحرُّز منهم، وقالت فرقةٌ: إفسادُهم هو الظّلمُ والغشمُ والقتلُ، وسائرُ وجوه الإفسادِ المعلوم منَ البشر، وهذا أظهرُ الأقوال؛ لأنّ الطّائفة الشّاكيةَ، إنّما تشكّت من ضررٍ قد نالَها"[(3)]، ولفظُ الفسادِ محتملٌ لكلّ هذه الأقسام[(4)].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 33.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 542.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 499.

دلالةُ التّعبيرِ بالمُسنَدِ ﴿مُفۡسِدُونَ﴾ جمعًا:

اجتماعُهم في الإفسادِ بيانٌ لأحقيّةِ المُشتكين في مطلبِهم

التّعبيرُ بالفساد جمعًا في الخبر ﴿مُفۡسِدُونَ﴾، يدلُّ على أنّ الفسادَ قد عمَّ أفرادَهم، ولم يقتصرْ على أُمرائِهم أو كُبرائِهم، فهم وإن كانوا طائفتَين اثنتَين، غيرَ أنّ أفرادَهم لا يكادون يَنتهون عدًّا، لذلك جاء الخبرُ عنهم جمعًا في قولهم: ﴿مُفۡسِدُونَ﴾.

دلالةُ الظَّرفيّةِ وسرُّ التّعريفِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

التّغلغلُ في الإفسادِ طبْعٌ فيهم، والتّعبيرُ شفيعٌ للمطلوبِ

قُيِّد إفسادُ يأجوجَ ومأجوجَ، بحرف الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾ من قولِ القوم: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، يدلُّ على تمكُّنِهم وتغلغلِهم في باب الإفسادِ، وأنّ إفسادَهم لم يتوقّف عند حدودِ الظّاهر، بل تجاوزَها إلى أعماق الباطنِ، كذلك في تعليق الإفسادِ بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، كنايةً عن كثرته فيهم وفيضانِه من ظلْمِهم العبادَ على البلاد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: 41] والمرادُ بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قول القوم: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ "أي: في أرضنا؛ بالقتلِ، والتّخريبِ، وإتلافِ الزّرع"[1]، أو مفسدون في جنس الأرضِ، أينما حلّوا أفسَدوا؛ ويَدْعَمُ ذلك ما جاء في حديث خروجهم وفيه: "ويبعثُ اللّه يأجوجَ ومأجوجَ، وهم من كلّ حدبٍ يَنسلون، فيمرُّ أوائلُهم على بحيرةِ طبريةَ، فيَشربون ما فيها، ويمرُّ آخرُهم، فيقول: لقد كان بهذه مرّةً ماءٌ"[2].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾:

التّفريعُ على المطلب تأسيسٌ صحيحٌ له

الفاءُ في قولهم: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ عاطفةٌ[3]، جاءت لتفريعِ العَرْضِ على إفسادِهم في الأرض[4]، فقد قدّموا مقتضياتِ رغبتِهم ورجائِهم، ثمّ فرَّعوا عليه طلبَهم في صورةِ عرْضٍ مهذّبٍ يليقُ بمقام ذي القرنيْن الّذي عايَنوه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 293.

(2) الحميدي، الجمع بين الصّحيحين: 3/ 525.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 245.

الغرضُ منَ الاستفهامِ في سياقِ الآيةِ:

أسلوبُ العرضِ في الطّلبِ منَ الكبارِ أنسبُ لمقامِهم

قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾، "الاستفهامُ في قولِهم ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ﴾، مستعملٌ في العرضِ"[1]؛ صدرَ منهم "على جهة حسنِ الأدبِ ... فعرضوا عليه أن يَجمعوا له أموالًا يُقيمُ بها أمرَ السَّدِّ"[2]، وهو "حكايةٌ لما عرَضَه هؤلاء القومُ على ذي القرنيْن من عروضٍ، تدلُّ على ثقتِهم فيه، وحسْنِ أدبِهم معه، حيث خاطبوه بصيغةِ الاستفهامِ الدّالّةِ على أنّهم يُفَوِّضون الأمرَ إليه"[3]؛ وذلك أدْعى للاستجابةِ، وقد كانت.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿نَجۡعَلُ﴾:

التّعبيرُ مناسبٌ في مقامِ التّأنيسِ لتحقيقِ المطلوبِ

المناسبةُ جليّةٌ في استعمال المضارعِ ﴿نَجۡعَلُ﴾ في قول القومِ لذي القرنيْن: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ لمقام الأدبِ وأسلوبِ العرضِ والالتماس، كذلك تدلُّ صيغةُ المضارعةِ في ﴿نَجۡعَلُ﴾ على كمال استعدادِهم، لدفع المطلوبِ منهم، ولو كان على جهة الاستمرارِ التجدُّديِّ الّذي لا يتوقّفُ، فالخَرْجُ "هو الّذي يُجبيه السّلطانُ كلَّ سنةٍ"[4]، "والمالُ الّذي يُدفعُ للملك"[5].

سرُّ التّعبيرِ بفعلِ ﴿نَجۡعَلُ﴾ في السّياقِ:

منْ فصيحِ البيانِ انتقاءُ ما يُبينُ عنِ القصْدِ في أوجزِ لفظٍ

إيثارُ مادّةِ (الجَعْل) في عَرْض القومِ: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ﴾ ينهضُ بدلالتَين، تتآزران كلتاهما على بيانِ القصْدِ في أوجز لفظٍ:

الدّلالةُ الأولى: التّنويهُ بنيَّة الشّروعِ في جمعِ الأجرِ، وأنّه ليس حاضرًا ولن يكونَ كثيرًا، وذلك يُلمحُ إلى ضعف حالتِهم الماليةِ؛ ويُؤيّدُه تنكيرُهم المفعولَ ﴿خَرۡجًا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 573.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 499.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.

الدّلالةُ الثّانيةُ: أنّ (الجعل) يُصرِّحُ بمعنَى الجَعالةِ - بفتح الجيم، وكسرها، وضمّها[1] - وهي "ما يُجْعَلُ للإنسان على شيءٍ يعملُه"[2]، والمعنَى: "هل نجعلُ لك عطيّةً نُخرجُها إليك من أموالنا، وتجعلُ بيننا وبينَهم سدًّا ما نتَّقي به الخرقَ؟"[3].

نُكتةُ تقديمِ القيْدِ على المفعولِ به في السّياقِ:

تخصيصُ العطاءِ ترغيبٌ في تحقيقِ المطلوبِ

قدَّم القومُ القيدَ بالجارّ والمجرور ﴿لَكَ﴾، في قولهم: ﴿نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾، على المفعولِ ﴿خَرۡجًا﴾ تأكيدًا لذي القرنيْن، على أنّ ذلك الخرجَ مِلكٌ لك خاصٌّ بك، لا تُنازَعُ فيه.

دلالةُ لفظِ ﴿خَرۡجًا﴾ وتنكيرِه وتأخيرِه:

إغراءٌ بالخرجِ للمبادرةِ بإنجازِ السّدِّ، وانتظامُهم في سلك الحقوق

التّعبيرُ بـ﴿خَرۡجًا﴾، في قولهم لذي القرنَيْن: ﴿نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾، يدلُّ على وعْيِهم بطبائعِ العلاقاتِ، من توفيَةِ منجِزِ العملِ أجرَه، من قِبَلِ المعمولِ له، وتنكيرُ ﴿خَرۡجًا﴾ قد يدلّ على الإبهامِ المفيد للتّكثير، كما في: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾ [الأعراف: 113] فأومأوا بذلك لذي القرنين قصدًا للتكثير على إبهامٍ؛ بحيث يُغري على إقامة السّدِّ، مع الاعتذار على عدم توفيتهم جزاءه على عظيم ما طلبوه منه ظنًّا منهم أنهم لن يستطيعوا أن يوفوه حقّه، وتعويلًا منهم على إمكاناتِ ذي القرنيْن الهائلةِ، الّتي عايَنوها في جيشِه، وما معه، ممّا أجملَه الذِّكرُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾، وفي تأخيرِ ﴿خَرۡجًا﴾ تشويقٌ للعطاءِ، وحسنٌ في أدبِ العرضِ.

تنوّعُ القراءاتِ في ﴿خَرۡجًا﴾ وثراءُ المعنَى:

في القراءات ثراءٌ للعطاءِ وعلوٌّ لقدرِه

قَرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بفَتْحِ الرّاءِ وألِفٍ بَعْدَها: ﴿خَرَاجًا﴾، وقَرَأَ الباقونَ بإسْكانِ الرّاءِ مِنْ غَيْرِ ألِفٍ فيهما ﴿خَرۡجًا﴾، ففي الآية

---

(1) البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 240.

(2) الحميري، شمس العلوم: 2/ 1108.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1304.

قراءتان: ﴿خَرْجًا﴾، و﴿خَرَاجًا﴾ [1]. "وفي اختلاف القراءتَين ثلاثةُ أوجه: أحدُها: أنّ الخراجَ: الغلّةُ، والخرجُ الأجرةُ، الثّاني: أنّ الخراجَ اسمٌ لما يخرجُ منَ الأرض، والخرجُ ما يُؤخذُ عنِ الرّقاب، الثّالثُ: أنّ الخرجَ ما يؤخذُ دفعةً، والخراجُ ثابتٌ مأخوذٌ في كلّ سنةٍ"[2] و"(الخَرْجُ) على الرّؤوسِ و(الخَراجُ) على الأرض، ولهذا يقال: أدِّ خَرْجَ رَأسِكَ وأدِّ خَراجَ أرضِك، وقيل: الخَرْجُ ما تبرّعتَ به، والخراجُ ما لزمَك"[3]، ففي اصطفاءِ الذّكرِ الحكيم، هذه الكلمة ﴿خَرْجًا﴾ ضغطٌ لعروضِ القوم المتعدّدةِ لذي القرنَيْن، لقاءَ بناءِ السّدّ لهم، وتلك من ثمار تعدُّدِ القراءاتِ في هذه الكلمةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ في: ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾:

المؤمنون عندَ شُروطِهم، والعقدُ شريعةُ المتعاقِدين

في اشتراط القوم دفعَهم مقابلَ إقامةِ السّدِّ لذي القرنَيْن بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾، احتياطٌ لضمانِ حقِّهم لديه؛ وبيانٌ عن يقظتِهم في ضبط التّعاملِ برفعِ شرْطِه عاليًا، قبلَ بدءِ التّنفيذِ، فـ "﴿عَلَىٰٓ﴾ ومدخولُها مُتعلّقان بمحذوفٍ صفةً لـ ﴿خَرْجًا﴾، أي: قائمًا على هذا الشّرط؛ فـ﴿عَلَىٰٓ﴾ هنا على بابها أي: للاستعلاءِ"[4]، و﴿أَن﴾ مصدريّةٌ، أي: (نجعلُ لك خرجًا على جعْلك لنا سدًّا) أي: على شرط جعلِك لنا سدًّا؛ فهذا جعْلٌ في مقابلِ جعْلٍ.

سرُّ تكرارِ الظَّرفِ (بين) في ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ﴾:

السّياقُ موضوعٌ بدقّةٍ وتوازنٍ، ودلالةٌ على المُرادِ

قولُهم: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾، تَكرارُ القوم في اشتراطِهم الظّرفَ (بين) تأكيدٌ على تحديد المهمّةِ بتفاصيلَ أوفى؛ وهذا دليلٌ على أنّهم أهلُ يقظةٍ، وإن كانوا لا يكادون يَفقهون لغةَ غيرِهم، ولا يكادُ غيرُهم يفقهُ لغتَهم، فهم يُريدون إقامةَ سدٍّ في

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 315.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 342.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 923.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

ذلك المكانِ المحدّدِ؛ بحيث لا يقتربُ عنه ولا يبتعدُ، وفي قولهم ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ﴾، توازنٌ يناسبُ توسيطَ مكانِ السّدِّ المطلوبِ بناؤُه؛ فمِن جهتِهم يقولون: ﴿بَيۡنَنَا﴾ (ظرفٌ وضميرُهم مضافٌ إليه)، وفي المقابل يقولون: ﴿وَبَيۡنَهُمۡ﴾، ليأتيَ نفسُ (الظّرفُ وضميرُ يأجوج ومأجوج مضافٌ إليه)؛ فحصلَ التّوازنُ.

دلالةُ البدءِ بلفظِ ﴿بَيۡنَنَا﴾:

التّعبيرُ عن شدّةِ ما أصابَ القومَ من أذى الغُزاةِ المُفسدين

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ قدّم النّظمُ الكريمُ الظّرفَ الدّالَّ عليهم ﴿بَيۡنَنَا﴾ على الظّرف الدّالِّ على المُفسدين ﴿وَبَيۡنَهُمۡ﴾، إعلانًا عن شدّةِ ما أصابَهم من إفسادِهم، فقُدِّمَ ما يكشفُ عنايتَهم بأنفسِهم، وشدّةَ بأسِ عدوّهم.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَدّٗا﴾ وتأخيره:

من بليغِ البيانِ وضعُ المطلوبِ في الأخيرِ موضعَ الغاياتِ

جاء المفعولُ نكرةً في ﴿سَدّٗا﴾ - أي: حاجزًا[1] - في قول القومِ لذي القرنَيْن: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾، لإفادة التّعظيمِ والتّفخيمِ؛ أي: أن تجعلَ بيننا وبينَهم سدًّا منيعًا، لا يَستطيعون تخطّيَه إلينا، ولا شكّ أنّهم طلبوا سدًّا قويًّا وعاليًّا لمّا رأوا ما يمتلكُه ذو القرنَيْن من إمكاناتٍ تؤهِّلُه لإقامة هذا السَّدِّ، وتأخير المطلوبِ على تحقيق وقوعِه، فوُضعَ مؤخّرًا موضعَ الغاياتِ والنّهاياتِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّدُّ والجبلُ:

السّدُّ حاجزُ الماءِ بين الجبلَيْن، والجبلُ وتدٌ في الأرض من الحجارة والتّراب

السّدُّ أعمُّ مِنَ الجبل، فـ"السَّدُّ: الجبلُ"[2]، و"الحاجزُ بَين الشَّيئَين، والبناءُ في مجرَى الماء ليَحجزَه"[3]، "وحكى الزّجّاجُ: ما كان مسدودًا خِلقةً، فهو سُدٌّ، وما كان من عملِ النّاس، فهو سَدٌّ،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 362.

(2) الحميريّ، شمس العلوم: (السد).

(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (السد).

وعلى ذلك وجهُ قراءةِ مَن قرأ: بين السَّدَيْن والسُّدَيْن، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: 9]، قال الزّجّاجُ: هؤلاء جماعةٌ أرادوا بالنّبيّ ﷺ سوءًا، فحالَ اللّه بينهم وبين ذلك، فجُعلوا بمنزلةِ مَنْ غُلّت يدُه، وسُدَّ طريقُه من بين يديه ومن خلفِه، وجُعل على بصرِه غشاوةٌ"[1].

و"الجَبَلُ: اسمٌ لكلِّ وتدٍ من أوتادِ الأرض إذا عظُمَ وطالَ منَ الأعلامِ والأطوارِ والشّناخيبِ والأنضادِ، فإذا صغُرَ فهو من الآكام والقيرانِ، وجِبلَّةُ الجبَلِ: تأسيسُ خلقتِه الّتي جُبِلَ عليها، وجبلةُ الأرضِ: صِلابُها"[2].

الفقهُ والفهمُ:

الـفِـقْـهُ هـو الـتّـوصّـلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ، والفهمُ إدراكُ كُـنْـهِ المعاني

"الفقهُ أخصُّ منَ العلم، ويقال: فقُهَ الرّجل فقاهَةً: إذا صار فقيهًا، وفَقِهَ؛ أي: فهِمَ فقهًا، وفقِهَهُ أي: فهمَه، وتَفقَّهَ: إذا طلبَه فتخصّصَ به، قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]"[3]، الفقهُ: العلمُ في الدّين، يُقال: فقُهَ الرّجل يَفْقُهُ فِقْهاً فهو فقيهٌ، وفَقِهَ يَفْقَهُ فِقْهاً إذا فهِمَ، وأفقهتُه: بَيَّنْتُ له، والتَّفَقُّهُ: تَعَلُّمُ الفِقْهِ[4]، وقيل: الفقهُ التّفهمُ في الدّين والنّظرُ فيه، والتّفطّنَ فيما غمُضَ منه[5]، وقال أبو بكر: رجلٌ فقيهٌ؛ أي: عالمٌ، وكلُّ عالم بشيء فهو فقيه، من ذلك قولُهم: فلان ما يفقهُ ولا ينقه؛ معناه لا يعلمُ ولا يفهمُ، قال: وفقهتُ الحديث أفقهُهُ: إذا فهمتَه، وفقيهُ العرب: عالمُ العرب، وقول اللّه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]، معناه: ليكونوا علماءَ به[6]، أمّا "الفَهْمُ: فهيئةٌ للإنسان بها يتحقّقُ معانيَ ما يحسنُ، يقال: فهِمتُ

(1) ابن سيده، المُحكَم: (سدد).
(2) الخليل، العين: (جبل).
(3) الرّاغب، المفردات: (فهم).
(4) الخليل، العين: (فقه).
(5) الحربيّ، غريب الحديث: (فقه).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (فقه).

كذا، وقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: 79]، وذلك إمّا بأن جعل اللّه تعالى له من فضل قوّةِ الفهمِ ما أدرك به ذلك، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه وخصَّه به، وأَفْهَمتُهُ: إذا قلت له حتّى تصوَّرَه، والاستِفْهامُ: أن يطلبَ من غيره أن يُفَهِّمَهُ"[1].

الإفسادُ والإهلاكُ:

الإهلاكُ الإفناءُ والموتُ، والإفسادُ عكسُ الصّلاحِ

"أهلكَ يُهلك، إهلاكًا، فهو مُهلِك، والمفعول مُهلَك - للمتعدّي - وأهلك فلانٌ: ارتكبَ أمرًا عظيمًا، وأهلَك اللّهُ الظّالمين: جعلَهم يَهلكون أو يموتون، أبادَهم ولم يتركْ لهم ... وعذَّبَهم ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ [الأعراف: 155]، وأهلَك الشَّيءَ: أفسدَه وخرّبه ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: 6]"[2]، و"الفسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، فسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ وفَسُدَ فسادًا وفُسودًا، فهوَ فاسدٌ وفَسيدٌ فيهما ... ويُقالُ: أَفْسَدَ فُلانٌ المالَ يُفْسِدُه إِفسادًا وفسادًا، واللّه لا يحب الفَسادَ، وفَسَّدَ الشيءَ إذا أَبارَه"[3]، فالإفسادُ التّخريبُ، والإهلاكُ الإبادةُ، والتّبذيرُ إفسادُ المال وإنفاقُه في السّرف؛ قال اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: 26][4]، ويُقال: عاث في ماله، وقد يُستعملُ في غير المال، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60][5].

(1) الراغب، المفردات: (فهم).
(2) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (بذر).
(5) العسكريّ، التَّلخيص في مَعرفَةِ أسماءِ الأشياء، ص: 108.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

[الكهف: 95 - 97]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

القائدُ التّقيُّ يُحقّقُ مصالحَ النّاس ويُحصِّنُهم ويُؤثِرُهم بما أفادَ من سواعدِهم

في المقطع السّابقِ عرضَ القومُ - الّذين وجدَهم ذو القرنيْن من دون ذينك الجبليْن - أجرًا عليه مقابلَ أن يبنيَ لهم سدًّا، وجاء هذا المقطعُ، ليحكيَ ردَّه عليهم، بأنّه في غنًى عن أجرهم؛ لما أعطاه اللّه تعالى وما مكنَّه فيه خيرٌ، وأنّه أجابَهم إلى طلبِهم، وأشركَهم معه في العمل، وشَرَعَ يُقيمُ السّدَّ، بما هُيّئَ له من قوّةٍ خارقةٍ وسلطانٍ عريضٍ، وحيازةٍ للآلات والأدواتِ الّتي تُمكّنُه من ذلك الإنجازِ الفخم الشّاهقِ، الّذي لن يُخترقَ ولن يصعدَ أحدٌ على ظهره لتَجاوزِه، فقد صنعَه صناعةً متينةً مسبوكةً بعنايةٍ، وطلبَ منهمُ المشاركةَ في إنجازه، وأن يكونَ لهم شرفُ الإسهام بكلّ ما يملكون من قوّةٍ ورجالٍ وعتادٍ، عساهم يَحصلون على مُبتغاهم، ويَنالون مُرتجاهم، فيَحصلون على هذا السّدِّ المنيعِ، بهذا الإنجازِ الإبداعيِّ البديع، الّذي لا ندَّ له ولا نظيرَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنِّي﴾: أصلُ (مكن) رسوخ الشيء متجمعًا من دِقاقٍ في باطن يلتئم عليه، فالمَكْنُ: بيضُ الضَّبِّ[1]، ثم يُستعارُ منه، فالمَكِنةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مكن).

التَّمَكُّنُ، وهو الرسوخ في باطن، تقولُ العربُ: إنَّ فُلانًا لَذو مَكِنةٍ مِنَ السُّلْطانِ، فسُمّيَ مَوْضِعُ الطَّيْرِ مَكِنةً لتمَكُّنه فيه[1]، والتَّمكينُ: إعطاءُ المَكِنَة، وهي القُدرةُ والقوَّةُ، يُقالُ: مَكَّنَ من كذا وتمكَّنَ منه، إذا قَدَرَ عليه، ويُقالُ: مَكَّنَهُ في كذا، إذا جعلَ لهُ القُدرةَ[2]، وفُلانٌ مَكين عند فُلانٍ بَيِّنُ المكانةِ، يعني المنزلةَ[3]، والمقصودُ بالتَّمكينِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ مُتمكِّنًا، أَيْ راسخًا، وهو تمثيلٌ لقوَّةِ التَّصرُّفِ بحيثُ لا يُزعزِعُ قوَّتَه أحدٌ[4]، أي: وهبني الإمكاناتِ الَّتي بها أتمكَّنُ من تنفيذ مطلوبكم.

2) ﴿فَأَعِينُونِي﴾: أصلُ العَونِ المُعاوَنَةُ والمظاهرةُ، يُقالُ: فلانٌ عَوْني، أي: مُعيني[5]، ورَجُلٌ مِعْوانٌ: حَسَنُ المَعونة[6]، وكلُّ شيءٍ استعنتَ به، أو أعانكَ فهو عَوْنُك، وتقولُ: هؤلاءِ عَوْنُك، الذَّكر والأُنثى والجميعُ سواء، ويجمع أَعوان، وأَعَنْتُه إعانة، وتَعاونوا أي: أعان بعضُهم بعضًا[7]، والاستِعانةُ طَلَبُ العونِ، والعونُ والإعانةُ تسهيلُ فعلِ شيءٍ يَشُقُّ ويَعْسُرُ على المُستعينِ وحده[8]، وهذا هو المُرادُ في الآيةِ.

3) ﴿رَدْمًا﴾: أصلُ (ردم) يدلُّ على سَدِّ ثُلْمَةٍ[9]، والرَّدْم: مصدر رَدَمتُ الشَّيْءَ أردُمه رَدْماً، إذا سددته نَحْو الباب وما أشبهه، والرَّدْمُ أيضًا: ما يسقُطُ من الجدارِ إذا انهدمَ، والرَّديمة: ثَوْبان يُخاط بعضُهما ببعض نَحْو اللِّفاق، وكلُّ شَيْءٍ لَفَقْتَ بعضَه الى بعض فقد رَدَمتَه[10]، والرَّدْمُ في الآيةِ معناه: البناءُ المُرَدَّمُ، شُبِّهَ بالثَّوبِ المُرَدَّمِ المُؤتلِفِ من رقاعٍ فوقَ رقاعٍ، أَيْ سُدًّا مُضاعفًا، ولعلَّه بَنَى جدارينِ مُتباعدينِ ورَدَمَ الفراغَ الَّذي بينهُما بالتُّرابِ المخلوطِ ليتعذَّرَ نَقْبُهُ[11].

4) ﴿زُبَرَ﴾: أصلُ (زبر) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وتوثيقه، يُقال: زَبَرْتُ البئرَ، إذا طويتها بالحِجارةِ، ومنه زُبْرَةُ الحديدِ، وهي القطعةُ منه، والجَمعُ زُبَرٌ[12]، وقيل أصلُ الزُّبَر

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 52.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مكن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 23.
(5) الراغب، المفردات: (عون).
(6) لسان العرب، (عون).
(7) الخليل، العين: (عون).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 184.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردم).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ردم).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 35.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زبر).

يدلُّ على الاجتماع؛ لأنَّ الزُّبرةَ جملةٌ مُجتَمِعةٌ مِن الحديدِ[1]، ومنه زبرة الأسد لما اجتمعَ مِنَ الشَّعر على كاهله، ويُقالُ: زبرتُ الكتابَ أي كتبتُه وجمعت حروفَه[2]، واستُعيرَ للمجزَّإ، قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ [المؤمنون: 53]، أي: صاروا فيه أحزابًا[3]، والمقصودُ بالزُّبَرِ في الآيةِ: جَمعُ زُبْرَةٍ، وهي القطعةُ الكبيرةُ مِنَ الحديدِ[4].

5) ﴿سَاوَىٰ﴾: أَصْلُ (سوي) يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أَي لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَويَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ سَواءٍ[5]، والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْنِ: إذا عَدَلت بَيْنَهُما[6]، وهي أيضاً: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوَى، أَيْ: قَوَّمْتُهُ فاسْتَقامَ[7]، والمقصودُ بالمساواةِ في الآية: جعلُ الأشياء متساويةً، أي: سَوَّى بينهما حينَ رفَع السَّدَّ.

6) ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾: أصلُ (صدف) يدلُّ على المَيْلِ، يُقالُ: صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ، إذا مالَ عنه ووَلَّى ذاهِبًا، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: 157][8]، والصَّدفُ: كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ عَظيمٍ كالهدَفِ والحائطِ والجَبَلِ، والصَّدَفُ والصُّدُفُ: مُنْقَطَعُ الجَبَلِ المُرتفِعِ[9]، قال ابنُ سيدَهْ: الصَّدَفُ ما بَيْنَ الجَبَلَيْنِ[10]، وقالَ ابنُ دُريدٍ: الصُّدُفانِ، بضمِّ الدّالِّ، ناحيتا الشِّعْب أَو الوادي كالصَّدَّيْنِ[11]، ويُقالُ لجانبيِ الجبَلِ إذا تحاذيا: صُدُفانِ وصَدَفانِ لتصادُفِهما، أَي: تَلاقيهما وتَحاذي هذا الجانبَ الجانبَ الَّذي يُلاقيه، وما بينهما فجٌّ أَو شِعْب أَو وادٍ، ومن هذا يُقالُ: صادفتُ فُلانًا أَي لاقَيْتُه ووجَدْتُه[12]، والمُرادُ بالصَّدفين في الآية: جانِبا الجَبَلَين، وهما السَّدّانِ.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 270، والهروي، الغريبين: 3/ 812.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (زبر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 36.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(7) الجوهري، الصحاح: (سوي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدف).
(9) الجوهري، الصحاح، والصغاني، التكملة: (صدف).
(10) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).

7) ﴿أُفۡرِغۡ﴾: أَصلُ الإفراغ: الإخلاءُ، يُقالُ: أَفْرَغَ الإناءَ: إذا أَخْلاهُ مِمّا فيه، ووِعاءٌ فارِغٌ، أيْ: خالٍ مِن أيِّ شَيْءٍ[1]، والفَراغُ: الخَلاءُ، والإِفْراغُ: الصَّبُّ، يُقالُ: أَفْرَغَ عليه الماءَ، وفَرَّغَهُ إِفْراغًا وتَفْريغًا، أيْ: صَبَّهُ، والفَرْغُ والمَفْرَغُ: مَخْرَجُ الماءِ مِن الدَّلْوِ[2]، والمقصودُ بالإفراغ في الآية: الصَّبُّ.

8) ﴿قِطۡرٗا﴾: أصلُ القِطْرِ من القَطْرِ؛ والقَطْرُ: ما قَطَر من الماء وغيرِه، واحدتُه قَطْرةٌ والجمعُ قِطارٌ[3]، وقُطارةُ الشَّيْءِ ما قَطَر مِنْهُ، وأَقْطَرَ الشَّيءُ حان له أَن يَقْطُرَ، واسْتَقْطَرتُه رُمتُ قَطْرَتَهُ[4]، والقِطْرُ: النُّحاسُ الذّائبُ[5]؛ وذلك أنَّه إذا أُذيبَ قَطَر كما يَقطُرُ الماءُ، وهو المُرادُ هنا.

9) ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾: الطَّوع هو الانقيادُ والاستجابةُ، يُقالُ: طاعه يَطوعُهُ طَوعًا وطاعةً إذا انقادَ معه[6]، وسُمّيَتِ القُدْرةُ استطاعةً؛ كأنَّ الشَّيءَ انقادَ للمُستطيعِ واستجابَ له حتَّى قَدِرَ عليه، وتأتي الاستطاعةُ بمعنى: الإمكانِ، كقولِ: في استطاعته كذا أيْ في إمكانِهِ، وضِدُّ الاستطاعة العَجْزُ[7]، واسطاعوا: لغةٌ في استطاعوا، يُقالُ: اسطعتُ الشَّيءِ واستطَعْتُه"[8]، و"اسطاع الأمرَ: استطاعه، وأطاقه، وقدَرَ عليه"[9]، وأَصله: استَطاعوا بالتّاءِ، ولَكِنَّ التّاءَ والطّاءَ مِنْ مَخْرَجٍ واحِدٍ فحُذِفَتِ التّاءُ ليَخِفَّ اللَّفْظُ"[10]، وذكر الأَخفشُ أَنّ بعض العرب يقول: اسْتاع يَسْتيع فيحذفُ الطّاء استثقالًا، وهو يريد استطاع يستطيع، قال: وبعضٌ يقولون: أَسْطاع يُسْطيع بقطع الهمزة، وهو يريد أَطاع يُطيع، ويجعلُ السّين عِوضًا عن ذهاب حركة العين؛ أَيْ: عين الفعل[11]، والمقصودُ بالاستطاعة في الآية: القُدرةُ.

10) ﴿يَظۡهَرُوهُ﴾: أصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، من ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهَرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فرغ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرغ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (قطر).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المخصص: 2/ 456.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طوع).
(8) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 67.
(9) عمر، مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (طوع).
(10) الأزهري، تهذيب اللّغة: (طوع).
(11) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 520.

ظُهورًا فهو ظاهِرٌ، إذا انكشفَ وبَرَزَ، والأَصلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خلافُ بطنِه، وهو يجمعُ البُروزَ والقوَّةَ[1]، ويُطلَقُ الظُّهورُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ، وعلى العُلوِّ، وهو المُرادُ هُنا.

11) ﴿نَقۡبٗا﴾: أصلُ (نقب) يدُلُّ على فتح في شَيءٍ[2]، والنقْبُ: الخرْقُ والدخولُ في الشيءِ، كالثَّقْبِ في الخَشَبِ، يُقالُ: نَقَبَ البَيْطارُ سُرَّةَ الدّابَّةِ بالمِنْقَبِ، وهو الَّذي يُنْقَبُ به، والمَنْقَبُ: المكانُ الذي يُنْقَبُ[3]، والنَّقْبُ في الآيةِ مُرادٌ بهِ: كَسْرُ الرَّدْمِ، وعدمُ استطاعتِهم ذلك؛ لارتفاعِه وصلابتِه[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الزّعيمُ يُشرِكُ جمهورَه في العملِ المطلوبِ لهم فيُشعرُهم بأهميّتِهم

يقول ذو القرنيْن للقوم الّذين عرضوا عليه الخَرْجَ مقابلَ بنائِه السَّدَّ لهم: "إنّ ما بسطَه اللّه تعالى لي منَ الرّزق والمالِ والقوّةِ خيرٌ من خَرْجِكم ومالِكم، الّذي تريدون أن تجعلوه لي في إقامة السّدِّ، بينَكم وبين يأجوجَ ومأجوجَ، فوفِّروا عليكم أموالَكم، وقِفوا إلى جانبي فأَعينوني بسواعدِكم، وبآلاتِ البناء، وبكلِّ ما أتقوَّى به على المقصودِ، وهو بناءُ السّدّ، لكي أَجْعَلْ بَيْنَكُم وبين يأجوجَ ومأجوجَ حاجزًا حصينًا، وجدارًا متينًا، يحولُ بينكم وبينَهم"[5]، ناولوني قطعَ الحديد لأَرُصَّها في جدار السَّدِّ، فـ "أعطوه زُبَرَ الحديد، فجعل يَبني بها بين الجبليْن، حتّى ساواهما، فقال: انفخوا على هذه الزُّبَرِ بالكيران حتّى إذا جعل ذلك المنفوخَ فيه - وهو الزّبر - جمرًا مثلَ النّار في حرّها"[6] "فما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ وقبيلُهما أن يَعلوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 38.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 369.

ويَظهروا عليه؛ لارتفاعِه وملاستِه وما استطاعوا له نقبًا لقوّتِه وسُمكِه، وأراح اللّه منهم شعوبًا كانت تتألّمُ منهم كثيرًا"(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾:

الواجبُ على المسؤولِ تجاهَ أمّتِه حقُّ الحمايةِ على حسبِ الاستطاعةِ

فُصِلتْ جملةُ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، عنِ الكلامِ السّابقِ - وهو عرضُهم على ذي القرنيْن ﴿خَرْجًا﴾، مقابلَ بناءِ السَّدِّ - لأنّ عَرْضَهم هذا يثيرُ في ذهنِ السّامعِ تساؤلًا عن ردّةِ فعلِه من ذلك العرضِ؛ فجاءت جملةُ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، جوابًا عن ذلك التّساؤلِ؛ وبهذا يكونُ بين الجملتَين استئنافٌ بيانيٌّ - وهو المعروفُ بشبْه كمالِ الاتّصال، وقد "أجابَهم إلى سُؤلِهم، وحقّقَ لهم بُغيتَهم، ولم يأخذ منهم ما ضمِنوا له منَ الجباية، لمّا رأى أنّ منَ الواجبِ عليه حقَّ الحماية على حسب المكنةِ"(2)، "وهذا مثالٌ منَ المُثُل العليا في التّعاون على البرّ والتّقوى، ابتغاءَ وجْه ربّه الأعلى"(3)، وفيه "دليلٌ على أنّ الملكَ فرضٌ عليه أن يقومَ بحمايةِ الخلقِ في حفظ بيضتِهم، وسدِّ فُرجتِهم، وإصلاحِ ثغورِهم من أموالِهم الّتي تفيءُ عليهم، وحقوقِهم الّتي تجمعُها خزانتُهم تحت يدِه ونظرِه، حتّى لو أكلتْها الحقوقُ، وأنفذتْها المُؤَنُ، لكان عليهم جبرُ ذلك من أموالِهم، وعليه حسنُ النّظرِ لهم"(4) وهو "رجلٌ مطبوعٌ على حبِّ الخيرِ، ومفطورٌ على الصّالحِ منَ الأعمالِ، ومع هذا قد مكّنَه اللّه تعالى في الأرض، وأعطاه الكثيرَ منَ المالِ والثّروةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ القولِ ماضيًا:

ذِكْرُ الأحداثِ الماضيةِ للاعتبارِ والاستفادةِ منها

جاءت صياغةُ الفعل ﴿قَالَ﴾ هنا ماضيًا، موافَقةً لزمن هذا

---

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/ 437.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 413، والمَكِنَةُ: التَّمَكُّنُ، ينظر: الزبيدي، تاج العروس: (مكن).

(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 828.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.

الفعلِ المحكيِّ عن ذي القرنيْن، وهو زمنٌ ضاربٌ في عمقِ التّاريخ؛ إذ وقعت تلك الأحداثُ في زمان ذي القرنيْن، قبل زمنِ النّبيّ ﷺ بقرونٍ، والذِّكرُ الحكيمُ هنا يقصُّه على وجْهِه، على النّبيّ ﷺ وأمّته لأخذِ العبرِ، والتماسِ الدّروسِ الّتي يمضون عليها في دروبِ الحياة.

دلالةُ ﴿مَا﴾ ومعناها في: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾:

المـوصـولُ (مـا) عـنـصـرُ إيـجـازٍ عظيمٍ

وجْهُ إيثارِ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أنّها عنصرُ إيجازٍ، تضغطُ جميعَ أنواعِ العطايا والهِباتِ الّتي منحَها اللّه تعالى ذا القرنيْن، ومكَّنَ له بها في الأرض، فهي تستوعبُ جميعَ "ما عنده من عظمة الملكِ، مِن جندٍ وقوّةٍ وثروةٍ"[1] والتّعبيرُ بما، دلالةٌ على كثرة العطاءِ وعمومِه، إذ هي أعمُّ الموصولاتِ، وأدخلُها في الإبهام، "وهذا من تأييدِ اللّه تعالى لذي القرنيْن؛ فإنّه تَهَدَّى في هذه المحاورةِ إلى الأنفعِ الأنزهِ، فإنّ القومَ لو جمعوا له ﴿خَرْجًا﴾ لم يمنعْه منهم أحدٌ، ولَوَكَلوه إلى البنيانِ، ومعونتُهم بالقوّةِ أجملُ به، وأمرٌ يطاوِلُ مدّةِ العمل، وربّما أرْبَى على المخرجِ"[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿مَكَّنِّي﴾:

من حُسْنِ الأدبِ مع اللّه التّحدّثُ بنعمتِه سبحانه

جاءت صياغةُ الماضي ﴿مَكَّنِّي﴾ هنا، بإزاءِ الماضي في تمكين اللّه تعالى إيّاه هناك في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾، وهذا من ذي القرنيْن من جميلِ التّحدُّث بنعمةِ اللّه تعالى فوافقَه زمنًا ومادّةً؛ فهذا التّمكينُ الّذي يُقرُّ به ذو القرنيْن، قد وقعَ قبْلَ زمنِ النّبيّ ﷺ بقرون، والذّكرُ الحكيمُ هنا يقصُّه على النّبي ﷺ وأمّته، لأخذِ العبرِ والتماسِ الدّروسِ الّتي يَمضون عليها في دروبِ الحياة، والمقصودُ بالتّمكين متنوّعٌ، فعلى تأويل الحَسَن، يكونُ قولُه: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ منَ النّبوّة ﴿خَيْرٌ﴾؛ لأنّه يقول: إنّه كان نبيًّا؛ حيث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 30.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.

قال له: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أو"ما جعلني فيه مَكينًا من كثرةِ المالِ واليسارِ، أو "ما يُعطيني اللّه تعالى في الآخرة منَ الثّواب خيرٌ من جعْلِكم في الدّنيا"[1].

دلالةُ تنوّعِ القراءةِ في: ﴿مَكَّنِّي﴾:

القــراءتــان شملتا نِعَمَ التّمكينِ الظّاهرةِ والباطنة

وردت للفعلِ ﴿مَكَّنِّي﴾ قراءتان: بالإدغام ﴿مَكَّنِّي﴾، والفكِّ: ﴿مَكَّنَنِي﴾ وهي قراءة ابن كثير[2]، "فمن قرأ ﴿مَكَّنِّي﴾ أدغمَ النّون في النّون لاجتماع النّونيْن، ومَن قرأ ﴿مَكَّنَنِي﴾ بنونَيْنِ أظهرَ النّونيْن، لأنّهما مِنْ كلِمَتَيْن: الأولى مِن فِعلٍ، والثّانية تدخل مع الاسم المُضمر"[3]، و"الإدغامُ حسُنَ لاجتماع حرفين من جنس واحد"[4].

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّة ﴿فِيهِ﴾:

يجدرُ بالملك أن يتعطّفَ على رعيّتِه المحتاجين ممّا آتاه الله

في تقْييدِ تمكينِ اللّه تعالى ذا القرنيْن بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، في قوله: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٌ﴾ تنويهٌ بإحاطتِها إيّاه من كلّ جانبٍ، وشمولِها حياتَه بكلّ اعتبارٍ؛ لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾، كذلك في هذا القيدِ ﴿فِيهِ﴾ تنويهٌ برسوخ ذي القرنيْن، في تصريف هذه النّعم الّتي أولاه اللّه تعالى إيّاها في أبوابها الأخصِّ بها، ومعنَى ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾: "ما جعلني فيه مكينًا، من كثرة المالِ واليسارِ، خيرٌ ممّا تَبذلون لي منَ الخَراج؛ فلا حاجةَ بي إليه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: 36]"[5]، و"الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾، يعودُ إلى السّدّ المسؤول بناؤه، وقيل: يعود إلى ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ أي: ما مكّني منَ المال والآلاتِ، خير ممّا تبذلونه"[6]، ولا

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 362.
(2) ابن الجزري، النشر: 1/ 303، وقال الداني: "في مصاحف أهل مكة ﴿مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي﴾ بنونين، وفي سائر المصاحف ﴿مَكَّنِّي﴾ بنون واحدة"، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 108.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 311.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 307.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 747.
(6) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1305.

تزاحُمَ بين المرجعَين في الضّمير؛ فلا مانعَ من عودته إليهما معًا؛ فيكون فيه ثراءُ الدّلالات مع وجازة اللّفظ.

سرُّ اختيارِ لفظِ الرّبوبيّةِ ﴿رَبِّي﴾ مضافًا:

من صفاتِ الصّالحين التّحدُّثُ بنعمةِ الله تعالى ربِّ العالمين

اصطفَى النّظمُ الكريمُ الاسمَ الكريمَ الأنسبَ لمقامِ التّحدّث بنعمةِ اللّه، وذلك من أسباب دوامِها ونموِّها عند العبد، تنفيذًا لقوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضّحى: 11]، واستدامةً لأنعُمِه سبحانه، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7].

فائدة صيغة ﴿خَيۡرٞ﴾ ومجيئها نكرة:

عطاءُ الله تعالى خيرٌ من عطاءاتِ خلْقِه

﴿خَيۡرٞ﴾ في قول ذي القرنَيْن: ﴿مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾، نكرةٌ أفاد التكثير، وهو اسمُ تفضيلٍ منَ الخيريّة، أي: (ما وهبنيَ اللّه تعالى من إمكاناتٍ أفضلُ وأكثرُ ممّا تعرضونَه من أجر)، و"خيرٌ منَ الخراجِ الّذي عرضتُموه، أو خيرٌ منَ السَّدِّ الّذي سألتموه، أي: ما مكّنّي فيه ربّي يأتي بخيرٍ ممّا سألتم"(1).

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي﴾:

من كياسةِ القائدِ إشراكُ رعيّته معه في تنفيذِ المهامِّ العِظامِ

الفاء في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي﴾، إمّا أن تكونَ "استئنافيّةً"(2)، أو "فصيحةً"(3) تُفصحُ عن محذوفٍ، تقديرُه: (ما مكنّي فيه ربّي خيرٌ، فسأبْنيه لكم بدون مقابلٍ، وأنتم أعينوني بقوّةٍ)، و"امتناعُه عن أخذ المالِ لا يمنعُ من طلب عمّالِ البناءِ والأدواتِ وقِطع الحديدِ؛ ليتقوّى بذلك على تحقيقِ مرادِهم، على أن يدفعَ الأجرَ للعمّالِ، وثمنَ الحديدِ من ماله، على أنّ السَّدَّ لّما كان لمصلحتِهم، فإنّ تبرُّعَهم بالقوى العاملةِ، لا يعدُّ عطاءً أو أجرًا على بنائِه، كما أنّ ﴿زُبَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 232.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

﴿ٱلۡحَدِيدِۖ﴾، قد تكونُ مِن منجم قريبٍ من السَّدِّ، فإحضارُهم إيّاها لا يُنافي رفضَه أجرًا منهم"[1]؛ لأنّ جهدَه وتكاليفَه إلى جهودِهم وتكاليفِهم لأجلِهم هم بخاصّةٍ.

الغرضُ من التّعبير بالأمرِ ﴿فَأَعِينُونِي﴾:

طلبُ المعونةِ منَ الضّعيفِ يُفعِمُه ثقةً بنفسِه ويرفعُ قدْرَه

الأمرُ في قول ذي القرنيْن للقوم ﴿فَأَعِينُونِي﴾ أمرٌ حقيقيٌّ؛ لأنّهم دخلوا تحت إمرتِه، وصار ملِكَهم، وإن لم يكن له ولايةٌ عليهم، فإنّه يأمرُهم أمرًا، يُؤدّي إلى إنجازِ مطلوبِهم، ولأنّه أمرٌ حقيقيٌّ بيّن لهم عقبَه مَقصدَه منه، فقال: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾، ومع ذلك لا يَخلو هذا الأمرُ مِنَ النّصحِ والتّوجيه إلى التّعاونِ على ما فيه خيرُ البلادِ والعبادِ، "وهذا تأييدٌ مِنَ اللّه تعالى لذي القرنيْن في هذه المحاورةِ؛ فإنّ القومَ لو جمعوا له خَرْجًا لم يُعِنْه أحدٌ ولو وكَلوه إلى البنيان، ومعونتُه بأنفسِهم أجملُ به، وأسرعُ في انقضاء هذا العملِ، وربّما أربى ما ذكروه له على الخَرْجِ"[2].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

القوّةُ ضالّةُ المسلمِ يَلتمسُها في كلّ شيءٍ كما أمرَه الله

الباء في قولِ ذي القرنيْن ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ للاستعانة؛ أي: أعينوني "بِفَعلةٍ وصُنّاعٍ يُحسنون البناءَ والعملَ، وأعينوني بالآلاتِ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالقوّة نكرةً ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

طلبُ العونِ على سبيل التّعظيمِ تهييجٌ لهم لبذلِ أقصَى قوّتِهم

تنكيرُ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، يفيدُ تعظيمَ القوّةِ المطلوبةِ، أي: (أعينوني بقوّةِ الأبدان، وبعملٍ منكم بالأيْدي)[4] - لأنّ الأمرَ كبيرٌ، ولا تُجدي معه قوّة ضعيفةٌ، أي: (بما أتقوّى به[5] على إقامة السّدِّ المنيعِ، وبعملٍ تعملونه معي لا بمالٍ)[6]، وتنكيرُ قوّة

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 925.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 320.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 542.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 208.
(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 311.

هنا، يتّسقُ مع تنكيرها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَجۡعَلۡ﴾:

القـائدُ المُلهِمُ يُحفّزُ على إنجازِ المطلوبِ في الوقت المرغوبِ

في التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أَجۡعَلۡ﴾، استحضارٌ لصورة الإنجازِ كأنّها تُعاينُ، وذلك حافزٌ لهم على مدِّه بالقوّةِ المطلوبةِ، وهكذا يُحفّزُ القائدُ رجالَه ومن يُمكنُه استثمارُ طاقاتِهم والإفادةُ منهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ مُكررّةً ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾:

التّحديدُ الدّقيقُ لتنفيذِ المطلبِ تطمينٌ للطّالبين

جاء تَكرارُ ذي القرنَيْن الظّرفَ (بين)، في قوله: ﴿أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾، بإزاءِ قولِهم أوّلًا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾، تطمينًا لهم، وتأكيدًا على تحديد المهمّة بتفاصيلها كما يريدون هم، والضَّمائر في قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾ إلى المخاطَبين - القومِ الّذين لا يكادون يفقهون قولًا، في الظّرفِ الأوّل ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾، وإلى يأجوجَ ومأجوجَ في الظّرفِ الثّاني ﴿وَبَيۡنَهُمۡ﴾، وهو يحقّقُ الإشارةَ إلى توسيطِ مكان السّدِّ المطلوبِ بناؤه؛ ممّا يحقّقُ الطّمأنينةَ لهم؛ إذ هو عينُ مطلبِهم، وإلّا لاكتفى بالرّدّ المختصرِ: فأعينوني بقوّة أُنشِئه لكم، بدون ظروفٍ ولا تَكرار.

غرضُ تنكيرِ المفعولِ به ﴿رَدۡمًا﴾:

تـواضعُ القائدِ يُميّزُه عند عبادِ الله، ومَن تواضعَ لله رفعَه الله

في تنكير المفعولِ به تعظيمٌ، يلائمُ دفعَ الشّرِّ الكبيرِ، وفي تأخيرِه عنِ الظّروفِ عنايةٌ بالمقدّمِ، وتشويقٌ لهم "الرّدمُ أبلغُ منَ السَّدِّ، إذِ السَّدُّ كلُّ ما سُدَّ به، و(الرّدمُ) وضْعُ الشّيءِ على الشّيء، من حجارةٍ أو ترابٍ أو نحوِه، حتّى يقومَ من ذلك حجابٌ منيعٌ"[1]، و"﴿رَدۡمًا﴾؛ أي: حاجزًا حصينًا موثقًا"[2].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 227.

سرُّ فصلِ ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾:

بيانُ أنّ طرقَ الإعانةِ تعجيلٌ بتطبيق العوْنِ

فُصِل قولُ ذي القرنيْن: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، عن قوله: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ لكمالِ الاتّصال بينهما؛ حيث إنّ الثّاني ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، من الأوّل ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ بمنزلةِ بدلِ الاشتمال؛ فإيتاؤهم إيّاه زُبَرَ الحديدِ من جملة إعانتِهم إيّاه بقوّة؛ فلم يحتاجا إلى واصلٍ يصلُهما، وإنّما اتّصلا ذاتيًّا بلا واسطةِ حرفِ الوصل، وفيه تعجيلٌ بتطبيق العونِ.

غرضُ التّعبيرِ بالأمر: ﴿ءَاتُونِى﴾، وفائدة تنوّع القراءات:

التماسُ الإتيانِ بالآلةِ من متطلّباتِ العملِ

الأمرُ في قوله: ﴿ءَاتُونِى﴾، من الإيتاء، بمعنى: أعطوني وناولوني[1]، يفيدُ الالتماسَ؛ وهذا كلّه إنّما هو استدعاءُ العطيّةِ الّتي ليست بمعنَى الهبةِ، وإنّما هو استدعاءٌ للمناولة[2].

وقد جاء عن شعبة القراءةُ بـ﴿ٱئْتُونِى زُبَرَ﴾ بسكون الهمزة والقصر، فيكون المعنى من الإتيان والمجيء، أي: (جيئوني بزُبر الحديد) فاختصّت بالمعونة فقط دون أن يكون سؤال عين ذا هبة - كما يوهمه معنى الإعطاء والإيتاء -.

الحاجة إلى استنفاذ جميع ما يعاينونه من موادّ

والأصل أن يَصِل فعل الإتيان إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ (الباء)، ثم يجوز أن يُحذف الحرف اتّساعًا، فيصل الفعل إلى المفعول الثاني على حدّ: (أمرتك الخير) [3]، فيكون انتصاب ﴿زُبَرَ﴾ بنزع الخافض تشبيهًا له بالمفعول به، وتضمينًا له معنى فعل الإيتاء والمناولة المؤدي إلى نصب مفعول ثانٍ، وليفيد استغراق ما يملكون من زبر الحديد، احتراسًا عمّا قد يضيفه حرف الجر (الباء) من معاني التبعيض.

بلاغة الإيجاز بالحذف في جملة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾:

في جملةِ ﴿ءَاتُونِى﴾ إيجازٌ بحذف مقدّرٍ؛ حيث حُذف تقدير

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 369.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.

(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/176.

تحريكُ الذّهنِ لِيُكمِلَ العبارةَ تحصلُ به المُتعةُ ويتمكّنُ المعنَى

مقتضى الأمر لفهمِه منَ السّياق، والتّقديرُ: (أحضِروا لي الكثيرَ من قطع الحديدِ الكبيرةِ، فأحضَروا له ما أراد)[1]، (فلمّا أحضَروها له، أخذ يبني شيئًا فشيئًا[2]، حتى ساوى بين الصدفين)، ومن قيم هذا الحذف تحريكُ الذّهن ليُكمِل ما سكتَ عنه الأسلوبُ، فتحصلُ له اللّذةُ، ويتمكّنُ منه المعنَى.

سرُّ إسنادِ الفعل لواو الجمعِ في: ﴿ءَاتُونِي﴾:

الجهدُ الكبيرُ والعملُ يحتاجُ إلى عَمَلَةٍ كثيرين لإنجازه

المخاطَبون بالأمر في قول ذي القرنيْن: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ هم القومُ الذين طلبوا منه أن يجعلَ بينهم وبين يأجوجَ ومأجوجَ سدًّا؛ وإسنادُ الفعل إلى ضميرٍ دلالةٌ على كثرة العملِ المطلوبِ وهو متّسقٌ مع طلب المعونةِ؛ لأنَّه " كان يَستدعي عَمَلَةً كثيرين، فقال لهم: فأعينوني بقوّةٍ أي بقوّةِ الأبدان، أراد تسخيرَهم للعمل لدفعِ الضّرّ عنهم"[3].

سرُّ تخصيصِ المفعولِ به ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾:

البدءُ بأهمِّ العناصرِ آيةٌ على توفيقِ القائدِ

"تخصيصُ الأمرِ بالإتيان بها - أي: زُبَر الحديد - دون سائرِ الآلاتِ منَ الفحم والحَطبِ وغيرِهما؛ لأنّ الحاجةَ إليها أمسُّ؛ لأنها الرّكنُ في السّدّ، ووجودُها أعزُّ"[4] "ولا شكّ أنّ الحديدَ لم يكن هو كلَّ مادّةِ البناء الّتي بنَى بها (الرّدمَ)، وإنّما كان هو العنصرَ القويَّ فيها، بل هو كذلك العنصرُ الغريبُ، غيرُ المألوفِ في البناء؛ ولهذا اختُصّ بالذّكر ... وهناك الأحجارُ، والرّمالُ، وغيرُها ممّا اتُّخذَ في مادّة البناء مع الحديد، والّتي بها أمكنَ تسويةُ السّدّ، وإلّا لو كان السّدُّ حديدًا خالصًا لاحتاج إلى ما لا تحتملُه الطّاقةُ البشريّةُ، وخاصّةً في هذا الزّمن البعيد، مع تلك الوسائلِ البدائيّةِ المحدودةِ للحصول عليه"[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 35.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 307.
(5) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 709.

سرُّ الإضافةِ في: ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾:

الذِّكرُ الحكيمُ يوجِّه بأنّ الحديدَ عنصرٌ أساسٌ في تماسكِ البناياتِ

"الزّبرةُ منَ الحديد القطعةُ الضّخمةُ"[1]، وسرُّ الإضافة التّخصيصُ، ويدخلُ في بناء السّدّ كثيرٌ منَ الأنواع، وهذا النّوعُ ﴿ٱلۡحَدِيدِۖ﴾، هو أقواها، وأشدُّها، وتعريفُه يوجِّه القومَ نحو تخيُّر النّوعِ الأجودِ منه؛ فهو أنواعٌ منها ما يقبلُ الطّيَّ، ومنها ما يقبلُ الكسرَ، ومنها الصُّلبُ الّذي لا يقبلُ هذا ولا ذاك، وهو الّذي يمسكُ السَّدّ، فلا يكونُ عُرضةً للانهيار تحت أقدام يأجوجَ ومأجوجَ.

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وتقديرُ المحذوفِ في السّياق:

العبدُ الصّالحُ انتهى في عمله إلى أقصى درجاتِ الإتقانِ

تفيدُ حتّى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾، بلوغَ هذه الدّرجةِ من ارتفاع السدِّ؛ فـ "حتّى حرفُ غايةٍ وجرٍّ"[2]، يصرّحُ بأنّ ذا القرنَيْن أكملَ العملَ على الوجه الأتمِّ، وأتقنَه إتقانًا بالغًا، وهكذا العبدُ الصّالحُ يُتقنُ عملَه حتى ينتهيَ إلى أقصى درجاتِ الإتقان.

دلالةُ الحذْفِ البلاغيِّ لجواب الأمرِ في ﴿ءَاتُونِى﴾:

الإيجازُ بالحذفِ من أبلغِ البيانِ

لقد "أشعرت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بشيءٍ مُغَيًّا قبلَها، وهو كلامٌ محذوفٌ تقديرُه: فآتوه زُبَر الحديد فنضّدها وبناها، حتّى إذا جعلَ ما بين الصّدفين مُساويًا لعلوِّ الصّدفين، وهذا من إيجاز الحذفِ"[3]؛ الّذي يُصفّي العبارةَ، ويَستفزُّ الذّهنَ المتلقّيَ ليكمل الكلامَ، ويفسحَ مجالاتِ تقديرِ المحذوف.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

إتقانُ العملِ مبدأٌ إسلاميٌّ كبيرٌ ومقصدٌ إيمانيٌّ نبيلٌ

قيّدَ النّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿سَاوَىٰ﴾ بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ تأكيدًا على تحقّقِ الفعل، وأنَّه فعلًا ساوى ارتفاعَ السّدّ بقِمَّتَي الجبلين، أي: أتقن عملَه أتمَّ ما يكونُ الإتقان، وهذا مبدأُ الدّين في أتباعِه.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 369.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.

دلالةُ إيثارِ الفعل ﴿سَاوَىٰ﴾:

تنظيمُ القائدِ خطواتِ العملِ يدرّبُ الرّعيّةَ على المنهجِ السّديدِ

"المساواةُ جعلُ الأشياء متساويةً - أي متماثلةً - في مقدارٍ أو وصفٍ"[1]، ويدلّ التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿سَاوَىٰ﴾، على تنظيم ذي القرنَيْن خطواتِ إنشاء السّدِّ؛ بحيث لا يبدأُ في مرحلة منه إلّا بعد التّحقُّق من تمام المرحلةِ السّابقةِ... وكذلك هنا لم يبدأْ ذو القرنَيْن الخطوةَ التّاليةَ لمساواة البناءِ رأسَيِ الجبلين - وهي إفراغُ القطر عليه - حتّى تحقّق من تمامِها، وهذا التّنظيمُ منَ القائد يعلّمُ الرّعيّةَ - قطعًا - منهجَ العملِ النّاجحِ السّديدِ، والتّعبيرُ بالمساواة، فصيحٌ في تنسيق السّدّ تنسيقًا يحولُ دون أن يجاوزَه يأجوجُ ومأجوجُ إلى القوم، فقد اتّخذ ذو القرنَيْن من إجراءاتِ الإنشاءِ السّديدةِ ما "وارى رؤوسَهما، وسوّى بينهما"[2]، وتلك الإشاراتُ الدّقيقةُ تدلُّ على ما أنفقَه ذو القرنَيْن والقومُ معه من جهود، ومن مالٍ، ومن وقتٍ، ومن غيرِ ذلك حتى تمَّ الأمرُ على أفضلِ ما يتأتّى لأحدٍ في زمانه.

غرضُ حذفِ مفعول ﴿سَاوَىٰ﴾:

حُذِف مفعولُ ﴿سَاوَىٰ﴾ منَ العبارة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ " يعني البناءَ، فحُذف لقوة دلالة الكلامِ عليه"[3]. فما يدركُه العقلُ يُحذفُ إعلاءً لخطابِ التّدبّرِ.

سرُّ التّعريفِ في قوله: ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾:

اللّامُ دلالاتُها غزيرةٌ ومعانيها أثيرةٌ

تعريفُ ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ هنا للعهد، أي: صدفَيِ الجبلين اللّذين بنى ذو القرنَيْن بينهما السّدَّ[4]، وكلٌّ واحدٍ من الصدفين محاذٍ لصاحبِه، مأخوذٌ منَ المصادفة في اللّقاء، وكذلك هما جبلان؛ كلُّ واحدٍ منهما منعزلٌ عنِ الآخر، كأنّه قد صدَف عنه، ثمّ فيه وجهان: أحدُهما:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 343.
(3) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 10/ 265.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 362.

أنّ الصّدفين اسمٌ لرأسَيِ الجبلين، والثّاني: اسمٌ لما بين الجبلين[1]، و"لا يقال للواحد صدفٌ، وإنّما يقال صدفان لاثنين؛ لأنَّ أحدَهما يصادفُ الآخرَ"[2]؛ "فهو منَ الأسماء المتضايفةِ كالشّفعِ والزّوجِ"[3].

سرُّ المغايَرة بين ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾:

المغايَرةُ تُكسب بعضَ المعاني لطرقِ التّعبيرِ

المغايَرةُ في الآيات بين ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، تحقّقُ الاتّساقَ الدّقيقَ؛ إذِ "الصَّدَفُ: جانبُ الجبل ... والصّدفان اسمٌ لمجموع الجانبين، مثل المقصّان لما يُقْطَعُ به الثّوبُ ونحوُه"[4]؛ فحين كان الحديثُ عنِ الجبلين سمّاهما الذّكرُ الحكيم ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، وحين كان الكلامُ عن جانبَيْهما وسَفْحَيْهما سمّاهما ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، حتّى وإن أريد بالصّدفين السَّدّان، فيكونُ مِن تسميّة الشّيء باسم جُزئه؛ إذِ الصّدفان على هذا القول جُزآ الجبلين، وفي ذلك تنويعٌ وتفنّنٌ في الكلام.

بلاغةُ الحذفِ البلاغي بعد قوله: ﴿سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾:

حوادث بناء السدّ أوجزها النظم القرآني بأقصر العبارات

إنّ ذا القرنين بعد أن ساوى بين الصّدفين وضعَ المنافخَ على الحديد "حتّى إذا صار كالنّار صَبَّ النُّحاسَ المذابَ على الحديد المحمّى؛ فالتصق بعضُه ببعض، وصار جبلًا صَلدًا، وهذا معجزٌ قاهرٌ؛ لأنّ هذه الزُبَر الكثيرةَ إذا نُفخ عليها حتى صارت كالنّار لَم يقدر الحيوانُ على القُرب منها، والنفخُ عليها لا يمكنُ إلّا مع القُرب منها، فكأنّه تعالى صرف تأثيرَ تلك الحرارةِ العظيمةِ عن أبدان أولئك النّافخين عليها"[5]، وفي ذلك - والواقع جارٍ به - أنَّ اللّه تعالى يعينُ عبادَه على معالجة أمورِهم على قدْرِ استطاعتِهم، ويحملُ عنهم ما زاد، ويعفو عن كثيرٍ.

---

(1) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 343.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 543.
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

سرُّ التّعبير بفعل الأمرِ ﴿ٱنفُخُواْ﴾ مع واو الجماعةِ:

"الخطابُ في قوله: ﴿ٱنفُخُواْ﴾ وقولِه: ﴿ءَاتُونِي﴾ خطابٌ للْعَمَلَةِ"[1]، وبه يعالجُ ذو القرنَيْن نفسيّةَ آحادِ القوم الضّعفاءِ، وتنويه بأهمّيّة بثِّ العزم والعزيمة في نفوسِهم، وإفعامُ كلِّ واحد منهم بالثّقة، وأنّه عنصرٌ فاعلٌ في تعمير المجتمع، وأنّ دورَه لا يقلُّ عن أدوار الباقين كبارًا كانوا أو صغارًا، وذلك أسلوبٌ تربويٌّ مهمٌّ في تربية الثّقةِ وتنميتِها في نفوس هؤلاء الضّعفاءِ.

مخاطبةُ القائدِ عوامَّ النّاسِ تربيّةٌ للثّقة في نفسِ الضّعفاء

غرضُ حذْفِ متعلّقِ الفعل ﴿ٱنفُخُواْ﴾:

"حُذف متعلّقُ ﴿ٱنفُخُواْ﴾ لظهوره؛ مِن كونِ العملِ في صُنْع الحديد، والتّقديرُ: (انفخوا في الكيران)، أي: الكيرانِ المصفوفةِ على طول ما بين الصّدفين من زُبَرِ الحديدِ"[2]، و﴿ٱنفُخُواْ﴾ "النّارَ على هذه القطعِ الكبيرةِ منَ الحديد"[3]؛ "لتسخينِ هذه القطعِ منَ الحديد وتليينها، ففعلوا ما أمرَهم به"[4]، "ولا شكَّ أنّه أمرَهم بوضع الوقودِ وإشعالِه قبل أمرِهم بالنّفخ فيه، وأنّ الأمرَ بالنّفخ قرينةٌ على ذلك"[5].

مراعاةُ التّرتيب الصّحيحِ في خطواتِ العملِ يضمنُ له النّجاحَ

دلالة مجيء ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في السّياق:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ حرفٌ يدلُّ على "غاية النّفخ"[6]، وأنّ بلوغَ التّسخين إلى هذه الدّرجة الّتي يشبهُ فيها الحديدُ النّارَ هي الّتي سمحت له بالخطوةِ التّالية، و"هذه العبارةُ مترتّبةٌ على كلامٍ مقدّرٍ مفهومٍ منَ المقام، فكأنّه قيل: ففعل العُمَّالُ ما أمرَهم به ذو القرنَيْن منَ النّفخِ في الوَقود المشتعِلِ بين قطَعِ الحديد، حتّى إذا جعل السّدَّ يُشبهُ النّارَ في شكلِه وفي حرارتِه، قال

بيانُ إتقانِ ذي القرنَيْن العملَ إلى أعلى درجةٍ ممكنةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 575.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 30.

لعُمّاله الّذين يقومون بإذابة القطر - وهو النّحاسُ أوِ الرّصاصُ أوِ الحديد - قال لهم: أحضروا القطرَ الّذي صهرتُموه وأذبتُموه لأُفرغَه على السّدّ، فأحضروه له فأفرغَه عليه، فسُدّت به الثّغراتُ الّتي كانت بين قِطَع الحديد، بعد أن تمّ احتراق الوقود الّذي بينهما، والتصق بعضُها ببعض أشدَّ التصاقٍ"[1].

سرُّ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، نلاحظُ أنّه ممّا يُقرِّرُ تَحقُّقَ ذي القرنَيْن من بلوغ كلِّ مرحلة من مراحل تشييدِ السّدّ أعلى درجاتِ إتقانها - إيثارُ النّظم الكريم التّقييدَ بـ ﴿إِذَا﴾ القاطعةِ، دون (إن) المشكِّكةِ، فلم يطلبْ إفراغَ القطر عليه إلّا بعد القطْعِ بانصهارِه وبلوغِه مرحلةَ التّشبُّه بالنّار.

العملُ المعلّقُ على بعضه يقتضي تحقُّقَ الخطوةِ الّتي تسبقُ ما بعدَها

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إسناد الجعْلِ إلى ذي القرنيْن:

في إسناد جَعْلِ زُبَر الحديد نارًا إلى ذي القرنيْن مجازٌ عقليٌّ إسناديٌّ، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ﴾، "لكونِه الآمرَ بالنّفخ"[2]، "فلمّا كان ذلك يتمُّ بأمره وإرشادِه، أسندَه إليه على سبيل المجازِ"[3]، وعلى الرّغم من أنّ الّذين جعلوه نارًا بنفْخِهم، همُ العَمَلةُ الّذين تسبَّبوا في جعله نارًا بنفْخهم - غيرَ أنّ السّببَ الرّئيسَ في كلّ ذلك هو المديرُ الأعلى ذو القرنيْن، الّذي لولا قدومُه، وحسنُ إدارته، وثاقبُ فكره، ما كان لهذا السّدّ أن يكونَ، ولا أن يكونَ على هذه الصّفةِ منَ القوّةِ العظيمة.

أثرُ القائدِ في توجيه الأمّةِ يجعلُه كأنّه هو المُنجزُ لما وجّههم إلى فعْلِه

بلاغةُ التّشبيه في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾:

شَبَّه النّظمُ الكريمُ زُبَرَ الحديد، وقِطعَه الكبيرةَ، الّتي أوقدَ عليها حتّى احمرّت بالنّار بجامع شدّةِ الاحمرار، والالتهابِ واللّيونةِ، أي:

قَصصُ القرآنِ يعلّمُ النّاسَ أصولَ الحِرَفِ ومناهجَ العملِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 924.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 369.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.

لا زالوا ينفخون فيها "حتّى إذا صارت كالنّار في احمرارِها وشدّةِ توهّجِها"[1]، وصارت "لينًا كالنّار في الحرّ واللّهبِ"[2]، وفي "حرارتِها وهيئتِها، قال: أحضروا لي نحاسًا مُذابًا؛ لكي أفرغَه على تلك القطَعِ منَ الحديد؛ لتزدادَ صلابةً ومتانةً وقوّةً، وهذا يعني أنّه بُني "بطريقةٍ محكمةٍ سليمةٍ، اهتدى بها العقلاءُ، في تقويّة الحديد، والمباني في العصرِ الحديثِ"[3].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿نَارًا﴾:

بلوغُ السّابقين الذّروةَ في العلمِ والحضارةِ والحكمةِ

تنكيرُ المشبَّه به في جملة ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، يدلُّ على بلوغ تسخينِ زُبَرِ الحديد، وتوهّجِها مبلغًا كبيرًا، حتّى صيّرها نارًا مَهولةً منكورةً مستفظعةً، وهنا سؤال: "كيف يستطيعُ العمّالُ أن ينفخوا في السّور قريبًا منه، دون أن يحترقوا بناره، وكيف يُفْرِغون عليه النُّحاسَ المذابَ مع حرارتِه الشّديدةِ، ونارِه المتَّقِدة، وارتفاعه العظيم، وثخانتِه البالغةِ خمسين ذراعًا على ما قيل؟ والجوابُ: أنّه لا بدّ أن يكونَ ذو القرنيْن قد وصل إلى حلٍّ لهذه المشكلاتِ، بحيث يُمكنُه تحقيقُ بنائه على النّحو الّذي تحدَّث به القرآنُ العظيمُ عنه، دون إضرارٍ بأحد العاملين فيه، وكما أنّ العِلم في عصرنا حَلَّ مشكلاتٍ كثيرةً، فالعلمُ والحضارةُ والحكمةُ عند هؤلاء القدماء بلغتِ الذّروة، فلا بدّ أنّهم استعملوا آلاتٍ وطُرُقًا عِلميّةً لم يصل بعدُ أحدٌ إلى معرفتها، ولا تكاد العقولُ تُصدِّقها، ما لم تعرِفْ ما كان عليه هؤلاء العظماء، منَ العلم والحكمةِ والإبداع، وما معجزةُ بناءِ الأهرام عنّا ببعيدةٍ عنِ العيون والأبصار، وكم للّه تعالى في خلقه من آياتٍ وعظاتٍ"[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 343.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 575.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.

دلالةُ تنوّعِ القراءاتِ في: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ في الكلمةِ الواحدةِ ثراءٌ للنّظمِ الكريمِ

وردت كلمة ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ في الآية مرّتين، فأمّا الموضع الأول فقد ورد ثَمّ، وذُكِر ما فيها من قراءة، وأمّا الموضع الثاني فقد قرأ جمهور القراء العشرة إلا شعبة في بعض طرقه وحمزةُ[1]: ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، بالمدّ في ﴿ءَاتُونِىٓ﴾، بمعنى: (أعطوني قطرًا أُفرغْه)، ونُصِب ﴿قِطۡرٗا﴾ في هذه القراءة بـ ﴿أُفۡرِغۡ﴾، والمفعول الثاني للإيتاء محذوف، والتقدير: (آتوني قطرًا أفرغ عليه قطرًا)، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقرأ حمزة وشعبة بخلاف عنه بسكون الهمزة: ﴿قَالَ ٱئۡتُونِىٓ أُفۡرِغۡ﴾، من الإتيان، بمعنى: جيئوني مُعينين، فهو غير متعدٍّ إلى مفعول[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أُفۡرِغۡ﴾:

صيغةُ المضارعِ تَستحضِرُ الحدثَ كأنّ النّفسَ تُعاينُه

التّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿أُفۡرِغۡ﴾ يَستحضرُ في الذّهن صورةَ الإفراغ، كأنّه واقعٌ تعاينُه النّفسُ، كذلك تفيدُ صيغةُ المضارعةِ التّجدّدَ المستمرَّ، أي: هدوءُ الإفراغ وتواليه شيئًا فشيئًا؛ بحيث يُتاح له وقتٌ يسمحُ ببرودِه والتئامِه على جدار السّدّ على مهلٍ، أما صَبُّه مرّةً واحدةً فيتناقضُ مع فكرة الإبرادِ، خلال وقتِ الإفراغ، وقد فسّر العلماءُ الإفراغَ بالصَّبّ تجاوُزًا، فقالوا في ﴿أُفۡرِغۡ﴾ "أي: أَصبُّ عليه قطرًا"[3].

مرجعُ الضّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالتُه:

انسباكُ قِطعِ الحديدِ بعدَ الصّهرِ بالقِطرِ

الضّميرُ في ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ﴾ يرجعُ إلى ﴿ٱلۡحَدِيدِ﴾ وقِطَعِه الّتي رصَّها ذو القرنيْن في جِدار السَّدّ، وكان القصدُ من إفراغِ القطر عليه، أنْ يلتئمَ ويتماسكَ، ولا يتأثّرَ بالزّلازل وغيرِها، فيكونَ مانعًا لخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 315.
(2) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 307.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 208.

نُكتةُ تنكيرِ المفعولِ به ﴿قِطۡرٗا﴾:

التّكثيرُ مناسبٌ لحجمِ السّدِّ وقوّتِه في حجبِ العدوّ

تنكيرُ ﴿قِطۡرٗا﴾ يفيدُ تهويلَه، وتعظيمَ أثرِه في تماسك السَّدِّ، وتكثيرِه، و﴿قِطۡرٗا﴾ مفعولٌ "منصوبٌ بـ ﴿أُفۡرِغۡ﴾، والتّقديرُ: (آتوني قطرًا أُفرغْ عليه قطرًا)، فحُذفَ الأوّلُ لدلالة الثّاني عليه"[1]، وقد حقَّقَ الحذفُ ترابُطَ النّصّ، وتصفيّةَ العبارةِ، وتحاشيَ التَّكرارِ.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمَا﴾ في السّياق:

إتقانُ العملِ نتائجُه باهرةٌ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ "عاطفةٌ على محذوفٍ، أي: فجاء قومُ يأجوجَ بعد أن أنْهى بناءَه وتسويتَه يُحاولون أن يَعلوه، أو يَثقبوه فما اسطاعوا"[2]؛ "لشدّة ارتفاعِه وملاستِه، وما استطاعوا له خرقًا لصلابتِه وغِلظِه"[3]، وتلك الجملةُ إشادةٌ قرآنيّةٌ بالعملِ المتقَنِ، وقد قال الرّسولُ ﷺ: "إِنَّ اللّهَ جَلَّ وعَزَّ يُحِبُّ إِذا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ"[4].

دلالةُ ﴿فَمَا﴾ في السّياقِ المُحكَم:

العملُ المُتقَنُ يَستعصي على الاختراقِ بصفةٍ دائمةٍ

﴿فَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ نافيةٌ، تُقرِّرُ عجْزَ يأجوجَ ومأجوجَ عنِ التّعاملِ مع هذا السّدّ المنيعِ، وتفيدُ بطريق اللُّزومِ الكنائيِّ أنّه بلغَ منَ القوّةِ والارتفاعِ والملاسةِ ما لا يمكنُ معه اقتحامُه، وأنّ القومَ قد صاروا به آمنين من شرّ أولئك المُعتدين.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ محذوفَ التّاء:

الفعلُ (اسطاعوا) ومشتقّاتُه آيةٌ من آياتِ البلاغةِ القرآنيّةِ

إسقاطُ التّاءِ منَ الفعل ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ آيةٌ من آياتِ الإعجازِ بالجرس الصوتي في هذا الموضع، ذلك أنّ السّياقَ هنا قد صوّرَ ظاهرَ السّد ناعمًا أملسَ، وأنّ باطنَه حديدٌ مُصمَتٌ؛ وأنّ تعاملَ يأجوجَ ومأجوجَ معه، سيكون تصرّفًا مِن اثنين لا ثالثَ لهما: فإمّا أن يحاولوا تسلُّقَه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 748.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 30.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 924.

(4) البيهقي، شُعب الإيمان، الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها: 7/ 234، برقم (4931).

والصّعودَ عليه، ثمّ النّزولَ منَ الجهة الأخرى على القوم المظلومين - وهذا هو التّصرُّفُ الأيسرُ عليهم -، وإمّا أن ينقبُوه ويثقُبوا فيه أبوابًا، يمرّون منها إليهم، "ومن خصائص مخالفةِ مقتضى الظّاهر هنا إيثارُ فعل ذي زيادةٍ في المبنى، بموقع فيه زيادةُ المعنى، لأنّ استطاعةَ نقْبِ السّدّ أقوى منِ استطاعة تسلُّقه، فهذا من مواضع دلالةِ زيادةِ المبنى على زيادةٍ في المعنى"(1)، والمعنى: "فما قدروا أَنْ يَظْهَروهُ، يعني: أن يعلوا فوق السّدّ، وما اسْتَطاعوا لَهُ نَقْبًا، أي ما قدروا على نقبِ السّدّ"(2)، و"ما قدروا على الصّعودِ عليه، لأجل ارتفاعِه وملاستِه"(3).

دلالةُ الضّميرِ في الفعل ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾:

العـدوُّ شـديدُ الخطورةِ يدفعُه التّحصينُ المُتقَنُ

الضّميرُ في الفعل ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ يرجعُ إلى يأجوجَ ومأجوجَ، فما قدروا أن يعلوا السّدَّ ويتسلَّقوه؛ لأنّهم كلّما حاولوا انحدروا، وتزحلَقوا(4)، وما استطاعوا له نقبًا ولا ثقبًا في أسفلِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَظۡهَرُوهُ﴾:

محاولةُ الأعداءِ المُتجدّدةِ تقتضي يقظةً متجدّدةً

التّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَظۡهَرُوهُ﴾، يدلُّ على أنهم حاولوا تسلّقَ السّدّ كثيرًا، وجدَّدوا المحاولاتِ، ونوَّعوها، وتفنّنوا فيها دون جدوَى؛ ووراء ذلك كنايةٌ عن شدّة إتقانِ تشييدِ السّدّ، وذلك بدوره يعكسُ ما لدى ذي القرنَيْن من دقّة العملِ، وحُبّ الخيرِ، ومراقبةِ الحقِّ ﷻ وأوثرَ التّعبيرُ بأنْ والفعلِ، على التّعبيرِ بالمصدرِ لظهور المحاولةِ والإصرارِ عليها.

مرجعُ الضّميرَيْن في الفعل ﴿يَظۡهَرُوهُ﴾:

السّـدُّ حمَى المؤمنين من الأعداء وكان لهم حصنًا حصينًا

في الفعل ﴿يَظۡهَرُوهُ﴾ ضميران: ضميرٌ فاعلٌ، وهؤلاء هم يأجوجُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 38.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 362.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.
(4) "تزحلقَ يتزحلق، تزحلُقًا، فهو مُتزحلِق، تزحلق الشَّخصُ: انزلق على الجليد أو الماء، نزل في انحدارٍ"، عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة (زحلق).

ومأجوجُ، والآخرُ ضميرُ المفعول، وهو السّدُّ الّذي بناه ذو القرنَيْن بمعونةِ القوم، والظّهورُ هنا بمعنى "الارتقاءِ"[1]، فقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، صريحٌ في أنّ يأجوجَ ومأجوجَ ما أمكنَهم "أن يعلوه، وما قدروا على الصّعودِ عليه؛ لأجل ارتفاعِه وملاستِه"[2]، وفي التّعبيرِ بالضّميرَين هنا، إلماعٌ إلى تغييبِ السّدِّ للعدوّ، وتغييبه للمؤمنين عن أعدائِهم؛ لأنّ رؤيةَ العدوّ قلقٌ للمؤمن، وفي كلّ ذلك مناسبةٌ لعظيمِ أثرِ ما فعلَه ذو القرنَيْن.

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

السّدُّ مانعٌ من كلِّ محاولةٍ للعدوّ تهدّدُ كيانَ المؤمنين

وجْهُ العطفِ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ على جملةِ ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، هو التّوسُّطُ بين الكمالَين مع توفُّر المناسبةِ؛ إذِ الخبران كلاهما يَتحدّثان عنِ السّدِّ، وأحدُهما عن ملاستِه وارتفاعِه، والآخرُ عن عرضِه وشدّتِه.

دلالةُ (ما) على اللّزومِ الكنائيِّ في السّياق:

العجزُ عنِ اختراقِ السّدِّ ثابتُ المنعِ

دلالةُ (ما) هنا في قوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾، ومثلُها في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، في كليهما أنّها نافيةٌ، تُقرِّرُ عجزَ يأجوجَ ومأجوجَ عنِ التّعامل مع هذا السدِّ المنيعِ، وتفيدُ بطريق اللّزوم الكنائيِّ، أنّه بلغَ منَ القوّةِ والارتفاعِ والملاسةِ، ما لا يمكنُ معه اقتحامُه، وأنّ القومَ الّذين طلبوا من ذي القرنَيْن بناءَه، قد صاروا به آمنين، من شرِّ أولئك الظّالمين.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

عجزُ يأجوجَ ومأجوجَ مُحقَّقٌ من خلالِ السّياقِ المُصدّقِ

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ يُقَرِّرُ تَحقُّقَ عجزِ يأجوجَ ومأجوج - مع عُتوِّهم وغلبتِهم وكثرتِهم - عنِ التّغلُّب على السّدِّ خرقًا ونقبًا من أسفلِه، كما تَحقَّقَ بنفي الفعلِ ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾،

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 430.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

عجزُهم عنِ ارتقائِه وتجاوُزِه من أعلاه، وبنفيِ الفعلَين بصيغتَيْهما الماضيتَين، يقطعُ النّظمُ الكريمُ، بإغلاق هذا البابِ منَ الشّرّ عن هؤلاء القومِ المظلومين، الّذين سخّر ذو القرنيْن إمكاناتِه وإمكاناتِهم لإقامتِه.

محاولةُ النّقبِ أطولُ وأقوَى، فلذلك ناسبَها ذكرُ التّاء

سرُّ عدَمِ حذْفِ التّاء منَ الفعل كسابقِه:

أثبتَ النّظمُ الكريمُ (التّاء) في هذا الفعل ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾؛ لأنّه فِعْلُ نَقْبٍ وثقب؛ فالتّاءُ تحكي ذلك الثّقلَ وتلك الشّدّةَ؛ ففيه منَ المعاناة والتّعثُّرِ ما ليس في ملاسةِ التّسلّقِ، والتّزحلقِ والنّزولِ بعد محاولة الصّعودِ على سطحه الأملسِ، وسبحان من هذا كلامُه!

بيانُ نفْيِ قدرة يأجوجَ ومأجوجَ على نقْبِ السّدِّ أو تجاوُزِه بإطلاقٍ

دلالةُ التّقْييدِ بـ﴿لَهُۥ﴾ وسرُّ تقديمِه في الآية:

القيدُ بالجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾، يعودُ على السّدّ، وهو قيدٌ زائدٌ على بنية التّركيب للجملة الفعليّةِ، حيث إنّ الفعلَ (نقب) يتعدّى بنفسه، فيقال - في غير القرآن -: فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا أن ينقبوه - بدون الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، لكنّ في هذا الجارّ والمجرور، زيادةُ تأكيدٍ لعجزِ يأجوجَ ومأجوجَ، وقُدّم لأنّه مقصودٌ يأجوجَ ومأجوجَ بالعمل ظهورًا أو نقبًا، وتنكيرُه يفيدُ التّقليلَ والتّحقيرَ، فينفي تمكُّنَ يأجوجَ ومأجوجَ من إحداثِ أيِّ نقبٍ في السّدّ؛ وذلك "لأجل صلابته وثخانته"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُوّةُ هي القدرةُ، والشّدّةُ الصّلابةُ في معالجةِ الأمرِ

القوّةُ والشّدَّةُ:

"القوَّةُ: القدرةُ نحوَ قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، والتّهيّؤُ الموجودُ في الشّيء"[2]، و"الشّدّةُ في الأصل هي مبالغةٌ في

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

(2) الرّاغب، المفردات: (قوى).

وصف الشّيءِ في صلابةٍ، وليس هو من قَبيل القُدرةِ؛ ولهذا لا يقال للّه: شديد"[1]، فالقوّة: القدرةُ، والشّدّةُ: الصّلابةُ.

الرّدمُ والحاجزُ:

"الرَّدْمُ: سدُّ الثّلْمةِ بالحجرِ"[2]، و"الحاجِزُ: ما يَكونُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وسُمّيَ الحِجازُ؛ لأَنَّهُ حَجَزَ بَيْنَ نَجْدٍ والغَوْرِ، وهو مَأخوذٌ مِنْ حَجَزَهُ يَحْجُزُهُ حَجْزًا، أَيْ: مَنَعَهُ وكَفَّهُ، كَأَنَّهُ يَمنَعُ مِنْ وُصولِ أَحَدِ الجانِبَيْنِ إلى الآخَرِ"[3] فالرّدمُ: سدٌّ بالحجارة وغيرِها، والحاجزُ: الفاصلُ العامُّ.

الرّدمُ سدُّ الثّلْمةِ، أو ملءُ الحفرةِ، والحاجزُ ما يَحجزُ بين الشّيئيْن

الإفراغُ والصَّبُّ:

"أفرغَ الإناء: أخلاه ممّا فيه، والشَّيْءَ أَلْقاهُ من وعائه، يُقال: أفرغَ الماء، ويُقال: أفرغ الدّماء: أراقَها"[4]، و"الصَّبُّ يكون دَفعةً واحدةً، ولهذا يقال: صبَّه في القالب، ولا يقال: سكبَه فيه؛ لأنّ ما يُصَبُّ في القالب يُصَبُّ دَفعةً واحدةً"[5].

الإفراغُ إخلاءُ الإناءِ ممّا فيه دونَ تحديدٍ، والصّبُّ يكونُ في فورٍ واحدٍ

أمّا ما فعله ذو القرنيْن فكان إفراغًا على مراحلَ لا مرّةً واحدةً، حيث "كان يأمرُ بوضع طاقةٍ منَ الزُّبَر والحجارة، ثمّ يوقدُ عليها حتّى تَحمى، ثمّ يؤتَى بالنّحاس المذاب، أوِ الرّصاص أوِ بالحديد - بحسب الخلافِ في المقصودِ بالقطر - فيُفرغُه على تلك الطّاقةِ المنضّدةِ، فإذا التأمَ واشتدَّ، استأنفَ وصفَّ طاقةً أخرى، إلى أنِ استوى العملُ"[6]، فالتّعبيرُ بالإفراغِ يُلفتُ إلى حاجةِ الإنشاءاتِ إلى وقتٍ مناسبٍ؛ لتنضجَ الصّنعةُ وتكتملَ على مهلٍ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 297.
(2) الراغب، المفردات: (ردم) ص350.
(3) ابن بطال، النظم المستعذب (حجز): 1/ 107.
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط (فرغ): 2/ 684.
(5) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 279.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 543.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ٩٨﴾ [الكهف: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الثَّناءُ على المُنعِمِ بعدَ رؤيةِ النِّعمةِ، وتذكّر قدرة الله على كلّ شيء

لمّا رأى ذو القرنينِ أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يَظْهَروا على ما بنى مِنَ السَّدِّ، ولا يَقدِرونَ على نَقْبِه، لم يَنسُبِ الفضلَ لنفسِه؛ لأنَّهُ مُجرَّدُ أداةٍ للتَّنفيذِ، بل نسبَهُ لربِّه فقالَ: هذا الَّذي بنيتُهُ وسوَّيتُهُ حاجزًا رحمةٌ مِنْ ربّي، رَحِمَ بها مَنْ هُم دونَ السَّدِّ مِنَ النّاسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَحْمَةٌ﴾: الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وبخصوص اللّه تعالى فهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ فعليَّةٌ ثابتةٌ للّه ﷻ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، ولا تُقصر على الإنعامِ، أو إرادةِ الإنعامِ، فهو تعالى ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ العَظيمةِ التي وسِعَت كُلَّ شَيءٍ، وعَمَّت كُلَّ حَيٍّ، وكتَبَها للمتَّقينَ المتَّبِعينَ لأنبيائِه ورُسُلِه، فهؤلاء لهم الرَّحمةُ المُطلَقةُ، ومَن عداهم فلهم نصيبٌ منها، نحوُ قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ﴾[2].

2) ﴿وَعْدُ﴾: (وعد) يدلّ على التَّرجية بقولٍ[3]، ويُتوسَّعُ فيه فيُستعمَلُ في غيرِ القولِ، فيقالُ على سبيلِ المجازِ: أرضُ بني فلانٍ واعدةٌ، إذا رُجيَ خيرُها مِنَ المطرِ والإنباتِ[4]، والوَعْدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[5]، وقولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4590، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8992.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (وعد).
(5) الجوهري، الصحاح: (وعد).

أُريدَ به ما في علمِ اللّٰه سبحانَهُ مِنَ الأجلِ الَّذي ينتهي إليه دوامُ ذلكَ الرَّدْمِ[1].

3) ﴿دَكَّآءَۖ﴾: (دكّ) يدلُّ على تطامنٍ وانسطاحٍ، ومِنْ ذلكَ: الأرضُ الدَّكّاءُ، وهي الأرضُ العريضةُ المستويةُ الليِّنةُ السَّهلةُ[2]، وقد يكونُ التَّطامنُ والانسطاحُ على إِثْرِ هَدْمٍ وكَسْرٍ وضَغْطٍ شديدٍ[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، أي: سوّاهُ بالأرضِ، فألزقَهُ بها[4].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

العبدُ الصّالحُ ينسبُ النِّعمةَ لـربِّـه لا إلى نـفسِـه، ويـقرّ بإحاطة الله بكلّ شيء

يُخبِرُ اللّٰهُ جل شأنه عن ذي القرنينِ أنَّهُ لمّا انتهى مِنْ بناءِ السَّدِّ، ورأى أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يستطيعونَ أنْ يظهَروهُ، ولا يَقْدِرونَ على نَقْبِه - قالَ: هذا الَّذي بنيتُهُ وجعلتُهُ حاجزًا رحمةٌ مِنْ ربّي، رَحِمَ بها مَنْ هم دونَ السَّدِّ مِنَ النّاسِ، فأعانَني برحمتِه لهم حتَّى بنيتُهُ؛ ليكفَّ بذلكَ غائلةَ يأجوجَ ومأجوجَ عنهُم، ويمنعهم منه، فإذا دنا يومُ القيامةِ، وحانَ وقتُ ظُهورِ علاماته ومنها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، سوّاهُ بالأرضِ، فألزقَهُ بها، وكان وعدُ اللّٰه بتسويته بالأرض وبخروج يأجوج ومأجوج ثابتًا لا خُلْفَ فيه، وكلُّ ما وعدَ به ربّي فهو حقٌّ ثابتٌ، لا يرتابُ فيه عاقلٌ[5].

وترشد الآية الكريمة إلى حالِ الخلفاء الصالحين، إذا منَّ اللّٰه عليهم بالنِّعم الجليلة، ازداد شكرُهم وإقرارُهم، واعترافُهم بنعمة اللّٰه، كما فعل سليمان ﷺ، لمّا حضر عنده عرش مَلِكة سبأ مع البُعْد العظيم؛ إذ قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دكك).
(3) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دكك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 118، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 199.

40 بخلاف أهل التجبُّرِ والتكبُّر والعلوِّ في الأرض؛ فإنَّ النِّعم الكِبارَ تزيدُهم أشرًا وبطرًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

بـعـد تـمـام النِّعمة يعلن القائد ما امتلأ به وجدانه

فُصِلَ قولُه جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعْطَفْ عليه؛ لما بينَ الآيتينِ مِنْ شِبْه كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ فقولُهُ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهُ لمّا أعلمَ الكلامُ بانتهاءِ حكايةِ وصفِ الرَّدْمِ، كانَ ذلكَ مُثيرًا سؤالَ مَنْ يسألُ: ماذا صدرَ مِنْ ذي القرنينِ، حينَ أتمَّ هذا العملَ العظيمَ؟ فأُجيبَ بجملةِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[2].

دلالة مرجع اسم الإشارةِ في السّياق:

عظمة السّدّ في بنيانه بأنّه رحمة من الله في أوانه

مرجعُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ﴾ هو السَّدُّ، والمعنى: هذا السَّدُّ نعمةٌ مِنَ اللّه ورحمةٌ بِعبادِهِ[3]، في دفعِ ضررِ يأجوجَ ومأجوجَ[4]، أومرجعُ الإشارةِ هو الإقدارُ والتَّمكينُ مِنْ بناءِ السَّدِّ، أي: هذا التَّمكينُ مِنْ بناءِ السَّدِّ نعمةٌ مِنَ اللّه ورحمةٌ بِعبادِهِ[5]، والأصلُ في الإشارةِ أنْ تكونَ إلى محسوسٍ، أي: هذا الَّذي ظهرَ على يديَّ، وحصلَ بمباشرتي مِنَ السَّدِّ الَّذي شأنُهُ ما ذُكِرَ مِنَ المَتانةِ وصعوبةِ المَنالِ[6]، فالضَّميرُ في ﴿جَعَلَهُۥ﴾ راجعٌ إلى السَّدِّ؛ إذ هو الَّذي يُتصوَّرُ فيه الدَّكُّ مَعَ متانتِه ورصانتِهِ[7].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 209، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 544، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 63.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 312، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 294.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رَحۡمَةٞ﴾ وتنكيرِه:

المبالغةُ في تعظيمِ شأنِ السَّدِّ دليلٌ على أهميّته وتفرّده

قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ أصلُ معناهُ: هذا - أي: السَّدُّ - أثرُ رحمةٍ مِنْ ربّي، بتقديرِ مضافٍ، لكنْ بولِغَ في تعظيمِ شأنِ السَّدِّ، وما حصلَ به مِنَ المَنافعِ ودفعِ مَضارِّ يأجوجَ ومأجوجَ، فأُخبِرَ عنهُ بأنَّهُ رحمةٌ مبالغةً في تصويرِ الحالِ، كأنَّهُ مُثِّلَ في صورةِ رحمةٍ، وزادَ شأنَ هذا التَّعظيمِ تنكيرُ ﴿رَحۡمَةٞ﴾ المفيدُ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: هذا رحمةٌ عظيمةُ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

دلالة الحرف ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّيۖ﴾:

بيان أنّ مصدر الرَّحمة الأصيل مِنَ الرَّبِّ الجليل

﴿مِّن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: هذا رحمةٌ ابتداؤُها مِنْ ربّي الرَّحيمِ مصدرِ الخيراتِ والرَّحَماتِ، ومُفيضِ العطايا والهِباتِ؛ لأنَّهُ ألهمَني ذلكَ، ويسَّرَ لي ما هو صعبٌ، وذلَّلَ لي وسائلَ بناءِ السَّدِّ المتينِ العظيمِ الشَّأنِ[2]، وفي ذلكَ أيضًا إيذانٌ بأنَّهُ ليسَ مِنْ قَبيلِ الآثارِ الحاصلةِ بمباشرةِ الخَلْقِ عادةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ مَحْضٌ وإنْ ظهرَ بمباشرتي[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الرَّبِّ)في السّياق:

سوق معنى الرَّحمةِ في معرض وصفِ الرُّبوبيّة

لمّا كانَ السّياقُ لذكرِ رحمةِ اللّه بعبادِهِ، وتفضُّله عليهم، بتمكينِ ذي القرنينِ مِنْ بناءِ السَّدِّ الَّذي يَعصِمُهم مِنْ شرِّ يأجوجَ ومأجوجَ، وكانَ ذو القرنينِ في مقامِ التَّبرُّؤِ مِنَ الحَوْلِ والقوَّة، وإسنادِ النِّعَمِ إلى موليها ﷻ ناسبَ ذلكَ إيرادُ وصفِ الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّيۖ﴾ المُنبِئَ عنِ الإحسانِ والإنعامِ[4]؛ لما في التَّعرُّضِ لهذا الوصفِ مِنْ تربيةِ معنى الرَّحمةِ بأنَّها صادرةٌ مِنَ الحيِّ القيّومِ الَّذي إليه يُرجَعُ أمرُ الخَلْقِ كُلُّه[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 39.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 140.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 363.

مَنْ عاينَ آثارَ الرُّبوبيَّةِ تشرَّفَ وتلذَّذَ بالعُبوديَّةِ

الغرض من إضافةِ ﴿رَبِّيۖ﴾ إلى ضميرِ المتكلِّم:

في إضافةِ ذي القرنينِ لفظَ الرُّبوبيَّةِ، إلى ضميرِ المتكلم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، مزيدُ تجرُّدٍ مِنْ حَوْلِه وقوَّتِه؛ إذ المعنى: هذا السَّدُّ مَحْضُ رحمةٍ مِنَ المُحسِنِ إليَّ بإقداري عليه، ومنعِ الفسادِ به، ولولا عَوْنُه وتيسيرُه ما تمَّ بناؤُهُ[1]، وفيها أيضًا تشريفٌ لنفسِه، وافتخارٌ بالانتظامِ في سِلْكِ المربوبينَ، وتلذُّذٌ بإضافةِ لفظِ المُحسِنِ المُنعِمِ إلى الضَّميرِ المُعبِّرِ عنه.

كلُّ ما في الوجود منوط بإرادة الله في بقائه ودكِّه

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في الآيةِ:

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ اللّاحقُ، والتَّقديرُ: (قالَ هذا رحمةٌ مِنْ ربّي، وهو يستمرُّ إلى آخِرِ الزَّمانِ، فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَهُ دكّاءَ)[2].

المُقدَّرُ في الكلامِ تكتملُ به دلالة المعنى

معنى الفاءِ في ﴿فَإِذَا﴾:

الظّاهرُ أنَّ الفاءَ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن محذوفٍ؛ إذِ التَّقديرُ كما مرَّ: (وهو يستمرُّ إلى آخِرِ الزَّمانِ، فإذا جاءَ وعدُ ربّي جعلَهُ دكّاءَ)، وقيلَ: الفاءُ للسَّببيَّةِ، لكنْ لسببيَّةِ إخبارِ المجيءِ لا لنفسِهِ[3]، وقد تكون استئنافية وفي الحذف إيجازٌ، واعتماد على قوة المعنى في الدلالة.

مجيءُ الوعدِ أمرٌ مُستقبَليٌّ مقطوعٌ به لا محالة

إفادة لفظ ﴿فَإِذَا﴾ الظَّرفيّة والشَّرطية:

﴿فَإِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، وتفيدُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، أنَّ مجيءَ الوعدِ أمرٌ مُستقبَليٌّ، وهي أيضًا شرطيَّةٌ تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ في

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 140.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 171.

الاستقبالِ[1]، فيكونُ مجيءُ الوعدِ مقرِّرًا لمعنيين من دلالات حروف المعاني، كونه أمرًا مقطوعًا بهِ، ولا شكَّ في حصولِه.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في الفعل ﴿جَآءَ﴾:

ما أخبر الله بوقوعه، فهو واقع يقينا بلا ريب

لمّا كانَتْ ﴿فَإِذَا﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ للشَّرطِ في الاستقبالِ، وتُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ - غُلِّبَ لفظُ الماضي معها في الفعل ﴿جَآءَ﴾؛ لدلالته على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى اللَّفظِ نفسه، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ[2]، ولذلكَ جاءَ الإخبارُ عن مجيءِ الوعدِ ماضيًا.

بلاغةُ المجازِ في سياقِ الآية:

في المجازِ قوة في المعنى ومبالغة فيه

اختُلِفَ في لفظِ الوعدِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾: فقيلَ: الوعدُ على بابِهِ[3]، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: (فإذا جاءَ وقتُ وعدِ ربّي)، والإسنادُ إلى الوعدِ مجازٌ، وهو لوقتِه في الحقيقةِ[4]، وقيلَ: الوعدُ مصدرٌ بمعنى المفعولِ، أي: فإذا جاءَ موعودُ ربّي[5]، وهو وقتُهُ أو وقوعُهُ، فلا حذفَ، ولا مجازَ في الإسنادِ، بل هناكَ مجازٌ في الطَّرَفِ، أي: في لفظِ الوعدِ[6].

بلاغة العدول عن المضمر إلى الظاهر في الوعد:

التعبير بالظاهر أقوى في الدلالة وآكد في تحقق الوعد

أُضيفَ الوعدُ في قولِه عزَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، ولم يُضَفْ إلى الضَّميرِ، كأن يقال: (فإذا جاء وعده)؛ لما في الإضافةِ إلى الاسم الظاهر مِنْ تأكيدِ تحقُّقِ الوعدِ،

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 270.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 551.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 363.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 209، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 228، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 246.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 363، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

وبيانِ عظيمِ قُدرةِ اللّه تعالى، ولا سيَّما والمقامُ مقامُ تخويفٍ وتهويلٍ وتمهيدٍ لذكرِ بعضِ أحوالِ يوم القيامةِ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿جَعَلَهُۥ﴾:

تغليبُ لفظِ الماضي معَ (إذا) مفيد في مؤدّى السّياق

عُبِّرَ بالماضي في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾؛ لأنَّ مجيءَ الوعدِ ودكَّ السَّدِّ أمرانِ مقطوعٌ بحصولِهما، ﴿فَإِذَا﴾ للشَّرطِ في الاستقبالِ، وتُستعمَلُ في الشَّرطِ المقطوعِ بوقوعِه، ولذلكَ يُغلَّبُ لفظُ الماضي معَها؛ لأنَّهُ يدلُّ على الوقوعِ قطعًا بالنَّظرِ إلى نفسِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ.

تنوع القراءات للفظ ﴿دَكَّآءَۖ﴾ وثراء المعنى:

ثراءُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ مفيد في الدَّلالاتِ

قرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلفٌ: ﴿دَكَّآءَۖ﴾ بمدِّ الكافِ وهمزةٍ مفتوحةٍ بعدَها غيرِ مُنوَّنة، وقرأ الباقونَ: ﴿دَكّٗا﴾ بتنوينِ الكافِ مِنْ غيرِ همزٍ بعدَها[1]، والدَّكُّ في قراءةِ الجمهورِ مصدرٌ بمعنى المفعولِ للمبالغةِ، أي: جعلَهُ مدكوكًا، أي: مُسوًّى بالأرضِ بعدَ ارتفاعٍ[2]، وأمّا قراءةُ الكوفيّينَ فهي على تقديرِ محذوفٍ، أي: فجعلَهُ أرضًا دكّاءَ، أي: مستويةً[3]، ولا بدَّ مِنْ تقديرِ هذا الحذفِ؛ لأنَّ السَّدَّ مُذكَّرٌ، فلا يوصَفُ بـ ﴿دَكَّآءَۖ﴾[4]، وقيلَ: التَّقديرُ: فجعلَهُ مثلَ دكّاءَ، والدَّكّاءُ: النّاقةُ الَّتي لا سَنامَ لها، فيكونُ في الكلامِ تشبيهٌ[5].

بلاغةُ ترتيب ذكرِ دَكِّ السَّدِّ، بعدَ ذكرِ رحمتِه ببنائِهِ:

اقتران ذكر عِظَمِ القُدرةِ مع ذكرِ سَعَةِ الرَّحمةِ من جميل المؤدّى

جعلُ السَّدِّ دكّاءَ كما دلَّ عليه قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ يكونُ وقتَ مجيءِ الوعدِ بمجيءِ بعضِ مَباديه، وفيه بيانٌ

---

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 293، وابن الجزري، النشر: 2/ 271، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 373.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/ 748، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 39.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 217، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 748،

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 64.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 544، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 39.

لعِظَمِ قُدرتِه - عزَّ شأنُهُ - بعدَ بيانِ سَعَةِ رحمتِه في قولِه: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾[1]؛ ليكونَ القارئُ والسّامعُ أمامَ صورتينِ مختلفتينِ: إحداهما تتجلَّى فيها الرَّحمةُ ببناءِ السَّدِّ المانعِ للشُّرورِ والمفاسدِ، والثانيةُ يتجلَّى فيها عِظَمُ القُدرةِ بدَكِّ السَّدِّ وخروجِ الشَّرِّ وبدايةِ الأحداثِ العظيمةِ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَكَانَ﴾:

حقّيّةُ وعدِ اللهِ الأجلِّ أمرٌ مُستمِرٌّ منذُ الأزلِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ لبيانِ أنَّ حقّيَّةَ وعدِه جل وعز أمرٌ مُستمِرٌّ منذُ الأزلِ، كانَ كذلكَ، ولا يزالُ، ومَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قيلًا.

سرُّ إضافةِ الوعدِ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

تأكيدُ حقّيَّةِ الوعدِ وإخراجُ التَّذييلِ مُخرَجَ الأمثالِ

أُضيفَ الوعدُ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾، ولم يُضَفْ إلى الضَّميرِ، فلم يُقَلْ: (وكانَ وعدُهُ حقًّا)؛ لما في الإضافةِ إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مِنْ تأكيدِ حقّيَّةِ الوعدِ، ولما في تكرارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ مِنْ تناغُمِه معَ ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، وقولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، ولأنَّ الإظهارَ أنسبُ بالتَّذييلِ مِنَ الإضمارِ؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (وكانَ وعدُهُ حقًّا) لطلبَ السّامعُ مرجعًا للضَّميرِ، ولم يكنِ التَّذييلُ مُخرَجًا مُخرَجَ الأمثالِ؛ لأنَّ الكلامَ مُتوقِّفٌ على ما قبلَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿حَقّٗا﴾:

المبالغةُ في حقّيَّةِ الوعدِ مفصحة عن الدّلالة

اختيرَ في بيانِ حقّيَّةِ وعدِه ﷻ صيغةُ المصدرِ، فقيلَ: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾، ولم يُقَلْ: (وكانَ وعدُ ربّي حاقًّا) أو نحو ذلكَ؛ لما في التَّعبيرِ بالمصدرِ مِنَ المبالغةِ في وصفِه بالحقّيَّةِ، حتَّى كأنَّهُ تجسَّمَ في صورةِ حقٍّ، والمعنى: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتَّةَ[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 246.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.

التَّفخيمُ والتَّعظيمُ من مزايا التّعبير الحكيم

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿حَقًّا﴾ في السّياق:

لمّا كانَ المقامُ لتأكيدِ حقّيَّةِ وعدِه ﷻ وتعظيمِ شأنِها نُكِّرَ لفظُ ﴿حَقًّا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾؛ لما في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا عظيمَ الشَّأنِ.

اختيارُ اللَّفظِ الأنسبِ بثبوتِ الوعدِ وتحقُّقِه مِن بلاغةِ السّياق

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿حَقًّا﴾ على (صِدْقًا):

أوثِرَ التَّعبيرُ بالحقّيَّةِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (وكانَ وعدُ ربّي صِدقًا)، كما في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ [الأنبياء: 9]، وقولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: 74]؛ لما في التَّعبيرِ بالحقّيَّةِ مِنَ الإشارةِ إلى ثبوتِ الوعدِ؛ لأنَّ مِنْ معاني الحقِّ: الموجودَ الثّابتَ الَّذي لا يَسوغُ إنكارُهُ[1]، فكأنَّهُ قيلَ: وكانَ وعدُ ربّي حقًّا ثابتًا لا يرتابُ فيه عاقلٌ[2].

تقرير المضامين تحقيق للمعنى

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾:

جملةُ ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ تذييلٌ لقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، مُقرِّرٌ لهُ ومُؤكِّدٌ لمضمونِه[3]؛ لأنَّ في الكلامِ السّابقِ القَطْعَ بمجيءِ الوعدِ وجَعْلِ السَّدِّ دَكّاءَ بدليلِ استخدامِ ﴿فَإِذَا﴾، والتَّعبيرِ بصيغةِ الماضي، وفي هذا الكلامِ تقريرٌ لذلكَ وتأكيدٌ ببيانِ أنَّ كلَّ ما وعدَ به ﷻ حقٌّ ثابتٌ لا يُرتابُ في وقوعِه، ويزيدُ بَهاءَ هذا التَّذييلِ العمومُ المستفادُ مِنْ ﴿وَعۡدُ رَبِّي﴾، وهذا العمومُ أخرجَ التَّذييلَ مُخْرَجَ الأمثالِ كما تقدَّمَ[4].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيءُ أقوى في الدَّلالةِ مِنَ الإتيانِ، وبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وجهٍ

المجيءُ والإتيانُ:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِه: أَتيٌّ،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4590.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 172، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 364.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.

وأَتاويٌّ[1]، والمجيءُ أعمٌّ[2]، والإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[3]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ (أتى)[4]، وعلى هذا يكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذه النّاحيةِ.

الوعدُ والوعيدُ:

الوعدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ

والوعيدُ يكونُ في الشَّرِّ خاصَّةً

الوعدُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يقالُ: وعدتُه بنَفْعٍ، ويقالُ: وعدتُه بضُرٍّ، والغالبُ استعمالُهُ في الخيرِ، والوعيدُ يكونُ في الشَّرِّ خاصَّةً، يقالُ: أوعدتُهُ، فمِنَ الوعدِ بالخيرِ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ومِنَ الوعدِ بالشَّرِّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: 47]، وإنَّما كانوا يستعجلونَهُ بالعذابِ، وذلكَ وعيدٌ[5].

الدَّكُّ والنَّسْفُ:

النَّسفُ يقالُ في اقتلاعِ الشَّيءِ وإزالتِهِ، والدَّكُّ يقالُ في تسويتِه بالأرضِ

النَّسْفُ يقالُ في اقتلاعِ الشَّيءِ وإزالتِهِ، ومِنْ ذلكَ: نَسَفَتِ الرّيحُ الشَّيءَ: اقتلعَتْهُ وأزالَتْهُ[6]، والدَّكُّ يقالُ في تسويةِ الشيءِ بالأرضِ، ومِنْ ذلكَ: أرضٌ دكّاءُ، أي: مُسوّاةٌ[7].

(1) الراغب، المفردات: (أتي).
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وعد).
(6) الراغب، المفردات: (نسف).
(7) الراغب، المفردات: (دكك).

﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾ [الكهف: 99]

الانتقالُ مِنْ ذكرِ علاماتِ السّاعةِ إلى ذكرِ قيامِها المهول

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لمّا كانَ دَكُّ السَّدِّ وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ مِنَ العلاماتِ الكبرى لقيامِ السّاعةِ - ذكرَ اللّهُ تعالى بعدَهُ النَّفْخَ في الصّورِ لقيامِ السّاعةِ، وذكرَ ما يكونُ عندَ ذلكَ وما يكونُ بعدَهُ إلى حصولِ كلٍّ مِنَ المؤمنينَ والكافرينَ في دارِه ومَحَلِّ استقرارِه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَرَكۡنَا﴾: (ترك) يدل على التَّخلية[2]، ومفارقةُ الشَّيءِ ما كانَ عليه[3]، ومنهُ قولُهُ: ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 94] ومعنى ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾: وجعَلْنا بعضَهم يَموجُ في بعضٍ[4].

2) ﴿يَمُوجُ﴾: (موج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشَّيءِ وحركةٍ واختلاطٍ[5]، وماجَ الأمرُ: اضطربَ، والمَوْجُ: ما ارتفعَ مِنَ الماءِ فوقَ الماءِ، سُمّيَ بذلكَ لاضطرابِه، وكلُّ شيءٍ اضطربَ فقد ماجَ[6]، ومِنَ المجازِ: ماجَ عنِ الحقِّ، إذا مالَ عنهُ[7]، وماجَ النّاسُ يَموجونَ، إذا اضطربوا[8]، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾، أي: يختلطونَ مضطربينَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 143 - 144، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 517.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ترك).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (موج).
(6) الراغب، المفردات: (موج)، والسمين، عمدة الحفاظ: (موج)، والزبيدي، تاج العروس: (موج).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (موج).
(8) الجوهري، الصحاح: (موج).

3) ﴿وَنُفِخَ﴾: (نفخ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عُلوٍّ واندفاعٍ للهواءِ في جوفِ الشَّيءِ[1]، وقولُهُ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29] كنايةٌ عنِ الإحياءِ وجعلِه ذا روحٍ[2]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: ونَفَخ الملَكُ نفخةَ البعث.

4) ﴿ٱلصُّورِ﴾: أصل (صور) حدودٌ تُبيِّنُ هيئةَ الشَّيءِ بالانعطافِ عليه وضمِّه وتمييزِه عن غيرِه، كشَطَّي النَّهرِ، وجانبَي الفم[3] والصّورُ: القرْنُ الَّذي يَنْفُخُ فيه إسْرافيلُ؛ لأنَّهُ مُعوَجٌّ عادةً، قالَ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ تماوج البشر، في هول ذلك المحشر

يُخبِرُ اللّٰهُ جل شأنه عن أمرٍ هائلٍ عظيم، يكونُ بعدَ دَكِّ سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ، فيقولُ: وجعَلْنا عِبادَنا يومً يأتيهم وعدُنا الَّذي وعَدْناهم مُتدافعينَ مُتحيِّرينَ مُضطربينَ اضطرابَ أمواجِ البحرِ؛ لشدَّةِ هَوْلِ المَوْقِفِ عليهم، ونَفَخ الملَكُ الموَكَّلُ بذلك في القَرْنِ نفخةَ البعث، وهي النَّفخةُ الثّانيةُ، فجمَعْنا الخَلْقَ جميعًا إنسَهم وجِنَّهم، لموقفِ الحسابِ والجزاءِ[5].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى تقرير وجود أمَّة يأجوجَ ومأجوج، وأنَّ خروجهم من أشراط الساعة الكبرى، وإلى إعادة اللّٰه الأرواحَ إلى الأجساد، وتقريرِ البعث والجزاء؛ بجمع الأولين والآخرين، والكافرين والمؤمنين، لموقف القيامة؛ ليُسألوا ويحاسبوا ويجْزَوا بأعمالهم[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفخ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفخ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (نفخ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صور).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (صور).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 120.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 487، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 287.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الموقع الإعرابيّ لجملةِ ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾:

الجملة مُقرِّرة لمضمونِ ما قبلَها

قولُه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ هذا مِنْ كلامِ اللّه سبحانَهُ بعدَ انقضاءِ كلامِ ذي القرنين، وهو معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، ومُقرِّرٌ ومُحقِّقٌ لمضمونِه؛ فإنَّ دكَّ السَّدِّ وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ مِنْ علاماتِ قيامِ السّاعةِ، وحَشْرِ العِبادِ، وما يتلو ذلكَ مِنَ الأحوالِ والأهوالِ والأفزاعِ والأمورِ العِظامِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

استعمالُ الماضي في الأمرِ المستقبليِّ المقطوعِ بوقوعِه من فصيحِ البيان

عُبِّرَ بالماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ معَ أنَّهُ أمرٌ مُستقبَليٌّ بصَدَدِ الوقوعِ؛ تنبيهًا على تحقُّقِ وقوعِه؛ لأنَّهُ لا خلافَ في إخبارِه جلَّ شأنُهُ، والماضي أقربُ إلى تحقُّقِ الوقوعِ نظرًا إلى لفظِه، إضافةً إلى أنَّ قولَهُ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ معطوفٌ على ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ الواقعِ في جوابِ ﴿فَإِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، وقد تقدَّمَ أنَّها تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ كانَ كلٌّ مِنْ جملتَي الشَّرطِ والجزاءِ فيها ماضيًا؛ لمناسبةِ مقامِ القَطْعِ.

سرُّ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظَمةِ في ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

تعظيمُ شأنِ تركِ بعضِهم يَموجُ في بعضٍ؛ لهولِ المشهدِ وجلالِ الموقف

يدلُّ إسنادُ الفعلِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ على تعظيمِ شأنِ تركِ بعضِهم يومئذٍ يَموجُ في بعضٍ وتهويلِه، فالحدثُ عظيمٌ مَهيبٌ صادرٌ مِنْ عظيمٍ قديرٍ، لا يَقدِرُ على ذلكَ غيرُهُ[2]، والغرضُ مِنْ ذلكَ إدخالُ الرَّوْعِ والمَهابةِ في نفوسِ السّامعينَ، والمقامُ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّهُ مقامُ بيانِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 364، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 371.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 144.

جَبَروتِ اللّٰه تعالى في ذلكَ اليومِ العظيمِ، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾:

مفادُ التَّرك جعلُ الشَّيءِ بحالةٍ مخالفةٍ لحالةٍ سابقةٍ

في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ حقيقةَ التَّركِ: مفارقةُ شيءٍ شيئًا كانَ بقُرْبِه، ويُطلَقُ مجازًا على جعلِ الشَّيءِ بحالةٍ مخالفةٍ لحالةٍ سابقةٍ؛ تمثيلًا لحالِ وُجْدانِه على حالةٍ ثمَّ تغييرِها بحالِ مَنْ كانَ قُرْبَ شيءٍ ثمَّ ذهبَ عنهُ، وإنَّما يكونُ هذا المجازُ مُقيَّدًا بحالةٍ كانَ عليها مفعولُ (ترك)، فيفيدُ أنَّ ذلكَ آخِرُ العهدِ، وذلكَ يستتبعُ أنَّهُ يدومُ على ذلكَ الحالِ الَّذي تركَهُ عليها بالقرينةِ[1].

دلالة مرجع الضَّميرِ المضاف في لفظ ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾:

الضَّميرُ لبيان عُمومِ الخَلْقِ على الأنسبِ

الضَّميرُ راجعٌ إلى عُمومِ الخَلْقِ إنسِهم وجنِّهم، والمعنى: وجعَلْنا بعضَ الخَلْقِ يَموجُ في بعضٍ، أي: يضطربونَ ويختلطونَ حَيارى[2]، والمرادُ باليوم في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يومُ القيامةِ[3]، ولعلَّ ذلكَ قبلَ النَّفخةِ الأولى[4].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ ليأجوجَ ومأجوجَ، وأنَّهم يَموجونَ حينَ يَخْرُجونَ ممّا وراءَ السَّدِّ مزدحمينَ في البلادِ[5]، وعليه يكونُ المرادُ باليومِ يومَ دَكِّ السَّدِّ[6]، والأظهرُ الأنسبُ أنْ يُرادَ عُمومُ الخَلْقِ، ويدخل فيهم يأجوجُ ومأجوجُ؛ إذ هم مِنْ جملةِ الخَلْقِ، وإنَّما كانَ أظهرَ وأنسبَ؛ لأنَّ السّياقَ يُؤيِّدُهُ؛ فقولُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 748، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 65.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 544.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 748، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 228.
(6) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

﴿جَمۡعٗا﴾ يفيدُ حَشْرَ جميعِ الخلائقِ، وما بعدَهُ حديثٌ عن أحوالٍ تتعلَّقُ بجميعِهم لا بطائفةٍ مخصوصةٍ منهُم[1].

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التَّنوينُ في (يَوْمَئِذٍ) دالٌّ على العِوَض مِنَ الجملةِ المحذوفةِ

في قولِه جلَّ شأْنُه: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ التَّنوينَ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عِوَضٌ مِنْ جملةٍ محذوفةٍ تقديرُها: يومَ إذ جاءَ وعدُ ربّي بمجيءِ بعضِ مَباديه[2]، أو يومَ إذ حَجَرَ السَّدُّ بينَهم[3]، أو يومَ إذ دُكَّ السَّدُّ[4]، وفي الحذف إيجاز واتساع في المعنى، إذ تذهب النفس في تقدير المحذوف كلَّ مذهب.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَمُوجُ﴾:

تصويرُ مشهدِ الاضطرابِ والتَّدافعِ تعبيرٌ عنِ الهولِ المرعب

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾؛ لما في التَّعبيرِ بها مِنْ تصويرِ حالِ الخَلْقِ عندَ قيامِ السّاعةِ وهم يضطربونَ ويتدافعونَ، وكأنَّ السّامعَ ينظرُ إليهِم وهم على هذه الحالةِ في ذلكَ اليومِ العظيمِ الرَّهيبِ.

دلالة الموقعِ الإعرابيِّ لجملةِ ﴿يَمُوجُ﴾:

تصويرُ الحالِ المفزعةِ، بما يفيده تماوج البشر من مشاهد مروّعة

يحتملُ الفعلُ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ أنْ يكونَ على أصلِه بمعنى طَرَحَ وخَلَّى، وله مفعولٌ واحدٌ، وهو ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾، وجملةُ ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ حالٌ مِنْ ﴿بَعۡضَهُمۡ﴾[5]، أي: وتركْنا بعضَ الخَلْقِ يومئذٍ مائجًا في بعضٍ، ويحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ مفعولًا ثانيًا لـ ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ على تأويلِه بـ (جعلْنا)[6]، أي: وجعلْنا الخَلْقَ يومئذٍ مضطربينَ بينَهم،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 172.
(2) السمين، الدر المصون: 7/ 551، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 65، والسمين، الدر المصون: 7/ 551.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 172، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.

وتقدير المعنى على الوجهين لا يتعارض، وإنما يؤكد الاختلاط والحَيْرة الناتجة عن شدة الموقف.

بلاغةُ الاستعارةِ في جملة ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾:

أثر الاستعارة معلوم في تصوير ذلك المشهد الموسوم

يحتملُ أن تكونَ الاستعارةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، تصريحيَّة تبعيَّة، شُبِّهَ اضطرابُهم وتردُّدُ بعضِهم في بعضٍ كالمولَّهين مِنْ هَمٍّ وخوفٍ ونحوه بموجِ البحرِ الَّذي يضطربُ بعضُه في بعضٍ، واستُعيرَ لفظُ ﴿يَمُوجُ﴾ لذلكَ[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً، شُبِّهوا في اضطرابِهم وتدافعِهم بالبحرِ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وهو البحرُ، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِه، وهو ﴿يَمُوجُ﴾.

دلالة التَّعبيرِ بالظَّرفية في السّياق:

مناسبةُ الظَّرفيَّةِ لمقامِ المبالغةِ في وصفِ شدَّةِ اضطرابِهم

لمّا كانَ المقامُ لبيانِ هَوْلِ مشهدِ يوم القيامةِ بولِغَ في تصويرِ شدَّةِ اضطرابِ الخَلْقِ في ذلكَ اليومِ بتشبيهِهم في تدافعِهم واضطرابِهم بأمواجِ البحرِ في تلاطمِها وتدافعِها، وزيدَتْ هذه المبالغةُ بالإتيانِ بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّةِ الَّتي تُفيدُ أنَّ كلًّا منهُم صارَ بمنزلةِ الظَّرفِ والمَحَلِّ لاضطرابِ الآخرِ، فقيلَ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، والمعنى: فإذا كانَتِ القيامةُ ترَكْناهم يَموجُ بعضُهم في بعضٍ كموجِ الماءِ، لا تستطيعُ أنْ تُفرِّقَ بعضَهم مِنْ بعضٍ، كما أنَّكَ لا تستطيعُ فصلَ ذرّاتِ الماءِ في الأمواجِ، يختلطُ فيهم الحابلُ بالنّابلِ، والقويُّ بالضَّعيفِ، والخائفُ بالمُخيفِ[2].

بلاغة أسلوب التَّخلُّص في ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾:

بيان النّقلة من الاعتبارِ بما في القصَّةِ، إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرة

قيلَ: قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ تخلُّصٌ مِنَ الاعتبارِ بما في قصَّةِ يأجوجَ ومأجوجَ مِنْ إقامةِ المصالحِ في الدُّنيا على أيدي مِنِ اختارَهُ اللّهُ لإقامتِها مِنْ خاصَّةِ أوليائِه إلى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 544، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 65، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 40.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 8993.

التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ، وهو تخلُّصٌ يُؤذِنُ بتشبيه حالِ تموُّجِهم بحالِ تموُّجِ النّاسِ في المَحْشرِ؛ تذكيرًا للسّامعينَ بأمرِ الحَشْرِ، وتقريبًا لحصولِه في خيالِ المشركينَ؛ فإنَّ القادرَ على جمعِ أُمَّةٍ كاملةٍ وراءَ هذا السَّدِّ هو أقدرُ على جمعِ الأُمَمِ في الحَشْرِ بقُدرتِه[1]، ولا يخفى أنَّ هذا التَّخلُّصَ مبنيٌّ على أنَّ مرجعَ الضَّميرِ في ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ هو يأجوجُ ومأجوجُ، وقد تقدَّمَ أنَّ الرّاجحَ رجوعُهُ إلى عمومِ الخَلْقِ، وعليه يكونُ التَّخلُّصُ قد بدأَ في قولِه تعالى قبلَ ذلكَ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في النَّفخ والجمع:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ وقوعِ النَّفخِ والجمعِ مفصحٌ عن المراد

جاء التعبيرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ على الماضي، والمرادُ منهُ المُستقبَلُ، أي: يُنفَخُ في الصّورِ فيجمعُهم جمعًا، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ، يُذكَرُ الماضي بلفظِ المُستقبَلِ، ويُذكَرُ المُستقبَلُ بلفظِ الماضي[2]، والغرضُ مِن استعمالِ الماضي موضعَ المستقبلِ في هذا السّياقِ التَّنبيهُ على تحقيقِ وقوعِه[3]؛ لأنَّهُ صادرٌ ممَّنْ لا إخلافَ في إخبارِه، وهذا يلائمُ غايةَ الملاءمةِ غرضًا أساسيًّا مِنْ أغراضِ هذه السّورةِ؛ وهو إثباتُ البعثِ والنُّشورِ.

معنى الظرفية في قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾:

الصّورُ مَحَلُّ النَّفخِ وظَرْفُهُ في اللّغةِ والاستعمال

في التَّعبيرِ بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّةِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الصّورَ هو ظرفُ النَّفْخِ ومَحَلُّهُ؛ لأنَّ النَّفخَ يستدعي منفوخًا فيه يحصلُ فيه سَرَيانُ الهواءِ.

دلالةُ اللّامِ في لفظ ﴿ٱلصُّورِ﴾:

اللّامُ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ للعهدِ، وهي تفيدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 41.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 210.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4592، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 41.

أنَّ الصّورَ الَّذي يُنفَخُ فيه يومَ القيامةِ صورٌ معهودٌ معلومٌ؛ لكثرةِ ورودِه في القرآنِ وعلى لسانِ الشّارعِ، وهذا الصّورُ لا نظيرَ لهُ ولا مثيلَ في وظيفتِه وعِظَمِ شأنِه وهَوْلِه، ولذلكَ لا يشتبهُ بغيرِه، بل إذا أُطلِقَ لفظُ الصّورِ في مقامِ الحديثِ عن يومِ القيامةِ، فلا يتبادرُ معنى غيرُهُ إلى الذِّهنِ.

الصّورُ المعهود في الاستعمال القرآنيّ المجيد

بلاغةُ الاستعارةِ في النَّفخِ في الصور:

قيلَ: في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ مجازٌ لطيفٌ؛ فالنَّفْخُ في الصّورِ استعارةٌ تمثيليَّةٌ مكنيَّةٌ؛ تشبيهًا لحالِ الدّاعي المُطاعِ وحالِ المدعوِّ الكثيرِ العددِ السَّريعِ الإجابةِ بحالِ الجُنْدِ الَّذينَ يُنفِّذونَ أمرَ القائدِ بالنَّفيرِ، فينفُخونَ في بوقِ النَّفيرِ، وبحالِ بقيَّةِ الجُنْدِ حينَ يسمعونَ بوقَ النَّفيرِ، فيُسرِعونَ إلى الخروجِ[1]، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ الصّورُ مِنْ مخلوقاتِ الآخرةِ، والحالةُ المُمَثَّلةُ حالةٌ غريبةٌ لا يعلمُ تفصيلَها إلا اللّهُ تعالى[2]، والظّاهرُ هو الثّاني؛ لكثرةِ ذكرِ الصّورِ والنَّفخِ فيه في القرآنِ الكريمِ في نحو عشر مرات، والأصلُ هو الحَملُ على الظّاهرِ؛ إذ لا صارفَ عنهُ، ولا سيَّما وقد وردَ عددٌ مُعيَّنٌ للنَّفْخِ في الصّورِ، كنفخة البعث، ونفخة الحساب، وذلكَ يُبعِدُ احتمالَ المجازِ، وأحوالُ الآخرةِ لا تُقاسُ على أحوالِ الدُّنيا.

المجازُ اللّطيف من البيان المفصح المنيف

سرُّ ذكر جملة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالنَّفخةِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النَّفخةُ الثّانيةُ، بدليلِ الفاءِ، في قولِه تعالى: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾؛ فهي عاطفةٌ تعقيبيَّةٌ، فتفيدُ ترتُّبَ الجمعِ على النَّفخِ، والجمعُ يكونُ بعدَ النَّفخةِ الثّانيةِ، وعدمُ التَّعرُّضِ لذكرِ النَّفخةِ الأولى لأنَّها داهيةٌ عامَّةٌ ليسَ فيها حالةٌ مختصَّةٌ بالكفّارِ، ولئلّا يقعَ الفصلُ بينَ ما يقعُ في

ترتيب الجمعِ مع النَّفخِ، إشارة إلى ميقاته

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4592، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 41.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 41.

النَّشأةِ الأولى مِنَ الأحوالِ والأهوالِ وبينَ ما يقعُ منها في النَّشأةِ الآخِرةِ، أي: جمَعْنا الخلائقَ بعدَما تفرَّقَتْ أوصالُهم، وتمزَّقَتْ أجسادُهم، في صعيدٍ واحدٍ للحسابِ[1]، ويجوز أنْ تكونَ الفاءُ في ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ فصيحةً، فيكونُ المرادُ النَّفخةَ الأولى، ويكونُ في الكلامِ حذفٌ، أي: ونُفِخَ في الصّورِ فماتَ الخَلْقُ كلُّهم، فبَلِيَتْ أجسامُهم، وتفتَّتَتْ عِظامُهم، كما كانَ مَنْ تقدَّمَهم، ثمَّ نُفِخَ فيه النَّفخةُ الثانيةُ فجمَعْناهم مِنَ التُّرابِ بعدَ تمزُّقِهم فيه وتفرُّقِهم[2].

علَّةُ إسنادِ ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

جمعُ الخَلْقِ في صعيد واحد لا يقدر عليه إلّا الواحد

لمّا كانَ مِنَ الأغراضِ الأساسيَّةِ لسورةِ الكهفِ، إثباتُ البعثِ والنُّشورِ، أُسنِدَ فعلُ الجمعِ، في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾، إلى نونِ العظَمةِ؛ تفخيمًا لشأنِه، وتأكيدًا لتحقُّقِه ووقوعِه، بصدورِه مِنَ العظيمِ القديرِ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وفي ذلكَ مزيدُ ردٍّ على الجاحدينَ المعاندينَ المنكِرينَ.

مرجعُ ضميرِ المفعولِ في ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ﴾:

جمع عموم الخَلْقِ في عرصات القيامة من علامات الإحاطة والقدرة

ضميرُ المفعولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ راجعٌ لعُمومِ الخَلْقِ إنسِهم وجِنِّهم، والمعنى: ونُفِخَ في الصّورِ فجمَعْنا جميعَ الخَلْقِ بعدَما تفرَّقَتْ أوصالُهم وتمزَّقَتْ أجسادُهم في صعيدٍ واحدٍ للحسابِ والجزاءِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿جَمۡعٗا﴾:

بيان تأكيد تحقُّق الجمعِ مع دفع توهُّمِ المجازِ

أُتيَ بالمفعولِ المُطلَقِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾، ولم يُقتصَرْ على ذكرِ فعلِ الجمعِ؛ تأكيدًا لتحقُّقِ الجمعِ[4]، إمّا في نفسِه،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 144.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 122، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 65، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 321.

أو باعتبارِ الزَّمانِ بالإتيانِ بهم مجتمعينَ في زمنٍ واحدٍ للحسابِ، لا يتخلَّفُ منهُم أحدٌ، فهو على الأوَّلِ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لنفسِه، وعلى الثّاني مُؤكِّدٌ لغيرِه[1]، وفي الإتيانِ به أيضًا تأكيدُ أنَّهُ جمعٌ حقيقيٌّ، ليسَ مِنَ المجازِ[2]، إضافةً إلى أنَّ ذكرَهُ في الآيةِ يترتَّبُ عليه مراعاةُ ملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها وما بعدَها.

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿جَمۡعٗا﴾ في السّياق:

التَّفخيمُ والتَّهويلُ، يبرز الصّورة ببيان أظهر وأجلى

يدلُّ تنكيرُ ﴿جَمۡعٗا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ على تفخيمِ شأنِ الجمعِ وتهويلِه، أي: فجمَعْناهم جمعًا عجيبًا لا يُكتَنَهُ كُنْهُهُ[3]، وفي ذلكَ تربيةٌ للمَهابةِ في نفوسِ السّامعينَ، ومزيدُ تأكيدٍ لوقوعِ البعثِ والنُّشورِ، والمقامُ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّ هذه مُقدِّماتٌ للعَرْضِ والحسابِ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 104، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4592.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾ [الكهف: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

يومَ القيامةِ تكونُ الحقائقُ مرئيَّةً للعيان جمعًا للأمم، وعرضًا لجهنَّم

لمّا ذُكِرَ فيما سبقَ دَكُّ السَّدِّ واضطرابُ الخَلْقِ والنَّفْخُ في الصّورِ، وجمعُ الخَلْقِ ممّا هو مِنْ أحوالِ قيامِ السّاعةِ؛ عُقِّبَ ذلكَ ببيانِ أنَّ الحقائقَ الَّتي جاءَ بالإخبارِ عنها الأنبياءُ والرُّسُلُ تكونُ مرئيَّةً يومئذٍ بالعيانِ، فقيلَ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَرَضْنَا﴾: (عرض) أصل تَكْثُرُ فروعُهُ، وله مَعَ كثرتِه معنًى محوريٌّ واحدٌ، وهو العَرْضُ الَّذي يخالفُ الطّولَ[2]، أي: اتِّساعُ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[3]، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ: أظهرتُهُ لهُ وأبرزتُهُ إليه، كأنّي في ذاكَ قد أريتُهُ عَرْضَهُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72]، وأصلُ العَرْضِ أنْ يقالَ في الأجسامِ، ثمَّ توُسِّعَ فيهِ، وصارَ يُستعمَلُ في غيرِها؛ كقولِه تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: 51][4]، ومعنى قولِه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾: أظهَرْنا لهُم جهنَّمَ حتَّى شاهَدوها ورأَوْها[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عرض جهنَّم على الكافرين عقابٌ نفسيٌّ قبلَ العقاب الجسديِّ المهين

يخبرُ تعالى عمّا يفعلُهُ بالكفّارِ الجاحدينَ المعاندينَ يومَ القيامةِ: أنَّهُ يَعرِضُ عليهم جهنَّمَ، أي: يُبرِزُها لهُم ويُظهِرُها؛

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4592.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (عرض).
(5) الزّجاج، معاني القرآن: 3/ 313، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 132.

ليَرَوْا ما فيها مِنَ العذابِ والنَّكالِ قبلَ دخولِها؛ ليكونَ ذلكَ أبلغَ في تعجيلِ الهمِّ والغمِّ والحُزنِ لهُم، وليعلموا أنهم مواقعوها لا يجدون عنها مصرفًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في جملة ﴿وَعَرَضۡنَا﴾:

عَـرْضُ جهنم المَهيب، الّتي هي المحطة الأخيرة في مشاهد القيامة

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ للعطفِ، وهي تفيدُ دخولَ عَرْضِ جهنَّمَ للكافرينَ في جملةِ أحوالِ يومِ القيامةِ المذكورةِ فيما سبقَ؛ مِنْ جعلِ الخَلْقِ مضطربينَ، والنَّفْخِ في الصّورِ، وجمعِ الخَلْقِ للحسابِ والجزاءِ، بل كلُّ ما سبقَ تمهيدٌ لهذا العَرْضِ المَهيبِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَعَرَضۡنَا﴾:

إيثار الصّيغةِ المناسبةِ لمقامِ القَطْعِ بحصولِ العَرْضِ

عُبِّرَ عن عَرْضِ جهنَّمَ للكافرينَ الجاحدينَ بصيغةِ الماضي في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ معَ أنَّ عَرْضَها لهُم أمرٌ مُستقبَليٌّ بصَددِ الوقوعِ؛ إيذانًا بأنَّ هذا العَرْضَ أمرٌ مُتيقَّنٌ مقطوعٌ بحصولِه، لا شكَّ فيه ولا ارتيابَ، وكأنَّهُ وقعَ وأُخبِرَ عنهُ بهذه الآيةِ؛ لأنَّ المُخبِرَ به علّامُ الغُيوبِ ﷻ الَّذي لا تخلُّفَ فيما أخبرَ به.

نكتةُ إسنادِ ﴿وَعَرَضۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تـهـويـلُ أمـرِ عَـرْضِ جهنَّمَ للكافرين، لما سوف يعانونه من العذاب الأليم

أُسنِدَ فعلُ عَرْضِ جهنَّمَ للكافرينَ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تباركَ وتعظَّمَ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾؛ تفخيمًا لأمرِ هذا العَرْضِ وتهويلًا بأنَّ فاعلَهُ ومُتولّيَهُ العظيمُ القديرُ المُنتقِمُ الجبّارُ جلَّتْ قُدرتُهُ، وفي ذلكَ وعيدٌ للكفّارِ عظيمٌ؛ لما يَحصلُ لهُم عندَ مشاهدتِها مِنَ الفزَعِ والرَّوعةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 122، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 201.

بلاغةُ الاستعارة أو الكناية في سياق الآية:

التَّعبير بالعَرْضِ لون من التّهكّم المؤلم

يحتملُ أنْ يكونَ عَرْضُ جهنَّمَ للكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ قبلَ إدخالِهم فيها، كقولِه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾ [الشعراء: 91][1] وعليه يكونُ العَرْضُ مُستعمَلًا في إبرازِها حينَ يُشرِفونَ عليها، وقد سيقوا إليها، فيعلمونَ أنَّها مُهيَّأةٌ لهُم، فشُبِّهَ ذلك بالعَرْضِ تهكُّمًا بهِم؛ لأنَّ العَرْضَ هو إظهارُ ما فيه رغبةٌ وشَهْوةٌ[2] فيكونُ في الكلامِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تهكُّميَّةٌ، وهذا العَرْضُ يَجْري مَجْرى العقابِ؛ لما يتداخلُ الكفّارَ عندَهُ مِنَ الغَمِّ العظيمِ[3].

ويحتملُ أنْ يكونَ العَرْضُ كنايةً عن تعذيبِهم بها بعدَ إدخالِهم فيها، كقولِه سبحانَهُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: 46][4].

إيثارُ اسمِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ دونَ غيرِه مِنْ أسماءِ النّارِ:

جهنَّمُ سِجْنُ الكافرينَ، تلقاهُم بالتَّجهُّمِ والعبوس

في اختيارِ اسمِ جهنَّمَ دونَ غيرِه مِنْ أسماءِ النّارِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّها سِجْنٌ للكافرينَ؛ لأنَّها سُمّيَتْ بذلكَ؛ لكونِها بعيدةَ القَعْرِ[5]، وإشارةٌ إلى أنَّها تَلْقَى داخلَها بالتَّجهُّمِ والكراهةِ؛ لما فيها مِنَ الغَيْظِ والحَنَقِ عليهِ[6]، وفي ذلكَ لَمْحٌ لما قيلَ: مِنْ أنَّ أصلَ مادَّةِ الجيمِ والهاءِ والميمِ مِنْ تجهَّمَ، إذا عَبَسَ وجهُهُ، وهم أيضًا تتجهَّمُ وجوهُهم وتَعْبِسُ فيها؛ لما يُلاقونَ مِنْ ألمِ العذابِ[7].

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 210.
(5) الراغب، المفردات: (جهنم).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 145.
(7) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/ 147.

بلاغةُ الإيجازِ في لفظ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ التَّنوينِ فيه عِوَضٌ مِنْ جملةٍ محذوفةٍ، والمعنى: وأبرَزْنا جهنَّمَ يومَ إذ جمَعْنا الخلائقَ كافَّةً للكافرينَ، يَرَوْنَها رَأْيَ العَيْنِ، مِنْ غيرِ غِشاوةٍ تَحولُ بينَهم وبينَ رؤيتِها، ويسمعونَ لها تغيُّظًا وزفيرًا[1]، والحذف دلالة على قوة المعنى وظهوره بما يغني عن الذكر.

التَّنوينُ عِوَضٌ مِنْ جملةٍ محذوفةٍ تدرك بالتّأمّل

سرُّ تكرارِ لفظِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في السّياق:

كُرِّرَ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ مع أنَّهُ قد تقدَّمَ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾؛ لما يُفيدُهُ تكرارُهُ مِنَ العِنايةِ بكونِ يومِ القيامةِ ظرفًا للأهوالِ والأفزاعِ، ومِنْ إدخالِ الرَّوعِ والمَهابةِ في نفسِ السّامعِ كلَّما طَرَقَ سَمعَهُ ذكرُ هذا اليومِ العظيمِ الَّذي يغضبُ فيه الرَّبُّ ﷻ غضبًا لم يَغْضَبْ مثلَهُ قطُّ، وليكونَ في الكلامِ تهديدٌ للكفرةِ المُنكِرينَ للبعثِ والنُّشورِ بذكرِ عَرْضِ جهنَّمَ لهُم مقرونًا بذكرِ يومِ القيامةِ الَّذي يُكذِّبونَ بهِ، ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [المطففين: 12].

العِنايةُ بظرفيَّةِ يومِ القيامةِ إبرازًا للأهوالِ والأفزاعِ المنتظرة فيه

نكتةُ التَّعبيرِ باللّامِ دونَ (على) في ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

يقالُ في اللُّغةِ: عَرَضْتُ الشَّيءَ على فلانٍ، ويقالُ: عَرَضْتُ الشَّيءَ لفلانٍ[2]، والغالبُ في القرآنِ استعمالُ (على) كما في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 31] وقولِه: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ [الكهف: 48]، وقولِه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72]، وقولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾

اختصاصُ عَرْضِ جهنَّمَ بالكافرينَ، مستحقّ لما أبدوا من ضلال

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4593.

(2) الراغب، المفردات: (عرض).

[الأحقاف: 20]، وأمّا في قولِه تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ فقد اختيرَ التَّعبيرُ باللّامِ دونَ (على)؛ لأنَّ اللّامَ فيها معنى الاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ عَرْضَ جهنَّمَ وما يَعقُبُه مِنْ دخولِها والخُلودِ فيها أمرٌ مختصٌّ بالكافرينَ، لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم.

سرُّ تخصيصِ العَرْضِ بالكافرينَ:

الكافرونَ هم أهلُ النّارِ الَّذينَ كانوا يُنكِرونَها

خُصَّ عَرْضُ جهنَّمَ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ بالكافرينَ، معَ أنَّها بمَرْأًى مِنْ أهلِ الحَشْرِ قاطبةً؛ لأنَّ ذلكَ لأجلِهم خاصَّةً[1] فهُم أهلُها، وهم الَّذينَ كانوا يتغافلونَ، وهم الَّذينَ كانوا يُنكِرونَ البعثَ وما وراءَه[2] ولأنَّ عَرْضَها عليهم ليسَ كعَرْضِها على المؤمنينَ، بل هو عَرْضٌ يَعْقُبُه دخولُها ومباشرتُها والخُلودُ فيها[3] ولأنَّ في التَّخصيصِ بالكافرينَ بشارةً للمؤمنينَ[4].

دلالةُ (اللّامِ) في شبه الجملة ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

عَرْضُ جهنَّمَ لعُمومِ الكافرينَ، ممّن يزاولون الكفر

تدلُّ لامُ التَّعريفِ الدالة على الاختصاص في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ على العُموم والاستغراقِ للمختصين بوصف الكفر، فيكونُ عَرْضُ جهنَّمَ شاملًا لكلِّ كافرٍ، والمعنى: وأبرَزْنا جهنَّمَ وأظهَرْناها لكلِّ كافرٍ مِنَ الكافرينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ دونَ (الَّذينَ كفَروا) ونحوِهِ:

صيغةُ اسمِ الفاعلِ دالَّةٌ على رُسوخِهِم في الكفرِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ ولم يُقَلْ مثلًا: (وعرَضْنا جهنَّمَ للَّذينَ كفَروا) أو (للَّذينَ يكفُرونَ)؛ لإفادةِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ أنَّ اتِّصافَهم بالكفرِ أمرٌ ثابتٌ لهُم متمكنٌ فيهم، وأنَّهم راسخونَ فيه، ولذلكَ استوجَبوا الاختصاصَ بأنْ تُعرَضَ جهنَّمُ لهُم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4593.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 8997.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229.

الغرض من تقديم ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿عَرۡضًا﴾:

تعجيلُ المَساءةِ ومراعاةُ الفاصلةِ مفيدٌ في الدَّلالة

قُدِّمَ ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿عَرۡضًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾؛ لإفادةِ التَّقديمِ تعجيلَ المَساءةِ للكافرينَ بكونِ عَرۡضِ جهنَّمَ يومَ القيامةِ لهُم لا لغيرِهم، ولِما في تأخيرِ ﴿عَرۡضًا﴾ مِنۡ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها مِنَ الفواصلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿عَرۡضًا﴾:

تأكيدُ العَرۡضِ، ودفعُ احتمالِ التَّجوُّزِ فيه

أُتيَ بالمفعولِ المُطلَقِ في قولِه جلَّ مِنۡ قائلٍ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾، ولم يُقتصَرۡ على ذكرِ فعلِ العَرۡضِ؛ لتحقيقِ العَرۡضِ وتأكيدِه[1]، ببيانِ أنَّهم يَرَوۡنَ ذلكَ رَأۡيَ العَيۡنِ، ولا يخفى عليهم مِنۡ نتائجِ أعمالِهم شيءٌ مِنَ الخَفاءِ[2]، ولدفعِ توهُّمِ المجازِ في الفعلِ[3]، إضافةً إلى أنَّ ذكرَهُ في الآيةِ يترتَّبُ عليه مراعاةُ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها.

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿عَرۡضًا﴾:

تهويلُ أمرِ العَرۡضِ، متناسبٌ مع هولِ المشهد

يُستفادُ مِنۡ تنكيرِ ﴿عَرۡضًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ تفخيمُ أمرِ العَرۡضِ وتهويلُهُ، أي: وعرَضۡنا جهنَّمَ يومَ القيامةِ للكافرينَ عَرۡضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَرُ قَدۡرُهُ[4] ولا يوصَفُ هَوۡلُهُ، وهذا يلائمُ مقامَ الوعيدِ والتَّهديدِ والتَّخويفِ الَّذي سيقَتۡ لهُ الآياتُ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 544،
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4593.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

كفرُ الكافرين بتعطيل أسماعهم وأبصارهم سببُ استحقاقهم العذابَ

بعدَما ذكرَ ﷻ عَرْضَ جهنَّمَ للكافرينَ ذلكَ العَرْضَ العظيمَ الهائلَ في قولِه: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ عقَّبَ بوصفِهم بما استحقّوا به سِجْنَهم فيها وتجهُّمَها لهُم، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غِطَآءٍ﴾: المعنى المحوريُّ للغينِ والطّاءِ والحرفِ المعتلِّ هو السَّتْرُ بما هو كثيفٌ عريضٌ[2]، فالغِطاءُ: ما يُجعَلُ فوقَ الشَّيءِ يحجبُهُ ويسترُهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾، أي: هم بمنزلةِ مَنْ عينُهُ مُغطّاةٌ، فلا ينظرُ إلى دلائلِ اللّه تعالى[3].

2) ﴿ذِكۡرِي﴾: الذِّكْرُ بالكَسْرِ، ضدّ النسيان، وحُمِلَ عليه التَّلَفُّظ بالشَّيْءِ، ثمّ إِحْضارُه في الذِّهْن بحَيْثُ لا يغيبُ عنهُ[4]، وهو لشدّة التلفظ به ووجوده القويّ صار وجوده في الأسماع والقلوب مؤثّرًا بحيث يضادُّ النسيانَ[5]، والمرادُ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِي﴾: آياتُ اللّه سبحانَهُ الّتي يُنْظَرُ إليها، فيُذكَرُ تعالى بالتَّوحيدِ والتَّعظيمِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 145، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غطو).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 65.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر)، والكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الكافرُ بمنزلةِ الأعمى الأصمِّ في عدم السَّماع والإبصار

يُخبِرُ اللّهُ ﷻ عن سببِ استحقاقِ الكافرينَ لعَرْضِ جهنَّمَ عليهِم، فيقولُ:

وعرَضْنا جهنَّمَ يومئذٍ للكافرينَ الَّذينَ كانوا يتعامَوْنَ عن آياتِ اللّه جل وعز الدّالَّةِ على توحيدِه، فلا ينظرونَ فيها، ولا يتفكَّرونَ، ولا يعتبرونَ بها، كأنَّما حُجِبَتْ أعينُهم عنها، وكانوا يتصامّونَ عنِ استماعِ الحقِّ والذِّكرِ، ويُعرِضونَ أشدَّ الإعراضِ، وكأنَّهم فقَدوا حاسَّةَ السَّمعِ بالكلِّيَّةِ[1].

وترشد الآية الكريمةُ إلى أنَّ المبغضَ للقرآن الكريم وللرسول الكريم ﷺ لا يستطيعُ أن يلقيَ سمعَه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجَبتْ عنهم طُرُقُ العلم والخير، فليس لهم سمعٌ ولا بصرٌ ولا عقل ينتفعون به[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجهُ تنوع إعراب الاسم الموصول والتعبير به:

تنوّع إعراب اللّفظ الواحد دليل ثراء وانفساح في المعنى

يحتملُ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أنْ يكونَ مجرورًا بدلًا مِنْ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ أو بيانًا، أو نعتًا[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ منصوبًا على الذَّمِّ بإضمارِ (أذمُّ)، ويحتملُ أنْ يكونَ مرفوعًا خبرَ ابتداءٍ مُضْمَرٍ، أي: هم الَّذينَ[4]، فإن كان مجرورًا على البدل أو البيان أو النعت يكونون هم المقصودون بالعرض، وكأنَّ جهنم لهم وحدهم، وإن كان نعتًا مقطوعًا يكونون قد ذموا بجملة كاملة، وإن كان خبر مبتدأ يكون ذمهم تأسيسًا لا

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 201، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 931.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 487.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 551، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 551.

تبعًا، وقد عُبِّرَ بالموصولِ لذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ[1]، وللإشعارِ بعلّيَّته لإصابةِ ما أصابَهم مِنْ عَرْضِ جهنَّمَ لهُم، فذلكَ إنَّما هو لعدمِ استعمالِ مشاعرِهم فيما عرضَ لهُم في الدُّنيا مِنَ الآياتِ، وإعراضِهم عنها معَ كونِها أسبابًا مُنجيةً عمّا ابتُلوا به في الآخرةِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم؛ فذكرُ سببِ عقوبةِ الذَّنبِ يزيدُ حَسْرةَ المُذنِبِ المُعاقَبِ.

دلالةُ التعبيرِ بفعلِ الكينونة الماضي ﴿كَانَتۡ﴾:

ملاءمة التَّعبير للذَّم والتَّخسير

يدلُّ استعمالُ صيغةِ الماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾، على أنَّ تعاميَ الكافرينَ المعاندينَ الجاحدينَ عن آياتِ اللّه تعالى في الدُّنيا، كانَ أمرًا قديمًا فيهم مُلازمًا لهُم، كأنَّه جِبِلَّةٌ لهُم[3]، لا ينفكّونَ عنهُ حينًا مِنَ الأحيانِ، وفي هذا غايةُ المُلاءمةِ لسياقِ الذَّمِّ والتَّخسيرِ والتَّحسيرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَعۡيُنُهُمۡ﴾ دونَ (عُيونُهم):

التَّمييزُ بينَ جمعِ العينِ الباصرةِ، وجمعِ عينِ الماءِ

يُلحَظُ في القرآنِ الكريمِ أنَّهُ يُستعمَلُ لفظُ (الأعيُنِ) - وهو جمعُ قلَّةٍ - في جمعِ العينِ الباصرةِ، ولفظُ (العُيونِ) - وهو جمعُ كثرةٍ - في جمعِ عينِ الماءِ، فمِنْ أمثلةِ جمعِ العينِ الباصرةِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة: 83]، ومِنْ أمثلةِ جمعِ عينِ الماءِ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحجر: 45]، والسِّرُّ في ذلكَ أنَّ كلَّ إنسانٍ لا يملكُ أكثرَ مِنْ عينينِ، فعُبِّرَ عنِ الأعيُنِ الباصرةِ بجمعِ القلَّةِ، وأمّا العُيونُ الجاريةُ فكثيرةٌ، ولذلكَ عُبِّرَ عنها بجمعِ الكثرةِ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4593، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 145.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 154.

بلاغةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فِي غِطَآءٍ﴾:

الدَّلالةُ على تمكُّنِ غطاءِ التَّعامي مِنْ أعيُنِهم

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِه جلَّ وتبارك: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ للظَّرفيَّةِ في الأصلِ، وهو هنا للظَّرفيَّةِ المجازيَّة، ويدلُّ استعمالُهُ على تمكُّنِ الغطاءِ مِنْ أعيُنِهم، بحيثُ كأنَّها مَحْويَّةٌ للغطاءِ[1]، وهو مُشتمِلٌ عليها اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ في إحكامِ الاشتمالِ ومنعِ نُفوذِ شيءٍ إليه، وكذا أعينُهم تمكَّنَ منها غطاءُ التَّعامي، وحالَ بينَها وبينَ نُفوذِ نورِ الحقِّ إليها.

الغرضُ من تنكيرِ لفظ ﴿غِطَآءٍ﴾:

التنكيرُ دالٌّ على التَّعظيمِ أوِ النَّوعيَّةِ

يحتملُ تنكيرُ ﴿غِطَآءٍ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أنْ يكونَ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، أي: الَّذينَ كانَتْ أعيُنُهم في غطاءٍ عظيمٍ هائلٍ يَحجُبُ عنها نورَ الحقِّ واليقين، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للنَّوعيَّةِ، أي: الَّذينَ كانَتْ أعيُنُهم مَحْجوبةً في نوعٍ مِنْ أنواعِ الأغطيةِ غيرِ ما يتعارفُهُ النَّاسُ؛ وهو غِطاءُ الإعراضِ عن آياتِ اللهِ، والتَّعامي عنها.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿غِطَآءٍ﴾:

الغِطاءُ مُستعارٌ لعدمِ الانتفاعِ بدلالةِ البصرِ

لفظُ الغِطاءِ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ ليسَ على حقيقتِهِ؛ إذ المعنى الحقيقيُّ غيرُ مُتصوَّرٍ هنا، بل هو مُستعارٌ لعدمِ الانتفاعِ بدلالةِ البصرِ على تفرُّدِ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - بالألُوهيَّةِ[2] والكلامُ مَسوقٌ لبيانِ شدَّةِ انصرافِهم عن قَبولِ الحقِّ[3].

معنى ﴿عَن﴾ في قولِه: ﴿عَن ذِكۡرِي﴾:

تجاوزُ الكافرينَ آياتِ الله تعالى استهانةٌ وغرورٌ مقيت

حرفُ الجرِّ ﴿عَن﴾ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501.

﴿فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ للمُجاوَزة[1]، والمعنى: الَّذينَ كانَتْ أعيُنُهم في غِطاءٍ متجاوزينَ النَّظرَ في الآياتِ الَّتي تدلُّ على وحدانيَّتي.

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿ذِكۡرِي﴾:

الذِّكْرُ مجازٌ عن الآيـاتِ المُؤدّيـةِ إلـى ذكـرِ الله تعالى

المرادُ بالذِّكرِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾: الآياتُ المُؤدّيةُ إلى ذكرِ الله تعالى بالتَّوحيدِ والتَّمجيدِ، وهو مجازٌ مُرسَلٌ مِنْ بابِ إطلاقِ المُسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ، والمعنى: الَّذينَ كانَتْ أعيُنُهم وهم في الدُّنيا في غِطاءٍ كثيفٍ وغِشاوةٍ غليظةٍ عنِ الآياتِ المُؤدّيةِ لأولي الأبصارِ المُتدبِّرينَ فيها إلى ذِكْري بالتَّوحيدِ والتَّمجيدِ، وفيه أنَّ مَنْ لم يَنظُرْ نظرًا يُؤدّي به إلى ذِكْرِ التَّعظيمِ كأنَّهُ لا نظرَ لهُ، وهذه فائدةُ التَّجوُّزِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالأعيُنِ البصائرَ القلبيَّةَ، والمعنى: كانَتْ بصائرُهم في غِطاءٍ عن أنْ يَذْكُروني على وجهٍ يليقُ بشأني، أو عن ذكري الَّذي أنزلتُهُ على الأنبياءِ عليهم السلام، ويجوزُ أنْ يُخصَّ الذِّكرُ بالقرآنِ الكريمِ[2].

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ﴾:

جمعُ الكافرينَ بـيـنَ الـعَـمَـى والصَّمَمِ انبتاتٌ عن الهداية

الواوُ في قولِه تبارك وتعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ للعطفِ، وهي تفيدُ أنَّ الكافرينَ قد جمعوا بينَ العَمَى عن دلائلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ وبينَ الصَّمَمِ عنِ استماعِ الحقِّ[3].

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَكَانُواْ﴾:

الـصَّـمَـمُ عن الحقِّ جِبِلَّة في الكافرينَ

لمّا أفرطَ الكافرونَ غايةَ الإفراطِ في الصَّمَمِ عنِ استماعِ الحقِّ، بحيثُ صارَ هذا الصَّمَمُ أمرًا لازمًا لهُم، لا ينفكّونَ عنهُ في حالٍ مِنَ الأحوالِ؛ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الصَّمَمَ كأنَّهُ جِبِلَّةٌ لهُم[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 551، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 145.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

استمرارُ نفي قُدرةِ الكافرين، على استماعِ الحقِّ المبين

لمّا كانَ إعراضُ الكافرينَ عنِ استماعِ الحقِّ أمرًا دائمًا مُستمرًّا؛ لأنَّه كالجِبِلَّةِ فيهم، أُشْرِبَتْهُ قُلوبُهم، وضَريَتْ بالمداومةِ عليه أنفسُهم - عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ قُدرتِهم على السَّماعِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ التَّخسيرِ والتَّحسيرِ.

بلاغة الجمعِ بينَ ﴿وَكَانُواْ﴾ و﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

إفادةُ دوامِ واستمرارِ عدمِ استطاعتِهم سماعَ الحقّ

جُمِعَ بينَ فعلِ الكونِ الماضي وفعلِ الاستطاعةِ المنفيِّ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ لإفادةِ الدَّوامِ والاستمرارِ؛ لأنَّ مجانبتَهم لاستماعِ الحقِّ أمرٌ نشأَتْ عليه أنفسُهم، ورسخَ فيها رُسوخَ الجبالِ[1]؛ فهم جبلوا على ذلك.

دلالة لفظ ﴿سَمۡعًا﴾ في السّياق:

المرادُ بالسَّمعِ الإدراكُ بالقوَّةِ السّامعةِ

المرادُ بالسَّمعِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾: الإدراكُ بالقوَّةِ السّامعةِ، لا القوَّةُ السّامعةُ، ولا العُضْوُ المخصوصُ[2]، والمعنى: وكانوا لا يستطيعونَ استماعًا لذِكْري وكلامي؛ لإفراطِ صَمَمِهم عنِ الحقِّ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بنفيِ استطاعةِ السَّمعِ دونَ الصَّمَمِ:

الكافرونَ كفاقِدي حاسَّةِ السَّمعِ بالكلِّيَّةِ

قولُه جلَّ وتباركَ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ معناهُ: وكانوا صُمًّا، لكنْ عُدِلَ عنهُ معَ أنَّهُ أخصرُ إلى ما في الآيةِ؛ لأنَّ ما في الآيةِ أبلغُ، لأنَّ الأصمَّ قد يستطيعُ السَّمعَ إذا صيحَ بهِ، وهؤلاءِ كأنَّهم فاقِدو حاسَّةِ السَّمعِ بالكلِّيَّةِ، فلا استطاعةَ بهِم للسَّمعِ، وهو مبالغةٌ في تصويرِ إعراضِهم عن سماعِ ما يُرشِدُهم إلى ما ينفعُهم[4].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 173.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 173.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 365.

وقيلَ: نفيُ استطاعتِهِم السَّمعَ أنَّهم لشدَّةِ كفرِهم لا تُطاوِعُهم نفوسُهم للاستماعِ، فنفيُ الاستطاعةِ مُستعمَلٌ في نفيِ الرَّغبةِ وفي الإعراضِ، كقولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: 5][1].

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿سَمۡعًا﴾ في السّياق:

التَّنكيرُ للتَّقليلِ تقبيح وتشنيع وتهويل

نُكِّرَ ﴿سَمۡعًا﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الكافرينَ المعاندينَ المُعرِضينَ عنِ الحقِّ ودلائلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ، لا يستطيعونَ أنْ يستمعوا للحقِّ استماعًا قليلًا، فضلًا عمّا فوقَهُ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ وتشنيعٍ لحالِهم.

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿سَمۡعًا﴾:

حذفُ المفعولِ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾، معناهُ: أنَّهم كانوا لا يستطيعونَ لفَرْطِ تَصامِّهم عنِ الحقِّ، وكمالِ عداوتِهم للرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ استماعًا لذِكْري وكلامي الحقِّ الَّذي لا يأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يديه ولا مِنْ خلفِه، وهذا تمثيلٌ - أي: استعارةٌ تمثيليَّةٌ - لإعراضِهم عنِ الأدلَّةِ السَّمعيَّةِ[2]، وحذفُ مفعولِ ﴿سَمۡعًا﴾؛ لدلالةِ قولِه فيما سبقَ: ﴿عَن ذِكۡرِي﴾ عليه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغِطاءُ والسِّتْرُ:

السِّتْرُ يستُرُ دونَ مُلاصقةٍ، والغِطاءُ يستُرُ معَ ملاصقةٍ

فُرِّقَ بينَ الغطاءِ والسِّترِ: بأنَّ السِّترَ ما يَسترُكَ عن غيرِكَ وإنْ لم يكنْ مُلاصِقًا لكَ، كالحائطِ والجبَلِ، ومثالُ السِّترِ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾ [الكهف: 90]، ومثالُ الغطاءِ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 247.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 42.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 288، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 99.

الاستطاعةُ والقُدرةُ والطّاقةُ:

القُدرةُ أشدُّ مِنَ الاستطاعةِ والطّاقةِ، وجميعها من حقل دلاليّ واحد

الطّاقةُ اسمٌ لِمقْدارٍ يُمكِنُ للإنسانِ أنْ يفعلَهُ بمشقَّةٍ، وذلكَ تشبيهٌ بالطَّوْقِ المُحيطِ بالشَّيءِ[1]، والطّاقةُ غايةُ مقدرةِ القادرِ، واستفراغُ وُسْعِه في المقدورِ، يقالُ: هذه طاقتي، أي: قَدْرُ إمكاني[2]، ولهذا لا يوصَفُ اللّهُ تعالى بأنَّهُ مُطيقٌ، والقُدرةُ إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فاسمٌ لهيئةٍ لهُ يتمكَّنُ بها مِنْ فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى بها فهي نفيُ العَجْزِ عنهُ، ولا يوصَفُ غيرُ اللّه بالقُدرةِ المُطلَقةِ معنىً، وإنْ أُطلِقَ عليه لفظًا، بل حقُّهُ أنْ يقالَ: قادرٌ على كذا[3]، والاستطاعةُ في قولِكَ: طاعَتْ جوارِحُهُ للفعلِ، أي: انقادَتْ لهُ، ولهذا لا يوصَفُ اللّهُ بها، وجاءَتِ الاستطاعةُ بمعنى الإجابةِ، وتأتي بمعنى ثِقَلِ الشَّيءِ على فاعلِه وإنْ كانَ قادرًا عليهِ، كقولِكَ: لا أستطيعُ أنْ أُبصِرَ فلانًا، تريدُ أنَّ رؤيتَهُ تَثْقُلُ عليكَ[4].

والحاصلُ أنَّ القُدرةَ أشدُّ مِنَ الطّاقةِ والاستطاعةِ.

(1) الراغب، المفردات: (طوق).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 110.
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 110.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾ [الكهف: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الإنكارُ على المُعرِضِ بعدَ بيانِ إعراضِه المغرض

لمّا بيَّنَ اللّهُ ﷻ مِنْ حالِ الكافرينَ أنَّهم أعرَضوا عنِ الانتفاعِ بدلائلِ المُشاهَداتِ على وحدانيَّةِ اللّه سبحانه وأعرَضوا عن سماعِ الآياتِ والذِّكْرِ وما جاءَ به الرُّسُلُ - عليهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ - أتبعَهُ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخِ بقولِه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَحَسِبَ﴾: الحساب: العَدُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: 5]، والحُسْبانُ: الظَّنُّ؛ لأنَّهُ إذا قالَ: حَسِبْتُهُ كذا، فكأنَّهُ قالَ: هو في الَّذي أَعُدُّهُ مِنَ الأمورِ الكائنةِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وقالَ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، وقالَ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقالَ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، والحَسَبُ معناهُ: أنْ يَعُدَّ الإنسانُ آباءَ أشرافًا، ومنهُ أيضًا قولُهم: احتسبَ فلانٌ ابنَهُ، إذا ماتَ كبيرًا، وذلكَ أنْ يَعُدَّهُ في الأشياءِ المذخورةِ لهُ عندَ اللّه تعالى[2]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أيْ: كافينا هو[3]، والمعنى في الآية: (أفظَنَّ).

2) ﴿عِبَادِي﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادةُ أبلغُ منها؛

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501، وابن عادل، اللباب: 12/ 570، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 43.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حسب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسب).

لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللّهُ تعالى[1]، والعبدُ على أضرُبٍ منها: عبدٌ بالإيجادِ الَّذي لا يكونُ إلَّا للّهِ، وهو المقصودُ بقولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: 93]، وعبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّه مُخلَصٌ، وهو المقصودُ بنحوِ قولِه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[2].

3) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: (عتد) يدل على الحُضورِ والقُرْبِ[3]، وتوفُّرِ الشَّيءِ في المُتناوَلِ، أي: كونُهُ حاضرًا كافيًا مُهيًّأ[4]، والعَتادُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليهِ[5]، ومعنى قوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أعدَدْنا ويسَّرْنا وهيَّأْنا[6].

4) ﴿نُزُلًا﴾: (نزل) أصل يدلّ على هُبوطِ شيءٍ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[7]، ووقوعُهُ في مَقَرٍّ أو حيِّزٍ يوجَدُ فيهِ[8]، يقالُ: نزلَ عن دابَّتِهِ، ونزلَ في مكانٍ كذا: حطَّ رَحْلَهُ فيهِ، وأنزلَهُ غيرُهُ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: 29][9]، وقد يُرادُ بالنُّزولِ مُجرَّدُ الحُلولِ وإنْ لم يكنْ فيه هُبوطٌ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ [الصافات: 177]، أي: حلَّ[10]، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضَّيفِ مِنَ الزّادِ، وعليه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾[11].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ ﷻ عن حالِ الكَفَرةِ الَّذينَ عبَدوا بعضَ عبادِهِ، واتَّخَذوهم آلهةً وأَرْبابًا مِنْ دونِه ﷻ ويُخبِرُ عن سوءِ ما يُلاقونَ يومَ القيامةِ، فيقولُ جلَّ ذِكْرُهُ: أَفَظَنَّ الَّذينَ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(2) الراغب، المفردات: (عبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جبل).
(5) الراغب، المفردات: (عتد).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 230.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزل).
(9) الراغب، المفردات: (نزل).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (نزل).
(11) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749.

الخسارةُ البيِّنةُ لِمَنْ سوَّى بينَ المخلوقِ والخالقِ

كَفَروا بالله مِنْ عَبَدَةِ الملائكةِ والمسيحِ ونحوِهم أنْ يتَّخِذوا عبادي مِنْ دوني أولياءَ، واعتقَدوا أنَّهم يصحُّ لهُم ذلكَ، وينتفعونَ بهِ؟! كلّا، لا ينتفعونَ بذلكَ، بل هم لهُم أعداءٌ؛ ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: 82]، ولهذا أخبرَ جلَّ شأنُهُ أنَّهُ قد أعدَّ لهُم جهنَّمَ ضيافةً، ومَنزِلًا مُعَدًّا لهم يُلاقونَ فيه ألوانَ العذابِ والنَّكالِ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بطلانِ دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعضَ الأنبياء والأولياء شركاءَ للّه يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب اللّه، ويُنيلونهم ثوابَه، وهم قد كفروا باللّه وبرسله، وإلى كذبِ مَن زعم أنه يتخذُ من دون اللّه وليًّا له، وهو معادٍ للّه، وإلى أنَّ جميعَ المخلوقين ليس بيدهم من النَّفع والضُّر شيء، وأنَّ المتخذَ من دونه وليًّا ينصره ويواليه، ضالٌّ خائب الرجاء، غيرُ نائل لبعض مقصوده[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في صَدْرِ الآيةِ الكريمة:

الإنكارُ والتَّوبيخُ يناسبان ما فعل هؤلاء الكافرون

الاستفهامُ في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ؛ لأنَّ الكافرينَ قد حَسِبوا ذلكَ فعلًا، بل في الاستفهامِ معنى الإنكارِ - أي: إنكارِ الواقعِ واستقباحِه - ومعنى التَّوبيخِ[3]، والمعنى: أَفَظَنّوا أنَّهم ينتفعونَ بما عبَدوهُ، معَ إعراضِهم عن تدبُّرِ الآياتِ، وتمرُّدِهم عن قبولِ أمرِ اللّه سبحانَهُ وأمرِ رسولِهِ؟![4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 124، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 201.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 487.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 146، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 501.

معنى الفاءِ ودلالتها في قولِهِ: ﴿أَفَحَسِبَ﴾:

العطفُ والتَّفريعُ في معنى الفاء دليل على ثراء المعاني واتّساعها

الفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ تُفصِحُ عنهُ الصِّلةُ، على توجيه الإنكارِ والتَّوبيخِ إلى المعطوفينِ جميعًا، والمعنى: (أَكَفروا بي معَ جلالةِ شأني، فحَسِبوا أنْ يتَّخِذوا عبادي مِنَ الملائكةِ وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحتَ سُلطاني ومَلَكوتي أولياءَ معبودينَ يَنصُرونَهم مِنْ بأسي؟)[1]، وفي الفاءِ معنى التَّفريعِ على ما قبلَها[2]، وقيلَ: إنَّ الفاءَ للعطفِ على ما قبلَها مِنْ قولِه سبحانَهُ: ﴿كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾؛ دلالةً على أنَّ الحُسْبانَ ناشئٌ مِنَ التَّعامي والتَّصامِّ، وأُدخِلَ على الفاءِ همزةُ الإنكارِ؛ ذمًّا على ذمٍّ، وقطعًا لهُ عنِ المعطوفِ عليهما لفظًا لا معنًى؛ للإيذانِ بالاستقلالِ المُؤكِّدِ للذَّمِّ، كأنَّهُ قيلَ: لا يُزيلونَ ما بهِم مِنَ الغِشاوةِ والصَّمَمِ، ويزيدونَ عليهما الحُسْبانَ المترتِّبَ عليهما، وعلى ذلكَ يكونُ قولُه سبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ؛ زيادةً للذَّمِّ[3].

دلالة تعيين مفعولَيْ ﴿أَفَحَسِبَ﴾:

ما في حيِّزِ صلةِ (أنْ) سادٌّ مَسَدَّ المفعولينِ

اختُلِفَ في تعيينِ مفعولَيْ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾: فقيلَ: ما في حيِّزِ صلةِ ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ سادٌّ مَسَدَّ مفعولَيْ (حَسِبَ)[4]، كما في قولِه تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة: 71]، والمعنى: أَفَحَسِبوا أنَّهم يتَّخِذونَهم أولياءَ؟ على معنى أنَّ ذلكَ ليسَ مِنَ الاتِّخاذِ في شيءٍ؛ لما أنَّ الاتِّخاذَ إنَّما يكونُ مِنَ الجانبينِ، وهم عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنزَّهونَ عن وِلايتِهم بالمرَّةِ[5]، أو: (أَحَسِبَ الَّذينَ كَفَروا من عبادي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 248، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 366.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 136.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 366.
(4) السمين، الدر المصون: 7/ 551.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.

مُتَّخَذينَ أولياءَ لهُم مِنْ دوني)، والإنكارُ مُتسلِّطٌ على معمولِ المفعولِ الثّاني وهو ﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾ المعمولُ لـ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾، بقرينةِ ما دلَّ عليه فعلُ (فحَسِبَ) مِنْ أنَّ هنالكَ محسوبًا باطلًا؛ وهو كونُهم أولياءَ باعتبارِ ما تقتضيه حقيقةُ الوِلايةِ مِنَ الحمايةِ والنَّصرِ[1]. وقيلَ: مفعولُهُ الثّاني محذوفٌ، أي: أَفَحَسِبوا اتِّخاذَهم نافعًا لهُم[2]، والرّاجحُ الأوَّلُ؛ لأنَّ في هذا تسليمًا لنفسِ الاتِّخاذِ، واعتدادًا به في الجُملةِ[3].

الغرضُ من التعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

علّةُ ما في حيِّزِ الصِّلةِ للحُكْمِ المُنْكَرِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، دون أن يقال: (الكافرين)؛ دلالةً على الوصفِ الَّذي أوجبَ لهُم ذلكَ[4]، يعني: أنَّ ما في حيِّزِ صلةِ الموصولِ - وهو الكفرُ - هو علَّةُ الحُكْمِ المُنْكَرِ؛ وهو اتِّخاذُ العِبادِ أولياءَ مِنْ دونِ اللّٰه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكفرُهم هو الَّذي أعمى أبصارَهم وبصيرتَهم، وجعلَهم يتَّخذونَ العِبادَ أولياءَ مِنْ دونِ الرَّبِّ المعبودِ.

نكتةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

استقلالُ الجملةِ، والمبالغةُ في التّوبيخِ

إظهارُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، دونَ أنْ يقالَ: (أفحَسِبوا) بإعادةِ الضَّميرِ إلى الكافرينَ المذكورينَ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾، لقصدِ استقلالِ الجملةِ بدلالتِها؛ لأنَّهُ لو عُبِّرَ بالإضمارِ لكانَتِ الجملةُ مرتبطةً بما قبلَها لفظًا ومعنًى؛ لحاجةِ الضَّميرِ إلى مرجعٍ، وزيادةً في إظهارِ التَّوبيخِ[5]؛ لما يترتَّبُ على التَّعبيرِ بالموصولِ مِنَ التَّنبيه على علَّةِ ما استحقّوا عليه التَّوبيخَ كما تقدَّمَ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 43.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 146.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 322، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 146.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

بيان رُسوخِ قَدَمِ الكافرين في الكفرِ

اختيرَتْ صيغةُ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ كفرَ هؤلاءِ الكفرةِ أمرٌ قديمٌ، قد اصطبغَتْ به أحوالُهم وشؤونُهم، ورسخَ في أنفُسِهم وعقولِهم، وضربَ في سوَيْداواتِ قلوبِهم بجِرانِه، بحيثُ صارَ كالأمرِ الفِطْريِّ الَّذي تُجبَلُ عليه النُّفوسُ.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَتَّخِذُواْ﴾:

تجدُّدُ اتِّخاذِ الآلهةِ واستمرارُه في حياة الكفرة

صيغَ فعلُ الاتِّخاذِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الاتِّخاذِ منهُم، وأنَّهم غيرُ مُقلِعينَ عنهُ[1]، وقيلَ: فعلُ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾ للمستقبلِ، أي: أحَسِبوا أنْ يتَّخِذوا عبادي أولياءَ يومَ القيامةِ كما اتَّخذوهم في الدُّنيا، وهو المُشارُ إليه بقولِه سبحانَهُ: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾[2].

سرّ الإضافةِ في ﴿عِبَادِيٓ﴾:

تشريفُ العباد وهم صفوة الملائكة المُقرَّبينَ والأنبياء المصطفَين

المرادُ بالعِبادِ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾: الملائكةُ وعُزيرٌ والمسيحُ عليه السلام ونحوُهم مِنَ المُقرَّبينَ، وهذا هو الأظهرُ، بدليلِ الإضافةِ في ﴿عِبَادِيٓ﴾؛ فإنَّ الأكثرَ أنْ تكونَ في مِثلِ هذا اللَّفظِ للتشريفِ[3]، ويحتمل أن يُرادَ بالعِبادِ المُؤمِنونَ به سبحانَهُ المُحِبّونَ لهُ، الَّذينَ اختاروا مُراداتِ اللهِ على مراداتِ نفوسِهم[4]، ويحتملُ ألّا تكونَ الإضافةُ للتَّشريفِ، بل باعتبارِ أنَّهم مِلْكُهُ سبحانَهُ، والمعنى: أفَظَنّوا أنْ يتَّخذوا عِبادي الَّذينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 8999.

هم تحتَ مِلْكي وسُلطاني[1]، وقيلَ: المرادُ بالعِباد هنا: الشَّياطينُ، وقيلَ: المرادُ بهِم: الأصنامُ؛ لأنَّها خَلْقُهُ سبحانَهُ ومِلْكُهُ[2].

وجهُ التقييد بـ ﴿مِن دُونِيٓ﴾، ومعناهُ:

احتمال اللّفظ عِدَّةَ مَعانٍ يبين عن اتّساع دلالته

سر التقييد بـ﴿مِن دُونِيٓ﴾ تحقيرُ المتخذِ معبودًا غير اللّه، مع ما فيه من تغزير المعنى، فـ﴿مِن دُونِيٓ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾: إمّا بجعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ اسمًا بمعنى (حَوْلِ)، أي: مِنْ حَوْلِ عذابي، وتأويل ﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾ بمعنى: أنصارًا، أي: حائلينَ دونَ عذابي ومانِعيهم منهُ، وإمّا بجعلِ ﴿دُونِيٓ﴾ بمعنى: غيري، أي: أحَسِبوا أنَّهم يستغنونَ بولايتِهم[3]، وقيلَ: (دونَ) هنا: إمّا نقيضُ (فوقَ)، أو بمعنى (غيرٍ)، أي: أظَنّوا مَنْ هو في حَضيضِ العُبوديَّةِ معبودًا كالعَليِّ الأعلى؟ أو: أظَنّوا غيرَ اللّه معبودًا معَهُ أو دونَهُ؟[4]، وقيلَ: معنى ﴿مِن دُونِيٓ﴾: مُجاوِزينَ[5].

نكتة جمعِ لفظ ﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾:

مقابلةُ جمعِ العِبادِ، بجمعِ الأولياءِ في السّياق المستفاد

جمعُ الأولياءِ في قولِه ﷻ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (وَليًّا)؛ لأنَّ المرادَ بالعِبادِ على الرّاجحِ: الملائكةُ وعيسى وعُزيرٌ عليهم السلام ونحوُهم مِنَ المُقرَّبينَ، وقد كانَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعبُدُ الملائكةَ، ومنهُم مَنْ يَنسُبُ الأُلوهيَّةَ لعيسى عليه السلام، ومنهُم مَنْ يَنسُبُها لعُزيرٍ عليه السلام، فقوبِلَ الجمعُ في ﴿عِبَادِي﴾ بالجمعِ في ﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾ باعتبارِ أنَّ كلَّ فِرْقةٍ مِنَ المذكورينَ ونحوِهم قد اتَّخَذَتْ وليًّا دونَ الوَليِّ الَّذي اتَّخَذَتْهُ الفِرْقةُ الأخرى.

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ في الآيةِ الكريمة:

ما في الآيةِ من المحذوف إيجازٌ بقرينةِ السّياقِ المعروف

في الآيةِ كلامٌ محذوفٌ دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 44.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 366.

﴿لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، أي: أفحَسِبوا أنْ يتَّخذوهم أندادًا يعبدونَها، أو أنصارًا يُقاوِمونَ بهِم حُكْمَ اللهِ فيهِم، ونتركَهم مِنْ غيرِ مؤاخَذةٍ، أو لا نُحاسِبَهم على ما يفعلونَ، وهذا كقولِه سبحانَهُ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة: 36][1].

بلاغةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾:

ملاءمةُ التَّوكيدِ لمقامِ الإنكارِ والتَّوبيخِ في السّياقِ

لمّا كانَ معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ - وليسَ الأمرُ كذلكَ، بل أصلدَ زَنْدُهم، وغابَ سَعْدُهم؛ حَسُنَ جدّاً التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّآ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾[2]؛ لأنَّهُ مُقرِّرٌ لإنكارِ انتفاعِهم بأوليائِهم، ومُبيِّنٌ أنَّ جهنَّمَ أُعِدَّتْ لهُم نُزُلًا، فلا مَحيصَ لهُم عنها[3].

علَّةُ الإسنادِ إلى (نا) الدالة على التَّعظيمِ في ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾:

التَّعظيمُ في مقامِ الوعيدِ والتَّهديدِ متناسبٌ مع صيغةِ التّوكيدِ

لمّا كانَ المقامُ لإنكارِ اتِّخاذِ المشركينَ أولياءَ لهُم مِنْ دونِ اللهِ، وتهديدِهم ببيانِ سوءِ عاقبتِهم وما أُعِدَّ لهُم مِنَ العذابِ الأليمِ؛ جُعِلَ المسنَدُ إليه ضميرَ الجلالةِ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ لإدخالِ الرَّوعِ والمَهابةِ في ضمائرِ المشركينَ[4]، ببيانِ أنَّ الَّذي أعدَّ لهُم جهنَّمَ هو ذو العظَمةِ والجلالِ، وعذابُ العظيمِ عظيمٌ أليمٌ شديدٌ.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾:

جهنَّمُ معدّة للكافرين، موصوفة بالنُّزل المهين

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، على أنَّ جهنَّمَ مخلوقةٌ اليومَ للكافرينَ المعهودينَ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4594.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 146.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 44.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 44.

وأنَّهُ قد تمَّتْ تهيئتُها لهُم[1]، وكأنَّها تنتظرُهم وتستعدُّ لتلقّيهم يومَ القيامةِ، يومَ الحَسْرةِ والنَّدامةِ، ولاتَ ساعةَ مَنْدَمٍ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

تـخـويـفُ الـكـافـريـنَ بـجـهـنَّـم، والـقـصـدُ لاسـتـقـلالِ الجملةِ

اختيرَ اسمُ جهنَّمَ دونَ غيرِه مِنْ أسماءِ النّارِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ لتخويفِ الكافرينَ بذكرِ جهنَّمَ البعيدةِ القَعْرِ الَّتي تتلقّاهم بالتَّجهُّمِ والكراهةِ؛ لما فيها مِنَ الغَيْظِ والحَنَقِ عليهِم، إضافةً إلى قصدِ الإشارةِ لاستقلالِ الجملةِ، ولذلكَ أُعيدَ إظهارُ لفظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مع تقدُّمِه في قولِه تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾.

الغرض من الإظهارِ في مقام الإضمار في: ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

كـفـرُ الكافرينَ سـبـبُ ذمِّـهـم واستحقاقِهم العِقابَ

عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، أي: للكافرينَ المعهودينَ المذكورينَ فيما سبقَ، ولم يُقَلْ: (إنّا أعتَدْنا جهنَّمَ لهُم نُزُلًا)؛ ذمًّا لهُم بوصفِ الكفرِ، وإشعارًا بأنَّ ذلكَ الإعتادَ بسببِ كفرِهم المُتضمِّنِ لحُسْبانِهم الباطلِ عِبادي أولياءَ[2]، ووجهُ الإشعارِ: أنَّ تعليقَ الحكمِ بالمُشتقِّ يُؤذِنُ بعلّيَّةِ ما منهُ الاشتقاقُ.

سر التَّعبيرِ بـ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ دونَ (الَّذينَ كفَروا):

دلالـةُ اسـمِ الـفـاعـلِ على تـمـكُّـنِ الـكـفـرِ منهُم، ورسوخه في معتقداتهم

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إنّا أعتَدْنا جهنَّمَ للَّذينَ كفروا نُزُلًا) بالتَّعبيرِ باسمِ الموصولِ؛ ليوافقَ قولَهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ، فقيلَ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ لإفادةِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ تمكُّنَ الكفرِ منهُم، وأنَّ اتِّصافَهم به أمرٌ ثابتٌ لهُم، وهم راسخونَ فيه، ولذلكَ استوجَبوا الاختصاصَ بإعتادِ جهنَّمَ لهُم مَضافةً لهم بدوامِ عذابِها لهم.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 367.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 248، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 367.

معنى حرفِ الجرِّ (اللام) في شبه الجملة ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

إفادةُ لامِ الجرِّ للاختصاص تحديدٌ للمقصود بالعقاب

يدلُّ حرفُ الجرِّ - وهو اللّامُ - في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ على أنَّ اعتيادَ جهنَّمَ نُزُلًا أمرٌ مختصٌّ بالكافرينَ؛ لأنَّ اللّامَ فيها معنى الاختصاصِ، والمرادُ اعتادوها بحيثُ تكونُ مُستقرًّا لهُم يُخلَّدونَ فيهِ، ولا ينافي ذلكَ دخولُ غيرِهم مِنْ عُصاةِ المؤمنينَ فيها، ثم خروجُهم منها بتوحيدهم للّٰه، أو برحمته التي هي أهلُ الإيمانِ والتوحيدِ أحقُّ بها، أو بشفاعةِ الشّافعين.

الغرض من تقديم ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿نُزُلًا﴾:

تعجيلُ المَساءةِ ومُراعاةُ الفاصلةِ مفيدٌ في بلاغة الجملة ودلالتها

قُدِّمَ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾؛ لما يُفيدُهُ التَّقديمُ مِنْ تعجيلِ المَساءةِ للكافرينَ ببيانِ أنَّ اعتيادَ جهنَّمَ لهُم لا لغيرِهم، إضافةً إلى أنَّ تأخيرَ ﴿نُزُلًا﴾ يترتَّبُ عليه ملاءمةُ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها.

تنوعُ إعراب ﴿نُزُلًا﴾، وثراء المعنى:

الحاليةُ والمفعوليَّةُ تفصح عن معانٍ متنوِّعة

يحتملُ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أوجهًا مِنَ الإعرابِ؛ **أحدُها**: أنَّهُ منصوبٌ على الحالِ، وهو جمعُ (نازلٍ)، نحوَ: شارفٍ وشُرُفٍ، **والثّاني**: أنَّهُ اسمُ موضعِ النُّزولِ، ونصبُهُ على أنَّهُ مفعولٌ بهِ، أي: وصيَّرْنا جهنَّمَ موضعًا لنزولِ الكافرينَ، **والثّالثُ**: أنَّهُ اسمُ ما يُعَدُّ للنّازلينَ مِنَ الضُّيوفِ، ونصبُهُ على أنَّهُ مفعولٌ به أيضًا، أي: وصيَّرْنا جهنَّمَ ضيافةً للكافرينَ[1].

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ ﴿نُزُلًا﴾:

النُّزُلُ ضيافةٌ استُعملت في جهنَّم، للاستهزاء والتَّهكُّم

في لفظِ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، استعارةٌ تصريحيَّةٌ تهكُّميَّةٌ بجعلِ ما يُعذَّبونَ به في جهنَّمَ، كالزَّقّومِ والغِسْلينِ ضيافةً لهُم[2]، نُزِّلَتْ إهانتُهم بالزَّقّومِ ونحوِه منزلةَ

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 552.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 45.

الإكرام بالضّيافةِ بواسطةِ التّهكُّم والسُّخريَةِ، فاستُعمِلَ ما وُضِعَ للإكرام بضيافةِ المُضيف، في الإهانةِ بالتّعذيب بالزّقّوم ونحوِه[1]، وفيه تخطئةٌ لهُم في حُسْبانِهم؛ إذ كانَ اتّخاذُهم العِبادَ أولياءَ مِنْ قَبيلِ إعدادِ الزّادِ ليوم المَعادِ، فكأنَّهُ قيلَ: إنّا أعتَدْنا لهُم مكانَ ما أعدّوا لأنفُسِهم مِنَ العُدَّةِ والذُّخرِ جهنَّمَ عُدَّةً[2]، ولمّا كانَ الضَّيفُ لا يستقرُّ في منزلِ الضّيافةِ، بل ينتقلُ إلى ما هو أهنأُ لهُ في دارِ إقامتِه؛ كانَ في لفظِ النُّزُلِ تنبيهٌ على أنَّ هذا ما لهُم في ابتداءِ أمرِهم، وسيذوقونَ ما هو أشدُّ منهُ في جهنَّمَ أيضًا[3]، وقد جيءَ بلفظِ النُّزُلِ مُنكَّرًا في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ لإفادةِ التَّفخيم والتَّهويلِ المناسبينِ لمقامِ الوعيدِ والتَّخويفِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعتادُ والإعدادُ:

الإعتادُ غالبٌ في تهيئةِ العذابِ، والإعدادُ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ

الإعتادُ ادِّخارُ الشَّيءِ قبلَ الحاجةِ إليه كالإعدادِ، وقيلَ: أصلُ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أعدَدْنا، فأُبدِلَ مِنْ إحدى الدّالينِ تاءٌ[4]، وأمّا الإعدادُ: فيقالُ: أعدَدْتُ هذا لكَ، أي: جعلتُهُ بحيثُ تتناولُهُ بحسَبِ حاجتِكَ إليهِ[5].

وقد غلبَ في القرآنِ الكريمِ استعمالُ (أعتدَ) في تهيئةِ النّارِ والعذابِ، ولم يُستعمَلْ في غيرِ ذلكَ إلّا قليلًا، وأمّا (أعدَّ) فاستُعمِلَ في تهيئةِ الجنَّةِ والنّارِ والرِّزقِ والأجرِ والمغفرةِ والعُدَّةِ وآلةِ الحربِ[6]، فمِنْ أمثلةِ استعمالِ الإعدادِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النّساء: 93]، وقولُهُ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التّوبة:

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 175.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 248.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137.
(4) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (عتد).
(5) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن: (عدد).
(6) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 338.

100]، ومِنْ أمثلةِ استعمالِ الإعتادِ: قولُهُ سبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [النساء: 18]، وقولُهُ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، وقولُهُ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾ [الإسراء: 10] وقيلَ: الإعتادُ فيه حُضورٌ وقُرْبٌ، والعَتيدُ: هو الحاضرُ، أمّا الإعدادُ فهو التَّهيئةُ، وليسَ بالضَّرورةِ الحُضورُ(1).

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص: 315.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ١٠٣﴾ [الكهف: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

التَّنبيهُ على جهلِ الكافرينَ، بعدَ بيانِ خُسْرانِهم المبين

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها وجهانِ:

أحدُهما: أنَّهُ لمّا تبيَّنَ بقولِه ﷺ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أنَّ الكافرينَ خَسِروا خسارةً لا رِبْحَ معَها، وخابَ ما كانوا يُؤمِّلونَ - أمرَ اللّٰهُ جل شأنه أنْ يُنبِّهوا على ذلكَ، فقالَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[1].

والثّاني: أنَّ هذا بيانٌ لحالِ الكفرةِ باعتبارِ ما صدرَ عنهُم مِنَ الأعمالِ الحسنةِ في أنفسِها، وفي حُسْبانِهم أيضًا، حيثُ كانوا مُعجَبينَ بها واثقينَ بنَيْلِ ثوابِها ومشاهدةِ آثارِها، غِبَّ بيانِ حالِهم باعتبارِ أعمالِهم السَّيِّئةِ في أنفسِها معَ كونِها حسنةً في حُسْبانِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُنَبِّئُكُم﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتيانِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[3]، وعلى ظهورٍ أو طُروءٍ مسبوقٍ بخفاءٍ ما[4]، والنَّبَأُ: الخبرُ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، قالَ جلَّ وتباركَ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]، والنَّبيُّ: مَنْ همزَهُ وقالَ: (النَّبيءُ) جعلَهُ مِنَ النَّبَأِ، وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ لأنَّهُ مُخبَرٌ مِنْ جهةِ اللّٰه تعالى، وقيلَ: بمعنى فاعلٍ؛ لأنَّهُ يُنبِئُ الإنسانَ بما أوحيَ إليه[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نبأ).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الكافرونَ أخسرُ الخاسرينَ لفقدان الرُّكون لربِّ العالمين

يقولُ تعالى مُخاطِبًا نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ: قُلْ - أيُّها الرسول - على جهةِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ للكافرينَ المعاندينَ أصحابِ الأهواءِ الزّائغةِ والأعمالِ الفاسدةِ: هل نُخبركم - أيُّها القومُ الضّالّونَ - بأخسرِ النّاسَ أعمالًا؟ يعني: الَّذينَ أتعبوا أنفُسَهم في عملٍ يبتغونَ به رِبْحًا وفضلًا، فنالوا به عَطَبًا وهلاكًا، ولم يُدرِكوا طَلَبًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ الكريمة:

السّؤال المثار في السّياق، يحقّق التّناغم والاتّساق

قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ أثارَهُ مضمونُ قولِه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، فإنَّهم لمّا اتَّخذوا مَنْ ليسوا ينفعونَهم أولياءَ، وعبَدوهم وتقرَّبوا إليهم؛ اغترارًا بأنَّهم يدفعونَ عنهُم، وهم لا يُغْنونَ عنهُم شيئًا - كانَ عملُهم خاسرًا، وسَعْيُهم باطلًا، فالمقصودُ مِنْ هذه الجملةِ هو قولُه: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[2].

وجهُ افتتاحِ الآيةِ بالأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

الاهتمامُ بإصغاءِ السّامعِ للمَقولِ يجذب المخاطب إلى القول

في افتتاحِ الآيةِ بالأمرِ بالقولِ في قولِ اللّه عَظُمَتْ قُدرتُهُ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ اهتمامٌ بالمَقولِ بطلبِ إصغاءِ السّامعينَ لهُ، والتفاتِهم إليه؛ لأنَّ مِثلَ هذا الافتتاحِ يُشعِرُ بأنَّهُ في غرضٍ مُهِمٍّ، وللمتكلِّمِ عِنايةٌ به[3].

الغرض من التعبير بالاستفهامِ في صدرِ الآيةِ:

في افتتاحِ المَقولِ باستفهامِ الكافرينَ عن إنبائِهم بالأخسرينَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 45.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 45.

التَّهكُّم والتَّوبيخ من أساليب البلاغة المؤثرة في المعنى

أعمالًا في قولِه جلَّ وتبارَكَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ اهتمامٌ بالمُستفهَم عنهُ، وتشويقٌ لورودِ جوابِ الاستفهامِ، وذلكَ يُثيرُ يقَظةَ النُّفوسِ، ويَلفِتُ انتباهَها، وهذا الاستفهامُ ليسَ على حقيقتِه، بل هو مُستعمَلٌ في العَرْضِ على جهةِ التَّهكُّمِ؛ لأنَّهُ بمعنى: أتُحِبّونَ أنْ نُنبِّئَكم بالأخسرينَ أعمالًا؟! وهو عَرْضُ تهكُّم؛ لأنَّ التَّنبِئةَ ستتمُّ دونَ توقُّفٍ على رِضاهم[1]، وفيه توبيخٌ لهُم أيضًا[2]، وقيلَ: الاستفهامُ للتَّقريرِ، فكأنَّهم سُئِلوا فأجابوا مُقرّينَ بأنَّهم الأخسرونَ أعمالًا[3].

دلالةُ التعبير بالجمعِ في صيغةِ المُتكلِّم ﴿نُنَبِّئُكُم﴾:

الإيذانُ بمعلوميَّةِ النَّبَأِ واشتهارِه، مقصدٌ في السّياق

نون الجمعُ في صيغةِ المُتكلِّم في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿نُنَبِّئُكُم﴾؛ يجوزُ أنْ تكونَ نونَ العظَمةِ راجعةً إلى ذاتِ اللهِ لتعيينِه مِنْ أوَّلِ الأمرِ[4]، على طريقةِ الالتفاتِ في الحكايةِ، ومُقتضى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (هل يُنبِّئُكم اللهُ)، أي: سيُنبِّئُكم، ويجوزُ أنْ تكونَ للمُتكلِّمِ المُشارِكِ راجعةً إلى الرَّسولِ ﷺ وإلى اللهِ تعالى؛ لأنَّهُ يُخبِرُهم بما يوحَى إليه مِنْ ربِّه جلَّ وتقدَّسَ، ويجوزُ أنْ تكونَ راجعةً للرَّسولِ ﷺ وللمُسلِمينَ[5].

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ التَّنبِئةِ في ﴿نُنَبِّئُكُم﴾:

تعظيمُ شأنِ المُنبَّأِ به وتفخيمُهُ مفيدٌ في الدَّلالة

في التَّعبيرِ بفعلِ التَّنبِئةِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ إشارةٌ إلى عِظَمِ شأنِ المُنبَّأِ به؛ فقد ذكرَ بعضُ أئمَّةِ اللُّغةِ أنَّ النَّبأَ في الأصلِ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به عِلمٌ أو غلَبةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصلِ: نَبَأٌ، حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ[6]، أي: هل نُخبِرُكم إخبارًا عظيمًا أيُّها التّاركونَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 367، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 45.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 545، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 66.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 105، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 367.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 46.
(6) الراغب، المفردات: (نبأ).

مَنْ لا خالقَ ولا رازقَ لكم سِواهُ، والمُقبِلونَ على مَنْ ليسَ بيدِه شيءٌ مِنْ خَلْقٍ ولا رزقٍ؟![1]، ويزيدُ التَّعظيمَ والتَّفخيمَ استعمالُ صيغةِ التَّضعيفِ في ﴿نُنَبِّئُكُم﴾، حيثُ لم يُقَلْ: (هل نُنْبِئُكم).

معنى الباءِ ودلالتها في شبه الجملة ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾:

التَّعديةُ لها دلالةٌ معنويّة في التّركيب

الباءُ في قولِ اللّه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ للتَّعديةِ، وذلكَ لأنَّ النَّبَأَ لتضمُّنِه معنى الخبرِ، يقالُ فيه: أنبأتُهُ بكذا، كما يقالُ: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِه معنى العِلمِ يقالُ: أنبأتُهُ كذا، كما يقالُ: أعلمتُهُ كذا[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ دونَ (بالخاسرينَ):

اختيارُ الجمعِ الأنسبِ بمقامِ المبالغةِ، في بيانِ خُسْرانِهم

الأخسرونَ في قولِ اللّه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ جمعُ أخسرَ، وهو أفعلُ تفضيلٍ، والمرادُ به الَّذينَ بلَغوا مِنَ الخُسْرانِ أقصاهُ ومُنتهاهُ، فلا خسارةَ فوقَ خسارتِهم[3]، أو أنَّهم بالنِّسبةِ للمُؤمِنينَ أكثرُ خسارةً؛ لأنَّ المُؤمِنينَ إنْ خَسِروا في الدُّنيا متاعَها فأولئكَ خَسِروا ما هو أعظمُ؛ وهو متاعُ الآخرةِ، وخسارةُ المُؤمِنينَ لا تُذكَرُ بجوارِ خسارتِهم[4]، والأوَّلُ أبلغُ وأنسبُ بمقامِ توبيخِ الكافرينَ وتنبيهِهم على شدَّةِ ضلالِهم، قالَ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزّمر: 15]، وقيلَ: يجوزُ أنْ تكونَ صيغةُ (أفعلَ) هنا مسلوبةَ التَّفضيلِ، والمعنى: قُلْ: هل نُنبِّئُكم بالخاسرينَ أعمالًا[5].

بلاغةُ طريقِ العدولِ:

الانتقالُ مِنَ الخطابِ إلى الغَيبةِ يفيدُ التَّشويقَ

في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147.
(2) الراغب، المفردات: (نبأ).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 212، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 212.

براعةٌ؛ إذ عُدِلَ فيه عن طريقةِ الخطابِ بأنْ يقالَ للمشركينَ: هل نُنبِّئُكم بأنَّكم الأخسرونَ أعمالًا، إلى طريقةِ الغَيبةِ بحيثُ يتشوَّفونَ إلى معرفةِ المرادِ بالأخسرينَ، فما يَروعُهم إلّا أنْ يَعْلَموا أنَّ المُخبَرَ عنهُم هم أنفسُهم، وفي ذلكَ توبيخٌ لهُم، وتنبيهٌ على ما غَفَلوا عنهُ مِنْ خَيْبةِ سَعْيِهم[1].

سر التقييد بالتمييز في: ﴿أَعۡمَٰلًا﴾:

خسران الأعمال أشدُّ الخسران وأقساه

انتصبَ ﴿أَعۡمَٰلًا﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾، على التَّمييزِ لـ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾[2]، كما هي العادةُ في الاسمِ المنصوبِ بعدَ أفعلِ التَّفضيلِ، وفيه تبيينٌ وتفسيرٌ، لجهةِ كونِهم أخسرَ الخاسرينَ، وهي الأعمالُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ دونَ الإفرادِ في ﴿أَعۡمَٰلًا﴾:

الخُسْرانُ شاملٌ لجميعِ أعمالِ الفِرَقِ الكافرة

﴿أَعۡمَٰلًا﴾ جمعُهُ هنا: إمّا لتنوُّعِ أعمالِهم وقصدِ شُمولِ الخُسْرانِ لجميعِها؛ لأنَّ أعمالَهم في الضَّلالِ مختلفةٌ، وليسوا مشتركينَ في عملٍ واحدٍ؛ فمنهُم مَنْ يعبدُ الملائكةَ، ومنهُم مَنْ يعبدُ النُّجومَ، ومنهُم مَنْ يعبدُ بعضَ الأنبياءِ، ومنهُم مَنْ يعبدُ الأوثانَ، ومنهُم مَنْ يُشرِك بغيرِ ذلكَ[3]، أو لأنَّهُ مُؤوَّلٌ باسمِ فاعلٍ، فإنَّهُ يُعامَلُ معاملتَهُ حينَها، فيُجمَعُ[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّبأُ والخَبَرُ:

الخَبَرُ أعمُّ مِنَ النَّبَأِ، والنَّبَأُ يُستعمَلُ في الخَبَرِ العظيمِ

فُرِّقَ بينَ الخَبَرِ والنَّبَأِ: بأنَّ النَّبَأَ خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به عِلْمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخَبَرِ: نَبَأٌ، حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 46.

(2) السمين، الدر المصون: 7/ 553، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 284.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 294، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 322، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 147.

(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 137.

الثَّلاثةَ، وحقُّ الخَبَرِ الَّذي يقالُ فيهِ: نَبَأٌ أنْ يخلوَ عنِ الكذبِ، كالتَّواترِ، وخبرِ اللهِ تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: 49]، وقولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6] تنبيهٌ على أنَّهُ إذا كانَ الخَبَرُ شيئًا عظيمًا لهُ قَدْرٌ فحقُّهُ أنْ يُتوقَّفَ فيه وإنْ عُلِمَ وغلبَتْ صِحَّتُهُ على الظَّنِّ، حتَّى يُعادَ النَّظَرُ فيه، ويُتبيَّنَ فضْلَ تبيُّنٍ[1]، وبناءً على ذلكَ يكونُ الخَبَرُ أعمَّ مِنَ النَّبَأِ؛ لأنَّ النَّبأَ خَبَرٌ مخصوصٌ؛ فكلُّ نَبَأٍ خَبَرٌ، وليسَ كلُّ خَبَرٍ نَبَأً.

العملُ والفعلُ:

الفعلُ أعمُّ؛ لأنَّهُ يكونُ بقصدٍ وبغيرِ قصدٍ، ويكونُ مِنَ العاقلِ وغيرِهِ

قيلَ في الفَرْقِ بينَ العملِ والفعلِ: إن العملَ المُثابَرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ به مرَّةً أو بسرعةٍ، قالَ تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]، والفعلَ: الإتيانُ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: 4][2]، وقيلَ: الأصلُ في العملِ أنْ يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ، والعملُ أخصَّ[3].

---

(1) الراغب، المفردات: (نبأ).

(2) النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 55.

(3) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 10/ 252.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ضلالُ السَّعْيِ في الدّنيا علامةُ الخُسْرانِ وسوءِ المصير

لمّا ذكرَ اللهُ تعالى الأخسرينَ أعمالًا في قولِهِ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ بيَّنَ المرادَ بهِم، ووصفَهم بضدِّ ما يدَّعونَه لأنفُسِهم مِنْ نجاحِ السَّعْيِ وإحسانِ الصُّنْعِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾، وفي هذا الوصفِ بيانٌ لرُكْنِ خُسْرانِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَّ﴾: المعنى المحوريُّ للضّادِ واللّامِ: ضَياعُ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ[2]، والضَّلالُ بمعنى الضَّياعِ يُقابلُهُ الوُجْدانُ، وقد يُطلَقُ بمعنى العُدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ويقابلُهُ الهدايةُ، ويقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[3]، ويقالُ: ضلَّ الكافرُ، إذا غابَ عنِ الحُجَّةِ[4]، ومعنى ﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾: ضاعَ وبطلَ[5].

2) ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾: سَعَى الرَّجلُ يَسْعَى سَعْيًا، إذا عَمِلَ وكَسَبَ، وكلُّ مَنْ وليَ شيئًا على قومٍ فهو ساعٍ عليهم، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في وُلاةِ الصَّدَقةِ[6]، والسَّعْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كانَ أو شَرًّا، قالَ تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: 114]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749.
(6) الجوهري، الصحاح: (سعي).

وقالَ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: 4][1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّةِ تسيُّبُ جِرْمِ الشَّيءِ المُجتمِعِ وذهابُهُ شيئًا بعدَ شَيْءٍ، كما يَذوبُ الشَّمَعُ عندَ الاستصباحِ بِهِ، وكمُرورِ ساعاتِ اللَّيلِ واحدةً بعدَ أخرى[2].

3) ﴿يُحۡسِنُونَ﴾: (حسن) ضدُّ القُبْحِ[3]، والحَسَنُ أيضًا: كلُّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيهِ، والحَسَنةُ يُعبَّرُ بها عن كلِّ ما يَسُرُّ مِنْ نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه، والسَّيِّئةُ تُضادُّها، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآنِ مِنَ الحُسْنِ فللمُستحسَنِ مِنْ جهةِ البصيرةِ، كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 18]، أي: الأبعدَ عنِ الشُّبْهةِ[4].

4) ﴿صُنۡعًا﴾: (صنع) أصلٌ واحدٌ، وهو عملُ الشَّيءِ صُنْعًا[5]، وذلكَ بجمعٍ أو تحصيلٍ في هيأةٍ جديدةٍ بتدبيرٍ واحتيالٍ أو إحكامٍ، فالمَصانعُ: أحباسٌ تُتَّخذُ للماءِ[6]، والصَّنيعةُ: ما اصطنعتَهُ مِنْ خيرٍ، وفرسٌ صَنيعٌ: أُحسِنَ القيامُ عليه، وعُبِّرَ عنِ الأمكنةِ الشَّريفةِ بالمصانعِ، قالَ تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: 129] والصُّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، قالَ تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88]، وقالَ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـا بُـنـيَ على بُـطـلانٍ وبـوار فنهايتُهُ ضلال وخسار

يُخبِرُ اللَّهُ ﷻ عن صفةِ الأخسرينَ أعمالًا، ويكشفُ عن حقيقتِهم، فيقولُ: هم الَّذينَ لم يكنْ عملُهم الَّذي عَمِلوهُ في حياتِهم الدُّنيا على هُدىً واستقامةٍ، بل كانَ على جَوْرٍ وضلالةٍ، وذلكَ أنَّهم

(1) الراغب، المفردات: (سعي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سعي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(4) الراغب، المفردات: (حسن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنع).
(7) الراغب، المفردات: (صنع).

عَمِلوا بغيرِ ما أمرَهم اللّهُ بهِ، بل على كفرٍ منهُم بهِ، وهم يظنّونَ أنَّهم بفعلِهم ذلكَ مُطيعونَ للّهِ، وأنَّ عملَهم على غايةٍ مِنَ الصَّوابِ والسَّدادِ، وأنَّهُ سينفعُهم ويكونُ لهُم ذُخرًا يومَ القيامةِ، والواقعُ أنَّ سَعْيَهم كُلَّهُ ضلالٌ، وأنَّ ما عَمِلوا مِنْ عملٍ سيكونُ يومَ الحسابِ هباءً منثورًا[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من الناسِ من يعملُ العملَ، ويظنُّ أنه محسنٌ، وقد حبط سعيُه، والذي يوجب إحباطَ السعيِ: إمّا فسادُ الاعتقادِ، وإمّا المراءاةُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تنوُّعُ إعرابِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وثراء المعنى:

خبرُ المبتدأ المحذوفِ على الرّاجحِ، يبين عن المعنى في الجملة

جوِّزَ في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، الجرُّ نعتًا أو بدلًا أو بيانًا، والنَّصبُ على الذَّمِّ بتقديرِ: أذمُّ، أو أعني[3]، وعلى هذه الوجوه يكونُ جوابُ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ ما سيأتي مِنْ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، وجوِّزَ الرَّفعُ على أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ مُقدَّرٍ جوابًا لسؤالٍ، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ قيلَ: مَنْ هم؟ فقيلَ: هم الَّذينَ ضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا[4]، وعلى هذا الوجه يكونُ فصلُ الآيةِ عمّا قبلَها؛ لما بينَهما مِنْ شِبْه كمالِ الاتِّصالِ، وهذا الوجهُ هو الرّاجحُ[5].

الغرض من التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

استحضارُ الأخسرينَ بالوصفِ الَّذي هو علَّةُ خُسْرانِهم

لمّا كانَ المقامُ مقامَ تعريفٍ بالأخسرينَ أعمالًا عُبِّرَ بالاسمِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 128.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 393.
(3) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 138.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 138، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.

الموصولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لاستحضارِ هؤلاءِ الأخسرينَ بالوصفِ الَّذي هو علَّةُ خُسْرانِهم.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيةِ الكريمة:

بيانُ زيادةِ التَّشويقِ إلى معرفةِ الأخسرينَ

قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إنْ كانَ بدلًا مِنْ قولِهِ: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ يكونُ في الكلامِ إطنابٌ؛ لأنَّ البدلَ فيه إطنابٌ مبنيٌّ على الإجمالِ والتَّفصيلِ، وفي هذا الإطنابِ زيادةُ تشويقٍ إلى معرفةِ هؤلاءِ الأخسرينَ، حيثُ أُجريَ عليهِم مِنَ الأوصافِ ما يزيدُ السّامعَ حرصًا على معرفةِ الموصوفينَ بتلكَ الأوصافِ والأحوالِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿ضَلَّ﴾:

ضلالُ الكافرينَ ضاربٌ بأطنابِهِ في الزَّمنِ السَّحيق

لمّا كانَ كفرُ هؤلاءِ الكافرينَ الأخسرينَ أعمالًا أمرًا راسخًا فيهم، وثابتًا لهُم منذُ زمنٍ أُسنِدَ الضَّلالُ إلى سَعْيِهم بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تنبيهًا على ذلكَ، وفيه مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم ببيانِ أنَّ هذا الضَّلالَ ضاربٌ بأطنابِه في الزَّمنِ البعيدِ، وأنَّهم استمرّوا عليهِ، ولم يُقلِعوا عنهُ، فترى ماضيَ سَعْيِهم قد اصطبغَ بِصِبْغةِ الخُسْرانِ عياذًا باللّه تعالى.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

السَّعْيُ مجازٌ في العملِ الصّالحِ يعرف به بين النّاس

حقيقةُ السَّعْيِ المَشْيُ دونَ العَدْوِ، وهو في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مجازٌ في العملِ الصّالحِ، فالعاملُ للصّالحاتِ كأنَّهُ يسيرُ سيرًا سريعًا إلى الآخرةِ ليصلَ إلى مرغوبه منها، أي: عَمِلوا أعمالًا تقرَّبوا بها لِمَنْ عبَدوهم مِنْ دونِ اللّه تعالى، يَحْسَبونَها مُبلِّغةً إيّاهم أغراضًا، وقد أخطؤوها وهم يحسبونَ أنَّهم يفعلونَ خيرًا[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 46.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 60، 16/ 46.

سرُّ إيثارِ لفظِ السَّعْيِ على لفظِ العملِ:

الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ جهودِ أهل الكفر في ضلالٍ وخيبة

اختيرَ لفظُ السَّعْيِ في قولِ اللّه جلَّتْ قُدرتُه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولم يُقَلْ: (الَّذينَ ضلَّ عملُهم)؛ لأنَّ لفظَ السَّعْيِ بحسَبِ أصلِ معناهُ يُشيرُ إلى مَشْيٍ سريعٍ دونَ العَدْوِ، ويوحي بتحرُّكٍ دؤوبٍ مِنَ السّاعي، ففي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ جُهْدٍ يبذلُهُ الأخسرونَ أعمالًا يكونُ جُهْدًا في ضلالٍ، فلا يكونُ فيه خيرٌ أبدًا[1]، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ سوءِ عاقبةِ أمرِهم؛ حيثُ ضاعَ كلُّ ما عَمِلوهُ مِنْ عملٍ، وجُعِلَ هباءً منثورًا، ولم يكنْ لهُم منهُ إلّا التَّعَبُ والنَّصَبُ.

دلالة التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

المبالغةُ في ضلالِ سَعْيِهِم، من بليغِ البيانِ عن حالهم

عُبِّرَ بصيغةِ المصدرِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولم تأتِ بصيغةِ المصدرِ الميمي، مثلًا: (الَّذينَ ضَلَّ مَسعاهم)؛ لما تُفيدُهُ نسبةُ الضَّلالِ إلى سَعْيِهم مِنْ شُمولِ الضَّلالِ، لكلِّ مَسْعىً لهُم، ولكلِّ فعلٍ فعَلوهُ، وكأنَّ الضَّلالَ رفيقُهم في كلِّ دربٍ سَلَكوهُ، ولو قيلَ: (الَّذينَ ضَلَّ مَسعاهم)، لربَّما ظَنَّ التَّجوُّزَ في العبارةِ، وأنَّ الضَّلالَ كانَ لبعضِ مَساعيهِم دونَ بعضٍ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الضَّلالِ للسَّعْيِ الصّادرِ منهُم

تدلُّ إضافةُ السَّعْيِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الأخسرينَ أعمالًا في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على تأكيدِ أنَّ السَّعْيَ الضّالَّ هو السَّعْيُ الصّادرُ منهُم المنسوبُ إليهم، بسببِ كفرِهم، وفي ذلكَ إيقادٌ لنارِ الحَسْرةِ في قلوبِهم حينَ يرونَ أنَّ سَعْيَهم هم كانَتْ عاقبتُه الخُسْرانَ والضَّلالَ، وأمّا سَعْيُ غيرِهم مِنَ المؤمنينَ فقد أفلحَ وأنجحَ، ونالوا به الزُّلْفَى والكرامةَ عندَ اللّه جلَّ وتباركَ.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ:

إسنادُ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.

﴿سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مجازٌ عقليٌّ، والمعنى: الَّذينَ ضَلّوا في سَعْيِهم[1]؛ لأنَّ الضّالَّ حقيقةً هو صاحبُ السَّعْيِ لا السَّعْيُ نفسُهُ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في الضَّلالِ، كأنَّهُ بضلالِ النَّفْسِ انتقلَ الضَّلالُ إلى السَّعْيِ والعملِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العملَ يكونُ ضلالًا بضلالِ النَّفْسِ وفسادِ القصدِ[2].

إسنادُ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ من البيانِ البليغِ في هذا السّياقِ الأنيقِ

سرُّ التقييد بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مُتعلِّقانِ بالسَّعْيِ، ولا يصحُّ تعلُّقُهما بالضَّلالِ؛ لأنَّ بطلانَ سَعْيِهم غيرُ مختصٍّ بالدُّنيا[3]، بل ظُهورُ بطلانِ سَعْيِهم إنَّما يكونُ في الآخرةِ؛ لأنَّهم في الدُّنيا يحسبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعًا، ويرجونَ نفعَ أعمالِهم، ولا يظهرُ لهُم أنَّها هباءٌ منثورٌ إلا يومَ الحسابِ والجزاءِ.

تعلّقُ الظَّرفِ بالسَّعْيِ المنوطِ بالحياةِ الدّنيا وغرورِها

معنى حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على الظَّرفيَّةِ، ويفيدُ أنَّ مكانَ سَعْيِ الكافرينَ الضّالِّ هو الحياةُ الدُّنيا؛ لأنَّها هي دارُ السَّعْيِ والعملِ، وأمّا الآخرةُ فهي دارُ الحسابِ والجزاءِ.

مكانُ سَعْيِهم الضّالِّ هو الحياةُ الدُّنيا

نكتةُ تقييد الحياة بوصف ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

يَرِدُ وصف الحياة بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في القرآنِ الكريمِ عندما يُرادُ تصويرُ استغراقِ الإنسانِ في هذه الحياةِ، وعدمِ عِنايتِه بما بعدَها، واغترارِه بأهوائِها وشَهَواتِها، وكأنَّها هي الحياةُ الأَبَديَّةُ[4]، واستعمالُهُ

سَعْيُهم الضّالُّ لم يَنْقُلْهُم مِنْ حَضيضِ الحياةِ الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.
(4) عودة خليل، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 349 - 350.

في قولِه جلَّ شأنُهُ في بيانِ الأخسرينَ أعمالًا: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ سَعْيَهم لم يَنْقُلْهم مِنْ حَضيضِ الحياةِ الدُّنيا إلى درجاتِ الآخرةِ العُليا، وأنَّ هذه الحياةَ الدُّنيا على طولِها لم تكنْ إلا ظَرْفًا ومَحَلًّا لضلالِ سَعْيِهم وبطلانِ أعمالِهم، فلم يُحْسِنوا زَرْعَهم فيها، فلا يَجْنونَ في الآخرةِ إلّا العذابَ والنَّكالَ، والحَسْرةَ وخَيْبةَ الرَّجاء.

سرُّ التعبير بالجملة الحاليةِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ﴾:

لا أسـوأ ممّن ضـلّ سعيه، وهـو يحسب خلافه

جملةُ ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿ضَلَّ﴾، أي: ضلّ سَعْيُهم المذكورُ والحالُ أنَّهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ في ذلكَ وينتفعونَ بآثارِه[1] أو حالٌ مِنَ المضافِ إليهِ (هم) في ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾؛ على نظيرِ قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس: 4]، فيتوجّه الحال في الأولى إلى توصيف حدث الضلال، وفي الثانية إلى توصيف الساعين، والفرقُ بينَهما: أنَّ المقارنَ لحالِ حُسْبانِهم المذكورِ في الأوَّلِ ضلالُ سَعْيِهم، وفي الثّاني نفسُ سَعْيِهم[2].

الغرض من تقديمِ ﴿وَهُمۡ﴾ على ﴿يَحۡسَبُونَ﴾:

التَّقديمُ مفيدٌ تقويةَ الحكمِ في السّياق الحكيم

تقديمُ المسندِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾، في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لتقويةِ الحكمِ، لا للحصرِ؛ لأنَّه غيرُ مناسبٍ هنا[3]؛ لأنَّهُ ليسَ المرادُ أنَّهم هم يَحْسَبونَ دونَ غيرِهم، بل المرادُ تقويةُ صُدورِ الحُسْبانِ منهُم، ووجهُ التَّقوّي: أنَّ الحُسْبانَ الدّالَّ عليه ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ قد أُسنِدَ إلى ﴿وَهُمۡ﴾، وفي ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿وَهُمۡ﴾ وهو مسندٌ إليه أيضًا، فيكونُ الحُسْبانُ قد أُسنِدَ إليهم مرَّتينِ، كأنَّهُ قيلَ: هم يَحْسَبونَ، هم يَحْسَبونَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 249، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 372.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 249.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 176.

دلالةُ التعبير بالمضارعِ في فعلَي ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ و﴿يُحۡسِنُونَ﴾:

استمرارُ حُسْبانِهم أنَّ أعمالَهم حسنةٌ وهم في ذلك واهمون

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّه جلَّ وتبارك: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الحُسْبانِ منهُم، وأنَّهم كانوا على الدَّوامِ يَحْسَبونَ أنَّ أعمالَهم حسنةٌ، وكلَّما سَعَوْا سَعْيًا، وعَمِلوا عَمَلًا نَظَموهُ في سِلْكِ استحسانِهم، ورَجَوْا نَفْعَهُ وبِرَّهُ مع أنَّهُ ضالٌّ ضائعٌ، لا وزْنَ لهُ في موازينِ الآخرةِ، وفي ذلكَ تجهيلٌ لهُم، وتقبيحٌ لسوءِ صنيعِهم، فهم بمنزلةِ قابضٍ على الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأصابعِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإحسانِ في ثنايا السّياق:

الإشارةُ إلى إعجابِهم بأعمالِهم الّتي توهّموا حسنهم في مزاولتها

في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ مَلْمَحٌ لطيفٌ؛ لأنَّ الإحسانَ هو الإتيانُ بالأعمالِ على الوجه اللّائق، وهو حُسْنُها الوصفيُّ المُستلزِمُ لحُسْنِها الذّاتيِّ، فيكونُ في الآيةِ تنبيهٌ على شدَّةِ إعجابِهم بأعمالِهم، والمعنى: وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يعملونَ أعمالَهم على الوجه اللّائقِ، وذلكَ لإعجابِهم بأعمالِهم الَّتي سَعَوْا في إقامتِها، وكابَدوا في تحصيلِها[1].

بلاغةُ التعبير بالجناس في: ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ و﴿يُحۡسِنُونَ﴾:

جناسُ التَّصحيفِ من بيانِ السّياقِ المنيف

بينَ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ و﴿يُحۡسِنُونَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لونٌ مِنْ ألوانِ البديعِ، وهو تجنيسُ التَّصحيفِ؛ وهو أنْ يكونَ النَّقْطُ فرْقًا بينَ الكلمتينِ[2]، ويُسمَّى هذا النَّوعُ مِنَ التَّجنيسِ تجنيسَ الخَطِّ أيضًا[3]، وفيه لفت للعقل بإيهام التكرار، وليس بتكرار، وهو مما ينشط الذهن ويلفت الانتباه، ويكون في المعاني المُهمة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.

(3) السمين، الدر المصون: 7/ 553.

علَّةُ إيثارِ الصُّنْعِ على الفعلِ في السّياق:

الصُّنْعُ أنسبُ بمقامِ تجهيلِ المشركينَ المغرورين

لمّا كانَ المقامُ لتجهيلِ الأخسرينَ أعمالًا في حُسْبانِهم أنَّ أعمالَهم حسنةٌ، معَ كونِها في الواقعِ قبيحةً ضالَّةً؛ أوثِرَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لفظُ الصُّنْعِ على لفظِ الفعلِ، فلم يُقلْ: (وهم يَحسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ فعلًا)؛ لأنَّ الصُّنْعَ أخصُّ منَ الفعلِ؛ فالصُّنْعُ في الأصلِ: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنْعٍ فعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنْعًا، وللإجادةِ يقالُ للحاذقِ المُجيدِ: صَنَعٌ[1]، فكانَ لفظُ الصُّنْعِ أنسبَ بالمقامِ، والمعنى: وهم يَحْسَبونَ لضَعْفِ عُقولِهم أنَّهم يُحسِنونَ فعلاً هو في غايةِ الإحكامِ، وهم في غايةِ الدُّرْبةِ به[2].

الغرضُ من تنكيرِ ﴿صُنْعًا﴾:

تفخيمُ أمرِ الصُّنْعِ وتهويلُهُ مقصد مهمٌّ في السّياق

جيءَ بلفظِ الصُّنْعِ مُنكَّرًا في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ صُنْعِ الأخسرينَ أعمالًا وتهويلِه؛ لأنَّهم قد تملَّكَ نُفوسَهم إعجابُهم الشَّديدُ بعملِهم الَّذي يظنّونَ أنَّه على غايةٍ مِنَ السَّدادِ والصَّوابِ، وأنَّهُ نافعُهم يومَ القيامةِ.

سرُّ إسنادِ الضَّلالِ وإيقاعِ الإحسانِ على الصُّنْعِ:

نفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ

أُسنِدَ الضَّلالُ للسَّعْيِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وأوقِعَ الإحسانُ على الصُّنْعِ في قولِه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ لأنَّ السَّعْيَ أعمُّ مِنَ الصُّنْعِ، فناسبَ إسنادَ الضَّلالِ إليه؛ لأنَّ نفيَ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ، والضَّلالُ نفيٌ، والإحسانُ إثباتٌ، فصارَ كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17][3].

---

(1) الراغب، المفردات: (صنع).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 105.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

سببُ بطلانِ السَّعْيِ الموسوم بالكفر، بما بدر من إنكارهم آياتِ الله ولقائِه

إنّ اللّه ﷻ لمّا أخبرَ أنَّ الأخسرينَ أعمالًا ضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا والحالُ أنَّهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ صُنْعًا، بيَّنَ صُنْعَهم وبيَّنَ لهم السَّبَبَ في بطلانه بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾: اللِّقاءُ: مصادفةُ الشَّيءِ للشَّيءِ ومقابلتُهُ له معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحدٍ منهما، ويقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحسِّ والبصرِ والبصيرةِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ [آل عمران: 143]، وقالَ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف: 62]، ومُلاقاةُ اللّه ﷻ عبارةٌ عنِ القيامةِ، وعنِ المصيرِ إليه، قالَ جلَّ وتعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: 223]، ويقالُ: لَقيَ فلانٌ خيرًا وشرًّا، وتقولُ: لَقيتُهُ بكذا، إذا استقبلتَهُ به[2].

2) ﴿فَحَبِطَتۡ﴾: أصل (حبط) فسادُ ما تجمَّعَ في الجوفِ بكثافةٍ؛ لعدمِ تصرُّفِه[3]، والحَبطُ آثارُ الجُرْحِ أوِ السّياطِ بالبَدَنِ، ويقالُ: حَبِطَ الجُرْحُ، إذا بَقيَتْ له آثارٌ بعدَ البُرْءِ، وحَبِطَ بَطْنُهُ، إذا انتفخَ، وحَبِطَتِ الدّابَّةُ، إذا أكلَتْ أَكْلًا انتفخَ بَطْنُها منهُ فماتَتْ، ومِنَ المجازِ:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (لقي).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبط).

حَبِطَ عملُهُ، أي: بطلَ[1]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، أي: فبطلَتْ[2]، وأصلُهُ مِنْ قولِهم: حَبِطَتِ الدّابَّةُ[3].

3) ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾: (قوم) أصلانِ: أحدُهما يدلُّ على جماعةِ ناسٍ، وهو القَوْمُ[4]، والآخرُ يدلُّ على عَزْمٍ أو انتصابٍ[5]، ومنهُ قولُهم: قامَ قيامًا، والقَوْمَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ، إذا انتصبَ[6]، ومِنَ القيامِ الَّذي هو العَزْمُ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، والقيامُ والقِوامُ: اسمٌ لما يقومُ به الشَّيءُ، أي: يَثْبُتُ، والاستقامةُ تقالُ في الطَّريقِ الَّذي يكونُ على خطٍّ مُسْتَوٍ، والإقامةُ في المكانِ: الثَّباتُ، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عنِ الدَّوامِ، نحوُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٧﴾ [المائدة: 37][7].

4) ﴿وَزْنًا﴾: المعنى المحوريُّ لـ (وزن) التَّعديلُ والاستقامةُ، يقالُ: قامَ ميزانُ النَّهارِ، إذا انتصفَ النَّهارُ، وهذا يوازِنُ ذلكَ، أي: هو مُحاذيه، ووَزينُ الرَّأيِ: مُعْتَدِلُهُ[8]، وتوازَنا: تساوَيا[9]، والوَزْنُ: معرفةُ قَدْرِ الشَّيءِ، يقالُ: وَزَنْتُهُ وَزْنًا وزِنَةً، وقولُهُ: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35] إشارةٌ إلى مراعاةِ العدلِ في جميعِ ما يتحرّاهُ الإنسانُ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ[10]، والميزانُ: الآلةُ الَّتي توزَنُ بها الأشياءُ، ويقالُ: هو راجحُ الوَزْنِ، أي: كاملُ العقلِ والرَّأيِ[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّٰهُ جلَّ ذِكْرُهُ عنِ الأخسرينَ أعمالًا الَّذينَ ضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعًا، ويقولُ: هؤلاءِ الَّذينَ وصَفْنا صِفَتَهم الَّذينَ كَفَروا بحُجَجِ

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حبط).
(2) الجوهري، الصحاح: (حبط)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 545.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (حبط).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(7) الراغب، المفردات: (قوم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وزن).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (وزن).
(10) الراغب، المفردات: (وزن).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (وزن).

مدارُ ثِقَلِ موازينِ الأعمالِ يومَ القيامةِ على الأعمالِ الصّالحةِ

ربِّهم وأدلَّتِه العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، وأنكَروا البعثَ والقيامةَ، فبطلَتْ أعمالُهم، فلم يكنْ لها ثوابٌ ينفعُ أصحابَها في الآخرةِ، بل لهُم منها عذابٌ وخِزْيٌ طويلٌ، فلا نجعلُ لهُم وزنًا يومَ القيامةِ؛ لأنَّ الموازينَ إنَّما تَثْقُلُ بالأعمالِ الصّالحةِ، وليسَ لهؤلاءِ شيءٌ مِن الأعمالِ الصّالحةِ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ عدم إقامة الوزن لهؤلاء الكافرين مفرعٌ على بُطلان أعمالهم؛ لأنهم بحبط أعمالهم صاروا محقَّرين، لا شيءَ لهم من الصالحات، ولا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، وترشدُ إلى أنه لا قيمة ولا ثقل ولا وزن لعملٍ لا يوافقَ رضا اللّه تعالى وقبوله له، كما لا وزن عند اللّه تعالى لصاحبه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الاستئنافُ التّعليليُّ بيانٌ للجوابِ عن السّؤالِ قبلَها

قولُه جلَّتْ قُدرتُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾، كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتكميلِ تعريفِ الأخسرينَ، وتبيينِ سببِ خُسْرانِهم وضلالِ سَعْيِهم، وتعيينِهم بحيثُ ينطبقُ التَّعريفُ على المخاطَبينَ[3]، وبناءً على ذلكَ تكونُ الجملةُ جوابًا عن سؤالٍ تقديرُهُ: ما سببُ خُسْرانِهم وضلالِ سَعْيِهم؟ فتُفصَلُ عن سابقتِها كما يُفصَلُ الجوابُ عنِ السُّؤالِ، وأمّا على القولِ بأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بدلٌ مِنَ الأخسرينَ؛ فتكونُ جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عنِ السُّؤالِ في قولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 129، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 202.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 289.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تـمـيـيـزُهـم وتـبـعـيـدُهـم وبـيـانُ عـلَّـةِ الحُكمِ المُجْرى عليهِم

جيءَ باسمِ الإشارةِ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾؛ لتمييزِهم أكملَ تمييزٍ؛ لئلّا يَلتبِسوا بغيرِهم[1]، وللتَّنبيه على أنَّ المُشارَ إليهِم أَحْرياءُ بما يَرِدُ بعدَ اسم الإشارةِ مِنْ حُكْمٍ بسببِ ما أُجْرِيَ عليهم مِنَ الأوصافِ[2]، وللإشارةِ إلى أنَّهم لا يستحقّونَ القُرْبَ، بل هم بُعَداءُ بُغَضاءُ[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

بيانُ سببِ حُبوطِ أعـمـالِـهـم، وضلالِ سعيِهم

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾؛ للإيماءِ إلى وجه بناءِ الحُكْمِ المُتفرِّعِ عليه بعدَ ذلكَ في قولِه ﷻ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾، أي: إنَّ كفرَهم بآياتِ ربِّهم ولقائِه هو سببُ حُبوطِ أعمالِهم، ولذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الأوصافِ.

وجهُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:

الإشـــارةُ إلى تحقُّقِ وقوعِ كفرِ الكَفَرةِ

ولمّا كانَ كفرُ هؤلاءِ الكافرينَ بآياتِ ربِّهم ولقائِه أمرًا مُتحقِّقًا ثابتًا لهُم - جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه جلَّ شأنُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾، أي: أوقعوا السَّتْرَ والتَّغطيةَ لما مِنْ حقِّه أنْ يُظهَرَ ويُشهَرَ[4].

دلالةُ جمعِ الآياتِ في الآيةِ الكريمةِ:

الإشـــارةُ إلى كفرِهم بجميعِ أنواعِ آياتِ اللهِ

جمعُ الآياتِ في قولِه علَتْ كلمتُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾؛ لأنَّ الآياتِ تُطلَقُ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وقد كَفَروا بها جميعًا؛ كَفَروا بآياتِ الكونِ الدّالَّةِ على قُدرةِ اللّه، فلم يَنظُروا فيها، ولم يَعْتَبِروا بها، وكفَروا بآياتِ القُرآنِ والبَلاغِ مِنْ رُسُلِ اللّه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكَفَروا بآياتِ المُعجِزاتِ الَّتي أنزلَها اللّهُ لتأييدِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4596، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148.

الرُّسُلِ، فلم يُصدِّقوها؛ فلفظُ الآياتِ هنا عامٌّ في كلِّ هذه الأنواعِ[1]، وفي ذلكَ مزيدُ توبيخٍ لهُم على تعاميهِم عن رؤيةِ الحقِّ، وتَصامِّهِم عن سماعِه.

سرُّ إضافةِ الآياتِ إلى لفظِ الرَّبِّ:

زيادةُ تقبيحِ حالِ الكفرةِ في كفرِهم

المرادُ بالآياتِ في قولِ الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾: دلائلُهُ سبحانَهُ الدّاعيةُ إلى التَّوحيدِ عقلًا ونقلًا، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ حالِهم في الكفرِ المذكورِ[2]؛ لأنَّهُ كفرٌ بآياتِ الخالقِ الرّازقِ الَّذي لا تنقطعُ عنِ الخَلْقِ نِعَمُهُ وصِلاتُهُ معَ كفرِهم وضلالِهم، ويزيدُ هذا التَّقبيحَ مبالغةً أيضًا إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِهم في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿رَبِّهِمۡ﴾؛ فإنَّ حقَّ الرَّبِّ على العبدِ أنْ يَعْبُدَهُ ولا يُشرِكَ به شيئًا، لا أنْ يُعْرِضَ عن آياتِه ودلائلِ توحيدِه، فيكونُ في الكلامِ توبيخٌ لهُم أيضًا.

سر التقييد بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دونَ (بآياتِنا):

احتمالُ العبارةِ أنْ تكونَ على مُقتضَى الظّاهرِ وعلى خلافِه

إنْ كانَتْ نونُ المتكلِّمِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ راجعةً إلى ذاتِ اللهِ سبحانَهُ فـ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، ومقتضى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (أولئكَ الَّذينَ كَفَروا بآياتِنا)، وإنْ كانَتِ النّونُ راجعةً إلى الرَّسولِ ﷺ وإلى اللهِ تعالى أو إلى الرَّسولِ والمسلمينَ - فالكلامُ على مُقتضَى الظّاهرِ[3].

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾:

بيانُ جمعِ الكفّارِ بينَ الكفرِ بالآياتِ والكفرِ بالبعثِ

تدلُّ واوُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ على أنَّ الَّذينَ ضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا قد

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9003.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 368.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.

جَمَعوا بينَ الكفرِ بآياتِ اللّه تعالى على تنوُّعِها، وبينَ الكفرِ بالبعثِ وما بعدَهُ مِنْ أمورِ الآخرةِ، وفي الجمعِ بينَ الأمرينِ زيادةٌ في تقبيحِ حالِهم؛ لأنَّهم بكفرِهم بالبعثِ صاروا لا يخافونَ، فلا يردُّهم شيءٌ عن أهوائِهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ باللِّقاءِ في السّياق:

اللّقاءُ تنويه بالبعث والحساب، وتأكيد للمصير بلا ارتياب

اللِّقاءُ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ كنايةٌ عنِ البعثِ والحسابِ، أو استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ بأنْ شُبِّهَ عدمُ الحسابِ والعِقابِ بالغَيبةِ عنِ الموقفِ في الدُّنيا منهُم، وشُبِّهَ حُضورُهم أحياءً للحسابِ والعِقابِ بلِقاءِ الشَّيءِ، ويحتملُ أنْ يكونَ في الكلامِ مضافٌ مُقدَّرٌ، أي: أولئكَ الَّذينَ كَفَروا بآياتِ ربِّهم ولِقاءِ عذابِه[2].

معنى الفاءِ في جملة: ﴿فَحَبِطَتۡ﴾:

تسبُّبُ حُبوطِ العملِ عنِ الكفرِ المذكورِ

تدلُّ الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ على السببية، أي: أنَّ حُبوطَ أعمالِهم ناتجٌ عنِ الكفرِ المذكورِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾[3]، أي: فحَبِطَتْ بسببِ كفرِهم بآياتِ ربِّهم ولقائِه أعمالُهم الَّتي عَمِلوها ممّا يظنّونَهُ حسنًا، وهو في الحقيقةِ خُسرانٌ وضلالٌ[4]؛ لأنَّهُ بُنِيَ على أساسٍ باطلٍ.

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿فَحَبِطَتۡ﴾:

تحقُّقُ الحُكْمِ بحُبوطِ أعمالِ الكفرةِ

أوثِرَتْ صيغةُ الماضي في قولِ اللّه تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (فستحبَطُ أعمالُهم)؛ إشارةً إلى أنَّ الحُكْمَ بحُبوطِ أعمالِ الكفرةِ بسببِ كفرِهم بآياتِ ربِّهم ولقائِه قد تحقَّقَ ومضى في سابقِ علمِ اللّه سبحانَهُ وتقديرِه، وإنَّما يَظْهَرُ ذلكَ لهُم ولغيرِهم يومَ القيامةِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148.
(2) اطفيش، تفسير اطفيش: 5/ 446.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 176.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 373.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ في ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

شُمولُ الحُبوطِ لكلّ عمل هو منوط به

عُبِّرَ بصيغةِ الجمعِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، ولم يُقَلْ: (فحَبِطَ عَمَلُهم)؛ لما يُفيدُهُ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ مِنْ شُمولِ الحُبوطِ لأعمالِهم على تنوُّعِها واختلافِها؛ فمنهُم مَنْ كانَ يتقرَّبُ للأصنامِ بالذَّبحِ عندَها وإطعامِ الفقراءِ؛ ظنًّا منهُ أنَّ ذلكَ يُقرِّبُهُ إلى اللهِ سبحانَهُ، ومنهُم مَنْ كانَ يعملُ أعمالًا صالحةً مِنْ كفالةِ يتيمٍ أو إعانةِ مُحتاجٍ، ومنهُم مَنْ كانَ يعملُ غيرَ ذلكَ، وكلُّ ذلكَ لا ينفعُ يومَ القيامةِ؛ إذ لا ينفعُ يومئذٍ إلا ما كانَ أساسُهُ الإيمانَ والتَّوحيدَ، وأمّا ما عداهُ فهو كسرابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظَّمآنُ ماءً.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأعمالِ دونَ غيرِها:

بيان التَّجاوبِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ بينَ الآياتِ

اختيرَ لفظُ الأعمالِ دونَ غيرِه في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (فحَبِطَتْ أفعالُهم)، أو (فحَبِطَتْ صنائعُهم)؛ لما في لفظِ الأعمالِ مِنَ التَّناسبِ معَ قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ الَّذي افتُتِحَ به الحديثُ عنِ الأخسرينَ أعمالًا وصفاتِهم وأحوالِهم وعاقبةِ أمرِهم، فيكونُ بينَ الآياتِ تجاوبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ.

معنى الفاءِ في جملة ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾:

من طغا كفره في الأعمال فلا وزن له عند الله في المآل

تدلُّ الفاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ على السببية، أي: أنَّ عدم وجود اعتبار لهم يوم القيامة مُسبَّبٌ عمّا قبلَهُ، وهو قولُهُ علَتْ كلمتُهُ: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، وأنَّهُ مِنْ عواقبِه، أي: فتسبَّبَ عن حُبوطِ الأعمالِ أنّا لا نُقيمُ لهُم يومَ القيامةِ وزنًا؛ لأنَّ مدارَهُ الأعمالُ الصّالحةُ، وقد حَبِطَتْ أعمالُهم بالمرَّةِ[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾:

استمرارُ نفيِ إقامةِ الوزنِ لهُم، بيان لهوانهم عند خالقهم

عُبِّرَ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ في الفعلِ، وإذا دخلَ عليه النَّفيُ أفادَ استمرارَ انتفاءِ الفعلِ، والمعنى هنا: أنَّ عدمَ إقامةِ الوزنِ لهُم أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، قد حكمَ اللهُ بأنَّهُ لا تغييرَ لهُ، ولا رجوعَ عنهُ.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى الضَّمير الدّال على التَّعظيمِ في ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾:

الكفر منقصة وهوان عند الرّحمن ورسوله وعباده

إنْ كانَتْ نونُ المُتكلِّمِ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ راجعةً إلى ذاتِ اللهِ سبحانَهُ؛ فالنّونُ في ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ جاريةٌ على مُقتضى الظّاهرِ، وإنْ كانَتِ النّونُ راجعةً إلى الرَّسولِ ﷺ وإلى اللهِ تعالى، أو إلى الرَّسولِ ﷺ والمسلمينَ - فالنّونُ في ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ التفاتٌ عن قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، ومُقتضى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (فلا يُقيمُ لهُم)[1]، وأيًّا كانَ فالتَّعبيرُ بالنّونِ لإفادةِ التَّعظيمِ؛ لأنَّ عدمَ إقامةِ الوزنِ لهُم أمرٌ عظيمٌ صادرٌ عن ذي العظَمةِ والكِبْرياءِ المانعينَ مِن اعتراضِ أحدٍ عليه أو شفاعةِ أحدٍ عندَهُ بغيرِ إذنِه[2]، ومقامُ القيامةِ مقامُ تخويفٍ وتهويلٍ، والمُلْكُ فيه للّه الواحدِ القهّارِ، فيناسبُهُ إيرادُ الألفاظِ الدّالَّةِ على التَّفخيمِ والتَّهويلِ.

علَّةُ ذكرِ يومِ القيامةِ في السّياق:

إدخالُ الرَّوْعِ والمَهابةِ والارتياعِ بذكرِ يومِ الأهوالِ والأفزاعِ

التَّعرُّضُ لذكرِ يومِ القيامةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ لإثارةِ الرَّوْعِ والمَهابةِ في النُّفوسِ؛ لأنَّ هذا اليومَ يومٌ عظيمٌ هائلٌ كثيرُ الأهوالِ والأفزاعِ، فذكرُهُ يَبُثُّ الخوفَ والهَلَعَ في نفسِ السّامعِ، ويناسبُ مقامَ التَّهديدِ والوعيدِ وبيانِ سوءِ عاقبةِ مَنْ كفرَ باللّه ﷻ مالكِ يومِ الدّينِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 148.

نكتةُ تقديمِ ﴿لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على ﴿وَزۡنٗا﴾:

أثر البيان في تعجيل المَساءةِ ومراعاة الفاصلةِ

قُدِّمَ ﴿لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على ﴿وَزۡنٗا﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ لإفادةِ التَّقديمِ تعجيلَ المَساءةِ ببيانِ أنَّ عدمَ الإقامةِ أمرٌ مُتعلِّقٌ بهم، وإفادةِ الاختصاصِ ببيانِ أنَّهُ أمرٌ خاصٌّ بهِم، لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿وَزۡنٗا﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها.

الغرضُ من التعبير بعدم إقامة الوزن:

انتفاءُ حسناتِ الكفرة أكبر هوان عند ربّ الأكوان

قولُه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ يحتملُ أنْ يرادَ به أنَّهُ لا حسنةَ لهُم توزَنُ في موازينِ القيامةِ، ومَنْ لا حسنةَ لهُ فهو في النّارِ لا محالةَ[1]، ويحتملُ أنْ يُرادَ به المجازُ[2]؛ لأنَّ نفيَ إقامةِ الوزنِ يُستعمَلُ في عدمِ الاعتدادِ بالشَّيءِ، وفي حقارتِهِ؛ لأنَّ النّاسَ يَزِنونَ الأشياءَ المُتنافَسَ في مقاديرِها، وأمّا الشَّيءُ التّافهُ فلا يوزَنُ، فشُبِّهوا بالمُحقَّراتِ على طريقةِ المكنيَّةِ، وأُثبِتَ لهُم عدمُ الوزنِ تخييلًا[3].

ويحتملُ على الوجه الثّاني أنْ يكونَ في الكلامِ كنايةٌ، بجعلِ نفيِ إقامةِ الوزنِ لهُم كنايةً عن تحقيرِهم[4].

علَّةُ تنكيرِ لفظ ﴿وَزۡنٗا﴾:

التّنكيرُ مبين عن غاية الهوان في التّعبير

لمّا كانَ المقامُ لبيانِ حُبوطِ أعمالِ المشركينَ، وأنَّها لا تنفعُهم يومَ القيامةِ - جيءَ بالوزنِ مُنكَّرًا في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾؛ لإفادةِ التَّحقيرِ والتَّقليلِ، أي: فلا نُقيمُ لهُم وزنًا حقيرًا قليلًا فضلًا عمّا فوقَهُ.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 545، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 231.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 545، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 231.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 176.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحباطُ والتَّكفيرُ:

الإحباطُ إبطالُ الحسناتِ بالسَّيِّئاتِ، والتَّكفيرُ بعكسه

الفرقُ بينَ الإحباطِ والتَّكفيرِ: أنَّ الإحباطَ هو إبطالُ الحسناتِ بالسَّيِّئاتِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود: 16]، والتَّكفيرَ: إبطالُ السَّيِّئاتِ بالحسناتِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [محمد: 2][1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 21.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾

[الكهف: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بيانُ مآلِ الّذينَ حبطَتْ أعمالُهم، واستهزؤوا بالآيات والرّسل

هذه الآيةُ بيانٌ لمآلِ كفرِ الأخسرينَ أعمالًا وسائرِ معاصيهم إثرَ بيانِ مآلِ أعمالِهم المُحبَطةِ بذلكَ الكفرِ، كما دلَّ عليه قولُهُ جلَّ وتباركَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جزاءُ المُستهزئينَ بآياتِ الله ورُسُلِه من جنس عملهم

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن مآلِ الكَفَرةِ - وهو جهنَّمُ - مُبيِّنًا سببَهُ، فيقولُ: ذلكَ جزاؤُهم ومآبُهم جهنَّمُ؛ بسببِ كفرِهم باللّه جلَّت قُدرتُهُ، واستهزائِهم البالغِ بآياتِه الظّاهرةِ الواضحةِ، ورُسُلِه الكرامِ ذوي الكمالاتِ والفضلِ المُؤيَّدينَ منهُ جَلَّ جَلَالُهُ[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ هؤلاءِ الكفرةَ عكسوا القضيةَ، فانعكس أمرهم، وتعِسوا، وانتكسوا في العذاب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة مرجع الإشارةِ في لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وسر التعبير به:

الإشارةُ لمذكورٍ سابقٍ، أو لمُقدَّرٍ في الذِّهنِ يُفسِّرُهُ اللّاحق

إمّا أن تكونَ الإشارةُ إلى تركِ إقامةِ الوَزْنِ لهُم[4]، وإمّا أن تكونَ إلى جميعِ ما تقدَّمَ؛ مِنْ كفرِهم، وعَمَى أبصارِهم، وصَمَمِ آذانِهم، وكونِ النّارِ مُعدَّةً لهُم[5]، وإمّا أن تكونَ الإشارةُ إلى ما تقدَّمَ مِنْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 250، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 373، والمراغي، تفسير المراغي: 16/ 24.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 129، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 203.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 546.

(5) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 138.

وعيدِهم في قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، أي: ذلكَ الإعدادُ جزاؤُهم، وإمّا إلى مُقدَّرٍ في الذِّهنِ يدلُّ عليه السِّياقُ، على نحوِ استعمالِ ضميرِ الشَّأنِ معَ تقديرِ مبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (الأمرُ والشَّأنُ ذلكَ جزاؤُهم جهنَّمُ)[1]، وعلى القولِ برجوعِ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الوعيدِ المذكورِ في الآياتِ السّابقةِ يكون السرُّ في الإتيانِ باسمِ الإشارةِ إلى البعيدِ: أنَّهُ لمّا كانَ السّياقُ أوضحَ مِنَ الشَّمسِ في الدَّلالةِ على أنَّ لهُم جهنَّمَ قيلَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، أي: الأمرُ العظيمُ الَّذي بيَّنّاهُ مِنْ وعيدِهم جزاؤُهم جهنَّمُ[2]، وفيه تعظيمٌ لشأنِ المُشارِ إليه وتهويلِه.

تنوع إعراب ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ وثراء المعنى:

وجوه الإعراب متعانقةٌ في تأكيد استحقاقهم العذاب

قيلَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلكَ، وقولُهُ ﷻ ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ جملةٌ مُبيِّنةٌ لهُ[3]، والتَّقديرُ: (الأمرُ ذلكَ)، وتكونُ جملةُ (الأمرُ ذلكَ) جملةً مُقرِّرةً لما قبلَها، ولذلكَ اختيرَ الفصلُ[4]، وقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ، والجملةُ خبرُهُ، والعائدُ محذوفٌ، أي: جزاؤُهم بهِ، أو ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ بدلٌ من ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرُهُ، أو ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ خبرُ ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطفُ بيانٍ للخبرِ[5]، وعلى كلِّ وجه يكون معنى ليس في الوجه الآخر، وكل هذه المعاني متعانقة في تأكيد استحقاقهم العذاب.

وجهُ إضافةِ الجزاءِ إلى ضميرِ المشركينَ:

زيادةُ الحَسْرة والمَساءة لهم

أُضيفَ الجزاءُ إلى ضميرِ المشركينَ في قولِ اللهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ لزيادةِ حَسْرتِهم ومَساءتِهم ببيانِ أنَّ جعل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 149.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 177.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 250.

جهنَّمَ في مقابلةِ كفرِهم ومعاصيهم أمرٌ مُتعلِّقٌ بهِم، ومُلتصِقٌ بهِمُ التصاقَ المملوكِ بالمالكِ، فضلًا عمّا يوحي به التَّعبيرُ مِنْ أنَّ حصيلةَ سَعْيِهم هي جهنَّمُ لا غيرُها، عياذًا باللّه تعالى.

التوجيه النحوي للفظِ ﴿جَهَنَّمُ﴾:

إكسابُ الكلامِ قوَّةَ التَّأكيدِ، في التّعبير عن الوعيد

إنْ كانتِ الإشارةُ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ إلى ما تقدَّمَ مِنْ وعيدِهم في قولِه سبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، وكانَ قولُهُ: ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ خبرًا عنِ اسم الإشارة، فالمعنى: ذلكَ الإعدادُ جزاؤُهم، وقولُهُ: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدلٌ مُطابِقٌ مِنْ ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾؛ لأنَّ إعدادَ جهنَّمَ هو عينُ جهنَّمَ، وإعادةُ لفظِ جهنَّمَ أكسبَهُ قوَّةَ التَّأكيدِ[1]، إضافةً إلى ما في أسلوبِ البدلِ من الإجمالِ أوَّلًا والتَّفصيلِ ثانيًا، وما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ التَّشويق.

علةُ التقييد بشبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

عدلُ الله يقتضي أن يكون الجزاء على حسب العمل

الباءُ في قولِه علَتْ كلمتُهُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ للسَّببيَّةِ[2]، و(ما) مصدريَّةٌ[3]، والمعنى: ذلكَ جزاؤُهم جهنَّمُ بسببِ كفرِهم واستهزائِهم بآياتِ اللّه ورُسُلِه[4]، وفي ذكر السبب بيان لعدالة الحق سبحانه.

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

التَّنبيهُ على تحقُّقِ كفرِهم واستهزائِهم مفيد للغاية

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ كفرَ الأخسرينَ أعمالًا أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ منهُم، واصطبغَتْ به حياتُهم؛ لأنَّهم استمرّوا عليهِ، ولم يُخلِّصوا رِقابَهم مِنْ رِقِّه، فلَقوا اللّهَ به، وللدَّلالةِ على أنَّ استهزاءَهم بآياتِ اللّه ورُسُلِه أيضًا ممّا تحقَّقَ وثبتَ في الماضي.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 48.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 295، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 149.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 546، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 322.

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

وصل مساوئ أعمالهم لإقامة الحجّة عليهم

الأظهرُ أنَّ الواوَ في قولِه تبارك شأنُه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ عاطفةٌ لـ ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ على ﴿كَفَرُواْ﴾ في قولِه سبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾، فهو مِنْ صلةِ (ما) المصدريَّة[1]، فيكونُ الجزاءُ على مجموعِ أمرين: أحدُهما: كفرُهم، والثّاني: أنَّهم أضافوا إلى الكفرِ أن اتَّخذوا آياتِ اللّه ورُسُلَهُ هُزوًا، فلم يَقتصِروا على الرَّدِّ عليهم وتكذيبِهم حتَّى استهزؤوا بهم[2]، وجوَّزَ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، فلا يكونُ لقولِه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ مَحَلٌّ مِنَ الإعرابِ[3].

نكتةُ التعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ الاستهزاءَ عادتُهم ودَيْدَنُهم

تدلُّ صيغةُ الافتعالِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ على أنَّ الكَفَرةَ لم يَقتصِروا على مُجرَّدِ الاستهزاءِ بآياتِ اللّه ورُسُلِه، بل جَعَلوا ذلكَ عادةً ودَيْدَنًا لهُم، وصيَّروا الآياتِ والرُّسُلَ موضعَ استهزاءٍ دائمٍ لهُم، ولو أُريدَ مُجرَّدُ الاستهزاءِ لقيلَ: (واستهزؤوا بآياتي ورُسُلي).

سرُّ جمعِ لفظِ الآياتِ:

التّنبيهُ على استهزائِهم بجميعِ أنواعِ الآياتِ المرسلة إليهم

جمعُ الآياتِ في قولِه علَتْ كلمتُه: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ تنبيهٌ على أنَّ الكَفَرةَ قد استهزؤوا بآياتِ اللّه تعالى جميعًا؛ استهزؤوا بآياتِ الكونِ الدّالَّة على قُدرةِ اللّه وتوحيدِه، فلم يَعْتَبِروا بها، واستهزؤوا بآياتِ القُرآنِ والبَلاغِ مِنْ رُسُلِ اللّه - عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ - واستهزؤوا بآياتِ المُعجِزاتِ الَّتي أنزلَها اللّهُ لتأييدِ الرُّسُلِ، فلم يُصدِّقوها؛ فلفظُ الآياتِ هنا عامٌّ في هذه الأنواعِ[4]،

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 556، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 502.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 556.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9003.

وهذا الجمعُ يناسبُ مقامَ إقامةِ الحجَّةِ عليهم، وفيه تعريضٌ بأنَّهم أصرّوا واستكبَروا معَ أنَّ الآياتِ كثيرةٌ ومُتنوِّعةٌ.

سرُّ جمعِ لفظ الرُّسُلِ:

المرادُ حقيقةُ الجمعِ أوِ الواحدُ المُعظَّمُ في الآية الكريمة

يجوزُ أنْ يُرادَ بالرُّسُلِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ حقيقةُ الجمعِ، فيكونَ إخبارًا عن حالِ كفّارِ قُريشٍ ومَنْ سبقَهم مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ، ولأنَّ من كذَّب رسولًا واحدًا فقد كذَّب الرسل جميعًا، كما حكى اللّه عن قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، ويجوزُ أنْ يرادَ به الرَّسولُ الخاتمُ الَّذي أُرسِلَ إلى النّاسِ كلِّهم، وأُطلِقَ عليه اسمُ الجمعِ تعظيمًا، كما في قولِه تبارك وتعالى: ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ [إبراهيم: 44][1]، وعليه تكونُ الآيةُ إخبارًا عن حالِ كفّارِ قُريشٍ بالمقامِ الأوّلِ، والأقربُ الأوّلُ؛ لأنَّ الآيةَ تتحدَّثُ عن عُمومِ الكَفَرةِ، لا عن طائفةٍ مخصوصةٍ منهُم، والأصلُ حملُ صيغةِ الجمعِ على حقيقتِها.

سرُّ إضافةِ الآياتِ والرُّسُلِ إلى ضميرِ الجلالةِ:

تشريفُ الآياتِ والرُّسُلِ بنسبتها إلى اللّه الأكمل

في إضافةِ الآياتِ والرُّسُلِ إلى الضميرِ العائد على لفظ الجلالة في قولِ اللّه جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ تشريفٌ للآياتِ والرُّسُلِ، وتوبيخٌ للمشركينَ وتقبيحٌ لحالِهم؛ إذ استهزؤوا بما لا ينبغي الاستهزاءُ بِه، بل ينبغي تعظيمُهُ وتصديقُهُ، والمعنى: وبالَغوا في الاستهزاءِ بآياتي الظّاهرةِ الواضحةِ الَّتي هي معَ إنارتِها أَجَدُّ الجِدِّ وأبعدُ شيءٍ عنِ الهَزْلِ، وبرُسُلي المُؤيَّدينَ بباهرِ أفعالي، معَ ما لهُم مِنَ الكمالاتِ والفضلِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿هُزُوًا﴾:

الهُزُؤُ مصدرٌ بمعنى المفعولِ، وهو أشدُّ مبالغةً مِنَ الوصفِ باسمِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 149.

المبالغةُ في وصفِ استهزائِهم إبانة عن حقيقة حالهم

المفعولِ، فيدلُّ استعمالُهُ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ على أنَّ الكَفرةَ كانوا كثيري الاستهزاءِ بآياتِ اللّه ورُسُلِه[1]، ويُقوّي ذلكَ التَّعبيرُ بالاتِّخاذِ كما تقدَّم.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الثَّوابُ والجزاءُ:

الجزاءُ يُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ، والثَّوابُ أكثرُ استعمالِه في الخيرِ

أصلُ الثَّوبِ: رجوعُ الشَّيءِ إلى حالتِه الأولى الَّتي كانَ عليها، والثَّوابُ: ما يرجعُ إلى الإنسانِ مِنْ جزاءِ أعمالِه، فيُسمَّى الجزاءُ ثوابًا تصوُّرًا أنَّهُ هو هو، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: 7]، فقد جعلَ اللّهُ سبحانَهُ الجزاءَ نفسَ العملِ، ولم يقلْ: جزاءَهُ، والثَّوابُ يقالُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنَّ الأكثرَ استعمالُهُ في الخيرِ، وعلى هذا قولُهُ ﷻ: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ۝١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، والإثابةُ تُستعمَلُ في المحبوبِ، قالَ تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة: 85]، وقد قيلَ في المكروهِ: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ [آل عمران: 153]، وذلكَ على سبيلِ الاستعارةِ، والتَّثويبُ في القرآنِ لم يجئْ إلا في المكروهِ، نحوُ: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: 36][2]، وأمّا الجزاءُ فمعناهُ: قيامُ الشَّيءِ مقامَ غيرِه ومكافأتُهُ إيّاهُ[3]، وممّا وردَ في معنى النّيابةِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48][4]، والجَزاءُ: ما فيه الكِفايةُ مِنَ المُقابلةِ، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[5]، والحاصلُ أنَّ الثَّوابَ يعني إرجاعَ عاقبةِ العملِ إلى صاحبِه خيرًا كانَ أم شرًّا، وأمّا الجزاءُ فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.
(2) الراغب، المفردات: (ثوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 89.
(5) الراغب، المفردات: (جزي).

يعني إرجاعَ عاقبةِ العملِ إلى صاحبِهِ، بل يعني مجازاتَهُ بما يَنوبُ عنهُ ويقومُ مقامَهُ[1]، وكلٌّ منهما يُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّ استعمالَ الثَّوابِ في الخيرِ أكثرُ.

الاستهزاءُ والسُّخريَةُ:

السُّخريَةُ يسبقُها فعلٌ مِنَ المسخورِ منهُ، والاستهزاءُ لا يسبقُهُ مثل ذلك

فُرِّقَ بينَ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ: بأنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ به مِنْ غيرِ أنْ يَسبِقَ منهُ فعلٌ يُستهزَأُ به مِنْ أجلِهِ، وأمّا السُّخريَةُ فتدلُّ على فعلٍ يَسبِقُ مِنَ المسخورِ منهُ، ويدلُّ على ذلكَ أنَّكَ تقولُ: استهزأتُ بهِ، فتُعدّي الفعلَ منكَ بالباءِ، وهي للإلصاقِ، كأنَّكَ ألصقتَ به استهزاءً مِنْ غيرِ أنْ يَصدُرَ منهُ شيءٌ وقعَ الاستهزاءُ مِنْ أجلِهِ، وتقولُ: سَخِرْتُ منهُ، فيقتضي ذلكَ فعلًا وقعتِ السُّخريَةُ مِنْ أجلِهِ، كما تقولُ: تعجَّبتُ منهُ، فيدلُّ ذلكَ على فعلٍ وقعَ التَّعجُّبُ مِنْ أجلِهِ[2].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 88 - 89.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ذكرُ حالِ المؤمنينَ وجزائهم، بعدَ ذكرِ حالِ الكافرينَ وسوءِ مصيرِهم

لمّا فُرِغَ مِنْ ذكرِ حالِ الكَفَرةِ والأخسرينَ أعمالًا الضّالّينَ، وما أُعِدَّ لهُم مِنَ العذابِ والنَّكالِ؛ عُقِّبَ بذكرِ حالِ المؤمنينَ وما أُعِدَّ لهُم مِنَ النَّعيمِ؛ ليظهرَ التَّباينُ بينَ الفريقينِ، وفي هذا بَعْثٌ للنُّفوسِ على اتِّباعِ الحسنِ القويمِ، وترغيبٌ في الإيمانِ والعملِ الصّالحِ[1]، وهو جارٍ على عادةِ القرآنِ في ذكرِ البِشارةِ بعدَ الإنذارِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾: قيلَ: هو كلُّ بستانٍ، وقيلَ: إذا كانَ فيه نخلٌ وكَرْمٌ وماءٌ جارٍ، وإلّا فهو بستانٌ[3]، وقيلَ: هو الأوديةُ الَّتي تُنبتُ ضُروبًا مِنَ النَّبْتِ، وهو الوادي الخَصيبُ[4]، وقيلَ: هو البستانُ الَّذي يجمعُ كلَّ ما يكونُ في البساتينِ[5]، والمعنى المحوريُّ: اتِّساعٌ معَ اكتنازٍ بما هو طيِّبٌ[6]، والمرادُ به في قولِه تعالى: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾: أعلى درجاتِ الجنَّةِ وأوسطها[7].

المَعنى الإجماليُّ:

الفِردوسُ نُزُلُ المؤمنينَ الصّالحينَ في أعلى عليين

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن عبادِه السُّعَداءِ، وهم الَّذينَ آمَنوا باللهِ ورُسُلِه،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 214، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 546، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 502.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (فردوس).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (فردوس).
(5) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 315.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فردوس).
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.

وصدَّقوهم فيما جاؤوا به مِنْ عندِ اللّهِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ؛ بأنَّ لهُم جنّاتِ الفِرْدوسِ، وهي أفضلها منزلًا - وهي أعلى الجِنانِ وأوسطها - نُزُلًا مُعَدًّا لإكرامِهم مِنْ ذي الجلالِ والإكرام(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ العباد لو علموا بعضَ ذلك النَّعيم علمًا حقيقيًّا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبُهم بالأشواق، ولتقطَّعت أرواحُهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذّاتٍ منغصة متلاشية، ولم يفوِّتوا أوقاتًا تذهب ضائعةً خاسرة، يقابل كلُّ لحظة منها من النعيم من الحقب آلافًا مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت فكان، ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افتتاحِ الآيةِ بالتَّوكيدِ:

تـوكـيـدُ الآيــةِ لـلاهـتـمـامِ بها وتقويةِ البِشارةِ بمضمونها

تأكيدُ قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾؛ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّهُ جاءَ في مقابلةِ جملةِ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، وهي مُؤكَّدةٌ؛ كي لا يظنَّ ظانٌّ أنَّ جزاءَ المؤمنينَ غيرُ مُهتمٍّ بتأكيدِه، معَ ما في التَّأكيدينِ مِنْ تقويةِ الإنذارِ وتقويةِ البِشارةِ(3).

الغرضُ من التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الاهتمامُ بشأنِ أعمالِهم

جعلُ المسندِ إليه في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ الموصولَ بصلةِ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ؛ للاهتمامِ بشأنِ أعمالِهم(4)، وللإشارةِ إلى عليَّةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 203.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 49.

ما في حيِّزِ الصِّلةِ لفَوْزِهم بجنّاتِ الفِرْدوسِ، كأنَّهُ قيلَ: كانَتْ لهُم جنّاتُ الفِرْدوسِ نُزُلًا؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ مَدارَ استحقاقِ القُرْبِ والكراماتِ عندَ اللّه ﷻ هو الإيمانُ والعملُ الصّالحُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ وعملُ الصّالحاتِ منَ المُؤمنينَ الصّالحين

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الإيمانَ وعملَ الصّالحاتِ أمرانِ ثَبَتا وتحقَّقا منَ المؤمنينَ الفائزينَ بجنّاتِ الفِرْدوسِ، وأنَّ لهُم قَدَمَ صِدْقٍ وسَبْقٍ فيهما.

علَّةُ عطفِ عملِ الصّالحاتِ على الإيمانِ:

انطلاقُ العملِ الصّالحِ منَ الإيمانِ يعطيه قيمتَه عند الرّحمن

أردفَ الحقُّ ﷻ الإيمانَ بالعملِ الصّالحِ في قولِه علَتْ كلمتُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ العملَ الصّالحَ ينطلقُ منَ الإيمانِ ويَصدُرُ عنهُ[1]، ولأنَّ جمعَهم بينَ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ يجعلُهم على ضدِّ صفةِ مَنْ قبلَهم[2]، وهم الَّذينَ كَفَروا بآياتِ ربِّهم ولقائِه، وضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا، وحَبِطَتْ أعمالُهم، فتكونُ المقابلةُ بينَ الفريقينِ على أتمِّ وجهٍ وأكملِه، وقد جرَتْ عادةُ القُرآنِ الكريمِ بقَرْنِ الإيمانِ بالعملِ الصّالحِ في مقامِ الفَوْزِ والبِشارةِ.

سرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجمعِهِ:

بيانُ الإشارةِ إلى طَرْقِهم مُختلِفَ أبوابِ الخيرِ

في إيرادِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مجموعًا مُعرَّفًا بلامِ الجنسِ - إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمنينَ الفائزينَ بجنّاتِ الفِرْدوسِ قد كَثُرَتْ خُطاهم في طُرُقِ الخيراتِ، وطَرَقوا مُختلِفَ أبوابِ الأعمالِ الصّالحاتِ؛ مِنْ صيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ وكفالةِ يتيمٍ ونحوِ ذلكَ، ولم يَقتصِروا على

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9007.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 373.

عملٍ واحدٍ، فالصّالحاتُ أنواعٌ كثيرةٌ، وهم حَرَصوا على أنْ يكونَ لهُم منها على اختلافِها وتنوُّعِها أتمُّ النَّصيبِ وأوفاهُ، ولذلكَ أكرمَهم اللّهُ ﷻ بإنزالِهم في جنّاتِ الفِرْدوسِ الَّتي لا تكونُ إلّا لمَنْ علَتْ رُتْبَتُهُ، وحَسُنَ سَعْيُهُ في الحياةِ الدُّنيا، وتعريفُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في مِثلِ هذا المقامِ للاستغراقِ، وهو استغراقٌ عُرْفيٌّ يُحدَّدُ مِقْدارُهُ بالتَّكليفِ والاستطاعةِ والأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، ككونِ اجتنابِ الكبائرِ يغفرُ الصَّغائرَ، فيجعلُها كالعَدَمِ(1).

نكتةُ وصفِ الأعمالِ بالصَّلاحِ دونَ غيرِه:

بيانُ مقابلةِ حُبوطِ أعمالِ الكفّارِ بصلاحِ أعمالِ المؤمنينَ

اختيرَ وصفُ الصَّلاحِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ غيرِه ممّا توصَفُ به الأعمالُ كالطيِّباتِ مثلًا؛ لأنَّ نقيضَ الصَّلاحِ هو الفسادُ، فذكرُ الصَّلاحِ هنا أنسبُ بالمقابلةِ بينَ عملِ المؤمنينَ للصّالحاتِ وبينَ ما مرَّ مِنْ بُطلانِ أعمالِ المُشركينَ وفسادِها، كما دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

بلاغةُ الحذفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيجازُ بحذفِ الموصوفِ ملمحٌ في الإبانةِ معروف

حُذِفَ الموصوفُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولم يُقَلْ: (إنَّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ) إيجازًا، ولأنَّ الصّالحاتِ جمعُ صالحةٍ؛ وهي الفَعْلَةُ الحَسَنَةُ، وهي في الأصلِ صفةٌ جرَتْ مَجْرى الأسماءِ؛ لأنَّهم يقولونَ: (صالحةٌ) و(حَسَنَةٌ)، ولا يُقدِّرونَ موصوفًا محذوفًا(2).

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَانَتۡ﴾:

كلّ ما سبقَ مِنْ حُكْمِ الله ووَعْدِه واقع كما ذكره وقرَّره

قولُهُ ﷻ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾، أي: كانَتْ لهُم فيما سبقَ مِنْ حُكْمِ اللّه تعالى ووَعْدِه(3)، فالمُضيُّ باعتبارِ ما ذُكِرَ، وفيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 352.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 352.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.

دلالةٌ على أنَّ استحقاقَهم الجنّاتِ أمرٌ مُستقِرٌّ مِنْ قبلُ مُهيًّأً لهُم[1]، وفيه أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ أثرَ الرَّحمةِ يصلُ إليهم بمقتضى الرَّأفةِ الأَزَليَّةِ، بخلافِ جعلِ جهنَّمَ للكافرينَ نُزُلًا؛ فإنَّهُ بموجَبِ ما حدثَ مِنْ سوءِ اختيارِهم[2]، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ ما وُعِدوا به لتحقُّقِه نُزِّلَ منزلةَ الماضي، فجيءَ بـ ﴿كَانَتۡ﴾ إشارةً إلى ذلكَ، ويكونُ استعارةً تبعيَّةً[3].

نكتةُ عدمِ ذكرِ (أعتَدْنا) للمؤمنينَ مقابلَ ذكرِه للكافرين:

ما في الجنّاتِ مِنَ النَّعيمِ في ازديادٍ متزايد عظيم

قيلَ في حقِّ المؤمنينَ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾، ولم يُقَلْ: (أعتَدْنا لهُم جنّاتِ الفِرْدوسِ نُزُلًا) كما قيلَ في حقِّ الكافرينَ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ أمرَ الجنّاتِ لا يكادُ يَتِمُّ، بل لا يزالُ ما فيها يزدادُ؛ فإنَّ إعتادَ الشَّيءِ وتهيئَتَهُ يقتضي تماميَّةَ أمرِه وكمالَهُ، وقيلَ: التَّعبيرُ بما ذُكِرَ أظهرُ في تحقُّقِ الأمرِ مِنَ التَّعبيرِ بالاعتيادِ؛ لأنَّهُ قد تُهيَّأُ دارٌ لشخصٍ ولا يَسْكُنُها[4].

معنى اللّامِ ودلالتها في جملة ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾:

السّياق يبرز استحقاقهم، جنّاتِ الفِرْدوسِ الّتي فيها مقامهم

اللّامُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ هي لامُ الاستحقاقِ، وقد جيءَ بها؛ تكريمًا لهُم بأنَّهم نالوا الجنَّةَ باستحقاقِ إيمانِهم وعملِهم، وذلك كقولِه سبحانَهُ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزّخرف: 72][5]، وقيلَ: اللّامُ للاختصاصِ، أي: أنَّهم مُختصّونَ بها، وهي لهُم، وذلكَ يدلُّ على تأكيدِ الجزاءِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 50.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 250، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 369.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 177.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 369.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 50.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4598.

غرض تقديمِ شبه الجملة: ﴿لَهُمۡ﴾:

تعجيلُ المَسرَّة والبِشارة، من بيان المعنى في العبارة

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾، في قولِه ﷻ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾؛ لتعجيلِ المَسرَّةِ والبِشارةِ للَّذين آمَنوا وعَملوا الصّالحاتِ؛ لأنَّ السّامعَ إذا سمعَ قولَهُ: ﴿لَهُمۡ﴾ بعدَ هذين الوصفين الدّاخلين في حيِّزِ الموصولِ، عَلِمَ بدلالةِ لامِ الاستحقاقِ أنَّ ثمَّةَ شيئًا يستحقّونَهُ بإيمانِهم وعملِهم الصّالحِ، فتسري البِشارةُ في نفسِه، ويتشوَّقُ إلى معرفةِ ما تفضَّلَ اللّهُ ﷻ عليهم به بمنِّه وكرمِه.

سرُّ الجمعِ في ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾:

الدَّلالةُ على سَعَةِ جنّاتِ الفِردوس، وتنوُّعِ خيرِها ومراتبِها

التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ لوجوهٍ:

منها: اشتمالُ الفِردوسِ على المراتبِ الكثيرةِ[1]، ومنها: الدَّلالةُ على كثرةِ فضلِها، وتنوُّعِ خيرِها وتعدُّدِه[2]، ومنها: الإيماءُ إلى سَعَةِ نعيمِهم، وأنَّها جنانٌ كثيرةٌ[3].

وجهُ إضافةِ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾:

الإضافةُ البيانيَّةُ ذات أثرٍ بليغ في سياق الآية الكريمة

الظّاهرُ أنَّ إضافةَ الجنّاتِ إلى الفِردوسِ في قولِ اللّه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ بيانيَّةٌ، أي: جنّاتٌ هي مِنْ صنفِ الفِردوسِ[4]، ويحتملُ أنْ تكونَ الإضافةُ مِنْ إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ[5].

دلالة التَّعبير بالنُّزُلِ في سياق الآية الأكمل:

المرادُ ما يُعَدُّ للضَّيفِ أو موضعُ النُّزولِ

يحتملُ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِ اللّه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ أنْ يكونَ بمعنى موضعِ النُّزولِ، ويحتملُ أنْ يكونَ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 177.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4598.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 50.
(4) السمين، الدر المصون: 7/ 559، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 177، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 50.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 177.

بمعنى ما يُعِدُّهُ الإنسانُ لإكرامِ ضَيْفِهِ[1]؛ مِنَ الإقامةِ ومُقوِّماتِ الحياةِ وتَرَفِها، والإنسانُ حينَما يُعِدُّ النُّزُلَ لضَيْفِه يُعِدُّهُ على حسَبِ قُدراتِه وعلمِه بالأشياءِ، فما بالُكَ إنْ كانَ المُعِدُّ للنُّزُلِ هو ربُّ العالمينَ؟[2].

بلاغةُ تنكيرِ لفظ ﴿نُزُلًا﴾:

التَّنكيرُ لتفخيمِ هذا النُّزل وتعظيمِه

لمّا كانَ المقامُ مقامَ بشارةٍ وإخبارٍ عن سَعَةِ ما أعدَّهُ اللّهُ - ﷻ - لعبادِه المؤمنينَ الصّالحينَ - جيءَ بلفظِ ﴿نُزُلًا﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ مُنكَّرًا؛ لإفادةِ تعظيمِ شأنِ هذا النُّزُلِ وتفخيمِه؛ لأنَّ فيه مِنْ وجوه النَّعيمِ والإكرامِ ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ.

---

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 556.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9008.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

تمامُ السُّرورِ بالنَّعيمِ دوامُهُ وتواصلُه بلا انقطاع

لمّا ذكرَ ﷻ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ أنَّ جنّاتِ الفِردوسِ نُزُلٌ لأهلِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ - عقَّبَ في هذه الآيةِ ببيانِ أنَّ إقامتَهم في هذه الجنّاتِ أبَديَّةٌ، وذلكَ مِنْ تمامِ السُّرورِ وقُرَّةِ العَيْنِ بالنَّعيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾: (بغي) أصلانِ؛ أحدُهما: جنسٌ مِنَ الفسادِ، والثّاني: طلبُ الشّيءِ، فمِنَ الأوَّلِ قولُهم: بَغَى الجُرْحُ، إذا ترامَى إلى فسادٍ، ومِنَ الثّاني قولُكَ: بَغَيْتُ الشَّيءَ أَبْغيه، إذا طلبتَه، ويقالُ: بَغَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا طلبتُه لكَ، والبُغْيةُ: الحاجةُ[1]، وأبغيْتُكَ: أعَنْتُكَ على طلبِه، والابتغاءُ: الاجتهادُ في الطَّلبِ، فمتى كانَ الطَّلبُ لشيءٍ محمودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ، نحوُ: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28][2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾: لا يُريدونَ، لا يَطلُبونَ.

2) ﴿حِوَلٗا﴾: (حول) أصل يدل على تحرُّكٍ في دَوْرٍ[3]، وعُدول جِرْمِ الشَّيءِ عن مكانِه أو اتِّجاهِه المعتادِ[4]، وتغيُّر الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه[5]، فالحَوْلُ: العامُ؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يَدورُ، ويقالُ: حالَتِ الدّارُ وأحالَتْ وأحولَتْ: أتى عليها الحَوْلُ، وأحوَلْتُ بالمكانِ، وأَحَلْتُ: أقمتُ به حَوْلًا، وحالَ الشَّخصُ يَحولُ، إذا تحرَّكَ، وكذلكَ كلُّ مُتحوِّلٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(2) الراغب، المفردات: (بغي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حول).
(5) الراغب، المفردات: (حول).

عن حالةٍ[1]، وحوَّلتُ الشَّيءَ فتحوَّلَ: غيَّرتُهُ إمّا بالذّاتِ، وإمّا بالحُكم والقولِ، ومنهُ أَحَلْتُ على فلانٍ بالدَّينِ، والحَوْلُ: ما للإنسانِ مِنَ القوَّةِ في حالةٍ بالنِّسبةِ إلى تغيُّرِه في نفسِه وفَنائِهِ[2]، وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي: تحوُّلًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا مَطْمَحَ لنفوسِ أهلِ جنّاتِ الفِرْدوسِ في غيرِها

يُخبِرُ اللهُ ﷻ عن حالِ أهلِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ بأنَّهم يكونونَ مقيمينَ ساكنينَ في جنّاتِ الفِرْدوسِ، لا يَظْعَنونَ عنها أبدًا، ولا يختارونَ غيرَها، ولا يُحِبّونَ سِواها؛ لأنَّها جمعَتْ كلَّ حُسْنٍ، وحازَتْ كلَّ وصفٍ[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى تمام نعيم أهل الجنة، وأنَّ فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع، ولا يرون نعيمًا فوق ما هم فيه[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سر التقييد بالحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

أثر الحال في الإبانة عن مصير المؤمنين إلى خير مآل

﴿خَٰلِدِينَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مُقدَّرةٌ[6]، أي: مُقدَّرًا خُلودُهم فيها، وذو الحالِ الضَّميرُ المجرورُ في ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾[7]، وقد ذكر الخُلودَ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾؛ لأنَّ خُلودَ النَّعيمِ في الآخرةِ يُميِّزُهُ عن نعيمِ الدُّنيا، كما أنَّ نعيمَ الدُّنيا يأتي على قَدْرِ تصوُّرِنا في النَّعيمِ وعلى حسَبِ قدراتِنا، وحتَّى إنْ بلَغْنا القِمَّةَ في التَّنعُّمِ في الدُّنيا فإنَّنا على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (حول).
(3) الراغب، المفردات: (حول).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 204.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.
(7) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 178.

خوفٍ دائم مِنْ زوالِه، فإمّا أنْ يتركَكَ النَّعيمُ، وإمّا أنْ تتركَهُ، وأمّا في الجنَّةِ فالنِّعمةُ خالدةٌ، لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، وأنتَ مُخلَّدٌ فيها، فلن تتركَكَ النِّعمةُ، ولن تتركَها(1).

جنّاتُ الفِرْدوسِ مكانُ الخُلودِ، وموئلُ العبادِ للنّعيمِ غيرِ المحدودِ

معنى حرفِ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾:

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، ويفيدُ أنَّ جنّاتِ الفِرْدوسِ هي مكانُ خُلودِهم وتلذُّذِهم بألوانِ النَّعيم.

بيانُ استمرارِ انتفاءِ طلبهم في التحولِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾:

مَنْ حَظيَ بالنَّعيمِ المُقيم، لا تُنازِعُهُ نفسُهُ إلى التَّحوُّلِ والزَّوالِ عنهُ، ولذلكَ جيءَ بالمضارعِ المنفيِّ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾؛ لبيانِ أنَّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ بعدَما منَّ اللّهُ ﷻ عليهِم بالنَّعيمِ والخُلودِ، يستمرُّ انتفاءُ رغبتِهم في التَّحوُّلِ والانتقالِ عمّا هم فيه، وهو مَحَلُّ السُّرورِ والحُبورِ وألوانِ المكرماتِ.

الإيجازُ واختيارُ اللَّفظِ الأنسبِ بحالِ أهلِ الجنَّةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ دونَ (لا يبتغونَ):

عُبِّرَ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ بـ ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (لا يبتغونَ)؛ إيجازًا باختيارِ اللفظِ الأقلِّ حروفًا، ولأنَّ الابتغاءَ هو الاجتهادُ في الطَّلبِ(2)، وأهلُ الجنَّةِ لا يُتصوَّرُ في حقِّهمُ الاجتهادُ في طلبِ التَّحوُّلِ والزَّوالِ عمّا هم فيه ليُنفى عنهُم، ولذلكَ نُفيَ عنهُم أصلُ الطَّلبِ دونَ الاجتهادِ فيه.

ملمحُ الاهتمامِ والتَّشويقِ، ومراعاةِ الفاصلةِ، مفيدٌ في البيانِ

الغرضُ من تقديمِ شبه الجملة ﴿عَنۡهَا﴾ على ﴿حِوَلٗا﴾:

قُدِّمَ ﴿عَنۡهَا﴾ على ﴿حِوَلٗا﴾ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾؛ للاهتمامِ بكونِ عدمِ طلبِهم مُتعلِّقًا بها، فإذا قيلَ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا﴾ تشوَّقَ السّامعُ إلى معرفةِ الأمرِ الَّذي لا يبغونَهُ عنها،

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9008.

(2) الراغب، المفردات: (بغي).

فإذا وردَ عليه بعدَ ذلكَ تمكَّنَ في نفسِه فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿حِوَلًا﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾:

التَّركيبُ مِنْ قَبيلِ الكنايةِ، وهو مسفر عن المعنى المراد

الحِوَلُ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾: التَّحوُّلُ، والظّاهرُ أنَّ المعنى: أنَّهُ لا مزيدَ عليها حتَّى تُنازِعَهم أنفُسُهم إلى أرفعَ منها، وهذه غايةُ الوصفِ؛ لأنَّ الإنسانَ في الدُّنيا في أيِّ نعيمٍ كانَ فهو طامحُ الطَّرْفِ إلى أرفعَ منهُ[1]؛ لأنَّ طولَ الإقامةِ قد يورِثُ السَّآمةَ، بل هم في غايةِ الرِّضا بها؛ لما فيها مِنْ أنواعِ المَلاذِّ الَّتي لا حصرَ لها ولا انقضاءَ، لا يشتهي أحدٌ منهُم غيرَ ما عندَهُ[2]، فيكونُ قولُهُ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ كنايةً عن كونِها أعلى المنازلِ وأطيبَها عندَهم[3]، ويجوزُ أنْ يُرادَ نفيُ التَّحوُّلِ وتأكيدُ الخُلودِ[4]، كأنَّهُ قيلَ: خالدينَ فيها غيرَ مُتحوِّلينَ عنها[5]؛ فإنَّ عدمَ طلبِ الانتقالِ مُستلزِمٌ للبقاءِ، فيُؤكِّدُهُ[6].

علَّةُ التَّعريضِ في ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾:

طلبُ الكفّارِ الخروجَ مِنَ النّارِ مفاده أنَّ الشَّيءَ بالشَّيءِ يذكر

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ فيه أنَّ المؤمنينَ لا يَبْغونَ التَّحوُّلَ عمّا هم فيه مِنَ النَّعيمِ وألوانِ المَلَذّاتِ، وهو تعريضٌ بالكَفَرةِ في أنَّهم يصطرخونَ في النّارِ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا﴾ [المؤمنون: 107]، وذلكَ عكسُ ما كانَ في الدُّنيا مِنْ رُكونِ الكفّارِ إليها، ومحبَّتِهم طولَ البقاءِ فيها، وعُزوفِ المؤمنينَ عنها، وشوقِهم إلى ربِّهم بمفارقتِها[7]، فسُبْحانَ مُغيِّرِ الأحوالِ!

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 750.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 204، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 150.
(3) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 139.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 750.
(5) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 178.
(6) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 139.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 149.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَغْيُ والابتغاءُ:

البَغْيُ يُستعمَلُ في الطَّلبِ، نحوُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ: طلبتُه، ويُستعمَلُ في تجاوزِ الحدِّ، نحوُ: بَغَى الجُرْحُ: تجاوزَ الحدَّ في فسادِه، وأمّا الابتغاءُ فخُصَّ بالاجتهادِ في الطَّلبِ، ومتى كانَ الطَّلبُ لشيءٍ محمودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ، نحوُ: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28][1].

البَغْيُ يُستعمَلُ في الطَّلبِ وتجاوزِ الحدِّ، والابتغاءُ خاصٌّ بالاجتهادِ في الطَّلبِ

(1) الراغب، المفردات: (بغي).

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

التَّنبيهُ على كمالِ اللهِ وعُلوِّه، وأنَّه لا نهاية لإحاطته وسموّه

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها مِنْ آياتِ السّورةِ وجوهٌ:

أحدُها: أنَّهُ سبحانَهُ لمّا ذكرَ في هذه السّورةِ أنواعَ الدَّلائلِ والبيِّناتِ، وشرحَ أقاصيصَ الأوَّلينَ؛ نبَّهَ على كمالِ حالِ القرآنِ، فقالَ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ الآيةَ[1].

والثّاني: لمّا تمَّ الجوابُ عن أسئلتِهم على أحسنِ الوجوه مُخلَّلًا بالحُجَجِ البيِّنةِ المُلزِمةِ لهُم بفصلِ النِّزاعِ، وأُتبِعَ ذلكَ بقَصِّ الأمرِ الَّذي بإغفالِه تجرَّؤوا على الكفرِ، وهو أمرُ البعثِ، إلى أنْ ختمَهُ بما يقتضي أنَّ معلوماته لا تُحَدُّ؛ لأنَّ مقدوراته في تنعيمِ أهلِ الجنَّةِ لا آخِرَ لها فلا تُعَدُّ[2].

والثّالثُ: لمّا ابتُدِئَتِ السّورةُ بالتَّنويه بشأنِ القُرآنِ، ثمَّ أُفيضَ فيها مِنْ أفانينِ الإرشادِ والإنذارِ والوعدِ والوعيدِ، وذُكِرَ فيها مِنْ أحسنِ القصصِ ما فيه عِبرةٌ وموعظةٌ، وما هو خفيٌّ مِنْ أحوالِ الأُمَمِ؛ حوِّلَ الكلامُ إلى الإيذانِ بأنَّ كلَّ ذلكَ قليلٌ مِنْ عظيمِ علمِ اللّٰهِ تعالى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِدَادٗا﴾: (مدد) جَرُّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالُ شيءٍ بشيءٍ في استطالةٍ[4]، فيزيدُهُ طولًا واستمرارًا أو قَدْرًا[5]، ومِنْ ذلكَ: مَدَدْتُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 503، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 375.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 150.
(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 16/ 51.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).

الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومدَّ النَّهَرَ نَهَرٌ آخرُ: زادَ فيه وواصلَهُ، وأمدَدْتُ الجيشَ بمددٍ، ومَدَدْتُ الإبلَ مَدًّا: أسقيتُها الماءَ بالدَّقيقِ أو بشيءٍ تُمِدُّهُ به، والمِدادُ: ما يُكتَبُ به؛ لأنَّهُ يُمَدُّ بالماءِ ونحوِهِ[1]، ورجلٌ مَديدُ القامةِ، أي: طويلُ القامةِ[2]، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾، أي: زيادةً[3].

2) ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾: (كلم) أصلانِ: أحدُهما يدلُّ على جِراحٍ، والآخرُ يدلُّ على نُطْقٍ مُفهِمٍ، فمِنَ الأصلِ الأوَّلِ: رجلٌ كَليمٌ، وقومٌ كَلْمى، أي: جَرْحى[4]، ومِنَ الأصلِ الثّاني: كلَّمَهُ تكليمًا: حدَّثَهُ، والكَلِمةُ: اللَّفظةُ الواحدةُ، ويجمعونَ الكلمةَ: كَلِماتٍ وكَلِمًا، قالَ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46][5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾: كلامُ اللّٰه من علمه وحُكْمه، وما أوحاه إلى ملائكته ورسله.

3) ﴿لَنَفِدَ﴾: (نفد) أصلٌ يدلُّ على انقطاعِ الشَّيءِ وفنائه، وأنفدَ القومُ: فنيَ زادُهم، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ [ص: 54]، ويُقالُ للخَصْمِ مُنافِدٌ، وذلكَ أنْ يَتَخاصَمَ الرَّجُلانِ يُريدُ كُلٌّ منْهُما إنْفادَ حُجَّةِ صاحِبِهِ[6]، ومعنى قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾[7]، أي: لَفَنيَ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلماتُ الله الكونيةُ والشرعيةُ غيرُ متناهيةٍ

يُخبرُ اللّٰهُ ﷻ عن سَعَةِ علمِه، فيأمرُ نبيَّهُ ﷺ قائلًا لهُ: قلْ - أيها الرسول - لو كانَ ماءُ البحرِ مدادًا للأقلامِ الَّتي تُكتَبُ بها كلماتُ ربّي الشرعية وهي ما أوحاه إلى رسله، وكلماتُ اللّٰه الكونية وهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدد).
(2) الجوهري، الصحاح: (مدد).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (مدد)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نفد)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفد).
(7) الراغب، المفردات: (نفد).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (نفد).

ما قضى به قدرُه وآياتُه الدّالَّةُ عليه؛ لفَرَغَ البحرُ قبلَ أنْ يُفرَغَ مِنْ كتابةِ ذلكَ، ولو جِئْنا بمِثْلِ البحرِ آخرَ ثمَّ آخرَ، وهَلُمَّ جرًّا لَما نَفِدَتْ كلماتُ اللّهِ(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ هذا الوصفَ من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأنَّ هذه الأشياءَ مخلوقةٌ، وجميعُ المخلوقات منقضيةٌ منتهية، وأمّا كلامُ اللّه فإنه من جملة صفاته، وصفاتُه ﷻ غير مخلوقة، وليس لها حدٌّ ولا مُنتهى، فأيُّ سَعة وعظمة تصوَّرتها القلوبُ فاللّهُ فوق ذلك، وهكذا سائرُ صفات اللّه تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جَمَع علمَ الخلائقِ من الأولين والآخرين، أهلُ السماواتِ وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم تعالى، أقلَّ من نسبة عُصفور وقعَ على حافَة البحر، فأخذ بمِنقاره من البحر بالنِّسبة للبحر وعظمته؛ ذلك بأنَّ اللّه له الصفاتُ العظيمةُ الواسعةُ الكاملة(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

التَّنويهُ بعلم اللّه تعالى، وردُّ عَجُزِ السّورة على صَدْرِها

قولُه جلَّ وتبارَكَ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ الآيةَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو انتقالٌ إلى التَّنويه بعِلم اللّه تعالى مُفيضِ العِلم على رسوله ﷺ لأنَّ المشركينَ لمّا سألوهُ عن أشياءَ يظنّونها مُفحِمةً له ﷺ علَّمَهُ اللّهُ إيّاها، وأخبرَ عنها وبيَّنَها بأقصى ما تقبلُه أفهامُهم، وكان آخِرُها خبرَ ذي القرنين، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بما يُعلَمُ منهُ سَعَةُ علم اللّه تعالى، وسَعَةُ ما يَجْري على وفْقِ علمِه مِنَ الوَحْيِ إذا أرادَ إبلاغَ بعضِ ما في علمِه إلى أحدٍ مِنْ رُسُلِه، وفي هذا ردُّ لعَجُزِ السّورةِ على صَدْرِها(3).

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 204.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 51.

الغرض من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ إخبارَ النَّبيِّ ﷺ بوَحْيٍ مِنَ الله تعالى

في الإتيانِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ إنَّما يأتي بما يأتي به بوَحْيٍ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، ولا سيَّما وقد تضمَّنتِ السّورةُ الإجابةَ عن أسئلةِ المشركينَ لهُ ﷺ الَّتي سألوهُ عنها على سبيلِ الامتحانِ والتَّعجيزِ، فهذه الأجوبةُ أيضًا بوَحْيٍ منهُ ﷻ، فتتجاوبُ هذه الآيةُ مَعَ الآياتِ الأُخَرِ الَّتي تضمَّنَتْ هذا الفعلَ، كقولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الكهف: 29]، وقولِه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾ [الكهف: 83]، وقولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾، إضافةً إلى ما في الأمرِ بالقولِ مِنَ التَّنبيه على أهمّيَّةِ الكلامِ المَقولِ، واعتناءِ المتكلِّمِ به.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَّوۡ﴾:

الكلامُ مبنيٌّ على الفَرْضِ والتَّقديرِ

﴿لَّوۡ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ[1]، والكلامُ مبنيٌّ على الفَرْضِ والتَّقديرِ؛ لأنَّ البحرَ ليسَ ممَّا يُكتَبُ به، ونَفادُ البحرِ ممكنٌ عقلًا، وأمّا نَفادُ كلماتِ اللهِ بمعنى تعلُّقاتِ علمِه فمستحيلٌ، ولكنْ لمّا بُنِيَ الكلامُ على الفَرْضِ والتَّقديرِ كانَ المعنى: لو كانَ البحرُ مِدادًا لكلماتِ ربّي، وكانَتْ كلماتُ ربّي ممّا يَنْفَدُ - لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ كلماتُ ربّي[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَانَ﴾ و﴿لَنَفِدَ﴾:

﴿لَوْ﴾ للشَّرطِ في الماضي

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾؛ لأنَّ ﴿لَّوۡ﴾ للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 107.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 53.

الشَّرطِ في الماضي، ولذلكَ كانَتْ جملتا الجزاءِ والشَّرطِ معَها ماضيتين، ولا تدخلُ على المضارعِ إلّا لنكتةٍ[1].

معنى اللّامِ في ﴿ٱلْبَحْرُ﴾:

المرادُ بالبحر الجنسُ الاستغراقيُّ

المرادُ بالبَحْرِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ الجنسُ الاستغراقيُّ، أي: جميعُ البِحارِ لا بَحْرٌ واحدٌ، والمعنى: لَنَفِدَ البَحْرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ الكلماتُ، ولو جِئْنا بمِثْلِ البَحْرِ مِدادًا لَنَفِدَ أيضًا والكلماتُ غيرُ نافدةٍ[2]، وتقريرُ الكلامِ: أنَّ البِحارَ كيفَما فُرِضَتْ في الاتِّساعِ والعظَمةِ فهي مُتناهيةٌ، ومعلوماتُ اللهِ غيرُ مُتناهيةٍ، والمُتناهي لا يَفي بغيرِ المُتناهي[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمفردِ دونَ الجمعِ في ﴿ٱلْبَحْرُ﴾:

استغراقُ المفردِ أشملُ مِنِ استغراقِ الجمعِ

لمّا كانَتْ لامُ ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ في قولِه جلَّتْ كلمتُه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ للجنسِ والاستغراقِ؛ عُبِّرَ بصيغةِ الإفرادِ، ولم يُقَلْ: (لو كانتِ البِحارُ ... لَنَفِدَتِ البِحارُ)؛ لأنَّ استغراقَ المفردِ أشملُ مِنِ استغراقِ الجمعِ[4].

دلالةُ صيغةِ (فِعالٍ) في ﴿مِدَادًا﴾:

الصّيغةُ مِنْ صِيَغِ الآلةِ

المِدادُ في قولِه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ ما يُكتَبُ بِه، وهو في الأصلِ اسمٌ لما يُمَدُّ به الشَّيءُ، أي: يُزادُ به على ما لديهِ؛ كالحِبْرِ للدَّواةِ، والسَّليطِ للسِّراجِ[5]؛ لأنَّ وضْعَ فِعالٍ لما يُفعَلُ به كالآلةِ[6].

معنى اللّامِ في شبه الجملة: ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾:

اللّامُ في ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾ مِنْ قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا

---

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 281 - 283.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 750، والخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 139.

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 503.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 179.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 53.

(6) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 139.

﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لامُ العلَّةِ، أي: لأجلِ كتابةِ كلماتِ ربّي[1]، ولربط الأمر بعلته إقناع.

اللّامُ لامُ العلَّةِ، وهي دقيقة في السّياق المحكم

بلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾:

الإيجازُ بحذفِ المُضافِ من بيان السّياق البليغ

في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ إيجازٌ بحذفِ المضافِ، والتَّقديرُ: (لكتابةِ كلماتِ ربّي)، ودليلُ الحذفِ أنَّ المِدادَ يُرادُ للكِتابةِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بجمعِ القِلَّةِ في ﴿لِّكَلِمَٰتِ﴾:

الإشـــارةُ إلى كـثرةِ معلوماتِه سبحانَهُ

لمّا دلَّ قولُهُ ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ على أنَّ كلماتِه جل شأنه لا تتناهى؛ لأنَّ معلوماتِه ومقدوراته لا تتناهى - عُبِّرَ بجمعِ القلَّةِ في ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾؛ إشارةً إلى أنَّ قليلَها بهذه الكثرةِ، فكيفَ بما هو أكثرُ منهُ؟! وذلكَ أمرٌ لا يدخلُ تحتَ وصفٍ[3]، أي: إذا كانَ حكمُ الكلماتِ في هذه المَنزلةِ فما ظنُّكَ بالكَلِم؟[4].

بلاغةُ المجازِ في ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾:

في الكلامِ مجازٌ مُرسَلٌ واستعارةٌ مكنيَّةٌ

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ ضُروبٌ مِنَ المجازِ، بيانُ ذلكَ: أنَّ كلماتِ اللّه ما يدلُّ على شيءٍ مِنْ علمِه ممّا يوحي إلى رُسُلِه أنْ يُبلِّغوهُ، فكلُّ معلوم يمكنُ أنْ يُخبَرَ بهِ، فإذا أُخبِرَ به صارَ كلمةً، ولذلكَ يُطلَقُ على المعلوماتِ كلماتٌ؛ لأنَّ اللّهَ أخبرَ بكثيرٍ منها، فإطلاقُ الكلماتِ عليها مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ المآلِ، ولمّا كانَ شأنُ ما يُخبِرُ به الرُّسُلُ أنْ يُكتَبَ؛ حرصًا على بقائه في الأمَّةِ - شُبِّهَتْ معلوماتُ اللّه المُخبَرُ بها والمُطلَقُ عليها كلماتٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 53.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 152.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 180.

بالمكتوباتِ، ورُمِزَ إلى المشبَّه به بذكرِ ما هو مِنْ لوازمِه - وهو المِدادُ الَّذي به الكتابةُ - على طريقةِ المكنيَّة، وإثباتُ المِدادِ تخييلٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ هنا تشبيهُ كلماتِ اللهِ بالسِّراجِ المُضيءِ؛ لأنَّهُ يهدي إلى المطلوبِ، ويكونُ المِدادُ تخييلًا بالزَّيتِ الَّذي يُمَدُّ به السِّراجُ[1].

سر إضافةِ الكلمات إلى الرب مرتين:

تفخيمُ المضافِ وتشريفُ المضافِ إليه

إضافةُ الكلماتِ إلى اسم الرَّبِّ المضافِ إلى ضميره ﷺ في الموضعينِ في قولِه علَتْ كلمتُهُ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، وفي قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لتفخيم شأنِ المضافِ وتشريفِ المضافِ إليه[2]، إضافةً إلى ما يُنبِئُ عنهُ لفظُ الرَّبِّ مِنَ الإنعامِ والإحسانِ، أي: المُحسِنِ إليَّ في وصفِ ما ذُكِرَ وغيرِهِ[3]، وقد زادَ هذه الإضافةَ بهاءً وجمالًا تكرارُ لفظِ الرَّبِّ وإظهارُهُ في موضعِ الإضمارِ، حيثُ قيلَ: ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾، ولم يُقَلْ: (كلماتُه)[4].

معنى اللّامِ ودلالتها في ﴿لَنَفِدَ﴾:

اللّامُ للتَّسويفِ واقعةٌ في جوابِ (لَوْ)

لامُ ﴿لَنَفِدَ﴾ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ واقعةٌ في جوابِ ﴿لَّوۡ﴾، وجوابُها إذا كانَ مُثبَتًا فاقترانُهُ باللّامِ هو الغالبُ، وسُمّيَتْ هذه اللّامُ بلامِ التَّسويفِ؛ لأنَّ وجودَها يفيدُ التَّراخيَ في الجوابِ، وحذفُها يفيدُ الإسراعَ فيه، فالأوَّلُ نحوُ: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ [الواقعة: 65]، والثّاني نحوُ: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الواقعة: 70][5].

سرُّ إظهارِ ﴿ٱلۡبَحۡرُ﴾ في موضعِ الإضمارِ:

زيادةُ التَّقريرِ وتأكيدُ سَعَةِ كلماتِ الله

الظّاهرُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أنْ يُقالَ: ﴿لَنَفِدَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 52.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4599.
(5) صافي، الجدول في الإعراب: 16/ 264.

دون ذكر ﴿ٱلۡبَحۡرُ﴾؛ اكتفاءً بالضَّمير المُستترِ الرّاجعِ إلى لفظِ البحرِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، لكنْ أُظهرَ في موضعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ[1]، وتأكيدِ سَعَةِ كلماتِ اللّه تعالى ولذا قيلَ بعده: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[2].

نكتة التَّعبيرِ بالقَبْلية مع النفاد:

قَطْعُهم عن الاستقصاءِ في السُّؤالِ

عُبِّرَ بالقَبْلِ في قولِه ﷻ: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾، دونَ أنْ يقالَ: (ولم تَنْفَدْ) ونحوُهُ؛ لأنَّ ذلكَ كافٍ في قَطْعِهم عنِ الاستقصاءِ في السُّؤالِ، ولأنَّ التَّعبيرَ بمِثْلِ ذلكَ ربَّما فتحَ باباً مِنَ التَّعنُّتِ، وهو أنْ يجعلوا الواوَ للحالِ، فيجعلوا النَّفادَ مُقيَّداً بذلكَ[3]، وقيلَ: ﴿قَبۡلَ﴾ هنا مجازٌ عن (مِنْ غيرِ)، والمعنى: مِنْ غيرِ أنْ تَنْفَدَ، بقرينةٍ صارفةٍ عنِ المعنى الحقيقيِّ؛ لقيامِ الدَّليلِ القطعيِّ على عدمِ تناهي معلوماتِ اللّه تعالى[4].

وجهُ تجريدِ الظَّرفِ ﴿قَبۡلَ﴾ مِنْ حرفِ الجرِّ:

استغراقُ نَفادِ المُمكِنِ للأزمنةِ كلِّها

لمّا كانتِ المخلوقاتُ ليسَ لها مِنْ ذاتِها إلا العَدَمُ، وكانتِ الكلماتُ مِنْ صفاتِ اللّهِ، وصفاتُ اللّهِ واجبةُ الوجودِ، فكانَ نَفادُها مُحالًا، فكانَ نَفادُ الممكِنِ مِنَ البحرِ - الذي بمنزلة المِداد - وما يَمُدُّهُ بالنِّسبةِ إليها مُستغرِقًا للأزمنةِ كلِّها - جُرِّدَ الظَّرفُ ﴿قَبۡلَ﴾ مِنْ حرفِ الجرِّ، فقيلَ: ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾، ولم يُقَلْ: (مِنْ قَبْلِ أنْ تَنْفَدَ)[5].

بلاغةُ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضمَرِ في كلمات الثاني:

الإشعارُ بعلّيَّةِ عدمِ التَّناهي، وزيادةُ التَّقريرِ

الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ أنْ يقالَ: ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ﴾؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251.
(2) أبو زهرة التفاسير، زهرة التفاسير: 9/ 4599.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 179.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151.

اكتفاءً بالضَّميرِ المستترِ الرّاجعِ إلى الكلماتِ المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، لكنْ وُضِعَ المُظهَرُ موضعَ المُضمَرِ في قولِه: ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾؛ إشعارًا بالعلّيَّة، وأنَّها حقيقٌ بأنْ تكونَ غيرَ مُتناهيةٍ[1]، وزيادةً للتَّقريرِ، وتفخيمًا للمضافِ ﴿كَلِمَٰتُ﴾، وتشريفًا للمضافِ إليه في ﴿رَبِّي﴾؛ وهو ياءُ المتكلِّمِ[2].

براعةُ المقابلةِ البيانيَّةِ في ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾:

التَّعبيرُ بنَفادِ الكلماتِ مراعاةٌ للجِناسِ

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ مقابلةٌ بيانيَّةٌ؛ فإنَّ كلماتِ اللهِ تعالى لا تنتهي، لكنْ عُبِّرَ عن ذلكَ بالنَّفادِ مِنْ قَبيلِ الجِناسِ معَ قولِه: ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾[3]، فهذه الآيةُ واردةٌ على تنزيلِ غيرِ المُتناهي منزلةَ المُتناهي فرْضًا وتقديرًا؛ تفهيمًا للعِبادِ، وتقريبًا لهُم، وهو مِنَ التَّمثيلِ الَّذي يُفرَضُ فيه المُمثَّلُ به فرْضًا؛ مُثِّلَتْ حالةُ الكلماتِ في سَعَتِها وفَرْطِ كثرتِها بحالةِ ما لو فُرِضَ البحرُ مِدادًا له لَنَفِدَ قبلَه، ثمَّ أُدخِلَ المُمثَّلُ في جنسِ المُمثَّلِ بهِ، فأُجرِيَ عليه حكمُ الإحصاءِ والكَتْبِ والنَّفادِ تنزُّلًا؛ تفهيمًا، والمعنى: لو فرَضْنا أنَّ غيرَ المُتناهي داخلٌ تحتَ حُكْمِ المُتناهي، وأنَّهُ نوعٌ مِنْ جنسِه - لَنَفِدَ قبلَ نَفادِه، فكيفَ وهو ليسَ مِنْ جنسِه؟!![4]، وقيلَ: الكلامُ كِنايةٌ عن عدمِ تناهي معلوماتِ اللهِ تعالى؛ لأنَّهُ تعليقٌ على مُحالٍ عادةً، كقولِهم: لا تزالُ على كذا ما بلَّ بحرٌ صوفةً[5].

موقع قوله: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ مما قبله ودلالته:

الجملةُ معطوفةٌ على جملةٍ مستأنفةٍ محذوفةٍ

قولُه علَتْ قُدرتُه: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ كلامٌ مِنْ جهتِه تعالى غيرُ داخلٍ تحتَ قولِه: ﴿قُل﴾، جيءَ به لتحقيقِ مضمونِه وتصديقِ مدلولِه،

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 556.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4599.

(4) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 180.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 53.

مع زيادةِ مبالغةٍ وتأكيدٍ، والواوُ لعطفِ الجملةِ على نظيرتِها المستأنَفةِ المقابلةِ لها المحذوفةِ؛ لدلالةِ المذكورةِ عليها، أي: لَنَفِدَ البحرُ مِنْ غيرِ نَفادِ كلماته تعالى، لو لم نَجِئْ بمِثْلِه مَدَدًا، ولو جِئْنا بمِثْله مَدَدًا[1].

دلالةُ ﴿وَلَوۡ﴾:

إفادةُ التَّأكيدِ والمبالغةِ

﴿وَلَوۡ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ وصليَّةٌ، أي: لمُجرَّدِ الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيدِ، وهي تدلُّ على حالةٍ هي أجدرُ الأحوالِ بألّا يتحقَّقَ معها مُفادُ الكلامِ السّابقِ، فيُنبِّهُ السّامعُ على أنَّها مُتحقِّقٌ معها مُفادُ الكلامِ السّابقِ، يعني: أنَّ الشَّرطَ الَّذي بعدَها شرطٌ مفروضٌ، هو غايةُ ما يُتوقَّعُ معَهُ انتفاءُ الحُكمِ الَّذي قبلَها، فيذكرُهُ المتكلِّمُ لقصدِ تحقُّقِ الحكمِ في سائرِ الأحوالِ، وفي الإتيانِ بها هنا زيادةُ مبالغةٍ وتأكيدٍ[2].

سرُّ إيثارِ التعبيرِ بالمجيءِ على الإتيانِ:

الغالبُ ذكرُ المجيءِ معَ الأعيانِ

أوثِرَ المجيءُ على الإتيانِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾، ولم يُقَلْ: (ولو أَتَيْنا بمِثْله مَدَدًا)؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءَ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[3]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أوكدُ مِنْ (أتى)[4]، ولأنَّ عادةَ القرآنِ قد جرَتْ في الغالبِ بذكرِ المجيءِ في الماضي معَ الأعيانِ[5].

نكتةُ إسنادِ ﴿جِئۡنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ فعلِ إمدادِ البحرِ

لمّا لم يكنْ أحدٌ غيرُهُ - جلَّتْ قُدرتُهُ - يَقْدِرُ على إمدادِ البحرِ قيلَ: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾، أي: ولو جِئْنا بما لَنا مِنَ العظَمةِ الَّتي لا تكونُ لغيرِنا بمِثْلِ البحرِ مَدَدًا[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 375.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 307، 16/ 54.
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 50.
(5) الزركشي، البرهان: 4/ 81.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 151.

غرضُ التقييد بالمجرور في ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾:

تقويةُ المبالغةِ، والإبهامُ المُمهِّدُ للتَّمييزِ

الباءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ للتَّعديةِ، وهي تفيدُ تعديةَ فعلِ المجيءِ إلى المِثْلِ، وقد جيءَ بلفظِ المِثْلِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، أي: ولو جِئْنا بمِثْلِ البحرِ الموجودِ مَدَدًا[1]؛ لما في التَّعبيرِ به مِنْ تقويةِ المبالغةِ في عدمِ تناهي كلماتِ اللّه - تبارَكَ شأنُه، والمِثْلُ للجنسِ شائعٌ على أمثالٍ كثيرةٍ يُفرَضُ كلُّ منها مَدَدًا[2]؛ فالبحرُ أوسعُ وأغزرُ ما يعرِفُهُ البشرُ، والبشرُ يكتبونَ بالمِدادِ كلَّ ما يكتبونَ. فالسّياقُ يَعرِضُ لهُم البحرَ بسَعَتِه وغزارتِه في صورةِ مِدادٍ يكتبونَ به كلماتِ اللّه الدالَّةَ على علمِه، فإذا البحرُ يَنْفَدُ، وكلماتُ اللّه لا تَنْفَدُ، ثمَّ إذا هو يُمِدُّهم ببحرٍ آخرَ مِثْلِه، ثمَّ إذا البحرُ الآخرُ يَنْفَدُ كذلكَ، وكلماتُ اللّه تنتظرُ المِدادَ، إضافةً إلى ما في لفظِ المِثْلِ مِنَ الإبهامِ المُحتاجِ إلى التَّفسيرِ، فيكونُ توطئةً وتمهيدًا للتَّمييزِ الَّذي بعدَهُ.

سر التقييد بالتميز ﴿مَدَدًا﴾:

بيانُ المبهمِ إيضاحٌ له وتحقيقٌ لمعناه

انتصبَ ﴿مَدَدًا﴾ في قولِ اللّه علَتْ قُدرتُهُ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ على التَّمييزِ المُفسِّرِ للإبهامِ الَّذي في لفظِ ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾، أي: بمِثْلِ البحرِ في الإمدادِ[3]، وفيه إيضاحٌ له وتحقيقٌ لمعناه.

بلاغةُ التعبير بالجناس بين ﴿مِدَادًا﴾ و﴿مَدَدًا﴾:

الجناسُ النّاقصُ، وردُّ الأعجازِ على الصُّدورِ

في الجمعِ بينَ لفظَيْ ﴿مِدَادًا﴾ و﴿مَدَدًا﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ جناسٌ ناقصٌ، وفيه أيضًا ردٌّ للأعجازِ على الصُّدورِ، وهو ممّا يُقوّي التَّناسبَ والارتباطَ بينَ أجزاءِ الكلامِ، ويزيدُ التَّجاوبَ بينَ أطرافِه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 323.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 371.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 54.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفادُ والفَناءُ:

النَّفادُ فناءٌ بالتَّدريجِ، والفَناءُ فناءٌ جُملةً

الفرقُ بينَ النَّفادِ والفَناءِ: أنَّ النَّفادَ هو فناءُ آخِرِ الشَّيءِ بعدَ فناءِ أوَّلِه، والفَناءَ يُستعمَلُ فيما يَفْنَى جُملةً، يقالُ: فناءُ العالم، ولا يقالُ: نَفادُ العالَم، ويقالُ: نَفادُ الزّادِ والطَّعام؛ لأنَّ ذلك يَفْنَى شيئًا فشيئًا[1]، ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 547.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 733.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الانتقالُ مِنْ سَعَةِ علمِ الخالقِ إلى محدوديَّةِ علمِ المخلوقِ

في مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها وجوهٌ:

أحدُها: أنَّهُ تعالى لمَّا بيَّنَ كمالَ كلامِ الله أمرَ نبيَّهُ ﷺ بأنْ يَسْلُكَ طريقةَ التَّواضعِ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآيةَ[1].

والثَّاني: لمَّا كانوا ربَّما قالوا: ما لَكَ لا تُحدِّثُنا مِنْ هذه الكلماتِ بكلِّ ما نسألُك عنهُ حيثُما سألناكَ؟! وكانوا قد استنكروا كونَ النَّبيِّ بَشَراً، وعلَّقوا إيمانَهم باللّه تعالى بأمورٍ سألوهُ الإتيانَ بها، وكانَ قد ثبتَ بإجابتِهم عنِ المسائلِ على هذا الوجه أنَّهُ رسولٌ - أمرَهُ سبحانَهُ أنْ يُجيبَهم عن ذلكَ كُلِّه بما يردُّ عليهم غَلَطَهم؛ إرشادًا لهُم إلى أهمِّ ما يَعْنيهم، وهو التَّوحيدُ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآيةَ[2].

والثَّالثُ: انتُقِلَ بهذه الآيةِ مِنَ التَّنويه بسَعَةِ علم اللّه سبحانَهُ، وأنَّهُ لا يُعجِزُهُ أنْ يوحيَ إلى رسولِه بعلم كلِّ ما يُسألُ عنِ الإخبارِ به - إلى إعلامِهم بأنَّ الرَّسولَ لم يُبْعَثْ للإخبارِ عنِ الحوادثِ الماضيةِ والقرونِ الخاليةِ، ولا أنَّ مِنْ مُقتضى الرِّسالةِ أنْ يُحيطَ علمُ الرَّسولِ بالأشياءِ، ولكنَّهُ بشرٌ عِلمُهُ كعِلم البشرِ، أوحى اللّهُ إليه بما شاءَ إبلاغَهُ عبادَهُ؛ مِنَ التَّوحيدِ والشَّريعةِ، ولا علمَ لهُ إلا ما علَّمَهُ ربُّهُ[3].

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 503.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 54.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: (وحي) أصل يدلُّ على إلقاء عِلم في خَفاءٍ أو غيرِه إلى غيرِكَ[1]، ويقالُ لكلام اللّه الَّذي يُلْقَى إلى أنبيائِه وأوليائِه: وحْيٌ، وهو أنواعٌ ثلاثةٌ كما دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، فالوَحْيُ: إمّا بواسطة رسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُهُ ويُسمَعُ كلامُهُ، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةِ رجلٍ معروفٍ، وإمّا بواسطة رسولٍ مَلَكٍ بصورة غير مرئية لها أماراتٌ ويُسمَعُ كلامُهُ، وإمّا بسماعِ كلام اللّه مِنْ غيرِ معاينةٍ؛ كسماعِ موسى كلامَ اللّهِ، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهام، ومِنَ الإلهام قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ، كما في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: 68]، أو بمَنامٍ، فالإلقاءُ في الرّوعِ، والإلهامُ، والتَّسخيرُ، والمنامُ دلَّ عليها قولُهُ: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشورى: 51]، وسماعُ الكلام مُعاينةً دلَّ عليه قولُهُ: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51]، وتبليغُ جبريلَ عليه السلام في صورةٍ مُعيَّنةٍ دلَّ عليه قولُهُ: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51][2].

2) ﴿يَرۡجُواْ﴾: (رجو) أصلانِ، يدلُّ أحدُهما على ناحيةِ الشَّيءِ[3]، وإشرافِه على مَهْواةٍ فيها مادَّةٌ نافعةٌ[4]، ويدلُّ الآخرُ على الأملِ[5]، والرَّجاءُ: ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مَسَرَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النساء: 104]، وقد يُطلَقُ الرَّجاءُ على الخوفِ، وعليه حُمِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمانِ، فكلُّ راجٍ مُؤمِّلٌ ما يرجوهُ، خائفٌ فواتَهُ، ويقالُ: أرجَتِ النّاقةُ: دَنا نِتاجُها، وحقيقتُهُ: جعلَتْ لصاحبِها رجاءً في نفسِها بقُرْبِ نِتاجِها، والأُرْجوانُ: لونٌ أحمرُ؛ لأنَّهُ يُفرِّحُ بلونِه تفريحَ الرَّجاءِ[6]، ومعنى ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: يطمعُ، و﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ على تقديرِ محذوفٍ، أي: حُسْنَ لقاءِ ربِّه، وقيلَ: أي: يخافُ سوءَ لقاءِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحي).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وحي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(6) الراغب، المفردات: (رجو)، والسمين، عمدة الحفاظ: (رجو).

جزاءِ ربِّهِ، وحملُ الرَّجاءِ على بابِه أجوَدُ لبَسْطِ النَّفْسِ إلى إحسانِ اللَّه تعالى[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العملُ الصّالحُ واتِّقاءُ الشِّركِ وسيلةُ النَّجاةِ

يأمرُ اللَّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يخاطبَ المشركينَ، ويقولُ لهُ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم مِنْ بني آدمَ، لا علمَ لي إلا ما علَّمَني اللَّهُ بوَحْيٍ منهُ، وإنَّ اللَّهَ يوحي إليَّ أنَّ معبودَكم الَّذي يجبُ عليكُم أنْ تعبُدوهُ ولا تُشْرِكوا به شيئًا - معبودٌ واحدٌ، لا ثانيَ لهُ ولا شريكَ[2]، فمَنْ كانَ يأملُ حُسْنَ لقاءِ ربِّه بالثَّوابِ والجزاءِ الصّالحِ فليعمَلْ عملًا صالحًا موافِقًا للشَّرعِ[3]، وليُخْلِصْ لربِّه العبادةَ، ولا يُشْرِكْ به سواهُ، لا إشراكًا جليًّا كما فعلَ الَّذينَ كفروا بآياتِ ربِّهم ولِقائِهِ، ولا إشراكًا خفيًّا كما فعلَ أهلُ الرِّياءِ ممَّنْ يطلبُ بعملِه الدُّنيا[4].

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ العملَ الصالحَ هو الموافقُ لشرعِ اللَّه، من واجبٍ ومستحبٍّ، وهو الذي جَمَعَ بين صفتي الإخلاص والمتابعةِ للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو الذي يُنال به ما عند اللَّه[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

الإعلامُ بأنَّ الرَّسولَ لا يعلمُ إلا ما يُعلِّمُهُ ربُّهُ

قولُه ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ استئنافٌ انتُقِلَ به مِنَ التَّنويه بسَعَةِ علم اللَّه إلى إعلامِهم بأنَّ الرَّسولَ لم يُبْعَثْ للإخبارِ عنِ الحوادثِ الماضيةِ والقُرونِ الخاليةِ، ولا أنَّ مِنْ مُقتضى الرِّسالةِ أنْ يُحيطَ عِلمُهُ بالأشياءِ، ولكنَّهُ بشرٌ لا علمَ لهُ إلّا ما علَّمَهُ ربُّهُ[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 234.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 135.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 205.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 29.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 54.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

الاهتمامُ بمضمونِ المَقولِ

الأمرُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّهُ جزءٌ مِنْ تبليغِ رسالةِ ربِّه[1]، وفي الإتيانِ بفعلِ الأمرِ إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ إنَّما يأتي بما يأتي به بوَحْيٍ مِنَ اللّٰه تعالى لا مِنْ تِلْقاءِ نفسِه، وفيه اهتمامٌ بمضمونِ المَقولِ، خصوصًا أنَّهُ مُتضمِّنٌ لقضيَّةِ القضايا؛ وهي توحيدُ اللّٰه ﷻ.

الغرض من التعبير بأسلوب القصرِ في الآية:

الرسولُ ﷺ لا يتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلمِ بالمُغيَّباتِ

القصرُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ للقلبِ، أي: ما أنا إلا بشرٌ، لا أتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلم بالمُغيَّباتِ[2]، وقيلَ: القصرُ مبنيٌّ على تنزيلِهم لاقتراحِهم عليه ﷺ ما لا يكونُ مِنْ بشرٍ مِثْلِهم منزلةَ مَنْ يعتقدُ خلافَهُ، أو على تنزيلِهم منزلةَ مَنْ ذُكِرَ؛ لزعمِهم أنَّ الرِّسالةَ الَّتي يدَّعيها ﷺ تُنافي ذلكَ[3]، وقيل: إنَّ المقصودَ أنْ يُقصَرَ عليه الإيحاءُ إليه ﷺ على معنى أنَّهُ ﷺ مقصورٌ على إيحاءِ ذلكَ إليهِ، لا يتجاوزُهُ إلى عدمِ الإيحاءِ كما يزعمونَ[4].

النكتةُ من تنكير ﴿بَشَرٞ﴾:

النَّبيُّ ﷺ فردٌ مِنْ أفرادِ البشرِ

تنكيرُ ﴿بَشَرٞ﴾ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ للإفرادِ، أي: إنَّما أنا فردٌ مِنْ أفرادِ جنسِ البشرِ مِثْلُكم، وفي هذا التَّنكيرِ مبالغةٌ في اتِّصافِه ﷺ بالبشريَّةِ، وهو لم يتميَّزْ عنهُم إلا بالوَحْيِ الَّذي أوحاهُ اللّٰهُ تعالى إليهِ.

سرُّ التَّقييد بقولِه: ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

تأكيدُ الإعلامِ ببشريَّةِ الرَّسولِ ﷺ

في التَّقييد بوصفِ المِثْلِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4600.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.

﴿مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ تأكيدٌ للإعلامِ ببشريَّةِ الرَّسولِ ﷺ أي: إنَّما أنا فردٌ مِنْ أفرادِ جنسِ البشرِ مماثلٌ لكُم في البشريَّةِ، لا أدَّعي أنّي مَلَكٌ، وكلُّ ما آتيكم به مِنَ العلمِ والوَحْيِ مُستنِدٌ إلى وحْيِ ربّي إليَّ(1).

دلالة بناءِ الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ للمفعولِ:

الوَحْيُ لا يُتصوَّرُ إلّا منهُ سبحانَهُ

لمّا كانَ الوَحْيُ لا يُتصوَّرُ إلّا مِنْ ربِّ العالمينَ جلَّتْ قُدرتُهُ عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ إذ الفاعلُ معلومٌ، وفي بناءِ الفعلِ للمفعولِ تفخيمٌ لشأنِ أمرِ الوَحْيِ، أي: يوحَى إليَّ مِنَ اللهِ(2).

وجهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ لاستمرارٍ أو لحكايةِ الحالِ الماضيةِ

يحتملُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ للاستمرارِ، ووجهُه: أنَّ الوَحْيَ إليه ﷺ لا يزالُ مُستمرًّا عندَ نزولِ هذه الآيةِ، واستمرَّ بعدَ نزولِها لسنواتٍ إلى وفاتِه - ﷺ، ويحتملُ أنْ يكونَ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ(3)، ووجهُه: أنْ يُرادَ إيحاءُ المعنى المذكورِ في هذه الآيةِ خصوصًا، وقد فُرِغَ منهُ، فتكونُ صيغةُ المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِ: ﴿إِلَيَّ﴾:

تفخيمُ شأنِ الموحى إليه ﷺ

يدلُّ التَّعبيرُ بـ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ على تفخيمِ شأنِه ﷺ بأنَّهُ يوحَى إليه مِنْ ربِّه ﷻ، أي: يوحَى إليَّ مِنَ اللهِ الَّذي خصَّني بالرِّسالةِ، كما أوحى إلى الرُّسُلِ قبلي ما لا غنى لأحدٍ عن علمِه واعتقادِه(4)، وفيه أيضًا تأكيدٌ لكونِ كلِّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.

ما يُخبِرُ به ﷺ مِنَ الشَّرعِ والعلمِ مِنَ اللهِ جلَّ شأنُهُ، خصوصًا أنَّ المقامَ للرَّدِّ على المشركينَ المتعنِّتينَ بسؤالِهم لهُ ﷺ عن أمورٍ غيبيَّةٍ.

الغرض من تقديم ﴿إِلَيَّ﴾:

تعجيلُ المَسَرَّةِ ومراعاةُ حُسْنِ النَّظمِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ لتعجيلِ اغتباطِه ﷺ ومَسَرَّتِه بنزولِ الوَحْيِ عليهِ، ولأنَّ ما بعدَهُ فيه نوعُ طولٍ، فتأخيرُ ﴿إِلَيَّ﴾ يُخِلُّ برَوْنَقِ الكلامِ، ويُؤدّي إلى الفصلِ بينَ الفعلِ ومُتعلِّقِه.

بلاغةُ القصرِ في ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾:

قصرُ الإلهِ على صفةِ الوحدانيَّةِ

القصرُ الذي طريقه ﴿أَنَّمَآ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ للقلبِ، والمعنى: يوحي اللهُ إليَّ توحيدَ الإلهِ، وانحصارَ وصفِه في صفةِ الوحدانيَّةِ دونَ المشاركةِ[1]، أي: لا يتجاوزُ معبودُكم بالحقِّ تلكَ الصِّفةَ الَّتي هي الوحدانيَّةُ إلى صفةٍ أخرى، كالتَّعدُّدِ فيها الَّذي تعتقدونَهُ أيُّها المشركونَ[2]، واصطفاء ﴿أَنَّمَآ﴾ دون سواها لأنها فيما لا يجهله المخاطب ولا ينكره.

سرُّ التقييدِ في وصفِ الإلهِ بالواحدِ:

تأكيدُ وحدانيَّتِه جلَّ وعزَّ

لمّا أُدمِجَ في الكلامِ وصفُهُ ﷻ بالوحدانيَّةِ أُشيرَ إلى أنَّ إلهيَّتَهُ بالإطلاقِ، لا بالنَّظرِ إلى جعلِ جاعلٍ ولا غيرِ ذلكَ، فقيلَ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، أي: لا ينقسمُ بمجانسةٍ ولا غيرِها، قادرٌ على ما يريدُ، لا مُنازِعَ لهُ[3].

الغرض من التعبير بأسلوب التَّغليبِ في قولِه ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾:

مناسبةُ التَّغليبِ لسياقِ الرَّدِّ على المشركينَ

في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ تغليبٌ للمُخاطَبِ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372 - 373.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.

المتكلِّم؛ إذ لم يُقَلْ: (إنَّما إلهُنا إلهٌ واحدٌ)، والسِّرُّ في ذلكَ: أنَّه ﷺ موحِّدٌ للّه تعالى لا يعتقدُ لهُ شريكًا، والآيةُ خرجَتْ مَخْرَجَ الرَّدِّ على المشركينَ، فناسبَ أنْ يقالَ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ لأنَّهم يُشرِكونَ بهِ[1].

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

الفاءُ لتفريعِ ما بعدَها على ما قبلَها

الفاءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾؛ لتفريعِ ما بعدَها على الوحدانيَّةِ[2]، وهو مِنْ جملةِ الموحى به إليه ﷺ أي: يوحَى إليَّ بوحدانيَّةِ الإلهِ، وبإثباتِ البعثِ، وبالأعمالِ الصّالحةِ، فجاءَ النَّظمُ بطريقةٍ بديعةٍ في إفادةِ الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ إذ جُعِلَ التَّوحيدُ أصلًا لها، وفُرِّعَ عليه الأصلانِ الآخرانِ، وأُكِّدَ الإخبارُ بالوحدانيَّةِ بالنَّهيِ عنِ الإشراكِ بعبادةِ اللّهِ تعالى، وحصلَ معَ ذلكَ ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، وهو أسلوبٌ بديعٌ[3].

سرُّ التعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾ في الجملة الفعلية ﴿كَانَ يَرۡجُواْ﴾:

الدَّلالةُ على الاستمرارِ والاستدامةِ

الرَّجاءُ: توقُّعُ وصولِ الخيرِ في المستقبلِ، والمرادُ بلِقائِه تعالى: كرامتُهُ بالثَّوابِ والجزاءِ الصّالحِ، وإدخالُ الماضي على المستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّائقَ بحالِ المؤمنِ الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاءِ اللِّقاءِ، أي: فمنِ استمرَّ على رجاءِ كرامتِه تعالى فليعمَلْ عملًا صالحًا في نفسِه، لائقًا بذلكَ المرجوِّ، كما فعلَهُ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 107.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 373.

غرض الإيجازِ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

الإيجازُ بحذفِ المضافِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ إيجازٌ بديعٌ بحذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (فمَنْ كانَ يُؤمِّلُ حُسْنَ لقاءِ ربِّه، وأنْ يلقاهُ بعدَ البعثِ لقاءَ رِضًا وقبولٍ)[1]، وإنَّما قُدِّرَ ذلكَ المضافُ؛ لأنَّ حُسْنَ اللِّقاءِ هو المرجوُّ لا اللِّقاءُ؛ إذ البعثُ مُحقَّقٌ سواءٌ كانَ راجيًا أو لا[2].

سر إيثار لفظِ الرَّبِّ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

ملاءمةُ لفظِ الرَّبِّ لمقامِ الرَّجاءِ

جيءَ بلفظِ الرَّبِّ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ تنبيهاً على أنَّهُ هو المُحسِنُ إلى كلِّ أحدٍ بالتَّفرُّدِ بخَلْقِه ورزقِه، لا شريكَ لهُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّهُ لا مالكَ إلّا وهو قاهرٌ لمملوكه على لقائِه، مُصرِّفٌ لهُ في أوامرِه في صباحِه ومَسائِه[3]، إضافةً إلى ما في لفظِ الرَّبِّ المُنبِئِ عنِ الإحسانِ مِنَ المناسبةِ لمقامِ رجاءِ حُسْنِ اللِّقاءِ، ونَيْلِ الرِّضا والقَبولِ.

بلاغة وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضمَرِ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

زيادةُ التَّقريرِ وبيانُ علَّةِ الأمرِ والنَّهيِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنْ كانَ يرجو لقاءَهُ فليعمَلْ عملًا صالحًا)؛ لأنَّ الضَّميرَ حينئذٍ يرجعُ إلى لفظِ الإله في قولِه جلَّتْ حكمتُهُ فيما سبقَ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، لكنْ وُضِعَ المُظهَرُ موضعَ المُضمَرِ معَ التَّعرُّضِ للفظِ الرُّبوبيَّةِ، فقيلَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ، وللإشعارِ بعلِّيَّةِ الرُّبوبيَّةِ للأمرِ والنَّهيِ ووجوبِ الامتثالِ فعلًا وتَرْكًا[4].

معنى الفاءِ واللّامِ ودلالتهما في ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، واللّامُ للأمرِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ واقعةٌ في جوابِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 750.
(2) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 140، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251.

الشَّرطِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، واللّامُ في ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾ للأمرِ، وهي تفيدُ وجوبَ أنْ يعملَ الرّاجي حُسْنَ لقاءِ ربِّه عملًا صالحًا يُقرِّبُهُ إليهِ، ويُؤهِّلُهُ لنَيْلِ مقامِ الزُّلْفَى والكراماتِ.

الغرض من التعبير بالأمرِ بالعملِ الصّالحِ:

إصلاحُ العملِ في مقابلةِ إحسانِ الرَّبِّ

لَمّا كانَ الجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ كانَ الواجبُ على العبدِ الإخلاصَ في عملِهِ، كما كانَ عملُ ربِّه في تربيتِه بالإيجادِ وما بعدَهُ، ولذلكَ قيلَ: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[1]، وقد اصطفى النَّظم الكريم من صور المضارع المقترن بلام الأمر؛ إعلامًا بالتنفيذ الفوري الحاضر للعمل الصالح، ليكون آية على حسن ظن الراجي بربه.

سر التقييد بالمفعول المطلق وتنكيره في ﴿عَمَلٗا﴾:

تأكيدُ الإتيانِ بالعملِ الصّالحِ

لَمّا كانَ المقامُ لإيجابِ أنْ يعملَ العبدُ مِنَ الأعمالِ ما يُنجيه يومَ القيامةِ، ويرجوَ به حُسْنَ لقاءِ ربِّه بالرِّضا والقَبولِ، ويكونَ في مقابلةِ إحسانِ الرَّبِّ إليهِ، ويُصدِّقَ به إيمانَهُ باللّه تعالى وبالبعثِ والنُّشورِ ونحوِ ذلكَ مِنْ أركانِ الإيمانِ؛ أُكِّدَ هذا الإيجابُ بالإتيانِ بالمصدرِ في قولِه ﷻ: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[2]، وتنكيره للتَّقليلِ، أي: (فليعمَلْ عملًا صالحًا ولو كانَ قليلًا)، والعملُ الصّالحُ هو ما يأمرُ به الشَّرعُ مِنْ أصولِ الدّينِ وفُروعِه؛ مِنَ التَّوحيدِ وغيرِه مِنْ أعمالِ القلبِ والبَدَنِ والمالِ؛ ليسلَمَ العبدُ مِنْ عذابِ اللّه تعالى[3]، وفي حَملِ التَّنكيرِ على التَّقليلِ توسيعٌ لبابِ الرَّجاءِ، وإطماعٌ بالنَّجاةِ لِمَنْ فازَ بالتَّوحيدِ وخُتِمَ لهُ بهِ، وفي وصفِ العملِ بالصَّلاحِ حثٌّ للعبدِ على الحِرْصِ على موافقةِ عملِه لما يُحِبُّهُ الشَّرعُ ويرضاهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾:

الجمعُ بينَ التَّوحيدِ والإخلاصِ في الطّاعةِ

الواوُ في قولِ اللّه جلَّ وتبارك: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ للعطفِ، فتكونُ الآيةُ جامعةً لخلاصتيِ العلمِ والعملِ؛ وهما التَّوحيدُ والإخلاصُ في الطّاعة[1].

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾:

الاستمرارُ على عدمِ الإشراكِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ على وجوبِ الاستمرارِ على عدمِ الإشراكِ باللّه ﷻ إلى أنْ يَلْقَى العبدُ ربَّهُ ﷻ سواءٌ كانَ الشِّركُ شِرْكًا أكبرَ بالكفرِ والرِّدَّةِ، أو شِرْكًا أصغرَ بالرّياءِ؛ إذ ينبغي على العبدِ أنْ يراقبَ نيَّتَهُ على الدَّوامِ، ويُخلِصَ عملَهُ للّه ﷻ ولا يجعلَ في عمله رياءً ولا سُمعةً[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الشِّركِ في ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾:

مراعاةُ التَّقابلِ بينَ الشِّركِ والتَّوحيدِ

جيءَ بالنَّهي عنِ الإشراكِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (ولا يَكْفُرْ بربِّه)؛ رعايةً للتَّقابلِ بينَ الشِّركِ المنهيِّ عنهُ في ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾ وبينَ التَّوحيدِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، وليكونَ النَّهيُ عنِ الإشراكِ مُؤكِّدًا لوصفِه ﷻ بالوحدانيَّةِ، ولأنَّ الشِّركَ يعمُّ الشِّركَ الأكبرَ والأصغرَ، وكلاهما منهيٌّ عنهُ، وينبغي على العبدِ الرّاجي حُسْنَ لقاءِ ربِّه اجتنابُهُ.

معنى الباءِ ودلالتها في ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ أو بمعنى (في)

الباءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ سببيَّةٌ، أي: ولا يُشْرِكْ بسببِ عبادةِ ربِّه أحدًا، وقيلَ: الباءُ بمعنى (في)، والمعنى: ولا يُشْرِكْ في عبادةِ ربِّه أحدًا[3]، ويحتملُ السياقُ أن تكون

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 504، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 155.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 559.

الباءُ بمعنى "مع"، والمعنى: (ولا يُشْرِكْ مع عبادةِ ربِّه أحدًا في هذه العبادة)؛ بحيث تكون متمحِّضة لربه.

سر إضافةِ العِبادةِ إلى الرَّبِّ:

ملاءمةُ الإضافةِ لسياقِ النَّهي عنِ الإشراكِ

أُضيفتِ العِبادةُ إلى لفظِ الرَّبِّ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ لما في هذه الإضافةِ مِنْ تشريفِ العِبادةِ بكونِها للّه ﷻ المعبودِ الحقِّ، ومِنَ الدَّلالةِ على اختصاصِ العِبادةِ به جل وعز كأنَّهُ قيلَ: ولا يُشْرِكْ أحدًا بِعبادةِ ربِّه المختصَّةِ به الَّتي لا ينبغي صَرْفُها لغيرِه، كما لو قلتَ لعمرٍو: لا تأخُذْ مالَ زيدٍ، أي: لا تأخُذْ مالَهُ المختصَّ به المملوكَ لهُ.

علةُ إظهارِ لفظ الربِّ في مقامِ الإضمارِ:

كمالُ التَّقرُّرِ في الذِّهنِ وبيانُ علَّةِ العِبادةِ

الظَّاهرُ أنْ يقالَ: (ولا يُشْرِكْ بعبادته أحدًا)؛ اكتفاءً بما سبقَ في قولِه جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى ما في النَّظمِ - وهو قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ - لما في الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ وتكرارِ لفظِ الرَّبِّ مِنْ كمالِ التَّقرُّرِ في الذِّهنِ، وللإشارةِ إلى علَّةِ العِبادةِ، وهي كمالُ خضوعِ العبدِ لربِّه وإظهارِ التذللِ له، وإبرازُ رُبوبيَّةِ اللّه ﷻ لخَلْقِه المستحقِّ للعبادة، وعُلِمَ مِنْ ذلكَ أنَّ لفظَ الرَّبِّ أوقعُ هنا مِنْ سائرِ الأسامي السّاميةِ[1]، فيكونُ أبلغَ ممّا لو قيلَ مثلًا: (ولا يُشْرِكْ بعبادةِ اللّه أحدًا).

الغرض من تقديم ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ على ﴿أَحَدًا﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ ومُراعاةُ الفاصلةِ

قُدِّمَ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ على المفعولِ ﴿أَحَدًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ للاهتمامِ بكونِ النَّهيِ عنِ الإشراكِ مُتعلِّقًا بعِبادةِ اللّه جلَّ وتباركَ ولما في تأخيرِ ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ مُراعاةِ ملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.

النكتةُ من تنكيرِ ﴿أَحَدًا﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ

لمّا كانَ المقامُ للنَّهيِ عنِ الإشراكِ بعِبادةِ اللهِ - جلَّتْ قُدرتُهُ - بولِغَ في النَّهيِ بتنكيرِ لفظِ ﴿أَحَدًا﴾ في قولِه - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾؛ لما في التَّنكيرِ مِنْ إفادةِ العُمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّهيِ تَعُمُّ، أي: ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أيَّ أحدٍ كانَ.

بلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الآيَةِ:

ردُّ عَجُزِ السّورةِ على صَدْرِها

القصرُ الأوَّلُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو إضافيٌّ للقلبِ، أي: ما أنا إلا بشرٌ، لا أتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلمِ بالمغيَّباتِ، وأُدمِجَ في هذا أهمُّ ما يوحَى إليه وما بُعِثَ لأجلِهِ؛ وهو توحيدُ اللهِ والسَّعْيُ لما فيه السَّلامةُ عندَ لقاءِ اللهِ تعالى، وهذا مِنْ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، مِنْ قولِه في أوَّلِ السّورةِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: 2] إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ [الكهف: 5][1]، وقيلَ: انطبقَ آخرُ السّورةِ على أوَّلِها بوصفِ كلماتِ اللهِ ثمَّ ما يوحَى إليه - وكلٌّ منهُما أعمُّ مِنَ الكتابِ - بالأقوَميَّةِ؛ للدُّعاءِ إلى الطَّريقِ الأقوَمِ، وهو التَّوحيدُ عنِ الشَّريكِ الأعمِّ مِنَ الولدِ وغيرِهِ، والإحسانُ في العملِ، معَ البِشارةِ لمَنْ آمنَ، والنِّذارةِ لمَنْ أعرضَ عنِ الآياتِ والذِّكرِ، فبانَ بذلكَ أنَّ للهِ تعالى بوحدانيَّتِه وتمامِ علمِه وشُمولِ قُدرتِه صفاتِ الكمالِ، فصحَّ أنَّهُ المُستحِقُّ لجميعِ الحمدِ[2].

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَشَرُ والنّاسُ:

الفرقُ بينَ البَشَرِ والنّاسِ: أنَّ قولَنا: (بَشَرٌ) يقتضي حُسْنَ الهيئَةِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 155.

البَشَرُ مِنْ حُسْنِ الهيئةِ أوِ الظُّهورِ، والنّاسُ مِنَ الحركةِ

لأنَّهُ مُشتقٌّ مِنَ البِشارةِ، وهي حُسْنُ الهيئةِ، يقالُ: رجلٌ بَشيرٌ، إذا كانَ حسنَ الهيئةِ، فسُمّيَ النّاسُ بَشَرًا؛ لأنَّهم أحسنُ الحيوانِ هيئةً، ويجوزُ أنْ يقالَ: إنَّ قولَنا: (بَشَرٌ) يقتضي الظُّهورَ، وسُمّوا بَشَرًا؛ لظُهورِ شأنِهم، ومنهُ قيلَ لظاهرِ الجِلْدِ: بَشَرةٌ، وأمّا قولُنا: (النّاسُ) فيقتضي النَّوْسَ؛ وهو الحركةُ.

والنّاسُ جمعٌ، والبَشَرُ واحدٌ وجمعٌ، وفي القُرآنِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، ويقالُ: محمَّدٌ خيرُ البَشَرِ، أي: النّاسِ كلِّهم، ويُثنَّى البَشَرُ، فيقالُ: بَشَرانِ، وفي القُرآنِ: ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47][1].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 101.

سُورَةُ مَرْيَمَ

سُورَةُ مَرۡيَمَ

❁ التّعريفُ العامُّ بالسّورةِ:

سـورةُ مريـمَ مكّيّةٌ وهي من أوائلِ ما نَزلَ

ذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّ سورةَ مريمَ مكّيّةٌ، وزعم بعضُهم استثناءَ آيتَين مدنيّتَين[1]، وهما قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [مريم: 58]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١﴾ [مريم: 71]، والصّحيحُ مذهبُ الجمهور؛ فنظمُ فصولِ السّورة عامّةً يدلُّ على أنّها نزلت متلاحقةً حتّى تمّت دون فصلٍ، واتّصالُهما بالسّياق سبكًا وموضوعًا يسوّغُ الشّكَّ في مدنيّتِهما[2].

وهي السّورةُ التّاسعة عشرةَ في ترتيب المصحفِ الشّريف، جاءت بين سورتَي الكهف وطه، وعددُ آياتها ثمانٍ وتسعون آيةً في المصحف الشّاميّ والكوفيّ، وتسعٌ وتسعون في المدنيّ والمكيّ[3].

والسورة الرّابعة والأربعون في التّرتيب النّزوليّ، نزلت بين سورتَيْ فاطر وطه[4]، ولم يثبُت في التّرتيب النّزوليّ خبرٌ صحيحٌ، ولا دليلَ عليه منَ السّياقِ.

❁ من فضائل السورة:

وقد وردَ في فضلها آثارٌ؛ فمن ذلك ما جاء في صحيح البخاريّ عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريمَ وطه والأنبياءِ: "إنّهنّ منَ العتاقِ الأول، وهنّ من تِلادي"[5].

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/ 220، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 259، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 237.

(2) دروزة، التفسير الحديث: 3/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 5.

(3) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 181.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 58.

(5) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب تأليف القرآن، حديث رقم: (4708)، العِتاق: جمع عتيق وهو القديم، وكذلك التالد بمعنى القديم، والمراد أنهن نزلن في أول ما نزل من القرآن وهو صغير، مكي، الهداية: 4/ 352.

وقد أبكت هذه السّورةُ النَّجاشيَّ وأساقفتَه، فقد سأل النّجاشيُّ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه: هَلْ مَعَكَ مِمّا جاءَ به عَنِ اللّه مِنْ شَيْءٍ؟ فقالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَم؛ فقالَ لَهُ النَّجاشيُّ: فاقْرَأْهُ عليَّ، فقَرَأَ عليْه صَدْرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، "فَبَكَى - واللّه - النَّجاشيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لحْيَتَهُ، وبَكَتْ أَساقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلوا مَصاحِفَهُم حينَ سَمِعوا ما تَلا عليْهِم، ثُمَّ قالَ النَّجاشيُّ: إِنَّ هَذا واللّه والَّذي جاءَ به موسَى لَيَخْرُجُ مِن مِشْكاةٍ واحِدَةٍ"[1].

أسماء السّورةِ وسببُ تسميتها:

قصّةُ مريمَ عنوانُ الرّحمةِ والتّنزيه

الاسم المشهور لهذه السّورةِ اسمٌ واحدٌ، هو (مريم)، سُمّيت به في جميع المصاحف، وكتبِ التّفسير والسُّنّةِ، وهو اسمُها الثّابتُ رِوايةً وشُهرةً[2]، ورويَ عنِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما تسميتُها بسورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[3]، وكذلك ما ورد من حديث أمّ سلمةَ رضي الله عنها في حديث النّجاشيّ آنفِ الذّكرِ.

وقد علَّل بعضُ المفسّرين تسميتَها باسم مريم؛ "لاشتمالها على نبئِها الخارقِ؛ لأنّ قصّتَها تشيرُ إلى أنّ منِ اعتزل من أهله لعبادة اللّه، وطلب بها إشراقَ نوره، يُرجَى أن يُكشفَ له عن صفات الحقِّ وعن عالمِ الملكوت، وتظهرُ له الكراماتُ العجيبةُ"[4]، وليكونَ اسمُ مريمَ بنتِ عمرانَ عنوانًا لهذه السّورة؛ لما في ولادة عيسى عليه السلام من أجواء روحيّةٍ، وما يحيطُ بها من أوضاع غيبيّةٍ، وللتّذكير بهذه المرأة الطّاهرةِ التي عاشتِ الإيمانَ في طفولتِها وشبابِها، وكان لها تلك المعجزةُ الكبيرةُ وهي ولادةُ عيسى عليه السلام من دون أبٍ[5]، "وهي تمثّلُ

(1) ابن حنبل، المسند: 1/ 201، والحديث رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق صدوق يدلس وقد صرّح بالسماع، يُنظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 6/ 25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 58.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 377.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/ 245.
(5) فضل الله، من وحي القرآن: 12/ 95.

نموذجًا للمصاعبِ والمحنِ التي يواجهُها توريثُ الدّين للأبناء، وهي سيدةُ نساءِ العالمين الطّاهرةُ العذراءُ البتولُ"[1].

ومن يُدقّقِ النَّظر يجدْ أنَّ سورةَ مريمَ جاءت بهذه التّسمية بالاعتبار الرّمزيّ، فمريمُ عليها السلام ترمزُ إلى الرّحمة والحنانِ الفيّاضِ، وقد ورد اسمُ (الرحمن) في هذه السّورة ما يقربُ من ربعِ ما ورد في القرآن كلِّه، ودارتِ السّورةُ على قصص الأنبياءِ من زاوية الرّحمة، فهبةُ يحيى لأبيه زكريا عليهما السلام رحمةٌ، وولادةُ عيسى عليه السلام رحمةٌ، وحرصُ إبراهيمَ عليه السلام على إيمان أبيه رحمةٌ، وهبةُ إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام رحمةٌ، وإرسالُ هارونَ مع موسى عليهما السلام رحمةٌ، وأمرُ إسماعيلَ عليه السلام أهلَه بالصّلاة رحمةٌ، ورفعُ إدريسَ عليه السلام مكانًا عليًّا رحمةٌ، وما ورد في السّورة من ترغيبٍ وترهيبٍ وإنذارٍ وتبشيرٍ رحمةٌ، وختمُ السّورة بجعلِ الوُدِّ للذين آمنوا رحمةٌ، فهذه الرّحماتُ المتكاثرةُ الصّريحةُ وغيرُها من الرّحمات الضّمنيّةِ، يمثّلها خيرُ تمثيلٍ قصّةُ مريمَ عليها السلام، فإذا ضممنا إلى ذلك عجيبَ ما ورد في القصّة، ورحمةَ اللّه وعنايتَه بها، كان منَ البديع تسميتُها بهذا الاسم العريقِ، وأمّا ما وردَ في بعض الرّواياتِ من تسميةِ السّورةِ بمطلعِها ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فهو ليس منَ التّسميةِ العلميَّة، بل من ذكر السّورةِ بما جاء في مطلعِها، ولذلك لم يشتهر.

المحورُ العامُّ للسّورة:

معاني السّورةِ تلتفُّ حول موضوعِ الرّحمةِ باعتباراتٍ متعدِّدةٍ

المحورُ العامُّ الّذي يجمعُ موضوعاتِ هذه السّورة هو "بيانُ اتّصافِه سبحانه بشمول الرّحمةِ بإفاضة النّعم على جميع خلْقِه، المُستلزمِ للدّلالة على اتّصافِه لجميع صفاتِ الكمالِ، المُستلزمِ لشمولِ القدرةِ على إبداعِ المُستغرَب، المُستلزمِ لتمام القدرة الموجبِ للقُدرة على البعث والتّنزّه عنِ الولد"[2]، ودورانُ السّورة على محورِ

(1) السامرائي، لمسات بيانية في سورة مريم، موقع الشبكة العنكبوتية:
http: / / www.kalemtayeb.com/ index.php/ kalem/ safahat/ item/ 8956.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 514.

التّوحيد والتّنزيه والتّبشيرِ والإنذارِ[1]، فمن زاوية الرّحمةِ، فإنَّ موضوعَ التّوحيد سائرٌ في سوَر القرآن كلِّها، والعبرةُ في تعيين الزّاويةِ التي ذُكر فيها التّوحيدُ.

الموضوعاتُ الرّئيسةُ للسّورةِ:

براعةُ ترتيبِ الأنبياءِ في السّورة باعتبارِ امتداداتِ الرّحمةِ

تدورُ موضوعاتُ هذه السّورةِ الكريمةِ حول ذكرِ طائفةٍ من قصصِ الأنبياء والمرسلين، ولمّا كانت هذه السّورةُ مشتملةً على ذكر مجموعةٍ منَ الأنبياءِ شكّلَ ذكرُهم مقطعًا كبيرًا اقتربَ من ثلثَيْها، وقد ركّزت على موضوع الرّحمةِ الإلهيّةِ التي حفّتِ الأنبياءَ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ، فيحسنُ الوقوفُ معهم واحدًا واحدًا لتلمُّسِ أسرار ترتيبهم في السّورة:

أوّلًا: امتازتِ السّورةُ ببراعةِ الاستهلالِ فبدأت بصورةٍ واضحةٍ من صوَر رحمةِ اللّه تعالى بأنبيائه عليهم السلام ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وأنّه دعا ربّه بأن يرزقَه غلامًا بعد أن بلغ منَ الكبرِ عِتيًّا وامرأتُه عاقرٌ، وكان له ما دعا، وهذا من رحمة اللّه الخاصّةِ بالأنبياء عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ، وذكرَ يحيى عليه السلام باعتباره بشارةَ أبيه زكريا عليه السلام، ولمّا كان العقلُ يتقبّلُ ولادةَ العاقرِ أكثرَ من تقبّلِه ولادةَ المرأة من غيرِ زوجٍ، كانت قصّةُ زكريّا عليه السلام كالتّهيئةِ لقصّة مريمَ.

ثانيًا: بعد ذكْرِ رحمةِ اللّه بالأب والابن، كان مناسبًا أن تُذكرَ رحمةُ اللّه الخاصّةُ بالأمّ والابن ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: 21]، ولمّا كانت ولادةُ عيسى عليه السلام معجزةً "جعلتِ السّورةُ هذا الإعجازَ بين يدي قصّةِ زكريّا وابنِه يحيى؛ لأنّ ولادةَ يحيى كانت هي الأخرى معجزةً، فقد كان شيخاً وهنَ عظمُه، وكانتِ الوالدةُ عجوزًا عقيمًا، فمن أخصبَ العاقرَ، وأحيى الشّيخَ، ومنَّ بالولد؟"[2].

(1) شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها، ص: 213، وطهماز، التوحيد والتنزيه في سورة مريم، ص: 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 199 - 200.

ثالثًا: يحسُنُ بعد ذكرِ رحمةِ الآباء بالأبناءِ الانتقالُ لبيان رحمة الأبناءِ بالآباء، فذُكرت رحمةُ إبراهيمَ عليه السلام بأبيه لهدايته وإنقاذه ممّا هو فيه، وكان نتيجةً لتلك الرّحمة المتأصّلة في أنبياء الله تعالى، أن يُرزق إبراهيمُ عليه الصّلاةُ وأتمُّ التّسليم بالولد، وبذلك يكونُ قد جمع الرّحمتَين بالأصول والفروع، وتوسّطُه في التّرتيب يناسبُ هذا المعنى؛ ولذا نجدُ الآيةَ في نهاية الحديث عنه تقولُ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم: 50] أي: أبناءُ إبراهيمَ عليهم الصّلاة والسّلامُ، فالآية تذكّرُنا بأنّه الأصلُ، وأنّه عليه السلام منه قدِ انبثقت جذوةُ الرّحمة[1].

رابعًا: بعد أنِ ابتدأ المقطعُ بالفرع ثمَّ توسّط الأصلَ، عاد التّرتيبُ لذكر مثالٍ آخرَ على الرّحمة المتوارثةِ في هذه الذريّةِ الطيّبةِ، فذكرَ رحمةَ الله بهبةِ الأخ بأخيه، وهي هبةُ هارونَ لأخيه موسى عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم: 53].

خامسًا: الانتقالُ إلى بيانِ لونٍ جديدٍ منَ الرّحمةِ وهي رحمةُ أبينا إسماعيلَ عليه السلام بأهله ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم: 55]، وهي رحمةٌ مرتبطةٌ بالبيت النّبويِّ، وأثرِه فيمن بعده وخصوصًا نَبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم[2].

سادسًا: ثمّ ينقلُنا القرآنُ في ترتيبه للأنبياء بذكرِ إدريسَ عليه السلام وهو آخرُهم ذكْرًا وأسبقُهم زمانًا على ما اتّفق عليه المفسّرون، وسرُّ ذلك أنَّ اللّه تعالى أراد أن يذكرَ مثالاً على الرّحمة بأنبيائِه دون تفصيلٍ، بل أراد أن يجعلَها مجملةً، وخيرُ مثال على ذلك نبيُّ اللّه إدريسُ عليه السلام، ونجدُ أنّ القرآن قدِ اكتفى بالإخبار عنه ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: 57] دون تفصيلٍ لأمرِ الرّفعِ، وإنّما اكتفاءٌ يفهمُ أبعادَه من نهلَ مِن ينابيعِ الرّحمة القرآنيّةِ، وفائدةُ ذلك الختم بنبيّ اللّه إدريسَ أنَّ موضوعَ هذه السّورةِ الدّائرَ حول الرّحمة – وخصوصًا رحمة اللّه بمريمَ وابنِها عليه السلام الذي فصّلتْه السّورةُ أكثرَ ما فصّلت –؛ ليبيّنَ لنا أنَّ الرَّفعَ الذي كان لإدريسَ عليه السلام سابقًا سيكون لعيسى عليه السلام لاحقًا[3].

وقد جاءت موضوعاتُ السّورة متلائمةً مع الغرَضِ الرّئيسِ وهي تتمثّلُ في الآتي:

---

(1) الغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص: 242.

(2) ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: 124].

(3) المثنى عبد الفتاح، دلالة ترتيب الأنبياء في القرآن الكريم، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، مج (8) عدد (2أ)، ص: 124.

أوّلًا: الرَّدُّ على اليَهودِ فيما اقْتَرَفوهُ مِنَ القَوْلِ الشَّنيعِ في مَرْيَمَ وابْنِها، فكانَ فيها بَيانُ نَزاهَةِ آلِ عِمرانَ وقَداسَتِهِم في الخَيْرِ.

ثانيًا: الإِنْحاءُ على بَعْضِ خَلَفِهِم مِنْ ذُرِّيّاتِهِمُ الَّذينَ لَم يَكونوا على سُنَنِهِم في الخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إِذْ نَسَبوا للّٰه ولَدًا.

ثالثًا: التَّنْويهُ بشَأْنِ القُرْآنِ في تَبْشيرِه ونِذارَتِه، وأَنَّ اللهَ يَسَّرَهُ بكَوْنِه عَرَبيًّا.

رابعًا: الاعتبارُ مِمّا حَلَّ بالمُكَذّبينَ مِنَ الأُمَمِ منَ الاستئصال.

خامسًا: وَصْفُ الجَنَّةِ وأَهْلِها، والنّارِ وأهلِها.

سادسًا: حِكايَةُ إِنْكارِ المُشْرِكينَ البَعْثَ وتبجُّحِهِم على المُسْلِمينَ بمَقامِهِم ومَجامِعِهِم.

سابعًا: التَّنْويهُ بالقُرْآنِ ومِلَّتِه العَرَبيَّةِ، وأَنَّهُ بَشيرٌ لأَوْليائِه ونَذيرٌ بهَلاكِ مُعانَديه كما هَلَكَتْ قُرونٌ قَبْلَهُم[1].

بيانُ مناسبةِ السّورةِ لسابقتِها ولاحقتِها:

أوّلًا: مناسبةُ سورةِ مريمَ لسورةِ الكهفِ:

اتّفاقُ سورةِ مريمَ والكهفِ في عجيبِ الأخبارِ والشَّحنِ بالقصصِ

لمّا كان مقصودُ سورة الكهفِ الدّلالةَ على أنّ القرآن قيّمٌ لا عوجَ فيه، وبه تمامُ الانتظام في نعمةِ الإبقاء الأوّلِ، ودلّ على ذلك بأن ساق القصصَ أحسنَ سَوْقٍ، وختمَها بمثلِ ذلك؛ ابتدأ هذه بالكشفِ عن أغربَ من تلك القصص، تحقيقًا لآية ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]، بسياق غيرِ ما تقدّم فيما مضى منَ السّور، وجزئياتٍ لم تُذكر إلّا فيها مع عدم المخالفة لما مضى، تأييدًا لأنّ كلماتِه لا تنفدُ، وعجائبَه لا تعدُّ ولا تحدُّ، وأنّه لو كان من عند غيره لاختلف[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 58 - 60.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 162 - 163.

فالسّورتان قد ذكرتا عجائبَ خلقِ اللّه تعالى، وكان أعجبَ ما جاء في سورة الكهف قصّةُ الفِتيةِ، وأعجبَ ما جاء في سورة مريم ولادةُ عيسى عليه السلام من غير أبٍ، وهذا اشتراكٌ في الخبر العجيبِ، واشتركتا في حجم القصص الذي أخذ مساحةً لفظيّةً كبيرةً، ودارت التّعقيباتُ فيهما حول توحيدِ اللّه تعالى ونفيِ الشّريك والولدِ عنه.

ثانيًا: مناسبةُ سورةِ مريمَ لسورة طه:

أوّلُ سورة طه متّصلٌ بآخرِ سورة مريمَ ومناسبٌ له في المعنى، إذ ذكرَ في آخر مريمَ أنّه يسّر القرآن بلسانٍ عربيّ مبينٍ؛ ليكون تبشيرًا للمتّقين وإنذارًا للمعاندين، وفي أوائلِ طه ما يؤكّدُ هذا المعنى[1].

الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ لسورةِ مريمَ:

أوّلًا: الخصائصُ الموضوعيّةُ:

تميَّزتِ السّورةُ الكريمةُ بالمشاهد القصصيّةِ التي وردت فيها، إذ لم تردْ في غيرها بهذا العرضِ، وتآلفت القصصُ حول موضوع الرّحمةِ، وأثره في دعوة الأنبياء.

وامتازتِ السّورةُ بذكر مجموعةٍ منَ القصص يجمعُها رابطٌ واحدٌ وهو رابطُ القرابة، بدءًا بذكر الأب مع ابنه، ثم الأمِّ مع ابنها، فالابنِ مع أبيه، فالابنِ مع ابنه وحفيدِه، فالأخِ مع أخيه، فالزّوجِ مع أهله.

وقد تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذكر جانبٍ من حوار الابنِ إبراهيمَ - عليه السلام - مع والده ومُناداتِه له ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ [مريم: 42، 43، 44، 45] أربعَ مرّات بما يتلاءمُ مع محورِها في الحرص على نقلِ هذا الدّينِ بمنتهى الرّحمةِ بين الأرحام.

وتفرّدتِ السّورةُ بمشاهدَ منَ العذابِ لم ترد في غيرها من السّور، يُنظر الآيات: [68 - 87].

تميّزتِ السّورة الكريمةُ بأنّها كانت معرضًا للانفعالات والمشاعرِ القويّة، وبخاصّةٍ في قصّة مريمَ وميلادِ عيسى، وحوارِ إبراهيم مع أبيه، وتلك الانفعالاتُ مشهدٌ حيٌّ على توريث التّوحيدِ والعبوديّةِ بالرّحمة والمحبّةِ، وفي نبْذ وراثةِ الشّرك.

كانتِ الرّحمةُ في بداية السّورة مقترنةً بقصّة زكريّا عليه السلام حين نادى ربّه بأن يهبَه ذرّيّةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 93.

ترثُ النّبوّةَ، وفي ذاك البدءِ مقترنًا مع القصّة دلالةٌ على علوّ شأنِ توريث النّبوةِ، وأنّ الرّحمةَ الحقيقيّةَ المُهداةَ للخلقِ هي توريثُهم الدّينَ، والسّيرَ على خطاه، والاستضاءةَ بهداه.

ثانيًا: الخصائصُ الأُسلوبيّةُ:

هناك العديدُ منَ الأساليب التي ميّزت هذه السّورةَ عن غيرها منَ السّوَر وإن شاركتها بعضُ السّوَر في شيءٍ منها، ومن ذلك أنه ذُكر اسمُ (الرّحمن) في سبعة عشر موضعًا منَ السّورة[1]، بخلاف المواضعِ الأخرى التي ذكرت مقارباتُها أو صورُها، وهذه النّسبةُ تُشكّلُ ما يزيدُ عن ربع ما ورد في القرآن الكريم كلِّه.

ومن ذلك أيضًا أنَّ السّورةَ الكريمةَ تميزّت بذكر مادّةِ (عَبَدَ) تسعَ مرّات[2]، وهي سمةٌ تعبيريَّةٌ تدلُّ على اقتران العبوديَّةِ الحقَّةِ بالرّحمةِ.

ولهذه السّورة وقعٌ صوتيٌّ مميَّز، فإنَّ من يسمعُ آياتٍ من هذه السّورة يُدركُ ذلك، إذ له وقعٌ صوتيٌّ يجمعُ بين القوّة والهدوءِ، والجلال والجمالِ، وهذا واضحٌ في السّورة كلِّها.

وقد حظيتِ السّورةُ الكريمة بألفاظٍ تفرّدت بها عن غيرها منَ السّوَر من جهة الجذرِ والمادّة؛ وهذه الألفاظُ هي: ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾ و﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾ [مريم: 23] و﴿حَتۡمَا﴾ [مريم: 71] و﴿ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: 82] و﴿أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: 83] و﴿وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم: 85] و﴿إِدّٗا ٨٩﴾ [مريم: 89] و﴿هَدًّا ٩٠﴾ [مريم: 90] و﴿رِكۡزَۢا ٩٨﴾ [مريم: 98]، والجامعُ لهذه الألفاظ الثّمانيةِ التي تفرّدت بها السّورةُ أنّها ذاتُ اتّصالٍ مباشرٍ بمحورِ السّورةِ.

(1) الآيات ذات الرقم: 18 - 26 - 44 - 45 - 58 - 61 - 69 - 75 - 78 - 85 - 87 - 88 - 93 - 91 - 92 - 93 - 96.
(2) الآيات ذات الرقم: 2 - 30 - 36 - 42 - 44 - 49 - 61 - 63 - 65.

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾ [مريم: 1 - 3]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

التَّوطئةُ النَّظريَّةُ للانتقال إلى التّمثيلِ بالأعمالِ الصّالحةِ

لمّا ذكرَ في آخر سورة الكهف بشريّةَ النّبيِّ ﷺ، وأنَّه يوحَى إليه، وختمَ الآيةَ في ذكر الحضّ على عمل الصّالحاتِ لمن يَرجو لقاءَ اللّه، ناسبَ أن يبدأَ مطلعَ هذه السّورة بذكْر عملٍ منَ الأعمال الصّالحةِ وهو الدّعاءُ الخفيِّ، ليجمعَ بين أمرين؛ **الأوّل:** أنّ الأنبياءَ بشرٌ يَعتريهم ما يَعتري غيرَهم من سائر البشر، **والآخرُ:** التّمثيلُ بالعمل الصّالح وهو الدّعاءُ، فتكونُ الآيةُ الأخيرةُ من سورة الكهف كالتّوطئةِ النَّظريةِ لهذه الآيات، ومن جانبٍ آخرَ أُشيرَ في ختام سورة الكهفِ إلى الوحيِ وهو القرآنُ، وهنا شرعَ في ذكر مُعجزةٍ حسيَّةٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكۡرُ﴾: يقالُ الذِّكْرُ تارةً ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفْسِ بها يُمكِنُ للإنسانِ أنْ يحفظَ ما يكتسبُهُ مِنَ المعرفةِ، ويقالُ تارةً لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلكَ قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ، وكلُّ واحدٍ منهما ضربانِ: ذِكْرٌ عن نسيانٍ، وذِكْرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ الحفظِ[1]، ومِنَ المجازِ: الذِّكْرُ بمعنى الشَّرَفِ، وفُسِّرَ به قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44][2]، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ معناهُ: ذكرَ ربُّكَ عبدَهُ برحمتِهِ[3].

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذكر).

2) ﴿رَحْمَتِ﴾: (رحم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[1]، والرَّحمةُ في الأصلِ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وقد تُستعملُ في الرِّقَّةِ المُجرَّدةِ عنِ الإحسانِ، وقد تُستعملُ في الإحسانِ المُجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحوُ: رحمَ اللّهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ بها اللّهُ سبحانَهُ فليسَ يُرادُ بها إلَّا الإحسانُ المُجرَّدُ، وعلى هذا يقالُ: الرَّحمةُ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّينَ رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[2]، وقد يُعبَّرُ بالرَّحمةِ عن كلِّ خيرٍ مِنْ رِزْقٍ وغيرِهِ؛ كقولِه ﷻ: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: 28][3]، والمرادُ برحمتِه سبحانَهُ لزكريّا ﷺ: استجابةُ دعائِهِ، كما سيُصرِّحُ بذلكَ بقولِهِ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾[4].

3) ﴿عَبْدَهُۥ﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللّهُ تعالى[5]، والعبدُ يقالُ على أضرُبٍ: الأوَّلُ: عبدٌ بحُكْمِ الشَّرعِ؛ وهو الإنسانُ الَّذي يصحُّ بيعُهُ وشراؤُهُ مِنَ النّاسِ، نحوُ: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178]، الثّاني: عبدٌ بالإيجادِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّهِ، وهو المقصودُ بقولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: 93]، والثّالثُ: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّه مُخلَصٌ، وهو المقصودُ بنحوِ قولِه ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[6].

4) ﴿نَادَىٰ﴾: النِّداءُ: رفعُ الصَّوتِ وظُهورُهُ بطلبِ الإقبالِ، ويُطلَقُ كثيرًا على الكلامِ الَّذي فيه طلبُ إقبالِ الذّاتِ لعملٍ، أو إقبالِ الذِّهنِ لوَعْيِ كلامٍ، ولذلكَ سُمّيَتِ الحروفُ الَّتي يُفتتَحُ بها طلبُ الإقبالِ حروفَ النِّداءِ، ويُطلَقُ على الدُّعاءِ بطلبِ حاجةٍ وإنْ لم يكنْ فيه نداءٌ[7]، والنَّدى: بُعْدُ مَذْهَبِ الصَّوتِ، وتنادَوْا: نادَى بعضُهم بعضًا[8]، وأصلُ النِّداءِ مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) الراغب، المفردات: (رحم).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 63.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/ 20.
(6) الراغب، المفردات: (عبد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.
(8) الزبيدي، تاج العروس: (ندي).

النَّدى، أي: الرُّطوبةِ، يقالُ: (صوتٌ نَديٌّ رَفيعٌ)، واستعارةُ النِّداءِ للصَّوتِ مِنْ حيثُ إنَّ مَنْ كَثُرَ رُطوبةُ فمِه حَسُنَ كلامُهُ، ولهذا يوصَفُ الفصيحُ بكثرةِ الرّيقِ(1).

5) ﴿خَفِيًّا﴾: (خفي) يدلُّ على السَّتْر، يُقال: خَفيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ، وهو في خُفْيةٍ وخَفاءٍ، إذا سترتُهُ(2)، والخِفاءُ: ما يُستَرُ به؛ كالغِطاءِ(3)، وخَفَيْتُهُ: أظهرتُهُ، والاستخفاءُ: طلبُ الإخفاءِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: 5](4)، ويُقابَلُ الإخفاءُ بالإبداءِ تارةً؛ كقولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271] وبالإعلانِ أخرى؛ كقولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل: 25](5)، ومعنى ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾: أنَّ زكريّا ﷺ نادى بصوتٍ خَفيٍّ(6).

المَعنى الإجماليُّ:

الرّحمةُ محيطةٌ بعبادِ الله تعالى من كلِّ جانبٍ

شرعتِ الآياتُ بذكر الأحرف المقطّعةِ، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ من عند اللّه تعالى، وأنَّه منظومٌ من جنس كلامِ العرب، وأنَّ ما يُذكرُ فيه من أخبارٍ غيبيَّة هي من عند اللّه تعالى، وبدأتِ الآياتُ بذكر حال زكريّا ﷺ في دعائِه اللّه ﷻ والتجائه إليه، وسألَهُ بصوتٍ خَفيٍّ مُستسِرًّا بدعائِه ومسألتِه إيّاهُ(7).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بيانُ المرادِ بالحروفِ المُقَطَّعة:

الأحرفُ المقطّعةُ توطئةٌ لبيانِ إعجازِ القرآنِ في النّظمِ والغيبِ

اختُلِفَ في المرادِ بالأحرف المُقطَّعةِ في هذه السّورةِ، فذهب

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ندي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خفي).
(4) الراغب، المفردات: (خفي).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خفي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 142، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.

بعضُهم إلى جعل كلِّ حرفٍ رمزًا لصفاتِ اللّه تعالى، وقيلَ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ كلُّهُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللّه تعالى، وقيلَ: هذه الكلمةُ اسمٌ مِنْ أسماءِ القرآنِ[1]، وقيلَ: إنَّهُ اسمٌ للسّورةِ[2]، وانتُقدَتْ هذه الأقوالُ؛ لعدم دلالةِ اللُّغةِ عليها لا بالحقيقةِ ولا بالمجازِ؛ واللُّغةُ لا تدلُّ على ما ذكروهُ؛ فإنَّهُ ليسَتْ دلالةُ الكافِ أولى مِنْ دلالته على الكريم أوِ الكبيرِ، أو على اسم آخرَ مِنْ أسماءِ الرَّسولِ ﷺ أوِ الملائكةِ أو الجنَّةِ أوِ النّارِ، فحملُهُ على بعضِها دونَ بعضٍ تحكُّمٌ لا تدلُّ عليه اللُّغةُ أصلًا[3]، ولم يرد خبرٌ في ذلك يُعتمَدُ[4].

وقيلَ: هي حروفٌ مسرودةٌ على طريقةِ التَّعديدِ[5]، وقيلَ بتفويض علم حقيقةِ ذلكَ إلى علّام الغُيوبِ تباركَ وتعالى[6]، والصّحيحُ أنَّها حروفٌ ابتُدئ بها للإشارة إلى إعجازِ القرآنِ الكريمِ، وأنَّ ما ورد في السّورةِ من أخبارٍ غيبيَّةٍ هي من عند اللّه تعالى.

أثرُ تفسيرِ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في الإعراب:

الإعــرابُ فـرعُ المعنَى وغُصـنُ المبنَى

يختلف الحكمُ الإعرابيُّ بحسبِ المعنى الذي فُسِّرت به هذه الأحرفُ، وأوجهُ الإعراب تتمثّلُ عمومًا في الآتي:

أولًا: إنْ جُعِلَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اسمًا للسّورةِ فمحلُّهُ الرَّفعُ: إمّا على أنَّهُ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (هذا كهيعص)، أي: مُسمًّى بهِ، وصحَّتِ الإشارةُ إليه معَ عدم جريانِ ذكرِه؛ لأنَّهُ باعتبارِ كونه على جناحِ الذِّكرِ صارَ في حكم الحاضرِ المُشاهَدِ، أو على أنَّهُ مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾، أي: المُسمَّى به ذكرُ رحمةِ ربِّكَ ...؛ فإنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 137 فما بعدها، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 506، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 377.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 378.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 506.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 378.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 378.

ذكرَها لمّا كانَ مَطلَعَ السّورةِ الكريمةِ ومُعظَمَ ما انطوَتْ هي عليه جُعِلَتْ كأنَّها نفسُ ذكرِها.

ثانيًا: إنْ جُعِلَ كلُّ حرفٍ من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اسمًا مِنْ أسمائه تعالى؛ ففيه وجهان: الأول: لا محلَّ لشيءٍ مِنْ ذلكَ ولا للمجموعِ مِنَ الإعرابِ، والآخر: إنَّ كلَّ حرفٍ على نيَّةِ الإتمامِ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو كافٍ، هو هادٍ، وهكذا، أو الأوَّلُ على نيَّةِ الإتمامِ كذلكَ، والبواقي خبرٌ بعدَ خبرٍ.

ثالثًا: إنْ جُعِلَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ مسرودًا على طريقةِ سَرْدِ الأعدادِ فـ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ هو ما يُنَبِّئُ عنهُ تعديدُ الحروفِ، كأنَّهُ قيلَ: المُؤَلَّفُ مِنْ جنسِ هذه الحروفِ مُرادًا به السّورةُ ذكرُ رحمةِ ربِّكَ إلخ، أوِ اسمُ إشارةٍ أُشيرَ به إليه؛ تنزيلًا لحُضورِ المادَّةِ - وهي الحروفُ - منزلةَ حُضورِ المُؤَلَّفِ منها، أي: هذا ذكرُ رحمةِ ربِّكَ إلخ، وقيلَ: هو مبتدأٌ قد حُذِفَ خبرُهُ[1].

سرُّ افتتاحِ السّورةِ بقصَّةِ زكريّا عليه السلام:

التَّوطِئَةُ التّدرُّجيَّةُ بذكرِ الغريبِ فالأغربِ

لمّا اشتملتِ السّورةُ على ذكرِ قصَّةِ مريمَ عليها السلام وما فيها مِنْ خوارقِ العاداتِ، وكانَ مِنْ أعظمِ ذلكَ حَملُها مِنْ غيرِ زوجٍ وولادتُها عيسى عليه السلام؛ ناسبَ ذلكَ افتتاحُ السّورةِ بذكرِ زكريّا عليه السلام، فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾؛ لما تشتملُ عليه قصَّتُهُ أيضًا مِنْ خَرْقِ العادةِ بولادةِ ابنِه يحيى عليه السلام وقد بلغَهُ الكِبَرُ، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا، فكان ذكرُ قصَّتِه كالتّوطئةِ التّدرّجيَّةِ بذكرِ الغريبِ فالأغربِ، ويُقوّي التّناسُبَ بينَ القصَّتينِ أنَّ زكريّا كان يَكْفُلُ مريمَ عليها السلام[2].

حُسنُ الافتتاحِ بقولِهِ: ﴿ذِكۡرُ﴾:

التَّذكيرُ برحمةِ اللهِ تعالى وكرامتِه لأوليائِهِ

افتُتِحَتْ قصَّةُ مريمَ وعيسى عليهما السلام بما يتَّصلُ بها مِنْ شؤونِ آلِ بيتِ مريمَ وكافلِها زكريّا عليه السلام، وكانَ في ذلكَ تذكيرٌ برحمةِ اللّهِ تعالى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 252، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.

وكرامتِه لأوليائِه[1]؛ فناسبَ تصديرُ الآيةِ بقولِه سبحانَهُ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾؛ ليستحضرَ السّامعُ رحمةَ اللّه السّابغةَ قبلَ سَرْدِ تفاصيلِ القصصِ الواردةِ في السّورةِ.

تعدُّدُ أوجهِ إعرابِه باحتمالِ كونِه مبتدأً أو خبرًا

إعرابُ ﴿ذِكۡرُ﴾:

اختُلِفَ في إعرابِ ﴿ذِكۡرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ على وجوهٍ:

أحدُها: أنَّهُ خبرٌ لـ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ على تقديرِ كونِه اسمًا للسّورةِ، أي: المُسمَّى به ذكرُ رحمةِ ربِّكَ إلخ؛ فإنَّ ذكرَها لمّا كانَ مَطْلَعَ السّورةِ الكريمةِ ومُعظَمَ ما انطوَتْ هي عليه جُعِلَتْ كأنَّها نفسُ ذكرِها[2].

وثانيها: أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (هذا المتلوُّ مِنَ القرآنِ ذكرُ رحمةِ ربِّكَ)[3].

وثالثُها: أنَّهُ مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، والتَّقديرُ: (فيما أوحيَ إليك ذكرُ رحمةِ ربِّك)[4].

الرَّحمةُ تُحيطُ بالعبادِ كإحاطةِ الأمِّ بوليدِها

دلالةُ إضافةِ الذِّكرِ إلى الرَّحمةِ:

تحتملُ إضافةُ الذِّكرِ إلى الرَّحمةِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ وجهينِ:

أحدُهما: أنْ تكونَ مِنْ إضافةِ المصدرِ لمفعولِه، وهو الرَّحمةُ، والرَّحمةُ في نفسِها مصدرٌ أيضًا مضافٌ إلى فاعلِه، و﴿عَبۡدَهُۥ﴾ مفعولٌ بهِ، والنّاصبُ لهُ نفسُ الرَّحمةِ، وفاعلُ الذِّكرِ غيرُ مذكورٍ لفظًا، والتَّقديرُ: (أنْ ذكرَ اللّهُ رحمتَهُ عبدَهُ)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 252، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 378.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 3، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 5، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 5، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 561.

(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 562.

والثّاني: أنَّ ﴿ذِكۡرُ﴾ مصدرٌ مضافٌ إلى فاعلِه على الاتِّساع، و﴿عَبۡدَهُۥ﴾ منصوبٌ بنفسِ الذِّكر، والتَّقديرُ: (أنْ ذكرتِ الرَّحمةُ عبدَهُ)، وجعلُ الرَّحمةِ ذاكرةً لهُ مجازٌ[1]، ومعنى ذكرِها بُلوغُها وإصابتُها؛ كما يقالُ: ذَكَرَني معروفُ فلانٍ، أي: بَلَغَني[2].

براعةُ الاستهلال في ذكرِ الرَّحمةِ في مَطْلَعِ السّورة:

الـرَّحــمــةُ عـنـوانُ الـسّـورة ومـضـامـيـنُ مقاطِعِها دائرةٌ عليها

ذُكِرَتِ الرَّحمةُ في فاتحةِ قصَّةِ زكريّا عليه السلام، التي هي فاتحةُ هذه السّورةِ الكريمةِ؛ إيذانًا بأنَّ اللّهَ يرحمُ مَن التجأ إليه[3]، وإشارةً إلى أنَّ هذه السّورةَ ستكونُ مشحونةً بذكرِ الرَّحمة، ولذلكَ كَثُرَ فيها ذكرُ (الرَّحمن) حتى بلغ سبع عشرة مرَّة، أي: ربع ما ورد في القرآن الكريم كلِّه؛ ولِما في السّورة من معاني الرّحمةِ المتمثّلةِ في القصَصِ المذكورِ، فهي رحماتٌ متواليةٌ على العبادِ، فهو من براعة الاستهلالِ.

نكتةُ إضافةِ الرَّحمةِ إلى الرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ:

هــبــةُ الــولــدِ الوارثِ للنُّبوّةِ أثرٌ من آثارِ الرُّبوبيَّةِ

أُضيفَتِ الرَّحمةُ إلى الرُّبوبيَّةِ دونَ غيرِها، فقيلَ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (ذكرُ رحمةِ اللّهِ)؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ أنسبُ بسياقِ ذكرِ الرَّحمةِ؛ لأنَّها مُنبِئةٌ بحسَبِ معناها اللُّغويِّ عن الإحسانِ وتربيةِ الشَّيءِ وتكميلِه شيئًا فشيئًا، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهُ جلَّ وتقدَّسَ قد رحمَ زكريّا عليه السلام بمقتضى كمالِ رُبوبيَّتِه، فأعطاهُ ولدًا كاملًا في بابِ النُّبوَّةِ، وبشَّرَهُ بنفسِه، وتولَّى تسميتَهُ ولم يُشْرِكْ فيها مَنْ تقدَّمَهُ[4]، ولا يَضيعُ ولا يَخيبُ مَنْ كانَ مَحوطًا بالرَّحمةِ والرُّبوبيَّةِ.

نكتةُ إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ الخِطاب:

تكميلُ المُخاطَبِ بإضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِه

إنْ جُعِلَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ - وهو الظّاهرُ - فالتَّعرُّضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عنِ التَّبليغِ إلى

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 562.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 84.

الكمالِ، معَ الإضافةِ إلى ضميرِه ﷺ - للإيذانِ بأنَّ تنزيلَ السّورةِ عليه تكميلٌ له[1]، وفي هذه الإضافةِ أيضًا تنويهٌ بشأنِه ﷺ[2]، وإنْ جُعِلَ الخطابُ عامًّا لكلِّ أحدٍ ففي ذلكَ أيضًا تكميلٌ للمخاطَبينَ بتعليمِهم سُلوكَ سبيلِ زكريّا عليه السلام في الابتهالِ والالتجاءِ إلى مولي النِّعَمِ كلِّها جلَّ وتقدَّسَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعُبوديَّة:

العُبوديَّةُ الحقَّةُ طريقُ العزِّ والشَّرفِ والرَّحمةِ

في التَّعبيرِ عن زكريّا عليه السلام في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ بصفةِ العُبوديَّةِ أوَّلًا تنويهٌ لشأنِه، وتفخيمٌ لحالِه[3]؛ لأنَّ العُبوديَّةَ للّٰه تعالى هي مُنتهى العزِّ والشَّرَفِ والكرامةِ؛ بخلافِ عُبوديَّةِ العبدِ لسيِّدٍ يأخذُ خيرَهُ فهي تسوءُ وتُحزِنُ، أمّا العُبوديَّةُ للّٰه تعالى فيأخذُ العبدُ فيها خيرَ سيِّدِه[4]، وفي هذا الوصفِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ العُبوديَّةَ سبيلُ نَيْلِ الهِباتِ والكراماتِ والرَّحَماتِ.

فنُّ بديعِ الطِّباقِ:

لا زالتِ البشريَّةُ بخيرٍ ما دامتْ في رِضا ربِّها

بين لفظِ الربِّ والعبدِ في قولِه تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ محسِّنٌ بديعيٌّ معنويٌّ وهو الطِّباق، فالآيةُ توحي بفَيَضانِ الرَّحمةِ مِنْ جَنابِ الرَّبِّ إلى رُبوعِ العبدِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ هذه العلاقةَ هي العلاقةُ الثّابتةُ في أصولِها وثمراتِها، وهي التي تأتي بالخَيْرِ العميمِ للبشرِ إنِ التزموا بأحكامِها دون تحريفٍ أو تبديلٍ.

بلاغةُ إضافةِ لفظ (عبد) إلى الضَّمير:

تشريفُ زكريّا عليه السلام وتقريرٌ بأنَّه متَّصفٌ بالعبوديَّة

في إضافةِ زكريّا عليه السلام المُعبَّرِ عنهُ بوصفِ العبدِ إلى ضميرِ الرَّبِّ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ تنويهٌ به[5]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 187.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9020.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.

وتشريفٌ لهُ ببيانِ أنَّ عُبوديَّتَهُ لربِّه لا للخلْقِ[1]، ودلالةٌ على كمالِ قُرْبِه مِنْ ربِّه الَّذي رحمَهُ، وأجابَ دُعاءَهُ[2].

بلاغةُ التّفصيلِ بعد الإجمالِ:

تقريرُ المعاني بعد إجمالِها أرسخُ في الأذهانِ

قولُه سبحانَهُ: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلُ كلٍّ مِنْ ﴿عَبۡدَهُۥ﴾، أو عطفُ بيانٍ لهُ[3]، وفائدةُ الإبدالِ هي التَّقريرُ والتَّأكيدُ[4]؛ لما في سُلوكِ طريقَيِ الإجمالِ أوَّلًا في ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ والتَّفصيلِ ثانيًا في ﴿زَكَرِيَّآ﴾؛ مِنْ تشويقِ السّامعِ إلى معرفةِ المرادِ بالعبدِ، فإذا وردَ عليه بيانُهُ بعدَ ذلكَ تمكَّنَ في نفسِه فضلَ تمكُّنٍ.

بلاغةُ النَّظمِ المُعجزِ في تقديمِ الخبرِ:

مَزيَّةُ نَظْمِ القرآنِ فيما احتواهُ من بديعِ الأسلوبِ ممّا هو مغايرٌ لكلامِ النّاسِ

جاءَ نظمُ قولِه ﷻ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ على طريقةٍ بديعةٍ مِنَ الإيجازِ والعُدولِ عنِ الأسلوبِ المُتعارَفِ في الإخبارِ في كلامِ النّاسِ، وأصلُ الكلامِ على ما جرتْ عليه عادةُ المتكلِّمين: ذكرُ عبدِنا زكريّا إذ نادى ربَّهُ فقالَ: ربِّ إلخ، فرحمَهُ ربُّكَ، فكانَ في تقديمِ الخبرِ برحمةِ اللّه اهتمامٌ بهذه المَنْقَبَةِ لهُ، وإنباءٌ بأنَّ اللّهَ يرحمُ مَنِ التجأَ إليهِ[5]، وهذا من أماراتِ النَّظمِ البديعِ في الكلامِ المعجزِ المغايرِ لكلامِ البشرِ.

براعةُ الظَّرفِ في الرَّبطِ بين المعاني:

وظيفةُ الظَّرفِ بيانُ المعاني لا بيانُ زمانِها

﴿إِذۡ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ ظرفُ زمانٍ منصوبٌ، وقدِ اختُلِفَ في ناصبِه على ثلاثةِ أقوالٍ: أحدُها: أنَّهُ منصوبٌ بـ ﴿ذِكۡرُ﴾[6]، والثّاني: أنَّهُ منصوبٌ بـ ﴿رَحۡمَتِ﴾[7]، والثّالثُ:

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9020.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 168.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 5.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 187.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 61.

(6) العكبري، التبيان: 2/ 866، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 239.

(7) العكبري، التبيان: 2/ 866، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 325، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253.

أنَّهُ بدلٌ مِنْ ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليهِ؛ كما في قولِه ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ [مريم: 16][1].

ووظيفةُ الظَّرفِ الرَّبطُ بين الإخبارِ عن رحمةِ اللّه تعالى بشأنِ زكريّا ﷺ، وتفصيل ذلك، فليس المقصودُ بالظَّرفِ تعيينَ الزَّمانِ، بل تعيينُ ما تضمَّنه ذلك الزَّمانُ، وظيفةٌ بيانيَّةٌ تُجمِّلُ الانتقالَ بين المعاني.

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّداءِ لا بالدُّعاءِ:

النِّداءُ بيانٌ كاشفٌ عن شدَّة احتياجِ الدّاعي والتجائِه

عُبِّرَ بالنِّداءِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ مجازًا؛ لأنَّ أصلَ النِّداءِ رفعُ الصَّوتِ وظُهورُهُ بطلبِ إقبالِ المُنادى[2]، وهذا لا يُتصوَّرُ في حقِّه تعالى[3]، فيُحمَلُ النِّداءُ هنا على الدُّعاءِ بطلبِ حاجةٍ؛ لأنَّ شأنَ الدُّعاءِ في المُتعارَفِ أنْ يكونَ جَهْرًا، أي: تضرُّعًا؛ لأنَّهُ أوقعُ في نفسِ المدعوِّ[4]، والمعنى: دعا ربَّهُ وناجاهُ بذلكَ في مِحْرابِه، بدليلِ قولِه سبحانَهُ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]، فبيَّنَ أنَّهُ استجابَ لهُ في صلاتِه كما نادى في الصَّلاةِ[5]، ولفظُ النِّداءِ يومئُ إلى شدَّة احتياجِ الدّاعي لما في دُعائه من طلبِ الاستجابة.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الرَّبِّ:

مناسبةُ لفظِ الرَّبِّ لسياقِ الدُّعاءِ والالتجاءِ وطلبِ الحاجاتِ

اختيرَ لفظُ الرَّبِّ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (إذ نادى اللّهَ)؛ لسببين:

الأوّل: لما يُنبِئُ عنهُ لفظُ الرَّبِّ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ مِنَ الإحسانِ والإفضالِ المُناسبَينِ لسياقِ الدُّعاءِ والالتجاءِ وطلبِ الحاجات.

الآخر: ليتلاءَمَ الكلامُ معَ ما قبلَهُ؛ وهو قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ذِكْرُ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 563.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 188.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9022.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 62.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 76.

﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾، ومعَ ما بعدَهُ؛ وهو قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، ويفيدَ تَكرارُ لفظِ الرَّبِّ في الآياتِ الثّلاث أنَّ زكريّا ﷺ كانَ محفوفًا بعنايةِ الرُّبوبيَّةِ حينَ نادَى، وحينَ رُحِمَ وأُجيبَ سُؤْلُه.

بلاغةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيّة إلى الضَّمير:

تشريفُ المضافِ إليه والإيذانُ بقُرْبِه مِنْ ربِّهِ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ زكريّا ﷺ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾؛ تشريفًا للمُضافِ إليهِ، وإيذانًا بالقُرْبِ في مقامِ الافتقارِ والالتجاءِ، فضلًا عمّا في هذه الإضافةِ مِنَ التَّناغُمِ معَ الإضافةِ السّابقةِ في قولِه ﷻ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ﴾؛ إذ توحي السّابقةُ بإفاضةِ الرَّحمةِ مِنَ الرَّبِّ إلى عبدِه بإجابةِ دعائِه، وتوحي هذه بضراعةِ العبدِ وفَقْرِه إلى ربِّه ومالكِ أمرِه عندَ السُّؤالِ.

نكتةُ التَّأكيدِ بالمصدرِ:

الاحتراسُ عن أوهامِ الأفهامِ

لم يُقتصَرْ على ذكرِ فعلِ النِّداءِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، بل ذُكِرَ معَهُ مصدرُهُ فقيلَ: ﴿نِدَآءً﴾؛ وذلك لأمورٍ: **الأوّل:** تأكيدُ فعلِه الصّادرِ مِنْ زكريّا ﷺ، **والثّاني:** تمهيدٌ لوصفِه بـ ﴿خَفِيّٗا﴾ الَّذي يترتَّبُ عليه مناسبةُ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها وما بعدَها، **والثّالث:** بيانُ أنَّ هذا النِّداء لم يكن إلّا خفيًّا؛ ففيه احتراسٌ ممّا قد تتوهّمُه الأذهانُ من رفعِ الصَّوتِ.

غرضُ تنكيرِ: ﴿نِدَآءً﴾:

مناسبةُ التَّنكيرِ لوصفِ الخفاءِ

جيءَ بلفظِ النِّداءِ في قولِه ﷻ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ مُنكَّرًا؛ لإفادةِ تعظيمِ شأنِ هذا النِّداءِ الَّذي اجتمعَ فيه صفاتٌ شريفةٌ، منها كونُهُ صادرًا مِنْ نبيٍّ كريمٍ، ومِنْ قلبٍ خاضعٍ مُفتقرٍ مُتجرِّدٍ للّه تعالى، لا يرى غيرَهُ، ولا يرجو سواهُ، ومنها كونُهُ خَفيًّا ضارعًا لا رياءَ فيه، ولمناسبةِ الوصفِ بكونِه خفيًّا، فإنَّ تنكيرَ النِّداءِ مناسبٌ للخفاءِ.

بلاغةُ الجمعِ بينَ النِّداءِ والخفاءِ:

النِّداءُ كنايةٌ عن شدَّةِ الاحتياجِ والخفاءُ احتراسٌ يُؤكِّدُ الكنايةَ

لسائلٍ أن يسألَ عن بلاغةِ وصفِ النِّداءِ بالخفاءِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾، إذِ النِّداءُ رفعُ الصَّوتِ، والخفاءُ خَفْضُ الصَّوتِ؟! وقيل في ذلك أجوبةٌ:

الأوّل: أنَّه أتى بأقصى ما استطاعَ مِنْ رفعِ الصَّوتِ، إلا أنَّ الصَّوتَ كانَ ضعيفًا بسببِ الضَّعْفِ والكِبَرِ، فكانَ نداءً نظرًا إلى قصدِه، وخَفيًّا نظرًا إلى الواقعِ(1)، ففيه تصويرٌ للواقعِ التّاريخيِّ.

الثّاني: أنَّ ﴿خَفِيّٗا﴾ مجازٌ عنِ الإخلاصِ، والمعنى: نادَى نِداءً لا رياءَ فيهِ(2)، فيكونُ ﴿خَفِيّٗا﴾ كنايةً عن صفةِ الإخلاصِ.

الثّالث: لا مُنافاةَ بينَ كونِه نِداءً وكونِه خَفيًّا؛ لأنَّهُ نداءُ مَنْ يسمعُ الخَفاءَ(3).

الرّابع: النِّداءُ بيانٌ لشدَّةِ الاحتياجِ لا لرفعِ الصَّوتِ، فهو كنايةٌ عنِ الحالِ التي كان عليها زكريّا عليه السلام، وصفةُ الخفاءِ هي احتراسٌ عن توهّمِ أنّه رفعَ صوته بما لا يليقُ، وهذا الاحتراسُ هو الذي يُؤكِّد الكنايةَ، وهذا الجواب أوضحُها، وأمّا الإخلاصُ فمستفادٌ من واقعِ الحال، لا من نظمِ الكلام.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ لا اسمِ الفاعل:

الإيماءُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ في الإخبارِ عن خفايا أحوالِ السّابقين

اختيرَتْ صيغةُ المبالغةِ في قولِه جلَّ اسمُهُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (نداءً خافيًا)؛ لما تدلُّ عليه صيغةُ المبالغةِ؛ من أنَّ زكريّا عليه السلام قدِ اجتهدَ في إخفاءِ دعائِه عنِ النّاسِ، ولأنَّهُ مُناجاةٌ للّه وضَراعةٌ إليه وقد قالَ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف: 55](4)، ولبيانِ أنَّ هذا الدُّعاءَ كان بين العبدِ

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 507.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 562.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 63.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4609.

ومولاه لم يطَّلع عليه أحدٌ منَ النّاس؛ ليعلمَ أنَّه خفيٌّ، وفي وصف الخفاءِ بصيغةِ المبالغةِ إعجازٌ غيبيٌّ، إذ منْ أعلمَ النَّبيَّ ﷺ بأنَّه كان خفيًّا، بل شديدَ الخفاءِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النِّداءُ والدُّعاءُ:

من الفروق بينَ النِّداءِ والدُّعاءِ:

النِّداءُ يكونُ برفعِ الصَّوتِ، والدُّعاءُ يكونُ برفعِه وخَفْضِه وبالإشارةِ

الأوَّل: النِّداءُ في الأصلِ يكونُ برفعِ الصَّوتِ بما لهُ معنىً، يقولُ الرَّجلُ لصاحبِهِ: نادِ مَعي؛ ليكونَ ذلكَ أندَى لصوتِنا، أي: أبعدَ لهُ، والدُّعاءُ يكونُ برفعِ الصَّوتِ وخَفْضِه، يقالُ: دعوتُهُ مِنْ بعيدٍ، ودعوتُ اللّه في نفسي، ولا يقالُ: ناديتُهُ في نفسي[1].

الثّاني: الدُّعاءُ قد يكونُ مِنْ غيرِ صوتٍ ولا كلامٍ، لكنْ بإشارةٍ تُنبِئُ عن معنى، ولا يكونُ النِّداءُ في الأصلِ إلّا برفعِ الصَّوتِ وامتدادِهِ[2].

الثّالثُ: النِّداءُ قد يقالُ بـ(يا) أو (أيا) ونحوِ ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ يُضَمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاءُ لا يكادُ يُقالُ إلّا إذا كانَ معَهُ الاسمُ، نحوُ: يا فلانُ[3].

الإخفاءُ والإسرارُ:

الإخفاءُ يُطلَقُ على سَتْرِ الشَّيءِ وإظهارِه، والإسرارُ يُطلَقُ على سَتْرِه

يشتركُ الإخفاءُ والإسرارُ في أنَّ كلًّا منهما يُطلَقُ على سَتْرِ الشَّيءِ، فيقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ[4]، ويقالُ: أسرَرْتُ الشَّيءَ إسرارًا، خلافُ (أعلنتُهُ)، ومِنْ ذلكَ: السِّرُّ، وهو النِّكاحُ، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ أمرٌ لا يُعلَنُ بهِ[5]، والسِّرُّ أيضًا الحديثُ المكتومُ في النَّفْسِ[6].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 534.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 524.
(3) الراغب، المفردات: (دعو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرر).
(6) الراغب، المفردات: (سرر).

وقد يُطلَقُ الإخفاءُ على إظهارِ الشَّيءِ، فيقالُ: خَفَيْتُ الشَّيءَ، إذا أظهرتُهُ[1].

وقد وردَ استعمالُ الإخفاءِ والإسرارِ في القرآنِ الكريمِ في سياقِ الكتمانِ والسَّتْرِ لقولٍ أو فعلٍ، وقوبِلَ كلٌّ منهُما بالإعلانِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: 77]، وقولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النمل: 25]، وقوبِلَ الإخفاءُ أيضًا بالإبداءِ - وهو الإظهارُ - تارةً؛ كما في قولِه سبحانَهُ: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وبالبُدوِّ - وهو الظُّهورُ - أخرى؛ كقولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ [الأنعام: 28]، وقوبِلَ الإسرارُ أيضًا بالجَهْرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ [الملك: 13]، ومَنْ تتبَّعَ مواضعَ استعمالِ الإخفاءِ والإسرارِ في القرآنِ الكريمِ يَلحَظُ أنَّ استعمالَ الإخفاءِ أكثرُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 4 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

الانتقالُ من الإجمالِ إلى التَّفصيلِ ببيانِ ما خفيَ من الدُّعاءِ الجزيلِ

لمّا ذُكِرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ زكريّا عليه السلام نادى ربَّهُ نداءً خفيًّا، وقع في نفسِ السّامعِ شوقٌ لمعرفةِ تفاصيلِ هذا الدُّعاءِ، وما جاءَ فيه، لا سيَّما عند أهلِ الكتابِ، فناسبَ أن يذكرَ هنا تفسيرُ هذا النِّداءِ وبيانُهُ، حيث اشتمل البيانُ على طلبِ الولدِ مِنَ اللّه سبحانه وتعالى بعد ذكرِ ضَعْفِ بدنه وكِبَرِ سِنِّه في قولِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، والإخبارِ عن خوفِه من أقاربه من عدم القيام بالحقوقِ الدّينيَّةِ، والإخبارِ بحال زوجِه، ثمَّ بيَّن حالَ الولدِ وما يكون له من حملِ العلم والدّين مِنْ بعدِه، ممّا تركَهُ الأنبياءُ مِنْ ذُرّيَّةِ يعقوبَ عليه وعليهم السلام، وطلبَ مِنْ ربِّه أنْ يجعلَ هذا الوارثَ مَرْضيًّا يرضاهُ اللّهُ والعبادُ دينًا وخُلُقًا وخَلْقًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَنَ﴾: (وهن) تدلُّ على ضَعْفٍ: وهَنَ الشَّيءُ يَهِنُ وهْنًا: ضَعُفَ[2]، والوَهَنُ: ضَعْفٌ مِنْ حيثُ الخَلْقُ أوِ الخُلُقُ، قالَ تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: 14]، أي: كلَّما عَظُمَ في بطنِها زادَها ضَعْفًا على ضَعْفٍ، وقالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النساء: 104][3]، ومعنى قولِه سبحانَهُ: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾: ضَعُفَ ورَقَّ[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 143، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 5، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهن).
(3) الراغب، المفردات: (وهن).
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 319، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وهن).

2) ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾: (عظم) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّةٍ، ومِنَ البابِ: العَظْمُ، معروفٌ، وهو سُمّيَ بذلكَ لقوَّتِه وشدَّتِه[1]، وجمعُهُ: عِظامٌ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 14]، وأصلُ (عَظُمَ الشَّيءُ): كَبِرَ عَظْمُهُ، ثمَّ استُعيرَ لكلِّ كبيرٍ، فأُجريَ مُجْراهُ، محسوسًا كانَ أو معقولًا، كما في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: 15][2].

3) ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾: (شعل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انتشارٍ وتفرُّقٍ في الشَّيءِ الواحدِ مِنْ جوانبِهِ، يقالُ: أشعلتُ النّارَ في الحَطَبِ، واشتعلَتِ النّارُ[3]، وأشعلتُ الخيلَ في الغارةِ: هيَّجْتُها[4]، وأشعلَ الإبِلَ: فرَّقَها[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ معناهُ: انتشرَ فيه الشَّيْبُ[6]، وأسرعَ فيه إسراعَ النّارِ في الحَطَبِ[7].

4) ﴿شَقِيّٗا﴾: (شقي) أصلٌ يدلُّ على المُعاناةِ وخلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[8]، وكما أنَّ السَّعادةَ نوعانِ: أُخرويَّةٌ، ودُنيويَّةٌ، كذلكَ الشَّقاوةُ، وإلى الشَّقاوةِ الدُّنيويَّةِ أشارَ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، وإلى الشَّقاوةِ الأُخرويَّةِ أشارَ بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123][9].

5) ﴿خِفۡتُ﴾: (خوف) أصلٌ يدلُّ على فراغٍ كبيرٍ في جوفِ شيءٍ، والخوف معناه الذُّعْرِ والفَزَعِ[10]، والخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويُستعمَلُ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]، وقالَ: ﴿وَإِنۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عظم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعل).
(4) الراغب، المفردات: (شعل).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (شعل).
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4609.
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شعل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقي).
(9) الراغب، المفردات: (شقي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).

خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: 3][1]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ كأنَّ خوفَهُ منهُم لعدمِ مراعاتِهم الشَّريعةَ وأمرَ الدّينِ[2].

6) ﴿ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾: (ولي) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلكَ: الوَلْيُ: القُرْبُ، يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقارِبُني"[3]، ومن الباب: المَوْلَى، ولهُ معانٍ؛ منها: المُعتِقُ، والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ ولِيَ أمرَ آخرَ فهو وليُّهُ[4]، وقولُهُ: ﴿خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ أرادَ بني عمِّه وعَصَبتِه، ومعناهُ: الَّذينَ يَلونَهُ في النَّسَبِ[5].

7) ﴿وَرَآءِي﴾: إذا قيلَ: (وراءَ زيدٍ كذا) فإنَّه يقالُ لمَنْ كانَ خَلْفَهُ؛ كقولِه تعالى: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: 13]، ويقالُ لما كانَ قُدّامَهُ؛ كقولِه سبحانَهُ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79][6]، ووَرَّى الخبرَ توريةً: سترَهُ وأظهرَ غيرَهُ، كأنَّهُ مأخوذٌ مِنْ وراءِ الإنسانِ؛ لأنَّهُ إذا قالَ ورّاهُ، كأنَّهُ جعلَهُ وراءَهُ[7]، وقولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾، أي: مِنْ بعدِ موتي[8].

8) ﴿عَاقِرٗا﴾: عُقْرُ الدّارِ: أصلُها، وعَقَرْتُ البعيرَ: نَحَرْتُهُ[9]، وعَقَرْتُ ظَهْرَ البعيرِ فانعقرَ إذا أثَّرتُ فيه بالرُّكوبِ، وقولُهُ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، أي: لا تَلِدُ، ورجلٌ عاقرٌ: لا يولَدُ لهُ، كأنَّهُ مِنْ عَقَرَهُ، إذا قَطَعَ عُقْرَهُ، أي: أصلَهُ[10].

9) ﴿فَهَبۡ﴾: الهِبَةُ: أنْ تجعلَ مِلْكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَضٍ، يقالُ: وهبتُهُ هِبَةً ومَوْهِبَةً ومَوْهِبًا، قالَ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾، وقالَ: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ [الفرقان: 74][11]، ويوصَفُ اللّهُ تعالى بالواهبِ والوهّابِ بمعنى أنَّهُ يُعطي مِنْ غيرِ استحقاقٍ عليهِ، بل هو تفضُّلٌ منهُ على خَلْقِهِ[12].

---

(1) الراغب، المفردات: (خوف).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولي).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 78، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(6) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (وري).
(7) الجوهري، الصحاح: (وري).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 226، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 67.
(9) الراغب، المفردات: (عقر).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقر).
(11) الراغب، المفردات: (وهب).
(12) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (وهب).

10) ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾: الميراثُ: أنْ يكونَ الشيءُ لقوم ثمَّ يصيرَ إلى آخرينَ بنَسَبٍ أو سببٍ[1]، ويقالُ: ورِثْتُ مالًا عن زيدٍ، وورِثْتُ زيدًا، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: 16]، ويقالُ: أورثَني الميِّتُ كذا، وقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: 59]، ويقالُ لكلِّ مَنْ حصلَ لهُ شيءٌ مِنْ غيرِ تَعَبٍ: قد ورِثَ كذا، ويقالُ لِمَنْ خوِّلَ شيئًا: أورِثَ، قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: 72][2]، وقولُهُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعني وِراثةَ النُّبوَّةِ والعِلمِ والفضيلةِ دونَ المالِ، ووصفَ اللهُ تعالى نفسَهُ بأنَّهُ الوارثُ مِنْ حيثُ إنَّ الأشياءَ كلَّها صائرةٌ إليهِ، قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 180][3]، ويقالُ: ورِثْتُ عِلْمًا مِنْ فلانٍ، أي: استفدتُ منهُ[4].

11) ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: الآلُ: مقلوبُ الأهلِ، ويُصغَّرُ على أُهَيْلٍ، إلّا أنَّهُ خُصَّ بالإضافةِ إلى الأعلامِ النّاطقينَ دونَ النَّكراتِ، ودونَ الأزمنةِ والأمكنةِ، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ: آلُ اللهِ، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ[5]، وآلُ الرَّجلِ أيضًا: أتباعُهُ وأولياؤُهُ[6].

ويجوزُ أنْ يرادَ بآلِ يعقوبَ هنا: بنو إسرائيلَ خاصَّةً كما يقتضيه لفظُ ﴿ءَالِ﴾ المُشعرُ بالفضيلةِ والشَّرفِ، فيكونُ يعقوبُ هو إسرائيلَ، كأنَّهُ قيلَ: ويَرِثُ مِنْ آلِ إسرائيلَ، أي: حَمَلةِ الشَّريعةِ وأحبارِ اليهوديَّةِ، ويجوزُ أنْ يرادَ يعقوبُ آخرُ غيرُ إسرائيلَ؛ وهو يعقوبُ بنُ ماثانَ، وهو عمُّ مريمَ أخو عمرانَ أبيها، وقيلَ: هو أخو زكريّا عليه السلام، ليسَ لهُ أولادٌ، فيكونُ ابنُ زكريّا وارثًا ليعقوبَ؛ لأنَّهُ ابنُ أخيه، فيعقوبُ على هذا هو مِنْ جملةِ المَوالي الَّذينَ خافَهم زكريّا مِنْ ورائِه[7].

12) ﴿وَٱجْعَلْهُ﴾: يأتي الجَعْلُ لمَعانٍ: أحدُها: الخَلْقُ والإحداثُ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، فيتعدّى لمفعولٍ واحدٍ، والثّاني: الإلقاءُ، نحوُ: جعَلْنا متاعَكَ بعضَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(2) الراغب، المفردات: (ورث).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورث).
(4) الراغب، المفردات: (ورث).
(5) الراغب، المفردات: (آل).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (آل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 68.

فوقَ بعضٍ، والثّالثُ: التَّصييرُ، وهو إمّا تصييرٌ بالفعلِ، نحوُ: جعلتُ الطّينَ خَزَفًا، أو تصييرٌ بالقولِ، نحوُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، والرّابعُ: الإنشاءُ، نحوُ: جعلَ زيدٌ يفعلُ كذا، فيكونُ مِنْ أخواتِ (عسى)، والخامسُ: التَّشريعُ؛ كقولِهِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، أي: ما شرعَ، والسّادسُ: الاعتقادُ؛ كقولِه سبحانَهُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، والسّابعُ: الحكمُ على الشَّيءِ بالشَّيءِ حقًّا كانَ أو باطلًا، فالحقُّ نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]، والباطلُ نحوُ قولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136][1]، والمرادُ بالجَعْلِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ التَّصييرُ[2].

13) ﴿رَضِيًّا﴾: (رضي) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْطِ[3]، ورضا العبدِ عنِ اللّٰه ألّا يكرهَ ما يجري به قضاؤُهُ، ورضا اللّٰه عن العبدِ هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا لأمرِهِ، ومُنتهيًا عن نَهْيِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُوا۟ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]، وقالَ: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 18][4]، و﴿رَضِيًّا﴾ اسمُ مفعولٍ، أي: مَرْضيًّا عنهُ[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

دعاءُ زكريّا عليه السلام أصلٌ من أصولِ فقهِ الدُّعاءِ والالتجاءِ

تُبيِّنُ الآياتُ دعاءَ زكريّا عليه السلام، الذي اشتملَ على فقهٍ بليغٍ في الالتجاءِ إلى اللّٰه تعالى؛ فقد بدأ عليه السلام دعاءَه بخطابِ اللّٰه تعالى بلفظِ الرُّبوبيَّة، ثمّ الاعترافِ بالضَّعفِ البدنيِّ، ثمّ التَّوسلِ بالأعمالِ الصّالحةِ، ثمّ بيانِ سببَ دعائه، ثمّ التَّمهيدِ قبلَ طَلبِ الولدِ بذكرِ

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جعل).
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رضي).
(5) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 505.

مانعٍ من موانعِ الإنجابِ، ثمّ الدُّعاءِ بهبةِ الولد؛ ليرثَ النُّبوَّةَ، ثمّ تتميم الدُّعاءِ بأن يجعلَه ﷻ رضيًّا، وهذا من بديع الدُّعاءِ المشتملِ على فقهٍ روحيٍّ، والتجاءٍ إلى اللّه جلَّ في علاه، يصلحُ أن يكونَ أصلًا من أصولِ تعليم الدُّعاءِ للمُلتجئين إلى اللّه تعالى.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الفصلُ محتملٌ لكمالِ الاتِّصالِ أو شِبْهِه

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ عن قولِه سبحانَهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾، ولم يُعطَفْ عليه؛ لما بينَ الجملتينِ مِنْ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ الثّانيةَ تفسيرٌ وبيانٌ للأولى[1].

ويجوزُ أنْ يكونَ الفصلُ؛ لما بينَ الآيتينِ مِنْ شِبْه كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الثّانيةَ جوابٌ عن سؤالٍ اقتضَتْهُ الأولى، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ سألَ سائلٌ: ماذا قالَ في ندائِهِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾[2].

دلالةُ حذفِ أداةِ النِّداءِ والياءِ:

تصويرُ الحزنِ وشدَّةِ الالتجاءِ بإظهارِ الضَّعفِ والقُربِ

حُذِفَ حرفُ النِّداءِ فقيلَ: ﴿رَبِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، فاقتُصِرَ على المُنادى، كما حُذِفَ المضافُ إليهِ، وهو ياءُ المتكلِّم، فلم يُقَلْ: (يا ربّي)، ونكتةُ هذا الحذفِ هي الاختصارُ[3]، والدَّلالةُ على غايةِ قُرْبِ زكريّا ﷺ مِنْ ربِّه ﷻ[4]، فهو يُناديه بلا توسُّطِ حرفِ نداءٍ.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 563، وقاضي شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي، ص: 525، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 63.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 168.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 287، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 325.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 168.

سرُّ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

من فقه الدُّعاءِ اختيارُ الوصفِ الأليَقِ بالمقامِ

اختيرَ لفظُ الرَّبِّ في قولِ زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ولم يقلْ مثلًا: (يا إلهي) أو (يا ألله)؛ لأنَّ إعطاءَ الولدِ مِنْ آثارِ الرُّبوبيَّةِ[1]، ولأنَّ وصفَ الرُّبوبيَّةِ مُنبِئٌ عن إفاضةِ ما فيه صلاحُ المربوبِ[2].

غرضُ التَّأكيدِ ودلالتُه:

ربَّ توكيدٍ يُبيِّن ما يجولُ في النَّفس

صُدِّرَ قولُه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِ الكلامِ[3]، وللمبالغةِ في التَّضرُّعِ والتَّذلُّلِ الملائمَينِ لمقامِ طلبِ الحاجاتِ[4]، والتَّأكيدُ هنا للمتكلِّمِ، فهو المعنيُّ به، ففيه دلالةٌ نفسيَّةٌ تبيِّنُ ما يجيشُ في نفسِه عليه السلام.

سرُّ التَّعبيرِ بالوَهَنِ دونَ الضَّعْفِ:

الوَهَنُ هي الحالةُ التي كان عليها زكريّا عليه السلام

عُبِّرَ بالوَهَنِ دونَ الضَّعْفِ، فقيلَ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ولم يُقَلْ: (ضَعُفَ العظمُ منّي)؛ لأنَّ الوَهَنَ أشدُّ مِنَ الضَّعفِ؛ فالضَّعفُ له أوَّلٌ ومُنتهى، والوَهَنُ يقتضي الضَّعفَ الشَّديدَ المُتناهي[5]، وهو أنسبُ بمقامِ إظهارِ الكِبَرِ والشَّيخوخةِ الَّذي جعلَهُ زكريّا عليه السلام تمهيدًا لطلبِ الوليِّ الوارثِ، وهو قبلَ ذلك وصفٌ لواقعِ زكريّا عليه السلام، فعظمُه قد وهَنَ بحيث يشعرُ عليه السلام به، وأنَّه غيرُ قادرٍ على المضيِّ كما كان في سابقِ عهدِه، ولا يبعُدُ أن يكون وهنُ العظمِ علامةً على عدمِ قدرةِ الرَّجلِ على الإنجابِ.

بلاغةُ إسنادِ الوَهَنِ إلى العَظْمِ بين الكنايةِ والمجازِ:

تداعي أصلِ البناءِ موجِبٌ لتداعي البناءِ كلِّه

إنَّما ذُكِرَ العَظْمُ دونَ غيرِه مِنْ أعضاءِ البدنِ، وأُسنِدَ إليه الوَهَنُ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾؛ لأنَّهُ عَمودُ البدنِ، وهو

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 188، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9025.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 380.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 192.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 108.

أصلُ بنائِه، فإذا وهَنَ تداعَى البَدَنُ وتساقطَتْ قوَّتُه، ولأنَّه أشدُّ ما فيه وأصلبُهُ، فإذا وهَنَ كانَ ما وراءَهُ أوهنَ[1]؛ لأنَّ الوَهَنَ لا يَبلُغُ العَظْمَ إلّا وقد بلغَ ما فوقَهُ[2]، فيكونُ في الكلامِ مبالغةٌ في الإخبارِ بالضَّعْفِ بطريقِ الكنايةِ؛ حيثُ كُنيَ عن وهَنِ عُمومِ البَدَنِ بوَهَنِ عَمودِه وأصلبِ شيءٍ فيه[3]، ولو صُرِّحَ بالمقصودِ وقيلَ: (إنّي وهَنْتُ) أو (وَهَنَ بدَني) لفاتتِ المبالغةُ المقصودةُ[4]، وقد تقرَّرَ في علمِ البلاغةِ أنَّ الكنايةَ أبلغُ مِنَ التَّصريحِ[5].

ونستطيعُ حملَ إسنادِ الوَهنِ إلى العظمِ على المجازِ من بابِ إطلاقِ الجزءِ - وهو العظمُ - وإرادةِ الكلِّ وهو الجسدُ.

فائدةُ إفرادِ ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾ ومعنى التَّعريفِ:

العُدولُ عنِ الجمعِ إلى الإفرادِ للدّلالةِ على معنى الجنسيَّةِ

ذُكِرَ العَظْمُ بصيغةِ الإفرادِ دونَ الجمعِ، فقيلَ: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ولم يُقَلْ: (إنّي وهنَتِ العِظامُ منّي)؛ لأنَّ الإفرادَ هو الدالُّ على معنى الجنسيَّةِ، والمقصودُ أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو عَمودُ البدَنِ وأشدُّ ما تركَّبَ منهُ الجسدُ قد أصابَهُ الوَهَنُ، ولو جُمِعَ لكانَ المعنى: أنَّهُ لم يَهِنْ منهُ بعضُ عِظامِه، ولكنْ كلُّها، وهو ليسَ بمرادٍ[6]؛ لأنَّ الكلامَ لم يُسَقْ للرَّدِّ على مَنْ يتوهَّمُ أنَّ الواهنَ بعضُ العِظامِ لا كلُّها[7]، بل لتقريرِ أنَّ الوهنَ قد حصلَ للعظمِ بالاعتبارِ الجنسيِّ.

بلاغةُ الإطنابِ بذكرِ قيدِ ﴿مِنِّي﴾:

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ آكدُ في تقريرِ المعنى

جاء النّظم: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ بذكرِ قيدِ ﴿مِنِّي﴾ ولم يُقَلْ: (وَهَنَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 4، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 508، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 76، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 239.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 64.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 563.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 189.

(5) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 286، والقزويني، الإيضاح، ص: 283.

(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 4، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 77، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 239.

(7) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 563، والتفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 2/ 377 - 378، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 189.

عَظْمي) معَ أنَّهُ أخصرُ؛ لأنَّ الأوَّلَ أصرحُ في الدَّلالةِ على الجنسيَّةِ المقصودةِ هنا، ولقصدِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ[1]؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾ يُفيدُ نسبةَ العَظْمِ إليه إجمالًا أوَّلًا؛ حيثُ احتملَ أنْ يكونَ العَظْمُ مِنْ بَدَنِه، كما احتملَ أنْ يكونَ مِنْ بَدَنِ مَنْ لهُ صِلَةٌ به، وتفصيلًا ثانيًا؛ حيثُ قالَ: ﴿مِنِّي﴾[2]، ولا شكَّ أنَّ في الجمعِ بينَ طريقَي الإجمالِ والتَّفصيلِ تمكينًا للمعنى وتقريرًا وتثبيتًا لهُ، وتشويقًا للسّامع.

غَرَضُ تقديم ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾ على ﴿مِنِّي﴾:

قُدِّمَ ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾ على ﴿مِنِّي﴾ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ولم يُقَلْ: (وَهَنَ مِنّي العَظْمُ)؛ لتوخّي التَّبيينِ بعدَ الإجمالِ الَّذي يترتَّبُ عليه تقريرُ المعنى كما تقدَّمَ[3].

غرضُ الإخبارِ بوهنِ العَظْمِ:

الإخبارُ بوَهَنِ العَظْمِ مجازٌ في الاسترحامِ

الخبرُ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ مُستعمَلٌ مجازًا في لازمِه، وهو استرحامُ زكريّا عليه السلام لحالِه قبلَ طلبِ الوليِّ الوارثِ الَّذي هو مقصودُهُ مِنَ النِّداءِ، وإنَّما لم يُحمَلِ الخبرُ على حقيقتِهِ؛ لأنَّ المُخبَرَ ﷻ عالمٌ بما تضمَّنَهُ الخبرُ مِنْ كِبَرِ زكريّا عليه السلام وشيخوختِه وضَعْفِه، ومِثلُ ذلكَ يقالُ في قولِه: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا﴾[4].

سرُّ تقديمِ وهَنِ العظمِ على انتشارِ الشَّيبِ:

تقديمُ ذكرِ الضَّعْفِ المؤثِّرِ على الإنجابِ فالتَّتميم بذكرِ الشَّيبِ

أثرُ الضَّعْفِ في البَدَنِ إمّا أنْ يظهرَ في الباطنِ أو في الظّاهرِ، والضَّعْفُ الَّذي يظهرُ في الباطنِ يكونُ أقوى ممّا يظهرُ في الظّاهرِ، فلهذا السَّببِ ابتدأ زكريّا عليه السلام ببيانِ الضَّعْفِ الَّذي في الباطنِ، فقالَ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾[5]، وقدَّمَهُ على قولِه: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا﴾،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 143، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 380.
(2) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 2/ 376.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 109.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 64.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 508، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4609.

وإنَّما كانَ وهَنُ العَظْمِ أقوى مِنِ انتشارِ الشَّيْبِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَشيبُ صغيرًا[1]، ولبيانِ أنَّ معاناته من وهَنِ العَظْمِ أشدُّ من انتشارِ الشَّيبِ، فوَهنُ العظْم مؤثِّرٌ في الإنجابِ بخلاف انتشارِ الشَّيبِ، فكان ذكرُ انتشارِ الشَّيب كالتَّتمة لما بدأه.

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾:

بـيـانُ الـحـال الظّاهر والباطنِ يقتضي العطفَ

دلَّت واوُ العطفِ في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ على التَّشريك بينَ اشتعالِ الرَّأسِ شَيْبًا، ووَهَنِ العَظْمِ في كونِهما خبرًا عن حالِ زكريّا ﷺ، وهوفي مقام إظهارِ الضَّعْفِ والافتقارِ للّه ﷻ تمهيدًا لتقديم سُؤْلِه بينَ يدَي الرَّبِّ الرَّحيم الكريمِ جلَّ ثناؤُه، ومقتضى العطفِ التَّتميمُ لبيانِ الحال الظّاهر والباطنِ.

براعةُ الاستعارةِ وتنوُّعُها:

الاختلافُ في نوعِ الاستعارةِ دليلُ ثَـراءِ الـنَّـصِّ، وبديعِ ألفاظِه

في قولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ مجازٌ لطيفٌ بالاستعارةِ، وقدِ اختُلِفَ في نوعِ الاستعارةِ وفي إجرائِها:

فقيلَ: إنَّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ استعارتَين مبنيَّتَين على تشبيهَين: أولاهما: تصريحيَّةٌ تبَعيَّةٌ في ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾ بتشبيه انتشارِ المُبَيِّضِ مِنَ الشَّعَرِ في غيره باشتعالِ النّارِ، والثّانيةُ: مكنيَّةٌ بتشبيه الشَّيْبِ في بياضِه وإنارتِه باللهبِ[2].

وقيلَ: إنَّ فيه استعارةً واحدةً، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ مبنيَّةٌ على تشبيهٍ مُنتزَعٍ مِنْ أمورٍ عدَّةٍ مُتصوَّرةٍ، شُبِّهَتْ حالةُ الشَّيْبِ بحالةِ النّارِ، وحالةُ فُشوِّه في الرَّأسِ بحالةِ اشتعالِ النّارِ في الحَطَبِ الجَزْلِ، والجامعُ: سُرعةُ انبساطِ بياضٍ في سوادٍ معَ تعذُّرِ التَّلافي، ثمَّ حُذِفَ أحدُ طرفَي التَّشبيهِ، وهو المُشبَّهُ، وأخرجَ المُشبَّهُ به مُخرَجَ المُشبَّهِ؛ ليتمَّ أمرُ الاستعارةِ[3].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 109.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 5، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 143.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 564.

وقيلَ: إنَّ فيه استعارةً واحدةً، وهي استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَ الشَّيْبُ بالنّارِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بِهِ، وهو النّارُ، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ؛ وهو الاشتعالُ[1].

وقيلَ: إنَّ فيه استعارةً واحدةً؛ وهي تشبيهُ انتشارِ الشَّيْبِ في الرَّأسِ بالاشتعالِ الَّذي هو انتشارُ شُعاعِ النّارِ[2]، فتكونُ الاستعارةُ تصريحيَّةً تبَعيَّةً.

وقيلَ: شُبِّهَ عُمومُ شيْبِ شَعر رأسِه وغلَبتُه عليه باشتعالِ النّارِ في الفَحْم بجامعِ انتشارِ شيءٍ لامعٍ في جسمٍ أسودَ تشبيهًا مُركَّبًا تمثيليًّا قابلًا لاعتبارِ التَّفريقِ، فشُبِّهَ الشَّعرُ الأسودُ بفَحْمٍ والشَّعَرُ الأبيضُ بنارٍ على طريقِ التّمثيليَّةِ المكنيَّةِ، ورُمِزَ إلى الأمرينِ بالفعل ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾[3].

وهذا الاختلافُ في إجراءِ الاستعاراتِ في الآيةِ الكريمةِ دليلُ ثراءِ النَّصِّ، وبديعِ ألفاظِه، حيث صوَّر وبيَّن وقرَّب وشبَّه في الجزئيّاتِ والكليّاتِ، وأيُّ استعارةٍ ملتَ إليها؛ ففيها من البلاغةِ ما يضعفُ عنه الوصفُ.

غرضُ إسنادِ الاشتعالِ إلى الرَّأسِ:

إفادةُ شُمولِ الاشتعالِ في الرَّأسِ كلِّه

أُسنِدَ الاشتعالُ إلى الرَّأسِ على سبيلِ المجازِ العقليِّ؛ فقيلَ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ولم يُسنَدْ إلى الشَّيْبِ فيُقال: (واشتعلَ شَيْبُ رأسي)؛ لإفادةِ المبالغةِ في شُمولِ الاشتعالِ؛ كأنَّ الشَّيْبَ لمبالغتِه سرَى إلى الرَّأسِ نفسِه؛ فإنَّ إسنادَ معنى إلى ظرفِ ما اتَّصفَ به زمانيًّا أو مكانيًّا يفيدُ عُمومَ معناهُ، ونحوُهُ: (اشتعلَ بيتي نارًا)؛ فإنَّهُ أبلغُ من (اشتعلَتِ النّارُ في بيتي)؛ لأنَّهُ يفيدُ شُمولَ الاشتعالِ لجميعِ البيتِ[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 4.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 77.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 64.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 286، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 565، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 143، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 191، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 380، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 64.

بلاغةُ تَمييزِ الفاعلِ:

اشتمالُ أسلوبِ التَّمييزِ على إجمالٍ وتفصيلٍ وشُمولٍ وتعظيمٍ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ تمييزَ الفاعل في: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾؛ فلم يقل: (واشتعلَ شَيْبُ الرَّأسِ)، فتُرِكَ إلى ما هو أبلغُ، وكونُهُ أبلغَ مِنْ جهاتٍ:

الأولى: إسنادُ الاشتعالِ إلى الرَّأسِ لإفادةِ شُمولِ الاشتعالِ كما تقدَّمَ.

الثّانية: الإجمالُ والتَّفصيلُ في طريقِ التَّمييزِ؛ لأنَّهُ لمّا أُسنِدَ الاشتعالُ إلى الرَّأسِ انتصبَ ﴿شَيۡبٗا﴾ على التَّمييزِ، واشتعالُ الرَّأسِ فيه إجمالٌ تمَّ بيانُهُ وتفصيلُهُ بالتَّمييزِ، وفي ذلكَ تقريرٌ للمعنى، وتثبّتٌ لهُ في نفسِ السّامعِ؛ لأنَّ العِلْمَ بالمُميِّزِ حصلَ لهُ بعدَ تشويقٍ.

الثّالثة: تنكيرُ ﴿شَيۡبٗا﴾ المفيدُ للتَّعظيمِ وتهويلِ أمرِ هذا الشَّيْبِ الَّذي يُسرِعُ في شَعَرِ الرَّأسِ إسراعَ النّارِ في الهَشيمِ، ويتعذَّرُ إطفاؤُهُ وتلافيهِ[1].

نوعُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلرَّأۡسُ﴾:

إغناءُ لامِ العهدِ عنِ الإضافةِ

جاء لفظُ الرأسِ معرَّفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ولم يُضَفْ إلى زكريّا عليه السلام، فيُقال: (واشتعلَ رأسي شَيْبًا) أو (واشتعلَ الرَّأسُ منّي شَيْبًا)؛ اكتفاءً بعلم المُخاطَبِ أنَّهُ رأسُ زكريّا عليه السلام بقرينةِ العطفِ على ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾[2]، فتكونُ اللّامُ في ﴿ٱلرَّأۡسُ﴾ للعهدِ[3].

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 286، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 564، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 191، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 64.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 4، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 326، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 77.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 143، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 380.

عاطفةٌ لهذه الجملةِ على ما قبلَها، فتدخلُ في حيِّزِ ما أخبرَ به زكريّا عليه السلام في دعائِه[1].

سرُّ النَّفيِ بأداةِ ﴿وَلَمۡ﴾:

نفيُ شقاءِ زكريّا عليه السلام بالدُّعاءِ فيما مضَى

حرفُ النَّفيِ (لم) مُختصٌّ بالدُّخولِ على المضارعِ، وهو يقلبُ معناهُ إلى المُضيِّ[2]، وعليه فأفادَ قولُ زكريّا عليه السلام: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ نفيَ كونِه شقيًّا بالدُّعاءِ فيما مضى مِنَ الزَّمانِ، والمعنى: وما كنتُ بدعائِكَ ربِّ شقيًّا، وهذا يعني أنَّ عادةَ الكريمِ سبحانه وتعالى قد جرَتْ بإكرامِ زكريّا عليه السلام وإسعافِه في مطلوبِه[3].

غرَضُ الإخبارِ بما كان:

نفيُ الشَّقاءِ ماضيًا رجاءُ تحقيقِ الاستجابةِ قابلًا

أخبرَ زكريّا عليه السلام بقولِه: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، والمعنى: وما كنتُ بدعائي إيّاكَ خائبًا في وقتٍ مِنْ أوقاتِ هذا العُمُرِ الطَّويلِ، بل كلَّما دعوتُكَ استجبتَ لي وسَعِدْتُ بذلكَ[4]، وفي إخبارِه بذلك توسُّلٌ منهُ بما سبقَ مِنْ عادةِ اللهِ معَهُ، ورجاءُ أنَّ ربَّهُ سيستجيبُ له هذا الدُّعاءَ، وهو طلبُ الولدِ[5].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

مَنْ صَحِبَ الدُّعاءَ ولزِمَهُ لا يشقَى

الباءُ في ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ مِنْ قولِه سبحانه وتعالى على لسانِ زكريّا عليه السلام: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ للمُصاحَبةِ[6]، أي: ولم أكنْ معَ دُعائِكَ ربِّ شَقيًّا، بل كنتُ سعيدًا مُستجابَ الدُّعاءِ على الدَّوامِ؛ فالكريمُ لا يردُّ يدَ سائلِه صِفْرًا، ولا يُخيِّبُ مَسْعاهُ، بل يُكرِمُهُ ويُحسِنُ إليهِ، ويُنْجِحُ لهُ ما يرجوهُ ويتمنّاهُ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 381.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/ 607.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 240.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 240، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 253.
(5) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 192، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4610.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.

سِرُّ العُدولِ عنِ النِّداءِ إلى الدُّعاءِ:

الدُّعاءُ اسمٌ علمٌ للعِبادةِ المعهودةِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ مفردةِ الدُّعاء في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، وفي قولِه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ بالنِّداء؛ للدَّلالةِ على أنَّ النِّداءَ المذكورَ فيما سبقَ استغاثةٌ ورجاءٌ ودُعاءٌ وعبادةٌ[1]، والدُّعاء المذكورُ هنا اسمٌ علمٌ على العبادةِ المعهودةِ.

نوعُ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِدُعَآئِكَ﴾:

تعيينُ نوعِ الإضافةِ يرجِّحُه السّياقُ

اختُلِفَ في نوعِ إضافةِ لفظِ الدُّعاءِ إلى ضميرِ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ مِنْ قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ على قولين:

أظهرُهما: أنَّها مِنْ إضافةِ المصدرِ لمفعولِه، أي: بدعائي إيّاكَ[2]، والمعنى: ما كنتُ بدعائِك ربِّ شقيًّا، بل كنتُ سعيدًا موفَّقًا؛ إذ كنتَ تجيبُ دعائي فأسعَدُ بذلكَ[3].

والآخر: أنَّها مِنْ إضافةِ المصدرِ لفاعلِه، والمعنى: وما كنتُ بدعائِكَ إيّايَ إلى الإيمانِ شقيًّا، بل كنتُ ممَّنْ أطاعَكَ وعبَدَكَ مُخلِصًا، فالكافُ على هذا فاعلٌ[4].

والظّاهر هو الوجهُ الأوّل، إذ هو ما دلَّ عليه السّياقُ، وحسنُ الطَّلبُ بذكرِ ما كان منه في سابقِ الأوان.

سرُّ التَّعبيرِ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ:

اختيارُ ما يناسبُ المقامَ مِنْ أسمائِه سبحانَهُ وصفاتِه

التَّعرُّضُ في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ وقولِه: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عن إفاضةِ ما فيه صلاحُ المربوبِ، معَ الإضافةِ إلى ضميرِ زكريّا عليه السلام، وتوسيطِ ﴿رَبِّ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4610.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 240.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 240.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 240.

بينَ (كانَ) وخبرِها؛ تحريكٌ لسِلْسِلةِ الإجابةِ بالمبالغةِ في التَّضرُّعِ، ولذلكَ قيلَ: إذا أرادَ العبدُ أنْ يُستجابَ لهُ دعاؤُهُ فليَدْعُ اللّٰهَ تعالى بما يناسبُهُ مِنْ أسمائِه وصفاتِه(1).

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ الشَّقاءِ بالدُّعاءِ:

نفيُ الشَّقاءِ يستلزمُ حصولَ السَّعادةِ

يقالُ: سَعِدَ فلانٌ بحاجتِه، إذا ظَفِرَ بها، ويقالُ: شَقيَ فلانٌ بحاجتِه، إذا لم يَنَلْها(2)، وقد أُطلِقَ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ نفيُ الشّقاوةِ، والمرادُ حصولُ ضدِّها - وهو السَّعادةُ - على طريقِ الكنايةِ؛ إذ لا واسطةَ بينَهما عُرْفًا، ونظيرُهُ قولُهُ تعالى في هذه السّورةِ في قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]، أي: عسى أنْ أكونَ سعيدًا مُستجابَ الدُّعاءِ(3).

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

الدُّعاءُ معذوقٌ بمقاصدِه

تشابهَتْ هذه الآيةُ معَ قولِه ﷻ على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]: وقدِ اتَّفقتِ الآيتانِ في أنَّ كلًّا مِنَ النّبيّيْنِ الكريمَيْنِ عليهما السلام طالبٌ إجابةَ اللّٰه جلَّ شأنُهُ دُعاءَهُ، لكنَّ زكريّا عليه السلام أخبرَ في سياقِ دعائِه عن عادةِ اللّٰه معَهُ بأنَّهُ لم يُخيِّبْ رجاءَهُ، فأخبرَ بالماضي المُحقَّقِ، فقالَ: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، أي: ولم تُخيِّبْ رجائي فيما مضى مِنَ الزَّمانِ، بل كنتَ على الدَّوامِ تستجيبُ دُعائي وتُسعِدُني بحصولِ مأمولي، وأمّا إبراهيمُ عليه السلام فرجا رجاءً قويًّا أنْ يستجيبَ اللّٰهُ دعاءَهُ، فقالَ بصيغةِ المضارعِ المستقبلِ: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]، أي: عسى أنْ أكونَ سعيدًا مُستجابَ الدَّعوةِ، والفرقُ بينهما أنَّ زكريّا عليه السلام دعا متوسِّلًا بأمرٍ ماضٍ، وأمّا إبراهيم عليه السلام

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.

فرجا أن يكونَ دعاؤه على الجادَّة، فهو رجاءٌ في أن يكون الدُّعاءُ على الطَّريقِ الأمثلِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الأنبياءُ حريصونَ على أقوامِهم بعد موتِهم وهذا من تمامِ الرَّحمةِ والنُّبلِ

الواوُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ عاطفةٌ على الرّاجحِ، عطفَتْ هذه الجملةَ على ما قبلَها[1]، وأفادَتْ ترتُّبَ مضمونِها على مضمونِه؛ فإنَّ ضَعْفَ القوى وكِبَرَ السِّنِّ مِنْ مبادئِ خوفِه عليه السلام مَنْ يَلي أمرَهُ بعدَ موتِه، بدليلِ قولِه: ﴿مِن وَرَآءِي﴾؛ فإنَّ المرادَ بِه: مِنْ بعدِ موتي[2]، وقيلَ: هذه الجملةُ حاليَّةٌ، والواوُ للحالِ، والمعنى: أنّي في الحالِ الَّذي وهَنَ العظمُ منّي واشتعلَ الرَّأسُ شَيْبًا ودنا الموتُ منّي خِفْتُ المواليَ مِنْ بعدي[3].

غرَضُ التَّأكيدِ:

التَّأكيدُ للمبالغةِ في التَّضرُّعِ والتَّذلُّلِ

صُدِّرَ قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ بحرفِ التَّأكيدِ؛ للمبالغةِ في التَّضرُّعِ والتَّذلُّلِ؛ لأنَّهُ ليسَ المقصودُ مِنْ هذا الإخبارِ فائدتَهُ ولا لازمَها؛ لأنَّ المُخبَرَ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ عالمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، فالمقصودُ منهُ الاسترحامُ والتَّمهيدُ لطلبِ الولدِ[4].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ الخوفِ:

خوفُ زكريّا عليه السلام مِنْ إفسادِ مواليه الدّينَ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الخوفِ لا الخشيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾، وقدِ اختُلِفَ في سببِ خوفِ زكريّا عليه السلام مِنَ المَوالي:

فقيلَ: خافَهم على إفسادِ الدّينِ[5]، وقيلَ: خافَ أنْ ينتهيَ أمرُهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 168، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 66.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 381.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4610.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 192.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509، والبيضاوي، الكشاف: 4/ 6، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 326.

إليهم بعدَ موتِه في مالٍ وغيرِه، معَ أنَّهُ عرفَ مِنْ حالِهم قُصورَهم في العلمِ والقُدرةِ عنِ القيامِ بذلكَ[1].

والأنسبُ بحالِ الأنبياءِ الأوَّلُ؛ لأنَّ الأنبياءَ لا يورِّثونَ مالًا، وإنَّما يورِّثونَ العلمَ والحكمةَ، وغرضُهم صيانةُ الدّينِ لا المالِ، ولفظُ الخوفِ هو المتحقِّقُ، فهو يخافُ تضييعَهم للدّينِ والنُّبوَّةِ، وهذا المعنى لا يُلبّيه لفظُ الخشية.

نكتةُ استعمالِ الماضي وإرادةِ المستقبل:

الخـوفُ ممّا مضى لا يكونُ إلّا لقابلِ الأيّامِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، ولم يُقَلْ: (وإنّي أخافُ المَواليَ مِنْ ورائي) بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّ الماضيَ هنا يُفيدُ قِدَمَ خوفِه، ويُفيدُ استمرارَهُ في المستقبلِ أيضًا؛ كما يقولُ الرَّجلُ: (قد خِفْتُ أنْ يكونَ كذا)، أي: أنا خائفٌ، لا يريدُ أنَّهُ قد زالَ الخوفُ عنهُ[2]، ودليلُ استمرارِ الخوفِ هو قرينةُ الحالِ؛ لأنَّ مسألةَ طلبِ الوليِّ الوارثِ أغنَتْ عنِ الإخبارِ بوجودِ الخوفِ في الحالِ، وأيضًا قد يوضَعُ الماضي موضعَ المستقبلِ، وبالعكسِ[3]، فالصيغةُ صيغةُ مُضيٍّ، والمقصودُ المستقبلُ، وهو مُنتَزَعٌ منَ السّياقِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾:

إطلاقُ المَوالي لجمعِ معنَى القرابةِ والعملِ

المرادُ بالمَوالي في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾: العَصَباتُ مِنْ قرابتِه، وسُمّوا مَواليَ؛ لأنَّهم يَلونَهُ في النَّسَبِ[4]، أو لأنَّهم يَلونَهُ على ما يتركُ مِنْ علمٍ ونُبوَّةٍ ونحوِ ذلكَ[5]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 144، والثعلبي، الكشف والبيان: 6/ 206، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 9، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي، ص: 527.

(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509.

(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4610.

فآثر هذه التَّسميَّةَ لبيانِ أنَّهم ليسوا مجرَّدَ قراباتٍ، بل هم موالٍ يلونَه من بعده.

نوعُ اللّامِ في لفظِ ﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾:

اللّامُ في (المَوَاليَ) للعهدِ

المرادُ بالمَوالي في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾: مَوالٍ معهودونَ؛ وهم مَوالي زكريّا عليه السلام؛ لأنَّ اللّامَ للعهدِ؛ لأنَّهُ إنَّما يخافُ مَواليَهُ مِنْ بعدِ موتِه، ولا يخافُ مَواليَ غيرِه؛ إذ لا تسلُّطَ لهُم على شيءٍ لهُ بعدَ موتِه.

إعرابُ الظَّرفِ ﴿مِن وَرَآءِى﴾:

الظَّرفُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أو بما في (المَـوالي) مِنْ معنى الفعلِ

الظَّرفُ في قولِه عزَّ وتباركَ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: خِفْتُ فِعْلَ المَوالي مِنْ ورائي؛ وهو جَوْرُهم وسوءُ خِلافتِهم، أو متعلِّقٌ بما في ﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ مِنْ معنى الفعلِ، أي: خِفْتُ الَّذينَ يَلونَ الأمرَ مِنْ ورائي[1]، ولا يتعلَّقُ بـ ﴿خِفْتُ﴾؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّ الخوفَ واقعٌ في الحالِ، ولا يُتصوَّرُ وقوعُه بعدَ موتِ زكريّا عليه السلام[2].

معنى الواوِ ودلالتُها:

عُقْرُ امرأةِ زكريّا عليه السلام مِنْ جملةِ ما توسَّلَ به إلى ربِّهِ

الواوُ في قولِه جل جلاله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ عاطفةٌ لهذه الجملةِ على ما قبلَها، فتفيدُ دخولَ الإخبارِ بكونِ امرأةِ زكريّا عليه السلام عاقرًا في جملةِ ما أخبرَ به عليه السلام، وفي جملةِ ما توسَّلَ به إلى ربِّه جلَّ شأنُه؛ تمهيدًا لطلبِ الوليِّ الوارثِ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في فعلِ الكونِ:

زيادةُ الاستبعادِ بغرضِ زيادةِ الالتجاءِ

عُبِّرَ بالماضي في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾، مع أنَّ امرأةَ زكريّا عليه السلام عاقرٌ في الحالِ أيضًا؛ إعلامًا بتقادمِ العهدِ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 567، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 193.

ذلكَ، وأنَّها لا تَلِدُ منذُ زمنٍ[1]، وغرضُ زكريّا عليه السلام مِنْ هذا الكلام بيانُ استبعادِ حصولِ الولدِ بحسَبِ الأسبابِ العاديَّةِ، فكانَ إيرادُهُ بلفظِ الماضي أقوى[2].

سببُ تجريدِ ﴿عَاقِرًا﴾ مِنْ هاء التَّأنيثِ:

أمنُ اللَّبس في الاستِعمال

العاقرُ هي الأُنثى الَّتي لا تَلِدُ، وجعله بعض العلماء وصفًا خاصًّا بالمرأةِ، وبه علّلوا تجريده من هاء التأنيث في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا﴾، فلم يُقَلْ: (وكانتِ امرأتي عاقرةً)؛ إذ لا لَبْسَ؛ لأنَّهُ لا يوصَفُ به الرَّجلُ؛ ليُؤتى بالتّاءِ للتَّفرقةِ بينَ الرَّجلِ والمرأةِ[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ لأنَّ ما ذكرَهُ زكريّا عليه السلام مِنْ كِبَرِ السِّنِّ وضَعْفِ القوى وعُقْرِ المرأةِ موجِبٌ لانقطاعِ رجائِه عليه السلام عن حصولِ الولدِ بتوسُّطِ الأسبابِ العاديَّةِ، وموجِبٌ لاستيهابِه على الوجه الخارقِ للعادةِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ الهبةِ:

إعطاءُ الولدِ معَ تعطُّلِ الأسبابِ مَحْضُ الفضلِ والإحسانِ

عُبِّرَ بمفردة الهبة في قولِه تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾؛ لأنَّ الهِبَةَ هي العطاءُ بلا مقابلٍ، فالأسبابُ هنا مُعطَّلةٌ، والمُقدِّماتُ توجبُ عدمَ الإنجاب، ولم يُقَلْ مثلًا: (فأعطِني مِنْ لَدُنْكَ وليًّا)؛ لأنَّ العطاءَ قد يكونُ عن مقابلٍ، فكأنَّهُ قالَ: يا ربِّ إنْ كنتَ ستُعطيني الولدَ فهو هِبَةٌ منكَ لا أملكُ أسبابَها، لذلكَ قالَ سبحانَهُ في آيةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4611، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 67.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 509.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 67.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 194، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4611.

أخرى عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [إبراهيم: 39](1).

تَوجيهُ تعلُّقِ ﴿لِي﴾ و﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

القيدانِ مُتعلِّقانِ بالفعلِ، ويجوزُ تعلُّقُ الثّاني بمحذوفٍ

﴿لِي﴾ و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ متعلّقانِ بفعلِ ﴿فَهَبۡ﴾، لاختلافِ معنيَيْهما، فاللّامُ صلةٌ لهُ، و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ مجازًا(2)، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ الثّاني بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ مِنْ ﴿وَلِيّٗا﴾؛ لأنَّهُ في الأصلِ صفةٌ للنَّكرةِ قُدِّمَ عليها(3).

نكتةُ تقديمِ قيدِ ﴿لِي﴾ على ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

الدّاعي يُقدِّمُ في دعائِه ما هو أهمُّ عندَهُ

قُدِّم قيدُ ﴿لِي﴾ على ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ على القولِ بتعلُّقِهما بـ﴿فَهَبۡ﴾؛ لكونِ مدلولِ الأوَّلِ - وهو ﴿لِي﴾ - أهمَّ عندَ الدّاعي(4)؛ لأنَّ نفسَهُ تَتوقُ إلى حصولِ هِبَةٍ مطلوبٍ لهُ.

فائدةُ جعْلِ الوليِّ المطلوبِ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

ما لا يكونُ إلّا بكمالِ القُدرةِ يُنسَبُ للقادرِ الكاملِ تشريفًا

نُسبَ الوليُّ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ إلى اللّه تبارك وتعالى؛ ليكونَ في إضافتِه إليه تأكيدٌ لكونِ الوليِّ مَرْضيًّا، لأنَّهُ مضافٌ إلى اللّه وصادرٌ مِنْ عندِه(5)، وما يكونُ مِنْ عندِ اللّه ومَوْهبةً منهُ ومنسوباً إليه لا يكونُ إلّا خيرًا مَحْضًا(6)، أوِ المعنى: اختراعًا منك بلا سببٍ؛ فإنَّ مِثْلَهُ لا يُرجى إلّا مِنْ فضلِك وكمالِ قُدرتِك؛ لأنّي وامرأتي لا نَصلُحُ للولادةِ(7).

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9029، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4611.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 567، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي، ص: 527.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 382، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 67.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 5، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 241.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 568، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 144.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 5، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 67.

نكتةُ تأخيرِ ﴿وَلِيًّا﴾ عنِ القيدَيْن:

العِنايةُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ للمُؤخَّرِ ورِعايةُ جزالةِ النَّظْمِ

تأخيرُ المفعولِ ﴿وَلِيًّا﴾ عنِ القيدَين في قولِه سبحانَهُ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ بكونِ الهِبةِ لزكريّا عليه السلام، وبكونِ الوليِّ الموهوبِ مِنْ عندِ اللّه جلَّ وتبارك، معَ ما فيه مِنَ التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّهُ التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تبقى النَّفْسُ مُترقِّبةً لهُ، فعندَ وُرودِه عليها يتمكَّنُ عندَها زيادةَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في ﴿وَلِيًّا﴾ طولًا بما بعدَهُ مِنَ الوصفِ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾، فتأخيرُهما عنِ الكلِّ أو توسيطُهما بينَ الموصوفِ والصِّفةِ ممّا يَبْتُرُ نظمَ الكلامِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَلِيًّا﴾:

اختيارُ اللَّفظِ الأنسبِ بحالِ زكريّا عليه السلام

لمّا كانَ الأظهرُ الأليَقُ بزكريّا عليه السلام أنْ يريدَ وِراثةَ العِلْمِ والدّينِ؛ ناسبَ أنْ يطلبَ وليًّا بقولِه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾؛ لأنَّ لفظَ الوليِّ لتضمُّنِه معنى الوِلايةِ يناسبُ وِراثةَ العلمِ والدّينِ، وقد بلَّغَهُ اللّهُ أملَهُ على أكملِ الوجوهِ[2]، فالوليُّ هو الذي يرثُ أمورَ الدّينِ ويلي مصالحَ النّاسِ، وهو الأوفقُ لقولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾؛ لبيانِ أنَّه يريدُ من يكونُ بديلًا عن أولئك الذين خافَ من تضييعِهم الأمانةَ.

غرضُ تنكيرِ: ﴿وَلِيًّا﴾:

الوليُّ الَّذي طلبَهُ زكريّا عليه السلام عظيمُ الشَّأنِ

نُكِّر لفظُ ﴿وَلِيًّا﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ زكريّا عليه السلام طلبَ وليًّا وارثًا لهُ ولآلِ يعقوبَ، ومَنْ يَرِثُ العِلْمَ والدّينَ عنِ الأنبياءِ يكونُ عظيمَ الشَّأنِ عندَ الطّالبِ وعندَ الواهبِ جلَّ وعزَّ.

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ:

تشابهَ قولُهُ جلَّ وعزَّ هنا: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ معَ قولِه في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 382.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 5، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 78.

آياتُ المُتشابه اللَّفظيِّ للقصَّةِ الواحدةِ تتكاملُ في دلالاتِها ومعانيها

سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 38] مِنْ حيثُ إنَّ كلًّا منهما تضمَّنَ طلبَ الولدِ[1]، وقد وُصِفَ هذا المطلوبُ في سورةِ آلِ عمرانَ بالصَّلاحِ، ووُصِفَ هنا بالوِلايةِ لأمورِ العلمِ والدِّين، فحصلَ مِنْ مجموعِ الآيتينِ أنَّهُ طلبَ ولدًا صالحًا يَخْلُفُهُ مِنْ بعدِه فيما أقامَهُ اللّٰهُ فيه.

واختلفتِ الآيتانِ مِنْ حيثُ الموجِبُ لطلبِ الولدِ؛ فالفاءُ في قولهِ سبحانَهُ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تدلُّ على أنَّ ما ذكرَهُ زكريّا عليه السلام مِنْ كِبَرِ السِّنِّ وضَعْفِ القوى وعُقْرِ المرأةِ موجِبٌ لانقطاعِ رجائِه عليه السلام عن حصولِ الوليِّ الوارثِ بتوسُّطِ الأسبابِ العاديَّةِ، وموجِبٌ لطلبِه على الوجه الخارقِ للعادةِ، وتدلُّ آيةُ آلِ عمرانَ على سببٍ آخرَ؛ وهو مشاهدتُهُ عليه السلام للخوارقِ في حقِّ مريمَ عليها السلام، كما يُعرِبُ عنهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 37 - 38]، ولا تعارضَ بينَ الآيتَينِ؛ فعدمُ ذكرِه هنا للتَّعويلِ على ما ذُكِرَ هناكَ، كما أنَّ عدمَ ذكرِ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ هناكَ؛ للاكتفاءِ بذكرِها هنا؛ فإنَّ مِنْ بلاغةِ القرآنِ الاكتفاءَ بما ذُكِرَ في موطنٍ عمّا تُرِكَ في موطنٍ آخرَ[2].

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿يَرِثُنِي﴾ عمّا قبلَها:

الجملةُ صفةٌ أوِ استئنافٌ بيانيٌّ، وكلاهما يقتضي الفصلَ

الجملةُ الفعليَّةُ وهي قولُه تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ إمّا أن تكونَ صفةً لقولِه تعالى: ﴿وَلِيّٗا﴾ في قولِه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾[3]؛ لأنَّهُ المتبادرُ مِنَ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 12.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 254.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 5، والبيضاوي، انوار التنزيل: 4/ 6.

الجملِ الواقعةِ بعدَ النَّكراتِ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ يحيى عليه السلام عاشَ بعدَ موتِ أبيه زكريّا عليه السلام ثمَّ قُتِلَ كما هو قولُ الأكثرينَ.

وإمّا أن تكونَ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، لئلا يلزمَ ألّا يكونَ قد وُهِبَ مَنْ وصف؛ لموتِ يحيى قبلَ زكريّا عليهما السلام[2]، ورُدَّ بأنَّ الرِّواياتِ متعارضةٌ، والأكثرونَ على أنَّهُ قُتِلَ بعدَهُ[3].

وسواءٌ كانتِ الجملةُ صفةً أوِ استئنافًا بيانيًّا فكلاهما يقتضي الفصلَ؛ لأنَّ الصِّفةَ لا تُعطَفُ على الموصوفِ، والاستئنافَ البيانيَّ مُستلزِمٌ للفصلِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ الإرثِ:

إرثُ العِلمِ والدِّينِ فضلٌ مِنَ الله لا مِنَّةَ فيه

استُعمِلَ لفظُ الإرثِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾؛ لكونِ ذلكَ بغيرِ ثمنٍ ولا مِنَّةٍ[4]، إضافةً إلى أنَّ الأظهرَ الأليَقَ بزكريّا عليه السلام أنْ يريدَ وِراثةَ العِلمِ والدّينِ، فتكونُ الوراثةُ مُستعارةً؛ لأنَّ الإرثَ في الأصلِ للمالِ[5]، فهي استعارةٌ للفظٍ يُستعملُ في الحسيّاتِ لمعنًى، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَرِثُنِي﴾ ونكتتُه:

إرثُ يحيى عليه السلام أمرٌ مستقبليٌّ

عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾؛ لفائدةٍ ونكتةٍ:

أمّا الفائدةُ فلأنَّ إرثَ يحيى عليه السلام أمرٌ مستقبَليٌّ لم يحصلْ بعدُ، فيناسبُهُ إيرادُ المضارعِ الدالِّ على الاستقبالِ هنا بقرينةِ الحالِ؛ لأنَّ يحيى الوارثَ عليه السلام لم يُخلَقْ بعدُ.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 144.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 321.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 144.
(4) الراغب، المفردات: (ورث).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 5.

وأمّا النُّكتةُ فلبيانِ ثقةِ زكريّا ﷺ باستجابةِ الدُّعاءِ، فأتى بما يُفيدُ تلك الثِّقةَ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ عاطفةٌ لهذه الجملةِ على ما قبلَها، فتفيدُ اتِّصافَ يحيى ﷺ بالجمعِ بينَ إرثِ زكريّا ﷺ وإرثِ آلِ يعقوبَ، وقيلَ: الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِنْ أحدِ الضَّميرَينِ في ﴿يَرِثُنِي﴾[1]، أي: يَرِثُني حالَ كونِه وارثًا مِنْ آلِ يعقوبَ.

يحيى ﷺ جامعٌ إرثَ زكريّا ﷺ وإرثَ آلِ يعقوبَ

نكتةُ تَكرارِ فعلِ الإرثِ:

تكرَّرَ فعلُ الإرثِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، دون أن يُقال: (يرثُني وآلَ يعقوب)؛ لأنَّ في تَكرارِه مزيدَ عِنايةٍ بالإرثِ مِنْ آلِ يعقوبَ بجعلِه أمرًا مُستقِلًّا مقصودًا لذاتِه؛ مبالغة من زكريّا ﷺ في الطلب والتذلّل؛ إذ يُعلِّل طلبه بأنَّ وَلَده سيرثُه وسيرثُ آلَ يعقوب.

الاعتناءُ بالإرثِ مِنْ آلِ يعقوبَ بواسطةِ تَكرارِ الفعلِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

قرأَ أبو عمرٍو والكسائيُّ بجزمِ ﴿يَرِثْنِي وَيَرِثْ﴾، وقرأَ الباقونَ برفعِهما ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾[2].

أمّا الرَّفعُ فعلى الصِّفةِ لـ﴿وَلِيًّا﴾[3]، أو على الاستئنافِ البيانيِّ كما تقدَّمَ[4]، وأمّا الجزمُ فعلى جوابِ الدُّعاءِ في ﴿فَهَبْ﴾[5]، أو على جوابِ شرطٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (إنْ تَهَبْهُ يَرِثْني)[6]، والمعنيانِ متقارِبان.

قراءةُ الجزمِ باعتبارِها جوابًا وقراءةُ الرَّفعِ باعتبارِها نعتًا

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 383.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.
(3) الواحدي، البسيط: 14/ 193، والزمخشري، الكشاف: 3/ 5، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 507، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 321.
(5) الواحدي، البسيط: 14/ 193، والزمخشري، الكشاف: 3/ 5، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 507، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 5، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 81.

غرضُ حذفِ المفعولِ الثّاني:

الاستغناءُ بدلالةِ المقامِ عنِ الذِّكرِ

حُذِفَ المفعولُ الثّاني في قولِه سبحانَهُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾؛ استغناءً عن ذكرِه بدلالةِ الحالِ؛ لأنَّ المرادَ بالإرثِ إرثُ الشَّرعِ والعلمِ؛ لأنَّ الأنبياءَ لا تورِّثُ المالَ(1)، فيكونُ الموروثُ معلومًا، والمعنى: يَرِثُني ويَرِثُ مِنْ آلِ يعقوبَ الشَّرعَ والعِلمَ.

براعةُ تعديةِ فعلِ الإرثِ بنفسِه وبحرفِ ﴿مِنۡ﴾ في سياقٍ واحدٍ:

تعديةُ الفعلِ بنفسِه للوراثةِ الكاملةِ وبحرف (من) للوراثةِ الجُزئيَّةِ

﴿مِنۡ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى مفعولِه على الأظهرِ؛ لأنَّهُ يقالُ: ورِثْتُهُ، ووَرِثْتُ منهُ، وقد جُمِعَ بينَهما هنا في الآيةِ، وقيلَ: ﴿مِنۡ﴾ للتَّبعيضِ لا للتَّعديةِ، أي: ويَرِثُ مِنْ بعضِ آلِ يعقوبَ، وإنَّما حُمِلَتْ على البعضيَّةِ؛ لأنَّ آلَ يعقوبَ لم يكونوا كلُّهم أنبياءَ ولا عُلَماءَ(2)، والذي يظهرُ أنَّها جاءتْ للتَّعديةِ في دخولِها على ضميرِ المتكلِّم، وللتَّبعيضِ في دخولِها على آلِ يعقوب، وبه تكونُ الوراثةُ كاملةً لزكريّا عليه السلام، وتبعيضيَّةً للآلِ.

توجيهُ ذكرِ آلِ يعقوبَ:

القيَمُ التَّربويَّةُ مشحونةٌ في النَّظمِ القرآنيِّ

لم يكتفِ زكريّا عليه السلام بقولِه: ﴿يَرِثُنِي﴾، بل زادَ فقالَ: ﴿وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾، فلم يجعلْ نفسَهُ القِمَّةَ في الطّاعةِ في آلِ يعقوبَ مِنَ الأنبياءِ، وهذا تواضعٌ منهُ، ومراعاةٌ لأقدارِ الرِّجالِ وإنزالِهم مَنازلَهم(3)، وفي ذلكَ أيضًا اقتداءٌ منهُ بيعقوبَ إذ قالَ ليوسفَ عليهما السلام: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [يوسف: 6](4)، وفي ذلك الأدبِ الجمِّ اعترافٌ بفضلِ السّابقين، ورجاءٌ أن يكونَ في اللّاحقين.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 5، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 350.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 5، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 241، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 350.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9030.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 169.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ﴾:

جمعُ زكريّا عليه السلام بينَ طلبِ الولدِ وطلبِ فضائلِه

الواوُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ عاطفةٌ لهذه الجملةِ على جملةِ ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾، فيكونُ زكريّا عليه السلام قد جمعَ بينَ طلبِ الوليِّ الوارثِ وجعلِه مَرْضيًّا عندَ اللّه والخَلْقِ، ولم يقتصرْ على طلبِه فقطْ؛ لأنَّهُ لا يريدُ مُجرَّدَ الذُّرّيَّةِ، وإنَّما يريدُ ذُرّيَّةً طيِّبةً صالحةً، كما أخبرَ عنهُ جلَّ وتباركَ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عمران: 38].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

الوسائلُ تُقدَّمُ بين يدَيْ طلبِ الحاجاتِ

اختارَ زكريّا عليه السلام وصفَ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾؛ لأنَّهُ في مقامِ الطَّلبِ مِنَ اللّه جلَّ وتباركَ، ولفظُ الرَّبِّ مُنبِئٌ عنِ الإحسانِ والإنعامِ، فيكونُ أنسبَ بهذا المقامِ، والمعنى: واجعَلْهُ أيُّها المُحسِنُ إليَّ مَرْضيًّا[1]، فيكونُ اختيارُ هذا الوصفِ دونَ غيرِه بمنزلةِ تقديمِ الوسيلةِ بينَ يدَيْ طلبِ الحاجةِ، كما في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5].

فائدةُ توسيطِ ﴿رَبِّ﴾ بينَ مفعولَيِ ﴿وَٱجۡعَلۡهُ﴾:

تقديمُ ما يفيدُ الاعتناءَ بالمطلوبِ

وُسِّطَ المُنادى ﴿رَبِّ﴾ بينَ مفعولَيِ ﴿وَٱجۡعَلۡهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾، ولم يُقلْ: (واجعَلْهُ رَضيًّا ربِّ)، أو (ربِّ واجعَلْهُ رَضيًّا)؛ للمبالغةِ في الاعتناءِ بشأنِ ما يستدعيه[2]، إضافةً إلى أنَّ تأخيرَ ﴿رَضِيّٗا﴾ يترتَّبُ عليه مراعاةُ تلاؤمِ الفاصلةِ مع ما قبلَها وما بعدَها مِنَ الفواصلِ.

نكتةُ استعمالِ صيغَةِ الصِّفةِ المشبَّهةِ:

(رَضيًّا) فعيلٌ بمعنى مفعولٍ على الأظهرِ

﴿رَضِيّٗا﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ صفةٌ مشبَّهةٌ باسمِ الفاعلِ، وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أي: واجعَلْهُ ربِّ مَرْضيًّا في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 255، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 383.

أخلاقِه وأفعالِه عندَكَ وعندَ النّاسِ[1]، وقيلَ: هو فعيلٌ بمعنى فاعل، أي: واجعَلْهُ ربِّ راضيًا بقضائِكَ وقَدَرِكَ[2]، والأوَّلُ أنسبُ[3]؛ لأَنَّهُ يشملُ الثّانيَ؛ لأَنَّهُ لا يكونُ مَرْضيًّا عندَ اللهِ جلَّ شأنُهُ حتَّى يكونَ الرِّضا بالقضاءِ والقَدَرِ مِنْ جملةِ صفاتِه.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿رَضِيًّا﴾ دونَ مرادفاتِه:

التَّنبيه بالأعلى لاشتمالِه لجميعِ الصِّفات

اختيرَ لفظُ الرَّضيِّ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (واجعَلْهُ ربِّ صالحًا) ونحوُ ذلكَ؛ لأَنَّ المرادَ بالرَّضيِّ هنا: المَرْضيُّ عندَ اللهِ والنّاسِ في أخلاقِه وأفعالِه وأحوالِه، ولا يكونُ كذلكَ إلّا إذا كانَ صالحًا وساعيًا في سُبُلِ الخيراتِ والإحسانِ إلى الخلقِ، فالصَّلاحُ مقدِّمةٌ من مقدِّمات الرَّضيّ، فذكرَ الأعلى لاشتمالِه على جميعِ مواصفاتِ ما هو دونَه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوَهْنُ والضَّعْفُ:

الوَهْنُ أبلغُ مِنَ الضَّعفِ؛ لأَنَّهُ ضَعْفٌ شديدٌ

فُرِّقَ بينَ الضَّعفِ والوَهْنِ، واختُلِفَ في جهةِ التَّفرقةِ:

فقيلَ: الضَّعْفُ: ضدُّ القوَّةِ، وهو مِنْ فعلِ اللهِ، كما أَنَّ القوَّةَ مِنْ فعلِ اللهِ، تقولُ: خلقَهُ اللهُ ضعيفًا، أو خلقَهُ قويًّا، والوَهْنُ: هو أنْ يفعلَ الإنسانُ فِعْلَ الضَّعيفِ، تقولُ: وهَنَ في الأمرِ يَهِنُ وهْنًا، وهو واهنٌ، إذا أخذَ فيه أَخْذَ الضَّعيفِ، وقد يُستعمَلُ الضَّعفُ مكانَ الوَهْنِ مجازًا؛ كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، أي: لم يَفْعَلوا فِعْلَ الضَّعيفِ[4].

ويَرِدُ على هذا الوجه أنَّ زكريّا عليه السلام قال: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 5، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 82.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 82، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 569.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 145.
(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 330.

ولا شكَّ أنَّ الوَهْنَ فعلُ اللّه لا فعلُهُ، إلا أن تُحملَ هذه التَّفرقةُ على الغالبِ.

وقيلَ: الوَهْنُ: انكسارُ الجسدِ بالخوفِ وغيرِهِ، والضَّعْفُ: نُقصانُ القوَّةِ(1).

ويَرِدُ على هذا الوجه أنَّ زكريّا عليه السلام قالَ: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، ولا شكَّ أنَّ مقصودَهُ نَقْصُ القوَّةِ، لا انكسارُ الجسدِ بالخوفِ وغيرِهِ، وإنْ حُمِلَ على أنَّ الوَهْنَ يُطلَقُ على الانكسارِ المذكورِ لا على أنَّهُ معناهُ دائمًا فهو مقبولٌ.

والحاصلُ: أنَّ بينَ الوَهْنِ والضَّعْفِ تقاربًا شديدًا في المعنى، ولذلكَ قد يُستعمَلُ أحدُهما في مقامِ الآخرِ، والأقربُ: أنَّ الوَهْنَ هو الضَّعْفُ الشَّديدُ(2)، ولذلكَ عبَّرَ به زكريّا عليه السلام في قولِه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾، وهو في سياقِ إظهارِ استيلاءِ الكِبَرِ والهَرَمِ عليهِ، ولا شكَّ أنَّ حالَ الشّيخوخةِ هو حالُ الضَّعفِ البالغِ الشَّديدِ.

الخوفُ والخشيةُ:

الخوفُ توقُّعُ مكروهٍ، والخشيةُ خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ

فُرِّقَ بينَ الخوفِ والخشيةِ: بأنَّ الخوفَ توقُّعُ مكروهٍ عن أَمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفَ الأَمنُ، ويُستعمَلُ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]، وقالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: 81]، وقالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: 3]، وقالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35](3)، ويُطلَقُ الخوفُ على أَثَرِهِ؛ وهو السَّعيُ في مَرْضاةِ المَخوفِ منهُ، وامتثالِ أوامرِهِ؛ كقولِه جلَّ وتباركَ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: 175](4).

(1) الجزائري، فروق اللغات، ص: 163.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 108.
(3) الراغب، المفردات: (خوف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 409.

وأمّا الخشيةُ فهي خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علم بما يُخشى منهُ، ولذلكَ خُصَّ بها العُلَماءُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وقالَ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ [الكهف: 80]، وقالَ: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: 33]، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ [عبس: 8 - 9][1].

المرأةُ والزوجَةُ:

الزَّوجُ تُستعمَلُ في سياقِ النِّعمةِ والتّوافُقِ وحُسْنِ المُعاشرةِ، والمرأةُ تُستعمَلُ في خلافِ ذلكَ

جرى الاستعمالُ اللُّغويُّ العاديُّ على أنَّ لفظَيّ (زوجٍ) و(امرأةٍ) مترادفانِ، وأمّا في الاستعمالِ القرآنيِّ فجاءَتْ كلمةُ (زوجٍ) في سياقِ النِّعمةِ والتّوافقِ وحُسْنِ المُعاشرةِ، وفي سياقِ ذكرِ نساءِ المؤمنينَ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة: 25]، وقولِه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وذلكَ لما في لفظِ الزَّوجِ في اللُّغةِ مِنَ الإشعارِ بالمجانسةِ والاقترانِ.

واستُعمِلَتْ كلمةُ (امرأةٍ) في سياقِ الإخبارِ عن نساءِ أهلِ الشِّركِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]؛ ففرعونُ كانَ مُشرِكًا، وامرأتُهُ كانَتْ مؤمنةً، فعدلَ القرآنُ عن لفظِ (زوجٍ) الدّالِّ على التَّجانسِ والتَّشاكلِ، وعبَّرَ بلفظِ (امرأةٍ) الدّالِّ على مُجرَّدِ الأنوثةِ؛ قطعًا للمشابهةِ والتَّجانسِ بينَ الكفّارِ والمؤمنينَ.

وكذلكَ عبَّرَ القرآنُ بلفظِ (امرأةٍ) إذا كانَ الرَّجلُ كافرًا والمرأةُ كافرةً؛ كما في حالِ أبي لَهَبٍ وامرأتِه في قولِه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: 4]؛ قطعًا للمشابهةِ في الوصفِ بينَ المؤمنينَ والكفّارِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (خشي).

وأمّا قولُه تعالى على لسانِ زكريّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، وقولُه عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ [الذاريات: 29] فلأنَّ لفظَ (امرأةٍ) أنسبُ بسياقِ الآيتين، حيث لم تكونا صالحتَين للحملِ والولادةِ المُرتبطَين بصفةِ الأُنوثة(1).

العاقرُ والعقيمُ:

أصلُ العَقْرِ قطعُ الأصلِ، ومنهُ استُعيرَ: رجلٌ عاقرٌ، وامرأةٌ عاقرٌ؛ وهي الَّتي لا تَلِدُ، كأنَّها تَعقِرُ ماءَ الفَحْلِ(2)، وأصلُ العُقْم: اليُبْسُ المانعُ مِنْ قَبولِ الأثرِ، والعقيمُ مِنَ النِّساءِ هي الَّتي لا تقبلُ ماءَ الفَحْلِ(3).

لفظُ (العاقرِ) أعمُّ؛ لأنَّهُ يشملُ عدمَ الإنجابِ بأصلِ الخِلْقةِ، وعدمَهُ بسببِ عِلَّةٍ أو مَرَضٍ

وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ العاقرَ هي الَّتي لا تَلِدُ أصلًا، أوِ الَّتي كانَتْ تَلِدُ ثمَّ انقطعَ حَملُها لعِلَّةٍ مَرَضيَّةٍ أو لِكِبَرِ سِنِّها، وقد ورَدَتْ هذه اللَّفظةُ ثلاثَ مرّاتٍ في حقِّ امرأةِ زكريّا عليه السلام وهي لم تكنْ تَلِدُ أصلًا، مرَّتينِ في هذه السّورة: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، ومرَّةً في سورةِ آلِ عمرانَ في قولِه سبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: 40]، وأمّا العقيمُ فهي الَّتي لا تَلِدُ بأصلِ الخِلْقةِ لا لعِلَّةٍ أو مَرَضٍ، وقد ورَدَتْ هذه اللَّفظةُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: 50]، وقولِه: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾ [الذاريات: 29](4).

والحاصلُ أنَّ لفظَ (العاقرِ) أعمُّ؛ لأنَّهُ يشملُ عدمَ الإنجابِ بأصلِ الخِلْقةِ، ويشملُ عدمَهُ بسببِ عِلَّةٍ أو مَرَضٍ أو كِبَرِ سِنٍّ.

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 278 - 280، وزيدان، الفروق اللغوية في القرآن، ص: 596، والنزهي، الفروق اللغوية، ص: 40.
(2) الراغب، المفردات: (عقر).
(3) الراغب، المفردات: (عقم).
(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن، ص: 691 - 693.

الإعطاءُ والهِبَةُ:

الهِبَةُ تقتضي التَّمليكَ، والإعطاءُ قد يكونُ بتمليكٍ وبدونه

فُرِّقَ بينَ (الإعطاءِ) و(الهِبَةِ): بأنَّ الإعطاءَ في الأصلِ هو اتِّصالُ الشَّيءِ بالآخِذِ لَهُ؛ كإعطائِكَ المالَ لزيدٍ؛ ليتَّجِرَ لكَ بهِ، ولا يقتضي التَّمليكَ، وأمّا الهِبَةُ فتقتضي التَّمليكَ، فإذا وهبتَهُ شيئًا فقد ملَّكتَهُ إيّاهُ، ثمَّ كَثُرَ استعمالُ الإعطاءِ في التَّمليكِ، فيقالُ: أعطاهُ مالًا، إذا ملَّكَهُ إيّاهُ[1]، وكَثُرَ استعمالُ العطاءِ والعطيَّةِ في القرآنِ في الصِّلاتِ والمِنَحِ وأنواعِ الثَّوابِ[2]؛ كقولِه سبحانَهُ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقولِه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقولِه: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النبأ: 36].

الآلُ والأهلُ:

الأهلُ أعمُّ مِنَ الآلِ مِنْ حيثُ الإضافةُ

(الآلُ) مقلوبٌ مِنَ (الأهلِ)، ويُصغَّرُ على (أُهَيْلٍ)، وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ (الآلَ) مخصوصٌ بالإضافةِ إلى الأعلامِ النّاطقينَ، ولا يُضافُ إلى النَّكراتِ، ولا إلى الأزمنةِ والأمكنةِ، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ مثلًا: آلُ اللهِ، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ.

والأهلُ يُضافُ إلى الكلِّ، يقالُ: أهلُ اللهِ، وأهلُ الخيّاطِ، كما يقالُ: أهلُ زمنِ كذا وبلدِ كذا[3].

ويُطلَقُ الآلُ أيضًا على الأتباعِ والموالينَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46][4].

---

(1) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 40.
(2) الراغب، المفردات: (عطو).
(3) الراغب، المفردات: (آل)، والنزهي، الفروق اللغوية، ص: 29.
(4) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 9.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

عادةُ الكريمِ مع أوليائِه إجابةُ ندائِهم

لمّا ختمَ زكريّا عليه السلام دُعاءَهُ وتضرُّعَهُ في طلبِ الوليِّ الوارثِ بقولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ - جاءَتْهُ البُشْرى، وأجابَهُ ربُّهُ الَّذي أحسنَ الظَّنَّ به بقولِه: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[1]؛ فبين الآيات بيانٌ للانتقال منَ الطلبِ إلى تلبيتِه، ومنَ النِّداءِ إلى إجابته، وهذه عادةُ الكريم مع أوليائه سبحانه وتعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: (بشر) أصلٌ واحدٌ يدلّ على ظُهور الشَّيءِ معَ حُسْنٍ وجمالٍ[2]، فالبَشَرَةُ: ظاهرُ الجِلْدِ، وسُمّيَ الإنسانُ بالبَشَرِ اعتبارًا بظُهورِ جِلْدِه مِنَ الشَّعَرِ، بخلافِ الحيواناتِ الَّتي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعَرُ أوِ الوَبَرُ، وخُصَّ في القرآنِ كلُّ موضعٍ اعتُبِرَ مِنَ الإنسانِ جُثَّتُهُ وظاهرُهُ بلفظِ البَشَرِ، نحوُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، والمباشرةُ: الإفضاءُ بالبَشَرتَينِ، وأبشَرْتُ الرَّجلَ وبَشَرْتُهُ وبَشَّرْتُهُ: أخبرتُهُ بسارٍّ بَسَطَ بشَرةَ وجهِه، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[3]، والبِشارةُ: أوَّلُ خبرٍ سارٍّ، ولا يقعُ في الشَّرِّ إلّا على سبيلِ التَّهكُّم؛ كقولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقيلَ: يُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ البِشارةَ عبارةٌ عن خبرٍ يتغيَّرُ لهُ البَشَرُ، وذلكَ يكونُ في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).

(3) الراغب، المفردات: (بشر).

الشَّرِّ كما يكونُ في الخيرِ[1]، وقد غلبَ استعمالُ التَّبشيرِ في الخيرِ كما هو في هذه الآيةِ.

2) ﴿بِغُلَٰمٍ﴾: (غلم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حَداثةٍ وهَيَجِ شَهْوةٍ[2]، يقالُ: اغتلمَ إذا هاجَ مِنَ الشَّهْوةِ، ومِنْ ذلكَ الغُلامُ، وهو الطّارُّ الشّارِبِ، قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: 80][3]، أو هو مِنْ حينِ أنْ يولَدَ إلى أنْ يَشِبَّ[4]، وهو المرادُ بقولِه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾.

3) ﴿سَمِيًّا﴾: (سمو) أصلٌ يدلُّ على العُلوِّ، يقالُ: سَمَوْتُ، إذا علوْتُ، وسَما بصرُهُ: علا، وسَما لي شخصٌ: ارتفعَ حتَّى استَثْبَتُّهُ[5]، وسماءُ كلِّ شيءٍ: أعلاهُ، والاسمُ: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ[6]، واختُلِفَ في اشتقاقِه، فقيلَ: مِنَ السُّموِّ، وهو قولُ البصريّينَ، وقيلَ: مِنَ الوَسْمِ، وهو قولُ الكوفيّينَ[7]، وقولُهُ: ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قيلَ: مِثْلًا، وقيلَ: أي: لم تَلِدِ العواقرُ قبلَهُ مِثْلَه، وقيلَ: لم يتسمَّ أحدٌ بيحيى، وهو الرّاجحُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ عظمةِ الهِبَةِ اختصاصُها بمَزايا

تُفصِح الآيةُ عنِ استجابَةِ المَولى ﷻ دُعاءَ زكريّا ﵇، وقالَ: يا زكريّا إنّا نُبَشِّرُكَ بهِبَتِنا لكَ غُلامًا اسمُهُ يحيى، لم يتسمَّ بهذا الاسمِ أحدٌ قبلَهُ[9].

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلم).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (غلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(6) الراغب، المفردات: (سمو).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سمو).
(8) ابن جرير، جامع البيان: (18/ 148).
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 214.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في صَدْرِ الآيةِ:

الاستجابةُ بذكرِ المضمون مباشرةً أوقعُ مِنَ التَّمهيد

في صَدْرِ الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذِ التَّقديرُ: استجابَ اللّهُ دُعاءَهُ فقيلَ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾[1]، وفي هذا الإيجازِ ثقةٌ بنَباهةِ السّامعِ، وأنَّه قادرٌ على إكمالِ المعنى، وفي توجيه الكلامِ إلى زكريّا عليه السلام هكذا مباشرةً دليلٌ على سُرعةِ الاستجابةِ لدُعائِهِ، وأنَّهُ جاءَتْهُ الإجابةُ مباشرةً دونَ مُقدِّماتٍ[2].

نكتةُ النِّداءِ بالاسمِ العلم:

النِّداءُ في مقامِ الاستجابةِ تقريبٌ وعِنايةٌ

افتُتِحَ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ بنداءِ زكريّا عليه السلام باسمِهِ؛ إدناءً لهُ وتقريبًا وعِنايةً، وإظهارًا لمحبَّتِه واختصاصِهِ، وتمكينًا لإجابتِه في ندائِه الضّارعِ[3]، إضافةً إلى ما في تصديرِ الكلامِ بالنِّداءِ مِنْ لَفْتِ انتباهِهِ، وإيقاظِه لسماعِ ما يُلقى عليه مِنَ البُشْرى والإسعادِ بحصولِ المأمولِ.

غرَضُ التَّأكيدِ ودلالتُه:

زرعُ الثِّقةِ واليقينِ في تحقيقِ أمرٍ مستحيلٍ في العادةِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ بتحقُّقِ مضمونِ هذا الكلامِ، وزرعِ الثِّقةِ واليقينِ في نفسِ زكريّا عليه السلام بأنَّ مطلوبَهُ قد تحقَّقَ على أكملِ وجهٍ وأحسنِهِ، بتبشيرِه بغُلامٍ بديعِ الاسمِ والوصفِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العَظَمةِ:

لا يهبُ العظيمُ إلّا ما هو عظيمٌ

استُعملَ ضميرُ العَظَمةِ في قولِه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ مبالغةً في إظهارِ تحقُّقِ البِشارةِ ببيانِ أنَّها صادرةٌ مِنَ العظيمِ الَّذي لا يتقيَّدُ بأسبابِ النّاسِ وعاداتِهم، بل هو الفعّالُ

---

(1) الواحدي، البسيط: 14/ 197، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 82، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 16.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9031.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4613.

لما يريدُ[1]، أي: يا زكريّا إنّا على ما لَنا مِنَ العَظَمةِ نُبشِّرُكَ بغُلامٍ اسمُهُ يحيى[2].

سرُّ اختيارِ مُفردةِ التَّبشير:

تبشيرُ الكريمِ وعدُ صدقٍ وسرورُ نفسٍ

قولُه جل وعزَّ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ جوابٌ لِنداءِ زكريّا ﷺ، ووعدٌ بإجابةِ دُعائِه، يدلُّ على ذلكَ التَّعبيرُ بالبِشارةِ دونَ الإعطاءِ أو نحوِه، إذ لم يُقَلْ مثلًا: (إنّا نُعطيك)، ولا ضَيْرَ في ذلكَ؛ إذ وعدُ الكريم نَقْدٌ[3]، إضافةً إلى ما في البِشارةِ بحسَبِ معناها اللُّغويِّ مِنْ بَسْطِ بَشَرةِ المُبشَّرِ عندَ سماعِ الخبرِ السّارِّ، وهذا ملائمٌ لمقامِ إجابةِ الدُّعاءِ، فهو وعدٌ يحملُ في طيّاته سرورًا ينعكسُ على وجه الموعودِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

التَّبشيرُ حصلَ بمجرَّدِ سماعِ الخبرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ لأنَّه وصفٌ للواقعِ الحاصلِ عَقِبَ الإخبارِ بالبِشارةِ، فيناسبُهُ زمنُ الحالِ؛ لإدخالِ السُّرورِ على زكريّا ﷺ بعدَ ندائِه مباشرةً، كأنَّهُ قيلَ: يا زكريّا إنّا نُبشِّرُكَ الآنَ بغُلامٍ اسمُهُ يحيى.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قراءةُ التَّشديدِ أكثرُ مبالغةً مِنْ قراءةِ التَّخفيفِ

قرأَ حمزةُ بالتّخفيفِ ﴿نَبۡشُرُكَ﴾، بفتحِ النّونِ وإسكانِ الباءِ وضمِّ الشّينِ مُخفَّفةً، وقرأَهُ الباقونَ: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ بضمِّ النّونِ وفتحِ الباءِ وكسرِ الشّينَ مُشدَّدةً، والمعنى واحدٌ على القراءتَين، ولكنَّ قراءةَ الجمهورِ فيها مبالغةٌ وتكثيرٌ كما يدلُّ على ذلكَ التَّضعيفُ والتَّشديدُ[4].

نوعُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ مُتعلِّقانِ بالفعلِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، والباءُ للتَّعديةِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4613.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 145، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 385.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 239 - 240، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

نكتةُ اختيارِ لفظِ غلامٍ دون مرادفاتِه:

الغلامُ مرحلةٌ متوسِّطةٌ بين الوليد والرّجولة

اختيرَ لفظُ ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ الموهوبَ سيولَدُ ويكبُرُ ويبلُغُ مَبْلَغَ الغِلْمانِ[1]، وهذا إخبارٌ غيبيٌّ، إذ حين الولادةِ لا يُقال له: غلام، وإذا كبُر وبلغَ مبلغَ الكهولِ منَ الرِّجال فلا يُقال له غلامٌ كذلك، فكان هذا الوصفُ مشيرًا إلى أنَّه سيبقى غلامًا في الدُّنيا.

غرَضُ الإخبارِ باسمِ يحيى عليه السلام:

تسميةُ الله تعالى ليحيى برهانُ تشريفٍ وأمارةُ تبجيلٍ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ أنَّ اللّهَ جلَّ وعزَّ هو الَّذي تولَّى تسميةَ يحيى عليه السلام، وفي ذلكَ تأكيدٌ للتَّبشير؛ لأنَّه يتضمَّنُ ذكرَ حصولِ الولدِ معَ إطلاقِ التَّسميةِ عليه[2]، إضافةً إلى ما في تولّي اللّه سبحانَهُ لتسميتِه منَ التَّشريفِ لهُ والتَّعظيم[3].

وقيلَ: معنى ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾: سَمِّه يحيى، فالكلامُ خبرٌ مُستعمَلٌ في الأمرِ[4].

والأول هو الأظهرُ لدلالةِ الكلامِ عليه ولا موجِبَ لصرفِه عن ظاهرِه، ولتضمُّنِه معنى القول الآخرِ، فإنَّ تسميةَ اللّه تعالى يحيى بهذا الاسم، هو أمرٌ منَ اللّه تعالى بأن يكون هذا اسمُه المتداولُ بين النّاس، فهو خبرٌ ظاهرٌ، وإنشاءٌ ضمنيٌّ، فالقولان بالمآل صحيحان.

لطيفةٌ في سرِّ تسميةِ يحيى بهذا الاسم:

الحياةُ الحقيقيَّةُ هي حياةُ الشُّهداءِ لما يكونُ لهم من بالغِ التَّكريمِ والحفاوةِ

اختُلِفَ في توجيه سببِ تسميةِ يحيى عليه السلام بهذا الاسم على أقوالٍ:

الأول: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّ اللّهَ أحياهُ بالنُّبوَّةِ والإيمانِ والطّاعةِ[5]، وهذا تعليلٌ يصلح مع جميعِ الأنبياءِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 175.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4613.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 69.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 6، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 512.

الثّاني: لأنَّ اللّهَ أحيا لهُ النّاسَ بالهُدى[1]، وهذا كالسّابقِ.

الثّالث: لأنَّ اللّهَ تعالى أحيا به عُقْرَ أُمِّه[2]، وهذا أليقُ بالرّحم لا به.

الرّابع: لأنَّ يحيى عليه السلام أوَّلُ مَنْ آمنَ بعيسى، فصارَ قلبُهُ حيًّا بذلك الإيمانِ[3]، وهذا يُعوِزه الخبرُ الصّريحُ، ولا سبيلَ إليه فأوليَّة الإيمان لم تثبُت له.

الخامس: لأنَّهُ استُشهِدَ، والشُّهَداءُ أحياءٌ عندَ ربِّهم[4]، وهذا الأليقُ لما فيه منِ الإخبارِ عنِ الغيبِ إيماءً، ولبيانِ أنَّ الشَّهادةَ هي الضَّمانُ في استمرارِ الدّين والنُّبوَّة، وللإشارةِ إلى أنَّ حياةَ الشُّهداءِ خبرٌ أصيلٌ في الأممِ السّابقةِ، فأنسبُ اسمٍ بالشّهيدِ المعلومِ شهادتُه هو ﴿يَحۡيَىٰ﴾.

دلالةُ التَّخصيصِ بالقيدِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

إعجازٌ غيبيٌّ في الإخبارِ عنِ الأممِ السّابقةِ

جاءَ تقييدُ تسميةِ أحدٍ باسمِ يحيى بقيدِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾؛ تخصيصًا لزمانِ بني إسرائيلَ قومِه[5]، والمعنى: لم نجعلْ لهُ في زمانِه وقبلَ زمانِه مَنْ يُشارِكُهُ في اسمِه، وهذا لا يُنافي أنْ يُسمَّى أحدٌ باسمِه بعدَ زمانِه كما هو مُشاهَدٌ ومعلومٌ، وفيه خبرٌ غيبيٌّ عنِ الزَّمانِ الماضي، حيث لم يتسمَّ أحدٌ بهذا الاسمِ، فهو إعجازٌ غيبيٌّ.

فائدةُ اختصاصِ يحيى عليه السلام بهذا الاسم:

إكرامُ زكريّا عليه السلام وجعلُهُ قُدوةً للنّاسِ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ أنَّ يحيى عليه السلام أوَّلُ مَنْ تسمَّى بهذا الاسم، وهذا منَّةٌ منَ اللهِ وإكرامٌ لزكريّا عليه السلام؛ لأنَّ للأسماءِ المُبتكرةِ مزيَّةً، وهي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 6.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 512.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 512.
(4) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 512.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

قوَّةُ تعريفِ المُسمَّى؛ لقلَّةِ الاشتراكِ بينَهُ وبينَ غيرِه، وفي ذلكَ أيضًا مزيَّةُ اقتداءِ النّاسِ به حينَ يُسمّونَ أبناءَهم ذلكَ الاسمَ تيمُّنًا[1].

نكتةُ تأخيرِ المفعولِ ﴿سَمِيًّا﴾:

تعجيلُ إيقاعِ نفيِ السَّميِّ فيما مضَى مِنَ الأزمنةِ

قُدِّمَ ﴿لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ على ﴿سَمِيًّا﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا﴾، ولم يُقَلْ: (لم نجعلْ سَميًّا لهُ مِنْ قبلُ)؛ لتعجيلِ إيقاعِ نفيِ السَّميِّ فيما مضَى مِنَ الأزمنةِ، وفي ذلكَ تأكيدٌ للمِنَّةِ والتَّشريفِ، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على تأخيرِ ﴿سَمِيًّا﴾ مِنْ مراعاةِ الفاصلةِ.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الغُلامُ والوليدُ:

الغلامُ ما بين حديثِ الولادةِ واكتمالِ سنِّ الرُّجولةِ

الوليدُ هو مَنْ قَرُبَ عهدُهُ بالولادةِ، ويكونُ ذلكَ قبلَ أنْ يطرَّ شاربُهُ، فإذا طَرَّ شاربُهُ، وبدأَتْ فيه الشَّهوةُ والمَيْلُ إلى النِّساءِ سُمّيَ غُلامًا[2]، ويُستعمَلُ الغلامُ أيضًا في التِّلميذِ، يقالُ مثلًا: غلامُ ثعلبَ[3]، وقولُه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الموهوبَ سيولَدُ ويكبُرُ ويبلُغُ مَبْلَغَ الغِلْمانِ[4]، فالفرقُ بينهما هو في الإطلاقِ العُرفيِّ، فالغلامُ ما كان بعد سنِّ الطّفولةِ، وقبل سنِّ اكتمالِ الرُّجولةِ.

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيّ:

النِّداءُ على الحقيقةِ مِنَ اللهِ تعالى، والوساطةُ مِنَ الملائكةِ

تشابهَتْ هذه الآيةُ معَ قولِه تعالى في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]، حيث اتَّفقتِ الآيتانِ في كونِهما تبشيرًا لزكريّا بيحيى عليهما السلام.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 69.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 656.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 513.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 175.

واختلفتِ الآيتانِ في كونِ آيةِ آلِ عمرانَ ظاهرةً في إسنادِ التَّبشيرِ إلى الملائكةِ، وهذه الآيةُ فيها إسنادُ التَّبشيرِ إلى اللّه تعالى بقولِه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، ويدلُّ على أنَّ المُبشِّرَ هو اللّهُ ما قبلَ هذه الآيةِ؛ لأنَّ زكريّا عليه السلام إنَّما كانَ يخاطبُ اللّهَ تعالى ويسألُهُ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، وقولِه: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، وقولِه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، وما بعدَها يدلُّ أيضًا على أنَّهُ كانَ يخاطبُ اللّهَ تعالى بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، وإذا كانَ ما قبلَ هذه الآيةِ وما بعدَها خطابًا مع اللّه تعالى وجبَ أنْ يكونَ النِّداءُ والتَّبشيرُ مِنَ اللّه تعالى؛ لئلّا يختلَّ نظمُ الكلامِ(1).

وقيلَ: النِّداءُ في آيةِ مريمَ مِنَ المَلَكِ بوحيٍ مِنَ اللّه تعالى، واستُدِلَّ على ذلكَ بوجهينِ: الأوَّلُ: آيةُ آلِ عمرانَ، والثّاني: أنَّ زكريّا عليه السلام لمَّا قالَ: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ قيلَ لهُ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وهذا يجبُ أنْ يكونَ كلامَ المَلَكِ، وأُجيبَ عنِ الأوَّلِ: بأنَّهُ يحتملُ أنْ يقالَ: حصلَ النِّداءانِ نداءُ اللّه ونداءُ الملائكةِ، وأُجيبَ عنِ الثّاني: بأنَّ قولَهُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يمكنُ أنْ يكونَ كلامَ اللّهِ(2).

ذكرَتْ آيةُ مريمَ مِنْ صفاتِ يحيى عليه السلام أنَّهُ لم يُسَمَّ بهذا الاسم أحدٌ قبلَهُ، وذكرَتْ آيةُ آلِ عمرانَ مِنْ صفاتِه أنَّهُ سيِّدٌ وحَصورٌ ونبيٌّ مِنَ الصّالحينَ، فيكونُ الحذفُ في كلٍّ مِنَ الموضعينِ اكتفاءً بما في الآخرِ، والقصَّةُ واحدةٌ.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 511، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 15.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 511، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 15.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

السُّؤالُ عنِ الوسيلةِ بعدَ تيقُّنِ حصولِ الغايةِ

لمّا سمعَ زكريّا عليه السلام البِشارةَ مِنْ ربِّه، واطمأنَّ إلى حصولِها؛ رَغِبَ في معرفةِ الوسيلةِ، وكيفَ سيتمُّ ذلكَ وتتحقَّقُ هذه البِشارةُ، والحالُ أنَّهُ قد بلغَ مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا وامرأتُهُ عاقرٌ؟[1]، فهو انتقالٌ من التَّبشيرِ إلى السُّؤالِ عن كيفيّتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَغۡتُ﴾: (بلغ) أصلٌ واحدٌ؛ وهو الوصولُ إلى الشَّيءِ[2]، والبُلوغُ: الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهى، مكانًا كانَ أو زمانًا أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرةِ، وربَّما يُعبَّرُ به عنِ المُشارَفةِ عليه وإنْ لم يُنتَهَ إليه، فمِنَ الانتهاءِ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، ومِنَ المُشارَفةِ: قولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2]؛ فإنَّها إذا بلغَتْ أقصى الأَجَلِ لا يصحُّ للزَّوجِ مُراجعتُها وإمساكُها[3]، ويقالُ: بلغَ زيدٌ مُرادَهُ، إذا وصلَ إلى ما يريدُ[4]، وبلغَ المكانَ بُلوغًا، إذا وصلَ إليه وانتهى[5]، ومعنى البلوغِ في الآيةِ؛ أنَّه بلَغَ مبلغًا لا مزيدَ عليه في الإياسِ مِنَ الإنجابِ.

2) ﴿ٱلۡكِبَرِ﴾: (كبر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ[6]، وأصلُ

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9034.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) الراغب، المفردات: (بلغ).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلغ).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

الكِبَرِ أنْ يُستعملَ في الأعيانِ، ثمَّ استُعيرَ للمعاني، نحوُ قولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49][1]، والكِبْرُ: إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، وذلك أنْ يرى نفسَه أكبرَ مِنْ غيرِه[2]، والكِبَرُ: كثرةُ سِنِيِّ العُمُرِ؛ لأنَّهُ يقارنُه ظُهورُ قِلَّةِ النَّشاطِ واختلالُ نظامِ الجسم[3].

3) ﴿عِتِيًّا﴾: "العينُ والتّاءُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على استكبارٍ"[4]، والعُتُوُّ: النُّبوُّ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ [الفرقان: 21][5]، وعَتا الشَّيخُ، إذا ولَّى وكَبِرَ[6]، وقولُهُ: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، أي: حالةً لا سبيلَ إلى إصلاحِها بالنِّسبةِ لضَعْفي[7]، وذلكَ يكونُ إذا يَبِسَتْ مَفاصلُه وعِظامُهُ[8]، وقيلَ: ﴿عِتِيًّا﴾: طويلًا[9].

المَعنى الإجماليُّ:

المؤمنُ جريءٌ في سؤالِه لمكانتِه عند ربِّه

حينَ جاءتِ البِشارةُ زكريّا عليه السلام فرِحَ فرحًا شديدًا، وسألَ عن الوجهِ الَّذي يأتيه منهُ الولدُ، وقالَ: ربِّ مِنْ أيِّ وجهٍ يكونُ لي ذلكَ وامرأتي عاقرٌ لا تَلِدُ، وقد ضَعُفْتُ مِنَ الكِبَرِ عن إتيانِ النِّساءِ؟ وهذا شبيهٌ بسؤالِ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: 260]؛ فإنَّ من شأنِ الإيمان أن يبلُغَ بصاحبِه درجةً عاليةً مِنَ اليقين ليسألَ دون تردُّدٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

طريقةُ المحاوراتِ قائمةٌ على الفصلِ

فُصِلَتْ هذه الآيةُ عن سابقتِها، ولم تُعطَفْ عليها؛ لما بينَ الآيتينِ

(1) الراغب، المفردات: (كبر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتو).
(5) الراغب، المفردات: (عتو).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (عتو).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتو).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6.
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتو).

مِنْ شبه كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الآيةِ السّابقةِ المتضمِّنةِ للبِشارةِ، كأنَّهُ قيلَ: ما قالَ في جوابِ هذه البِشارةِ العُظمى؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾[1]، وهذه طريقةُ المحاوراتِ في القرآن الكريم، أن تأتيَ على نهجِ الفصلِ.

غرضُ حذفِ أداةِ النِّداءِ:

ملاءمةُ الحذفِ لمقامِ القُربِ والمُناجاةِ

جاء لفظُ: ﴿رَبِّ﴾ موجزًا في قوله تبارك شأنُهُ: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ بحذفِ حرفِ النِّداءِ وياءِ المتكلِّم، ولم يُقَلْ: (يا ربّي) كما هو الأصلُ؛ لأنَّ مقامَ المُناجاةِ والإكرامِ والإحسانِ مقامُ قُرْبٍ وعِنايةٍ، فيناسبُهُ حذفُ الوسائطِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لمقامِ مُناجاةِ الكريمِ

اختيرَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ دونَ غيرِه في قولِ زكريّا ﵇: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، فلم يُقَلْ مثلًا: (إلهي أنَّى يكونُ لي غُلامٌ)؛ لمناسبةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئِ عنِ الإحسانِ والتفضُّلِ لمقامِ مُناجاةِ الكريمِ سبحانَهُ الَّذي تفضَّلَ على زكريّا ﵇ بتبشيرِه بهبةِ الوليِّ الوارثِ، والمعنى: أيُّها المُحسِنُ إليَّ بإجابةِ دُعائي دائمًا، وبتبشيري بالغُلامِ العظيمِ الشَّأنِ أنَّى يكونُ لي غُلامٌ[2].

غرضُ الاستفهامِ:

ثراءُ دلالةِ الاستفهامِ باحتمالِه وجوهًا مُتعدِّدةً

سألَ زكريّا ﵇ ربَّهُ فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، وقد اختُلِفَ في توجيه غرضِ الاستفهامِ على أوجهٍ:

الأوَّل: الاستفهامُ للتعجُّبِ والاستبعادِ؛ ليُجابَ بما أُجيبَ به،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 174.

فيزدادَ المؤمنونَ إيقانًا، ويرتدعَ المُبطِلونَ، وإلّا فمُعتقَدُ زكريّا ﷺ أوَّلًا وآخِرًا أنَّ اللّهَ غنيٌّ عنِ الأسبابِ[1]، فيكونُ الاستبعادُ مِنَ المُبطِلينَ لا مِنَ السّائلِ؛ لأنَّ الأنبياءَ يعلمونَ أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[2].

الثّاني: إنَّما قالَهُ ﷺ معَ سبقِ دُعائِه بذلكَ وقوَّةِ يقينِه بقُدرةِ اللّهِ؛ استعظامًا لقُدرةِ اللّه تعالى، وتعجيبًا منها، واعتدادًا بنعمتِه تعالى عليه في ذلكَ، بإظهارِ أنَّهُ مِنْ مَحْضِ لُطْفِ اللّه ﷻ[3].

الثّالث: إنَّ طلبَ زكريّا ﷺ إنَّما كانَ ولدًا مِنْ حيثُ الجملةُ، وبحسَبِ ذلكَ أُجيبَ، وليسَ في الإجابةِ ما يدلُّ على أنَّهُ يولَدُ لهُ وهو هَرِمٌ، ولا أنَّهُ مِنْ زوجتِه وهي عاقرٌ، فاحتملَ عندَهُ أنْ يكونَ الموعودُ وهُما بهذه الحالةِ، واحتملَ أنْ تُعادَ لهما قوَّتُهما وشبابُهما، أو أنْ يكونَ الولدُ مِنْ غيرِ زوجتِه العاقرِ، فاستخبرَ أيكونُ الولدُ وهُما كذلكَ؟ فأُجيبَ بأنَّهُ يكونُ وهُما كذلكَ[4]، وعلى هذا يكونُ الاستفهامُ على حقيقتِه، ولا يكونُ للتّعجُّبِ والاستبعادِ[5]، وهذا الوجه هو أقربُ الأوجه، وهو ما يقتضيه ظاهرُ النَّظمِ، فإنَّ زكريّا ﷺ وقفَ أمامَ احتمالين، فإمّا أن يرجعَ قويًّا قادرًا على الإنجابِ، أو أن يحصل له أمرٌ خارقٌ فيُنجِبَ، فهو يسألُ عن أيِّ الأمرين سيكون، لا أنَّه يتعجّبُ ممّا سيكون، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يرغبُ في عودةِ قوَّتِه وشبابِه إلى سابقِ عهدِها.

بلاغةُ استعمالِ أداةِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

اجتماعُ معنَيَي الكيفيَّةِ والمكانِ في (أنَّى)

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أداةِ الاستفهامِ ﴿أَنَّىٰ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وهي بمعنى (كيفَ)، أي: كيفَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 145.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 381، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4613، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.
(4) ابن المنير، الانتصاف: 3/ 6، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 198.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 575.

يكونُ لي غلامٌ؟ أو بمعنى المكانِ، من أين يكون لي غلامٌ؟ وإنَّما استفهمَ عنِ المكانِ؛ لتعذُّرِ عملِ المكانينِ اللَّذينِ هما سببُ التَّناسلِ، وهما الكِبَرُ والعُقْرُ، والمعنى: مِنْ أينَ يكونُ لي غلامٌ[1]؟ وبلاغةُ الاستعمالِ أنَّ هذه الأداة قد دمجت معنَيَي الكيفيَّةِ والمكانِ في لفظٍ واحدٍ.

نوعُ ﴿يَكُونُ﴾ ودلالتُها:

احتمالُ (يكون) للتَّمامِ والنُّقصانِ

﴿يَكُونُ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إمّا تامَّةٌ، و﴿أَنَّىٰ﴾ واللّامُ مُتعلِّقتانِ بها، أي: كيفَ أو مِنْ أينَ يَحدُثُ لي غلامٌ؟ ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ اللّامُ بمحذوفٍ وقعَ حالًا مِنْ ﴿غُلَٰمٌ﴾، أي: أنَّى يَحدُثُ كائنًا لي غلامٌ؟ أو ناقصةٌ اسمُها ظاهرٌ، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾ و﴿لِي﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أو هو الخبرُ و﴿أَنَّىٰ﴾ نصبٌ على الظَّرفيَّةِ[2]، ودلَّت ﴿يَكُونُ﴾ على الاستمراريَّةِ الثّابتةِ المصاحبةِ للحال، أي: يكونُ غلامٌ مصاحبًا لي.

دلالةُ تقديمِ ﴿لِي﴾ على ﴿غُلَٰمٌ﴾:

الاعتناءُ بما قُدِّمَ والتَّشويقُ إلى ما أُخِّرَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِي﴾ على ﴿غُلَٰمٌ﴾ في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ - وهو حصولُ شيءٍ لهُ - على حاله من الكِبَرِ والعُقمِ، فكيف يكون له ذلك؟، أي: كيفَ أو مِنْ أينَ يَحدُثُ لي غلامٌ؟[3]، فالاستفهامُ متَّجهٌ لأن يكونَ له أكثرَ من كونِه غلامًا، وهو ما يدلُّ على أنَّ الاستفهام على حقيقتِه كما سبق بيانُ ذلك.

غرضُ تنكيرِ: ﴿غُلَٰمٌ﴾:

تفخيمُ شأنِ الغُلامِ بإيرادِه نكرةً

جيءَ بلفظِ الغُلامِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ نكرةً؛ لتفخيمِ شأنِه وتعظيمِه، لا سيَّما وقد وُصِفَ في الآيةِ السّابقةِ بأنَّ اسمَهُ يحيى، وأنَّهُ لم يتسمَّ بهذا الاسمِ أحدٌ قبلَهُ، فذلكَ ممّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 241.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 385.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256.

يدلُّ على أنَّ لهذا الغلامِ المُبشَّرِ به شأنًا عظيمًا، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للإفرادِ، والمعنى: أنَّى يكونُ لي فردٌ مِنْ أفرادِ الغِلْمانِ والحالُ كذا وكذا، وهذا هو الأظهرُ، وأمّا التَّعظيم والتَّشريف فمنتَزَعٌ منَ السّياقِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الواوُ للحالِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ للحالِ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ ضميرِ المتكلِّمِ في ﴿لِي﴾، أي: أنَّى يكونُ لي غُلامٌ والحالُ أنَّهُ كانتِ امرأتي عاقرًا لا تَلِدُ[1]، وهذه الحال هي تأييدٌ للاستفهامِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي: ﴿وَكَانَتِ﴾:

العُقْرُ صفةٌ قديمةٌ لامرأةِ زكريّا عليه السلام

عُبِّرَ بالماضي في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ إعلامًا بتقادُمِ العهدِ في حالِ امرأةِ زكريّا عليه السلام، وأنَّ العُقْرَ صفةٌ قديمةٌ لها، وهي دائمةٌ على تلكَ الصِّفةِ عندَ الإخبارِ بالبُشْرى والسُّؤالِ عن كيفيَّةِ حصولِها[2]، حتَّى أصبحت هذه الصِّفةُ ملازِمةً لها، وعلامةً عليها.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ:

العقرُ راسخٌ في امرأةِ زكريّا عليه السلام كأنَّه صادرٌ عنها

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِه تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ دلالةً على تمكُّنِ صفةِ العُقْرِ في امرأةِ زكريّا عليه السلام، وأنَّها ثابتةٌ لها، وهي مستمرَّةٌ عليها[3]، ويَعضُدُ ذلكَ ما سبقَ مِنَ التعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿وَكَانَتِ﴾، وكأنَّ العقرَ فعلٌ صادرٌ عنها، وهذا أدعى في بيانِ رسوخِ العقرِ فيها.

علَّةُ حذفِ تاءِ التَّأنيثِ في ﴿عَاقِرٗا﴾:

جاءَ النَّظمِ الكريم وفقَ ما يقتضيه لسانُ العربِ من حذف تاءِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 175، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 382، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 576.

(2) الواحدي، البسيط: 14/ 199، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530.

(3) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530.

علةُ التّأنيث اللّفظيّ الاشتراكُ وعند الاختصاص فيُحذفُ

التَّأنيثِ من وصف المرأةِ، فقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، ولم يُقَلْ: (وكانتِ امرأتي عاقرةً) بالتّاءِ؛ لأنَّ ما كانَ على (فاعل) مِنْ صفة المُؤنَّثِ ممّا لا يتّصفُ به المُذكَّرُ - لا تدخلُ فيه التّاءُ؛ نحوُ: امرأةٌ حائضٌ وحامل ومرضعٌ؛ لأنَّ التّاءَ للتّفرقةِ بينَ الموصوفِ المُذكَّرِ والموصوفِ المُؤنَّثِ، ولا التباسَ هنا[1]؛ لأنَّ التّأنيث مأخوذٌ منَ الاختصاص.

نكتةُ تكرارِ زكريّا عليه السلام وصفَ حالِه وحالِ امرأتِه:

التَّكرارُ بحسبِ المقامِ من التمهيدِ للطَّلبِ والسُّؤالِ عن الكيفيَّةِ

تقدَّمَ في نداءِ زكريّا عليه السلام أنَّهُ وصفَ نفسَهُ بالشَّيخوخةِ والكِبَرِ والضَّعفِ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ووصفَ امرأتَهُ بالعُقْرِ بقولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، وقد كرَّرَ ذلكَ هنا فقالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، والجوابُ عن ذلك: أنَّهُ في مقامِ السُّؤالِ عن كيفيَّةِ حصولِ الولدِ معَ انتفاءِ أسبابِ الحصولِ العاديَّةِ، فأعادَ ذكرَ الموانعِ[2]، فالوصفُ في الجملةِ السّابقةِ لبيانِ الحالِ تمهيدًا للطلبِ، أمّا هنا فللسُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستجابةِ والحال ما ترى؟

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ في التَّقديمِ والتَّأخير:

أراد عليه السلام أن يعلم أنَّ الإنجابَ سيكونُ من امرأتِه أو من غيرِها

قدَّمَ زكريّا عليه السلام في ندائِه ذكرَ حالِ نفسِه على ذكرِ حالِ امرأتِه، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾، وعكسَ هنا فقدَّمَ ذكرَ حالِ امرأتِه على حالِ نفسِه، فقالَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، وذلكَ يقتضي أنَّ زكريّا عليه السلام كانَ يظنُّ أنَّ عدمَ الولادةِ بسببِ عُقْرِ امرأتِه، وكانَ النّاسُ يَحسَبونَ ذلكَ إذا لم يكنِ الرَّجلُ عِنّينًا أو خَصيًّا، وهذا خطأٌ؛ فإنَّ عدمَ الولادةِ يكونُ إمّا لعِلَّةٍ بالمرأةِ في رَحِمِها، أو لعلَّةٍ في ماءِ الرَّجلِ، يكونُ غيرَ صالحٍ لنَماءِ البوَيْضاتِ الَّتي يُبرِزُها رَحِمُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 513، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 18.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.

المرأةِ[1]، إضافةً إلى أنَّ تأخيرَ ذكرِ حالِ نفسِه يترتَّبُ عليه وقوعُ ﴿عِتِيًّا﴾ في آخرِ الآيةِ، وفي ذلكَ مراعاةٌ للفاصلةِ[2].

والذي يظهر أنَّ التّقديمَ في الأولى باعتبارِه هو الطّالبُ للإنجابِ، فتكلَّم عن حالِ نفسِه، وفي الثّانيةِ قدَّمَ ذكرَ امرأته؛ لأنَّه استُجيبَ له؛ فأرادَ أن يعلمَ أنَّ الإنجابَ سيكون من هذه المرأةِ أو من غيرِها فبدأ بها، وذكرَ حالَ نفسِه استتمامًا للسُّؤالِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الحالُ تأتي لتَّأكيدِ المعنى والكشفِ عمّا في النَّفس

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا﴾ حالٌ مِنْ ياءِ المتكلِّم في قولِه: ﴿لِي﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ حالٌ أيضًا، والمقصودُ مِنَ الإتيانِ بالحالَين تأكيدُ الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو التَّعجيبُ أوِ الاستفهامُ الحقيقيُّ، على الخلافِ المذكورِ سابقًا في غرضِ الاستفهامِ، والمعنى: أنَّى يكونُ لي غلامٌ والحالُ أنَّ امرأتي كانَتْ عاقرًا لم تَلِدْ في شبابِها وشبابي، فكيفَ وهي الآنَ عجوزٌ، وقد بلغتُ أنا مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا؟![3].

دلالةُ أداةِ ﴿وَقَدۡ﴾:

بُلوغُ زكريّا عليه السلام مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا أمرٌ مُحقَّقٌ مُؤكَّدٌ

تفيدُ ﴿وَقَدۡ﴾ الدّاخلةُ على الفعلِ الماضي في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا﴾ التَّحقيقَ والتَّأكيدَ، أي: وقد تحقَّقَ وتأكَّدَ بُلوغي مِنَ الكِبَرِ عِتيًّا، وصارَ أمرًا لا شكَّ فيه ولا امتراءَ، وهو أمرٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ البُلوغِ:

البُلوغُ مجازٌ في حُلولِ إبّانِ الشَّيخوخةِ

لفظُ البُلوغِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مجازٌ في حُلولِ إبّانِ الشَّيخوخةِ[4]، وهذا التَّعبيرُ يوحي بأنَّ المرتبةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 70.

(2) الكرماني، البرهان، ص: 89.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 530، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

العاليةَ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ بمنزلةِ مَقْصِدٍ بعيدٍ كانَ يسيرُ إليه زكريّا ﵇، وقد وصلَ إليهِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للغرضِ المرادِ مِنَ الاستفهامِ.

الـثَّراءُ الـدّلاليُّ، ووفرةُ النَّظمِ في الإمكانِ التَّأويليِّ

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنَ﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ للتَّبعيض، حالٌ مِنْ ﴿عِتِيًّا﴾، أي: بلغتُ عِتيًّا حالَ كونِه بعضَ مراتبِ الكِبَرِ، قُدِّمَتْ؛ لأنَّ صاحبَها نكرةٌ[1]، أو للابتداء، أي: بلغتُ سِنًّا عاليةً ابتداؤُها جهةُ الكِبَرِ، أو للبيانِ والتَّجريد، أي: انتُزِعَ مِنْ مَدارجِ الكِبَرِ ومراتبِه مرتبةٌ تُسمَّى عِتيًّا.

المـانـعُ الـوحـيـدُ مِنَ إنجابِ زكريّا ﵇ كِبَرُ السِّنِّ

توجيهُ تخصيصِ زكريّا ﵇ الكِبَرَ بالذِّكرِ:

يظهرُ من الآيةِ أنَّ زكريّا ﵇ كانَ يعرفُ مِنْ نفسِه أنَّهُ ليسَ فيه مانعٌ مِنَ الإنجابِ سوى الشَّيخوخةِ، ولذلكَ ذكرَ الكِبَرَ، ولم يَذْكُرْ غيرَهُ مِنَ الموانعِ، فقالَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2]، وهذا الظّاهر يدلُّ على أنَّ زوجَه كانت على خلافِ حالِه فيما سبقَ مِنَ الزَّمانِ.

نوعُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْكِبَرِ﴾:

اللّامُ في لفظِ الكبرِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ لامُ الجنسِ والحقيقةِ، والمعنى: وقد بلغتُ مِنَ الجنسِ المُسمَّى بالكِبَرِ مرتبةً عاليةً تَحولُ بَيني وبينَ الإنجابِ.

(عِتيًّا) مفعولٌ به على الأظهرِ

توجيهُ إعرابِ ﴿عِتِيًّا﴾:

يحتملُ ﴿عِتِيًّا﴾ في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أربعةَ أوجهٍ مِنَ الإعرابِ، فهي إمّا مفعولٌ بِه، أي: بلغتُ عِتيًّا مِنَ الكِبَرِ، وعلى هذا يجوزُ أنْ يتعلَّقَ ﴿مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾ بـ ﴿بَلَغْتُ﴾، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ مِنْ ﴿عِتِيًّا﴾؛ لأنَّهُ في الأصلِ صفةٌ لهُ، وهو الأظهرُ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 576، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

وإمّا مصدرٌ مُؤكِّدٌ؛ لأنَّ بُلوغَ الكِبَرِ في معنى العِتيِّ، وإمّا مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ مِنْ فاعلِ ﴿بَلَغْتُ﴾، أي: وقد بلغتُ مِنَ الكِبَرِ حالَ كوني عاتيًا، أو ذا عِتيٍّ، وإمّا تمييزٌ[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

تعدُّدُ الأوجُه اللَّفظيَّةِ والمعنَى واحدٌ

قرأَ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿عِتِيًّا﴾ بكسرِ العينِ، وقرأَ الباقونَ بضمِّها: ﴿عُتِيًّا﴾[2]؛ أمّا كسرُ العينِ فإتباعٌ للكسرةِ الَّتي بعدَها، ومجانسةٌ للياءِ، وأمّا ضمُّ العينِ فعلى الأصلِ[3]، والمعنى على القراءتينِ واحدٌ، فهو اختلافٌ في اللَّفظِ لا في الدّلالةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿عِتِيًّا﴾:

تشبيهُ العِظامِ بالأعوادِ اليابسةِ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ

في استعمال العِتيّ في جملة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فالعتيّ اليابس من العود، حيثُ شُبِّهَتْ عِظامُ زكريّا ﵇ بالأعوادِ اليابسةِ على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وأُثبِتَ لها وصفُ العِتيِّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّخْييليَّةِ[4]، وهذا على تشبيه العتيِّ بالأغصانِ اليابسةِ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هذه الآيةُ معَ قولِه سبحانَهُ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، حيثُ تتَّفقُ الآيتانِ في ذكرِ الموانعِ مِنَ الإنجابِ بحسَبِ الأسبابِ العاديَّةِ، وتختلفانِ مِنَ الآتي:

أوّلًا: أنَّهُ جعلَ نفسَهُ هنا بالغًا الكِبَرَ، فقالَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقالَ في آيةِ آلِ عمرانَ: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: 40]، فجعلَ الكِبَرَ بالغًا لهُ، وأصلُ المعنى واحدٌ؛ لأنَّ ما بَلَغَكَ مِنَ المعاني فقد بَلَغْتَهُ، نحوُ: أدركَني الجَهْدُ، وأدركتُ الجَهْدَ[5].

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 569.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 571، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 368.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(5) الراغب، المفردات: (بلغ)، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

ثانيًا: أنَّهُ بدأَ هنا بذكرِ حالِ امرأتِه على عكسِ ما في سورةِ آلِ عمرانَ؛ لأَنَّهُ قد ذكرَ حالَهُ في أثناءِ دعائِهِ، وإنَّما المذكورُ هنا بُلوغُهُ أقصى مراتبِ الكِبَرِ تتمَّةً لما ذكرَهُ قبلَ ذلكَ، وأمّا في سورةِ آلِ عمرانَ فلم يَسبِقْ في الدُّعاءِ ذكرُ حالِهِ، فلذلكَ قدَّمَهُ على ذكرِ حالِ امرأتِهِ؛ لأنَّ المسارعةَ إلى بيانِ قُصورِ شأنِه أنسبُ[1].

وقيلَ: أخَّرَ ذكرَ الكِبَرِ هنا؛ ليوافقَ ﴿عِتِيًّا﴾ فواصلَ الآياتِ الأُخرى، وهو بابٌ مقصودٌ في الفصاحةِ يترجَّحُ إذا لم يُخِلَّ بالمعنى[2]، وقيلَ: يحتملُ تكرُّرُ الدُّعاءِ، واختلافُ الأسلوبِ للتّفنُّنِ[3]، ولا يخلو الحملُ على التَّكرارِ مِنَ البُعْدِ والتَّكلُّفِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

(2) الكرماني، البرهان، ص: 89، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 127، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/ 136، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 85.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 386.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

كلُّ شيءٍ هيّنٌ في قُدرةِ الخلّاقِ

لمّا سألَ زكريّا ﵇ عن كيفيَّةِ حصولِ الغلامِ معَ كِبَرِ سِنِّه وعُقْرِ امرأتِه؛ كان المناسبُ الإجابةَ عن سؤالِه بأنَّ ذلكَ الأمرَ هيِّنٌ في قُدرةِ الرَّبِّ القادرِ الَّذي لا يُعجِزُه شيءٌ، مع التَّشبيه بحالِه يوم أنْ لم يكن شيئًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَيِّنٌ﴾: (هون) أصلٌ يدلُّ على سُكونٍ أو سكينةٍ أو ذُلٍّ[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63] معناهُ: يَمشونَ بسكينةٍ ووَقارٍ، لا أَشَرًا وتجبُّرًا، والهَوْنُ والهَوانُ: اللّينُ والرِّفْقُ[2]، والهونُ بالضمِّ: الخِزْيُ[3]، ويقالُ: هانَ الأمرُ على فلانٍ: سَهُلَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27][4]، والهيِّنُ بتشديدِ الياءِ: السَّهْلُ حصولُه[5].

2) ﴿خَلَقۡتُكَ﴾: (خلق): أحدُهما: تقديرُ الشَّيءِ، والآخرُ: مَلاسةُ الشَّيءِ[6]، وأصلُ الخَلْقِ التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعَهما، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ

---
(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هون).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (هون).
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (هون).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ فقد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في بعضِ الأحوالِ، كقولِه لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110]، والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في الإنسانِ إلّا على وجهين: أحدُهما في معنى التَّقديرِ كما مرَّ، والثّاني في الكذبِ، كقولِه: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17]، وفي معنى المَلاسةِ يقالُ: صخرةٌ خَلْقاءُ، أي: مَلْساءُ(1).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

القادرُ على الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ قادرٌ على تبديلِ الصِّفاتِ وإفاضةِ الهِباتِ

قالَ اللّهُ تعالى: الأمرُ كما قلتَ يا زكريّا، فسنَهَبُ لكَ الولدَ معَ ما أنتَ وزوجُكَ عليه مِنَ العُقْرِ والشَّيخوخةِ، فخَلْقُ ولدٍ منكما على هذه الحالِ هيِّنٌ، فإنّي إذا أردتُ شيئًا كانَ دونَ توقُّفٍ على الأسبابِ العاديَّةِ، وليسَ خَلْقُ الغُلامِ الَّذي وعدتُكَ أنْ أهبَهُ لكَ معَ كِبَرِ سِنِّكَ وعُقْرِ زوجِكَ بأعجبَ مِنْ خَلْقي لكَ مِنَ العَدَمِ، والقادرُ على خَلْقِ الذَّواتِ والصِّفاتِ مِنَ العَدَمِ المَحْضِ يكونُ أجدرَ بالقُدرةِ على تبديلِ الصِّفاتِ بخَلْقِ الولدِ مِنَ الشَّيخِ والشَّيخةِ(2).

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

فصلُ الآيةِ لكونِها جوابًا عن سؤالٍ نشأَ ممّا قبلَها

فُصِلَ قولُهُ تبارك وتعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جرى على طريقةِ المُحاوَرةِ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا أخبرَ أنَّهُ بشَّرَ زكريّا عليه السلام بالولدِ، ثمَّ أخبرَ عن سؤالِ زكريّا عن كيفيَّةِ حصولِ ذلكَ مع انتفاءِ الأسبابِ العاديَّةِ للإنجابِ - كأنَّ سائلًا سألَ فقالَ: بماذا أخبرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ؟ فأُجيبَ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 36.

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[1]، فيكونُ الفصلُ لِشِبْه كمالِ الاتِّصالِ.

تعيينُ قائلِ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾:

القائلُ هو اللهُ تعالى على الرّاجحِ

الرّاجحُ أنَّ قائلَ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هو اللهُ تعالى، بدليلِ ما قبلَهُ وما بعدَهُ.

وقيلَ: إنَّ القائلَ لذلكَ مَلَكٌ، وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ ما قبلَ هذا الكلامِ وما بعدَهُ قولُ اللهِ تعالى، فلا يصحُّ إدراجُ هذه الألفاظِ فيما بينَ كلامِه ﷻ؛ لئلّا يَفْسُدَ نظمُ الكلامِ[2].

إعرابُ الكافِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ في محلِّ رفعٍ أو في محلِّ نصبٍ

اختُلِفَ في إعرابِ الكافِ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

فقيلَ: الكافُ في محلِّ رفعٍ، أي: الأمرُ كذلكَ، ويكونُ الوقفُ على ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثمَّ يُبتدَأ بقولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾[3].

وقيلَ: الكافُ في محلِّ نصبٍ بـ ﴿قَالَ﴾ الثّاني، أي: قالَ لزكريّا: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قولاً مِثلَ ذلكَ[4].

تعيينُ المُشارِ إليه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعدُّدُ المعاني بتعدُّدِ احتمالاتِ مرجعِ المُشارِ إليه

اختُلِفَ في بيانِ مرجعِ الإشارةِ في ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

فقيلَ: الإشارةُ إلى مُبهَمٍ في الذِّهنِ يُفسِّرُهُ قولُهُ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾،

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 571.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 577.

أي: قالَ ربُّ زكريّا: قالَ ربُّكَ قولًا مِثلَ ذلكَ القولِ الغريبِ؛ وهو ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1].

وقيلَ: الإشارةُ إلى ما تقدَّمَ مِنْ وعدِ اللّهِ، أي: قالَ لهُ ربُّهُ سبحانَهُ: قالَ ربُّكَ مِثلَ ذلكَ القولِ العجيبِ الَّذي وُعِدْتَهُ وعُرِّفْتَهُ؛ وهو ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾[2].

وقيلَ: الإشارةُ إلى قولِ زكريّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾، أي: الأمرُ كما قلتَ مِنْ كِبَرِكَ وعُقْرِ امرأتِكَ، وجملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ ناشئٍ عن قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ تقريرَ منشأِ التَّعجُّبِ يُثيرُ ترقُّبَ السّامعِ أنْ يعرفَ ما يُبطِلُ ذلكَ التَّعجُّبَ، وذلكَ كونُهُ هيِّنًا في جانبِ قُدرةِ اللّهِ تعالى العظيمةِ[3].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ المُشارُ إليه هو القولَ المأخوذَ مِنْ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: أنَّ قولَ ربِّكَ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ بلغَ غايةَ الوضوحِ في بابِه بحيثُ لا يُبيَّنُ بأكثرَ ممّا علمتَ، فيكونُ جاريًا على طريقةِ التَّشبيهِ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]، وجملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ تعليلٌ لإبطالِ التَّعجُّبِ إبطالًا مستفادًا مِنْ قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾[4].

نكتةُ استعمالِ اسمِ إشارةِ البعيدِ:

تفخيمُ المعاني وتعظيمُها يُناسبُه الإشارةُ بالبعيد

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (كذا قالَ ربُّكَ) أو نحوَه؛ لتعظيمِ المُشارِ إليهِ[5]، لا سيَّما والمقامُ مقامُ بيانِ قُدرةِ اللّهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 199.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 6، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 387.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 71.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 199.

ﷻ على خَلْقِ الولدِ معَ انعدامِ الأسبابِ العاديَّةِ، وذلكَ ممّا يناسبُهُ التَّفخيمُ والتَّعظيمُ.

علَّةُ فصلِ جملةِ القولِ:

الفصلُ على طريقةِ المحاوراتِ

فُصِلَ قولُهُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ عن قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّهُ ابتداءُ كلامٍ استُؤنِفَ جوابًا لما يقالُ: فماذا قالَ اللّٰهُ جلَّ شأنُهُ بعدَ تصديقِهِ زكريّا؟ فأُجيبَ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1]، فيكونُ بينَ الجملتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وهو يقتضي الفصلَ.

دلالةُ تَكرارِ فعلِ القولِ:

الاعتناءُ بكلا القولينِ بتَكرارِ فعلِ القولِ

كُرِّرَ فعلُ القولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ولم يُقتصَرْ على فعلٍ واحدٍ بأنْ يقالَ: (قالَ كذلكَ هو عليَّ هيِّنٌ)؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بكلا القولينِ[2]، وأنَّ كلًّا منهما مقصودٌ لذاتِهِ للمتكلِّمِ، لا أنَّ أحدَهما تَبَعٌ للآخرِ، وذلكَ أنَّ المتكلِّمَ إذا سَمِعَ فعلَ القولِ مرَّتينِ عَلِمَ أنَّ في كلِّ مرَّةٍ كلامًا جديدًا هو مَحَطُّ عنايةِ المتكلِّمِ، ولو لم يُكرَّرْ لربَّما ذُكِرَ الثّاني في دَرَجِ الكلامِ دونَ أنْ يلتفتَ إليه السّامعُ.

فائدةُ إسنادِ القولِ إلى ﴿رَبُّكَ﴾:

تحقيقُ حُصولِ البِشارةِ الصّادرةِ عنِ الرَّبِّ المُحسِنِ الكريمِ

أُسنِدَ فعلُ القولِ إلى الرَّبِّ جلَّ وتباركَ في قولِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (قالَ هو عليَّ هيِّنٌ)، أو (قلتُ هو عليَّ هيِّنٌ)؛ للإشعارِ منْ خلالِ التَّصريحِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بأنَّ قولَ ربِّكَ حقٌّ، ووعدَهُ صدقٌ[3]، كما أنَّ السُّلطانَ العظيمَ إذا وعدَ عبدَهُ شيئًا عظيمًا، فقالَ العبدُ: منْ أينَ يحصلُ لي هذا؟ يقولُ: إنَّ سُلْطانَكَ ضَمِنَ لكَ هذا، كأنَّهُ يُنبِّهُ بذلكَ على أنَّ كونَهُ سُلْطانًا ممّا يوجبُ

---

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 531، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 146.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 580.

عليه الوفاءَ بالوعدِ[1]، ولِما في لفظِ الرُّبوبيَّةِ مِنَ الإشارةِ إلى الإحسانِ المناسبِ لمقامِ تحقيقِ الوعدِ[2]، ولتربيةِ المَهابةِ، كقولِ الخُلَفاءِ: (أميرُ المُؤمنينَ يَرْسُمُ لكَ) مكانَ قولِهم: (أنا أرسُمُ)[3].

نكتةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيّةِ إلى كافِ الخطابِ:

مَنْ كانَ في كَنَفِ الرُّبوبيَّةِ شُرِّفَ وحصلَ مُبتغاهُ

أُضيفَ الرَّبُّ إلى ضميرِ زكريّا ﷺ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ تشريفًا لهُ، وإشعارًا بعلَّةِ الحكمِ؛ فإنَّ التَّذكيرَ بجَرَيانِ أحكامِ رُبوبيَّتِه تعالى عليهِ؛ مِنْ إيجادِه مِنَ العَدَمِ، وتقليبِه في أطوارِ الخَلْقِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَبْلُغَ كمالَهُ اللّائقَ بهِ؛ يُؤكِّدُ حصولَ الموعودِ بهِ، ويورِثُ زكريّا عليه السلام الاطمئنانَ بإنجازِه[4].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلّمِ:

مَدارُ كونِ الخَلْقِ هيِّنًا هو قُدرتُهُ تعالى الذّاتيَّةُ

في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ انتقالٌ مِنَ الغَيبةِ في قولِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِهِ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ومُقتضى الظّاهرِ: (هو عليه هيِّنٌ)[5]، وفي هذا الالتفاتِ إيذانٌ بأنَّ مَدارَ كونِ خَلْقِ يحيى هيِّنًا عليه سبحانَهُ هو القُدرةُ الذّاتيَّةُ لا رُبوبيَّتُهُ تعالى لزكريّا عليه السلام خاصَّةً، وفيه تمهيدٌ لما يَعْقُبُهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[6].

أو أنْ يُحملَ الكلامُ على الخبرِ، أي أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هو ما قالَه اللّٰه تعالى، فيكون التَّكلُّمُ عبارةً عن مضمونِ الخبرِ، فلا التفاتَ حينئذٍ، وهو الأظهرُ.

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4614.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 256.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.

مرجعُ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

يرجعُ الضَّميرُ إلى قضيَّةِ خَلْقِ يحيى عليه السلام

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه عزَّ وتباركَ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ راجعٌ إلى خَلْقِ يحيى عليه السلام مِنْ زكريّا عليه السلام وامرأتِه، وهما على تلكَ الحالةِ مِنَ العُقْرِ وكِبَرِ السِّنِّ، أي: قالَ ربُّكَ: خَلْقُ يحيى مَعَ وجودِ هذه الموانعِ في أُمِّه وأبيه هيِّنٌ يسيرٌ في جانبِ قُدرتي[1].

غَرَضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾:

الخلقُ على الله تعالى هيِّنٌ دون سواه

لمّا كانَ خَلْقُ يحيى عليه السلام مَعَ غيابِ الأسبابِ العاديَّةِ لحصولِ الولدِ أمرًا عجيبًا، لا تُتصوَّرُ القُدرةُ عليه إلّا مِنَ الخالقِ المعبودِ تبارك وتعالى؛ جيءَ للدَّلالةِ على ذلكَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾ في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: هو عليَّ خاصَّةً هيِّنٌ[2].

بلاغةُ المجازِ في مُفردةِ: ﴿هَيِّنٌ﴾:

إطلاقُ لفظِ الهيِّنِ في حقِّه تعالى مجازٌ عن كمالِ القُدرةِ

إطلاقُ لفظِ الهيِّنِ في حقِّ اللّه سبحانه وتعالى في قولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ ذلكَ إنَّما يجوزُ في حقِّ مَنْ يجوزُ أنْ يَصْعُبَ عليه شيءٌ، والمرادُ هنا أنَّهُ جلَّتْ قُدرتُه كاملُ القُدرةِ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، وإنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ[3]، إضافةً إلى أنَّ في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿هَيِّنٌ﴾ إشارةً إلى أنَّ خَلْقَ يحيى عليه السلام سهلٌ عليه سبحانَهُ، لا يُثيرُ عجَبًا ولا استغرابًا، وهذا يتناسبُ مَعَ مقامِ بيانِ كمالِ القُدرةِ[4].

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

احتمالُ الواوِ للاستئنافِ والحالِ

نوع الواوِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ إمّا أن تكونَ استئنافيَّةً، والجملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها[5]، أو حاليَّةً، والجملةُ

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/ 162، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 176، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4614.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 514، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 389، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9038.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4615.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 573، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257.

في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: إيجادُ الغُلامِ لكَ هيِّنٌ عليَّ في حالِ كوني قد خلقتُك مِنْ قبلِ هذا الغُلامِ ولم تكُ شيئًا[1].

بلاغةُ تحقيقِ المعاني بأداةِ ﴿وَقَدۡ﴾ والماضي:

تحقُّقُ خَلْقِ زكريّا عليه السلام فيما مضى مِنَ الزّمانِ

يدلُّ استعمالُ ﴿وَقَدۡ﴾ والفعلِ الماضي في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ على تحقُّقِ خَلْقِ زكريّا عليه السلام في الزَّمنِ الماضي بعدَ أنْ لم يكنْ شيئًا، وذلكَ لأنَّ (قد) معَ الفعلِ الماضي للتَّحقيقِ، وصيغةَ الماضي تدلُّ على الحدثِ - وهو هنا الخَلْقُ - في الزَّمنِ الماضي، وهذا يتناسبُ معَ مقامِ بيانِ دليلِ قُدرتِه جلَّ وعزَّ على الخَلْقِ؛ لما فيه مِنَ الإشارةِ إلى أمرٍ قد تقدَّمَ، ولا شكَّ للسّامعِ في حصولِه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

استفادةُ التَّعظيمِ مِنَ القراءةِ بلفظِ الجمعِ

قرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿خَلَقۡنَٰكَ﴾ بالنّونِ والألفِ على لفظِ الجمعِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿خَلَقۡتُكَ﴾ بالتّاءِ مضمومةً مِنْ غيرِ ألفٍ على لفظِ التَّوحيدِ[2]، والمعنى على القراءتَينِ واحدٌ، لكنَّ قراءةَ حمزةَ والكِسائيِّ تفيدُ التَّعظيمَ بإسنادِ الفعلِ إلى نونِ العَظَمةِ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ بيانِ القُدرةِ.

توجيهُ نسبةِ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ إلى زكريّا لا إلى آدمَ عليه السلام:

ما جرى لآدمَ عليه السلام جارٍ في الكلِّ بطريقِ الاستتباعِ

نُسِبَ الخَلْقُ مِنَ العَدَمِ في قولِه جلَّ وتقدَّسَ: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ إلى زكريّا عليه السلام، ولم يُنسَبْ إلى آدمَ عليه السلام وهو المخلوقُ مِنَ العَدَمِ حقيقةً، بأنْ يقالَ: (وقد خلقتُ أباكَ أو آدمَ مِنْ قبلُ ولم يكُ شيئًا)؛ لتأكيدِ الاحتجاجِ بهِ، حيثُ نُبِّهَ على أنَّ كلَّ فردٍ مِنْ أفرادِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 72.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 317.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 243.

البشرِ لهُ حَظٌّ مِنْ إنشائِه ﵇ مِنَ العَدَم؛ إذ كانَتْ فِطْرتُهُ البديعةُ أُنموذجًا مُنطويًا على فِطْرةِ سائرِ آحادِ الجنسِ انطواءً إجماليًّا مُستتبِعًا لجَرَيانِ آثارِها على الكلِّ، فكانَ إبداعُهُ ﵇ على ذلكَ الوجه إبداعًا لكلِّ أحدٍ مِنْ فُروعِه كذلكَ، ولأنَّ عدمَ زكريّا ﵇ أظهرُ عندَهُ وأجلى، وحالُهُ أولى بأنْ يكونَ مِعْيارًا لحالِ ما بُشِّرَ بهِ؛ توفيةً لمقامِ الامتنانِ حقَّهُ، فكأنَّهُ قيلَ: وقد خلقتُكَ مِنْ قبلُ في تضاعيفِ خَلْقِ آدمَ ولم تكنْ إذ ذاكَ شيئًا أصلًا، بل كنتَ عدمًا بَحْتًا[1].

دلالةُ واوِ الحال:

الواوُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، والمعنى: وقد خلقتُكَ مِنْ قبلُ والحالُ أنَّكَ لم تكُ شيئًا[2].

لطيفةُ حذفِ النّونِ:

أوجزَ فعلَ ﴿تَكُ﴾ بحذفِ النّونِ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾، ولم يُقلْ: (ولم تكنْ شيئًا)؛ ليَثبُتَ أنَّهُ ليسَ لهُ مِنْ ذاتِه إلّا العَدَمُ المَحْضُ، ويُنفى أنْ يكونَ لهُ مِنْ ذاتِه وجودٌ ولو على أقلِّ درجاتِ الكونِ، وهذا يناسبُ مقامَ إظهارِ قُدرةِ اللّه تعالى، وإزالةِ تعجُّبِ زكريّا مِنْ حصولِ الولدِ لهُ ولزوجِه وهما على هذا الحالِ مِنَ العُقْرِ والشَّيخوخةِ[3].

الإشـارةُ إلـى عـدميَّـةِ الـموجـوداتِ قبل خلْقِها

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والذَّرْءُ والبَرءُ:

الخاءُ واللّامُ والقافُ يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ[4]، وأصلُ الخَلْقِ التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام:

الخَلْقُ أعمُّ مِنْ حيثُ الإسنادُ، وفي الذَّرْءِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ، وفي البَرْءِ معنى الإظهارِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 257، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 382.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 573، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 176.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

1]، أي: أبدعهما، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، نحوُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ فقد جعلَهُ اللّهُ لغيرِه في بعضِ الأحوالِ، كقولِه لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110]، والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في الإنسانِ إلّا على وجهينِ: أحدُهما في معنى التَّقديرِ كما مرَّ، والثّاني في الكذبِ، كقولِه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17][1].

والبَرْءُ هو تمييزُ الصّورةِ، وقولُهم: (برأَ اللّهُ الخَلْقَ) معناهُ: ميَّزَ صورَهم، وأصلُهُ القَطْعُ، ومنهُ: بَرِئْتُ مِنَ المَرَضِ، كأنَّهُ انقطعَتْ أسبابُهُ عنك، وبرأَ اللَّحمَ مِنَ العَظْمِ: قطعَهُ[2].

والخالقُ هو القادرُ الموجِدُ مِنَ العَدَمِ، والبارئُ خُصَّ بوصفِ اللّه تعالى؛ فهو أخصُّ مِنَ الخالقِ[3].

وأصلُ الذَّرْءِ الإظهارُ، ومعنى (ذرأَ اللّهُ الخَلْقَ): أظهرَهم بالإيجادِ بعدَ العدمِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179]، وقالَ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136][4].

والحاصلُ أنَّ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ تشتركُ في معنى الإيجادِ مِنَ العَدَمِ، وينفردُ الذَّرْءُ والبَرْءُ بأنَّهما لا يُضافانِ لغيرِه سبحانَهُ، وأمّا الخَلْقُ فقد يُضافُ إلى غيرِه إذا كانَ بمعنى إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، ويُلحَظُ في الذَّرْءِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ، كقولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: 11]، ويُلحَظُ في البَرْءِ معنى الإظهارِ كما تقدَّمَ.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.

(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 270.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات: (ذرأ).

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

طلبُ وقتِ حصولِ البِشارة بعدَ اليقينِ بها

لمّا عَلِمَ زكريّا عليه السلام بوقوعِ البِشارةِ من ربِّ العالمينَ بيحيى عليه السلام، وقَويَ اطمئنانُه بكيفيَّةِ حصولِها، وزالَتِ الغرابةُ مِنْ نفسِه، فطلبَ مِنَ الله جلَّ وتبارك علامةً على ذلك، فقالَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٗۖ﴾: الآيةُ: العلامةُ، يقالُ: ائتِني بآيةِ كذا، أي: بعلامة كذا، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾[2]، وقيلَ: هي العلامةُ الظّاهرةُ، وحقيقتُه لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازم لشيءٍ لا يَظهَرُ ظُهورَهُ، فمتى أدركَ مُدرِكُ الظّاهرَ منهما عَلِمَ أنَّهُ أدركَ الآخرَ، وذلكَ ظاهرٌ في المحسوساتِ والمعقولاتِ، فمَنْ عَلِمَ ملازمةَ العلم للطَّريقِ، ثمَّ وجدَ العلمَ عَلِمَ أنَّهُ وجدَ الطَّريقَ، وكذا إذا عَلِمَ شيئًا مصنوعًا عَلِمَ أنَّهُ لا بدَّ لهُ مِنْ صانعٍ.

واشتقاقُ الآيةِ مِنَ التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيءِ، يقالُ: تَأيَّ، أي: ارفُقْ، أو مِنْ قولِهم: أَوَى إليه، وقيلَ للبِناءِ العالي: آيةٌ، نحوُ: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، والآياتُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الجاثية: 3] هي الآياتُ المعقولةُ الَّتي تتفاوتُ بها المعرفةُ بحسَبِ تفاوتِ منازلِ النّاسِ في العِلمِ[3]، والآيةُ مِنَ القرآنِ قيلَ: سُمّيَتْ آيةً؛ لأنَّها علامةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 177، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4615.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أي).
(3) الراغب، المفردات: (أي).

يُقطَعُ بها كلامٌ مِنْ كلامٍ، وقيلَ: لأنَّها جماعةٌ مِنْ حروفِ القرآنِ، كما يقالُ: خرجَ القومُ بآيتِهم، أي: بجماعتِهم[1]، والآيةُ أيضًا: العِبرةُ[2].

2) ﴿سَوِيًّا﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ، يقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سَويَّةٍ مِنْ هذا الأمرِ، أي: سَواءٍ[3]، والسَّويُّ يقالُ فيما يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ مِنْ حيثُ القَدْرُ والكيفيَّةُ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ [طه: 135]، ورجلٌ سَويٌّ: استوَتْ أخلاقُه وخِلْقتُه عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ[4]، والسَّواءُ: المُستوي، ويقالُ: أرضٌ سَواءٌ، أي: مُستويةٌ[5]، ومِنْ جملةِ ما قيلَ في ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أنَّ معناهُ: ثلاثَ ليالٍ كاملةً، أي: بأيّامِها[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خَرْقُ العاداتِ في مقامِ بيانِ وقتِ حصولِ البِشاراتِ

قالَ زكريّا عليه السلام: ربِّ اجعَلْ لي علامةً تدلُّني على تحقُّقِ المسؤولِ، ووقوعِ الحَملِ المأمولِ، فأجابَهُ ربُّهُ: علامتُكَ ألّا تَقْدِرَ على تكليمِ النّاسَ ثلاثَ ليالٍ حالَ كونِكَ صحيحًا سَويًّا بلا مَرَضٍ أو عِلَّةٍ في بدنِكَ ولا في لسانِكَ[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

فصلُ الآيةِ لكونِها استئنافًا بيانيًّا

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ عن سابقِهِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جاء جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، كأنَّ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أي).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(4) الراغب، المفردات: (سوي).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (سوي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 73.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 7، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 215، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/ 215.

قائلًا قالَ لمّا أخبرَ سبحانَهُ زكريّا عليه السلام بأنَّ خَلْقَ يحيى هيِّنٌ عليهِ: ماذا قالَ زكريّا بعدَ علمِه بذلكَ؟ فأُجيبَ بأنَّهُ قالَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾(1).

سرُّ اختيارِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:

زكريّا عليه السلام مُنغمِسٌ في مقامِ الإحسانِ والإكرامِ

اختيرَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ في قولِ زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾؛ لإنبائِه بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ عنِ التَّربيةِ والإحسانِ المُلائمَينِ لسياقِ القُرْبِ وطلبِ الحاجاتِ، أي: أيُّها المُحسِنُ إليَّ بالتَّقريبِ وإجابةِ الدُّعاءِ اجعَلْ لي علامةً أعرفُ بها تحقُّقَ ما بشَّرْتَني بهِ، ولانغماسِ زكريّا عليه السلام في النِّعَمِ والهِباتِ والرَّحَماتِ تكرَّرَ في قصَّتِه في هذه السّورةِ ذكرُ لفظِ الرَّبِّ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾.

غرضُ صيغةِ الأمرِ:

خروجُ الأمرِ عن حقيقتِه إلى معنى الدُّعاءِ

صيغةُ الأمرِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ ليسَتْ على بابِها؛ لأنَّ الأمرَ في الأصلِ يكونُ مِنَ الأعلى إلى مَنْ هو دونَهُ، والعبدُ دونَ الرَّبِّ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ آمرًا لهُ، فتُحمَلُ الصّيغةُ على ما يناسبُ المقامَ؛ وهو الدُّعاءُ والابتهالُ بينَ يدَيْ واهبِ الحاجاتِ ومُفيضِ الرَّحَماتِ تبارك وتعالى، والأنسبُ في هذا المقامِ تسميةُ هذا الفعلِ بفعلِ الدُّعاءِ.

وجهُ طلبِ زكريّا عليه السلام آيةً:

أوانُ حصولِ البِشارةِ ممّا تتشوّقُ النُّفوسُ لمعرفتِه

اختُلِفَ في وجهِ طلبِ زكريّا عليه السلام آيةً مِنْ ربِّه بقولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ على أوجهٍ:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 177.

الأول: إنَّ التماسَهُ الآيةَ كانَ على معنى المزيدِ مِنَ اللهِ والتَّكرمةِ لهُ بإعطائِه إيّاها[1].

الثّاني: البِشارةُ بالولدِ وقعَتْ مُطلَقةً، فلا يُعرَفُ وقتُها بمُجرَّدِ البِشارةِ، فطلبَ الآيةَ ليعرفَ بها وقتَ الوقوعِ[2]، وهذا الأظهرُ؛ لا سيَّما وأنَّ عنصرَ الزَّمانِ له من الأهميَّة ما لا يخفى.

الثّالث: المبادرةُ إلى الشُّكرِ، وتعجُّلُ السُّرورِ؛ إذِ الحَملُ لا يظهرُ في أوَّلِ العُلوقِ، فأرادَ معرفتَهُ أوَّلَ وجودِه[3].

ولا يمتنعُ الجمعُ بينَ القولينِ الثّاني والثّالثِ، فيكونُ غرضُهُ مِنْ معرفةِ وقتِ الحصولِ المُبادَرةَ إلى الشُّكرِ وإظهارِ السُّرورِ.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على ﴿ءَايَةٗۖ﴾:

العِنايةُ بجَعْلِ الآيةِ لهُ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ

الجَعْلُ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ إبداعيٌّ، واللّامُ مُتعلِّقةٌ بهِ، وتقديمُها على المفعولِ به حيثُ لم يُقَلْ: (اجعَلْ آيةً لي)؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ - وهو حصولُ الجَعْلِ لهُ - والتَّشويقِ إلى المُؤخرِ، أوِ اللّامُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفِ حالٍ مِنْ ﴿ءَايَةٗۖ﴾؛ إذ لو تأخَّرَ قولُهُ: ﴿لِّيٓ﴾ لكانَ صفةً لها[4].

بلاغةُ التَّعريضِ بحذفِ مُتعلَّقِ ﴿ءَايَةٗۖ﴾:

استعجالُ زكريّا عليه السلام بحصولِ المُبَشَّرِ به

أرادَ زكريّا عليه السلام نصبَ علامةٍ دالَّةٍ على وقوعِ الحَملِ بالغُلامِ؛ لأنَّ البِشارةَ به مُطلَقةٌ لم يتعيَّنْ زمنُها، وقد يتأخَّرُ الموعودُ به لحكمةٍ، فأرادَ أنْ يعلمَ وقتَ الموعودِ به، وفي هذا الاستعجالِ تعريضٌ بطلبِ المبادرةِ به، ولذلكَ حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ءَايَةٗۖ﴾، فلم يُقَلْ: (اجعَلْ لي آيةً على كذا)[5]؛ إيهامًا أنَّ مقامَ الاستعجالِ قد ضاقَ عن إتمامِ الكلامِ.

---

(1) الواحدي، البسيط: 14/ 204.

(2) الواحدي، البسيط: 14/ 204، والزمخشري، الكشاف: 4/ 6، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 515، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 382.

(3) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 351.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 258، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 390.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 73.

غَرَضُ تَنكيرِ ﴿ءَايَةٗ﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿ءَايَةٗ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ على لسانِ زكريّا ﵇: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾؛ للقصدِ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الآياتِ، أي: اجعَلْ لي آيةً مِنَ الآياتِ.

سرُّ تَكرارِ لفظِ الآيةِ:

مراعاةُ نفسِ المخاطَبِ قيمةٌ تربويَّةٌ وهدايةٌ روحيَّةٌ

كُرِّرَ لفظُ الآيةِ في قولِه تعالى وتقدَّسَ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾، ولم يُقَلْ: (قالَ هيَ ألّا تُكلِّمَ النّاسَ ثلاثَ ليالٍ سَويًّا)؛ لما في التَّكريرِ مِنْ إيناسِ زكريّا ﵇ بحصولِ مقصودِه الَّذي طلبَهُ؛ بإيرادِه باللَّفظِ الَّذي تلفَّظَ به هو، لا سيَّما وهو في مقامِ الاستعجالِ لمعرفةِ علامةِ البشارةِ الَّتي بُشِّرَ بها، وفيه من غرسِ الطُّمأنينةِ في نفسِ زكريّا ﵇ ما لا يخفى، كأنَّه قال آيتك التي طلبتها هي كيتَ وكيتَ.

دلالةُ إضافةِ الآيةِ إلى كافِ الخطابِ:

اختصاصُ زكريّا ﵇ بهذه الآيةِ

إضافةُ الآيةِ إلى كافِ الخطابِ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ على معنى اللّامِ، أي: جعَلْنا علامةً لكَ تَعرِفُ بها وقتَ حصولِ البشارةِ؛ وهذه العلامةُ هي ألّا تُكلِّمَ النّاسَ ثلاثَ ليالٍ مِنْ دونِ عِلَّةٍ ولا مَرَضٍ[1]، وفي هذه الإضافة معنَى الاختصاصِ، أي: هي آيةٌ لك دون سواك.

براعةُ تقييدِ الآيةِ بعدمِ تَكليمِ النّاسِ:

حَبْسُ لسانِ المُنعَمِ عليه في مقامِ الحسدِ والتَّكذيبِ إعانةٌ وكرامةٌ

خُصَّ الامتناعُ عنِ التَّكليمِ بالنّاسِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾؛ ليعلمَ زكريّا ﵇ أنَّهُ يُحبَسُ لسانُهُ عنِ القُدرةِ على تكليمِهم خاصَّةً، معَ إبقاءِ قُدرتِه على التَّكلُّمِ بذكرِ اللّهِ، ولذلكَ قيلَ لهُ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 73.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]، يعني: في أيّام عجزِكَ عن تكليم النّاسِ، وذلكَ ليُخلِصَ المُدَّةَ لذكرِ اللّهِ، ولا يشتغلَ لسانُهُ بغيرِه، توفُّرًا منهُ على قضاءِ حقِّ تلكَ النِّعمةِ الجسيمةِ بالشُّكرِ(1)، وفيه منَ التَّربيَّة الإشاريَّة لعمومِ النّاس ما تعجزُ الأقلام عن سطرِه، فإنَّ صاحبَ النِّعمةِ محسودٌ، فكيف إذا كانت النِّعمةُ ولدًا على كِبَرٍ، وكيف إذا كانت معجزةً، بل كيف إذا خُبِّر أنَّه سيحيا ليراه غلامًا، بل كيف إذا سُمّيَ من قِبل اللّه تعالى، فإذا كان المُنعَمُ عليه بمثل هذه النِّعَم، فإنَّ لسانه قد ينطق بها في كلِّ محفلٍ، وهذا ما سيجعلُ ألسنَ التَّكذيب تمتدُّ، فكانتِ الآيةُ مُعينةً على المحافظةِ على هذه النِّعمة.

نوعُ اللّامِ في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

اللّامُ للجنسِ أوِ العهدِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالنّاسِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ جنسُ النّاسِ، فتكونُ اللّامُ للجنسِ والحقيقة، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّامُ للعهدِ، ويكونَ المرادُ بالنّاسِ النّاسَ المعهودينَ الَّذينَ يختلطُ بهم ويُكلِّمُهم عادةً؛ وهم قومُهُ.

بلاغةُ الاحتراسِ والتّأكيدِ في تعدُّدِ أوجه الإعرابِ:

لا يسلُبُ الله النِّعمَ بإنزالِ النِّعمِ

يحتملُ ﴿سَوِيًّا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أنْ يكونَ صفةَ ﴿ثَلَٰثَ﴾ للتَّأكيدِ، أي: ثلاثَ ليالٍ كاملةً، أي: بأيّامِها، وسَوِيٌّ: فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، يستوي في الوصفِ به الواحدُ والواحدةُ والمُتعدِّدُ منهما.

ويحتملُ أنْ يكونَ حالًا مِنْ ضميرِ المُخاطَبِ في ﴿تُكَلِّمَ﴾، أي: حالَ كونِكَ سَويًّا، أي: بدونِ عاهةِ الخَرَسِ والبَكَمِ، ولكنَّ ذلكَ آيةٌ لكَ، وعلى هذا فذكرُ ﴿سَوِيًّا﴾ للاحتراسِ ومُجرَّدِ تأكيدِ الطُّمأنينة، وإلّا فإنَّ توقيتَهُ بثلاثِ ليالٍ كافٍ في الاطمئنانِ على انتفاءِ العاهةِ(2).

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 360.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 573، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 73.

توجيهُ المتُشابه اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هذه الآيةُ معَ قولِه تعالى في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]، فالآيتانِ مِنْ قصَّةٍ واحدةٍ، وهي قصَّةُ زكريّا عليه السلام، وفي كلٍّ منهما طلبَ زكريّا عليه السلام مِنْ ربِّه آيةً تدلُّ على وقتِ حصولِ البِشارةِ.

وتختلفُ الآيتانِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ذُكِرَتِ اللَّيالي هنا، وذُكِرَتِ الأيّامُ في آلِ عمرانَ، فدلَّ التَّنصيصُ على الوقتيْنِ على أنَّ المنعَ مِنَ الكلامِ استمرَّ به ثلاثةَ أيّامٍ وليالِيَهنَّ؛ حتَّى لا يقعَ احتمالُ أنْ يكونَ المنعُ في اللَّيالي دونَ الأيّامِ، أوِ الأيّامِ دونَ اللَّيالي[1]، وكذا في آيةِ آلِ عمرانَ ذُكِرَتِ الأيّامُ لتناسبَ قولَهُ: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾؛ لأنَّ الرَّمزَ ما يُفهِمُ المقصودَ دونَ نُطْقٍ، كالإشارةِ بالعينِ واليدِ أو بالشَّفَتينِ، وذلكَ إنَّما يُدرَكُ بالعينِ، فيناسبُهُ ذكرُ النَّهارِ الَّذي يُمكِنُ فيه الإبصارُ، ولمّا لم يُذكَرِ الرَّمزُ في آيةِ مريمَ ذُكِرَ فيها اللَّيلُ[2].

وقيلَ: إنَّ هذه السّورةَ مكّيَّةٌ سابقةُ النُّزولِ، وتلكَ مدنيَّةٌ، واللَّيالي عندَهم سابقةٌ على الأيّامِ؛ لأنَّ شهورَهم وسِنيَّهم قَمَريَّةٌ تُعرَفُ بالأهلَّةِ، ولذلكَ اعتبروها في التّاريخِ، فأُعطيَ السّابقُ للسّابقِ[3].

وقيلَ: لمّا بُدِئَتْ سورةُ مريمَ عليها السلام بذكرِ الرَّحمةِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، وكانَ اللَّيلُ مَحَلَّ تنزُّلِ الرَّحَماتِ، وإجابةِ الدَّعَواتِ، وإعطاءِ المَسائلِ والهِباتِ - قيلَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ﴾[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةُ والعلامةُ:

فرَّقَ العسكريُّ بينَ العلامةِ والآيةِ: بأنَّ الآيةَ هي العلامةُ الثّابتةُ، مِنْ قولِكَ: تأيَّيتُ بالمكانِ، إذا تحبَّستَ بهِ[5]، وأمّا علامةُ الشَّيءِ فهي ما يَعرِفُ به المُعلِمُ لهُ ومَنْ شاركَهُ في

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 7، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 73.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل، ص: 81.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 147، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 87.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 177.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 368.

معرفتِه دونَ كلِّ واحدٍ؛ كالحَجَرِ تجعلُه علامةً لدفينٍ تدفنُه، فيكونُ دلالةً لكَ دونَ غيرِكَ، ولا يُمكِنُ غيرَكَ أنْ يستدلَّ به عليه إلّا إذا وافقتَهُ على ذلكَ[1].

ورُدَّ بأنَّ قولَهُ: إنَّ الآيةَ هي العلامةُ الثّابتةُ فيه نظرٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾، فقد جعلَ هذه الآيةَ مُؤقَّتةً بثلاثِ ليالٍ.

والظّاهرُ أنَّ الآيةَ ما فيه عِبْرَةٌ وعِظَةٌ، ولذلكَ تُطلَقُ على ما كانَ فيه دلالةٌ على وجودِ اللهِ وقُدرتِه ونحوِ ذلكَ، وقد سمَّى اللهُ تعالى ناقةَ صالح آيةً في قولِه ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، وقالَ في معرضِ الدَّعوةِ إلى التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الجاثية: 3].

وتعريفُ العسكريِّ العلامةَ بأنَّها لا يعلمُها إلا مَنْ وضعَها فيه نظرٌ أيضًا؛ لأنَّ العلامةَ ما يسترشدُ به كلُّ مُسترشِدٍ، كالجبالِ والنُّجومِ، قالَ تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: 15 - 16][2].

ويمكنُ توجيهُ كلامِ العسكريِّ بأنَّ بعضَ العلاماتِ يكونُ اصطلاحيًّا، فتكونُ المعرفةُ به خاصَّةً بمَنْ اصطلحَ عليهِ.

الآيةُ تُستعمَلُ كثيرًا في سياقِ العِبْرةِ والعِظَةِ ونحوِ ذلكَ، والعلامةُ على التَّمييزِ مطلقًا

الكلامُ والقولُ والنُّطْقُ:

الكلامُ: هو ما كانَ مُكتفيًا بنفسِه، وهو الجملةُ، والقولُ: ما لم يكنْ مُكتفيًا بنفسِه، وهو الجزءُ مِنَ الجملةِ، بدليلِ إجماعِ النّاسِ على أنْ يقولوا: القرآنُ كلامُ اللهِ، ولا يقولوا: القرآنُ قولُ اللهِ، ثمَّ إنَّهم قد يتوسَّعونَ فيضَعونَ كلَّ واحدٍ منهما موضعَ الآخرِ[3].

الكلامُ أخصُّ مِنَ القولِ والنُّطْقِ، والقولُ ما لم يكتفِ بنفسِه، والنُّطقُ صوتٌ مفهومٌ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 22 - 23.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (كلم).

وأمّا النُّطْقُ: فهو الأصواتُ المُقطَّعةُ الَّتي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتفهمُها الآذانُ، ولا يكادُ يقالُ إلّا للإنسانِ، ولا يقالُ لغيرِه إلّا على سبيلِ التَّبَعِ، نحوُ: النّاطقِ والصّامتِ، فيرادُ بالنّاطقِ ما لهُ صوتٌ منَ الإنسانِ وغيرِه، وبالصّامتِ ما لا صوتَ لهُ، ولا يقالُ للحيوانِ: ناطقٌ إلّا مُقيَّدًا أو على سبيلِ التَّشبيهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: 16] معناهُ: أنَّ اللّهَ علَّمَنا منْ أصواتِ الطَّيرِ ما تقولُ، وإنْ لم تَنطِقْ بنُطْقِ البشرِ، فسمَّى سليمانُ ﵇ أصواتَ الطَّيرِ نُطْقًا اعتبارًا بفهمِه عنها، فمَنْ فهِمَ منْ شيءٍ فهو ناطقٌ بالنِّسبةِ إليه، وإنْ كانَ صامتًا بالنِّسبةِ إلى غيرِه(1).

والظّاهرُ أنَّ الكلامَ أخصُّ منَ القولِ والنُّطقِ، فالنُّطْقُ يقالُ للأصواتِ المُفهِمةِ، والقولُ ما لم يكنْ مُكتفيًا بنفسِه، وهو جزءُ الجملةِ، والكلامُ ما كانَ مُكتفيًا بنفسِه، وهو الجملةُ.

النّاسُ والإنسُ:

فُرِّقَ بينَ النّاسِ والإنسِ منْ أوجهٍ:

الإنسُ جنسٌ مقابلٌ لجنسِ الجنِّ ومُقترِنٌ به دائمًا، والنّاسُ اقترنَ بالجِنَّةِ في ثلاثةِ مواضعَ فقطْ

أحدُها: سُمّيَ الإنسُ بذلكَ؛ لأنَّهُ يُؤنَسُ بهِم لظُهورِهم، بخلافِ الجِنِّ، فإنَّهُ يُستوحَشُ بهِم لاستتارِهم، أمّا النّاسُ فقد سُمّوا بذلكَ لحركتِهم في الخيرِ والشَّرِّ.

الثّاني: أنَّ الإنسَ كلَّما ذُكِروا يُرادُ بهِم دائمًا الجنسُ المقابلُ لجنسِ الجِنِّ، أمّا النّاسُ فقد يرادُ بهِم جميعُ النّاسِ أو بعضُهم إلى الواحدِ منهُم بحسَبِ السّياقِ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]، وقولِه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ﴾ [النساء: 54]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 173].

---

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نطق).

الثّالثُ: اقترنَ ذكرُ الإنسِ بذكرِ الجنِّ في كلِّ مواضعِ ورودِه في القرآنِ الكريمِ، نحوُ قولِه ﷻ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 130]، وقولِه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: 38]، وقولِه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: 17]، ولم يقترنْ ذكرُ النّاسِ بالجنِّ، بل اقترنَ بالجِنَّةِ بمعنى الجنِّ في ثلاثةِ مواضعَ فقطْ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ [هود: 119]، وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13]، وقولُهُ: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 6][1].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 213 - 216.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]

شكرُ الواهبِ بعدَ تحقُّقِ حصولِ الموهوبِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

لّما تأكَّدَ مجيءُ الولدِ الموهوبِ كانَ التَّسبيحُ هو شكرَ اللّه تعالى، وكانَ ذلكَ مِنْ زكريّا ﷺ ومِنْ قومِه؛ لأنَّهُ سيكونُ لهم وليًّا بعدَ زكريّا ﷺ، ولذا قالَ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَرَجَ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[2]، ويقال: خَرَجَ خُروجًا، أي: بَرَزَ مِنْ مَقَرِّه أو حالِه، سواءٌ كانَ مَقَرُّهُ دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءٌ كانَ بنفسِه أو بأسبابِه الخارجةِ عنهُ، قالَ تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقالَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [المائدة: 37]، ويقالُ في التَّكوينِ الَّذي هو مِنْ فعلِ الباري تعالى، نحوُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53][3]، ومعنى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾: بَرَزَ منهُ[4].

2) ﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾: مِحرابُ المسجدِ قيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ موضعُ محاربةِ الشَّيطانِ والهوى، وقيلَ: سُمّيَ بذلكَ لكونِ حقِّ الإنسانِ فيه أنْ يكونَ مسلوبًا مِنْ أشغالِ الدُّنيا، وقيلَ: الأصلُ فيه أنَّ مِحرابَ البيتِ صَدْرُ المجلسِ، ثمَّ اتُّخِذَتِ المساجدُ، فسُمّيَ صَدْرُهُ به، وقيلَ: المِحْرابُ أصلُهُ في المَسْجِدِ، وسُمّيَ صدرُ البيتِ مِحْرابًا؛ تشبيهًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4616.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خرج).
(4) مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 342.

بِمِحْرابِ المَسْجِدِ[1]، والمِحْرابُ في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ معناهُ: بيتٌ أو مُحْتَجَرٌ يُخصَّصُ للعِبادةِ الخاصَّةِ[2].

3) ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخفاءٍ أو غيرِه إلى غيرِكَ[3]، وذلكَ يكونُ بالكلامِ على سبيلِ الرَّمزِ والتَّعريضِ، وقد يكونُ بصوتٍ لا تركيبَ فيه، وقد يكونُ بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ، وبالكتابةِ، ويقالُ للكلمةِ الإلهيَّةِ الَّتي تُلْقَى إلى أنبيائِه وأوليائِه: وحْيٌ، وذلكَ أنواعٌ كما دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، وذلكَ إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَعُ كلامُه، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةٍ مُعيَّنةٍ، وإمّا بسماعِ كلامٍ مِنْ غيرِ معاينةٍ؛ كسماعِ موسى كلامَ اللّهِ، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهامٍ، نحوُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ، نحوُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: 68]، أو بمَنامٍ[4]، وقيلَ في بيانِ المرادِ بالوَحْيِ في قولِه تعالى عن زكريّا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: إنَّ الوَحْيَ رَمزٌ، وقيلَ: إشارةٌ، وقيلَ: كِتابةٌ[5].

4) ﴿بُكْرَةً﴾: البُكْرةُ: هي أوَّلُ النَّهارِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62]، واشتُقَّ مِنْ لفظِها لفظُ الفعلِ، فقيلَ: بَكَرَ فلانٌ بُكورًا إذا خرجَ بُكْرةً، والبَكورُ: المُبالِغُ في البُكْرةِ، وبَكَرَ في حاجتِه وابتكرَ وباكرَ مُباكَرةً، وتُصوِّرَ منها التَّعجيلُ؛ لتقدُّمِها على سائرِ أوقاتِ النَّهارِ، فقيلَ لكلِّ مُتعجِّلٍ في أمرٍ: بَكَرَ، وإنْ لم يكنْ في ذلكَ الوقتِ، وسُمّيَ أوَّلُ الولدِ بِكْرًا[6].

5) ﴿وَعَشِيًّا﴾: "العينُ والشّينُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ظلامٍ وقلَّةِ وُضوحٍ

(1) الراغب، المفردات: (حرب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 74.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحي).
(4) الراغب، المفردات: (وحي)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 153 - 154، والواحدي، البسيط: 14/ 205.
(6) الراغب، المفردات: (بكر)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بكر).

في الشَّيءِ"[1]، ومِنْ ذلكَ العَشيُّ؛ وهو آخِرُ النَّهارِ[2]، قالَ تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46]، والعِشاءُ؛ وهو مِنْ صلاةِ المغربِ إلى العَتَمةِ، والعِشاءانِ: المغربُ والعَتَمةُ، والعَشا: ظُلْمةٌ تعترضُ في العينِ، يقالُ: رجلٌ أعشى، وامرأةٌ عَشْواءُ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مِنْ حقِّ المُنعِمِ شُكْرُ نعمتِه

بعدَما عرفَ زكريّا عليه السلام آيةَ حصولِ الموهوبِ، وهي امتناعُهُ عن تكليمِ النّاسِ ثلاثَ ليالٍ سَويًّا، خرجَ على قومِه مِنْ مِحْرابِه الَّذي بُشِّرَ فيه بالولدِ، فأعلمَهم إعلامًا خَفيًّا دونَ كلامٍ أنْ يُسبِّحوا بُكْرةً وعَشيًّا؛ موافقةً لهُ فيما أُمِرَ به في هذه الأيّامِ الثَّلاثةِ زيادةً على أعمالِه، وشُكْرًا للّه على ما أَوْلاهُ وأكرمَهُ به[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاءُ لإفادةِ وقوعِ الخروجِ عَقِبَ الإعلامِ مباشرةً

لمّا أخبرَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ زكريّا عليه السلام بآيتِه، وهي أنَّهُ لا يُكلِّمُ النّاسَ ثلاثَ ليالٍ سَويًّا، خرجَ على الإثرِ على قومِه ليطلبَ منهمُ التَّسبيحَ بُكْرةً وعَشيًّا، فالفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ فصيحة، وفيها معنى التَّعقيبِ[5].

بلاغةُ التَّضمينِ:

تضمينُ الخروجِ معنى الطُّلوعِ

ضُمِّنَ الفعلُ ﴿فَخَرَجَ﴾ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ معنى (طَلَعَ)، فعُدّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾، كقولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: 79][6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (عشو).
(3) الراغب، المفردات: (عشو).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 216.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 177.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 74.

وقيلَ: لفظُ ﴿عَلَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: فخرجَ حالَ كونِه مُشرِفًا أو مُستعليًا على قومِهِ[1]، فعلى هذا لا تضمينَ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

ابتداءُ خروجِ زكريّا عليه السلام كانَ مِنَ المِحْرابِ

يظهرُ أنَّ زكريّا عليه السلام كانَ في المِحْرابَ عندَما دعا ربَّهُ فأجابَهُ، وعندَما طلبَ منهُ الآيةَ فبيَّنَها لهُ، ولذا كانَ خروجُهُ مبتدأً مِنَ المِحْرابِ، بدليلِ ﴿مِنَ﴾ الابتدائيَّةِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾[2].

وقيلَ: إنَّهُ خرجَ على قومِه ليُصلّيَ على عادتِه، فكانَ في مِحْرابِه في صلاةٍ خاصَّةٍ ودُعاءٍ خَفيٍّ، ثمَّ خرجَ لصلاةِ الجماعةِ[3]، وعلى الوجهَينِ يدلُّ خروجُه منَ المحرابِ على أنَّه في عبادةٍ واقترابٍ.

نوعُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾:

لـزكريّا عليه السلام مِحرابٌ معهودٌ عند قومه

تدلُّ اللّامُ في ﴿ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ على أنَّ خروجَ زكريّا عليه السلام لإبلاغِ قومِه بالتَّسبيحِ كانَ مِنْ مِحْرابٍ لهُ معهودٍ، وهو المِحْرابُ الَّذي جاءَتْهُ فيه البُشرى بالولدِ مِنَ الرَّبِّ الكريمِ جلَّ وتعظَّمَ[4].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في قولِه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

تسبُّبُ الإيحاءِ عنِ الخروجِ بدلالةِ الفاءِ

الفاءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ أنَّ ما بعدَها - وهو إيحاءُ زكريّا عليه السلام إلى قومِه أنْ يُسبِّحوا بُكْرةً وعَشيًّا شُكْرًا للّه تعالى - مُسبَّبٌ عمّا قبلَها، وهو خروجُهُ المذكورُ مِنَ المِحْرابِ بعدَ مَجيءِ البُشْرى ومعرفتِه بوقتِ تحقُّقِها[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 177، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 201.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4616.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 74.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 107، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 216، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 177.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 201.

سرُّ اختيارِ مُفردةِ الوَحْيِ:

مناسبةُ لفظِ الوَحْيِ للإخبارِ بغيرِ الكلامِ

عُبِّرَ بالوَحْيِ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، ولم يُعبِّرْ بغيرِه، فلم يُقلْ مثلًا: (فقالَ لهُم)؛ لأنَّ الكلامَ كانَ ممتنعًا على زكريّا ﵇ كما دلَّ عليه قولُهُ سبحانَهُ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾، فلا يناسبُهُ إيرادُ القولِ، بلِ المرادُ أنْ يُعرِّفَهم بغيرِ الكلامِ، إمّا بالإشارةِ أو برَمزٍ مخصوصٍ أو بكتابةٍ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ يُفهَمُ منهُ المرادُ، فعَلِموا أنَّهُ قد كانَ ما بُشِّرَ به، فحصلَ لهمُ السُّرورُ كما حصلَ لهُ، فظهرَ لهُم إكرامُ اللّه تعالى لهُ بالإجابةِ[1].

نوعُ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾:

احتمالُ (أَنْ) للمصدريَّةِ والتَّفسيريَّةِ

تحتملُ ﴿أَن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أنْ تكونَ تفسيريَّةً، وجملةُ ﴿سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ تفسيرٌ لـ (أوحى)؛ لأنَّ (أوحى) فيه معنى القولِ دونَ حروفِهِ[2].

ويحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً بتقديرِ الباءِ، أي: فأوحى إليهِم بالتَّسبيحِ بُكرةً وعَشيًّا[3].

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ التَّسبيحِ:

المرادُ بالتَّسبيحِ حقيقتُهُ أوِ الصَّلاةُ مجازًا

اختُلِفَ في معنى التَّسبيحِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾:

فقيلَ: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ، وهو جائزٌ في اللُّغةِ، يقالُ: سُبْحةُ الضُّحى، أي: صلاةُ الضُّحى[4]؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّ الإنعامَ على المتبوعِ المُقتدى به يوجِبُ الشُّكْرَ أيضًا منَ التّابعِ، ولا شُكْرَ فوقَ الصَّلاةِ، فعلى هذا يكونُ التَّسبيحُ مجازًا مرسلًا للصَّلاةِ؛ لاشتمالِها عليهِ[5].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 515.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 7، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 74.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 7، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 391.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 7، والزمخشري، الكشاف: 3/ 7، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 516.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 201، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 391.

وقيلَ: المرادُ بالتَّسبيحِ حقيقتُهُ؛ وهي تنزيهُ اللهِ تعالى، بأنْ يقولوا: (سُبْحانَ اللهِ) ونحوَهُ[1]؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّ مَنْ رأى أمرًا عجيبًا يقولُ: (سبحانَ اللهِ)، وحصولُ الولدِ مِنْ شيخٍ كبيرِ السِّنِّ وعَجوزٍ عاقرٍ مِنَ العجائبِ[2].

والمعنيان مُحتملان، فإنَّ الصّلاةَ واردةٌ في دلالتِها اللُّغويَّة، والتَّسبيحَ واردٌ كذلك في معنى التَّنزيه.

غَرَضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾:

احتمالُ الأمرِ للوجوبِ والإرشادِ

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ للوجوبِ؛ لأنَّ زكريّا ﵇ نبيٌّ، وأمرُهُ لقومِه بالتَّسبيحِ الأصلُ فيه أنْ يُحمَلَ على ظاهرِه، وهو الوجوبُ، ويحتملُ أنْ يكونَ الأمرُ واردًا على سبيلِ التَّعليمِ لهُم والإرشادِ إلى ما به يُؤدّونَ معَهُ شُكْرَ نعمةِ اللهِ سبحانَهُ بالولدِ الَّذي سيكونُ وارثًا للعِلْمِ والنُّبوَّةِ مِنْ بعدِهِ.

نكتةُ حذفِ المفعولِ:

العلمُ بالمفعولِ يُغني عن ذكرِه

حُذِفَ المفعولُ به في قولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (أنْ سبِّحوا اللهَ)؛ للعلمِ بالمفعولِ بهِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ إذا أُطلِقَ لا ينصرفُ لغيرِ اللهِ تعالى، لا سيَّما والمقامُ مقامُ شُكْرٍ لِمَنْ تفضَّلَ بإجابةِ الدُّعاءِ بحصولِ الوليِّ الوارثِ لزكريّا ﵇، وهو اللهُ القادرُ الرَّحيمُ، فاستُغنيَ عن ذكرِ المفعولِ إيجازًا واختصارًا.

بديعُ فنِّ الطِّباقِ في الظُّروف:

الأمرُ بالتَّسبيحِ في وقتَي البُكْرة والعَشيِّ

البُكْرةُ والعَشيُّ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ظرفا زمانٍ للتَّسبيحِ، والمرادُ إيقاعُ التَّسبيحِ في هذينِ الوقتينِ على الخلافِ المذكورِ سابقًا في تفسيرِ التَّسبيحِ[3]، وهما مِنَ الطِّباقِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 7، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 7.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 245، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 201.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 574، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 391.

المرادُ بهما أوقاتٌ مخصوصةٌ أو جميعُ الأوقاتِ

نكتةُ اشتمالِ التَّسبيحِ على الزَّمانِ كلِّه:

إنْ أُريدَ بالتَّسبيحِ في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ الصَّلاةُ مجازًا فالمرادُ بالبُكْرةِ والعَشيِّ وقتُ الصُّبحِ ووقتُ العِشاءِ بعدَ الظُّهرِ، فيعمُّ صلاةَ الظُّهرِ وصلاةَ العصرِ، وإنْ أُريدَ به حقيقتُهُ - وهو التَّنزيهُ - فيجوزُ أنْ يُرادَ بالبُكرةِ والعَشيِّ طرفا النَّهارِ كما هو أصلُ معناهما، ويجوزُ أنْ يُرادَ بهما جميعُ الأوقاتِ(1).

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 201.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الانتقال مِن بيان البشارة إلى بيان النّبوّة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ البشارةَ لزكريا ﵇ بولادة يحيى، وقد جعل اللّهُ له آيةً على ذلك، ووُلد له يحيى، جاءت هذه الآيةُ لاستكمال الحديثِ عن هذا المولود المبارك، وأنّه صار شخصًا سويًّا، يُخاطَب ويُنادَى مِن قِبَل ربّه بأمر النّبوّة، قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، ومن ثم فقد جاءت هذه الآيةُ للانتقال مِن حديث البُشرى إلى بيان النّبوّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾: (قوي) أَصْلٌ يَدُلُّ على شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ، القوَّةُ، والقَويُّ: خِلافُ الضَّعيفِ، وأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القوَى، مِنْ قوَى الحَبْلِ[2]، والقوَّةُ: تستعمل تارةً في معنى القُدْرة، نحو قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً للتّهيّؤ الموجود في الشّيء، والقوّة: الطّاقة مِنَ الحَبْل، وجمعُها قِوًى[3]، والقوّة تُستعمَل في البدن تارةً، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصّلت: 15]، وفي القلب تارةً، نحو قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ أي: بقوّة قَلْب[4]، وتُطْلَق على المُعاوِن مِن خارج، نحو: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: 80]؛ والمعنى: ما أتقوى به مِنَ الجند، وما أتقوَّى به مِنَ المال، والمُراد بالقوّة في الآية: الجِدُّ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 178، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قوا).
(4) الرّاغب، المفردات: (قوى).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.

2) ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾: (حكم) أَصْلٌ يدُلُّ على المَنْع، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ؛ لأَنَّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدّابَّةَ وأَحْكَمتُها، ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفيهَ وأَحْكَمتُهُ، إذا أَخَذْتَ على يَدَيْهِ، والحِكْمَةُ هَذا قِياسُها، لأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهْلِ[1]، والحِكْمَةُ: عِبارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أَفْضَلِ الأَشياءِ بأَفْضَلِ العُلومِ، ويُقالُ لِمَنْ يُحْسِنُ دَقائِقَ الصِّناعاتِ ويُتقِنُها: حَكيمٌ، والحُكْمُ: العِلْمُ والفِقْهُ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، أَي: عِلْمًا وفِقْهًا[2]، والمراد بالحُكْم في الآية الكريمة: الحِكمةُ وفهمُ التّوراةِ، والفقهُ في الدّين[3].

3) ﴿صَبِيّٗا﴾: (صبى) أصلٌ يَدُلُّ على صِغَرِ السِّنِّ، واحِدُ الصِّبْيَةِ والصِّبْيانِ، ورَأَيْتُهُ في صِباهُ، أَيْ: صِغَرِهِ[4]، والصّبيُّ: الغُلامُ[5]، وهو مَن لم يبلغِ الحُلُمَ[6]، الصَّبْوَة: جَهْلَةُ الفُتوَّةِ واللَّهْوِ مِنَ الغَزَل، ومِنْهُ التَّصابي والصِّبا، صَبا صَبْوًا، وصُبوًّا، وصِبًى، وصَباءً، يُقالُ: رَأَيتُه في صِباهُ، أَي: في صِغَرِهِ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـلـــوغُ يحيى وتلقينُه الحِكْمَةَ منذ الصّغر

في هذه الآية يخبر اللّهُ تعالى أنّه لمّا وُلِدَ يحيى عليه السلام، وبلغ مبلغًا يفهم فيه الخطابَ، أمره اللّهُ أن يأخذ التّوراةَ - التي هي نعمة اللّه على بني إسرائيل - بجدٍّ واجتهاد، وحرصٍ على العمل بها؛ بحفظِ ألفاظِها، وفَهْم معانيها، والعملِ بها، وأعطيناه الحكمةَ والفِقهَ في الدّين، والإقبالَ على الخير، وهو صغيرٌ صبيٌّ حديثُ السّنِّ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 259.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبى).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (صبا).
(6) الرّاغب، المفردات: (صبا).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (صبا).
(8) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 38 - 39، وجماعة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 306.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

التّعجيل بمآل التّبشير؛ لإنجاز وعدِ الله

فصَل النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾؛ لأنّها مستأنَفة، وقد طويَ قبلَها جملٌ كثيرةٌ تقتضيها أحداثُ القصّة، وإنّما استأنفَ النّظمُ بهذه الجملة؛ للمسارعة "إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، وهو وجود هذا الغلام المُبَشَّر به، وتعليمُه التّوراةَ التي كانوا يتدارسونها بينَهم، ويَحْكُمُ بها النّبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والرّبانيون والأحبار، وقد كان سِنّهُ إذ ذاكَ صغيرًا، فلهذا نَوّه بذِكْره، وبما أنعم عليه وعلى والِدَيه"[1].

دلالة النّداء في: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾:

التّنبيهُ على خطورة الأمر وأهمّيّته

افْتُتِحَ الخطابُ الإلهيُّ بحرف النّداء عند تكليف يحيى بأخذ الكتاب، في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ لما في حرف النّداء من تنبيهٍ على أهميّة مضمون الخطاب الذي سيُتلَى؛ ليكونَ السّامِعُ في الحالة التي تُناسِب أهميّةَ المَتلوّ، فالمراد مِنَ النّداء التّنبيهُ على خطورة الآتي وأهميّتُه، وفيه إشارةٌ إلى إعلاء قدر يحيى عليه السلام وتشريفِه، وأنّه بلغ مبلغَ الرّشْدِ، واستوت شخصيتُه الإنسانيّةُ، تأهيلًا لأمر النّبوّة، وهذا أمرٌ خارقٌ للعادة.

دلالةُ النّداء باسمه (يحيى):

إعلان لمَحَبّته وتقريبه، وتسليَةٌ لأبيه باستجابة دُعائِه

نادى اللّهُ تعالى يحيى عليه السلام باسمه الذي سَمّاه به في قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم: 7]، وذلك من باب إعلان مَحَبّته وتقريبه عليه السلام، وفيه تسليَةٌ لزكريا عليه السلام باستجابة اللّه تعالى لدُعائه بأن يكون له ولدٌ يَرِث النّبوّة؛ فقال له: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾.

سِرّ التّعبير بالأخذ في: ﴿خُذِ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبير بالأخذ في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 88.

تنبيهًا على أن تكون تعاليمُ الكتاب ثابتةً في سلوك المخاطَبِ

﴿بِقُوَّةٍۖ﴾؛ لأنّ الأخذ هو حَوْزُ الشّيء وتحصيلُه، وهو على نوعين: أخذٌ حِسّيٌّ وأخذٌ معنويٌّ، وهو المُراد هنا، يقال: أخذتُ العِلْمَ عن فُلان؛ لأنّ مَن يعتني بالشّيء يُشْبِهُ آخِذَه[1]، فجاء التّعبير بالأخذ تنبيهًا على أن تكون تعاليمُ الكتاب ثابتةً في سلوك المخاطَب، والمراد: القيام بما في الكتاب كما ينبغي، وذلك بتحصيل مَلَكةٍ تقتضي سهولةَ الإقدام على المأمور به، والإحجام عن المَنهيّ عنه، وفيه دعوةٌ إلى شِدّة الحِرْص على الالتزام بالتّعاليم المَذكورة في التّوراة على وجهها الصّحيح؛ فيُعمَل بما فيها من كلّ النّواحي، في جانب العقائد والأخلاق والحلال والحرام.

دلالةُ الأمرِ في: ﴿خُذِ﴾:

شِدّةُ الحِرْص على تعاليم الكتاب

استعمل النّظمُ الجليل فعلَ الأمر ﴿خُذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ﴾ للدّلالة على وجوب التّفهّم والتّدبّر والتّمسّك بتعاليم الكتاب، كأَخْذِ الشّيء اعتناءً.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

التّوراة، هي كتابهم المعهود

عرّف النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالألِف واللّام، في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ﴾ للدّلالة على العهد، فهو كتابٌ معلومٌ لا يختلط بغيره، وهو التّوراة؛ حيثُ لم يكن في زمان يحيى كتابٌ غيره، كما لم ينزل على يحيى كتابٌ يختصّ به[2]، وممّا يُؤَكّد ذلك أنّ يحيى عليه السلام وُلِدَ قبل عيسى عليه السلام، ولم يكن الإنجيل موجودًا.

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الدّلالة على ثبوت الكتاب شريعةً لبني إسرائيل، مع تَعَدّد الأنبياء والمُرسلين

عبّر القرآنُ الكريمُ بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقل: (خذ التّوراة)، مع أنّها هي المُرادة؛ للدّلالة على ثبوت الكتاب شريعةً لبني إسرائيل، مع تَعَدّد الأنبياء والمُرسلين، ولا سيَّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 75.

وأنّ التّوراة هي كتاب موسى عليه السلام، وللإشارة إلى التّفريق بينَ التّوراة والمواعظ التي كانت عند أنبياء بني إسرائيل.

سِرّ التّعبيرِ بالقوّة:

القـوّة: خِلاف الضّعف، وتأتي بمعنى القُدرة، والشّدّة: الصّلابة، وهي نقيضُ اللّين

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالقوّة في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ دونَ الشّدّة؛ لوجود فرق بينهما؛ فالشّدّة تعني الصّلابةَ، وهي نقيضُ اللّين، وتُستعمَل مبالغةً في وصفِ الشّيء في صلابته، وليس ذلك من قبيل القُدْرة، بخلاف القوّة فهي خِلاف الضّعف، وتستعمَل في معنى القُدرة، وللتّهيّؤ الموجود في الشّيء، وتكون في البدن تارةً وفي القلب أخرى، وفي المعاون مِن خارجٍ تارةً؛ فاستعمالُها في البدن نحو: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصّلت: 15]، وفي القلب نحو: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، وهذا هو المراد هنا؛ لذلك عبّر بالقوّة دونَ الشّدّة التي تؤدّي إلى أخذ الكتاب بجِدٍّ واجتهادٍ، ولا يتأتّى ذلك مِن لفظ الشّدّة[1].

دلالةُ التّعبيرِ بشبه الجملة: ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾:

تَلَبّس يحيى عليه السلام بتعاليم الكتاب، والعمل بما فيه

جاء حرفُ الباء في النَّظم الجليل: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ - وهو هنا دالٌّ على الملابسة - أي: خذ الكتاب أخذًا تلابِسُه القوّة والتّمكّن، بأن يثبت على تعاليم الكتاب وشريعته، ويعملَ بمقتضاها، ويدعو الأُمّةَ إلى اتّباعه؛ إذ إنّ ضَعف الدّين أخذ يتطرّق إلى أُمّة اليهود في ذلك الأوان[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ حفظ التّوراة والعملَ بما فيها مِن مهامِّ أنبياءِ بني إسرائيل.

دلالةُ التّنكير في: ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾:

التّنكير للتّعظيم والتّفخيم؛ ولجَمعِه بين قوّة البدن وقوّة القلب

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بوصف القوّة منكّرًا في قوله تعالى: ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾؛ للدّلالة على تعظيمها وتفخيمها؛ حيث جمعت بين قوّة البدن وقوّة القلب، وهو المناسب في حَقّ الأنبياء عمومًا في الالتزام

(1) الرّاغب، المفردات: (قوى).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 75.

بأوامر اللّه وطاعته، وفي حَقّ يحيى عليه السلام خصوصًا؛ لأنّ الجِدّ وقوّةَ العَزْم في القيام بتعاليم الكتاب يهذّب النّفس ويُزكّيها، والتّهاوُنَ فيها يُضْعِف النّفسَ ويُغويها، والضّعفُ منفيٌّ عنِ الأنبياء والمرسلين؛ لأنّهم يبذلون الجهدَ فوقَ طاقتهم؛ طلبًا لرضا اللّه تعالى.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

الإعلامُ بمغايرة إيتاءِ الحُكم عن أخذ الكتاب

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، على الفعل المحذوف المقدّر بـ (قلنا)[1] في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾، أي قلنا: يا يحيى خذ الكتاب وآتيناه الحكم[2]، والعطفُ بالواو يقتضي المغايرةَ، وهذا يُشير إلى أنّ الحُكم الذي آتاهُ اللّهُ تعالى إيّاهُ ليس الكتابَ أو الأخذَ به، بل هو نعمةٌ أُخرى أنعمَ اللّهُ تعالى بها عليه.

سِرُّ التّعبيرِ بالإيتاء:

الإيتاءُ أدلّ في إيتاء الحُكم مِنَ الإعطاء

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ دونَ الإعطاء؛ لما في الإيتاء مِن قوّةٍ في الدّلالة؛ فهو أقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مُطاوِع يقال: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يقال في الإتيان أتاني فأتيتُ[3]، ويُلْحَظ أنّ الإيتاء يُستعمل في ما كان كثيرًا عظيمَ الشّأن، كقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقد خُصّ دفعُ الصّدقةِ في القرآن بالإيتاء[4]، فآثر النّظمُ الإيتاء هنا؛ لأنّه يتعلّق بأمر عظيم، وهو الحُكم سواءٌ أُريدَ به النّبوّةُ أو الحكمة، فكلاهما أمرٌ عظيم ناسبَه التّعبير بالإتيان.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 392.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).

أمرُ إيتاءِ الحُكمِ ليحيى عليه السلام مُقدّرٌ أزلًا

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم بالفعل الماضي ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ دون المضارع للدّلالة على أنّ أمرَ إيتاءِ الحُكم مُقدّرٌ أزلًا، وما ذكره القرآنُ هنا هو إظهارٌ لما قَدّره اللّهُ في اللّوح المحفوظ.

عَظَمةُ الحُكمِ لعَظَمة مُؤتيه

دلالةُ نونِ العَظَمة في: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

أسند النّظمُ الجليلُ الفعل إلى نون التّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾؛ لأنّ إيتاءَ الحُكم لا يكون إلّا مِنَ اللّه تعالى عظيمِ الشّأنِ، "ولمّا كانتِ النّبوّةُ لا يُستضلَعُ بأمرها، ويُقْوَى على حَملِها، إلّا عندَ استحكام العقلِ ببلوغ الأَشُدّ، وكان التّطويقُ على أمرها قبل ذلك مِنَ العَظَمة بمكانٍ، دَلّ عليه النّون في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ بما لنا مِنَ العَظَمة"[1].

سِرّ التّعبير بـ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾:

آثَرَ النظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالحُكم دونَ الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ﴾؛ لتَعَدّد المُراد بالحُكم؛ حيثُ يُطلَق على الحِكمة وعلى النّبوّة، وعلى الأحكام والمعرفة بها؛ أو لأنّ اللّه أحكم عقلَ يحيى عليه السلام في صباه وأوحى إليه[2].

تعظيم الحُكم وشمولُه

دلالة التّعريفِ في: ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾:

عرّف النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ للدّلالة على جنس الحُكم، وفي ذلك مبالغةٌ في الحِكمة التي أوتيها؛ لأنّها حكمةٌ أُعطيَت له مِنَ اللّه تعالى، وليست مكتسبةً مِن طول حياة، فأعطاه جل جلاله الحِكمةَ كلَّها منذ صِغَره، وهذا مِن تمام الإنعام به على أبويه، فلم يُعطهم سؤالَهم وحسب، بل جعلَه في الغاية القصوى مِنَ الخير والمعرفة وحُسْن الخُلق.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 178.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 583.

دلالة التّعبير بـ: ﴿صَبِيًّا﴾:

نبوغُ الفكر والمعرفة في عُمُر الصّبا بفضلٍ منَ الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليل عن إيتاء يحيى عليه السلام الحُكمَ وهو في عُمُر الصّبا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، دونَ التّعبير بقوله: (صغيرًا)؛ تعجيلًا بإكرامه عليه السلام، لما عَلِم اللّهُ تعالى مِن أنّه سيكون شهيدًا في مقتَبَلِ عُمُرِه، وذلك يقتضي أنّه قد نال بفضل اللّه تعالى عليه الاستقامةَ في الفِكْر، والقوّةَ في إدراك الحقائقِ في عُمُرٍ مُبَكّرٍ على غير المُعتاد[1]، ولما فيه من صفة المَدح؛ بخِلاف لفظ (الصّغير)؛ فقد يُلْمَح منه معنًى لا يتوافق ومقامَ النّبوّة؛ لأنّ الصّغَرَ يقابله الكِبَر.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوّةُ والشِّدَّةُ:

الشّدّةُ صلابةٌ، خِلافُ اللّين، والقوّةُ خِلافُ الضّعف، ومَقرّها البدنُ والقلبُ

الشِّدَّةُ الصَّلابةُ، وهيَ نَقيضُ اللّينِ، وتَكونُ في الجَواهِرِ والأَعراض[2]، وهي في الأَصْل مُبالغَةٌ في وصْف الشَّيْءِ بالصّلابة، ولَيْسَ هوَ من قبيل القُدْرَة؛ ولِهَذا لا يُقال للّه تعالى: شَديد[3] صِفةً مُجَرّدةً، وإلّا فقد ورد في القرآن وصفُ اللّه بشِدّة العقاب، قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: 3].

والقوّةُ: خِلافُ الضّعْفِ[4]، وهي تُستعمَل في البدن تارةً، وفي القَلْب تارةً، ومِنَ الذي في القلب قولُه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ أي: بقوّة قَلْب[5]، فالمُراد بالقوّة في الآية نقيضُ الضّعفِ؛ للدّلالة على الجدِّ والعَزم والاجتهاد، وليس الشّدّةَ نقيضَ اللّينِ، التي تعني: الصّلابةَ.

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أبلغُ منَ الإعطاء مُجرّدًا

النّاظِر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بينَ الإيتاءِ والإعطاء؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 107.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(5) الرّاغب، المفردات: (قوي).

ذلك أنّ الإيتاء يُستعمَل في ما كان كثيرًا عظيمَ الشّأن، كالمُلك والحِكمة، والرّحمة، والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، وقولِه جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87].

أمّا الإعطاءُ فيُستعمَل في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النّجم: 34]، فلم يَرِد العطاءُ دالًّا على الشّيء الكثير إلّا إذا وُجِدَ ما يَدُلّ على ذلك، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، فلِكَون العطاءِ منسوبًا للّه تعالى دلّ ذلك على الكَثرة، وقولِه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، ويُستعمَل العطاءُ في الأمر غيرِ المَحبوب للنّفس، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: 29].

وممّا يُذْكَر في الفرق بينهما ما قالَه الزّركشيُّ: "إنَّ الإتيان أقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع، يقال: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يقال في الإتيان: آتاني فأتيتُ، وإنّما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مُطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه مِنَ الذي لا مُطاوعَ له؛ لأنّك تقول: قطعتُه فانقطع، فيَدُلّ على أنّ فعل الفاعلِ كان موقوفًا على قَبول المَحلّ، لولاه لما ثبتَ المفعول؛ ولهذا يَصِحّ: قطعتُه فما انقطع، ولا يصحّ فيما لا مطاوعَ له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربتُه فانضرب، أو ما انضرب، ولا: قتلتُه فانقتل، أو ما انقتل؛ لأنّ هذه الأفعال إذا صدرت مِنَ الفاعل ثبتَ لها المفعول في المَحلّ، والفاعل مُستَقِلّ بالأفعال التي لا مُطاوِعَ لها، فالإيتاءُ إذًا أقوى مِنَ الإعطاء"(1)، وفي الآية: آثَرَ النّظمُ القرآنيّ التّعبيرَ بالإيتاء، لأنّ إيتاء الحُكمِ مِنَ النّعمِ التي لا تزول بمَرّ الزّمان.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 85.

المحتويات

